مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الأَوَّلُ

من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة

مَوسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الأَوَّلُ

من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة

نُخبةٌ مِنْ عُلَماءِ مَجمَعِ القُرآنِ الكَريمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2023

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن – تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن – سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب – مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة). قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press – Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة
موسوعة التّفسير البلاغيّ

الحمد للّه ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدّين، وبعد:

فإنّ أولى ما تُنفَقُ فيه الأعمار، ويُقضى فيه اللّيلُ والنّهار، ويُضَحّى من أجله بالغالي والنّفيس تلاوةُ كتاب اللّه العزيز الحكيم وتدبُّرُ آياته، والعملُ بأحكامه. ومنذ فجر الإسلام، اجتهد رجالات العلم والتّفسير في خدمة كتاب اللّه تعالى تفسيرًا لآياته، وبيانًا لأحكامه، ووقوفًا عند لطائفه وأسراره. وعلى الرّغم من كثرة التفاسير اللّغويّة والبيانيّة والفقهيّة والكلاميّة وغيرها، إلاّ أنّ النّص القرآنيّ المقدّس يظلُّ خِصبًا غضًّا طريًّا يجود بعطاءاته، ويمنح أسراره للدّارسين والباحثين إلى أن يرث اللّه ﷻ الأرض ومن عليها.

وقد ارتأى قسم الدّراسات والبحوث في مجمع القرآن الكريم بالشارقة أن يَفْتتح مشاريعه العلميّة بموسوعة التّفسير البلاغي للقرآن الكريم مشاركة منه في خدمة الكتاب العزيز.

ولتفادي تكرير ما في بطون الكتب والموسوعات المنشورة في التّفسير وعلوم القرآن الكريم، فقد وضعت الهيئة العلميّة للمشروع جملة من البنود والمفردات والمعايير، واستكتبت طائفة من علماء البلاغة والتفسير، واجتهد الفريق في تحليل النّص القرآني من خلال ذكر وجه المناسبة بين السّورة وسابقتها ولاحقتها، والمناسبة بين الآية وأختها، وبيان المعنى الإجمالي للآية القرآنية، وتقديم شرح موجز لألفاظها، والوقوف عند الفروق المعجميّة فيها، ثمّ معالجة الآية لغويًّا وبلاغيًّا مع الحرص على ذكر المتشابهات اللّفظيّة في مواضع ورودها وتوجيهها، كلّ ذلك بالرّجوع إلى أمّات كتب التفسير والبلاغة

واللّغة مع الحرص على السّهولة واليسر وحسن التّحليل وجودة العبارة في تقديم المادّة للقارئ الكريم.

هذا، ويسعد إدارة مجمع القرآن الكريم بالشّارقة أن تتقدّم بأعظم آيات التّقدير، وأخلص التّحيّات، وترفع أصدق التّبريكات إلى مقام صاحب السّموّ الشّيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسميّ عضو مجلس الاتّحاد حاكم الشارقة بمناسبة صدور الأجزاء الأولى لهذه الموسوعة القرآنيّة المباركة عِرفانًا بفضله، وتثمينًا لما يقدّم سموّه من خدمات جليلة في خدمة القرآن الكريم والتّمكين للّسان العربيّ، داعين له بطول العمر ودوام الصّحّة والتوّفيق في تنفيذ مشروعه الحضاريّ الثقافي الكبير الذي أصحبت الشّارقة عنوانًا مرادفًا له في دنيا العلم والثّقافة والأدب.

ولا يفوتنا أيضًا أن نتوجّه بخالص الشّكر ووافر الثّناء وصادق الدّعاء لجميع العاملين في هذه الموسوعة المباركة مُستَكتَبين ومُحَكّمين وإداريّين، وما التّوفيق إلاّ من عند اللّه تعالى، إنّه نعم المولّى ونعم النّصير، والموفّقُ إلى كلّ خير.

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

قسم الدّراسات والبحوث

مقدّمة المدير العلمي
لمشروع التّفسير البلاغيّ

الدكتور امحمد صافي المستغانمي

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الحمد للّه الذي بنعمته تتمُّ الصّالحات، وتتحقّق الغايات، وتُقضى الحاجات، وصلّى اللّه وسلّم على الكريم النَّجْر، العظيم القَدْر، الرّحمة المُهداة والنّعمة المُسداة سيّدنا محمّد، رسولِ ربّ العالمين، وإمامِ الأوّلين والآخرين، ونجيب المُرسلين، وخاتم النّبيين، وعلى آله وصحبه والتّابعين له بإحسان إلى يوم الدّين، وبعد،

فإنّ القرآنَ الكريمَ هو كتابُ اللّه المبين، ووَحْيُهُ المُعجِز، وحبلُهُ الممدود، وعهدُهُ المعهود، وصراطُهُ المستقيم، ومَحجّتُهُ الوُضْحى، وحُجّتُه الكُبرى، وهو النُّورُ السّاطعُ والبرهانُ القاطع، والحقُّ الصّادع، والعلمُ النّافع، والنَّظمُ الماتع، لا يَخلَقُ على كثرة الرّدّ، ومنه العلومُ والمعارفُ والشَّرائعُ تُستَمَدّ، ولا يبلى على فَرْط التّكرير، وهو مفتاحُ الخير ودليلُ الجنّة، وهو بحرُ العلوم، ومَعدِن الفصاحات، ومَعينُ البلاغات، وديوانُ الحِكَم، وجوهرُ الكلِم، ولا حلاوةَ تُضاهي حلاوةَ تلاوته، ولا لذّةَ تدنو من لذّة ترتيله وقراءته. مَنْ نطقَ به صدق، ومَنْ حكم به عدل، ومن تلاه اهتدى، ومن تعبّد به استراح، ومن تدبّره استنارت بصيرتُه، وأضاءت سريرته، واطمأنّ قلبه، وآمنت نفسُه، وقَرَّ بَلْبالُه، واستقامت أحوالُه، ومَنْ أعرض عنه ضلّ وهوى، وغوى وتردّى، وخُوصِمَ فخُصِم، وحُورِبَ فهُزِمَ وقُصِم.

هو أعظم برهان على نبوّة محمّد ﷺ، أنزله اللّه تعالى بأجزل بيان وأحكم نَظْم،

وأعذب تعبير، واختار له أجملَ الألفاظ وأعتقَها، واصطفى له أمتنَ الأساليب وأوثقَها، حاويًا أشرف المعاني، وأعدل الأوزان والمباني، وأصوبَ الحِكم، وأسمى القِيَم، وأهدى الشّرائع.

عزّت فصاحتُه الفصاحات، وبزَّتْ بلاغته البلاغات، سمِعَه العربُ الفصحاءُ، الأقحاحُ البُلغاء، المصاقعة الأبْيناءُ، فخارت قواهم دون النّسج على منواله، وتضَعْضَعت طاقاتهم دون الاقتدار عن مُساجلته أو مُعارضته. أنزله سبحانه في فترةٍ من الزّمن وقريشٌ تستأسِدُ على العرب ببيانها المشرق وتعبيرها المونق، وأشعارها الجميلة، وأرجازها البديعة، وخُطبها البليغة، ورسائلها الموجزة وأمثالها السّائرة الشّرود حيث كانت أفصح القبائل بيانا، وأعذبهم لسانا، وأعلمهم بفنون القول وأجناس التّعبير.

قلت: وعلى الرّغم من أنّ قريشا كانت معدنَ الفهم، وينبوعَ العِلم، والأنفَ المُقَدّمَ والسَّنامَ الأكرمَ على حدّ تعبير الجاحظ، وعلى الرّغم من أنّها قد بلغت الذّروة العليا والمنزلةَ الأسمى في الكرم والسّخاء، والمرتبة القُصوى في الدّهاء والذّكاء، وتَعَجَّبَ القاصي والدّاني من سياستها وحُسْن تدبيرها، وبُهِتَ العالمُ النِّحْريرُ من إيجازها وتحبيرها، وضَرْبِها المثل الأعلى في الإبانة والتّبيين، والفصاحة والإفصاح إلا أنّها خارت قواها، وفُلَّ عزمُها، وثُلَّ عَرْشُها، وخاب ذكاؤها، واهتزّت أحلامُها، وجثت على رُكَبها مُتعجّبةً مَبْهوتةً مشدوهةً أمام البيان الرّبّاني العظيم، والنّظم القرآنيّ الكريم، بل إنَّ آيات القرآن كانت تقع على أفرادها أشدَّ من رَشْق النّبل، وأقطعَ من بَتْرِ الحُسام الصّارم، وما كان منها إلاّ أن أعرضت ووَلَّتْ، وانسلَّتْ وفرّت، وتقهقرت على عَقِبَيْها وتدلَّتْ، ولسانُ حالها يقول: ما هذا كلامُ بشر، هذا كلامٌ فوق القِوى والقُدَر.

وليس الأمرُ خاصًّا بقريش وحدها، وليس العجزُ مقصورا على قبائل العرب معها، وإنّما العجزُ عن معارضته شأنُ العالمين والنّاسِ أجمعين، وتالله لو اجتمعت اليومَ، والعصرُ عصرُ التكنولوجيا والانفجار المعلوماتي، عقولُ الأبيناء من أبناء العالمين، وتآزرت قرائحُ الفصحاء والبلغاء وتكاتفت من ذات الشّمال وذات اليمين، ما استطاعوا مُجتمعين أن ينسجوا على منواله، أو الدُّنُوَّ من حِماه، أو مضاهاةَ تعبير من تعابيره، أو صَوْغَ آية من آياته أو إحكامَ بناء سورة من سُوَره. كيف وهو مَفْجَرُ العلوم ومَنْبَعُها، ودائرةُ شمسها

ومَطلعُها؟ كيف وهو الكلامُ الشّافي الكافي، والنَّظمُ المُجزِئُ الوافي؟ كيف وهو السّاطعة أنوارُه اللائحةُ أسرارُه؟ كيف وهو المكسُوُّ بأثواب الجلالة، المُزَيَّنُ ببهاء الحكمة، المنزّهُ عن التّناقض، المبرّأُ عن الاختلال، السّامي عن الرّيب، العالي عن الاختلاف؟ كيف وتعبيرُه يُعرَضُ في حُلِيّ البيان، ويُنقشُ في فصّ الزّمان، ويُحفظُ على وجه الدّهر والأيّام؟ كيف ونظمُهُ يَفْضحُ قلائدَ الدُّرّ، ويُكتَبُ بحروف الذّهب وعسجد التّبر في جبهة البيان العربي؟.

هذا، ومنذ أن أشرقت شموسُه، وسطعت أنواره على أرض جزيرة العرب، وعمَّ المعمورةَ ضياؤهُ، ودانَ به المسلمون، وتعبّد به المؤمنون، وانتشر روح إعجازه، سارعت عقولُ العلماء، وتسابقت فُهومُ الفقهاء والمفسّرين إلى مُدارسته وتدبُّره، وتحليل آياته، وتقريب معانيه، وتبسيط دلالات ألفاظه وتعابيره، واستنباط أحكامه. وقد خاض في لُجَج التّفسير بعد عصر النّبوّة جهابذةٌ نحاريرُ، وفطاحلةٌ مغاويرُ في فنون القول والبَصَر بالعربيّة وعلومها، وكتبوا فيه التّفاسير تلو التّفاسير، وزَبَروا الأسفار تِلْوَ الأسفار، والكلُّ يغترفُ من معينه وزلاله ويقولُ: هل من مزيد؟ وهو في كل أحواله ثَرٌّ مِعطاء فيّاضٌ يجودُ بكرائم معانيه ونفائس جواهره ولآليه على وَفْق أنوار قلوب أهل التّفسير واستعداداتها.

وتبعًا لتنوُّع العلوم، وتبايُن أصناف المعارف، وتعدّد المشارب والمذاهب، تنوّعت تفاسيرُ القرآن الكريم، وأدلى كلُّ عالم فيه بدَلْوِه، ووقفَ متدبّرا في آياته ينظر فيها من زاوية تخصّصه وفَهْمِه؛ فجاءت التَّفاسيرُ الأثريّةُ الحافلة بأقوال النّبوّة وآثار الصّحابة والتّابعين، وأشرقت تفاسيرُ الفقه، وتفتّقت من أكمامها أسفارُ التفسير اللّغويّ والبلاغيّ، وازدهرت تفاسير علم الكلام والعقيدة، وضرَبَ كلُّ ذي سهم بسهمه في تلمُّس معانيه وأسراره ودلالات ألفاظه وآياته.

والذي يعنينا في هذه المقدّمة أن نشير إلى أنّ التفسير البلاغيّ ظهر في وقت مُبكِّر مع عبد القاهر الجرجانيّ (471هـ) ببيانه الجزل القويّ، ثمّ الزّمخشريّ الذكيّ الألمعيّ (538هـ)، ثمّ الفخر الرّازي (604هـ)، والقرطبيّ (671هـ)، وابن جُزيّ الكلبيّ (741هـ)، واقتفى آثارهم أبو حيّان الغرناطيّ (745هـ)، وتبعهم النّيسابوريّ (850هـ)، ثمّ توالت جحافلُ أهل التّفسير اللّغويّ تترى إلى أن تسلّمَ رايتَها أبو السّعود العماديّ (951هـ)، والشّيخ زاده (951هـ)، والقونويّ (1195هـ)، والآلوسيّ البغداديّ (1270هـ)، وأشرقت

شمسُه في تحرير العلاّمة محمّد الطاهر بن عاشور التّونسيّ (1973م)، ثم فتوحات وخواطر الشّيخ الشّعراوي (1998م)، وستظلّ أبوابُه مُشرعة، وأنهاره فيّاضة، وعطاءاته مُتجدّدة، ولا غروَ في ذلك ولا عجب وأعظمُ أوصافه ونعوته أنّه قرآن كريم، والكريم لا ينقضي عطاؤه، ولا ينتهي جوده وسخاؤه، ولا تنقشعُ سحائبُ كرمه وإنعامه.

ومهما تحدّثَ في بلاغته ومتانة أسلوبه، وجودة سَبك جمله وعباراته، وإحكام نظمه ورصفه، ودقائقه ولطائفه، وتوجيه متشابهاته، جهابذةُ البلاغة وعباقرةُ البيان، فإنّ زوايا معالجة آياته، والفهوم الجديدة في إبانة روعة نَسجه وجودة نظمه وقوّة تركيبه ستظلّ حاملةً مِشعلَ التّحدّي تقول لأهل اللّغة والبلاغة والتفسير: هل من دارس متدبّر؟ هل من تالٍ مُستبصر؟ هل من مُفسّر غوّاص على لآلئي ودُرري؟

ولو كان النّاسُ اليوم يعرفون فضلَ الاستبانة، ويُدركون مَزيّة التّبيين، لخرّوا أمام فصاحة القرآن سُجّدا وبُكيّا، وما رفعوا رأسا، ولاجتهدوا في التلاوة والتّدبر بُكرةً وعشيّا، مُغترفين من معين معانيه، وصواب أحكامه، وجليل مضامينه، وعظيم قصصه، ولو أنّهم فعلوا، إذن، لوجدوا من برد اليقين ما يُثلج صدورهم، ويُثبّتُ الإيمان في قلوبهم، ويُزيّنُ الآخرةَ في أعينهم ونفوسهم، ولذاقوا من ملذّات السّعادة الإيمانيّة ما لا يُحيط به الوصف، ويعجزُ عنه الصّوغُ والرّصفُ.

لأجل هذه المعاني، وشغفا بهذه الرّؤية، وحرصًا على الانضواء في كوكبة خادمي القرآن الكريم، ارتأى قسمُ البحوث والدّراسات في مجمع القرآن الكريم بالشّارقة أن يفتح مجالا للتّدبّر اللّغويّ والتّحليل البيانيّ، وعزمَ على خوض غمرات التّفسير البلاغيّ مُكلِّفا ثُلّةً من اللّغويّين، مُستعطفًا مُستكتبًا كوكبةً من البلاغيّين والمفسّرين، ورسَمَ لهم منهاجا مُحكما، ومَهْيَعًا قاصِدًا، واضحَ الملامح، جليَّ المعالم، وحثّهم على العمل الدّؤوب وبذل الوُسع في تسليط الأضواء البلاغيّة على نصوص التّنزيل، وحضّهم على الاجتهاد ألاّ ينفلت منهم تطبيقُ أيّ مبحث من مباحث البلاغة في دراسة النّصّ القرآنيّ، وألاّ تفوتهم أيّة زاوية من زوايا الدّرس الأسلوبيّ الحديث، فكان أنْ وَفّقَ الله العليُّ العظيمُ هذه الفرقة الميمونة من أهل العلم فيما نوت وأرادت، وذلّلَ لها الصّعاب، ويسّرَ لها الأسباب، ومهّد لها السّبل، ومنحها التّوفيق، فجاءت هذه الباكورةُ العلميّةُ اللُّغويّةُ التي نحن بصدد التّقديم لها.

وجَرْيا على قاعدة "لا يشكرُ اللّهَ مَنْ لا يشكرُ النّاس"؛ فإنّا لا نملك في هذه المقدّمة إلاّ أن نتوجّه متضرّعين إلى اللّه الجليل، الغفور الرّحيم أن يجزيَ سليلَ المجد الكريم، المنحدر من معدن الشّرف الصّميم، والفرع الباذخ الممتدّ من الأصل الرّاسخ حاكم الشّارقة الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمد القاسمي خيرَ ما يجازي حاكما عن شعبه، ويمنحه من الأجر على إخلاصه لدينه ولرعيّته خير ما يثيب مسؤولا عن أمّته وراعيا عن رعيّته. والمشروع الثقافيُّ العلميّ الحضاريّ الذي أسَّسَ أركانه وأقام بُنيانه الشيخُ سلطان حفظه اللّه ورعاه، ليس بِدْعًا من العمل في آل القاسميّ، وإنّما توارثَ الاهتمامَ بالثقافة والعلم كابرا عن كابر، ويصدقُ فيه قولُ زهير بن أبي سلمى:

وما يكُ من خير أَتَوْهُ فإنّما
تــوارثَهُ آبــاءُ آبــائهــم قَبْلُ
وهل يُنبِتُ الخطِيَّ إلاّ وشيجُهُ
وتُغرَسُ إلاّ في منابتها النّخلُ

ندعو له بالتّوفيق، وطول العمر وبركة العيش وعظيم الأجر؛ لأنّه اجتهد ويجتهد في فعل كلّ خطوة واتّخاذ كلّ إجراء عمليّ، وتبنّي كلّ مشروع يُمكّنُ للّسان العربيّ والقرآن الكريم. وهو في مشاريعه الثقافيّة المتنوّعة الضّاربة بأطنابها في طول البلاد وعرضها له اليدُ الطُّولى واليمينُ السّخيّة السّحّاء، يُغدقُ على أهل العلم ورجال الثّقافة وقرّاء القرآن وجهابذة التفسير ويلتمس منهم العُذر خوفا من التّقصير وخشية من التّقتير، فجزاه اللّه وأكرمه من حاكم هُمام، وعالمٍ مِقدام، ومُربٍّ وراعٍ وداعٍ إلى الخير.

وأيضا لا يسعني في نهاية هذه الفقرات إلاّ أن أذكُرَ بخير الإخوةَ الفضلاء والأماجدَ العلماء الذين أشرفوا على هذا المشروع القرآنيّ المبارك، في إدارة الإشراف العليا وفي مقدّمتهم الشيخ الدكتور المقرئ خليفة الطنيجي رئيس المجمع، والشّيخ الدكتور شيرزاد عبد الرحمن طاهر الأمين العام للمجمع، وسعادة الدكتور عوّاد الخلف مدير الجامعة القاسميّة الذين عِشْتُ معهم الأيّام الأولى من التخطيط والإعداد لهذا المشروع المبارك. كما أتوجّه بالدُّعاء الخالص والثّناء الصّادق لإخوتي علماء البلاغة والتّفسير الذين أبلوا بلاء حسنا، وبذلوا جهدهم، وكدّوا قرائحهم، وأفْنَوْا كثيرا من أوقاتهم خدمةً لكتاب اللّه

تعالى، وأقول لهم: طوبى لكم في الأوّلين، والحُسنى لكم في الآخرين، وأسألك يا ربّنا يا مجيب السّائلين أن تغفر لنا أجمعين، وأن تُغدق علينا من خزائن رحماتك، وفيوضات إحسانك وإنعامك، وإنّا، يا ربّنا، نرفع دعواتنا لاهجين باسمك، مُنكسرين أمام باب عزّك، مُردّدين: اللَّهم أنت أعلم منّا من أنفسنا، ونحن أعلم بأنفسنا من غيرنا، فاجعل هذا العمل خالصا لوجهك الكريم، وتقبّل منّا أجمعين، واغفر لوالدينا وأهالينا وجميع المسلمين، فما الفوزُ إلا فوزُ الآخرة، وإن كنتُ مُقصّرا، ولا إخالُني إلاّ كذلك، وإن كان منّا مُقصّرون، فعفوُك واسع، وبابُ رحمتك أوسع، وإذا كانت سُورةُ الملك كافيةً مانعةً واقيةً مُنجية، فإنّا نشهدك وكفى بك شهيدا أنّ هذا الجمع الكريم العامل في هذه الموسوعة يرجو رضاك، ويشرئبُّ إلى رحماتك، ويبغي جنّاتك بتفسير آياتك، فلا ترُدَّنا يا ربّنا خائبين، وفضلُ جودك يروي العالمين، وبَصِّرْنا يا ربّنا بمواضع التّقصير ووفِّقنا لجَبْرها في قابل الأيّام، وإنّا نلوذ بحماك، ونعوذ بك أن نقول في تفسير كلامك العظيم ما لا يليق، وحَسْبُنا الاجتهاد على وَفق قواعد الشّرع وأصول التّفسير، وأنت الهادي، يا ربّنا، إلى صراطك المستقيم، وما خاب من تعلّق بهُداك، واستمسك بحبلك المتين وقرآنك المبين.

وكتبه الفقير إلى ربّه امحمد صافي المستغانميّ

المدير العلميّ لمشروع التّفسير البلاغيّ

الأحد 25 جمادى الأولى 1444 هـ الموافق لـ 18 ديسمبر 2022م.

المشاركون
في موسوعة التفسير البلاغي

راعي المشروع

صاحب السّمو الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمّد القاسمي

عضو المجلس الأعلى لاتحاد دولة الإمارات العربية المتحدة حاكم إمارة الشارقة

- حفظه الله ورعاه -

مجلس إدارة المشروع

د. خليفة بن مصبّح الطنيجي (رئيس مجمع القرآن الكريم)

د. شيرزاد عبد الرحمن طاهر (أمين عامّ مجمع القرآن الكريم بالشارقة)

د. امحمد صافي المستغانمي (أمين عامّ مجمع اللغة العربية بالشارقة)

أ.د. عوّاد حسين الخلف (مدير الجامعة القاسمية)

اللجنة التنفيذية

د. خليفة بن مصبّح الطنيجي (رئيس مجمع القرآن الكريم)

د. شيرزاد عبد الرحمن طاهر (أمين عامّ مجمع القرآن الكريم بالشارقة والمدير التنفيذي للموسوعة)

د. امحمد صافي المستغانمي (أمين عامّ مجمع اللغة العربية بالشارقة والمدير العلمي للموسوعة)

د. يحيى زكريا توفيق سعيد (رئيس قسم الدراسات والبحوث بمجمع القرآن الكريم)

د. بهاء الدين عادل عرفات دنديس (مساعد المدير العلمي)

لجنة التنسيق والمتابعة

د. يحيى زكريا توفيق سعيد

د. بهاء الدين عادل عرفات دنديس

أ. محمد أحمد بنو

أ. محمد عبد الحميد عبطان

أعضاء اللجنة العلمية

د. امحمد صافي المستغانمي (أمين عام مجمع اللغة العربية بالشارقة والمدير العلمي للموسوعة)

أ.د. المثنى عبد الفتاح محمود (أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة)

أ.د. مبروك زيد الخير (أستاذ التعليم العالي في البلاغة القرآنية في الجزائر)

أ.د. جهاد محمد فيصل نصيرات (أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الأردنية)

أ.د. سامي عبد الفتاح هلال (أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالأزهر الشريف)

د. حازم سعيد حيدر السعيد (مدير مركز البحوث الرقمية بمجمع الملك فهد)

أ.د. وائل محمد قبيسي الشريف (مدير عام تدقيق المصاحف بمكة المكرمة، وأستاذ التفسير وعلوم القرآن بالمسجد الحرام سابقًا)

أ.د. إبراهيم صلاح السيد سليمان الهدهد (أستاذ البلاغة والنقد بالأزهر الشريف، ورئيس جامعة الأزهر سابقاً)

أ.د. محمد إبراهيم شادي (أستاذ اللغة العربية بالأزهر الشريف)

فريق البحث العلمي

د. نصر سعيد عبد المقصود

د. زكرياء توناني

أ.د. مازن عبد الرسول سلمان إبراهيم

أ.د. نشأت علي محمود

د. خير الله فالح وادي الشمري

د. جمال الدين أحمد القادري

د. عبد الرحيم بن عبد الكريم بوقطة

أ.د. عدنان عبد السلام الأسعد

د. عبد الله عبد القادر الطويل

د. محمد عبد ذياب مايل

د. أحمد عامر سلطان الدليمي

د. عادل أمجد صابر الرويني

د. أحمد محمد فريد

أ.د. محمود أحمد الأطرش

د. صلاح ساير فرحان العبيدي

د. عبد الله إبراهيم المغلاج

فريق المراجعة اللغوية

أ. د. حسن أحمد العثمان

أ.د. بن عيسى بطاهر

أ. عبد الستار الشيخ

د. خليل خلف سويحل

د. فاطمة حسن بله

د. أحمد سعد الدين هبهاب

أ. هشام الدّقاق

أ. محمود محمد روحي بويضاني

منهج
موسوعة التّفسير البلاغيّ

التفسير البيانيّ البلاغيّ يقوم على أسس لغويّة ومعايير بيانيّة معروفة لدى أهل التخصّص، وقد حدّدت اللّجنة العلميّة القائمة على هذا المشروع جملة من البنود والمعايير لمنهج هذه الموسوعة تتلخص فيما يأتي:

أولاً: جاءت مفردات المنهج في خمسة مباحث رئيسة:

1) المناسبات:

اعتنت الموسوعة بعلم المناسبات، وكشفت عن جملة من الوشائج والعلاقات بين السُّور والآيات؛ تمثلت في الآتي:

1. ذكر المناسبة بين السّورة وسابقتها في الترتيب المصحفيّ.
2. ذكر المناسبة بين الآية وأختها دونما لجوء إلى التّكلّف في إيجاد المسوّغات.

وأما المناسبة بين الألفاظ المتوالية المتآلفة المتشابهة في المادّة المعجميّة أو المتناظرة في الصّيغ والأبنية أو المناسبة بين الكلمة والجوّ العام للسّورة أو بين الكلمة وأختها أو بين الكلمة والمعنى الإجمالي، وغير ذلك من الأشكال التّعبيريّة التي يُبنى عليه التّناسب؛ فقد جاء تفصيل القول فيها في مبحث الإيضاح اللّغوي والبلاغي للآية موضع الدّراسة.

2) شرح المفردات:

اهتمّت الموسوعة بتقديم شرح لغويّ دقيق وموجز لألفاظ الآية بالرّجوع إلى أمّات المعاجم اللغوية وكتب غريب القرآن والتّفاسير، وذلك من خلال الآتي:

3. سرد المفردات على وفق رتبة ورودها في الآية.
4. ربط المفردة بجذرها، وبيان المعنى الكلّيّ للجذر، من غير إطالة في ذكر وجوه التّصريف، ومن غير استطراد في الألفاظ المأخوذة من الجذر ممّا لا علاقة له بالمفردة الواردة في نص الآية.
5. بيان دلالة المفردة القرآنية في سياق الآية.

أمّا المعالجة البلاغيّة للفظ القرآنيّ فجاء بيانها في مبحث الإيضاح اللّغوي والبلاغي للآية أو في مبحث الفروق المعجمية، ملحوظًا بأيّهما يكون الموضوع ألصق.

3) المعنى الإجمالي:

أوردت الموسوعة تفسيرًا إجماليًا شافيًا للآية موضع الدراسة، باستعمال ألفاظ سهلة ميسّرة مع الحرص على حسن نظم العبارة وقوّتها وإحكام سبكها مع التّوسّط في الشّرح، من غير إسهاب مملّ ولا إيجاز مخلّ، مع حسن ترتيب وجودة عرض؛ وفق الآتي:

1. تحديد الموضوع الذي تعالجه الآية الكريمة.
2. بيان المعنى العامّ الذي تحمله.
3. إيضاح الهداية التي ترشد إليها.
4. إبراز ارتباط المعنى الإجمالي بألفاظ الآية القرآنية.
5. مراعاة اشتمالها على جميع الأفكار والدلالات الواردة في الآية.

4) الإيضاح اللّغويّ والبلاغيّ:

أَوْلَت الموسوعة الجانب اللّغويّ والبلاغيّ عناية فائقة، وأسهبت في التّحليل اللّغوي والبلاغيّ مع التعمّق في المعالجة والاستقصاء، وذلك من خلال الآتي:

1. عرَض الوجوه البلاغيّة في الآية على وفق ورودها.
2. الوقوف عند الدّلالات والإيحاءات الدّقيقة والخفيّة لحروف المعاني، وبيان تغيّر

المعنى بتنوّع الحرف، وإبراز أنَّ كل حرف من حروف المعاني في القرآن الكريم يؤدّي ما لا يؤدّي غيره من دلالات وإيحاءات.

3. التّعرّض للمباحث النّحويّة والصّرفيّة والتّركيز على دلالاتها وإيحاءاتها والجماليّات التي تضفيها على النّصّ.

4. الوقوف عند أثر الأساليب اللّغوية في المعاني، من ذلك: دلالات (أل) التّعريف، وبيان نوعها، وربط ذلك بالمعنى الذي تقدّمه الآية الكريمة، وإبراز دور التّنكير والتّعريف عامّة، ورصد المعاني التي يقدّمها الوصل والفصل، وإبراز مدى ملاءمة أسلوب الإيجاز أو المساواة أو الإطناب للمعنى المراد، وتجلية ائتلاف اللّفظ مع المعنى، والحكمة من استعمال الجمع والإفراد والتّثنية، والتذكير والتأنيث، ودلالات الجملة الاسميّة والفعليّة في الكلام وغير ذلك من مباحث علم المعاني البديعة التي هي من أهمّ وسائل كشف جماليّات النّص القرآني وإحكام رصف آياته.

5. التّوسّل بمباحث علم البيان في تجلية أنواع الاستعارات وجمال التّشبيهات، وروعة التّصوير، ورُواء الأساليب المجازيّة المستعملة في النّصّ.

6. الاهتمام بدراسة نظم الآيات، مع كشف اللّثام عن إحكام النّظم وجودة السّبك وقوّة الأسلوب في العبارة القرآنيّة.

7. ذكرُ الفوائد التي يجنيها القارئ من شتّى الأساليب المستعملة مثل أسلوب الحذف ودوره في تسريع المعنى والاقتصاد في الكمّ اللّفظي، وأسلوب الاستفهام ودوره في التّقرير والإنكار والتّوبيخ وغير ذلك من الأغراض التي تؤديها أنواع الأساليب الإنشائيّة والخبريّة المتنوّعة.

8. الوقوف عند خصائص التّراكيب اللّغوية القرآنيّة والتّعرّض لأسباب توكيد الكلام أو عدم توكيده، ومدى مطابقة التّعبير لمقتضى الحال.

9. إبراز جمال توظيف العُدول ومخالفة مقتضى الظّاهر، وما للإظهار بدل الإضمار من أثر في تحريك المشاعر وترسيخ المفاهيم وتسجيل أوصاف جديدة للفاعل أو المفعول أو المبتدأ أو الخبر أو غير ذلك من أجزاء الجملة.

10. الكشف عن جمال التّضمين ودوره في توسيع الدّلالة مع تحقيق الإيجاز.

11. دراسة ظاهرة ترتيب مكوّنات الجملة، والوقوف عند مسوّغات التّقديم والتّأخير ولطائفه في الجملة القرآنيّة، وبيان الإحكام والإتقان في بنائها.

12. إيضاح تآخي الألفاظ وتناسقها وتناسبها وتعانقها لإبراز المعاني المرادة وتقريبها للتّالين والمستمعين، والإغداق بأسرارها على المتدبّرين.

13. ذكر الوجوه الإعرابيّة المهمّة وبيان تأثيرها في إبراز الدَّلالة، مع تجنّب ذكر وجوه الإعراب المتعدّدة والتّفاصيل الكثيرة التي تثقل كاهل التّفسير.

14. بيان المعاني والدّلالات الأصليّة التي يفيض بها النّصّ، وإيضاح أنّ العناية باللفظ تابعة للعناية بالمعنى خصوصا حين يتعلّقُ الأمر بتوجيه تناسب الفواصل القرآنيّة وانسجامها وتناغمها فيما بينها، والتأكيد على ما يحمله اللفظ من معان دقيقة ودلالات جاء لتمكينها في الأذهان والنّفوس ثمّ هو، قبل ذلك وبعده، متناسق ومنسجم مع جملة الفواصل في السّياق الذي ورد فيه.

15. إبراز جماليّات الفواصل القرآنيّة، وأثر إيقاعها الصّوتي الآسر الخلّاب الجميل في نفس القارئ، وبيان مدى التناسب بين الفاصلة وصدر الآية.

16. التّوقّف عند الظّواهر الصّوتيّة وتجلية بعض دلالاتها وثمراتها في إثراء معاني الآية الكريمة.

17. اعتماد الأسلوب العلميّ الأدبيّ القويّ الرّصين في الكتابة، وذلك بانتقاء اللّفظ الدّقيق المعبّر عن المعنى الصّحيح الذي يرغب المفسر التّعبير عنه، والحرصُ على حسن صوغ العبارة ووضوح المعنى، لما للأسلوب الرّصين القويّ المتين من تأثير على التّالين، وجذب للمستمعين، وتحريك لأذهان الغافلين، والغرض من ذلك كلّه هو تحبيب كلام ربّ العالمين للنّاس أجمعين، وتيسير سبل الاستفادة من هداياته وتوجيهاته.

18. الحرص على بيان مطابقة العبارة القرآنيّة لمقتضى الحال، وتجلية توافق الثّوب

اللّفظي للآية الكريمة مع المعاني الرّبّانيّة السّامية والهدايات الإيمانيّة والدّلالات الشّرعيّة المتوخّاة، وتجنّب ذكر الوجه التّفسيريّ المخالف لأصول التّفسير ولأحكام الشّريعة.

19. اختيار الألوان البلاغيّة الدّالّة على المعاني التّفسيريّة المتوافقة والمنسجمة مع الأثر واللغة، مع إثبات جميع الأوجه التّفسيريّة المقبولة والمحتملة.

20. الحرص على إضافة التأمّلات العميقة والتّخريجات الأنيقة واللّطائف الجميلة التي يفتح بها اللّه الكريم الوهّاب على من يشاء من عباده، وتفضي إلى إبراز مواضع الجمال ومواطن الإعجاز في النّص المُعجز المهيمن شريطة أن لا تتعارض هذه الإضافات واللّطائف والنّظرات الحديثة مع ما هو معلوم من الدّين بالضّرورة، ولا مع روح الشّريعة الإسلاميّة وقواعدها، ولا يتصادمُ شيءٌ منها مع قواعد اللّغة ولا قواعد أصول الفقه ولا ما هو مُسلّم به في علوم الآلة، ولا يُناقضُ الحقائق العلميّة التي توصّل إليها الفكر البشريّ منذ فجر الإنسانيّة إلى السّاعة التي نحن فيها.

21. الوقوف عند أنواع المحسّنات البديعيّة اللفظيّة والمعنويّة التي تكسو النّصّ القرآني، مع ذكر تناسب الفواصل، وجمال الطباق، وتشابه الأطراف، وروعة أسلوب التّرقي في ترتيب المعاني وغير ذلك ممّا يكشفه البحث والتّنقيب والتدبّر في النّسج اللفظي للقرآن الكريم.

22. العناية بذكر المتشابه اللّفظي بين الآيات، وبيان أوجه التلاؤم والتناغم في إيراده، وتوضيح المسوّغات التي اقتضت هذا التّعبير أو ذاك في المقام الذي ورد فيه.

5) الفروق المعجميّة:

اعتنت الموسوعة ببيان الفروق المعجميّة لأهم الألفاظ الواردة في الآية الكريمة ومقارنتها مع مثيلاتها ممّا هو وارد في القرآن الكريم أو مستعمل في اللّغة والأدب بشكل عام، وبيان أنّ كلّ لفظ يعطي معنى خاصّا مغايرا لصنوه، ويوحي بدلالة أو معنى دقيق لا يحمله قسيمه، وإثبات أنّه لا مجال للتّرادف في القرآن الكريم.

❁ ثانيًا: حدودٌ منهجيّة وضوابط عامّة:

1. لم تتعرض الموسوعة لأسباب النّزول أو القراءات أو النّاسخ والمنسوخ أو مباحث الإعراب التفصيليّة، أو بما يُستنبطُ من الآيات من تشريعات وأحكام فقهية، إلا ما كان له أثر وثيق الصلة بالجانب البلاغي.
2. أُثْبِتت الآيات القرآنية بالرّسم العثماني وفق رواية حفص عن عاصم، بحسب نسخة مصحف مجمع الملك فهد للنشر الحاسوبي، وفق العدّ الكوفي.
3. وُضِعت الآية المراد تفسيرها في أعلى الصّفحة.
4. رُوعي في إيراد الآيات موضع الدراسة اتصال معانيها، وكمال وحدتها الموضوعية.
5. قُدِّم بين يدي السورة المراد تفسيرها بتمهيد تعريفي بها تضمن الآتي:

- ذِكْر مكان نزول السّورة المكّي أو المدني، والمختار أنّ ما نزل قبل الهجرة هو من القرآن المكّيّ، وما نزل بعد الهجرة هو من القرآن المدني، وهذا القول هو الرّاجح لدى جمهور علماء التّنزيل.
- ذكر عدد آياتها في العدّ الكوفي والبصري والمكيّ والشّامي وغيره.
- ذكر ترتيبها في المصحف، وترتيبها في النّزول باعتماد أصحّ المصادر في هذا الشّأن.
- ذكر اسم السّورة المأثور مع إيراد الشّواهد الحديثيّة الصّحيحة والآثار المؤيّدة لذلك، وذكر أسماء السّورة إن كانت من السّور المتعدّدة الأسماء.
- تَعداد أهمّ موضوعات السّورة.

6. التّعريف بالمصطلحات البلاغيّة واللّغويّة أو الشّرعيّة وغيرها من المصطلحات في الفنون المعرفيّة الأخرى في أوّل موضع ورود لها في الحاشية.
7. تجنّب ذكر الإسرائيليّات والقصص الموضوعة المُفتراة.
8. توثيق القراءات من مصادرها الأصيلة.
9. تخريج الأحاديث الشريفة من مصادرها الأصيلة.

10. وَضْعُ عنوان تقديميّ لفقرات الإيضاح البلاغي ملخِّصٍ للقضيّة البلاغيّة التي تعالجها، وحُبّر العنوان باللّون الأزرق.

11. وَضْعُ عنوان فرعيّ للعديد من فقرات الموسوعة يبيّن الأثر البلاغيّ المرتقب من الفقرة، وحُبّر العنوان باللّون الأخضر.

وختامًا: فإن الغرض المبتغى والهدف المُتوخّى من هذه الموسوعة البلاغيّة هو إبداء جمال البيان القرآني للعالمين، وتجلية بهاء نسيجه اللّغويّ، وجودة سبكه، وبديع نظمه، وروعة تصويره، وتقريب المسالك البيانيّة التي سلكها البيان القرآني في الإبانة والتّبيين لتوصيل هدايات ربّ العالمين للنّاس أجمعين، وإثبات أنّ العبارة القرآنيّة معجزة بكلماتها، فريدة في بنائها، فذّةٌ في تآلف لبناتها، فائقة الحسن في ترتيبها بين أخواتها في الفقرة القرآنية الواحدة، وقد صيغت لتمكين المعنى في قلب المتلقّي للذّكر، والتّأثير في وجدانه لينطلق في الكون موحّدًا مسبّحًا حامدًا شاكرًا عاملًا بمقتضيات الهدي القرآني، يقول حاله ويلهج لسانه مردّدا: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: 161].

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

قسم الدراسات والبحوث

اللّجنة العلميّة

الجُزْءُ الأَوَّلُ

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

❁ بَيْنَ يَدَيِ السّورَة:

سورة الفاتحة مكِّيَّة عَلَى الصَّحيحِ مِنْ أقوالِ العلماءِ؛ إذ وردت الإِشَارَةُ إلى تقدُّم نُزُول الفاتحةِ في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحِجر: 87]، وسورةُ الحِجْرِ مَكِّيَّة بالاتِّفاق[1]، فدلَّ امتنانُ الله تعالى على رسوله بها في سورة مكية، بأنها مكيَّةُ النزول، ويَبْعُدُ أَنْ يَمْتَنَّ على نبيّه ﷺ بما لَمْ يَنْزِلْ بَعْدُ، ولأنَّ الفاتحةَ ركنٌ في الصَّلاةِ، والصَّلاةُ فُرِضَتْ قبلَ الهجرةِ، ولا يُعْلَمُ في الإسلامِ صَلَاةٌ مِنْ غير فاتحةٍ[2].

عدد آيِ سورة الفاتحة سبعُ آياتٍ بالاتِّفاقِ، والخلاف بَيْنَ العَادِّينَ وقعَ في التَّفصيلِ؛ فالعدُّ المكِّيُّ والكُوفيُّ يَجْعَلانِ البسملةَ آيةً، ويجعلان الآيةَ السَّابعةَ قولَهُ تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

والعَدُّ المدنيُّ الأوَّلُ والأخير، والشَّاميُّ، والبصريُّ لا يَعُدُّون البسملةَ آيةً، ويجعلون الآيةَ السَّادسةَ قولَه تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، والآيةَ السَّابعةَ قولَه: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[3].

والفاتحة أوّلُ سُورَةٍ في ترتيبِ المصحفِ الشَّريفِ، وَهِيَ الخَامِسَةُ نزولًا، نَزَلَتْ بعد سُوَر: العَلَقِ، والقَلَمِ، والمُزَّمِّل، والمُدَّثِّر.

سُمِّيت سورةَ الفاتحةِ؛ لأنهَّا جاءت أولَ سورةٍ في القرآن؛ فهي في فاتحة المصحف كتابةً، وقراءةً: في الصَّلوات وغيرِها.

وللفاتحةِ أسماءٌ كثيرةٌ، بلغ بها السُّيُوطيُّ خَمْسَةً وعشرين اسمًا، بعضُ هذه الأسماء ثابتٌ عَنِ النَّبيِّ ﷺ مرفوعًا، وبعضُهَا يُؤْثَرُ عن بعض الصحابةِ، والتابعين، وأهلِ العلم.

---

(1) أَوْمَأَ إلى هذا الدَّليل جماعة من أهل العلم، منهم ابنُ كثيرٍ في تفسيره: 1/101.

(2) الواحديُّ، أسباب نزول القرآن، ص: 20، والسّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/46.

(3) الدَّانّي، البيان في عَدّ آي القرآن، ص: 139، وعبد الفتاح القاضي، بشير اليُسْر، ص: 66.

مِنْ هَذِهِ الأسماءِ:

كـثرةُ أسـماءِ الفاتحة دليلٌ علـى فَضْلِها وشَـرَفِـهـا بين سُـوَرِ الـقـرآن الكريم

1. فَاتِحَةُ الكِتَابِ: لقول النَّبِيِّ ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»(1).

2. أُمُّ الْكِتَابِ: لقول رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ صَلَاةٍ لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِأُمِّ الكِتَابِ، فَهِيَ خِدَاجٌ»(2).

3. أُمُّ الْقُرْآنِ: لقول نَبِيِّ اللَّه ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ -ثَلَاثًا- غَيْرُ تَمَامٍ»(3).

4. السَّبْعُ الْمَثَانِي.

5. الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ: وقد ورد هذا الاِسْمُ والذي قبله في حديث أَبِي سَعِيد بنِ الـمُعَلَّى رضي الله عنه، فقد قال: كُنْتُ أُصَلِّي فِي الـمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ﴾ [الأنفال: 24]»، ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي القُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الـمَسْجِدِ»، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: «أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي القُرْآنِ»، قَالَ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هِيَ السَّبْعُ الـمَثَانِي، وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»(4).

6. الصَّلَاةُ: لقول النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يرويه عَنْ رَبِّه تبارك وتعالى: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فإِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللّه تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللّه تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا

---

(1) رواه البخاريّ، حديث رقم: (756)، ومسلم، حديث رقم: (394).

(2) اللّفظ لابن مَاجَه، حديث رقم: (840)، وهو صحيح، ينظر: صحيح الجامع، حديث رقم: (4535). ومعنى: صلاة خِداجٌ: ناقصةٌ غيرُ تامّة، وأصل الكلمة خدَجت النّاقةُ: ألقت ولدها وقد استبانَ خلقُه، أي: ألقته قبل وقت ولادته ناقصًا. ابن عبّاد، المحيط في اللغة: (خدج).

(3) اللفظ لمسلم، حديث رقم: (395).

(4) رواه البخاريُّ، حديث رقم: (4474).

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

7. الحَمْدُ: عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأتم ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فاقرؤوا ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وإنها أمُّ القرآن وأمُّ الكتاب والسَّبْعُ المَثَاني، و﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إحداها»[2].

هَذا أقوى ما ورد في أسماء هَذِهِ السُّورة الشَّريفة مِمَّا ثَبَتَ مَرْفُوعًا إلى النَّبِيِّ ﷺ.

ومن أشهر أسمائِها الاجتهاديةِ الرُّقْيَةُ:

ويستأنس لهذا الاسم بحديث أبي سعيد الخدريِّ ﵁ قال: كنَّا في مَسِيرٍ لنا، فنزلنا فجاءت جاريةٌ، فقالت: إنَّ سيِّد الحيِّ سليم، وإنَّ نفَرَنا غَيَبٌ، فهل منكم رَاقٍ؟ فقام معها رجل ما كُنَّا نأْبُنُه برُقْيَة، فرقَاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاةً وسقانا لبناً، فلمَّا رجع قلنا له: كنت تحسِن رقيةً، أو كنت تَرْقي؟ قال: ما رَقَيْتُ إلا بأمِّ الكتاب، قلنا: لا تُحْدِثوا شيئاً حتى نأتي أو نسأل النبي ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «وما كان يدريه أنها رُقْيَةٌ؟ اقسموا واضربوا لي بسهم»[3].

أورد هذا الاسم من المفسِّرين: القُرطبي[4]، وابن كثير[5]، والآلوسي[6].

وذكره الفَيروزابادي[7]، والسُّيوطي[8]، وغيرهما.

وموضوعاتُ هذه السُّورَةِ الكَريمَةِ؛ هي المَقَاصِدُ الكُلِّيَّةُ لِلْقُرآن الكَريم[9]، التي هي في جملتها: توحيدٌ، وَأَخْبَارٌ، وأحكَامٌ[10]، وكلُّها في الفاتِحَةِ.

---

(1) رواه مسلم، حديث رقم: (395).

(2) رواه الدارقطني، حديث رقم: (1190)، وقال الألباني: صحيح. ينظر صحيح الجامع الصغير، حديث رقم: (731)، والسلسلة الصحيحة، حديث رقم: (1183).

(3) رواه البخاري، حديث رقم: (5007)، ومسلم، حديث رقم: (2201)، ومعنى سَليمٌ: لديغٌ لدغته عقرب أو نحوها. نَفَرَنا: رجالَنا. غَيْبٌ: جمع غائب. راقٍ: اسم فاعل من رقى يرقي، إذا عوَّذه بالله تعالى. نأبُنه: نَعْلمه أنه يَرْقي.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/174.

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/152.

(6) الآلوسي، روح المعاني: 1/38.

(7) الفيرزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/129.

(8) السّيوطي، الإتقان: 2/254.

(9) يكاد العلماء يتَّفقون على اشتمال السُّورة على مقاصد القرآن الكريم، والخلافُ بينهم في طريقة التَّعبير عن تلك المقاصد، ويَتْبَعُ ذلك خلافهم في إرجَاعِ آيِ الفاتحة لِمُوَافِقَتِهَا، يُنظر مثلًا: الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/1، والبِقَاعِي، نَظْم الدّرر: 1/133.

(10) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/621.

فاتحة الكتاب لُبُّ لُبابِ القرآن الكريم حيث تَضمَّنت مَقاصِدَه الكُلّيّة التَّوحيد، والأخبار، والأحكام

فالتَّوحيد وَرَدَ بأنواعِهِ الثَّلاثة: الرُّبوبيَّة، والأُلُوهيَّة، والأسماء والصِّفَاتُ، أمَّا الرُّبوبيَّة فَفِي قولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وأمَّا الأُلُوهِيَّةُ فَفِي قَوْلِهِ: ﴿لِلَّهِ﴾، وَ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وأمَّا الأسماءُ والصِّفات فَفِي قولِه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وَ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

والأَخْبَارُ في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فَإِنَّ فيه إخبارًا عَنْ أَصْنَافِ الأُمَمِ كُلِّهم؛ فإنَّ مِنْهُمْ مَنْ عَلِمَ الحقَّ وعَمِل به وَهُمُ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَلِمَ الحقَّ وعدَلَ عَنْهُ وَهُمُ المَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ الحقِّ جَهْلًا وَهُمُ الضَّالُّون.

والأحكَامُ في قوله: ﴿نَعۡبُدُ﴾ وَ﴿نَسۡتَعِينُ﴾.

كَمَا اشتملتِ السُّورة على موضوعاتٍ ترجعُ إلى المَقَاصِدِ الكُلِّيَّةِ الآنِفِ ذِكْرُهَا؛ كإثباتِ النُّبُوَّة، والجزاءِ عَلَى الأعمَالِ بالعَدْلِ، وإثباتِ القَدَر، والتَّوجُّهِ إلى اللّه تعالى بطلبِ الهدايةِ إلى الدين الحق والصراط المستقيم، والتوفيقِ والتثبيتِ على الإيمانِ ونَهْجِ سبيل الصالحين، وتجنُّبِ طريق المغضوب عليهم والضالين، والرَّدِّ على جميع أهل البَاطِل[1].

❁ مُنَاسَبَةُ الِافْتِتَاحِ بِهَذِهِ السُّورَة:

الحَمْدُ صِبغةُ الفاتحة، والثَّناءُ مِحوَرُها، وهذا أنسبُ الأغْراض بأوّلِ سورةٍ يُفتَتَحُ بها القرآنُ الكريم

مضت عادةُ بُلَغَاء العرب عند مخاطبة المُعَظَّمين بافتتاحِهِمُ الْكَلَامَ بالثَّناء عَلَيْهِمْ ووَصْفِهِمْ بالجَميل، وقَد جَرَت هذهِ السُّورةُ على هذا النَّحْوِ؛ فإنَّ أعظمَ مَا فِيهَا هو الثَّناء على اللهِ تَعَالَى، وَلِذَا تُسمَّى هذه السُّورةُ سُورةَ الحمْدِ، لَا لِأَنَّهَا افتُتِحَت به[2] -إِذْ قَد

(1) السّعْدي، تيسير الكريم الرَّحمن ص: 39.

(2) إذا قلنا إنَّ البَسْملة آيةٌ، كما جرى عَلَيْهِ العدُّ المكيُّ وَالكوفيُّ؛ فإنَّها مندرجةٌ في جملةِ الحَمْدِ؛ إذْ إنَّ البسملةَ من أبلغ الثَّناء على اللهِ تعالى، ينظر: النَّوويُّ، المجموع شرح المهذَّب: 1/74.

افْتُتِحَتْ أَرْبَعُ سُوَرٍ أُخْرَى بِهِ-، وإنَّما لِكَوْنِ الحَمْدِ غَالِبًا عَلَيْهَا، "فَسُمِّيَتْ بما غَلَبَ عَلَيْهَا، بخلافِ غَيْرِها"[1].

ولَمَّا كانت هذه السُّورَةُ مشتَمِلَةً على مقاصِدِ القُرآن الكُلِّيَّةِ -كما سبَقَ قريبًا -؛ كانت بمنزلَةِ اللَّفِّ، وسُوَرُ القرآنِ بعدها بِمَنْزِلَةِ النَّشْرِ[2].

ثُمَّ إنَّ اشتمالَها على مقاصدِ القرآن كُلِّه بِطَرِيقِ الرَّمْزِ والإشارَةِ، هُوَ ضَرْبٌ مِنْ ضرُوبِ الافتِتَاحِ الحَسنِ المسمَّى في عُرْفِ البلاغيِّين: بَرَاعَةَ الاسْتِهْلَالِ[3].

---

(1) ابن رَجَب، تفسير سورة الفاتحة، ص: 32.

(2) السُّيُوطِي، تناسق الدُّرر في تناسب السُّور، ص: 61.

واللّفُّ والنّشرُ: ذِكرُ مُتعدّدٍ على التَّفصيل أو الإجمال، ثمّ ذِكرُ ما لكلٍّ من آحاد هذا المتعدّد من غير تعيين، ثقةً بأنَّ السّامعَ يردُّهُ إليه. ينظر: التفتازاني، المطوّل: 4/43.

(3) الطِّيبِي، فُتوح الغَيْب: 1/621.

براعةُ الاستهلال هي أن يكون الابتداءُ حسنًا مُشعِرًا بمقصود الكلام متناسبا معه، وهي أخصُّ من حُسن الابتداء أيضًا، ينظر: التفتازاني، المطوّل: 4/246، والعلوي، الإيجاز، ص: 500.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾ [الفاتحة: 1]

في الشُّروع بالتّسميَة إيماءٌ إلى مُراقَبة الله تعالى، ودَعْوةٌ إلى مَخافته، وإقرارٌ بأنَّ منه الابتداءَ، وإليه المُنتهى

مُنَاسَبَةُ الِافْتِتَاحِ بِهَذِهِ الآيَةِ:

لـمَّا كان من مقاصدِ الفاتحة: معرفةُ الله تعالى مِنْ أجل تحقيق كمَالِ عُبُوديَّتِه، "وكان التزَامُ اسمِه تعالى في كُلِّ حركةٍ وسكُون قائِدًا إلى مراقَبَتِه وداعِيًا إلى مَخَافَتِه واعتقادِ أنَّ مصادرَ الأمورِ ومَوَارِدَها مِنْهُ وَإِلَيْهِ؛ شُرِعَتِ التَّسْمِيةُ أَوَّلَ كُلِّ شيءٍ، فَصُدِّرَت بِهَا الفاتحَةُ"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) الباء في ﴿بِسۡمِ﴾: للاستِعَانةِ، أو المصاحبة والملابسة على وجه التَّبَرُّك، والأوَّلُ: أَقْوَى[2]؛ لكونهِ أدخلَ في التَّعظيم[3]، ولا مانعَ مِنْ حَمْلِ الحرفِ على مَعْنَيَيْهِ المذكورَيْنِ معًا[4]، بل إنَّ هذا أنسبُ ببلاغةِ القرآنِ؛ إِذْ فِيهِ توسيعٌ للدّلالة وتكثيرٌ لمعاني اللَّفظِ الواحِدِ.

2) ﴿بِسۡمِ﴾: مشتقٌّ مِنَ السُّمُوِّ على الصَّحيح[5]، والدَّليل على ذلكَ قَوْلُهم في جمع (اسم): أسماء، وقولُهُم في تصغيره: سُمَيٌّ، والجمعُ والتّصغير يَرُدَّان الكلماتِ إلى أصولها، ولو كان من (الوَسْم)؛ لجُمِعَ على: أوسام، وصُغِّر على: وُسَيْمٍ؛ وهو "ما يُعْرَفُ بِه ذاتُ الشَّيءِ"[6].

(1) البقَاعِي، نَظْمُ الدُّرر: 1/22.

(2) السَّمِين الحلبيُّ، الدُّرّ المصون: 1/14.

والقول بأنَّ الباء للمصاحبةِ أو الملابسة تَبَرُّكًا، اختاره الزَّمخشريُّ، ينظر: الكشَّاف 1/4، وهو قول لا بأسَ به؛ بشرطِ عَدَمِ إرادةِ نفي معونةِ الله لخلقِهِ، واعتقادِ استقلال العبدِ بالفعل، كما يراه المعتزلةُ!

(3) حاشية زَادَه: 1/35.

(4) عند مَن يرى حَمْلَ المشترك على معنَيَيْهِ أو معانيه، وهو قول الجمهور، وهو قول قويٌّ. الشَّوكانيُّ، ينظر: إرشاد الفحول: 1/59.

(5) الخليل، العين: (باب السين والميم و: و ا ي ء)، والجوهريُّ، الصحاح: (سما)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (سمو).

(6) الرّاغب، المفردات: (سما)، وللرَّاغب أيضًا كلامٌ نفيسٌ في معنى الاسم، تأتي الإشارة إليه عند تفسير قولِ الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31].

أمَّا الاسم باعتبار إضافته إلى اللّهِ تعالى؛ فيُراد به: ما دَلَّ على ذاتِ اللّه ﷻ مع صفةِ الكمَالِ القائِمَةِ به[1].

3) ﴿ٱللَّهِ﴾: علَمٌ على المعبودِ بحقٍّ، وهو مشتقٌّ -على الصَّحِيح- وليس جامدًا؛ فإنَّ أسماءَ اللّهِ تعالى أَعْلَامٌ وأوصَافٌ باتِّفاق أهل السُّنَّةِ والجمَاعة[2]، ولَازِمُ ذلك أنَّها مُشْتَقَّةٌ[3]؛ إذِ الجامدُ لا وَصْفَ فيه.

واشتِقَاقُهُ مِنَ الأُلُوهةِ -على المُخْتَارِ-، وأَصْلُه: الإِلَهُ، حُذِفَتْ همزتُهُ تخفيفًا[4]؛ لكثرة دَوَرانه على الأَلْسِنَةِ[5]، وأُدْغِمَتِ اللَّام في مِثْلِها وفُخِّمَتْ تعظيمًا للّه تعالى[6]، وَتَرْقِيقُها بعد كَسْرٍ إِنَّما كان مِنْ أجل الثِّقَلِ المُتَرَتِّبِ على الِانْتِقَال مِنَ الكَسْرِ إلى التفخيم، لَا لِسَلْبِ التَّعظيمِ ههنا، كما لا يَخْفَى.

وَمَعْنَى اسم (اللّه) عَلَمًا -كما قال ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما-: ذُو الألوهِيَّة والعبُودِيَّة على خَلْقِهِ أجمعين[7].

و﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ أَصل كتابته: باسْمِ اللّهِ، بالألف، كَقَوْلِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، وَإِنَّمَا حُذفت الْأَلفُ فِي الْكِتابَة؛ لأنَّها لَا تظهرُ فِي اللَّفْظ، وَقيل: إِنَّمَا حذفت لِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَال تَخْفِيفًا؛ وَلِأَنَّهُ كثر اسْتِعْمَالهَا؛ فاستَخَفُّوا حذفهَا، بِخِلَاف قَوْله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، ونظائره؛ لِأَنَّه لم يَكْثر فيه الِاسْتِعْمَال[8].

4) ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمَان مَنْ أسماء اللّه تعالى، مُشتَقَّان مِنَ الرَّحمة، وبَيْنَهُمَا فرقٌ في المَبْنَى والمعنى.

فأمَّا مِن جهة المَبْنَى؛ فالرَّحْمَنُ على زِنَةِ: فَعْلَان، والرَّحِيم على زِنَة: فَعِيل، والأَوَّلُ على خمسة أحرف، والثَّاني على أربعة.

(1) ابن تيميَّة، الإيمان، ص: 148.
(2) ابن القيِّم، بدائع الفوائد: 1/285.
(3) ابن القيِّم، الكافية الشَّافية، ص: 216.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/125.
(5) الجَوْهَري، الصحاح: (أله).
(6) الفَيُّومِي، المِصباح المنير: (أله).
(7) ابن جرير ابن جرير، جامع البيان: 1/123.
(8) السَّمْعاني، تفسير القرآن: 1/32.

وَيَجْدُرُ التَّنبيهُ إلى أنَّ زنةَ (فَعْلَان) لا تكون إلا لِلمُبَالغةِ، بخلاف (فَعِيل) فتكون لِلمُبَالَغَة وغيرِهَا، وَلِذَا قرَّر جماعةٌ مِنْ أهل العلم أنَّ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أبلغُ مِن ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾[1]؛ لكونِ الأَوَّل على وَزْنٍ هُوَ نَصٌّ في المبالغةِ، ومِنْ جهةِ كثْرَةِ حروفهِ؛ لأنَّ زيادةَ المَبْنَى تَدُلُّ على الزِّيادة في المَعْنَى[2]، ويرى ابن هشام أنّ هَذَا لَيْسَ بِلَازِمٍ[3].

وأمَّا مِنْ جهة المعنى؛ فوقعَ فِيهِ نِزَاعٌ طويلٌ بين أهل العلم، فقيل: "الرَّحمن: اسم خاصٌّ بصِفَةٍ عامَّة، والرَّحيم: اسم عامٌّ بصفَةٍ خاصَّةٍ"[4]، وقيل -وهو الأَقْوَى-: "إنَّ الرَّحمن اسم دالٌّ على الصِّفة القائمة بالذَّات، والرَّحيم اسم دالٌّ على تَعلُّقِ الرَّحمة بالمرحوم"، وقد قال ابْنُ الْقَيِّمِ بَعْدَ ذِكْرِهِ هذا الفَرْقَ: "وهذه نُكْتَةٌ لا تكاد تجِدُها في كتابٍ"[5].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

أبتدئُ قراءةَ القرآنِ الكريم باسم اللّهِ تعالى المعبودِ بالحقِّ، المتّصف بصفات الكمال والجَلال والجمال، المَنْعوت بالرَّحمة الواسعة والدّائمة والوَاصِلَة إلى جميع المَرْحومين، فرحمتُه وسِعَت كلَّ شيء، وعمَّت كلَّ حيٍّ، وكتبها للمتقين المتَّبعين لأنبيائه ورسله؛ فهؤلاء لهم الرحمةُ المطلَقة، ومن عدَاهم فلهم نصيبٌ منها، مُسْتَعِينًا به مُتبَرِّكًا بِذِكْرِهِ[6].

وفي هَذَا تأديبُ اللّه عبادَهُ بإرشادِهِم إلى تَقْدِيم ذِكْرِ اسْمِهِ سُبحانه بَيْنَ يَدَيْ جَمِيعِ أُمُورِهم[7].

في الشّـــــروع بالبسملَة تأديبٌ للعِباد بضَرورة تَقْديم اسْم الله تعالى بَيْنَ يَدَي كلّ أمرٍ

(1) السَّمين، عمدة الحفَّاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 2/80.
(2) ابن جِنِّي، الخصائص: 3/271.
(3) ابن هشام، مغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب، ص: 185.
(4) محمد بن علّي التَّهَانَوِي، موسوعة كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/847، وسيأتي مزيدُ بيانٍ لهذه المسألةِ.
(5) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/24.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 115-1/114، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 39.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 1/114.

۞ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

حُسْنُ الافْتِتَاحِ وَبَرَاعَتُهُ بِالبَدَاءَةِ بِالبَسْمَلَةِ:

يَكْفِي الفاتحةَ حُسنًا وبراعةً افتتاحُها بِذِكْرِ اللهِ تعالَى

مِن مواضع التأنُّقِ في الكلام: طَالِعَتُهُ؛ لِذَا جَرَت عادةُ البلغاء في كلامهم أن يُعنَوا بمُفتتَح الكلام ومَطلَعه؛ لِكَونه أوَّلَ ما يَقعُ في سَمْعِ المُتَلَقِّي، وقدِ افْتُتِحَت هذه السّورةُ الكريمة بـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وَهُوَ افْتِتَاحٌ بَدِيعٌ؛ فيَكْفِيها حُسنا وبراعةً افتتاحُها بِذِكْرِ اللّهِ تعالَى(1).

وَفيهِ - زِيَادَةً على حُسْنِ الافْتِتَاحِ - بَرَاعَةُ الاسْتِهْلَالِ(2)، وهو أخصُّ مِنْ سابقِه؛ ووَجْهُ ذلك: ذِكْرُ اسمَيْنِ من أسماءِ اللّه تعالى - وهما الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ - مُشْتَقَّان مِنَ الرَّحْمَةِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المقصودَ من السُّورَةِ ومِنَ القرآنِ كلِّه: رحمةُ اللّهِ بخَلْقِه؛ بِهِدَايَتِهم إلى ما فيه فَلَاحُهم في الدُّنيا والآخرة، وقد قال رَبُّنا تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: 2].

الإِرْشَادُ وَالتَّعْلِيمُ فِي جُمْلَةِ البَسْمَلَةِ:

الشّروعُ بالبَسملة تعليمٌ للعباد ضرورة ابتداءِ جميع أعمالِهم باسم الله ﷻ

جُملة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ خَبَرِيَّةٌ؛ إِذْ تَقْدِيرُ الكلامِ فِيهَا: بِاسْمِ اللّهِ أَقْرَأُ، أو أبتدِئُ قراءتي باسم اللّه -كما سيأتي قَريبًا - ، وقد خَلَتْ مِنَ المؤكِّدَاتِ، فكانت خَبَرًا ابْتِدَائِيًّا؛ لعدمِ وُجودِ داعٍ للتَّوكيدِ.

ويحتمل أَنْ تَكُونَ جُمْلَةً إِنْشَائِيَّةً، إذا قُدِّر قَبْلَهَا: (قُولُوا) - وهو قولُ جماعة مِنْ أهلِ التَّفسير(3) -، ويكونُ هَذا مِن بَابِ الإِرْشَادِ وَالتَّعْلِيمِ(4)، وأُسْلُوب الأمر يَأْتِي كثيرًا لِهَذَا المَعْنَى.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/54.

(2) بَرَاعَةُ الاسْتِهْلَالِ: «أن يكونَ في طالعة الكلام ما يُشير إلى مقصود المتكلّم من غير تصريحٍ». عبد المتعال الصَّعِيدِي، بغية الإيضاح: 4/134.

(3) محمود بن حمزة الكَرْمَانِّي، غرائب التَّفسير: 1/97، وقد نَسب هذا القولَ إلى جُلِّ المفسِّرين.

(4) ابنُ جرير، جامع البيان: 1/139.

حَرْفُ البَاءِ بَيْنَ الِاحْتِرَاسِ وَالمَجَازِ:

فائدةُ الاحتراس في ذِكر لفظ (اسم) قَبْلَ الجلالة التَّمْييزُ بين التَّيمُّنِ واليَمِين

وقَوْلُه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، سبقَ آنفًا أَنَّ الباءَ فيه: للاستعانةِ، أو الـمُصاحبة والـمُلابسة، على وجه التَّبَرُّك.

فإذا قلنا إنَّها للاستعانة؛ ففي الجملةِ إِطْنَابٌ بزِيَادَةِ (اسْم)، والأَصْلُ: بِاللّه؛ إِذِ الاستعَانَةُ تكونُ بِاللّهِ تعالى لا باسْمِه، وفائدةُ زيادةِ (اسْم): دَفعُ اللَّبْسِ؛ إِذْ لو قيل: (بِاللّهِ) لاحتَمَلَ الكلامُ أَنْ يكونَ قَسَمًا، فجيءَ بـ(اسم) للتَّمْييزِ بين التَّيمُّنِ واليَمِين[1]، فيُمكِنُ إدراجُهُ تحت الِاحْتِرَاسِ[2]؛ لِمَا فِيهِ مِنْ دَفْعِ الإيهَام.

ويَحْتَمِلُ أَنْ لا إِطْنَابَ في الآيةِ؛ إِذِ الاستعانَةُ تكون تارَةً بِاللّه تعالى، وتارةً باسمه، ولِكُلٍّ وَجْهُهُ[3].

من مَعاني الباء الإلصاق، وفيها إيماءٌ إلى شِدّة التِصاقِ العَبْد بربّه

والأَصْلُ في البَاءِ: أَنْ تكونَ للإلصاق، وقد ذكَر ابْنُ هِشَام أنَّ الإلصَاقَ لا يُفَارِقُ الباءَ في جميع تصرُّفاتِهَا في الكَلَام[4]، وعلى هذا فَاسْتِعْمَالُهَا في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ لمعنى الاستعانةِ يَكُونُ من باب الاسْتِعَارَةِ المَكْنِيَّةِ التَّبَعِيَّةِ[5].

فأمَّا كونُها مَكْنِيَّةً؛ فَلِأَنَّه "شُبِّهَ الارتبَاطُ على وجه الاستعانة بالارتباط على وجه الإلصاق، بِجَامعِ مُطْلَقِ الارتِبَاط في كُلٍّ، فسَرَى التّشبيهُ للجُزْئِيَّات، فَاسْتُعِيرَتِ البَاءُ الموضوعَةُ للإلصاق الجُزْئِيِّ للاستعانة الجُزئِيَّة على طريق الاسْتِعَارَةِ التَّبَعِيَّةِ"[6].

وأمَّا كونُهَا تَبَعِيَّةً؛ فلأنَّ استعارَةَ الحُرُوف كذلك[7]؛ إِذْ إنَّها تجري في مُتَعَلَّقات معانيها أَوَّلًا ثُمَّ تَسْرِي فِيهَا ثَانِيًا[8].

---

(1) الواحِديُّ، التَّفسير البسيط: 1/443.

(2) الاحتراس: «أن يأتي المتكلّمُ بمعنى يتوجّهُ عليه فيه دخلٌ وطعنٌ، فيفطن له، فيأتي بما يزيل ذلك الوهَم ويخلّصُهُ منه». ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير: 2/245، والقزويني، الإيضاح، ص: 192.

(3) توجيه ذلك عند: أبي السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 10-1/9.

(4) ابنُ هِشَام، مغني اللَّبيب، ص: 137.

(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/10.

(6) الدّسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 1/17.

(7) الشُّبْكي، عروس الأفراح: 2/172.

(8) السَّكَّاكي، مفتاح العلوم، ص: 380.

ويحتَمِل أن يكونَ الإتيانُ بالباء مِنْ باب المَجَازِ المُرْسَلِ، عَلَاقَتُهُ: الْإِطْلَاقُ وَالتَّقْيِيدُ؛ ووَجْهُ ذلك أَنَّ البَاءَ لِارْتِبَاطٍ مُقَيَّدٍ بالإلصَاقِ، فأطْلِقَ عَنِ القَيْدِ، "واسْتُعْمِلَت في الارتِبَاط على وَجْهِ الاسْتِعَانَة"[1].

من معاني الإضافة أقرأ مُسْتَعِينًا بذِكْرِ كُلِّ اسمٍ مِنْ أسماء الله تعالى

إيجازُ القِصَرِ فِي إِضَافَةِ الْعُمُومِ إلى الخُصوصِ:

في قَوْلِه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾: إضافةُ العَامِّ -وهو (اسم)- إلى الخَاصِّ -وهو اسم (الله)-، وهذا: إيجَازُ قِصَرٍ[2]، وهو دالٌّ على العُمومِ؛ أي: أقرأ مُسْتَعِينًا أو مُتَبَرِّكًا بذِكْرِ كُلِّ اسْمٍ مِنْ أسماء الله تعالى[3].

إيجَازُ الحَذْفِ فِي البَسْمَلَةِ:

كلُّ شارعٍ في أمرٍ يُضْمِرُ مَا جُعِلَت البسملةُ مَبْدَأً له

قولُهُ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾: شبه جملة تفتقرُ إلى متعلَّقٍ، وهو هَهُنَا محذوفٌ، ففيه إيجَازٌ بالحَذْفِ، وَتَعْيِينُ المحذوفِ يكون بِحَسَبِ السِّياقِ؛ إِذْ كلُّ شارعٍ في أمرٍ يُضْمِرُ مَا جُعِلَت البسملةُ مَبْدَأً له، وتقديرُهُ في الآيةِ الكريمَةِ: بِاسْمِ اللهِ أَقْرَأُ؛ لأنَّ الذي يَلِي التسمية ممَّا يُقْرَأُ[4].

دلالة المُتعلِّقِ المَحْذُوفِ عَلَى القَصْرِ وَالتَّجَدُّدِ الِاسْتِمْرَارِيِّ:

تقديرُ الفعل المُضارِعِ أَنْسَبُ في إفادة تَجَدُّدِ القراءةِ

تقديرُ متعلَّقِ البسملة فِعْلًا (بِاسْمِ اللهِ أَقْرَأُ) أَوْلَى من تقديره اسمًا (بِاسْمِ اللهِ قِرَاءَتِي)؛ لأنَّ الأصلَ في العملِ للأفعال، ولأنَّ الفعلَ المضارع يُفيد التجدُّدَ الاسْتِمْرَارِيَّ، وهو أَنْسَبُ لِتَجَدُّدِ القراءةِ ونحوها.

تقديرُ الفعل المضارع مُتأخِّرًا (باسم الله أقرأ) لئلاّ يتقدَّمَ على اسم الله شيءٌ

والمُتَعَلَّقُ المذكورُ إمّا أَنْ يُقَدَّرَ مُؤَخَّرًا، ويدلُّ ذلك على الاهتمام باسم الله تعالى لِئَلَّا يتقدَّمَ عليه شيءٌ؛ فإنَّ المقامَ مقامُ استعانةٍ بِهِ سُبحانَه[5]، ولأنَّ في تأخيرِهِ إفادةً للقَصْرِ؛ إِذْ تقديمُ ما حَقُّه التَّأْخِير يفيدُهُ.

(1) الدّسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 1/17.
(2) إيجازُ القِصَر هو: أنْ يُبنَى الكَلامُ على تقليلِ اللَّفظِ وتكثيرِ المعنى مِنْ غَيْرِ حَذْفٍ، ينظر: الرُّمَّاني، النكتُ في إعجازِ القُرآن، ص: 76.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 39.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/2.
(5) الزّمخشريّ، الكشاف: 1/3، والدّسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 1/17.

وإمّا أن يُذْكَرَ المتعلَّقُ مقدَّمًا مثل في قولِهِ تَعَالَى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العَلَق: 1]؛ لأنَّ المقامَ مقامُ قراءةٍ؛ فكان الأمرُ بها أهمَّ[1]، والبلاغةُ تَقْتَضِي تقديمَ الأهمِّ ومطابقة الكلام لمُقتضى الحالِ.

وَحَذْفُ المتعلَّقِ يجوزُ أن يكونَ مَجَازًا بِالْحَذْفِ عند مَنْ يرى أنَّ الحذفَ مَجَازٌ مُطلقًا، بخلاف مَن يَرَى أنَّ الحذف ليس مَجَازًا مطلقا أو يَرَى أنَّهُ مجازٌ إذا تغيَّر إعرابُ باقي الكلام بِسَبَبِه؛ فإنَّه ليس مَجَازًا عند هؤلاءِ[2].

المَدْحُ بِالوَصْفِ:

فائدة ذكْرِ الاسمين الجليلين المَدْحُ والثَّناءُ لا التّوضيحُ

قولُه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتان للاسم الأَحْسَنِ الأكمل الأجلّ ﴿ٱللَّهِ﴾، وفائدةُ الوصفِ هَهُنَا: المَدْحُ لا التَّوْضيحُ؛ إذِ الموصوفُ مُتَعَيِّنٌ قبلَ الوصفِ[3].

أَبْلَغِيَّةُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عَلَى ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، وَجَمْعُهُمَا لِلتَّوْكِيدِ:

قُدِّمَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لأسبابٍ بيانيَّةٍ:

أولاً: لكونِ صفةِ الرَّحمنِ أبلغَ، ولأنَّها مُخْتَصَّةٌ باللّه تعالى، فكانتْ جاريةً مَجْرَى الأعلامِ[4]، فقُدِّمَتْ على ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، والجَمْعُ بين الصِّفَتَيْنِ: ضَرْبٌ من ضُرُوبِ التَّوكيدِ؛ بالنَّظرِ إلى اشتمال الِاسْمَين على مُطْلَقِ صِفَةِ الرَّحمةِ.

الجَمْعُ بين الصِّفَتَيْنِ (الرّحمن الرّحيم) ضَرْبٌ مِن ضُرُوبِ التّوكيدِ؛ بالنَّظرِ إلى اشتمال الِاسْمَين على مُطْلَقِ الرَّحمةِ

ثانياً: لفظُ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ يُفيدُ كثرةَ تَعَلُّقِ الرَّحمة بالمرحوم على وجه المُبالغة، أمَّا ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فلفظٌ خاصٌّ بالاتّصاف الذّاتي، وما كان خاصًّا بالاتِّصاف الذّاتي أولى بالتَّقديم من الصِّفة الدَّالَّة على كَثْرةِ تعلُّقاتها.

ثالثاً: ما وَجَّهَ به الإمامُ النَّيسابوري في غرائبه حيثُ قال: "قدَّمَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ وهُو الأَعلى على ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، والعادةُ التَّدرُّجُ من الأدنى

(1) القِنَّوْجِيّ، فتح البيان: 1/40.
(2) الدُّسوقِي، حاشية على مختصر المعاني: 1/4.
(3) الصَّعِيدي، بغية الإيضاح: 1/99.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/27.

إلى الأعلى؛ لأنَّ الرَّحمنَ يتناولُ عَظائمَ النِّعم وأُصولَها، فإردافُهُ بالرَّحيمِ كالتَّتِمَّةِ لِيتناوَلَ ما دَقَّ منه ولَطُفَ" [1].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّحْمَن وَالرَّحِيم:

الرّحمنُ يُفيدُ المُبالغةَ في الاتِّصافِ بالرَّحْمَةِ، والرَّحيمُ يُفيدُ دَوامَها

بَيْنَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فروقٌ من جهة المبنى والمعنى سبق ذِكرُ بعضٍ منها، نُجملها فيما يأتي:

أولًا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: على وزن فَعلان، وزن يفيد المبالغة في الاتّصاف بالرّحمة، وصيغة (فَعلان) تدلُّ على الصِّفة العارضة، ولا تدلُّ على الصِّفة الدَّائمة، فاحتيجَ إلى صِيغةٍ أُخرى تَدلُّ على الصِّفة الثَّابتة، وهي صِيغةُ (فَعِيلٍ)؛ من هنا حَسُنَ الجمعُ بين الاسمين الكريمين بالصِّيغتين المُختلفتين.

الرَّحمن اسمٌ مُختَصٌّ بالله تعالى لا يجوزُ أن يَتَسَمَّى به غَيْرُهُ، والرَّحيم اسم عامٌّ بصفة خاصَّة

ثانيًا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: اسم خاصٌّ بصفة عامَّة، ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: اسم عامٌّ بصفة خاصَّة[2]، فـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ اسم مختصٌّ باللّٰهِ تعالى لا يجوز أن يَتَسَمَّى غَيْرُهُ به، وهو مشتمِل على صفةٍ عامَّةٍ؛ إذ معناه: المُتَّصِف بالرَّحمة العامّة التي تَعُمُّ المؤمنَ والكافر، بخلاف ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فهو اسم عامٌّ، يُطلق على اللّٰهِ ويُطلق على غَيْرِه -مَعَ التَّبايُنِ في حقيقة الصِّفة عند التَّخْصيص والإضافة-، وهو مشتمل على صفة خاصَّة؛ إذ معناه: المُتَّصِفُ بالرَّحمة الخاصَّة بالمؤمنين؛ لقولِه: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأَحۡزَابِ: 43]، ووجهُ الدّلالة: أنَّه قُدِّم الجارُّ والمجرورُ وحقُّهما التَّأخيرُ، فأفاد ذلك القصرَ، وفي هذا الاستدلالِ نَظَرٌ؛ إذْ ليس كلُّ تقديم لِمَا حَقُّه التَّأخير مُفيدًا للقَصرِ، ويدلُّ على عدم إرادة القَصْرِ هَهُنَا قَوْلُ اللّه تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن

---

(1) النّيسابوري، غرائب القرآن: 1/142.

(2) التَّهانَوي، موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/847.

﴿فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [الإسراء: 66]، والآية عامَّةٌ في الخَلْقِ مُؤْمِنِهم وكَافِرِهم كَما هو ظَاهِرٌ مِنْ سِيَاقِ الآيةِ.

الرَّحمن دالٌّ على الصِّفة القائمة بالذَّات، والرَّحيمُ دالٌّ على تَعَلُّقِ الرَّحمة بالمرحومِ

ثالثًا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دالٌّ على الصِّفة القائمة بالذَّات، والرَّحيم دالٌّ على تَعَلُّقِ الرَّحمة بالمرحوم، وَلِذَا لم يَرِدْ في القرآن قَطُّ: (رَحْمَنٌ بِهِمْ)؛ "فَعُلِمَ أَنَّ (الرَّحمن) هو الموصوف بالرَّحمة، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ هو الرَّاحم بِرَحْمَتِه"[1]، أي: أنَّ الرَّحمن لِلوَصْفِ، والرَّحِيمَ لِلفِعْلِ.

ومن أوائل مَن ذكر هذا الفرقَ أبو عُبَيْدة مَعْمَرُ بن المُثَنَّى؛ إذْ قال: "﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ مجازُهُ: ذو الرَّحمة، وَ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ مجازُهُ: الرَّاحم"[2].

لفظ (الرَّحمن) عربيٌّ مشتقٌّ من الرَّحمة، والقولُ بأنَّهُ عِبْرانِيٌّ ادّعاءٌ وتقوُّلٌ

رابعًا: لفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عربيٌّ مشتقٌّ من الرّحمة، ولا حجّة لمن قال إنّه اسم عبرانيٌّ[3]، وهو ادّعاءٌ مُفْتَقِرٌ إلى دليلٍ واضحٍ قويٍّ سالمٍ مِنَ المُعَارِضِ، وقد ثبت عَنِ العرب استعمالُهم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ في نثرهم[4] وأَشْعَارِهم[5]، وأمَّا إِنْكَارُهُمُ المَحْكِيُّ في سورة الفُرقانِ؛ فهو مُكَابَرَةٌ مِنْهُمْ[6].

الرَّحمَة والرّأفة:

كلمتان متقاربتان في المعنى، إلَّا أنَّ بينهما فرقًا لطيفًا، فبينهما عموم وخصوص مُطْلق؛ فالرأفة خاصة في دفع المكروه عن المرحوم، بينما الرحمة تشمل هذا المعنى وغيره.

فالرأفةُ: رِقَّةٌ تنشأ عند حدوث ضُرٍّ بالمرؤوف به. يقال: (رؤوف رحيم). والرحمةُ: رِقَّةٌ تقتضي الإحسان للمرحوم[7].

(1) ابنُ القيّم، بدائع الفوائد: 1/24.
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/21.
(3) وهو قول ثَعْلَب، الواحديّ. يُنظر: التّفسير البسيط: 1/257.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/482، والجوهري، الصحاح: (رحم).
(5) قال سَلاَمَة بنُ جَنْدَل:
عَجِلْتُمْ عَلَيْنَا عَجْلَتَيْنَا عَلَيْكُمُ***ومَا يَشَأِ الرَّحْمَنُ يَعْقِدْ وَيُطْلِقِ
الأصمعي، الأصمعيّات، ص: 136.
(6) ابْنُ جُزَيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/85.
(7) ابْنُ عاشور، التحرير والتنوير: 10/239.

ويفرق بين الرأفة والرحمة بأنَّ الرّأفة مبالغة في رحمة خاصة، وهي دفع المكروه وإزالة الضرر، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: 2]، أي: لا ترأفوا بهما فترفعوا الجَلْد عنهما، وأمَّا الرحمةُ فإنها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى، ويدخل فيه الإفضال والإنعام[1].

والرّحمة - أيضاً - هي أن يوصِل إليك المسارَّ، والرأفة هي أن يدفع عنك المضارَّ، فالرحمة من باب التزكية، والرأفة من باب التَّخْلية، والرأفة مبالغةٌ في رحمةٍ مخصوصة، هي رفع المكروه وإزالة الضر، فذِكْرُ الرحمةِ بعدها في القرآن مُطَّرداً؛ لتكون أعمَّ وأشمل[2].

والرّأفةُ أشدُّ الرحمةِ، وأبلغ منها، ولذا قدَّمها اللّه تعالى على الرحمة في خمسة مواضع من كتابه الكريم، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: 65]؛ فمناسبة (رَءُوفٌ رَحِيمٌ) تَقْدِيمًا وتأخيرًا أُريد منه أَنَّ التوكيد يكون في الأبلغ في المَعْنى، فَإِذا تقدَّم الأبلغُ في اللَّفْظ كَانَ المَعْنى مُؤَخرًا[3].

(1) الرّازي، التّفسير الكبير: 4/93.

(2) الكفوي، الكليات: 1/742.

(3) الجوهري، الصحاح (رأف)، وأبو هلال العسكري، الفروق اللغوية ص: 196.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة: 2]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا أرشد اللّهُ العبادَ إلَى الافتتاح بِاسْمِه سُبحانه إقرَارًا باسْتِحْقَاقه العبادةَ، وبيانًا لِسَعَةِ رحمتِهِ؛ أَرْشَدَهم إلى حَمْدِهِ ﷻ المُسْتَحَقِّ له والثّناء عليه بما هُو أهلُهُ، فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، "ولَمَّا رأى العبدُ نِعَمَ اللّه تعالى على غَيْرِه واضحةً كما شاهَد آثارَها على نفسه؛ عرف أنَّه تعالى ربُّ الخلائق أجمعين، فقال: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾"[1].

وهذهِ الآيةُ والتي قَبْلَها كلاهُما اشْتملَ على الِاسْمِ الأَحْسَنِ: ﴿ٱللَّهِ﴾، وكلاهما اشتَمَلَ على ذِكْرِ مَحَاسِنِ المعبودِ بحقٍّ، وهُوَ حقيقةُ الحمد -كمَا سَيأْتِي-، فَكِلَاهُمَا مُشْتَمِلٌ على حَمْدِ اللّهِ تعالَى.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾: ضدُّ الذّمِّ[2]، وهو: "الثَّناء باللِّسان على الجميل، سَوَاءٌ تعلَّق بالفضائل كالعلم، أم بالفَوَاضِل كالبرِّ"[3]، أي: سواءٌ تعلَّق بالجميل اللّازِمِ أو المتعدِّي.

وغالب مَنْ عَرَّف الحَمْدَ جعَلَ (الثَّناءَ) جِنسًا في الحدِّ[4]، وهذا فِيهِ نَظَرٌ؛ إذْ ثَبتَ عن أفصح العربِ ﷺ إثباتُ التَّغايُرِ بينَ الحمد والثَّناء، وذلك فيما يرويه عَنْ ربِّه تبارك وتعالى أنَّه قال: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فإِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي» الحديثَ[5]، فغايَرَ بينهُمَا.

ومِنْ أصحِّ ما قيل في معناه ما قال ابْنُ سِيدَهْ: "الحَمد هو الوَصْفُ بالجميل على جهةِ التَّفضيلِ"[6].

(1) بسَّام عليان، سورة الفاتحة دراسةٌ موضوعيَّة، رسالة ماجستير، ص: 31.
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (حمد).
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 201.
(4) الخليل، العَين: (حمد)، والأنباريّ، الزّاهر: 2/78.
(5) رواه مسلم: حديث رقم: (395).
(6) ابنُ سِيدَهْ، المُخصَّص: 5/231-232.

وقريبٌ منه ما قرَّره تقيُّ الدِّين ابنُ تيميَّة مِنَ أنَّ الحمدَ: الإخبارُ بمحاسِنِ المحمودِ مَعَ المحبَّةِ له[1].

فالحَمْدُ: إخبارٌ عن محاسن المحمود مع حبِّه وإجلاله وتعظيمه، ويكون بالقلبِ وباللسان.

والمعنى في الآية: الثناءُ على الله بصفاتِه التي كلُّها أوصافُ كمالٍ، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية.

2) ﴿رَبِّ﴾: هو في الأصل مصدر بمعنى: التربيَّة، ثُمَّ استُعْمِلَ وَصْفًا لقَصْدِ المبالغة، كقولهم: فُلَانٌ عَدْلٌ[2].

ولَهُ معانٍ مُتَكَاثِرَةٌ، مِنْهَا:

المالِكُ؛ فَرَبُّ الشَّيْءِ مَالِكُهُ.

والسَّيِّد المُطَاعُ، كما قال اللّه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 31] أَي: سادةً مُطَاعِين[3].

والـمُصْلِحُ، يقال: رَبَّ الشَّيءَ؛ إذَا أَصْلَحَه[4].

والـمُدَبِّرُ، ومِنْهُ سُمِّي الرَّبَّانيُّون بهذا الاسم؛ لقِيَامِهِم بتَدْبِير أُمُورِ النَّاس[5].

والقيِّمُ، والـمُنْعِمُ، والـمُرَبِّي، وَالـمُتَمِّمُ[6].

والـمُرَبِّي والـمُتمِّم مُتَلَازِمَان؛ إِذْ معنى التَّربِيَة: أنَّهَا "إِنْشَاءُ الشَّيْءِ حالًا فحالًا إلى حَدِّ التَّمام"[7].

ولا يُطْلَقُ مُعَرَّفًا بأل إلَّا عَلَى اللّهِ تعالى، وأمَّا بالإضافَةِ فَبِحَسَبِ ما أُضيف إِلَيْهِ[8].

---

(1) ابنُ تيميَّة، مجموع الفتاوى: 6/259.

(2) محمّد بن الطيّب الفاسّي، تحرير الرِّواية في تقرير الكفاية، ص: 42.

(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 186.

(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ربّ).

(5) نَشوان الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: (باب الراء وما بعدها من الحروف في المضاعف).

(6) الأنباريّ، الزّاهر، ص: 467، والزَّبيدي، تاج العَرُوس: (ربب)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ربب - ربرب).

(7) الرّاغب، المفردات: (ربّ).

(8) ابن منظور، لسان العرب: (ربب).

3) ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جَمْعُ (عَالَم)، والمراد بالعالَمِين: أصنافُ الخلائق[1].

وهو مشتقٌّ مِنَ العِلْم أو العَلَامَة[2]:

فأمَّا اشتقاقُهُ مِنَ العِلْم؛ فهو جَارٍ على مَن يَخُصُّ العالمين بالعُقَلاءِ.

وأمَّا اشتِقَاقُه مِنَ العَلَامةِ؛ فلأَنَّ المخلوقَ عَلَامةٌ على وجودِ خالقِه.

والثَّاني أَعَمُّ.

فدلَّت الآيةُ على انفراد اللّه تعالى بالْخَلق والتدبير، والإنعام، وكمالِ الغِنى، وعلى تمامِ فَقْر جميعِ أنواع المخلوقات إليه، من كلِّ وجهٍ.

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

كلُّ أصناف المحامدِ مِنَ الفضائِلِ والفَوَاضِل مُسْتَحَقَّةٌ للّهِ تعالى وَحْدَه؛ لأنَّهُ ربُّ الخلائقِ جميعِهم، مَنْ يَعقِلُ مِنْهُمْ ومَنْ لا يَعْقِلُ، فهو مالكُهُمْ ومدبِّرُ شُؤُونهم، ومُرَبِّيهم بالنِّعَم، ومُرَبِّي خواصِّ خلقِهِ بتَوْفِيقِهم لكلِّ خيرٍ وعِصْمَتِهم من كُلِّ شَرٍّ[3].

وفي الآية إخبار من اللّه سُبحانَه بحمده نفْسَه؛ لِيُعلِّمَ عِبادَه كيف يحمدونه بقلوبهم وألسنتهم، مع حبِّهم وإجلالهم وتعظيمهم له، على كلِّ حالٍ.

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيّ وَالْبَلَاغِيّ:

مذاهبُ العلماء في معاني (أل):

المحامِدُ كُلُّها لله، وما مِن خَيْرٍ إلاّ هو مُوليه، وما مِن نِعمةٍ إلاّ هو مُتفضّلٌ بها

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾، في دلالة (أل) خلافٌ بين العلماء على أربعة أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّها لِلاستغراق، وهو الأرجح، وقد اختاره جماعة مِنْ أهل العلم، مِنْهُمُ ابنُ عَطِيَّة الأندلسيُّ[4].

والثَّاني: أنَّها لتعريف الجِنْس، ومال إليه الزَّمخشريُّ، وجعلَ الأوَّلَ وَهمًا؛ فقال: "وَالِاسْتغراقُ الذي يتوَهَّمُه كثيرٌ مِنَ النَّاس وَهْمٌ مِنْهُمْ"[5].

---

(1) العُلَيْمِيّ، فتح الرَّحمن في تفسير القرآن: 1/42.

(2) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 490-1/489.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/135، السعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 39.

(4) ابن عطيَّة، المحرَّرُ الوجيز: 1/66.

(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/10.

وهذهِ المسألةُ مِنْ دقائق قضايا البلاغة التِي تُبْطِنُ اعتزَالًا[1]، وقَدْ فات ابنَ المُنَيِّرِ التَّنبيهُ عَلَيْهَا، قال ابنُ تيميَّةَ الحفيدُ: "الحمدُ إذا كان للجِنْسِ أوجَبَ أن يكون لغيره أفرادٌ مِن أفراد هذا الجنسِ، كما تقُولُه القَدَرِيَّة، وأمَّا أهل السُّنَّة فيقولُونَ: الحمدُ للَّه كُلُّه"[2].

والثَّالث: أنَّها لِلعَهْدِ، على معنى أنَّهُ "الحمدُ الذي حَمِدَ به نفسَه وحَمِدَهُ به أولياؤُه"[3]، والعِبْرَةُ بِحَمْدِ مَنْ ذُكِر، فَلا فَرْدَ مِنْهُ لِغيْرِه[4].

والرَّابع: أنَّها لِلكَمَالِ، وهو مُخرَّجٌ على كلامٍ لِسِيبَوَيْهِ في (أل) الداخلةِ على الصِّفات[5].

والقولُ الأوَّل أَصَحُّ -كما سبق-، وقد ذكر السُّيوطِيُّ أنَّه قول المُحَقِّقين[6].

قال البَيْضَاوِيُّ في وجه الاِسْتِغراق: "إِذِ الحمدُ في الحقيقة كُلُّهُ له؛ إِذْ ما مِن خير إلاَّ وهو مُولِيه بِوَسَطٍ أو بِغَيْرِ وَسَطٍ"[7].

الحَمْدُ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ وَالمَدْحِ

واخْتِيرَ الحَمْدُ دونَ الشُّكْرِ؛ لكون الحَمْدِ يعُمَّ الفضائلَ والفواضِلَ، بخلاف الشُّكْرِ؛ فإنَّه خاصٌّ بالفواضل، فأُوثِرَ اللَّفظ الأَعَمُّ.

وعُبِّر بالحَمْدِ دون المَدْحِ، مع أنَّ المدحَ أَعَمُّ؛ لكونِهِ عاريًا عَنِ المحبَّة والتَّعظيم، حتَّى زعمَ بعضُ أهل العلمِ أنَّ المدحَ لا يُطلق على اللّهِ تعالى[8]، والأَدْخَلُ في الثَّنَاءِ أن يَصْحَبَ ذكرَ صفات الكمالِ: حبٌّ وتعظيمٌ.

---

(1) وللسُّيوطيِّ توجيهٌ لكلام الزَّمخشريِّ، ينظر: نَواهِد الأبكار 170-1/169، حيث أنكر أن يكونَ مُرَادُ الزمخشريِّ مَبْنِيًّا على مسألة خَلْقِ أفعال العبادِ، إلَّا أنَّ كلام الزمخشريِّ في الكشَّافِ كالصَّريح في خلافِ ما قرَّره السُّيوطيُّ؛ لأنَّ تعريف الجنس يُنَافِي الاستغراقَ، كما بيَّنه الواحديُّ في التَّفسير البسيط: 1/482، والله أعلم.

(2) أحمد ابن تيميَّة، قاعدة حسنة في الباقيات الصَّالحات، تح: أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السَّلف، ط1، 1422، ص: 42.

(3) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 483-1/482.

(4) الشّربيني، السّراج المُنِير: 1/8.

(5) الخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 1/8.

(6) السُّيوطي، نواهد الأبكار: 1/164.

(7) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/27.

(8) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/32.

وفي صحيح البخاريّ 4634، وصحيح مسلم 1499، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لاَ شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللَّه».

دلالـة الجُـمْـلَة الاسمِيّة على أنَّ الحَمْدَ مُستَحَقٌّ لله تعالى، وعلى اسْتِغْراق جَميعِ المَحامِد، وعلى حَـمْـد جميع الـحـامـديـن، وعـلـى الـثّـبـوت والدَّوام

إيثارُ التَّعْبِيرِ بِجُمْلَةِ الحَمْدِ الِاسْمِيَّةِ دُونَ الفِعْلِيَّةِ:

قولُه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ جُملةٌ اسميةٌ، وأُوثِرَت على الجُملة الفِعْلِيَّة (أحمدُ اللّه)؛ لوجوه[1]:

أَحَدها: أَنَّ (أَحمَدُ اللّه) يُوهِمُ أَنَّ قائلَهَا قادرٌ على تَوْفِيَةِ الحَمْدِ حقَّهُ، بخلافِ (الحَمْدُ للّه)؛ فإنه يُفيد استحقاق اللّهِ تعالى للحَمْدِ قَبْلَ حَمْدِ الخلقِ له.

ثانيهَا: إذا قَالَ: (أَحْمَدُ اللّه)، كَانَ قَدْ حَمِدَ اللّه نفسَهُ على طريقة الالتفات -في مذهب السَّكَّاكيّ-؛ "وإذا قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ فقد دخَلَ فيه حَمْدُهُ وحَمْدُ غيره جميعًا من لَدُنْ خَلْقِ العالم إلى انتهاء دخول أهل الجنَّةِ الجنَّةَ ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾"[2].

ثَالثِها: أنَّ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ دالَّةٌ على استحقاقِ اللّهِ ﷻ لِلحَمْدِ، بخلاف (أَحْمَدُ اللّه)؛ فَلَا يَدُلُّ على ذلك، واللَّفظ الدَّال على استحقاق اللّه لِلحَمْدِ مُقَدَّمٌ على اللَّفْظِ الدالِّ على حَمْدِ فَرْدٍ له.

رابعها: أنَّ (أَحْمَدُ اللّه) إخبارٌ مِنَ العَبْدِ بِأَنَّهُ حَامِدٌ[3]، وحقيقةُ الحمد -كما سَلَفَ- مُقْتَرِنٌ بالتَّعظيم، فالـمُتَلَفِّظ بـ(أحمد اللّه) مُدَّعٍ أَنَّ قلبَهُ مُعَظِّمٌ للّه تعالى، فإنْ كان غافلًا عِنْدَ التَّلَفُّظِ؛ كان في كلامه نَوْعُ كَذِبٍ، بخلاف: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فهو صدق بكُلِّ حالٍ.

خامسها: أنَّ في ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ مِنَ الِاسْتِغْراق لأنواع المحامد ما لَيْسَ في (أحمد اللّه).

سادسها: أنَّ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ جملةٌ اسميَّة، وهي دالَّة على الثُّبوت والاستمرار بالقرائن، بخلاف (أحمد اللّه) فإنَّها جملة فعليَّة تَدُلُّ على التَّجدُّدِ والحدوثِ، والثُّبوتُ والاستمرارُ أنسَبُ في مقام الثَّناء.

سابعها: أنَّ في ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تعليمًا للحَمْدِ مع التّعريضِ بِالِاسْتِغْنَاءِ عن الخلق؛ أي: الحمد للّه وإن لَمْ يَحْمَدْهُ أحدٌ[4].

(1) الرَّازيّ، التّفسير الكبير: 1/191.

(2) الشُّيوطي، نواهد الأبكار: 1/166.

(3) إذا قدَّرنا أوَّل السُّورة: (قُولُوا)، وإلا فالوجه الثاني هو المرادُ، ولا مانع مِنَ الجمع بينَهُما بضَرْبٍ من ضُروبِ التَّأويل السَّائغِ القَريبِ.

(4) ابن عَجِيبة، البحر المديد: 1/53.

جملةُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بَيْنَ الخبرِ والإنشَاءِ:

استِحْقَاقُ اللهِ الحَمْدَ قَبْلَ أَنْ يَحْمَدَهُ الحَامِدُونَ

جملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ خبريةٌ في اللَّفظ، إنشائيَّةٌ في المعنى؛ وذلك "لحصول الحمد بالتَّكلُّم بها مع الإذْعَان لمَدْلُولها"[1]، والقولُ بأنَّها خبرٌ لفظًا ومعنًى أبلَغُ؛ لأنَّ القول بالإنشائيَّةِ يلزَمُ منه أنَّ الحَمْدَ يقعُ عِنْدَ ذِكْرِ اللَّفظِ، بخلاف القولِ بالخبريَّةِ؛ فإنَّ مقتضاه أنَّ الحَمْدَ واقعٌ قَبْلُ، ومُؤدَّى الخَبَريَّةِ إنشاءٌ، بخلافِ العكسِ.

وهذا كُلُّه إذا نظرنا إلى جملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في ذاتِهَا، دون النَّظر إلى تقدير فِعْلٍ قَبْلَهَا هو (قُولُوا)، كما سبق نظيرُه في الكلام عَنِ البسملة.

دلالة الاسميّة على ثُبُوت الحَمْدِ وَاسْتِقْرَاره:

وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ برفع ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ على الابتداء، ولم يُنْصَبْ كما هو غالب سَنَنِ العرب في كلامها مِن نَصْبِ جملةٍ مِنَ المصادرِ بأفعالٍ مُضمرةٍ، ونُكتةُ هذا العدول: الدّلالة على استقرارِ هذَا المعنى وثباتِهِ[2].

أقوالُ العُلماء في معاني اللّامِ الدَّاخلةِ على لفظِ الجَلالَةِ:

الحمدُ مُستَحَقٌّ لِلَّهِ، ومُختصٌّ بِهِ

واللَّامُ في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ لِلاسْتِحْقَاق، وقيل: لِلمِلْك، وقيل: لِلاختصاص[3]، ولها وجْهٌ صناعيٌّ وهو أنْ تكونَ للتَّقوية.

ووَجْهُ حَمْلِهَا على المِلْكِ: أنَّه سبحانه خالقٌ لكلِّ مَنْ نَطَقَ بالحَمْدِ، فكان مالكًا له؛ إذِ الخَالقُ مالكٌ[4].

ووجه الاختصاص: أنَّ له بكُلِّ المحامدِ اختصَاصًا[5]، "ثُمَّ هَذَا الِاخْتِصَاصُ اخْتِصَاصُ ادِّعَائِيٌّ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْقَصْرِ الِادِّعَائِيِّ لِلْمُبَالَغَةِ"[6].

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/8.
(2) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 1/9.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 1/483، والقِنَّوجي، فتح البيان: 11/161.
(4) القِنَّوجي، فتح البيان: 11/161.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/160.
(6) القِنَّوجي، فتح البيان: 11/161.

وكونُ اللام للاستحقاقِ هو الأَشْبَهُ بالقواعدِ، ولهذا اقْتَصَر عليه أبو حَيَّان[1]؛ فإنَّ لامَ الِاسْتِحْقَاقِ هِي الواقِعَة بَين مَعْنًى وَذَاتٍ[2]، كما هَهُنَا.

وكونُها للتَّقوية على اعتبارِ أنَّها "قَوَّتْ تَعَلُّقَ الْعَامِلِ بِالْمَفْعُولِ لِضَعْفِ الْعَامِلِ بِالْفَرْعِيَّةِ وَزَادَهُ التَّعْرِيفُ بِاللَّامِ ضَعْفًا لِأَنَّهُ أَبْعَدَ شَبَهَهُ بِالْأَفْعَالِ"[3].

من بلاغةِ إظْهارِ لَفْظِ الجَلالةِ دونَ إضمارِه:

ذِكْرُ اسْمِ اللهِ تَعَالَى تَلَذُّذٌ وَتَبَرُّكٌ

في قوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عُدُولٌ عن مقتضى الظَّاهر؛ إذْ هذه الآيةُ جاءت بعد قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فتقدَّم ذكرُ اسْمِه تعالى في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، فكان مقتضى الظَّاهر أَنْ يُقَالَ: (الحَمْدُ لَهُ)؛ ففي قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إظهارٌ في مَقَامِ الْإِضْمَارِ[4].

ونُكْتَةُ الإِظْهَارِ هُنَا: التَّلَذُّذُ والتَّبرُّكُ بذِكْرِ اللّهِ تعالى باسْمِهِ الصَّريح دون الضَّمير الرَّاجِعِ لَهُ، واللّه أعلمُ.

وقد ذَكَر البِقَاعِيُّ نظيرَه عند قول اللّه تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: 57]: "وأَظْهَرَ ولم يُضْمِر؛ إظهارًا للتَّعظيم وتلذُّذا بذِكْرِ الاِسْمِ الشَّريف، فَقَالَ: (اللّه)"[5]؛ إذْ إنَّ مُقْتَضى الظَّاهر: لَوْ أنَّه هداني؛ لِأَنَّهُ سبق ذِكْرُه باسمه الصَّريح في الآيةِ قبلَهَا في قولِه: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 56].

الفرقُ بين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾:

مَطلَعُ الفاتحة يُعلِّمُ العبادَ كيفيَّةَ الحَمْدِ والثّناء على الله بما هو أهلُهُ

وجاء هُنا قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وفي سُورةِ الجَاثية: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: 36]؛ لِأَنَّ مِنْ مُرَادَاتِ آية الفاتحة تعليمَ العبادِ الحَمْدَ، فلا وَجْهَ لإيرادِ الكلام على جهةِ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/34.
(2) ابن هشام، مغني اللَّبيب، ص: 275.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 11/161.
(4) الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 1/135.
(5) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 16/539.

القَصْرِ، بخلافِ آية الجَاثِيَة؛ فإنَّها جاءت "على تقدير الجواب بَعْدَ إِرْغَام المُكَذِّب وقَهْرِه ووقوع الأمر مُطابقا لإخبار الرُّسُل ﷺ، وظهور ما كذَّب الجاحدُ به، فعند وضوح الأمر كَأَنْ قَدْ قِيل: لِمَن الحَمْدُ ومَنْ أَهْلُه؟ فكان الجوابُ على ذلك، فقيل: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ [الجاثية: 36]، نظيرُ هَذَا قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ﴾ ثُمَّ قال: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16]"[1].

دلالة اسمِ (اللهِ) عَلَى صِفَاتِ الْجَلَالِ وَالْجَمَالِ والكمال، ولَوْ عُلِّقَ الحمدُ باسمٍ آخرَ لأَوْهَمَ التّعليقُ اختصاصَ الحمد بذلك الاسم

سِرُّ تَعْليق الحَمْدِ بلفظ الجلالة:

اخْتِير الاسمُ الأَحْسَنُ ﴿ٱللَّهِ﴾ مع الحَمْدِ دون غيره مِنَ الأسماء؛ لكونِه بمفردِه دَالًّا على صفات الجلال والجمال والكمال، ولِدلالة ذلك على استحقاقِه الحمدَ لذاته؛ بخلاف ما لَوْ عُلِّقَ الحَمْدُ على غيره مِنَ الأسماء؛ فإنَّهُ قَدْ يُتوهَّم اختصاصُ الحَمْدِ بصفةٍ دُونَ أُخْرَى؛ إِذْ إنَّ تَعْلِيقَ حُكْمٍ بلفظٍ مُشْتَقٍّ مُشْعِرٌ بِعِلِّيَّةِ مَا مِنْهُ الاشتقاقُ[2].

سِرُّ الْعُدُولِ عَنِ (العَوَالِمِ) إِلَى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

لفظُ (العالَمِين) يشملُ جميعَ الأجناس، وفيه تغليبُ العقلاء منهم، ودلالة على العِلم والعلامة

وقوله سبحانه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، سبق أنَّ العَالَمِين: جَمْع (عالَم)، وَ(عَالَمٌ) تُجمَعُ في الأصلِ عَلَى: (عَوَالِم)، ولا تُجمع جَمْعَ مذكَّرٍ سالِمًا، فَإذا أُجْرِيَتْ مُجْرَى جمعِ المذكر السالم في الإعراب؛ كانت مُلْحَقَةً به وليست جمعًا على الحقيقة.

وإنَّما لَمْ تُعَدَّ كلمة ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمعَ مذكَّرٍ سالمًا حقيقةً؛ لأنَّ مفردَها -وهو عالَمٌ- فَقَدَ شَرْطَ جَمْعِه هذا الجَمْعَ؛ إِذْ إِنَّهُ ليس علَمًا ولا وصفًا، وإنَّما هو مِنْ أسماء الأجناس[3].

فَحَصلَ عُدولٌ في جمع هذه الكلمةِ عَنِ (العوالم) إِلَى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وسوَّغ هذا العدولَ ثلاثةُ أَوْجُهٍ:

---

(1) الغَرْنَاطيُّ، مِلاَك التَّأويل: 1/12.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 1/226.
(3) ابن عقيل، شرح ألفيّة ابن مالك: 61-1/60.

أحدُهَا: ما في كلمة (العالَم) مِنْ معنى الوَصْفِيَّة؛ إِذْ هو دالٌّ على معنى العِلْمِ أو العلامَةِ، على ما سبق ذِكْرُه.

ثَانِيهِمَا: أَنَّهُ عُدِلَ إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ تَغْلِيبًا للعقلاء على غَيْرِهِم، وذَكَرَ هذا الوجهَ البيضاويُّ في قوله: "وإنَّما جَمَعَه لِيَشْمَلَ ما تحته مِنَ الأجناس المختلفة، وغلَّب الْعُقَلَاء مِنْهُمْ، فجمَعَهُ بالياء والنُّون"[1].

ثَالِثُهَا: أنَّ في جَمْعِ (عَالَم) على (عَالَمِينَ) بَدَلًا من(عَوَالِم) عُدُولًا عن جمع الكَثْرَةِ إلى جمع القلَّة؛ "تَنْبِيهًا على أنَّهم وإِنْ كَثُرُوا فَهُم قَلِيلون في جانِبِ عَظَمَتِه تعالى وكِبْرِيَائِه"[2].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَمْدُ وَالشُّكْرُ:

الحَمْدُ يكونُ في مقابِلِ النِّعمَةِ ويكونُ ابتداءً، والشُّكْرُ لا يكونُ إلا في مُقَابل نِعْمَةٍ

الحَمْدُ هو الشُّكْرُ عند الأَخْفَشِ وجماعةٍ[3]، وفِيه نَظَرٌ، بل بينَهُمَا فرقٌ.

وذهَب الخطابيُّ إلى أنَّ الشّكرَ أعمُّ مُطْلقا مِنَ الحمد، فقال: "الحمد نوعٌ، وَالشُّكر جِنْس، فكلُّ حَمْدٍ شُكْرٌ، وليس كُلُّ شُكْرٍ حمدًا"[4]، وعكس الجَوْهَرِيُّ فجعل الحَمْدَ أعمَّ مُطلقا مِنَ الشُّكر[5].

والصَّوابُ أنَّ بين الحمدِ والشُّكْرِ عمومًا وخصوصًا وَجْهِيًّا؛ فالحمدُ أعمُّ مُتَعَلّقًا أخصُّ آلةً، والشُّكْرُ: أخصُّ مُتَعَلَّقًا وأعمُّ آلةً[6].

وذلك أنَّ الحَمْدَ يكون في مقابِلِ النِّعمةِ ويكون ابتداءً، قال الأزهريُّ: "الحمدُ قَدْ يكون شُكْرًا للصَّنِيعة، وَيكون ابْتِدَاءً للثَّناء عَلَى

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/28.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 1/57.

(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمد)، وذكر بِهرام الدَّمِيريّ في تحبير المختصر: 1/62، أنه ظاهر قول سيبويه.

وهو ظاهر كلام ابن جرير في تفسيره: 1/138.

(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمد).

(5) الجوهري، الصحاح: (حمد).

(6) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 202، والتَّهَانَوِي، كشّاف اصطلاحات الفنون: 1/541، وحافظ حكمي، معارج القبول: 1/72.

الرَّجُلِ"[1]، بل قد يُحَمَدُ على الـمُصيبَةِ[2]، وذلك في حَمْدِ اللّهِ تعالَى؛ إِذْ يكون عَلَى كلِّ حالٍ.

بخلاف الشُّكْر؛ فلا يكون إلا في مُقَابَلِ نِعْمَةٍ، قال في القَامُوسِ: "الشُّكْرُ -بالضَّمِّ-: عِرْفانُ الإِحْسانِ ونَشْرُه، وَلا يَكُونُ إلاَّ عن يَدٍ"[3].

فتَحَصَّل مِن هذا أنَّ الحَمْدَ أعمُّ متعلَّقًا مِن الشُّكر.

الحَمْدُ يكونُ باللِّسان والقَلْبِ دُون الجوارحِ، والشُّكْرُ يكون بالقلب واللِّسان والجَوارح

أمَّا الآلَةُ: فالحَمْدُ يكون باللِّسان والقلبِ دُون الجوارح، كما يُستفادُ هذا مِنْ حَدِّ الحَمْدِ الـمَعْزُوِّ آنفًا إلى ابْنِ سِيدَهْ وابْنِ تيميَّةَ، بخلاف الشُّكْرِ فَإنَّه يكون بالقلب واللِّسان والجوارح، كما قال اللّه سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سَبَأ: 13]، فتقرَّر من هذا أَنَّ الشُّكْرَ أعمُّ مِنْ جهة الآلَةِ.

الحَمْدُ وَالمَدْحُ:

الحَـمْـدُ لا يُسْتَحَقُّ إلَّا على فِعْلٍ حَسَنٍ، والمَدْحُ أعمُّ

اخْتَلف العلماءُ في الفَرْقِ بينَهُمَا على أقوال:

ذهب الـمَاوَرْدِيُّ إلى أنَّ الفرقَ بَيْنَهُما مِنْ جهة أنَّ الحَمْدَ لا يُسْتَحَقُّ إلَّا على فِعْل حَسَنٍ، وأمَّا المدحُ فيكون على فِعْلٍ وغير فعلٍ، وبهذا التَّقرير يكون الـمَدْحُ أعمَّ مِنَ الحَمْدِ مطلقًا.

وفرَّع على هذَا أنَّ اللّه تعالى يُحْمَدُ على صفاتِ أفعالِه بأنَّه الخالق والرَّازق ويُمْدَحُ عليها، ولا يجوزُ أَنْ يُحْمَدَ على صِفَاتِ ذاتِه، كَكَوْنِه عالمًا[4].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حمد).

(2) كمَا جاء من حديث أبي موسى الأشعريِّ ﵁ أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»، رواه الترمذي، حديث رقم: (1021)، وهو حسن كما في صحيح الجامع الصَّغير: حديث رقم: (795).

(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط، ص: 419.

(4) المَاوَرْدِيّ، النُّكت والعيون: 54-1/53.

ومَشَى على هذا الرَّاغب الأصفهانيّ[1]، والكرمانيّ[2]، وهو مُؤدَّى كلامِ العسكَرِيّ[3].

وهذا فيه نظَرٌ بيِّنٌ، لأنّه مخالفٌ لظاهر الاستعمالِ القرآنيِّ، فإنَّ ربَّنا تعالى يقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: 111].

تَفريقُ الرّازي بين الحمد والمَدح:

الحمدَ لا يكون إلا لحيٍّ، ويكونُ بعْدَ الإحسان، ومــأمــورٌ بــه مُطلَقًا، وخاصٌّ بفضيلة الإنعام، والمَدحُ غيرُ ذلك

ذهَب الفخر الرَّازيّ[4] إلى أنَّ الفرقَ بَيْنَهُمَا مِنْ أربعة أوجُهٍ:

أَحَدُهَا: أنَّ الحمدَ لا يكون إلا لحيٍّ، والمدحَ يكون لِلحَيِّ وغيرِه، فقد يَمْدَحُ الإنسانُ جمادًا.

ثَانيها: أنَّ المدح يكون قبلَ الإحسَانِ أو بعدَهُ، والحمدَ لا يكون إلا بَعْدَ إحسانٍ.

ثالثها: أنَّ الحمدَ مأمورٌ به مطلقًا، وأمَّا المدحُ فقد يكون مَذْمُومًا مَنْهِيًّا عنه.

رَابِعها: أنَّ المدحَ خاصٌّ بنوعٍ مِنَ الفضَائِل، أمَّا الحَمْدُ فخاصٌّ بفضيلةِ الإنْعَامِ والإحسانِ، فهو مُخْتَصٌّ بفضيلةٍ بعينِهَا.

وهذه الأوجُهُ -عدَا الأوَّلَ- أشبَهُ بالفرق بين المدح والشُّكْر، لا بين المدح والحمدِ، إلَّا أنَّ مذهب الرَّازيِّ أنَّ الحمدَ مُتَعَلِّقٌ بمُطْلَقِ الإِنْعَامِ، والشُّكْرَ متعلّق بالإنعام الواصلِ إلى الشَّاكِرِ، ولذا قال مَا قَالَ.

وذهب ابْنُ القيِّم إلى أنَّ الحمدَ: هو الإخبارُ عن محاسن المحمودِ مع حُبِّه وإجلاله وتعظيمه، أمَّا المدحُ؛ فهو ذلك الإخبارُ مُجَرَّدًا عن الحُبِّ وتوابعه[5].

وهذا أصحُّ ما قيلَ في الفرقِ بينهما، وبهذا التقريرِ يكونُ المدحُ أَعَمَّ مِنَ الحَمْدِ مطلقًا. والله أعلَمُ.

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/52.
(2) الكرمانيّ، غرائب التّفسير: 1/96.
(3) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 50.
(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 1/191.
(5) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/93.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد حَمْدِ اللّهِ تعالى الموصوفِ بكونِهِ ربَّ العالَمين، وهو وصفٌ مُشعِرٌ بالرَّهْبَة؛ أَعْقَبَهُ بوصفِهِ نفسَهُ بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ ليكون ترغيبًا بعد ترهيب[1]، "وبدأ أوَّلًا بالوصف بالرُّبُوبيَّة، فَإِنْ كان الرَّبُّ بمعنى السَّيِّد أو بمعنى المالك أو بمعنى المعبودِ؛ كان صفةَ فعلٍ، لِلمَوْصُوفِ بِهَا التَّصريفُ في المَسُود والمملوك والعابد بِمَا أراد مِنَ الخير والشَّر، فناسب ذلك الوَصْفَ بالرَّحمانِيَّة والرَّحِيمِيَّة؛ لِيَنْبَسِطَ أملُ العبدِ في العفو إِنْ زَلَّ، ويَقْوَى رجاؤُهُ إِنْ هَفَا"[2].

وهذه الآيةُ والتي قبلها اشْتَرَكتَا في حَمْدِ اللّهِ تعالى، أمَّا الحَمْدُ في ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فظاهرٌ، وأمَّا الحَمْدُ في ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ فَلِأَنَّ الحمدَ ذِكْرُ محاسن المحمودِ مع المحبَّة والتَّعظيم، وهَذَا مِنْهَا، ثُمَّ إنَّ الحَمْدَ إذا تكرَّر صارَ ثناءً[3].

إثبات الحمد لله سبيل لنيل رحمته

وفي ذِكْرِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ عَقِبَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تَنْبِيهٌ إلى أنَّ مِن أسبابِ نَيلِ رحمةِ اللّه: حَمْدَهُ، ولِذَا إذا حَمِدَ العاطِسُ ربَّهُ؛ قيلَ له: يَرْحَمُكَ اللّه[4].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

سبَق شرحُ مفرداتِ هذه الآية عندَ الكلامِ عَنِ البسملة، فأَغْنَى ذلك عَنْ إعادتِهِ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صاحبِ الرَّحمةِ الواسعةِ، التي يَرْحَمُ بهَا خَلْقَهُ جميعَهُمْ، وصاحب الرّحمة الدّائمة؛ فَلِلْمُتَّقين الرَّحمةُ المطلقةُ، ومَنْ سِواهُم لَهُ نصيبٌ منها.

---

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/139.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/35.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 150.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 1/60.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيّ وَالبَلاغِيّ:

عِظَمُ قَدْرِ اسْمَيِ اللهِ الرَّحْمَنِ وَالرَّحِيمِ:

ذِكْـرُ الرَّحْـمَـة بـصـيـغَـتَـي (الـرّحـمـن) و(الرّحيم) تأكيدٌ علـى الـرَّحْـمَـة، وتَنْويهٌ بِشَأنِها

تكرَّر قَولُه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في البسملةِ وفي هذا الموضع من فاتحة الكتاب، ونُكتة التَّكرارِ: التَّوْكِيدُ[1]؛ تنبيهًا على عِظَمِ قَدرِهِما وتأكُّدِ أمرِهِما[2].

وفيهِ الإشارةُ إلى أنَّ الاعتناءَ بالرَّحمة أكثرُ مِن غيرها[3].

وفي الآيةِ أوجهٌ في البلاغةِ سلَفَتِ الإشارةُ إليها عند البسملة، فلا حاجة إلى إعادة شَيْءٍ مِنْهَا.

---

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 65.

(2) البَسِيلّي، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: 2/52.

(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/46.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: 4]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إتباعُ ذِكْرِ الرَّحمةِ بذكر المُلْك إتمامٌ لمَعْنى الرُّبوبيَّة التي مِنْ مَعانيها المُلْكُ ونُفوذُ الأمر

"لـمَّا كان الرَّبُّ المنعوتُ بالرَّحمة قد لا يكون مالِكًا، وكانت الرُّبوبيَّةُ لا تَتِمُّ إلَّا بالملك المُفيد لِلعزَّة المقرونِ بالهَيْبَة المُثْمِرَة لِلبَطْشِ والقهر، المُنْتِجِ لنُفُوذ الأمر؛ أَتْبَعَ ذَلك بقولِه: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ تَرْهيبًا من سَطَوَات مَجْدِه"[1].

وهذه الآيةُ والتي قبلها تشتركانِ في حَمْدِ اللهِ تعالى -على ما سبقَ ذِكْرُ وجْهِهِ قريبًا-، وهو ضَرْبٌ من ضروب التناسُب.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مَٰلِكِ﴾: مشتقٌّ مِنَ المِلْك -بكسر الميم وفتحها-، والمَلِكُ: مشتقٌّ من المُلْك -بضم الميم-[2].

والمِلْكُ أصلهُ: الشَّدُّ والرَّبْطُ[3]، ومِنْهُ: إمْلَاكُ العَرُوسِ؛ لِأَنَّهُ عَقْدٌ ورَبْطٌ للنِّكاح[4]، أو هو: احْتِوَاءُ الشَّيءِ والقُدْرَةُ عَلَيْهِ[5]، وهو راجعٌ إلى الأوَّلِ.

والمُلْكُ أصلهُ: قَهْرُ مَنْ تَتَأَتَّى مِنْهُ الطَّاعَةُ، أَوْ هُوَ التَّصَرُّفُ بالأَمْرِ والنَّهيِ في النَّاسِ[6].

والمِلْكُ والمَلْكُ -على ما سبق تقريره- يرجعان إلى أصلٍ جامعٍ؛ وهو القوَّةُ في الشَّيءِ[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/29.
(2) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: 4/110.
(3) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 30.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 1/184.
(5) ابن سِيدَه، المُحكم والمحيط الأعظم: (ملك).
(6) السّمين، الدُّرُّ المصون: 1/48، والرّاغب، المفردات: (ملك).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).

المالك يملك الأشياء كلّها ويتصرّف فيها، والملِك ينفذ أمره في ملكه

والمالِك: اسم فاعل مِنْ مَلَكِ يَمْلِكُ، واللّه هو المالك على الحقيقة، أي: "مالك الأشياء كلِّها ومُصَرِّفُها على إرادته لا يَمْتَنِع عَلَيْهِ مِنْهَا شيء؛ لأنَّ الـمَالِكَ في كلَامِ العَرَبِ للشَّيْءِ: هو المتصرِّف فيه القادر عَلَيْهِ"[1].

والـمَلِكُ: هُو مَن يَنْفُذُ أمرُهُ في مُلْكِه[2].

2) ﴿يَوۡمِ﴾: اليَوْمُ: هو الـمُدَّة الممتدَّةُ مِنْ طُلُوعِ الفَجْرِ -وقيل: مِن طلوع الشَّمس[3]- إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى مَا يَعُمُّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ[4]، ويُطلق على مُدّةٍ مِن الزّمانِ أيًّا كان مقدارُها[5].

فأمَّا الإطلاق الأوَّل؛ فكالوَارِدِ في قول اللّه تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ: 18]، وكالذي في قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ [البقرة: 183-184].

وأمَّا الإطلاق الثَّاني؛ فكالوَارِدِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ [آل عمران: 41]؛ فإنَّ الـمُرَاد باليَوْمِ ما يَعُمُّ اللَّيْل كذَلِك، كمَا دلَّت على ذلك آيةُ سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ [مريم: 10].

وأمَّا الإطلاقُ الثَّالِث؛ فكالوَارِدِ في قولِه ﷻ: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ [البقرة: 254].

والمرادُ باليَوْمِ في ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ مُطْلَقُ الوقت[6]؛ وحقيقتُهُ: الـمُدَّةُ الممتدَّة من مَبْدَأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الجنَّةِ في الجنَّة وأهل النَّار في النَّارِ.

3) ﴿ٱلدِّينِ﴾: أصلُ هذه المادَّةِ -وهي الدَّال والياء والنُّون- دالةٌ على اللُّزومِ، ثُمَّ يأتي

(1) ابنُ إسحاق الزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 43.
(2) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 30.
(3) ذكره الرّاغب في المفردات: (يوم)، وجعل القِنَّوْجيُّ في فتح البيان: 1/47، هذا المعنى عُرفيًّا، وَبدْءَ اليوم من طلوع الفجر معنًى شرعيًّا. واستدرك السّمين الحلبيُّ في الدُّرِّ المصون: 1/52، على الرّاغب في جعلِهِ مَبْدَأَ اليومِ طلوعَ الشمسِ، فقال: «وهذا إنَّما ذكروُه في النَّهارِ لا في اليَوم».
(4) الفَيُّوميُّ، المصباح المنير: 2/682، وابنُ رُشد، بداية المجتهد: 2/200.
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 894.
(6) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/47.

في العربيَّةِ على أَوْجُهٍ ترجع كلُّهَا إلى شيءٍ يلزم الإنسانَ أو يلزمه الإنسانُ[1]، وردَّ ابنُ فارسٍ هذهِ المادَّةَ إلى جِنْسٍ مِنَ الانقيادِ والذُّلِّ[2]، وهذا والذي قبلَهُ متلازمان.

وَوَرَدَ الدِّين في القرآن على أَوْجُهٍ، بلغَ بها ابنُ الجَوْزِيِّ إلى أَحَدَ عَشَرَ وجْهًا[3].

وفي معنى الدِّين في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ قولان[4]:

أحدهما: الحساب، ومنه: «الكَيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَهُ»[5]، أي: حاسبَهَا[6].

والآخرُ: الجزاءُ، ومنه المثَلُ المشهور: (كَمَا تَدِينُ تُدَانُ)، أي: كما تُجازِي تُجَازَى[7].

ولا تعارضَ بين القولَيْنِ، والأَوجَهُ حَمْلُ الآية عليهما معًا، ولذا قال ابن جرير: "والدِّينُ في هذا الموضع، بتأويل الحساب والمُجَازَاة بالأعمال"[8]، فجمعَهُمَا في صياغَةٍ واحدةٍ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا مُلْكَ في الآخرَة إلاّ لله الواحد القهّار

يمجِّدُ اللهُ تعالى نفسَه بأنه المالكُ لكلِّ ما في يوم الحِساب والجَزاء؛ وهو اليوم الآخِر الذي يقومُ فيه النَّاسُ لربِّ العالمين.

وفي الآيةِ تذكيرٌ للمسلم باليوم الآخر، وحثٌّ له على الاستعداد لذلك اليومِ بالعمل الصالح، والكفِّ عن المعاصي والسيئات.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيّ وَالبَلَاغِيّ:

سِرُّ اختيارِ لفظ ﴿مَٰلِكِ﴾ دون وصف (ربّ):

صِفة المُلك تُفيدُ إقامَةَ الجَزَاءِ عَلَى أَوْفَقِ الكَيْفِيَّات وَبِمُقْتَضَى العَدْلِ

اختيرَ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ دون (ربِّ يوم الدِّين)؛ لأنَّ وصفَ (المالك) مُشْعِرٌ بإقامة الجزاء على أَوْفَقِ كيفيَّاته بالأفعال المَجْزِيِّ

---

(1) أبو هلال العسكريُّ، الوجوه والنظائر، ص: 217.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دين).
(3) ابنُ الجوزي، نُزهة الأعين النَّواظر، ص: 299-297.
(4) المَاوَرْدِيّ، النُّكت والعيون: 1/56، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/19.
(5) يُروى مرفوعًا ولا يصحُّ، رواه الترْمذيُّ في جامعه، حديث رقم: (2459)، وهو في ضعيف الجامع، حديث رقم: (4305).
(6) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (دين).
(7) ابن سلاَّم، غريب الحديث: 3/136، وابن دريد، جمهرة اللغة: (دني).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 1/155.

عليها[1]، و(الملك) "مؤذِنٌ بإقامة العدل وعَدَمِ الهَوادةِ فيه؛ لأنَّ شأنَ المَلِكِ أن يُدبِّرَ صلاحَ الرَّعيَّةِ ويَذُبَّ عنهم، ولذلك أقام النَّاسُ الملوكَ عليهم"[2].

ولو جاء النَّظم القرآنيّ: (رَبّ يوم الدّين)؛ "لكانَ فيهِ مطمَعٌ للمُفسدين يجدُون من شأن الربِّ رحمةً وصَفْحًا"[3].

اللَّفُّ وَالنَّشْرُ فِي مُتَعَلَّقَاتِ الْأَوْصَافِ:

مُلاءَمةُ (مَلِكِ يومِ الدّين) للرّبوبيّة، ومُلاءمةُ (إِيَّاكَ نَعۡبُدُ) للرّحيميّة

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ شبيهٌ باللَّفِّ، وقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ شبيهٌ بالنَّشْرِ؛ وذلك أنَّ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اشتمل على وصفين كُلِّيَّيْن: هما: وَصْفُ اللّه بالرُّبوبيَّة، ووصفُهُ بالرَّحمةِ، والأوَّلُ مُلائم لقوله بعدُ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، والثَّاني ملائمٌ لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، "فكان الأوَّلُ للأوَّل، والثَّاني لِلثَّاني"[4]، فكان بمنزلة اللَّفِّ والنَّشر المُرتَّب.

سِرُّ إضافَةِ لفظ ﴿مَٰلِكِ﴾ إلى ظرف الزّمان ﴿يَوۡمِ﴾:

مِلْكِيَّةُ الزَّمَانِ تَسْتَلْزِمُ مِلْكِيَّةَ جَمِيعِ مَا فِيهِ

وفي قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ كنايَةٌ عن كونِهِ مالكًا للأمر كلِّه؛ ووجهُ ذلكَ أنَّ "تَملُّك الزَّمان -كتَمَلُّك المكان- يستلزم تَملُّك جميع ما فيه"[5]، ثم إنَّ فيه إثباتًا لمُلكه له مع البُرهان على ذلك؛ لأنَّ "مالكيَّةَ الظَّرف من حيث إنَّه ظرفٌ مُستلزِمَةٌ لمالكيَّةِ المظروفِ بطريقٍ بُرهانيٍّ أبلَغ، فيكون حاصلُ مَعْنَى مالكيَّة يوم الدِّين نفسِه من حيث إنَّه ظرفٌ: مالكيةَ جميع الأمور التي كانت فيه"[6].

ذِكْرُ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ من الإطناب بذكر الخاصِّ بَعْدَ العام:

تخصيصُ المُلك بيوم الدّين عنايَةٌ به، وتنبيهٌ للاستعداد له

وتخصيص المُلْكِ بيوم الدِّين في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ لا

---

(1) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/174.
(2) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/174.
(3) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/174.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/36.
(5) الخفَاجِيّ، كفايةُ القاضي: 1/100.
(6) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 206-1/205.

ينفي مُلكَهُ لِمَا عداه؛ إذْ إنَّه سبقَ قبلُ الإخبارُ بأنَّهُ ربُّ العالمين، ومن معاني الرّبوبيّة المُلكُ والتّصرّفُ، وهذا عامٌّ في الدَّارين: الدُّنيا والآخرة[1]، وعلى هذا؛ فيكون قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ مِنَ الإطنَابِ بذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ؛ للعناية بشأن الفردِ الخاصِّ وهو يومُ القيامةِ.

ظرفُ الزّمان (يوم) بين الاستعارة والمجاز المرسل:

استـعـارَةُ لفظ (يـوم) للدّلالة عـلى الـزّمَـن الـمُمتدّ في يوم القيامة أو مجازٌ مُرسلٌ علاقتُهُ التّقييدُ والإطلاق

وفي قوله: ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، سبَقَ أنَّ اليومَ في الأصل: المُدَّة المُمتدَّة مِن طلوع الفجر إلى غروب الشَّمس، ثُمَّ استُعِيرَ فيما بين مُبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدَّارين فيهما[2].

وتَخْرِيجهُ إلى المجَاز المُرْسَلِ أَظْهَرُ مِن تخريجه على الاِسْتِعَارَةِ؛ وتكون علاقتُه التَّقْيِيدَ والإطلاقَ، فاليوم الذي هو الوقت الممتدُّ من طلوع الفجر إلى غروبِ الشَّمس أُرِيدَ به مُطْلَقُ الوقتِ دون تقييده بطلوع الفجر وغروب الشّمس.

وتَوْجِيهُهُ على الاِسْتِعَارَةِ فيه ضَرْبٌ مِن البُعْدِ؛ إذْ يُخَرَّجُ على أنَّه شُبِّهَ الوقت الذي يمتَدُّ من مبتدأ القيامة إلى استقرار أهل الدَّارَيْنِ فيهما بالوقت الممتَدِّ مِن طلوع الفجر إلى غروب الشَّمْس، بجامِعِ: سُرعة الانقِضَاء في كلٍّ، فالثَّاني سريعُ الاِنْقِضَاءِ حقيقةً، والأوَّلُ سريعُ الانقضاء بالنسبةِ للمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ وَرَدَ في الحديث: «يَوْمُ الْقِيَامَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كَقَدْرِ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ»[3].

لَكِنْ يُشْكِلُ على هذا التّوجيهِ التّعبيرُ عَنْهُ باليوم في سِيَاقِ وَعيدِ العُصاة والكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 174]، ولذا فإنّ توجيهَهُ على الاِسْتِعَارَةِ فيه بُعْدٌ، والله أعلم.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/134.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/143.

(3) رواه الحاكم في المستدرك، حديث رقم: (283)، وهو صحيح، كما في السِّلسلة الصَّحيحة، حديث رقم: (8193).

عبارةُ ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أشملُ من (يوم القيامة):

شُمُولِيَّةُ الْحِسَابِ وَالجَزَاءِ لِجَمِيعِ الأَزْمِنَةِ

وقال سبحانه: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ولم يَقُلْ: (يَوْمِ القِيَامَةِ)؛ لكونِ الأولِ أَعَمَّ؛ إِذِ الدِّينُ بمعنى الجزاءِ والحساب يشمَل جميع أحوال القيامة مِن ابتداءِ النُّشور، إلى السَّرْمَدِ الدَّائم، بَلْ يكادُ يتناولُ النَّشأةَ الأُولى بأَسْرِها[1].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

ملِك، ومالِك:

المالِكُ أوسَعُ وأدخلُ في المَدح، والمَلِكُ خاصٌّ بالعُقلاء

اختُلف في المالك والملِك؛ فقيل: هما بمعنًى واحدٍ[2]، وقيل بينهما فَرْقٌ، واختلفوا في وَجْهِ الفرقِ بينهما على أقوالٍ:

القولُ الأوَّلُ: أَنَّ المالك أوسعُ وأدخَلُ في الـمَدْحِ مِنَ الملِكِ، وذلك من وجهين[3]:

أَحَدهما: أنَّه يقال: اللّهُ مالك الإنس والجنِّ والطَّير وكلِّ شيءٍ، ولكن لا يُقالُ: مَلِك كلِّ شيءٍ؛ إذْ إنَّ المَلِكَ خاصٌّ بالعقلاء؛ لأنَّ الـمُلْكَ - كما سبق - قَهْرُ مَنْ تَتَأَتَّى مِنْهُ الطّاعَةُ، ولا تَتَأَتَّى الطَّاعة إلَّا مِنَ العُقَلاء. قال الرَّاغب: "الـمَلِكُ: هو الـمُتَصَرِّف بالأمر والنَّهْي في الجُمْهُور، وذلك يَخْتَصُّ بسياسَةِ النَّاطقين، ولهذا يُقَالُ: مَلِكُ النَّاسِ، ولا يُقال: مَلِك الأشياءِ"[4].

ثَانيهما: أنَّه لا يُوصَفُ أحدٌ بكونه مالكًا شيئًا إلا وهو يملِكُهُ، بخلاف الملِكِ؛ فقد يكون ملكًا على شيءٍ وهو غيرُ مالكٍ لهُ، كما يقال: ملكُ العَرَبِ.

---

(1) فاضل السَّامرائيُّ، لمسات بيانيَّة، ص: 38.
(2) الثَّعلبِيُّ، الكشف والبيان: 1/114.
(3) الثَّعلبي، الكشف والبيان: 1/114.
(4) الرَّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (ملك).

المَلِكِ أَعَمُّ مِن المالِكِ، وأمرُهُ نافِذٌ على المالك في مُلكِه

القول الثاني: أنَّ المَلِكَ أَعَمُّ مِن المالِكِ[1] -وهو عَكْسُ الأَوَّل-، وذلك من وجهين:

أحدهما: أنَّ كُلَّ ملكٍ مالكٌ، وليس كلُّ مالكٍ ملِكًا؛ فقد يملك الإنسانُ الشَّيْءَ الحقيرَ أو الجليلَ، ولكنه ليس مَلِكًا.

ثانيهما: أنَّ الملِكَ يَنْفُذُ أمرهُ على المالكِ في مُلْكِه، فقد يَمْنَعُ المَلِكُ مَالِكَ الشيءِ مِنَ التصرُّفِ فِيمَا يَمْلِكُهُ إِلَّا بإِذْنٍ مِنْهُ.

بين ﴿مَٰلِكِ﴾ و﴿مَلِكِ﴾ عُمومٌ وخُصوصٌ وَجْهِيّ:

وحاصِلُ ما يُمْكِنُ قولُه[2]: أَنَّ المالكَ والملِك بينهما عمومٌ وخصوص وَجْهِيٌّ؛ فكلُّ واحدٍ منهما أعمُّ مِنْ وجهٍ وأخصُّ مِنْ وَجْهٍ، وبهذا يَنْتَظِمُ القولانِ السَّابقانِ في نظامٍ واحدٍ.

وإذا ضَمَمْنَا ما قُرِئَ به في المتواتر ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[3] إلى هَذِهِ القراءةِ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[4]؛ تكاملَ المَعْنَيَانِ.

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/140.

(2) فاضل السَّامرائيُّ، لمسات بيانيَّة، ص: 37-35.

(3) قرأ (ملك) بدون ألف: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وأبو جعفر، ينظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 1/271.

(4) وقرأ (مالك) بإثبات الألف: عاصم، والكسائي، ويعقوب، وخَلَف، ينظر: ابن الجزري، النشر: 1/271.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: 5]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العِبادَةُ غايَةُ الخَلْق، وهي قائِمَةٌ على الحُبّ والرَّجاء والخَوف

بعدَ حَمْدِ اللّه تعالى وهو مُتَضَمِّنٌ للحُبِّ والتعظيم -كما سبق-، وذِكْرِ اسمين دالَّين على الرَّحمةِ وهما يَبْعَثَانِ على الرَّجاءِ، وذِكْرِ مُلْكِهِ ليوم الدِّينِ وهو باعثٌ على الخوف؛ ذُكِرت الغايةُ التي مِنْ أجلها خَلَقَ اللّه تعالى الجنَّ والإنسَ وَهِيَ العِبَادَةُ، والعبادةُ تقوم على أصولٍ ثلاثةٍ؛ هي: الحُبُّ والرَّجاء والخوف[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

العبادةُ اتِّباعُ خطابِ الشَّرْعِ المُقترِنُ بالحُبِّ والخضوع

1) ﴿نَعْبُدُ﴾: مِنَ العبادة، وهي في الأصل: الذُّلُّ والخضوعُ[2]، ومنه قولُهُم: طريقٌ مُعَبَّد؛ إذا كان مُذَلَّلا، مِنْ تأثيرِ النَّاسِ فيه[3]، قال ابْنُ سِيدَهْ: "أصل العِبَادَة في اللُّغَة التّذليل؛ مِن قَوْلهم: طَرِيق مُعَبَّد، أَي: مُذَلَّل؛ بكثرةِ الوَطْء عَلَيْه"[4].

والعبادةُ تُطلق إطلاقين:

أحدهما: التَّعَبُّد، وتُعَرَّفُ بأنَّها: اتِّباعُ خطابِ الشَّرْعِ المقترِنُ بالحُبِّ والخضوع[5].

والآخر: المُتَعَبَّدُ به، وتُعَرَّفُ بأنَّها: "اسْمٌ جَامع لكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللّه ويرضاه مِنَ الْأَقْوَال والأعمال البَاطِنَة وَالظَّاهِرَة"[6].

والمُراد في الآيةِ: الإطلاقُ الأوَّلُ.

(1) جماعة من علماء نجد، الدُّرر السَّنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة: 13/72.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عبد).
(3) الأنباريّ، الزّاهر: 1/107.
(4) ابن سِيدَه، المخصَّص: 4/62.
(5) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 3/409.
(6) ابن تيميّة، العبوديّة، ص: 44.

الاستعانةُ طَلَبُ العَوْنِ والمُظاهَرَة والمُساعدة

2) ﴿نَسۡتَعِينُ﴾: مِنَ الاستعانَةِ؛ وهي طَلَبُ العَوْنِ[1]؛ فالسِّين والتَّاء تدلُّ على الطَّلَبِ[2]، كما هو غالب معناها.

والعَوْنُ أو المعاونة: المُظَاهَرَةُ والمُسَاعَدَةُ[3].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

نخصّك وحدك بالعبادة، ونستعين بك وحدك، ولا نعتمد على أحد سواك

نخصُّكَ وحدَك بالعبادة، ولا نعبدُ أحدًا غيرَكَ، ونستعينُ بك في أمُورنا كلِّها، ولا نطلب العونَ مِنْ أحدٍ غيرِكَ، ونعتمدُ عليكَ في جَلْب المنافع، ودَفعِ المضارِّ؛ إذ الأَمْرُ كلُّه بيدكَ وحدكَ.

وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ كمالَ الإيمانِ يكون بإخلاصِ العبادةِ للّه تعالى، وبطلب العَوْن منه وحده دون سواه، وأنَّ العبادةَ أعلى مراتبِ الخضوع، ولا يجوز شرعاً ولا عقلاً فِعْلها إلا للّه تعالى، فلا يجوز للمسلم أن يَصْرِف شيئًا من أنواع العبادات: كالدُّعاء، والاستغاثة، والذَّبح، والطَّواف إلا للّه وحدَه، وأنَّ في إخلاص العبادة للّه وحده شفاءَ القلوب من داء التعلُّق بغير اللّه، ومن أمراض الرِّياء، والعُجْب، والكِبْرياء، ونحوها، وأنَّ مَن لم يُعِنْه اللّه على مقصوده، لم يَتحقَّقْ له ما يريده من أفعال الخير.

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيّ وَالبَلَاغِيّ:

نُكَتُ العُدُولِ عَنِ الغَيْبَةِ إِلَى الخِطَابِ:

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، جاء بعد الإخبار عن اللّه ﷻ بطريق الغَيْبَةِ - إذِ التَّعبيرُ بالاسم الظَّاهر في حُكْم الغَيْبَةِ -، وذلك بدءًا من ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، ولو كان الكلامُ بأسلوبِ الخِطَاب؛ لَقِيل: (باسْمِكَ).

ثُمَّ جاء بعدها: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، ولو كان بأُسْلُوبِ الخِطَاب؛ لقيل: (الْحَمْدُ لَكَ).

(1) الرّاغب، المفردات: (عون)، وابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 1/103.
(2) جمالُ الدّين بَحْرَق، فتح الأقفال وحلُّ الإشكال بشرح لاميَّة الأفعال، ص: 139.
(3) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: 3/144.

ثُمَّ جاءت هذه الآيَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بأسلُوبِ الخِطَاب؛ وكان مُقْتَضَى التَّلاؤُم في الظَّاهر مع ما قَبْلَهَا أَنْ يُقَالَ: (إيَّاه نعبدُ وإيَّاه نستعين)؛ لِيَكُون أسلوبَ غَيْبَةٍ، كمَا أنَّ ما قبلَهَا كذلك. وهذا العدُولُ مِنَ الغَيْبَةِ إلى الخطاب يُعرف بـ: أُسْلُوبِ الاِلْتِفَات[1].

وهذا الفَنُّ مِنْ فُنُونِ الكَلَام هو خلاصةُ علم البيانِ التي حولَها يُدَنْدِن، وإِلَيْهَا تستَنِدُ البلاغةُ وعَنْهَا يُعَنْعِنُ[2].

ولهذا الأسلوبِ صُوَرٌ، والواردُ في سورة الفاتحة هو الْتِفَاتٌ بالانتقالِ مِنْ أسلوب الغَيبة في﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ وَ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، إلى أسلوب الخطاب في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

وهذا العدولُ بالالتفاتِ له نِكَاتٌ، منْهَا:

الالتِفاتُ لتطْريَةِ نشاطِ السّامِع وتنبيهه

الأولى: أنَّ هذا الانتقالَ أحسنُ تَطْرِيَةً لنشاطِ السَّامع، وإيقاظًا للإصغاءِ إِلَيْهِ مِنْ إجرائه على أسلوب واحدٍ[3]، وهذه فائدَةٌ عامَّةٌ في غالبِ الالتفاتات[4].

الالتفاتُ إلى الخطاب إشارَةٌ إلى استحضار المهابَة الإلهيّة، فالحامِدُ بين يدي ربّه

الثَّانية: أنَّ الإنسانَ لَمَّا حَمِدَ اللّه وأثنى عَلَيْهِ ومجَّدَهُ؛ كأنَّه حضر بَيْنَ يَدَي اللّه تعالى فصار العَبْدُ مخاطبًا رَبَّهُ كَخِطَابِ الحَاضِرِ عِنْدَهُ[5].

الثَّالِثَة: أنَّ فيه تنبيهًا على أنَّ قارئ القرآنِ المُنعَمَ عَلَيْهِ ينبغي أن يَجِدَ مِنْ نفسه دافعًا إلى الإقبال على مَنْ يحمَدُهُ حتَّى كأنَّه عنده، وإلَّا ما كان قارئًا على الحقيقة، كمَا أَوْمأ إليه السَّكَّاكيُّ[6].

الخطابُ تَوطِئةٌ للدُّعاء، وأحْسَنُ الطّلَب ما كان خطابا

الرَّابعة: أنَّ التَّعبير بالخطابِ هَهُنا توطئَةٌ لِلدُّعاءِ الذي بَعْدُ في ﴿ٱهۡدِنَا﴾، ويوضِّحُ هذا: النُّكتةُ التي تَلِيها[7].

(1) الالتفات عند الجمهورِ: هُو «الانتقال مِن كُلٍّ مِن التَّكَلُّمِ أو الخطاب أو الغيبة إلى نظيرِهِ المخالفِ له؛ لُنكتةٍ»، ينظر: أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 212.

(2) ابن الأثير، المثل السَّائر: 2/135.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/14.

(4) هَذا هو المشهور عند البلاغيِّين، وخالفهم ابنُ الأثير كما أوضحه في المثل السَّائر: 2/136.

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/135.

(6) السَّكَّاكيُّ، مفتاح العلوم، ص: 202.

(7) فاضل السّامرائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 48.

الخَامسة: أنَّ أحسن الطَّلَبِ ما جاء عَنْ طريق الخطاب؛ وذَلِكَ أنَّ الكريمَ إذا سُئِلَ على وجهِ الخطابِ؛ يَبْعُدُ أن يَرُدَّ السَّائِلَ[1].

السَّادسة: أنَّ لفظَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ ليس مختصًّا باللّه تعالى؛ إِذْ قَدْ يُحْمَدُ غَيْرُهُ، بخلاف العبادَةِ؛ فهي للّه تعالى وحْدَهُ، ولذا لمَّا جاء ذِكْرُهَا؛ صُرِّحَ باختصاصها به سبحانه بأسلوب الخِطاب[2].

الحَمْدُ أبلَغُ إذا وَقَعَ على وجه الغَيْبَةِ، والعبادَةُ أحوَجُ إلى الخطاب

السَّابعة: أنَّ الحمد والثَّناء أبْلَغُ إذا وَقَعَ على وجه الغَيْبَةِ، ولكنَّ العبادَةَ لا تكون إلا لِلّذي لا يَغيبُ، كما قال اللّه تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76]، فكان التَّعبير في مقام العبادةِ بالخطابِ أنسبَ[3].

مَعْرِفَةُ اللّه تدعو إلى خطابه والتضرّع بين يَدَيْه بالدّعاء

الثَّامنة: أنَّ مبدأ الخلق غَيْبَتُهُم عن اللّه سبحانه، وقُصُورُهم عن خطابِهِ؛ فإذا عَرَفُوه بصفاتِهِ اللَّائقة بعظمته، وتوسَّلوا لِلقُرب مِنْهُ تعالى بحمده والثَّناء عَلَيْهِ؛ تأهَّلوا لخِطَابِهِ[4].

نِكَاتُ التَّعْبِيرِ بِالنُّونِ فِي ﴿نَعۡبُدُ﴾:

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وردت في سياق الدُّعاء، والمُنَاسِب لمقام الدُّعاء: الخضوعُ حَالًا ومقَالًا، فكان مُقتضى الظاهر أنْ يُقَال: (إِيَّاكَ أَعْبُدُ وَإِيَّاكَ أَسْتَعِينُ) بدلًا من التَّعبيرِ بـ: ﴿نَعۡبُدُ﴾ و﴿نَسۡتَعِينُ﴾ المُشْعِرِ بالعظمَةِ؛ فإنَّ تعظيمَ الدَّاعي نفسَهُ لا يَليقُ.

بصيغة (نَعبُدُ) يُعبِّرُ المُؤمنُ عن نَفْسِه وإخوانه بالعبادة التي خُلِقوا من أجلها

والعُدولُ عَنِ التَّعبير بـ(أَعْبُدُ) و(أَسْتَعِينُ) إلى التَّعبير بـ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ له نِكَاتٌ، منْهَا:

الأولى: أنَّ هذا التَّعبير إخبارٌ عن جِنس العباد، والقارئُ -مُصليًا

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 1/198.
(2) ابن الأثير، المثل السّائر: 2/137.
(3) فاضل السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 48.
(4) حسن طَبل، أسلوب الالتفات في القرآن الكريم، ص: 107.

كان أو غيرَه- فَرْدٌ مِنْهُمْ، فيكون قد أَخْبَرَ عن نَفْسِهِ وعن إخوانِهِ المؤمنِينَ بالعبادة التي خُلِقُوا لأجلها، وتَوَسَّطَ لَهُمْ بِخَيْرٍ[1]، وعلى هذا التَّوجيهِ فالنُّونُ لِلجَمع لا للتَّعظيم.

التّعبيرُ بنون الجمع (نَعبُدُ) أدخَلُ في هَضْمِ النّفس لا في تعظيمها

الثَّانية: أنَّ التَّعبير بالنُّون هَهُنا أنسب؛ إِذْ لَوْ قيل: (أَعْبُدُ) و(أَسْتَعِينُ) لكان فيه مِن تعظيم الدَّاعي ما ليس في الأوَّل؛ إِذْ يكون قد عظَّم نفسَهُ بجَعْلِهَا وحدَها أهلًا لعبادة اللّه ﷻ[2]، قال الشَّوكاني: "إنَّ المقام لمَّا كان عظيمًا لَمْ يَسْتَقِلَّ به الواحدُ؛ اسْتِقْصَارًا لنفسه واستِصْغَارًا لها، فالمجيءُ بالنُّون لقصد التَّواضع لا لِتَعْظِيم النَّفْس"[3].

التّعبيرُ بنون الجَمْع (نَعبُدُ) إيماءٌ إلى أهمّيّة الجماعة، وإغاظةٌ للكافرين

الثالثة: أنَّ في التَّعبير بالنُّون إشارةً إلى أهميَّة الجماعةِ في الإسلام، مِمَّا لا يُفيده (أعبد) و(أستعين)[4].

الرّابعة: أنَّ فيه إغاظةً لِلمُشْرِكِينَ بأنَّ أهل الإسلام قد صاروا في عِزٍّ ومنَعَةٍ؛ وذلك أنَّ هذه المحامدَ ناشئةٌ مِنْ جماعاتٍ متكاثرةٍ[5].

تقديمُ المعمول يُفيدُ القَصرَ عند أغلب أهل البيان:

تَعظِيمُ اللهِ وَقَصْرُ العِبَادَةِ عَلَيْهِ ضرورةٌ يقتضيها الإيمانُ الخالص

من زاوية أخرى، فإنَّ في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تقديمًا وتأخيرًا، والأصل: (نَعْبُدُكَ وَنَسْتَعِينُكَ).

وفائدةُ التَّقديم هَهُنا: الدّلالة على القصرِ[6]، قال السُّيوطيُّ: "كاد أهل البيان يُطْبِقُون على أنَّ تقديمَ المعمول يُفيد الحصر، سواء كان مفعولا أو ظرفا أو مجرورا، ولهذا قيل في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، معناه: نخصُّك بالعبادةِ والاستعانَة"[7].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/135.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/135.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 1/27.
(4) فاضل السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 43.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/186.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/17.
(7) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 3/174.

فيكون المعنى: نعبدُك ولا نعبد غَيْرَكَ، ونستعينُ بك ولا نستعين بغيرك.

ولهذا التَّقديم فَائِدَةٌ أخرى؛ وهي: تعظيمُ اللّه ﷻ بِذِكْرِهِ أَوَّلًا، ولِمَا في التَّقديم مِنَ الاهتمام بالمعبودِ والمستعانِ به[1].

نُكَتُ تَقْدِيمِ العِبَادَةِ عَلَى الِاسْتِعَانَةِ:

بلاغةُ القرآن أَرْقَى من أن تَقُوم على مُجَرّد اعتباراتٍ لفظيّة

وقُدِّمت العبادةُ على الاستعانةِ في الذِّكْرِ وهي مُؤَخَّرَةٌ في المعنى، في ظاهر كلام الواحديِّ[2]؛ فإنَّه قال: "لم قُدِّم ذكرُ العبادة على المعونة، وإنما المعونة بها تكون العبادة؟ والجواب: أنَّ الواو عند النحويِّين لا تُوجِب ترتيبا، وإنَّما هي لِلْجَمْع"[3].

وكأنَّ تأخير الاستعانةِ عِنْدَهُ إنَّما هو لمراعاةِ الفواصلِ[4]؛ إذْ لو قيل: (إيَّاك نستعين وإيَّاك نعبدُ)؛ فات التَّناسبُ في فواصلِ الآيِ كما هُو ظاهرٌ.

ومخالفةُ الأصلِ لمجرَّدِ رعاية التناسُبِ الصَّوْتِيِّ دونَ نظرٍ إلى المعنَى، فيها ضربٌ مِنَ الضَّعْفِ، وبلاغةُ القرآن أَرْقَى من أن تَقُوم على اعتبارٍ لفظيٍّ محضٍ[5].

وقد ذهب جمعٌ مِن أهل العلم إلى أنَّ لتقديم العبادَةِ على الاستعانَةِ اعتباراتٍ معنويَّةً، مِنْ ذلك:

الاستعانةَ من أنواع العبادة فَهِيَ من باب ذِكْرِ الخاصّ بَعْدَ العامّ، ومِن تَقْديم الوَسيلة قبلَ الطّلب

أَوَّلًا: أنَّ الاستعانةَ من أنواع العبادة، فذَكَر العبادةَ أوّلًا، ثُمَّ ذَكَرَ فَرْدًا مِنْ أَفْرَادِهَا[6].

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/65.
(2) وكلام الرّاغب في تفسيره: 1/59، يُشبهه.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 1/517.
(4) وقد صرَّح بهذا السّببِ القِنَّوجيّ في فتح البيان: 1/49، إلا أنَّه لم يجعله سببًا مستقلاًّ للتّقديم، بل أردفَهُ بنكتةٍ معنويّة، وينظر: النّيسابوريّ، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 1/34.
(5) بنت الشاطئ، التّفسير البياني: 1/35.
(6) البغوي، معالم التّنزيل: 1/54.

وعلى هَذَا، تَكُونُ الآيَةُ مِن باب الإطناب؛ بذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ[1]؛ تنبيهًا على خِصِّيصَةٍ ومَيْزَةٍ في الفرد الخاصِّ.

ثانيًا: أنَّ ذلك من باب تقديم الوسائل قبل طَلَبِ الحاجات؛ وذلك أقربُ إلى الإجابة[2].

العِبادةُ غايةٌ والاستعانةُ وَسيلة

ثالثًا: أنَّ الاستعانة وسيلةٌ إلى العبادةِ؛ إذْ لولا عَوْنُ اللّه للعبدِ ما صَدَرَتْ منه عبادةٌ؛ فقُدِّمَت العبادةُ لِكَوْنِها الغايةَ، والاستعانةُ وسيلةٌ[3].

العبادةُ بلفظ الجَلالة ألْصَقُ، والاستِعانة إلى الرُّبوبيّة أحْوَجُ، فَجاءَ ذِكْرُهما على وَفق ترتيبهما في السّورة

رابعًا: أنَّ قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يتعلَّق بالألوهيَّة وباسمه سبحانه (اللّه)، وقولَهُ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يتعلَّق بالرُّبوبيَّة وباسمه سبحانه (الرَّبّ)، فقُدِّمَ ما يتعلّق باسمه (اللّه) على ما يتعلّق باسمه (الرَّب)؛ ليتناسبَ ذلك مع المَذْكُورِ أوَّلَ السُّورة[4]؛ فإنَّ اسمَهُ سبحانه (اللّه) مقدَّمٌ على اسمه (الرَّبّ).

وعلى هذا التَّقرير يكون هذا التَّقديم بمنزلة اللّفِّ والنَّشر المرتَّب.

إتباعُ العِبادة بالاستعانة تَبَرُّؤٌ مِن الحَوْل والقُوَّة؛ فلا قُدرَةَ للعبد على العبادة إلاّ إذا استعانَ بخالقه

خَامِسًا: أنَّ العبادَةَ طلبٌ للّهِ، والاستعانةَ طلَبٌ مِنَ اللّه؛ فقُدِّمَ ما كان للّه على ما كان مِنْهُ[5].

ولمّا أَسْنَدَ المتكلِّمُ العبادةَ إلَى نفسه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وكانَ ذلك ممّا قَدْ يُوهم اعتدادًا وتبجُّحًا بما يَتَعَبَّدُ للّه به، أعقبه بـ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إيماءً إلى أنَّه يتبرّأ من حَوْله وقوّته، وأنّ العبادةَ لا تَتِمُّ إلَّا بِعَوْنِ اللّه وتوفيقه[6].

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 39.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/14، والنَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/32، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/44.
(3) ابن أبي الرَّبيع، تفسير الكتاب العزيز وإعرابه، ص: 390، وابن القيّم، التّفسير القيّم، ص: 70، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/135.
(4) ابن القيّم، التّفسير القيّم، ص: 70.
(5) ابن القيّم، التّفسير القيّم، ص: 71، وابن القيّم، مدارج السَّالكين: 1/98.
(6) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 30-1/29، ومحيي الدّين زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 1/89.

فَائِدَةُ تَكْرَارِ الضَّمِيرِ ﴿إِيَّاكَ﴾:

تَكرِيرُ الضّمير (إيّاك) يُفيدُ القَصرَ في العبادة والاستعانة كِلَيْهما

وكُرِّرَ الضَّميرُ (إيَّاكَ) في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولم يأتِ: (إيَّاك نعبد ونستعينُ)؛ لِنُكَتٍ، مِنْهَا:

أوَّلًا: لو قيل: (إيَّاك نعبد ونستعين)؛ لكان مُفيدًا لقصر العبادةِ على الله، ولم يكن قصر الاستعانةِ عَلَيْهِ ظاهرًا؛ لِاحتمال أَن يُقَدَّر مفعولُ ﴿نَسْتَعِينُ﴾ مؤخَّرًا، فيكون التقديرُ: (إيَّاك نعبد ونستعينُكَ)[1]، فكُرِّرَ ﴿إِيَّاكَ﴾؛ لِئَلَّا تفوتَ إفادةُ القَصْرِ مع فِعْلِ الاستعانَة.

تَكرِيرُ الضّمير (إيّاك) أدْخَلُ في مقام المَدْح، وأوقَعُ في تفخيم الخطاب

ثانيًا: أنَّ تَكرارَهُ أعظَمُ في مقام المدح، ولذا كَانَ قولُكَ: (بكَ أَنْتَصِر، وبك أحتمي، وبك أَنَالُ مَطَالبي) أبلغَ وأمدحَ من قولك: (بك أنتصر وأحتمي)[2].

ثالثًا: أنَّ تَكرارهُ أدخَلُ في تعظيم الكلام وتفخيمه[3].

رابعًا: كُرِّرَ ﴿إِيَّاكَ﴾؛ ليكونَ كُلٌّ مِنَ العبادة والاستعانة قد سِيقَ في جملةٍ مستقلَّة، ويكونَ كلٌّ مِنْهُمَا مقصودًا بالأصالَةِ[4].

تَكرِيرُ الضّمير (إيّاك) دَعْوَةٌ إلى المُداومة على ذِكْر الله تعالى، وأبلَغُ في إظهار التّوكّل عليه سبحانه

خامسًا: أنَّ فيه تعليمًا للعبادِ بتجديد ذِكْرِه سبحانه عندَ كُلِّ أمرٍ؛ لأنَّ المرادَ بِكَافِ الخِطَاب في ﴿إِيَّاكَ﴾ هو الله تعالى[5].

سادسًا: أنَّ تكرارَهُ أبلَغُ في إظهار الاعتماد على اللهِ سبحانه[6].

سابعًا: لو تُرك تَكراره بأَنْ قيل: (إيَّاك نعبد ونستعينُ)؛ لَتُوُهِّمَ أنَّه لا يُتَقَرَّب إلى الله سبحانه إلَّا بالجمع بين العبادة والاستعانَةِ[7].

(1) الكرمانيّ، أسرار تكرار القرآن، ص: 66، ويُقارَن بما ذكره القرطبيُّ في الجامع لأحكام القرآن 1/146.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/59.
(3) أبو المظفر السّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/37.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/44، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 1/74.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 1/93.
(6) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/59.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 1/93، وفاضل السّامرائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 42.

ثامنا: كُرِّرَ الضَّمير ﴿إِيَّاكَ﴾؛ لئلَّا يُتوهَّمَ استواءُ القَصْرَيْن، والواقعُ: خلافُهُ؛ فَإِنَّ القصرَ في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقي تحقيقيٌّ، والقصرَ في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ؛ إِذْ إِنَّ المسلم قد يستعين غيرَ اللّٰه تعالى، كيف وقد قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المَائِدَة: 2]، ولكنَّه لا يَسْتَعِينُ في عظَائِم الأمور إلَّا باللّٰه، ولا يَعُدُّ الاستعانةَ حقيقةً إلَّا الاستعانةَ باللّٰه تعالى[1].

القَصْرُ في العبادة حَقيقيّ، والقَصْرُ في الاستعانة ادّعائيٌّ؛ إذ يجوزُ الاستعانةُ بغير الله في غير الأمور العظام

الفرقُ بين تقديم الحمد في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وتقديم الضمير في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾:

اشْتِرَاكُ الحَمْدِ، وَخُصُوصِيَّةُ الْعِبَادَةِ

وفي قوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قدَّمَ الضَّميرَ الدَّالَّ على اللّٰه تعالى، وفي قولِه قبلُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قَدَّم الحَمْدَ؛ وذلك أنَّ الحَمْدَ يكون للّٰه ويكونُ لغيرِه، فقد يُحْمَدُ غيرُ اللّٰه حَمْدًا خاصًّا، فإذا قيلَ: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾؛ كان محتملًا أنَّه للّٰه أو لغيره، فإذا قيل: ﴿لِلَّهِ﴾؛ تعيَّنَ أَنْ يكون للّٰه، وهذا بخلاف العبادة؛ فإنّها لا تكون إلَّا للّٰه تعالى، ولو قيل: ﴿نَعْبُدُ﴾ أوَّلًا؛ لظنَّ أنَّ هذا من جِنْسِ الحَمْدِ يَصْلُحُ للّٰه ولغيره، ثُمَّ يأتي تَقْيِيدُهُ بعدُ، وهذا باطلٌ[2].

دلالة حذف المفعول على العُموم:

المؤمن يستعينُ باللّٰه تعالى في كلّ شؤونه وحاجاته جليلِها ودَقيقِها

وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، جاء فعل الاستعانة مطلَقًا، أي: لم يُحَدَّد المُستعانُ عليه، وذلك لإفادَةِ الشّمول؛ إِذْ إِنَّ حذفَ المعمولِ مُؤْذِنٌ بالعُمُوم[3]، فتَتَنَاوَلُ الاستعانةُ كلَّ مُستعانٍ عَلَيْه، والمَعْنَى: نَسْتَعِينُ بكَ وَحْدَكَ على جَميعِ أُمُورِنا[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/186.
(2) الرازيّ، التّفسير الكبير: 1/212.
(3) أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 156.
(4) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/65.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا عَلِمَ المؤمنُ عـظـمـةَ الـلـه تـعالى بنُعوتِ الكمال والجلال السّابقة الذّكر، قـويَ رَجـاؤهُ في فَضْلِه وعطائه فبادَرَ إلى طلَبِ الهداية

لـمَّا ذُكِرَ إفرادُ اللّه بالعِبادةِ، وإفرادُهُ بالاسْتِعانةِ؛ وكانَ ذلك مُشْعِرًا بالافتقار إلى حَوْله وقُوَّتِه، وظَنَّ المُسلمُونَ إقبالَ ربِّهِمْ عَلَيْهِمْ وقوِيَ رجاؤُهُمْ في فضْلِهِ وعطائِهِ؛ نَاسبَ ذلك توجيهُ الرَّغبة إِلَيْهِ بطلب الحاجة، فقَالَ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[1].

ولـمَّا كانت صحّةُ العبادةِ مُتَوَقِّفةً على شَرْطَيْنِ؛ هما: الإخلاص للّه تعالى، والمتابعة لرسول اللّه ﷺ، وكان الشَّرطُ الأوَّلُ مُشارًا إليه بتقديم المعمول ﴿إِيَّاكَ﴾ على ﴿نَعۡبُدُ﴾؛ ناسبَ ذلك ذِكْرُ الشَّرْطِ الثَّاني بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

وثَمَّةَ وجهٌ آخَرُ؛ وهو أنَّه لـمَّا سَبَقَ طلبُ الإعانة مِنَ اللّه تعالى وَحْدَه؛ جاءَ قولُه: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ كَالبَيَانِ لِلمَطلوب مِنَ الإعانةِ، كأنَّه قيل: كَيْفَ أُعِينُكُم؟ فقالوا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱهۡدِنَا﴾: فِعْلُ أمْرٍ مِنَ الهدايةِ والهُدَى؛ بِمَعْنَى: الدّلالة والبيان والإرشاد.

جَـوْهَـرُ الهداية البيانُ والإرشادُ، وهـدايـةُ الـلـه للمؤمن تَوفيقٌ

وفرَّقَ جماعةٌ - منهم الأَصْمَعِيُّ - بين الهداية والهُدى، فجعلوا الأوَّل للدّلالة على الطَّريق، والثَّاني لِبَيَان الدِّين، يقال: هداه إلى الطَّريق؛ أي: دَلَّهُ، وهداه للدِّين هُدًى؛ أي: بيَّنَ لَهُ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/39، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/187.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/15.
(3) نَشوان الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: (هدى)، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (باب الهاء والدال)، وابن سِيدَه، المُخَصَّص: 4/51.

وظاهر كلَامِ ابن القطَّاعِ[1] والزَّمَخشريِّ[2] أنَّهُما بمعنًى واحدٍ.

2) ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: بالصَّاد، والسِّين، وإشمام الصَّادِ صوتَ الزَّاي، وبالزَّاي الخالصة[3]، وأصله بالسِّين، مِنْ قَوْلِهم: سَرَطَ الرَّجلُ الطعامَ؛ إِذَا بلَعَهُ، ويُقال: انْسَرَطَ الشَّيْءُ في حَلْقِه؛ إِذَا سَارَ فيه سيرًا سهلًا[4]، وَمِنْهُ سمِّيَ السِّراطُ؛ وذلك على وجهِ التَّخْييلِ؛ لأنَّه يبتلعُ سالِكيهِ، أو أنَّ سالكيهِ يبتلعُونَهُ[5].

الصّراطُ يبتلِعُ سالِكيه، وهو الطّريقُ القاصدُ

والصِّراط: الطَّريق مطلقًا[6]، أَوِ الطَّرِيق القاصد[7]، والمنهاج الواضح[8].

والصراطُ في الآية: الطَّريقُ المُوصِلُ إلى رِضوانِ اللّهِ، وهو الإسلامُ.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أَرْشِدْنَا، يا ربّنا، ودُلَّنا على الصِّراط المستقيم وَوَفِّقْنَا لِلُزُومِه. وهو الطَّريق الواضحُ الْبَيِّنُ المُوصِلُ إلى اللّه تعالى وجَنَّتِه، وذلك بِلُزُوم دِينِ الإسلام؛ تمسُّكًا بالقرآن الكريم، واتِّباعًا لِسُنَّة رَسُول اللّه ﷺ[9].

الصِّراطُ المُستقيمُ دالٌّ على اللهِ جلّ شأنُهُ، مُوَصِّلٌ إليه، والإلحاحُ في طلبه ضَرورة

وهذا الدعاءُ من أجمع الأدعيةِ وأنفعِها للعبد، ولذا وجب على المسلم أن يدعوَ اللّه به في كلِّ ركعةٍ من صلاته؛ لضرورته إلى ذلك، وأنَّ الهدايةَ له أعظمُ من حاجته إلى النَّصر والرِّزق.

---

(1) ابنُ القطَّاع الصِّقِليّ، كتاب الأفعال: (هدى).
(2) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (هدي).
(3) وكلُّها مقروء به في المتواتر إلاَّ الزَّاي الخالصة، ينظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 1/271.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرط).
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/68، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/63.
(6) الجوهريّ، الصحاح: (صرط).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (باب الراء والسين مَعَ مَا بعدهمَا من الحُرُوف).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سرط).
(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/20-21، والسعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 39، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسَّر، ص: 1.

من معاني الهِداية:

ذكَرَ المُفسّرون واللّغَويّون دَلالاتٍ شتّى للفظ الهداية، لخّصها القاضي البَيْضاوي في تفسيره حين قال: "والهِدايةُ دلالة بلُطفٍ؛ ولذلك تُستعمَلُ في الخَيْر، وقولُه تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصّافات: 23] واردٌ على التَّهَكُّم، ومنه الهَديَّةُ، وهوادي الوَحْشِ لمُقَدِّماتها.

وهدايةُ اللّه تعالى تتنوّعُ أنواعًا لا يُحصيها عدٌّ، لكنّها تنحَصِرُ في أجناسٍ مُتَرَتّبَة:

الـهـدايـاتُ كـثـيرةٌ أُولاهـا قُـوى الإدراك، وأعلاها إرسالُ الـرُّسُـل، والـتّـوفيـقُ للإيمان والعمل الصّالح ذُروَةُ سَنامها

الأوّل: إفاضةُ القوى التي بها يتمَكّنُ المَرءُ من الاهتداء إلى مصالِحِه؛ كالقُوّة العَقليّة والحواسِّ الباطنة والمَشاعر الظّاهرة.

والثّاني: نَصْبُ الدّلائل الفارقة بينَ الحَقِّ الباطل والصّلاح والفَساد، وإليه أشارَ حيثُ قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10]، وقال ﷻ: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصّلت: 17].

والثالث: الهِدايةُ بإرسال الرُّسُل وإنزال الكُتُب، وإيّاها عَنى بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: 73] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9].

والرّابع: أن يَكشفَ على قلوبهم السّرائِرَ، ويُريَهم الأشياءَ كما هي بالوَحْي أو الإلهام والمنامات الصّادقة، وهذا قسمٌ يَختَصُّ بنَيْله الأنبياءُ والأولياءُ، وإيّاه عنى بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾ [العنكبوت: 69].

فالمطلوبُ إمّا زيادةُ ما مُنِحوه من الهُدى، أو الثّباتُ عليه، أو حُصولُ المَراتِبِ المُرَتّبَة عليه[1].

---

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل، معه حاشية السيوطي: 289-1/288.

۞ الإيضَاحُ اللُّغويّ وَالبَلَاغِيّ:

شُمُولِيَّةُ ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ لِمعنى الدّلالة والإرْشَادِ، وَمعنى التَّوْفِيقِ والإلهام

طُرُقُ تَعدية فعل الهِداية:

قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ تعدَّى الفعلُ بنفسِه إلى المفعول الثَّاني، وهذا أحَدُ ثلاثةِ أَوْجُهٍ فيه؛ والوجهانِ الآخران: أَن يتعدَّى إلى الثَّاني بحرف الجرِّ (إلى) أو (اللَّام)، وكلُّ هذا واردٌ في القرآن الكريم.

فَتَعْدِيَتُهُ بنفسه، كما في آية الفاتحة.

وتَعْدِيَتُه بحرف الجرِّ (إلى)، كقوله تعالى: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص: 22]، وتَعْدِيتُهُ بحرف الجرِّ (اللَّام)، كقوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ [يُونُس: 35].

والفرق بين الثلاثةِ في القرآن الكريم: أنَّ فعلَ الهداية إذا عُدِّي بـ(إلى) كان المرادُ به: هدايةَ الدّلالة والإرشاد، وإذا عُدِّي بـ(اللَّام)؛ فالمراد: هدايةُ التَّوفيق والإلهامِ، وإذا تعدَّى بنفسِه شَمِلَ الهدايَتَيْن معًا.

ووجه شمولِه الهدايَتَيْن معًا عند تعديَتِه بنفسِه: أنَّ الأصل في فعل (هَدَى) أن يتعدَّى بأحد الحرفين السَّابقِ ذِكْرُهما -مع فَرْقِ المَعْنَى الذي تقدَّم-، وتعديَتُهُ بنفسِه خلافُ الأصلِ(1)، وذلك مُخرَّجٌ على أحدِ وجهين:

أحدهما: أَنَّ ذلك على تضمين الفعلِ (هدَى) معنى الفعلِ (عَرَّفَ)(2)، فقوله سبحانه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: عرِّفْنَا إيَّاهُ.

والآخرُ: أنَّ ذلك ضربٌ من ضُرُوب التوسُّع في الكلام، وهو المسمَّى بـ(الحَذْفِ والإيصَالِ)، وهذا لا يكون تَضْمِينًا؛ لأنَّ الحَذْفَ والإيصالَ لا يَجُوزُ أصلًا إذا كان الفعلُ مُتَضَمِّنًا معنى فِعْلٍ مُتَعَدٍّ(3).

والثَّاني أقوَى؛ لأنَّ فيه تكثيرًا للمعاني، وهو الأنْسَبُ لِبلاغة القرآنِ؛ ووجه تَكْثِيره المعانيَ: أَنَّ لنا وجْهَيْن في تقدير الحرفِ المحذوف، فَلَنَا أن نُقدِّرَ (إلَى)، ولنا أن نقدِّرَ (اللَّامَ)، مع استحضار اختلاف المعنى بين التَّقْدِيرَيْن.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/45.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/187.

(3) أحمد تيمور باشا، السَّماع والقياس، ص: 73.

ولـمَّا كان التَّقديرانِ غَيْرَ متعارِضَيْن؛ نَحْمِلُ الآيةَ عَلَيْهِمَا معًا، فيكون معنى ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ شاملًا لنوعَيِ الهدايةِ: الإرشاد والدّلالة، والتَّوفيق والإلهام(1).

وثمّة من يرى أنَّ قولهم (هداهُ لكذا أو إلى كذا)، إنّما يُقالُ لـمَنْ لم يكُنْ في الطّريق الـمَطلوب فيَصِلُ بالهداية إليه، و(هداه كذا) لـمَنْ يكونُ في الطّريق فيزدادُ تبصُّرًا بمعالمه أو ثباتًا فيه(2).

وَجْهُ التّعبير بنون الجمع في ﴿ٱهْدِنَا﴾:

ولا يخفى أنَّ نونَ الجمع في قوله سبحانه: ﴿ٱهْدِنَا﴾ يَتَلاءَمُ مع مَا قبلَهُ في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وسبق عندها وَجْهُ التَّعبير بِالنُّونِ.

تَعْمِيمُ الدُّعَاءِ أَقْرَبُ إِلَى الإِجَابَةِ، وَالاِجْتِمَاعُ تَثْبِيتٌ، وكَثْرَةُ السّائلين تُوَرِّثُ الأُنسَ

ويُزَادُ على ما سبقَ وجهانِ:

الأوّل: أنَّ الدُّعاء إذا كان يَعُمُّ المسلمينَ؛ كان أقرب إلى الإجابة؛ إذْ لا بُدَّ وأن يكون فيهم مَنْ يُجِيبُ اللّٰه دُعاءَهُ، وإذا أَجابَ اللّٰه الدُّعاء في البعض؛ فهو أَكْرَمُ مِن أن يَرُدَّه في الباقي(3).

الآخر: أنَّ الاجتماع على الهدَايةِ فيه تَثْبِيتٌ وقوَّة، وأنَّ كثرة السَّائرين على الطَّريق تُورِث الأُنْسَ وتُهَوِّن مشقَّة السَّيْرِ(4).

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ طلَبٌ للهداية التّامّة؛ لأنّ المجهولَ أكثرُ من المعلومِ، والمؤمنُ محتاجٌ إلى الهداية في كلّ شيء

وحقيقة الأمرِ في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أنَّهُ للدُّعاءِ؛ إذْ فيه طلبٌ مِنَ الْأَدْنَى إلى الأَعْلَى، وليس هو دُعَاءً بدوام الهداية(5)، بل هو دُعاءٌ لتحصيلِهَا.

بل إنَّ حَمْلَ الأمرِ هَهُنَا على الدَّوام، حكمَ عليه ابن القيِّم بالبطلانِ، وهو حقيقٌ بوصفِهِ بذلكَ؛ وذلك لأنَّ المجهولَ لنا مِنَ

(1) أومأ إلى هذا ابن عثيمين في كتابه: تفسير الفاتحة والبقرة: 1/16.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 1/195.
(3) الرازيّ، التّفسير الكبير: 1/219.
(4) فاضل السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 57.
(5) يقارَنُ بما ذكره: التّفتازانيّ، المطوّل، ص: 428، وأحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 72.

الحقِّ أضعافُ المعلوم، وما لا نُريدُ فِعْلَه تَهاوُنًا وكسَلًا مثلُ ما نُريده أو أكثرُ منه أو دُونه، وما لا نقدر عَلَيْهِ مِمَّا نريده كذلك، وما نعرف جُمْلَتَه ولا نَهْتَدي لتفاصيله؛ فأَمْرٌ يَفُوت الحصْرَ، ونحن مُحتاجون إلى الهداية التَّامَّة"[1].

دَفْعُ تَوَهُّمِ القَصْرِ بِالتَّقْدِيم:

القَصرُ غيرُ مُرادٍ في هذا المقام، والمؤمنُ يطلبُ الهداية لنفسه ولإخوته

لم يتَقَدَّمْ مفعولُ (اهْدِ) كما تقدَّم مفعولُ ﴿نَعۡبُدُ﴾، فلم يُقَلْ: (إِيَّانَا اهْدِ)؛ لِأَنَّ التَّقديم يأتي كثيرًا مرادًا بِهِ القَصْرُ، وهذا المعنى لا يصحُّ إرادتُهُ هُنَا؛ إِذْ يكون المعنى لو قُدِّمَ: (اهْدِنَا ولا تَهْدِ أحدًا غَيْرَنَا)[2]، ولا يخفَى بطلانُهُ؛ وهو مِنْ جُمْلَة الاعتداءِ في الدُّعاء.

من أَسْرَارِ اِسْتعمَالِ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ دُونَ (سبيل) أو (طريق):

صِرَاطُ الله المُستقيمُ أَوْسَعُ وَأَوْضَحُ

اخْتِيرَتْ كلمةُ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾، فجاءت الآية: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، دون (اهْدِنَا السَّبِيلَ) أو (اهدنا الطَّريق)؛ لأَنَّ (صراط) على زِنَةِ (فِعَالٍ)، وهذا الوزنُ يُستعمل كثيرًا في المُشتمِلَاتِ على الأشياء، وذلك مثل: الخِمار، والرِّداء، والرِّباط، واللِّحافِ، ومنه: (الصِّراطُ)؛ لكونه مشتملًا على سالِكِيه كاشتمالِ الحَلْقِ على المَسْرُوطِ[3]، فهو صِراطٌ واسعٌ لا يضيقُ بالسَّالكينَ، بخلاف (طريق) و(سبيل)؛ فلا يدلَّان على هذا المعنَى، فقد يكونان ضيِّقَيْنِ غيرَ مُستوْعِبَيْنِ[4].

الصِّراطُ المُؤدّي إلى الله تعالى واحدٌ:

لـزومُ القرآن واتِّباع سنّة النَّبيِّ ﷺ هو الصّراطُ المستقيم

جاء إِفرادُ الصِّراطِ للدّلالة على أنَّهُ صراطٌ واحدٌ[5] هو الذي

(1) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 1/33، ثم قال ابن القيّم بعدُ: «فمَنْ كَمُلَت له هذه الأمورُ؛ كَانَ سُؤَالُ الهدايةِ له سُؤَالَ التَّثْبيت والدَّاوم»، وأنَّى اكْتِمَالُ هَذَا؟! بَل، لَوِ اكْتَمَلَت؛ فقد ذكر ابن القيّم نفسُهُ أنواعًا مِنَ الهدايةِ، مِنْهَا: الهدايةُ إلى دخول الجنَّةِ، وهي غيرُ حاصلةٍ لِلعَبْدِ بَعْدُ.

(2) فاضل السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 56-55.

(3) السُّهيلِّي، نتائج الفكر في النّحو، ص: 236.

(4) فاضل السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 58.

(5) فاضل السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 58.

يُوصِلُ إلى اللّه وجنَّتِهِ؛ وهو لزومُ القرآن واتِّباعُ سنّة نَبيٍّ الإسلام ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153].

الاستعارة التّصريحيّة الأصليّة في لفظ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾:

فائدةُ الاستعارة التَّنْبِيهُ على وُضوحِ الطَّريقِ وعدمِ اشتباهِهِ؛ إذِ الحِسِّيَّاتُ أظْهَرُ في التَّصوُّرِ مِنَ العقليّاتِ

الصِّراطُ يُطلق في الأصل على الطَّريق الحِسِّيِّ المَخْصوص، فاستعمالُهُ هنا لطريق الإسلام من باب الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة؛ حيث شُبِّهَ دينُ الإسلام بالطَّريق المخصوص الحسِّيِّ، والجامع بينهما: أنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُوَصِّل للمقصودِ[1]، فصُرِّحَ باسم المُشَبَّه به وطُوِيَ ذكرُ المشبَّه، على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّة، وفائدةُ الاستعارة ههنا: التَّنْبِيه على وضوح الطَّريقِ وعدم اشتباهِهِ؛ إذِ الحِسِّيَّاتُ أظْهَرُ في التَّصوُّرِ مِنَ العقليَّاتِ، واللّه أعلم.

دلالة الألف واللّام على الكَمَال:

صِراطُ اللهِ المستقيم كاملٌ في نوعه؛ فهو بكلِ جُزئيّاته ودقائقه وأحكامه مُوَصّلٌ إلى الله تعالى

وتعريفُ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ - وكذَا صِفَتُهُ تبعًا له - بـ(أل) يدُلُّ على الكَمَالِ؛ إذ دُخولُ (أل) على اسم موصوفٍ؛ يقتضي أنَّه الأحَقُّ بذلك الوَصْفِ[2]، كما في تعريف (السَّاعة) مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ﴾ [الفرقان: 11]؛ فالألف واللَّام تَدُلُّ على الكمال؛ أي: أنَّها السَّاعة الجديرة بِأَنْ تُسَمَّى السَّاعَةَ[3].

فائدةُ وَصفِ الصِّراط بالمستقيم:

المُسْتَقِيمُ أَقْصَرُ، وَأَبْعَدُ مِنَ المَخَاوِفِ، وَأَسْلَمُ فِي الوُصُولِ، وأدلُّ على عَجز الإنسان

وفائدةُ وصف الصِّراط بالاستقامةِ أمورٌ[4]:

أحدها: أنَّ المستقيمَ أَقْصَرُ مِنَ المُعْوَجِّ، فكأنَّ العَبْدَ بَعْدَ أنِ استعانَ بربِّه، ثم طلبَ مِنْهُ الهداية؛ اعترفَ بعجزِهِ، وأنَّه لا يليقُ بضعفِهِ إلَّا الطَّريق المستقيم.

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 1/92.

(2) السّهيليّ، نتائج الفكر، ص: 235.

(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/5256.

(4) الرازيّ، التّفسير الكبير: 1/220.

ثانيها: أنَّ المستقيم أبعدُ عَنِ المَخَاوفِ والآفاتِ وأقربُ إلى الأمان، بخلاف المعوَجِّ.

ثالثها: أَنَّ المستقيم يُوصِلُ إلى المقصودِ ولا بُدَّ.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الهِدَايَةُ وَالإِرْشَادُ:

الهِداية أَعمُّ مِنَ الإرشادِ مِنْ وجهٍ وأخَصُّ من وَجْهٍ؛ لأَنَّ الهداية تكونُ في المحبوب وفي المكروه، فالأوَّلُ كآيةِ الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، والثَّاني كقوله تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصَّافَّات: 23]، والإرشادُ لا يكون إلا في المحبوب، فالهداية بهذا الاعتبَارِ أعَمُّ.

الهدايةُ تكونُ في المَحْبوب وفي المَكْروه، والإرشادُ لا يكون إلا في المَحْبوب، والهدايةُ مُوصّلَةٌ إلى البُغْيَةِ، والإرشادُ لا يلزمُ مِنْهُ ذَلِكَ

وأمَّا خصوصيَّةُ الهداية؛ فَلأَنَّ الهدايةَ هي الدّلالة المُوصِلَةُ إلى البُغْيَةِ، والإرشادُ لا يلزمُ مِنْهُ ذَلِكَ[1].

الصِّرَاطُ وَالطَّرِيقُ وَالسَّبِيلُ:

الطَّريق كُلُّ ما يَطْرُقُهُ طَارِقٌ، والسَّبيل مُعْتادُ السُّلوكِ، وَالصِّراط مَا ليس فيهِ الْتِوَاءٌ

ذكر ابْنُ الكَمَالِ الفَرْقَ بَيْنَهَا؛ وهو أنَّ الطَّريق: كُلُّ ما يَطْرُقُهُ طَارِقٌ، مُعْتَادًا كانَ أَوْ لَا، والسَّبيل: ما هو مُعتاد السُّلوكِ، فهو أخصُّ مِنَ الطَّريق مطلقًا، وَالصِّراط: مَا لا الْتِوَاءَ فيه ولا اعْوِجَاج مِمَّا هو معتادُ السُّلوكِ، فهو أخصُّ مِنَ السَّبيل[2].

الصِّراط الطَّريقُ السَّهْلُ، والطَّرِيقُ لا يَستلزمُ سُهُولَةً، والسَّبِيلُ أعمُّ

وفُرِّقَ بينهَا بمَسْلَكٍ آخرَ؛ وهو أَنَّ الصِّراط هو الطَّريقُ السَّهْلُ، والطَّريقُ لا يَستلزمُ سُهُولَةً، فالطَّريقُ أعَمُّ مِنَ الصِّراط مطلقًا، وأمَّا السَّبيلُ فأَعَمُّ مِنَ الطَّريقِ في الاستعمال، فتقول مثلا: سبيلُ اللّهِ وطريقُه، وتقول: سَبِيلُكَ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا، ولا تقول: طَرِيقُك أن تَفْعَلَ كَذا؛ مرادًا به: القَصْدُ والإرادَةُ[3].

---

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 42، وجمال الدّين الفَتَّنِي، مجمع بحار الأنوار: 5/146، وجبل، المعجم الاشتقاقِيُّ المؤَصَّل: (رشد).

(2) الكفويُّ، الكلِّيَّات، ص: 513-512، وإسماعيل حَقِّي، روح البيان: 5/13.

(3) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 313.

وفُرِّقَ بين السَّبِيل والطَّريقِ بِمَسْلَك ثالثٍ؛ وهو أنَّ السَّبِيلَ يُطلق غالبًا في الخَيْرِ، بخلاف الطَّريق فقَلَّ استعمالُهُ في الخَيْرِ إلَّا إذا اقترَنَ بما يَدُلُّ على ذلك[1].

الصِّراطُ هو الطَّريقُ البيِّنُ الواسعُ السَّهْلُ الذي لا اعْوِجاجَ فيه

والأظهرُ: أَنَّ الصِّراطَ هو الطَّريقُ البيِّنُ الواسعُ السَّهْلُ، ولازمُ ذلك أَنْ يَخْلُوَ مِنَ الاعْوِجَاجِ، والطَّريقُ: أَعَمُّ مِنْهُ مُطْلَقًا، وأمَّا السَّبيل فهو الطَّريق المُمْتَدُّ السَّهل، ولا يلزمُ اتِّساعُهُ[2].

فتُرتَّبُ بِحَسَبِ الأَخَصِّيَّةِ على هذا النَّحو: الصِّرَاطُ، ثُمَّ السَّبيلُ، ثُمَّ الطَّريق.

(1) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 313.

(2) محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 284-281.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

صُحبةُ الصّالحين تُثَبِّتُ المؤمن على الصّراط المستقيم، والفَوزُ بها غُنمٌ عظيمٌ

لـمَّا سَأَلَ المؤمنون اللّه تبارك وتعالى أن يَهْدِيَهُم أشرفَ طريقٍ؛ سألوه أن يَصْحَبوا أحسن رَفِيقٍ، ثم استعاذوا من صُحبة الذين شَاهَدوهُم في التِّيهِ سائرين، وعَنِ القَصْدِ زائغين، جَائرين أو حائرين فقال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الإنعامُ إحسانٌ للعقلاء

1) ﴿أَنْعَمْتَ عليهم﴾: أَوْصلتَ النِّعمةَ إِلَيْهِمْ، والإنعامُ: الإِحْسَان، ولا يكون الإنعامُ إلَّا إذا كان الـمُنْعَمُ عَلَيْهِ مِنَ العُقَلاء[2].

والنِّعمة: المنفعة الـمُقَدَّمَةُ إلى الغير على جِهَةِ الإحسان[3].

والمعنى في الآية: مَنَنْتَ عليهم بالهدايةِ والتَّوفيقِ.

الغَضَبُ في حقِّ المَخلوقِ ثَوَرَانُ دمِ القَلْبِ لقَصْدِ الانتقام، وفي حَقِّ الخالِقِ كَرَاهَةُ المغضوبِ عَلَيْهِ والانتقامُ مِنْهُ

2) ﴿ٱلْمَغْضُوبِ﴾، الغَضَبُ: ضدُّ الرِّضا، واختلفوا في تعريفه في حقِّ المخلوقِ، فقيل: هو ثَوَرَانُ دم القَلْبِ لقَصْدِ الانتقام، وقيلَ غيرُ ذلك[4]، أمَّا غضَبُ اللّه تعالى؛ فَصِفَةٌ لا تُمَاثِلُ صفات المخلوقِينَ، وهي تقتضي: كَرَاهةَ المغضوب عَلَيْهِ والانتقامَ مِنْهُ، فالكراهةُ والانتقامُ لَيْسَا همَا الغضبَ، وإنَّما همَا مِنْ آثارِهِ[5].

والـمَغضوبُ عليهم في الآية: اليَهُود، وَمَنْ شَابَهُمْ في تَرْكِ العَمَلِ بِالعِلْمِ.

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 1/45.
(2) الرّاغب، المفردات: (نعم).
(3) الرازيّ، التّفسير الكبير: 1/220.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (غضب).
(5) ابن عثيمين، مذكِّرة على العقيدة الواسطيَّة، ص: 23، وابن عثيمين، القولُ المُفِيد: 1/421.

الضّلالُ ضِدُّ الهُدى، ويكونُ عن عَمْدٍ وغير عمد

3) ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، الضَّلال: ضِدُّ الهدَى، يُقَال: ضَلَّ في الأمر إذا لم يَهْتَدِ لَهُ[1]، ورَجُلٌ مُضَلَّل: لَا يُوفَّقُ لِخَيْرٍ[2]، ويوصَفُ الإنسانُ بالضَّلالِ، فيقال: هُوَ ضالٌّ، أمَّا الضَّالَّةُ فلِلبَهيمة؛ وهي الحيوان الضائعُ[3].

والضَّالُّ ضَرْبَانِ[4]:

أحدهما: مَن سلَك طريق الضَّلالةِ عَنْ عَمْدٍ، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الواقعة: 92].

والآخَر: مَن سَلَك طريق الضَّلالة عَنْ غير عَمْدٍ، ومنهُ قولُ اللّه تعالى حكايَةً عن مُوسَى عليه السلام أنَّهُ قال: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: 20].

والضّالّون في الآية: النَّصَارَى، وَمَنْ شَابَهَهُمْ في العَمَلِ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

النّبيّون والصِّدّيقون والشُّهداءُ والصّالحون لا يَشْقى جَليسُهم ولا يَرْدَى رَفيقُهم

الصِّرَاطُ المستقيم الذي سألنَاكَ يَا ربَّنا هِدَايتَنَا إِلَيْهِ هو صِرَاطُ عبادِكَ المُوَفَّقين الذين مَنَنْتَ عَلَيْهِمْ بالهدايةِ والتَّوفيقِ وبسُلُوكِهِمْ إيَّاه؛ مِنَ النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، ولا تَجْعَلْنَا يا ربَّنا مِمَّن سلك طريق المغضوبِ عَلَيْهِمْ؛ وهُمُ الذين عرَفوا الحقَّ وعدَلُوا عَنْهُ ولم يَعملوا به؛ مِنَ اليَهُود ومَنْ شَاكَلَهُم، ولا مِنَ الضَّالِّين وهُمُ الذين عدَلُوا عَنِ الحقِّ جَهْلًا وتَفْرِيطًا في طلَبِ الحقِّ، فعمِلوا وعبَدوا اللّه بلا عِلْمٍ؛ مِنَ النَّصارى وَمَنْ شَابَهَهُمْ[5].

(1) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغَة: (ضلل).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغَة: (بَاب الضَّاد واللّام).
(3) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (ضلل).
(4) أبو عُبيد الهرويّ، كتاب الغَرِيبَيْنِ في القرآن والحديث: (ضلّ).
(5) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/31، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 1/235، والسعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 39، ونخبة من العلماء، التّفسير المُيَسّر ص: 1.

❁ الإيضَاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائِدَةُ البَدَلِ في ﴿صِرَٰطَ﴾ الثَّانية:

تـكـريـر لـفـظ الصراط لتَمكين الـمَـعْـنَـى فِي النَّفْسِ وتأكيده

قوله: ﴿صِرَٰطَ﴾ بَدلٌ مِن قوله: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾، وفائدةُ الإِبْدَالِ هَهُنَا: التَّوْكِيدُ، وذلك لأنَّ البدَلَ على نيَّةِ تَكرار العاملِ، والتَّقْدِير: (اهْدِنَا صراطَ الذين أنعمتَ عَلَيْهِمْ)، فكأنَّهم سألوا اللّه الهداية مَرَّةً بعدَ أُخْرَى، فكان هذا آكَدَ؛ لِكَوْنِه في قُوَّةِ جُملتين[1].

الإيـضـاحُ بعدَ الإبهامِ يقعُ على نفسٍ مُتطلّعة فيتمكّن منها

ولِلبَدَلِ هَهُنَا فائدةٌ أخرى؛ هي: الإيضاح بعدَ الإبهام[2]؛ فإنَّ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وإن كان معلومًا إلَّا أنَّ اللَّفْظ قد يَدْخُلُه شيءٌ مِنَ الإِبْهَام، لا سِيَّما وأَنَّ مُدَّعِي سُلوكِه كُثُرٌ، فجاء الإيضاحُ بالبَدَلِ في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

وإنَّما لم يقَعِ الإيضاحُ ابْتِدَاءً؛ لأنَّ الكلام إِذَا سيقَ على وجهٍ فيه إبهَامٌ؛ تطَلَّعَتِ النَّفْسُ واسْتَشْرَفَتْ لمعرفةِ تفسيرِه وإيضاحِه، فإذا جاء الإيضاحُ بَعْدُ؛ وقعَ على نَفْسٍ مُسْتَشْرِفَةٍ فتمَكَّنَ ذلك منها غايةَ التَّمكُّنِ، واللّه أعلم.

فَائِدَةُ إِضَافَةِ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ إِلَى المُنْعَمِ عَلَيْهِمْ دُونَ تَعْيِينِهِمْ:

إنَّما ساغَ اتِّباعُ المُنعَم عليهم لكونِهِمْ مُنْعَمًا عَـلَـيْـهِـمْ لا لِذَوَاتِهِمْ

وجاءت إضافةُ الصِّراط إلى ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ دونَ التَّصريحِ بأَعْيَانِهِمْ؛ لفوائدَ:

إحداها: أنَّ فيه نفيًا لِلتَّقْليد؛ إِذْ كان هَؤلاء إنَّما ساغَ اتِّباعُهُمْ لكونِهِمْ مُنْعَمًا عَلَيْهِمْ لا لِذَوَاتِهم.

ثانيها: أَنَّ فيه إشعارًا بأَنَّ مَنْ هُدِيَ إلى الصِّراط المستقيم؛ فهو مِنَ المُنْعَمِ عليه، ولو ذُكرت أَعْيَانُ المُنْعَمِ عَلَيْهِم لَمَا أفادَ هذا المعنى[3].

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/48.

(2) السُّيوطيّ، معترك الأقران في إعجاز القرآن: 1/268.

(3) السّهيلّي، نتائج الفكر، ص: 237.

الذين أنعمَ اللهُ عليهم يشمَلُ جميع طبقات المُسلمين، وهم أصنافٌ

ثالثها: أنَّ الآيةَ عامَّةٌ في طبقات المسلمين؛ مُسيئِهِمْ وصَالِحِهِم، والمُسِيءُ لا يَطْلُب درجةَ العالي حتى ينَالَ التي هي أقربُ إِلَيْهِ، ولَفْظُ ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ يَشْمَلُ الجميعَ، وجَمِيعُ المأمورين بهذا الدُّعاءِ يَطْلُبُ صِراط الذين أنعم اللّه عَلَيْهِمْ، وهُمْ أصنَافٌ، كما أنَّ السَّائلين لِدَرَجَاتِهم أَصْنَافٌ[1].

إسنادُ ﴿أَنۡعَمۡتَ﴾ إلى الفاعل، وعدم الإسناد في ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾:

خطابُ الله تعالى بإسناد النِّعمة إليه تعظيمٌ له سبحانه

ونُسِبَ الإنعامُ إلى اللّهِ ﷻ ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وطُوِيَ التَّصريحُ بذلك في ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، ولم يَقَعِ الْعَكْسُ بأَنْ يُقَالَ: (صِرَاطَ المُنْعَمِ عَلَيْهِمْ)، وَ(غَيْرِ الذين غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ)؛ لوجوه[2]:

أحدُها: أنَّ فيه تَنْبِيهًا على الأَدَبِ مع اللّه تعالى؛ بِنِسْبَةِ الإنعام إِلَيْهِ دُونَ الشَّرِّ؛ (بل أتَى به بِلَفْظِ المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعلُه، فلم يَنْسِبِ الغضبَ إِلَيْهِ على معنى الفاعليَّةِ -وإن كان هو الفاعلَ المُخْتَارَ لِكُلِّ شَيْءٍ-، لكن جرتِ العادةُ في مقام التَّأَدُّب أَن يُنْسَبَ للفاعِلِ الخيرُ دون الشَّرِّ[3]، كما وقع نظيرُهُ في القرآن كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ [الشُّورَى: 48]، وقوله ﷻ حكايةً عن الْجِنِّ أنَّهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجنُّ: 10].

(المغضوب عليهم) مُشعِرٌ بالعُموم

ثانيها -وهو أَخَصُّ مِن الذي قَبْلَهُ-: أنَّ فيه تعظيمًا للّه ﷻ؛ فإِنَّ خطاب اللّه تعالى بإسناد النِّعمة إليه تعظيمٌ له سبحانه، وتركُ خِطابه بإسناد الغَضَبِ إِلَيْهِ تعظيمٌ لذلك الخِطَاب[4].

ثالثها: أنَّ ذِكْرَ الغضب بصيغة اسم المفعولِ مُشْعِرٌ بالعُمُوم،

(1) السّهيلّي، نتائج الفكر، ص: 237.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 39-1/38.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/38.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 1/146.

فيشمل غضبَه سُبْحَانه وغَضَبَ ملائكتِه وأنبيائه والمؤمنين، وذلك يَفُوتُ إذا قيل: (غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ)[1].

إبــراز ضمير (أنعمتَ) ذِكرٌ وشُكرٌ

رابعها: لم يَجِئْ ههنا (صراط المنعَم عَلَيْهِمْ)؛ ليَبْرُزَ ضميرُ المُنْعِم؛ وذلك ذِكْرٌ وشُكْرٌ لله تعالى بشيئين: القلبِ واللِّسَانِ، فيكون هذا الدُّعَاءُ مَقْرُونًا بِذِكْرِ الله وشُكْرِه[2].

خامسها: أنَّ فيه تفنُّنًا في التَّعبير؛ إذِ الكلامُ لو جَرَى على طريقةٍ واحدةٍ كان مَظِنَّةً لسآمةِ السامع، وإذا اختلف الأسلوبُ؛ كان أدْعَى لتفطُّنِ السَّامع وإحضار ذِهْنِه، كما ذَكَرَ البلاغِيُّون نَظِيرَ ذلك في أسلوب الِالْتِفَاتِ[3].

في ذِكْرِ فاعل الإنعام إكرامٌ لِلمُنعَم عَلَيْهِمْ، وفي طَيِّه مع الغضب إهانَةٌ للمغضوب عليهم

سادسها: أنَّ في ذِكْرِ فاعل النِّعْمة إكرامًا لِلمُنعَم عَلَيْهِمْ ورفعًا لقدرهم، وأمَّا حذفُ فاعلِ الغضب ففيهِ إشعارٌ بإهانةِ المغضوب عَلَيْهِمْ وتحقيرِهم[4].

نِكَاتُ تَقْدِيمِ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ عَلَى ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾:

وقُدِّمَ ذِكْرُ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ على ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لأَوْجُهٍ:

مُخالَفة المغضوب عليهم للحقّ أشدُّ وأقبحُ من معصية الضّالين عن جهل

أحدها: أنَّ معنى ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بِمَنْزِلَةِ الضِّدِّ للمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ، وأظهَرُ في المقابلة بَيْنَهُمَا من مقابلة المُنْعَمِ عَلَيْهِمْ بالضَّالِّين؛ فناسبَ أن يكونَا متضَايِفَيْنِ في الكلامِ[5].

ثانيها: أنَّ مخالفتَهُم للحقِّ أشدُّ وأقْبَحُ[6]؛ فإنَّ الذي خالَفَ الحقَّ عَن عَمْدٍ أشَدُّ وأقبَحُ مِمَّنْ خالفه عن جَهْلٍ، وهذا أنسَبُ لمقام الدُّعَاء بالنَّفْيِ[7].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/39.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/39.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/39.
(4) فاضل السّامرائّي، لمسات بيانيّة، ص: 67.
(5) الطّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/25.
(6) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/20.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/196.

اليـهـود أعـرَقُ في الـزّمـن من النصارى

ثالثًا: أَنَّ المغضوبَ عَلَيْهِمْ - وهُمُ اليَهُودُ أصالةً - أَقْدَمُ زمَانًا مِنَ الضَّالِّين - وهُمُ النَّصَارى بالأصالةِ -، فالتَّقديم مراعاةٌ للزَّمَنِ(1).

اليهودُ أقربُ دارًا

رابعًا: أنَّ اليهودَ كانوا أقْرَبَ مكانًا مِنَ النَّبيِّ ﷺ؛ إذْ كانوا يَسْكُنُون المدينةَ، بخلاف النَّصارى فكانت ديارُهُم بَعيدةً عَنْهُ، فالتَّقديم مُرَاعاةٌ لِلْمَكانِ(2).

خامسًا: أَنَّ تأخير ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ يُحقِّقُ تناسُبَ الفواصلِ بما لا يُحقِّقُهُ تأخيرُ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا الوَجْهُ يُذْكَر اسْتِئْنَاسًا؛ لِمَا تقدَّم مِن أنَّ البيان القرآنيَّ لا يقوم على مُجَرَّدِ أَمْرٍ لفظيٍّ مَحْضٍ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِنْعَامُ وَالإِحْسَانُ:

الـمُـحـسِـنُ يُحسِنُ لنفسه ولـغـيره، والإنعامُ لا يكونُ إلاّ من مُنعِمٍ خارجيٍّ

الإنعامُ أخصُّ مِنَ الإحسانِ؛ وذلكَ لأَنَّ الإنعامَ لا يكونُ إلَّا مِنْ مُنْعِمٍ لِغَيْرِهِ؛ وذلك لتضمُّنِه معنَى الشُّكْرِ، ولا يشكُرُ الإنسانُ نفسَهُ، بخلاف الإحسانِ فيجوز أن يَكُونَ مِنْ مُحسِنٍ إِلَى غيرِهِ وإِلَى نفسِهِ، فقد يُحسِنُ الإنسانُ إلى نفسِهِ؛ وذلك لِتَضَمُّنِهِ معنى الحَمْدِ، ويجوز للإنسانِ أن يَحْمَدَ نفسَهُ كما يحمَدُ غيرَهُ(3).

والإنعام أخصُّ مِنَ الإِحْسَانِ مِنْ وجهٍ آخَرَ، وذلك أَنَّ الإنعامَ إحسانٌ وزيادَةٌ، فإِنَّ العربَ تقول: قد أَحْسَنْتَ إِلَيَّ وأنعمتَ، أي: زِدْتَ على الإحسانِ، وبَالَغْتَ فيهِ(4).

---

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/33.
(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/33.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللغويّة، ص: 193.
(4) ابن سلاَّم، غريب الحديث: 1/141.

سُورَةُ البَقَرَةِ

سُورَةُ البَقَرَةِ

❁ بين يدي السّورة:

سورة البقرة مَدَنِيَّةٌ باتِّفاق أهل العلم؛ وهِيَ أَوَّل سورةٍ نزلَت بالـمَدينةِ النَّبويَّةِ.

وذهَبَ أبو عُبَيْدة مَعْمَر بن الـمُثنَّى إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ﴾ [البقرة: 109] آيةٌ مكيَّة؛ لما فيها من ترك القتال، والصفحِ عن المشركين، لكون كلِّ آية فيها تركُ القتال فهي مكيَّة[1].

وقد ردَّ عليه ابنُ عطيَّة بقوله: "وحُكْمه بأنَّ هذه الآيةَ مكيةٌ ضعيفٌ؛ لأنَّ معانداتِ اليهود إنما كانت بالمدينة"[2].

وذكر السُّيوطي أنَّ قولَه تعالى: ﴿۞لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: 272]، ممَّا استُثني من آيات سورة البقرة، وأنها من الآيات المكيَّة[3]. وهو قولٌ لم ينسِبه إلى أحد، وليس عليه دليل يعضُدُه ويقوِّيه، والاعتدادُ باتِّفاق أهل العلم على مدنيَّةِ سورة البقرة، ومنها هذه الآيةُ، أولى من استثناء آيةٍ منها وإخراجها من سياق مدنيَّتها إلى ما لم يرِد فيه دليلٌ.

وأمَّا ما ذكره الماوَرْديُّ من أنَّ آيةَ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 281] ليست بمَدَنِيَّةٍ؛ لكونِهَا نزَلَت يوم النَّحر في حجَّةِ الوداعِ بمنى[4] : فهو ضعيفٌ جِدًّا[5]، ومبنيٌّ على اعتبار المكان في النُّزول؛ أي أنَّ ما نزل في مكة فهو مكيٌّ، وهو قولٌ مرجوحٌ، وغيرُ مخرجٍ للآية عَن كونِهَا مدَنيَّةً؛ لِما تقرَّر عند المُحقِّقِين مِن أهل العلم أنَّ الـمَدَنيَّ مِنَ السُّوَر: هو ما نزل بعد الهجرة مُطْلَقًا ولَوْ في غير الـمَدِينةِ.

وعدَدُ آيِ هذه السّورة الكَريمة: مِئتانِ وخمسٌ وثمانونَ آيةً في العدِّ المدَنيِّ الأوَّل والأخير والمكِّيِّ والشّامِيّ، ومئتان وسِتٌّ وثمانون آيةً في العدِّ الكوفيّ، ومِئَتان وسبعٌ وثمانونَ آيةً في العدِّ البصرِيِّ[6].

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/50.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/197.
(3) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/85.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 1/61.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 1/152، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/27.
(6) الدَّانِي، البيان في عَدّ آي القرآن، ص: 140، وانظر: ابن شَاذَان، سور القرآن وآياته وحروفه ونزوله، ص: 99.

وسورَةُ البقرة هي الثانية في ترتيبِ المصحفِ الشَّريفِ بعد سورة الفاتحةِ، وهِيَ السّابعةُ والثَّمانونَ نُزولًا[1].

وسُمِّيت سورةَ البقرةِ؛لأنَّها انفَردت من بين سُوَر القرآنِ الكريم بذكرِ قصةِ البقرةِ التي أمرَ اللّه بني إسرائيلَ بذبحِها، وكان لهذه البقرةِ شأنٌ - بتقدير اللّهِ - في كَشْف جِناية القَتْل التي قام بها بعضُ بني إسرائيل، وتواطؤوا على كَتْم خبر الجاني.

ولِسورة البَقَرة أسماءٌ، مِنْهَا ما هو توقيفيٌّ، ومِنْهَا ما نشأَ عنِ الاجْتهادِ.

وصَحَّ ثلاثةٌ من أسمائِهَا مرفوعًا إِلَى النَّبيِّ ﷺ، هي:

1. سورَةُ البَقَرَة؛ وَرَدَ هذا الاسمُ في أحاديثَ كثيرةٍ، مِنْهَا في قولِ النَّبيِّ ﷺ: «لَا تَجْعَلوا بُيوتَكُمْ مَقابِرَ، إنَّ الشَّيْطانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتِ الَّذي تُقْرَأُ فِيهِ سورَةُ البَقَرَةِ»[2].

2. الزَّهْراء، تُسمَّى به مع سورةِ آلِ عِمْرَانَ، على وجه التثنية: الزَّهراوَيْنِ؛ وذلك في قول النَّبيِّ ﷺ: «اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيامَةِ شَفيعًا لِأَصْحابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْراوَيْنِ؛ البَقَرَةَ، وسورَةَ آلِ عِمْرانَ، فإِنَّهُمَا تَأْتِيانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمامَتانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيايَتانِ، أَوْ كَأَنَّهُما فِرْقانِ مِنْ طَيْرٍ صَوافَّ، تُحاجّانِ عَنْ أَصْحابِهِما»[3]، وسُمِّيتا بذلك؛ لهدايتهما قارئَهما بما يَتَبيَّن له مِن أَنْوَار المعاني التي تضمّنتها السّورَتانِ، ولِمَا يترتَّب على قِراءتِهما مِنَ النّور في الآخِرَةِ[4].

3. سَنامُ القُرْآنِ؛ لِقَولِ رسولِ اللّهِ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنامًا وسَنَامُ القُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»[5]. وَسَنَامُ كُلِّ شَيْءٍ أَعْلَاهُ.

وذكر لها أهلُ العلمِ اسمين من الأسماء الاجتهادية، هما:

1. فُسْطاطُ القرآن: عن خالد بن مَعْدانَ: أنه كان يسمِّيها فُسْطاطَ القرآن[6].

---

(1) ابن الضُّرَيس، فضائل القرآن، ص: 73، والجَعْبري، تقريب المأمول بترتيب النزول، ص: 143.

(2) رواه مسلم، حديث رقم: (780).

(3) رواه مسلم، حديث رقم: (804).

(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/3.

(5) رواه ابن الضُّريس في فضائله، ص: 87، والدارمي، حديث رقم: (3420)، والحاكم في المستدرك، حديث رقم: (2060)، وقال: «صحيحُ الإِسْنَادِ»، والبيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم: (2376)، وحسَّنه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة، حديث رقم: (588).

(6) رواه الدارمي في سننه، حديث رقم: (3419)، موقوفاً، ورد هذا الاسم في حديث مرفوع في مسند الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم: (3559)، وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة، حديث رقم: (3738)، وقال: موضوع.

قال السيوطي: "وَذَلِكَ لِعِظَمِهَا وَلِمَا جُمِعَ فِيهَا مِنَ الْأَحْكَامِ الَّتِي لَمْ تُذْكَرْ فِي غَيْرِهَا"[1].

وممّن أورد هذا الاسمَ من المفسِّرين ابنُ عطية[2]، والقُرطبي[3]، والثَّعالبي[4]، والجَمَل[5]، والآلوسي[6].

2. الكُرْسيُّ: ذكر لها هذا الاسمَ الفَيْروزَاباديُّ[7].

ومَوضوعاتُ هذه السُّورَةِ الشَّريفَة؛ مُتَشعِّبَةٌ، وفُروعُ شجرَتِهَا "فروعٌ كبرى مُمْتدَّة حتى آخرِها، وهذه الفروعُ ذاتُ أَفْنانٍ كبيرةٍ، وهذه الأَفْنَانُ ذواتُ أَفْنانٍ أصغرَ مِنْها، وهي مُتَشابِكةٌ تَشابُكًا عَجيبًا، ومُتَداخِلَةٌ بعضُها في بَعْضٍ"[8].

وذكَرَ عبد الرحمن حسن، أنّها تضمُّ بين دَفَّتيها خمسَة موضوعات كُبْرى[9]، هي:

الأوَّل: القرآنُ الكريمُ وهِدايَتُه، ومخالِفوه.

الثَّاني: ضربُ أمثلةٍ من تاريخِ المُمْتَحَنِين في الدُّنيا، وبيانُ مواقِفِهم تُجاه أوامرِ الله ونواهيهِ.

الثَّالث: المُؤْمِنون المُتَّقون، ومَطْلوبُ اللهِ مِنْهُمْ.

الرّابع: غيرُ المُسْتَجيبين لِدَعْوَةِ الحقِّ.

الخامِسُ: المُنافِقونَ وصِفاتُهم.

ومن المقاصد المهمَّة لهذه السورة الكريمة ما يلي:

التنويهُ بشأن القرآنِ، وتقسيمُ الناس في انتفاعهم بهَدْيه إلى أربعةِ أقسام، وهم: المؤمنون، والمشركون، والمنافقون، وأهلُ الكتاب.

الحديثُ عن بني إسرائيل، وتذكيرُهم بنِعَم الله عليهم، ومقابلتُهم لتلك النِّعم بالانحراف عن الصراط السَّوِيِّ، وبيانُ جملةٍ من أخلاقهم، وحكايةُ بعضِ أحوالِهم

---

(1) الإتقان في علوم القرآن: 1/191.
(2) ابن عطية: المحرَّر الوجيز: 1/81.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/234.
(4) الثّعالبي، الجواهر الحِسَان: 1/176.
(5) الجمل، الفتوحات الإلهية: 1/8.
(6) الآلوسي، رُوح المعاني: 1/98.
(7) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 1/134.
(8) عبد الرحمن حسن، معارج التّفكّر: 15/405.
(9) عبد الرحمن حسن، معارج التّفكّر: 406-15/405.

الاجتماعية والدينية، وتنبيهُ المؤمنين على خُبْثهم ومكرهم، وما تنطوي عليه نفوسُهم الشريرةُ من لؤمٍ وغدرٍ وخيانةٍ.

بيانُ جملةٍ من الأحكام التشريعية المتعلّقة بشؤون الدولة الإسلامية، والأسرة، والمعاملات؛ كالجهاد، والقِصاص، والصِّيام، والحَجِّ، والأَيمان، وبعضِ المعاملات المالية، والصَّدقات، وتحريمِ الخمر والميسر، والنِّكاح، وبعضِ أحكام النَّساء، وغيرِ ذلك.

❁ مُناسَبَةُ سورَةِ البَقَرَةِ لِسورَةِ الفاتِحَةِ:

طلَبَ المؤمنون الهُدى في الفاتحة، فجاءَ في طالعة البقرة بيانُ مصدَرِ الهُدى

بين السّورتين تَناسبٌ من جهاتٍ عِدَّةٍ، مِنْها:

أوّلا: أنَّ اللّه تعالى لـمَّا ذكر طلبَ الحامدِين الهداية في سورة الفاتحة في قولِه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ إلى آخر السُّورة؛ قال في أوَّل البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ۝٢﴾، فكأنَّ المَعْنَى: "قد أَعْطَيْتُكم ما طَلَبْتُم: هذا الْكتَاب هُدًى فاتَّبِعوه"[1]، وهذا مِن تَناسُب الأَطرافِ[2].

في الفاتحة ذِكْرُ أصناف المُكلّفين، وفي مَطْلَعِ سورة البقرة تفصيلُ بعض صفاتِهم

ثانيًا: ذكر اللّه تعالى في آخر الفاتحة أصنافَ المُكلَّفين؛ وهُمُ العالِمون بالحقِّ العامِلونَ بِهِ، والعالِمونَ بِالحَقِّ الحائدُونَ عَنْهُ، والمُنْحَرِفون عَنِ الحقِّ جَهْلًا وضلالًا؛ ثمّ جاءَتْ سورةُ البقرة فذَكَر جلّ شأنه في مُفْتَتَحِها: المؤمنين المُتَّقِين وهُمُ الصِّنف الأَوَّلُ، ثُمَّ ذَكَرَ الكافرين والمُنَافقين وهُمُ الصِّنفان الباقِيَان، وهذا أيضًا مِنْ تَنَاسُب الأَطْرافِ[3].

ثالِثًا: المغضوب عَلَيْهِمْ همُ اليَهُودُ في أكثر أقوال أهل التّفسير بالمأثور، والضّالّون هم النَّصارى؛ وقد فُصِّلَت أحوالُهم على هذا

(1) السّيوطيّ، تناسق الدّرر في تناسب السّور، ص: 65.

(2) تناسب الأطراف: ويسمّيه بعضهم تشابه الأطراف، والمراد به أن يُختَمَ الكلامُ بما يُناسبُ ابتداءه في المعنى، ينظر: العلوي، الإيجاز، ص: 467.

(3) فاضل السّامرائّي، التناسب بين السّور في المفتتح والخواتيم، ص: 91.

المغضوبُ عليهم هم اليهودُ، وفي البقرة تفصيلُ أحوالهم، والضّالّون هم النّصارى، وفي آل عمران تفصيلُ أحوالهم

التَّرتيبِ، فذُكِرَ خِطابُ اليهودِ في سورة البَقَرةِ، وخطابُ النَّصارى في سورة آلِ عِمْرَانَ، فكانَتِ السُّورَتانِ بِمَنْزِلَةِ تَفْصيلِ المُجملِ لِما في الفاتِحَة[1].

رابِعًا: خُتِمت سورة الفاتِحَةِ بدُعاء المُؤمنين ألَّا يُسْلَكَ بهم طريقُ المَغْضوبِ عَلَيْهِمْ والضّالِّين، وخُتِمت سورةُ البَقَرَةِ بدُعائِهم "ألَّا يُسْلَكَ بِهِمْ طَريقُهُمْ في المُؤاخذة بالخطَأِ والنِّسْيان، وحَمْلِ الإِصْر، وما لا طاقةَ لَهُمْ بِهِ تفصِيلًا"[2]، وهذا هو مَظْهَرُ التَّشابُهِ بين السّورتَيْنِ في مَقاطِعِهما.

(1) السّيوطيّ، تناسق الدّرر في تناسب السّور، ص: 69.
(2) السّيوطيّ، تناسق الدّرر في تناسب السّور، ص: 70.

﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: 1-2]

مُناسَبَةُ الافْتِتَاحِ بِهَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ:

طالبُ الهداية يَجِدُها في القرآن الكريم، في عقائده وتشريعاته وأحكامِه

لمَّا ذُكِرت الهدايةُ في سورة الفاتحةِ وأنَّها مِن مَطْلُوبات المُؤمنين، وذُكِر فيها سالِكُوها؛ ناسبَ أن يُبَيَّن مَصْدَرُها، وهو هذا القرآنُ الكريم، فجاء قولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾، مُبيّنا أنّ طالبَ الهداية يَجِدُها في القرآن الكريم، في عقائده وتشريعاته وأحكامه.

الأحرفُ المُقطّعةُ للتّحدّي، وهي إيماءٌ للفُصحاء أنّ القرآنَ من نسيج لغة العرب، وعَدَمُ إتيانهم بمثله دليلُ عجزهم، وبُرهانُ نُبُوّة محمد ﷺ:

ولـمَّا كان الكتابُ الذي لا يَنْبَغِي أن يُشَكَّ أنَّه مِن عند اللّه تعالى، لا تَتأتَّى معارَضَتُهُ؛ قدَّم ذَلِكَ بقوله: ﴿الٓمٓ﴾؛ للتَّنْصِيص على أَنَّ عدمَ قُدْرَة الخَلْقِ على مُعارضَتِه ليس لكونِه بحروفٍ تُخالِفُ ما يُرَكِّبُون به كلامَهُم، بل حروفُه حروفُهم، فإنْ شكُّوا في مصدرِه الإلَهِيِّ وادَّعَوْا صُدورَه عَن بَشرٍ؛ فلازِمُ ذَلِكَ قدرَتُهم على الإتيَانِ بِمِثْلِه.

وجملةُ القول: إنّ الأحرفَ المُقَطّعة -الَّتي بدأ بها الباري ﷻ تِسعًا وعشرين سورةً من سُوَرِ القرآن الكريم- هي حُروفٌ هجائيّة من لغة العرب، بها يَنْسُجون كلامَهم، ويَنْظِمون أشعارَهم، ويرتَجِلون خُطبَهم، وقد بلغوا في الفَصاحة والإفصاح والإبانة والتّبيين شأوًا عظيمًا لا يُبارى، وذُروةً قعساء لا تُضاهى، حتّى إنّهم أقاموا للشّعر أسواقًا، وللكلمة محافِلَ، فجاء القرآنُ الكريم بأعظم بيان وأجزل تعبير، وجاءت افتتاحيّاتُ الأحرف المقطّعة في بدايات بعض سوره ولسانُ حالِها يقول: إنّ هذا القرآنَ مُنَزّلٌ من جنس هذه الحروف التي تعرفونها، وتتحدّثون بها، وهو في الذّروة العليا من البلاغة والبيان، فإن كنتم تستطيعون أن تَنْسُجوا على مِنواله فافعلوا.

الأحرُف المُقطّعةُ عُنوانُ التّحدّي، مُنبِّهَةٌ إلى فصاحة القرآن وعُلُوّ شأنه في الإبانة، ورَمْزٌ للإعجاز البيانيّ:

إذًا، هي أحرفٌ للتّحدّي والتّنبيه إلى فصاحة القرآن وعُلُوِّ شأنه في الإبانة والتّبيين، ورمزٌ للإعجاز البيانيّ. وقد كثُرت أقوالُ النّاس في تفسير معاني هذه الأحرف، وعند النّظر المُستبصِر فيما جاء فيها من أقوال، يجد الباحث أنّها مَحضُ تأويلاتٍ لا شيء يعضُدُ صحّتها، والمؤمنُ يُفوّضُ، في نهاية أمره، أمرَ العلمِ بهذه الأحرف إلى الله تعالى علاّم الغيوب.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الأحرُفُ الـمُقَطَّعَة تُقرأ مُقطَّعَةً حَرفًا حرفًا:

1) ﴿الٓمٓ﴾: هذه الأحرُف يُقَال لَهَا: الأحرُفُ الـمُقَطَّعَة؛ لِكَوْنِها تُقرأ مُقطَّعَةً حَرفًا حرفًا، وقَدِ افتُتِحَت بها جملةٌ مِن سور القرآنِ؛ وهي تسعٌ وعشرون سورةً.

وقد تنوَّعت هذه الحروف باعتبار عددِها[1]:

فمنها الأُحاديّ، مثل: ﴿قٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿نٓ﴾.

ومنها الثُّنائِيّ، مثل: ﴿يسٓ﴾ و﴿حمٓ﴾.

ومنها الثُّلاثيّ، مثل: ﴿الٓمٓ﴾، و﴿الٓرۚ﴾.

ومنها الرُّباعيّ، مثل: ﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓمٓرۚ﴾

ومنها الخُماسيّ، مثل: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ﴾، ولا أَزْيَدَ مِنْ ذلك.

أرجحُ الأقوال فيها أنَّها أحرُفُ هجاءٍ، أُشير بها إِلَى إِعْجَازِ القرآن الكريم

وقد اختُلِفَ في الـمُرادِ مِنْهَا اختِلافًا كبيرًا، والحديثُ عنها مبسوطٌ في كُتُبِ التَّفسيرِ، واستقراءُ القرآنِ العظيم يرجِّح أنَّها حُرُوفُ هجاءٍ، أُشير بها إِلَى إِعْجَازِ القرآنِ الكريم؛ إِذْ كانَتْ حروفُهُ ليسَتْ بخارجةٍ عمَّا تَستَعمِلُهُ العرَبُ في كلامِهَا، ومع ذلكَ عجَزوا عن معارضتِه[2].

ويَدُلُّ لذلِكَ شهادةُ استقراءِ القرآنِ لهذا القول: بأنَّ السُّوَرَ المفتتحةَ بالأحرُفِ المقطّعةِ يُذكَرُ بعدَها مباشرة القرآنُ الكريمُ

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/71، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: 1/263.

(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 1/137، والزّمخشريُّ، الكشّاف: 28-1/27، والشّنقيطيّ، العذب النَّمير: 3/7، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/23.

والانتصارُ له غالبًا[1]، أو يُذكَرُ شيءٌ هو مِنْ خصائصِهِ[2]، وأنَّه الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، وذكرُ ذلك بعدها دائمًا دليلٌ استقرائيٌّ على أنَّ الحروفَ المقطَّعةَ قُصد بها إظهارُ إعجازِ القرآن، وأنَّه حقٌّ[3].

أمَّا اختيارُ نفسِ الحروفِ المعيَّنَةِ؛ فالأرجَحُ أنَّ حِكمَتَهُ مَطْويَّةٌ عَنَّا، ولا يمنَعُ هذا مِنْ تلمُّسِ المُنَاسبَاتِ لِمَنْ ظهَرَتْ لَهُ وتأيَّدَتْ عِنْدَهُ بالقرَائِنِ مِن دون جُنوحٍ إلى التكلُّفِ، والله أعلمُ.

أصلُ الكَتْبِ ضمُّ شَيْءٍ إلى شَيْءٍ، والمُرادُ بِالكتاب في مَطْلع البَقَرَةِ القُرآنُ الكريم

2) ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: على وزنِ فِعالٍ مِنَ الكَتْبِ، وأصْلُهُ: ضمُّ شَّيءٍ إلى شَّيءٍ[4].

ويُطلق الكتابُ على الخطِّ والكتابة، كما قال الله تعالى عن عيسَى عليه السلام: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[5] [المائدة: 110].

ويُطلق مُرادًا به المكتوبُ، فيكون مِن إطلاقِ المصدرِ مُرادًا به اسمُ المفعول، كقَوْلِهم: فِراشٌ يعني: مفروش، وغِراس بمعنى: مَغْروس، ولِباس بمعنى: مَلْبوس، ثم أُطْلِقَ على الصَّحيفة مَعَ ما كُتِبَ فِيها[6].

ويأتي ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ في القرآن الكريم على أحدَ عشَرَ وَجْهًا[7]، والـمُرادُ بِهِ في طالِعَةِ البَقَرَةِ: القُرآنُ الكريمُ[8].

الرَّيْبُ شكٌّ مَعَ تُهْمَةٍ

3) ﴿رَيْبَ﴾: الشَّكُّ مَعَ تُهَمَةٍ[9]، ويُطلق على الشَّكِّ معَ خوفٍ، يُقال: رَابَهُ الأَمْرُ؛ إِذَا أَدْخَلَ عَلَيْهِ شَكًّا وخَوْفًا[10]، وأصلُ الرَّيْبِ: "أَنْ يَنْزِلَ بالقارِّ السَّاكنِ ما يُزْعِجُه ويَسوءُه"[11].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/160.
(2) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/165.
(3) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/23.
(4) ابن دُرَيْد، جمهرة اللغة: (كتب).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/223، ونصر الهُورينيّ، المطالع النَّصْريَّة، ص: 41.
(6) نصر الهُورينيّ، المطالع النصريّة، ص: 41.
(7) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظِر، ص: 527-526.
(8) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 40.
(9) ابن دُريد، جمهرة اللغة: (ريب)، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللغويَّة، ص: 264.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ريب).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ريب).

وقيل: هو مرادِفٌ لِلشَّكِّ؛ يُقال: لا ريبَ، ولَا شكَّ، ولَا مِرْيَةَ؛ بمعنًى واحدٍ[1]، ولذا جاء في الكليَّاتِ: "كُلُّ مَا فِي القُرْآن مِن رَيْبٍ فهُوَ شكٌّ، إلَّا ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: 30]؛ فَإنَّ المُرَادَ حوادثُ الدَّهْرِ"[2].

والقول بتَرَادُفِهِمَا فيهِ نَظَرٌ، وأمَّا ما نقله ابنُ أبي حاتمٍ مِنَ الإجماعِ على تفسير الرَّيبِ بالشكِّ[3]؛ فهو مُؤَوَّلٌ بِمَا سيأتِي في الفُرُوق المعجميَّةِ إن شاء الله.

التَّقوى جَعْلُ النَّفس في وِقَاية مِمَّا يُخافُ، وحقيقتُها شرعًا: اتِّخاذُ وقايةٍ مِنْ عذابِ اللهِ تعالى:

4) ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: اسمُ فاعِلٍ مِن (اتَّقَى)، وهو افتعالٌ مِن (وَقَى)؛ فأصلُ التَّاءِ من (اتَّقى) واوٌ: اوْتَقَى[4]، ومصدر (اتَّقى): الاتِّقاءُ.

والتَّقوى والتُّقَى: الصِّيانَةُ وَالحِفْظُ[5] أو: جَعْلُ النَّفس في وِقَاية مِمَّا يُخافُ[6]، أمَّا الاتِّقاء؛ فهو افْتِعَالٌ مِنَ التَّقْوى يُرادُ به: اتِّخاذُ الوقاية[7]، فالافْتِعَال هَهُنَا بمعنَى الاتِّخاذ، كما يقال: اخْتَتَمَ زَيْدٌ؛ إذا اتَّخذ خاتِمًا، واخْتَدَمَ إذَا اتَّخَذَ خَادِمًا، ونحو ذلك[8].

والمتّقون: الذين يتخذون الوقايةَ مِنْ عذَابِ اللهِ تعالى، وذلك بِفِعْلِ أوامِره واجتنابِ نَوَاهِيه[9].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

القـرآنُ كتابُ اللـه المُعجزُ الـذي لا ريـبَ يَعْتريه، يهدي الـمُـتّـقين إلى صــراط اللـه المستقيم

هذا القرآنُ العظيمُ الرَّفيعُ الشَّأنِ والمنزلةِ، مع أنَّه مُؤَلَّف من حروفٍ مَعْهودةٍ لَدَيْكُمْ، تتكوَّنُ منها لغتُكم - أيُّها العربُ - فيها إشارةٌ إلى إعجازِ القرآن؛ الذِي أنتم عَاجِزونَ عن مُعارضَته، فدَلَّ عَجْزُكم عن الإتيانِ بمثله - مع أنَّكم أفصحُ الناس- على أنَّ القرآن وحيٌ من اللهِ، لا يَنْبَغِي لأحَدٍ أَنْ يَرْتابَ فيه؛ لأنَّه في نفسهِ لا شكَّ

(1) ابنُ مالك، الألفاظ المختلِفَة في المعاني المُؤتَلِفَة، ص: 166.
(2) الكَفَوِيُّ، الكلِّيَّات، ص: 464.
(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/34.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ريب)، والزَّبِيدي، تاج العروس: (ريب).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (ريب)، والرّاغب، المفردات: (ريب)، والفيُّوميّ، المصباح المنير: (ريب).
(6) الرّاغب، المفردات: (ريب)، وصف الرّاغب هذا البيانَ بأنَّهُ التَّحْقِيقُ.
(7) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 65.
(8) الحملاويّ، شذا العرف في فن الصَّرف، ص: 32.
(9) ابن عثيمين، القول المفيد: 2/478.

فيه من أيِّ وجهٍ من الوجوه، فهو كلامُ اللّه ﷻ، الـمُنَزَّهُ عن الخطأ. ينتفع بهِدايَتِه المتقون الذين يخافونَ اللّه، ويتَّبعون أحكامَه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

حُسْنُ الِافْتِتَاحِ وبَراعَتُهُ بِالبَداءَةِ بِالأحرُفِ المُقَطَّعَةِ:

الأحـــرُفُ الـمُـقـطّـعـةُ وسـيـلـةُ اسـتِـضْـعـاءِ وتَـنـبـيـهٍ لـمَا بَعْدَها

ابتداءُ السُّورةِ الكَريمَة بالأحرُف الـمُقَطَّعةِ حُسْنُ افْتِتاح، ووَجْهُهُ: أنَّ فيها نوعَ غَرابَةٍ، وقد جرَتِ العادَةُ بالْتِفَاتِ النَّاسِ واسْتِشْرافِهِمْ للغَريبِ لِيَقِفوا عَلى حَقيقَتِه ومُعَمَّاهُ، فإذا الْتَفَتوا إلى القَوْلِ الغريبِ؛ وقعَ مقصودُ الكَلامِ الذي بعدَهُ على قُلوبٍ مُسْتَشْرِفةٍ؛ فيُبْلَغُ به الـمُرَاد، قال السُّيوطِيُّ: "والذي عندي أنَّ اللّه وَضَعَها لإطْفَاءِ تَشْغِيبِ الكُفَّارِ حيث قالُوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [فصلت: 26]، فأتى اللّه بها لِيَسْمَعوهَا لِغَرابَتِها، ثُم يُبَلِّغُ الرَّسول رسالَتَهُ"[2].

وفي هذا الابتداءِ أيضًا براعةُ استهلال -وهي أخَصُّ من حُسن الِافْتِتَاح-؛ إذْ إنَّ الابتداءَ بالأحرُف الـمُقَطَّعَة فيه إيماءٌ إلى أَنَّ الـمُتَحدَّثَ عَنْهُ مِنْ لِسَانِ العَرَبِ؛ وهو القُرآنُ الكريمُ، ومَوْضِعُ الإيماءِ آيةُ التَّحدِّي، ففي الأحرفِ المقطَّعةِ تلويحٌ بعجزِ العرَبِ عنِ الإتيانِ بكلامٍ منظُومٍ من جنسِ كَلامِهم.

سِرُّ الإشارةِ إلى الكتابِ باسمِ الإشارةِ الخاصّ بالبُعد:

عُـلُـوُّ الـقُـرْآنِ الكَرِيمِ وتَرَفُّعُهُ عَـنْ دَعـاوَى المُشَكِّكين

قولُهُ سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ إشارةٌ إلى القرآنِ الكريم، وقَد عُبِّرَ بـ(ذلك) وهُوَ اسْمُ إشارةٍ موضوعٌ لِلبَعيد، والقُرآنُ الكريمُ المعبَّر عنه هَهُنا بِالكِتاب حاضِرٌ قريبٌ، ووَجْهُ ذلكَ: الإيماءُ إلى عُلُوِّ مكانتِه، وسُمُوِّه عَنْ أنْ يُشَابِه كلامَ البشَر، والإشارةُ إلى أنّهُ مُتَرَفِّعٌ عمَّا يدَّعيه الكفَّارُ فيه مِنْ كونِه سِحرًا أو كَهانةً أو شِعرًا ونحوَ ذلك[3].

(1) البِقاعي، نَظْمُ الدُّرر: 1/80، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 40.
(2) السُّيوطي، معترك الأقران: 3/200.
(3) الشِّنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 5.

بلاغةُ الإشارةِ بالبُعدِ، مَعَ قُرْبِ القُرآنِ من القُلُوبِ

وقد وردَت الإشارةُ إلى القرآن بالقُربِ في عِدّة مواضعَ مِنَ القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، ووَجْهُ ذلكَ: التَّنويهُ بقُربِ القرآن مِنَ الأسماعِ والألسنَةِ والقلوبِ[1].

فالقرآنُ الكريم على هذا التَّوجيهِ قريبٌ باعتبارٍ، بعيدٌ باعتبارٍ آخرَ؛ فلمَّا ذُكِرَ القُرآنُ في سِياقِ دَفْعِ الرَّيْبِ عنه اسْتُعمِلَتْ معَه أَدَاةُ البَعيد، ولمَّا ذُكِرَ في سِياقِ الهِدايَةِ اسْتُعمِلَتْ معه أداةُ القَريبِ.

القرآنُ سامٍ في لُغتِه ومَضْمونِه، فائقٌ في إحكامِه ونَظْمِه

إيثارُ البُعْدِ في طالعةِ البقرَة؛ لافتتاحها بالأحرُف المُقَطَّعة المُومِئةِ إلى التَّحدِّي بالقرآن، يُشْعِرُ بِعُلُوِّ شأنِه وَتفوُّقِه على سائرِ الكلامِ، فكانَ الأنسبُ التَّعبيرَ باسم الإشارةِ الدَّالِّ على البُعْدِ لِلتَّنْويه بهذا المعنى؛ ولذا نَجِدُ كلَّ سُوَرِ القرآن المُفتتحةِ بالأحرُف المُقَطَّعة قد ذُكِر فيها القرآنُ مُشارًا إليه، والإشارة وقعَتْ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ لِلبَعيدِ[2]؛ لهذا التَّعْليل، واللّه أعلمُ.

(أل) في لفظِ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ بَيْنَ الكمالِ والعهد:

القرآن كتاب الكمال على الحقيقة

وأل في ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ لِلكَمالِ، أي: ذلك الكتابُ الكاملُ في نَظْمِه وبلاغتِه ومَعَانِيه وَأحكامِه وتشريعاتِه؛ فكأنَّه المُتفرِّدُ باستحقاقِ اسْمِ الكتاب، وغيرُهُ ليس بكتابٍ على الحقيقةِ[3].

ويتأكَّدُ هذا المعنى عِنْدَ مَنْ يختار الوقف على ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾[4]؛ إِذِ الجملةُ حينئذٍ تكونُ مُكوَّنةً مِنْ مبتدأ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وخبره ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾، وهما مَعْرِفَتانِ، وتعريفُ جُزأَي الجُملةِ مفيدٌ لِلقَصْرِ[5]، وهو هنا قَصْرٌ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ، على المعنى الذي سبق آنِفًا.

---

(1) الشِّنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 5.

(2) وهي: البقرة، ويونس، ويوسف، والرَّعد، والحِجر، والشُّعراء، والنَّمل، والقصص، ولقمان؛ فهي تِسعُ سُوَرٍ.

(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/33.

(4) وهو وقف ضعَّفه أبو بكر الأنباريُّ في إيضاح الوقف والابتداء: 1/486، وقال الأشمونيُّ في مَنار الهُدى، ص: 74، مبيِّنًا وجهَ الوقف على ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: «إنْ جُعِلَ ﴿لَا رَيْبَ﴾: لا شك، وإن جُعِل بمعنى: حقًّا؛ فالوقف على ﴿لَا رَيْبَ﴾، والوقف على الوجهين تامّ».

(5) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/99، ويُقارن بما ذكره ابن عاشور في التَّحرير والتَّنوير: 1/224.

ويَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلعَهْدِ العِلْمِيِّ؛ أي: ذلك الكتابُ المَوْعودُ بتَنزيلِه[1]، أو: ذلك الكتابُ الذي تَتْلونَه وتَقرَؤُونَه، وهو حَاضِرٌ في أَذْهانِكُم، فهو الكتابُ باعتبارِ ما نزلَ ممَّا تعرفون، وما سينزِلُ ممَّا ستعلمون.

الفَرقُ بين اسمي الكِتَابِ والقرآن:

الـكـتـابُ اسـمٌ للوَحيِ بوصفِه مكتوبًا، والقرآنُ اسـمٌ بـوصـفِـه مقروءًا

(الكِتابُ) و(القرآنُ) كلاهُما اسمٌ لِلوَحْيِ المُنَزَّلِ على النَّبيِّ محمَّد ﷺ، فهُمَا بهذا الاعتبارِ مُترادفانِ، إلَّا أنَّ كلًّا منهما يُشيرُ إلى وصف ليس في الآخَرِ، فـ(الكتاب) يُشير إلى كونِه مكتوبًا، إمَّا في اللَّوحِ المَحْفوظِ فيمَا كانَ وما هو كائنٌ ومَا سَيكُونُ، أو في الصُّحُفِ التي بين أَيْدِي النَّاس بعدَ نُزُولِه، أو كلاهُما وهو الأظْهرُ، و(القرآنُ) يُشير إلى كونِه مَقْرُوءًا مَتْلُوًّا، وفي هذه الإشَارَةِ تأكيدٌ على حِفْظِ الكِتَابِ المَكْتُوبِ، ودعوةٌ إلى قراءته.

سِرُّ التَّعبيرِ بالكتابِ دونَ القرآنِ:

نَـفْـيُ الـرَّيْـبِ الـذَّاتِيِّ عَـنِ الـوحـيِ، هـو الأنْـسَـبُ بلفظِ الكتَابِ

وأُوثِر التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ دونَ القُرآنِ؛ لأنَّ المقصودَ نفيُ الرَّيْبِ الذَّاتيِّ عَنْهُ، وهو أنسبُ لِلوَحْيِ المَكْتُوب في اللَّوْحِ المحفوظِ وفي الصُّحُفِ، ثُمَّ يَسْتَتْبِعُ ذلكَ عدمَ جوازِ الشَّكِّ في الوَحْيِ مُطْلَقًا؛ مقروءًا كان أو مكتوبًا في صُحُفِ النَّاسِ.

جُمْلَةُ: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ بين الخَبَرِ والإنْشَاءِ:

الوَحْيُ المكتُوبُ في الـلَّـوحِ المحفوظِ يقينٌ مُـزِيـلٌ لِـلشَّكِّ والرَّيْبِ

جملَةُ: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ خَبَرِيَّةٌ في اللَّفْظِ، فإنْ أُريد بالكتابِ: الوَحْيُ المكتُوبُ في اللَّوحِ المحفوظِ، فهي جملةٌ خبريَّةٌ باقيةٌ على خبريَّتِهَا، يُرادُ بها: المَدْحُ والتَّنْويهُ؛ وذلك بإثبات كمالِ ضدِّ الوصفِ المنفيِّ؛ فهو كتابٌ "مُشْتَمِل على علم اليقين المُزيل لِلشَّكِّ والرَّيب"[2]، وذلك أخذًا بقاعدة النَّفْيِ المرادِ به المدحُ: أي: النَّفيُ المتضمِّنُ إثباتَ كَمَالِ الضِّدِّ؛ إذِ النَّفْيُ المَحْضُ ليس مَدْحًا ولا كمالًا.

(1) التَّفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلاميَّة بالأزهر: 1/29.

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 40.

الجُملةُ خبريّةٌ لفظًا، إنشائيّةٌ معنًى، تَنْهى النّاسَ عنِ الارتيابِ

وإن أُريدَ بالكتابِ: ما بأيدي النَّاسِ ممَّا كُتِب مِنَ الوحي؛ فالجملةُ خبريةٌ لفظًا، إنشائيَّةٌ معنًى؛ يُرادُ بها النَّهْيُ عَنِ الارْتِيَابِ في القرآنِ الكريم، والمَعْنَى: لا تَرْتَابُوا فيه[1]، والقرينَةُ الدَّالَّةُ على صَرفِ الخَبَرِ إلى الإنشاءِ: وقوعُ ارْتِيَابٍ مِنْ بعضِ الخَلْقِ.

ووُرودُ الخَبَرِ مُرادًا به الأمرُ أوِ النَّهْيُ كثيرٌ في القرآن الكريم، وهو ضَرْبٌ مِن ضُروبِ البَلَاغةِ، وفنٌّ من فنونِ المَجازِ؛ وذلك أنَّ وُرودَ الخَبَرِ مُرادًا به الأمرُ أو النَّهيُ أبلغُ مِنَ الأمر والنّهي الصَّريحَيْنِ، "كأنَّه سُورع فيه الامْتِثَالُ وأُخْبِرَ عَنْهُ"[2].

ويمكِنُ الجمعُ بَيْنَ المعاني السَّابقة؛ فيُقال بأَنَّ معنى ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾: لا ترتابوا في الوحي المكتوبِ بَيْنَ أيديكم؛ لأنَّهُ موافقٌ لِلوَحْيِ المكتوب في اللَّوحِ المحفوظِ، وهُوَ لا ريبَ فيه، وكذلكَ ما بِأَيْدِيكُمْ لا رَيْبَ فيه في ذاتِهِ، فلا يَنْبَغِي الارْتِيابُ فيهِ.

مُناسَبَة التَّعْبيرِ بِمادّة (الرَّيْبِ) دون (الشّكّ):

اشْتِمالُ لفظِ الرَّيْبِ لمعنى الشَّكِّ في الرِّسالةِ، واتِّهامِ الرَّسولِ بالافتراءِ

جاءَ التَّعبيرُ بقولِه: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ دون (لَا شَكَّ فِيهِ)؛ لأنَّ المشركين -مع تَشْكِيكِهم في القرآنِ الكريم-؛ كانوا يتَّهمون النَّبيَّ ﷺ بأنَّه هو الذي افتراه، وهذا بخلافِ الوارد في قولِه تعالَى: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾ [يونس: 104]؛ إذِ الخِطابُ للنّاسِ، وافتراضُ الشَّكِّ في الدِّينِ وهو التَّوحيدُ، لا في خُصوصِ القُرآنِ، وفي آيةِ يونس "تَعريضٌ ولَحْنٌ من الكلامِ لَطيفٌ"[3]، إذ تدعوهُم للشَّكِّ في دِينِهم، فالتَّعبيرُ بالشَّكِّ هو الأنسبُ بسياقِ الآيةِ.

دلالة الوَقْفِ على لَفْظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾:

الإشارةُ إلى أنّ القرآنَ هو الكتابُ الحَقُّ الكَامِلُ بلا رَيْبٍ

إذا وُقِفَ على ﴿لَا رَيۡبَۛ﴾؛ كان مِن إيجَازِ الحَذْفِ، والتَّقديرُ:

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/58، والسَّمين: الدُّر المصون: 1/90.
(2) السُّيوطيّ، معترك الأقران: 1/195.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 264.

لَا ريبَ في أنَّه الكتابُ الكاملُ، وهو وقفُ نَافِعٍ وعاصم[1]، أو يكون المعنى: ذلك الكتابُ حقًّا[2]، وتكون جملةُ: ﴿فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ مُستقلّة بمعناها ومَبناها.

فائِدةُ تنكيرِ لفظ ﴿هُدٗى﴾ لتعظيمِ القرآنِ:

هُـدى الـقـرآن عظيم لا يُـدرك شأوه

نُكِّر الهُدَى في قولِه: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾؛ لتَعظيمه وتفخِيمه، فهو هُدًى عظيمٌ لا يُسبَرُ غورُهُ، ولا يُدْرَكُ مُنْتَهاهُ، وهو فخمٌ لا يَليقُ إلّا بالمتَّقين.

التَّعبيرُ بالمَصْدَرِ دونَ اسمِ الفَاعلِ للمبالَغةِ:

الـقـرآن مصدر الـهـدى، بـل هو الهدى عينه

يؤيِّدُ دلالة التَّعظيم والتَّفخيم: التَّعْبِيرُ عَنْ هداية القرآنِ بِالمَصْدَرِ دون اسم الفاعِلِ؛ إِذْ كان مُقتضى الظَّاهر إذا وُقِفَ على ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾، أن يُقال: (هَادٍ للمُتقين)، ولكنْ عُدِلَ عَنْهُ إلى التَّعبير بالمَصْدَرِ لِلمُبالغَةِ في وصفهِ بالهدايةِ، فكأنَّهُ هو الهدايةُ نفسُها.

بلاغةُ الأوصافِ المُتوالِيَةِ:

تـوالي الأوصـافِ مُفْضٍ إلى وَصْفِ القُرآنِ بالكَمَالِ المُطلَقِ

وهذه الأوصافُ المُتَعَاقِبَةُ يُقوِّي بعضُها بعضًا في كون القرآنِ كتابًا كاملًا؛ وذلك لأنَّ قولَه ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ يقتضي كمالَهُ مِنْ وَجْهَيْنِ: مِنْ جِهَةِ تعريف جُزأَي الجُمْلَة، ومن جهة تعريف (الكتاب) بـ (أل) -على ما سبق بيانه آنفًا-، ثم جاءَ قولُه: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ لِيَشْفَعَ لِلمَعْنَى السَّابقِ ويُعزِّزَهُ، فكَوْنُهُ كتابًا لا رَيْبَ فيه يَسْتَحِقُّ اتِّصافَهُ بالكمالِ، ثم جاءَ قولُهُ: ﴿هُدٗى﴾ مُنَكَّرًا؛ للدّلالة على عَظِيم هذه الهدايةِ.

ولكَوْنِ هذه الأوصافِ يُقوِّي بعضُها بعضًا؛ جاءَت الجُملُ مَفْصُولًا بعضُها عن بعضٍ؛ لِلإيماءِ إلى كَمالِ الاتِّصالِ بينها.

(1) السّخاويّ، جمال القرّاء وكمال الإقراء، ص: 691.

(2) الألوسّي، روح المعاني: 1/110.

توجيهُ المَخْصُوصِ بالذِّكْرِ:

إظهارُ المُنتفعين بهِدَايَةِ الْقُرْآنِ تَشريفًا وتكريمًا

خُصَّ المُتَّقُونَ بالذِّكْرِ في قولِه سبحانه: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ لكونِهم المُنتفعينَ بهِ[1]، وإلَّا فالقرآنُ في نفسِه هادٍ للنَّاسِ وبيانٌ لَهُمْ جميعًا، كما قال تعالى: ﴿هُدَى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 185].

أَوْ هو مِنْ بابِ الاكتِفَاءِ؛ فقوله: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: والكافرين أيضًا[2]، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: 81]، أي: والبردَ كذلك، واكتُفِيَ بذكر المتَّقين؛ تشريفًا لهم[3]، ولئلَّا ينقطِعَ النَّظْمُ مع أوصافِهِمُ المذكورةِ بعدُ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ:

إبـرازُ قيمةِ الهِدايةِ في التّعبيرِ عن النّاسِ بـ(المُتّقين)

ويحتمل أَنْ يكون من باب المجاز المُرْسلِ، علاقتُهُ: اعتبار ما يؤولُ إليه الأَمْرُ، والمعنى: هُدًى لِلنَّاسِ الصَّائرينَ مُتَّقينَ[4]، ولعَلَّ فائدةَ التَّعْبيرِ بالمَجَازِ هَهُنَا: قَرْنُ الكتابِ بذِكْرِ عاقِبَتِهِ الحَسنَةِ على أهلِهِ المُتَمَسِّكين بِهِ، وذَلِكَ أنشَطُ لِلعَمَلِ، واللهُ أعلم.

سِرُّ التّعبير بالمُتّقين دون المؤمنين أو المسلمين:

التّقوى اجتهادٌ وتَـرَقٍّ في مَـدارج الإيمان والأعمال الصّالحة

وثمّة معنًى آخرُ دقيقٌ يحمِلُه لفظُ (المتّقين)، وهو دعوةُ المُؤمنين إلى الاجتهادِ والأخذِ بأسبابِ التّقوى، والحِرصِ على التّرَقّي في مَدارجِ الإيمان والأعمال الصّالحة؛ إذ لفظ (اتّقى) يدلُّ بصيغته على الافتعالِ وبَذْلِ الجُهدِ لتحقيقِ الفعلِ، وهذا ما لا يحمِلُهُ لفظُ (المُسلمين) أو (المُؤمنين)، إذْ هما عنوانانِ للإسلامِ والإيمانِ، وليس عنوانُ الأمرِ كعمله.

(1) ابن باديس، مجالس التَّذكير، ص: 26.

(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/54، والزَّركشيُّ، البرهان في علوم القرآن: 3/120.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/64.

(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/35-36.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّيْبُ والشَّكُّ:

سَبَقَ أنَّ جماعةً مِن العلماءِ يَرَوْنَ أنَّ الرَّيْبَ مُرادِفٌ لِلشَّكِّ؛ بل نَقَلَ ابنُ أبي حاتم الإِجْماعَ على تَفْسير الرَّيبِ بالشَّكِّ الواردِ في صَدْرِ سورة البقرة[1]؛ وليس في هذا الإِجْمَاعِ إجماعٌ على تَرادُفِهما، وإنَّما كان الاتِّفاقُ على تفسيرِ الرَّيب بالشّكِّ مِن جهة وجُودِ أصل الشَّكِّ فيهِ؛ إذْ كلُّ رَيْبٍ فيه شكٌّ -كما سيتَّضحُ قريبًا-.

ولذا قال السَّمين الحلبيّ: "فلَيْسَ قولُ مَن قال: (الرَّيْبُ الشَّكُّ مُطلقاً) بِجَيِّدٍ، بل هو أخصُّ مِنَ الشَّكِّ"[2].

الرّيبُ شكٌّ مع تُهمة، أو شَكٌّ وزيادةُ ظنٍّ سوءٍ، والشّكُّ وقوفُ النَّفس بين شَيْئَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ مِن دون أَمَارَةٍ مُرَجِّحةٍ بينَهُما:

والتَّحقيقُ أنَّ بين الرَّيْبِ والشَّكِّ فرقًا، وقَدِ اخْتَلَفَتْ عباراتُ العلماءِ في بيان الفرقِ بَيْنَهُما؛ فقيل: الرَّيْبُ: الشَّكُّ مع تُهمة[3]، أو هو شكٌّ وزيادةُ ظنٍّ سوءٍ[4]، وحقيقتُهُ: قَلَقُ النَّفس واضْطِرابُها[5]، والتُّهَمَةُ التي في الرَّيْبِ هي تُهمةٌ لِلمُخْبِرِ[6].

وقيل: الشَّكُّ وقوفُ النَّفس بين شَيْئَيْنِ مُتَقابلَيْنِ من دون أَمارَةٍ مُرَجِّحةٍ بينَهُما، والرَّيبُ: أَنْ يُتَوَهَّمَ في الشَّيء أمرٌ ما، ثُمَّ يَنْكَشِفَ عمَّا تُوُهِّم فيه[7]، فكَأَنَّ في الرَّيْبِ نوعَ حُكْمٍ وإنْ لَم يَكُنْ جازمًا، بخلاف الشَّكِّ فلا حُكْمَ فيهِ.

والتَّحْقِيقُ فِيهِ مَا قرَّره ابنُ القَيِّم رحمه الله تعالى؛ فَقَد جعلَ الفَرْقَ بَيْنَهُمَا مِنْ سِتَّةِ أوجُهٍ؛ نُرْجِعُهَا إلى فَرْقَيْنِ اثنين[8]:

أَحَدهما: فرق لفظيٌّ، والآخر: معنويٌّ.

---

(1) ابن أبي حاتِم، تفسير القرآن العظيم: 1/34.

(2) السَّمين، الدُّر المصون: 1/86.

(3) السَّمين، الدُّر المصون: 1/86، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 264.

(4) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/137.

(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/34.

(6) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 17/409.

(7) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/115.

(8) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 4/106.

فأمَّا اللَّفظيّ؛ فإنَّه يُقال: شَكٌّ مُريبٌ، ولا يقال: رَيْبٌ مُشَكِّكٌ، ويقال: رابَنِي أمرُ كذَا، ولا يُقال: شكَّكَنِي.

الشَّكُّ أصلٌ للرَّيْبِ وسَبَبٌ فيهِ؛ فإنَّ العَبْدَ يشُكُّ أوَّلًا، ثُمَّ يُوقِعُهُ الشَّكُّ في الرَّيْبِ:

وأمَّا المعنويّ؛ فهُوَ أنَّ الرَّيبَ بمعنى الِانْزِعاج والقلَقِ، يُقال: رابَهُ إذا أزعجه وأقْلَقَه، ولا يكون هذا المعنى في الشَّكِّ؛ فإنَّك تقول: لا تُرِبْ فلانًا بمعنى لا تُزعِجْهُ ولا تُقْلِقْهُ، ولا يصحُّ أَنْ يُقَالَ: لا تُشَكِّكْهُ -بِذَلِكَ المَعْنَى-.

والرَّيْبُ فيه -مع الشَّكِّ- مَعْنَى التُّهَمَةِ، فيُقال: رابنِي مجيئُهُ، ولا يقال: شكَّكَنِي مجيئُهُ.

ولذا فَإِنَّ الشَّكَّ أصلٌ للرَّيْبِ وسَبَبٌ فيهِ؛ فإِنَّ العَبْدَ يشُكُّ أوَّلًا، ثُمَّ يُوقِعُهُ الشَّكُّ في الرَّيْبِ.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعدَ ذِكْرِ المُتّقين الذين يهتدون بالقرآن، حسُنَ إيرادُ أوصافِهِم

لَمَّا ذكر اللّه تعالى أَنَّ القرآن هُدًى لِلمُتَّقين؛ ناسَبَ أَن تُذْكَرَ أوصافُهم المُعرِّفَةُ بِهِمْ، فذَكَرَ اللّه تعالى مجامِعَ أعمالِهم تعريفًا لَهُمْ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [1]، فَوَصْفُهُم بـ (المُتَّقين) صفةٌ إجماليَّةٌ، وما ذُكر بعدُ تفصيلٌ يُعْرَفُ به المُرادُ، ولِيَكون هذا التَّفصيلُ مبدأَ الاِسْتِطْرادِ لذِكْرِ أصنافِ المُتلقِّين لِلوَحْيِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الإيمانُ لغةً التّصديقُ، وشرعًا قولٌ وعملٌ واعتقادٌ

1) ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾: فعل مضارعٌ لِلفعل: (آمَنَ)، مُسنَدٌ إلى جماعة الذُّكورِ، والهمزةُ والميمُ والنُّونُ: تدلُّ على تصديقِ وسُكُونِ قلبٍ[3].

وأصلُ الأَمْنِ: طُمأنينَة النَّفْس وزَوالُ الخوف[4]، وفِعْلُهُ: أَمِنَ.

وأمَّا (آمَنَ)؛ فله وجهان[5]:

أحدهما: أَنْ يكونَ متعدِّيًا، تقولُ: آمَنْتُهُ؛ إذا جعلتَ له الأَمْنَ والأمانَ، ومِنْهُ -في وَجْهٍ[6]- اسمُ اللّهِ: المُؤْمِنُ.

والآخر: أَنْ يكونَ لازمًا، ومَعْنَى (آمَنَ) على هَذَا: صَارَ ذَا أَمْنٍ.

والإِيمانُ: التَّصديقُ، باتِّفاقِ أهل اللُّغةِ[7]، ونازَعَ في هذه الحقيقَةِ اللُّغَويةِ جماعةٌ[8].

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 1/82.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/228.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أمن).
(4) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(5) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(6) الزَّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 32-31.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (أمن). وهذا الاتِّفاق إنَّما هو في الحقيقة اللُّغويَّة لِلإيمانِ، أمَّا معناه في الشَّرْعِ فلَيْسَ هُوَ معناه في اللُّغةِ، بل له في الشَّرْعِ حقيقةٌ أُخرى أَوْضَحَتْهَا أدلَّتُهُ.
(8) ابن تيميَّة، الإيمان، ص: 101، وما بعدها. والنِّزاعُ هو في بيان الحقيقة اللُّغويَّة، أما الحقيقة الشَّرعيَّة للإيمان وأنَّه: قول وعمل واعتقاد؛ فلم تختلف كلمة أهل السُّنَّةِ فيه، بل صارَ ذلك مِن شعارِهِمْ.

والإيمَان فِي الشَّرْعِ يُطلق إطلاقين[1]:

إطلاقًا عامًّا؛ تَنْدَرِجُ فيه جميعُ أمور الدِّين العِلميَّة والعَمَلِيَّة، فهو بِهَذَا الِاعْتِبَارِ: قولٌ وعمل واعتقاد.

للإيمان تعريفٌ اصطلاحيٌّ خاصٌّ هو: التّصديقُ بأصول الإيمان السِّتَّةِ المشهورة:

وإطلاقًا خاصًّا، والمرادُ به التَّصديق والإقرَار بأصول الإيمان السِّتَّةِ المشهورة.

والظَّاهِرُ أنَّ لفظَ الإيمانِ الواردَ في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، يُراد به معناه اللُّغويُّ: التصديقُ[2]، ثُمَّ يَؤُول أمرُ التَّرْكِيبِ -الإيمان بالغيب- إلى الإطلاق الخاصِّ لِلإيمانِ، والمعنى: أنَّهُم يُصدِّقون بالغَيْب، ويدخلُ فيه أصولُ الإيمانِ السِّتَّةُ.

الـغَـيـبُ كـلُّ مــا غـــاب عن الإنـــســـان، والـمُرادُ كـلُّ ما يـجـبُ اعـتـقـادُ وجـــوده ممّا لا يُدْرَكُ بالحِسّ

2) ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: مَصْدَرُ الفعل (غابَ يغيبُ غَيْبًا)، ويُطلَقُ مُرادًا به اسمُ الفاعل، أي: الغائبُ[3]، وبِهَذَا المعنى يُعنى بلفظ (الغَيْب): كُلُّ ما غابَ عَنْكَ[4].

ويُطلق على الـمُطْمَئِنِّ مِنَ الأرضِ[5]؛ وهو ما انخفضَ مِنْهَا، وهو راجِعٌ إلى الأوَّلِ؛ إِذِ الدَّاخِلُ في مُطمَئِنِّ الأرض يكونُ غائبًا مَخفيًّا عَنِ العيُونِ[6].

والغَيْبُ في الآيةِ، قيل: هو اللّه تعالى؛ لأنَّه لا يُرى في الدُّنيا[7]، وقيل: القضاء والقدر، وقيل: أحوال الآخرة، وقيل غير ذلك.

وهذه الأقوالُ إنما هي مِن بابِ التَّمثيلِ لِلغَيْبِ ببعض أفرادِه، وإلَّا فجميعُ ما ذُكِرَ يَصْدُق عَلَيْهِ أنَّه ممَّا غاب عن الحسِّ فهو غَيْبٌ، ولذا قال ابنُ عطيَّة: "وهذه الأقوالُ لا تَتَعَارَضُ، بل يقَع الغَيْبُ على جميعها"[8].

(1) عبد الرَّحمن البرَّاك، شرح العقيدة الطحاويَّة، ص: 239.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/234.
(3) ويجوز أن يكون بمعنى اسم المفعول، أي: المُغَيَّب. ينظر: محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 1/36.
(4) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (غيب)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (غيب).
(5) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (غيب).
(6) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/84.
(7) جمال الدّين الفتَّني، مجمع بحار الأنوار: 4/80.
(8) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 1/84.

إقامةُ الصّلاة الإتيانُ بِهَا على وجه المُحافظة علَى أَرْكَانِها وشُروطِها ومُكَمِّلاتها

3) ﴿وَيُقِيمُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ لِلفِعلِ (أَقَامَ)، ومصدرُهُ: الإقامةُ؛ بِمعنى الدَّوامِ[1]، يقال: أقامَ الصَّلاةَ إِذَا داومَ عَلَيْهَا، أمَّا (أقامَ لَها) فمَعْنَاهُ: نادى لها[2] بألفاظ الإقامةِ.

وجَوَّز بعضُ أهلِ العِلْم أَنْ يكونَ ذلك مِنَ التَّقويم وهو التَّعديلُ، مِن قَوْلِكَ: قوَّمتُ العودَ؛ إذا عدَّلته، ويكون معنى أَقَام الصلاةَ -على هذا المعنى-: الإتيانَ بِهَا على وجه المُحَافظة علَى أَرْكَانِها وشُروطِها ومُكَمِّلاتها[3].

ويحتمل أنَّ معنى: أقامَ الصّلاةَ؛ أظهَرَها، مِنْ قَوْلِهِم: أُقيمَتِ السّوقُ[4].

ولا مانِعَ مِنَ الْجَمعِ بين تلك المعاني جميعًا؛ فيكون معنى أَقَام الصّلاةَ: داوَمَ عَلَيْهَا، وأَظْهَرَها، وأتَى بها مُحافِظًا على أركانها وشروطها ومكمِّلاتِهَا.

4) ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾: أَعْطَيْنَاهُمْ، مِنْ (رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقًا)، فالمَصْدَرُ: الرَّزْقُ بفتح الرَّاءِ، والرِّزْقُ هو الاسمُ، وقد يُستعمل بمعنى المصدر[5].

الرِّزقُ العطاءُ الجاري، والنّصيبُ، وما يَصِلُ إلى الجَوْف ويُتَغذَّى به، وكلُّ خَيْرٍ وَصَلَ إلى صاحبه، ويُطلق الرِّزقُ إِطْلَاقاتٍ متعدِّدةً[6]:

أَوَّلُها: العطاءُ الجاري، ومِنْهُ قولهم: رَزَقَ السُّلطانُ جُنْدَه.

ثانيها: النَّصيب، ومِنْهُ قولُه تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ [النحل: 75].

ثَالِثُها: ما يَصِلُ إلى الجَوْف ويُتَغَذَّى به، ومِنْهُ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»[7].

(1) أبو عبيد الهروي، الغريبين: (قوم).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (قوم).
(3) النّبراوي، حاشية على الأربعين النووية، ص: 37.
(4) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 1/85.
(5) الواحدي، التفسير الوسيط: 1/82.
(6) السَّمين، عمدة الحفاظ: (رزق)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 324.
(7) رواه التِّرمذي، حديث رقم: (2344)، وابن مَاجَه، حديث رقم: (4164)، وهو صَحِيحٌ كما في السِّلسلة الصَّحيحة، حديث رقم: (310).

رابعها: كُلُّ خَيْرٍ وَصَلَ إلى صاحبِه، ومِنْهُ قَوْلُهُم: رَزَقَ اللّٰهُ فلانًا عِلْمًا.

وحَمْلُ الرِّزْقِ في الآيةِ على العُمُومِ أَوْلَى، وأَنْسَبُ لبلاغة القرآنِ القائمةِ على وَفرة المعاني؛ فيكون الرِّزْقُ شاملًا لِلمالِ والقوَّة والجاهِ والعلمِ ونحو ذلكَ[1].

الإنـفـاقُ إخـراجُ المـالِ ونـحْـوِه في وجـوه الـخـير، وقد يكونُ واجبًا ومُستَحَبًّا

5) ﴿يُنفِقُونَ﴾: أصلُ الإنفَاقِ: الإنْفادُ؛ يُقال: أنفقَ القومُ؛ إذا نَفِدَ ما عِندَهُمْ[2]، ومِنْهُ قولُهم: أنفقَ الرَّجُلُ، أي: افتقَرَ لنفادِ مالِه، ومِنْهُ قول اللّٰه تعالى: ﴿إِذًا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ [الإسراء: 100] أي: الفَقْرِ[3].

ويُطْلَقُ الإنفاقُ على إخراجِ المالِ ونَحْوِه مِنَ الْيدِ، ومِنْهُ قولُهم: نفقَ البيعُ: إذَا خرج مِن يدِ البائعِ إلى المُشْتَرِي[4].

فالإنفاقُ قد يكُونُ بالمال، وقد يكون بغيرِه، ثُمَّ هو قد يكون واجبًا أو مستحبّا[5].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

أخصُّ خصائص المتّقين التّصديقُ بأركان الإيمان، وإقامةُ الصّلاة، والإنفاقُ بأنواعه

المُتّقون هم الذين يُصدِّقونَ ويُقِرُّونَ إقرارًا يستلزمُ القبولَ والإذعانَ بكُلِّ ما غابَ عَنْهُمْ ممَّا أخبرهم اللّٰه به في القرآنِ الكريم أو أخبرهم به رسولُه ﷺ، ويُؤَدُّون الصَّلاةَ مُظهِرينَ لهَا مُدَاوِمِين عَلَيْهَا مُحافظين على أركانها وشُروطها ومُكمِّلاتها، ويُنْفِقونَ ممَّا أعطاهُمُ اللّٰه تعالى في وُجوه الخير بالزَّكاة الواجبة والصَّدقات المستحبَّة[6].

(1) الرّاغب، المفردات: (رزق).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نفق)، والنَّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/66.
(3) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 2/553.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 1/195.
(5) الرّاغب، المفردات: (نفق).
(6) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 1/84-85، ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 3، وجماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 2.

❁ الإيضَاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائِدَةُ الوَصْفِ بالاسمِ الموصُول:

الإيمانُ بالغيب أُسٌّ متينٌ وركنٌ ركينٌ من مُقوّمات الاعتقادِ الإسلاميّ

الاسمُ الموصولُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ وصفٌ ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، وفائدةُ الوصفِ هَهنا: مدحُ المُتَّقين والثَّناءُ عَلَيۡهِمۡ بذِكرِ خصالِهم الحسنةِ وأفعالِهم الحميدةِ، وتعليلٌ لسببِ استحقاقِهم لاسم المتَّقِينَ، وهو الإيمَانُ بالغَيۡبِ، تصريحًا بأنَّ الإيمانَ بالغَيۡبِ أُسٌّ متينٌ، ورُكنٌ ركينٌ من مُقَوّماتِ الإيمانِ باللّه تعالى.

فائِدَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ:

تجديدُ الإيمانِ أصلٌ في الـمُداوَمةِ على الصَّلاةِ والإنفاقِ

جاء التَّعبيرُ في الأفعالِ الثلاثةِ: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ وَ﴿وَيُقِيمُونَ﴾ وَ﴿يُنفِقُونَ﴾ بصيغَةِ الفعلِ المُضارعِ؛ للدّلالة على التَّجدُّدِ والحدوثِ "إيذانًا بتجدُّدِ إيمانهم بالغيبِ، وتجدُّدِ إقامتِهم الصَّلاةَ، والإنفاق؛ إذۡ لم يكونوا مُتَّصفين بذَلِك إلَّا بعد أَنۡ جاءهم هُدَى القرآن"(1).

ولِلإشارةِ إلى التَّجدُّد الاستمراريِّ؛ إذۡ إنَّ معارفَهم الإيمانيةَ تزدادُ شيئًا فشيئًا، وكُلَّما زادت معارِفُهُم بالغَيۡبِ صدَّقوهُ وأقرُّوا به، كما أنَّ إقامَتَهم الصَّلاةَ مُستمِرَّةٌ استمرارًا تجدُّديًّا إذا وُجِدَ سَبَبُها، وكذا يُقال في الإنفاقِ.

بلاغةُ الإيجازِ بالتَّضْمِين:

تـضـمـيـنُ فعلِ الإيـمـانِ معنى الإقْرارِ والاعْتِرَافِ والثِّقةِ بمَا نَزَلَ به الوَحْيُ

الأصلُ في الفعل (آمنَ) -بمعنى (صدَّقَ)- أن يتعدّى بنفسه، فيُقال: آمَنَهُ؛ إذا صدَّقه، وعلى هذا فقوله سبحانه: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، فيه تضمينٌ لفعلِ (آمنَ) معنى أَقَرَّ واعتَرَفَ ووَثِقَ، فـ ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: يُؤمنون ويُقِرُّون ويعترفون ويَثِقُونَ بما غابَ عَنۡهُمۡ ممَّا أُخۡبِرُوا به في الوَحۡيِ(2)، ففيه ضَرۡبٌ من الإيجازِ؛ وذلك

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/229.

(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/38.

بِطَيِّ جُملةٍ مِنَ معاني الْأَفْعَالِ، وجَعْلِ حرفِ الباءِ دالًّا عليها، وهو مَا يَقْتَضِيه ظاهرُ اللَّفظِ ومعنَاه.

تَرَدُّدُ معنَى اللَّامِ فِي لفظِ: ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ بَيْنَ العَهْدِ العِلْمِيِّ وَالِاسْتِغْرَاقِ العُرْفِيِّ:

مَدْحُ المُؤمنين بكلِّ غَيْبٍ جاءَ في الوحي كتابًا وسنَّةً

إذا حملنا ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ على معنى اسم الفاعلِ أو المفعولِ، بمعنى: ما غاب، أو الـمُغَيَّب؛ فإنَّ اللَّامَ فيه تَحتمِل مَعْنَيَيْن:

أحدهما: العهدُ العِلْمِيُّ -الذي يُسمِّيه النُّحاةُ: العهْدَ الذِّهنيَّ-؛ والمعنى: أنَّهم يُؤمنون بالغَيْبِ المعروفِ المَنْصوصِ عَلَيْه شَرْعًا.

والآخر: الاستغراقُ، ولا يكون الاستغراقُ هَهُنَا حقيقيًّا، بَلِ استغراقًا عُرفيًّا، وهو الغَيْبُ الثَّابتُ بالشَّرْعِ؛ إذْ بعضُ أفرادِ الغَيْبِ العامِّ ممَّا لم يرِدْ في الشَّرعِ لا يُحْمَدُ تصديقُهُ، كما لا يخفَى.

حَذْفُ المَعْمُولِ لِلعُمُومِ:

الفَيْصَلُ بين المُؤمنين والمُنافقين هو عدَمُ توقُّفِ إيمانِهم على المُشَاهدةِ

ويُحتمل أن يكونَ لفظُ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ باقيًا على معناهُ المصدريِّ، والمعنى على هذا: يؤمنون حالَ غَيْبَتِهم كما يُؤمنون حالَ حضورِهم، وليسَ شأنُهم كحالِ المنافقينَ، ويكون الـمُؤْمَنُ به محذوفًا لقصد الشُّمول والعموم والمبالغةِ، والمعنى: أنَّهم يُؤمنونَ بكلِّ ما يُؤْمَنُ به ممّا غاب عن الحِسّ مِمَّا صحَّ بِهِ الخَبَرُ[1]، وفيه من الـمَدْحِ الكبيرِ والثَّنَاءِ العظيم لأنَّه بُرهانُ الثِّقَةِ ودليلُ اليقينِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في فِعلِ: ﴿وَيُقِيمُونَ﴾:

أثرُ الاستعارة في تصوير الخَلَلِ الرُّوحيِّ لتقويمه وإصلاحِه

سَبَقَتِ الإشارةُ إلى تعدُّدِ اشْتِقَاقِ الفِعْلِ (يُقيمونَ)، وكلُّ واحدٍ منها يصِحُّ أَنْ يكونَ مُرادًا، ولا مانِعَ مِنْ جمع تلك المعاني كُلِّهَا؛ إذِ المعاني تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ، وتتكاملُ ولا تتعارضُ عِنْدَ الحَمْلِ عليهَا.

ومن تلك المعاني أن يكونَ التَّقويمُ مُشتَقًّا مِنَ التَّعْدِيلِ؛ مِن قَوْلِهِم: قوَّمْتُ العودَ؛ فهو مِنْ بابِ الاستعارة، وفي إجرائِهَا طريقتَانِ:

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/216.

أُولاها أَنْ يُقالَ: شُبِّهَتِ الصَّلَاةُ بِالعُودِ بجَامِعِ التَّعْدِيلِ في كُلٍّ مِنْهما، وتعديلُ الصَّلاةِ أي: تعديلُ إقامتِها، بأنْ يأتيَ بها المُصلِّي على الوَجْهِ الصَّحيحِ؛ فحُذِفَ المُشَبَّهُ به، ورُمِزَ لَهُ بشَيْءٍ مِنْ لوازِمِه وهو (يُقِيمُونَ)، على سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ المَكْنِيَّةِ الأَصْلِيَّةِ.

والأُخْرَى أَنْ يُقالَ: شُبِّهَ تَعْدِيلُ الأَرْكَانِ بتَقْوِيمِ الرَّجُلِ العُودَ، واسْتُعِيرَتْ لَهُ الإِقَامَة، ثُمَّ اشْتُقَّ مِن (الإقامَةِ) بمعنى التقويم الفِعلُ: (يُقِيمُونَ)؛ فصُرِّحَ بالمُشبَّهِ به، على سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ التَّبَعِيَّةِ.

تشبيهُ المعنويِّ بالحسيِّ؛ لوضوحِ الخلَلِ في الحسيِّ، وقصدِ المُسارَعةِ إلى إصلاحِ المعنويِّ

ونُكْتَةُ الاسْتِعَارةِ: أنَّ تقويمَ الصَّلاةِ معنويٌّ، وتقويمَ العودِ حسِّيٌّ، والخَلَلُ الحِسِّيُّ أَظْهَرُ مِنَ الخَلَلِ المعنويِّ؛ لأنَّه مُدْرَكٌ لكلِّ راءٍ، فأيُّ فَسَادٍ في الحسِّيِّ يُتفَطَّنُ لَهُ فيُبادَرُ إلى إصلاحِه، وكذلك شأنُ الصَّلاةِ ينبغي النَّظَرُ فيما قد يدخُلها مِنَ الخَلَلِ فيُتَدارَكُ، فهذا من تشبيهِ المعنَويّ بالحسيِّ.

دلالة اللَّامِ فِي ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عَلَى العَهْدِ العِلْمِيِّ أَوِ الاسْتِغْرَاقِ:

واللَّامُ الدَّاخلةُ على لفظ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، يُحتملُ أَنْ تُخَرَّجَ على أحدِ وَجْهَين:

احتمالُ إرادةِ خُصوصِ الصّلواتِ الخَمْس

أحدهما: أَنْ تَكُونَ عَهْدِيَّةً، والمرادُ بها: خصوصُ الصَّلَوات الخمسِ، ويُؤيِّدُه: أنَّ هذا التَّرتيبَ (إقام الصَّلاة) مُستعمَلٌ في خطابِ الشَّرْعِ لهذا المعنَى، كما ورد في قولِ النَّبيِّ ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، والحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[1]، والمرادُ بإقام الصَّلاة الذي هو رُكنٌ من أركان الإسلام: الصَّلواتُ الخمس قطعًا، فكذلك ينبغي أن يكونَ ذلك هو المرادَ في آية البقرة.

(1) رواه البخاريّ، حديث رقم: (8)، ومسلم، حديث رقم: (16).

احتمالُ استِغراقِ جميعِ الصَّلواتِ المكتوبةِ والنَّافلةِ

والآخرُ: أَنْ تكونَ استغراقِيَّةً، والمرادُ: كُلُّ صلاةٍ يُصلِّيها المتَّقونَ؛ فإنَّهم يُقيمونَها بمعنى يأتونَ بها على وجهها الأكمل مُحافظين على أركانها وشروطها ومُكَمِّلاتها، وهذا القَدْرُ مِنَ الإقامةِ يَتحقَّقُ في الصَّلواتِ كلِّهَا فَرْضِهَا ونَفْلِهَا؛ إذِ الآيةُ الكريمةُ سِيقَتْ مساقَ مدحِ المُتَّقينَ، وهُمْ لا يَقْتَصِرُون على فعل الواجباتِ، بل يَتجاوزُونَها إلى النّوافل والمُستحبَّاتِ.

فالوجْهُ الأوَّلُ أولى؛ لموافقةِ المَشْهُورِ مِنْ خِطاب الشَّرْعِ مِن استعمالِ التَّركيبِ المَذْكورِ في خصُوص الصَّلواتِ الخمسِ، والوَجْه الثَّاني أشْمَلُ وأوعبُ؛ لكون الأوَّلِ مُنْدَرِجًا فيه، وهما متزاحِمان في حيِّزِ القَبولِ، ومَطْمَعِ الفُحُولِ.

فائِدَةُ تقْديمِ الجارِّ والمجرورِ:

توجيهُ نَظَرِ المُؤمِنِ إلى نِعَمِ الله عَلَيْه، يدعوه إلى تقييدِها بالشُّكرِ إنفاقًا

قَدَّمَ المُنْفَقَ مِنْهُ على فِعْلِ الإنفاقِ في قولِه تعالَى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣﴾؛ للاهْتِمَامِ بما أعطَاه اللَّه العبدَ؛ "بأنَّه من رزق اللَّه الذي رَزَقَهُ للأغنياء ليُعْطُوا مِنْهُ للفقراء، فالمالُ مالُ اللَّه، والجميعُ عبادُ اللَّه، فهو يأخذ من مال اللَّه ويُعطي عبادَ اللَّه"[(1)]، وفائدتُه: الإيذانُ "بأنَّهم يُنْفِقُونَ مع ما لِلرِّزْقِ مِنَ المعزَّةِ على النَّفْسِ؛ كقوله تعالَى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: 8]"[(2)].

توجيهُ الأفْهامِ إلى أنَّ المطلوبَ هو إخراجُ بعضِ المالِ لا كلِّه

وللإيماءِ ابتداءً إلى أنَّ المطلوبَ هو إنفاقُ بعضِ ما أُعْطوهُ لا كُلِّهُ[(3)]؛ إذْ إنَّ (مِنْ) المُدْغَمةَ في (مَا) للتَّبْعِيضِ، فلو جاء النَّظْمُ القرآنيُّ: (يُنفقون مِمَّا رزقناهم)؛ أفادَ أنَّهم يُنفقُون بعضًا، لكنَّ ما عدَا المُنْفَقَ مسكوتٌ عَنْهُ، فقد يكون مُنْفَقًا أيضًا، إلَّا أنَّ التَّقديمَ جعَلَ التَّركيبَ يُفيدُ القَصْرَ، أي: أنَّهم إنَّما يُنْفِقون بَعْضًا لا كُلًّا[(4)].

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3065.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/236.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/69.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/228.

وفائدةُ ذلك: التَّنبيهُ على أَنْ لَيْسَ المطلوبُ مِنْهُمُ الخروجَ من جميعِ أَمْوالِهم، وإنَّما إنفاقُ بَعْضِها؛ حَذَرًا مِنَ الإسْرَافِ وتَضييعِ مَنْ يعُولُونَهُ[1].

رَعْيُ الفاصِلَةِ تَبَعٌ لفظِيٌّ لا أَصْلٌ دلاليٌّ:

وثَمَّ وَجْهٌ آخَرُ يُستأنَسُ به لسبب التَّقديم؛ وهو مراعاةُ الفواصلِ؛ إذْ لو قيل: (ويُنْفقون مِمَّا رزقناهم)؛ فاتَ الإيقاعُ الصَّوْتِيُّ المُنسَجِمُ في فواصلِ الآيِ، وهو تابعٌ للمعنى، فمُراعاةُ الفواصلِ لا تُطلَبُ لذاتها؛ إذِ المعاني قَائِمَةٌ والألفاظُ خَوادِمُها.

براعةُ حَذْفِ المُتَعَلَّقِ في الإشارَةِ إلى المَقاصِدِ:

إظهارُ مقصَدِ الإنفاقِ في الإشَارَةِ إلى مقصودِ النَّفقَةِ، وبيانِ تنوُّعِ المُنفَقِ عليهم

لم يُعيِّنِ المُنْفَقُ عَلَيهم في قوله تعالَى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣﴾، فلم يقُل: يُنْفقون على الفُقراءِ، أو اليتَامَى، أو المساكين؛ لنُكتَتَيْن[2]:

إحْدَاهما: تنوُّعُ أهلِهَا المُسْتَحِقِّينَ لها؛ فيدخلُ في ذلك جميعُ من يصلُحُ أن يكونَ ممَّنْ يُنْفَقُ عَلَيْه، كمصارفِ الزَّكاةِ، والأهلِ والأولادِ والوالِدَينِ، وإكرامِ الضَّيفِ والجارِ، وغيرِها، وهذا فيه مزيدُ تشجيعٍ وحثٍّ على الإنفاقِ، ممَّا يستدعي المَدْحَ.

والأخرى: الإشارةُ إلى أنَّ النفقةَ مقصودَةٌ من حيثُ هِيَ قُرْبَةٌ إلى اللّهِ تعالَى، لا من حيثُ هي نفقةٌ اقتصاديَّةٌ لسدِّ العَوَزِ المجتمعيِّ، فكونُها قربةً هو الأصلُ، وما سواه فهو تحصيلُ حاصِلٍ.

مُراعاةُ النَّظيرِ في قَرْنِ الصَّلَاةِ بالنَّفَقَةِ:

الصَّلاةُ طُهْرةٌ للبدنِ وشكرٌ لنعمتِهِ، والنّفقةُ طُهْرَةٌ للمالِ وشُكرٌ لنعمتِهِ

في ذِكْرِ الصَّلاة بقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ -والمُرادُ بها المكتُوبَةُ أو النَّافِلَةُ- ثُمَّ ذِكْرِ النَّفقة عَقِيبَها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣﴾ -والمرادُ بها الزَّكاة، أو الزَّكاةُ وغيرُها-: مُراعاةُ النَّظِيرِ؛ إذْ كلاهُمَا طُهْرَةٌ، فالأُولَى طُهْرةُ البدنِ وشكرٌ لنعمتِهِ، والثَّانيةُ طُهْرَةُ المالِ وشُكْرٌ لنعمتِهِ، ولأَنَّ أعظمَ الحقوقِ البدنيَّةِ الصَّلاةُ، وأعظمَ الحقوقِ الماليَّةِ: الزَّكاة[3].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/203.

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 40.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/82.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾ [البقرة: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

من صفات المؤمنين الإيمانُ بجميع الكتب المُنَزَّلة، واليقينُ بالآخرة

هذه الآيةُ معطوفةٌ على الآية قبلَها، والمُنَاسبة بينَهُما ظاهِرَةٌ؛ فإنَّ هذه الآيةَ استمرارٌ لذِكْرِ أوصاف المُتَّقِينَ، فكِلَتا الآيَتَيْنِ اشْتَمَلت على خِصالِهِمْ وخَصائصهم.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ﴾: يُقَال: هذا الآخِرُ وهذهِ الآخِرَةُ، وهما ضِدُّ: المتقدِّمِ والمتقدِّمَةِ، ويُطْلَق الآخِرُ على الأبعَدِ والغائبِ[1].

والآخرةُ: نقيض الدُّنيا، وسُمِّيَت الدُّنيا لأنَّها دَنَتْ؛ أي: قرُبَت، وتأخَّرَت الآخرةُ[2]، وسُمِّيت الآخرةُ بذلكَ؛ لِكَوْنِها آخرَ المنازِلِ، فَلا انْتِقَالَ عَنْهَا إلى دارٍ أُخْرَى[3]، وأمَّا انْتِقَالُ الخَلْقِ إلى الجنَّةِ أو إلى النَّارِ؛ فإنَّ ذلك مِن أحوال الآخِرَةِ.

2) ﴿يُوقِنُونَ﴾: فعلٌ مضارع مِنَ الفعل (أَيْقَنَ)، والمصدَرُ: الإيقَانُ، واليَقِينُ من صِفَات العِلْم.

وحدُّ اليقينِ: سُكُونُ الفهم مَعَ ثباتِ الحُكْمِ[4]، وقيل: هُوَ العلمُ الذي لا تَتَطَرَّقُهُ الشُّكوكُ ولا الأوهامُ، وَلا يَقْبَلُ التَّغَيُّرَ بحالٍ[5]، وقيل: هو إزاحةُ الشَّكِّ وتحقيقُ الأمر[6].

وهذه الثَّلاثةُ مُتَآيِلَةٌ يَؤُولُ بعضُها إلى بعضٍ؛ إذْ إنَّ ثباتَ الحكمِ معناه عَدَمُ قبولِ التَّغيُّرِ، ولا يكون ذلك إلَّا فيما يُقطَعُ به ويُتَحَقَّقُ مِمَّا لا يدخلُهُ الشَّكُّ.

(1) الخليل، العين: (أخر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (أخر).
(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/370.
(4) الرّاغب، المفردات: (يقن).
(5) الشِّنقيطي، العذب النَّمير: 1/412.
(6) الخليل، العين: (يقن).

أنـواعُ اليقين في القرآن

هذا، وقد ورد في القرآن الكريم ثَلاثةُ ألفاظٍ أُضيفَ كُلٌّ واحدٍ مِنْهَا إلى اليقين؛ وهي: ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر: 5]، وَ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: 7]، وَ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ [الواقعة: 95]، وهي بهذا التَّرْتِيبِ: مُرَتَّبَةٌ بحسب القُوَّةِ بطريقِ التَّرَقِّي[1].

والفَرْقُ بَيْنَهَا[2]:

أَنَّ علمَ اليقين: العِلْمُ المستفادُ مِنَ الأدلَّةِ.

وعينَ اليقينِ: العلمُ الـمُدْرَكُ بحاسَّة البصر.

وَحقَّ اليقينِ: العلمُ الـمُدْرَكُ بحاسَّة الذَّوق والمباشرةِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المُتّقون يُؤمنون بالقُرآن وبكلّ الكتُب المُنْزَلَة على الأنبياء والرُّسُل، ولديهم عِلْمٌ يقينيٌّ بالآخرة، وما فيها من أحوال

والمتّقون الذين يكون القُرآنُ الكريمُ لهم هُدًى هم الذين يُصدِّقون ويُقِرُّونَ إِقْرارًا مُستلزمًا القبولَ والإذعانَ بالوَحْيِ الـمُنْزَلِ عَلَيْكَ -أيُّهَا النَّبِيُّ الكريمُ- قرآنًا وسُنَّةً.

ويُقِرُّون ويُصدِّقون تَصْدِيقًا جَازمًا بالكُتُبِ الـمُنْزَلَةِ على الأَنبياءِ السَّابِقِينَ، كالتَّوراة والإنجيلِ والزَّبورِ ونَحْوِهَا، فيُؤْمِنونَ بها إيمانًا إجماليًّا لا تفصيليًّا؛ وذلك لِمَا دَخَلها مِنَ التَّحْرِيفِ بعدُ، وهذا الوصفُ عامٌّ في المؤمنينَ، ويحتمِلُ أن يكون خاصًّا بِمَنْ أسلَمَ مِنْ أهل الكتابِ.

وهم كذلك يُصَدِّقون تصديقًا بقلوبهم يظهر على ألسنتهم وجوارحهم بِيَوْمِ القيامة، وهو اليومُ الآخِرُ، وما فيه مِن كُلِّ ما وقع الإخبارُ بِهِ في القرآن والسنَّةِ؛ كالبعثِ، والجنَّة والنَّارِ، والحسابِ، والميزانِ، والصِّراطِ. وخص يوم الآخرة بالذِّكْر؛ لأنَّ الإيمانَ به من أعظمِ البواعثِ على فِعْلِ الطاعات، واجتنابِ المحرَّمات، ومحاسبةِ النفس[3].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 15/61.

(2) التَّهانَويّ، كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 2/1814، والسعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 884، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 9/83.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/170، وتفسير المراغي: 1/43، والسعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 40.

الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائِدَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ الْمُضَارِعِ:

الإشارةُ إلى تجدُّدِ إيمانِ المُتّقين وزيادَتِه

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارِعِ في قولِه سبحانه: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله: ﴿يُوقِنُونَ﴾؛ إشارةً إلى التَّجدُّدِ الاستمراريِّ[1]؛ لأنَّ الكلامَ سيقَ مساقَ المَدْحِ لَهُم، والثَّناءِ عَلَيْهِم بذِكْرِ صفاتِهم الحسنةِ، فإيمانُهم يتَجدَّدُ ويقينُهُمْ يزدادُ كُلَّما زادت معارِفُهم مِنْ علومِ الوَحْيِ؛ إذِ الْيَقِينُ وإنْ كانَ لا يتطرَّقُ إليهِ الشَّكُّ ولا يحتَمِلُ النَّقيضَ؛ فإنَّه في نفسِهِ مراتِبُ ودرجاتٌ.

تَكْرَارُ الاِسْمِ المَوْصُولِ للدّلالة عَلَى تَغَايُرِ الصِّفَاتِ أَوْ تَغَايُرِ المَوْصوفِينَ:

تنزيلُ تغايُرِ الصِّفاتِ منزلةَ تغايُرِ الذَّواتِ؛ لمَدْحِ المُؤمنين، والثَّناءِ عَلَيْهِم

كُرِّرَ الاسمُ الموصولُ في قولِه سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ للدّلالة على تغايُرِ صِفَاتِ المذكورينَ، وإلَّا فالمَوْصُوفُ وَاحِدٌ وهُمُ المُتَّقُونَ المذكورونَ أوَّلًا، تنزيلًا لتغايُرِ الصِّفاتِ مَنزِلَةَ تغايُرِ الذَّوات، وهذا أَمْدَحُ للقَوْمِ وأرجى.

احتِمَالُ تغايُرِ الموصوفين حقيقةً:

ويحتمل أَنْ يكون هذا مِنْ تغايُرِ المَوْصُوفِينَ؛ فتكون الآياتُ قَدْ ذَكَرَتْ صِنفَيْنِ[2]:

أحدهما: المَذْكُورُ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾، وهُمُ الذِينَ آمَنُوا من مُشْرِكي العربِ.

والآخر: المذكورُ في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾، وَهُمْ مَن آمَنَ مِن أهل الكتابِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/87.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/237.

إِحتمَالُ عَطْفِ الخاصِّ على العَامِّ:

ويحتمِلُ أيضًا أَنْ يُرادَ بالموصول الأوَّل في ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ عمومُ المؤمنينَ، وبالثَّاني: خصوصُ مَنْ آمَنَ مِنْ أهلِ الكتابِ؛ فيكونُ ذلك مِنَ الإطنابِ بذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ؛ "تعظيمًا لشأنِهم، وتَرْغيبًا لأمثالهم وأقرانِهم في تحصيل مَا لَهُم مِنَ الكَمَال"[1].

الأرجَحُ أن الاسم الموصول دالٌّ على العموم، وهو أمدح للمؤمنين

والأوَّلُ أَظْهَرُ؛ إبقاءً لِلاسْمِ الموصول على إفادتِهِ الشُّمولَ والعمومَ -وهو الأصل فِيهِ-، ولأنَّه أَمْدَحُ للمؤمنين؛ فالسِّياقُ في نَعْتِ أوصَافِهم الجَميلَةِ، ولِمَا في الثَّاني والثَّالثِ مِن مُخالفةِ ظاهرِ السِّياقِ مِنْ غير مُقْتَضٍ لذلك[2].

فائِدَةُ تَكْرَارِ فِعْلِ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

تكرير لفظ (يؤمنون) لترسيخ الإيمان في قلوب الموصوفين

كُرِّرَ ذكرُ فِعْلِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ مع قولِه: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ وقولِه: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ لترسيخِ المعنى في الذِّهْنِ، والتَّأثيرِ في القَلْبِ[3]، أو "للإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ الإيمانِ بمَا أُشِيرَ إِلَيْهِ مِنَ الأمور الغائبةِ والإيمانِ بِمَا يَشْهَدُ بِثُبُوتِهَا مِنَ الكُتُب السَّماويَّة، نعتٌ جليلٌ على حِيالِه، له شأنٌ خطيرٌ مُسْتَتْبِعٌ لأحكامٍ جَمَّةٍ، حقيقٌ بِأَنْ يُفْرَدَ له مَوْصُوفٌ مُستَقِلٌّ، ولا يُجعلَ أحدُهما تَتِمَّةً للآخَر"[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بقولِه تعالَى: ﴿أُنزِلَ﴾ يقتضي تَعْظِيمَه وَتَعَيُّنَه:

بُنِيَ الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ في الموضعَيْنِ لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ؛ للعِلْمِ به؛ لكونِه مُتعيِّنًا، وَتَعْظِيمًا لِلمُنْزِلِ.

الالتفاتُ عنِ التَّكلُّمِ إلى الغَيْبَةِ لِلعنايةِ بصِفَاتِ المُنْزَلِ نظرًا وإيمانًا

وفيه مع بناء الفعل لِلمَعلومِ ضَربٌ من ضُروبِ الالتفاتِ[5]؛ فإنَّ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/32.

(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/109.

(3) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/26.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/32.

(5) الالتفات: التّعبير عن معنًى بطريقٍ من الطّرق الثلاثة: التّكلّم والخطاب والغيبة، بعد التّعبير عنه بطريق آخر منها، ورأى السّكّاكيُّ: أو يكونُ مقتضى الظّاهر التّعبيرَ بطريقٍ منها، فعُدل إلى الآخر؛ ينظر: التفتازاني، شرح المختصر: 1/115-116.

اللّه تعالى قال قبلُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾، وقال هنا: ﴿أُنزِلَ﴾؛ ففيه خروجٌ مِن ضمير التَّكلُّم إلى ضميرِ الغَيْبَة[1]، ولعلَّ نُكْتَةَ العدُولِ ههنا عن (أَنْزَلْنَا) إلى ﴿أُنزِلَ﴾: هي الإيماءُ إلى أنَّ الإيمانَ بالـمُنْزَلِ إنَّما هو لِصِفَاتٍ فيهِ تقتضِي صِحَّتَهُ وصدقَهُ لا بمجرَّدِ دَعْوَى كونِهِ من عند اللّهِ تعالَى[2].

تعدّي الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ بـ (إلى) وبـ (على):

تَضْمِينُ الْفِعْلِ (أُنْـزِلَ) مَعْنَى الغَايَةِ والوصول

الأصلُ وَالشّائعُ في فِعْلِ الإنزالِ أن يُعدَّى بـ (عَلَى)، لكِنَّه عُدِّيَ هنا بـ (إلَى)؛ تنبيهًا إلى أنَّ فعل الإنزال مُضَمَّنٌ معنى الوُصُولِ، "فالْمُنْزَلُ إليْهِ غَايَةٌ لِلنُّزُولِ"[3].

وتعديةُ إنزال الكتاب ورَدَت في القرآنِ تارةً بـ (على) وتارة بـ (إلى)؛ مِنْ بَابِ التفنُّنِ في الكلامِ؛ فَإِنْ أُرِيدَتِ الإشارةُ إلى أَنَّ الـمُنْزَلَ إليْهِ غايةٌ للنُّزولِ؛ عُدِّيَ بـ (إلَى)، وإنْ أريدَ بَيانُ أنَّ الـمُنْزَلَ استقرَّ عِنْدَ الـمُنْزَلِ عَلَيْهِ وتمكَّن مِنْهُ؛ عُدِّيَ بـ (عَلى)[4].

ويُمكِنُ أن يُوَجَّهَ كلامُ ابن الزُّبَيْرِ الغَرناطيِّ بما يُوَافِقُ هذا؛ فقد قَالَ: "تارةً يُرَاعى وصولُ الـمُنْزَلِ بواسطة المَلك، وتارةً يُرَاعَى وصولُه مِنْ عند اللّه سبحانه مِنْ غير واسطة، فإذَا رُوعِيَ هذا قِيلَ: (عَلَيْكَ)، وإذا رُوعِيَ الأوَّلُ قِيلَ: (إلَيْكَ)"[5].

نُكتَةُ تَغْلِيبِ مَا أُنْزِلَ عَلَى مَا سَيَنْزِلُ:

إيمانُ الـمُؤمنِ بالقرآنِ كلِّه قبلَ اكتمالِ نُزولِه، دليلُ إيمانٍ يستدعي مَدْحًا وثناءً

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، وهذا -في الظَّاهر- يتناوَلُ ما نَزَلَ قبلَ هذه الآية، إلَّا أنَّ ما سَينزلُ بعدُ مُرَادٌ أيضًا؛ إذْ لا يُمْدَحُ مَن آمَن بما أُنْزِلَ ولا يؤمِنُ بما سَينزِلُ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/71.
(2) نَظِيْرُهُ عند: بسيوني فيّود، علم المعاني، ص: 258.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/239.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/239.
(5) ابن الزّبير الغرناطيّ، مِلاك التّأويل: 2/424.

ولإرادةِ ما سينزِلُ خمسةُ مسالكَ:

أوَّلُها: أنَّ ما سينزِلُ مُتَرَقَّبٌ إيمانُهم بِهِ؛ "إِذْ مِنَ المعلوم أَنَّ الذي يُؤمِنُ بما أُنزِل؛ يَسْتَمِرُّ إيمانُه بِكُلِّ ما ينزِلُ علَى الرَّسولِ؛ لأنَّ العِنادَ وعدمَ الاطْمِئْنَان إنَّما يكُون في أوَّل الأمر"[1]، فيكون إيمانُهم بِمَا سينزِلُ مُستفادًا مِنْ فَحْوَى الخطابِ.

ثَانيها: أنَّ قولَه ﴿أُنزِلَ﴾، فيه تغليبٌ لِلمُنْزَلِ على ما سَيَنزِلُ[2].

ثَالثُها: أنَّ بعضَ القرآن: قرآنٌ، ولذا صحَّ أَنْ يُطلَقَ على مَنْ سَمِعَ بَعْضَ القرآنِ أنَّهُ سامِع القرآنِ، كما قال الله تعالى عَنِ الجنِّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: 29]، ولم يكونوا قد سمعوا إلَّا بعضَهُ[3].

رَابعُها: أنَّهُ نُزِّلَ ما يُتَوَقَّعُ نُزولُهُ منزلةَ النَّازِلِ؛ لكون ذلك متحقِّقًا[4].

خَامسُها: أنَّ ابتداءَ النُّزول إذا كان مستمرًّا يكون ذلك في حُكْمِ نُزُولِهِ كُلِّه[5].

نُكتَةُ تقْدِيمِ المُتأخِّرِ نُزولًا على المُتقدِّمِ:

الإيمانُ بالقرآنِ أشـرفُ، وهـو سببٌ للإيمانِ بِسَائِرِ الكُتُبِ

تقْديمُ المُنْزَلِ إلَى النَّبي ﷺ على المُنْزَلِ مِنْ قبلِه في قولِه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ مع تَقَدُّمِهم في الزَّمَنِ؛ لنُكتَتَيْن[6]:

أولاهُما: رَعْيٌ للتَّرتيبِ بحسبِ الأشْرَفِ، وهو أحَدُ مُقتضياتِ التَّقديم.

والأُخْرَى: تقديمُ السَّببِ على النَّتيجةِ؛ فالإيمانُ بالمُنْزَلِ على النَّبيِّ ﷺ سَبَبٌ في الإيمانِ بالمُنْزَلِ على الأنبياءِ السّابقين.

سِرُّ تَّقْدِيمِ الجارِّ والمجرورِ على الفعلِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في قوله: ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤﴾ على فعلِ الإيقانِ؛ اهتمامًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/238.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/42، ويُقارن بما ذكره ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/238-239، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/235.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/110.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/33.
(5) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/110.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/115-116.

اليقين بالآخرة شعار المؤمنين

بشأنِ الآخِرَةِ، ومُبالغةً في الثَّناءِ على هؤلاءِ؛ إِذْ أيقَنُوا بأولى ما يجبُ على المُؤمنِ الإيقانُ بهِ، مع ما في التَّقديم مِن مُراعاةِ الفاصلةِ بما لا يتحقَّقُ في حالِ تأخيرِه[1].

وفي بناءِ الفعلِ على الضَّميرِ إيماءٌ لِدلالة التَّركيبِ علَى القَصْرِ؛ تعريضًا بمَن عدَا المذكُورين؛ فإنَّ معتقداتِهم في الآخرةِ وأحوالِها مُتزَحْزِحةٌ عاريةٌ عَنِ الصِّحَّةِ، فَضْلًا عن أَنْ تَصِلَ إلى رُتبةِ اليقين[2].

نكتةُ إسنادِ فعلِ الإيقانِ إلى فاعِلِه مرَّتَيْن:

توكيدُ الفعل يُقوّي الخبر، ويشير إلى الاهتمام بالآخرة

أُسْنِدَ فعلُ الإيقانِ إلى فاعلِهِ مرَّتينِ في قولِه تعالى: ﴿هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ وهما:

إحداهما: إسنادُهُ إلى واوِ الجماعة.

والأخرى: إسنادُهُ إلى ضمير المبتدأ (هُمْ).

فتكون النِّسبَةُ مُكرَّرةً، وهو أحد مسالكِ التَّوكيدِ؛ تقويةً للخَبَرِ[3] واهتمامًا بأمر الآخرةِ؛ لِمَا لِلإيمَان بهَا من مَنْزلةٍ رفيعةٍ وشأنٍ خطيرٍ.

التَّعبيرُ عن الإيقانِ بالآخرة بالجُملة الإسميةِ آكَدُ وأدلُّ على الثُّبوت

ويُؤيِّدُ تقويةَ الخبر: التَّعبيرُ عن إيقانِهم بالآخرة بالجُملة الاسميةِ ﴿هُمۡ يُوقِنُونَ﴾، بخلاف ما قبله فالتَّعبير كان بالفعليَّةِ ﴿يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، والجملة الاسميةُ أقوى وآكدُ وأدلُّ على الثّبوت[4].

ويؤيِّدُ الاهتمامَ: التَّعبيرُ عَنْهَا بالإيقانِ، دُونَ الاِكْتِفَاءِ بالوصف السَّابقِ وهو الإيمانُ؛ لِأَنَّ مادَّة الإيقانِ "تُشْعِرُ بأنَّهُ عِلْمٌ حاصِلٌ عَن تأمُّلٍ وغَوْصِ الفِكْرِ في طريقِ الاِسْتِدْلال؛ لِأَنَّ الآخرةَ لـمَّا كانت حياةً غائبةً عَنِ المُشاهدةِ غريبَةً بحسَبِ المُتعارَفِ، وقَد كَثُرتِ الشُّبَهُ التي جَرَّت المشركين والدّهريّين إلى نَفيها وإِحَالَتها؛ كانَ الإيمان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/240.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/33، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 85-1/84.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/241.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/71.

بها جَدِيرًا بمادَّةِ الإيقان؛ بِنَاءً على أنَّه أَخَصُّ مِنَ الإيمان، فلإيثار ﴿يُوقِنُونَ﴾ هنا خصوصيَّةٌ مناسِبَةٌ لبلاغة القرآن"[1].

بلاغةُ ذِكرِ الضّميرِ في قولِه: ﴿هُمۡ يُوقِنُونَ﴾:

اليـقـينُ أعـلى درجــــةً مـن الإنـــفــــاقِ، والإنـفـاقُ ثـمرةٌ من ثمراتِه

ذُكرَ ههنا الضَّميرُ (هُمْ) مع ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾، ولم يَرِدْ مَعَ الإنفاقِ في قولِه قبلُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾؛ "لأنَّ وصفَ إيقانِهم بالآخرة أَعْلَى مِن وصفهم بالإنفاق، فاحتاجَ هذا إلى التَّوكيد ولم يحتج ذلك إلى تَأْكِيد، ولأنَّه لو ذَكَرَهم هُناك لكَانَ فيه قَلَقٌ لفظيٌّ؛ إِذْ كان يكون (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ هُمْ يُنْفِقُونَ)"[2].

دلالة الاسميّة على الثّبَات والدّوَام:

يقينُ الـمُتّقين بالآخرة لا يَريمُ ولا يـبـرَحُ ولا يتزَحزَحُ

التَّعبيرُ بالجملةِ الاسمية في قوله: ﴿هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ مع ما فيه مِنَ التَّوكيد -كما سبق آنِفًا-: فيه الدّلالة على ثبات اليقينِ ودوامِه؛ "بحَيْثُ لَا يَضْطَرِبُ ولا يتزَعْزَع، ولا يُنْسَى ذلك اليومُ أبدًا"[3]، من خواطرِهم وقلوبِهم.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

نَزَّلَ وَأَنْزَلَ:

التَّـنـزيـلُ لِمَـا يكون تدريجيًّا، والإنزالُ لِمَا يكون دُفعةً واحدةً

مصدر الفعل (نَزَّلَ): التَّنزيل، ومصدر (أنزل): الإنزال، والفرق بينهما: أنَّ التَّنزيل لِمَا يكون مُفرَّقًا أو تدريجيًّا، والإنزالَ لِمَا يكون دُفعةً واحدة[4]، وهذا هو الـمُعَبَّر عنه بقولهم: التَّنزيلُ تدريجيٌّ، والإنزال دَفْعِيٌّ.

وذهب الرَّاغِبُ في تفسيره إلى أنّهما بمعنًى واحدٍ، وإنَّما غُويِرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/240.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/71-72.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/112.
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (نزل)، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 79، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 68، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/3، 2/3، والزّبيديّ، تاج العروس: (نزل)، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/340-341.

بينهما في نحو قول الله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران: 3]؛ لكَوْنِ حُكْم القرآن الكريم مؤبَّدًا، وهو مناسبٌ لـ (نزَّل)؛ فإنَّه بِنَاءٌ لِلمُبالغة، ولِمَا في التَّنزيل مِن معنَى التَّدريج -وهو ما سبق-[1].

وكلامُه في "المفردات" يَقْضِي أَنَّ بينَ الإنزالِ والتَّنزيل عُمُومًا وخُصوصًا مُطْلَقًا، فالتَّنْزيل يكون تدريجيًّا، والإنزالُ أَعَمُّ مِنْهُ؛ فقد يدلُّ على معنى التَّدْريجِ وقد لا يدلُّ[2].

والظَّاهرُ الأوَّلُ؛ وهو أَنَّ التَّنْزيلَ تدريجِيٌّ والإنزالَ دَفْعِيٌّ.

ولا يُشكِلُ على هذا الفرقِ: أنَّه وقعَ التَّعبيرُ عَنِ القُرآن الكريم بالفِعْلَيْنِ معًا؛ وذلك لأنَّ لِلقُرْآنِ الكريمِ نُزولَيْنِ[3]:

أحدهما: نزولٌ دَفْعِيٌّ إلى السَّماءِ الدُّنيا.

والآخر: نُزولٌ تدريجِيٌّ بحسب الوقائع والأحداث.

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: (نزل).

(2) الرّاغب، المفردات: (نزل).

(3) أبو شامة المقدسّي، المرشد الوجيز إلى علوم تتعلّق بالكتاب العزيز، ص: 17، والسّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/146.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾

[البقرة: 5]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

خصالُ المُتّقين الباطنة والظّاهرة، أنتجت الفوز والفلاحَ في الآخرة

لـمَّا ذَكَر اللّه تعالى خِصالَ المُتَّقِينَ الظَّاهرةَ والباطنةَ؛ أعقَبَ ذلك بذِكْرِ ثمرتها وجزائهم وثوابِهِمْ عَلَيْهَا؛ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

(الفَلَاحُ) هو الفوزُ وإدراكُ الخَيْرِ، ثُمَّ البقاءُ فِيهِ، وهو جامعٌ لخَيْرَيِ الدُّنيا والآخرة

1) ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: اسم فاعل من (أَفْلَحَ)، ومصدره: الفلاح؛ وهو الفَوْزُ بِمَا يُغتبَطُ به، وفِيهِ صلاحُ الحالِ[2]، ويقال: أفلح؛ إذا أدرك مطلوبَهُ[3].

ويأتي الفلاح بمعنى البقاء في الخَيْرِ[4]، ومِنْهُ سُمِّيَ السَّحورُ فلاحًا؛ لِأَنَّ بِهِ بقاءَ البدنِ والحِفظَ مِنَ الضَّعفِ[5].

وبضمِّ المعنَيَيْنِ وهما الفَوْزُ والبقاء؛ يَتَحَصَّلُ لنَا المعنى الكُلِّيُّ لِلفَلَاحِ، وهو الفوزُ وإدراكُ الخَيْرِ، ثُمَّ البقاءُ فِيهِ، ولذَا قيل عَنِ الفلاح: ليسَ في كلامِ العرب كلمَةٌ أجمَعَ لِخَيْرَيِ الدُّنيا والآخرة مِنْهَا[6].

فالفلاحُ جامعٌ لخَيْرَيِ الدُّنيا والآخرة، ولذا جعَلَ الرَّاغبُ الفلاحَ ضَرْبَيْنِ: دُنيويًّا وأُخْرَوِيًّا، وذكَرَ حدًّا جامعًا لكلٍّ مِنْهُمَا[7].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/89.
(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (فلح).
(3) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (فلح).
(4) الخليل، العين: (فلح)، والأنباريّ، الزّاهر: 1/38.
(5) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (فلح).
(6) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/430.
(7) الرّاغب، المفردات: (فلح).

المُتَّقون المُتَّصفون بالنُّعوت السّابقَةِ، مُتَمَكّنونَ من الهُدى فائزون ظافرون ناجونَ

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هؤلاءِ المُتَّصفون بالنُّعوت السّابقَةِ الذّكر، قد تمكَّنوا مِن طريق الهدايةِ أيَّما تَمَكُّنٍ، واستقرُّوا عَلَيْهَا، وهُمْ -وحدهم دُونَ سِوَاهم- الفائزون الظَّافرون بمَطْلُوبَاتِهم، النَّاجونَ مِنْ مَرْهُوباتِهِمْ(1).

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

المُتّقون مُتميِّزون عالو المكانة، سامِقو الرُّتبة يُشارُ إليهم بالبَنان

دلالة استعمال ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الخاصّ بالمُشار إليه البعيد:

أُشيرَ إلى المتَّقين المفصَّلِ ذِكرُهم ذوي الخِصَالِ الحَسَنَةِ باسم الإشارةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾؛ للدّلالة على تميُّزهم أكملَ تميُّزٍ، وتنزيلِهم بسبب ذلك التَّميُّزِ مَنْزلةَ الأمور المُشاهَدَةِ التي مِنْ شأنِهَا الإشارةُ إِلَيْهَا، مع ما فيه من معنَى البُعْدِ المُشْعِرِ بِعلُوِّ مكانتهم، وبُعْدِ مرتبتهم في الفضلِ(2).

دلالة الاستعلاءِ في قولِه: ﴿عَلَىٰ هُدٗى﴾:

معنى الاستعلاءِ في حرفِ الجرِّ في قولِه سبحانه: ﴿عَلَىٰ هُدٗى﴾ مُخرَّجٌ على وجهين:

تَشبيهُ الاستعلاءِ المعنويِّ بالاستعلاءِ الحسيِّ؛ لتصويرِ التَّمكُّنِ والثَّباتِ

أحدهما: الاستعلاءُ حاصِلٌ لهُمْ؛ لكونِ منزلتِهم علَتْ وارتفعَتْ باتِّباعِهِمُ الهدَى(3).

والآخر: شُبِّهَ حالُ المُتَّقين في تمسُّكِهم بالهُدى واستقرارِهم عَلَيْهِ بحالِ مَنِ اعْتَلَى شيئًا(4)؛ بجامع مُطْلَقِ التَّصرُّفِ؛ إذْ "لـمَّا كانَتْ أفعالُهم كلُّها على مُقْتَضَى الهُدى؛ كان تَصَرُّفهم بالهُدَى كتَصَرُّف الرَّاكب بما يَرْكَبُ"(5)، فالكلامُ محمولٌ على الاستعارةِ، ولها أوجهٌ:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/247، والقِنَّوجيُّ، فتح البيان: 1/85.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/33.
(3) العُكبَرِيّ، التبيان في إعراب القرآن: 1/14.
(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/44.
(5) العُكبَرِيّ، التبيان في إعراب القرآن: 1/14.

إمَّا أن تكون تمثيليَّةً "بِأَنْ شُبِّهَتْ هَيْئَةُ تَمَكُّنِهِمْ مِنَ الْهُدَى وَثَبَاتِهِمْ عَلَيْهِ وَمُحَاوَلَتِهِمُ الزِّيَادَةَ بِهِ وَالسَّيْرَ فِي طَرِيقِ الْخَيْرَاتِ بِهَيْأَةِ الرَّاكِبِ فِي الِاعْتِلَاءِ عَلَى الْمَرْكُوبِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ تَصْرِيفِهِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى إِرَاضَتِهِ فَشُبِّهَتْ حَالَتُهُمُ الْمُنْتَزَعَةُ مِنْ مُتَعَدِّدٍ بِتِلْكَ الْحَالَةِ الْمُنْتَزَعَةِ مِنْ مُتَعَدِّدٍ تَشْبِيهًا ضِمْنِيًّا دَلَّ عَلَيْهِ حَرْفُ الِاسْتِعْلَاءِ لِأَنَّ الِاسْتِعْلَاءَ أَقْوَى أَنْوَاعِ تَمَكُّنِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ"[1].

وإمَّا أن تكونَ "تَبَعِيَّةً مُقَيَّدَةً بِأَنْ شَبَّهَ التَّمَسُّكَ بِالْهُدَى عِنْدَ الْمُتَّقِينَ بِالتَّمَكُّنِ مِنَ الدَّابَّةِ لِلرَّاكِبِ، وَسَرَى التَّشْبِيهُ إِلَى مَعْنَى الْحَرْفِ وَهُوَ (عَلَى)"[2].

وَجُوِّزَ وَجْهٌ ثَالِثٌ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ التَّعْبِيرُ هُنَا اسْتِعَارَةً مَكْنِيَّةً مُفْرَدَةً بِأَنْ شُبِّهَ الْهُدَى بِمَرْكُوبٍ وَحَرْفُ الِاسْتِعْلَاءِ قَرِينَةٌ عَلَى ذَلِكَ عَلَى طَرِيقَةِ السَّكَّاكِيِّ فِي رَدِّ التَّبَعِيَّةِ لِلْمَكْنِيَّةِ[3].

دلالة التنكير في لفظ ﴿هُدًى﴾:

تعظيمُ الهدى وتفخيمُ شأنِه؛ رفعٌ لشأنِ المهتدين

مجيءُ لفظ (هُدًى) مُنكَّرًا؛ للإشارةِ إلى تعظيمِه[4]، ووجهُ إفادتِه التعظيمَ ما فيه مِنَ الإبْهَام الذي يفيدُه نحوُ قوله تعالَى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: 1-2]؛ لِأَنَّهُ في معنى: هُدًى وأيّ هُدًى؛ أيْ: هُدًى عَظِيم؛ ولِعَظَمتِه لا تُعْرف حقيقتُه، ولا يُسْبَرُ غَوْرُهُ، ولا يُقادَرُ مقدارُه[5].

اكتسابُ الهُدى التَّشريفَ والتَّفخيمَ لإضافتِه للرُّبوبيَّة

ويُؤيِّدُ هذه الدّلالة قولُه تعالى بعدُ: ﴿مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾؛ بِبَيَانِ أنَّهُ صادرٌ مِنْهُ سُبْحَانَه وبتوفيقِه.

والإضافةُ في ﴿رَّبِّهِمْۖ﴾ إضافةٌ لقصدِ تعظيم شَأْنِ الْمُضَاف إِلَيْهِ وَهُمُ الـمُتَّقونَ[6].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/243.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/243.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/243.
(4) السَّمين، الدُّر المصون: 1/102.
(5) الخفاجِيّ، عناية القاضي: 1/248، والطِّيبيّ، فتوح الغَيب: 6/17.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/245.

وفْرَة فضل اللهِ عَلَى الْمُتَّقِينَ وثناؤه عليهم

دلالة تَكرير اسمِ الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

تَكرار اسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾؛ لِلتَّنبيه على أَنَّ كُلَّ حكم كالمُستقلِّ عن الآخرِ؛ تكثيرًا لفضلِ اللّهِ تعالى الذي حصَّلوهُ[1]، وزيادةً في الثَّناءِ عَلَيْهِمْ وتكريمِهم[2]، ولِلإيماءِ إلى أَنَّ التَّقدُّمَ والسَّبْقَ والتَّميُّزَ كما ثبَتَ لَهُمْ بالهُدى؛ فهو ثابتٌ لَهُمْ بالفلاح كذلك، فجُعِلَت كلُّ خَصلةٍ في تَمْييزهم بالمَنْزِلَةِ التي لَو انفرَدَت؛ كانت كافِيةً[3].

المتَّقون مُنْفَرِدون بالفلاحِ الحقيقيِّ لا يَشْرَكُهُم فيه غَيْرُهُمْ

القصْرُ بتَعريفِ طَرَفي الجملة:

قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ جملة اسميَّةٌ، طَرَفاها: (أُولَئِكَ) -وهو مبتدأٌ-، و(الْمُفْلِحُونَ) -وهو خبرُهُ-، وقد وَقَعَا مَعْرِفَتَيْنِ، وتعريف جُزأي الجملة مفيدٌ القصرَ، فالمتَّقونَ مُنْفَرِدونَ بالفلَاحِ لا يَشْرَكُهُمْ فيه غَيْرُهُمْ.

دَوْرُ الضَّمير ﴿هُمُ﴾ في تقويةِ القَصْرِ وتوكيدِه:

والإتيانُ بضميرِ الفصلِ (هُمْ) ليس لإفادة القَصْرِ هَهُنَا[4]؛ لأنَّ محلَّ إفادَتِه القصْرَ فيما إذا لَمْ يَكُنْ في الجملة قَصْرٌ، وهو هنا ثابتٌ بِتَعْريفِ الجُزْأَيْنِ -كما سبق-، وإنَّما جاء ضميرُ الفصلِ لِتَقْوِيةِ القَصْرِ وتوكيدِهِ[5].

لُزومُ الْمُتَّقِينَ سبيلَ الهُدَى، ونيلُهم المُؤكّد للفلاحِ الدّنيويّ والأخرويّ

دلالة تعاطُف الاسميّتين:

عُطفَتِ الجملةُ الاسميَّةُ: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ على مثيلتِها الاسميَّةِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾؛ للدّلالة على ثبوتِ الهُدَى والفلاحِ لَهُمْ تمكُّنًا واستقلالًا، وأنَّهم مستمرُّونَ على طريقِ الهُدَى،

---

(1) قريبٌ مِنْهُ عند محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/113.

(2) وهبة الزُّحيلّي، التّفسير المُنِير: 21/127.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/45، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/249.

(4) ويحتملُ وجهًا آخرَ؛ وهو أنَّنا إذا اعتبرنا التَّعريف في ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ تعريفَ عهدٍ خارجيٍّ -فلم يكن ثَمَّةَ قَصْرٌ-، واعتبرنا «هُمْ» ضميرَ فصلٍ؛ كانَ ضميرُ الفصلِ مفيدًا القَصْرَ، كما أشار إليه الشِّهاب الخفاجيّ في عناية القاضي: 1/251.

(5) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/114، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/114.

نائلُونَ الفلاحَ الدُّنْيَوِيَّ والأخرويَّ، ولبيان ترتيب الجزاءِ على العملِ؛ فمنِ اهتدى فقد أفلحَ.

تردُّدُ معنى اللّامِ في ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ بين الجنسِ والعهد الخارجي:

الـمُـتّـقـون لا يـتـجـاوَزُون الفلاحَ إلى صفةٍ أُخْرَى، والفلاحُ لا يَعْدوهم إلى غيرِهم

يحتملُ أن يكونَ معنى اللَّامِ في كلمةِ: ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾؛ لبيانِ الحقيقةِ والجِنس، والمعنى: "أَنَّهم الذين إنْ حصلَت صفةُ المفلحين؛ فَهُمْ هُمْ، لا يَعْدُونَ تلك الحقيقة"[1].

ويحتمل أَنْ تكونَ اللَّامُ لِلعَهدِ الخارجيِّ؛ وفيه إيماءٌ إلى أَنَّ المُتَّقين هُمُ النَّاسُ الذين بلغَكَ عَنْهُمْ فلاحُهُمْ[2].

وعلى الأوَّلِ؛ هُوَ مِنْ قصر المسند إِلَيْهِ على المسند؛ فَهُمْ لا يتجاوَزُون الفلاحَ إلى صفةٍ أُخْرَى[3]، وهو قصرٌ مجازيٌّ كما لا يخفَى؛ إِذْ هو من قصر الموصوف على الصِّفةِ، وليس في هذا النَّوْعِ مِنَ القصرِ حقيقيٌّ.

وعلى الثَّاني؛ هو مِنْ قَصْرِ المُسنَد على المُسنَدِ إِلَيْهِ؛ فالفَلاح لا يتعدَّاهم إلى غيرِهِمْ، وهو من قصر الصِّفة على الموصوف، وهو الذي سبق بيانُهُ قريبًا.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَوْزُ وَالظَّفَرُ وَالنَّجَاحُ وَالفَلَاحُ:

الفوزُ نجاةٌ من الشّرّ ووُصولٌ إلى المَحبوب. والظَّفر عُلُوٌّ على المُنَاوِئِ المُنَازِع، والنَّجاحُ الظّفرُ بالشَّيء وإدراكُه، والفلاح يَجْمَعُ بينَ الدُّنيا والآخرة، فهو ثمرةٌ لنجاحات متعدِّدة.

الفَوْزُ: ضدُّ الهلاك[4]؛ وهو الظَّفر، بَدَلًا مِنَ الوُقُوعِ في الشَّرِّ[5]، ولذا قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: 185]، فجُعِلَ فوزُهم بدلًا مِن دخولِهمُ النَّارَ، ومِنْهُ جُعِلَتِ النَّجاةُ من معاني الفَوْزِ[6].

(1) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 1/149، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/68، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/305.
(2) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 1/46، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/114.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 115-2/114.
(4) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (فوز).
(5) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 340.
(6) نشوان الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: 8/5278.

وقال الخَليل: "الفَوْزُ: الظَّفَرُ بالخَيْر، والنَّجَاةُ مِنَ الشَّرِّ"[1]؛ يقال: فازَ بالخَيْر، وفاز مِن العَذَاب[2].

ولذا فَإنَّ الفَوْزَ: ليس مُجرَّدَ الخلاص مِمَّا يُكْرَهُ، وإنَّما هُوَ الخلاصُ مِنْهُ مع الوصُول إلى المحبوب؛ "وَلِهَذَا سمَّى الله تَعَالَى الـمُؤمنِينَ فائزين، لنجَاتِهم مِنَ النَّار ونَيْلِهِمُ الجنَّةَ"[3].

أمَّا الظَّفر؛ فهُو العُلُوُّ على المُنَاوِئِ المُنَازِع[4]، كما قال سبحانه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الفتح: 24]، فهو أَخصُّ. وأمَّا النَّجاحُ فهو الظَّفر بالشَّيء وإدراكُهُ[5]، فهو أعمُّ مِنَ السَّابِقَيْنِ؛ فأمَّا كونُهُ أعمَّ مِنَ الظَّفَرِ فظاهرٌ، وأمَّا كونه أعمَّ مِنَ الفَوْز؛ فلأنَّ النَّجاح والفوزَ اشتركا في الوصول إلى المحبُوب والظَّفَرِ به، إلَّا أنَّ لِلفوزِ قَيْدًا زائدًا وهو أَنَّ فيه خلاصًا مِن مكروهٍ.

ولا يُعترَضُ على هذا بِأنَّ في النَّجاحِ إشارةً إلى خلاصٍ من مكروهٍ؛ لأنَّ ذلك قد يُستفادُ مِنْهُ بالفَحْوَى واللُّزوم، بخلافِ الفَوْزِ فإنَّ ذلك لازِمٌ لِلَّفْظِ بحسبِ الوَضْعِ.

ثُمَّ إنَّ الظّفرَ بالشَّيء وإدراكَهُ -الذي هو حقيقةُ النَّجاح- لا يلزمُ مِن عدمِه وقوعٌ في مكروهٍ، فقد يُعْدَمُ تَاجِرٌ مثلًا النَّجاحَ، ولا يلزَمُ مِنْهُ خسارةُ رأسِ مالهِ؛ بخلاف الفَوْزِ فَإنَّ حقيقتَهُ تقتضي أنَّ مَنْ عَدِمَهُ فقَد وقَعَ في هَلَكةٍ ومكروهٍ.

وَأَمَّا الفلاحُ فهو قريبٌ مِنَ النَّجاحِ في إدراك الخَيْرِ المطلوب، إلَّا أنَّهُ زادَ عَلَيْهِ في الدَّيْمُومةِ؛ فالفلاحُ: إدراكُ الخيرِ والبقاءُ فيه، بخلاف النَّجاح فقد يكون عَارضًا، فالفلاح: "يَجْمَعُ بينَ الدُّنيا والآخرة، فهو ثمرةٌ لنجاحات متعدِّدة، وفيه جَنْيٌ لثمار النَّجاح، وفيه إدراك كلِّ مأمولٍ، وفيه معنى السَّعَة، ومعنى التَّيسير، ومعنى البقاءِ والخَيْرِ"[6].

والبَقاءُ في الخير يَلْزَمُ مِنْهُ النَّجاةُ مِنَ الـمَكَارِهِ؛ فالفلاحُ أَجْمَعُ وأَوْعَبُ[7]، وهذا سرٌّ من أسرار اختياره في وصف فوز الـمُتّقين في مطلع سورة البقرة، والله أعلم بأسرار كتابه.

---

(1) الخليل بن أحمد، العين: (فوز).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فوز).

(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 532.

(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 340.

(5) ابنُ سِيدَه، المُحكم والمحيط الأعظم: (نجح)، ومحمّد داود، معجم الفروق اللُّغويّة والدّلاليّة، ص: 363.

(6) محمّد داود، معجم الفروق اللّغويّة والدّلاليّة، ص: 43.

(7) لم يَرِد النَّجاح ومشتقّاتُهُ في القرآن الكريم.

أمَّا الظفر؛ فلم يَرِد إلَّا في موضع واحد في سورة الفتحِ، وهو قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفتح: 24].

وورد الفَوْزُ في القرآن في تسعة وعشرين موضعًا، وقعَ التَّعبير مِنْهَا باسم الفاعل (الفائزون) في أربعة مواضع.

وأمَّا الفلاح فجاء ذِكرُهُ في القرآن إحدى وأربعين مرةً، وقع التَّعبير مِنْهَا باسم الفاعل (المفلحون) و(المفلحين) ثلاثَ عشرةَ مرةً.

محمّد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: 434، 527-526.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [البقرة: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إظهار التّباين بين المتّقين والكافرين والمنافقين

لـمَّا ذَكَر اللّهُ ﷻ صفاتِ المتَّقين وأعمالَهم؛ أَعْقَبَه بذكر صفات الكُفَّارِ؛ "لِيَظْهَر الفارقُ الواضحُ بين الصِّنْفين، على طريقةِ القُرآن الكريم في المُقَارنة بين الأبرارِ والفُجَّار، والتَّمْييز بينَ أهل السَّعادة وأهل الشَّقَاوة"(1).

ولـمَّا كان الكُفَّار قِسْمَين: مُصَارِحين ومنافِقينَ، وكان المنافقون صِنْفَين؛ أَحَدهما: الْجُهَّال من مُشْرِكِي العرب، والآخَر: عُلَمَاء من كُفَّار بني إسرائيل؛ نَاسَبَ البدءُ بالـمُصارِحين؛ ليُفْرَغَ من قسمٍ بأكملِه على عجَلٍ؛ ليُتَفَرَّغَ لِلْمُنَافقين؛ لكَوْنِ أمرِهم أخطرَ وأشدَّ(2).

وسرُّ الابتداء بالمؤمنين، والتَّثْنيةِ بالكافرين، والختم بالمنافقين؛ فيه أوجهٌ:

أحدُها: أنَّهُ لـمَّا كان البدءُ في سورة الفاتحةِ بالمؤمنينَ، ثمَّ ذُكرَ الكافرونَ، وكان الكفرُ والنِّفاقُ مُنتشِرَيْنِ في المغضوب عَلَيۡهِمۡ والضَّالِّين؛ ناسَبَ الابتداءُ بهذه الأصنَاف الثَّلاثةِ في سُورة البقرةِ على التَّرتيبِ الوارِدِ في سورة الفاتحة.

ثانيهَا: لَحْظُ الأصلِ؛ فإنَّ الأصلَ في الإنسان أن يكون مُؤْمِنًا على الفِطْرَةِ، والكفر طَارِئٌ على الإيمان، والنِّفاقُ طارئ على الكُفْرِ، فكانَ التَّرتيبُ على هذا المنوال هُوَ الأصلَ.

ثالثها: تُمَثِّل الآيةُ انتقالًا نوعيًّا مِنَ الحديثِ عَنِ المؤمنين، إلى المقابِل العقَديِّ؛ وهو الحديث عَنِ الكافرين والمنافقين، وابتدأَتْ بالكافرينَ باعتبارهم العُنْصُرَ الظَّاهرَ في المقابلة، وثنَّت بالمنافقين باعتبارهم العنصرَ الباطنِيَّ في المقابلة؛ فهو مَقْطَعٌ فيه ثلاثُ ركَائِزَ: الإيمان، والكفر، والنِّفاق، تُمَثِّلُ في مُجْمَلِها التَّفْصِيلَ البَيِّنَ لِمَا أَجْمَلَتْهُ سورةُ الفاتحةِ.

(1) محمد علي جميل، صفوة التَّفاسير: 1/27.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 1/91.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿كَفَرُواْ﴾: الكافُ والفاءُ والرَّاءُ تدل اشتقاقاتُها على السَّتْرِ والتَّغطيةِ والجَحْدِ[1]؛ ومِنهُ سُمِّي الكَافرُ كافرًا؛ لِأَنَّهُ يستُرُ نِعمةَ اللّه عَلَيهِ وَيَجْحَدُها بِكُفْرِهِ، ويُقال: كفَرَ البذرَ إذا زرَعَهُ؛ لأنَّه بزراعتِه يُغطِّيه[2].

وكلُّ الألفاظ المشتقَّة مِنَ الكُفْرِ راجعةٌ إلى معنى السَّتْرِ، ومِنْهُ: اللَّيل، والبَحْر، والسَّحاب المُظْلِم، والزَّارِعُ، والزَّرْعُ؛ فَإِنَّ الجميعَ يُسمَّى: كافرًا[3].

وثمَّةَ قيدٌ مُهِمٌّ؛ وهو أَنَّ أصلَ كُفْرِ الشَّيْءِ: تغطيتُهُ تغطيةً كثيفةً شاملةً تُحيط به مِن كل جانب، فلا يظهر معها شيءٌ مِنَ المُغَطّى؛ كما يُغطِّي الزَّارعُ الحبَّ الذي يَزْرَعُهُ[4].

ويُطْلَقُ الكُفرُ في الشَّرع على ما يُقابِلُ: الإيمانَ، وما يُقابلُ: الشُّكْرَ، فَمِنَ الأوَّل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ومن الثَّاني: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152][5].

2) ﴿سَوَآءٌ﴾: السينُ والواوُ والياءُ تدل تصاريفُها على استقامة واعتدالٍ بين شيئَين[6].

وَمِنْهُ قولُهم: مكانٌ سَوَاءٌ، أي: وسطٌ[7]، ومِنهُ قولُه تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾؛ أي: يستوي الأمرانِ المذكوران.

3) ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾: الإِنْذَار: الإعلام مَعَ التَّخويف والتَّهديد والتَّحذير[8]، يُقال: تَنَاذَرَ القومُ؛ إِذَا خَوَّفَ بعضُهم بعضًا[9]، فَبَيْنَ الإنذارِ وَالإعلامِ عمومٌ وخصوصٌ مطلَقٌ؛ إِذْ كُلُّ إنذارٍ إعلامٌ، وليس كلُّ إعلامٍ إنذارًا[10].

وذكر القُرْطبيُّ وغيرُهُ قَيْدًا زائدًا في الإنذار؛ وهو كونُهُ لا يكون إلَّا في تخويفٍ يتَّسعُ زمنُهُ لِلاحْتِرازِ مِنَ المُخَوَّفِ، فإن لم يتَّسعْ زمَنُهُ كان إشْعارًا[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).

(2) القاضي عِياض، مشارق الأنوار على صحاح الآثار: 1/345، وابن مالك، إكمال الإعلام بتثليث الكلام: 2/546.

(3) الكَفَوِي، الكلِّيَّات، ص: 763.

(4) أبو موسى المَدِيني، المجموع المغيث في غريبَي القرآن والحديث: (كفر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (كفر).

(5) ابن الجوزي، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 516-517.

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).

(7) الرّاغب، المفردات: (سوأ).

(8) الجوهريّ، تاج اللُّغة وصحاح العربيّة: (نذر)، والرّاغب، المفردات: (نذر)، والشِّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/273.

(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/29.

(10) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/95، والسَّمين، عمدة الحُفّاظ: (نذر).

(11) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/184. الرّازيّ، التّفسير الكبير: 1/76.

والغرَضُ مِنَ الإنذارِ ليس مجرَّدَ الإعلامِ والتَّخويفِ، وإنَّما لِلْحذَرِ مِنَ الـمُخوَّفِ[1].

أمَّا الإنذارُ في الاستعمالِ القرآنيِّ؛ فهو بمعنى: التَّخويفِ مِنْ عذابِ اللّه تعالَى.

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

إنَّ الذين جحدوا ما أُنْزِلَ إليك من ربك استكبارًا وإعراضًا وعِنادًا؛ لَنْ يصدُرَ منهم إيمانٌ، ولن يُؤتيَ تخويفُك لهم من عذاب اللّه أُكُلَه فيهم، فتخويفُكَ وعدَمُه عندهم سواءٌ[2].

۞ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تَوْجِيهُ بَلَاغَةِ فَصْلِ الْجُمْلَةِ عَنْ سَابِقَتِهَا:

تَعْلِيلُ الفَصْلِ بَيْنَ الجُمَلِ قائمٌ على تَعْيينِ غَرَضِ السِّياقِ

اختُلِف في توجيهِ سبَبِ الفصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على قولَيْن، مَبْنَاهُمَا على تحديد الغرض مِنَ الآيات السَّابقةِ:

الأوَّل: مَنْ جعل غرضَ الآياتِ السَّابقةِ القرآنَ؛ وجَّه الفصلَ على أنَّه مِن كمالِ الانْقِطَاعِ حَمْلًا على الاختلافِ بين الحديث عَنِ القرآن والكفَّار، وهو مذهب السَّكَّاكيِّ، والجامعُ وإن كان ثابتًا هَهنا؛ لكونِ الصِّنْفِ الثَّاني يُضادّ الأوَّل - وهو المسمَّى الجامعَ الوهميَّ-[3]؛ إلَّا أنَّهُ "جامعٌ غيرُ مُلْتَفَتٍ إِلَيْهِ؛ لِبُعْدِ المقام عَنْهُ"[4].

الثَّاني: مَن جعل غرضَ الآياتِ السَّابقة الحديثَ عن صِفاتِ المؤمنين؛ وجَّه الفصلَ على أنَّه شِبْهُ كمال الاتصال (الِاسْتِئْنَافِ البيانيّ)[5].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/199.

(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/87، ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 4، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 2.

(3) بهاءُ الدِّين السُّبكّي، عروس الأفراح: 137-3/136.

(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/158.

وقَوْلُ العلَّامة ابن عاشور في التّحرير والتّنوير: 1/247: «وإنَّما قُطِعت هاته الجملةُ عَنِ التي قبلها؛ لأنَّ بينَهما كمالَ الانقطاعِ؛ إِذِ الجملُ السَّابقة لِذِكْرِ الهُدى والمهتدين، وهذه لِذِكْرِ الضَّالين، فبَيْنَهُما الانقطاعُ لأجل التَّضادِّ»، يُشكِلُ عَلَيْهِ أنَّ التَّضادَّ نوعٌ من أنواع التناسُبِ يَنْدَرِجُ تحت الجامعِ الوهْمِيِّ، وردت آياتٌ كثيرة في عطف الضِّدين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار: 13-14].

وجعلَ الزمخشريُّ في الكشَّاف: 1/47، الغرضَ هُوَ الفرقَ في الفَصْلِ ههنا، والوصلِ في آية الانفطار؛ إِذْ هو مُتبايِنٌ فِيهما، فآية البقرة سيقَت لِذِكْرِ القرآن وعلُوِّ شأنِهِ، والأخرى سيقَتْ لبيانِ تمرُّدِ الكافرينَ وتوغُّلِهِم في الضَّلالِ.

ثُمَّ أومأ الزمخشريُّ إلى أَنَّ آيةَ البقرةِ مستأنفَةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فإنَّه قال: «الكلامُ المبتدأ عَقِيب المُتَّقِين سَبِيلُهُ الاستئنافُ، وأنَّه مبنيٌّ على تقدير سؤال، فَذَلِكَ إدراجٌ له في حكم المُتَّقين، وتابعٌ له في المعنى، وإن كان مبتدأً في اللَّفظ؛ فهو في الحقيقة كالجَارِي عَلَيْهِ. اهـ، فكأنَّه لَمَّا ذُكر حالُ المُتَّقِينَ؛ قِيلَ: وما حالُ غَيْرِهِمْ؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

ونَظَرَ الشِّهَابُ في كونِ الآيةِ مِنَ الاستئنافِ البيانِيِّ، فيُنظر كلامُهُ في عناية القاضي: 1/242.

(5) الزمخشري، الكشاف: 1/47.

فالمعتدُّ به هَهُنا قائمٌ على تَعْيِينِ المقصود في الآيات السَّابقةِ؛ فإنَّ توجيهَ الفَصْلِ قائمٌ على تعيين الغرض مِنَ الآياتِ السَّابقة، والوجهان قويَّان بلاغةً، متَّجهان نَظْمًا، إلَّا أنَّ الوَارِدَ عَنْ مُجَاهِدٍ رحمه الله وهُوَ قولُه: "مِنْ أَوَّلِ الْبَقَرَةِ أَرْبَعُ آيَاتٍ فِي نَعْتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَآيَتَانِ فِي نَعْتِ الْكَافِرِينَ، وَثَلَاث عَشْرَةَ آيَةً فِي نَعْتِ الْمُنَافِقِينَ"[1]، يُقوِّي مذهبَ الاسْتِئْنَافِ البيانيِّ.

توجيهُ تَأْكِيدِ الْجُمْلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

إظهارُ القيمةِ الهدائيّةِ في الحِرْصِ على إنذارِ الآخرِ

أُكِّدَتِ الجُمْلَةُ بـ (إِنَّ) في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لأحدِ ثلاثَةِ أَوْجهٍ[2]:

أوَّلُها: الاهْتِمَامُ بِالْخَبَرِ وَغَرَابَتِه؛ لأَنَّ الْخطابَ للنبيِّ ﷺ وَلِلْأُمَّةِ؛ فلا يُرَادُ حينئذٍ رَدُّ الْإِنْكَارِ أَوِ الشَّكِّ، إِذِ التَّوكيدُ لِمُجرَّدِ الاهتمام.

ثانيهَا: تنزيلُ النَّبيِّ ﷺ مَنْزلةَ مَن شكَّ في نفعِ الإنذارِ؛ لأَنَّ حِرْصَ النَّبيِّ ﷺ عَلَى هِدَايَةِ الْكَافِرِينَ يَجْعَلُهُ لَا يَقْطَعُ الرَّجَاءَ فِي نَفْعِ الْإِنْذَارِ لَهُمْ؛ فجاءَ التَّوكيدُ ههنا لِرَدِّ هذا الشَّكِّ المُفْتَرَضِ.

ثالثها: لَمَّا وُصِفَ القرآنُ الكريم ببلُوغه الغايةَ في الهدايَةِ؛ أَطْمَعَ هذا الوصفُ السَّامعين في تأثير هداية القرآنِ في الكافرينَ المعاندين، وجَعَلَهُمُ الوصفُ كالشَّاكِّينَ في استواءِ الإنذارِ وعدمِه، فخَرَجَ الخطابُ على خلاف مقتضى الظَّاهر، ونُزِّلوا منزلة الشَّاكِّين وإن لم يكونُوا كذلك.

مَعْنَى اللَّامِ فِي الِاسْمِ الْمَوْصُولِ:

خَبَرُ اللهِ تَعالَى بِعَدَمِ إيمانِ قَوْمٍ لَا يَتَخَلَّفُ ويلزَمُ منه التَّحذير

تعريفُ الاسمِ الموصولِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يحتَمِل وَجْهَين:

(1) مجاهد: تفسير مجاهد، ص: 195.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/247-248.

الأوَّل: أن يكون لِلعَهدِ، والمرادُ به ناسٌ مَخْصُوصونَ، كأبي لهَبٍ وأبي جَهْلٍ ونحوِهما.

والآخر: أَنْ يكون لِلْجِنْسِ الدَّالِّ على العُمومِ، وهذا له مسلَكَانِ:

أحدهما: أن يكون المرادُ أبلغَ أنواعِ الكفرِ، والقرينَةُ قولُه تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، فهو مِنَ العَامِّ المخصوصِ بالْحِسِّ؛ لوجود مَن آمَنَ مِن الكُفَّارِ.

والآخر: أَن يكون عامًّا مرادًا به الخصوصُ.

وهذان المَسْلَكانِ "نَاظِرَان إلى أَنَّ اللهَ أخبَرَ عَن هَؤُلاءِ بأَنَّهم لا يُؤمنون، فتَعَيَّن أَنْ يكونوا مِمَّن تَبَيَّن بعدُ أنَّه ماتَ على الكُفْرِ"(1).

فائِدَةُ حَذْفِ المُتَعلَّقِ العُمومُ وبيانُ شَنَاعةِ كُفرِ المَذْكُورين:

حُذف مُتَعَلَّقُ الكُفْرِ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فلم يُذْكَرْ، نَحْوُ: (كَفَرُوا باللهِ)، أو (بِالْيَومِ الآخرِ)؛ لإفادة العموم؛ إذْ إنَّ حذف المتعلَّق مُؤذِنٌ بالعموم، فَيَعُمُّ ما ذُكِرَ وغيرهُ ممَّا يجبُ أن يُؤْمِنُوا بِهِ، وما لا يجوزُ الكفرُ بِهِ؛ وذلك أقوَى في تشنيعِ كُفْرِهم.

بلاغة الاستفهام (همزة التسوية):

بُلُوغُ الكُفَّارِ الغَايةَ القُصْوَى في العِنَادِ

الاستفهامُ في قولِه ﷻ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ استفهامٌ في اللَّفْظِ، وهو في المعنى: خَبَرٌ(2)، والمرادُ: التَّسويةُ؛ وذلك لأنَّ همزةَ التَّسْويةِ موصولٌ حَرْفِيٌّ(3)، تُسبَكُ مَعَ ما بعدَها بِمَصْدَرٍ، فتقدير ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾: إنذارُكَ وعدمُ إنذارك سواء، فمُؤدَّاه الْخَبَرُ.

قال الزَّجَّاج: "فأمَّا دُخُولُ ألفِ الاستفهام ودخولُ (أَمْ) التي لِلاسْتِفهام، والكلامُ خبرٌ؛ فإنَّمَا وَقَعَ ذلك لمعنى التَّسْوِيةِ، والتَّسْوِيَةُ آلَتُهَا: ألفُ الاستفهامِ"(4).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/248.
(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 1/256، وابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/88.
(3) عبَّاس حسن، النّحو الوافي: 1/407، وفي عدِّها موصولاً حرفيًّا خلافٌ، وعلى قولِ مَن لا يراها موصولاً حرفيًّا؛ «فالجملة مِنَ الفعل والفاعل تكون في تأويل مصدرٍ مِن غير سَابِك؛ لإصلاح المعنى». ينظر: الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 1/150.
(4) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابُهُ: 1/77.

واستظهَرَ ابنُ عاشور[1] أَنَّ الهمزةَ لِلاستفهام باقيةٌ على دَلالَتِهَا مِن دُون التَّعرُّضِ لِلتَّسويةِ، وإنَّما التَّسويَةُ مستفادَةٌ مِن قولِه: ﴿سَوَآءٌ﴾، وأَنَّ في الكلامِ حذفًا، تقديرُه: ﴿سَوَآءٌ﴾ جوابُ ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾، كقَوْلِهم: عَلِمْتُ أزيدٌ قائمٌ، والمعنى: علمتُ جوابَ هذا السُّؤالِ.

المشركون المتحدَّثُ عنهم بلغوا الغاية في الكفر بحيث استوى إنذارهم وعدم إنذارهم

ونُكْتَةُ هذا التَّعبيرِ: أنَّ الإنذارَ وعدمَهُ يبدوان مُخْتَلِفَيْن؛ لخفاءِ استوائِهما؛ حتَّى لَيُسْأَل: أأنذرتَهم أم لم تُنذرْهم؟ فيُبَيَّنُ أَنَّ الأمرينِ مستويانِ في تركِ الاكْتِراثِ بهما، وعدمِ الحاجةِ إلى جوابِ الاستفهام، فيكون قولُه تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ﴾ مُشيرًا إلى أَنَّ النَّاس لِتَعَجُّبِهم في دوامِ الكُفَّارِ على كُفْرِهم مَعَ ما جَاءَهم مِنَ الآياتِ، بِحَيْثُ يَسْأَلُ السَّائلون أأنذَرَهم النَّبيُّ أم لَمْ يُنْذِرْهُم؟ مُتَيَقِّنين أنَّه لو أنذرهم لَمَا تردَّدوا في الإيمانِ، فقيل: إنَّهُم سواءٌ عَلَيْهِمْ جوابُ تساؤلِ النَّاسِ عن أَحَدِ الأَمْرَين"[2]، وهذا إنَّما يكونُ مَعَ الذين بلغَ عنَادُهم الغايةَ.

نُكْتَةُ تَعْدِيَةِ الِاسْتِوَاءِ بِـ(عَلَى) لبيانِ تَمكُّنِ الاسْتواءِ:

براعَةُ الاسْتِعَارَةِ والتَّناسُبِ في تعاضدِ المعاني

عُدِّيَ ﴿سَوَآءٌ﴾ بـ (عَلَى) دون (عِنْدَ) في قوله سبحانه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ للدّلالة على تمكُّنِ الاستواءِ وقوَّتِه[3]؛ إِذْ إِنَّ (علَى) تدلُّ عَلَى الِاسْتعلاءِ؛ ففيه استعارةٌ مَكنيَّةٌ إذ شبَّه الاستواءَ بأمرٍ ثقيلٍ واقعٍ عليهم، لا يَملكُون معَه حِرَاكًا؛ لإظهارِ مدى ضَعفِهم في عدمِ قدرتِهم على رَفْعِ ما عليهم من الثِّقل، وهو مناسبٌ لما سيأتي من الخَتْمِ على القُلُوبِ، فالاستواءُ عليهم، والخَتْمُ على قلوبِهم.

---

(1) وهو متابعٌ في هذا ابنَ عرفة في تفسيره: 1/46.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/250.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/249.

نُكْتَةُ الِاكْتِفَاءِ بِالنِّذَارَةِ عَنِ البِشَارَةِ:

عـدم أهـليَّـة المُتحدَّث عنهم للبشارة، وقوة وقع النِّذارة على القلوب

ذُكِرَتِ النِّذارةُ دُون البِشارة في قولِه ﷻ: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾، وإن كان النَّبيُّ ﷺ بشيرًا ونذيرًا؛ لأنَّ المُتحدَّث عنهم لَيْسُوا أهلًا لِلْبِشَارة[1]، ولأنَّ النِّذارة أشدُّ وَقْعًا وتأثيرًا في القلب، من جِهَةِ أنَّ دَفْعَ الضَّرِّ أَوْلَى من جَلْبِ النَّفْع، فإذا لم يَنْتَفِعُوا بالنِّذارة؛ كان عدمُ انتفاعِهم بِالْبِشَارة مِنْ بابِ أَوْلَى[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ بَدَلَ المَصْدَرِ:

بيانُ رحمةِ النَّبيِّ ﷺ بالآخرين وحرصه على هِدَايَتِهم

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالْمَصدَرِ لا بالفِعْلِ في قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾؛ فلم يقُل: إنذارُكَ وعدَمُه؛ لبيانِ حرص النَّبيِّ ﷺ على إنذار الكافرينَ بغرضِ هِدَايتهم؛ لِمَا فيهِ مِن إِيهَام التَّجدُّد[3].

نُكْتَةُ حَذْفِ المَفْعُولِ الثَّانِي؛ لتشمل النِّذَارَةُ كلَّ مَا يَصِحُّ فيه الإِنْذَارُ:

يتعدَّى فعلُ الإنذارِ إلى مفعولين؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ [فصلت: 13]، وفي قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ ذُكِرَ المفعولُ الأوَّلُ، وحُذِف المفعول الدالُّ على المُنْذَرِ مِنْهُ، وفي ذلك توجيهان، الأوَّل: تقديرُ المفعولِ الثَّاني؛ كالآتي: أأنذرتهم العذابَ أم لم تُنذِرهُم إيَّاهُ[4]، والثَّاني: أن لا يُقدَّرَ مفعولٌ مخصوصٌ؛ ليَعُمَّ كُلَّ ما يُنْذَرُ[5]، وهو الأولى بالمقام.

توجيه فَصْلِ جملةِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عَمَّا قَبْلَهَا:

دَفْـعُ أوهـامِ الأفهامِ والقَطْعُ بالمقصودِ

الفصلُ في قولِه تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ محمولٌ إمَّا على كمال الاتِّصال أو شِبْهِه، أمَّا كمالُ الاتِّصالِ فتوجيهُهُ أنَّ هذه الجملة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/36.
(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 2/286، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/41.
(3) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/123، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/609.
(4) السّمين، الدُّر المصون: 1/108-109.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/272.

تفسيرٌ لِلاسْتِواءِ المُجْمَلِ المذكورِ قبلَهَا[1]، وأمَّا شِبْه كمال الاتِّصال فتوجيهُه أنَّه لَمَّا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾، كأنَّه قيل: ما كُنْهُ هذا الاِسْتِوَاءِ؟ أَهُمْ يُؤْمِنُون أو يَكْفُرُونَ؟ فجاءَ الجَوَابُ: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

وغرضُ الفَصْلِ على الوجهين: الاحترازُ مِنْ ظنِّ ظانٍّ أنَّهم يُؤْمِنُون؛ "لأنَّه قد يكونُ الاختيارُ باستواءِ الحالَتَيْن عِنْدَهم يقتضي مبادرَتهم إلى الإيمانِ وعدم توقّفهم على الإنذارِ؛ فاحترَزَ من ذلك بِبَيَانِ أنَّهم على العَكس"[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِنْذَارُ وَالتَّخْوِيفُ:

الإنذارُ هو إعلامٌ مع تخويفٍ، ولا يكون إلَّا فيما يتَّسِعُ زَمَنُه لِلاحترازِ مِنَ المُخَوَّفِ، ولذا كان الغرضُ مِنَ الإنذار ليس مجرَّدَ الإعلامِ والتَّخويفِ، وإنَّما غرضُهُ وغايتُهُ: الحذَرُ مِنَ المُخوَّفِ لِتلَافيهِ، ولازِمُ ذلك: بيانُ موضِعِ المَخافَةِ؛ إذْ لا يَتأتَّى الاحْتِرَازُ مِنَ المُخَوَّفِ دونَ بيانِ موضعِهِ.

ولذا كان الإنذارُ إِحْسَانًا مِنَ المُنْذِرِ، "وَكُلَّما كَانَتِ المخافَةُ أَشدَّ؛ كَانَت النِّعْمَةُ بالإنذار أعظمَ، وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أعظمَ النَّاس مِنَّةً بإنذاره لَهُم عِقَابَ اللّٰه تَعَالَى"[3].

أمَّا التَّخويفُ فأعَمُّ؛ إذْ قد يكون الغرضُ مِنْهُ نفسَ الغرضِ مِنَ الإنذار، كمَا قال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء: 59][4]، وقد يكون لِمجرَّدِ إدخالِ الرُّعْبِ علَى المُخَوَّفِ؛ لِقَصْدِ إضعافِ هِمَّتِهِ، ونحوِ ذلك.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/41.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/46.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 78.
(4) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 461، وعبد العظيم المطعني، خصائص التّعبير القرآنّي: 2/46.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكر الله تعالى أَنَّ القرآن الكريم هُدًى للنَّاسِ، ثُمَّ أخبر عَن قوم أنَّهم لَمْ ينتفعوا بِهُدَى القرآنِ الكريم، أُنْذِروا أو لم يُنذَروا؛ علَّل سببَ عدمِ انتفاعِهِم بقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾، ولـمَّا كان قد سوَّى بينَ الإنذار وعدَمِه؛ كان الأنسبُ الْبَدْءَ بالقلوبِ؛ لِتَسْوِيتِهم بالْبَهَائم، فكلاهما لا يفقه، ثُمَّ ثنَّى بالسَّمْعِ لعُمُومِهِ، وثلَّث بالبصرِ لخُصُوصه بأحوَالِ الضِّياءِ؛ لحَطِّهِمْ عن رُتبة الْبَهَائم.

ثُمَّ لـمَّا ذكَر أوصافَهُم التي كانوا علَيْهَا في الدُّنيا مع هُدَى القرآنِ؛ ذكر مآلَهُمْ في الآخرةِ بقوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[1]، فَهَذِهِ الفاصلةُ تعليلٌ لفاصلةِ الآيةِ السَّابقة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، فَلَهُمْ عذابٌ عظيمٌ لأنَّهم لا يُؤمنُونَ، كما أنَّ صدرَ الآيةِ الثَّانية تعليلٌ لفاصلةِ الآيةِ الأولى، فاجتمَعَ في فاصلةِ الآيةِ الأُولى كونُها عِلَّةً ونتيجةً لتعليلٍ، وهذا مِن بديع التَّناسب في القرآنِ، والحاصلُ أنَّ هذه الآيةَ تَعْلِيلٌ لِمَا في الآيةِ قبلَهَا مِن حيثُ الجُمْلَةُ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿خَتَمَ﴾: فعل ماضٍ مِن الخَتْمِ، وهو قريبٌ من معنى الطَّبْع، يُقَالُ: خَتَمَ يَخْتِمُ خَتْمًا[3].

والأصلُ في الخَتْمِ: بُلُوغُ آخِرِ الشَّيْءِ[4]، ومِنْهُ الخاتَمُ: وهو الآخِرُ[5]، يقال: خَتْمُ الْكِتَابِ: لآخِرِ مَا يُعْمَلُ مِنْهُ؛ وَهُوَ طَبْعُهُ بِالخَاتَمِ على طِينِهِ[6].

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 1/97.
(2) السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/46، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/246.
(3) إبراهيم الحربيّ، غريب الحديث: 2/557.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ختم).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ختم).
(6) إبراهيم الحربيّ، غريب الحديث: 2/557.

والخَتْمُ: تغطيةُ الشَّيْءِ والاِسْتِيثاقُ مِن أَنْ لَا يدْخُلَهُ شَيْءٌ، ومِنْهُ: الخَتْم على القَلبِ؛ وهو: أَنْ لَا يَفْهَمَ شَيْئًا وَلَا يَدْخُل إِلَيْهِ شَيْءٌ، كَأَنَّهُ طُبِعَ[1].

وجعلَ ابنُ عاشور الأصلَ في الخَتْمِ: أنَّه "السَّدُّ على الإناء، والغَلْقُ على الكتاب بِطِينٍ ونحوه، مَع وضع علامةٍ مَرْسُومةٍ في خاتَم؛ لِيَمْنَعَ ذلك مِنْ فتح المَخْتُوم، فإذا فُتِح؛ عَلِمَ صاحبُه أنَّه فُتِحَ؛ لِفَسَادٍ يَظْهَرُ في أثَرِ النَّقش.... وأمَّا تسميةُ البُلُوغ لِآخر الشَّيْءِ ختمًا؛ فلِأَنَّ ذلك الموضِعَ أو ذلك الوقْتَ هُو ظرفُ وَضْعِ الخَتْمِ، فيُسَمَّى به مَجَازًا"[2].

والظَّاهَرُ الأوَّلُ؛ وأنَّ الخَتْمَ بمعنى السَّدِّ على الإناءِ راجعٌ إلى معنى بلوغ الشَّيءِ لا العكسُ، فالطَّبعُ بالخاتِمِ سُمِّي خَتْمًا؛ لكونِ الطَّبْعِ يَكُون عِنْدَ بلوغِ الكتابِ آخرَهُ.

و﴿خَتَمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ بِمَعْنَى: طَبَعَ اللّه تعالَى عَلَيْهَا وأقفلها، فليست تَعِي خيرًا.

2) ﴿قُلُوبِهِمۡ﴾: القُلُوبُ: جمع قَلْبٍ، وقلبُ كلِّ شيءٍ: أفضلُه وأَخْلَصُهُ، ومِنْهُ سُمِّيَ قلبُ الإنسانِ قلبًا[3]؛ لأنَّهُ أخلصُ شيءٍ فيه وأشرفُهُ وأرفعه[4].

وتقول العرب: جِئْتُكَ بهذا الأمرِ قَلْبًا، أي: مَحْضًا لا يَشُوبُه شيءٌ[5].

وقيل: سُمِّيَ القلبُ قلبًا؛ لِتَقَلُّبِهِ وكثرةِ تغيُّرِه[6]، ومِنْهُ قولُ الشاعر[7]:

مَـا سُمِّيَ القَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِـهِ *** وَالرَّأْيُ يَصْرِفُ بِالْإِنْسَانِ أَطْوَارًا

ويَرِدُ القلبُ في القرآن الكريم ويُرَادُ به: القوةُ الباطنةُ؛ وهيَ العقلُ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: 37] أي: عَقْلٌ أو تَفَهُّم وتدبُّر، وهذا الإطلاقُ هو الغالبُ.

ولم يَرِد القلبُ بالمعنى الآخرِ وهُو العُضْوُ المعروفُ إلَّا في ثلاث آيات مِنَ القرآنِ

(1) ابنُ سِيدَه، المُحْكَم والمحيط الأعظم، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ختم).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/254.
(3) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (قلب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلب).
(5) الخليل، العين: (قلب).
(6) الأنباريّ، الزّاهر: 2/373.
(7) هو عند الأزهريّ في تهذيب اللُّغة: (قلب)، بلا نسبةٍ.

فحسبُ[1]، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: 4] وقوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: 18].

3) ﴿غِشَٰوَةٌ﴾: المعنى الذي تدور عليه مادة الغين والشين والحرف المعتلُّ هو: تغطيةُ الشَّيءِ بكثيفٍ يَعُمُّهُ، ومنه تسمية يوم القيامةِ غاشيةً؛ لأنَّ القيامةَ تعُمُّ الخَلْقَ[2].

و(غِشَاوة) على زِنَة فِعَالة، وهي مِنَ الأوزانِ الدَّالةِ على اشتمالٍ على شيءٍ؛ مثل: العِمامةِ والعِصابة والقِلادَة، ومثلُها: أَسْمَاءُ الصِّناعاتِ؛ لكون الصِّناعة مُشتملةً على كلِّ ما فيها، نحو: الخِياطة، والحِياكَة[3].

والغِشَاء: الغطاء، وكذلك الغِشَاوة[4]؛ ومنه قولُ الحَارِثِ بن خَالِدٍ المَخْزُوميِّ[5]:

صَحِبْتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ *** فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِي أَلُومُها

وهو مِن قولكَ: غَشَّيْتُ الشَّيءَ؛ إذا غَطَّيْتَه، ومثله: أَغْشَى، ومِنْهُ قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 9].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تحكي الآيةُ الكريمة الأسباب الحائلة والموانع الكامنة بين الكافرين ونور الحق المبين، وتشير إلى جملة من العقوبات الإلهيّة التي حلت بهم جراء عنادهم وكذبهم، فمن ذلك أن طبع اللّه على قلوبهم فأغلقها على ما فيها من باطل، وطبع على سمعهم فلا يسمعون الحق سماع قَبول وانقياد، وجعل على أبصارهم غطاء فلا يبصرون الحق مع وضوحه، وهذهِ عقوبات معجَّلةٌ لَهُمْ في الدنيا، ولَهُمْ عقوباتٌ مؤجَّلةٌ إلى يوم القيامةِ، إذ ينتظرهم العذاب المقيم والنكال العظيم في نَارِ الجحيم[6].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقِيّ المؤصَّل: (قلب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (غشو/ي).
(3) النَّحاس، إعراب القرآن: 1/29، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (غشو).
(4) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: 4/1376.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (غشو).
(6) العُليميّ، فتح الرحمن: 1/56، والشِّنقيطيّ، العذب النَّمِير: 1/222، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 41، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 3.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

إيرادُ الخَبَرِ مَوْرِدَ العِلَّةِ للكلامِ السَّابِقِ

تَرْكُ عَطْفِ الْجُمْلَةِ عَمَّا قَبْلَهَا؛ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ شِبْهِ كَمَالِ الاتِّصَالِ:

تُركَ عطفُ قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ على ما قبله؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ - وهو المسمَّى عند البلاغيِّين: شبهَ كمال الاتِّصال-، وقد ورد جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ نشأ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ كأنَّه قيل: لِمَ استوَى لَدَيْهِمُ الْإنذارُ وعَدَمُهُ؛ فجاء الجواب: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[1]؛ لدفع تَعَجُّبِ المتعجِّبين من ذلك، ومِن عدَمِ نفُوذ الإيمان إلى قلوبهم مع وضوح أدلَّتِهِ[2].

تنوّعُ مسالِكِ البيانِ في تَصْويرِ شِدَّةِ الكفران

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِمُفْرَدَةِ (الْخَتْمِ) وأثرُها المجازيّ:

المرادُ بنوع الخَتْمِ في قوله تعالَى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾: هو الخَتْمُ المجازيُّ؛ وذلك بِأَنْ جُعِلت قلُوبُهم في عدَمِ نُفُوذ الحقِّ إِلَيْهَا، وجُعِلت أَسْمَاعُهُم في صَمَمِهَا عَنِ الانْتِفَاعِ بالآيات، بِمَنْزِلَةِ ما أُحكِمَ إغلاقُه، وذلك له ثلاثةُ مَسَالِكَ[3]:

أحدهما: أنَّهُ شُبِّه عدمُ حصولِ النَّفع مِنَ القلوب والأسماع بالخَتْمِ، على طريقة الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ[4]، ثُمَّ اشتُقَّ مِنَ الخَتْمِ بالمعنى المتقدِّمِ الفعلُ (خَتَمَ) على سبيلِ الاستعارة التَّبعيَّة[5].

والثَّاني: أنَّهُ قَدْ شُبِّهتِ الهيئةُ الحاصلةُ مِن تصميمهم على الكُفْرِ وإمْسَاكِهم عن التَّأمُّلِ في أدلَّة الإيمان وعدم انتفاعهم بسماع الحقِّ بهيئة الخَتْمِ؛ فيكون مِنَ الاستعارة التَّمثيليَّة[6].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/46، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/277.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/254.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 255-1/245.
(4) الإسْتِعَارَةُ: هِي اللَّفظُ المستعملُ في غير ما وُضِعَ لَهُ، لعلاقةِ المشابهة، مع قرينة مانعة مِنْ إرادةِ المعنَى الأصليّ، والتَّصريحيَّةُ مِنْهَا: هي التي ذُكِر فيها لفظُ المشبَّه به، العلوي، ينظر: العلوي، الإيجاز، ص: 361.
(5) الإسْتِعَارَةُ التَّبعيَّةُ: هي الإستِعَارَةُ التِي يكُونُ فِيهَا اللَّفظ المستعارُ مشتَقًّا أو حَرْفًا، ينظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 264.
(6) الإسْتِعَارَةُ التَّمثِيلِيَّةُ: اللَّفْظُ المُرَكَّب المستعمَلُ فِي غير مَا وُضِعَ لَهُ، لعلاقةِ المشابَهِةِ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصليِّ، ينظر: المراغي، علوم البلاغة، ص: 287-286.

والثَّالث: أَنْ يكون قد عُبِّر عن عدمِ نفوذ الحقِّ إلى أسماعهم وأبصارهم بالختْم؛ مِن باب إطلاق الـمَلْزُومِ وإرادةِ لازمِه، فيكون مَجَازًا مُرْسَلا[1] بعلاقة المَلْزُوميَّة.

وأفادَ هذا التَّنوعُ البيانيُّ الكَشْفَ عَنْ تَمَكُّنِ الكُفْرِ بأسلوبٍ متعدِّدِ المسَالِكِ؛ فما غمُض في وجهٍ بانَ في آخَرَ.

فائِدَةُ إِسْنَادِ الْخَتْمِ إِلَى اللهِ ﷻ على الحَقِيقةِ لا المَجَازِ:

في إسناد الختم إلى الله تعالى تهديدٌ للكافرين، وذمّ لهم لأنهم استحقوا الختم بسوء فعالهم

إسنادُ الختْمِ إلى اللهِ تعالى في قوله سبحانه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ إسنادٌ حقيقيٌّ لا مجازيٌّ، فختمُ القُلُوبِ متعلِّقٌ به ﷻ، فلا يكون شيءٌ إلَّا مِن بعد إِذْنِه وإرادَتِه، وفائدةُ القولِ بالإِسْنَادِ الحقيقيِّ مزيدُ التَّرهيب والتَّهديد، فإسنادُ الخَتْمِ إلى اللهِ ﷻ باعتبارِ إيجادِه وخلقِه، وأمَّا الذَّمُّ فَباعْتِبَارِ كونِ الخَتْمِ مُسبَّبًا عَن عِنَادِهم وردِّهم الحقَّ بعد ما تبيَّنَ لَهُمْ[2].

دلالة حَرْفِ الْجَرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

تمكّن الختم من قلوب الكافرين

﴿خَتَمَ﴾ فعلٌ مُتَعَدٍّ؛ وَهو من باب (ضَرَبَ)، وعُدِّيَ بالحرفِ (عَلَى) في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ لِلْإِيمَاء باستعلاء الخَتْمِ على قلُوبِهم وتمكُّنِهِ منْهَا.

نُكْتَةُ تَكْرَارِ حَرْفِ الاسْتِعْلَاءِ ﴿عَلَىٰ﴾:

التَّـنـبـيـهُ على تغايُرِ الخَتمَيْن؛ فالتَّكرارُ أظْهرُ في الاستقلالِ

كُرِّرَ حرفُ الجرِّ (على) في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾؛ للدّلالة على شدَّةِ الختم في الـمَوْضِعَيْن، والتَّنبيه على تغايُرِ الخَتمين؛ فختمُ القلوبِ غيرُ خَتْمِ الأسماع[3]، والتَّكْرَارُ أظهَرُ في الاسْتِقلالِ؛ فكأنَّ كُلَّ خَتْمٍ مستقلٌّ برأسه؛ إِذْ إنَّ "إعادةَ الجَارِّ تقتضي ملاحظةَ معنى الفعلِ الـمُعَدَّى به، حتَّى كأنَّه ذُكِر مَرَّتين"[4].

(1) المجَازُ المُرسل: هو اللَّفْظُ المُسْتَعْمَلُ في غَيْرِ ما وُضِعَ لَهُ، لعلاقَةٍ غَيْرِ المُشَابَهَةِ، معَ قرينَةٍ مانِعَةٍ مِنْ إرادَةِ المَعْنَى الأصليِّ، ينظر: العلوي، الإيجاز، ص: 301.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/135.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/52، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنْوِير: 1/258.

(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/138.

تَقْدِيمُ القَلْبِ عَلَى السَّمْعِ من قبيلِ تَقْدِيمِ الغايةِ على الوَسِيلةِ:

قَدَّمتِ الآيةُ القلبَ على السَّمعِ في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ لأنَّ الآيةَ مسوقةٌ لبيان عدم إيمانِهم؛ فناسبَ ذلك أَنْ يُبدأَ بالقلوبِ؛ إذْ هي محلُّ الإيمانِ في الأصْلِ، والسَّمعُ وسيلةٌ مُوصِلَةٌ لِلْغَايَةِ، فكانَ التَّقديمُ مِن قَبيلِ تقديم الغايةِ على الوسيلَةِ.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

قُدِّم السَّمعُ في آيةٍ لإهمالِ أثرِه في تحصيل العلمِ، وقُدِّم القلبُ في أُخرى لامتلائه بالكفر

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾، تشابهت ألفاظ هذه الآيَةِ وآية الجَاثِيَةِ: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الجاثية: 23]؛ ففي آية الجاثية قُدِّم ذكرُ السَّمعِ، ويرجع ذلك إلى اختلاف السِّياق؛ فإنَّ سياقَ آية الجاثيةِ يتحدَّث عمَّن اتَّخذ إلههُ هواهُ، فَضَلَّ عَنْ عِلْم، وأداةُ تحصيل العلمِ السَّمعُ، فلمَّا أهمَلَ هذه الأداةَ؛ اسْتَحَقَّ أنْ يُعاقَبَ بسببِ إهمالِه، وكذلك سِيقَتْ لبيان عَدَمِ مُبَالاة الكُفَّار بالمواعظ، وأوَّلُ ما تُباشِرُهُ الموعظةُ مِنَ الجوَارِح هُوَ السَّمْعُ؛ فناسبَ ذلكَ تقديمَهُ[1]، وأمَّا سِيَاق آيةِ البقرة فَهُوَ حديثٌ عَنِ الكافرين باعتبارِ إصرارِهم على الكفرِ، وموطنُ ذلك القلبُ؛ فلذلك قُدِّم ذِكْرُه.

تَقْدِيمُ السَّمْعِ عَلَى البَصَرِ؛ لقوَّةِ إدراكِه:

السَّمع يُدرِك المسموعات من كل الجهات، والبصر يُدرِك المبصرات بعد التوجّه إليها

قُدِّم السَّمْعُ على البصرِ في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾؛ لكونِ الآية سِيقَت لبيان إعراض الكُفَّار عن الحقِّ، والحقُّ يُبلِّغُهُ الأنبياءُ إلى أقوامهم، ووسيلَةُ إدراك ذلك السَّمْعُ، ولكون الإدراك بالسَّمْعِ أقوى مِنَ الإدراك بالبصرِ؛ لكون السَّمْعِ يُدرك الأصواتَ المسموعَةَ مِنَ الجهَات السِّتِّ دون تَوجُّهٍ، بخلاف البصرِ فَإنَّ الإدراك بِهِ محتاجٌ إلى التَّوجُّهِ إلى الشَّيءِ المرادِ إدراكُهُ[2].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 138-1/137.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/258.

نُكْتَةُ إِفْرَادِ السَّمْعِ وَجَمْعِ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ:

تـفـاوتُ القـلـوبِ بتفاوتِ كفرِها، واستواءُ المسموعاتِ في الأذنِ

أُفْرِد السَّمعُ وجُمِعَت القلوب والأبصارُ في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ فيُسألُ عن ذلك، والجوابُ أنَّ السَّمْعَ مصدَرٌ لِلْفِعْلِ (سَمِعَ)، والمصدر يقع على القَليلِ والكثير مِن جنسِه؛ ولذا لا يُجْمَعُ في الأصلِ، ولِمَا في جَمْعِ المصادر من الثِّقَلِ غالبًا، قال ابنُ الْأَثِيرِ: "وأمَّا جمعُ المصادر؛ فَإِنَّه لا يَجِيءُ حَسَنًا، والإفرادُ فيه هو الحَسَنُ"[1].

ولأنَّ السَّمْعَ -وإن كان مفردًا- يَصِحُّ إطلاقُهُ مرادًا به الجمعُ؛ إذْ إنَّ كلَّ اسم مفردٍ هو اسمُ جنسٍ، فإطلاقُ المفردِ مرادًا به الجمعُ هو بالنَّظرِ إلى أصلِهِ الشَّامِلِ لأفرادِ الجنس[2].

ويحْتَمِل أن يكون إفرادُ السَّمْعِ لأمنِ اللَّبْسِ؛ لكونِهِ ورِدَ بين جَمْعَيْنِ: القلوبِ والأبصارِ، فيُعْلَمُ أنَّ المرادَ به الجمعُ[3].

القلب والبصر جارحتان فصحّ جمعهما، والسّمع مصدر وجمع المصادر غير مُحبّذ

أمَّا القلبُ والبصرُ؛ فإنَّهما اسمٌ لِلْجَارِحة؛ ولذا صَحَّ جَمْعُهُمَا[4]، وَجَمْعُهُما جَارٍ على الأصلِ؛ فإنَّ الكلامَ عَنِ الذين كَفَرُوا وهم جَمْعٌ؛ فناسَبَ أن تُذكرَ القلوبُ والأبصارَ بصيغةِ الجمعِ؛ لِيُرَدَّ كُلُّ قلبٍ وبصرٍ لصاحبه، على قاعدةِ أَنَّ مقابلةَ الجمعِ بالجمعِ تقتضي القسمةَ آحادًا، أو لِأَنَّ العربَ قَدْ تَسْتَغْنِي عَنْ جمع المضافِ إِلَيْهِ عَن جمع المضاف[5].

فإفرادُ السَّمعِ وجمعُ القلوبِ والأبصارِ جاء على الأصل، ونكتةُ مجيئِه على الأصلِ، هو أَنَّ القلوبَ مختلفةٌ في تفكُّرِها في الإيمانِ؛ إِذْ لكلٍّ حَظُّهُ مِنَ الإدراك.

(1) ابن الأثير، المثل السَّائر: 1/280.
(2) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمِير: 1/268.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/48.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/343.
(5) الجرجانّي، درج الدُّرر في تفسير الآيِ والسُّور: 1/101.

والأبصارُ متفاوتةُ التَّعَلُّق بالمرئيَّات التي فيها أدلَّةُ الوحدانيَّة، فلكلٍّ نصيبهُ مِن هذا النَّوْعِ مِنَ النَّظرِ.

بخلاف الأسماع؛ فإنَّ متعلَّقها سماعُ ما يُلقى إِلَيْهَا مِنَ الوحي؛ "فالجمَاعاتُ إِذَا سَمِعُوا القرآن سَمِعُوهُ سماعًا مُتَسَاوِيا، وإنَّما يتفاوتون في تدبُّره، والتَّدبُّر مِن عمل العقول، فَلَمَّا اتَّحد تَعَلُّقُها بالمَسْمُوعات؛ جُعِلَت سَمْعًا واحِدًا"(1).

فائِدةُ التَّعبيرِ بالْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ والاسميَّة:

تَجَدُّدُ خَتْمِ القُلُوبِ بتجدُّدِ نزولِ القرآنِ

جاء التَّعبير عن خَتْم القلوب والسَّمْع بالجملة الفعليَّة في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾؛ للدّلالة على التَّجدُّد؛ فإنَّ السَّمعَ يتجدَّدُ بتجدُّدِ سماعِ القرآنِ، وعُبِّر عن غشاوة الأبصار بالجملة الاسميَّة؛ للدّلالة على الثُّبوت، فالمبصَرَاتُ مرئيَّةٌ مشاهدَةٌ على الدَّوام، حتَّى كَأَنَّ الغشاوةَ أمرٌ جُبِلُوا عَلَيْهِ(2)، وفائِدةُ ذلك بيانُ أنَّ الختمَ مرتبطٌ بعلاقةِ القلبِ والسَّمعِ بالقرآنِ، بخلافِ البصرِ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ [الكهف: 101]، فأعيُنُهم في غطاءٍ ثابتٍ عن معرفةِ الأدلَّة الكونيَّة، ولا يستطيعونَ سماعَ المُتجدِّدِ نزولِه من الأدلَّةِ القرآنيَّة، فما تَرَاه العَيْنُ يكونُ ثابتًا، والمتجدِّدُ هو ما يرِدُ على القَلْبِ من طَرِيقِ السَّمعِ.

انْتِقاءُ الْأَلْفَاظِ تَابِعٌ لِدِقَّةِ الْمَعْنَى:

تَشْبِيهُ القلُوبِ والأسماعِ بالأَوْعِيَةِ يُنَاسِبُه الخَتْمُ، ومُلَاءَمَةُ الغِشاءِ لحَجْبِ الرُّؤيةِ

جُعِلَ الخَتْمُ على القلوبِ والأسماعِ، وجُعِلَتِ الغشاوةُ على الأبصار في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾؛ لأنَّ القلوبَ والأسماعَ يُشْبِهان الوعاءَ، فيُتصوَّرُ فِيهِمَا معنى السَّدِّ والطَّبْعِ، بينما اختصَّت الأبصارُ بالغشاوة؛ لأنَّها تمنعُ أصلَ الرُّؤيَةِ، وفي ذلك تحقيقٌ لأمرين:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/256، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/89.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/139.

أحدُهُمَا: حجبُ الرُّؤيةِ المؤدِّية إلى الإيمان، لا عموم الرُّؤية.

والآخَرُ: أنَّ هذهِ طريقةُ القرآن في ذِكْرِ الأسماع والأبصار، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ [الكهف: 101]، فالأعينُ في غطاءٍ عَنِ الذِّكر لا عَنْ مُطْلَقِ الرُّؤية، فالأبصارُ تَرى الآيَةَ الكونيَّة وتستمتعُ بِها دون أن تُدرِكَ أنَّها مخلوقةٌ لِتَقُودَ إلى الإيمان باللّهِ تعالَى، وهذا معنى قول الْجُرْجَانيِّ بأنَّها "تمنعُ رُؤيةَ الِاعْتِبَارِ لا رؤيةَ الاختيَارِ"(1).

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليّة في الكَشْفِ عن المعاني العقليَّة:

عدم تأمّلهم في دلائـل التوحيد غـطّـى أعينهم وحـجـبـهـم عن الحقّ

في قولِه تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ استعارةٌ تمثيليَّة؛ حيثُ شُبِّهَت "هيئةٌ متخيَّلَةٌ في أبصارهم مِن عدم التَّأمُّل في الوحدانيَّة وصِدْقِ الرَّسول، بِهَيْئَةِ الغِشَاوة"(2)، وهو مِن تمثيل المعقولِ بالـمَحْسُوس، حيث إنَّ عدم تأمُّلِهم أو إعراضَهم حَجَبَهُم عَنِ اتِّباع الحقِّ ونظَرِ الِاعْتِبَار، كما تَمنع الغشاوةُ الحِسِّيَّةُ العينَ مِن نَظَرِ الاختيار.

تنْكِيرُ كَلِمَةِ ﴿غِشَٰوَةٞۖ﴾ يُفيدُ نوعًا لا يَعْرِفُهُ الْمُخَاطَبون:

المراد بالغشاوة غطاء التعامي عن آيات الله

مجيءُ ﴿غِشَٰوَةٞۖ﴾ نكرةً في قولِه تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾؛ لِبيَان النَّوعيَّة، والمعنى: «أنَّ على أَبْصَارِهم نوعًا مِنَ الأغطيةِ غيرَ ما يَتَعارفُه النَّاسُ؛ وهو غطاءُ التَّعَامِي عن آيات اللّه»(3)، وهذا المعنى مأخوذٌ مِنَ السِّياقِ، إذْ إنَّ المخاطَبين لا يعرفونَ هذا النَّوعَ مِنَ الغِشَاوَةِ إلَّا من طريقِ القُرآن.

بَلَاغَةُ تَنْوِينِ التَّنْكِيرِ فِي كَلِمَةِ ﴿عَذَابٌ﴾:

دلالـة الـنَّـوع والـتَّـعـظـيـم مُـرَادَتَـانِ وَضْعًا وَسِيَاقًا في لفظ (عذاب)

يحْتَمِلُ أن يكونَ معنى التَّنْكِيرِ في قولِه: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ﴾ لبيانِ النَّوعِ، أي: لَهُمْ نوعٌ خاصٌّ مِنَ العذابِ لم يَعْهده النَّاسُ، وفائدتُه

(1) الجرجانيّ، درج الدُّرر في تفسير الآي والسُّور: 1/102.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/255.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/53.

التَّرهيبُ والتَّهويلُ، ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تنكيرُهُ لِلتَّعظيم، واسْتَشْكَلَه ابنُ عاشور بأَنَّ دلالة التَّنْكيرِ على التَّعْظيم تكونُ بالفَحْوَى، وما دُلَّ عَلَيْه بالفَحْوَى يُسْتَغْنَى عَنْهُ إذا جاء ما يدلُّ عَلَيْه بالْوَضْع، وهو وَصْفُ العَذَابِ بأَنَّهُ ﴿عَظِيمٌ﴾، فَدلالة الوَصْفِ على العظَمَةِ دلالة وضعيةٌ تُغني عَنِ استفادةِ التَّعظيم مِنَ التَّنكير(1).

والصَّحيح الوجيهُ أَنَّ دلالة التَّنكير على النَّوعيَّةِ مستلزمةٌ القولَ بالتَّعظيم؛ إِذِ المقصودُ بالنَّوعيَّة: أَنَّ لهم نَوْعًا مِنَ العذابِ لا يَعْلَمُ حقيقتَهُ إلَّا اللّه(2)، وهذا ظاهرٌ في إفادتِهِ التَّعظيمَ، ويكون وصفُ العذابِ بالعظمةِ بمنزلةِ التَّوكيدِ المعنويِّ له.

تَأْخِيرُ المبتَدَأِ لإِفَادَةِ الْقَصْرِ:

مناسبة اختصاص الكُفَّارِ بِالْعَذَابِ الْعَظِيمِ لِعِظَمِ إِجْرَامِهِمْ

أُخِّر المبتدأُ في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ لإفادة الاختصاص، والإيماء إِلَى أَنَّهم الأحقَّاءُ بالعذاب العظيم؛ وذلك لاختصاصهم بِعِظَمِ الجُرْم وهو الكُفْرُ باللّه العظيم(3).

فذلك النَّوْعُ الذي لا يُعلم كُنْهُه مِنَ العذاب مختصٌّ بهم، أمَّا مَنْ دُونهم مِن أصحاب المعاصي فَهُمْ مُتَوَعَّدون بعذابٍ دونَ عذابِ الكافرينَ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

خَتَمَ وَطَبَعَ:

تعدّدت أقوال العلماء في الفرق بين الختم والطبع، وأشهرها قولان:

الأوَّل: التَّرادُفُ؛ وأن الختمَ والطَّبع بمعنًى واحدٍ؛ وأنَّهما سِمَة وعلامَةٌ في قَلْبِ المطبوع على قلبِه، وهو ظاهِرُ كلام ابن عاشور في مَواضِعَ مُتَفَرِّقةٍ من تفسيره(4).

الآخَر: التَّبايُن: وَالفرقُ بينَهما أَنَّ الطَّبْعَ فيه معنى الثَّبات؛ إِذْ هو أثرٌ يَثْبُتُ في المطبوع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/258.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/53.
(3) إسماعيل حقِّي، روح البيان: 5/84.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/199، 1/255، 10/289، 24/144.

التَّقاربُ في الدّلالة إذا كانَا فِعْلَيْنِ

ويَلْزَمُهُ، فهو يُفيد من اللُّزوم والثَّباتِ ما لا يُفيده الخَتْمُ، ولذا يقال: طَبْعُ الدَّراهم؛ وهو إحداثُ أثرٍ فيها لا يزولُ، ومِنْهُ: طَبْعُ الإنسانِ[1]، وبناءً على هذا؛ فالطَّبْعُ أقوى منَ الخَتْم، ويؤيِّدُهُ أنَّ مشتقات الخَتْم وردَتْ في القرآن الكريم في جانب الخَيرِ والشَّرِّ، بخلاف الطَّبْعِ فَلَمْ يَرِدْ إلَّا مرادًا به الشَّرُّ والذَّمُّ.

وما تقدَّمَ من الخلافِ إنَّما هو في حالِ كونِ الكَلِمَتَيْنِ اسمَيْنِ، أمَّا إذا جاء الختمُ والطَّبع فِعْلَيْنِ؛ فإنَّ دَلالتهما تكَادُ تكونُ متقاربةً[2].

القُلُوبُ وَالأَفْئِدَةُ:

وَرَدَ في القَاموس أنَّ القلبَ هُو الفُؤادُ، أو أخَصُّ مِنْهُ[3]، وعلَى الثَّاني: جَعَلَ القرطبيُّ[4] العقلَ في القلبِ، والقلبَ في الفؤاد، والفؤادَ في الصَّدر، فيكون القلبُ أخصَّ.

والقولُ بترادفهما أشْبَهُ بالغلَطِ؛ لورود التَّفْريق بَيْنَهُمَا في القرآن والسُّنَّةِ وكلام العرَبِ، فمِنْ ذلك قول اللّٰه تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: 10]، وقولُ النَّبيِّ ﷺ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَلْيَنُ قُلُوبًا وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً»[5]، وقول ذِي الرُّمّة[6]:

وَأَنْتَ مِنْ حُبِّ مَيٍّ مُضْمِرٌ حَزَنًا *** عَاني الْفُؤَادِ قَرِيحُ الْقَلْبِ مَكْظُومُ

وحكى أبو هِلال أَنَّ أهل اللُّغة لا يُفَرِّقُون بَيْنَهُما، ونَقَلَ عن جماعة مِن أهل الحديث: أنَّ الأفئدةَ تُوصَفُ بالرِّقَّة، والقلوبَ تُوصَف باللِّين؛ وذلك لأنَّ الفؤادَ غشاءُ القلب؛ فَإذَا رقَّ خَلُصَ القولُ إلى داخِلِه، وإذا غَلُظَ فَبِالْعَكْسِ، بخلاف القلبِ فإنَّه إذا كان ليّنًا وصادفَ شيئًا عَلِقَ به[7].

وفي كلام بعض أهلِ العِلْمِ ما يُومئُ إلى أنَّ الفؤادَ أخصُّ؛ إذْ إنَّ القلبَ يُطلَق على

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغَويّة، ص: 336.
(2) مُحمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 232-233.
(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (قلب).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/189.
(5) البخاريُّ، حديث رقم: (4388)، ومسلم، حديث رقم: (52).
(6) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 19/306.
(7) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 433.

العضوِ المعروفِ، وعلى القُوَّة الباطنةِ التي هي مَحَلُّ الإدراكِ، بخلاف الفُؤَاد فَلَمْ يَرِد في القرآن إلَّا "على المعنَوِيِّ؛ مِن وضع الشُّعور والعواطف والعقيدةِ والأهواء"[1]، وفيه نَظَرٌ[2].

والأقربُ: أنَّ الفؤادَ أخصُّ، وهوفي القلبِ لا العكس، كما قال مُحَمَّد بنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ في تفسير قول الله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة: 6-7]: "تأكل كُلَّ شيءٍ مِنْهُ حَتَّى تنتهيَ إِلَى فُؤَادِهِ"[3]، وقد يُستعمل أحدُهما موضعَ الآخرِ في القرآنِ الكريم.

(1) بنت الشَّاطئ، التَّفسير البيانّي: 178-2/177.

(2) وهو يخالف التَّفسيَر المأثور في مواضع، مِنْهَا في سورة الهُمَزَةِ. ينظر: ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 10/3464.

(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 10/3464.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨﴾ [البقرة: 8]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكر اللّٰه سبحانه مَنِ اتَّبَعَ الحقَّ ظاهرًا وباطنًا، وذكر مَن تَمَحَّضَ كُفْرُهُ ظاهرًا وباطنًا؛ ذكر صنفًا آخر وهُمُ الذين آمنوا بالدَّعاوَى اللَّفظيَّة، وقلوبُهُم خاويةٌ مِنَ الإيمانِ، وهَؤُلَاءِ أَسْوَأُ الكُفَّار وأخبثُهم؛ لكونِهم جمعوا إلى الكُفْرِ الاستهزاءَ والخداع[1]، وقد جاءَ التَّرتيبُ بديعًا، حيث بدأَ بالمؤمنين باعتبارهم الأصلَ، والـمُتَّبعين الكتابَ، ثمَّ ثنَّى بالكافِرين باعتبارِ الـمُقابَلة الوَاضِحة بينَهم وبينَ المؤمنين، ثمَّ ذَكر الـمُنافِقين مَعْطُوفِين على الكافرينَ، فهُم النَّوعُ الجديدُ في مَهْيع إظهارِ ما يُخالِف الباطنَ، فهُم -وإنِ اشْتَرَكُوا مع الكافرين في أصل الـمُعتَقد- يُخالفونَهُم في الإظهارِ، فكان عطفُهم مِن قَبيلِ عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ.

قال الفخرُ الرّازي في إيضاح مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها: "اعلمْ أنَّ المفسّرين أجْمَعوا على أنَّ ذلك في وَصْفِ الـمُنافقين، قالوا: وصَفَ اللّٰه الأصنافَ الثلاثةَ من الـمُؤمنين والكافرين والمنافقين، فبدأ بالـمُؤمنين الـمُخلِصين الذين صَحَّتْ سرائِرُهم، وسَلِمَتْ ضمائِرُهم، ثُمَّ أتبعَهُمْ بالكافرين الذين من صِفتِهم الإقامةُ على الجُحود والعِناد، ثمّ وَصَفَ حالَ من يقولُ بلسانه: إنّه مؤمنٌ، وضميرُهُ يُخالفُ ذلك"[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلنَّاسِ﴾: في اشتقاقِ (النَّاسِ) ثلاثةُ أقوالٍ: الأول: أنَّها من أُنَاس، وحذفت الهمزة تخفيفًا، فقيل: (النَّاس)[3]، الثاني: أنَّها مِنَ النَّوْسِ، يقال: ناسَ يَنُوسُ نَوْسًا؛ إذا تحرَّكَ[4]، وسُمُّوا بذلك لِأَنَّ مِن شَأْنِهم الحركةَ[5]، الثالث: أنَّها من نسي، ونُقِلَت

(1) البقاعي، نظم الدرر: 1/99، والمراغي، تفسير المراغي: 1/48.
(2) الرّازي، التّفسير الكبير: 2/64.
(3) الخليل، العين: (نوس).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 527.
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 2/125.

الياءُ فأصبحت نيسًا ثم قلبت ألفًا[1]، ويُطلقُ لفظُ النَّاسِ على مَجْموعِ البَشَرِ، وعلى طائفةٍ مِنْهُم، وتأتي في مقابَلة الجنِّ.

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

ومِن النَّاسِ قومٌ ينطقون بألْسِنَتِهم ما لا تَنْطَوي عَلَيْهِ قلوبُهُمْ؛ فهم يَزْعُمُون أنَّهم مؤمنون باللّه وبيوم البَعْثِ، وهم مُبْطِلون في زعمهم، كاذِبون في قولهم؛ إذْ إنَّهم في باطنِ الأمر وحقيقته كُفَّارٌ ليسوا بمؤمنين[2].

وهذه الآية في المُنَافقين الذي يُظْهِرُون الإيمانَ ويُبْطِنُون الكفرَ[3].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فَائِدَةُ أُسْلُوبِ التَّقْسِيمِ البديعيِّ:

اسْتِيعَابُ القُرْآنِ الكَرِيمِ لِأَقْسَامِ النَّاسِ إيمانًا وكفرًا

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ مضمومٌ إلى مجموعِ الآياتِ السَّابقةِ، والآياتُ اسْتَوْعَبَتْ أقسامَ النَّاسِ جميعًا، وهذا يُعرف في علم البديعِ بِأُسْلُوب التَّقسيم[4].

ووجه ذلك: أنَّ حالَ النَّاسِ في تعاملِهم مع الوحي لا يخلو من قسمين:

أحدهما: أَنْ يَكُونُوا مؤمنين بِالحقِّ مُتَّبعينَ ومُسلِّمين لهُ، وهؤلاء هُمُ المؤمنون.

والآخر: أَنْ يكونوا غيرَ مؤمنين بالحقِّ ولا مُتَّبعينَ لَهُ، وهذا القِسْمُ لَهُ صورتان لا ثالِثَ لَهُمَا:

الأُولى: أن يُصرِّحوا بعدَمِ إيمانِهم، فيوافقُ ظاهرُهُم الفاسدُ باطنَهُم الفاسدَ، وهؤلاء هُمُ الكفَّارُ.

والأخرى: أَنْ لا يُصرِّحوا بعدَمِ إيمانِهم، بل يَتَظَاهَرُون بخلافِه، فلم يُوَافِقْ ظاهرُهُم باطنَهم الفاسدَ، وهؤلاء هُمُ المنافقون.

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 828.

(2) الواحدي، الوجيز، ص: 92، والسَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 42، والتّفسير الميسّر، ص: 3.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/268.

(4) التَّقْسِيمُ: استِيفَاءُ أقسَامِ الشيّء بالذِّكْرِ، وله معانٍ أُخْرَى.
يُنظر: الصَّعيدي، بغية الإيضاح: 4/608.

أَثَرُ السِّياقِ فِي بَيانِ معاني الحُرُوْفِ:

الحديث عن المنافقين بصيغة الإبهام (ومن الناس) يحرك الأذهان لمعرفة صفاتهم

أَفادَ حَرْفُ التَّبعيضِ في قولِه تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ معنًى بديعًا يتواءم مع واقع المنافقين ويَنْسَجِمُ مع صفاتِهم، فلمَّا كان المنافقون يُظْهِرون مَا لا يُبطنون، وَيتَوَارَوْنَ عنِ الأَنْظارِ بأعمالِهم الحقيقيَّة؛ كان الحديثُ عَنْهُمْ بأنَّهم مِنَ النَّاس بِالإِطلَاقِ دونَ تحديدِ صفةٍ معيَّنةٍ لهم؛ لِيبحَثَ المتَدَبِّرُ عنْهُم في المجتَمَعِ بينَ النَّاس، فكان وَقْعُ حرفِ التَّبعيض مُوحِيًا بأنَّ أمرَ المتحدَّث عَنْهُمْ غَامِضٌ؛ "لِأَنَّهُ لِغَرَابَتِه وَنُدْرَةِ وَصْفِهِ بِحَيْثُ لَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ وُجُودُهُ نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ أَمْرَهُ لِلسَّامِعِينَ"[1]، فكأنَّه لا وصف لهم يُميِّزُهم عنِ النَّاس سوى صورة الإنسانيَّة[2]، أي: أنَّ التَّعبيرَ بالنَّاس ههنا لِلتَّنْبيه أنَّهُ "ليس لهم مِنَ الصِّفات إلَّا الوصفُ الآدميُّ الأصليُّ؛ وَهُوَ أنَّهم ناسٌ مِنَ النَّاس"[3].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْخَبَرِ إفادةُ التَّشويقِ لا التَّخصيصِ:

من فوائد تقديم الخبر تشويق السامع لمعرفة المبتدأ

أفادَ تقديمُ الخبرِ في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾؛ تَشْوِيقَ السَّامع إلى الِاسْتِعلام عَنِ المبتدأ، فإذا ذُكِرَت قبائحُ المُتحدَّث عنهم وَقَعتْ عَلَى نفسٍ مُسْتَشْرِفَةٍ لِلْمَعْرفةِ، فيتمكَّنُ مِنْهَا غاية التَّمكُّنِ، وليس في هذا التَّقديمِ إفادةُ التَّخصيص[4].

مَعْنَى اللَّامِ فِي كَلِمَةِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ بَيْنَ الجنسِ والعَهْدِ:

تَعْرِيفُ كلمةِ (ٱلنَّاسِ) في قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ لِلْجِنْسِ، ويُرادُ بهم إمَّا جنسٌ خاصٌّ، وهُمُ المُصِرُّون على الكُفْرِ؛ إذْ إنَّ المنافقينَ مِنْهُمْ[5]، وإمَّا جنسُ النَّاس، وهو الأوفقُ بالمقامِ[6]، والأقربُ في إعمالِ التَّبعيض.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/259.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 1/302.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/121.
(4) السيوطي، نواهد الأبكار: 1/368، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/260.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/39.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/262.

ويجوزُ أن تكونَ لِلْعَهْد، والمرادُ بالنَّاس: المتقدِّمُ ذكرُهُمْ قبلُ؛ إذْ إنَّ المُنَافِقِين مِنْ جُمْلَتِهِم[1].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ:

صيغة المضارع تستحضر مقالة المنافقين قصد تبشيعها

جاء التَّعْبير بالفعل المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾، ولم يقُل: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ آمَنَّا)؛ لِاسْتِحْضَار مَقَالَتِهم حينَ قالُوها؛ كأنَّ أصحابَها يَتَلَفَّظُون بها في الحالِ؛ قصدًا لِتَبْشِيعِها عِنْدَ نَفْيِ مضمونِها وهو ادِّعاءُ الإيمانِ؛ فإنَّ إبطالَ الزَّعم وقتَ صدورِهِ أوقعُ مِن إبطالِهِ بعد قَوْلِه، فيُفيدُ المباغتةَ في الخِطابِ.

تَوْجِيه تَخْصِيصِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ بِالذِّكر:

دَفْعُ الرِّيبةِ عَنِ المنافقين، بالإتيانِ بأبرزِ أركانِ الاعتقادِ

خُصَّ الإيمانُ باللّه واليوم الآخرِ بالذِّكْرِ في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾، على لسانِ المنافقين؛ زيادةً في التَّمويه والمخادَعةِ، وإرادةَ التَّميّز عَنِ المُشْرِكِين، فكانَ ذِكْرُ الإيمانِ باللّه واليوم الآخر ممَّا يدفعُ عَنْهُمْ رِيبةَ أنَّهم ما زَالُوا على وثنيَّتِهم، ويحقِّقُ لشَيَاطِينِهم مِنَ اليهودِ مأربَهم وهو عدمُ ذِكْرِ الإيمانِ بجميعِ الملائكةِ والرُّسلِ الذين مِنْهُمْ جبريل ومحمَّدٌ ﷺ.

وهناك نِكاتٌ أُخرى تخُصُّ هذين الرُّكنين لأجلِها اختارها المنَافِقُون من بينِ سائرِ الأركانِ، وهِيَ[2]:

إحداها: أنَّ الإيمانَ باللّه تعالى والبعثِ وما يَتْبَعُه أعظمُ مقاصد العقيدة الإسلاميَّة.

الإيمان بالله واليوم الآخر هما الركنان اللّذان تتفرّع عنهما الأركان الأُخرى

ثانيها: أنَّ الإيمانَ باللّه سبحانه على ما يليق بجلاله وعظمَتِه؛ يلزمُ مِنْهُ الإيمانُ ببقيَّة الأركانِ؛ مِنَ الكُتُبِ والرُّسُل والملائكةِ والقدرِ.

ثالثها: أنَّ الإيمانَ بمصير العبادِ إلى اللّه ﷻ يلزمُ مِنْهُ الاسْتعدادُ بالأعمال الصَّالحةِ؛ فهو مفتاحٌ لكلِّ خَيْرٍ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/262.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 1/305.

رابعها: أنَّ الإيمانَ بالله ﷻ إيمانٌ بالمبدأ، والإيمانَ باليوم الآخر إيمانٌ بالمَعَادِ؛ فَهُمَا الطَّرَفانِ، وما سِوَاهما داخلٌ فيهما، على قاعدة أَنَّ الْبَيْنَ مُسْتَحْضَرٌ في الطَّرفَيْن.

فهذا كلُّه دَعْوَى منْهُمْ بِتَشَبُّثِهِم بالعقائدِ الإسلاميَّة على وجه الِاسْتِحْكَام، وهو ما يدُلُ على فِقه العقيدةِ عقلًا، وجهلِها قلبًا وسلوكًا.

سِرُّ تَكْرَارِ حَرْفِ الْجَرِّ (الْبَاءِ):

شـدَّةُ احتياطِ المُنافقين تُؤدِّي إلى طلبِ قوَّةِ التَّمويه

لِتَكْرَارِ البَاءِ في قولِه تعالَى: ﴿بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ غرضٌ بيانيٌّ هو "ادِّعاء أَنَّهُم قد حَازُوا الإيمانَ من قُطْرَيْه وأحاطوا به من طَرَفَيْه، وأنَّهم قد آمنوا بكلٍّ مِنْهُمَا على الأصالَةِ والِاسْتِحْكَام، وقد دَسُّوا تحته ما هُم عَلَيْه مِنَ العقائدِ الفاسدَة، حيث لم يكُنْ إيمانُهم بواحدٍ مِنْهُمَا إيمانًا في الحقيقة؛ إذْ كَانُوا مُشْرِكين باللَّه"[1]، وهذا الاستحكَامُ في بيانِ إيمانِهم يدلُّ على شعورِهم النَّفسيِّ في ارتيابِ المؤمنين من حالِهم، على حدِّ قولِ القائِل: كادَ المُريبُ أنْ يقولَ خذوني؛ فإنَّ شدَّةَ الاحتياطِ تُؤدِّي إلى طلبِ قوَّةِ التَّمويه.

تَغايُرُ الصِّيغةِ وأثرُه في المقابَلَةِ:

بيانُ انتفاءِ إيمَانِ المُنَافِقِينَ فِي المَاضِي وَالحَالِ بعنصر المفاجأة

جاءَ نَفْيُ الإيمانِ عَنِ المنافقين بقولِه تعالَى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ بعد قَوْلِهِم في دَعْوَاهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، ولم يَرِد نَفْيُ الإيمانِ عَنْهُمْ بِمِثْلِ طَرِيقَتِهِم في الإثبات؛ إذْ لم يأتِ التَّعْبِيرُ القرآنيُّ: (ومَا آمَنُوا)؛ ذلك أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ بعد قِيل المنافقين يُشعِرُ بالمفاجأةِ من حالِهِمُ الرَّديئة؛ لأنَّ المُتَوَقَّعَ خلافُ المَسْمُوع، ولا سيَّما أنَّ الآيةَ جاءت بعد ذِكْرِ الكافرين.

ولِأَنَّ إثباتَهم الإيمانَ بصيغة الماضي يُفيدُ تحقُّقَهُ في الزَّمن الماضي وَضْعًا، ويُفيدُ دوامَهُ التزامًا؛ إذِ الأصلُ عدمُ تغيُّرِ الاعتقادِ الدِّينِيِّ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/40.

نفي الإيمان عن المنافقين بالصيغة الاسمية يؤكّد دوام نفيه عنهم

وأمَّا النَّفْيُ فوقع بالجملةِ الاسميَّة؛ إِذْ لو وقع على مِثْلِ إثباتِهم بأن يُقَالَ: "وما آمنوا" لَأَفادَ ذلك نفيَ الإيمانِ عَنْهُمْ في الماضي، مِن دُونِ التَّعرُّضِ إلى نَفْيِهِ في الحالِ أَوِ الاستقبالِ، فجاء النَّفْيُ بالجملة الاسميَّة ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ الدَّالَة على دوامِ النَّفي قطعًا؛ ماضيًا وحالًا[1]، ويُقوِّي هذه الدّلالة دُخولُ الباءِ على خبرِ (مَا)؛ فإنَّها دالَّةٌ على تأكيد النَّفْيِ[2].

نُكتةُ حَذْفِ المَفْعُولِ وَأَثَرُهَا فِي توسيع المَعْنَى:

المُنَافِقونَ شديدو الكفر؛ فهم لَا يُؤْمِنُونَ بِأَدْنَى شَيْءٍ مُتصَّورٍ، وحذفُ المفعول دالٌّ عليه

حُذف متعلَّقُ الإيمانِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، فلَمْ يَرِدِ التقييدُ بالإيمانِ باللّٰه، أو باليوم الآخر؛ لتقدُّم ذكرِهِ مع ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: وما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ بما زَعَمُوا الإيمانَ به، إعمالًا لدلالة السِّباقِ.

وإمَّا أن يكونَ ذلك لِلْإيمَاءِ إلى العموم؛ إِذْ إِنَّ حَذْفَ المتعلَّق مُؤْذِنٌ بإفادةِ الشُّمول؛ فهم لَيْسُوا بمؤمنين بأيِّ شيءٍ مِمَّا مِن شأنِهِ الإيمانُ بِهِ[3]، وهذا يدلُّ على شديدِ كفرِهم، وبالغِ نفاقِهم، وهو ما يُترجِمُه قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/40، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/265.
(2) ابن الورَّاق، علل النحو، ص: 258.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/90.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة: 9]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآيةُ كالتَّعليل للآيةِ قبلهَا وهي قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾، فكأنَّ قائلًا قال: ولمَ يَقُولُون آمَنَّا وَهُمْ في حقيقة الأَمْرِ لَيْسُوا بمؤمنين؟ فجاء الجوابُ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾، ولذا فُصِلَت الجملةُ عمَّا قبلهَا؛ لِشِبْهِ كمال الاتِّصالِ[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾: تعددت أقوال اللغويين في بيان أصل (الخِدَاع)؛ فقيل: أصلُهُ من إِخْفَاء الشَّيْءِ، يُقَال: أَخْدَعْتُ الشَّيْءَ، أي: أَخْفَيْتُه، وخدَع منِّي فلان، إذا توَارَى فلم يَظْهَر[2]، وهو مأخوذٌ من خَدَعَ الضَّبُّ إذا اختفى، والأَخْدَعان: عِرْقَان مُسْتَبطنَان في العُنُق، ومن هذا قولُ اللّه تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: أنَّهُمْ يُظْهِرُون خلافَ ما في نفُوسهم[3].

وقيل: أصلُ الخِدَاع من الفَسَادِ، ومِنْهُ الخَادِعُ؛ وهو: الفَاسِدُ مِنَ الطَّعَام وَغَيْرِه[4]، وهُوَ عند التَّحقيق عائدٌ إلى الأصل الأوّل، فلا تعارُضَ بَيْنَ الأَصْلَيْن، وفي عبارة الأَنْبَارِيِّ ما يُومئُ إلى ذلك؛ إذْ قال: "وقولُهم: قد خَدَعَ فلانٌ فلانًا... أَظْهَرَ له أمرًا أضمرَ خلافَه مِنَ الفَسَادِ، ومَا يُشَاكِلُ الفسَادَ مِنَ الأفعالِ المَذْمُومَة"[5].

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ﴾ قراءتان:

قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو؛ بضم الياء وفتح الخاء وألف بعدها وكسر الدال: ﴿وَمَا يُخَٰدِعُونَ﴾: على أنَّ الخِداع وقع من اثنين، فهو واقعٌ منهم وإليهم؛ إذ خدَعوا أنفسهم، وأنفسهم خدَعتْهم[6].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/40، والآلوسّي، روح المعاني: 1/149، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 1/166.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خدع)، وابن القوطِيَّة، كتاب الأفعال، ص: 32.
(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/132.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خدع).
(5) الأنباريّ، الزّاهر: 2/284.
(6) ابن الجزري، النشر: 2/207، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 87.

وقرأ الباقون؛ بفتح الياء وإسكان الخاء وحذف الألف وفتح الدال: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ﴾: على أنَّ الخداع وقع من طرفٍ واحد، فهو واقعٌ منهم على أنفسهم[1].

2) ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾: الشِّعْرُ والشُّعور: العِلْمُ الدَّقيق أو الفِطنةُ، ويُطْلَق الشُّعور على الإدرَاك بالحواسِّ الْخَمْسِ[2]، وعلى مَبَادئ الإدراك[3].

وأصلُ (شَعَرْتُ): أَصَبْتُ الشَّعْرَ، ثُمَّ استُعير لِلْعِلْم الدَّقيق؛ لأنَّه في الدِّقَّة بمنزلَة إصابة الشَّعْرِ[4].

وفي قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: ما يَدْرُونَ، ومَا يَعْلَمُون[5].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

يظنُّ المنافقون بِجَهْلِهم أنَّهم يُخَادِعُون اللَّه ﷻ والمُؤْمِنِينَ؛ بإظْهَارِهم بألْسِنَتِهم مِنَ القَوْلِ والتَّصْدِيق خلافَ الذي في قُلُوبهم مِنَ الشَّكّ والتَّكْذِيب، وهُم في حقيقة الأمر لا يَخْدَعُون إلَّا أنفسَهم، ولا يَشْعُرُ هؤلاء أَنَّ خِداعَهم على أنفُسِهم؛ لفسَادِ قلُوبِهم[6].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَلَاغَة الفَصْلِ بَيْنَ الجُمَلِ:

الكَشْفُ عن عِلَّةِ قَـوْلِ المُنَـافِـقِينَ بِبَيَانِ حَقِيقَةِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ

فُصلَ قولُه تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ عَن قولِه قبلُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ لوَجْهَيْنِ مُتقَارِبَيْن:

أوَّلُهُمَا: أن تكونَ الصِّلَةُ بينهما شِبْهَ كمالِ الاتِّصال، على تقدير سؤالٍ محذوف يُفْهَمُ مِنَ الآية قبلَهَا وهي: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، فكأنَّه قيل: ومَا لَهُمْ يقولُون بأفواههم ما لا تَعْتَقِدُه قلوبُهم؟، فجاء الجَوَابُ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾، وفائدَتُه هَهُنا: التَّعليلُ.

الآخَرُ: أن تكونَ الصِّلَةُ بينهما كمالَ اتِّصالٍ على أن تُعرَب جملة: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ بدلَ اشتمالٍ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/93.
(2) الرّاغب، المفردات: (شعر)، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/318.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/52.
(4) السَّمين، عمدة الحُفّاظ: (شعر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 1/277.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 1/272-273، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/40، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 42، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 3.

من قوله تعالى: ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾[1]، وفائدته: بيان حقيقة أقوالِهم، وهذان وجهان متَّسقان مع السِّياق، منتظمان في النَّظم.

فائِدةُ الْإِيجَازِ بِحَذْفِ الْمُضَافِ:

خداعُ رسول الله هو بمنزلة خداع الله تعالى، وفي هـذا تعظيم لشأن النبيّ ﷺ

في قولِه تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ مَجَازٌ بالحَذْف أوِ إيجازٌ بالحَذْف[2]، بمعنى: يُخَادِعُون رسولَه، ففيه حذفُ مضافٍ، ونُكْتَتُه: "التَّنبيه على أمرين: أحدهما: فظاعةُ فِعْلِهم فيما تحرَّوْهُ مِنَ الخديعة، وأنّهم بمخادعتهم إيّاه يخادعون اللّه، والثَّاني: التَّنبيه على عِظَم المقصود بالخدَاع، وأنَّ معاملتَهُ كمعاملة اللّه"[3]، ففيه رفعةُ شَأْنِ النَّبيِّ ﷺ عند اللّه تعالى؛ فجُعِلَ خداعُهُ بمنزلة خداع مُرْسِله ﷻ[4]، وقرينةُ الحذف ههنا: اسْتِحَالَةُ إخفاءِ شيءٍ عَنِ اللّه تعالى؛ لكون رَبِّ العزَّة والجلالِ عالمًا بالْغَيْبِ والشَّهادةِ.

بلاغةُ الاِسْتِعَارَةِ التَّمْثِيلِيَّةِ فِي بيانِ شَنَاعَةِ جُرْمِ الْمُنَافِقِينَ:

يَحْتَمِل أن يكون قولُه تعالَى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ من باب الاستعارة التَّمثيليَّة؛ فقد شُبِّهت الهيئة المركَّبَة من إظهار الإيمان وإبطانِ الكُفْرِ بهيئةِ الرَّعيَّةِ التي تُخادِعُ سلطانَهَا، فاسْتُعِير اسْمُ المُشَبَّهِ به لِلْمُشبَّه[5]، ونُكْتَةُ الاستعارَة: بيانُ شَنَاعةِ جُرمِهِم حيثُ يُعامِلون معاملةَ الخَادِع[6].

أَثَرُ الصِّيغَةِ فِي بَيَانِ الْمَعْنَى: .

خِـدَاعُ الـلـهِ سُـبْـحَـانَـهُ لِلْمُنَافِقِينَ هُوَ عَلَى وَجْهِ الْمُقَابَلَةِ والمُجازاةِ

فِعْلُ ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ صيغةُ مُفاعَلَةٍ دالَّةٍ على المبالغة في بيان شَأْنِ المنافقين في مخادعتهم، أمَّا خداعُهُمْ: فإظهارُهم الإيمانَ وإبطانُهُم الكفرَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/274.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/44.

(3) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 5/380.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/41.

(5) محمد علي جميل، صفوة التَّفاسير: 1/32.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/41.

وأمَّا خداعُ المؤمنين لِلْمُنَافقين؛ فَهُمْ وَإِنْ كانوا يَعْلَمُون فسادَ بواطِنِ كثيرٍ مِنَ ٱلْمُنَافِقِين بما يَظْهَرُ على فَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهم وسُوءِ فِعالهم، إلَّا أنَّهم أَجْرَوْا عَلَيْهِمْ أحكامَ أهلِ الإسلام في الدُّنيا امتثالًا لأمر اللّه تعالى بذَلِكَ(1).

وأمَّا خداعُ اللّهِ تعالى لهم؛ فهو أَنْ يُظْهِرَ اللّه تعالى ما يُظَنُّ أنَّه كرامةٌ وفيه عذَابٌ أليم(2)، فاللّه سبحانه أَجْرَى عَلَى ٱلْمُنَافِقِينَ أحكامَ ٱلْإِسْلَامِ في الدُّنْيَا، وهُمْ في الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النَّار يوم القيامةِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ دون الْوَصْفِ:

خداع المنافقين لا يفرّق بين مراتب أهل الإيمان

جاء التَّعبيرُ بالْفِعْلِ في قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون الوَصْفِ - (يخادعون اللّه والمؤمنِينَ) -؛ لِمَا تُشْعِرُ به كَلِمَةُ (المُؤمنين) مِنَ الكمَالِ والشُّمولِ، وتصدق على المؤمنين الصّادقين الذين رسخ الإيمان في قلوبهم. أمّا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فالفعل يدلّ على من اتّصف بالإيمان، مهما كان إيمانه قليلًا، ونكتة إيثار الصلة والموصول الإشارة إلى أنّ المنافقين يسعون إلى خداع كلّ من اتّصف بالإيمان، حتى لو كان إيمانهم ضعيفًا، فمن باب أولى أنهم يسعون لخداع المؤمنين الراسخين في الإيمان.

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي الفعل ﴿يَخْدَعُونَ﴾:

اختلف القُرَّاء في قراءة لفظ ﴿يَخْدَعُونَ﴾ من قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾، فقرأهَا الجُمْهُورُ بِغَيْرِ أَلْفٍ ﴿يَخْدَعُونَ﴾.

وقرأَ نافعٌ وابنُ كثير وأبو عَمْرٍو بزيادَةِ ألفٍ بعد الخاءِ ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾(3)، وهُوَ مُفَاعَلَةٌ مِنَ الخِدَاعِ؛ ولذلكَ نُكْتَتَان: لفظيَّةٌ ومعنويَّةٌ.

---

(1) القِنَّوجي، فتح البيان: 91-1/90.

(2) ابن تيميّة، الفتاوى الكبرى: 6/20.

الخِدَاعُ مِنَ الصِّفات التي تُطْلَقُ على الله تعالى على وجه المقابلةِ والانتقامِ والمُجازاةِ، قال ابنُ كثيرٍ في تفسيره: 1/184: «لأنَّ المَكْرَ والخِدَاعَ والسُّخريَّة على وجه اللَّعِب والعَبَثِ مُنْتَفٍ عَنِ الله ﷻ بالإجماع، وأمَّا على وجه الانتقام والمُقَابلة بالعَدْلِ والمجازاة؛ فلَا يَمْتَنِعُ ذلك».

(3) ابن الجزري، النشر: 2/207.

التَّكامُلُ الدَّلاليُّ بـينَ الـقِـرَاءَاتِ وأَثَـرُه فِي تَقْوِيَةِ مَقْصُودِ النَّظْمِ

فأمَّا اللَّفظيَّةُ؛ فَلِأَجْلِ تحقيق الْمُزَاوجَةِ في اللَّفْظِ مَعَ قولِه قبلُ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وأمَّا المعنويَّةُ؛ فلأنَّهم "كانوا يُخَادِعُون أنفسَهم بالتَّسْويف والتَّشْكِيك، وَإذَا نَازَعَتْهُم دواعي الإيمانِ، ودَعَتْهُم خواطرُ الحقِّ؛ كانوا يُقَابِلُون ذلك بالْجَحْدِ والتَّكْذِيب وترك النَّظَر، والْخَاطِرَانِ في قَلْبٍ واحِدٍ إِذَا كانا يَتَعَارَضَان؛ جُعِلَا بِمَنْزِلَة نَفْسَيْن"[1].

ويظهرُ التَّكامُلُ الدَّلاليُّ بين القِرَاءَتَيْنِ في أنَّ قراءةَ الْفِعْلِ المُجرَّد تُفيدُ أنَّ الخِداعَ وَقَعَ على كلِّ واحدٍ منهم؛ فلمَّا أرادُوا خدعَ الآخرينَ خَدَعُوا أنفسَهم، وأمَّا قراءةُ المُفَاعَلَة؛ فَتُفيدُ أنَّ المخادعة وَقَعَتْ فيمَا بَيْنَهُمْ، أي: أنَّ بعضَهم خَدَعَ بعضَهم الآخرَ برَأْيِه السَّاذج، وفكرِه الخَبيث، فَقَدْ تعاونوا على البَاطِلِ فوَقَعُوا في مَخَالِبه جميعًا، فهذا تكاملٌ بديعٌ بين القراءَتَيْن.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الْفِعْلِ:

المـنـافـقـون لا يشعرون بشيء فـهـم منـزلـون مــنــزلــة مـن اختلّت حواسهم وتعطّلت

حُذف متعلَّقُ الفعلِ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، وفي تقديره وَجْهَان[2]:

أحدهما: أَنْ يَكُونَ المُقَدَّرُ خاصًّا، والمعنى: وما يَشْعُرُونَ أنَّ خِدَاعَهُم مُقْتَصِرٌ عَلَيْهِم، فَيَكُونُ الْمُتَعَلَّقُ حُذِفَ لظهورِه وقُرْبِ العَهْدِ به.

والآخَر: أَنْ يَكُونَ الْمُقَدَّر عامًّا، وهو الْأَوْفَقُ لِقاعِدَةِ أنَّ حذف المعمولِ مُؤْذِنٌ بالعمُوم، والمعنى: لا يَشْعُرون بشيءٍ أصلًا، فنُزِّلوا مَنْزِلَةَ مَنِ اخْتَلَّت حواسُّهُ وتعطَّلَتْ.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخِدَاعُ وَالكَيْدُ وَالمَكْرُ:

الفرقُ بَيْنَها: أنَّ الخداع إظهارُ أَمْرٍ لِغَيْرك مع إضمَار خلافه، ولا

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/138.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/41.

يلزم مِنْهُ أن يكونَ بعد نظر وتدبُّرٍ، ولذا يُقال: خدعَهُ في البيع؛ إذا غشَّهُ، ولو كان ذلك بديهَةً مِن غير فِكْرٍ سابقٍ.

بخلاف الكَيْدِ فإنَّه – في حقِّ المخلوقِ- لا يكونُ إلَّا بعد تدبُّر وفِكْرٍ ونظَرٍ.

وأمَّا المكر فهو – في حقِّ المَخْلُوق- مِثْلُ الكَيْدِ في أنه لا يكُون إلَّا بَعْدَ فِكْرٍ ونَظَرٍ، إلَّا أنَّ الكَيْدَ أقوَى مِنَ المَكْرِ.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾ [البقرة: 10]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تدَّرَجَ السِّياقُ مِنَ التَّصريحِ بوجودِ فِرقةِ النِّفاقِ؛ بذكرِ عَلَامَةٍ مِن علاماتِهم، وهي مخالَفةُ أقوالِهم لضمائِرِهم، إِلَى بَيَانِ سُلُوكٍ أخلاقيٍّ ناشِئٍ عَن عدمِ إيمانِهم وهو المخَادَعَةُ، ثُمَّ كَشَفَ في هذه الآيةِ عن عِلَّةِ أقوالِهم وأفعالِهم وهي المرضُ الـمُتَمَكِّنُ مِنْ قُلُوبِهم، فوقع التَّناسبُ محقِّقًا إشباعَ نَهْمَةِ الـمُتَشَوِّقِ لمعرفةِ سِرِّ تلكَ الأقوالِ والأعمالِ العجيبةِ؛ لِيحصُلَ الاعتبارُ والاتِّعاظ.

قال الشّيخ محمد الطّاهر بن عاشور في وجه المناسبة: "استئنافٌ مَحْضٌ لِعَدِّ مساويهم، ويجوزُ أن يكونَ بيانيًّا لجواب سؤال مُتَعَجِّبٍ ناشِئٍ عن سَماع الأحوال التي وُصِفوا بها قبلُ في قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ فإنَّ مَنْ يسمَعُ أنَّ طائفَةً تُخادِعُ الله تعالى وتُخادِعُ قومًا عديدين، وتطمعُ أنَّ خِداعَها يتمَشّى عليهم ثمّ لا تَشعُرُ بأَنَّ ضررَ الخِداعِ لاحِقٌ بها لَطائفةٌ جديرَةٌ بأنْ يَتَعَجَّبَ من أمرِها الـمُتَعَجِّبُ ويتساءلَ: كيفَ خطرَ هذا بخواطرها؛ فكان قولُهُ ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ بيانًا وهو أنَّ في قلوبهم خللًا تزايدَ إلى أنْ بلغَ حدَّ الأَفَنِ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مَّرَضٌ﴾: الـمَرَضُ: ضِدُّ الصِّحَّة، وهُوَ العلَّةُ تكون في البدنِ والعقل والقلب، ومِنْهُ قول الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [النساء: 43]، ويُطلق على الشَّكِّ والنِّفاق، ومِنْهُ قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[2]، ويُطْلَقُ على الفُجُور، ومِنْهُ قوله سبحانه: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ﴾[3] [الأحزاب: 32]، ويَرِدُ المرضُ مرادًا به الظُّلْمَة، ثُمَّ يُسْتَعَارُ هذا الأخيرُ لِسَوَادِ القَلْبِ بالـمَعْصِيَةِ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/279.

(2) الأنباريّ، الزّاهر: 1/476.

(3) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 546.

(4) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (مرض).

وأصلُ المرضِ في كلِّ هذا: الضَّعفُ[1]، فكلُّ مَا ضعُفَ فقد مَرِض، وَمِنْه قَوْلُهم: امْرَأَة مَرِيضَةُ النَّظَر، أَي: ضَعِيفَتُه، ويقال: مرَّض الرجلُ في كَلَامه؛ إِذا ضَعَّفهُ[2]، ومِنْهُ عندَ المُحَدِّثين: صيغةُ التَّمريض.

2) ﴿يَكۡذِبُونَ﴾: الكَذِبُ: ضدُّ الصِّدْقِ؛ وهو الإخبارُ عنِ الشَّيءِ بخلافِ ما هو عَلَيْهِ مطلقًا، سواءٌ أَوقَعَ ذلك الإخبارُ عن عَمْدٍ أم خطَأٍ، إلَّا أنَّ الإثْمَ في الشَّرْعِ مُعَلَّقٌ على ما وقعَ مِنْهُ عَمْدًا[3].

ويُطلقُ الكَذِبُ على مَعَارِيض الكلام؛ التي هي كَذِبٌ من حَيثُ ظَنُّ السَّامعِ، وصِدْقٌ من حَيْثُ قالَها القائلُ[4].

وفي لفظ ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ قراءتان[5]:

حيث قرأ عاصم، وحمزة، والكسائيُّ وخلف العاشر: ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ بالتَّخفيف، أي: إنهَّم كاذبون في قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ بالتَّشديد، أي: يكذِّبون النبيَّ ﷺ والقرآن مرَّةً بعد مرَّة.

والتَّكذيبُ-بزنةِ التَّفعيلِ-: النِّسبةُ إلى الكذب؛ إذ (التَّفعيلُ) يأتِي لإرادةِ النِّسبة[6] ويأتي للمبالغة والكثرة.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أَبَانَتِ الآيةُ عنِ العلَّةِ الخفيَّة للنِّفاقِ في المجتمَعِ المُسْلِم، وهو الضَّعْفُ الإيمانيُّ، والضَّعفُ أمام الشَّهوات، فتحصَّلَ من ذلك شكٌّ في قلوبهم في أمر النَّبيِّ ﷺ وما جاء به مِنْ عند اللّه تعالى، وحَيْرةٌ في ذلك؛ فلا هُم أَيْقَنُوا إيمانًا، ولا أَنْكَرُوا إِنْكَارًا، فزَادهُمُ

(1) وأصلُ المرض عِنْدَ ابن الأعرابيّ: النُّقصانُ، ومنه: بَدَنٌ مريضٌ، أي: ناقِصُ القوّة، وقلبٌ مَريض، أي: ناقصُ الدِّينِ، وهو عِنْدَ التأمُّلِ يرجعُ إلى معنى الضَّعْفِ. ينظر: الأزهريّ، تهذيبُ اللّغة: (مرض).

(2) ابن دُرَيد، جمهرة اللّغة: (مرض).

(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (كذب)، والفيوميّ، المصباح المنير: (كذب).

(4) أبو موسى المدينيّ، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: 3/27.

(5) ابن الجزري، النشر: 2/207، ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 88، ومكيّ ابن أبي طالب، الكشف: 1/228.

(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (كذب).

اللّه مرضًا مِنْ جِنْسِ مَرَضِهم السَّابق؛ فزادهم شكًّا وحَيرةً بما أنزل اللّه تعالى مِنَ الشَّرائعِ التي لَمْ تَكُنْ نَزَلَت قبلُ؛ فَانْضَافَ شكُّهُم الثَّاني إلى الأوّل، وهذه عقوبةٌ عاجلةٌ بسببِ كَذِبهم على اللّه تعالى، وكَذِبِهم على النَّاسِ بالخِدَاعِ، وبِتَكْذِيبِهم بالشَّرعِ المُنزَّل[1].

۞ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

أَوْجُهُ فَصْلِ الْجُمْلَةِ عَمَّا قَبْلَهَا:

مــرضُ قلـوب المنافقين سببٌ في خداعهم ونفاقهم

فُصِلَ قولُهُ تعالَى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ عمَّا قبله؛ ولهذا الفصْلِ ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدها: أَنْ يَكُونَ اسْتِئنافًا محضًا؛ والقصدُ هو عَدُّ مساوئِ المنافقينَ.

وثانيها: أن يكون استئنافًا بيانيًّا؛ فهو جوابٌ عن سؤالِ مُتَعَجِّبٍ نَشَأَ عن سمَاعِ أحوالِ المنافقين المذكورةِ في قوله سبحانه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ وذلك أنَّ مَن يَسْمَعُ أَنَّ قومًا يزعُمُونَ خداعَ اللّه تعالى مِن غَيْرِ شُعُورٍ مِنْهُمْ بأنَّ وَبَالَ الخِدَاعِ راجعٌ عَلَيْهِم؛ فَمِنْ أن يَتَعَجَّبَ مِنْ شَأنهم، ويَتَسَاءلَ: كيف خطَرَ هذَا بِخَاطِرِهم؟![2]

وثالثها: أَنْ تَكُونَ مُقرِّرةً لِمَا يُفيدُهُ قول اللّه سبحانه قبلُ: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ من اسْتِمْرَارِهم على عدَمِ الإيمانِ[3].

وَأَوْضَحُ هذه الأوجهِ وأبينُها أَنْ يَكُونَ الكَلَامُ محمولًا على الاسْتِئنَافِ البيانيِّ؛ فبقيَّةُ الأوجهِ داخِلَةٌ فيه بِنَوْعٍ مِنَ التَّأْوِيل، وهو يكشِفُ السَّببَ الذي لِأَجْلِه وقَعُوا فِيمَا وقعُوا فيه.

تَقْدِيمُ الجارِّ والمجرورِ لِبيانِ أصالةِ مَرَضِ النِّفاقِ:

القـلـوب هي محـلُّ التدبير والـخـداع، وتقديمها مشير إلى ذلك

قُدِّم مُتَعَلَّقُ الخبرِ في قوله ﷻ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ لِلاهْتِمام؛ إذ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/279-281، والواحديّ، الوجيز، ص: 92، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 3.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/278.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/42.

القلوبُ هي محلُّ التَّدبير لِلْخِدَاع، فلَمَّا كانت محلًّا له؛ كانَت محطَّ الاهتمام في الجوابِ[1]، ولبيانِ أنَّ مرَضَهم ليس طارِئًا، ولا متعلِّقًا بمصلَحةٍ مُؤقَّتةٍ.

تَنْكِيرُ كلمةِ ﴿مَّرَضٌ﴾ لبيانِ النَّوعِ:

نــــوعُ مــــرضِ النِّفاقِ يلزمُ عنه الفسادُ الفرديُّ والمُجتمعيُّ

نُكِّرَت كلمةُ ﴿مَّرَضٌ﴾ في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ لِبَيَانِ النَّوعيَّةِ، والمعنى: في قُلُوبِهم نَوْعٌ مِنَ الْأَمْرَاضِ غَيْر المتعارَفِ عَلَيْهِ مِنَ الأمراض؛ وهو مرضُ النِّفاقِ والشَّكِّ[2]، ويَحْتَمِل أن يَكُونَ التَّنكير لِلتَّعظيم، أي: مرضٌ عظيمٌ[3]، والأوَّلُ هو الأنسَبُ فيما يتعلَّقُ بالنِّفاقِ، إذ لم يُعرفْ بمعناه القرآنيِّ قبلَ الإسلام، والثَّاني لازِمٌ عنِ الأوَّلِ؛ فإنَّ مثلَ هذا النَّوعِ من الأمراضِ، عظيمٌ في أثرِه وفسادِه الفرديِّ والـمُجتمعيِّ.

بيان الاستعارة في لفظ ﴿مَّرَضٌ﴾:

اسْتِعَارَةُ المَرَضِ لِـبـيـانِ سُــوءِ الاعْـتِـقَـادِ وأنَّـه مُؤدٍّ إلى الهلاكِ

إذا قِيلَ: إنَّ الأصلَ في المرضِ هو الخَلَلُ في الأبدانِ؛ فَإنَّ اسْتِعْمَالَهُ هَهنا مِن بابِ الِاسْتِعَارَةِ؛ فشُبِّهَ ما في قلوبهم مِنَ الجَهْلِ وسُوء الاعتقاد وشكِّهم فيما نَزَلَ مِنَ الوحي ونحوِ ذلكَ بالمرضِ؛ بجامِعِ أنَّ كُلًّا منهما مُؤَدٍّ إلى الهلاكِ[4].

احتمالُ الْجُمْلَةِ الخَبَرِيَّةِ والإِنْشَائِيَّةِ:

مـرض المنافقين في ازدياد بسبب ظـهـور الإسـلام وعلوّ شأنه

الجملةُ الخبريَّةُ -﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾- معطوفةٌ على قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وهو مُتمِّمٌ لدفع التَّعجُّبِ النَّاشئَ عَنِ الوُقُوف على أوصاف المنافقين في قوله سبحانه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/279.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/42.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/279.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 42-1/41.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/278.

أَوِ المرادُ الإخبارُ عَنْ زيادةِ مرضهم بأنَّهُم في واقعِ الأمر كذلك؛ "بِمَا يتَجدَّد لِرَسُول اللّهِ ﷺ مِنَ النِّعَم، ويتكَرَّر له مِنْ مِنَنِ اللّهِ الدُّنيويَّة والدِّينيَّة"(1).

جواز الدُّعاء عَلَى المُنَافِقِينَ من جنسِ كُفرِهم لفظًا ومعنًى

احتمَلَ بعضُ أهلِ العلم أَنْ تَكُونَ جُمْلَةُ ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ إنشائيةً في المعنَى، يُرادُ بها الدُّعاءُ عَلَيْهِمْ بِزِيَادَةِ الشَّكِّ وتَتَابُعِ النِّفاق(2)، ولم يَرْتَضِهِ ابنُ عاشور؛ فقد قال مُسْتَدْرِكًا عَلَى هذا القول: "وهو تفسيرٌ غيرُ حسَنٍ؛ لأنَّهُ خلافُ الأصل في العطف بالْفَاءِ، ولأنَّ تَصَدِّيَ القرآنِ لِشَتْمِهم بذلك ليس مِن دَأْبِه، ولأَنَّ الدُّعاء عَلَيْهِمْ بالزيادة تُنَافي ما عُهِد مِنَ الدُّعاء لِلضَّالِّين بالهداية"(3).

وَوَجْهُ الدُّعاء عِنْدَ مَنْ يقُولُ به: أَنْ يكونَ هذا تعليمًا مِنَ اللّه تعالَى لِعبَادِهِ بجَوَازِ الدُّعاء علَى المنافقين(4)، لاسيَّما أَنَّ الدُّعاءَ عَلَيْهِم من جنسِ كُفرِهم لفظًا ومعنًى، والقولُ بأَنَّ الدُّعاءَ عَلَيْهِمْ ليس مِنْ دأب القرآن فيه نَظَرٌ، فقد وَرَدَ: ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ [التوبة: 68]، وَ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ [المنافقون: 4]، وهو في القرآنِ كثيرٌ، نعم قد يُؤخذُ على القولِ أنَّه جَعَلَ الخبرَ المعطوفَ بالفاءِ دعاءً، لكن ممَّا يُقبلُ به هذا الوجهُ أنَّه تفسيرُ معنى لا تفسيرُ إعرابٍ؛ فإن لم يوافقِ الصَّنعةَ، فهو موافقٌ للمعنَى.

إِسْنَادُ فعل الزِّيَادَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى حَقِيقِيٌّ لَا مَجَازِيٌّ:

إسنادُ زيادةِ مَرَضِ قلُوبِ المُنافِقين إلى اللّهِ سُبحانه في قولِه تعالَى: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ إسنادٌ حقيقيٌّ، يُفيدُ تَمَامَ قدرةِ اللّه سبحانه على الْعِبَادِ ظاهرًا وباطنًا ما لَا يُفيدُهُ القولُ بِالْمَجَازِ العقليِّ مع فَسَادِ إرادتِه هَهُنَا، وهو جزاءٌ مِنَ اللّه على إِعْرَاضِهم عَنِ الْوَحْيِ المُنزَّلِ.

(1) القِنَّوْجِيّ، فتح البيان: 1/92.
(2) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 1/74.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/282.
(4) إسماعيل حقِّي، روح البيان: 1/56.

سِرُّ نسبةِ زِيَادَةِ الْمَرَضِ إِلَى الْمُنَافِقِينَ دُونَ تخصيصِه بِقُلُوبِهِمْ:

الإشـــارةُ إلى التَّفسيرِ العلميِّ المعاصِرِ بتأثيرِ القلوبِ على الأبدانِ

نُسِبَتِ الزِّيادةُ إلى المُنَافقِين دون القلوبِ، فقال ﷻ: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ دون (فَزَادَهَا اللهُ مَرَضًا)؛ لأحد احتِمَالَيْن:

أحدهما: أنَّ فيه حذفَ مضافٍ، فيكون مِن إيجاز الحَذْفِ، والتَّقدير: فزادَ اللهُ قلوبَهُمْ مرضًا، وقرينَةُ الحذفِ ذكرُ القَلْبِ أوَّلَ الآيةِ ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

والآخر: أنَّ المرادَ زِيَادَةُ ذَوَاتِهِمْ مرضًا؛ "لأنَّ مرضَ الْقَلْبِ مرضٌ لسائِرِ الجَسَدِ، فَصحَّ نِسْبَةُ الزِّيادة إلى الذَّوات"[1]، والنُّكْتَةُ هَهُنَا: التَّنبيهُ على أنَّ ذواتِهم مريضةٌ، وهو ما يُؤكِّدُ أثرَ المرضِ النَّفسيِّ والقلبيِّ في الأبدانِ، وهو ما كشفتْ عنه الدّراسات العلميَّة المعاصرة.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ الْعَذَابِ لبيانِ عَظَمةِ عذابِ المُنافِقِين:

نُكِّرَ العذابُ في قوله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ أي: عذابٌ عظيمٌ في ألمه، أَوْ نوعٌ مِنَ العذَابِ ليسَ مِنَ الأنواعِ المعهودةِ لا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إلَّا اللهُ ﷻ، وثَمَّة تلازُمٌ بين دلالة التَّنكيرِ على بيانِ النَّوعيَّةِ وَدِلَالَتِه على التَّعْظِيم.

سِرُّ تَقْدِيمِ مُتَعَلَّقِ الْخَبَرِ:

تقديمُ الجارِ والمجرورِ (لهم) يفيدُ اخْتِصَاصَ المُنَافِقِينَ بِنوعٍ مِنَ العَذَابِ الأَلِيمِ

قُدِّمَ مُتَعَلَّقُ الخبرِ في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾؛ للدّلالة على التَّشويق والاِخْتِصَاص على طريقِ القصرِ الادِّعائي، وفِيهِ الإِشَارَةُ إلى كَوْنِهم أحقَّاءَ بالعَذَابِ الأَلِيم؛ نَظَرًا لِاخْتِصَاصِهِم بِجُرْمِ النِّفاقِ الذي فاقَ الكفرَ.

فهذا النَّوْعُ مِنَ العَذَابِ خاصٌّ بِهِمْ، ومَنْ دُونَهُمْ مِنْ أصحابِ المَعَاصِي ممَّن تُوُعِّدَ بالعذابِ الأليم؛ لَهُمْ عَذَابٌ دُونَ عذَابِ المُنَافِقين.

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/97.

سِرُّ وَصْفِ الْعَذَابِ بِصيغةِ فعيلٍ:

(ألـيـم) تحمل بلوغ الغاية في الإيـلام، وفيها تـهـديـد شـديـد للمنافقين

﴿أَلِيمٌ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ على وزنِ (فَعِيل)، وَتأتي هذه الصِّيغةُ (فعِيلٌ) بِمَعْنَى اسمِ الفاعل وبمعنَى اسمِ المَفْعُول، واللَّفْظُ في الآية يَحْتَمِلُ الوَجْهَيْن:

الأوَّل: (أَليمٌ) بمعنى: مُؤْلِم، أي: عذابٌ يُوجِعُ مَن يقَعُ عَلَيْه[1].

والآخَرُ: (أَليمٌ) بمعنى مُؤْلَم، ويكون مَجَازًا عقليًّا؛ لأنَّ المُؤْلَمَ هو المُعذَّبُ لا نَفسُ العذابِ[2]، والقَصْدُ مِنْهُ بُلُوغُ العذابِ الغايةَ في الْإِيلَام[3].

وكِلَا الوَجْهَيْنِ حَسَنٌ، ولا مانِعَ مِن حَمْلِ (أَليم) عَلَيْهِمَا معًا؛ حَمْلًا للاحتمالَيْن على مَعْنَيَيْهِما البَليغ، والتَّعبيرُ بالأليم جاءَ ليشملَ المحتملات، وَليكونَ أَرْسَخَ في التَّهديدِ؛ فالألَمُ هو صُلْبُ العذاب.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

الْمُغَايَرَةُ بَيْنَ أَوْصَافِ العَذَابِ تَابِعٌ لِلتَّغايُرِ بينَ عِلَلِه

وصفُ عذابِ الكافرينَ بالعَظِيم هُوَ الأنسَبُ؛ ذَلِكَ أنَّ الكافرين لمَّا كان كفرُهم واضِحًا ظاهرًا؛ ناسَبَ ذلك العذابَ الواضِحَ الظَّاهرَ وصْفُ العَظِيم، أمَّا المنافقُونَ؛ فلمَّا كان نفاقُهم كُفْرًا خفيًّا، وآثارُه مؤلِمةً لِلْمُجْتَمَعِ المُسْلِمِ لِخفَائِهَا وانطوَائِها؛ نَاسَبَ وصفَ عذابهم بالأليم؛ لأنَّ الأليمَ وَجَعٌ غيرُ ظاهرٍ كالعَظِيم، فَنَاسَبَ كلَّ مقامٍ لفظٌ يخصُّه ويتَّسِقُ مَعَ مَعْنَاهُ.

بلاغَةُ الْبَاءِ فِي جمعِها بَيْنَ معنَى السَّبَبيَّةِ والتَّهكُّمِ والمقابلة:

يحتمِل حرفُ الْبَاءِ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ أَنْ يَكُونَ للسَّبَبِيَّة، والمعنى: أنَّ لَهُم عذابًا أليمًا بِسَبَبِ كَذِبِهم[4].

(1) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/27.
(2) ابن عاشر، التَّحرير والتَّنوير: 1/282.
(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/45.
(4) الجرجانّي، درج الدُّرر في تفسير الآي والسُّور: 1/106.

ويَحْتَمِل أَنْ تكُونَ لِلْمُقَابَلَة، أي: أنَّ لَهُمْ عذابًا أليما بمُقَابَلة كَذِبهم[1]، وبَاءُ المُقَابَلَةِ تَدْخُلُ علَى الأَثْمَانِ ومَا في حُكْمِها، فيَكُونُ قَدْ نُزِّلَ كَذِبُهُم منزلةَ الثَّمَنِ على وجه التَّهَكُّم، فكأنَّهم بَذَلُوا لِلْعَذَاب الأليم ثمَنًا وهُو كَذِبُهُم[2].

فَائِدَةُ ذكرِ ﴿كَانُواْ﴾ في بيانِ اسْتِمْرَارِ الْمُنَافِقِينَ عَلَى الْكَذِبِ:

الكذب راسخ في كيان أهل النفاق

﴿كَانُواْ﴾ مِنْ قوله سبحانه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ دالَّةٌ على دوَام كَذِبِهِمْ وَاسْتِمْرَارِهم فِيهِ[3]، كالتي في نَحْوِ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 96]، وقوله جلَّ وعلَا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: 72].

دلالة الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالِاسْتِمْرَارِ:

المنافقون مستمرّون في الكذب، لا ينفكّون عنه

انضمَّ إلى دلالة ﴿كَانُواْ﴾ على الدَّوام: الإتيانُ بـ ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ بصيغَةِ الْفِعْلِ المُضَارِع؛ فأفَادَ مَجْمُوعُ ذلك أنَّهم مُسْتَمِرُّونَ ومُداومُون على الكَذِب، وَأَنَّ ذلك مُتَجَدِّدٌ فِيهِمْ؛ حتَّى صَارَ طَبْعًا لَهُمْ.

والتَّعبيرُ عن ﴿كَانُواْ﴾ بأنَّها مُقْحَمَةٌ[4]: خطأٌ في اللَّفْظِ.

سِرُّ حَذْفِ الْمَعْمُولِ فِي القراءَتَيْن:

بَيَانُ شَنَاعَةِ كَذِبِ الْمُنَافِقِينَ وَتَكْذِيبِهِمْ

حُذِفَ معمولُ ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ مِنْ قوله ﷻ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾، والتَّقْدِيرُ: علَى اللّهِ تعالَى وعلى الرُّسُلِ[5]، وَحُذِفَ اسْتِعْظَامًا؛ قَصْدًا لِتَشْنِيعِ كَذِبِهِمْ؛ إذْ لا يكادُ يُتَصَوَّرُ الكذبُ عَلَيْهِمْ.

وقُرِئَ: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾[6]، والمعمولُ مَحْذُوفٌ[7]، وتَقْدِيرُه كسَابِقِه، ومجموعُ القِرَاءَتَيْنِ دالٌّ على شَنَاعةِ كَذِبهم وتَكْذِيبِهم.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/42، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/251.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/322.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/127.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/42.

(5) الأخفش، معاني القرآن: 1/42.

(6) قرأ بها نافعٌ وأبو جعفر وابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/207.

(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/283.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ١١﴾ [البقرة: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيان علل النفاق، شرعت الآيات في بيان مرض الأقوال والأعمال

انتقلتِ الآياتُ من بيانِ العِلَلِ إلى بيانِ آثارِها، فبعد تَعيينِ سَبَبِ النِّفاقِ وهو مَرَضُ القُلُوب، شَرَعتِ الآياتُ في بيانِ مَرَضِ الأقوالِ والأعمال، وهو سلوكُ المنافقين في الإفسادِ في الأرضِ، وموقفُهم ممَّن ينهاهم عنه بوصفِهم له بأنَّه إصْلاح؛ لِكشْفِ عنادِهم ورؤيتِهم المريضةِ لمفاهيمِ الإصْلاحِ والإفسَاد، وأنَّ خَطَرَ نفاقِهم لا يتوقَّفُ على قلوبِهم المريضةِ، بل يتعدَّاهُ إلى نَشْرِ المرضِ في المجتمعِ المسلم، وهذه مناسبةٌ كاشِفَةٌ مُوضِحَةٌ عنايَةَ القرآنِ بآثارِ القُلُوبِ في الأعمالِ، وأنَّ الأعمالَ والأقوالَ ثمراتُ مَاءِ البَاطِنِ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿لَا تُفْسِدُوا۟﴾: الفَسَادُ: ضدُّ الصَّلَاحِ، وهو البُطْلَانُ والاضْمِحْلَال، ويَرِدُ بمعنى التَّغَيُّر[1]. والمعنى الجَامِعُ لَهُ أنَّهُ خُروجُ الشَّيءِ عَنِ الاعْتِدَال والاسْتِقَامة[2]، فيكون في الأرضِ بتَهْييجِ الحُروب والفِتَنِ، وانتفاءِ الاعْتِدَال والاستقامَة عَنْ أحوَالِ النَّاس وزَرْعِهم وسائِرِ منَافِعِهم[3]، ومِنْهُ قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: 205].

2) ﴿مُصْلِحُونَ﴾: الصَّلَاحُ: نَقِيضُ الفَسَادِ، وهو كونُ الشَّيءِ جاريًا على حدِّ الاعْتِدَال والاسْتِقَامة، أَوْ كَوْنُ الشَّيءِ على الحالَةِ اللَّائِقَة به[4]، والإِصْلَاحُ: إزالةُ الفسادِ[5].

(1) الزَّبيدي، تاج العروس: (فسد).
(2) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/43.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صلح).

المَعْنَى الإِجْمَاليّ:

إذا نُهِيَ هَؤلاء المُنَافِقُون عَنِ الإِفْسَادِ في الأرضِ بِالْكُفْرِ ومُوَالاةِ أهلِه، والْعَمَلِ بالمَعَاصِي، وصدِّ النَّاس عنِ الإِيمَانِ بالقُرآن وبالنَّبِيِّ ﷺ؛ أجابوا متبجِّحين زَاعمين أنَّ هذا النَّهْيَ لا يَنْبَغِي تَوْجِيهُهُ إِلَيهِمْ لِكَوْنِهِم المُنْفَرِدِينَ بوَصْفِ الصَّلاح والإصلاح(1).

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

عَطْفُ الْجُمْلَةِ عَلَى مَا قَبْلَهَا؛ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْكَمَالَيْنِ:

إخفاءُ النِّفاقِ في القلوبِ لا يُخفِي فَسادَ الأبدانِ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على قَوْلِه سبحانه قبلُ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّوسط بين الكَمَالَين، لِكَوْنِهما مُشْتَرِكَتَيْن في الخبريَّة، والمناسبةُ بَيْنَهُمَا ظاهرةٌ؛ والقصدُ هو بَيَانُ أحوالِهم التِي يُتَعَجَّبُ من شأنِها، فلمَّا بيَّنَ مرَضَهم وأنَّه سبَبُ نِفاقِهم، شَرَعَ في نهيهم عنِ الفسادِ في الأرضِ، إذْ هو أبرزُ أعمالِ النِّفاقِ في المجتمعِ المُسلم، فنِفاقُهم الخَفيُّ لا يُخفي أعمالَهم الظَّاهِرَةَ، وليكونَ توطِئةً للأمرِ بالإيمان.

التَّعْبِيرُ بِـ ﴿وَإِذَا﴾ فيه إيماءٌ إلى وجوبِ النَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ:

جاءَ التَّعبيرُ بـ (إذَا) في قوله جَلَّ وعلا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ دون (إنْ)؛ لِمَا في (إذَا) مِنَ الدّلالة على تحقُّقِ مدخولِهَا؛ وفيه إيماءٌ إلى وجوبِ إنكارِ المُنْكَرِ وأنَّه مِمَّا يجِبُ تحقّقُهُ في الواقعِ(2).

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الظَّرْفِ:

إضرارُ المُنَافِقِينَ على اعتِقَادِ الفسَادِ صلاحًا إفْرَاطٌ فِي الْغَبَاوَةِ

قُدِّمَ الظَّرْفُ في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ على قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ لكونِه مَحَطَّ الاهْتِمَام؛ إذْ إنَّ الآية مَسُوقَةٌ لبيانِ عجيب أحوالِ المنافقين، ومحلُّ التَّعْجِيبِ هَهُنا ليس ادِّعاءَهم الإصلاحَ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/202، والسَّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 42، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 3.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/53.

مطلقًا، بل ادِّعاؤُهم إيَّاه حينما يُنْهَوْنَ عَنِ الفسادِ، ومِنَ المعلوم أَنَّ شأنَ الفسادِ أَنْ يكونَ ظاهرًا لا يَخْفَى، والإصرارُ علَى اعتقادِ الفسادِ صلاحًا بعدَ التَّنْبيهِ والوعظِ: إفراطٌ في الغَبَاوَةِ أَوِ الـمُكَابَرة[1].

من أسرار بناء الفعل للمفعول:

لم يُنصّ على القائل لأنّ الغرض هو بيان شدّة مكابرة المنافقين

بُنِيَ الفعلُ لِلْمَفْعُولِ في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، والقائلُ لَهُمْ ذلكَ هُوَ بعضُ مَن وقفَ على حالِهم مِنَ الـمُؤمنين المطَّلِعين على شؤُون الـمُنَافِقين؛ لوُجُودِ صِلَةِ قرابةٍ أو صُحبةٍ، فَيَنْصَحُونَهُم رَجاءَ إيمانِهم، وَيَسْتُرُونَهُم خوفًا عَلَيهِمْ مِنَ العُقُوبة[2].

ولَم يُنصَّ عَلَيْه؛ قَصْدًا لعُمُومِ القائلِ، والنُّكْتَةُ في ذلك بيانُ شدَّة مكابرةِ الـمُنَافِقينَ؛ حَيْثُ إنَّهم لا يَقْبَلُونَ مِنَ النَّاصح نُصحًا، سواءٌ أكانَ عَظِيمَ القَدْرِ أَمْ لا[3].

دلالة النَّهْيِ في ﴿لَا تُفۡسِدُواْ﴾:

الإفساد في الأرض مُحَرَّمٌ يُنصَحُ بتركه ويرشدُ إلى اجتنابه

النَّهي في قوله تعالى: ﴿لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يُرادُ به النُّصْحُ والْإِرْشَاد[4]، ولا تُنَافي هذه الدّلالة وجوبَ تَرْكِ الفسادِ؛ إذِ المَنْصُوحُ يَجِبُ عَلَيْهِ النُّهوضُ بِامْتِثَالِ النَّهْيِ بتَرْكِهِ؛ والحرَامُ يُنْصَحُ بِتَرْكِهِ ويُرْشَدُ إلى اجْتِنَابه.

النَّهْيُ عَنِ الإِفْسَادِ نَهْيٌ عَنْ تعَاطِي جميعِ أسبَابِهِ

والنَّهي عَنِ الإفساد في الأرضِ مَجَازٌ مُرْسَلٌ، علاقتُه المُسَبَّبِيَّةُ؛ فَإِنَّ المرادَ النَّهيُ عَنِ السَّبَبِ؛ فالنَّهي مُنْصَبٌّ على موالاةِ الكُفَّارِ ومُعَاوَنَتِهِم عَلَى المسلمين؛ وذلك بإِفْشَاءِ أَسْرَارِهم وتَسْلِيطِهِم عَلَيْهِمُ المُفضي إلى هَيَجَانِ الفِتَنِ الـمُؤَدِّي إلى إفساد الأرضِ[5]، فيدخلُ في ذلك جميعُ أسبابِ الإفسادِ التي من شأنِها تهديدُ اجتماعِ الأمّة، وقطْعُ أسبابِ وحدتِها، وزرْعُ الفِتَنِ بينها.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/283.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/284.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/53.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/59.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/107.

سرُّ التنصيص على لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

ذُكِرَتِ الأَرْضُ لبيانِ أنَّ محلَّ الإصلاحِ لا يَنْبَغِي أنْ يُجْعَلَ محلَّ الإفْسَادِ

التَّنْصِيصُ علَى الأَرْضِ في قولِه: ﴿لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليسَ مِنْ بَابِ التَّوكيد باعْتِبَارِ أنْ لَيْست لَهُم قُدْرةٌ على إفساد السَّماوات، وإنَّما ذُكِرَتِ الأرضُ تَنْبيهًا "علَى أَنَّ هذا المَحَلَّ الذي فيه نَشْأَتُكم وتَصرُّفُكم، ومِنْه مَادَّةُ حَيَاتِكُمْ، وَهُوَ سُتْرَةُ أَمْوَاتِكم، جَدِيرٌ أَنْ لا يُفْسَدَ فيه؛ إذْ محَلُّ الإصلاحِ لا يَنْبَغِي أَنْ يُجْعَلَ محَلَّ الإفسَادِ"[1].

احتمالُ اللَّامِ في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ بين العهدِ والجنسِ:

مقصودُ المُنافِقين إفسادُ الأرضِ في أصولِها وفروعِها

حُذِفَ مُتَعَلَّقُ معنى اللَّامِ إمَّا أن يُحمَلَ على العهدِ الذِّهنيِّ وهو أرضُ المدينةِ المنوَّرَة على ساكِنِها أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلام، وإمَّا أنْ يُحمَلَ على الجنسِ، أي: جميعُ الأرضِ، وفائدةُ ذلك بيانُ أنَّ المفسدين لا يتورَّعون عن الإفسادِ في الأرضِ كلِّها، بل طمَعُهم يبلُغُ الأرضَ كلَّها، وفي الآيةِ إشارةٌ إلى الحذَرِ من المُنافقين، فهم يَسْعون إلى إفسادِ غيرِهم، مَهمَا نأَتْ ديارُهم، والاحتمالان صحيحان، ولا يتعارَضان؛ فإنَّ المدينةَ المُنوَّرةَ هي المقصودةُ ابتداءً؛ لأنَّها أصْلُ الإيمانِ، وأكثرُ ما يغيظُ المُنافقين صلاحُ الأصولِ، وسلامةُ الأركانِ، وجميعُ الأرضِ انتهاءً لأنَّها فروعُ الإسلامِ.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الْفَسَادِ:

النَّهي عن الإفسادِ شاملٌ كلَّ أشكالِه وأنواعِه

حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الفسادِ مِن قَوْلِه تعالى: ﴿لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ "تَأْكِيدًا لِلْعُمُومِ الْمُسْتَفَادِ من وقُوعِ الفِعْلِ في حيِّزِ النَّفْيِ"[2].

وذلكَ لِأَنَّ دلالة الفِعْلِ مُرَكَّبةٌ من مَصْدَرٍ وزَمَنٍ يُقارِنُهُ، والأصلُ في المَصدَرِ أَنْ يَكُونَ نَكِرَةً؛ فيكونُ الْمَصْدَرُ المُسْتَكِنُّ في الفِعْلِ وَاقِعًا في سِيَاقِ النَّفْيِ، فيَعُمُّ كُلَّ فساد، ثُمَّ حُذِفَ مَعْمُولُ ﴿لَا تُفۡسِدُواْ﴾؛ لإفادةِ شُمُولِ الأشياءِ القَابِلَةِ لِإيقَاعِ الفَسَادِ عَلَيْهَا، فكانَ هذا الْعُمُومُ تأكيدًا لِلْعُمُومِ الأَوَّلِ.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/107.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/285.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِأُسْلُوبِ الْقَصْرِ:

مَنهَجُ المُنافِقِينَ قائمٌ على تَعْمِيَةِ حَالِهِمْ ومَدْحِها

أفادَ قولُ اللهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ على القَصْرِ، وهو قَصْرُ مَوْصُوفٍ علَى صِفَةٍ قصرًا مجازيًّا؛ إِذْ لَيْسَ ثَمَّة قصرٌ حقيقيٌّ في قَصْرِ المَوْصُوفِ على الصِّفة؛ فكأَنَّهُمْ ادَّعَوْا أَنْ لا صفةَ لَهُمْ إلَّا الإصلاحُ!

وهذا القصرُ قصرُ قَلْبٍ؛ لأنَّهُ واردٌ ردًّا على قولِ مَنْ قَالَ لَهُمْ: ﴿لَا تُفۡسِدُواْ﴾، فأَثْبتَ لَهُمْ وَصْفُ الفسادِ، وهو مُنَافٍ لِلْإِصْلَاحِ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ بِقَصْرِ الْقَلْبِ: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾[1].

عِلَّةُ اخْتِيَارِ أَدَاةِ الْقَصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾:

المنافقون يُبالغون في ادّعاء الإصلاح تعميةً لحالهم وإخفاءً لنفاقهم

اخْتِيرَتْ أَدَاةُ الْقَصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾ دون غيرِها من طُرُقِ القَصْرِ؛ لِسببَيْنِ[2]:

أحدهما: أنَّها تَخْتصُّ بقَصْرِ القَلْبِ، فَهِيَ أَنْسَبُ لِمَقْصُودِ الكلَامِ المَسُوقِ ههنا.

والآخر: أنَّ ﴿إِنَّمَا﴾ تُستعمَلُ في خطابِ العَالِمِ بالشَّيْءِ، فكأنَّهم يُخاطِبُون من يَعلَمُ حالَهم ويُصِرُّ على الخطأِ في نهيهم عنِ الإفسادِ، فكأنَّ المُنَافِقِينَ - مُبَالَغَةً في تَعْمِيَةِ حالِهِم - يدَّعُون أنَّ النَّاصِحَ لَهُمْ بِتَرْكِ الإفسادِ مُغْرِقٌ في الخطأ؛ لِظُهورِ حالِهِم في الصَّلاحِ والإصلاحِ!

ولذا أُوثِرَ الطِّباقُ ههنا بَيْنَ ﴿تُفۡسِدُواْ﴾ و﴿مُصۡلِحُونَ﴾؛ إِذْ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَنْفُوا الْإِفْسَادَ الذي اتُّهِمُوا به عَنْ أنفُسِهم، إلَّا أنَّهم لم يَكْتَفُوا بذلك، بَلْ أَثْبَتُوا لها الإصلاحَ، فالإصلاحُ أَمْرٌ زائدٌ على تَرْكِ الإفسادِ كَمَا لَا يَخْفَى.

ويُؤَيِّدُ هذه المبالغةَ جَعْلُ جملةِ القَصْرِ -﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾- جملةً اسميَّةً؛ لإفادةِ أنَّ اتِّصَافَهم بالصَّلاحِ أمرٌ ثابتٌ دائمٌ[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/285.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/285.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/285.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾ [البقرة: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيان خداع المنافقين وسوء باطنهم، أثبت أحقيّتهم بصفة الإفساد

لَمَّا كان حالُ المُنَافِقِينَ مَبْنِيًّا على الخِدَاعِ؛ بإِظْهَارِهِمْ خِلافَ ما يُبْطِنُونَ، وكانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ إفسادَهم إصلاحٌ، مُعَرِّضين بذَلِك بالمُؤْمِنِينَ، ولَمَّا كان عِنْدَهُمْ مِنَ لَحْنِ القولِ الذي يُلَبِّسُون به على أهلِ الإِيمَانِ؛ تولَّى اللهُ سُبْحَانَهُ كَشْفَ أَمْرِهِمْ فقال مُحذِّرًا مِنْهُمْ مُثْبِتًا لَهُمْ ما تَبرَّؤوا مِنْهُ مِنَ الفَسَادِ والإِفْسَادِ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾[1].

قال الإمام أبو السّعود العمّادي في بيان أنَّ هذه الآيةَ هي ردٌّ على المنافقين الذين يدّعون الإصلاح: "فإنّه رَدٌّ من جهته تعالى لدعواهم المَحكيّة أبلغَ ردٍّ وأدلَّهُ على سَخَطٍ عظيم حيثُ سُلِكَ فيه مسلكَ الاستئناف المُؤدّي إلى زيادة تَمَكُّنِ الحُكْمِ في ذهن السّامع"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾: الفَسَادُ: ضدُّ الصَّلَاحِ، وهو البُطْلَانُ والاِضْمِحْلَال، ويَرِدُ بمعنى التَّغَيُّر[3].

والمعنى الجَامِعُ لَهُ أَنَّهُ خُروجُ الشَّيءِ عَنِ الاِعْتِدَال والاِسْتِقَامة[4]، فيكون في الأرضِ بتَهْيِيجِ الحُروب والفِتَنِ، وانتفاءِ الاِعْتِدَالِ والاستقامَةِ عَنْ أحوَالِ النَّاس وزَرْعِهِم وسائِرِ منَافِعِهِم[5]، ومِنْهُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: 205].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 111-1/110.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/44.
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (فسد).
(4) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).

2) ﴿يَشۡعُرُونَ﴾: الشِّعْرُ والشُّعور: العِلْمُ الدَّقيق أو الفِطنةُ، ويُطْلَق الشُّعور على الإدرَاك بالحواسِّ الْخَمْسِ[1]، وعلى مَبَادئ الإدراك[2].

وأصلُ (شَعَرْتُ): أَصَبْتُ الشَّعْرَ، ثُمَّ استُعِير لِلْعِلْم الدَّقِيق؛ لأنَّه في الدِّقَّة بمنزلَةِ إِصَابة الشَّعْرِ[3].

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: ما يَدْرُونَ ومَا يَعْلَمُون[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

أَلَا فَتَنَبَّهوا يا أهلَ الإيمانِ إِلَى أنَّ ما يَفْعَلُهُ المُنَافِقُونَ زَاعِمِينَ أنَّه إصلاحٌ: هو عَيْنُ الْإِفْسَادِ، ولَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ بِفَسَاد ما هُم عَلَيْه؛ لِغَلَبَةِ جَهْلِهِمْ وشِدَّة عِنَادِهِم، ولا يَشْعُرُونَ بِمَا أعدَّه الله سبحانَهُ لَهُمْ مِنَ العقُوبَةِ في الآخرةِ[5].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ الْجُمْلَةِ:

المُبَالَغَةُ في إبطالِ زَعْمِ المُنَافِقِينَ بما يُناسِبُ المَقامَ

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ مؤكَّدَةٌ بألوانٍ مِنَ المُؤَكِّدَاتِ؛ وهي: (أَلَا) الاسْتِفْتَاحِيَّةُ التَّنْبِيهِيَّةُ، و(إنَّ)، وضميرُ الفصلِ، واسميَّةُ الجملةِ، وذلك لِلْمُبَالَغَةِ في إبطالِ زَعْمِهِمْ؛ لِمَا في مقالتهم مِن دَعْوَى خلافِ الواقعِ مَعَ مُصَاحَبَتِهَا التَّلْبِيسَ.

وتَصْدِيرُ الجملةِ بِـ (أَلَا)؛ لِمَا فيهَا مِن الدّلالة على التَّنْبِيه، والتَّنبيهُ لا يُؤْتَى به إلَّا في أمرٍ غريبٍ، والغرابَةُ هَهُنَا: فُقْدَانُهُم الشعورَ[6].

وثَمَّ وجه آخَرُ؛ وهو أَنَّ أدوَاتِ التَّنْبِيهِ تُشَارِكُ أسماءَ الإشارةِ في

---

(1) الرّاغب، المفردات: (شعر)، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/318.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/52.
(3) السَّمين، عمدة الحُفّاظ: (شعر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/277.
(5) السّمين، الدُّر المصون: 141-1/140، وابن أبي زَمَنِين، تفسير القرآن العزيز: 1/123، والبغويّ، معالم التّنزيل: 1/66.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/54.

تَنْبِيهِ المُخَاطَب؛ وذَلِكَ مُشعِرٌ بكمالِ ظهُورِ مَضْمُونِ الْجُملَةِ المصدَّرة بحَرْفِ التَّنْبِيهِ، كمَا أنَّها دالَّةٌ على الاهْتِمَامِ بِالْخَبَرِ وإذاعَتِهِ[1].

بلاغةُ أُسلوبِ القصْرِ:

الـرَّدُّ عَـلَى الْمُـنَافِـقِـينَ بِـأُسْـلُـوبٍ مِـنْ جِنْسِ أُسْلُوبِ دَعْوَاهُمْ

في قولِه سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ قَصرٌ مؤكَّدٌ؛ فالقصرُ في تعريفِ جُزْأَيِ الْجُمْلَةِ - اسْمِ إنَّ (هُمْ) وخبَرِها ﴿ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ -، وتوكيدُ القصرِ: في توسُّطِ ضميرِ الفصلِ بين الجُزْأَيْنِ[2].

وجاءتِ الجملةُ بأسلوبِ القصرِ؛ لِيَتَشَاكَلَ الرَّدُّ مع الدَّعْوَى؛ فإنَّهم ادَّعَوُا الإصلاحَ واختاروا طريقَ القَصْرِ - ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ -، وفي ذلك تعريضٌ بالمؤمنينَ وأنَّ وصفَ الإصلاحِ منفيٌّ عنهُمْ، فنَاسَبَ أن يُرَدَّ عَلَيْهِمْ من جنسِ أسلوبِهِمْ؛ لِيَتَحَقَّق بطلانُ دَعْوَاهُم، وتُنْفَى التُّهْمَةُ عَنِ المؤمنينَ[3]؛ إِذِ القصرُ هَهُنَا قصرُ قَلْبٍ[4].

اللَّامُ في ﴿ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ لِلْكَمَالِ في الصِّفاتِ:

اللَّامُ في ﴿ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ لِلْكَمَال، أي: هُمُ الْكَامِلُو الإفسادِ البالغُونَ فيه الغايةَ، حتَّى إنَّ إفسادَ غَيْرِهِمْ بالنِّسبةِ إلى إِفْسَادِهِمْ كالعدَمِ[5].

سِرُّ استعمال ﴿وَلَٰكِن﴾:

أسلوب الاستدراك يناسب رفع التوهُّم الذي يُسيطر على أذهان المنافقين

وجيءَ هَهُنَا بحرفِ الاسْتِدْرَاكِ (لَكِنْ)، ولم يَرِدْ ذلك في قوله قبلُ: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ لأنَّ المخادعَةَ لم يتقدَّمْها ما يُوهم حصولَ الشُّعور حتَّى يُحتاجَ إلى رفعِه، بل إنَّ المخادعةَ في ذاتِها قائمةٌ على الخفاءِ، بخلافِ قوله هنا: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾؛ فإنَّه تقدَّمَهُ نهيُهم عَنِ الإفسادِ الظَّاهِرِ لكلِّ أحدٍ، إلَّا أنَّهم أنْكَرُوا كونَهم مُفْسِدِين، بل أثْبَتُوا لأنفسِهم عكسَهُ وهُو

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/286.
(2) القُوجَوِي، حاشية زاده: 1/284.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/44.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/331.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/111.

الإصلاحُ، فردَّ اللّه ﷻ عَلَيۡهِمۡ وأثبتَ فسادَهم وإفسادَهم، وكان العلمُ بمَضْمُون ذلك جَدِيرًا بِهِم، إلَّا أنَّهم لا يَعۡلَمُونَ! فناسبَ ذلك الاسْتِدْرَاكَ؛ لوُجُود التَّوهُّم الذي يُحتاج إلى رفعِهِ[1].

حَذْفُ المَعْمُولِ لِدلالة القَرِينَةِ عَلَيْهِ أَوْ لإِفَادَةِ العُمُومِ:

لا يَشعر المنافقون أنهم مفسدون، ولا يشعرون أنَّ وبال إفسادهم راجع إليهم

حُذف معمولُ ﴿لَّا يَشۡعُرُونَ﴾، وفي ذلك مَسْلَكَانِ[2]:

أحدهما: أن يُقدَّرَ له معمولٌ خاصٌّ، ويكون المعنى: ولكِن لا يَشْعُرُون بأنَّهم مُفْسِدُون، أَوْ لا يَشْعُرُون أنَّ وبَالَ إفسَادِهم راجعٌ إِلَيۡهِمۡ، أو لا يشعرون بأَنَّ اللّه تعالى يَعۡلَمُ إفسادَهم.

ثانيهما: أَنْ لَا يُقدَّر له مَعْمُولٌ خاصٌّ؛ رَوْمًا لإفادة العُمُوم، أي: لا يَشْعُرُونَ بِشَيۡءٍ، فنُزِّلوا مَنْزِلَةَ مَنِ اخْتَلَّت حواسُّهُ وتعطَّلَتْ.

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/331، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/286.
(2) الألوسّي، روح المعاني: 1/156.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نُهوا عن الإفساد ودعوا إلى الإيمان؛ لأنَّ دفع المفاسد مقدّم على جلب المصالح

لـمَّا بيَّنَ الله سبحانه حالَ المُنَافِقِين إذَا دُعُوا إلى الصَّلاحِ العامِّ بتَرْكِ الْإِفْسَادِ؛ بيَّنَ حَالَهُمْ إذَا دُعُوا إلى الصَّلَاحِ الخَاصِّ وهُوَ الْإِيمَانُ[1].

ولأنَّهُ لـمَّا نُهُوا عَنِ الْإِفْسَادِ في الأَرْضِ؛ أُمروا بالإيمان؛ لأنَّ كمالَ حالِ الْإِنْسَانِ لا يَكون إلَّا بمَجْمُوعِ أَمْرَيْنِ:

أحدهما: تركُ مَا لا يَنْبَغِي، وذلكَ في قولِهِ قبلُ: ﴿لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

والآخر: فِعْلُ مَا يَنْبَغِي، وذلك في قوله: ﴿ءَامِنُوا۟﴾[2].

وبُدئَ بالأوَّلِ؛ لأنَّ دفعَ المَفَاسِدِ مُقَدَّمٌ على جَلْبِ المَصَالِحِ[3].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: أصلُ هذه المادَّةِ -السِّين والفاء والهاء- دالٌّ على خِفَّة وسخافة[4]، ومنه وَصْفُ النِّساءِ والصِّبيانِ بالسَّفَه؛ لخفَّة عِلْمِهم بموضعِ النَّفَقَةِ، ما لم يَرْشُدُوا، ويُقَال لكلٍّ مِنَ الجاهِلِ والأحمق: سَفِيهٌ[5]؛ لخِفَّة العلمِ والعَقْلِ فيهما.

ومِنْهُ لفظ ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي: الجُهَّال، ضَعِيفو العقول[6].

ويَكُونُ السَّفَهُ في أمُور الدُّنْيَا، كما قال سُبْحَانَه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: 5]، وفي أمور الآخرة، كما قال ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ [الجن: 4][7].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/112.
(2) الرازيّ، التّفسير الكبير: 2/307، وابن عادل، اللُّباب: 1/359.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/54.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفه).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سفه).
(6) الهرويّ، الغَرِيبَيْن: (سفه).
(7) الرّاغب، المفردات: (سفه)، ص: 414.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وإذا أُمِرَ المُنَافِقُون بإيمانٍ كإيمانِ الصَّحابة رضي الله عنهم؛ وهُوَ المُشْتَمِلُ على القولِ والعَمَلِ والاعْتِقَادِ؛ رَدُّوا مُحْتَقِرِينَ مستهزِئِين: أَنُؤْمِنُ مثلَ ما آمَنَ ضِعافُ العقولِ وخِفَافُهَا؟! والواقعُ أنَّهمُ الحقيقُون بِهَذَا الوصفِ الذي لَمَزُوا به غيرَهُمْ، ولكنَّهم قومٌ يَجْهَلُونَ(1).

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿وَإِذَا﴾:

الإشارةُ إلى وُجُوبِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ

جيءَ بـ (إِذَا) في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ﴾؛ لِكَوْنِها دالَّةً على الجَزْمِ بِوُقُوعِ مَدْخُولِهَا، وفي ذلك إشارةٌ إلى وجُوبِ الأَمْرِ بالمَعْرُوفِ - ومِنْهُ الأَمْرُ بالإيمَانِ-، وأنَّ الواجِبَ إيجادُهُ واقعًا.

بِنَاءُ الْفِعْلِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ لِقَصْدِ الشُّمُولِ:

إذا نصحهم أيّ ناصح يرفضون الانصياع

بُنِيَ الفعلُ ﴿قِيلَ﴾ لِمَا لَم يُسمَّ فاعِلُهُ؛ لإفادة العُمُومِ(2)، قصدًا إلى تَفْظِيعِ حالِهِم وتَشْنِيعِ أَمْرِهِم؛ فإنَّ ما هُم عَلَيْهِ مِنَ التَّردُّدِ بين الحقِّ في الظَّاهر والباطل في الباطنِ: أمرٌ ظاهِرُ الفسادِ لِكُلِّ ذي عَقْلٍ، حتَّى كأنَّ الجميعَ قال لَهُم: ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: آمِنُوا عَلَى وَجْهِ الإخلاصِ، وَموافقةِ الباطنِ الظَّاهرَ.

دلالة الأَمْرِ فِي ﴿ءَامِنُواْ﴾ من تمامِ النُّصْحِ:

الواجب يُنصح بامتثاله، ويُرشَد إلى إتيانه

فِعْلُ الأمر ﴿ءَامِنُواْ﴾ مِنْ قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ﴾ من تمامِ النُّصحِ والإرشادِ(3)، ولا يُنافي هذا وجوبَ الإيمانِ؛ فإنَّ المنصوحَ بالإيمان يجبُ عَلَيْهِ أَنْ يمتثِلَ الأمرَ؛ وما كان واجبًا يُنْصَحُ بامتثالِهِ ويُرشَدُ إلى إتيانِهِ.

---

(1) مكيُّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 1/162، والماورديّ، النُّكت والعيون: 1/75-76، والسَّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/50، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 3.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/132.

(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/46.

نِكَاتُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الْإِيمَانِ:

طلبُ فعلِ الإيمانِ في السُّلوكِ الظَّاهرِ دون استثناءٍ لأيِّ فردٍ من أفرادِه

حُذفَ متعلّقُ الفعلِ ﴿ءَامِنُواْ﴾ وهو المُؤْمَنُ به؛ لأحد ثلاث نكاتٍ[1]:

أُولَاها: وضوحُ المُؤْمَنُ به؛ إذِ الإيمان لَهُ دلالة شرعيَّةٌ شائعَةٌ عند أهل الإسلام، بحيث إذا أُطْلِقَ انصرفَ إليه.

ثانيهَا: قصدُ العموم؛ إعمالًا لقاعدةِ أنَّ: حَذْفَ المعمول مُؤْذِنٌ بالعمومِ، والمعنى: آمِنُوا بجميع ما يجبُ الإيمانُ به شرعًا.

ثالثها: أنَّ قوله: ﴿ءَامِنُواْ﴾ معناه: افْعَلُوا الإيمانَ.

والجَمْعُ بين هذه النِّكَاتِ مُمْكِن عند التَّأمُّلِ؛ والنِّكات البلاغيَّةُ تَتَوَارَدُ ولَا تتَزَاحَم، فيكون المعنى: افْعَلُوا الإيمانَ، وذلكَ بالإتيان بالإيمانِ المَشْهُورَةِ دِلالتُهُ الشَّائعَةِ أفرادهُ؛ وهِيَ كُلُّ ما فَرَضَ اللّٰه تعالى على العبادِ الإيمانَ به.

نُكْتَةُ التَّشْبِيهِ في قوله تعالى: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾:

انْعِدَامُ الْإِيمَانِ عِنْدَ الْمُنَافِقِينَ؛ فطُلِبَ مِنْهُمُ الْإِيمَانُ بِأَقَلِّ الْوَاجِبِ

الكَافُ في قوله تعالى: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ يَحْتَمِلُ أن تَكُونَ لِلتَّعليل[2]، أي: لأجلِ أنَّ النَّاسَ الكُمَّلَ آمنُوا؛ فآمِنُوا أَنْتُمْ كذلك.

ويَحْتَمِلُ أَنْ تكونَ لِلتَّشْبِيه وهُوَ أظهر؛ والـمَعْنَى: آمِنُوا إيمانًا كإيمانِ النَّاسِ الكُمَّلِ، ومِنَ المَعْلُوم أنَّ المشبَّهَ أقلُّ وضوحًا منَ المُشَبَّهِ به، ولا يكون في قُوَّتِه، فيكون الإيمانُ المطلوبُ منْهُمْ في قوله: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أقلَّ منَ الذي تلبَّسَ به كُمَّلُ النَّاسِ منَ الصَّحابة[3] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

سِرُّ تَعْرِيفِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ بِاللَّامِ:

التَّعْرِيضُ بِأَهْلِ النِّفَاقِ بِتَنْزِيلِهِمْ مَنْزِلَةَ مَنْ لا يَعقِلُ

اللَّامُ في (ٱلنَّاسُ) مِنْ قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ لِلْعَهْدِ، أي: كما آمن النَّاسُ المَعْرُوفُون لَدَيْكُم؛ مِنْ أَهْلِ اليَقِينِ والْإِيمَانِ الخَالِصِ[4].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/44، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 1/59.

(2) ابن جُزَيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 1/71.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/55.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/292.

ويَحْتَمِلُ أن تَكُونَ اللَّامُ لِلْجِنْسِ، والمعنى: آمِنُوا كما آمَنَ الكُمَّلُ في الْإِنْسَانِيَّةِ - حَمْلًا لَها عَلَى الكمَالِ-، أو أنَّ المؤمنين جُعلوا كأنَّهم هُمُ النَّاسُ على الحقيقةِ - حَمْلًا لَهَا على مَعْنَى الحَصْرِ-، وَمَنْ عداهُم في حُكْمِ البهائم؛ لِكَوْنِهِمْ اشْتَرَكُوا معهَا في فُقْدَان التَّمْيِيز بين الحقِّ والباطل[1]، ومَآلُ هَذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ وَاحِدٌ، "والمُرادُ بالنَّاسِ مَن عدا المخاطَبِين، كَلِمَةٌ تَقُولها العربُ في الإغراءِ بالفعل والحثِّ عَلَيْه؛ لأنَّ شأنَ النُّفوس أن تُسرِع إلى التَّقليد والاقتداءِ بمن يسبِقُها في الأمر، فلذلكَ يأتُون بهَاتِهِ الكلمةِ في مقامِ الإغراءِ أو التَّسليةِ أو الائْتِساء"[2].

دلالة الِاسْتِفْهَامِ عَلَى الْإِنْكَارِ:

شِدَّةُ نُفُورِ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْإِيمَانِ

الِاسْتِفْهَامُ في قوله: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ بمعنى: النَّفْيِ، أي: لا نُؤْمِنُ كَمَا آمَنُوا[3].

وعدُولُهم عَنِ الخَبَرِ - (لا نُؤمِنُ كما آمَنَ السفهاء)- إلى الاِسْتِفْهَام الإنكارِيِّ: قَصَدُوا بِهِ التَّبرِّي مِنَ الإيمانِ بأبلغِ وَجْهٍ[4].

مَعْنَى اللَّامِ فِي ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ للعهدِ أوِ الجنسِ:

اللَّام في ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ من قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ التقديرِيِّ[5]، ومُرَادُهُمْ بذلك: النَّاسُ الذينَ طُولِبُوا بإيمانٍ كإيمَانِهم، وهكذَا كَمَا يُقَالُ لكَ: إنَّ زَيْدًا فَعَلَ كذا وكذَا بِكَ، فتقول: أَوَ قَد فَعَلَ السَّفيهُ؟!![6].

ويَحْتَمِلُ أن تَكُونَ لِلْجِنْسِ، والنَّاسُ المَذْكُورُونَ قبلُ مُنْدَرِجُونَ فيهِ، بِناءً على زَعْمِهِمُ الفَاسِدِ[7].

وعلى كِلَا الاحْتِمَالَين؛ فَهُمْ مُسْتَهْزِئُون بالمؤمنين!

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/64، والطِّيبي، فتوح الغيب: 2/191، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/132.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/287.
(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/162، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/132.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/287.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/336.
(6) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/64.
(7) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/47، والقِنّوجي، فتح البيان: 1/94.

تعددت المؤكدات في الجملة لإبطال تعريض المنافقين بالمؤمنين

سِرُّ التأكيد بأكثر من مؤكّد:

أُكِّدت جملةُ ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ بـ (أَلَآ) الاستفتاحيَّة؛ لِمَا فيهَا مِن معنَى التَّنبيه، والتَّنبيهُ إنَّما يكون في غرائِبِ الأمور، وَوَجْهُ الغرابَةِ هُنَا: فقدانُهُم العلمَ[1]، و(إنَّ)، وضميرِ الفَصْلِ (هُمُ)، واسميَّةِ الجملة؛ قصدًا إلى إبطال تعريضهم بالمؤمنين أبلغَ إبطالٍ.

نفيُ أصل العلم عن المنافقين، وكفى بذلك ذمًّا

حَذْفُ الْمَفْعُولِ لبيانِ سَفَهِ رَأْيِ الْمُنَافِقِينَ:

حُذف المعمولُ مِن قوله: ﴿لَّا يَعۡلَمُونَ﴾؛ وفي ذلك ثلاثةُ مَسَالِكَ[2]:

الأوّل: أن يُقدَّرَ لِلْفِعْلِ مفعولٌ مُعيَّنٌ، والمعنى: ولكن لا يعلمون "مقدارَ مَا أُوتُوا من سَفَهِ الرَّأي، وما أُوتِي غَيْرُهم مِنْ حكمةِ الإيمان"[3].

الثاني: أن لا يُقدَّر لِلْفِعْل مفعولٌ معيَّنٌ؛ والقصدُ مِن ذلك العمومُ، أي: لا يعلمونَ شيئًا.

الثالث: أَنْ لا يُقدَّر له مفعولٌ أصلًا؛ تنزيلًا لِلْفِعْلِ المتعدِّي منزلة الفعل اللَّازِمِ، والمعنى: ولكن لا علمَ لَهُمْ أَصْلًا؛ وهذا أبلغُ في ذمِّهِمْ.

الفساد محسوس يناسبه نفيُ الشعور، والسّفهُ جهل يناسبه نفيُ العلم

مُنَاسَبَةُ خَتْمِ هَذِهِ الْآيَةِ بِنَفْيِ الْعِلْمِ وَخَتْمِ الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا بِنَفْيِ الشُّعُورِ:

خُتِمَت الآيةُ التي قَبْلَ هذهِ بقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾؛ وخُتِمت هذه الآية بقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لوجهين[4]:

أحدهما: أَنَّ إدراكَ كونِ المُؤْمِنِينَ على الحقِّ والمنافقين على الباطل أمرٌ يرجِعُ إلى الفِكْرِ، لكنَّ كونَ النِّفاق يُفضي إلى الفَسَادِ والإِفْسَادِ في الأَرْضِ ضَرُورِيٌّ يَجْرِي مَجْرَى الأشياء المحسُوسَة،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/288.
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 1/60، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/133.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/133.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/64-65، والرَّازيّ، التّفسير الكبير: 2/308، والشّربينيّ، السّراج المنير: 1/25، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/133.

فأُوثِر في الأوَّل: نفيُ العلم، وفي الثَّاني: نفي الشُّعور؛ لأنَّ الشُّعور يُطْلَقُ على الإدراكِ بالحواسِّ[1].

والآخر: أنَّهُ ذُكِرَ السَّفَهُ في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾، والسَّفَهُ يُطْلَقُ على الجَهْلِ، فكان ذِكْرُ العلمِ أنسَبَ له؛ ليتحقَّقَ الطِّباقُ.

(1) وإذا حملنا الشُّعورَ على ما دقَّ مِنَ العلم؛ فإنَّ نفي العلمِ عَنْهُمْ بكونِهم سُفَهاءَ في قوله: ﴿لَاَّ يَعْلَمُونَ﴾ دونَ ﴿لَاَّ يَشْعُرُونَ﴾؛ لأنَّ وَصْفَهم بالسَّفه ظاهرٌ، ليس ممَّا يَخْفَى حتى يكون العلمُ بِهِ شعورًا، ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/288.

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ١٤﴾ [البقرة: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أحوال المنافقين في الباطن أخطر مـن صفـاتـهـم الظاهرة

انْتَقَلَتِ الآيةُ مِن بيانِ أحوالِ المنافقين في الظَّاهِرِ، إلى بيانِ أَحوالِهم في البَاطِنِ، ومن ذِكْرِ أقوالِهم التي يَسْمَعُها المؤمنون وأفعالِهم التي يَرَوْنَها، إلى ذِكْرِ المُحرِّك الحقيقيِّ لِتِلْك الأقوالِ والأفعالِ، ومِنْ ذِكْرِ الفُرُوعِ الأتبَاعِ إلى ذِكرِ الأُصولِ المتبُوعِين؛ تَنْبِيهًا وتحذيرًا لِلْمُؤْمِنين بأنَّ ما يَسْمَعُونَهُ ويَرَوْنَه ليس الخطَرَ الحقيقيَّ، وإنَّما هو ظاهرُ الشَّجرةِ الخبيثَةِ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿شَيَـٰطِينِهِمْ﴾: في الأصل الذي اشتُقَّ مِنْهُ لفظُ (الشَّيطان) قولان[1]:

أحدهما: أنَّه مِن مادَّةَ (شطن)، وعليه فَوَزْنُ (شَيطان): فَيْعَالٌ، ومدارُ هذه المادَّةِ على البُعْدِ، ومِنْهُ قَوْلُهُم: بِئْرٌ شَطُون، أي: بعيدةُ القَعْرِ، وسُمِّيَ الشَّيطانُ شيطانًا؛ لِبُعدِهِ عن الحَقِّ وتمرُّدِه.

والآخر: أنَّه مِن مادَّةِ (شيط)، فوزن (شَيْطان) على هذا: (فَعْلَان)، ومدارُ هذه المادَّةِ على ذَهَابِ الشَّيءِ بالاِحْتِرَاقِ أو بغَيْرِه، ومِنْهُ قَوْلُهُم: شاطَ الشَّيءُ؛ إذا احترَقَ، وسُمِّيَ الشَّيطانُ -على هذا- شيطانًا؛ لكَوْنِهِ مخلوقًا من النَّارِ.

والأوَّلُ أظهر[2]؛ لأنَّ العرب تقول: تَشَيْطَنَ فلانٌ -دون تَشيَّطَ-؛ إذا فَعَلَ فِعْلَ الشَّياطين، وقال أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ[3]:

أَيُّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ *** ثُمَّ يُلْقَى فِي السِّجْنِ وَالْأَكْبَالِ

(1) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (شطن)، و(شيط)، والفيوميّ، المصباح المنير: (شطن).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/115.
(3) عبد الحفيظ السَّطْلِي، ديوان أميَّة ابن أبي الصَّلت، ص: 445.

فقال: (شَاطِن)، ولم يقل: (شَائِط).

واستُعملَ (الشَّيطان) في كلِّ عاتٍ مِن الإِنْسِ والجنّ والدَّوابِّ[1]؛ لتمرُّدِها وبُعْدِها عَنِ الخير.

2) ﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾: الهاء والزَّاي والهمزة تدلُّ في تَصاريفِها على معنى السُّخريَّة[2].

ويأتِي الهُزْء بمعنى الِاسْتِخْفافِ[3]، وكأنَّ هذا تفسيرٌ باللَّازِم؛ فإِنَّ الذي يُسْتَهْزَأُ به؛ يُستهَانُ بشأنِه ويُستخفُّ به.

وعليه؛ فالاستهزاء سُخريَّة مع استخفاف قدْر المستهزَأ به[4].

وحكى ابنُ جرير أَنَّ الاستهزاءَ في كلام العرب معناه: "إظهارُ الْمُسْتَهْزِئ لِلْمُسْتَهْزَأ به مِنَ القَوْلِ والفعْلِ ما يُرضِيه ظاهرًا، وهو بذلك مِن قِيلِه وفِعْله بِه مُورِثُهُ مَساءَةً باطنًا"[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إذا لقيَ المنافقونَ المؤمنِين الخُلَّصَ؛ قالوا زاعمين: صدَّقنا وأقررنا بما تُؤْمِنون بِهِ وتَعْتَقِدُونَه، يقولون ذلك خوفًا مِنْهُم، وإذا انصرفوا عَنِ المُؤْمِنين وَانفردوا بزُعَمَائِهم ورُؤَسَائهم في الشِّرك والشَّرِّ المُشَابِهينَ لِلشَّيَاطِين في تمرُّدِهم؛ قالوا لهم: نحن على مِلَّتِكُم، ثابِتُون عَلَيْهَا لَمْ نُفَارِقْهَا، وإِنَّما قُلْنَا ما قُلناه لِلْمُؤْمِنين اسْتِهْزَاءً وسُخْرِيَّةً بِهم وتَعْمِيَةً لِحَالِنَا عِنْدَهم[6].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سِرُّ اسْتِعمالِ (إِذَا) دونَ (إِنْ):

التَّنبيه على أنَّ المُنَافِقِين يَرْكَنُون إِلَى أَهْلِ الْكُفْرِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا

عُبِّرَ بـ (إِذَا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وفي قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ للدّلالة على تحقُّق وقوع ما دخلَتْ عَلَيْه، فَلِقَاؤُهم بِالْمُؤْمِنين مُتَحَقِّقٌ، وَخَلْوَتُهُم إلى شَيَاطِينِهم كذلك؛

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (شطن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هزأ).
(3) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (هزأ): 4/249.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل، (هزأ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 1/303.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 1/296، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/46-48، والخازن، لباب التَّأويل: 1/28، والشَّوكانّي، فتح القدير: 1/52، وجماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 3.

فَيَجْمَعُونَ بينَ أهلِ الإيمان لِيَدَّعوا مُوَافقتَهم وبينَ أهلِ الكُفرِ ليُقِرُّوا بِمَا تَنْطَوي عَلَيْهِ قُلُوبُهم، ويؤكِّدُه: التَّعبيرُ عَنِ الْفِعْلَين بصِيغَةِ الماضي - ﴿لَقُواْ﴾ و﴿خَلَوْاْ﴾ - الْمُفيدةِ لتحقُّقِ وُقُوعِ الحدَثِ كذلك.

الْمُغَايَرَةُ بَيْنَ اللِّقَاءِ وَالْخُلُوِّ:

خُبْثُ مَكَامِنِ نُفُوسِ الْمُنَافِقِينَ فلا يصرِّحون باعتقاداتِهم إلَّا بالخلوَاتِ

عُبِّر في جانبِ الـمُؤْمنين باللِّقَاءِ، وذلكَ لا يَقْتَضِي مُوَافقتَهُم، بخلاف ما ذُكر في جَانِبِ زُعَمَائِهِم في الشَّرِّ فقال فِيه: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾، فَيَصْفُو لَهُم الأمرُ لِلتَّصريحِ بِمَكَامِنِ نفوسِهم الْخَبِيثَةِ.

ثُمَّ إنَّ تَقْييدَ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بـ ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مُفيدٌ لِنِفَاقِهم؛ لأنَّه دالٌّ على أنَّ دَعْوَاهُم الإيمانَ مؤقَّتٌ بِزَمَنٍ خاصٍّ، ولو كانوا مُؤْمنين حقًّا؛ ما تقيَّدَ ذلك بزمنٍ[1].

التَّعْبِيرُ بِـ ﴿لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دُونَ (لَقِيَهُمُ الذِينَ آمَنُوا):

أُنْسُ الْمُنَافِقِينَ بِلِقَاءِ الْكُفَّارِ، وَكَرَاهَتُهُمْ لِقَاءَ أَهْلِ الْإِيمَانِ

وَيَشْهَدُ لنفاقهم أيضًا أنَّ اللّٰه تعالى قال: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولَمْ يَقُلْ: (وإذا لَقِيَهُم الذين آمنوا)؛ وذلك لأنَّ الـمُتَلَاقِيَيْنِ إنْ كان لأحدهما مندوحَةٌ عَنِ اللِّقاء، فهو الـمَفْعُول، والآخر الذي اضْطُرَّ إِلَى اللِّقاء هو الفاعلُ؛ وجُعِلَ المنافقُونَ فَاعِلِينَ لِلِّقاءِ؛ لأنَّ أُنْسَهُم إنَّما هو بِنُظَرَائِهم في الكُفر، ويَكْرَهُونَ لِقَاءَ الـمُؤْمنين، وإذا وقع اللِّقَاءُ فَهُمْ مُلْجَؤونَ إِلَيْهِ[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي ﴿ءَامَنَّا﴾:

إظهارُ أهلِ النِّفاقِ بأنَّ إيمَانَهُمْ رَاسِخٌ وَلَيْسَ بِالْجَدِيدِ

التَّعبيرُ بصيغة الماضي في قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ من قوله تعالَى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بمعنى: كُنَّا مُؤْمِنِينَ؛ فلا مُتَعَلَّقَ لهُ أصلًا حتى يُحتاجَ إلى تقديرِه وذكرِ سببِ حذْفِه، فهو كالْمُتعدِّي الذي يُنَزَّلُ منزلة اللَّازِمِ، واستظهَرَ هذا الوجهَ ابنُ عاشور[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/290.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/56.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/289.

ويحتمِلُ أن يكُونَ الـمَعْمُولُ محذوفًا، والمعنى: آمنَّا بِمَا آمنتُم بِهِ، أو بكلِّ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ، فالحذفُ لِلْإيذَانِ بالْعُموم.

وفي تَعْبِيرِهِم بالفعل الماضي ﴿ءَامَنَّا﴾؛ ادِّعاءٌ مِنْهُمْ لِلْمُؤْمنين أَنَّهم مُوَافِقُونَ لَهُمْ في الاعْتِقَاد من زمَنٍ مَضَى[1].

تَضْمِينُ الْفِعْلِ ﴿خَلَوْا۟﴾ معانيَ عدَّةِ أفعالٍ:

ثـــراءُ الـنَّـظـمِ بالمعاني الكثيرةِ والألفاظِ القليلةِ

عُدِّيَ الفعلُ (خَلَا) بـ (إِلَى) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ﴾، والأصلُ فِيهِ أَنْ يُعدَّى بالْبَاءِ، فيقال: خَلَا به، وعُدِلَ عَنْ تَعْدِيةِ الفعل بالْبَاءِ إلى تعديتِهِ بـ (إلى)؛ لتَضْمِينِهِ معنى الانْصِرَافِ، والمعنى: وإذا خَلَوْا بِشَيَاطِينِهم وانْصَرَفُوا إِلَيْهِمْ[2]، وهو مُؤذِنٌ بتَرْك المؤمنينَ رغبةً عَنْهُمْ.

ويَحْتَمِلُ أن يكون الفعلُ مضمَّنًا معنى الفعلِ (آوَى)، والمعنى: وإذا خَلَوْا بِشَيَاطِينهم وآوَوْا إِلَيْهِمْ، وذلك مُشعِرٌ بمُشَاكلَتِهم لَهُمْ.

ويَحْتَمِلُ احتمالًا آخر؛ وهو تَضْمِينُ الفعلِ ﴿خَلَوْا۟﴾ معنى الانتهاءِ الذي يُومئُ إليه حَرْفُ الجرِّ (إِلَى)، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ﴾ أي: إذا خلَوْا مِنَ الـمُؤمنين وانْتَهَوْا إِلَى الشَّيَاطِين[3]، وفيه إيمَاءٌ إلى أنَّ بَواطنَهُم فاسِدَةٌ؛ لأنَّ انتهاءهم إلى شياطينهم هو لمشاكلتهم.

ولَا مانعَ مِن تَضْمِينِ الفِعْلِ جَمِيعَ ما قِيلَ مِمَّا لَهُ وجهٌ يَصِحُّ[4]؛ فيكون المعنى: وإِذَا خَلَوْا بِشَيَاطِينِهم، وانْصَرَفُوا وآوَوْا وانْتَهَوْا وآبُوا وَخَلُصُوا إِلَيْهِمْ - عَلَى نَحْوِ مَا فِي التَّنَازُعِ-.

سِرُّ استعارة لفظ (شياطين):

اسْــتِــعَـــارَةُ الـشَّـيَـاطِـينِ لِـرُؤُوسِ النِّفَاقِ مِـنْ أَبْلَـغِ الـذَّمِّ وأشدِّهِ

أَصْلُ الشَّيطانِ أنَّه نوعٌ مِنَ الخَلْقِ من جنس الجِنِّ، مخلوقٌ مِنَ النَّار، ثُمَّ تتوسَّعُ العربُ في إطلاقه على الْمُتَمَرِّد مِنَ الإنس والدَّوابِّ كذلك، وذلك على سبيل الاستعارة[5].

(1) مجمع البحوث الإسلاميَّة بالأزهر، التَّفسير الوسيط: 1/41.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/135.

(3) النَّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/69.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/291.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/290.

فقوله تعالى هنا: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ فيه استعارةٌ تصريحيَّة؛ حيث شُبِّه رؤوسُ النِّفاقِ بالشَّياطينِ بجامِعِ الإفسادِ وإثارَةِ الشَّرِّ في كلٍّ.

ومِنَ المَعْلُوم أنَّ مَبْنَى الاستعارةِ على ادِّعاءِ دخولِ المشبَّه في جنس المشبَّهِ به؛ وهذا وجهُ المبالغةِ فيها، فالتَّعبيرُ عَنِ المُنَافِقين بأنَّهم شَيَاطِينُ: مِنْ أَبْلَغِ الذَّمِّ وأشدِّه.

نُكتَةُ مُقابَلةِ الجُملةِ الاسميَّةِ للفعليَّةِ في الجَوابَيْن:

المُخالفةُ في الأجوبةِ دليلٌ على المُخالفةِ بَيْنَ الظَّاهرِ والبَاطِنِ

عُبِّر في مَقَالَةِ المُنافِقين لِلْمُؤْمنين بالجملة الفعليَّة -﴿ءَامَنَّا﴾-، وفي مقَالتهم لِشَياطينِهم بالجملة الاسميَّة - ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ -؛ لأنَّ مقصودَهم في الأوَّلِ: الإخبارُ بتحصيلِهم مطلقَ الإيمانِ لا أَعْلَاهُ، وفي الثَّاني: أخبرُوا شياطينَهم بحقيقة الأمرِ علَى جِهَةِ اللُّزُوم والثُّبوت الذي تُفيدُه الجملةُ الاسميَّةُ(1).

تَأْكِيدُ الْجُمْلَةِ بِـ(إِنَّ) لبيانِ مبالغةِ المُنافِقين في حبِّ الكافرين:

تأكيد المنافقين كلامهم لدفع الريبة عن أنفسهم

أُكِّدَت الجملةُ ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ بـ: (إنَّ)؛ لسَبَبَيْن(2):

أحدهما: لكون الكفرِ محبوبًا لهم، فبَالَغُوا في إثباتِهِ كما يُبالَغُ في مدح المَحْبُوباتِ.

والآخر: لإثبات عذرهم في إظهارِهِمُ الإسلامَ، فخشَوْا أن يتَّهِمَهُم رُؤَسَاؤُهم بأنَّهم مُسْلِمُون على الحقيقة! فدَفَعُوا ذلك بالتَّوكيد؛ تمهيدًا لإظهارِ ما أَضْمَرُوه؛ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

الْفَصْلُ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ لِشِبْهِ كَمَالِ الاتِّصَالِ:

الاستهزاءُ نَوعان، ظاهرٌ وباطنيٌّ وهو أشدُّ النَّوعين على المُسلمين

فُصلَت جملةُ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ عمَّا قبلَهَا؛ لوجود شِبْهِ كمال الاتِّصال بَيْنَهُمَا، وهو المُسَمَّى: الاِسْتِئْنَافَ البيانيَّ؛ وذلك لأنَّ قولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ يَبْعَثُ في النَّفْسِ سؤالًا يُنكِرُ فيه بقاؤُهم على الكُفْرِ:

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/56، والآلوسّي، روح المعاني: 1/159.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/56.

وذلك لِمَا أَتْقَنُوهُ مِنْ مظاهر النِّفاق في تَعَامُلِهم مع المُسْلِمِينَ، والسُّؤال هو: كيفَ أَمْكَنَكُمُ الجَمْعُ بين بَقَائِكُم على الكفرِ، وبين إظهارِ الإسلامِ عِنْدَ المؤمنين؟! فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[1]، وهذا دليلٌ أكيدٌ على أنَّ المُستهزِئَ بالدِّينِ وأهلِه يستطيعُ خداعَ المُؤمنين؛ وهو يدُلُّ على أنَّ استهزاءَهم باطنيٌّ لا ظاهرٌ، والباطنيُّ هو الاستهزاءُ الذي يأتي بالوَيْلاتِ على المُسْلِمين من حيثُ لا يشعُرون.

الْقَصْرُ بِـ ﴿إِنَّمَا﴾ لبيانِ أنَّ استهزَاءَهم لا ينبغي خفاؤه على الشَّياطين:

أسلوب القصر يفيد أن المنافقين لا وصف لهم إلا الاستهزاء

القصرُ في قوله سبحانه حكايةً عَنِ المنافقين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ فكأنَّهم يدَّعون أَنْ لا صفةَ لَهُمْ إِلَّا الاستهزاءُ.

ووقع القصرُ بـ (إنَّما)؛ لادِّعاءِ أنَّ استهزاءَهُمْ بالمؤمنين أمرٌ واضحٌ وجلِيٌّ لا ينبغي لِلْمُخاطَبِ أن يجْهَلَهُ[2]، فضلًا أنْ يسألَ عنه.

حَذْفُ الْمُتَعَلَّقِ لِوُضُوحِهِ وَلِمُناسبةِ الْفَاصِلَةِ:

حذف متعلَّقُ ﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾؛ لِنُكْتَتَيْنِ:

إحداهما: لوضوحِه، والمعنى: مُسْتَهْزِئُونَ بالمؤمنين بِإِظْهَارِنَا الإيمانَ عِنْدَهُمْ[3].

والأخرى: لِمُناسَبَةِ الفاصلةِ؛ إِذْ لو نُصَّ على المتعلَّقِ؛ لفاتَ تناسبُ الفواصلِ.

❁ الْفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الِاسْتِهْزَاءُ وَالسُّخْرِيَّةُ:

السّخرية تحمل في طيّتها تكبّرًا على المسخور به، والاستهزاء استخفاف واستصغار بالمهزوء به

الفرق بينهما من وجهين: لفظيٍّ ومعنويٍّ[4].

فأمَّا اللَّفظيُّ: فالغالبُ في فِعْلِ الِاسْتِهْزَاءِ أَنْ يتعدَّى بـ (مِنْ)،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/292.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/43.
(3) السُّيوطي، تفسير الجَلاَلَيْنْ، ص: 5.
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 50. ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/147.

والغالبُ في فعل السُّخريَّة أن يتعدَّى بالباءِ، وتعديةُ كلٍّ واحدٍ بالحرف المذكورِ مُطَّردٌ في القرآنِ الكريم لا يتخَلَّفُ، ولكنْ وَرَدَ مِنْ غير الغالبِ في كلامِ العربِ.

وأمَّا المعنويُّ؛ فَيَظْهَرُ بملاحظَةِ أَصْلِ المادَّة؛ فالسُّخريَّةُ مَلْحُوظٌ فيها مَعْنَى التَّسْخيرِ والطَّاعة، والمسخِّرُ غيرَه يَرَاه دونَهُ، فيتَّصِفُ بالْكِبْرِ والطُّغيان، فالسَّاخِرُ مُتكبِّرٌ في تعامُلِه مَعَ المَسْخُورِ مِنْهُ، كما قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: 38].

أمَّا الاِسْتِهْزَاءُ فَمَلْحُوظٌ فيه معنى الخِفَّة والحركة اللَّاهِيَةِ، وهو ما يُورِّثُ لَدَى المستهزِئ معنى الاستخفافِ والاِسْتِصْغَارِ بالمهزوءِ بِهِ، وعليه فمعنى الكِبْرِ والطُّغيان أَوْضَحُ في كلمة السُّخريَّةِ، ومعنى الاستخفافِ والاحتقارِ أَوْضَحُ في كلمةِ الاِسْتِهْزَاء، وهما يشتَرِكَان في أصل المعنَى، فإِذا اجتَمعَا افترقَا، وإذا افترقا اجْتَمَعا.

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٥﴾ [البقرة: 15]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الله ناصر المؤمنين، ومجازي المنافقين على استهزائهم

لـمَّا كان فِعلُ الـمُنَافِقِين صادرًا عَنِ احتقارِهم لِلْمُؤْمِنينَ، وكان قِيلُهم لِشياطِينِهم صادرًا عن اسْتِخْفَافِهم بالمؤمنين، جَاءَ قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ لإتمام العَدْلِ، وبيانِ الحقِّ، وانتصارًا لأهل التَّوحيد، إشعارًا بأنَّ نصرَ المؤمنين قَد تكفَّل به مَوْلاهُمُ الحقُّ، فَنَاسَبَ أن يكون الرَّدُّ على قِيل المنافقين صادرًا عن نَاصِرِهم ﷻ، وفي هذهِ الـمُنَاسَبَةِ مِنَ الجلَال والإكرام ما لَا يَخْفَى.

قال الشّيخ محمد الطّاهر بن عاشور في بيان وجه المناسبة: "لَمْ تُعْطَفْ هاتِه الجُمْلَةُ عَلى ما قَبْلَها لِأنَّها جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنافًا بَيانِيًّا جوابًا لِسُؤالٍ مُقَدَّرٍ؛ وذَلِكَ أنَّ السّامِعَ لِحِكايَةِ قَوْلِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ: آمَنّا، وقَوْلِهِمْ لِشَياطِينِهِمْ: إنّا مَعَكم إلَخْ. يَقُولُ: لَقَدْ راجَتْ حِيلَتُهم عَلى الـمُسْلِمِينَ الغافِلِينَ عَنْ كَيْدِهِمْ، وهَلْ يَتَفَطَّنُ مُتَفَطِّنٌ في الـمُسْلِمِينَ لِأحْوالِهِمْ فَيُجازِيهِمْ عَلى اسْتِهْزائِهِمْ، أوْ هَلْ يَرُدُّ لَهم ما رامُوا مِنَ الـمُسْلِمِينَ، ومَنِ الَّذِي يَتَوَلّى مُقابَلَةَ صُنْعِهِمْ؟ فَكانَ لِلِاسْتِئْنافِ بِقَوْلِهِ ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ غايَةُ الفَخامَةِ والجَزالَةِ"[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾: الـمِيمُ والدّالان: تَدُلُّ "عَلَى جَرِّ شَيْءٍ في طُولٍ، وَاتِّصَالِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ في اسْتِطَالَةٍ"[2]، والـمَدُّ: الجَذْبُ والمَطْلُ والإمهال والزيادةُ[3]، وَمِنْهُ قولُه تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ أي: يُمْهِلُهم، أو يزيدُهُم[4].

والفِعْلُ مِمَّا سَبَقَ: ثلاثيٌّ مضعَّف؛ وَهُوَ مدَّ، وتُزاد عَلَيْهِ هَمزةٌ في أوَّله فيُقال: أَمَدَّ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/293.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مد).
(3) ابن سِيده، المُحْكَمُ والمحيط الأعظم: (مدد)، والزَّبيدي، تاج العروس: (مدد).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/307، والزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/91.

والغالبُ أَنَّ المجرَّدَ في الاستعمالِ القرآنيِّ لِلشَّرِّ، والمَزِيدَ بالهمزةِ لِلْخَيْرِ[1]، فالمجرّد كما في الآية ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، والمزيد كما في الآية ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤﴾ [آل عمران: 124].

2) ﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾: الطَّاء والغَيْنُ والحَرف المُعْتَلُّ: تدلُّ على مَجَاوَزة الحدِّ في العصيانِ[2].

والطُّغْيَانُ: الاعْتداءُ في حُدُودِ الأَشْياءِ ومَقاديرِها[3]، فكلُّ شَيْءٍ زادَ وتَمَادى؛ فقد طغَى[4].

ويَرِدُ الطُّغْيانُ في القرآنِ الكَريم على معانٍ أربعةٍ، وهي: الضَّلالُ، والعِصْيَانُ، والارْتِفَاعُ والكَثْرَةُ، والظُّلْمُ، ولِكُلِّ واحدٍ من هذه المعاني شواهدُ[5].

3) ﴿يَعْمَهُونَ﴾: العَيْنُ والمِيمُ والهَاءُ تَدُلُّ تَصاريفُها على حَيرةٍ وقلَّة اهتداءٍ[6]، يقال: عَمِهَ يَعْمَهُ عَمَهًا وعُمُوهًا؛ إذا تردَّدَ متحيِّرًا[7]، ويقال: عَمِهَ فلانٌ في أمره؛ إذَا تحيَّر فيه، وعَمِهَ الرَّجُلُ؛ إذا جارَ عَنِ الحقِّ[8].

ولَمْ يَرِدْ في القُرآن سِوَى الفعلِ المُضَارِعِ من هذه المادَّة (يَعْمَهُونَ)، وذلكَ في سَبْعَةِ مواضِعَ، و"العمَهُ فيها: ضلالٌ وطُغيانٌ، وغَفْلَةُ سُكرٍ وعَمَى بصيرةٍ، كأنَّه قريبٌ مِنَ العَمَى"[9].

ومعنى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾: يتخبَّطون ويترددون مُتَحيِّرين.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مِن استهزاء الله بالمنافقين إمهالهم وتزيين الباطل في أعينهم

اللّٰه يَسْتَهْزِئُ بالمنافقين في الدُّنْيَا والآخرةِ في مقابلة اسْتِهْزَائِهم بعبادِه المُؤْمنين؛ أمَّا في الدُّنيا فيُزَيِّنُ لَهُم ما هم فِيهِ مِنَ الباطلِ فيظنُّون أنَّفسهم معَ أهل الإيمان، وأمَّا في الآخرةِ فَيُعْطِيهِمُ اللّٰه نُورًا مع المؤمنين ثُمَّ يَنْطَفِئُ نُورُهم ويَبْقَوْنَ في ظُلمةٍ بَعْدَ نُورٍ، ومِن

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 9/557.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغى).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (طغى).
(4) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: 4/1172.
(5) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 415-414.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمه).
(7) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (عمه).
(8) الأنباريّ، الزّاهر: 2/37.
(9) بنت الشاطئ، الإعجاز البيانّي، ص: 581-580.

اسْتِهْزَاءِ اللّه تعالى بِهِمْ: أنَّهُ يُمْهِلُهُم في فجُورِهِم وكُفْرِهم وضَلَالِهم ويَزِيدُهُم فيه؛ ليظَلُّوا حَائرِينَ مُتَرَدِّدين(1).

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

الاسْتِئْنَافُ الْبَيَانِيُّ لِبَيَانِ انْتِقَامِ اللهِ تَعَالَى مِنْ المُنافِقِين:

اسْـتِـهْـزَاءُ اللهِ بالمُنَافِقِينَ أبلغُ مِن اسْتِهْزَائِهِم بالمُؤْمِنِين

فُصلَ قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ عمَّا قبلُ؛ لأنَّه اسْتِئْنَافٌ بيانيٌّ؛ فقولُ اللّهِ سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يَبْعَثُ في النَّفس سُؤالًا؛ وهو: قَدِ اسْتَهْزَأَ هَؤُلَاءِ المُنَافِقون بالمُؤْمِنين، فَهَلِ انْتَقَمَ اللّه مِنْهُم، وبِمَ؟ فجاءَ الجَوَابُ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾.

وجاءَ هذا الاسْتِئْنَافُ في غايةِ الْفَخَامَة؛ حيثُ أَوْمأَ إلى أنَّ استهزاءَ اللّه بالمنافقين أبلغُ مِن اسْتِهْزَائِهِم بالمُؤْمِنين، بَلْ لا نِسْبَةَ بَيْنَهُما(2).

التَّعْبِيرُ بالْفِعْلِ ﴿يَسْتَهْزِئُ﴾ دُونَ الاسم (مُسْتَهْزِئٌ):

شِـدَّةُ الـعَـذَابِ المُتَجَدِّدِ علَى أَهْلِ الـنِّـفاقِ بتجدُّدِ الاستهزاءِ بِهِم

جاء التَّعْبِيرُ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ بالفعلِ المُضَارِع، ولَمْ يَرِدْ بالاِسْم (مُسْتَهْزِئٌ بِهِمْ) لِيُطَابِقَ قولَهم: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ وذلكَ لإِفَادَةِ تَجَدُّدِ استهزاءِ اللّه بِهِمْ حَالًا بعد حالٍ(3)، فالتَّجدُّدُ الذي أفادَهُ الفعلُ هَهُنَا هو التَّجَدُّدُ الاِسْتِمْرَارِيّ.

وهذا لا يُفيدُهُ لو وَقَعَ التَّعبير بالاِسْم (مُسْتَهْزِئٌ بِهِمْ)؛ لأنَّه يدلُّ على دوامِ الاِسْتِهْزاءِ، ولو دامَ عَلَيْهِمْ لَرُبَّما توطَّنت نُفُوسُهم عَلَيْهِ فَتَأْلَفُهُ وتَتَدَرَّبُ عَلَيْه، بخلاف التَّجَدُّدِ الاِسْتمراريّ؛ فإنَّه يَرْتَفِعُ في

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/301-307، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/46-48، والثَّعالبي، الجواهر الحسان: 1/190-191، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/253-254، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 43، وجماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 3.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/67.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/67، والسُّيوطيّ، نواهد الأبكار: 1/409، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/294.

بعض الأوقاتِ، وإذا ارتفعَ عَنْهُمْ؛ رَجَوْا انْقِطَاعَهُ بالكلِّيَّةِ، فإذا عاد إِلَيْهِمْ مرَّةً أخرى؛ كان ذلك أوقعَ على قُلُوبِهم وأشدَّ[1].

تَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ لِقَصْدِ التَّأْكِيدِ وَالْقَصْرِ:

تقـديـم لـفظ الـجـلالـة يـشير إلى أنَّ الله هو الــذي يـتـولّى الانـتـقـام مـن المنافقين

أُورِدَ المسندُ إِلَيْهِ عَلَمًا في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾؛ لِاسْتِحْضَارِهِ في ذهن السَّامع ابتداءً باسم يختصُّ به؛ تنبيهًا إلى أنَّ اللّه تعالى هو الذي يتولَّى الاسْتِهزاءَ بِهِمْ انتقامًا لعبادِهِ المؤمنِينَ، وأنَّه لا يُحْوِجُ المؤمنينَ لِمُعَارَضة المنافقين باسْتِهْزاءٍ مِثْلِه[2].

وقُدِّمَ الاسمُ الأحسَنُ ﴿ٱللَّهُ﴾ على الخبرِ الفعلِيِّ لفَائِدَتَيْنِ[3]:

إحداهما: تَقْوِيَةُ الحكم؛ لِمَا فيه مِن تَكْرَارِ إسنادِ الفعلِ إِلَى فَاعِلِه، وَوَجْهُهُ: أنَّ الاسمَ الْأَحْسَنَ ﴿ٱللَّهُ﴾ مُسند إِلَيْه، و﴿يَسْتَهْزِئُ﴾ مسندٌ، وهذا الإسنادُ الأوَّلُ، والإسنادُ الثَّاني في إسناد الفعل ﴿يَسْتَهْزِئُ﴾ إلى الضَّميرِ الْمُسْتَتِرِ (هُوَ) الرَّاجِعِ إلى اللّه تعالى.

والأخرى: أنَّ فيه إفادةَ قصرِ المسند على الـمُسْنَدِ إِلَيْهِ؛ أي: قَصْرِ الاستهزاءِ على اللّه تعالى؛ بمعنى أنَّ اللّه ﷻ هو مَنْ يتولّاه انتقامًا مِنَ المنافقين، دون أن يُحْوِجَ المؤمنين إلى ذَلِك.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْمُسَبَّبِ عَنِ السَّبَبِ:

امـتـدادُ حَـيـاةِ الْمُـنَـافِـقِـيـنَ بـالـطُّـغْـيَـانِ والعَمَهِ

علَى القَوْلِ بأنَّ الـمَدَّ بمعنى الزِّيادةِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾؛ فيَحْتَمِلُ أَن يكُونَ المعنى: يَزِيدُ مُدَّةَ حياتِهم[4]، فتكونُ الآيةُ مِنْ بابِ الْمَجَازِ الـمُرْسَلِ، علاقتُه الـمُسَبَّبِيَّةُ؛ فالزِّيادةُ في حياتِهِمْ، سببٌ لزيادتِهم في الطُّغيانِ.

ونُكتةُ المجازِ ههنا: المبالغةُ في وصف طُغْيَانِهم، حتَّى كأَنْ ليس

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/207، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/57.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/67.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/293.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/138.

لَهُمْ عملٌ في الحياةِ إِلَّا الطُّغيانُ، بحيثُ إِذَا ازْدَادَتْ حياتُهُم؛ ازدادَ طُغيانُهُمْ ضَرورةً.

الـمُـنَـافِـقُـون أَعْـظَـمُ طُغْيَانًا من المُشركين؛ فَنَاسَبَ أَنْ تَكُونَ عُقُوبَتُهُمْ أَشَدَّ

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ (يَمُدُّهُمْ) وَ(يَذَرُهُمْ):

قال اللّه تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وقالَ في سُورةِ الأعراف: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: 186]؛ والاختِلافُ تَابِعٌ لِمُنَاسَبَةِ كلٍّ لِسياقِهِ الوارِدِ فيهِ.

فآيةُ البقرةِ سَبَقها بيانُ شدَّةِ إعراضِ الـمُنَافِقِين عَنِ الإيمان، ولـمَّا جرت سُنَّةُ اللّهِ تعالَى فيمَن ضلَّ إعراضًا ورغبةً عَنِ الإيمانِ بَعْدَ عِلْمه بحقيقته أَنْ يزيدَهُ ضلالًا؛ ناسَبَ ذَلِكَ أَنْ يَذْكُرَ الْمَدَّ -ومِنْ معانيهِ: الزِّيادةُ- في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وأمَّا آيةُ الأعرافِ؛ فهيَ في سِياقِ ذِكْرِ الـمُشْرِكينَ الذين اسْتَدْرَجَهُمُ اللّهُ سبحانَهُ وأَمْلَى لَهُمْ -﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: 182-183] - حَتَّى بلَغُوا بانْحِرَافِهم أقصى درجاتِ الطُّغْيَانِ، فناسبَ ذلكَ تركَهم على الحالِ التِي هُمْ عَلَيْهَا، فَقَالَ: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٨٦﴾ [الأعراف: 186][1].

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُقال: إنَّ الكلامَ في آية البقرةِ عَنِ الـمُنَافِقِين، وفي آيةِ الْأَعْرَافِ عَنِ الـمُشْرِكِينَ، ولـمَّا كان المنافقون أعظمَ طُغيانًا - ولِذَا جعلهم اللّه تعالى في الدَّرْكِ الأسفل مِنَ النَّار - ؛ ناسبَ أَنْ تَكُون عقوبَتُهُمْ أشدَّ، وزِيَادةُ طغيانِهِمْ أشدَّ مِنْ تَرْكِهم عَلَى ما هُمْ عَلَيْه؛ لِتَزْدَادَ عقوبَتُهم في الآخرة.

إِضَافَةُ الطُّغيانِ إلى المُنافِقين لبيانِ فظاعتِه:

أُضيف الطُّغيانُ إلى الضَّمير العائدِ على الـمُنَافِقِين في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ لِلْإيماءِ إلى تَشْنِيع طُغْيَانِهِم وتَفْظِيعِه، وأنَّه طغيانٌ غريبٌ اختُصَّ به المنافقون حتَّى صار لا يُعْرَفُ إلَّا بإضافتِهِ إِلَيْهِمْ[2].

(1) سعيد علي، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 61.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/297.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَمَهُ وَالعَمَى:

قِيلَ: إنَّ العمَى في البَصَرِ، والعمَهَ في الرَّأي[1]، فَهُمَا على هذا مُتَبايِنَانِ.

والأظهر: أنَّ العمَهَ أخصُّ مِن العمَى؛ فالعَمَهُ خاصٌّ بالرَّأي، بمعنى التَّحَيُّر والتَّرَدُّدِ، وأمَّا العمَى فَيكُون في البَصَرِ ويكون في الرَّأيِ[2].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغُّة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عمه).
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/69. محمَّد مُحمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 352.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٦﴾ [البقرة: 16]

ذكرت الآيات السابقة بعض أوصاف المنافقين، وجاء في هذه ذكر خسرانهم المبين

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لـمَّا ذكر الله تعالى جملةً مِن أوصاف المنافقين الفَظِيعةِ، وطالَ الكَلَامُ عَنْهُمْ؛ ذكَر خلاصةَ حالِهم وحاصِلَ أمرِهِمْ بقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾، فكان هذا كالفَذْلَكَةِ لِما سبَقَ.

ولـمَّا كانتِ الإشارةُ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةَ أوصافٍ قَدْ تقَدَّمَ ذِكرُهَا، وَهُمْ قَدِ اتَّصفوا بها فِعْلًا؛ كانت تلكَ أسبابًا وعِلَلًا لِلْحُكْم عَلَيْهِمْ، فجاء التَّنْصيص عَلَيْهِ في هذهِ الآية[1].

وكذلك يُمكن القول: لـمّا سبق الحديثُ عن إصابتهم بالعمَه، أي: إصابة قلوبهم بالعمى والاختلاط بحيثُ كانوا لا يُبصرون الحقَّ، ولا يُدرِكون حقائقَ الإيمان ونصاعةَ شرائع الإسلام، ناسبَ وصفُهم وتمييزُهم بأنّهم هم الذين اشتروا الضّلالة بالهُدى، وآثروا الغيَّ على الرّشد، وأخفقوا في أعظم تجارة مُنِحَت لهم، وباؤوا بالخسران الـمُؤبّد السّرمديّ.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱشْتَرَوُاْ﴾: الشِّينُ والرَّاء والحَرْفُ المُعْتَلُّ؛ من معانيهِ الْكُلِّيَّةِ: التَّعارُض مِنِ اثْنَيْنِ في أَمْرَيْنِ أَخْذًا وإعطاءً مُمَاثَلةً[2].

ومِنْهُ: شَرَى الشَّيءَ واشتراهُ؛ إذا أخذه مِن مالِكِه بالثَّمَنِ، وهذا الفعلُ مِنَ الأَضْدَاد؛ يُطلق عَلَى الشِّراء والبيع[3]، فالاشْتِرَاء: أخذُ الشَّيء بثمنٍ، أو إعطاؤُهُ بثمنٍ[4]، ومِن الثَّاني قولُ الله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: 20] أي: باعوه[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/117، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/139.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرى).
(3) الأنباريّ، الأضداد، ص: 72.
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (شري).
(5) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 7/2115.

2) ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾: الضَّاد واللَّامان: تَدلُّ تصاريفُهَا على ضَياعِ الشَّيْءِ وذهابه في غير حقِّه[1]، ومنه قوله تعالى حِكَايَةً عَنِ الكُفَّار أَنَّهُم قالوا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ [السجدة: 10]، أي: اخْتَفَيْنَا في الأرضِ بالدَّفْنِ وصِرْنَا ترابًا وعظامًا؛ فلَمْ يَتَبيَّن شيءٌ من خَلْقنَا[2].

ومِنْهُ يُقال لِمَنْ جَارَ عَنِ القَصْدِ: ضالٌّ[3]؛ لضياعِ سَعْيِه، ويرى بعضُ أئمَّة العربيَّةِ أنَّ أصلَ الضَّلالِ: الغَيْبُوبَةُ[4].

وَالضَّلَال: ضدُّ الهُدَى، يُقال: ضَلَّ فِي الْأَرْضِ إذَا لَم يَهْتَدِ لِلسَّبِيلِ[5]، والضَّلالَةُ تأنيثُ الضَّلالِ[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أولئك الـمُنَافقون الـمَوْصُوفُون بالصِّفات المتقدِّم ذكرُها قَدِ اسْتَبْدَلُوا الضَّلالة بِالْهُدَى، راغِبِين في الضَّلالة كرَغْبَة المشتري في السِّلْعة؛ الذي تصِلُ به رغبتُهُ فِيهَا إلى أَنْ يَبْذُلَ أَنْفَسَ الأثمانِ، فَهُؤَلاء مِن رَغْبَتِهِم في الضَّلالةِ بذَلُوا في سَبِيلِ تحصيلِها الهُدَى رَغْبةً عَنْهُ، فهذه هي تِجارَتُهُمُ الخاسرَةُ؛ إِذْ خَسِرُوا الهدايَةَ التي بِهَا سعادتُهم في الدُّنيا ونجاتُهُمْ في الآخرةِ، وهذه أعظَمُ خَسَارةٍ[7].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة اسْمِ الْإِشَارَةِ عَلَى تَمْيِيزِ الْمُشَارِ إِلَيْهِمْ أَكْمَلَ تَمْيِيزٍ:

جاء التَّعْبِير باسم الإشارةِ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ لما تقدَّم من ذِكْرِ صفاتِهِمْ وأحوالهم الفظيعةِ، بحيث تَمَيَّزوا عمَّن عداهم أكمَلَ تمييزٍ، فصاروا كأنَّهم مُشَاهَدُون تَتَأتَّى الإشارةُ إِلَيْهِمْ كَالْإِشَارة إلى الـمُشَاهدَاتِ الـمُشَخَّصات[8].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ض ل).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).

(4) الخطابيّ، غريب الحديث: 1/484.

(5) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة: (ضلل).

(6) فاضل السَّامرائّي، معاني النَّحو: 65-2/64.

(7) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 98-1/97، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 49-1/48، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 43، وجماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 3.

(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/48.

ووقعَ اسمُ الإشارةِ هَهُنا لِلْبَعيد؛ لِلْإيمَاء إلى بُعْدِ مكانتِهِمْ سُوءًا وشَرًّا[1].

تَعْرِيفُ جُزْأَيِ الْجُمْلَةِ لِإِفَادَةِ الْقَصْرِ:

بُلُوغُ الْمُنَافِقِينَ الْغَايَةَ فِي الْحِرصِ على الضَّلَالَةِ

تَعْريفُ الموصولِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ بلامِ الجِنْسِ أفادَ قصرَ المسند على المسند إِلَيْه، وهو من قصر الصِّفة على الموصوفِ ادِّعاءً؛ بالنَّظَر إلى بلُوغِهم الغايةَ في اشْتِراءِ الضَّلالة والرَّغبةِ فيها[2]، حتَّى كأنَّ مَنْ سِواهُم ممَّن يُشاركُهم في أصلِ هذا الوصفِ لا يبلُغ عِنْدَهُمُ الْوَصْفُ مبلغَ المنافقينَ، فهو بالنِّسبة إلى وصفِ المُنَافِقين لا يَكادُ يُذْكَرُ.

التَّعْبِيرُ بِالْمَاضِي للدّلالة على صدُورِ الفعلِ دونَ رجعةٍ عنْه:

قرّروا واشتروا الضلالة وأصرّوا، ولا سبيل إلى رجوعهم إلى الحقّ

جاء التَّعْبيرُ بالفعل الماضي ﴿ٱشْتَرَوُاْ﴾؛ لِلْإشارةِ إلى فَرَاغِهِمْ من شراء الضَّلالةِ؛ بِحَيْثُ لا سبيلَ لَهُمْ إلى الرُّجوعِ عن هذه الصَّفْقَةِ الخَاسِرَةِ، تأكيدًا لِلْأَوصافِ السَّابقةِ التي وُصِفُوا بِهَا؛ كقوله تعالَى عَنْهُمْ: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

التَّعْبِيرُ بالِاشْتِرَاءِ؛ لبَيَانِ حِرْصِ الْمُنَافِقِينَ عَلَى الضَّلَالِ وَزُهْدِهِمْ فِي الْهُدَى:

اشتراء الضلالة من التعبير المجازي البديع

في قوله سبحانه: ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ مجازٌ؛ وفي تخريجه مسلَكَانِ[3]:

أحدهما: أن يكونَ مجازًا مُرْسَلًا بعلاقة اللُّزُوميَّة؛ بحيث أُطْلِقَ المَلْزُومُ وهو الِاشْتِرَاءُ، وأُريدَ لازِمُهُ، وفي تَعْيِينِ اللَّازم وجهانِ؛ إذ إنَّ مِن لَازمِ الاشتراءِ: الاستبدالَ، والحرصَ على شيءٍ والزُّهْدَ في ضدِّه.

فعلى اللَّازمِ الأوَّلِ - وهو الِاسْتِبْدَالُ -: يكون المعنى: أنَّهُمُ اسْتَبْدَلُوا الضَّلالةَ بالهدَى، ووجهُ استبدالهم مع عدَمِ تقدُّمِ نِفَاقِهِم

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/58، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/117، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/48.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/299.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 299-1/298.

إيمانٌ: أنَّهُمْ اكْتَسَبُوا الضَّلالة التي وُجدت مِنْهُمْ، بدلًا مِنَ الْهُدَى الذِي أُمِروا به[1]، أو أنَّهمُ اسْتَبْدَلُوا الضَّلالةَ بالفطرةِ التي فُطِروا عَلَيْهَا[2]، أو أنَّهم جُعِلُوا لِتَمَكُّنهم مِنْهُ بتيسير أسبابه، كأنَّهُ في أَيْدِيهِمْ، فإذَا عدَلوا عَنْهُ إلى الضَّلالَةِ؛ كان ذلكَ استبدالًا[3].

وعلَى اللَّازم الآخر؛ يكون المعنى: أنَّهم حَرَصوا على الضَّلالةِ، وزَهِدُوا في ضدِّها -وهو الهُدى-.

وَالْمَسْلَكُ الآخَرُ: أن يكون ذلك مَجَازًا بالِاسْتِعَارةِ؛ حيثُ استُعير الاشتراءُ لِلْإِعْرَاض عمَّا في حِيازَةِ المرءِ طالبًا تحصيلَ غيرهِ - وهذا في الأصل: يكون في المعَاني ويكون في الأعيان -[4].

ويَحْتَمِلُ إجراءُ الاستعارة في لفظَتَي ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ و﴿ٱلْهُدَىٰ﴾؛ بأن شُبِّهتِ الضَّلالة بالسِّلعة، والهدَى بالمَالِ؛ بجامع وقوع المُعَاوَضَةِ في كُلٍّ، فحُذف المشبَّهُ به ورُمز لَهُ بشيءٍ من لوازمه - وهو ﴿ٱشْتَرَوُاْ﴾ - على طريقِ الاِسْتِعَارة المكنيَّةِ الأصليَّة.

بَذْلُ الْمُنافِقِ الْجَلِيلَ وَأَخْذُهُ الحَقِيرَ غَايَةٌ فِي السَّفَهِ

وفي هذه الاِسْتِعَارةِ مِنَ الْمُبَالغةِ في انحرافهم قدرٌ عظيمٌ؛ حيث إنَّ أَخْذَهمُ الضَّلالةَ كان طواعيَّةً وعَنِ اختيارٍ مِنْهُمْ، وهذا غايةٌ في السَّفَهِ؛ أَنْ يَبْذُلَ الإنسانُ الجليلَ ليأخذَ الحقيرَ! ثمَّ إنَّ مُعَامَلتَهُم ليسَتْ مُجَرَّدَ تبادُلٍ يُوشِكُ أَنْ يَرجعوا فِيهِ؛ وإِنَّما هو اشتراءٌ لا رجوعَ فِيهِ؛ لِلُزُومِه، وهذا أقصى ما يكون في الاِنْحِرَافِ وعمَى الْبَصِيرَةِ المذكورِ في الآية قَبْلَهَا: ﴿يَعْمَهُونَ﴾.

فَائِدَةُ التَّعْبِيرِ بِالضَّلَالَةِ دُونَ الضَّلَالِ:

دَنَاءَةُ الْمُنَافِقِينَ حَيْثُ بَدَّلُوا الْهُدَى الْكَثِيرَ الشَّرِيفَ بِشَيْءٍ قَلِيلٍ حَقِيرٍ

عُبِّر بـ ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ دون (الضَّلال)، مع أنَّ التَّعْبِيرَ به -(الضَّلال)- يُشعِرُ بكثرة ضَلَالِهم، بخلاف ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ فهي دالةٌ على الوَحْدَةِ؛ وَذَلِكَ لِوَجْهَيْنِ[5]:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/315.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/70.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 1/254-255.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/48.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/58.

أحدهما: أنَّ الذمَّ وقع عَلَيهِمْ بِأَخْذِ الواحدَةِ مِن الضَّلالِ، فكيف إذا أخذوا مِنْهُ كثيرًا؟!

والآخر: أنَّ التَّعبير بـ ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ أبلغُ في التَّشْنِيع عَلَيْهِمْ؛ مِنْ جهة أنَّهم بدَّلوا الهُدَى الكثير الشَّريفَ بشيءٍ حقيرٍ في القَدْرِ قليلٍ في المقدارِ.

دلالة حَرْفِ الْفَاءِ على بيانِ سُرْعَةِ خَسَارَةِ أَهْلِ النِّفَاقِ:

بمجرد اشترائهم الضلالة، غاصوا في بحر الخسران

ويؤيِّدُ التَّشنيعَ عَلَيهِمْ: الإتيانُ بِالْفَاءِ في قوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ الدالَّة على التَّعقيب؛ وذلك لِلْإيماء إلى أنَّ عدمَ ربحِهم وخسارَتَهم حصلَتْ بمجرَّدِ اشْتِرَائِهِم الضَّلالة بالهدَى مِن غير تَرَاخٍ.

ويُؤَكِّدُ ذلك أيضًا: التَّعبيرُ عَن نَفْيِ الرِّبْح بالفعلِ الماضي الدَّالِّ على النَّفْيِ الـمُتَحَقِّقِ المؤكَّدِ.

نَفْيُ الرِّبْحِ عَنِ المُنافِقين أَبْلَغُ فِي ذَمِّهِمْ مِنْ إِثْبَاتِ الخَسَارَةِ:

العقيدةُ إمَّا ربحٌ تامٌّ وإمَّا خسارةٌ مُتحقِّقةٌ

نفى اللّه تعالى الرِّبْحَ عن المنافقين، فقال اللّه تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾، ولم يَقُل بدَلًا مِن ذلك: (خسِرَتْ تجارتُهُم)، مع أنَّ إثبات الخَسَارة أصْرَحُ؛ إذْ إنَّ عدمَ الرِّبح لا يستلزمُ الخسارةَ؛ لاحتمالِ بقاء رأسِ المالِ سالمًا، والنُّكْتَةُ في ذلك: أنَّهُم إذا ذُمُّوا بسبب عَدَمِ الرِّبح، فذمُّهُمْ بسَبَبِ الْخُسْرانِ الْوَاقِعِينَ فيهِ أَوْلَى وأَحْرَى[1].

ثُمَّ إنَّ عدمَ الرِّبْح لا يستلزمُ الخسارةَ في التِّجارة الحقيقيَّةِ، أمَّا إذا كان المحلُّ لا يقبلُ إلَّا الرِّبْحَ أو الخسارةَ، فنَفْيُ أحدِهما مستلزمٌ لإثباتِ الآخر ضَرُورَةً، كمَا في الرِّبح والخسارةِ في الدِّين؛ فإنَّه لا واسطةَ بينَهُمَا[2].

نُكْتَةُ إِسْنَادِ الرِّبْحِ إِلَى التِّجَارَةِ مَجَازًا:

التَّنْفِيرُ مِنْ تَعَاطِي التِّجَارَةِ الْخَاسِرَةِ

إسنادُ الرِّبحِ إلى التِّجارة في قوله ﷻ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/58-59.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/164.

إسناد مجازيٌّ، فهو مِنَ المَجَازِ العقليِّ؛ وذلك لأنَّ التِّجارة لا تَرْبَحُ، وإنَّما يُرْبَحُ فيها[1]، والرَّابِحُ الحقيقيُّ هو التَّاجِرُ، فإسناد الرِّبح إلَى التِّجارة إنَّما كان لتلبُّسِهَا بالفاعل، أو لِمُشَابهَتِهَا إيَّاه؛ من جهةِ أنَّها سببٌ في الرِّبْحِ والخَسَارة[2]، ونُكْتَةُ هذا الإسناد: الإشارةُ إلى عدَمِ تعَاطِي هذه البَيْعَةِ ولو كانت سببًا في الرِّبْحِ، فكيفَ وهي ليسَتْ رابحةً؟![3]، وهذه الجملة ترشيحٌ للجملة السابقة.

نَفْيُ الهدايةِ عنِ الْمُنَافِقِينَ لأنَّها ليسَت من شأْنِهم:

المنافقون أبعد المخلوقات عن الهُدى

نُفِيَ الاهتداءُ عَنِ الـمُنَافِقِينَ نفيًا مؤكَّدًا بالجملةِ الاِسْمِيَّةِ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

وزِيدَ التَّوكيدُ بـ﴿كَانُواْ﴾ الدالَّةِ على الدَّوام وَالاِسْتِمْرَارِ؛ فليس من شأنِ مَنْ كانت هذه حالَهُ أَنْ يُتصوَّرَ منه الاهتداءُ[4].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضَّلَالُ وَالْغَيُّ:

الضَّلال والغيُّ مُترادِفَانِ في ظاهر كلام جماعةٍ من علماء العربيَّة[5].

والتَّحقيقُ أنَّ بَيْنَهُمَا فَرْقًا؛ فقيل: الضَّلال يكون بغير قَصْدٍ، والغيُّ بقَصْدٍ وتكسُّبٍ[6].

وقيل: الضَّلال في القولِ، والغيُّ في الفِعْلِ[7].

وقيل: الضَّلالُ: أن لا يَجِدَ السَّالكُ إلَى مقْصدِه طَرِيقًا أصلًا، والغَيُّ: أَن لَا يكُونَ لَهُ إلَى الـمَقْصد طَرِيقٌ[8].

والأقرَبُ أَنْ يُقال: إنَّ الفرقَ بينَهُمَا مِنْ أربعةِ أوجهٍ:

---

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 43، وابن جرير، جامع البيان: 1/317.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/64.
(3) محمّد أبو موسى، خصائص التَّراكيب، ص: 144.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/140.
(5) الفارابيّ، معجم ديوان الأدب: 4/90، والجوهريّ، الصحاح: 6/2450، والرّازيّ، أنموذج جليل، ص: 493.
(6) ابن جزي، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 2/316، والسّيوطيّ، معترك الأقران: 2/437.
(7) الرّازيّ، أنموذج جليل، ص: 493.
(8) الرَّازيّ، التّفسير الكبير: 28/234.

أحدهما: أَنَّ الضلالَ يكونُ عن عَمْدٍ وعَن غير عَمْدٍ، أمَّا الغيُّ فَلَا يكون إِلَّا عَنْ عَمْدٍ؛ فيكون الضَّلالُ أَعَمَّ مِنْ هذه الجِهَةِ.

ثانيهما: أَنَّ الغَيَّ أشدُّ مِنَ الضَّلالِ؛ وذلك أَنَّ أصلَ الضَّلال: ضياعُ الشَّيْءِ وذهابُه في غير حقِّه، وأمَّا الْغَيُّ؛ فَهُوَ الِانْهِمَاكُ في الباطل[1]، فكأنَّ الغاوِيَ قد غَشِيَهُ ما لا يَرَى طَرِيقَ الحقِّ مَعَهُ[2].

ثالثها: أنَّ الضَّلال يُسْتَعْمَلُ في العقلاء وغيرِهم، فتقول: ضَلَّ فلانٌ، وضلَّتِ الدابَّةُ، أمَّا الغيُّ؛ فلَا يكُونُ وَصْفًا إلَّا لِلْعُقَلَاءِ[3].

ويُمْكِنُ إرجاعُ هذا الفَرْقِ إلى الأَوَّلِ؛ إذِ الدَّابَّةُ مثلًا لا قصدَ مُعْتَبَرٌ لهَا.

رابعها: أنَّ ضِدَّ الضَّلال: الهدَى، وضِدَّ الغيِّ: الرُّشْدُ[4].

الضَّلَالُ والضَّلالةُ:

فرَّق الزَّمخشريّ[5] بين الضّلال والضّلالةِ عند اجتماعِهما في قول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف: 60-61] بما يُفْهَمُ مِنْهُ أنَّ الضَّلال جمعٌ، والضَّلالةَ مفردٌ، فيكون (الضَّلال) اسمَ جنسٍ جمعيّ يُفرَّق بينَه وبين مفرده بالتَّاء؛ لأنَّه جعله نظيرًا لـ: تَمْرٍ وتمرةٍ.

وقيل: (الضَّلالة) اسمُ مَرَّةٍ، وليس كذلك، فالفعل (ضَلَّ) لا يُصاغ مِنْهُ اسمُ مرةٍ -كما لا يَخْفَى-.

وقد ردَّ ابن عاشور[6] على من يرى دلالة ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ على الوَحْدة، ورأى أنَّه مصدرٌ كالضَّلالِ، والتَّغايُرُ بَيْنَهُما إنَّما هو في التَّذكير والتَّأنيث؛ وذلك لِلتَّفنُّنِ في العبارة.

والرَّاجح - والله أعلم - أنَّ لفظ ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ يدلُّ على المرّة الواحدة أو الإفراد، وليس

(1) ابن فارس، مجمل اللّغة، ص: 687.
(2) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 329.
(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 28/234.
(4) الكفويّ، الكلِّيَّات، ص: 576.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/113-114.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/192.

شرطًا أن تأتي الصيغة على القياس حتى يُحكم بدلالتها على الإفراد، ونكتة استعمال ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ في الموضع الثاني أنَّ الملأ حين اتهموا نبيّهم نوحًا بالضّلال ، ردّ عليهم عليه السلام بأنّه ليس به ضلالةٌ واحدة، فكيف تحكمون بضلالي؟! وهذا لا يناقض القول بأنَّ لفظ ﴿ضَلَٰلَةٌ﴾ يكون مصدرًا أيضًا مثل الآية التي نحن بصددها.

﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧﴾ [البقرة: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تشبيه تمثيليّ يـصـف حقيقة المنافقين بحيث لا يبقى لمرتاب شـائـبـة شـكٍّ فيهم

لـمَّا ذكر اللّه أحوالَ المنافقين وصفاتِهم على وَجْهِ التَّفْصيل، وكانتِ الأمثالُ أَعْلَقَ بالذِّهْنِ وأَكْشَفَ لِلْحالِ؛ مثّل سبحانه حالَهم في هُداهم الذي باعوه بالضّلالة في الآية السّابقة بالْأُمُور الحِسّيَّة؛ لِمَا لِلتَّمْثِيل مِن شأنٍ عظيم في توصيل المعنى إلى الْأَذْهَانِ[1]، وقد وَقَعَ المَثَلُ مَوْقِعَ الفذلكةِ من الآيةِ السَّابِقَة، فبعد إِجْمالِ حالِ المنافقين في جُملَةٍ واحدة، وَقَعَتْ مَوْقعَ الاعتبار، حَسُنَ تمثيلُ تلك الحالِ بنوعٍ من التَّفصيلِ التَّمثيليّ، لمزيدِ كشفٍ وإمدادِ الذِّهنِ بأنواعٍ إضافيّة من سلوكهم المُريب؛ بحيث لا يبقى لـمُرتابٍ شَائبةُ شَكٍّ فيهم.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱسۡتَوۡقَدَ﴾: مادّة الواوِ والقاف والدَّال تدلُّ على اشْتِعالِ نارٍ[2]، ومِنْهُ الْوَقْدُ؛ وهي النَّار[3]، والوَقُود: وهو ما تُشْعَلُ به النَّارُ من حَطَبٍ ونحوِه[4].

والفِعْلُ (وَقَدَ)؛ يُقال: وَقَدَتِ النَّارُ تَقِدُ؛ إذا اشْتَعَلت، وأَوْقَدْتُ: أَشْعَلْتُ[5]، واسْتَوْقَدَ النَّار، بمعنى: أَوْقَدَهَا[6]؛ وهي كذلك في الآية، وقيل معناه: اسْتَوْقَدَ من غَيْرِه نارًا يَسْتَضِيءُ بِها[7]، فالسِّين والتَّاء للطَّلَبِ على ما هوَ الغَالِبُ في مَعْنَاهَا، والـمَعْنَى الأَوَّلُ أَرْجَحُ[8].

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/118.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقد).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (وقد).
(4) الفَتَّنِيّ، مجمع بحار الأنوار: 5/92.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقد).
(6) الهرويّ، الغريبين: (وقد).
(7) الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: 11/7263.
(8) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/128.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مَثَلُ المُنَافِقِين الذينَ أَظْهَرُوا الإيمانَ بالأَقْوَال وليسوا بمؤمنين في الحَقيقة، فانْتَفعوا في الدُّنيا بحَقْنِ دِمَائهم وسلامَةِ أموالهم، وحصَلَ لَهُمْ شيءٌ مِنَ الأَمْن، ثُمَّ لَمَّا قُبضَت أرواحُهم بالموتِ؛ سُلِبُوا الانتفاعَ بما أظهروه مِنَ الإيمانِ لِعَدَم الاعْتِدَادِ به شرعًا، وصاروا في ظُلْمَةِ القَبْرِ والكُفْرِ والنِّفاقِ والمعَاصي علَى أنواعِها، وبعد ذلك في ظلمة نارِ جهنَّمَ؛ مَثَلُهم في ذلك: كمثَلِ جماعةٍ في ليلةٍ شديدةِ الظُّلْمَةِ أَوْقَدُوا نارًا لِيَنْتَفِعُوا بِهَا اسْتِضَاءَةً واسْتِدْفَاءً، فلَمَّا أضاءَ نُورُها وتبيّن ما حولهَا؛ خَمَدَت وانْطَفَأَت، فبَقوا في شدَّةِ الظُّلمةِ لا يَهْتَدُونَ إلى سَبِيلٍ ولا يَرَوْنَ شَيئًا[1].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَلاغَةُ مَوقِعِ المثلِ من الآياتِ السَّابِقَة:

فَصْلُ الْجُمْلَةِ عَمَّا قَبْلَهَا؛ لِوُقُوعِهَا بَيَانًا وَتَقْرِيرًا لِمَا قَبْلَهَا

فُصِلَتْ جملةُ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ عمَّا قبلَهَا؛ لِمَا بَيْنَهُمَا من كمال الاتِّصالِ، وَوَجْهُه: أنَّ هذه الجملةَ بيانٌ وتقريرٌ لِلْجُمَلِ قَبْلَهَا، فهي بمنزلةِ ذِكْرِ الْحَاصِلِ مِنْ حالِهِمْ وشأنِهِمْ بضَرْبِ هذا المَثَلِ[2].

والقولُ بأنَّ الجملةَ بيانٌ لا يقتضي بالضَّرورةِ وقوعَ إِبْهَامٍ في ذِكْرِ أوصافِ المُنَافِقِين السابقةِ؛ لأنَّ البَيَانَ درجاتٌ، إلَّا أنَّ عُرْفَ البلَاغِيِّين التَّعْبِيرُ عن نُكْتَةِ مثلِ هذا الفصلِ بالبَيَانِ؛ والمرادُ ببيانِ الجملةِ في الآيةِ الكريمَةِ: زيادةُ الكَشْفِ وتَتْمِيمُ البَيَانِ[3].

تَقْرِيرُ التَّشْبِيهِ التَّمثيلِيِّ الوارِدِ فِي الآيةِ الكريمةِ أَنْ يُقَالَ:

إِيرَادُ التَّشْبِيهِ التَّمْثِيلِيِّ لِإِبْرَازِ الْمَعْقُولِ فِي صُورَةِ الْمَحْسُوسِ؛ زِيَادَةً فِي الْبَيَانِ

حالُ هؤلَاءِ المُنَافقين في انتفَاعِهِمُ المُؤَقَّتِ في الدُّنيا بِمَا أظهروه مِنَ الإيمَانِ؛ مِن عِصْمَةِ دِمَائِهِم وأموالِهِم، ومعرفتِهِمْ بمواضعِ الخير والشَّرِّ بما سمِعُوه مِنَ الْوَحْيِ المُنَزَّلِ، ثُمَّ لَمَّا نزَلَ بِهِمُ الموتُ سُلِبُوا

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/186، وابن القيِّم، الأمثال في القرآن، ص: 10-9، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 44، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 4.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/302.

(3) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 1/72.

النَّفْعَ، وحلَّت بِهِمُ الخسارَةُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ؛ حالُهُمْ في هذا كَحَال مَن اسْتَوْقَدُوا نارًا فانتفعوا بهَا دفئًا مِنَ البَرْدِ، وإضاءَةً لمواضعِ المخاوفِ وأَمْنِهَا، فإذا بنارِهِم تَنْطَفِئُ، وذهب ما فِيهَا مِنَ النَّفْعِ، وبقوا في ظلُماتٍ لا يُبصرونَ مواضعَ الأذى ولا يَهْتَدُون إلى سبيلٍ لِلنَّجاةِ.

انْتِفَاعُ المُنَافِقِينَ بِمَا أَظْهَرُوا مِنَ الإِسْلَامِ عَارِضٌ، تَعْقُبُهُ خَسَارَةٌ أَبَدِيَّةٌ

وفائدةُ هذا التَّمْثِيلِ: رَفْعُ الحِجَابِ عَنِ الوجُوه العقليَّةِ -لِمَا فِيها مِنَ الدِّقَّةِ والخفاء-، وإبرازُها في صُورةِ المَحْسُوسَاتِ الواضحَةِ، والتّنفيرُ من حالة النّفاق بما فيها من خداعٍ مَكشوفٍ وزَيْفٍ مفضوحٍ.

وَجهُ تَشْبِيهِ المُنَافِقِ بِالمُسْتَوْقِدِ:

في تَشْبِيهِ المُنَافِقِ بالمُسْتَوْقِدِ النَّارَ سبعةُ أوجُهٍ(1):

مَا يُظْهِرُهُ المُنَافِقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ يَذْهَبُ بِالكُلِّيَّةِ إِذَا لَمْ يُتْبَعْ بِتَحْقِيقِهِ فِي القَلْبِ

الأَوَّلُ: أنَّ مُسْتَوْقِدَ النَّارِ يدفعُ الأذَى بهَا، فإذا خَمَدَت وصلَهُ، وكذلك المنافقُ يُعصَمُ دَمُهُ بالإسلام؛ فإذا أظهرَ الكفرَ، حلَّ دَمُهُ.

الثَّاني: أنَّه يَهْتَدِي بالنَّارِ، فإذا خَمدَت ضلَّ، وكذلك المنافقُ يَهْتَدِي بما أظهرَهُ مِنَ الإسلامِ، فإذا اطُّلِعَ على حقيقةِ حالِهِ، ذَهَبَتْ عَنْهُ تلكَ الهدايةُ.

الثَّالث: أنَّه إذا لم يُمِدَّهَا بوَقُودٍ انْطَفَأَت، وكذلك المنافقُ إذا لم يُتْبِعْ ما أظْهرَهُ مِنَ الإِسْلَامِ بِتَحْقِيقِه في القَلْبِ، ذهب عَنْهُ ذلك بالكُلِّيَّةِ.

الرَّابعُ: أنَّ النُّورَ الذي يَسْتَضِيءُ به حاصلٌ مِن غَيْرِه لا مِن نفسِه؛ فإذا انطفأتِ النَّارُ بَقِيَ في الظُّلمةِ، وكذلك المنافقُ لَمَّا أَظْهَرَ الإسلامَ مِن غَيْرِ مُوَاطَأةِ الظَّاهرِ لِلْبَاطِنِ؛ كان نُورُ الإيمَانِ عِنْدَهُ كالمُسْتَعَارِ.

الخَامِسُ: أنَّ اللَّه تعالى شبَّه إقبالَ المنافقين على المُسْلِمين بالإضَاءة؛ لِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ النَّفْعِ ودفعِ الضُّرِّ المُعَجَّلَين، وإقبالَهم على المُشْرِكين بذَهَابِهَا؛ لِفَوَاتِ تَحْصِيلِ النَّفْعِ ودَفْعِ الضُّرِّ.

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/124.

السَّادس: أنَّ اللّه سبحانه ذَكَرَ عَنِ المُنَافِقِين قَبْلُ أنَّهمُ اشْتَرَوُا الضَّلالةَ بالهُدَى، ثُمَّ مثَّلَ الهُدَى الذي باعُوهُ بالنُّور الحاصِلِ لِلْمُسْتَوْقِدِ، والضَّلالةَ التي اشْتَرَوْهَا بالظُّلْمَةِ.

السَّابع: أنَّه مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللّه تعالى لِلْمُنَافِقِ؛ لأنَّه بإظهارِهِ الإِسْلَامَ يُعْصَمُ دَمُهُ، فَيَمْشِي في حُرْمَةِ الإسلامِ وضِيَائِهِ، فإذَا مَاتَ، سُلِبَ ذلك الضِّياءَ في الدَّار الآخرة وهُوَ أَحْوَجُ ما يكونُ إِلَيْه.

دلالة حَرْفِ الْكَافِ:

أَفَادَتِ الْكَافُ في قولِه: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ﴾ التَّشْبِيهَ[1]، بناءً على أنَّ كلمة (مِثْل) بمعنى: الصِّفة والْحَالِ، والتَّقْدِير: مَثَلُهُم كَصِفَةِ الذِي اسْتَوْقَدَ نارًا وكحالِهِ.

دلالة الِاسْمِ الْمَوْصُولِ:

ثَــراءُ الــنَّــظْــمِ بِــتَــنَــوُّعِــهِ الِاحْتِمَالِيِّ

ورَدَ الاسمُ الموصولُ مفردًا في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى﴾ لا جمعًا كَمَا يَقْتَضِيهِ الظَّاهِرُ - لِقَوْلِ اللّه تعالى قبلُ: ﴿مَثَلُهُمۡ﴾ -؛ لثلاثةِ أوجهٍ:

الأوَّل: أنَّ ﴿ٱلَّذِى﴾ وإنْ كانَ في اللَّفْظ مفردًا، إلَّا أنَّه اسمٌ موصولٌ يَعُمُّ جميعَ أفرادِهِ؛ فهو في المَعْنَى جَمْعٌ؛ فإذا رُوعِيَ اللَّفْظُ أُفْرِدَ، وإذا رُوعِيَ المعنَى؛ جُمِعَ عِنْدَ تَعَدُّد أفرادِهِ الْمُنْدَرِجَة تحتَهُ[2].

الثَّاني: أنَّ ﴿ٱلَّذِى﴾ وَقَعَ وصفًا لِمَا يُفْهَمُ مِنْهُ الجَمْعُ، ثُمَّ حُذف المَوْصُوفُ؛ لوجودِ القَرِينَةِ الدَّالَّةِ على إفادَتِهِ الجَمْعَ، والتَّقْدِيرُ: مَثَلُهُمْ كمَثَلِ الفَرِيقِ أَوِ الجَمْعِ الذي اسْتَوْقَدَ، ثُمَّ يُعادُ الضَّمِيرُ عَلَيْهِ مُفْرَدًا إذا رُوعِيَ الوصفُ، كما في ﴿ٱسۡتَوۡقَدَ﴾ و﴿حَوۡلَهُۥ﴾، ويُعاد الضَّمِيرُ عَلَيْهِ جَمْعًا إذا رُوعِيَ المَوْصُوفُ، كما في ﴿بِنُورِهِمۡ﴾، ﴿وَتَرَكَهُمۡ﴾، ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾[3]، وعلى هذا الوجهِ يكونُ في الآيَةِ إيجَازٌ بِالْحَذْفِ؛ لدلالة القرائنِ على المَحْذُوفِ.

الثَّالِثُ: دلالة ﴿ٱلَّذِى﴾ على المُفْرَد، كما هو الظَّاهِرُ من لَفْظِها؛ لأنَّ صِلَتَهُ: ﴿ٱسۡتَوۡقَدَ﴾، والمُسْتَوْقِدُ واحدٌ، وإن كان الْجَمِيعُ مُنْتَفِعًا بِالْإِضَاءَةِ بَعْدُ[4]، وهو الأنسبُ لِجَرَيَانِهِ عَلَى الظَّاهِر.

---

(1) ابن جُزَيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 1/72.
(2) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 5/630.
(3) السَّمين، الدُّر المصون: 1/156.
(4) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/62.

دلالة تَنْكِيرِ ﴿نَارًا﴾ عَلَى التَّعْظِيمِ:

نُكِّرتِ النَّارُ في قوله: ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ لِلتَّعْظِيم؛ ويؤيِّدُهُ قولُه قبلُ: ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾ أي: طَلَبَ وُقودَهَا، وهو سُطُوعُهَا وارتفاعُ لهَبِهَا، ويُعَزِّزُهُ قولُهُ بعدُ: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ لِفَرْطِ الْإِنَارَةِ، وَكَذَا حصولُ الظُّلماتِ بِفَقْدِها[1].

دلالة (مَا) في ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾:

عُـمُـومُ إِضَـاءَةِ الْمَـكَـانِ وَكَـثْرَةُ الْأَشْيَاءِ الْمُضَاءَةِ

(مَا) في قَوْلِه ﴿أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ تَحتملُ في إعرابِهَا وَجْهَيْنِ[2]:

الأَوَّلُ: أَنْ تَكُونَ مَفْعُولًا به لِلْفِعْلِ ﴿أَضَآءَتْ﴾، وهو فِعْلٌ مُتَعَدٍّ.

والآخَرُ: أن تكُونَ فاعِلًا لِلْفِعْلِ (أضاءَ) بِحَمْلِهِ على أَنَّهُ فعل لازِمٌ، وتأنيثُ الفعلِ ﴿أَضَآءَتْ﴾ مع إسنادِهِ لِلْفَاعِلِ (مَا)، حملًا لـ (مَا) علَى معناهَا؛ إِذِ الذي حَوْلَ الـمُسْتَوْقِدِ أَمَاكِنُ وأشياءُ، وهي مؤنَّثةٌ في المعنَى.

وعلى الثَّاني فيه مبالغَةٌ في شدَّةِ الإضاءَةِ؛ حتَّى كأَنَّ الأماكنَ نفسَها والأشياءَ المحيطَةَ بِالْمُسْتَوْقِدِ صَدَرَ مِنْهَا الضِّياءُ.

ويُؤيِّدُه أنَّ (ما) اسم موصولٌ، وهو يَعُمُّ؛ فالضِّيَاء عَمَّ المكانَ -على الاحْتِمَالَيْنِ السَّابِقَيْنِ-، وهو في الثَّاني أَبْلَغُ، وإنْ كانَ الأَوَّلُ أشهرَ.

ويُمْكِنُ حَمْلُ (مَا) على أنَّها نَكِرَةٌ مَوْصُوفَةٌ، والمعنى: فَلَمَّا أضاءت شَيْئًا ثَابتًا حولَهُ[3]، وتَنْكِيرُها حينئذٍ لِلتَّكْثِير؛ أي: أضاءت شَيْئًا كثيرًا ثابِتًا حَوْلَه.

دلالة حَرْفِ الْبَاءِ:

دَوَامُ ذَهَابِ نُورِ الْمُنَافِقِينَ؛ فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ بِحَالٍ

البَاءُ في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ لِلتَّعْدِيَةِ، بمعنى: أَذْهَبَ اللهُ نورَهُمْ[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/50، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/378، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/256.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/73.
(3) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/55.
(4) الفخر الرّازيّ، التّفسير الكبير: 1/96.

وفي التَّعدية بالباءِ دُونَ الْهَمْزَةِ: إشعارٌ بدوام هذا الذَّهاب وملازَمَتِه، بسبب مُلَازمَةِ فاعل الذَّهابِ لهُ، ولِما في الْبَاءِ مِنْ مَعْنَى الْإِمْسَاكِ، كما يُقال: ذهَبَ السُّلْطَانُ بِمَالِهِ؛ إذا أخذهُ، وما أخذه اللّه ﷻ فَأَمْسَكَهُ؛ فلا مُرسِلَ له مِنْ بعدِه[1]، وهذا يدلُّ على أنَّ النُّور في الآية لا يزال ذاهبًا عَنْهُمْ، وهذا أغلَظُ في العُقُوبَةِ؛ إذْ لا يُتصوَّرُ رجوعُهُ إِلَيْهِمْ[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِ ﴿نُورِهِمْ﴾ دُونَ (نَارِهِمْ) أَوْ (ضَوْئِهِمْ):

وقع التَّعبير بالنُّور في قولِه ﷻ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ دون (بِنَارِهِمْ)؛ لِقَوْلِه قبلُ: ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، و﴿أَضَآءَتْ﴾ أي: النَّارُ؛ لنُكتَتَيْنِ:

إذهابُ النُّور إِذْهَابٌ لَهُ وللضَّوْءِ

إحداهما: أنَّ المرادَ مِن إيقادِهَا حُصُولُ النُّورِ، فأذهَبَ اللّهُ تعَالَى مقصودَهُم منْهَا.

ثانيهما: أنَّ النَّار فيهَا إِشْرَاقٌ وإِحْرَاقٌ، فَأَذْهَبَ اللّهُ تعالَى ما فيها مِنَ الْإِشْرَاقِ وهُوَ النُّور، وأَبْقَى ما فيها مِنَ الْإِحْرَاقِ وهُوَ النَّاريَّةُ.

ولم يَرِدْ هَهُنَا أيضًا: (ذهَبَ اللّهُ بِضَوْئِهِمْ) مع أنَّه قد تقدَّم قولُه: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾؛ وذلك لأنَّ الضَّوْءَ هو زيادةٌ في النُّور، فهو أخصُّ، فلو ذَكَرَ اللّه تعالى إِذْهَابَ ضَوْئِهم؛ لَتُوُهِّمَ أنَّ إذهابَ الأخصِّ لا يقتضي بالضَّرورةِ إذهابَ الأعمِّ، وأنَّ المقصود: إذهابُ الضَّوءِ مع إبقاءِ النُّور! فدُفِعَ ذلك بقولِه تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، فأذهَبَ اللّهُ سبحانَهُ النُّور أصلًا، وفي إذهابِه: إِذْهَابٌ لَهُ وَلِزِيَادَتِهِ[3].

تَنْكِيرُ ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾ لِلتَّهْوِيلِ:

شِدَّةُ ضَلَالِ أَهْلِ النِّفَاقِ، فهم ليسوا في ظُلمة بل في ظلمات

نُكِّرَتِ الظُّلُمَاتُ في قوله سبحانه: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ للتَّهْوِيل؛ أي: "ظُلُماتٍ هائلة أَدْهَشَتْهُم، بحيث اخْتَلَّت حوَاسُّهم، وانْتَقَضَتْ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/67.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/60.
(3) ابن القيّم، اجتماع الجيوش الإسلاميَّة، ص: 41.

قُوَاهم"[1]، ويؤكِّدُ ذلك: جَمْعُهَا، وإتْبَاعُها بقوله: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾؛ فإنَّ ذلك يدُلُّ على أنَّ الظُّلمةَ بَلَغَتْ مبلغًا يَعْجِز عَنْهُ الوَاصِفُ[2].

الإِطْنَابُ لِزِيَادَةِ كَشْفِ الحَالِ التي آلَ إلَيْهَا المُنَافِقُون:

خَيْبَةُ مَسَاعِي أَهْلِ النِّفَاقِ

تضَمَّنَ قولُه ﷻ: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ تقريرًا لمضمون الجُمْلَةِ قبلَهُ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؛ فَإِنَّ مَنِ انعَدَم نورُهُ؛ حلَّت عَلَيْه ظُلْمَةٌ، فلا يُبْصِرُ شيئًا، ففي الكَلَامِ إطنابٌ، وفائدتُه: زيادَةُ كَشْفِ الحَالِ التي صَارُوا إِلَيْهَا؛ "فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ يُفيد أَنَّهم لَمَّا اسْتَوْقَدُوا نَارًا، فَانْطَفَأَتْ؛ انْعَدَمَت الفَائِدَةُ، وخابَتِ المَسَاعِي، ولَكِنْ قد يَذْهَلُ السَّامعُ عمَّا صَارُوا إِلَيْهِ عِنْدَ هَاتِهِ الحالَة، فيكُونُ قولُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ تَذْكِيرًا بِذَلِك، وتَنْبِيهًا إِلَيْه"[3].

حَذْفُ مَفْعُولِ ﴿يُبْصِرُونَ﴾ لِإِفَادَةِ العُمُومِ:

المنافقون لا يبصرون دلائل التوحيد، بل هم عُميٌ لا يبصرون أصلًا

فِعْلُ (أَبْصَرَ) مُتَعَدٍّ، ولم يُذْكَرْ مَفْعُولُه في قوله ﷻ: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾، وفي ذلكَ طَرِيقَتَانِ:

الأُولَى: أَنْ يُقدَّر له مَفْعُولٌ، ويكون عامًّا؛ بناءً على أنَّ حذفَ المَعْمُول مُشْعِرٌ بالعُمُومِ، والمعنى: لا يُبْصِرُونَ شَيْئًا، لا قَلِيلًا ولا كثيرًا[4].

وَالأُخْرَى: ألّا يُقدَّر له مفعولٌ أصلًا، من بَابِ تَنْزِيلِ الفعل المُتَعَدِّي منزلةَ اللَّازم[5]، وَهُوَ يَؤُول في المعنى إلى ما قَبْلَهُ[6]، وفيه ضمنًا تشبيه الأعمى بصيرةً بالأعمى بصرًا.

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنْزِيل: 1/51.
(2) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/174.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/310.
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/144.
(5) الرازيّ، التّفسير الكبير: 1/314.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/312.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المِثْلُ وَالشِّبْهُ:

نقل الأزهَرِيُّ عن الفرَّاء قولَهُ: "يُقَال: مَثَلٌ ومِثْلٌ، وشَبَهٌ وشِبْهٌ، بِمَعْنًى وَاحِد"[1]، فهذا نصٌّ في القول بترادُفِهِمَا[2].

وفرَّق بَيْنَهُمَا أَبُو هِلَالٍ بِأَنَّ الشِّبْهَ أخصُّ مِنَ المِثْلِ؛ مِنْ جهةِ أنَّ الشِّبْهَ يُستعمَل فيما يُشَاهَدُ، والمِثْلَ أَعَمُّ، فتقول: هذا اللَّوْنُ شِبْهُ هذا اللَّوْنِ، بخلاف القُدْرَةِ -مَثَلًا-، فيقال: هذه القدرةُ مِثْلُ هذه، ولا يقال: شِبْهُهَا[3].

وثَمَّ وجهٌ آخَرُ في الفرق بَيْنَهُمَا: وهو أنَّ (الشِّبْهَ) لا يَقْتَضِي المشاركةَ في كلِّ الوجوهِ، بَلْ يُفِيدُ أصلَ الاشْتِرَاكِ، بخلاف (المِثْلِ) فإنَّها تَقْتَضِيها؛ بمعنى المُطَابَقَةِ[4].

النُّورُ وَالضِّيَاءُ:

فسَّر الخَلِيلُ النُّورَ بالضِّياء[5]، فلعلَّهُ يَرَى تَرَادُفَهُمَا، أو أنَّه أرادَ التَّقريبَ، على عادةِ أَصْحَابِ المعاجم في ذلكَ.

وقيل: إنَّ الضِّياءَ أَعْظَمُ وَأَبْلَغُ، بدَلِيلِ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5]، ومعلومٌ أنَّ الشَّمْسَ أعظمُ نورًا مِنَ الْقَمَرِ[6]، مع ما هو معروفٌ مِنْ أنَّ نُورَهُ مُسْتَمَدٌّ مِنْ نُورِهَا.

وقيلَ الْعَكْسُ؛ بدَلِيلِ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[7] [النور: 35].

وفرَّق بينهما أَبُو هِلَالٍ بأنَّ الضَّوءَ: ما كان مِنْ ذَاتِ الشَّيءِ المُضِيءِ، والنُّورَ: ما كانَ مُسْتَفَادًا من غَيْرِهِ[8]، ولَعَلَّهُ فرَّق بَيْنَهُمَا بالنَّظر إلى خُصُوصِ الشَّمْسِ والقمَرِ على النَّحْوِ الوَارِدِ في الآيَةِ الْمُتَقَدِّمِ ذكرُها.

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مثل).
(2) يُنظر لِلْفَائدة: ابن تيميَّة، الجواب الصَّحيح لمن بدّل دين المسيح: 445-3/444.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 294.
(4) ابن عثيمين، فتح رب البريَّة بتلخيص الحمويَّة، ص: 19.
(5) الخليل، العين: (نور).
(6) ابن الملقِّن، المعين على تَفَهُّم الأربعين، ص: 282.
(7) نجم الدِّين الطُّوفِيّ، التَّعيين في شرح الأربعين، ص: 179.
(8) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 332.

ولعلَّ أصحَّ ما قيل في الفرق بَيْنَهُمَا: إنَّ الضِّياء: ضَوْءٌ وحرارةٌ، مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمس والسِّراج، وَالنُّورَ: ضوءٌ بِلَا حرارَةٍ، كَنُورِ القَمَرِ[1]، وهذا الذي تَنْتَظِمُ به النُّصوصُ القرآنيَّةُ إن شاء اللّه.

أمَّا قوَّةُ أحدهما في مقابِل الآخَرِ؛ فالغالِبُ فِي الِاسْتِعْمَالِ أَنْ يَكُونَ الضِّياءُ أقوَى، ولكنَّه ليس بِلازِمٍ.

(1) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 25-2/24.

﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾ [البقرة: 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذَكَرَ اللّه تعالى مَثَلَ المُنَافقين، وذكَرَ بقاءَهم في الظُّلماتِ؛ بيَّنَ المراد بظُلُمَاتِهم بأنَّها ما في آذانِهم مِنَ الثِّقَل المانع لَهُم مِنَ الانْتِفاع بالسَّمع، وما في أَلْسِنَتِهم مِنَ الخَرسِ عن قولِ الخير، وما على أبصارهم مِنَ الْغِشاوة المانعة لَهُم مِنَ النَّظرِ إلى الخير نظرَ الاعْتِبَار، وعلى بصائرهم مِنَ الْأَغْطِيَةِ المانعة مِنَ الادِّكَار[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿صُمٌّ﴾: الصَّاد والميمان تدور اشتقاقاتُها عَلَى انسداد فتحات الشَّيء، والحيلولة دون النَّفاذ فيها[2].

ومِنْهُ: الصَّمَمُ في الأُذن؛ وهو ذهاب سَمْعِها، أَوِ انسدادُها وثِقَلُ السَّمع، ويقال لِلْمُتَّصِف به: أصمُّ، والأنثى: صمَّاءُ، والجمعُ: صُمٌّ[3].

وقد يُطلق الأصمُّ على مَن لا يهتدي إلى الحقِّ؛ مِن باب التَّجوُّزِ، فيكون مِن صَمَمِ العَقْلِ لا الأذن[4].

2) ﴿بُكۡمٌ﴾: أصل الباء والكاف والميم دالٌّ على الخَرَسِ[5]، ويقال لِلرَّجل: بكِمَ عَنِ الكلام؛ إذا امتنَعَ عَنِ الكلام جَهْلًا أو تَعَمُّدًا[6].

ويقال لِلرَّجل الأخرس: أَبْكَمُ، ولِلْمَرْأَةِ: بَكْمَاء[7]، والجمعُ: بُكْمٌ، وخصَّ ابنُ الأثير الأبكَمَ بمَنْ وُلِدَ أخرسَ لَا يتكلَّم[8].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/120.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صمم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صمّ)، والزّبيديّ، تاج العروس: (صمم).
(4) جمال الدّين الفتَّني، مجمع بحار الأنوار: (صمم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بكم).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بكم).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (بكم).
(8) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث: (بكم)، والسَّمِين، عمدة الحفّاظ: (بكم).

والمشهورُ: أنَّ الأبكمَ هُوَ الذي لا يَنْطِقُ ولا يَفْهَمُ، فإذا فَهِمَ معَ عدَمِ نُطقِهِ؛ فهو الأَخْرَسُ[1].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المنافقون صُمٌّ عن سماعِ الخيرِ سماعَ تدبُّرٍ وقبولٍ، بكمٌ عَنِ النُّطقِ به، عُمْيٌ عَنْ إبصاره؛ فلمَّا تعطَّلت عندهم منافذُ الخَيْرِ والهدى؛ امتنَعَ رجوعُهم إلى الحقِّ عقوبةً مِنَ اللّه تعالى لَهُم؛ لِكَوْنِهم أَعْرَضُوا عَنِ الحقِّ بعد ما عرفوهُ[2].

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تَرْكُ الْعَطْفِ؛ لِوُقُوعِ الْجُمْلَةِ اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا:

تَـهْـوِيـلُ حَـالِ الْـمُـمَـثَّـلِ لَـهُ وَتَفْظِيعُه

فُصِل قولُ اللّهِ تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لعدمِ تأتِّي العطفِ ههنا؛ فإنَّهُ لَا يصحُّ عطفُ المُمَثَّلِ لَهُ على حالِ المُمَثَّلِ به[3].

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ هذا استئنافًا[4] واقعًا في جوابِ سؤالٍ مقدَّر؛ وذلك أنَّه لَمَّا نُفِيَ عَنْهُمُ الإبصارُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾؛ ورد سؤالٌ: فهل يَنْطِقُون بالحقِّ، أو ينتفعون بسماعِهِ، وهل عدم إبصارِهِمْ لخللٍ في ذاتِ البصَرِ أو لعارضِ الظُّلْمَةِ؟ فقال اللّه تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾.

ولذا؛ فإنَّ هذه الآيَةَ نتيجةٌ لِلتَّمْثِيلِ السَّابِقِ عليهَا؛ تُفيدُ زيادةَ التَّهْوِيل والتَّفْظِيعِ[5].

بلاغةُ حَذْفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ:

﴿صُمُّۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ خَبرٌ، مبتدَؤُهُ محذوفٌ، تقديره: هُمْ صُمٌّ. وحَذْفُ المسندِ إِلَيْهِ (هُمْ) ههنا؛ اتُّبِعَ فيه الاستعمالُ الواردُ على تَرْكِهِ، وذلك أَنَّ حذفَه

---

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/100، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/214، والشَّوكانّي، فتح القدير: 1/55.

(2) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/258، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 44، وجماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 4، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 2.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 408-1/407.

(4) الطِّيبيّ، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب: 2/245.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/52.

بُلُوغُ الصَّمَمِ وَالْبَكَمِ وَالْعَمَى لَدَى الْمُنَافِقِينَ الْغَايَةَ

هَهنا شائعٌ في كلام العرب؛ "إِذَا ذكَرُوا موصوفا بأوصافٍ أو أخبارٍ؛ جَعَلُوه كأنَّه عُرِفَ لِلسَّامِعِ"[1].

فالصَّمَم والبكَمُ والعَمَى بلغ الغايةَ عندَ المنافقين، حتَّى إِنَّ هذه الأخبارَ إذا ذُكِرَتْ لَمْ تنصرِفْ إِلَّا لهم؛ لِكَمالِها فِيهِمْ.

سِرُّ تَرْتِيبِ الْأَوْصَافِ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ:

عَدَمُ انْتِفَاعِ أَهْلِ النِّفَاقِ بِحَوَاسِّهِمْ

تَرْتِيبُ هذه الأوصافِ[2] على النَّحْوِ المذكور في الآية: الصَّمَمُ، ثُمَّ البكَم، ثُمَّ العمَى؛ رُوعي فيهِ الوجودُ في الواقِعِ مِن جهةِ ردِّ المنافقين لِلْوَحْيِ المُنَزَّلِ؛ فكان ذلك أنسبَ لِلسِّياق، وَوَجْهُ ذلكَ: أنَّ العبدَ يسمعُ قولَ النَّبيِّ ﷺ: إنِّي رسولُ اللّه، فينطقُ ويقول: ما دليلُ صدقِكَ؟ فيُريهِ آيةً مِنَ الآياتِ[3]، فنفَى اللّهُ تعالى عَنْهُمُ انتفاعَهم بهذه الحواسِّ، وأثبتَ لهم أَضْدَادَها.

وَجْهُ تَشْبِيهِ الْمُنَافِقِينَ بِالصُّمِّ الْبُكْمِ الْعُمْيِ:

انْعِدَامُ آثَارِ الْإِحْسَاسِ عِنْدَ الْمُنَافِقِينَ

الصُّورة البيانيَّةُ في قولِه جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾ هيَ مِن باب التَّشْبيهِ البليغ، لا الاستعارة؛ لأنَّ المستعارَ له -وهم المنافقُونَ- مذكورٌ، وَحَذْفُ ضميرِهِ لا يُخْرِجُهُ عَن هذا؛ لأنَّه مُقدَّر، والمقدَّر في قوَّة المذكور[4].

فشُبِّه المنافقونَ في انعدام آثار الإِحْسَاسِ مِنْهُمْ بالصُّمِّ البُكْم العُمْي، وهذا ليس على سَبِيلِ التَّوْزِيعِ؛ بمعنى أَنَّ بعضَهم كالأصمِّ، وبعضَهم كالأبكَم، وبعضَهم كالأعمى، وإنَّما كلُّ واحدٍ مِنْهُمُ اجْتَمَعَت فِيهِ الصِّفاتُ كلُّهَا[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/313.
(2) المراد بالأوصاف ههنا بالنَّظر إلى المعنَى لا باعتبار الاصطلاح النَّحوي؛ وذلك لأنَّ الأخبارَ أوصافٌ من جهة المعنى.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/61.
(4) النَّسَفِيّ، مدارك التَّنزيل: 1/56.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/313-314.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ:

اسْـتِـمْـرَارُ أَهْـلِ الـنِّـفَـاقِ فِي بَـاطِـلِـهِـمْ، وإصـرارُهم على غيّهم

الجملةُ في قولِه سُبحانه: ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ جملةٌ اسميةٌ مفيدةٌ استمرارَ تلك الحالِ فِيهِمْ[1].

وقُوِّيَ هذا المعنى بتَكْرَارِ الإسنادِ مرَّتين؛ فَقَدْ أُسندَ الرُّجُوع إلى ضَمير المنافقين (هُمْ) مِن إسناد الخَبَر إلى المبتدأ، وأُسندَ الرُّجوعُ إلى واوِ الجماعةِ الرَّاجعة إِلَيْهِمْ؛ مِن إسناد الفعل إلى فاعله، فَلَمَّا تكرَّر الإسنادُ تأكَّد المعنى وقَوِيَ.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

الـتَّـنـاسـبُ السِّياقيُّ أصلٌ في توجيه عِلَلِ الاختيار

خُتِمَت هذه الآيةُ بقوله: ﴿لَا يَرۡجِعُونَ﴾، وجاء في آية أخرى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: 171]؛ وذلك لمناسبة كلِّ مقْطَعِ آيةٍ لـمَطْلَعِها.

ووجهُ ذَلِكَ: أنَّ الآية الأُولَى فيها تَمْثِيلُ حالِ المنافقين بِمُسْتَوْقِدِ النَّار قصدًا لِلإِضَاءة، فلَمَّا حصل المقصودُ؛ أَذْهَبَ اللّٰه تعالى النُّور، "فلَمْ يَكُنْ لَهُ ما يَسْتَضِيءُ به ويَرْجِعُ إِلَيْه، فنفى عَنْهُمْ وجُودَ ما يرجعون إِلَيْهِ من ضِيَاءٍ يَدْفَعُ حَيْرَتَهُم"[2].

أمَّا الآية الثَّانية؛ فإنَّه مَثَّلَ حالَ الكافرين بحالِ الغَنِم التي يُنادَى بِهَا فلا تَسْمَعُ إلَّا صوتًا لا تَعْقِلُ معناهُ، فناسب ختْمُها بـ ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾[3].

فَسَلْبُ الرُّجوعِ عَنِ المُنَافقين؛ لكونهم آمنُوا ثُمَّ كفرُوا، فلم يرجعوا إلى الإيمَان، وسَلْبُ العَقْلِ عَنِ الكُفَّار؛ لكونهم ليسوا مِن أَهْلِ البَصيرة والإيمَانِ أصلًا[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/52.
(2) ابن الزُّبير الغرناطيّ، مِلاك التَّأويل: 1/25.
(3) ابن الزُّبير الغرناطيّ، مِلاك التَّأويل: 26-1/25.
(4) ابن القَيِّم، اجتماع الجيوش الإسلاميَّة: 68-2/67.

﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ
فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩
يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ
عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [البقرة: 19-20]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

المَثلان متكاملان المثل الناري أبان ضياع أعمالهم، والمثل المائي أبان أثر القرآن في فضحهم وكشف حقيقتهم

انتقلَ التَّمثيلُ من بيانِ جُهْدِ المنافقين في الانتفاعِ من الإسلام، وانقطاعِهم بعد ذلك، إلى بيانِ أَثَرِ القرآنِ في الكَشْفِ عن حقيقةِ جوهرِهم؛ فالمَثَلَان مُتكامِلان في بَيانِ حالِهم مع القُرآنِ، فَالمثَلُ النَّاريُّ أَبَانَ عن ضَياعِ جهودِهم وبعثرةِ أفعالِهم الصَّادرةِ عنهم في محاولةِ التَّخفّي وَرَاءَ ما يقومون به من أعمالٍ، والمَثَلُ المائيُّ أَبَانَ عن أَثَرِ القُرآنِ في فَضْحِهم وتَشْخِيصِ صِفاتِهم، وهذا من تكامل التَّمثيل.

وفي ذلك قال أبو السّعود: "تَمْثِيلٌ لِحالِهِمْ إِثْرَ تَمْثِيلٍ؛ لِيَعُمَّ البَيانُ مِنها كُلَّ دَقِيقٍ وجَلِيلٍ؛ ويُوَفّى حَقُّها مِنَ التَّفْظِيعِ والتَّهْوِيلِ؛ فَإِنَّ تَفَنُّنَهم في فُنُونِ الكُفْرِ والضَّلالِ؛ وتَنَقُّلَهم فِيها مِن حالٍ إلى حالٍ؛ حَقِيقٌ بِأنْ يُضْرَبَ في شَأْنِهِ الأمْثالُ؛ ويُرْخى في حَلْبَتِهِ أعِنَّةُ المَقالِ؛ ويُمَدَّ لِشَرْحِهِ أطْنابُ الإطْنابِ؛ ويُعْقَدَ لِأَجْلِهِ فُصُولٌ وأبْوابٌ؛ لِما أنَّ كُلَّ كَلامٍ لَهُ حَظٌّ مِنَ البَلاغَةِ؛ وقِسْطٌ مِنَ الجَزالَةِ والبَراعَةِ؛ لا بُدَّ أنْ يُوَفّى فِيهِ حَقُّ كُلٍّ مِن مَقامَيِ الإطْنابِ والإيجازِ؛ فَما ظَنُّكَ بِما في ذُرْوَةِ الإعْجازِ مِنَ التَّنْزِيلِ الجَلِيلِ؛ ولَقَدْ نُعِيَ عَلَيْهِمْ في هَذا التَّمْثِيلِ تَفاصِيلُ جِناياتِهِمْ؛ وهو عَطْفٌ عَلى الأوَّلِ؛ عَلى حَذْفِ المُضافِ لِما سَيَأْتِي مِنَ الضَّمائِرِ المُسْتَدْعِيَةِ لِذَلِكَ"[1].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/52.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿كَصَيِّبٍ﴾: الصَّاد والواو والباء تدلُّ اشتقاقاتُهَا على نُزُول شَيْءٍ واستقرارِهِ في قرارِهِ[1]، وَمِنْهُ قولُهم: صَابَ المطرُ يَصُوبُ؛ إذا نزل مِنَ السَّماءِ[2]، والصَّوب: المطر، والصَّيِّبُ: سَحابٌ ذو صَوْبٍ[3]، والمرادُ بالصَّيِّبِ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٍ﴾: المطرُ[4]، وعَلَيْهِ أكثرُ أهلِ التَّفسير[5].

2) ﴿ٱلصَّوَٰعِقِ﴾: تَصَاريف الصَّاد والعين والقاف تَدُلُّ على الصَّوْتِ الشَّديد[6]، ومِنْهُ: الصَّاعقة والصَّعْقة؛ وهي: الصَّيحَةُ يُغْشَى على مَن يَسْمعهَا أو يَمُوتُ[7]، وتُسْتَعْمَلُ في خُصُوص: صَوتِ الرَّعدِ الشَّديدِ الذي يُغشى على الإِنْسَانِ مِنْهُ[8].

وتُطلق على قِطْعَةِ النَّار النَّازلة مِنَ السَّماءِ[9]، فما تُصِيبُ شَيْئًا إلَّا دكَّته وأَحْرَقَتْهُ[10].

3) ﴿مُحِيطُۢ﴾: أصلُ هذهِ المَادَّةِ -وهي الحَاءُ والواو والطَّاء- يدلُّ على شيءٍ يُطيفُ بشيءٍ[11]، ومِنْهُ قولُهم: أَحَاطَ القومُ بِالبَلَدِ؛ إذا اسْتَدَارُوا بجوَانِبِه[12]، وأَحاطَ بِهِ الأَمْرُ؛ إذا أخذه مِن جميع جوانبِه، فلَمْ يَكُنْ مِنْهُ مَخْلَصٌ[13].

ومِنْهُ اسمُ الله (المُحِيط)؛ مِن قولهم: أحاطَ بالشَّيءِ؛ إذا استولَى عَلَيْهِ، وضمَّ جميعَ نواحِيه حَتَّى لا يُمكن فوتُهُ ولا التَّخَلُّص مِنْهُ، فاللّه محيطٌ بالأشياءِ كلِّهَا؛ لأنَّها تحتَ قُدرتِه، لا يُمكنها الخُرُوج عَن إرادتِهِ فِيهَا، ولا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مِنْهَا شيءٌ[14].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(2) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (صوب).
(3) الفراهيدي، العين: (صوب).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (صوب).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 1/334-336، والماورديّ، النُّكت والعيون: 1/81.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صعق).
(7) الأزهري، تهذيب اللّغة: (صعق).
(8) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (صعق).
(9) ابن جُزيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 1/73.
(10) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (صعق).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوط).
(12) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (حوط).
(13) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حوط).
(14) أبو القاسم الزَّجَّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 46.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وَصْفُ حالِ المنافقين إذا سمعوا القرآن

وَلِلْمُنَافِقِينَ حالٌ أخرى؛ وهي حالُهم إذا سَمِعُوا القُرآن وأوامرَه ونَوَاهِيَه وزَوَاجِرَهُ -وهم في شَكٍّ وكُفْرٍ ونفاقٍ-، فروَّعهم وَعِيدُه، وأَزْعَجَتْهُم وُعُودُه، فجعلوا يَسُدُّون آذانَهم كراهةً لَهُ وإعراضًا عَنْهُ، ولكنَّ مُحْكَمَ القرآنِ يَدُلُّ على عَوْرَاتِهم، وهُم كُلَّما ظَهَرَ لَهُمْ شيءٌ مِنَ الإيمَانِ اسْتَأْنَسُوا به، إلَّا أنَّ ذلك لا يدومُ، فَتَعْتَرِضُهُمُ الشُّكوكُ؛ فتُظْلِمُ عَلَيْهِمْ قُلُوبُهُمْ، فيَقِفُون حائرين.

فهذه الحالةُ تُشْبِهُ حالَ قوم نزلَ عَلَيْهِمْ مطرٌ غزير من سحابٍ، تُصاحبهُ ظلماتٌ -ظلمةُ اللَّيلِ، وظلمة السَّحاب، وظلمة المطر-، ورعدٌ قاصِف وبرقٌ لَامِعٌ، فجعلوا أصابعَهم في آذانهم بسبب الصَّوَاعِقِ المُحْرِقَةِ خشيةَ الهلاكِ، واللّه ﷻ محيطٌ بِهِمْ قُدْرَةً وعلمًا، فلا يَفُوتُونَه ولا يُعجِزُونَهُ.

يكادُ البَرْقُ من شدَّة لمعانِه يَسْلُبُ أَبْصَارَهم، فإذا أضاء لَهُمُ الطَّريقَ مَشَوْا في ضوئِه، وإذا ذهب ضوؤُهُ أظلمتِ الطَّريقُ عَلَيْهِمْ، ووقَفُوا في أماكنهم، ولولا أَنَّ اللّه تعالَى أَمْهَلَهُم؛ لَسَلَبَ سمعَهم وأبصارَهُمْ، وهو سُبْحَانَهُ قَدِيرٌ على كُلِّ شيءٍ[1].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

اسْتِعْمَالُ ﴿أَوْ﴾ لِمُطْلَقِ التَّسَاوِي عَلَى طَرِيقَةِ المَجَازِ المُرْسَلِ:

اسْتِقْلَالُ كُلٍّ مِنَ المَثَلِ النَّارِيِّ وَالمَائِيِّ بِوَجْهِ الشَّبَهِ

أَصْلُ (أَوْ) لِلْحُكْمِ بِتَسَاوِي أَمْرَيْنِ أو أكثرَ في الشَّكِّ، ثُمَّ تُوُسِّعَ فِيهَا؛ فاسْتُعْمِلَتْ لِلتَّساوي من غير شكٍّ[2]، وذلك على طريقةِ المجاز المُرْسَل، علاقَتُهُ: الإطلاقُ والتَّقْيِيد؛ فكانت (أَوْ) لِلتَّسَاوي في الشَّكِّ، فجُرِّدَت عن قَيْدِ الشَّكِّ، واستُعْمِلَت في مُطلق التَّسَاوِي.

---

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 44، وجماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 4، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 4.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/81.

فـ (أَوْ) في قولِه: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٍ﴾: تُشْعِرُ بتسَاوِي المَثَلَيْنِ -النَّاريِّ والمائيِّ- في الاِسْتِقْلَال بوجه التَّشْبيه، فبأيِّهِمَا وقع التَّمثيل فالأمرُ صحيحٌ، وكذا إن وقعَ التَّمْثيلُ بهِمَا معًا[1].

نكتَةُ حَذْفِ المُضَافِ:

قولُه تعالى: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٍ﴾ فيه إيجازٌ بالحذفِ؛ فقد حُذفَ المضافُ، والتَّقدير: أو كأصحابِ صَيِّبٍ[2]، وقرينةُ الحذفِ حاليَّةٌ؛ إذْ لا يُرادُ تمثيلُهم بنَفْسِ الصَّيِّبِ كما هُو ظَاهِرٌ.

سِرُّ تَنْكِيرِ (صَيِّبٍ):

عَظَمَةُ الصَّيِّبِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ

تَنْكِيرُ (صَيِّب) للتّعظيم وبيان النَّوْعِ؛ وهما متآيِلَان؛ فبيانُ النَّوْعِ يُقْصَدُ به أنَّه نوعٌ هائلٌ كأنَّه جِنْسٌ مُسْتقلٌّ عنِ المعهودِ منْهُ، وهذا يَؤُولُ إلى معنى التَّعْظِيم[3].

فَائِدَةُ ذِكْرِ قَيْدِ: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

عُمُومُ الصَّيِّبِ وَاشْتِمَالُهُ عَلَى الأَهْوَالِ؛ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ دَفْعُهُ

قولُه سبحانه عَنِ الصَّيِّبِ بأنَّه ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إِطْنَابٌ؛ إِذِ المَطَرُ لا يكون نَازِلًا إِلَّا مِنْهَا، وذلك لِأَرْبَعِ نِكَاتٍ:

إحداهَا: الإِشارة إِلَى أنَّه أمرٌ لا يَقْدِرُون عَلَى دَفْعِه؛ وذلك لِما عُهِدَ من كلام بلغاء العربِ تَعْبِيرُهم عمَّا يقع على النَّاس مِمَّا لا قِبَلَ لهم بدَفْعِه بأنَّه نزل مِنَ السَّماء[4].

ثَانيهَا: بيانُ أَنَّ الصَّيِّبَ عامٌّ مُطْبِقٌ، قد أخذَ بآفاقِ السَّماء، وهذا لا يُفيدُهُ لو قيل: (أو كَصَيِّبٍ فِيهِ ظُلُمَاتٌ)[5].

ثَالِثُهَا: التَّنبيه على كثرة ما فيهِ مِنَ الهَوْلِ؛ لأنَّ حصُولَ الألَمِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/52.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/39.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/392.
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/146.
(5) الرازيّ، التّفسير الكبير: 2/317.

بِشَيْءٍ يَنْزِلُ مِنْ مَوْضِعِ شديدِ الارْتِفَاعِ، أشدُّ مِن حصُولِهِ مِمَّا يَنْزِلُ مِنْ موضعٍ دونَهُ في الارتفاع[1].

وكلٌّ مِنَ هذه النِّكات الثَّلاثِ يُعدُّ وجهًا من أوجه تعظيم الصَّيِّبِ، إضافةً إلى تَنْكِيرِ لفظه.

رابِعُهَا: أنَّه لِزيَادَةِ اسْتِحْضَارِ صُورةِ الصَّيِّبِ في هذا المَثَلِ؛ فإنَّ المَقَامَ مقامُ إطنابٍ[2].

اخْتِصَاصُ السَّمَاءِ الْأُوْلَى بِالْمَطَرِ النَّازِلِ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ

اللَّامُ فِي ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ لِلْعَهْدِ:

السَّماء في قوله ﷻ: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لِلْعَهْدِ، وهي السَّماء الأولَى؛ إذْ لا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاوَاتِ الأخرى على أَهْلِ الأرض مَطَرٌ.

اسْتِجْمَاعُ معاني التَّهويلِ والتَّرهيب

فائدةُ التَّنكيرِ في الكلماتِ الآتيةِ: ﴿ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾:

توالت الكلمات الآتية: ﴿ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ بالتزام التّنكير لإفادةِ معاني التَّهويل والتَّرهيب؛ والمعنى: فيهِ ظُلمات شديدةُ السَّوادِ كأنَّها اللَّيل، ورعدٌ يُصِمُّ الآذانَ، وبرقٌ يَخْطَفُ الأبصار، ولدفع تَوَهُّم العموم[3].

كُلٌّ مِنَ الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ نَوْعٌ وَاحِدٌ، أَمَّا الظُّلُمَاتُ فَأَنْوَاعٌ

جَمْعُ الظُّلُمَاتِ وَإِفْرَادُ الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ:

جُمعتِ الظُّلماتُ وأُفْرِدَ الرَّعد والبرقُ في قوله ﷻ: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾؛ لأنَّ الظُّلماتِ أنواعٌ: ظلمةَ السَّحابِ، وظُلمةَ المطر، وظلمة البُعد، بخلافِ الرَّعد والبرق؛ فَهُمَا نوعٌ واحدٌ[4]؛ ولِأَنَّ الرَّعد والبرقَ في الأصل مَصْدَرَانِ؛ يقال: رَعَدَتِ السَّماء رعدًا، وبَرَقَتْ بَرْقًا، فَرُوعِيَ فيهمَا حُكْمُ أصلِهما فتُرِكَ جَمْعُهُما وإنْ كان المرادُ في المعنى الْجَمْعَ[5].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/63.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/317.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/83، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 1/140، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/66.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/174.
(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/83.

نُكْتَةُ تَرْتِيبِ الظُّلُمَاتِ وَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ:

تَقْدِيمُ الغَايَةِ عَلَى الْوَسِيلَةِ، وَالِابْتِدَاءُ بِالْوَسِيلَةِ الْأَوْضَحِ

تَرْتِيبُ هذه الألفاظِ في قوله سبحانه: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ رُوعِيَ فيه اعتبارُ الكثرة في الوجودِ؛ فإنَّ الظَّلام موجودٌ في اللَّيل معَ كلِّ يوم، ثُمَّ الرَّعْدُ أكثر وجودًا مِنَ البرقِ؛ إِذِ البرقُ لا يكون إلَّا مع رعدٍ، بخلاف الرَّعدِ فقد يكُونُ ولا برق مَعَهُ[1].

بَلَاغَةُ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ:

بَيَانُ حَالِ الْمُنَافِقِينَ مَعَ الشَّدَائِدِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ عَمَّا قبلُ؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ، فكأنَّه لَمَّا ذَكَرَ ما يُشْعِر بالشِّدَّةِ والهولِ، قيل: ما حالُهم مع هذه؟ فجاء الجوابُ: ﴿يَجْعَلُونَ﴾[2].

فَائِدَةُ اخْتِيَارِ التَّعْبِيرِ بِالْجَعْلِ:

بَيَانُ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَالْهَلَعِ الَّذِي يُصِيبُ الْمُنَافِقِينَ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبير بمادَّةِ (جعل) فَقَالَ اللّٰه سُبْحَانَهُ: ﴿يَجْعَلُونَ﴾ دون (يُدْخِلُونَ) وهو ما يقتضيه الظَّاهرُ؛ فإنَّ الأصابع تُدْخَلُ في الآذَانِ ولا تُجْعَلُ؛ وذلكَ لِبَيَانِ شدَّة الْتِبَاسِ الأصابعِ بالآذان، حتَّى أَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنْهَا، وهو ما يُبَيِّنُ شدَّةَ الخَوْفِ والهَلَعِ لدى أُولَئِكَ الجُبَنَاء، فَهُمْ لا يُدخِلُون أصابِعَهم في آذانِهم فَحَسْبُ، بل يَجْعَلُونَهَا فيهَا دُونَ تَحْرِيكٍ أَوْ زَحْزَحَةٍ، بخلاف الإدْخَالِ؛ فإنَّه يُفيد مُجَرَّدَ معنى إدخالِ الأصابعِ في الآذان، وهذا المعنى المجرَّدُ لا يُعْطِي دلالة فِعْلِ الْجَعْلِ.

نكتةُ التَّعْبِيرِ بِالْأَصَابِعِ دُونَ الْأَنَامِلِ:

الْمُبَالَغَةُ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ الْحَقِّ بِسَدِّهِمْ مَسَامِعَهُمْ

الْأَصَابِعُ في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ يُرَادُ بها الأناملُ، فَهُوَ مجازٌ مُرْسَلٌ، علاقتُه الكُلِّيَّةُ؛ والقرينَةُ: اسْتِحَالَةُ إدخال الْإِصْبِعِ كلِّها في الْأُذُنِ[3].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/63.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/51.

(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/101.

ونُكتةُ المجاز ههنا: الإشارةُ إلى شدَّةِ جَعْلِها في الآذانِ، وقُوَّةِ الشَّدِّ لَهَا، حتى كأنَّهم يَجْعَلُونَ الْإِصْبعَ كُلَّها في الأذن[1]، أو أنَّ ذلك لِلْمُبَالَغَةِ في إرادةِ سَدِّ مَسَامِعِهِمْ بِحَيْثُ لو أمكنهم لَأَدْخَلُوا الْإِصْبِعَ كُلَّها[2].

سِرُّ جَمْعِ (الْأَصَابِعِ):

شِـــدَّةُ حَـــيْرَةِ الْمُنَافِقِينَ

جُمِعَتِ الأصابعُ تَنْبِيهًا على شِدَّة حَيْرَتِهم وخَوْفِهم، وأنَّه لقلَّةِ تأمُّلهم لم يجعلُوا الإصبع المعهودَ إدخالُها في الأذنِ وهِيَ السَّبَّابة، بل تارةً يجعلون إصبعًا وتارة يجعلون أُخْرَى، حتَّى إنَّهم -لغلبة الحَيْرَةِ على عقُولِهم- ربَّما حاولوا جعلَ الجميع[3].

ويؤيِّدُ حيرتَهمُ الشَّديدةَ ظنُّهم أنَّ وضعَ الأصابع في الآذانِ قد يَدْفَعُ عَنْهُمُ الموتَ[4].

أو أنَّ جمعَ الأصابع جاءَ مقابلًا لجمع الآذانِ في قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾، والقاعدةُ في هذا: أَنَّ مقابلة الجمع بالجمع تقتضي القِسْمَةَ آحادا، والمعنى: يجعلُونَ كُلَّ إصْبعٍ في أُذُنٍ، ومِنَ المعلوم أنْ ليس لكلِّ واحدٍ مِنْهُمْ إِلَّا أُذُنَانِ اثْنَتَانِ.

نُكْتَةُ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْقِعَ الْمُضْمَرِ:

الْـكُـفْـرُ أَعْـظَـمُ أَسْـــبَـــابِ اسْـتِـحْـقَـاقِ الْعَذَابِ

وَقَعُ الْمُظْهَرُ مَوْقِعَ الْمُضْمَرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ فلم يقل: (وَاللّه محيط بِهِمْ)؛ لِنُكْتَتَيْنِ:

إِحْدَاهُما: إفادةُ التَّرْهِيب[5].

والأُخْرَى: الإعلامُ بِسَبَبِ استحقاقِهمُ العذَابَ؛ وهو كُفْرُهُم[6].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/63.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/195.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/63.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/150.
(5) الطُّوفِّي، الإشارات الإلهيَّة، ص: 44.
(6) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/67، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحَان: 1/221.

فَائِدَةُ الإِطْنَابِ بِالِاعْتِرَاضِ:

تَسْلِيَةُ اللهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ وَالْمُؤمِنِينَ

جُمْلَةُ ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مُعْتَرِضَةٌ بين أجزاء المَثَلِ: ما سبق مع قوله: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾، فَفِيهِ إِطْنَابٌ بالِاعْتِرَاضِ، وفائدتُهُ: تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ والمؤمنين[1].

فَصْلُ الْجُمْلَةِ عَمَّا قَبْلَهَا؛ لِشِبْهِ كَمَالِ الِاتِّصَالِ:

بَيَانُ حَالِهِمْ مَعَ الْبَرْقِ أَوْ مَعَ الصَّوَاعِقِ الْمَقْرُونَةِ بِهِ

فُصلَ قولُه تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ عمَّا قبلُ؛ لِمَا بَيْنَهُمَا مِن شِبْهِ كَمَالِ الاتِّصال، وهو المُسَمَّى: الاستئنافَ البيانيَّ، وذلك أنَّ الجملة واقعةٌ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّر يُفْهَمُ مِمَّا سبق، وهو أن يقال: ما حالُهم مع ذلك البَرْقِ؟ فجاء الجوابُ: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ﴾[2].

ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُ السُّؤال: ما حالُهم مع تلك الصَّواعق؟ فكان الجواب: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ﴾، وتكونُ اللَّامُ العَهْدِيَّةُ في (البرق) عوضًا عَنِ المُضاف إِلَيْهِ، والمعنى: يكاد بَرْقُهَا، أي: بَرْقُ الصَّواعقِ.

فالصَّواعِقُ المَسْؤُولُ عَن حَالِهِم معَهَا هي الصَّواعق المقرونَةُ بالبرق، وإلَّا لم يَتَطَابَقِ الجوابُ مع السُّؤالِ[3].

تَعْرِيفُ ﴿ٱلۡبَرۡقُ﴾ لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ الصَّرِيحِيِّ:

اللَّام في (البرق) مِن قول الله جَلَّ وعلا: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيّ الصَّريحيّ؛ إِذْ سبق ذكرُ مدخولِ اللَّام صراحةً في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ﴾[4].

إِيثَارُ اسْتِعْمَالِ صِيغَةِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ:

المضارع في (يكاد) يُساعد على اسْتِحْضَارِ الْحَالِ لِبَيَانِ قُوَّةِ الْبَرْقِ

آثَرَ النَّظم الكريمُ التَّعْبِيرَ بالفِعْلِ المُضَارِعِ ﴿يَكَادُ﴾ دُونَ (كَادَ)؛ لأنَّ المقصودَ اسْتِحْضَارُ قوَّةِ البَرْقِ وأثرِه في سَلْبِ الأَبْصَار؛

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 1/197.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/84.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/402.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/146.

لذلك آثَرَ فعلَ المُقارَبَة، أمَّا الفعلُ المُضَارِعُ ﴿يَخۡطَفُ﴾ الواقِعُ في خَبَرِ (يكادُ) فهو شَرْطٌ فيها؛ تَنْبِيهًا على أنَّه المقصودُ بِالْقُرْبِ[1].

بلاغةُ فَصْلِ الْجُمْلَةِ عَمَّا قَبْلَهَا:

أَثَرُ الاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إِبْرَازِ مُتَابَعَةِ الْمُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

وقَعَتْ جملة ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ﴾ استئنافًا بيانيًّا، وهو الاستئنافُ البيانيُّ الثَّالثُ في هذا السِّياقِ؛ فالجملة واردةٌ جوابًا لِسُؤَالٍ يُفهَمُ مِمَّا قبلُ، وتقديرُهُ: كيف يَصْنَعُونَ في حالَيْ لَمْعِ البرقِ واختفائِهِ؟ فجاء الجواب: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾[2] لِبَيَانِ الْحَالِ وإبرازِ الشَّوْقِ والمتابعةِ في ذِهْنِ الـمُتَلَقِّي، فَهُوَ لَيْسَ إخبارًا مُجَرَّدًا، بل هُوَ جوابٌ عمَّا يجولُ في النَّفس مِن تشوُّقٍ لمعرفةِ موقفِ المنافقين ممَّا يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماء.

اخْتِيَارُ الْأَدَوَاتِ النَّحْوِيَّةِ فِي الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ:

أَثَرُ الْأَدَاةِ النَّحْوِيَّةِ فِي إِظْهَارِ الْمَعَانِي النَّفْسِيَّةِ وَالدَّلَالَاتِ الْخَفِيَّةِ

لِلْأَدَاةِ النَّحويَّة في الاستعمالِ القرآنيِّ بلاغةٌ عاليةٌ في الكَشْفِ عَنْ مَضَامينِ المعَاني، ومِنْ ذَلِكَ استعمالُ ﴿كُلَّمَآ﴾ مع الفعل ﴿أَضَآءَ﴾، و﴿إِذَا﴾ مع الفعلِ ﴿أَظۡلَمَ﴾؛ إِذْ تركَّزَت دلالة ﴿كُلَّمَآ﴾ على إظهارِ حرصِهم في انتهازِ الفُرصَة لِلْمَشْيِ والـمُضِيِّ[3]، فَهُمْ يَتَرَقَّبون أدنَى فرصة لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سبيلًا، بخلاف (إِذَا)؛ فَإِنَّها تفيدُ تحقُّقَ التَّوقُّفِ عَنِ الْمَشْيِ، وهذا يَكْشِفُ ما يَجُولُ في نفوسِهم مِنْ طَلَبِ الْهَرَبِ وَالانْفِلَاتِ؛ إِذْ همُّهم قائمٌ على ذلِك.

اخْتِلَافُ مَعْنَى فِعْلِ الْإِضَاءَةِ بِاعْتِبَارِ التَّعَدِّي وَاللُّزُومِ:

بَدِيعُ اسْتِعْمَالِ السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ لِلْفِعْلِ الْوَاحِدِ بِتَحْقِيقِ مَعْنَيَيْهِ بِتَكَامُلٍ دِلَالِيٍّ

يَحْتَمِلُ أن يكونَ الفعلُ ﴿أَضَآءَ﴾ متعدِّيًا، والمعنَى: كلَّما نوَّر لَهُمْ مَمْشًى وَمَسْلَكًا أَخَذُوهُ، والمفعولُ حِينَئِذٍ يكُونُ مَحْذُوفًا، وَيَحْتَمِلُ أن يكُونَ لازِمًا، والـمَعْنَى: كلَّما لـمَعَ لَهُمْ مَشَوْا في مَطْرَحِ نورِه وملقى ضَوْئِه[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/52.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/86.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/86.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/86.

فإذا كان فعلُ ﴿أَضَآءَ﴾ متعدِّيًا؛ فإنَّهُ يفيدُ معنى تَنْوِيرِ الـمَمْشَى والـمَسْلَك، وإذا كان لازمًا؛ فيفيدُ معنى اللَّمعِ الخاطِف، وبين المعنَيَيْن تكاملٌ بديعٌ، وهو الكشفُ عَنْ حِرْصِ المُنَافِقِين الشَّديد في البحثِ عَنْ أَدْنَى سببٍ لِلْخُرُوجِ مِنْ مَأْزِقِهم، سواءٌ أكان تَنْوِيرًا لِمَمْشَاهُمْ، أَمْ كان لمعًا خاطفًا يأتيهم مِنْ فوقِهم.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِفِعْلِ ﴿أَضَآءَ﴾ دُونَ مُرَادِفَاتِهِ:

امْـتِـزَاجُ الْمُـفْـرَدَةِ بِالسِّيَاقِ وَأَثَـرُهُ فِي تَوْلِيدِ الْمَعَانِي السِّيَاقِيَّةِ

جاءَ التَّعبير هُنَا بالإضاءةِ دُونَ الْإِنَارَة حيث قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ دون (أنارَ لهم)؛ لِنُكْتَتَيْنِ[1]:

إِحداهما: زِيَادَةُ التَّخويف؛ فإِنَّ شدَّة الضَّوء عقب شِدَّة الظُّلمةِ أَدْخَلُ في التَّخويفِ.

والأُخرى: الإيماءُ إلى أنَّها ظلمةٌ عظيمةٌ لا يُزيلُها إلَّا الضَّوءُ الشَّديد دون النُّورِ القليل.

ويؤيِّدُ هاتين النُّكْتَتَيْنِ قولُه بعدُ: ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ﴾ دون (وإِذَا ذهب الضَّوءُ عَنْهُمْ)؛ لأنَّ الإخبار بذَهَابِ الضَّوء يحصلُ مِنْهُ مُطْلَقُ الظُّلمة، وآثر النَّظم القرآنيُّ الإتيانَ بـ ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ﴾؛ إيماءً إلى شِدَّة الظُّلمة؛ فالأمر دائرٌ بين شِدَّةِ ضوءٍ أو شِدَّة ظلمةٍ، وهذا أشدُّ في التَّخويف.

ولذا قال سبحانه: ﴿أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ﴾ لِبَيَانِ أنَّ الإظلامَ ليس مجرَّد ذهابِ الضَّوْءِ، بل كان عقوبةً مقصودة، وأكَّد هذا المعنى: المقابلةُ بين ثلاثةِ معانٍ:

الأول: ﴿أَضَآءَ﴾ و ﴿أَظۡلَمَ﴾.

والثاني: ﴿لَهُم﴾ و﴿عَلَيۡهِمۡ﴾.

والثالث: ﴿مَّشَوۡاْ﴾ و﴿قَامُواْ﴾.

فهذه المعاني الثَّلاثة المتقابلة دالَّةٌ على شدَّةِ ما هُم فيه من الظُّلمةِ والـمَخَاوِف.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/63.

بَلَاغَةُ حَذْفِ مَفْعُولِ الْمَشِيئَةِ:

تشويقُ المُتلَقِّي وَتَثْويرُ فِكْرِهِ لِمَعْرِفَةِ الجَوَابِ

حَذْفُ مفعولِ المشيئةِ بعد الشَّرط شائعٌ في كلام العرب[1]، وقصدُهم مِن ذلك: البيانُ بعد الإبهام[2]، فيحذفُونَ المفعولَ في الشَّرط؛ لدلالة الجزاء عَلَيْه، فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ﴾ أي: ولو شاء اللّه إذهابَ سَمْعِهم لذَهَبَ بِه.

وهذَا الحذفُ يَبْعَثُ في النَّفْسِ تشويقًا لمعرفة الجوابِ، فإذا جاء الجوابُ؛ وقع على نَفْسٍ مُسْتَشْرِفَةٍ لَهُ، فيتمكَّن مِنْهَا غايةَ التَّمكُّن.

بَلَاغَةُ الجَمْعِ وَالإِفْرَادِ فِي المَثَلِ القُرْآنِيِّ:

ارْتِبَاطُ الجَمْعِ بِكَثْرَةِ المُتَعَلِّقَاتِ، وَارْتِبَاطُ الإِفْرَادِ بِالوحْدَةِ

جاء السَّمعُ مفردًا والبصرُ جمعًا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾؛ ليتَّسقَ مع ما يُقرِّرُه المثلُ القرآنيُّ من معانٍ؛ فالإضاءَةُ والإظلامُ والمشيُ والقيامُ مِن توابعِ البَصَر، وتَكْرَارُ الإضاءةِ بدَرَجَاتِهَا المتفاوتَة يدُلُّ على تَكْرَارِ الإِبْصَارِ بدَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ، وطولُ الإضاءَةِ يُؤثِّر في زمن المَشْي، فكان البصرُ متعدِّدًا باعتبار تعدُّد متعلِّقاته؛ ولذلك جُمِع، بخلاف السَّمع، فإنَّه واحدٌ باعتبارِ المَسْمُوعِ والسَّامع.

من ناحية أخرى، السَّمع مصدرٌ، والمصادرلا يحْسُن جمعها، والأبصار يراد بها الأعين الباصرة. والسَّمع مركزي تصل إليه الأصوات من كل الجهات، والعين لا تبصر الشّيء إلا إذا اتَّجَهَت إليه، وجمع الأبصار يتناسب مع توجّهها للجهات المختلفة.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ السَّمْعِ عَلَى البَصَرِ:

أَهَمِّيَّةُ السَّمْعِ بِاعْتِبَارِ تَلَقِّي الوَحْيِ

قُدِّمَ السَّمعُ عَلَى الأَبْصارِ؛ باعتبارِ أهميَّته في تلقّي المسموع وهو الوحي، ولِلإشَارَة إلى مَرْتَبَتِهِ وأثره في فَهْمِ الحقِّ والبَاطِل، وكان مقتضَى الظَّاهرِ تقديمَ البَصَرِ باعتبارِ ذِكْرِ الإظلامِ والإضاءةِ،

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/87.

(2) السّبكي، عروس الأفراح: 375-1/374.

وهما من متعلّقاته؛ وسببُ ذلك دَفْعُ وَهْمٍ قد يَظنُّه ظانٌّ؛ وهو أنَّ البَصَرَ مُقدَّمٌ على السَّمعِ في هذا المَثَلِ على الخُصوصِ؛ فأبانَ تقديمُ السَّمعِ على البَصَرِ أنَّه المقدَّمُ؛ لأنَّه صاحِبُ الأهميَّة البَالِغة، وأنَّ البَصَرَ يبقى تابعًا له في الأهميّة.

بَلَاغَةُ الْفَصْلِ بِالْفَاصِلَةِ:

الفاصلة مؤكّدة لمضمون المثل، ومهدّدة للمنافقين

جاءَت الفاصلةُ مبرزةً قدرةَ اللّه تعالى على كلِّ شيء في نهاية المَثَل، فكانت بِمَنْزِلَةِ الكلَامِ المؤكِّد لمضمون المَثَل الْكُلّيِّ؛ ولذا فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ولم يُعطَف عمَّا قبله؛ لأنَّه كالتَّأْكِيد لِما قبلَهُ[1]، فهي ليست خبرًا مستقلًّا، وضُمِّنَتْ معنى التَّهديد والوعيد؛ فإنَّ إذْهابَ السَّمع والأبصار كُلّيًّا عن جماعةٍ بِعَيْنِهَا، ممَّا قد يُتَوَهَّمُ فِيهِ ضربٌ مِنَ التَّجَوُّزِ، فكانَتِ الفاصلةُ مؤكِّدةً هذا المعنى، ومهدِّدةً ومتوعِّدةً مَنْ يُصِرُّ على باطِله ونفاقه، وقد جَرَتْ هذه الفاصلةُ مجرى المَثَل؛ لتضمُّنِهَا معانِيَ غزيرةً، وَاسْتِقْلَالِهَا بِالْإِفَادَةِ.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَشِيئَةُ وَالْإِرَادَةُ:

المشيئةُ والإرادة متقاربتانِ، ولذا فسَّرَ كثيرٌ من علماء العربية أحدَهما بالآخرِ[2]، وربَّما أفاد صنيعُهم أنَّهما بمعنًى واحدٍ من جهة اللُّغة[3].

وذكر أبو البقَاءِ أنَّ بينَهما فرقًا من جهة اللُّغة؛ إذْ إنَّ المَشِيئَةَ لُغَةً: الإيجادُ، والإرادةَ لُغَةً: طلبُ الشَّيءِ[4].

وفرَّق بينهما أبو هِلَالٍ؛ بأنَّ الإرادةَ تكون لِما تراخَى زمَنُه ولِمَا لا يتراخى، بخلاف المشيئة فَهِيَ لِما لَم يتراخَ زمَنُهُ؛ فالإرادة أعمُّ مطلقا مِنَ المشيئة[5].

(1) حاشية زاده: 1/349.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (شيأ) و(رود)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (شيأ)، وابن منظور، لسان العرب: (شيأ)، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (رود).
(3) الشّريف الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 216.
(4) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 75.
(5) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 35.

أمَّا المشيئة والإرادة باعتبار تعلُّقهما باللّهِ تعالى: فالإرادة أعَمُّ مِنَ المشيئة مطلقًا؛ لأنَّ الإرادة تَشْمَلُ الإرادة الكَوْنِيَّةَ والإرادة الشَّرعيَّة، أمَّا المشيئةُ فهي مرادفةٌ لِلْإِرَادَةِ الكَوْنِيَّةِ[1].

(1) حافظ حَكَمِي، أعلام السُّنَّة المنشورة لاعتقاد الطَّائفة النَّاجية المنصورة، ص: 88.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: 21-22]

مُنَاسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُمَا:

بَعْدَ أن ذُكِرَتْ أحوالُ كلِّ فريقٍ مِنَ المؤمنين والكافرين والمنافقين، وضُرِبَت الأمثالُ، صلَحَ المقامُ لخطابهم جميعًا بما ينفعهم إرشادًا لَهُمْ ورحمةً بِهِمْ؛ فإنَّه لا يرضى لَهُمُ الضَّلال، ولم يَكُنْ ما ذُكر مِن سُوءِ صنيع الكافرين والمنافقين مانعًا من إعادة إرشادهم ووعْظِهم، فكان هذا الخطابُ تأنيسًا لأنفسهم بعدَ ما هدَّدهم وذمَّهم؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ الإغلاظ عَلَيْهِمْ إنَّما كان حرصًا على صلَاحِهِم[1].

بعد ذِكْر المؤمنين والكافرين والمنافقين، صلح المقام لخطابهم وإرشادهم

قال أبو السّعود في إيضاح مناسَبة الآيتين لما قبلهما: "إِثْرَ ما ذَكَرَ اللَّه تَعالى عُلُوَّ طَبَقَةِ كِتابِهِ الكَرِيمِ وتَحَزُّبَ النّاسِ في شَأْنِهِ إلى ثَلاثِ فِرَقٍ: مُؤْمِنَةٍ بِهِ مُحافِظَةٍ عَلى ما فِيهِ مِنَ الشَّرائِعِ والأحْكامِ، وكافِرَةٍ قَدْ نَبَذَتْهُ وراءَ ظَهْرِها بِالـمُجاهَرَةِ والشِّقاقِ، وأُخْرى مُذَبْذَبَةٍ بَيْنَهُما بِالـمُخادَعَةِ والنِّفاقِ، ونَعَتَ كُلَّ فِرْقَةٍ مِنها بِما لَها مِنَ النُّعُوتِ والأحْوالِ، وبَيَّنَ ما لَهم مِنَ المَصِيرِ والمَآلِ، أقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِالخِطاب عَلى نَهْجِ الِالتِفاتِ هَزًّا لَهم إلى الإصْغاءِ، وتَوْجِيهًا لِقُلُوبِهِمْ نَحْوَ التَّلَقِّي، وجَبْرًا لِما في العِبادَةِ مِنَ الكُلْفَةِ بِلَذَّةِ الخِطابِ، فَأمَرَهم كافَّةً بِعِبادَتِهِ، ونَهاهم عَنِ الإشْراكِ بِهِ"[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 324-1/323.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/58.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾: العينُ والباء والدَّال تدورُ أكثرُ تصاريفِها على لِينٍ وَذُلٍّ[1]، ومِنْهُ قولُهم: طريقٌ مُعَبَّدٌ، أي: مُذَلَّل من كثرة وطء الأقدام عَلَيْه، قال طَرَفَةُ[2]:

تُبَارِي عِتَاقًا نَـاجِيَاتٍ وَأَتْبَعَتْ *** وَظِيفًا وَظِيفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ

والعبادة شرعًا لها اعْتِبَارَانِ:

أحدهما: باعتبارِ ذاتِ الْفِعْلِ؛ وَهُوَ التَّعبُّدُ؛ وحَدُّها: الخضوعُ للّٰه تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ محبةً وتعظيمًا[3].

والآخر: باعتبار المُتعَبَّد به؛ وهو العبادة؛ وحَدُّها: اسْمٌ جَامع لكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللّٰه ويرضاه من الأَقْوَال والأعمال البَاطِنَة وَالظَّاهِرَة[4].

2) ﴿خَلَقَكُمۡ﴾: الخاء واللَّام والقاف تدلُّ مُعْظَمُ اشتقاقاتها على تقدير الشَّيء[5]، ومِنْهُ قَوْله تعالى: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ [العنكبوت: 17] أَيْ: تُقَدِّرون كَذِبًا[6]، وقد يكون بمعنى الافْتِرَاء[7].

وخَلَقَ اللّٰه الشَّيْء: أوجدَهُ وأنشأَهُ بعد أَن لَمْ يَكُن[8].

3) ﴿فِرَٰشٗا﴾: الفاء والرَّاء والشِّينُ تَدُلُّ تصاريفها على تمهيدِ الشَّيْءِ وبسطه[9]، يقال: فرشَ الشَّيْءَ يفرُشُهُ؛ إذا بسَطَهُ[10].

وَحَقِيقَة الفَرْش: الاسْتِوَاءُ، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ أي: مستويةً[11]، وهو لازمٌ لمعنى البَسْطِ، ومِن لوازمه أيضًا: الاستقرارُ؛ إِذِ الأرضُ المستويةُ المُنْبَسِطَةُ يُسْتَقَرُّ عَلَيْهَا.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(2) ديوان طرفة، شرحه: مهدي محمد ناصر الدِّين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط2، 1423، ص: 20.
(3) ابن عثيمين، القول المفيد: 1/14.
(4) ابن تيميَّة، العبوديَّة، ص: 44.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلق).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (خلق).
(8) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (خلق).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرش).
(10) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فرش).
(11) ابن سيده، المخصّص: (فرش).

4) ﴿رِزْقًا﴾: الرَّاء والزَّاي والقاف تَدُلُّ على العطاء[1]، فالرِّزْقُ: العطاءُ، أو هُوَ ما يُنْتَفَعُ به[2].

5) ﴿أَندَادًا﴾: الأَنْدَادُ جمع ندٍّ، والنِّدُّ: ما كانَ مِثْلَ الشَّيْءِ يُضادُّه في أمُورِه[3]، فَالنِّدُّ اجتمع فيه أمران: أحدهما: المِثْلُ والمشابهَةُ. والآخر: الضِّدُّ والمخالفة.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذا أول نداء في القرآن، وفيه ينادي الحقُّ جلَّ وعلا النَّاسَ جَمِيْعَهُمْ نِدَاءً لَطِيفًا مُفَادُهُ: أن يا معشرَ الإنسِ والجنِّ؛ وَحِّدوا اللّه وأفردوه بالعبادة فهو الذي ربَّاكم بالنِّعَمِ، وأوجدَكم مِنَ العدمِ، وأوجدَ مَنْ كان قبلكم لأجل أن تكونوا مِنَ المُتَّقِين.

والرَّبُّ المأمورُ بعبادَتِه هو الذي سهَّل لكمُ الحياةَ في الأرضَ بأَنْ جَعَلَهَا بساطًا ومهادًا يمكن الاِسْتِقْرَار عَلَيْهَا، وجعل السَّماءَ سقفًا مُحْكمَ البِنَاءِ، وأنزل مِنَ السَّحاب ماءً كان سببا في نباتِ صُنوفٍ مِنَ الثَّمرات؛ لتكون رزقًا لَكُم، ومَن كان هذا شأنَهُ؛ فهو المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادة وحده دُونَ مَا سِوَاه، فلا تجعلوا له نُظَرَاء في العبادة تَصْرِفُون لَهُمْ شيئًا مِنْهَا، والحالُ أَنَّكُم تعلمون تفرُّدَهُ باستحقاق العبادة؛ لتفرُّدِهِ بالرُّبوبية[4].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

النِّدَاءُ بِـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾؛ لِعُلُوِّ مَكَانَةِ المُنَادِي، وعِظَمِ شَأْنِ مَوْضُوعِ النِّدَاءِ:

عَظَمَةُ اللهِ ﷻ وَعَظَمَةُ خِطَابِهِ

وقع النِّداء بـ (يا) في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهي موضوعةٌ في الأصل لنِدَاء البعيد، ونداءُ اللّه تعالى لعبيدِه نِدَاءٌ مِنَ الخالق إلى خَلْقِهِ، فهو حقيقٌ بِأَنْ يَكُونَ بأداة النِّداء لِلْبَعِيد.

فمجيءُ أداة النِّداء لِلْبَعِيد ههنا لأوجُهٍ ثلاثةٍ[5]:

أحدها: لبُعْدِ ما بين الخالِقِ والمَخْلُوق.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رزق).

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (رزق).

(3) الخليل، العين: (ند).

(4) الواحديّ، الوجيز، ص: 95، والسّمعانيّ، تفسير القرآن: 58-1/56، وابن أبي زمَنِين، تفسير القرآن العزيز: 1/127، وجماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 4، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 4.

(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 155-1/154.

ثانيها: أنَّه نداء مِنَ الخالِقِ، وهو مُقْتَضٍ أعلَى العلُوِّ.

ثالثها: عِظَمُ شأن موضُوع النِّداءِ وهو العبادة؛ فإنَّ له جلالًا وخطرًا[1].

وفي استعمالِ خصوص النِّداء بـ (يَا أَيُّهَا) ضربٌ مِنْ توكيد النِّداء؛ لأنَّ (أَيّ) اسمٌ مُبْهَمٌ يَفْتَقِرُ إلى ما يُزيلُ إبهامَه، ولذا يُذْكَرُ بعده اسمٌ يُوضحِّهُ لِيَصِحَّ المقصود بالنِّداء، وهذا تدرُّجٌ مِنَ الْإِبْهَامِ إلى البيانِ، وَفِيهِ نوعُ توكيدٍ[2].

وفي اقترانِه بـ (ها) التَّنبيهِ: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إِذِ النِّداءُ في الأصل يُرادُ به التَّنبيهُ[3].

نُكْتَةُ الِالْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ:

تَرْغِيبُ العِبَادِ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى اللهِ تَعَالَى

الالتفاتُ في قوله جَلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ هو التفاتٌ مِنَ الغَيْبَةِ إلى الخطاب؛ لأنَّ الكلامَ عن أصناف النَّاسِ الثَّلاثةِ كان بلفظ الغَيبةِ، ثُمَّ خُوطِبَ الجميعُ بالنِّداءِ[4].

والنُّكْتَةُ في ذلك: الإيذانُ بأنَّهم صارُوا بما تقدَّم مِن ضَرْبِ الأمثال وغيرهَا أهلًا لأَنْ يُوَجَّه إِلَيْهِمُ الخطاب؛ "تَنْشِيطًا لَهُمْ في عبادته، وترغيبًا وتحريكًا إلى رَفْعِ أنفُسِهم بإقبال المَلِكِ الأعظم عَنِ الخضوع لِمَنْ هو دونه، بل دونهم، وبشارة لمن أقبل عَلَيْه بعدَ أن كان مُعْرِضًا عَنْهُ بدوام التَّرْقِيَة"[5]، فهو من قبيلِ إنشاءِ معنًى جديد، وبناءِ صرح من حَديد، فكأنَّه قيل: اطوُوا صفحة السَّابِق، وابدؤُوا العبادَةَ الحقَّةَ، بالأوصافِ المُستَحقّة.

مَعْنَى اللَّامِ فِي ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

الخطابُ موجَّهٌ للنّاس كلهم

اللَّامُ في (النَّاسِ) مِنْ قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ لِاستغراق

(1) يُنظر في سِرِّ كثرة النِّداء بـ (يَا أَيُّهَا) في القرآن الكريم: أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/58.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/89، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/58.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/291.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/66.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/136.

الجِنسِ[1]؛ فإنَّه خطابٌ لجميع العبادِ، إذَا حملنا النَّاس على العمومِ كما هو قولُ ابن عبَّاسٍ[2] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

المَجَازُ المُرْسَلُ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ التَّوْحِيدِ بِالعِبَادَةِ:

الْإِخْلَاصُ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ العِبَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ

قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أي: وحِّدُوه[3]، والتَّعبير عَنِ التَّوحيد بالعبادة من المجاز المُرْسَلِ بعلاقة المَلْزُوميَّة؛ فإنَّ العبادةَ الشَّرعية المعتدَّ بها يلزَمُ فيها التَّوْحِيدُ؛ فالتَّوحيد شرطٌ في صحَّتِهَا.

ونكتة التَّعبير بالمجازِ ههنا: التَّنبيهُ على عِظَمِ شأن التَّوحيد، ومنزلته مِنَ العبادَة.

إيثارُ عُنوانِ الرُّبوبيَّةِ على الألوهيَّة:

مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الِاسْتِدْلَالُ بِالرُّبُوبِيَّةِ عَلَى الْأُلُوهِيَّةِ

في التَّعبير باسم الرَّبِّ في قوله: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ -على ما هو الأكثر مِن اقتران (النَّاس) باسم (الرَّبِّ)-؛ لأنَّه أمرٌ لجميع النَّاسِ: مؤمنِهم وكافرِهم، فكان يَجْمُلُ فيه التَّعبير باسم الله (الرَّبِّ)؛ وذلك لنُكْتَتَيْنِ:

إحداهما: لِمَا يُشْعِرُ به مِنَ التَّربيةِ بالإحسان والإنعام، وفي ذلك تَهْيِيجٌ لِلْمَأْمُورين على امتثالِ الأمر[4].

والأخرى: إقامة البرهان على استحقاقهِ العِبَادةَ؛ إذْ فيه استدلالٌ بربوبيَّتِه سبحانه على ألوهيَّتِه.

إفرادُ اسمِ الرَّبِّ وإضَافَتُه إلى ضميرِ المخاطَبين:

اخْتِصَاصُ اللهِ تَعَالَى بِأَحَقِّيَّةِ الْعِبَادَةِ

إفرادُ اسم (الرَّبِّ) دالٌّ على أنَّ المرادَ ربُّ جميع الخلق وهو اللهُ تعالى؛ إذْ لا يوجد مَن يستحقُّ هذا الاسمَ مفردًا ومضافًا إلى جميع النَّاس إلَّا هُوَ سبحانه[5]، وإضافةُ اسم الرَّبِّ إلى ضمير المخاطبين:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/325.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/42.
(3) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/56.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/67.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/326.

يُفيدُ زيادةَ اختصاصه سبحانه بأحقيَّةِ العبادةِ، وهي -أي: الإضافة- أخصرُ طريقٍ في الدّلالة على هذا الاختصاص مِنَ المَوْصُول[1].

مِنْ مُوجِبَاتِ اسْتِحْقَاقِ اللهِ تَعَالَى لِلْعِبَادَةِ أَنَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ

نُكْتَةُ الْوَصْفِ: زِيَادَةُ الْبَيَانِ:

(الذي) مِن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾: اسم موصولٌ في محلِّ نصبٍ نعتٌ لـ (رَبَّ)[2]، وفائدةُ الوصف مع صلتِه: زيادةُ بيانٍ لمُوجِب العبادةِ، أو زيادةُ البيانِ لِمَا اقتضتْهُ إضافةُ اسم الرَّبِّ إلى ضمير المخاطبين من معنى الاخْتِصَاصِ الآنفِ الذِّكْرِ[3].

دلالة (مِنْ) عَلَى التَّوْكِيدِ، وَلِلْإِشَارَةِ إِلَى عُمُومِ الْخَلْقِ

فَائِدَةُ دُخولِ حرفِ الابتداءِ فِي صِلَةِ الموصُول:

وقع التَّعبيرُ بـ ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ دون (والذين قبلَكم) بزيادة (مِنْ) لفائدَتَيْنِ[4]:

إحداهما: توكيدُ المعنى وتَقْوِيَتُهُ، وهو المعنى الغالب على (مِنْ) الواقعةِ مَعَ (قَبْلُ) و(بَعْدُ).

والأخرى: الإشارةُ إلى أوَّلِ الموصُوفِينَ بالقَبْلِيَّةِ؛ إذْ إنَّ من معاني (مِنْ) الابتداء.

فيكون قد ذَكَرَ المخلوقِين الحاضرِين، وأوَّلَ المُتَّصِفين بالمخلوقيَّة، وما بينَهما مُستحضَرٌ بِذِكْرِهِمَا؛ إذِ البَيْنُ مُسْتَحْضَرٌ عِنْدَ ذِكْرِ الطَّرفَيْنِ، فقد جَمَعَ النَّظمُ الخَلِيقَةَ مِنْ مَبْدَئِهَا حتى مُنْتَهَاهَا، فدلَّ حرفُ الابْتِدَاءِ على البَدْءِ، ودَلَّ الخطابُ الشَّاملُ لجميع النَّاس على المُنْتَهَى، فهو جامعٌ لِلْبَشَرِيَّةِ في هَذَا الخِطَابِ.

قُوَّةُ ارْتِبَاطِ الفَاصِلَةِ بِصَدْرِ الآيَةِ لِتَقُومَ مَقَامَ العِلَّةِ لِلْمُعَلَّلِ

بَلاغَةُ التَّصْدِير:

فُصل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّهُ ظاهرٌ في التَّعليلِ[5]،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/327.
(2) محيي الدِّين الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/53.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/327.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/327.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/328.

والـمُعَلَّلُ هو الأمر بعبادة اللّه سبحانه في قوله قبلُ: ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾، وضعَّفه الزَّمخشريُّ، وجعل متعلَّقَ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ هو ﴿خَلَقَكُمۡ﴾؛ لأنَّ تعليقَها بـ ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ يُؤدِّي إلى تنافرٍ في النَّظْم يُنزَّهُ القرآنُ عَنْهُ؛ وذلك أَنَّ التَّقْوَى هي العبادةُ[1]، فيكون التَّقدير: اعبدُوا اللّه لعلَّكم تعبدون، وهذا لا تَجْمُلُ إرادتُهُ في فصيحِ الكلامِ، بَلْهَ كلامَ اللّه ﷻ.

وأجاب أبو حيَّانَ بأنَّ العبادةَ ليستْ نَفْسَ التَّقوى؛ إذْ إنَّ التَّقوى في الأصل: الاحْتِرَازُ عَنِ المَضَارِّ، بخلاف العبادة؛ فإنَّها موافَقَةُ خِطَابِ الشَّرع امْتِثَالًا لِلْمَأْمُورِ واجتنابا لِلْمَنْهِيِّ عَنْهُ؛ فكأنَّ معنى ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ إذا عُلِّق على الأمرِ بالعبادة: اعبدوا اللّه لِتَحْتَرِزُوا عَنْ عِقَابِهِ[2].

فَائِدَةُ حَذْفِ الْمَعْمُولِ:

تَكْثِيرُ المَعَاني بِوَجَازَةِ الأَلْفَاظِ مِنْ بَرَاعَةِ النَّظْمِ وَأَدِلَّةِ الإِعْجَازِ

حُذِفَ المَعْمُولُ مِن قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾ تكثيرًا لِلْمَعَاني، وَلِبَيَانِهِ ثَلَاثَةُ مَسَالِكَ:

الأَوَّلُ: أن يُقدَّر مفعولٌ خاصٌّ، والمعنى: لعلَّكم تتَّقون عقابَهُ[3].

الثَّاني: ألّا يُقدَّر مفعول خاصٌّ؛ لإفادة العموم، والمعنى: لعلَّكم تَتَّقُونَ جميعَ ما أُمِرْتُم شرعًا باتِّقائِهِ.

الثَّالث: أَنْ يُنَزَّلَ الفعل المتعدِّي منزلة اللَّازم، فلا يُقَدَّرُ له مفعول أصلًا، ومعنى ﴿تَتَّقُونَ﴾ على هذا: تحصلُ لَكُمُ التَّقوَى.

والأوجه المتقدِّمةُ مآلُهَا واحدٌ؛ إذْ إنَّ تقديرَ المفعولِ الخاصِّ لا يتنافى مع العموم، وذلك بِحَمْلِ الخاصِّ على التَّمثيل، وهو من طرائقِ التَّفسير اللَّطيف، وهذان الوَجْهان لا يَتعارَضَان مع تَنزيل المتعدِّي مَنْزِلةَ اللَّازم؛ إذْ إنَّ تحصيلَ مَلَكَةِ التَّقوى الكاملةِ لا يكونُ إلَّا باتِّقاء جميع ما أُمِرَ العبدُ باتِّقائِهِ، فيكونُ تنزيلُ الفعْلِ المتعدِّي منزلةَ اللَّازمِ كالنَّتيجة لتقديرِ المحذُوفِ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/93.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/156-157.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/162.

اتّفاقُ الأَوْجُهِ النَّحْوِيَّةِ في إِنْشَاءِ مَعْنَى التَّعْظِيمِ وَالثَّنَاءِ

النُّكْتَةُ البَلَاغِيَّةُ مَجْمَعُ الْأَوْجُهِ النَّحْوِيَّةِ:

اختلف النُّحاةُ في إعرابِ الاسمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ عَلَى قولَيْنِ رَئِيسَيْنِ:

الأوَّل: أَنْ يَكُونَ في محلِّ نصبٍ نعتًا، وَنَصْبُهُ حينئذٍ على المدح والتَّعظيم[1].

الآخَرُ: أن يكون في محلِّ رفعٍ؛ فيكون خَبَرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، ويُستفادُ مِن ذلك المدحُ والتَّعظيمُ أيضًا[2].

وهذان الوجهَانِ أفَادَا معنى التَّعظيم والمدح، أحدهما: بالجُمْلَةِ الفعليّةِ، والآخرُ: بالِاسْميَّةِ، وَأفاد أحدُهما تجدُّدَ التَّعظيم والمدح، وأفادَ الآخرُ الثَّباتَ والدَّوامَ، فَهُمَا وَجْهَانِ مُتَكامِلَانِ يأخذُ أَحُدُهُمَا بِحُجَزِ الآخَرِ.

نَوْعُ السِّيَاقِ وَأَثَرُهُ فِي إِبْرازِ المَعْنَى البَيَانِيِّ المَقْصُودِ

عِلَّةُ اخْتِلَافِ النَّظْمِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ:

قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾، ولم يقل: (لكُم ولمن قَبْلَكُم) كما قال قبلُ: ﴿خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وذلك لِنِكَاتٍ ثلاثٍ[3]:

الأولى: أنَّهُ من باب الاكتفاء، وإلَّا فهو مرادٌ، والقرينةُ على المحذوفِ: الآيةُ قبلَهُ.

الثَّانية: أنَّهُ مِن باب التَّغليب، فغُلِّبَ المخاطبونَ على الغائبينَ.

الثَّالثة: أنَّ الآيةَ خرجت مخرجَ الِامْتِنَانِ بجعل الأرض فراشًا، والمخاطبُونَ هُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بالأرض على هذا الوجهِ، وأمَّا من قبلَهُمْ فَهُمْ تَحْتَهَا قَدْ ماتُوا.

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/93.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/68.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/69.

بَرَاعَةُ التَّشبيه البَليغ:

اجتماعُ الأرضِ والسَّماءِ في أسلوبٍ واحدٍ من التَّشبيه مع تَبايُنِهما دليلٌ على مُكنة النَّظم

شُبِّهَتِ الأرضُ بالفراش، والسَّماءُ بالبناء في قولِه اللّه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾؛ فمعنى ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ أي: كالفراش، ومعنى ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ أي: كالبناءِ.

ووجْهُ الشَّبه في الأوَّل: هو التَّمكُّنُ مِنَ الِاسْتِقْرَار[1]، والانتفاعُ والرَّاحةُ والسُّهولةُ.

ووجه الشَّبَه في الثَّاني: الوقاية مِنَ الأضرار النَّازلة، فكما أنَّ البِنَاء المعروف يَقِي من أضرارٍ تَنْزِلُ من فوقُ، فكذلك السَّماءُ تقِيَ أضرارًا نازلةً[2].

فَنُّ الِاكْتِفَاءِ:

اتِّحادُ المقصدِ في الِامْتِنَانِ

حُذِفَ الفعلُ ﴿جَعَلَ﴾ والجارُّ والمجرور (لَكُمُ) من قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾؛ اكتفاءً بذِكْرِه مع الأرض، فذِكْرُهُ أوَّلًا دليلٌ على حذفِه ثانيًا، وهو دليلٌ على اتِّحاد المقصدِ في الِامْتِنَانِ.

نُكتةُ وَضعِ المُظْهَرِ مَوْقِعَ المُضْمَرِ:

أُظْهِرَ لفظ (السماء) لاختلاف المراد بالسَّماوَيْن

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ إظهارٌ في موضِع الإضْمَار[3]؛ إذْ مُقْتَضى الظَّاهر أن يقال: (وأنزل مِنْهَا ماءً)، إلَّا أنَّه أَظْهرَ لاختلاف المراد بالسَّمَاوَيْن، فإنَّ الأولى هي البِنَاءُ الذي يَظْهَرُ في رَأْيِ العَيْن نهارًا أَزْرَق، والثَّانية: يُراد بها السَّحابُ.

تَنْكِيرُ (مَاءً) لِبَيَانِ البَعْضِيَّةِ:

كَثْرَةُ مَنَافِعِ المَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ

تنكير الماء في قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ لِلْبَعْضِيَّة[4]؛ أي: أنَّ هذا الماء النَّازلَ هو بعضُ نِعَمِه، وليس الماءُ النازلُ إلَّا بعضًا من مياهٍ كثيرةٍ[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/331.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/331.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/61.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/94.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/159.

وعبَّر جماعةٌ مِنْهُمُ الشَّوكانيُّ عن غرضِ التَّنكير في مثل هذا ببيان النَّوعيَّة[1]؛ أي: نوعًا من أنواع الماء، والغالب أنَّ النَّوعيَّةَ إذا أُطْلِقَت - بوصفهَا غرضًا - فإنَّه يَلزم مِنْهَا التَّعْظِيمُ؛ أي: أنَّه نوعٌ عظيمٌ، كأنَّه لعظمَتِهِ مخالفُ المعهودَ مِنَ الأنواع.

وقد يُقال بالجمع بين الغَرَضَيْنِ المذكُورَيْنِ لعَدَمِ التَّعارُض بَيْنَهُمَا، وتكثيرًا لِلْمَعَاني القُرآنيَّةِ، وأنَّ المعنى: أنزل مِنَ السَّماء ماءً عظيمًا في ذاتِهِ لكثرة منافعه، ومع ذلك هو بعضٌ من نِعَمِهِ سُبحانه على خلقِهِ.

التَّعْبِيرُ بِالثَّمَرَاتِ دُونَ الثِّمَارِ أَوِ الثَّمَرِ:

كَثْرَةُ ثِمَارِ الْجَنَّةِ فالثمراتُ تفيدُ من الكثرة ما لا تُفيدُه الثِّمار

جاء التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ في قوله سبحانه: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ دون (الثِّمَارِ) أو (الثَّمَرِ)، مع أنَّ الأول جمعُ تصحيحٍ وهو من جموع القلَّة، بخلاف الجَمْعَيْنِ الآخرَين فَهُمَا مِن جموع الكثرةِ، والواقع أنَّ الخارجَ بسبب الماء: ثمارٌ كثيرةٌ، وذلك لوجهين[2]:

الأوَّلُ: أنَّ المقصودَ بالثَّمراتِ: جماعةُ الثَّمرة؛ أي: أنَّ واحدَ الثَّمراتِ هي: الثَّمرة التِي يُراد بهَا الثِّمار، وبناءً على هذا، فـ(الثَّمرات) مشتملةٌ على أفرادٍ، وكلُّ فردٍ يشتمل على ثمارٍ، وعَلَيْهِ فَإِنَّ (الثَّمرات) تُفِيد مِنَ الكَثْرَةِ ما لا تفيده (الثِّمار) أو (الثَّمَر) وإن كانت من جموع القِلَّة.

الثَّاني: أنَّ الجمعَ المحلَّى باللَّام خارجٌ عن حَدِّ القِلَّةِ، فلا يتعيَّنُ إرادة جمع القلَّةِ من لفظ (الثَّمراتِ).

إِظْهَارُ الِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ زِيَادَةً فِي التَّقْرِيرِ وَتَعْلِيلًا لِلْحُكْمِ بِوَصْفِ الْأُلُوهِيَّةِ:

إظهار لفظ الجلالة للتقرير وتعيينه بالذّات بعد تعيينه بالصفات

في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ إظهارٌ في موضع

(1) الشَّوكانِّي، فتح القدير: 3/132.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/94، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 307-2/306، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/62.

الإضمار؛ إذْ مُقْتَضَى الظَّاهر أن يقال: فلا تجعلوا لَهُ أندادًا؛ والنُّكْتَةُ في ذلك: زيادةُ التَّقْريرِ؛ لِتَعْيين الـمَعْبُودِ بالذَّاتِ بعد تعيينه بالصِّفات[1].

وفيه تعليلٌ لِلْحُكْم بوصْفِ الألوهِيَّة، واستحالة الشَّرِكَةِ[2].

نُكَتُ حَذْفِ مَفْعُولَيْ (عَلِمَ):

الـمُخَالَفَةُ مَعَ الْعِلْمِ أَقْبَحُ مِنَ الـمُخَالَفَةِ مَعَ الجَهْلِ

وحُذِف مفعولا (عَلِمَ) من قوله: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، وفي ذلك طَرِيقَتَانِ[3]:

إحداهما: أَنْ يُقَدَّر بحسب المقام، والمعنى: والحال أَنَّكُم تعلمون أَنَّهُ لا يُمَاثِله شيءٌ.

والأخرى: أن يُنزَّل الفعلُ الـمُتَعَدِّي منزلَةَ الفعلِ اللَّازم، والتَّقدير: والحال أَنَّكُمْ مِن أهل العلم والمعرِفَة.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/62، والآلوسّي، روح المعاني: 1/192.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/192.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/193.

﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة: 23-24].

مُنَاسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُمَا:

بعد دعوة الناس إلى عبادة الله وتوحيده، لفت انتباههم إلى ربّانيّة الوحي فدعاهم إلى الإتيان بسورة من مثله

لـمَّا شرعتِ الآياتُ في بيانِ أصنافِ النَّاس بين مؤمنٍ وكافرٍ ومنافق، ثمَّ خاطَبَهم مجموعين بلفظِ النَّاس، وأمَرَهم بالعبادةِ لِتحصيلِ فضيلةِ التَّقوى، ودلَّهم عَلَيْهِ مِنْ خلالِ الآياتِ الكونيَّة، ونهاهُم عنِ اتِّخاذِ الأنداد، كان من المناسِبِ دفعُ التُّهَم وَالشُّكوكِ حول الآياتِ القرآنيّة؛ فإنَّ نَهْيَ المخاطَبين عَنِ اتِّخاذِ الأنداد مِنْ شَأْنِهِ تحريكُ العقولِ الجاحدة والقلوبِ المريضة لِلْمُحَافَظَةِ على إرثِ الآباء، ومُجَابَهَةِ التَّكاليف الجديدة، فكانت مواجهةُ ذلك بقولِهِ تعالَى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ﴾ من بَراعة الاِسْتِبَاقِ الاحترازِيِّ، وبلاغةِ المحاورة العقديَّة، وفصاحةِ المجادلة العقليَّة، فوقعتْ هذه الآيةُ مِنَ السَّابق موقعَ التَّتميم والتَّكميل بِمَا لا غَنَاءَ عَنْهَا.

ثُمَّ إنَّهُ لـمَّا ذَكَرَ إنزالَ الماءِ من السَّماء باعتباره أحدَ مظاهرِ القدرةِ الإلهيَّة والعجزِ البشريِّ، طالَبَهم بالإتيانِ بسورة مِنْ مِثْلِ سُوَرِ القرآن النَّازلة مِنَ السَّماء؛ لبيانِ أنَّ من يَعْجز عن إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماء عاجزٌ عَنِ الإتيانِ بسورة مِنْ مِثْلِ القرآنِ، وهو من إلحاقِ النَّظير بنظيره.

من ناحية أخرى، إنّه لـمّا أقامَ الدَّلائلَ القاهِرَةَ عَلى إِثْباتِ الصّانِع، وأبْطَلَ القَوْلَ بِالشَّريك، عَقَّبَهُ بِما يَدُلُّ عَلى النُّبُوَّة، ولَمّا كانَتْ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ مَبْنِيَّةً عَلى كَوْنِ القُرْآنِ مُعْجِزًا أقامَ الدّلالة عَلى كَوْنِهِ مُعْجِزًا[1].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 2/125-126.

قال أبو حيّان الغرناطي في بيان وجه المناسبة بما سبق: "ومُناسَبَةُ هَذِهِ الآيَةِ لِما قَبْلَها أنَّهُ لَمّا احْتَجَّ تَعالى عَلَيْهِمْ بِما يُثْبِتُ الوَحْدانِيَّةَ ويُبْطِلُ الاشْتِراكَ، وعَرَّفَهم أنَّ مَن جَعَلَ لِلَّهِ شَرِيكًا فَهو بِمَعْزِلٍ مِنَ العِلْمِ والتَّمْيِيزِ، أخَذَ يَحْتَجُّ عَلى مَن شَكَّ في النُّبُوَّةِ بِما يُزِيلُ شُبْهَتَهُ، وهو كَوْنُ القُرْآنِ مُعْجِزَةً، وبَيَّنَ لَهم كَيْفَ يَعْلَمُونَ أنَّهُ مِن عِنْدِ اللَّهِ أمْ مِن عِنْدِهِ، بِأنْ يَأْتُوا هم ومَن يَسْتَعِينُونَ بِهِ بِسُورَةٍ. هَذا، وهُمُ الفُصَحاءُ البُلَغاءُ المُجِيدُونَ حَوْكَ الكَلامِ، مِنَ النِّثارِ والنِّظامِ والمُتَقَلِّبُونَ في أفانِينِ البَيانِ، والمَشْهُودُ لَهم في ذَلِكَ بِالإحْسانِ."[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿شُهَدَآءَكُم﴾: الشِّين والهاء والدَّال تدور تصاريفُها على مَعانٍ ثلاثة، هِيَ: الحضور والعلم والإعلام، ومِن ذلك الشَّهادةُ؛ فهي جامعة لِلْمَعَاني الثَّلاثة المذكورة[2].

والشُّهداء: جمعٌ لِلشَّهيدِ، بمعنى: الشَّاهدِ، وهو المُخْبِرُ عَنْ عِيَانٍ بحقٍّ لغيرِهِ على آخَرَ[3].

وفي المراد بقوله تعالى: ﴿شُهَدَآءَكُم﴾ أقوال، فقيل: هي آلهتهم؛ لأنَّ الكُفَّار يَشْهَدُونَها ويحضرونَها، أو لأنَّهم عبَدُوها لتشهدَ لهم عند اللّٰه تعالى -في زعمهم-، وقيل: هُمُ الأعوان، وسُمُّوا بذلك لأنَّ من شرط الإعانةِ حضورَ المُعانِ عَلَيْهِ وشهودَهُ، وقيل: بناسٍ يَشْهَدُونَ أنَّ ما أتَوْا به هُوَ مثلُ القرآنِ[4].

2) ﴿صَٰدِقِينَ﴾: الصَّاد والدَّال والقاف تَدُلُّ تصاريفُها على قُوَّةٍ في الشَّيْءِ قولًا كان أو غيرَه، ومِنْهُ قولُهم: هذا شيءٌ صَدْقٌ، أي: صلبٌ، ومِنْهُ سُمِّيَ الصِّدق -نقيض الكذب- بذلك؛ لقوَّتِهِ في نفسِهِ[5].

وَالصَّادقُ: المُتَّصِفُ بالصِّدْقِ، والصِّدْقُ: هو إخبارٌ عَنِ المُخْبَرِ بِهِ على ما هو عَلَيْهِ في الواقع، ولا يكون محمودًا شَرْعًا إلَّا مع العِلْمِ بأنَّهُ كذلك[6].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/284.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(3) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 129.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/44.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(6) أبو البقاء الكفويّ، الكُلّيّات، ص: 556.

3) ﴿وَقُودُهَا﴾: الواو والقاف والدَّال: كَلِمَةٌ تدُلُّ على اشتعال نارٍ[1]، والوَقودُ: الحَطَبُ، والوُقُودُ: التوقُّدُ والاتِّقادُ[2].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

إثبات عجز جميع النّاس عن الإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن، وهذا دليل ربّانيّته وإعجازه

وَإنْ كُنْتُم أيُّها النَّاسُ في شكٍّ مِنَ القرآن المعجزِ بفصاحتِه المُنَزَّل على عبدنا مُحَمَّدٍ ﷺ فَجيئُوا بسورة واحدة مُمَاثلةٍ له -ولو لأقصر سورة مِنْهُ- حَقًّا وصِدقًا، لا باطل فِيهَا ولا كَذِبَ، واستعينوا بِمَنْ شئتُم من أنصاركم وأعوانكم، وأتوا بِمَنْ يَشْهَدُ لَكُم أنَّ ما تأتون به يماثِلُ القرآنَ، إن كنتم صادقين في دعواكم.

فإنْ لم تقدروا على ذلك الآن -ولن تقدروا عَلَيْهِ أبدًا- فاجعلوا الإيمانَ باللّه تعالى ورسولِه ﷺ وقايةً لكم مِنْ عذاب النارِ التي تُوقَدُ بالحجارة وبِمَنِ اسْتَحَقَّ العذابَ من النَّاسِ، وقد أعدَّها اللّه تعالى لِلْكَافرين به وبِرُسُلِه[3].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تَعْلِيقُ الشَّرْطِ بِـ (إِنْ) دُونَ (إِذَا):

قُوَّةُ أَدِلَّةِ الْإِعْجَازِ الْقُرْآنِيِّ وَمُكَابَرَةُ أَهْلِ الْكُفْرِ

جيءَ بأداة الشَّرط (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ -وهي تدُلُّ في الأصل على عدم الجزم بوقوع الشَّرطِ- فيُفيدُ ذلك أنَّ شكَّهم وريبَهم ليس مقطوعًا به، مع أنَّهم زادُوا على الشَّكِّ التَّكْذيبَ؛ لأنَّ مدلول الشَّرط حفَّ به مِنَ الأدلَّة والبراهين ما شأنُهُ أن يُزيلَ الشَّرطَ بالكلِّيَّةِ، بحيث يكون وقوعُه مفروضًا[4]، فيكون فيه إيماءٌ إلى أنَّ ريبَهُمْ ضعيفٌ مشكوكٌ في وقوعِه.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وقد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وقد).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/373. ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/44، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/57، وجماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 4، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 4.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/336.

اختيارُ المفردةِ وأثرُه في بيان دقائق النَّظم:

ريبُ الكافرين ضعيف لسطوع دلائل الإعجاز القرآني

التَّعْبير بالرَّيْب دون الشَّكِ وهو من الألفاظ قريبةِ الدّلالة عليه؛ لِلتَّنْبِيه على أنَّ جَزْمَهم ذلك بمنزلةِ الرَّيْبِ المُسْتَضْعَف؛ لكمال وضوح أدلَّة الإعجاز وكونها بلغَتْ في القوَّةِ مبلغًا عظيمًا، أو أَنَّ ذلك لِلإِشَارَةِ إلى أنَّ أقصى ما يمكِنُ صدورُه عَنْهُمْ هُو الرَّيْبُ، وإن كانوا في غايةِ المُكَابَرَةِ والمعاندة[1].

فَائِدَةُ أُسْلُوبِ البَحْثِ فِي الِاسْتِدْلَالِ:

عَدَمُ الاعْتِدَادِ بِشَكِّ الشَّاكِّينَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الاستدلالُ الواردُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، هُوَ استدلالٌ بأحد أنواع الْجَدَلِ، وهو معارضةُ دليل الخصم بدليل آخرَ، ففيه أسلوبُ البحثِ -الذي يُسمِّيه جماعةٌ: المذهبَ الكلاميَّ[2]- في علم البَديع.

وتقريره: أَنَّهُمُ ارْتابُوا وشكُّوا في براهين النُّبوَّةِ وأدلَّة ربَّانيَّة مصدر القرآن الكريم؛ فَلْيُعارِضُوه، لِيَكُونَ لشَكِّهم وَجْهٌ؛[3].

التَّعْبِيرُ بِـ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ دُونَ (وَإِنِ ارْتَبْتُمْ):

الرَّيْبُ الْمُوَجَّهُ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هُوَ مِنْ عُقُولِ الْمُرْتَابِينَ الفَاسِدَةِ لَا مِنْ ذَاتِ الْقُرْآنِ

عُبِّر بـ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ دون (وإِنِ ارْتبْتُمْ)؛ لأنَّ (كُنْتُمْ) تُصوِّرُ ما وقعَ مِنْهُمْ؛ مبالغةً في تنزيهِ القرآن الكريم عن شائبة وقوع الرَّيْبِ فيه، وإنَّما ذلك واقعٌ مِن عقولِهِمُ الفاسدةِ لا من ذات القرآن الكريم[4].

ويؤيِّدُ هذا المعنى: أنَّ حرف الجرِّ (في) يُومئُ إلى انْغِمَاسِهِمْ في الرَّيْبِ، وأنَّه قد أحاط بِهِمْ كَإِحَاطَةِ الظَّرف بالمظروف[5].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/63.

(2) وحدُّه: أنْ يُورِدَ المتكلِّم حجةً لمطلوبه، بأَنْ يَكُونَ التَّسليمُ بالمقدّماتِ يستلزمُ التَّسليمَ بهذا المطلوب. ابن عبد الحقِّ العُمَريّ، درر الفرائد المستحسنة في شرح منظومة ابن الشّحنة، ص: 444-443.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/70.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/63، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/162.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/336.

تَنْكِيرُ ﴿رَيْبٍ﴾ لِلتَّقْلِيلِ:

تَنْكِيرُ (ريب) من قوله تعالَى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يُراد بِهِ التَّقْلِيلُ؛ لِلإِشَارَةِ إلى حقيقةِ مَا في نفُوسِهم مِنَ التَّصْدِيق، وجحدِهم بألْسِنَتِهم مُكابَرةً وعنادًا، ومعنى الآية: إنْ كان عِنْدَكُم أدنى ريبٍ، فَانْفُوه عن أنفسِكُم بالإتيان بسُورَةٍ من مِثْلِه[1].

التَّعْبِيرُ بِـ (نَزَّلَ) دُونَ (أَنْزَلَ):

إنْـــزَالُ الْـقُـرْآنِ الْكَرِيمِ مُنَجَّمًا أَنْسَبُ لِسِيَاقِ التَّحَدِّي وَأَبْلَغُ فِي تَبْكِيتِ الْكُفَّارِ

التَّعبير بـ (نزَّل) في قوله سبحانه: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ دون (أَنْزَلَ)؛ لِمَا يُفيدُهُ (نَزَّل) مِنَ التَّنجيم وَالتَّدريج، وهو المُطَابِقُ لتنزيل القرآن الكريم، وهو الأنسَبُ لمقام التَّحدِّي، فكأنَّ المعنى: (إنِ ارْتَبْتُم في هذا الذي وقع إنزَالُهُ هكذا على مَهل وتدريج، فهَاتُوا أنتم نَوْبَةً واحدة مِنْ نُوَبِه، وهَلُمُّوا نَجْمًا فردًا مِن نُجُومِه: سورةً من أَصْغَرِ السُّور، أو آياتٍ شَتَّى مفتريات، وهذه غايةُ التَّبْكِيت، ومُنْتَهى إزاحة الْعِلَلِ)[2].

ولأنَّ هذا جارٍ على سَنَنِ العربِ الذين نزل القرآن الكريم بلغتِهم؛ فكان النَّاظم لا يُلْقِي دِيوان شعرِه مرَّة واحدة، ولا يرمي النَّاثِر بخطبِهِ ورسائلِهِ دفعةً واحدةً، فلو أنزل اللّٰه تعالى القرآن الكريم جُمْلَةً واحدة؛ لكان إنزالُهُ على خلاف هذه العادَة، بِالْإِضَافَةِ إلى فواتِ فوائدَ أُخْرَى من تَنْزِيلِهِ مُنَجَّمًا[3].

الِالْتِفَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ؛ لِلدّلالة عَلَى التَّفْخِيمِ:

عَـظَـمَـةُ مُـنَـزِّلِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعَـظَـمَـةُ الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ بأسلوب التَّكَلُّم بعد قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ بأسلوب الغَيْبَة، وكان مقتضى الظاهر: (مِمَّا نزَّل على عبدِهِ)؛ ففيهِ الْتِفَاتٌ مِنَ الغَيْبَةِ إلى التَّكَلُّم، وفائدته: تفخيمُ المُنَزِّل وهو اللّٰه تعالى، وتفخيم الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ وهو النَّبيُّ ﷺ لا سيَّما

(1) عادل أحمد الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن الكريم في سورتي الفاتحة والبقرة، ص: 112.

(2) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 1/97.

(3) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 97-1/96.

وأنَّ أسلوبَ التَّكلُّم في ﴿عَبۡدِنَا﴾ وَرَدَ بـ (نَا) الدَّالَّةِ على العظمةِ؛ وذلك ما لا يُفيده (عَبْدِي) وإن كان يتوافَقُ مع ما قبله في التَّكلُّم[1]، والْإِضَافَةُ في ﴿عَبۡدِنَا﴾ لِتَشْرِيفِ المضافِ.

دلالة الْأَمْرِ فِي ﴿فَأۡتُواْ﴾:

إِقَامَةُ الحجَّةِ عَلَى الخَصْمِ؛ لِتَحْقِيقِ الإِقْنَاعِ وَالهِدَايَةِ

الأمرُ في قوله ﷻ: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ يُرادُ به التَّحدِّي، وليس المرادُ بِهِ الإِلْزَامَ؛ إِذِ المقامُ مقامُ إظهارِ عجزهم عَنِ الإتيان بسورة مِنْ مِثْلِ القُرآن الكريم؛ لِأَنَّهم إِنْ حَاوَلُوا ذلك بعد سماعهم صيغةَ الأَمْرِ - ولم يُمْكِنْهُم - ظَهَرَ عَجْزُهُمْ وبانَ[2].

ثُمَّ إِنَّ التَّحَدِّيَ لا يُرادُ لذاتِه، وإنَّما يُرادُ لازِمُهُ وهو ثبوتُ صِدْقِ الرِّسالةِ وهدايةُ المخاطَبين؛ وذلك لا يكونُ إلَّا بإقامة الحجَّة عَلَيْهِمْ، فَفِي الْأَمْرِ قِيمَةٌ هِدائيّة، وإبرازُ التَّعجيز فِيهِ قِيمَةٌ جَدَلِيَّةٌ، وتقديم القِيمَةِ الهدائيَّة على الجدليَّةِ طريقَةٌ قرآنيَّةٌ.

تَنْكِيرُ (سُورَةٍ) لِبَيَانِ النَّوْعِ:

تَوْسِيعُ دَائِرَةِ التَّحَدِّي تُظْهِرُ عَجْزَ الْمُعَانِدِينَ

نُكِّرت (سُورَة) مِن قول الله ﷻ: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ﴾ لِبَيَانِ النَّوعِ؛ لِلإِيمَاءِ إلى اتِّساع مجال التَّحدِّي والمعارضة؛ فَإِنَّ المطلوبَ حينئذٍ هو الإتيان بمثلِ أيِّ سورةٍ من سُوَرِ القُرآن، وهذا غايةٌ في التَّبكيت والتَّخجيلِ لهُمْ إِذْ عَجَزُوا عَن ذلك[3]. وهم الفصحاءُ البُلَغاءُ الأَبْيِنَاءُ.

دلالة الْحَرْفِ ﴿مِّن﴾:

أُمِّيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَدِلَّةِ صِحَّةِ الْمَصْدَرِ الرَّبَّانِيِّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

(مِنْ) في قوله سبحانه: ﴿بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ لا يَجُوزُ أن تُحمَلَ على كونِهَا صِلَةً[4]؛ لأنَّ (مِنْ) إنَّما تُزاد -عندَ الجمهور- في النَّفي، وبشرط أَنْ يَكُونَ مَدْخُولُها نكرةً[5].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 1/284.
(2) بسيوني عبد الفتاح فيُّود، علم المعاني، ص: 360.
(3) عادل أحمد الرّويني، من غريب بلاغة القرآن الكريم في سورتي الفاتحة والبقرة، ص: 117.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/170.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/34.

وتحتمل ﴿مِّن﴾ هَهُنَا ثلاثة أوجُهٍ:

الأوَّل: أن تكون لِلابْتِدَاءِ؛ وذلك بإعادة الضَّمير في ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ لِلْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ وهو النَّبيُّ ﷺ ويكون المعنى: فَأْتُوا "بسورة كائنةٍ مِمَّنْ هو على حالِهِ مِنْ كونِه بشرًا أُمِّيًّا، لم يقرأ الْكُتُبَ، ولم يتعلَّم العلُومَ"[1].

والثَّاني: أن تكون لِلتَّبْيِين، وعَلَيْهِ فَتَكُونُ السُّورةُ المتحدَّى بها كونَهَا مثلَ القرآنِ في النَّظم وغرابةِ البَيَان[2].

والثَّالِثُ: أن تكُونَ لِلتَّبعيض؛ إذِ التَّحَدِّي في هذه الآية وقع ببعضِ القرآن؛ وهو السُّورة[3]، أو أنَّ التَّبْعِيضَ رَاجِعٌ إلى المُمَاثَلَةِ؛ أي: أنَّهم مُطَالَبُون بنوعٍ مِنَ الْمُمَاثلةِ، لا بالمُمَاثَلَةِ التَّامّةِ[4]، وهذا المعنى هو الأظهرُ، "ومعنى هذا أن المرحلة الأخيرة كان التّحدي فيها للنّاس جميعًا، ولا يُعقل أن يتحدَّى النَّاس جميعًا بالبيانِ وحدَه، إنَّما هو تحدٍّ عامٌّ عمومَ المخاطبين به"[5]؛ فيدخلُ فيه جميع أوجه الإعجاز، والمخاطَبون مطالبون بالإتيانِ بوجهٍ واحد، وهذا هو معنى التَّبعيض.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ سُورَةِ البَقَرَةِ وَسُورَةِ يُونُسَ:

لَم تَرِد (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: 38]؛ وذلك أنَّ آيةَ يونسَ وقع التَّحدِّي بالإتيان بسورة مماثلةٍ لِلْقُرْآن، بخلاف آيةِ البقرة، فكان فيها تَنَزُّلٌ مَعَهُمُ مِنَ الإِتْيَانِ بالمماثل إلى الإتيان بِشَيْءٍ مِمَّا يُماثل، فالمطلوبُ: شَيْءٌ مِن جِنْسِ المُمَاثلة على وجه التَّقريب.

ولَمَّا كانت آيةُ البقرَةِ آخِرَ آياتِ التَّحدِّي الأربع نُزُولًا؛ إِذِ الآيَاتُ الثَّلاث الأُخَر كلُّها واردةٌ في سُوَرٍ مكِّيةٍ -وهي: الإسرَاءُ، ويُونُسُ، وهُودٌ- كان ذِكْرُ (مِنْ) فيها دون آيةِ يُونُسَ أنسبَ؛ لأنَّ ذلك وقعَ على جهةِ التَّنَزُّلِ معهم في التَّحَدِّي؛ لأجل تَبْكِيتِهم وإظهار عجزِهِمْ[6].

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/320.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/34.
(3) الواحديّ، البسيط: 2/238.
(4) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 553.
(5) فضل حسن عباس، إعجاز القرآن المجيد، ص: 22.
(6) أحمد هنداوي عبد الغفّار هلال، آيات التَّحدِّي ودقائق في نظمها، ص: 339-338.

دلالة الْأَمْرِ ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ عَلَى التَّعْجِيزِ وَالِاسْتِدْرَاجِ إِلَى غَايَةِ التَّبْكِيتِ:

بُـلُـوغُ إِعْـجَـازِ الْـقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَا سَبِيلَ مَعَهُ إِلَى الْإِنْكَارِ

الأمرُ في قوله سبحانه: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يُراد به التَّعْجِيز والإفحَامُ[1]، وفيهِ "إرخاء العنان والاِسْتِدْرَاجُ إلى غاية التَّبْكِيتِ، كأنَّهُ قيل: تَرَكْنَا إلزَامَكُم بشُهَداء الحَقِّ إلى شهدائكم المَعْرُوفين بالذَّبِّ عَنْكُمْ، فإنَّهُم أَيْضًا لا يَشْهَدُونَ لَكُمْ حِذارًا مِنَ اللَّائمة، وأَنَفَةً مِنَ الشَّهادة الْبَتَّةِ البُطْلَانِ، كَيْفَ لا وأَمْرُ الإعجاز قد بلغَ مِنَ الظُّهور إلى حيث لَمْ يَبْقَ إلى إنكاره سَبيلٌ"[2].

بلاغة إدماج قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾:

تَوْبِيخُ الْمُشْرِكِينَ عَـلَى شِرْكِـهِـمْ أَثْـنَـاءَ إِظْـهَـارِ عَجْزِهِمْ

وجاء التَّعبير بـ ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في قوله: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دونَ (وَادْعُوا شهداءكم إن كنتُم صادقين)؛ فأُدمج ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، والقَصدُ من ذلك: "تَوْبِيخُهُم على شِرْكِهِمْ أَثْنَاءَ تعجيزهم عَنْ مُعَارَضَةِ القُرآن، وهذا الْإِدْمَاجُ من أفانين البلاغة أَنْ يكونَ مُرَادُ البليغ غَرَضَيْن فَيَقْرِنَ الغَرَضَ المَسُوقَ لَهُ الكلامُ بالغَرَض الثَّاني، وفيه تظهر مقدرَةُ البليغ؛ إِذْ يَأْتِي بذلك الاقْتِرَانِ بِدُونِ خُرُوجٍ عن غَرَضِهِ المَسُوقِ لَهُ الكَلَامُ ولا تَكَلُّفٍ"[3].

الِالْتِفَاتُ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الغَيْبَةِ لِإِدْخَالِ الرَّوْعَةِ وَزِيادَةِ الْمَهَابَةِ:

جاء التَّعبير بأسلوب التَّكلُّم في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، ثُمَّ عُدِل عَنْهُ إِلَى الغيبة في قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ -إِذِ الاِسْمُ الظَّاهِرُ في حكم الغَيبَة-، وكان مقتضى الظَّاهر: (من دُونِنَا)، والنُّكْتَةُ في ذلك: إدخالُ الرَّوعة وزيادة المهابَةِ[4].

حَذْفُ جَوَابِ الشَّرْطِ لِدلالة مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ:

اسْتِحَالَةُ كَوْنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ صَادِرًا مِنْ بَشَرٍ

جواب الشَّرْطِ في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ محذوفٌ، دلَّ عَلَيْهِ

(1) عادل أحمد الرّويني، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 122.
(2) الألوسّي، روح المعاني: 1/199.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/339.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/65.

مَا قبلَهُ، والتَّقْدِيرُ: إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ في أَنَّهُ مِن كلامِ البَشَرِ أَوْ أَنَّكم قادِرُون على معارضتِهِ، فَأْتُوا بِمِقْدَارِ أَقْصَرِ سُورَةٍ مِنْهُ[1].

وجاء التَّعبيرُ في الشَّرطِ بـ (إِنْ) إيماءً إلى أنَّ صِدْقَهم فيما زَعَمُوهُ محالٌ[2].

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ ﴿صَٰدِقِينَ﴾:

اضْطِرَابُ أَقْوَالِ الْكَفَرَةِ وَعَدَمُ اتِّحَادِهَا

حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿صَٰدِقِينَ﴾؛ لِلإيماءِ إلى اضطرابِ أقوالهم تُجاهَ القرآن، فليس لَهُمْ قَوْلٌ مُتَّحِدٌ نحوهُ فيُذكر.

وفي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تعريضٌ بِكَذِبِهم وافْتِرَائِهِم، ومُجَانَبتِهِم الحَقَّ في هذه القضيَّة العَظِيمَة[3].

تَعْلِيقُ الشَّرْطِ بِـ(إِنْ) خِطَابًا لَهُمْ حسَبَ ظَنِّهِمْ وتَهَكُّمًا بِهِمْ:

التَّنَزُّلُ مَعَ الْمُخَالِفِ فِي الْمُحَاوَرَةِ

جاء الشَّرطُ في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ بـ (إِنْ) الدَّالَّة على الشَّكِّ دون (إذا)، مع أَنَّ عدمَ إِتْيَانِهم بمثل القرآن الكريم مَجْزُومٌ ومقطوعٌ به؛ وذلك لِإِحْدَى نُكتَتَيْن[4]:

الأُولَى: أنَّ الكلامَ سِيقَ لَهُمْ حَسَبَ طَمَعِهم، وأنَّ عَجْزَهُم عَنِ الـمُعَارَضَةِ -قَبْلَ أَنْ يَتَأَمَّلوا- لَمْ يكُن مُتَحَقَّقًا عِنْدَهُم؛ لِاعْتِمَادِهم على فصاحتهم وتَفَنُّنهم في ضُرُوب الكلامِ.

والأُخْرَى: أنَّ استعمال (إِنْ) جاء على وَجْهِ التَّهَكُّم بِهِمْ، ولِذَا اعتُرِضَ بينَ الشَّرط والجزاء بقوله سُبْحَانَه: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾.

حَذْفُ مُتَعَلَّقِ ﴿تَفْعَلُواْ﴾ لِلإِيمَاءِ إِلَى ظُهُورِ تَهَالُكِهِمْ عَلَى ذَلِكَ:

ظُهُورُ عَجْزِ الْكُفَّارِ عَنْ مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

حُذف مفعول ﴿تَفْعَلُواْ﴾، والتقدير: فإن لم تفعلوا ما طُولِبْتُم به؛ أي: من الإتيان بسورة من مثل القرآن، بعد بذْلِكُم غاية جُهْدِكم في

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/45.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/72.
(3) عبد العزيز بن صالح العمَّار، آيات التَّحدِّي في القرآن الكريم: الدّلالة والإيحاء، ص: 25-26.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/101.

سبيل ذلك، وإنما حُذِفَ "إيذانا بعدم الحاجة إليه، بناءً على كمالِ ظهورِ تهالُكِهم على ذلك"[1].

الِاعْتِرَاضُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ لِتَعْجِيلِ بَيَانِ عَجْزِهِمْ، وَأَنَّ عَجْزَهُمْ عَنِ الْمُعَارَضَةِ مُطْلَقٌ:

عُلُوُّ البَلَاغَةِ القُرْآنِيَّةِ عُلُوًّا تَتَعَذَّرُ مَعَهُ مُعَارَضَتُهُ

الإطنابُ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ إطْنَابٌ بالِاعْتِرَاضِ، فهو اعتراضٌ بين الشَّرْطِ والجواب، وفائدتُهُ: المُسَارَعَةُ إلى بيان عدَمِ تَمَكُّنِهِم مِن فِعْلِ مَا طُولِبُوا بِهِ، وتسجيلُ عجزِهم المُطْلَقِ عَنِ المُعَارَضَة[2].

إِيجَازُ الْحَذْفِ بِطَيِّ الِاسْتِلْزَامَاتِ الظَّاهِرَةِ:

المُعَانِدُ لِلحَقِّ مُتَوَعَّدٌ بِالنَّارِ، وَالمُنْقَادُ لِلْحَقِّ مَوْعُودٌ بِالْجَنَّةِ

في قولِ اللّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ حَذْفٌ؛ وذلك أنَّ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ قائمٌ مقام السَّبَبِ الذي هو مِنْهُ في الرُّتبة الثَّالثة، والتَّقدير: فَإِنْ لَمْ تَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِ القرآن، تبيَّن لَكُمْ عَجْزُكُم عَنِ المُعَارَضَة؛ وذلك دالٌّ على صدقِ ما تضمَّنَهُ وصِدْقِ الرَّسُول ﷺ وإذا صحَّ عِنْدَهُمْ ذَلِكَ ثُمَّ اسْتَمَرُّوا في العِنَادِ، اسْتَحَقُّوا العذابَ بالنَّار، فَقِيلَ لَهُمْ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾[3].

ويُمْكِنُ أَنْ يُخرَّجَ هذا على المَجَازِ المُرْسَلِ بعلاقةِ المُسَبَّبِيَّةِ حيث وُضِعَ اتِّقاء النَّارِ موضعَ تَرْكِ العِنَادِ الذي هو سَبَبٌ فِيه، فذُكِرَ المُسَبَّب وهو اتِّقاء النَّار، والمراد: تركُ العنادِ والِانْقِيَادُ إِلَى الحقِّ؛ وهو سبب اتِّقاء النَّار.

تَعْرِيفُ ﴿ٱلنَّارَ﴾ بِلامِ العَهْدِ العِلْمِيِّ:

اسْتِقْرَارُ أُصُولِ العَقَائِدِ فِي قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ

اللَّام في (النَّار) مِن قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ لِلْعَهْدِ العِلْمِيِّ؛ وذلك أنَّ كثيرًا من آياتِ النَّار نَزَلَ بِمَكَةَ المُكَرَّمة، فاستقرَّ ذلك

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/66.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/166.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/102، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/73، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/166.

المعنى في نفوس المُتَلَقِّينَ، فإذا عُرِّفَتْ باللَّامِ انْصَرَفَ الذِّهْنُ إلى تلك النَّارِ المعروفةِ قبلُ، لا إلى كلِّ نَارٍ.

فَائِدَةُ الْوَصْفِ زِيَادَةُ التَّهْوِيلِ:

وَصْفُ النَّارِ بأنَّها ﴿ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ لِزِيَادَةِ التَّهْوِيل والتَّفْظِيع.

شِدَّةُ هَوْلِ النَّارِ وَفَظَاعَةُ الْعَذَابِ فِيهَا

وجُعِلَ هذا الوصفُ صِلَةً لِلْمَوْصُولِ - ومن شَرْطِهَا كَونُها معلومةً لِلْمُخَاطَب- إمَّا بناءً على أنَّهم سَمِعُوا ذلك مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، أو أنَّهم سَمِعُوا قبلَ آيةِ الْبَقَرَةِ قولَ اللّٰه سبحانه: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: 6]، فَأُشِيرَ إلى ما سَمِعُوه مِنْ قبلُ[1].

نُكْتَةُ أُسْلُوبِ الْجَمْعِ:

الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ

في قَرْنِ النَّاسِ بالحجارة: أُسْلُوبُ الجَمْعِ[2]؛ وإنَّما قُرِنُوا بها؛ لأنَّهم لَازَمُوهَا في الدُّنْيَا بنَحْتِهِمُ الحجارةَ أَصْنَامًا، وصرفوا لَهَا العبادةَ مِن دُون اللّٰه تعالى، فكان جزاؤُهم أَنْ يُقْرَنُوا بِهَا في الآخِرَةِ؛ إذِ الجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، ولِزِيَادَةِ تَحَسُّرِهِم؛ حيثُ ظَهَرَ لَهُمْ عَكْسُ مَا كَانُوا يَتَوَقَّعُونَه، فَيَتِمُّ لَهُمُ العَذَابُ الجِسْمَانيُّ والعذاب الرُّوحي[3]، كما قال اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: 98].

نكتةُ تَقْدِيمِ النَّاسِ عَلَى الْحِجَارَةِ:

تَخْوِيفُ النَّاسِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ بِذِكْرِ مَا تُوقَدُ بِهِ

قُدِّمَ النَّاس على الحجارة؛ لِنِكَات[4]:

إحداها: أَنَّهُمُ الذين يُدْرِكُونَ الآلامَ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 68-1/67.
وجَزَمَ الزّمخشريّ (1/102) فعدَّ آية التَّحريم مَكِّيَّةً، إذْ لا يَلْزَمُ -كما أومأ أبو السُّعود- مِنَ الحُكم بمَدَنِيَّة السُّورة أن تكونَ كلُّ آياتها كذلك. إلَّا أنَّه يمكِنُ أن يُقَالَ: إنَّ كون سُورة التَّحريم مدنيَّةً، لا يلزمُ أن تَكُونَ خُصُوصُ هذه الآية نَزَلَتْ بَعْدَ نُزُولِ آية البقرة؛ إذْ سُورَةُ البقرة نَزَلَتْ في مُدَدٍ شَتَّى.
(2) والجمع: هو أن يُجْمَعَ بين مُتَعَدّد في حكمٍ واحد. يُنْظر: السُّبكي، عروس الأفراح: 2/251.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/103، والآلوسّي، روح المعاني: 1/201.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/201.

ثانيها: أنَّهم أَكْثَرُ إيقَادًا مِنَ الحِجَارَةِ؛ لِمَا فِيهِمْ مِنَ الجُلُودِ واللُّحُوم والشُّحوم.

ثالثها: أنَّ الآيةَ مَسُوقَةٌ لتَخْويف النَّاسِ، فكانَ الْأَنْسَبُ تقديمَهم في الذِّكْرِ؛ لأنَّ ذلك أزيدُ في التَّخْويف.

مَعْنَى اللَّامِ فِي ﴿ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾:

اجْتِمَاعُ الْكَفَرَةِ مَعَ أَصْنَامِهِمْ فِي النَّارِ زِيَادَةٌ فِي عَذَابِهِمْ

تَعْريف (النَّاسِ) و(الحجارةِ) في قوله سبحانه: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ يُراد به الجِنْسُ، وأنَّهم في النَّاسِ: جنسٌ خاصٌّ، وهُمُ الذين قدَّر اللّه تعالَى دخولَهُم النَّارَ، وفي الحجارةِ: جنسٌ خاصٌّ منْهَا؛ وهو ما نُحِتَتْ مِنْهُ الأصنامُ.

وذهبَ بعضُ أهلِ العلم إلى أنَّ اللَّام فِيهِمَا لِلْعُمُوم، لا على مَعْنَى أنَّ كُلَّ النَّاس يُعذَّبُ في النَّارِ وتُوقَدُ به؛ وإنَّما لبَيَانِ صَلَاحِيَّتها لإحراق ما يُلقى فِيهَا مِنْ هَذَيْنِ الْجِنْسَيْنِ[1].

تَعْلِيقُ الإِعْدَادِ بِوَصْفِهِمْ بِالكُفْرِ لِبَيَانِ الْعِلَّةِ:

الكُفْرُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ دُخُولِ النَّارِ

تَعْلِيقُ إِعْدَاد النَّارِ بوَصْفِهِمْ بالكُفْرِ في قوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ هُو قَصْدٌ لبَيَانِ العِلِّيَّةِ، وأنَّه إنَّما أَعَدَّ النَّارَ لَهُمْ؛ لِكَوْنِهِمْ كَفَرُوا بما يَجِبُ الإيمانُ به والإِذْعَانُ لَهُ.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّيْبُ وَالشَّكُّ:

يرَى جماعةٌ مِن العلماءِ أنَّ الرَّيْبَ مرادِفٌ لِلشَّكِّ؛ بل نَقَلَ ابنُ أبي حاتم الإِجْمَاعَ على تَفْسِير الرَّيبِ بالشَّكِّ الواردِ في صَدْرِ سورة البقرة[2]؛ وليس في هذا الإِجْمَاعِ إجماعٌ بتَرادُفِهِمَا، وإنَّما كان الاتِّفاقُ على تفسيرِ الرَّيبِ بالشَّكِّ مِن جهة وجُودِ أصل الشَّكِّ فيه؛ إذْ كلُّ رَيْبٍ فيه شكٌّ -كما سيتَّضحُ قريبًا-.

---

(1) الآلوسِّي، روح المعاني: 1/201.
(2) ابن أبي حاتِم، تفسير القرآن العظيم: 1/34.

ولذا قال السَّمين الحلبيّ: "فلَيْسَ قولُ مَن قال: (الرَّيْبُ الشَّكُّ مطلقاً) بجَيِّدٍ، بل هو أخصُّ مِنَ الشَّكِّ"[1].

والتَّحقيقُ أنَّ بين الرَّيْبِ والشَّكِّ فرقًا، وقَدِ تباينت عباراتُ العلماءِ في بيان الفرقِ بَيْنَهُما؛ فقيل: الرَّيْبُ: الشَّكُّ مع تُهمة[2]، أو هو شكٌّ وزيادةُ ظنٍّ سوءٍ[3]، وحقيقتُه: قَلَقُ النَّفس واضْطِرابُها[4]، والتُّهَمَةُ التي في الرَّيْبِ هي تُهمةٌ لِلْمُخْبِرِ[5].

وقيل: الشَّكُّ وقوفُ النَّفس بين شَيْئَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ مِن دون أَمَارَةٍ مُرَجِّحةٍ بينَهُما، وَالرَّيْبُ: أَنْ يُتَوَهَّم في الشَّيءِ أمرٌ مَا، ثُمَّ يَنْكَشِفَ عمَّا تُوُهِّم فيه[6]، فكأنَّ في الرَّيْبِ نوعَ حُكْمٍ وإِنْ لَم يَكُنْ جازمًا، بخلاف الشَّكِّ فلا حُكْمَ فيه.

والتَّحْقِيقُ فِيهِ مَا قرَّره ابنُ القَيِّم رحمه الله، فَقَد جعلَ الفَرْقَ بَيْنَهُمَا مِنْ سِتَّةِ أوجُهٍ، نُرْجِعُهَا إلى فَرْقَيْنِ اثنين[7]:

أَحدهما: فرق لفظيٌّ، والآخر: معنويٌّ.

فأمَّا اللَّفظيّ؛ فإنَّه يُقال: شَكٌّ مُرِيبٌ، ولا يقال: رَيْبٌ مُشَكِّكٌ، ويقال: رَابَنِي أمرُ كذَا، ولا يُقال: شكَّكَنِي.

وأمَّا المعنويّ؛ فَهُوَ أَنَّ الرَّيبَ بمعنى الانْزِعَاج والقلَقِ، يُقال: رابَهُ إذا أزعجه وأقْلَقَه، ولا يكون هذا المعنى في الشَّكِّ؛ فإنَّك تقول: لا تُرِبْ فلانًا بمعنى لا تُزعِجْهُ ولا تُقْلِقْهُ، ولا يصح أَنْ يُقَالَ: لا تُشَكِّكْهُ! -بِذَلِكَ المَعْنَى-.

والرَّيْبُ فيه -مع الشَّكِّ- مَعْنَى التُّهَمَةِ، فَيُقَال: رابنِي مجيئُهُ، ولا يقال: شكَّكَنِي مجيئُهُ.

ولذا فَإِنَّ الشَّكَّ أصلٌ للرَّيْبِ وسَبَبٌ فيهِ؛ فَإِنَّ العَبْدَ يشُكُّ أوّلا، ثُمَّ يُوقِعُهُ الشَّكُّ في الرَّيْبِ.

---

(1) السَّمين، الدُّر المصون: 1/86.
(2) السَّمين، الدُّر المصون: 1/86، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 264.
(3) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/137.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/34.
(5) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 17/409.
(6) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/115.
(7) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 4/106.

نَزَّلَ وَأَنْزَلَ:

مصدر الفعل (نَزَّلَ): التَّنزيل، ومصدر (أنزل): الإنزال، والفرق بينهما: أنَّ التَّنزيل لِمَا يكون مُفرَّقًا أو تدريجيًّا، والإنزالَ لِمَا يكون دفعةً واحدة[1]، وهذا هو المعبَّر عنه بقولهم: التَّنزيلُ تدريجيٌّ، والإنزال دَفْعِيٌّ.

وذهب الرَّاغِبُ في تفسيره إلى كونهما بمعنًى واحد، وإنَّما غُويِرَ بينهما في نحو قول الله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: 3]؛ لكون حُكْم القرآن الكريم مؤبَّدًا، وهو مناسبٌ لـ (نزَّل)؛ فإنَّه بِنَاءٌ لِلمبالغة، ولِمَا في التَّنزيل مِن معنَى التَّدريج -وهو ما سبق-[2].

وكلامُه في (المفردات) يَقْضِي أَنَّ بينَ الإنزالِ والتَّنزيل عمُومًا وخصُوصًا مُطْلَقًا؛ فالتَّنْزيل يكون تدريجيًّا، والإنزالُ أَعَمُّ مِنْهُ؛ فقد يدلُّ على معنى التَّدْريجِ وقد لا يدلُّ[3].

والظَّاهر: الأَوَّلُ، وهو أَنَّ التَّنْزِيلَ تدريجِيٌّ والإنزالَ دَفْعِيٌّ.

ولا يُشكِلُ على هذا الفرقِ: أنَّه وقعَ التَّعبيرُ عَنِ القُرآن الكريم بالفِعْلَيْنِ معًا؛ لأَنَّ لِلْقُرْآنِ الكريمِ نُزولَيْنِ[4]:

أحدهما: نزولٌ دَفْعِيٌّ إلى السَّماءِ الدُّنيا.

والآخر: نُزولٌ تدريجِيٌّ بحسب الوقائع والأحداث.

---

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: 4/164، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 79، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 68، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/3، 2/3، والزّبيديّ، تاج العروس: 30/479، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 341-1/340.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/408.

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 800-799.

(4) أبو شامة المقدسّي، المرشد الوجيز إلى علوم تتعلّق بالكتاب العزيز، ص: 17، والسّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/146.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾ [البقرة: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر اللّٰه سُبْحَانه جزاءَ أعدائه مِنَ الكَافِرين؛ بسبَبِ موقِفهم من القُرآنِ الكريم، ناسبَ أن يذكُرَ جزاءَ أوليَائه مِنَ المُؤْمِنين بالقرآنِ؛ وذلك علَى طَرِيقَة القُرآن الكريم في الجَمْع بينَ التَّرغيبِ والتَّرْهِيب[1]؛ لبيانِ حالِ النَّاس بأصنافِهم في الآخرةِ بعد بيانِ حالِهم في الدُّنيا.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَبَشِّرِ﴾: البَاءُ والشِّين والرَّاء تدُلُّ تصارِيفُها على ظُهور الشَّيء مَعَ حُسْنٍ وجَمَال[2].

وبَشِّرْ: فِعْلُ أَمْرٍ مِنَ البِشارةِ - بكَسْرِ البَاء-، وهي: كلُّ خبرِ صِدْقٍ تتغَيَّر بَشرةُ الوجهِ بِه، وَبِنَاءً على هذا؛ فإِنَّ البِشَارَةَ تُستعمل في الخَيْرِ والشَّر؛ ذلك أَنَّ التَّبشيرَ هو ظُهورُ أثرِ الكلامِ في البَشَرَةِ، إِثر انتشارِ الدَّم في العُرُوق[3]، خيرًا أو شرًّا، إِلَّا أَنَّ اسْتِعمالَهَا في الخَيْرِ أغلَبُ، وهي كذلِك في اسْتِعمَالِ القُرآنِ، وقِيلَ: إِنَّ البِشَارة هِي الخَبَرُ السَّارُّ وحدَهُ، واستعمَالُه في غيرِهِ من بابِ التَّهَكُّم[4].

2) ﴿جَنَّٰتٖ﴾: الجيمُ والنُّونان أصلٌ يدُلُّ على السَّتْرِ، وَمِنْهُ: الجنَّةُ في الدُّنيا وهي البُسْتَان؛ لأنَّ الشَّجرَ بِوَرَقِه يستُرُ، وسمِّيت الجنَّة في الآخرة جنَّةً إمَّا تشبيهًا بجنَّة

(1) ابنُ كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/203، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/189، ومَرعي الكَرْمِيّ، الكَلِمات البيِّنات، ص: 49-43، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 46، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/89.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بشر).

(3) الرّاغب، المفردات: (بشر).

(4) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 45، والمُناويّ، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 78.

الدنيا- وإن كان بينهما بون-، وإمَّا لسَتْرِها عنَّا نعمَها المشار إليها بقوله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: 17][1].

والجَنَّة: الحديقةُ ذاتُ الشّجَرِ وَالنَّخْل.

وفرَّقَ أَبُو عَليٍّ الفارسِيُّ بينَ الحديقَةِ والجَنَّة؛ بأنَّ الجنَّةَ في كَلَامِ العَرَب لا تُسمَّى كذلك إِلَّا إِذَا كان فِيهَا نَخِيلٌ وعِنَبٌ، فَإِن لَم يَكُنْ فِيهَا ذَلِك وَكَانَت ذَاتَ شَجَرٍ؛ فَهِي حديقةٌ وَلَيْسَت جَنَّةً[2].

3) ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: النُّونُ والهَاء والرَّاء تَدُلُّ اشْتِقَاقَاتُها على تَفَتُّح شيءٍ أو فَتْحِه، ومِنْهُ سُمِّيَ النَّهْرُ -وَجَمْعُهُ: الأَنْهَارُ، وهو مِنْ مجَارِي المِيَاهِ- نَهْرًا؛ لِأَنَّه يَنْهَر الأَرْضَ، أي: يشقُّها[3]، هَذَا أصلُ التَّسْمِيَةِ في كلام العرَبِ، وإِلَّا فَإِنَّ أنهارَ الجنَّة تَجْري مِن غَيْرِ أُخْدُودٍ[4]، وأَنْهارُ الجَنَّةِ غَيْبٌ محضٌ، فلنا فهمُ مقصودِ الكلام لا تعيينُه.

4) ﴿خَٰلِدُونَ﴾: الخَاءُ واللَّامُ والدَّالُ تدلُّ تَصْرِيفَاتُها على الثَّبات والمُلَازَمَةِ[5]، وَمِنْهُ الخُلْدُ والخلودُ: البَقَاءُ والدَّوام، وهو في الأَصْلِ: المُكْثُ الطَّويل، ولا يلزَمُ مِنْهُ الدَّوامُ، ولذا يُقَيَّدُ في مواضِعَ بِـ (أبدًا) من باب التَّمْيِيز لا التَّأْكِيد[6].

وخُلُودُ أهلِ الإِيمَانِ في الجنَّةِ مقطوعٌ به، وذَلِكَ مُسْتَفَادٌ من أدلَّةٍ أُخْرَى كثيرةٍ؛ كمَا وَرَدَ في القُرآن الكَرِيم خُلُودُهم في الجنَّة مقيَّدًا بالتَّأْبِيد، كقَوْلِه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ [النساء: 57].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أَوْرِد -أَيُّها الرَّسُول الكَرِيمُ وكلُّ مَنْ يتأتَّى خِطَابُهُ- على مَسَامِع أَهْلِ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ خَبرًا يسرُّهُم سرورًا عظيمًا حتَّى يَمْتَلِئَ به باطنُهم ويظهَرَ أثرُهُ على بَشَرة وجوهِهِم بأنَّ لهم في الآخرةِ بَسَاتِينَ كثيرةً وعظيمةً، تجري مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ، ولَهُمْ فِيهَا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جن)، والسمين، عمدة الحفاظ: (جنن).
(2) ابن سِيده، المحكم: (جن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهر)، وابن سيده، المحكم: (نهر).
(4) ابن القيِّم، حادي الأرواح، ص: 179-178، وابن القيِّم، الكافية الشَّافية، ص: 326، والألبانّي، سلسلة الأحاديث الصَّحيحة: 48-6/47.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلد).
(6) الكفويّ، الكلّيَّات، ص: 434، وابن القيّم، شفاء العليل، ص: 257، وابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/265.

ثمراتٌ كثيرةُ العددِ، مختلفةُ الأنواعِ والطّعومِ، كُلَّما رَزَقَهُمُ اللّه تعالى مِنْهَا نوعًا؛ قالُوا قَبْلَ ذَوقِهِ: قد رَزَقَنَا اللّه سبحانه هذَا مِنْ قبلُ، فإذا ذَاقُوهُ وَجَدُوا طَعْمَه مختلفًا عَنْ شبيهِهِ في اللَّوْنِ والشَّكْلِ، وكلُّ ثَمَرِ الجنَّة يُشْبِهُ بعضُهُ بعضًا في الحُسْنِ واللَّذَّة وإِنْ كَانَ مُخْتَلِفًا في الطَّعْم.

ولِأَهْلِ الإِيمَانِ والعمَلِ الصَّالحِ في الجَنَّاتِ: زوجات مطهَّرات من كل ألوان الدنس الحسّيِّ كالبول والحيض، والمعنويِّ كالكذب وسوء الخُلُق، وَهُمْ في الجنَّة باقُون، لا يَفْنَوْنَ ولا يَخْرُجون مِنْهَا[1].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَدِيعُ عَطْفِ القصَّةِ على القِصَّةِ:

بيانُ واقعِ أهلِ الكفرِ وأهلِ الإيمانِ في المآلِ بعد بيانِ وَاقِعِهِم في الحَالِ

من بديعِ القرآنِ في العطفِ عطفُ القصَّة على القصَّة كما سمّاه السّيِّدُ الجرجانيُّ، ومعناه عطفُ جُملٍ على جُمَلٍ، وأوَّلُ مَنْ نبَّه عليه الزَّمخشريُّ، وهنا قد عُطِفَتْ جُمَلٌ فيهَا ذكرٌ لثوابِ أهل الإيمان على جُمَلٍ فيهَا ذكرٌ لعقاب أهلِ الكُفْران، والجامِعُ بَيْنَهُمَا التَّضَادّ؛ فإنَّ الإيمانَ يُضادّ الكفرَ؛ ليتَّضِحَ كَمَالُ التَّبايُنِ بين حال الفَرِيقَيْنِ في المآل، كما اتَّضحَ في الحال[2].

نكتةُ إفرادِ الخطابِ في قولِه: ﴿وَبَشِّرِ﴾:

النَّصُّ على المتابعةِ، ودخولُ كلِّ تبشيرٍ في صحيفته ﷺ

جاء خطابُ الأمرِ مفردًا في قولِه: ﴿وَبَشِّرِ﴾ لا جمعًا، وبناءً عليه اختلف المفسِّرون في تعيين المراد على قولين:

الأوَّل: خصوصُ الخطاب لِلنَّبِيِّ ﷺ، وهو الأصلُ في الخِطاب؛ إِذْ أصلُه أن يكُونَ موجَّهًا لمعيَّنٍ.

الثَّاني: عُمُوم الخطابِ للأُمَّة؛ فيكون أمرًا لِكُلِّ مَنْ يَتَأَتَّى خِطَابُهُ.

(1) الخازن، لباب التَّأويل: 1/32، وابن جُزي، التَّسهيل: 1/76-77، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 46، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 5.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/68، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/350.

وقد استَظْهَرَ الأوَّلَ أبو حَيَّانَ؛ لأنَّ اختصاصَ أمرِهِ ﷺ بالبِشَارَة أفخَمُ، "وكأنَّه ما اتَّكَلَ على أَنْ يُبَشِّر المؤمنينَ كلُّ سامع، بَل نَصَّ على أَعْظَمِهم وأَصْدَقِهم لِيَكُون ذلك أوثَقَ عِنْدَهُم وأقطَعَ في الإِخْبَار بهذه البِشَارة العظيمَة؛ إِذْ تَبْشِيرُهُ ﷺ تبشيرٌ مِنَ اللهِ تعالى"[1].

وَاسْتَحْسَنَ الثَّانيَ الزَّمخشريُّ؛ لأنَّه مُشْعِرٌ بعظَمَةِ الأمر وفخَامَته؛ بِحَيْثُ حُقَّ أَنْ يُبشِّرَ بِهِ كلُّ مَن قَدر على هذه البِشارة[2].

والوَجْهان مُتكامِلان في أثرهما، فإنَّ الخطابَ موجَّهٌ للنَّبيِّ ﷺ ابتداءً، وعلى الأُمَّة أن تقتديَ به انتهاءً؛ فالأمرُ جاءَ مطابقةً له - عليه الصَّلاةُ والسَّلام -، ودلالة التزام لأُمَّته، ونكتةُ أن جاءَ مُفردًا دون أنْ يكونَ جمعًا؛ لبيانِ أنَّ كلَّ تبشيرٍ داخلٌ في ميزانه ﷺ، فمن أحبَّه بشَّر، ومن خالَفَه نفَّر.

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسم الموصُولِ دون الظَّاهر:

الإشـعـارُ بعلَّة التَّبشيرِ والثَّناءُ عـلى المؤمـنين بـأعـمـالـهـم القلبيَّة والبدنيَّة

جاءَ التَّعبيرُ بالِاسْمِ المَوْصُول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دونَ الظَّاهر؛ لِلتَّنْبِيهِ علَى أنَّ سببَ التَّبشير ما جاء في حيِّزِ الصِّلةِ؛ وهو الإيمانُ والعمَلُ الصَّالحُ[3].

فالتَّعْبيرُ بالموصولِ مُشعِرٌ بالسَّبَبِيَّة التي لأجلِها أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بالتَّبشيرِ؛ فلولا إيمانُ المؤمنين لما أُمِر بتبشيرهم[4]، وفيه ثناءٌ عليهم بأعمالِهم القلبيَّة والبدنيَّة؛ إذِ التَّبشيرُ نتيجةٌ لها.

إيثارُ الماضي على المضارِع لتأكيدِ سببِ التَّبشيرِ في تحقُّقِ الإيمان والعمَلِ الصَّالح:

آثرت الآيةُ التَّعبيرَ بصيغةِ الفعلِ الماضِي دونَ المُضارِع في صلةِ الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لبيانِ تحقُّقِ الإيمانِ والعملِ الصَّالح لدى المؤمنين، فهي إخبارٌ عن إيمانِهم وأعمالِهم الصَّالحة المتحقِّقَة، لا إخبارٌ عن تجدُّد ذلك منهم، فهي بمنزلةِ التَّأكيدِ لسببِ التَّبشيرِ، وهذا غاية في الثَّناء الحسَن.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/179.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/104.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/68.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/168.

نكتةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الإيمَانِ لجَرَيانِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مجرى الاصطلاحِ العُرفِيِّ:

إطلاق عبارة (الذين آمنوا) تتضمن جميع أفراد الإيمان

حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الإيمان في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فلم يُذْكَر بِمَاذَا آمنوا؛ لِلْعِلْم بِهِ؛ فَإِنَّ متعلَّق الإيمانِ كان معروفًا عِنْدَ المُخَاطَبِينَ[1]؛ فقد جَرَى قولُه سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مجرى الاصطلاحِ العُرفيِّ، فإذا قيلَ: الذين آمنوا؛ عُلِم المقصودُ مِنَ المحذوف، دون تخلُّفِ أيِّ فردٍ من أفرادِه؛ فينقدِحُ في الذِّهنِ جميعُ ما يجب أن يُؤمِنَ بِهِ المؤمنون، وهذا أبلغُ من ذكرِ أركانِ الإيمان؛ لأنَّه إنشاءٌ لطلبِ المقصُود، أمَّا هنا فهو تعبيرٌ عَنِ المتحقِّقِ الموجود.

توجيهُ عَطْفِ الخاصِّ على العام:

العنايةُ بالعَمَلِ الصَّالح، بذكره إشارةً وعبارةً لعدمِ التَّهاونِ فيه

عُطِفَ العملُ الصَّالحُ على الإيمانِ في قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّه من قبيل عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ تنبيهًا على فضيلةِ العمل الصَّالِحِ بذِكْرِهِ مرَّتين، إِحْدَاهُمَا: مُنْدَرِجًا تحت لَفْظِ الإيمَانِ وهذه دلالة إشارة، والأُخْرَى: مُنْفَرِدًا وهذه دلالة عبارة؛ وذلك لعدَمِ التَّهاونِ فيه، وهو بمثابةِ عطفِ الفرعِ على الأصل، وجني الثَّمَر بعد رعي الشَّجَر.

نكتةُ تنزيل الصِّفةِ منزلةَ الموصوفِ:

التَّنبيه على ضرورة استحضارِ النِّيَّة، وتحقيقِ الصَّلاح

حُذِف الموصُوف، وأُقيمت صفتُه مكانَه في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهو إيجازٌ بالحَذْفِ؛ إذ (الصَّالِحَات) وَصْفٌ لموصوف محذوف، تقديره: وعَمِلُوا الأعمالَ الصَّالحاتِ[2]، والقرينةُ على تَعْيينِ المَحْذُوفِ هي الفِعْلُ (عَمِلُوا)، ونكتةُ ذلك التَّوجُّه جملةً إلى الصَّالحات، تنزيلًا للصِّفة منزلةَ الموصوفِ، رعايةً لها، وتعليمًا بأنَّ المقصودَ مِنَ الأعمالِ هو الصَّلاحُ لا مجرَّدُ الأعمالِ، وفي ذلك

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/192.

(2) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/90.

تنبيهٌ على ضرورةِ استحضارِ النيَّة القلبيَّة المُوطّأ لها بـ ﴿ءَامَنُواْ﴾، وأهميَّة تحقيقِ الصَّلاح المُمهَّدِ له بـ ﴿وَعَمِلُواْ﴾.

معنى اللّامِ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

العمَلُ الصَّالِحُ هو الجامِعُ لِلْإِخْلَاصِ والمُتَابَعَةِ نصّا وإقْرارًا

نوعُ اللَّام في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لِلْعَهْدِ العلميِّ؛ فَإِنَّ العملَ الصَّالحَ معروفَةٌ حقيقَتُهُ في الشَّرعِ، وأنَّه الجامعُ بينَ أمرين: الإخلاصُ للّه تعالى، والمتابعَةُ لرَسُول اللّه ﷺ.

ويَحْتَمِلُ أن تَكُونَ اللّام لِلاسْتِغْرَاقِ العُرْفي، ويُرْجَع في تحديدِ مقداره إلَى الأَدِلَّةِ الشَّرعيَّة والاستطاعَةِ[1]، ومآلُ القولَين واحدٌ؛ إذ جميعُ الأعمال الصَّالحة في عرف النَّاس ممّا أقرَّها الشَّرعُ؛ فهي داخلةٌ في المعهودِ في الشَّرع.

نكتةُ جَمْعِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التَّنبيهُ على ضرورةِ الإتيانِ بها جميعِها:

وجَمْعُ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لِلْإِيماءِ إلى وجوبِ الإِتْيَانِ بِهَا بأنواعها دُون الاكْتفاء بِبَعْضِهَا؛ إِذْ إنَّ أركانَ الإسلام وأعمالَ الخيرِ مترابطةٌ يأْخذُ بعضُها بِحُجَزِ بعضٍ[2].

تَقْدِيمُ الخَبَرِ للتَّشويقِ لمعرِفَةِ ما أُعِدّ للمؤمنين بعد معرفَةِ ما أُعِدَّ للكافرين:

قُدِّمَ خبَرُ ﴿أَنَّ﴾ وهو (لَهُمْ) على اسمها (جَنَّٰتٍ)؛ لأنَّ تَقْديمَهُ آكدُ؛ "لِقُرْبِ عود الضَّمير على الذين آمَنُوا؛ فهو أسرُّ لِلسَّامع"[3]، وفيه تشويقٌ لمعرفة ما أُعِدَّ له، بعد معرفةِ ما أُعِدَّ للكافرين، وعلى ذلك تكونُ اللَّامُ في (لَهُمْ) مُرادًا بها الاختصاصُ.

دلالة جَمْعِ الجَنَّاتِ وَتَنْكِيرِهَا:

تَنَوُّعُ الجنّات واختلافُها فيه مزيدُ ترغيبٍ بعد تشويق

دلَّ جمعُ الجنَّاتِ في قوله سبحانه: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ على تَعَدُّدها وكَثْرَتِها؛ إذْ إنَّ الجنَّةَ مشتملةٌ على جِنانٍ كثيرةٍ، وجيءَ بها مُنَكَّرةً

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/352.
(2) مجموعة مِنَ العلماء، التَّفسير الوسيط: 1/57.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/182.

لِلْإِشارة إلى تَنَوُّعها واختلافها[1]، وهو أدعى لِبناءِ عُنصُرِ التَّرغيب بعد التَّشويقِ؛ فإنَّ الجنَّةَ غَيْبٌ، والجمعُ أقوى في تعزيزِ خيال السَّامع، وتنشيطِ قلبِه.

سِرُّ التَّعبير بالجَرَيانِ؛ بإيثارِ صِيغَةِ المُضارِعِ:

تصويرُ جَمَالِ أنهارِ الجنَّةِ فهي جديدةٌ مستجِدَّةٌ

وَصْفُ أنهارِ الجنَّاتِ بالجَرَيانِ بصيغة الفعل المُضارِعِ في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ تصويرٌ لحُسنِها؛ ذلك أنَّ أَحْسَنَ المياهِ ما كَانَ جَارِيًا؛ لأنَّ ذلك يَقْتَضِي كونَه جَدِيدًا كلَّما اغْتُرِفَ أَوِ اغتُسِلَ منهُ[2]، فهي جديدةٌ مُستَجِدَّةٌ، ويُؤيِّدُه أنَّ إطلاقَ الجَري على سَيَلان الماء سَيْلًا متكرِّرًا مُتَعَاقبًا - وأَصْلُه: شِدَّةُ سُرعةِ المَشْيِ -، هو توسُّعٌ في العبارةِ، ومَجازٌ في الاستعمال[3]؛ واستُعمِلَ لتصويرِ سُرْعَةِ المياه.

توجيهُ المتشابِهِ اللفظيّ:

التَّوافُقُ بين الآياتِ والتَّكامُلُ بين المعاني

ورَد فعلُ الجَرْيِ في قولِه تعالَى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ في جميع مواضعِ القُرآنِ الكريمِ متعدِّيًا بحرف الجرِّ (مِنْ)، إلا في موضعٍ واحد وهو في سورة التَّوبة -على قراءةِ الجُمهور- بدون (مِنْ)[4]، وذلك في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التوبة: 100]، والفرق بَيْنَهُمَا أنَّ قولَه تعالى: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: تجري الأنهارُ من تحت أشجَارِهَا مرورًا، وقولَه سبحانه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أي: يَنْبُعُ الماءُ ابتداءً من تحتِها ثُمَّ تَجْرِي من تحت أشجارِها[5]، والآيتان بينهما توافقٌ دلاليّ، وتكاملٌ وظيفيّ؛ فالموضع المذكور فيه حرفُ الجَرِّ يدُلُّ على ابتداءِ الجري، وآية التَّوبةِ الخالية

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/106، والطِّيبي، فتوح الغيب: 2/355.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/280.
(5) الثَّعلبيّ، الكشف والبيان: 5/86، والخطيب الإسكافي، دُرَّة التَّنزيل، ص: 472-473.

من حرف الجرِّ على قراءةِ الجمهورِ إخبارٌ عن مرورِ الأنهار من تحت الأشجارِ، فآيةٌ أخبرَت عن الابتداءِ، وأخرى أخبرت عن المرور، وما قيل بين الآيتين، يُقال بين القراءتين في آية التَّوبة.

معنى اللامِ في كلمة ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

التَّـقـارُبُ في مقصدِ التَّعريفِ؛ ببيانِ أنّها نعمةٌ مُسْتَقِلَّةٌ

لَم تُعرَّفِ الأنهارُ بالإضافةِ إلى ضمير الجنَّاتِ بأَنْ يقال: (تَجْري مِن تحتِها أنهارُهَا)؛ لِما فيه مِن كُلفَةٍ في الكلام، ولِلتَّنبِيه على أَنَّ نعمةَ الأنهارِ مُستقِلَّةٌ فيكون التَّمَتُّع بها تنعُّمًا مستقِلًا لا تبعًا لِلْجَنَّاتِ[1]، وبناءً على ذلك فاختُلف في تحديد معنى اللامِ في كلمَةِ ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ على أقوالٍ:

الأوَّل: تَعْرِيفُ الجِنْسِ[2]، فيكون في قوَّة النَّكرة.

الثَّاني: العَهْدُ التَّقديريّ؛ ذلك أنَّه لَمَّا ذُكرتِ الجنَّاتُ؛ اسْتَحْضَرَ السَّامعُ لوازمَها ومقارنَاتِها؛ "فساغَ لِلْمُتَكلِّم أن يُشير إلى ذلك المعهُودِ، فَجِيء باللَّام"[3].

الثَّالث: العَهْدُ الخارجيُّ، والإشارةُ فيه إلى قول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾[4] [محمد: 15].

الرَّابع: التَّفنُّن، وهو ما مالَ إليه ابنُ عَاشُور؛ لئلَّا يُعادَ التَّنكيرُ مرَّةً أخرَى بعد تنكيرِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾[5].

والأقوالُ في تحديدِ معنى اللَّامِ متقارِبةٌ في مقصدِها، وإنِ اختلَفت في معناها.

نكتَةُ تقديمِ الجنَّة على الأَكْلِ مِنْهَا:

الـجَـنَّـةُ مكـانُ التّنعُّمِ بالثَّمراتِ وسببُه

قُدِّمَ ذِكرُ الجنَّةِ وأنهارِها على الأَكْلِ مِنْهَا؛ لِنكاتٍ ثلاثٍ[6]:

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/355.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/107.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354-355.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/69، والآلوسّي، روح المعانيِ: 1/204.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/355.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/77، والآلوسّي، روح المعاني: 1/204.

الأولى: منفعةُ التَّنعُّم بالنَّظَرِ إِلى الجنَّةِ سابقةٌ على منفعَةِ التَّنعُّم بالأكل مِنْهَا.

الثَّانية: الجنَّةُ والأنهارُ سببٌ في وجودِ الثَّمَرِ، فقُدِّمَ ذِكْرُ السَّبَبِ على النَّتيجة.

الثَّالثة: جريانُ الأنهارِ تحت الجنَّات وصفٌ لِلْجَنَّةِ باعتبار ذاتِها، وأمَّا الأكلُ مِنْهَا فَوَصْفٌ لهَا باعتبار انتفاعِ سَاكِنِيهَا.

بلاغةُ فَصلِ جُملَةِ ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ﴾ عَمَّا قَبلَهَا:

بيان ما لأهل الجنَّةِ من لذَّاتٍ تامَّة، لا تَتَناهَى لها عقولُ أهلِ الدُّنيا

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ﴾ عمَّا قبلُ؛ لكونِه وصفًا ثانيًا بعد الوَصْفِ الأوَّلِ من جري الأنهارِ تحتَها.

ويَحتَمِلُ أن تكون خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، تقديره: هُمْ، وإنَّما حُذِفَ لِذِكْرِه قبلُ وبعدُ، وليتحقَّقَ التَّناسبُ بين الجُمَلِ في الصُّورةِ؛ لاشتراكِها جميعًا في الاسميَّةِ[1].

ويحتمل أن تكون جُملةً مستأنفةً استئنافًا بيانيًا؛ أي: أنَّ بين ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ﴾ وما قبلها: شبهَ كمالِ الاتِّصال؛ إذِ الثَّانية وقعت جوابًا عَنْ سؤالٍ يُفْهَمُ مِنَ الأولى، كأنَّه لَمَّا ذُكرت الجنَّةُ وأنهارُها؛ قيل: ما حالُهم في تلك الجنَّات؟ أو: أَلَهُم في الجنَّات لذَّاتٌ كما في هذه الدَّار أم أَتَمُّ وَأَزْيَدُ؟ فجاء الجوابُ: بأنَّ لهم فيها ثمارًا عجيبة وأزواجًا نظيفة وهُمْ فِيهَا أبَدَ الآبادِ لا يمُوتون ولا يتحوَّلون عَنْهَا[2].

بِنَاءُ الفِعْلِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ للتَّرغيبِ والإطماع:

بُنِي الفعلُ ﴿رُزِقُواْ﴾ لِمَا لم يُسمَّ فاعِلُه، ولم يقل: (رزقهم اللّه)، ونكتةُ ذلك أنَّ السِّياقَ هو سياقُ ترغيبٍ وإطماع، فكانَ توجيهُ الأنظارِ إلى الرِّزق لا إلى الرَّازق هو الأنسبَ بالمقامِ، مع قطعيَّة العلمِ بالفاعلِ؛ إذْ لا رَازِقَ إلَّا اللّهُ سبحانه.

---

(1) وهي: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾، ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/107، والآلوسّي، روح المعاني: 205-1/204.

نُكتة معنى الابتداء في قوله: ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾:

بيانُ عظيمِ الأجرِ وجزيلِ الامتنانِ

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ لِابْتِدَاءِ الغايَةِ، بناءً على أنَّ "من" في قولِه: ﴿مِنْهَا﴾ لابتداءِ الغايةِ، فقولُه: ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ بدَلُ اشتمال من ﴿مِنْهَا﴾، ويكونُ معنى الثَّمَرَة النَّوْعَ من أنواعِ الثِّمار، لا الثَّمَرَة الواحِدَة[1]، ونكتةُ الابتداء بالثَّمَرَةِ بيانُ عظيمِ الأجرِ المُعَدِّ لأهلِها؛ فإذا كانتْ هذه البدايةَ فما بعدَها أعظَم وأكرَم؛ ففيها التَّشويقُ لما فيها من الخيرِ العميم، وأجازَ الزَّمخشريُّ أن يكونَ حرفُ الجرِّ بيانًا[2]، وضعَّفَه السَّمين[3].

بلاغةُ تَنْكِيرِ ﴿رِّزْقًا﴾:

لـذَّةُ رزقِ الجنَّة غيرُ معهُودَةٍ

تَنْكِيرُ كلمةِ ﴿رِّزْقًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ لبيانِ النَّوعيَّةِ، والمعنى: أنَّهُم رُزقوا نوعًا غيرَ ما يَعْهَدُونَهُ[4]، وشأنُ المجهولِ المذكُور في سياقِ المَدْحِ والتَّرغيبِ أن يكونَ عظيمًا في ذاته، مرغوبًا في صفاته، وهو ما يُصوِّر مدى لذَّةِ الرِّزق المُعدِّ.

نكتةُ حَذْفِ كَلِمَةِ (مِثْل):

اسْتِحْكَامُ الشَّبَهِ بينَ ثمارِ الجَنَّة

وقعَ حذفٌ في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُۖ﴾ وتقديرُهُ: هذا مِثْلُ الذي رُزِقْنَا من قبلُ، وقرينةُ الحذفِ: أنَّ الحاضِرَ بينَ أيدِيهم في ذلك الوقت ليس عَيْنَ الذي رُزِقُوه مِنْ قبلُ، ونكتَةُ الحذفِ ههنا: استِحْكَام الشَّبَهِ، حتَّى كأنَّ هذه الذَّات هي تلك[5]، ويقوِّيه استعمالُ اسمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾؛ ليتعيَّنَ المشارُ إِلَيْهِ؛ لئلَّا يُتَوَهَّمَ أنَّهُ غيرُهُ.

وتَقْدِيرُ (مثل) هَهنا جارٍ على أقوالٍ عديدةٍ في تفسير القَبْلِيَّة

---

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/107.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/107.
(3) السّمين، الدّر المصون: 1/216.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/204-205.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/185-186.

المذكورة في قوله: ﴿رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ﴾، ولكنْ إذا حُملَتِ القبليَّةُ ههنا على معنى: هذا الذي وُعِدنا في الدُّنيا أن نُرْزَقَهُ في الآخرةِ؛ فلا يصحُّ التَّقديرُ ههنا، إلَّا أنَّ هذا القولَ خارجٌ عَنِ الأصلِ مِن جهةِ أنَّه يَتَعَيَّنُ حملُهُ على المجازِ؛ إذْ مِنَ المعلومِ أنَّهم لم يُرْزَقُوا عينَ ثمرةِ الجنَّةِ في الدُّنيا، فيكون قد عُبِّرَ عَنِ الوَعْدِ بمتعلَّقِه وهو الرِّزْق؛ وذلك لِلْجَزمِ بتحقُّقِ الوعد صارَ كأنَّهم رُزقوه في الدُّنيا[1].

نكتةُ بِنَاءِ الفِعْلِ ﴿وَأُتُواْ﴾:

مـزيـدُ تـكـريـمٍ لأهــلِ الـجَـنَّـةِ بـإظـهـارِ الفعل دون فاعلِه

بُنِيَ الفعلُ ﴿وَأُتُواْ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾ لِما لَم يُسمَّ فاعلُه؛ لِلْعِلْمِ به وهُمُ الوِلْدَانُ والخدَمُ بأمر اللّه تعالى[2]؛ فإنَّه قد سبقَ التَّصريحُ بمَن يأتيهم بهِ في سُوَرِ القرآن الكريم المكيَّةِ، كقول اللّه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١﴾ [الواقعة: 17-21]، ونكتةُ ذلك؛ توجيه النَّظرِ والاهتمام بأمرين: الأوَّل: الحدث، وهو فعلُ الإتيان، الثَّاني: المأتيُّ به، وهو الثَّمَر؛ فإنَّ بناءَ الفعلِ لما لم يُسمَّ فاعلُه فيه مزيدُ تكريمٍ لأهلِ الجنَّةِ، بإظهارِ الفعلِ دون الفاعل.

فائدةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ التَّخْصِيصُ بغرضِ التَّعريض بأزواج الدُّنيا:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿فِيهَآ﴾ على ﴿أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ﴾، فلم يَقُل: (ولَهُمْ أزواجٌ مطهَّرة فِيهَا)؛ لإفادة التَّخصيص؛ إذْ إنَّ وصفَ الأزواجِ بهذا الوصفِ الشَّاملِ لطهارة الظَّاهر والباطن، لا يكون لأزواجِ الدُّنيا في الدُّنيا، وهو تعريض بأزواج الدُّنيا، وما يعتريهم من خلاف هذا الوصفِ ظاهرًا وباطنًا، ترغيبًا في الآخرةِ، وتزهيدًا في الدُّنيا.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/186.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/187، ومرعي الكَرميّ، الكلمات البيِّنات، ص: 91، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 1/245.

نكتةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿فِيهَآ﴾، فلم يُقل: (وَهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا)؛ وذلك لِنُكْتَتَيْنِ:

التَّخْصِيصُ؛ فأَهْلُ الجنَّةِ لا يَتحوَّلُون عَنْهَا؛ رِضًا بِمَا فِيها

الأولى: إفادة التَّخصيص؛ فخلُودُهم في الجنَّةِ لا غيرَ، وذلك أَدْخَلُ في ترغيبهم وطمأنتهم بأنَّ خلودَهم سيكون في الجنَّة؛ فلن يخرُجوا منها.

الثَّانية: مراعاةُ الفواصلِ، وهذه نكتةٌ لفظيَّة، والنّكات اللفظيَّة تابعةٌ للنكات المعنويَّة؛ إذ لا تستقلُّ بذاتها.

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّة:

الاحتراسُ لدفعِ الأوهامِ، وتتميمُ المدحِ لنَعِيمِ أهلِ الجنَّةِ

وقعَت الفاصلةُ القرآنيَّة ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مَوْقعًا بليغًا من الآيةِ، حيث أفادت أمرَين اثنين، أحدهما فكريّ، والآخر نفسيّ:

الأوَّل: الاحتراسُ: وفائدتُه دفعُ توهُّم انقطاع النَّعيم المذكور في سياقِ الآية؛ وسبَبُ التَّوهُّم: ما اعتادَ عَلَيْهِ النَّاس مِن انقطاع اللَّذَّات في الدُّنيا؛ "لأنَّ جميع اللَّذَّات في الدُّنيا مُعَرَّضة لِلزَّوال، وذلك يُنَغِّصها عند المُنْعَم عَلَيْهِ"[(1)].

الثَّاني: تتميم المَدحِ، فإنَّ "هذا هو تمامُ السَّعادةِ، فإنَّهم مع هذا النَّعيم في مقامٍ أمينٍ من الموت والانقطاع؛ فلا آخر له ولا انقضاء، بل في نعيم سرمديّ أبديّ على الدَّوام، والله المسؤول أن يحشرَنا في زمرتهم، إنَّه جوادٌ كريمٌ، بَرٌّ رحيم"[(2)].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/357.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/206.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [البقرة: 26]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا اشْتَمَلَتِ الآياتُ السَّابقةُ علَى تحدِّي البُلَغاءِ بأن يأتُوا بسورة من مِثل القرآنِ، وعجَزُوا عَنْ ذلك؛ سلَكُوا مسلكَ الطَّعن والتَّشْغيب في المعاني، فلبَّسوا على النَّاس بأنَّ في القرآن الكريم -وحاشَاه- مِنْ سَخِيف المعنى ما يُنَزَّه مَعَهُ أن يكونَ مِنْ كلام اللّهِ تعالى؛ فردَّ اللّه تعالى عَلَيْهِمْ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾(1).

قال أبو السُّعود رحمه اللّه تعالى في وجه المناسبة: "شُرُوعٌ في تَنْزِيهِ ساحَةِ التَّنْزِيلِ عَنْ تَعَلُّقِ رَيْبٍ خاصٍّ اعْتَراهم مِن جِهَةِ ما وقَعَ فِيهِ مِن ضَرْبِ الأمْثالِ، وبَيانٌ لِحِكْمَتِه، وتَحْقِيقٌ لِلْحَقِّ إثْرَ تَنْزِيهِها عَمّا اعْتَراهم مِن مُطْلَقِ الرَّيْبِ بِالتَّحَدِّي، وإلْقامِ الحَجَرِ، وإفْحامِ كافَّةِ البُلَغاءِ مِن أهْلِ المَدَرِ والوَبَرِ"(2).

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَسۡتَحۡيِۦٓ﴾: الحاءُ والياءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ تَدُلُّ تصاريفها على مَعْنَيَيْنِ:

أحدهما: ضِدُّ الموت؛ وهو الحياةُ.

والآخَر: ضِدُّ الوقاحةِ؛ وهو الاسْتِحْيَاءُ(3).

وفي فِعْلِ الاستحياءِ لُغتان: اسْتَحَى؛ وهي لغةُ تَمِيمٍ، واستحْيَى؛ وهي لغةُ الحجازيِّين، وبِهَا نَزَلَ القرآنُ الكريم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/359.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/71.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حيي).

والحياءُ في حقِّ المخلوق: الانْقِبَاضُ والانْزِوَاء[1]، ويُمْكِنُ تعريفُه بأنَّهُ: انْفِعَالٌ يَحْدُثُ لِلْإِنْسَانِ عندَ فِعْلِ ما لا يُجَمِّلُه ولا يُزَيِّنُه، فَيَنْكَسِرُ، ويَحْصُلُ الحياءُ[2].

أمَّا حياءُ اللّهِ تعالى فلَا يُمَاثِلُ حياءَ المخلوقين؛ إذْ هو حياءٌ من نوعٍ آخرَ "لا تُدْرِكُه الأفهامُ، ولا تَكَيَّفُهُ العقولُ؛ فإنَّه حياءُ كرَم وبرٍّ وجُود وجلال؛ فإنَّه تبارك وتعالى حَيِيٌّ كريم يَسْتَحْيِي من عبده إذا رفع إِلَيْهِ يَدَيْهِ أن يرُدَّهما صِفرًا، ويستحيي أن يُعَذِّبَ ذا شَيْبَةٍ شابَتْ في الإسلام"[3].

وفي قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾: إثباتٌ لصفةِ الحَيَاءِ للّه تعالى؛ لأنَّ نَفْيَ الاسْتِحْيَاءِ عَنْهُ سُبْحَانَهُ في هذه الحالِ دَلِيلٌ على إِثْبَاتِهَا فِيمَا يُقَابِلُهَا، وقَدْ أَفَادَتِ السُّنَّةُ ذلكَ صَرِيحًا في جُمْلَةِ أحاديثَ شريفة[4].

2) ﴿يَضْرِبَ﴾: ضَرْبُ المَثَلِ: هو اعتبَارُ الشَّيْءِ بغَيْرِهِ وتَمْثِيلُهُ به، والضَّربُ: هو المِثَالُ[5]؛ يُقال: هذهِ الأَشْيَاءُ علَى هذا الضَّربِ، أي: على هذا المثالِ[6].

ويُطلَقُ الضَّرْبُ على الوَصْفِ، وجعَلَ ابْنُ الجَوْزِيِّ مِنْهُ قولَ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾[7] أي: يَصِفُ مثَلًا مَا.

3) ﴿مَثَلًا﴾: المِيمُ والثَّاء واللَّام تَرْجِعُ تصاريفُها إلى مُنَاظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، ومِنْهُ: المَثِيلُ بمعنى النَّظير والشَّبِيه، يُقال: أمثلَ الأميرُ فلانًا؛ إذا قتلَهُ قصاصًا، وذلكَ لأنَّه فَعَلَ به مِثْلَ ما كان فَعَلَهُ بِمَنْ قَتَلَهُ، ومِنْهُ أيضًا: المَثَلُ المَضْرُوبُ؛ لأنَّه يُذْكَرُ مُوَرًّى به عَنْ شَبِيهِهِ في المعنى[8].

وأمَّا المَثَلُ القرآنيُّ؛ فعرَّفه الرَّاغب بقوله: "عبارة عن قولٍ في شيءٍ يُشْبِهُ قولًا في شيءٍ آخَرَ، بَيْنَهُمَا مُشابهةٌ؛ لِيُبَيِّنَ أحدُهما الآخرَ ويُصَوِّرَه... وعلى هذا الوجهِ ما ضَرَبَ اللّه تعالى مِنَ الأَمْثَالِ"[9].

---

(1) الفيُّوميّ، المصباح المنير: 1/160.
(2) ابن عثيمين، شرح الأربعين النَّوويَّة، ص: 206.
(3) ابن القيِّم، مدارج السَّالكين: 2/250.
(4) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/98.
(5) ابن الأثير، النِّهاية: (ضرب).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ضرب).
(7) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 402.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مثل).
(9) الرَّاغب، المفردات: (مثل).

وقَدِ اختُلِفَ في أصلِ معنى (ضَرْبِ المَثَلِ) اختلافًا كثيرًا، مَرْجِعُهُ - كمَا أشَارَ الرَّاغِبُ - هو تصوُّرُ اختلاف الضَّرب، فَبِسَبَبِ ذلكَ خُولِفَ بَيْنَ تَفَاسِيرِهَا(1).

وقيل في معنى المَثَل التَّقدير؛ "فضَرْبُ المَثَلِ لِلشَّيء: تقديرُه له، كما أَنَّ أصل القياسِ: تقديرُ الشَّيء بالشَّيء، ومِنْهُ: ضَرْبُ الدِّرْهَم؛ وهو تقديرُهُ، وضربُ الجِزْيَةِ والخَرَاج؛ وهو تقديرُهُما، والضَّريبة: المُقَدَّرَةُ، والضَّرْبُ في الأرضِ؛ لأَنَّه يُقَدِّر أثَر المَاشِي بِقَدَرِه..."(2).

4) ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾: الفَاءُ والسِّينُ والقَافُ تدلُّ على خُروجٍ عَن مُحِيطٍ، كالكِمَام لِلثَّمَرَةِ، والجُحْرِ لِلْفَأْرَة(3)، وَمِنْهُ أُطْلِقَ الفِسْقُ على الخُرُوجِ عَنِ الطَّاعة(4)، يقال: فَسَقَت الرُّطَبَةُ؛ إذا خرجت مِنْ قِشْرِها(5).

ويُستعمل لفظُ الفاسقِ: لِمَن التزَمَ حُكْمَ الشَّرع وأقرَّ به، ثُمَّ خرَجَ عَنْهُ، قليلًا كان خروجُهُ أو كثيرًا، ويُستعمل لفظ الفاسق - أيضًا-: للكافر الأصليِّ؛ باعتبارِ إخلالِه بِمَا اقتضتْهُ الفِطْرَةُ ودلَّ عَلَيْه العقلُ(6)؛ لأَنَّ هذين هُمَا اللَّذَانِ يَصِحُّ أن يُقَال خرجَ عَنْهُمَا، أمَّا الشَّرْعُ فلم يدخُلْ فِيهِ حتَّى يقالَ: إنَّه قد خرج عَنْهُ، اللَّهُمَّ إلَّا إذا أُرِيدَ بالخروجِ عَنِ الشَّرعِ: ما أخذهُ اللَّه تعالى مِنَ الميثاق على بني آدَمَ وهُمْ في صُلْبِ أبيهم، الواردِ في قول اللَّهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾ [الأعراف: 172].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إِنَّ اللَّه سبحانَه لا يَسْتَحْيِي مِنَ الحقِّ بضربِ الأمثالِ، ولو كان المُمَثَّلُ به صغيرًا كالبعوضِ والذُّبابِ والعنكبوت والنَّمْلِ، فأمَّا أهلُ الإيمان فيَعْلَمُونَ حِكْمَةَ اللَّهِ تعالى في ضربِهِ الأمثالَ بخَلْقِهِ، سواء كان المثَّلُ به صغيرًا أو كبيرًا، وأمَّا أهلُ الكفرِ فيسألُونَ مُسْتَهْزِئِينَ - لجَهْلِهِمْ بالحِكْمَةِ الإلَهِيَّةِ -: ما أرادَ اللَّه مِن ضَرْبِ الأمثالِ بالبَعُوضِ ونَحْوِهِ؟

(1) الرّاغب، المفردات: (ضرب).
(2) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 14/55، بتصرُّفٍ يسير جِدًا في أوَّلِهِ.
(3) المُناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 260.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فسق).
(5) الأنباريّ، الزَّاهر: 1/120.
(6) الرّاغب، المفردات، ص: 636.

وقد جَعَلَ اللّه تعالى التَّمْثِيلَ بالبعوضِ ونحوِهِ سببًا لإِضْلَالِ خَلْقٍ كثيرينَ؛ وهُمُ الذينَ لا يَطْلُبُونَ الهُدَى والحقَّ، وجعلَهُ اللّه سبحانه سببًا لهِدَايَةِ آخرينَ؛ وهُمُ الذينَ يَطْلُبُونَ الحقَّ بقَصْدِ اتِّباعه والِاهتدَاءِ به، فهذَا التَّمْثِيلُ لا يُضِلُّ اللّه تعالى بِهِ - عَدْلًا مِنْهُ - إِلَّا الخارجين عَنْ طاعتِهِ[1].

۞ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

حسن المَطْلعِ بتَأْكِيدِ الكلامِ:

الرَّدُّ على اعتقاد المشركين في كلامِ الله تعالى، بما يتناسبُ مع المقام

صُدِّرتِ الجملةُ الخبريَّةُ بعدَّة أساليب لتأكيدِ الكلام، من التأكيدِ بإنَّ، والإتيانِ بالمُسْنَد إليه اسمًا والمُسْنَدِ فعلًا، والجملة الاسميَّة؛ وفائدةُ ذلك أنَّ الآيةَ سِيقَتْ ردًا على مَن زعمَ أنَّ كلام اللّه تعالى لا يُمكن أن يشتمِلَ على التَّمثيلِ بما صَغُرَ من بعوضةٍ وذبابةٍ ونحوهما، فكان تأكيدُ الكلامِ هو الأنسبَ في هذا المقام، ردًا على من أنكرَ مضمونَه، واعتقدَ بخلافه.

مَجِيءُ الِاسْمِ الأَحْسَنِ مُسْنَدًا إِلَيْهِ لأنَّه أَوْقَعُ فِي الإِقْنَاعِ بِمَا سِيقَتِ الآيَةُ لَهُ:

الاسمُ (الله) جامعٌ لصفات الكمال

وجاءَ المُسْنَدُ إِلَيْهِ بالِاسْمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ - وهو أعرفُ المَعَارِفِ -؛ لِكَوْنِ هذا العَلَمِ جامعًا لجميع صفات الكمال مِنَ الجلال والجمال، "فذِكْرُهُ أوقعُ في الإقناع بأَنَّ كلامَه هو أعلى كلامٍ في مراعاة ما هو حقيقٌ بالمراعاة، وفي ذلك أيضا إبطالٌ لتَمْوِيهِهِم بأَنَّ اشْتِمَالَ القرآن على مِثْلِ هذا المَثَلِ دليل على أنّه ليس مِنْ عند اللّه"[2].

توجيهُ الِاسْتِعَارَةِ التَّصريحيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا﴾:

ضَربُ الأمثالِ يُرَاد بِهِ إظهَارُها وإشاعتُها؛ لِتَهْتَدِيَ بهَا العقُولُ

اشتمل التَّركيبُ ﴿يَضۡرِبَ مَثَلٗا﴾ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّة، وله وجهان اثنان:

---

(1) ابن أبي زمَنِين، تفسير القرآن العزيز: 1/129-130، والواحديّ، الوجيز، ص: 96، والخازن، لباب التَّأويل: 1/33، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 46، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 5.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/359.

الأوَّل: من قولِهم: (ضَرَبَ في الأرضِ)، إذا توغَّل وأَبْعَدَ في أقاصيهَا؛ كأنَّ اللّه سبحانه أرادَ بضربِ المثل تَسْيِيرَهُ في الأرض وإِدَارَتَهُ على ألسنة النَّاس حتَّى يَعُمَّهم[1].

الثَّاني: أن يكون من ضَرْبِ الخيام؛ وهو نَصْبُها وإقامتُها؛ كأَنَّ الـمُرَادَ مِنَ المثلِ إظهارُهُ لِلنَّاسِ؛ لِتَسْتَدِلَّ عَلَيْهِ خواطِرُهم كما تَسْتَدِلُّ عيونُهم على الأشياءِ الـمُنْتَصِبَةِ الـمُتَشَخِّصَةِ أمامَهُم[2].

وكِلَا الوَجْهَيْنِ حسنٌ، لا تَعَارُض بينَهُما؛ فلا مَانِعَ مِنْ إرادتِهمَا، بل قد يُقال: إِنَّهُما متلازِمَانِ؛ إذْ من لازم انتشارِ المثَلِ وإشاعتِهِ أن يكون ظاهرًا ماثِلًا في خواطر النَّاسِ.

أثرُ القيدِ في إفادةِ التَّعْمِيمِ وَالوَصْفِ:

ضَربُ الـمَثَلِ شَامِلٌ لكلِّ مخلوقٍ صغيرًا كان أو كبيرًا

ضُرِبَ الـمَثَلُ بالبعوضةِ وجاء قيدُ: ﴿فَمَا فَوْقَهَاۚ﴾؛ ليُفيد العمومَ والوصف[3]: أمَّا العمومُ؛ فهو على التَّفسيرين الواردَيْنِ في معناه؛ فإذا حَمَلْنَا قولَه سبحانه: ﴿فَمَا فَوْقَهَاۚ﴾ على ظاهره؛ أي: فما هو أَكْبَرُ مِنْهَا[4] فهو نصٌّ في العموم، وإذا حملناه على معنى: فما فوقَها في الحقارة والصِّغَر[5]؛ فيدلُّ على العموم بِالفَحْوَى، والمعنى: إذا كان سبحانه لا يستحيي أَن يَضْرِبَ مثلًا بالبعوضة فما أصغر منها؛ فَلَأَنْ لا يستحيي ﷻ أن يَضْربَ مثلًا بِمَا هو أكبَرُ مِنْهَا أَوْلَى وأحْرَى، ويُؤيِّدُ العمومَ: تَنْكِيرُ (بعوضة)؛ فإنَّها في حيِّزِ النَّفْيِ، والنَّكرةُ في حيِّزِهِ تُفيدُ العمومَ.

وأمَّا الوصف؛ فعلى المعنى الأول لـ ﴿فَمَا فَوْقَهَاۚ﴾ يكون المرادُ: إنَّ اللّه لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما، صغيرًا كان الـمُمَثَّلُ به أو كبيرًا، وعلى المعنى الثَّاني يكون المرادُ: إنَّ اللّه لا يستحيي أن يَضْرِب مثلًا ما، صغيرًا كان الممثَّلُ به أو أصغرَ.

---

(1) الشَّريف الرَّضّي، تلخيص البيان، ص: 123.
(2) الشَّريف الرَّضّي، تلخيص البيان، ص: 123.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/88.
(4) واستظهره الفرّاء في معاني القرآن: 1/20.
(5) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/47.

نكتةُ تَأْكِيدِ الجُمْلَتَين بِـ (أَمَّا):

رَفْــعُ شَــأْنِ المُؤْمِنِين وحَطُّ قَدْرِ الكافِرِينَ

و﴿أَمَّا﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّفْصِيل، وهي هنا لِتفصيل حال المُتَلَقِّين لِلْأَمْثَالِ المضروبة ما بين مؤمنٍ وكافر[1]، وفيها معنى الشَّرطِ؛ لذا يَقْتَرِنُ جوابُهُ بالفاء، كما في هذين الموضِعَيْن المذكورَيْن هنا؛ وهما قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ﴾.

وقد أفادت توكيدَ الكلامِ وتقويتَهُ[2]، ونكتةُ التَّوكيد ههنا أنَّه مَحْمَدَةٌ عظيمةٌ لشأن المؤمنين، واعتدادٌ بعِلْمِهِم أنَّه الحقّ، وحَطٌّ كبيرٌ لأمر الكافرينَ ونعيٌ عَلَيْهِمْ في عنادِهِم وعدمِ إقرارِهِم بالحقِّ[3].

سِرُّ التَّعْبِيرِ عَنِ المُؤْمِنِينَ بِالفِعْلِ:

بُلُوغُ المَثَلِ في الأحقِّيَّة مبلغًا لا يُمكِنُ معَهُ الإنكَارُ

جاء التَّعْبِيرُ عَنْ حالِ أَهْلِ الإيمان بالفعلِ، فقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لِلإيمَاء إلى أنَّ مَنِ اتَّصفَ بمطلقِ الإيمان يَعْلَمُ أنَّ المَثَلَ حقٌّ؛ فأحرَى من حَصَلَ له الإيمانُ القويُّ الكاملُ[4]؛ وذلك لأنَّه بلغَ في الأحقيَّة مبلغًا عظيمًا لا يَتَأَتَّى مَعَهُ إنكارُهُ، وإذا كان هذا فيمن عندَهُ مطلقُ الإيمان؛ فغيرُهم من أهل الإيمان المطلقِ من باب أَوْلَى.

اخْتِيَارُ عنوانِ الرُّبوبيَّةِ للاعترافِ بفضلِ الله ورعايتِه لعبادِه المُؤمنين:

رُبـوبـيّـةُ الله للمؤمنين هي رعـايــةٌ لـهـم وفضلٌ ورحمةٌ

إيثارُ التَّعبير بعنوانِ الرُّبوبيَّة في قولِه سبحانه: ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ دون الأُلوهيَّة؛ فلم يقُلْ: (مِنَ اللّه)؛ لِلإشَارة إلى أنَّه رحمةٌ مِنَ اللّه تعالى ونعمةٌ لَهُمْ؛ فإنَّ ربوبيَّةَ اللّهِ تعالى الخاصَّةَ بالمؤمنين[5]: أنَّه يُرَبِّيهم بالإيمان ويوفِّقُهم لَهُ ويكمِّله لَهُمْ، ويدفع عَنْهُمُ الصَّوارفَ الحائلةَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَهُ، وهذا المَعْنَى أنسَبُ ههنا،

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/177.
(2) بهاء الدِّين السُّبكي، عروس الأفراح: 1/130.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/117.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 81-1/80.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 39.

وفيه إسنادُ الأمرِ إلى اللّه تعالى، فكما أنَّ الأدلةَ الكونيَّةَ حقٌّ؛ فكذلك الأمثالُ القرآنيَّةُ حقٌّ، ووجهُ كونِه رحمةً ونعمةً مِنْهُ سبحانه: أنَّه نصبَ لَهُمُ الأدلَّة الدَّالَّة على كونه حقّا[1].

العُدُولُ عمَّا يقتضيه ظاهرُ التَّقسيم:

التَّفريقُ بين عِلمِ المؤمنين وقـولِ الكافرين، وأثرُ ذلك في الكشف عـن الـعـنـادِ والمكابرةِ

عدلَ النَّظمُ الكريمُ عمَّا يقتضيه ظَاهرُ التَّقسيم، فلمَّا قال في حقِّ المؤمنين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ﴾، كانَ الظَّاهرُ أن يقولَ في حقِّ الكافرين: فيجهلون، أو فلا يعلمون، لكنَّه عدَلَ عن ذلك إلى تعبيرٍ يقتضيه الحالُ وهو: ﴿فَيَقُولُونَ﴾؛ لِلتَّنْبيهِ على الفرقِ بين المؤمنين والكافرين، فإيمانُ المؤمنين صادرٌ عن علمٍ متجدد، وكفرُ الكافرين ناشئٌ عن مجرَّدِ قولٍ صدرَ عنْهُم لا يقتضيه النَّظَرُ في قواعدِ العلْمِ[2]، ومقالتُهم هذه صادرةٌ عَنِ المكابرة والعِناد.

ويقوِّي هذه الدّلالة تعريفُ المسنَدِ إِلَيْهِ بالموصوليَّةِ في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ﴾؛ لِلإيمَاء إلى بِنَاء الخبَرِ، وأَنَّ قولَهم ناشئٌ عَنِ الكُفْرِ والعنادِ، لا عَنِ التَّفكير والتَّدبُّر والإنصاف.

نوعُ الِاسْتِفْهَامِ وأثرُه في بيانِ موقف الكافرين:

الاستفهامُ في قول الحقِّ سبحانه: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ﴾ إمَّا أنْ يُحمَلَ على ما يُفهم من مقصودِ الكلام، وإمَّا أن يُحمل على الظَّاهر، ولكلِّ احتمالٍ دلالتُه البيانيَّة، وسِرُّه البلاغيُّ.

الاحتمالُ الأوَّل:

معنى الاستفهامِ في مقصدِ النَّصِّ:

كِـنَـايَـةٌ عَـنْ جَـحْـدِهِـمْ أَنْ يَـكُـونَ الـقُـرْآنُ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى

الاستفهامُ في قول اللّه تعالى حكايةً عَنْ أهل الكفر: ﴿مَاذَآ أَرَادَ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/39.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/74.

﴿ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ﴾ إنكاريٌّ، وهو لا يُجابُ في الغالبِ؛ لأنَّه ليس استفهامًا حقيقيّا بَلِ استنكارٌ في صُورةِ استفهام[1].

واستفهامهم كنايةٌ عَنْ إنكارِهم - على وجه الجحود - أن يكون القرآنُ المشتملُ عَلَى تلك الأمثالِ كلامَ اللّه تعالى[2]، وأتى الإنكارُ بصورةِ الاستفهامِ لمحاورةِ العقولِ في مضمونِ الاستفهامِ، فإنّ ذلك أدعى لقبولِ الإنكارِ -في ظنِّهم-؛ مُبالغةً في تَعْمِيَةِ أمرهم وإخفاءِ جحودِهِمْ، وكأنَّ ما قالوه لا يَقْبَلُ المراجعَةَ.

بلاغةُ الأُسْلُوبِ الحَكِيمِ:

توجيه السَّائلين وتعليمهم اللّائق من السُّؤال

إذا حملنا الاستفهامَ على ظاهرِه؛ فيكون قولُه تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ جوابًا عن استفهامهِمُ الإنكاريِّ على غيرِ الغالبِ فِيهِ مِن باب الأسلوبِ الحَكيم؛ وذلك بِحَمْلِ استفهامهم على صُورته الظَّاهرة؛ تنبيهًا على أنَّه كان مِنَ الأليقِ بِهِمْ أن يسألوا عَنْ حكمة ما أراد اللّه تعالَى بتلكَ الأمثال، "فيكون قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ جوابا لَهُمْ، وردّا عَلَيْهِمْ، وبيانًا لحال المؤمنين"[3]، وزادَ بيانَ رفعة حالِ المؤمنين وانحطاطِ رتبة الكافرين: الطِّباقُ؛ فَإِنَّ الضِّدَّ يُظهِرُ حسنَهُ الضِّدُّ.

دلالة اسْمِ الإِشَارَةِ:

الاسْتِخْفَافُ بالأمثالِ القرآنيَّةِ ناشئٌ عن الكُفرِ والجَهلِ

في حكايةِ قولِ الكافرين: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ استرذالٌ واسْتِحْقَارٌ[4]، وهو مُكْتَسَبٌ من دلالة اسم الإشارة (هَذَا)؛ فليس المقصود باسم الإشارة المعنى المجرَّد، بل معنى الاستخفافِ أنْ يصدُرَ هذا التَّمثيل عن ربِّ العالمين، وهو نظيرُ قولِ اللّه تعالى حكايةً عن الكافرين قولَهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: 36].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 365-1/364.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/74.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/365.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/117.

تَعْجِيلُ مَسَاءَةِ الكفَّار؛ لردعِهم عَنِ الكُفْرِ

نكتةُ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ غيرِ المرتَّب:

جاءَ في قولِه تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ لفٌّ ونشرٌ غيرُ مرتَّبٍ[1]؛ فإنَّ قوله سبحانه: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرا﴾ نشرٌ لقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقولَهُ ﷻ: ﴿وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ نشرٌ لقولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وفائدتُهُ: توكيدُ ما ذُكِرَ قبلُ؛ لأنَّ معنَى قولِه ﷻ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ مُضَمَّنٌ على جهة الإجمال في الجملتين المتقدِّمتينِ.

ووقوعُ اللَّفِّ والنَّشرِ ههنا معكوسًا غيرَ مرتَّب؛ لفائدتين:

إحداهما: "ليكون أوَّلُ ما يقرعُ أسماعَهم مِنَ الجواب أَمْرًا فظيعًا يَسُوؤُهم، ويَفُتُّ في أَعْضَادِهم"[2]، ولذا خُصَّ محطُّ هذه الفائدةِ بالذِّكْر في قوله تعالى بعدُ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

والأُخرى: أنَّ الكلام لـمَّا كان مسُوقاً لبيان ضلال الكفرة؛ ناسبَ ذلكَ تقديمَهم، وإنَّما قُدِّمَ حالُ المؤمنينَ أوَّلًا في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ ذلك أدخَلُ في تحقيق ضلالِ مَنْ ضلَّ؛ إذْ ليس بعد الحقِّ إلَّا الضَّلالُ[3]، فكان ذكرُ إيمانِ المؤمنين وعلمِهم من قبيل التَّوطئةِ، وبيانِ الضدِّ بضدِّه.

بيانُ السَّابقِ باللاحقِ، جوابًا وإيضاحًا

علَّةُ الفَصْلِ بينَ الجُمَل:

فَصْلُ قولِه تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾ عن الجملةِ السَّابقةِ يَحْتَمِلُ:

أن يكون جوابًا عن سُؤالِهِمْ، وهذا سَبَبٌ يقتضي فَصْلَها عمَّا قبلَهَا؛ إِذْ مِنْ شأن الجوابِ أن يُفْصَلَ عنِ السُّؤالِ.

ويحتملُ أَنْ يكونَ بيانًا لِمَا قبلَهُ وتفسيرًا، فيكونُ بينَ الجملتينِ كَمالُ الاتِّصالِ، وهو سببٌ مُوجِبٌ الفصلَ أيضًا.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/365.
(2) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/280.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/100.

عِلَّة الوَصْلِ بين الجملتَين المتضادَّتين:

اسْتقصاءُ النَّاسِ جميعًا؛ فهم ما بين ضالٍّ ومهتدٍ

الوصلُ الواقِعُ بين الجملتين: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ ﴿وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾؛ لِمَا بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ إذْ كِلْتَا الجملتَين خبريَّةٌ فعليَّةٌ، وبينهما تناسبٌ بالجامع الوهميٍّ؛ وهو التَّضادُّ، وحالُ النَّاس لا يخرُجُ عن مجموعِ الجُملَتَيْن؛ فهم ما بينَ ضالٍّ ومهتدٍ.

القَصْرُ بأسلوبِ النفيِ والإثباتِ لحصرِه في الفاسِقين:

الفِسْقُ قَنْطَرَةُ الكُفْرِ

في قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ قَصْرُ صفةٍ على موصوفٍ، وفِيهِ إشعارٌ بأنَّ الفسقَ هو سببُ كفرِهم، وكفرُهم هو سببُ إضلال اللّه تعالى لَهُمْ؛ حيث إنَّ كُفْرَهم كان حاجبًا لَهُمْ عَنْ نَظَرِ التَّفكُّر والتَّدبُّر في المثل حتَّى أدَّاهم ذلك إلى إنكارِهِ وجَحْدِهِ[1]، ووقع القصرُ ههنا بالنَّفْيِ والاستثناء؛ وهو أقوى طُرُقِ القصرِ؛ إذ يلزَمُ عنه نفيُ إضلالِ أحدٍ، ثمَّ حصرُه في الفاسِقين.

بَلاغَةُ الفاصِلة:

اسْتكمالُ المقْصُودِ، وتقويةُ مضمونِ الجملةِ

وقَعَتْ الفاصِلَةُ موقعًا أخَّاذًا، حيث حدَّدت سببَ إنكارِ الكافرين ضربَ المَثَلِ بالبعوضة، وسببَ تيههم وعمايتهم، فهي استكمالٌ لِمَا بَدَأَتْه الآيةُ من التَّمهيدِ للرَّدِّ على قولِ الكافرين، والفاصِلَةُ ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ إطْنَابٌ بالتَّذييل[2]، وهو تذييلٌ ليس جاريًا مَجْرَى المثَل، والقصدُ مِنْهُ تقويةُ مضمون الجُمَلةِ قبلَهُ.

اللَّامُ في: ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ للكمالِ، فهم بلَغُوا الغايةَ في الفِسْقِ:

أفادَت اللَّام في كلمة: ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ معنى الكَمَالِ، أي: هُمُ الكَامِلُون في الفسقِ مبلغًا عظيمًا، البالغُونَ فِيهِ غايَتَهُ، وبلوغُ الغايَةِ في الفِسْقِ مأخوذٌ من السِّياق، لا سيَّما إذا كان المرادُ بالفاسقين: اليَهُودَ، كما استظهره ابنُ عاشُورٍ[3].

(1) محمّد سيّد طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 1/86.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/212.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/367.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحيَاءُ والخَجَلُ:

وردَ وصفُ اللّه تعالَى بالحياء في أحاديثَ، بل وردَ وصفُه به في آيةِ "البقرةِ" هذه، وقد سبقَ وجهُ ذلكَ في شرح المفرداتِ، ولَمْ يَرِدْ وصفُ اللّه سبحانه بالخجَلِ، وبابُ الصِّفاتِ مَبْنَاهُ على التَّوقيفِ.

وبينَ الحياء والخجَلِ - في حقِّ المخلوقِ - فرقٌ؛ وذلك مِنْ أوجهٍ[1]:

أوَّلها: أنَّ الخجل حَيْرَةٌ واقعةٌ بعدَ الحياءِ؛ فبَيْنَهُما نوعُ تلازُمٍ؛ إذْ لا يُتصَوَّرُ خَجَلٌ دونَ حياءٍ، ولا يلزَمُ مِن الحَياءِ وجُودُ خجلٍ.

ثانيها: أنَّ الخَجَلَ يُذَمُّ في حقِّ الرِّجالِ دون النِّساء والصِّبْيانِ، بخلاف الحياءِ فإنَّه محمودٌ مِنَ الجَميعِ، خلافًا لِمَنْ قال: إنَّ الحياءَ فيه ما يُمدَحُ ويُذَمُّ؛ لأنَّ هذا مخالفٌ لظاهرِ قولِ النَّبيِّ ﷺ: «الحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ»[2]. وأمَّا ما يُذْكَرُ مِن صُوَرِ الحيَاءِ المَذْمُومِ - كَأَنْ يَتعلَّقَ الحَيَاءُ بأمرٍ دينيٍّ، فيمنع الحَيَاءُ من السُّؤالِ فيه أو عَرْضِهِ في تعليمٍ أو دعوةٍ -[3]؛ فذَلِكَ بالنَّظَرِ إلى مُتَعَلَّقِهِ لا بالنَّظَرِ إلى ذاتِهِ.

ثالِثها: أنَّ الخجلَ أخصُّ مِنَ الحياءِ؛ مِن جهة أنَّ الخجلَ لا يكون إلَّا بعد وقوعِ أمرٍ لا يُريدُهُ الخجُول، بخلاف الحياءِ؛ فإنَّه يكون مِمَّا وقع، ويكون مِمَّا لم يقع فيُتركَ لِأَجْلِه؛ فالخجَلُ مِمَّا كان، والحياءُ مِمَّا كان ومِمَّا يكونُ[4].

رابِعها: أنَّ الكَيْفِيَّاتِ النَّفسيةَ المتعلِّقة بهذا البابِ ثلاثٌ؛ طرفَانِ ووسطٌ، فالخجَلُ أحدُ الطَّرَفَيْنِ، والحياءُ وسَطٌ؛ إذِ الحياء وسطٌ بينَ الوقاحةِ والخَجَلِ، فالحياءُ: انْقِبَاضُ النَّفْسِ عَنِ القَبِيحِ مخافةَ الذَّمِّ، والوقاحة: الجَراءةُ على القبائحِ وعدَمُ المبالاة بِهَا، والخجل: انْحِبَاسُ النَّفس عَنِ الفعل مُطْلَقًا.

---

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 212، والرّاغب، الذَّريعة، ص: 207-208، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 1/62، والخفاجيّ، عناية القاضي: 2/82، والآلوسيّ، روح المعاني: 1/208.

(2) رواه مسلم، حديث رقم: (37).

(3) ابن عثيمين، شرح الأربعين النَّوويَّة، ص: 210.

(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 212.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة: 27]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكَر اللّه ﷻ في الآيةِ السَّابقة أحوالَ النَّاس في المَثَلِ المضروب، وأنَّهم فريقانِ: أهلُ الإيمانِ الذين يَعْلَمُون حكمةَ اللّهِ ﷻ مِن ضَرْبِها، وهُمُ الذِينَ يَهْدِيهم اللّهُ تعالى. وأهلُ الكفرِ المستهزِئُونَ بها، وهُمُ الذين يُضلُّهم اللّهُ سبحانه عدلًا منْهُ؛ إذْ فسَقوا عَنْ أمرِهِ تعالى. فلَمَّا ذكَر اللّه ﷻ ذلكَ؛ وجَعَلَ فاصلَةَ الآيةِ في بيانِ سببِ كفرِهم وضلالِهم؛ أعقبَهُ ببيانِ صفةِ هؤلاءِ الفاسقينَ زيادةً في البيانِ لصفاتهم التي اجتمعتْ فيهم فاستحقُّوا وصف الفسقِ، وتحذيرًا لأهل الإيمان مِنْ أن يتَّصفوا بشيءٍ مِنْ أوصافهم المذمومة المُستَقْبَحَةِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَنقُضُونَ﴾: النُّون والقاف والضَّاد أصلٌ يدلُّ على نَكْثِ شيءٍ؛ مِنْ بناءٍ أو حَبْلٍ ونحوهما[2]؛ أي: إفسادُ المُبْرَمِ مِنْهَا[3]، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ [النَّحل: 92].

والتَّحقيقُ في معنى النَّقْضِ: أنَّه حَلُّ ما رُكِّبَ بفعلٍ يُعاكِسُ الفعلَ الذي حصلَ به التَّركيبُ؛ لِيَخْرُجَ بذلك إفسادُ الشَّيءِ بنحو القَطْعِ والحَرْقِ[4].

ويُستعمَل النَّقْضُ حقيقةً في الأجسام - كما مرَّ-، ومجازًا في المعاني؛ ومِنْهُ: نقضُ العهد[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/208، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/359.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نقض)، والرّاغب، المفردات، ص: 821.
(3) الخليل، العين: (نقض).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/368.
(5) الزَّمَخشريّ، أساس البلاغة: (نقض).

2) ﴿عَهۡدَ﴾: أصلُ العهد: حِفْظُ الشَّيء ومراعاتُه حالًا بعد حال[1].

وهذه المراعاة حالًا بعد حالٍ هي التي عبَّر عنها الخليلُ بقوله: إحداثُ العَهْدِ بالشَّيء[2].

ومِنْ هذا البابِ: العهدُ الذي هو الوصِيَّةُ[3]؛ لكونها مِمَّا تُحْفَظُ وتُراعَى حتَّى تَنْفُذَ، ولِلْعَهْد معانٍ كثيرةٌ جدًا، مِنْهَا: الأمانُ، واليمين، والذّمَّة، ورعاية الحقِّ، والمَنْزِل[4]، وكلُّها راجعةٌ إلى الأصل المذكور.

3) ﴿مِيثَٰقِهِۦ﴾: الواو وَالثَّاء والقاف تدلُّ تصاريفُها على العَقْدِ والإحكام[5]، وأصلُه: الاطْمِئْنانُ بالشَّيء والسُّكونُ إِلَيْهِ والاعتمادُ عَلَيْه[6]؛ إذْ لا يُطمَأَنُّ إلَّا بالأمر الشَّديد الإحكامِ، ويُقال: أخذتُ الأَمرَ بالأَوْثَق، أَيْ: الشَّديدِ المُحْكَم[7].

وقولُه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي: توثُّقِه وإبرامِه[8].

4) ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: الخاء والسِّين والرَّاء أصلٌ يدلُّ على النَّقص[9]، وجعلَه ابنُ دُرَيْدٍ وغيرُهُ دالّا على الضَّلالِ، ثُمَّ استُعْمِلَ في غيرِهِ، كَخُسْرَانِ التَّاجر[10]، والأَوَّلُ أَدَقُّ؛ لئلَّا يُدَّعى في معنًى لفظِ المجازُ مَعَ إمكان الحَمْلِ على الحقيقةِ.

ويُطلق الخسرانُ على الهلاكِ[11]؛ لأنَّ في الهلاكِ نقصًا مَا.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تناولتِ الآيةُ صفاتِ الفاسِقين الذين يُضلُّهمُ اللّٰه سبحانه بسبَبٍ مِن أنفسهم، وهُمُ الذين ينكثون عهد اللّٰه إليهم بتوحيدِهِ وطاعتِه، وقد أكَّده بإرسال الرسل، وإنزال الكتب،

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 591، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (عهد).
(2) الخليل، العين: (عهد).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (عهد).
(4) القاسم بن سلاَّم، غريب الحديث: (عهد)، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (عهد)، ونشوان الحِمْيَرّيّ، شمس العلوم: (عهد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وثق).
(6) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ: (وثق).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: 1/430.
(8) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/85.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خسر).
(10) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة، وابن سِيدَه، المحكم: (خسر).
(11) الجوهريّ، الصِّحاح: (خسر).

ويخالفون أوامر الله فيقطعون ما أمر بوصله كالأرحام، ويسعون لنشر الفساد في الأرض بالمعاصي، أولئك هُمُ الخاسرون المَغْبُونُون في الدُّنيا والآخرة[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

الإعرابُ فرعُ المعنى وثمرتُه:

مراعاةُ التَّحذير والتَّخويف ملحوظٌ في التَّعدُّدِ النَّحْويِّ

الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِنْ قولِ الله تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾، إمَّا أن يُحمَلَ على النَّصْبِ[2] نعتًا لـ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، ومعناه: مزيدُ ذَمٍّ وتعييبٍ لِلْفَاسقين بذِكْرِ أوصافهم القبيحةِ[3]، واسترسالٌ في بيان حقيقتِهم، للحذرِ من الوقوعِ في مخالبِها.

وإمَّا أن يُحملَ على الرَّفعِ؛ فيكون مبتدأً؛ وخبرُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وهذا أنسبُ إذا رُوعِيَ مقامُ التَّخويف؛ لأنَّه يقتضي ترتُّبَ الذمِّ على كل وصفٍ مِنَ الأوصافِ المذكورةِ.

والإعرابان فرعا المعنى، والمقامُ مقامُ تحذيرٍ من الوقوع في صفاتِهم، وتخويف مِنَ الاقترابِ من تلك الصِّفات، فالإعرابان وإن اختلفا في التَّوجيه الصِّناعيّ، إلَّا أنَّهما مُلتقيان في التَّوجيه التَّفسيريِّ، وهذا من بديع الاحتمالِ النَّحوي، القائمِ على التَّنوّع المعنويّ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالِاسْمِ المَوْصُولِ:

تعليلُ السَّابقِ واللاحقِ بلفظٍ جامعٍ

وجِيءَ هُنا بالِاسْمِ الموصُول؛ لِيجمَعَ بين أمرين، بناءً على الاحتمالَيْن في الإعرابِ، وهما:

الأوَّل: تعليلُ السَّابقِ؛ لبيانِ استحقاقِ الفاسقين ما اتَّصفُوا به من الفسقِ، وأنَّهم ما بلغوا غايةَ الفسقِ إلَّا بهذه الصِّفات المذكورةِ.

(1) الزَّجَّاج، معاني القرآن: 1/106، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 1/77، والخازن، لباب التَّأويل: 34-1/33، والثَّعالبي، الجواهر الحسان: 1/203، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 5.
(2) ذكر السَّمين فيها أربعة أوجه، وهي: نعت، أو منصوب على الذَّم، أو مرفوع بالابتداء، أو خبر مبتدأ محذوف، يُنظر: السمين، الدّرُّ المصون: 1/234،
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/75.

الثَّاني: تعليلُ اللاحقِ؛ فإنَّ تعريفَ المسندِ إِلَيْهِ بالموصوليَّةِ لِلإيمَاءِ إلى وَجْهِ بناءِ الخبَرِ، أي: أنَّ خُسْرَانَهم سببُهُ هذه الأوصافُ المذكورةُ.

ولهذا السَّببِ عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ؛ فهو دُرَّةُ القِلادَةِ الجامعةِ.

التَّعبيرُ بصيغةِ المُضَارِعِ لتصويرِ بشاعةِ نقضِ الفاسقين عهودَهم:

التَّعبير بصيغةِ الفعل المُضَارع ﴿يَنقُضُونَ﴾ دون الفعلِ الماضي؛ لإفادةِ تكرارِ وقوعِ النَّقْضِ مِنْهُم مَرَّةً بعد أُخْرَى، فهو مفيدٌ الِاسْتِمْرَارَ التَّجدُّديَّ بقرينةِ سياقِ الذَّمِّ، وفيه تصويرٌ لبشاعةِ النقضِ؛ لاستمرارِهم فيه، وعدمِ توانيهم عنه، لاسيَّما أنَّه نقضٌ لعهدِ اللّه تعالى.

تنوُّعُ الِاسْتِعَارَةِ في قولِه تعالَى: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾:

النَّقضُ هو: حَلُّ ما رُكِّبَ بِفِعْلٍ يُعَاكِسُ الفعلَ الذي حَصَلَ به التَّرْكِيبُ، وهو حقيقةٌ في الأجسام، مجازٌ في المعاني.

واستعمالُه مع العهدِ استعارةٌ، وهو إمَّا أن يُحْمَلَ على الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ حيث شُبِّه إبطالُ العهدِ وتركُهُ بنقض الحبلِ؛ بجامع مُطْلَق فكِّ الِارْتِباطِ، ثُمَّ اشتُقَّ من (النَّقْضِ) الفعلُ (يَنْقُضُ).

وإمَّا أن يُحْمَلَ على الاستعارةِ المكنيَّةِ الأصليَّة؛ حيث شُبِّه العهدُ بالحبلِ[1]، والجامع بينَهما: مَا فِيهِ من ثباتِ الوُصلةِ بين طَرَفَيْنِ[2]، فحُذِفَ الـمُشَبَّهُ به ورُمِزَ له بِشَيْءٍ من لوازمه وهو النَّقْضُ.

إخْـرَاجُ المعنويِّ في صُورة الحِسّيِّ أوقعُ في النَّفس وأرسـخُ في الذِّهن

وفي كِلَا الوجهين لِلِاسْتِعَارَةِ إبرازُ الأمور المعنويَّةِ في صورة الشَّيْءِ المحسُوس المَلْمُوس[3]، وهذا أَدْعَى إلى إيضاحِ المعنى وترسيخِه، والمقصودُ بالاستعارتين بيانُ إبطالِ العَهْدِ بالمحسوسِ؛ زيادةً في التَّشنيعِ والتَّقبيحِ.

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/88، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 1/286.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/119.
(3) أحمدي بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 57.

معنى الإِضَافَةِ فِي قولِه تعالى: ﴿عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾:

تعظيمُ العهدِ وتشريفُه، وذَمُّ الفَاسِقِين بِنَقْضِهِمْ أَمْرًا عظِيمًا

إضافةُ العَهْدِ إلى لفظِ الجلالةِ في قوله: ﴿عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ يُرادُ بها تعظيمُ المضافِ وتشريفُهُ، ولازِمُ ذلك: المبالغةُ في ذمِّ النَّاقضينَ لهُ؛ إِذْ نَقَضُوا أمرًا عظيمًا مُضافًا إلى اللّه تعالى.

ويؤكِّدُ هذه الدّلالة وجهان:

أحدُهما: إلقاءُ الرَّوعِ في ضَميرِ السَّامع وزيادة المَهابةِ[1]، من خلالِ إظهارِ ما حقُّه الإضمار في قولِه تعالَى: ﴿عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾؛ إذْ مُقتضى الظَّاهرِ: (الذين ينقُضُون عَهْدَهُ)، وذلك لتقدُّمِ ذِكْرِ اسم اللّه تعالى.

والآخر: تعظيمُ عهدِ اللّه، وذمُّ النَّاقضين له، ويظهرُ ذلك في قولِ اللّه تعالى بعدُ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ على التَّفسيرين، وهما: من بعدِ إبرامِه[2]، ونقضُ العَهْدِ المؤكَّدِ الشَّديدِ أقبَحُ مِنْ نقض مُطلق العَهْدِ، أو بمعنى: من بعدِ توثيقِه، والضَّميرُ راجعٌ إلى اللّه تعالى[3]؛ أي: مِنْ بعد توثيقِ اللّهِ تعالى لَهُ.

نكتةُ التَّعبير بصيغة الفِعْلِ المُضَارِعِ:

حِرْصُ النَّاقِضين على قطعِ ما أَمر الله بوصله تكرارًا واستمرارًا

عبَّر النَّظمُ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ ﴿وَيَقۡطَعُونَ﴾ دون غيرِه من الصِّيَغِ؛ للتَّناسبِ اللفظيِّ مع صيغة فعل النَّقضِ، ولِلتَّنبيهِ على تكرارِ صُدُورِ قَطْعِ ما أَمَرَ اللّه بوصله مرَّةً بعد أُخْرَى؛ إِذِ الفعلُ المضارِعُ يدلُّ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، فهم لا يكادُونَ يجِدُونَ أَدْنَى صِلَةٍ مأمورٍ بها، إلَّا ويقطعونها، وهذا أبلغُ في بيانِ شناعةِ فِعالِهم، وقباحةِ أعمالِهم.

---

(1) الخطيب القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/84.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/85.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/120.

سرُّ التَّعبير بـ (ما) دون الاسمِ الموصولِ:

الـدّلالـة على قـطـع كـلِّ ما يتصوَّره الذِّهنُ مـن الأعـمـالِ الصَّالحةِ

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَآ﴾ الموصوليَّة[1] في قولِه تعالى: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، دون الاسم الموصول الظَّاهر؛ للدّلالة على العمومِ؛ فإنَّ "ما" أعمُّ من الذي، فيُفيدُ قطعَهُمْ جميعَ الذي أَمَرَهُم اللّه تعالى بوصلِهِ[2]، وخصَّهُ جماعةٌ مِن أهلِ العِلْم بأفرادٍ مِنْ هذا العموم، ثُمَّ اخْتلفوا في تعيين هذه الأفراد[3]، واسْتَظْهَرَ ابنُ جرير أنَّ المرادَ قطعُ الرَّحِم، وأنَّ دخولَ غيرِهَا مِمَّا يُقطع في الآية إنَّما هو بطريق الفَحْوَى[4]، وهذا نوعٌ من العموم، يُعينُ عليه سياقُ الآيةِ، وهو دالٌّ على عدم رعايةِ أيِّ حقٍّ مُتصوَّرٍ ممَّا أمرَ اللّه بوصلِه، وهو يُقوِّي معنى الذَّمِّ الواردِ في الآيةِ لأولئك المجرمين.

المَجازُ المُرْسَلُ بِعَلَاقَةِ العُمُومِ:

عِظَمُ قَدْرِ الرَّحم وخطُورَةُ قَطْعِها

إذا حَمَلْنَا ما أمَرَ اللّه بِهِ أن يُوصَل في قولِه تعالى: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ على خصُوص قَطْعِ الرَّحِم أصالةً؛ كان هذا مِنَ المجاز المرسل بعلاقة العموميَّة؛ حيث أُطْلِقَ العامُّ وأُرِيدَ به فردٌ من أفرادِهِ، وذلك لِتعظيم قَدْرِ الرَّحِم بِجَعْلِ قَطْعِهَا قطعًا لجميع المأمور بوصلِهِ.

فائدةُ الاِسْتِعَارَةِ التَّصريحيَّةِ فِي قوله: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾:

تـجـلـيـةُ صفةِ الـقـسـوةِ في قلب القاطِعِ، والـكـشـفُ عن حقيقةِ إيمانه

القطع في الأصل: فَصْلُ بَعْضِ أجزاء الشَّيْءِ عن باقِيه[5]؛ فهو حقيقةٌ في الأجسام، واستعمالُه في المعاني مجازٌ.

وعليه فقولُه تعالَى: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ هو

---

(1) القولُ بأنَّها موصولةٌ هو القولُ الرَّاجح في المسألةِ.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/206، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/76، وابن بدران، جواهر الأفكار، ص: 138.

(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/48.

(4) ابنُ جرير، جامع البيان: 1/416.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/230.

اسْتِعَارَةٌ تَصْرِيحِيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ حيث شُبِّهَ تركُ أوامرِ اللّه تعالى، وهجرانُ الأقْرَبِينَ وتركُ التَّعطُّف عَلَيْهِمْ والرِّفْقِ بِهِمْ[1] بالقَطْعِ؛ بجامع مُطْلَقِ الانْفِصَالِ، وهو مِنْ إخراجِ المعنويِّ في قالب المحسوسِ؛ ليكون أظْهَرَ في الدّلالة؛ إذْ إدراكُ المحسوسِ أسهلُ مِنْ إدراكِ المعنويِّ المجرَّد، وتُفيدُ الاستعارةُ قسْوَةَ القاطِعِ في التَّرْك والهَجْرِ، وأنَّه ما كان منه ذلك إلَّا بعد انعدام الإيمانِ وأثرِه في قلبِه.

نكتةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ ﴿أَن يُوصَلَ﴾:

جـزْمُ القَاطِـعِ عَـلى إتـيانِ ضِدِّ المأمورِ به؛ دليلُ شديدِ فِسْقِهِ

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارِعِ في قولِه: ﴿أَن يُوصَلَ﴾ دُونَ المصدَرِ الصَّريحِ: (ما أمرَ اللّه بوصلِه)؛ لِلتَّنبيهِ على أنَّ الوصلَ المأمورَ به مستمرٌّ استمرارًا تجدُّديًا؛ بحيث يقعُ الوصلُ المرَّةَ بعد المرَّةِ وصلًا لا يَتَخَلَّلُهُ قَطْعٌ يُفْسِدُهُ، وهو ممَّا يزيدُ القطعَ ذمّا؛ لأنَّه قطعٌ مستمرٌّ لوصلٍ مأمورٍ به أن يستمرّ، فالقاطِعُ جاءَ بضدِّ المأمورِ به، وهو يدلُّ على شديدِ فسقِه، وبالغِ عداوته.

فائدةُ بِنَاءِ الفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ في قولِه: ﴿أَن يُوصَلَ﴾:

تَـعْـظِـيـمُ شـأنِ الـوَصْـلِ، وذمُّ الـقـاطـعـين؛ لشُذوذِهم عن الجميع

بُنِيَ الفعلُ للمفعولِ في قولِه تعالَى: ﴿أَن يُوصَلَ﴾؛ لإفادة العُمومِ والشُّمولِ؛ أي: أنَّهُ ممَّا يجبُ أن يَصِلَهُ جميعُ النَّاسِ، ولو ذكَرَ الفاعِلَ أو أشارَ إليه لارتبطَ به الفعلُ وتعيَّن الخصوص، والمعنى: أمر اللّه تعالى جميعَ الناس بِوَصْلِه، وفيه مزيدُ ذمٍّ لأولئك القاطعين؛ إذ قطعُهم قطعُ شُذوذٍ عن الجميع.

دلالة الفِعْلِ المُضَارِعِ ﴿وَيُفْسِدُونَ﴾ لبيانِ تكرُّرِ وقوعِه:

مَجيءُ الفعل المضارع في قولِه سبحانه: ﴿وَيُفْسِدُونَ﴾ دالٌّ - كما في نظائره المتقدِّمة - على التَّجدُّد الاستمراريِّ، المفيدِ بتكرُّرِ إفْسَادِهم وتجدُّدِهِ مِنْهُمْ واستمرارِهم عَلَيْهِ.

(1) ابن الأثير، النِّهاية: 192-5/191.

فائدةُ عطفِ العَامِّ عَلَى الخَاصِّ:

نَقْضُ العهُودِ وقطعُ الأرحامِ موصلٌ إلى دَرَكَةِ الإفسادِ في الأرضِ

يشمَلُ الإفسادُ في الأرض الشِّرْكَ باللّه تعالى وجميعَ المعاصي[1]، بل ما مِنْ خصلةٍ مذمومةٍ يُدعى إليها إلَّا ويَصْدُق عَلَيْهَا أنَّها إِفسَادٌ في الأرض[2]، وإذا حملنا قطعَ ما أمَرَ اللّه به أن يُوصَل على خُصوص قطعِ الرَّحم؛ فيكون عطفُ إفسادِهم في الأرض على ما سبَقَ مِنْ باب عطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ تنبيهًا على خَطَرِ ذلك الخاصِّ، وأنَّه مقدِّمةٌ أساسيَّةٌ للإفسادِ في الأرضِ؛ فما من ناقضٍ للعهود، وقاطعٍ للأرحام، إلَّا وهو واصلٌ إلى دَرَكَةِ الإفسادِ في الأرضِ.

فائدةُ القيدِ في قوله تعالَى: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

إفصاحٌ قرآنيٌّ بخطورة الإفسادِ، فهو يبدأُ بذرةً لينتشر بعد ذلك

قُيّدَ الإفسادُ في الأرضِ في قوله سبحانه: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ إفسادَهم لا يتوقَّف على بقعةٍ معيَّنةٍ، أو على زمنٍ محدَّد، أو على فئةٍ من النَّاسِ، بل هو شاملٌ للأرض كلِّها، وشمولُ إفسادِهم للأرضِ كلِّها يعني أنَّه سيطالُ جميعَ النَّاسِ، في الزَّمانِ والمكانِ كلِّه، وهو إفصاحٌ قرآنيٌّ بخطورةِ صنيعِ أولئك المفسدين، إذ إفسادُهم يبدأُ بذرةً ثمَّ ينتشرُ انتشارَ النَّارِ في الهشيم، والقيدُ فيه: زيادَةٌ في ذَمِّهم وتوبيخهم؛ فإنَّ المحلَّ الذي مِنْهُ خُلقُوا، وعلى ظهرِه يعيشونَ، وإلَيْه يُرجعُونَ: حقيقٌ بأن لا يقعَ فيه إفْسَادٌ[3]، كما سبق نظيرُهُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ [البقرة: 11].

دلالة اسْمِ الإشَارَةِ على كَمَالِ تَمَيُّزِ الفاسِقين فِي الخُسْرَانِ:

أُشِير إلى الفاسقين باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للدّلالة على بُعدِ منزلتِهم في الفسادِ، وأنَّهم متوغِّلُونَ فِيهِ لِلْغَايةِ[4]، ولِلإِشْعَار بأنَّهم

(1) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 3/404.
(2) ابن بدران، جواهر الأفكار، ص: 138.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/107 - 208.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/184.

متميِّزُونَ بخسرانهم أكملَ تمييزٍ وأَبْيَنَهُ، وهذا أَدْخَلُ في ذَمِّهِمْ؛ فكأنَّه لا خاسرَ سِواهم.

فائدةُ القَصْرِ الادِّعائيّ:

المبالغةُ في قَصْرِ الخسارةِ على الفاسقِينَ فكأنَّه لا خاسرَ سواهم

لـمَّا بلغَ المفسدون في الأرضِ مبلغًا عظيمًا من الإفسادِ، وكأنَّه لا مُفسِدَ في الأرضِ سِواهُم، نَاسَبَ ذلك أنْ يَقصُرَ صِفةَ الخسارةِ عليهم، في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ بتعريفِ جُزْأَيِ الجملةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[1].

وأفاد القصرُ: حصرَ الخُسْرَانِ في الفاسقينَ؛ فهو قصرٌ حقيقيٌّ ادِّعائيّ بقصدِ المبالغةِ؛ ويكون المعنى مِنْ إفادة انحصار الخسران فِيهِمْ: أنَّ خسرانَهم أعظَمُ خسرانٍ، حتَّى كَأَنَّ خُسْرَانَ غَيْرِهِمْ ليس بشيءٍ مقارنةً بخسرانِهم.

وهو قصرُ قلبٍ؛ لأنَّهم ظنُّوا أنفسَهم رابحين[2]، فقُلِبَ عَلَيْهِمُ اعتقادُهم وأُثْبِتَ لَهُمُ الخسرانُ.

فائدةُ التَّأكيدِ بِضَمِيرِ الفَصْلِ وَاسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ:

حصْرُ الخسَارَةِ في المُفسدِين؛ لبيانِ فظيعِ أعمالِهم، وسوءِ مآثرِهم

جيءَ بضميرِ الفصل (هُمْ)؛ لتأكيدِ القصر وتقويتِه، لا لإفادة القصر ابتداءً؛ إذِ القصرُ مستفادٌ مِنْ تعريف جُزْأَيِ الجملةِ، إذْ شرْطُ إفادةِ ضميرِ الفصلِ القصرَ خُلُوُّ الجملةِ مِنْ أحدِ طرق القَصرِ[3]، وليس الأمر هُنا كذلك، وهذا آكدُ في المبالغةِ في حَصْرِ الخسارةِ فيهم؛ لبيانِ فظيعِ أعمالِهم، وسوءِ مآثرِهم، وتقويةُ الجملةِ بالإتيانِ بها اسميَّةً؛ ففي ذلك دلالة على ثباتِ الخسرانِ فِيمَن هذه صفتُه[4].

---

(1) المقصور في هذا الضَّربِ هو المعرَّفُ باللاَّمِ تقدَّمَ ذلك أو تأخَّر.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/372.
(3) المراغي، علوم البلاغة، ص: 133.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/184.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾:

شِدَّةُ غَبْنِ مَن نَقَضَ العهدَ وقطَعَ الرَّحِمَ، وعظيمُ خَسَارَتِه

كثُرَ استعمالُ لفظِ الخسارةِ في التِّجارَة، أخذًا من أَصْلِ الخُسْرَانِ وهو: النَّقْصُ، وغالبُ استعمالِهِ في التِّجارة، حتَّى قيل: إنَّه لا يُستعمل حقيقةً إلَّا فِيهَا، وبناءً عَلَيْهِ فاستعمالُه ههنا يُحمَلُ على الاستعارةِ التَّصريحيَّة؛ حيث شُبِّهَ استبدالُهم نقضَهم العهدَ بالوفاء، ووَصْلَهُمُ الأرحامَ بالقطعِ المستلزمِ لِلْعِقابِ بالصَّفَقَاتِ الخاسرةِ[1]؛ وهذا أدلُّ على غَبْنِهم وأشدُّ في توبيخِهِمْ.

اللّامُ في كَلِمَةِ: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ بَيْنَ العهدِ وبيانِ الجنسِ:

اختُلف في معنى اللّامِ في قولِه تعالَى: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ على قولين:

الأوَّل: أن تكونَ لِلعهدِ الخارجيِّ، على معنى: أنَّ الفاسقين هم النَّاسُ الذين بلغَك عنهم الخسران؛ فهو مِنْ قصر الصِّفة على الموصوف؛ على الوجهِ الذي سبقَ بيانُهُ آنِفًا.

الثَّاني: أن تكونَ لبيان الجِنس والحقيقةِ، ويكون المعنى: أنَّ الفاسقين هم الذين إن حصلَت صفة الخسرانِ، فَهُمْ هُمْ، لا يَعْدُونَ تلكَ الحقيقةَ؛ فهو مِنْ قَصْرِ الموصُوفِ على الصِّفةِ؛ فَهُمْ لا يتجاوزون صفةَ الخسران إلى صفةٍ أخرى.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَهْدُ وَالمِيثَاقُ:

نَصَّ جمعٌ مِنْ أصحاب المعجمَاتِ على التَّسويةِ بينَهُمَا[2]، إرادةً للتَّقريبِ على عادتِهم في ذلك، والتَّحقيقُ أنَّ بينَ العهدِ والميثاق فرقًا؛ وهو أَنَّ أصلَ الميثاقِ: العهدُ المؤَكَّدُ[3] أو المؤكَّد بخصوص اليَمِين[4]؛ وعلى كِلَا الاحتمالَيْنِ؛ فإنَّ العَهْدَ أَعَمُّ مِنَ المِيثَاقِ مطلقًا، فكلُّ ميثاقٍ عهدٌ، وليس كل عهدٍ ميثاقًا.

ويدُلُّ على هذا الفرقِ الاشتقاقُ اللُّغويُّ؛ فإنَّ الميثاقَ مِنْ قولِهم: أوثقتُ الشَّيءَ؛ أي: أَحكمتُهُ[5].

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/107.
(2) ابن سِيده، المحكم: 6/544.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 525.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/206.
(5) ابن القطَّاع، كتاب الأفعال: 3/304.

وذكر الشَّوكانيّ فرقًا آخرَ بينَهما[1] لا يرجع إلى اللُّغةِ؛ وهو أنَّ العهدَ: جميعُ ما عَهِدَ اللّٰهُ عَلَى العبادِ مِن الأَوامرِ والنَّواهي، والميثاقَ: ما أخذه اللّٰه تعالى على عبادِه حين أخرجَهُم مِنْ صُلْبِ آدمَ في عالم الذَّرِّ؛ وهو الواردُ في قول اللّٰه سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: 172]، وهذا تفريقٌ استعماليٌّ لا معجميٌّ.

(1) الشَّوكانّي، فتح القدير: 3/94.

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة: 28]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللّٰه سبحانه بتَوحيدِهِ وأقام الأدلَّةَ على ذلك، وأنذر مَن أعرضَ عَنْهُ، وبَشَّر مَنْ أقبل عَلَيْهِ، وذكَر حالَ الفريقَيْنِ في قبول الأمثالِ، وَذَكَرَ سُبحانه حالَ الكفرةِ في نَقْضِهم عهدَهُ سبحانه وقطعِهم مَا أمَرَهُم بوصلِهِ وإفسادِهم في الأرض؛ عجَّبَ مِنْ حالِهم هذه ووبَّخَهُم عَلَيْهَا؛ وذلك لظهور الأدلَّة والبراهين على ربُوبيَّته سبحانه على خَلْقِه، وذلك مستلزمٌ لإفرادِهِ بالألوهيَّة وطاعتِهِ فيما أمرَ بِهِ ونهَى عَنْهُ، فقال: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَمۡوَٰتٗا﴾: الميمُ والواو والتَّاء تدلُّ اشتقاقَاتُها على ذهَاب قوَّة الشَّيء[2]، ومِنْهُ قولُ النَّبيّ ﷺ: «مَنْ أَكَلَهُمَا فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا»، وَقَالَ: «إِنْ كُنْتُمْ لَا بُدَّ آكِلِيهِمَا فَأَمِيتُوهُمَا طَبْخًا»[3]، يَعْنِي: البَصَلَ وَالثُّومَ، فحياة هاتين الشَّجرتين عبارةٌ عن قُوَّةِ رائِحَتِهما عِنْدَ طراوتِهما، ومَوْتُهما: إزالةُ تلك الرَّائحةِ بالطَّبخ، فتذهب تلك القوَّة[4].

ومِنْهُ الموت - وهو ضدُّ الحياةِ -؛ لذهاب القُوَى بالموتِ، ومِنْهُ: ماتتِ النَّار؛ إذا خَمَدَت، وماتَتِ الرِّيح: سكنَتْ[5].

والأموات: جمعُ (مَيِّتٍ) أو (مَيْتٍ)؛ وهو مَن قامَ به الموتُ[6]، إمَّا حقيقةً أو مجازًا؛

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/212.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (موت).

(3) رواه أحمد، حديث رقم: (16247)، وأبو داود، حديث رقم: (3827)، والنَّسائي في الكبرى، حديث رقم: (6647)، وهو صحيح كما في تخريج المشكاة، رقم: (736).

(4) الطِّيبيّ، الكاشف عن حقائق السّنن: 3/953.

(5) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (موت).

(6) فرَّق جماعة بين (مَيِّتٍ) و(مَيْتٍ)، ويأتي بيانُهُ في موضعه إن شاء الله.

فالمَيّت حقيقةً: مَنِ انفصلت روحُهُ عن جسدِهِ، ولِلمَيِّت مجازًا معانٍ عِدَّةٌ، مِنْهَا: خَامِلُ الذِّكْرِ الذي لا يُعرف ولا يُذكَرُ[1].

واختَلفَ أهل العلم في إطلاق الموتِ على من لم تَحُلَّهُ الحياةُ: أَحقيقةٌ ذلك أم مجازٌ؟ فذهب جماعةٌ إلى أنَّ إطلاق الموتِ على ما لم تَحُلَّه حياةٌ هو مِنْ باب المجازِ؛ فلا يصحُّ عِنْدَهُم وصفُ الجمادِ مثلًا بالموتِ حقيقةً.

وذهب آخرون إلى أنَّ ذلك حقيقةٌ، وهو المختارُ؛ وذلك أنَّ العربَ تصف الجمادَ بالموتِ، وبذلك جاء القرآن الكريمُ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النحل: 20-21]، "فهذا في الأصنَام، وهي مِنَ الجمادات، وقد وُصِفَتْ بالموت"[2]، فالموت: عدمُ الحياة مطلقًا، لا عدَمُها عمَّا هي مِنْ شأنه[3].

وفي معنى الأموات في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾ أقوال، واستظهر ابنُ جريرٍ أنَّ معنى الموتِ ههنا: موتُ الذِّكْرِ، فلا يُعرفون ولا يُذكرونَ؛ إِذْ كانُوا في أصلاب آبائهم نُطَفًا[4].

2) ﴿تُرۡجَعُونَ﴾: الرَّاء والجيم والعينُ أصلٌ يدلُّ على ردٍّ وتَكرارٍ[5]، ومِنْهُ سُمِّيَ المَطَرُ رَجْعًا؛ لتكرُّرِ نزولِهِ[6].

وأمَّا الرُّجوع إلى اللّٰه تعالى بعد الإحياءِ الثَّاني؛ فهو حضُورهم الحسابَ عندَهُ؛ ليُنَبِّئهم بأعمالهم ويُجازيهم عَلَيْهَا[7].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

تخاطب الآيةُ المشركين؛ مُبَيِّنةً عجيبَ حالِهم في شركِهم؛ إِذْ كيف يُنكرون وحدانيَّةَ اللّٰه تعالى مع نَصْبِ الأدلَّةِ وتوضيح البراهينِ الدالَّةِ عَلَيْهَا القاطعةِ باقتضائِهَا، ومِنْ ذلك:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/424.
(2) ابن تيميَّة، التَّدمريَّة، ص: 160، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/186.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/108.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/424.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجع).
(6) ابن سِيده، المحكم: (رجع).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/377، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/105.

أنَّهم كانوا غير مخلوقين، لا ذِكْرَ لهم، فأوجدهم وَجَعَلَهم أحياءً، ثُمَّ يُميتهم عند انقضاء آجالهم، ثم يُحييهم مرَّةً أخرى يوم القيامةِ، ثُمَّ يُرجعون إِلَيۡهِ ليُحاسبَهم على أعمالهم ويجازِيَهم عَلَيۡهَا(1).

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

أغراضُ الِاسْتِفْهَامِ في قولِه تعالَى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾:

كثرةُ أغراضِ الاستفهامِ، يُنبئُ باتِّساعٍ دلاليّ، ومرونةٍ سياقيّة

خرجَ الاستفهامُ عن معناه الحقيقيِّ إلى غرضٍ آخر من أغراضه البيانيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ ألا وهو التَّعجُّبُ(2) من حالِ الكافرين، إذْ صُدُورُ الكفرِ عنهم في إنكارِ البعثِ عجيبٌ مع لِحاظ ما يشاهدونه من الحياة بعد الموتِ، والموتِ بعد الحياةِ!

ويُحْمَلُ الاستفهامُ في قولِه تعالَى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ على التَّعْجِيبِ، أي: يا أهلَ الإيمان اعْجَبُوا من حالِ هؤلاءِ(3).

ويصحُّ أن يُحْمَلَ الاستفهامُ على معانيه المحتمَلَةِ جميعًا؛ بأن يُقال: إنَّ الاستفهام هنا للتَّعجُّب والتَّعْجِيبِ؛ إذِ النِّكات البلاغيَّة تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ، وغرضُ الاستفهام التَّعجبيّ هو التَّوبيخُ والإنكارُ(4).

اختيارُ الِاسْتِفْهَامِ بِـ ﴿كَيۡفَ﴾ لاشتمالِها جميعَ أحوالِ الشَّيءِ:

جاء الاستفهامُ بـ ﴿كَيۡفَ﴾ -وهي لِلحَالِ- دون الهمزةِ فلم يقل: (أَتَكۡفُرُونَ)؛ لأنَّها أبلغ وأعمُّ في الإنكار؛ فأمَّا كونُهَا أبلغَ؛ فلأنَّهُ "إذا أُنْكِرَ أن يكونَ لكُفْرِهم حالٌ يوجد عَلَيۡهَا، وقد عُلِمَ أنَّ كلّ موجود لا ينفكُّ عن حالٍ وصِفَةٍ عندَ وجوده، ومُحَالٌ أن يُوجد بغير صفة مِنَ الصِّفات؛ كان إنكارًا لوجوده على الطَّريق البرهانيّ"(5).

وأمَّا كونه أعمَّ؛ فلأنَّ الاستفهامَ بالهمزة مطلقٌ في الشَّيءِ، والاستفهامَ بـ (كيف) عامٌّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/418-424، وأبو المظفَّر السّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/62، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/113-114، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 5.

(2) أبو المظفَّر السّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/62.

(3) ابن أبي زَمَنين، تفسير القرآن العزيز: 1/131، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/105.

(4) الفرّاء، معاني القرآن: 1/23، والزَّمخشري، الكشَّاف: 1/121، والخفاجيّ، عناية القاضي: 2/108.

(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/121.

في جميع أحوال الشَّيء، ودلالة العامِّ أقوى مِنْ دلالة المطلق؛ لكون العامِّ يتناوَلَ جميعَ أفرادِهِ دفعةً واحدةً، فالهمزة دالَّةٌ على إنكار كفرِهم في حالةٍ ما، بخلاف (كيف)؛ فإنَّها دالَّةٌ على إنكار كفرِهم في جميع أحواله[1].

بلاغةُ أُسْلُوبِ الالتِفَاتِ:

الإشعارُ بِشِدَّةِ سَخَطِ اللهِ تَعَالَى عَلَى الكافرين وَقُوَّةِ إنْكارِهِ عَلَيْهِمْ

عدَلَ النَّظمُ عن الغيبةِ إلى الخِطابِ، في قولِه ﷻ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ إذْ مقتضى الظَّاهِرِ الغيبةُ: (كيف يكفرونَ)، وفائدةُ الالتفاتِ: أنَّه أَوْرَدَ عددًا مِنْ صفاتِ الكافرين المستقبَحَةِ المقتضيةِ تزايُدَ السَّخَطِ عَلَيْهِمْ، وتوجيهُ الإنكارِ حينئذٍ خِطابًا أبلغُ وأردعُ مِنْ تَوْجِيهه على وجه الغَيبةِ[2].

إيثارُ التَّعْبِيرِ بِالمُضَارِعِ لتسلُّطِ الإِنْكَارِ عَلَى الإصرارِ على الكُفْرِ لا الوقوعِ فيه:

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ ﴿تَكْفُرُونَ﴾ دُون صيغةِ الفعلِ الماضي (كَفَرْتُمْ) وهو مقتضى الظَّاهرِ إذْ قد وقع الكفر مِنْهُمْ؛ لِنُكْتَتَيْنِ:

الأولى: أنَّ الإنكارَ عَلَيْهِمْ هو في استمرارِهم على الكُفْرِ وإصرارِهم عليه وعدمِ ارْعِوَائِهم.

الثَّانية: كي لا يلحق التَّوبيخُ مَنْ وقع مِنْهُ كفرٌ مِمَّن آمَنَ بعد ذلك مِنَ الصَّحابة رضي الله عنهم[3].

نكتةُ اختيارِ اسْمِ (ٱللَّهِ) دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الأَسْمَاءِ الحسنى:

توريثُ المهابةِ والفخامةِ ممَّا يزيدُ من تقبيحِ الكفرِ وأهلِه

عبَّرتِ الآيةُ بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ دون غيره مِنْ أسمائه الحسنى؛ لأربعة أسباب:

الأوَّل: لِمَا يتضمَّنُهُ اسم (الله) مِنْ صفات الجلال والجمال والكمال.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/87.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/76-77، والآلوسّي، روح المعاني: 1/214.

(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/215.

الثَّاني: لما يورِّثُه من الهيبَةِ في صدورِ السَّامعين.

الثَّالث: لاختصاصه سبحانه بهذا الاسم.

الرَّابع: لاشتماله على جميع الأسماء الحسنى؛ فيكون ذلك أبلغَ في توبيخهم على كفرهم؛ إِذْ كفروا بالله ﷻ الذي هذا شأنه، ومع ظُهور عظمَتِه[1].

دِقَّةُ البَيَانِ القرآنِيِّ في استعمَالِ الحرُوفِ:

استُعمِلَ في هذا السِّياقِ حرفُ الفاءِ وثمَّ، ولهذا الاستعمالِ بلاغةٌ عاليةٌ، إذِ الفاءُ أفادَتِ التَّعقيبَ؛ ذلك أنَّ ما قبل الإحياءِ الأوَّل غيرُ مشعورٍ به لدى المخاطبين، فهم فجأةً وجدوا أنفسَهم أحياءً، فالإحياءُ "حاصلٌ إثرَ كونِهم أمواتًا، وإنْ تَوَارَدَ عَلَيْهِمْ في تلك الحالةِ أطوارٌ مترتّبةٌ، بعضُها مُتَرَاخٍ عَنْ بعضٍ"[2]، فبالنَّظر لشعورِ المخاطَب نجدُ أنَّ الإحياءَ سريعٌ؛ فحسُن الإتيانُ بالفاءِ دون ثمَّ.

وأمَّا استعمالُ حرفِ (ثُمَّ) الواردِ مع الأفعالِ الثَّلاثَةِ الباقيةِ؛ فهو دالٌّ على التَّراخي، ووجهُه في الآيةِ أنَّ الإماتةَ متراخيةٌ عَنِ الإحياءِ وإن كانت مُتَّصلةً به، والإحياءُ الثَّاني متراخٍ عَنِ الإماتةِ وإن كان مُتَّصلًا بالموتِ، والرُّجوعُ إلى الله تعالى متراخٍ عَنِ الإحياءِ الثَّاني وإن كان مُتَّصلًا بالحياةِ الثّانيةِ[3].

سِرُّ المغايَرةِ بين صيغِ الأفعالِ:

وصفُ الواقعِ كما هو زيادةً في التعجُّبِ والتَّوبيخِ

غُويِرَ بين فعل ﴿أَحۡيَٰكُمۡۖ﴾ بصيغة الماضي، وبين الأفعالِ الثلاثةِ بعدَهُ فقد جاءَتْ بصيغةِ المضارعِ؛ ذلك أنَّ المخاطَبين حين خوطبوا قد وَقَعَ عليهم الإحياءُ، فهو أمرٌ واقعٌ، بخلاف ما بعده من الأحداثِ؛ فإنَّ الإماتةَ والإحياءَ والإرجاعَ جميعَها لم تقع بعد؛ ولهذا جيء بالفعل المضارعِ المُقترنِ بالحرفِ (ثمَّ)؛ ليُفيدَ الاستقبالَ؛ فهو وصفٌ للواقعِ كما هو، وسرُّ ذلك الزِّيادةُ في التَّعجُّبِ من حالِهم، فيقع عليهم التَّوبيخُ في محلِّه ومحزِّه.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/213.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/77.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/77.

فائدةُ القَصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ على الفعلِ ليفيد القصرَ، وهو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ؛ فليس ثَمَّ مَن يَرجع العبادُ إِلَيْهِ لِلحِسَاب والجزاء يومَ القيامة إلّا اللّٰه تعالى، فهو قصرٌ حقيقيٌّ، وفائدةُ القَصْرِ: إلزامُ الـمُخاطَبين بمضمونِهَا؛ لأنَّهم كانوا يُنكرُونَ البعثَ، بما يقودُهم إلى اليأسِ من الانتفَاعِ بأصنامهم[1].

عَدَمُ نفعِ النَّاس ما عبدوه مِن دون اللهِ في الدّنيا، فالرُّجُوعُ إلى اللهِ وحدَه

تنزيلُ المُنْكِرِ منزلةَ غيرِ المُنْكِرِ؛ فإنَّ التَّعجُّبَ يقترنُ في الغالبِ لما يُقرِّه المخاطَب:

أنكَرَ المشركون البعثَ، وشأنُ المُنكِرِ أن يُؤكَّدَ له الكلامُ الذي يُنكرُه، وفي قولِه سبحانه: ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ جملتان خبريَّتانِ خاليتان مِنَ المؤكِّدَات، مع أنَّ المخاطَبين - وهُمُ المشركون - يُنكرون البعث والحساب الأخرويَّ؛ وذلك تنزيلًا لهم منزلةَ غير المُنكِر؛ لظهور الأدلَّة والشَّواهد على ما أنكرُوهُ، وليقعَ التَّعجُّبُ والتَّوبيخُ موقعًا بليغًا، فلو جاءَت الجملتان مُؤكَّدَتَيْنِ؛ لما اتَّسقَ المعنى؛ فإنَّ التَّعجُّبَ يكونُ لأمرٍ يقرِّرُه المخاطَبُ ولا يُنكرُه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أَمْوَاتٌ وَمَوْتَى وَمَيِّتُونَ:

ظاهر صنيعِ الـمُعْجَمَاتِ عَدَمُ التَّفريقِ بينَ هذه الألفاظِ من جهةِ المعنَى[2].

وحاصل ما فُرِّقَ بينَهَا مِن جهة اللُّغة:

أوَّلًا: أنَّ أمواتًا جمعُ مَيْتٍ بسكون الياء[3]، وأمَّا موتى وميِّتون؛ فجمعُ ميِّتٍ بالتَّشديدِ[4].

ثانيًا: أنَّ الموتَى جمعُ مَن يعقِلُ، والـمَيِّتونَ: خاصٌّ بالذّكور مِنْهُم[5]، والأمواتُ أَعمُّ؛ فيشمل العقلاء وغيرَهُمْ، فتُرَتَّبُ هذه الألفاظ مِنَ الأعمِّ إلى الأخصِّ على هذا النَّحو: الأموات، ثُمَّ الموتى، ثُمَّ الميِّتون.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/377.

(2) الجوهريّ، الصِّحاح، والزَّمخشريّ، أساس البلاغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (موت).

(3) كـ (بَيْتٍ) و(أبياتٍ). ينظر: الفيُّوميّ، المصباح المنير: (موت).

(4) مُحَمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 496.

(5) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (موت).

وإذا نَظَرْنَا إلى هذه الجمُوع مِنْ حيثُ مدلولُها في نفسِهَا في استعمالات القرآن الكريم؛ فنجد أنَّ استعمالاتِ (الأموات) - وهو جمعُ تكسيرٍ - في القرآنِ الكريم دالَّةٌ على مَنْ لَا تَحُلُّهُ الحياةُ، سواءٌ حلَّتْهُ وفارقَتْهُ الرُّوحُ بعدُ، أم لم تَحُلَّهُ الحياةُ أصلًا كالجمادِ، وقد ورد هذا الجمعُ في ستَّةِ مواضعَ مِنَ القرآن الكريم[1].

وأمَّا الموتى - وهو جمعُ تكسير أيضًا -؛ فهو في استعمالاتِ القرآن يدلُّ على مَن فَارَقَتْهُ الرُّوحُ حقيقةً[2].

وأمَّا الميِّتُون - وهو جمعُ مذكرٍ سالمٌ - فقد ورد في موضعين مَرْفُوعًا[3] وفي موضعٍ واحدٍ مجرورًا[4]، وكلُّهَا دالَّةٌ على مَن يموتُ في المستقبَلِ.

وهذا الفرقُ هو بالنَّظر إلى الجمُوعِ، أمَّا الفرق بينَ (مَيْتٍ) و(مَيِّت)؛ فيأتي بيانُهُ في محلِّهِ إن شاء الله تعالَى.

(1) وهي: الآية 28، و 154، مِنَ البقرة، والآية 169، مِنْ آل عمران، والآية 21، مِنَ النَّحل، والآية 22، مِنْ فاطر، والآية 26، مِنَ المرسلات.

(2) ورد هذا الجمع (المَوْتَى) في سبعة عشر موضعًا.

(3) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥﴾ [المؤمنون: 15]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر: 30].

(4) في قوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨﴾ [الصافات: 58].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: 29]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكرَ اللّه تعالى أوَّلَ أمرِ الخلق ووسطَهُ وآخرَهُ على وَجْهٍ يُستدَلُّ به على امتناعِ الكُفْرِ به سبحانه؛ لظهور الأدلَّةِ والبراهين على وحدانيَّتِهِ؛ شرعَ في ذكرِ أنواعٍ من نعمه وإحسانِه على خلقه، وصدَّرها بذكر ابتداء الخلق وهو مِنْ أعظم الأدلَّةِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّتِهِ، وساقَهُ مساقَ الإنعامِ على العبادِ؛ لِيكون داعيًا لَهُمْ إلى توحيدِهِ ﷻ مِنْ حيث دلالَتُهُ على عظمةِ الخالقِ وكمالِ قدرتِهِ، ودلالَتُهُ على إحسانِهِ إلى عبادِهِ، مع ما جُبِلَت عَلَيْهِ القلوبُ مِنْ حُبِّ مَن أحسنَ إِلَيْهَا[1].

ثُمَّ إنَّ المذكور في الآية قبلُ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ﴾ هو ابتداءٌ بِسَرْدِ النِّعَمِ؛ فذَكَرَ النِّعَمَ التي عمَّت جميعَ المكلَّفين؛ وهي نعمةُ الإحياء، ثُمَّ أعقبها في الآية بعدَهَا بنعمة خلقِ السَّماوات والأرض، وفي ذلك ترتيبٌ بديعٌ؛ فإنَّ الانتفاعَ بالسَّماوات والأرض لا يكون إلَّا بعد حصول الحياة[2]، فهو من قبيل تقديم الغايةِ على الوسيلة.

۞ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾: لِفِعل (اسْتَوَى) معانٍ متعدّدةٌ، ويُستعمل لازمًا، ومتعدّيًا بالحرف.

فمِنَ الأوَّل قولُهم: اسْتَوَى الشَّيءُ؛ إذا اعتدل، واستوى الرَّجلُ؛ إذا انتهى شبابُهُ[3]، ومِنْهُ قول اللّه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ [القصص: 14].

ومِنَ الثَّاني قولهم: اسْتَوَى على الشَّيء؛ إذا علَا عَلَيْهِ وارتفع[4]، ومِنْهُ قول اللّه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 220-1/219.

(2) الرَّازيّ، التّفسير الكبير: 2/379.

(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (سوا)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (سوو).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سوي).

2) ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾: سوَّى الشَّيءَ تسويةً؛ أي: جعله سويّا، ومِنْهُ قوله سبحانه: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾[1]؛ أي: هيَّأهُنَّ وخلقَهُنَّ ودبَّرهنَّ وقوَّمَهُنَّ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

اللهُ ﷻ وحده الّذي خلق لأجلكم كلَّ ما في الأرض ممَّا يُنتفَعُ به، ثُمَّ استوى على العرش سبحانه استواءً يليق بجلاله وعظمته، فصيَّرها سبع سماوات، وعِلْمُه سبحانه محيطٌ بكلِّ شيءٍ لا تخفى عَلَيْهِ خافيةٌ[3].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ الفصْلِ بين الجملِ:

التَّنوُّعُ في توجيهِ الفَصْلِ بَيْنَ الجُمَلِ بناءً على تعدُّدِ المعاني

للفصلِ بين الجملِ مقصدٌ بلاغيٌّ بديع، وقد جاء قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم﴾ مفصولًا عمَّا قبلَهُ؛ لكمال الاتِّصالِ بينهما، وذلك لأوجهٍ، وهي:

الأوَّل: كونُ الجملةِ تفسيرًا ودليلًا على الجملة قبلها وهي قولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، فالدَّليلُ عَلَى رجوعِهم إلى اللهِ تعالى أنَّه هو الذي خَلَقَ ما في الأرضِ جميعًا، ومَن قَدِرَ على خلق الجميعِ ابتداءً لا يَعْجِز عَنْ إعادتِهم ثانيًا[4].

الثَّاني: كونُ الجملةِ تأكيدًا لِلإِنْكَارِ المستفادِ مِنَ الاستفهامِ السَّابقِ في قولِه: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ فإنَّهما متَّحدانِ في القصدِ وإن تغايَر سَبْكُهُمَا إيماءً لِما بينهما مِنَ التَّفاوُتِ؛ إذْ ما يتعلَّق بذواتهم أقوى في الحثِّ على الإيمان والإقلاعِ عَنِ الكفر مِمَّا يتعلَّق بمعايشهم[5].

---

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (سوو).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/431.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/418-424، والسّيوطيّ، تفسير الجلالين، ص: 8، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/282، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 5.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/89.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/78.

الثَّالث: أن يكونَ قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ بمنزلةِ النَّتيجةِ لِما قبلَهُ[1].

الرَّابع: التَّنبيهُ على الِاسْتِقْلَالِ بالإفادة؛ إذْ لو عُطف لَتُوُهِّم أَنَّ الدَّليل هو مجموع الأمرين، ولكن بترك العطفِ عُلِمَ أَنَّ كلّا مِنْهُمَا دليلٌ مستقلٌّ برأسِهِ[2].

فائدةُ القَصْرِ الحَقِيقِيِّ:

تَنْزِيلُ المُشْرِكِينَ مَنْزِلَةَ الجُهَّالِ؛ لِعَدَمِ جَرَيَانِهِمْ وَفْقَ مَا يَقْتَضِيهِ عِلْمُهُمْ

لا يُنكرُ الجاهليُّون أنَّ الله تعالى هو خالقُ السَّماواتِ والأرض، لكنَّهم خُوطِبُوا بأسلوبِ القَصْرِ تنزيلًا لَهُمْ منزلةَ الجُهَّالِ؛ "لأنَّهم في كُفْرِهم وانصرافِهم عَنْ شُكْرِه والنَّظرِ في دعوته وعبادته كحال مَنْ يجهل أَنَّ الله خالقُ جميع الموجودات"[3]، والقَصْرُ في قولِه سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ قصرُ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حقيقيّا.

ذِكْرُ (لَكُم) أفادَ الإيجازَ، وتَقْدِيمُه أفادَ التَّشْوِيقَ وَتَعْجِيلَ المَسَرَّةِ

لذكرِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُم﴾ وتقديمه فائدةٌ عظيمةٌ، أمَّا ذكرُه فهو: "التَّذكير بأَنَّ اللّه هو خالقُ الأرض وما عَلَيْهَا وما في داخِلها، وأَنَّ ذلك كُلَّه خَلَقَه بقَدْرِ انتفاعنا بِهَا وبما فِيهَا، في مُخْتَلِف الأزمان والأحوال، فأوجَزَ الكلامَ إيجازًا بديعًا بإقحام قوله: ﴿لَكُم﴾ فأَغْنَى عَن جُملة كاملةٍ"[4].

وأمَّا تقديمهُ على المفعول، إذِ الظَّاهر: (خلق مَا في الأرض جميعًا لكم)؛ فلقصد تعجيل المَسَرَّة ببَيان أنَّه نافع لِلْمُخَاطبين، ولِلتَّشْويق إِلَيْه[5].

فائدةُ التَّرقي الرُّتبيّ:

الانتقالُ مِنَ الأَدْنَى إِلَى الأَعْلَى، للتَّنبيهِ بالمعلومِ عَلَى المجهولِ من قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى

الانتقالُ مِنَ الاستدلالِ بخلْقِ الأرضِ إلى الاستدلالِ بِمَا هو أعظمُ مِنْ ذلك في قولِه سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/217.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/217.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/379.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/379.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/78.

﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ﴾، ترقٍّ رُتبيّ، فإنَّ العطفَ بـ "ثُمَّ" يُشيرُ إلى أنَّ المعطوفَ بِها أعرَقُ في المعنى، "حتَّى كأنَّ العقل يتمهَّل في الوصول إِلَيْهِ بعد الكلام الأوَّل فيَنْتَبِهُ السَّامع لذلك؛ كَيْ لا يغفل عَنْهُ بمَا سمع مِنَ الكلام السَّابق"[1]، وهو يُنبئ عن عظيم قدرةِ اللّٰه تعالى في خلقِه[2]؛ فإنَّ التَّرقي في درجاتِ الخَلْقِ دليلٌ على عظيم قدرةِ الخالقِ سبحانه وجهلِ المخاطَبِ بذلك؛ فكان التَّرقي تنبيهًا على المجهولِ بالمعلوم.

تَضْمِينُ الفِعْلِ ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ مَعْنَى (قَصَدَ) مَعَ بَقَاءِ دلالة العُلُوِّ فِيهِ:

ويَحتمل أن يكون في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إيجَازٌ بِالتَّضمين، والمعنى: ثُمَّ عَلَا على السَّماء وقصدَ إليهَا، فحُذفَ الفعلُ (قَصَدَ)، وجُعِلَ حرفُ الجرِّ (إِلَى) دليلًا عَلَيْهِ.

فَلَا يكون بهذا التَّخريج قد نَفَيْنَا الدّلالة المنقولة عنِ السَّلف في معنى (ٱسۡتَوَىٰٓ) وهي: علَا، ولم نَعْدِلِ بدلالة (إِلَى) عَن غيرِ معناها، وقد أشار إِلَى التَّضمين ابنُ كثيرٍ؛ فقد قال: "والاستواءُ هاهنا تضمَّن معنى القصد والإقبال؛ لأنَّه عُدِّي بـ ﴿إِلَى﴾"[3].

معنى اللَّامِ في كلمة: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

حرفُ اللَّامِ في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ يُراد به الجنسُ؛ فهو في المعنى جَمْعٌ وإن كان لفظُهُ لفظَ المفرد، والدَّليل على إرادةِ الجنسِ قوله بعدُ: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾؛ فأرجع الضَّميرَ عَلَيْهَا بالجمع[4]، وهذا معنى قولِ الزَّجَّاج: "والسَّماءُ لفظُها لفظُ الواحد، ومعناها معنى الجَمْعِ"[5].

بلاغةُ الفاصلةِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ تذييلٌ لِما قبلَهُ[6]؛ فإنَّ ما سبقَ لا يَصْدُرُ إلَّا عن عليم؛ ففيه تعريضٌ بإنكارِ كُفْرِ مَن كفرَ؛ لكون العليمِ بكلِّ شيءٍ مِمَّا يقبُحُ الكفرُ به[7]، وقد أُكِّدَ ذلك من أوجهٍ ثلاثةٍ[8]:

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/382.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/382.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/213.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/385.

(5) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/107.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 79-1/78.

(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/386.

(8) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 192-1/191.

أحدها: اسميَّةُ الجملةِ الدَّالَّةُ على دوام العلمِ وثباتِه.

ثانيها: ذكرُ الإحاطة التَّامَّةِ؛ وذلك في قولِه: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾؛ فإنَّ (كُلّ) من ألفاظ العموم، وإضافتها إلى شيءٍ أفاد استقصاءً شاملًا لكلِّ ما يَصِحُّ أن يُطلَقُ عليه لفظُ شيءٍ.

ثالثُها: ختمُ الجملة باسمِ العليم؛ وهو على زِنَةٍ مِن أوزانِ المبالغَة، فيه مبالغةٌ من جهة الصيغةِ.

فاجتمع في الفاصلةِ بلاغةٌ عاليةٌ من جهةِ التَّركيب، واللفظِ، والصِّيغة، والسِّياق، وهذا من بليغِ الفاصلة في القرآن الكريمِ، إذ أكَّدت بمجموعها المعنى الكامنَ الظاهر في الآيةِ.

اجتمَعَ في الفاصلةِ بلاغةٌ عاليةٌ من جهةِ التَّركيب، واللَّفظِ، والصِّيغة، والسِّياق

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تُمثِّلُ هذه الآيةُ بدايةَ مقطعٍ جديدٍ، يتناسبُ مع المقطعِ السَّابق المبدوءِ بخطابِ النَّاسِ جميعًا، والمختتَمِ بذكرِ خلقِ الأرضِ والسَّماوات، ليكون هذا المقطعُ محدِّدًا الغايةَ التي خلقَ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ والنَّاسَ لها، فيكون ما تقدَّم بمثابةِ التوطئةِ والتَّمهيدِ لما سيتعيَّنُ ذكرُه في هذا المقطعِ، وليكون ما بعدَه من المقاطعِ الواردةِ إلى نهايةِ السورةِ بمثابةِ استكمالِ أركانِ الخلافةِ التي أرادَها اللهُ في آدمَ وذريَّتِه، وبه يكونُ هذا المقطَعُ محوريًّا في السُّورةِ كلِّها.

وفي ذلك قال أبو حيّان الغرناطي: "مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها: أنَّهُ لَمّا امْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِخَلْقِ ما في الأرْضِ لَهم، وكانَ قَبْلَهُ إخْراجُهم مِنَ العَدَمِ إلى الوُجُودِ، أتْبَعَ ذَلِكَ بِبَدْءِ خَلْقِهِمْ، وامْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِتَشْرِيفِ أبِيهِمْ وتَكْرِيمِهِ وجَعْلِهِ خَلِيفَةً وإسْكانِهِ دارَ كَرامَتِهِ، وإسْجادِ المَلائِكَةِ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهِ وتَنْبِيهًا عَلى مَكانِهِ واخْتِصاصِهِ بِالعِلْمِ الَّذِي بِهِ كَمالُ الذّاتِ وتَمامُ الصِّفاتِ، ولا شَكَّ أنَّ الإحْسانَ إلى الأصْلِ إحْسانٌ إلى الفَرْعِ، وشَرَفُ الفَرْعِ بِشَرَفِ الأصْلِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾: الهمزةُ واللَّامُ والكافُ تَدُورُ اشْتِقَاقَاتُهَا على تحمُّلِ الرِّسالة[2]، ومِنْ ذلكَ: الأَلُوكَةُ وَالمَأْلُكَةُ؛ وهي الرِّسالة[3].

والملائِكَةُ: عالَمٌ غَيْبِيٌّ، خلقَهُمُ اللهُ سبحانه مِن نُور، وجعلَهم طائعين لَهُ لَا يعصُون

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/378-379.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ألك).

(3) ابن الأثير، النِّهاية: (ألك).

أمرَه[1]، وسُمُّوا ملائكةً؛ لأنَّهم يُبلِّغُونَ أَلَائِكَ اللّه تعالى ورسائلَه إلى مَنْ يشاءُ مِن عبَادِهِ[2]، كما قال اللّهُ تعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: 1].

2) ﴿خَلِيفَةً﴾: الخاء واللّام والفاء تدلُّ تصاريفُها على معانٍ، مِنْهَا: أَنْ يجيءَ شيءٌ بعد شيءٍ يقومُ مقامَهُ[3]، ومِنْهُ الخَليفةُ؛ وهو: مَنِ اسْتُخْلِف مكانَ مَن كان قبلَه وقامَ مَقَامَهُ[4].

وأمَّا قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؛ فَفيهِ وَجْهَان[5]:

أحدهما: أنَّ المرادَ آدمُ عليه السلام.

والآخَر: أنَّ المرادَ ولدُ آدمَ، بدَليلِ قولِ اللّهِ تعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 165].

فأمَّا على الوجه الثَّاني؛ فإنَّ معنى الخليفةِ: قومٌ يخلُفُ بعضُهم بعضًا.

وأمَّا على الوجه الأوَّلِ؛ فالمعنى: أنَّه خلَفَ مَنْ سَبَقَهُ في الأرضِ، أو أنَّه خليفةُ اللّهِ تعالى في إقامة الشَّرعِ[6].

3) ﴿وَيَسْفِكُ﴾: السِّينُ والفاءُ والكَافُ تدلُّ على الإِسَالَة، يقال: سفكَ دمَهُ؛ إذا أسالَهُ وصبَّهُ[7]، والسَّفْكُ يُستعمَلُ لكلِّ مائعٍ، إلَّا أنَّه بالدَّمِ أخصُّ[8].

ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أي يَصُبُّها بِقَتْلِ أَصْحَابِها[9].

4) ﴿نُسَبِّحُ﴾: التَّسبيحُ: التَّنزيه، وتسبيح اللّه تعالى: تنزيهُهُ مِنْ كلِّ سوءٍ[10]، ويُطلَقُ التَّسبيح على الصَّلاةِ[11].

---

(1) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/59.
(2) قولنا: (مِنْ عباده) أعمُّ وأدقُّ مما قاله الأنباريّ: (أنبيائِه). ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 20/434، والأنباريّ، الزَّاهر: 2/254.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلف).
(4) الخليل، العين: (خلف).
(5) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيَّات، ص: 427.
(6) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/50، ويُنظر لِلْفَائدة: فتاوى اللَّجنة الدَّائمة: 1/72.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفك).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (سفك).
(9) السّمين، عمدة الحفَّاظ: (سفك).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(11) الأنباريّ، الزَّاهر: 1/50.

وخُرِّج التَّسبيح في قولِ اللّه تعالى حكايةً عنِ الـمَلائكةِ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ علَى الـمَعْنَيَيْنِ المذكُورَين:

الأوَّل: نَحْمَدُكَ ونصلِّي لك[1].

والآخر: نُنَزِّهُك مِنَ السُّوء تعظيمًا لك[2].

5) ﴿وَنُقَدِّسُ﴾: القاف والدَّال والسِّين تدلُّ اشتقاقاتُها على الطُّهْر[3]، والتَّقديس: التَّطهير[4]، ومِنْهُ: الأرض المقدَّسة؛ أي: المطهَّرة[5]، ومِنْهُ اسمُ اللّه القُدُّوس؛ ومعناه: الـمُعَظَّم المنزَّه عن كلِّ سُوء، السَّالِمُ مِنْ مُماثلة أحدٍ مِن خلقِه ومِنَ النُّقصان ومن كلِّ ما ينافي كمالَهُ[6].

وقولُه تعالَى حكايةً عَنِ الملائكةِ: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: نطهِّر أنفسَنا لَكَ[7]، أو ننزِّهُك عمَّا لا يليقُ بك[8].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

تناولتِ الآيةُ أوَّل حوارٍ ذُكِرَ في القرآنِ الكريمِ، وهو قولُ اللّه سبحانه لِلْمَلَائكة: إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفةً لِيَعمُرَها ويخلُف بعضُهم بعضًا، فسألتِ الملائكةُ ربَّها ﷻ سؤالَ استرشادٍ واستكشافٍ وتعجُّبٍ: ما الحكمةُ مِن جعلِهم خلفاءَ وطَبْعُهم الإفسادُ وإراقةُ الدِّماء، والحالُ أنَّنا نُنَزِّهك عمَّا لا يليق بكَ تنزيهًا مقرونًا بذكر صفات الكمال، ونعظِّمُكَ ونُطهِّر أنفسنا لك ونطهِّرها مِنْ طَبْعِ أولئكَ؟ فأخبرهم ربُّ العزَّة والجلال: إنِّي أعلَم مِنَ المصالحِ الرَّاجحة والحِكم الباهرة في خلقِهم واستخلافِهم ما لا تعلمونَه[9].

---

(1) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 1/36.
(2) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 98-1/96.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قدس).
(4) الجوهريّ، الصِّحاح: (قدس).
(5) الفيّوميّ، المصباح المنير: (قدس).
(6) سعيد القطحانّي، الثَّمر المُجْتَنَى، ص: 68.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قدس).
(8) الواحديّ، التفسير البسيط: 2/331.
(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/51، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/216، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 48، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 407-1/395، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 6.

۞ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ الإيجَازِ بِالحَذْفِ:

التَّرَقِّي مِنَ الأَدْنَى إِلَى الأَعْلَى أَوِ العَكْسُ بِالتَّذْكِيرِ بِالأَدِلَّةِ الأَنْفُسِيَّةِ والآفاقيَّةِ

(إِذْ) ظرفُ زمانٍ مبنيٌّ على السكون متعلّق بفعلٍ محذُوفٍ تقديرُه: (اذكُرْ)[1]، وعليه ففي الآية إيجازٌ بالحذفِ؛ فقد حُذف الفعلُ وفاعلُه وهو (اذْكُرْ)، وتقديرُ هذا الفعل يستلزِمُ تذكيرًا متجدِّدًا، فيكون قولُه سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29] متعلِّقًا بأدلَّة الآفاق، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ متعلِّقًا بأدلة الأنفس على سبيلِ التَّرقِّي[2]، كما في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53].

ويُمْكِن أن يُنظر إِلَيْهَا باعتبارها نِعْمَةً؛ فيكون فيه تَرَقٍّ مِنَ الأدنى إلى الأعلى؛ إذ إنَّ "نعمةَ خَلْقِ الأنفس وتشريفها بالخلافة وتكريمها بسجود الملائكة أعظَمُ من خَلْقِ ما في الأرض لَهُمْ جميعا"[3].

وقد قال أبو عبيدة بأنَّ (إِذْ) زائدةٌ[4]، وتبِعَه ابنُ قُتَيْبَة[5]، واستدركَ عَلَيْهِ هذهِ المقالةَ جماعةٌ من أهل العلم، مِنْهُمُ ابنُ جرير رحمه اللّه، فقالَ: "غيرُ جائزٍ إبطالُ حرفٍ كان دليلًا على معنًى في الكلام"[6]، وهذا هو المَهْيَعُ الحقُّ في المسألةِ، إذ لا زوائدَ في القرآن الكريم؛ فلكلِّ لفظٍ فائدتُه ومعناه الذي لأجلِه كان النَّظمُ على ما هو عليه.

نُكْتَةُ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ:

تَمْكِينُ المَعَانِي فِي ذِهْنِ السَّامِعِ فِي المَقَامَاتِ الشَّرِيفَةِ

في قولِه سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ وضعُ المظهَرِ موضعَ المضمَرِ؛ فإِنَّ مقتضى الظَّاهر أَنْ يُقالَ: وإذ قال لِلْمَلَائكةِ، وذلك لِتَقَدُّمِ ذِكرِهِ

(1) وفي إعرابها بغير هذا خلافٌ، يُنظر: الدر المصون، السمين: 1/248، والآلوسّي، روح المعاني: 1/220، وأحمد الدعَّاس وآخران، إعراب القرآن: 1/19.

(2) التَّرَقِّي: أن يُذكرَ المعنى ثُمَّ يُرْدَفَ بما هو أبلغُ مِنْهُ، ينظر: السُّيوطيّ، شرح عقود الجمان، ص: 135.

(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/424.

(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/37، وفي تفسير الرّاغب: 1/138، نسبةُ هذا القول لأبي عُبيدٍ؛ وهو القاسم بن سلَّامٍ، والظَّاهر أنَّ هذا خطأٌ مِنَ النَّاسخ أو تصحيف مِنَ الطَّابع، والصَّواب: أبو عبيدة.

(5) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 158، وغريب القرآن، ص: 45.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 1/440.

قبلُ، والنُّكْتَةُ فيهِ: تمكينُ المسنَدِ إِلَيْهِ في ذهن السَّامعِ؛ لاقتضاءِ المقامِ العنايةَ بشأنِهِ؛ فإنَّه وَإِنْ صحَّ أن يَنُوبَ عَنْهُ الضَّمير -على الأصلِ-، إِلَّا أنَّ الضَّمير لا يُغْنِي عَنِ الاسم الظَّاهر؛ لِمَا يتضمَّنُهُ الاسمُ الظَّاهر مِن معنًى له وقعٌ عِنْدَ المتلقِّي، وهُو هُنَا اسمُ اللّهِ (الرَّبِّ)[1].

سِرُّ اخْتِيَارِ اسْمِ الله (الرَّبّ):

التَّناسبُ السِّياقيُّ في اختيارِ الاسمِ الأنسبِ للمعاني

اختيارُ الألفاظِ القرآنيَّةِ قائمٌ على التَّناسبِ السِّياقي، ولمَّا ذكر السِّياقُ أمرَ الخلْقِ وما يحتاجُه بعد ذلك من التَّدبيرِ واللُّطفِ والصَّلاحِ، كان الأنسبُ أن يذكرَ الرُّبوبيَّة؛ "ففي ذلك الجَعْلِ نعمةُ تَدْبيرٍ مشوبٍ بلُطْفٍ وصلاحٍ، وذلكَ مِن معاني الرُّبوبيَّة"[2].

إِضَافَةُ اسْمِ الرَّبِّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تشريفٌ بكَوْنِهِ أعظمَ خلفاءِ بَنِي آدمَ

واجتمعَ في قولِه تعالَى: ﴿رَبُّكَ﴾ اسمُ الرَّبِّ مضافًا إلى كافِ الخطابِ المقصودِ بها سيِّدُ الخلْقِ ﷺ، وبهما يصلحُ أمرُ الدُّنيا؛ الرُّبوبيَّةُ التي بها تربيةُ الخلْقِ، والرَّسولُ الذي هو وسيلةُ تربيةِ الخلْقِ، وفي ذلك تشريفٌ لرسولِ اللّهِ ﷺ، أن يكونَ مُربِّيًا للخلْقِ جميعًا، وهذا ما يقتضيه المقامُ؛ إذْ إنَّ الآيةَ في ذِكْرِ خلقِ آدمَ عليه السلام واستخلافِهِ وبَنِيهِ في الأرضِ؛ فناسبَ أَنْ تُذكرَ الرُّبوبيَّةُ مضافةً إلى أعظَمِ خلفائِهِ[3]، وهي رِفعةٌ وإكرامٌ له إذ تقدَّمَ ذكرُه على ذكرِ آدم عليه السلام، ويُشعِرُ النَّظمُ بإنزالِ النَّبيِّ ﷺ منزلةً خاصةً يُحيطُ بها التَّحبُّبُ بأن وجَّه له الخطابَ بخصوصِه.

الاِلتِفَاتُ مِنَ الجَمْعِ إِلَى المُفْرَدِ لبيانِ أنَّ الغَيْب لا تهتدي إليه العُقُولُ:

تناسُب الخِطاب القرآنيّ مع الحديث عن الغيب والشّهادة

غُويرَ الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ إذِ الخطابُ كان موجَّهًا بطريقِ الجَمْعِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾، ثُمَّ صارَ الخطابُ لواحدٍ -وهو ضربٌ من ضروبِ الاِلتِفاتِ في العَدَدِ[4]-،

(1) حسن الجناجي، البلاغة الصّافية، ص: 131.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/401.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/129.

(4) عبده قلقيلة، البلاغة الاصطلاحيَّة، ص: 321-322.

ونُكْتَةُ تغيير الخطاب بتوجيهه إلى النَّبيِّ ﷺ هو الإيماءُ إلى أنَّ مضمون الكلام ليس مِمَّا تهتدي إِلَيْهِ العقولُ، بل طريقُهُ الوحيُ، بخلاف ما سبقَ؛ فإنَّه مِنَ الأمورِ المشاهدَةِ العامَّةِ[1].

معنى اللَّامِ فِي كلمةِ ﴿لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾:

خِطَابُ الله تعالى لِجَمِيعِ المَلَائِكَةِ هو الأنسبُ بالمقامِ والأوفقُ بالسِّياقِ

اختُلِفَ في مَعنَى اللَّام في لَفْظِ ﴿لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ على أَوْجُهٍ ثلاثةٍ[2]:

الأوَّل: استغراقُ جميعِ أفرادِ الجِنْسِ؛ فتكون اللَّامُ لِلاستغراقِ الحقيقيِّ.

الثَّاني: لامُ الجِنْسِ، وَالمرادُ: أَنَّهُمْ جنسٌ خاصٌّ مِنَ الملائكة.

الثَّالث: لامُ العَهْدِ؛ فيكون المقصودُ ملائكةً معروفين؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ الملائكَةِ في الكتب السَّابقَة.

والوجهُ الأوَّلُ أَظْهَرُ الوجوه، وأولاها بالقبول؛ لعموم اللَّفظ وخلوِّ المقام من الدَّليل المُخَصِّص، وهو يشملُ الوجه الثَّاني، ولا ينافي الثَّالثَ؛ إِذْ يجوزُ أن يكونَ اللفظُ المحلَّى باللَّامِ معهودًا عمومُهُ، وهو الأوفقُ بالسِّياقِ.

بلاغةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ المُطَّرِد:

إظهارُ أهميَّةِ الخِطَابِ بتقديمِ المُخَاطَبِ عنايةً، وتأخيرِ القولِ تشويقًا

جرى أُسلُوبُ القرآنِ على العنايةِ بإبرازِ المعاني من خلالِ تنبيهاتِ النَّظمِ وإشاراته؛ فقُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أهميَّة الخطابِ بتقديم من وُجِّه له الخِطابُ؛ فتكون العنايةُ به أشدَّ، وللتَّشويقِ إِلَى القولِ المؤخَّرِ[3]؛ فإنَّ معرفةَ أهميَّةِ الخطابِ لها ركنان، تقديمُ المخاطَبِ، وتأخيرُ القولِ، إظهارًا لأهميَّةِ المخاطَبِ بتقديمه، وتشويقًا لمعرفةِ مضمونِ الخطابِ بتأخيره.

اختيارُ اسْمِ الفَاعِلِ لتوكيدِ الوقوعِ حتمًا:

اختير اسْمُ الفاعلِ دون الفعل المضارِعِ في قولِه تعالى:

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/79.

(2) الجرجانّي، درج الدّرر: 1/137، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 1/67.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/80.

﴿جَاعِلٞ﴾، ولم يقُل: (سأجعل)، واسمُ الفاعلِ دالٌّ على المستقبَلِ بدليل نصبِه ﴿خَلِيفَةٗ﴾، وهو لا يعمل هذا العمَلَ إلَّا إذا دلَّ على الحالِ أوِ الاستقبال[1]، ودِلالتُه على الحالِ هَهُنا مُنْتَفِيَةٌ، فلم يبقَ إلَّا الاستقبال، ونكتةُ التَّعبيرِ به لِمَا في اسم الفاعلِ مِنَ الدّلالة على تحقُّقِ فِعْلِه المذكور وأنَّه كائنٌ بلا شكٍّ[2]، وهو دليلُ العظَمَةِ والتَّمكُّنِ في الخطابِ، ويؤيِّدُهُ لزومُ (إنَّ) في مِثْلِ هذا؛ وهي دالَّةٌ على تقوية الكلام وتوكيدِه[3].

تَقْدِيمُ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على ﴿خَلِيفَةٗ﴾:

أهميَّة الأرضِ لدى الملائكةِ وتشويقهم لسماعِ الخبرِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على ﴿خَلِيفَةٗ﴾؛ لبيانِ أهميَّةِ الأرضِ لدى الملائكَةِ؛ فهُمُ الذين شاهدوا خلقَها، وطلبوا -كما سيأتي في تضاعيفِ الكلامِ- الحياةَ فيها؛ فكان للتَّقديم شأنٌ عظيمٌ لديهم، وهو ما يُبرزُ عنصرَ التَّشويقِ لمعرفةِ ما المجعولُ فيها؟ وما الكائنُ فيها؟ وهو الذي يُؤكِّدُ نكتةَ اختيارِ اسم الفاعلِ، فوقعتْ كلمةُ ﴿خَلِيفَةٗ﴾ قويَّةً في أسماعِهم، وهو ما يجعلُ المخاطَبين بالقرآنِ يحرصون على الأرضِ التي يسكنونها من الفسادِ والمفسدين.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي لَفْظِ ﴿خَلِيفَةٗ﴾:

مدْحُ القائِمِ بأمرِ الله تعالى على أتمِّ وجْهٍ؛ لقيامِه بالمطلوبِ على التَّمامِ والكمالِ

تتحدَّدُ الاستعارةُ بتعيينِ المقصُودِ بالألفاظِ، فإذا حملنا لفظَ (الخليفة) في الآيةِ القرآنيَّةِ على معنى أنَّه خليفةُ اللّٰه تعالى في إقامة الشَّرْعِ؛ فإنَّ هذا اللَّفظَ مستعمَلٌ استعمالًا مجازيًّا؛ إذْ حقيقةُ الخليفةِ: مَنِ اسْتُخْلِفَ مَكانَ مَن قبلَهُ وقامَ مَقامَه، واللّٰهُ ﷻ لَمْ يكُن حالًّا في الأرضِ ولا عاملًا فِيهَا العملَ الذي أمر بِهِ العبَادَ[4].

(1) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 3/73.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/80.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/225.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/401.

فيكونُ لفظُ ﴿خَلِيفَةً﴾ مجازًا بالِاسْتِعَارةِ؛ فشُبِّه مَن يعملُ عملًا يريدُهُ المستخلفُ بِمَن استُخلِفَ مكانَ مَنْ قبلَهُ وقام مقامَهُ؛ بجامعِ أنَّ كِلَيْهِمَا مُوَكَّلٌ بعملٍ يَعْمَلُهُ، على طريقة الاستعارةِ التَّصريحيَّة، وَالعدُولُ إِلَى الاستعارةِ أَدْخَلُ في مَدْحِ من قامَ بالخلافةِ على الوجهِ المطلُوبِ؛ لأنَّه يُحقِّقُ المُرادَ كما يطلُبُه المستخلِفُ، وهذا غاية في النَّفاسَةِ.

تناسُقُ الفَصْلِ بين الجملِ:

إظهارُ ما يجولُ في كامنِ نفوسِ الملائكةِ

للفصْلِ بين الجملِ بلاغةٌ عاليةٌ، لاسيَّما في المحاوراتِ والمقاولاتِ القرآنيَّة، وقد فُصِلَتْ جملةُ ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ عن التي قبلها؛ لشبه كمال الاتِّصال؛ فإنَّ لسائلٍ أن يسألَ بعد هذا التَّشويقِ بتقديم الجارِّ والمجرُورِ: فماذا قالتِ الملائكةُ؟ فجاء الجوابُ سريعًا: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾، وهو ما يقضي به حقُّ البلاغةِ ويقصُّه لسانُ الفصاحة، ومضمونُ ما قالوه يُؤكِّدُ إنشاءَ سؤالٍ في نفسِ المتلقِّي المتجاوب.

فائدةُ الإخبارِ عن تعجُّب الملائكةِ:

الاحتياطُ عنِ الوقوعِ في الإفسادِ وسفكِ الدّماءِ

دلَّتْ همزةُ الاستفهام في قولِه: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ على التَّعجُّبِ[1] واستِبعادِ تعلُّق الحكمةِ بذلك[2]، وهذا يُبيِّنُ أنَّ اللّه ﷻ أباحَ لهم مثلَ هذا السُّؤالِ، وأنَّه ممَّا يجوزُ في حقِّهم، وأنَّهم ما سألوه إلّا وهم يعلمونَ أنَّه في دائرةِ الرِّضا الرَّبانيّ، وفائدةُ الإخبارِ عن تعجُّبِهم: أن نحتاطَ عنِ الوقوعِ بمثلِ ما وصفتِ الملائكةُ من الإفسادِ وسفكِ الدِّماء.

---

(1) للرَّازي تخريجٌ لمعنى التَّعجب على وجهٍ آخرَ، فقال في التّفسير الكبير: 2/391: «إنَّ الإنسان إذا كان قاطعًا بحكمةِ غيرِهِ، ثُمَّ رأى أنَّ ذلك الغيرَ يفعَلُ فِعْلًا لا يقفُ على وجه الحكمة فيهِ، فيقول لَهُ: أتفعل هذا! كأنَّه يتعجَّب مِن كَمَال حكمتِه وعلمه، ويقولُ: إعطاءُ هذه النِّعم لمن يُفسد مِنَ الأمور التي لا تَهتدي العقولُ فِيهَا إلى وجه الحكمة، فإذا كُنْتَ تفعلُها - وأَعْلَمُ أنَّك لا تفعلها إلَّا لوجه دقيق وسِرٍّ غامضٍ أنت مطَّلع عليهِ - فَمَا أعظمَ حكمتَك وأجلَّ علمَكَ، فالحاصلُ أنَّ قوله: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ كأنَّه تعجُّبٌ مِن كمال علم الله تعالى وإحاطة حكمتِه بما خَفِيَ على كُلِّ العقلاء».

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/402.

نكتةُ تَكْرَارِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ ﴿فِيهَا﴾:

تحفيزُ النَّاسِ للحفاظِ على الأرضِ ببيانِ حرصِ الملائكةِ عليها

أُعيدَ ذِكْرُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيهَا﴾ في قولِه تعالَى: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ مرَّتين؛ لأهميَّةِ الأرضِ لدى الملائكةِ؛ فكأنَّهم يقولون: أتجعلُ في هذه الأرضِ التي صفاتُها كَيْتَ وكَيْتَ من يُفسدُ فيها؛ لجهلِه بحقيقتها؛ فيُذْهِبُ جمالَها، ويُضيِّعُ بهجتها؟ وفائدةُ هذه النكتة: أن يُدرِكَ النَّاسُ ما تحويه هذه الأرضُ من زُخرفٍ وجمالٍ؛ فيُحسنوا بعد استخلافِهم، لا أن يُفسِدُوا فيها، فتعليمُ النَّاسِ حِرصَ الملائكةِ وخَوْفَهم على الأرضِ من شأنه همزُهم وتنشيطُهم للحفاظِ عليها.

فائِدةُ الاكتفاءِ:

العنايةُ بالسببِ مقدَّمٌ على العنايةِ بنتيجته

لم يُذكر الجارُّ والمجرور مع سَفْكِ الدِّماء، فلم يقُل: (ويسفك فيها الدِّماء)؛ لسببين اثنين:

الأوَّل: اكتفاءً بذكرِه مرَّتين قبلُ، وفائدتُه بيانُ العنايةِ بشأنِ الأرضِ، فإنَّ إفسادَ الأرضِ أعظمُ من أن يسفكَ النَّاسُ بعضُهم دمَ بعضٍ؛ لأنَّه نتيجةٌ من نتائجِ الإفسادِ في الأرضِ.

الثَّاني: تحاشيًا عن الوقوعِ في الثِّقَلِ اللفظيِّ؛ بذكرِ اللفظِ ثلاثَ مرَّاتٍ في جملةٍ واحدة.

براعةُ الإيجازِ فيما يُشبِه الإطنابَ:

الجمْعُ بين دلالة العمومِ والكناية لتصويرِ بشاعةِ القتلِ

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه تعالَى: ﴿وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ دون القتلِ مع أنَّه أوجزُ لفظًا - فيما يظهرُ -؛ لسببين اثنين:

الأوَّل: دلالته على العُمومِ؛ لكونِه أشملَ مِن مجرَّدِ القتلِ؛ إذ يدخُلُ فيهِ الجَرْحُ أيضًا[1].

الثَّاني: لجعلِه كنايةً عن مطلَقِ القتلِ، ولو كان بغَيْرِ سَفْكِ الدَّمِ[2]، كالقَتْلِ بالخَنْقِ والإعدامِ والصَّعقِ ونحوِه.

(1) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التفاسير: 1/40.
(2) ابن حجر، فتح الباري: 12/188.

والتَّعبير بالكِنَايَةِ أبلغُ مِنَ التَّصريح بذِكْرِ القَتْلِ؛ لِمَا في الكنَايَةِ عَنِ القتْلِ بسفكِ الدِّماءِ مِنَ التَّفْظيع والتَّشنيع.

ويؤيِّدُ قصدَ التَّشْنِيع ثلاثةُ أوجه[1]:

أحدها: جمعُ الدَّمِ: ﴿وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؛ للإيماء إلى كثرةِ صدُور القتل مِنْهُم.

ثانيها: تحليةُ ﴿ٱلدِّمَآءَ﴾ باللَّامِ الدالَّة على الجنس؛ إذِ المقصودُ الدِّماءُ المسفُوكةُ بسببِ الفسادِ، هذا ما يقضي به السِّياق، ويُقرُّه الشَّرْعُ؛ فليس للملائكةِ أن تستنكرَ مُطلَقِ سَفْكِ الدِّماءِ لِوُجُوبه شرعًا؛ وذلك لبيانِ شَنَاعَةِ الفِعْلِ.

ثالثها: التَّعبير بالفعلِ المضارع ﴿وَيَسۡفِكُ﴾ الدالِّ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، وتصويرِ المشْهدِ.

نُكْتَةُ عَطْفِ الخَاصِّ عَلَى العَامِّ:

بيانُ معنى الإفسادِ بأقبح ما فيه، تنبيهًا من الوقوعِ فيه

عَطفُ سفكِ الدِّماء على الإفسادِ في الأَرْضِ في قوله ﷻ: ﴿مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ من عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فإنَّ سفكَ الدِّماء مِن جملة الإفسادِ في الأرضِ، ونُكْتَةُ العطفِ: بيانُ معنى الإفسادِ وخطورتِه بأقبحِ ما فيه، ففيها التَّنبيه على شناعةِ هذا الذَّنْبِ[2]، وأنَّه ذَنْبٌ عظيمٌ إذْ تعجَّبتِ الملائكةُ من إيجادِ من يرتكبُه في الأرضِ.

مظاهرُ التَّأْكِيدِ في جُمْلَةِ ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ﴾:

بيانُ فضيلةِ العبادَةِ التي لأجلِها جُعِلَ الخليفةُ في الأرضِ

جِيء بالمسنَدِ إِلَيْهِ مُقدَّما على المُسْنَدِ الفعْلِيِّ في قوله: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ﴾؛ لإفادةِ تقويةِ الخَبَر، وبيانِ أهميَّته؛ لِمَا فيهِ مِنْ إسنادِ فعل التَّسبيحِ إلى فاعلِه مرَّتين:

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/434.

(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/434، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/93.

إحداهما: إسنادُهُ إلى الضَّمير المستَتِرِ وُجوبًا في فعل ﴿نُسَبِّحُ﴾.

والأخرى: إسنادُهُ إلى ضَميرِ المبتدأِ (نَحْنُ).

فيكُونُ الإِسْنَادُ مكرَّرًا، وهو أحدُ مسالكِ تَأْكِيدِ الخَبَرِ.

وأُكِّدت الجملةُ أيضًا بالإتيانِ بِهَا اسميَّةً؛ لما تُفيدُه الجملةُ الاسميةُ مِنَ الدَّوام والثَّباتِ[1]، ولهذا التَّأكيدِ فائدةٌ وهي بيانُ عنايةِ الملائكةِ بالتَّسبيحِ والعبادةِ، وأنَّها علِمَتِ الغايةَ التي لأجلِها كان جعلُ الخليفة في الأرضِ؛ فأرادَتْ تلك الفضيلةَ لها.

فائدةُ ذكرِ قيدِ: ﴿بِحَمْدِكَ﴾:

الجَمْعُ بين الدّلالة الظَّاهرة والتَّعريضيَّة في أهميَّة الحَمْدِ

للقيودِ معانٍ بيانيَّةٌ لا يُستغنى عنها في الكلامِ الفصيحِ؛ فلم يأتِ الكلامُ: "ونحن نسبِّح ونقدِّس لك"، فذُكِرَ قيدُ ﴿بِحَمْدِكَ﴾؛ لتسليمِهِمُ الأمورَ للّهِ تعالى، والمعنى: وأنتَ المحمُودُ بالهدايَةِ إلَى ذلك كلِّهِ[2]، ولمعرفةِ الملائكةِ بفضيلة عبادَةِ الحَمْدِ، ومكانته في قبولِ الأعمالِ، وللإشارةِ إلى أنَّ هؤلاءِ المفسدين أضعفُ ما يكونون فيه هو عبادة الحمدِ والشُّكرِ؛ فكان للقيدِ دلالة ظاهرةٌ، وأخرى إشاريَّةٌ تعريضيَّةٌ.

فَائِدَةُ العُدُولِ فِي تَعْدِيَةِ فِعْلِ ﴿وَنُقَدِّسُ﴾ بِاللَّامِ:

امتزاجُ دلالة التَّأكيدِ بالعمومِ؛ لتمحيضِ التَّقديسِ لله تعالَى في الأُمورِ كلِّها

العدُولُ عن تعديةِ الفعلِ بنفسِه إلى تعديتِه بحرفٍ له فائدةٌ بيانيَّةٌ؛ فقد عُدِّيَ فعلُ (قدَّس) بحرفِ اللام ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾، وهو يتعدَّى بنفسِهِ: "ونُقدِّسُكَ"، وللعدُولِ فائدتان:

الأولى: دلالة التَّأكيدِ والمبالغةِ فيه، ونظيرُ هذا قول العرب: شكرتُكَ، وشكرتُ لَكَ؛ فإنَّ تعديتَهُ بالحرفِ دليلٌ على تأكيدِ الشُّكرِ والمبالغةِ فيه؛ لئلَّا يُتوهَّمَ ضعفُهُ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/406.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/118، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 1/507.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/406.

الثَّانية: دلالة العموم؛ فلو قال: "ونقدِّسُكَ"؛ لفُهم أنّ التَّقديسَ مختصٌّ بذاتِه سبحانه، لكنَّ تقديسَهم يشمَلُ كلَّ فعلٍ فيه تقديسٌ هو للّه تعالى؛ فإنَّ مردَّ أمورِ العبادَةِ إليه سبحانه، وينْشَأُ عنه تمحيضُ التَّقديسِ للّه تعالَى في كلِّ الأمور.

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ الجُمْلَةِ بِـ (إنَّ):

شُمُولُ عِلْمِ الله تعالى وعَظِيمُ حِكْمَتِهِ

جاء قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ مؤكَّدًا بـ (إنَّ)؛ لأحد وجهين[1]:

الأوَّلُ: أنَّها وردت جوابًا عن سؤالٍ ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾، وجوابُ السُّؤال يحسنُ توكيدُهُ.

والآخر: أنَّ الملائكةَ نُزِّلُوا منزلةَ المُنْكِرين أَوِ المتردِّدين؛ لِما عرضَ لَهُمْ مِنَ الإشكالِ، بسبب عدم معرفتِهم بحكمة اللّه تعالى في جعلِه خليفةً في الأرض؛ فتوقَّعوا صدورَ الفسادِ عنْهُ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّسْبِيحُ وَالتَّقْدِيسُ:

يرجعان إلى معنًى واحدٍ؛ وهو إبعادُ النَّقْصِ أو السُّوءِ عَنِ الشَّيءِ.

والفرقُ بَيْنَهُمَا[2]: أنَّ التَّسبيحَ تَنْزِيهُ اللّه تعالى عمَّا لا يَلِيقُ بِهِ مِنْ صِفَاتِ النَّقصِ، والتَّقْدِيسُ: تَنْزِيهُ الشَّيْءِ عَنِ النَّقائص.

فالتَّسبيح خاصٌّ باللّه تعالى، والتَّقديس يُستعمل في حقِّه سبحانه، وفي حقِّ غيرِه، ولذا يُقال: الأرض المقدَّسة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: 21]، وبناءً على هذا؛ فالعلاقةُ بينهما العمومُ والخُصوصُ المُطلَقُ؛ فالتَّسْبِيحُ أخصُّ مِنَ التَّقديس.

واختار ابنُ عاشور[3] أنَّ التَّسْبِيحَ يكون قولًا - أو قولًا مقرونًا بعملٍ - دالًّا علَى التَّعظيم، بخلاف التَّقديس؛ فيكون بالفِعْلِ، ويكون بالاعتقادِ. وغالِبُ الاستعمالِ القرآنيِّ يؤيِّد ما ذهب إِلَيْهِ ابنُ عَاشُورٍ؛ فالعلاقةُ بينهما التَّباينُ.

---

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/122، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/407.

(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 124.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/405-406.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ ﴾ [البقرة: 31-33]

مُنَاسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لـمَّا كان في قول الملائكة عليهم السلام إشارةٌ إلى فَضْلِهم على الخَليفةِ الذي سيَجْعَلُهُ اللّه تعالى في الأرض؛ أَعْلَمَهُم سُبْحَانَه بأنَّ الأمر على خِلَاف ما ظنُّوا؛ فشَرَعَ يُقيم الدَّليل على ذلك، بذِكْرِ سبَبِ استحقاقه الخلافةَ، وبيَّنَ لَهُمْ فضلَ آدمَ عليه السلام لِيَقِفُوا بذلك على كمال حكمةِ اللّه عز وجل وعلمِه في استخلافه[1].

قال الفخر الرّازي في بيان وجه المناسبة: "اعْلَم أنَّ الـمَلائِكَةَ لَمّا سَألُوا عَنْ وجْهِ الحِكْمَةِ في خَلْقِ آدَمَ وذُرِّيَّتِهِ وإسْكانِهِ تَعالى إيّاهم في الأرْضِ، وأخْبَرَ اللّهُ تَعالى عَنْ وجْهِ الحِكْمَةِ في ذَلِكَ عَلى سَبِيلِ الإجْمالِ بِقَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، أرادَ تَعالى أنْ يَزِيدَهم بَيانًا، وأنْ يُفَصِّلَ لَهم ذَلِكَ الـمُجْمَلَ، فَبَيَّنَ تَعالى لَهم مِن فَضْلِ آدَمَ عليه السلام ما لَمْ يَكُنْ مِن ذَلِكَ مَعْلُومًا لَهم، وذَلِكَ بِأنْ عَلَّمَ آدَمَ الأسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهم عَلَيْهِمْ لِيُظْهِرَ بِذَلِكَ كَمالَ فَضْلِهِ وقُصُورَهم عَنْهُ في العِلْمِ، فَيَتَأكَّدَ ذَلِكَ الجَوابُ الإجْماليُّ بِهَذا الجَوابِ التَّفْصِيلِيِّ"[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلۡأَسۡمَآءَ﴾: الأسماء جمع اسمٍ؛ مشتقٌّ مِنَ السُّمُوِّ على الصَّحيح[3]؛ وهو "ما يُعْرَفُ بِهِ ذاتُ الشَّيءِ"[4].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/94، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 1/240-241، والسعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 48.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 2/190-191.

(3) الخليل، العين: 7/318.

(4) الرّاغب، المفردات، ص: 428.

و(الِاسْمُ) يُستعمل استعمَالَيْنِ[1]:

أحدهما: استعمال اصطلاحيٌّ؛ وهو كلمة دلَّت على معنًى في نفسها ولم تقترن بزمَنٍ[2].

والآخر: استعمال لغويٌّ؛ وهو ما دلَّ على مسمًّى، فتشملُ أقسامَ الكلمةِ كلَّهَا: الاسمِ، والفعلِ، والحرفِ، وهذا هو المرادُ ههنا؛ وذلك لِوَجْهَيْنِ:

الأوَّل: أنَّ معرفة الأسماء الاصطلاحيَّة دون الأفعالِ والحروف؛ لا تحصلُ بها مَلَكَةُ الكلامِ، فلا يقَعُ الـمَدْحُ بمعرفَتِهَا وحدَهَا، فضلًا عن إيقاع المفاضلَةِ بمجرَّدِهَا.

والآخر: أنَّ للاسم مَعْنَيَيْن -على ما سبق آنفًا-، ولا يصحُّ حملُ (الأسماء) في الآية على معناها الاصطلاحيِّ؛ لأنَّه معنًى حادِثٌ، والقرآنُ الكريم لا يُفسَّر بالِاصْطِلَاحَات الحادثةِ، وإنَّما يُفسَّر بمعهود كلامِ العرب، وإذا بطلَ تفسيرُ (الأسماء) بِهَذَا المعنى؛ تعيَّنَ حملُها على المعنَى الآخرِ.

2) ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾: التَّسبيحُ: التَّنزيه، وتسبيح الله تعالى: تنزيهُهُ عنْ كلِّ سوءٍ[3]، ويُطلَق التَّسبيح على الصَّلاةِ[4].

وأمَّا (سُبحانَك) فترجع إلى المعنى الـمُتقدِّمِ الذِّكْرِ، وهي مِن جهة الصِّناعة اللَّفظيَّة: اسمُ مصدرٍ يلزَمُ النَّصْبَ على المفعوليَّةِ المطلقةِ بفعلٍ واجبِ الحذفِ؛ اتِّباعًا لِلاستعمال الواردِ عَنِ العرَبِ، فقَوْلُ القائلِ: سبحانَك؛ بمعنى: أُسبِّحُك تَسْبِيحًا[5].

3) ﴿تُبۡدُونَ﴾: فِعْلٌ مضارعٌ للفعل (أبدى) مسنَدًا إلى واو الجماعةِ، ومادَّتُهُ -وهي الباءُ والدَّال والواو- تدلُّ على الظهور؛ يُقال: بدَا الشَّيْءُ يبدُو، بمعنى: ظهر[6]، وأَبْدَى: أظهر.

4) ﴿تَكۡتُمُونَ﴾: الكافُ والتَّاء والميمُ تدُلُّ تصارِيفُها على الإِخْفَاء والسَّتْرِ[7]، ومصدرهُ: الكَتْمُ والكِتْمَانُ[8].

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/144.
(2) السُّيوطي، همع الهوامع: 1/25.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(4) الأنباريّ، الزَّاهر: 1/50.
(5) سيبويه، الكتاب: 1/322. ناظر الجيش، تمهيد القواعد: 6/2859.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدو).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتم).
(8) الجوهريّ، الصِّحاح، ونشوَان الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: (كتم).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولبيانِ فضل آدم عليه السلام وإظهارِ منزلته؛ علَّمه اللّهُ تعالى أسماءَ الأشياءِ كلّها ومسمياتها -ألفاظها ومعانيها-، ثُمَّ عَرض مسمَّياتها على الملائكةِ قائلًا لهم: أخبرُوني بأسماء هؤلاء الموجودات إن كُنْتُم صادقين في أنَّكم أفضلُ مِن هذا الذي سأَسْتَخْلِفُهُ، وأنَّكم أحقُّ بالاستخلاف في الأرض مِنْهُ.

فأجابَتِ الملائكةُ مُعْتَرِفِينَ: نُنَزِّهُكَ يا ربَّنا عن كلِّ ما لا يليق بكَ، ليس لنا مِنَ العِلْمِ إلَّا ما علَّمتَنَاهُ؛ فإنَّك العليم بكلِّ شيءٍ، الحكيمُ في شَرْعِك وقدَرِك.

فحينئذٍ طلب اللّهُ سبحانه من آدَمَ عليه السلام أن يُخبر الملائكةَ بأسماء تلك المُسمَّيات، فلمَّا أخبرهم بذلك كمَا علَّمه اللّه تعالى؛ قال اللّه عز وجل لِلْمَلَائِكَةِ: أَلَمْ أُخْبِرْكُم بأنِّي أعلم ما خَفِيَ في السَّماوات والأرضِ، وأعلَمُ جميعَ أحوالِكم الظاهرةِ والباطنَةِ؟[1].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ المفصَّل على المجمل:

إِقامَةُ الدَّليل على استحقَاقِ آدَمَ عليه السلام الخلافة

عُطِفت هذه الجملة على ما قبلَهَا؛ من باب عطفِ المفصَّلِ على المجمَلِ؛ فإنَّ قوله تعالى قبلُ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: مِن استحقاق هذا المخلوقِ الخلافةَ في الأرض؛ فهو استدلالٌ مجمَلٌ، أُعْقِبَ بذكر الدَّليل التَّفصيليِّ في قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ الدالِّ على فضيلةِ آدمَ[2] عليه السلام.

تَعْرِيفُ ﴿ءَادَمَ﴾ بِالعَلَمِيَّةِ؛ لكمَالِ تَمْيِيزِه عَن غَيْرِه وعَدَمِ اشتباهِهِ:

ذُكِرَ آدَمُ عليه السلام ههنا باسمه العلَمِ؛ زيادةً في التَّعيين؛ إذِ العلَمُ يُعيِّنُ مسمَّاهُ دون حاجةٍ إلى قرينةٍ، "ولأنَّ ذكرَه بعنوان الخلافةِ لَا يُلَائِمُ مقامَ تمهيدِ مباديها"[3].

---

(1) أبو المظفَّر السمعانّي، تفسير القرآن: 1/65، 66، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/222، 227، والشَّوكاني، فتح القدير: 1/76، 78، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 6.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/407.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/84.

عَظِيمُ فَضْلِ اللهِ تعالى علَى آدَمَ عليه السلام بِتَعْلِيمِهِ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ

دلالة اللَّامِ فِي ﴿ٱلۡأَسۡمَآءَ﴾:

اللَّام في ﴿ٱلۡأَسۡمَآءَ﴾ إمّا أن تُحمل على استغراق أفراد الجنس[1]، ويُؤيِّدُه ما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال: "علَّمه القَصعةَ من القُصَيْعَة، والفَسْوَة من الفُسَيَّة"، والمقصود مِنْه بيانُ عموم الأسماءِ المعلَّمَة، ويؤيِّدُهُ تأكيدُ الأسماءِ بقوله تعالى: ﴿كُلَّهَا﴾؛ فإنَّ فائدتَهُ رفعُ توهُّمِ إرادةِ عدَمِ الشُّمولِ[2].

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ اللَّامُ لِلْعَهدِ الحضوري، أي: علَّمه أسماءَ المسمَّياتِ الحاضرةِ، ولا يتعارضُ هذا مع التَّأكيد في ﴿كُلَّهَا﴾؛ لأنَّهُ يُحْمَلُ على أسماءِ المسمَّياتِ الحاضرةِ كُلِّها، وهذا الاحتمالُ مآلُه احتمالٌ آخر وهو أنْ تكونَ اللَّامُ عوضًا عَنِ المُضافِ إِلَيْه، أي: أسماء المُسَمَّياتِ.

الـجـمـعُ بين فنَّي التَّغليب والاسـتـخـدَامِ؛ لـبيـانِ فضيلةِ الـعـقـلاء على غيرِهم

توجيه التَّعْبِير بِـ ﴿عَرَضَهُمۡ﴾ دُونَ (عَرَضَهَا):

قالَ سُبحانه: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ولم يقُل: (عَرَضَهَا) وهو الظَّاهرُ؛ لأنَّ المعرُوضَ هو مسمَّياتُ الأشياءِ لا أسماؤُها[3]، وهي إمَّا أن تُحمل على التغليبِ، ففيهَا العاقلُ وغيره، إلَّا أنَّه غُلِّبَ العاقلُ تشريفًا وإن كان غيرُ العاقلِ أكثرَ[4]، وإمَّا أن تُحمل على فنِّ الاستخدام[5]؛ حيث إنَّ الضَّميرَ عادَ على ﴿ٱلۡأَسۡمَآءَ﴾ بغيرِ المعنَى الأوَّلِ الذي دلَّ عليه الاسمُ الظَّاهِرُ، فالأسماءُ استغراقٌ لجميع الأسماءِ، والضَّمير عادَ على أسماءِ العقلاء، وبه يحسُنُ التَّوجيه بالتَّغليبِ والاستخدامِ معًا.

---

(1) القُشَيريّ، لطائف الإشارات: 1/76، وابن عجيبة، البحر المديد: 1/94، والاستغراق المذكور يحتمل أن يكون استغراقًا عرفيًّا، كما مال إِلَيْهِ ابن عاشور في التَّحرير والتَّنوير: 1/409.

(2) الخطيب القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/44.

(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/32.

(4) عبد القاهر الجرجانِّي، درج الدُّرر: 1/141، والقِنَّوْجِي، فتح البيان: 1/129.

(5) الاستخدام هو: أنْ يُذكر لفظٌ بمعنًى، ثمَّ يُعادَ عليه ضميرٌ أو إشارةٌ بمعنًى آخَرَ، وهذه إحدى صوَرِه، ينظر: عبد المتعال الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/599.

مَعْنَى اللَّامِ في (ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ):

اللَّام في (ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ) لِلْعَهد الذِّكْرِيِّ الصَّريحِيِّ؛ فإنَّ الملائكة تقدَّمَ ذكرُهُم في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، ولا ينافي هذا أن يكون اللَّفظُ عامًّا؛ إذْ قد يُعْهَدُ مِنَ اللَّفظِ معناه العامُّ.

دلالة الأَمْرِ في ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾:

نَقْلُ الملائِكَةِ مِنَ التَّعْجِيزِ عنِ الإنباءِ إلى التَّنبيهِ إلى فضْلِ آدمَ عليه السلام

غرضُ الأمرِ في قوله سبحانه: ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى﴾ يحتملُ عدَّةَ معانٍ؛ فإمَّا أن يُرادَ به التَّعجيزُ، فإنَّ اللّٰه تعالى أراد بيانَ عجزِ الملائكةِ عَنْ علم ما يَرونَهُ فَكَيْفَ بما خَفِيَ؟! "فلا يظنُّون أنَّهم أعلَمُ مِنَ الخليفةِ الذي يَجْعَلُهُ اللّٰه في الأرض"[1].

وإمَّا أن يُرادَ به التَّنبيهُ[2]، أي: تنبيهُ الملائكةِ إلى فضيلة آدمَ عليه السلام.

ولا تعارُض بين الغَرضين؛ إذْ يمكن أن يُقال: إنَّ إرادة تعجيزِهم ليس لذات التَّعجيز، بل لِيُنتقلَ مِنْهُ إلى معرفة قَدْرِ آدمَ وفضيلَتِهِ؛ فبدأ بتعجيزِهم وانتهى بتنبيههم.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِ ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ دُونَ (أَخْبِرُونِي):

التَّعبير بالإنباء دونَ الإخبار؛ لكون النَّبأِ هو الخبرَ العظيمَ ذا الشَّأن، وهذا مُشْعِرٌ بعَظَمَةِ ما عُلِّمَهُ آدَمُ عليه السلام مِن الأسماءِ، وبهِ يظهَرُ فضلُهُ على الملائكة إذْ لَمْ يعلمُوا ذلك[3].

بلاغَةُ الإِيجَازِ بِالحَذْفِ:

إِقَامَةُ الدَّلِيلِ على أَحَقِّيَّةِ آدمَ عليه السلام بِالِاسْتِخْلَافِ في الأَرْضِ

في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إيجازٌ بالحذف من وَجْهَيْن:

أحدهما: حَذْفُ جوابِ الشَّرْطِ؛ وذلكَ لدلالة المذكُور عَلَيْهِ[4]، والتَّقدير: إن كُنْتُم صادقِينَ فأَنْبِئُوني بأسماءِ هَؤُلَاءِ.

(1) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 1/117.
(2) النَّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/82.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/85.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/85.

والآخَرُ: حَذْفُ متعلَّقِ ﴿صَٰدِقِينَ﴾، أي: في أنِّي لا أخلق مَن هُوَ أعلَمُ مِنْكُم وأفضَلُ، أو أنِّي أجعَلُ في الأرضِ مَن يُفسِد فِيهَا[1]، أَوْ في زَعْمِكُم أنَّكم الأحقُّ بالِاسْتِخْلَافِ في الأرض[2].

سَبَبُ فَصْلِ الجُمْلَةِ عَمَّا قَبْلَهَا:

التَّرْتِيبُ المعنَوِيُّ في الـمُحَاوراتِ يُغْنِي عَنْ إِيرَادِ الحُرُوفِ

فُصِلَ قولُه سبحانه: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾ عمَّا قبلَه؛ لِما بَيْنَهُمَا مِن شبهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ فإنَّ الجملةَ الثَّانية بمنزلة الجواب عَن سؤالٍ يُفهم مِنَ الأولى[3]، وذلك أنَّه لـمَّا قال تعالى: ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ انْبَعَثَ في نفسِ السَّامعِ سؤالٌ: فما كان قيلُ الملائكةِ لربِّهَا ﷻ، فجاء الجواب: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾.

والجُمَلُ المفتتحَةُ بالقَوْلِ، إذا رُتِّبَ بعضُها على بعضٍ في الـمَعْنَى؛ فلَا يُؤْتَى فِيهَا بالحرفِ في الأَفْصَحِ؛ اكْتِفَاءً بالتَّرْتِيبِ الـمَعْنَوِيِّ[4].

بَرَاعَةُ الِاسْتِهْلَالِ فِي افْتِتَاحِ المَلَائِكَةِ بِتَسْبِيحِ اللهِ تَعَالَى:

مُلَازَمَةُ الملائِكَةِ الأَدَبَ مَعَ اللهِ تعالَى وتعظيمهُ

في افتتاح قول الملائكةِ بتَنْزِيهِ اللَّه ﷻ ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ براعةُ استهلالٍ مِن جِهَتَيْنِ[5]:

إحداهما: أنَّ فِيهِ أدبًا وتعظيمًا لصاحبِ العظمَةِ الـمُطلقةِ ﷻ، وافتِتَاحُهُم بِهِ تعجيلٌ بِمَا يدُلُّ على ملازمةِ ذلك الأدبِ والتَّعظيم.

والأخرى: أنَّ فِيهِ إيماءً بالاعتذارِ عَنِ السُّؤالِ المتقدِّمِ في قولِهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾، وأنَّ سُؤَالَهم كان استفسارًا ولم يَكُنِ اعْتِرَاضًا[6].

---

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/53.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/69.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/85.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/228.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/413-414.
(6) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/69.

بلاغةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

إتباعُ الاعتذارِ الصَّريحِ باعتذارٍ كنائيٍّ لِكَمَالِ الأَدَبِ مَعَ الله تعالى

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ﴾ عن جملة ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾؛ لما بينهما مِنْ كمالِ الاتِّصالِ؛ إذْ كِلَا الجملتينِ اعتذارٌ عَنِ المراجعةِ السَّابقةِ، إلَّا أَنَّ الأولى اعتذارٌ صريح، والثَّانيَةَ اعتذار كنائيٌّ، وقد جاءَ آخرًا لا ابتداءً، فكان تقديمُ الاِعْتِذَارِ الأَوَّلِ قبل الثَّاني أدخلَ في الأدبِ والتَّعْظِيم، فنُزِّلتِ الثَّانيةُ منزِلةَ التَّأكيدِ للأُولى، ثُمَّ إنَّ كلا الجملتين خبريَّةٌ.

بلاغةُ التَّعليلِ بين الجُمَلِ:

تضمينُ جُملَةِ التَّعليلِ المَدْحَ والثَّناءَ زيادةً في الأدَبِ والاعتذارِ

من كمَالِ أَدَبِ الاعتِذَارِ تعليلُ المُعْتَذِرِ بمَدْحِ المُعتَذَرِ منه، وعليه فقولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ مسُوقٌ مساقَ التَّعليلِ لقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ﴾؛ "لأنَّ المحيطَ علمُه بكُلِّ شيءٍ المُحْكِمَ لكُلِّ خلقٍ، إذَا لم يجعل لبعضِ مخلوقاته سَبيلًا إِلَى عِلْمِ شيءٍ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قِبَلٌ بِعِلْمِه"[1].

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ بِأَنْوَاعٍ مِنَ المُؤَكِّدَاتِ:

عِلْمُ اللهِ وحِكْمَتُهُ؛ مُطْلَقَانِ عَامَّانِ ثابِتانِ

هذه الجملة -﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾- خبريَّةٌ مؤكَّدَةٌ بأربعةِ مؤكِّدات:

أولها: (إِنَّ)، في قوله: ﴿إِنَّكَ﴾.

ثانيها: القَصْر، وذلك بتعريف جزأي الجملةِ.

ثالثها: ضمير الفصل (أَنْتَ)؛ فإنَّه يقوِّي القصرَ في الجملةِ إذا وُجِدَ طريقٌ للقصرِ فيهَا -كما في هذه الآية-.

رابعها: اسمية الجملة؛ فإنَّها آكدُ من الفعليَّةِ؛ لما تُفيده من الثبات والدَّوام.

وفي تأكيدِهَا هذا التَّأكيدَ مبالغةُ الملائكةِ في الاعتذار عمَّا يُوهِمُهُ سؤالُهُم الاسترشاديُّ من شائبةِ الاعتراضِ[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/414.

(2) محمَّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/220.

سِرُّ اختيارِ صِفتيِ العَلِيمِ والحَكيمِ:

تضمينُ التَّعليلِ الأُسلوبيّ، التَّعليلَ بالصِّفات

اختَارَ النَّظمُ صفتي العَليمِ والحَكيمِ؛ لِمُناسبَتِهما لِسِياقِ الآيَةِ: أمَّا وجه مناسَبةِ صِفَةِ العَليمِ؛ فلأنَّ المطلُوبَ هو الإخبارُ بعلمِ الأسماءِ. وأمَّا الحكيمُ؛ فهي بيانٌ لإقرارِهم في اختيارِ مَنْ يَصلُحُ للخلافةِ، فأُقيمَتْ الصِّفتانِ مقامَ التَّعليلِ في ضِمنِ أسلوبِ التّعليلِ.

سِرُّ ترتيب صِفَتَيِ العَلِيم الحَكيم:

مراعَاةُ السِّياقِ، والتَّرقِّي، ومناسَبَةُ آخِرِ الكلامِ لمطلَعِه

جاءَتْ صِفتا العَلِيمِ الحَكِيمِ بهذا التَّرتيبِ، ولم تَأْتِيا على العَكْسِ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: 84]؛ لأربعةِ أوجهٍ:

الأوَّل: لأنَّ المقامَ للعلْمِ، فناسبَ هذا تقديمَهُ.

الثَّاني: ليكون ذِكْرُ الأسماءِ على جهة التَّرقِّي؛ فإنَّ مفهومَ الحكمةِ زائدٌ على مفهومِ العِلْمِ[1]، ولأنَّ الحكمةَ أثرٌ لِلْعِلْمِ[2].

الثَّالث: ليكون اسمُ العليمِ مُتَّصلًا بقولِه: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ وهو أنسبُ له في المعنَى.

الرَّابع: ليكون آخرُ ما قالوه -وهو ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾- ملائمًا لأوَّلِ مقالتِهم؛ فيكون مِن مناسبةِ مقاطِعِ الكلامِ لمطالِعِه.

دلالة النِّدَاءِ فِي ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾:

النِّداء في قولِه: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ نداءُ تكريمٍ وتشريفٍ، بقرينةِ المقامِ؛ فإنَّهُ مقامُ إظهارِ فضلِ آدَم عليه السلام وشرفِه بالعِلْمِ.

سِرُّ التَّعْبِيرُ بِـ ﴿أَنۢبِئۡهُم﴾ دُونَ (أَنْبِئْنِي):

إعلامُ الملائكَةِ بانتقالِ آدَمَ من رُتبةِ التَّعلُّمِ إلى رُتبةِ التَّعليم

جاءَ التَّعبيرُ بقولِه سبحانه: ﴿أَنۢبِئۡهُم﴾، ولم يقُل: (أنبئني)؛ تنبيهًا إلى رسوخِ علم آدَمَ عليه السلام بأسماءِ هذه المسمَّياتِ، وأنَّه انتقلَ

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/70، والخفاجِيّ، عناية القاضي: 2/128.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 1/522.

مِن رُتْبة التَّعلُّم إلى رتبة التَّعليم، ولئلَّا تَسْتَوْلي عَلَيْهِ المهابَةُ؛ إذْ إنَّ إنباء العالِم ليس كإنباءِ غيره[1].

نُكْتَةُ العُدُولِ مِنَ الإِظْهَارِ إلى الإِضْمَارِ:

بيانُ كَمالِ العِنَايَةِ بِشَأْنِ الأسماءِ وأنَّها المَقْصُودُ بالكَلامِ

في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ إظهارٌ في موضع الإضمار؛ إذْ مُقْتَضَى الظَّاهر: "فلمَّا أنبأهم بهَا"، ولهذا العدول نُكْتَتَانِ[2]:

إحداهما: إظهارُ كمالِ العِنَايَةِ بشَأْنِ الأَسْمَاءِ، وبيانُ أنَّها المقصُودُ بالكلام.

والأخرى: الإعلام بأنَّ آدَم عليه السلام أنبأَ بِهَا على وجه التَّفصيلِ لا على وجْهِ الإجْمَالِ.

أثرُ الاِسْتِفْهَامِ فِي المُخَاطَبين:

سَعَةُ عِلْمِ اللهِ تَعالَى ظاهرًا، وسَعَةُ حِلْمِه ضمنًا

الاِسْتِفْهَامُ في قوله: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكُونَ للتَّقرير[3] - وهو حَمْلُ المخاطَب على الإقرار بما يَعْرِفُه[4] -، أي: قد قلتُ لكم ذلك، وهو يَتَضمَّنُ اللَّومَ والتَّوبيخ[5]؛ لما بدَرَ مِنْهُمْ مِنَ الاِسْتِفْسَارِ المُشْعِرِ بنوعٍ مِنَ الاِعْتِرَاضِ[6]؛ ففيه بَيَانُ سَعَةِ عِلْمِه وحِلْمِه، أمَّا سَعَةُ العِلم فظَاهِرَةٌ، وأمَّا سَعَةُ حِلْمِه فبما أرخَى لَهُم مِنَ اتِّساعِ السُّؤالِ، والحِلم عَلَيْهِم بالتَّجاوزِ والعَفو.

نُكْتَةُ ذِكرِ الجَارِّ والمَجرُورِ:

اللَّومُ والعِتابُ؛ لتَعليمِ العِبادِ تَفويضَ الأَمرِ لِله وحدَه

ذُكِرَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَّكُمۡ﴾ في قَوْلِه تعالَى: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يقُل: (أَلَمْ أَقُلْ إنِّي)؛ زيَادَةً في اللَّومِ والعِتَابِ، وفيه تَعليمُ العِبادِ تفويضَ الأَمرِ له سُبحانَه دُونَ سِواه، بِمعرفَةِ أنَّه سُبحَانَه يَعْلَمُ ما فِيهِ مَصَالِحُ العِبَادِ ظَاهِرًا وبَاطِنًا.

---

(1) أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي: 1/84.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/86.
(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/357.
(4) حامد عَوني، المنهاج الواضح: 2/104.
(5) الواحديّ، الوجيز، ص: 99.
(6) الإيجي، جامع البيان في تفسير القرآن: 1/40.

سِرُّ الإيجَازِ بِالِاكْتِفَاءِ:

في قوله ﷻ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إيجازٌ بالاكتفاءِ، أي: وأعلمُ شهادتَهُمَا، وإنَّما اقتُصِرَ على ذكر الغيب؛ لأنَّ الذي يعلم الغيبَ يعلم الشَّهادةَ بطريقِ الأَحْرَوِيَّةِ[1]، ولأنَّ السِّياقَ حدِيثٌ عمَّا سَيكُونُ في الـمُستَقبَلِ، فالغَيْبُ هنا هو غَيْبُ الـمُستَقبَلِ.

مَنْ يَعْلَمُ الغَيْبَ يَعْلَمُ الشَّهَادَةَ مِنْ بَابِ أَوْلَى

نُكْتَةُ الإيجَازِ بِالِاحْتِبَاكِ:

في قوله ﷻ: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ إيجازٌ بالاحتباكِ[2]؛ أي: أعلَمُ ما تُبْدُونَ وما كُنْتُم تُبْدُونَ، وأعلَم ما تكتمُون وما كنتُم تكتمون، فحُذِفَ من الأوَّلِ (ما كنتم تبدون)؛ لدلالة الثَّاني عَلَيْهِ وهُو قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، وحُذف مِنَ الثَّاني (ما تكتمون)؛ لدلالة الأوَّل عَلَيْهِ وهو قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾، ولذا سمَّى هذا النَّوعَ بعضُ العلماءِ: الحذفَ الـمُقابَلِيَّ[3].

إِحَاطَةُ عِلْمِ الله تعالى بالـمَاضِي والـحَـاضِـر والمُسْتَقْبَلِ

فيكون الكلامُ دالًّا على الحالِ والماضي، ويدلُّ على المستقبَلِ مِنْهُمَا أيضًا[4]؛ إمَّا أخذًا من دلالة المضارعِ بحملِهِ على مَعْنَيَيْهِ معًا: الحالِ والاستقبالِ، وإمَّا بفَحْوَى الكلامِ؛ فإنَّ عالِمَ الماضي والحال على وجهِ الإحاطةِ: عالمٌ بالمستقبَلِ.

وفي طباق الإيجاب بَيْنَ ﴿تُبْدُونَ﴾ و﴿تَكْتُمُونَ﴾ إيماءٌ إلى إحاطة اللّه تعالى بكلِّ شيءٍ علمًا.

نُكْتَةُ ذِكْرِ (كَانَ) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾:

التَّنبيه الضِّمنيُّ على أمرٍ تَعْرِفُه الـملائِـكَـةُ من أنْفُسِهَا

قال سُبحانه: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ دون (وما تكتمون)؛ لِلْإِعْلَامِ بأنَّه سبحانه عالمٌ بما استمرُّوا على كتمانِهِ في الماضي،

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/229.

(2) الاحتباك: أن يُحْذَفَ مِنَ الأوائلِ مَا جاء مقابِلُهُ في الأواخِرِ، ويُحْذَفَ مِنَ الأواخرِ ما جاءَ مُقابِلُهُ في الأوائلِ، ينظر: عبد الرَّحمن حبنَّكة، البلاغة العربيَّة: 1/54.

(3) الزَّركشّي، البرهان: 3/129.

(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/229.

وللتَّنبيهِ الضِّمنيِّ على أمرٍ تَعْرِفُه الملائِكَةُ من أَنْفُسِهَا؛ فهو بمثَابَةِ الإشَارَةِ إلى أمرٍ كَتَمُوه، مع التَّصريحِ بعُمُومِ عِلْمِه لِكُلِّ ما كَتَمُوه، كما سَيأْتِي.

بلاغَةُ حَذْفِ العَائِد:

التَّنبيهُ على العُمُومِ، لِلتَّناسُبِ السِّياقِيِّ، والائتلافِ اللَّفظيِّ

حُذِفَ العَائدُ من قوله: ﴿مَا تُبْدُونَ﴾؛ للعُمُوم؛ فيدخُلُ كُلُّ ما أبْدَوْه، دونَ تخصيصِ ما قَالُوه في شَأْنِ الخَلِيفَةِ وحْدَه، وحُذف العائدُ من قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ للعُموم؛ فيدخُل فِيهِ كُلُّ مَا كَتَمُوه، وهو الأَنْسَبُ بالسِّياقِ، في ذِكْرِ أمرِ العِلْم.

ومراعاةُ الفواصلِ تابِعَةٌ للمَعْنَى، ومَا أَجْمَلَ ائتِلافَ المَعَاني بالأَلْفَاظِ، ويَظْهَرُ التَّناسُبُ في الحَذْفِ بينَ ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ و﴿تَكْتُمُونَ﴾.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّبَأُ وَالخَبَرُ:

ظاهر صنيعِ كثيرٍ من أصحاب المعجماتِ أنَّهما مترادِفَانِ[1]، ولعلَّه جَرْيٌ مِنْهُمْ على المسامحةِ؛ تقريبًا لِلْمَعَاني، بل إنَّ بعضهم نصَّ على ترادُفِهِمَا[2].

وفرَّق بَيْنَهُمَا جماعةٌ من أهلِ العلم - وهو التَّحقيقُ-؛ وذلك أنَّ النبأَ هو الخبرُ الذي له خَطْبٌ وشأنٌ، ومِنْهُ سُمِّي النَّبِيُّ نبيًّا؛ لأنَّه يوحَى إِلَيْه، والوحي: خَبَرٌ عظيمٌ له شأنٌ، بخلاف الخبرِ فهو أَعَمُّ؛ إذ يُطْلَقُ على ما له شأنٌ وما ليس كذلك[3].

وذكر أبو هلالٍ فرقًا آخرَ؛ وهو أَنَّ النَّبَأَ لا يكون إلَّا لِلْإِخبار بما لا يعلمه المُخْبَرُ، بخلاف الخَبَرِ؛ فإنَّه أعمُّ مِنْهُ، فيكون لِما يعلَمُه المُخْبَرُ ولِمَا لا يعلمُهُ[4].

وهذا الفرق فيه نظر؛ فإنَّ الله تعالى قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ [التوبة: 70]، والاستفهام في ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾

(1) الخليل، العين: (خبر)، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (نبأ)، والجوهريّ، الصِّحاح: (نبأ)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (نبأ).
(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (نبأ) و(خبر).
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/227، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/306، والشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/476، 2/104، 138، 607.
(4) أبو هلالٍ العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 528.

للتَّقريرِ[1]؛ أي: قد أتاهُمُ نبأُ الذِينَ من قَبْلِهِمْ، فقد عَلِمُوهُ قبلُ، ومع ذلك وقع التَّعبير عَنْهُ بلفظ النَّبأ.

الكِتْمَانُ وَالإِخْفَاءُ:

الفَرْقُ بينَهُمَا: العمومُ والخصُوصُ المُطْلَقُ؛ فالكِتْمَانُ أخَصُّ مطلقًا مِنَ الإِخْفَاءِ؛ وذلك أنَّ الكتمانَ خاصٌّ بسَتْرِ المعاني، فيُقال: كتَمَ السِّرَّ والخبَرَ، بخلاف الإخفاءِ؛ فإنَّهُ أعمُّ؛ فيكون لِلْمَعَانِي ولِلْمَحْسُوسَاتِ[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.

(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 448، وابن سِيدَه، المخصّص: 4/39.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 34]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكر اللّه تعالى إنعامَهُ على آدمَ عليه السلام بتفضيلِهِ بالعِلْمِ؛ ذَكَرَ إنعامَهُ عليه بإسجاد الملائكةِ لَهُ(1).

قال أبو حيّان الغرناطي: "ومُناسَبَةُ هَذِهِ الآيَةِ لِما(2) قَبْلَها أنَّ اللَّهَ تَعالى لَمّا شَرَّفَ آدَمَ بِفَضِيلَةِ العِلْمِ، وجَعَلَهُ مُعَلِّمًا لِلْمَلائِكَةِ وهم مُسْتَفِيدُونَ منهُ مَعَ قَوْلِهِم السّابِقِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: 30]، أرادَ اللّه أنْ يُكَرِّمَ هَذا الَّذي اسْتَخْلَفَهُ بِأنْ يُسْجِدَ لَهُ مَلائِكَتَهُ، لِيُظْهِرَ بِذَلِكَ مَزِيَّةَ العِلْمِ عَلى مَزِيَّةِ العِبادَةِ".

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسْجُدُواْ﴾: فِعْلُ أمرٍ من (سَجَدَ) مُسندًا إلى واو الجماعةِ، والسِّينُ والجيمُ والدَّالُ تدُلُّ اشتقاقاتُها على الذُّلِّ والتَّطامُنِ أي: الاِنْخِفَاضِ(3)، يقال: سجدتِ الدَّابَةُ؛ إذا خفضت رأسَها لتُرْكَبَ(4).

ومِنْهُ السُّجودُ؛ وهو وضعُ الجبهةِ على الأرضِ(5)، وبمعنى الانحنَاءِ أيضًا(6)

وأمَّا سجودُ الملائكة لآدم عليه السلام؛ فاختُلِفَ في حقيقتِه: أكان انحناءً، أو بوضع الجبهة على الأرض، معَ اتِّفاق أهل العلم على أنَّ سجودَ الملائكةِ لآدَمَ عليه السلام لَم يَكُنْ عِبادةً له، وإنَّما كان تَحِيَّةً أو احترامًا لَهُ عليه السلام، طاعةً للّه تعالى(7).

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/254.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/414.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).
(4) الأنباريّ، الزَّاهر: 1/47.
(5) ابن سِيده، المخصَّص: 4/57.
(6) ابن القطَّاع، كتاب الأفعال: 2/125.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 1/512، والواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/364، 366.

2) ﴿أَبَىٰ﴾: الهَمْزَةُ والبَاء واليَاء تدلُّ على الامتناعِ[1]، والإباء: أشدُّ الامتناعِ[2].

3) ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾: الكاف والباء والرَّاء تدلُّ تصاريفُها على ضدِّ الصِّغرِ، ومِنْهُ: الكِبَرُ؛ وهو الهرَمُ، والكِبْرِياء؛ وهي: العظمة[3].

وَالكِبْرُ: هو التَّرفُّعُ عن الإقرار بالحقِّ، والطُّغيانُ في دفعه، واحتقارُ النَّاسُ والإزراءُ بِهِمْ[4]، وهذا المفهوم عبَّر عَنْهُ رسُولُ اللّٰه ﷺ بأَوْجَزِ عبارةٍ وأبلغِها؛ فَقَالَ: "الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاس"[5].

والسِّينُ والتَّاء في (استكبر) تدلُّ على القوَّةِ لا الطَّلبِ، فمعنى (استكبرَ): قَوِيَ كِبْرُهُ[6].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

تَحدَّثتِ الآيَةُ عن أمرِ اللّٰه تَعالَى الملائكَةَ بأنْ يَسجُدُوا لآدَمَ عليه السلام، إكرامًا لَهُ وتحيَّةً، فسجدوا مسارعين لامتثال أمر اللّٰه عز وجل، إلَّا إبليسَ فقدِ امْتَنَعَ أشدَّ الامتناعِ عَنِ السُّجودِ، اعتراضًا على أمر اللّٰه تعالى له، وتكبُّرًا على آدم عليه السلام، فصار مِنَ الكافِرينَ باللّٰه تعالى[7].

الإيضَاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائِدَةُ عَطْفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّة:

بيانُ موقفِ الملائكةِ وإبليس من السُّجودِ؛ للحذرِ من جِهةٍ، والأمنِ من الثَّانية

نوعُ الواوِ في قولِ اللّٰهِ تعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ العَطْفُ، والقولُ معطوفٌ على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وهو من باب عَطْفِ القصَّةِ على القصَّةِ[8]؛ لاشتراكهما في ذِكْرِ قِيلِ اللّٰهِ سبحانه لِلْمَلائكةِ، وذِكْرِ نِعَمِ اللّٰه عز وجل على آدَمَ عليه السلام؛ بِغَرَضِ اسْتِكمَالِ الغَايَةِ من ذكْرِ القِصَّةِ، وبيانِ موقف

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أبي).
(2) ابن الأثير، النِّهاية: (أبو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(4) ابن الجوزيّ، كشف المشكل من حديث الصَّحيحين: 3/323.
(5) رواه مسلم، حديث رقم: (91).
(6) الحمَلَاويّ، شذا العَرْف في فنِّ الصَّرف، ص: 35.
(7) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 1/84، 85، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 48، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 6.
(8) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/420.

الملائِكةِ في السُّجود، بعدَ قِيلِهم، وموقفِ إبليس بعدَ سُكوتِه؛ ليحصُلَ الحَذَرُ من جِهةٍ، ويتحقَّقَ الأمنُ من الثَّانية.

تَكْرَارُ الظَّرْفِ (إِذْ) لبيانِ نِعَمِ اللهِ تعالى على آدَمَ عليه السلام:

كُرِّرَ الظَّرْفُ (إذْ) بعد الواوِ المُغْنِيَةِ عن إعادتِه؛ لِلْإِعْلَام بأنَّ جملة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ مستقلَّةٌ بذاتِها، مقصودةٌ بالأصالَةِ؛ إيذانًا بأنَّ المذكور في حيِّزِهَا نعمةٌ جليلةٌ حقيقةٌ بالذِّكْرِ على وجهِ الاستقلال[1].

نكتَةُ الِالتِفَاتِ مِنَ الغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ:

إِظْهَارُ جَلَالِ اللهِ تعالَى وإدْخالُ هَيْبَتِهِ فِي نُفُوسِ المُتَلَقِّين

وقَعَ التِفَاتٌ في قوله سبحانه: ﴿قُلْنَا﴾ من الغَيْبَةِ في قولِه تعالَى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل﴾ إلى التَّكلُّم؛ والنُّكْتَةُ في ذلك: إظهارُ الجلالَةِ وزيادةُ المَهابَةِ، لاسيَّما أنَّ التَّكلُّمَ وردَ بصيغةِ الجمعِ الدَّالَّةِ على التَّعظيم، وتأكيدُ استقلالِ هذه الجملةِ عمَّا قبلَهَا؛ لتغايُرِ أسلوبِهِمَا[2].

التَّعظيمُ ذاتيٌّ، ويكْتَسِب المُعظِّمون شرفًا لا يُدانَى، ومكانةً لا تتَدانى:

أفادَتِ النُّونُ في قولِه سبحانه: ﴿قُلْنَا﴾ التَّعظيمَ؛ إذِ السُّجودُ لِلتَّعظيم، فلمَّا أمر به لغيرِه؛ أشار إلى كِبْرِيائِه وعظَمَتِه في ذاتِه[3]، ولا تَتَوَقَّف عظَمَتُهُ سبحانه على تعظيم المعظِّمينَ، إذِ العَظَمَةُ ثابِتَةٌ له على الدَّوام، وإنَّما يكْتَسِبُ المُعظِّمون لِكبرِيائِه بذلِك شرفًا لا يُدانَى، ومكانةً لا تتَدانى.

نُكْتَةُ الإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ:

صِيانةُ احتِمالِ التَّوهُّمِ في التَّقليلِ من شأنِ الملائِكَةِ

أُظهِرَ اسْمُ الملائِكَةِ في قولِه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ ومقتضى الظَّاهِرِ الإضمار[4]، أي: (وإذ قلنا لهم)؛ وذلك لتقدُّمِ ذِكْرِهم، ونُكْتَةُ الإظهار: الاحترازُ عن توهُّمِ التَّقليلِ من شَأْنِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/87.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/87.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/129.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/87.

الملائِكَةِ؛ فإنَّ إظهارَ الاسم تابعٌ لإظهارِ المعنى، لاسيَّما أنّ الملائكة قد صَدَرَتْ عنهم تلك الأَسْئِلَةُ؛ فقد يخطُر ببالِ المتلقِّي شيءٌ من وَسَاوِس الشَّيطان في التَّقليلِ من شَأْنِهم، فكان الإظْهارُ دافعًا لمثلِ هذا التَّوهُّم، وهذا من بليغِ أغراضِ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ في القرآنِ الكريم.

دلالة الفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾:

سُرْعَةُ امْتِثَالِ أَمْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَتعليمُ المُبَادَرَةِ لأَدَاءِ حَقِّ المُعَلِّمِ

الفاء في قوله: ﴿ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ عاطِفَةٌ على ﴿قُلْنَا﴾، والفاء تدلُّ على التَّرتيب والتَّعقيبِ؛ ففي قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ إشارةٌ إلى مسارعةِ الملائكة إلى امتثال أمر اللّٰه تعالى لَهُمْ بالسُّجود، وفِيه تعليمُهم المبادَرَةَ لأدَاءِ حقِّ آدمَ عليه السلام؛ إذْ علَّمهم ما لَمْ يَعْلَمُوا[1].

توجيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

سُمُوُّ البَيَانِ القُرْآنِيِّ وَجَمالُهُ فِي التَّعْبِيرِ عن كُلِّ موضِعٍ بما يُنَاسِبُه

ورد هنا ﴿ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾، وفي سورة الحِجْرِ: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: 29-30]، فوقع الخلافُ بَيْنَهُمَا مِن ثلاثَةِ أوجهٍ[2]:

الوجه الأوَّل: في "البقرة" أمرٌ صريحٌ بالسُّجود، وفي "الحِجْرِ": أمرٌ بالوقوع ساجدينَ.

الوجه الثَّاني: في "البقرة" إضمارٌ لِلْمَلَائكةِ، وفي "الحِجْرِ" إظهارٌ لاسمهم الصَّريح.

الوجه الثَّالث: في "الحِجْرِ" أُكِّدَ الفاعلُ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بقوله: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، وخلا ذلكَ مِنَ "البقرة".

وموجِبُ التَّفريقِ: أنَّ آية البقرة تقدَّمها ذِكْرُ تفضيل آدمَ عليه السلام على الملائكة، وتَسْلِيمهم بهذا التَّفضيل، فكان المناسبُ الاكتفاءَ بالأمر بالسُّجودِ.

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/129.

(2) سعد عبد العظيم محمَّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 87.

ووقَعَ ذِكْرُ الملائكة مضمرًا؛ لتقدُّم ذِكْرِهِم قريبًا جدًّا، فناسبَ ذلك الإتيانُ بالضَّمير الرَّاجع إِلَيۡهِمُ اختصارًا، لا سيَّما وقد تكرَّر ذكرُهم قبلَ الإضمارِ ثلاثَ مرَّاتٍ بالاسمِ الصَّريح.

وأمَّا آية سورة الحِجر؛ فتقدَّمها قولُ الله ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 28-29]، وذِكْرُ الحمَأ المَسْنُونِ فِيهَا قد يوجِبُ شيئًا مِنَ النُّفْرةِ بسبب تغيُّر الرَّائحة، فكان الأنسبُ المبالغةَ في الأمر بالسُّجود؛ فقال سُبحانه: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: 29].

ولـمَّا كان ذكرُ الملائكةِ بالِاسْمِ الظَّاهر غيرَ قريبٍ؛ نُصَّ عَلَيۡهِ بالِاسْمِ الظَّاهر لبُعْدِ العهدِ.

وجاء تأكيدُ المسنَدِ إِلَيۡهِ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ لأنَّه تقدَّمه مبالغةٌ في الأمر؛ فناسبَهُ المبالغةُ في بيان امتثالِه.

تحديدُ نوعِ الِاسْتِثْنَاءِ بالسِّياقِ:

إلحاقُ إبْلِيس بالمَلَائِكَةِ يعطيه حكمَهم في السُّجود لا جنسَهم

الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ استثناء منقطعٌ على الصَّحيح؛ لأنَّ إبليس ليس مِنَ الملائكة، بدليل قول الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: 50]؛ ولأنَّه مخلوقٌ من نارٍ والملائكة مخلوقون من نُورٍ.

وأمَّا دخولُهُ في الأمر[1]؛ فلأنَّه لَمَّا كان يعمل بعمل الملائكةِ في الظَّاهر؛ كان الأمر شاملًا له؛ فهو ملحَقٌ بهم في الأمرِ، وهو مأمورٌ بالسُّجود لآدمَ قطعًا، بدليل قولِ الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: 12]، وإلحاقُه بهم هو في الأمرِ لا في الجِنسِ.

سِرُّ تَقْدِيمِ الإِبَاءِ عَلَى الِاسْتِكْبَارِ:

المذكُورُ يُغني عن المحذوفِ، وذِكرُ غيرِ اللَّازمِ لازمٌ ضرورةً

قُدِّم الإباءُ على الِاسْتِكبارِ، مع أنَّ الإباءَ متأخِّرٌ عَنۡهُ؛ إذْ يقع الِاسْتِكبار في النَّفس ثُمَّ يترتَّب عَلَيۡهِ الإباءُ في الفعلِ؛ وذلك لأنَّ الإباء مِنَ الأحوالِ الظَّاهرةِ، بخلاف الاستكبار فَهُوَ أمرٌ خفيٌّ؛ لكونه

(1) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/127.

مِنَ الأمورِ النَّفسانيَّةِ[1]، وبيانُ ذلك: أنَّ التَّرتيبَ حَصَلَ كالآتي: استكْبَرَ فأَبى، وأصَرَّ على استكبارِهِ؛ ذلك أنَّه لمَّا كان الاستكبارُ باطنًا لم يُذكرِ ابتداءً؛ لدلالة الإباءِ عليه، ثمَّ عَطَفَ الاستكبارَ على الإباءِ؛ لبيانِ إصرارِه عليه؛ فليس بالضَّرورةِ أن يُصِرَّ كلُّ آبٍ على استكبارِه، فحُذِف الاستكبارُ ابتداءً لدلالة الإباءِ عليه، ثمَّ ذكر الإصرارُ على الاستكبارِ؛ لأنَّه ليس لازمًا بالضَّرورةِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِبَاءُ وَالِامْتِنَاعُ:

بَيْنَ الإباء والامتناعِ: عمومٌ وخصوص مُطلَق؛ فكل إباءٍ امتناعٌ، وليس كلُّ امتناعٍ إباءً؛ وذلك أَنَّ الإباء: شدَّةُ الامتناعِ[2].

وَلِلْبِقاعِيِّ توجيهٌ، وهو أنَّ الإباءَ امتناعٌ عمَّا حقُّه الإجابةُ فيهِ[3]، وهو كسابقِهِ مُؤدَّاهُ أنَّه أعمُّ مِنَ الامتناعِ مطلقًا.

ولِلشِّهَابِ الخفَاجِيِّ توجيهٌ آخَرُ، وهو عمومُ الامتنَاعِ بوجهٍ آخرَ؛ وهو أنَّ الإباءَ امتناعٌ مِنَ الفعلِ مع التَّمكُّن مِنْ أدائه، فالإباء أبلغُ مِنَ الامتناعِ[4].

والأشهَرُ هُوَ الأوَّلُ، ويُمْكِنُ ردُّ القولين الآخرَيْنِ إِلَيْهِ؛ فإنَّ الامتناعَ مِنْ فعلٍ مَا مع التَّمكُّنِ من أدائهِ؛ مُشْعِرٌ بِضَرْبٍ مِنَ الإِعْرَاضِ؛ وهذا مُقْتضٍ لشدَّةٍ في ذلك الامتناعِ، ومِثْلُهُ: الِامْتِنَاعُ عمَّا حقُّهُ أَنْ يُجابَ.

---

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/131.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 58.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/256.

(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/131.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥
فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ
حِينٍ ٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: 35-37]

مُنَاسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا أظهر اللّه ﷻ لِلْمَلَائكةِ فضلَ آدم عليه السلام مِنْ عِلْمِهِ وخِلَافَتِهِ وإسجادهم لَهُ، وأظهر إباءَ إبليس واستكبارَهُ وخُبْثَ طَوِيَّتِهِ؛ بيَّنَ اللّه تعالى من أحوالِ آدمَ عليه السلام ما يُقابلُ ذلك؛ فذكَرَ حَظَّهُ مِنَ المخالفةِ، ولمَّا كان ذِكْرُ المخالفةِ قد يُتَوَهَّمُ مِنْهُ مشاركةٌ للشَّيطانِ فِيهَا؛ بيَّن سُبحانه فضلَ آدمَ عليه السلام في رجُوعِهِ بالتَّوبة كحَالِ رُجُوعِ الملائكةِ بالتَّسْلِيم[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱسْكُنْ﴾: يدُلُّ جذر هذه المادَّة - وهو السِّين والكاف والنُّون- على الاستقرار[2]- ضدِّ الحركة والاضطراب[3]، ومِنْهُ قولُهم لكُلِّ شَيْءٍ مَاتَ: قد سَكَنَ[4]؛ لذهاب حركتِهِ، ومِنْهُ سمِّيت النَّارُ سكَنًا؛ لأنَّها مُعِينةٌ على الاستقرار والإقامةِ؛ إذْ بها يُعدُّ الطَّعامُ ويُستدفأُ ويُستضاءُ[5]، وسكَنَ بالمكانِ: أقامَ فِيهِ[6].

ومعنى: ﴿ٱسْكُنْ أنت وزوجك ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: اتَّخِذاها سكنًا، ومكانًا تقيما فِيهِ[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/281.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سكن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سكن).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقِيّ المؤصَّل: (سكن).
(6) ابن سِيده، المحكم: (سكن).
(7) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/250، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ: 2/208.

2) ﴿رَغَدًا﴾: تدور أكثرُ اشتقاقات مادَّة الرَّاء والغين والدَّال على معنى طِيبِ العيش واتِّساعه[1]، ومن طِيبِ العَيْشِ: أنْ لا يُعْيِيَ صاحبَهُ[2].

وأصل الرَّغد: كَثْرَة الغَيْث[3]، وَيَنْتُجُ عنه خَصْبٌ وسَعَةٌ في الأرزاقِ، يقال: أَرْغَدَ فلانٌ؛ إذا صار في خَصب وَسَعَة[4].

والرَّغَدُ في قوله: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾؛ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ تقديرُه: أَكْلًا رَغَدًا، والمعنى: أَكْلًا هَنيئًا واسعًا دُونَ حسابٍ[5].

3) ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾: تصاريفُ هذه المادَّة -وهي الشِّين والجيم والرَّاء- تدلُّ على تداخل الشَّيء بعضه في بعضٍ مع عُلُوٍّ فيه[6].

ومِنْهُ المشاجرة؛ وهي: المنازعَةُ والمخالفة؛ إِذْ يتدَاخَلُ كلامُ بعضِ المتشاجِرين في بعضٍ، وتَعْلُو أصواتُهُمْ[7].

والشَّجرُ في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: 6] ما له ساقٌ، ويقابله النَّجْمُ، وهو ما ليس له ساقٌ[8]، ففي الشَّجَرِ ارتفاعٌ، وفي فروعِهِ تداخُلٌ.

والشَّجرة في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾: واحدةُ الشَّجَرِ مِمَّا يقومُ على ساقٍ.

4) ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾: مادَّةُ الزَّاي واللَّامان تدُلُّ على انزلاقٍ عَنِ الموضع لاستوائه مع مَلَاسَتِه التَّامَّة[9].

ومِنْهُ الـمَزَلَّةُ؛ وهي: المكانُ الدَّحْض الزَّلِق، وتُطلقُ على الزَّلَلِ فِيهِ[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، ونشوان الحِمْيَرِي، شمس العلوم: (رغد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقِيّ المؤصَّل: (رغد).
(3) ابن سيده، المخصّص: 3/455.
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 46.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 1/515، 516.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شجر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شجر)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (شجر).
(8) الفرَّاء، معاني القرآن: 3/112.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (زلل).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (زلل).

ويطلق الزَّلل في الحقيقة على انزلاق القدم، ويطلق مجازًا على الخطأ في الرَّأْي والنَّظر[1]، يقال: زلَّ الرَّجلُ في دينه؛ إذا أخطأَ فيه، فأتى فيه مَا لَيْسَ لَهُ أَنْ يأتيَهُ، وأَزَلَّهُ غيرُهُ؛ إذا سبَّبَ له ما يَزِلُّ من أجلِهِ في دينٍ أو دنيا[2].

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: حَمَلَهُمَا على الزَّلَلِ بِتَزْيينِهِ وإغوائِهِ[3]، والمرادُ بالزَّلِلِ ههنا: العصيانُ[4].

5) ﴿عَدُوٌّ﴾: العَيْنُ والدَّال والواو تَرجِع اشتقاقاتُها إلى تجاوزٍ في الشَّيْءِ وتقدُّمٍ لِمَا يَنْبَغِي أن يُقتصَرَ عَلَيْهِ[5].

والعَدَاوَةُ: المباعدَةُ والخُصُومَة[6]، والعَدُوُّ: ضدُّ الصَّديق والوليِّ[7]؛ وهو المخاصِمُ المباعِدُ، وقد يُتوسَّعُ في معناه فيُطلق على كلِّ مَن سرَّه مساءَةُ شخصٍ أو غَمَّهُ فرحُهُ[8]، وهذا يكون في الغالب لِلْمُخاصِم.

والعَدُوُّ: اسمٌ يقع على الواحد والمثنَّى والجمع، مؤنّثًا كان ذلك أو مُذَكَّرًا[9].

ومعنى قوله ﷻ: ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: اهبطوا مُتَعَادين[10]، أو: اهبطوا وستكون بينَكُم عداوةٌ.

6) ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: تدلُّ مادةُ القافِ والرَّاءان على ثَبَاتِ ما شأنُه التَّسيُّبُ، وامْتِسَاكُه في قاعٍ عميق[11].

ومِنْهُ القُرارة؛ وهي: مَا لَزِقَ في القِدْرِ من مَرَقٍ أو تابَلٍ مُحْتَرِقٍ أَو سَمْنٍ أَو غَيْرِه[12]، سُمِّي بذلك لاستقرارِهِ أسفَلَها، والقَرارةُ: كلُّ مطمئنٍّ انْدفع إِلَيْهِ المَاءُ، فاستقَرَّ فِيه[13].

(1) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (زلل)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/433.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/524.
(3) الزَّجَّاج، معاني القرآن: 1/115، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 49.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/433.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عدو).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (عدو).
(7) الجوهريّ، الصِّحاح: (عدا)، وابن سيده، المحكم: (عدو).
(8) البهوتيّ، الرَّوض المُرْبِع، ص: 723.
(9) الخليل، العين: (عدو).
(10) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/73.
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكن).
(12) ابن سِيده، المحكم: (قرر).
(13) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قرر).

والـمُسْتَقَرُّ اسمُ مكانٍ مِنَ الفعل: استقرَّ، يقال: قرَّ بالمكانِ واستقرَّ؛ أي: أقامَ فِيهِ، فالـمُسْتَقَرُّ: مكان قرارٍ وإقامةٍ[1].

والمستقرُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكُونَ مصدرًا أوِ اسمَ مكانٍ أو اسمَ مفعولٍ[2]، وهذه المعاني لا تعارُضَ بينَهَا، ويمكنُ حملُ اللَّفظِ عَلَيْهَا جميعِهَا، والمعنى حينئذٍ: ولكم في الأرض استقرارٌ، ومكانُ قرارٍ، ولكم ما استقرَّ مُلْكُكُم عَلَيْهِ وجَازَ تصرُّفكُم فِيهِ[3].

7) ﴿وَمَتَٰعٌ﴾: يدلُّ الجذر اللُّغويّ الميمُ والتَّاء والعَيْنُ على منفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ وقوَّةٍ وكمالِ حالٍ[4].

ومِنْهُ قوله تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود: 3] أي: يَبْسُط عَلَيْكُمْ مِنَ الدُّنيا ويرزقكم مِنْ زينتِها، ويَنْسَأُ لَكُمْ في آجالكم إِلَى وقتِ وفاتِكُمْ ولَا يَسْتَأْصِلكم بعذابٍ[5].

ومِنْهُ: الـمَتَاع؛ وهو في الأَصْل: كلّ شَيْءٍ يُنْتفَع بِهِ ويُتبلَّغ بِهِ ويتزوَّدُ[6]، وهو المرادُ في قوله سبحانه: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

8) ﴿حِينٍ﴾: الحاء والياء والنُّون تدلُّ اشتقاقاتُها على معنى الزَّمنِ، فالحينُ: هو الزَّمان، قليلًا كان أو كثيرًا[7].

ومِنْهُ قولُه سبحانه: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: 88]، أي: بعد زمنٍ لم يُنَصَّ لَهُمْ على أمَدِهِ[8]، وذلك إمَّا عند نزول العذاب عَلَيْهِمْ أو حُلولِ الموتِ بِهِمْ، أو نحو ذلك[9].

والحينُ في قوله تعالى: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ من هذا الباب؛ وهو زَمَنٌ غير مُحَدَّدٍ؛ إِذِ المرادُ: زمنُ انقضاء الأجلِ، وذلك يَخْتَلِفُ مِنْ وَاحِدٍ لآخَرَ.

---

(1) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 1/124، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/207، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/137.
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قرر).
(3) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/207.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (متع)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (متع).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/229، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (متع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حين).
(8) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 256.
(9) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: (5/35)، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 717.

9) ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾: اللَّام والقاف والياءُ تدلُّ على معانٍ، المناسبُ لها ههنا: دِلَالتها على تَوَافِي شيئَين مُتَقَابِلَيْن[1]، ومِنْهُ: التَّلَقِّي؛ وهو استقبالُ ما يُلْقَى[2]، ويُطْلَقُ على استقبالِ مَن جاء من بعيدٍ[3].

وَأمَّا قَوْل الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾؛ فالمرادُ: أنَّه قَبِلَهَا وَأَخذهَا عَنْهُ[4].

10) ﴿كَلِمَٰتٍ﴾: الكاف واللَّام والميم تدور اشتقاقاتها على معانٍ، والمناسب منها لهذا المقام ما دل على النُّطْقِ المُفْهِم، ومِنْهُ: الكَلامُ[5].

والكلمات جمعُ كلمةٍ؛ والكَلِمَةُ في لغة العرب: الجملةُ التَّامَّةُ، وهو معنًى مُطَّرِدٌ لها، كما قال ابن تيميةَ: "ولا يوجد قطُّ في الكتاب والسُّنَّة وكلام العرب لفظُ الكلمة إلَّا والمراد به: الجملة التَّامَّة"[6].

والكلمات في قول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾: اعْتِرَاف آدم وحوَّاء بالذنبِ[7]؛ وهو الواردُ في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

11) ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾: التَّاء والواو والباء تدلُّ تصاريفُها على الرُّجوعِ، يقال: تابَ مِنْ ذنبه؛ أي: رجع عَنْهُ[8]، وتاب إلى اللهِ؛ عادَ إِلَيْهِ بالطَّاعَةِ بعدَ المَعْصِيَةِ، وتاب الله على العبد؛ رجع إِلَيْهِ بالمغفرة[9].

والتَّوابُ يقع وصفًا لِلْعَبْدِ، ويقع اسمًا ووصفًا لله تعالى.

فأمَّا (التَّوابُ) باعتبارِهِ وصفًا للعبد؛ فهو كثيرُ التَّوبةِ، كما تدلُّ عليه صيغةُ المبالغَةِ، ومِنْهُ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لقي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (لقى).
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 2/138.
(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/38.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كلم).
(6) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 12/104-105.
(7) ابن سِيده، المحكم: (كلم).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (توب).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 14/236.

وأمَّا التَّواب في حقِّ اللّه سبحانه، وهو الوارد في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ فالمرادُ: أنَّه كثير التَّوبة على عباده، يوفِّقُهم لها ويقبلُهَا مِنْهُمْ[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قالَ اللّه سبحانه لآدم عليه السلام: اسكُن أنت وزوجُك حوَّاء الجنَّة، وكُلا مِن ثمارها أكلًا واسعًا هنيئًا لا عَناءَ فِيهِ ولا ضِيقَ، في أي مكانٍ شئتُمَا فِيهَا، وإيَّاكُما أن تقربَا هذه الشَّجرةَ المعيَّنَةَ أَوْ نَوْعَهَا؛ لئلَّا يَجُرَّكما ذلكَ إلى الأكل مِنْهَا، فتَصِيرا ظالـمَيْنِ لأنفسكما بالوقوعِ في الذي نهيتُكُم عَنْهُ.

فأغواهما الشَّيطانُ وتسبَّبَ في خطئِهما وهفوَتِهمَا، فأخرجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ والعيش الرَّغيد، وأَمَرَهُم اللّه سبحانه بالهُبُوطِ إلى الأرض - آدم وحواء والشيطان -، وأعلمهم بأنه سَتَكُونُ ثَمَّة عداوةٌ بين آدَمَ وذُرِّيَّتِهِ وإبليسَ وذُرِّيَّتِهِ، وأنَّ لَهُمْ في الأرض موضعَ استقرارٍ وما يسْتَمْتِعُونَ بِهِ مِنْ أكلٍ ولُبْسٍ وأُنْسٍ وغير ذلك، إلى وقت انقضاء آجالهم.

فَأَخَذ آدَمُ عليه السلام بالقَبُولِ كَلِمَاتٍ أَلهَمَهُ اللّه تعالى الدُّعاءَ بِهِنَّ؛ ليكُون ذلك مِنْهُ توبةً واستغفارًا، وهذه الكلماتُ هي المذكورة في قوله جل جلاله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]؛ فقَبِلَ اللّه توبتَهُ وغفَرَ لَهُ؛ فإنَّه عز وجل كثير التَّوبة على عباده، يوفِّقُهم لها ويقبلُهَا مِنْهُمْ، وهو سُبْحَانَهُ رَحِيمٌ بِهِمْ[2].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ عَطْفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ:

الشُّروعُ في بيانِ التَّكليف إثر الشُّروع في بيانِ الخلافة

عُطِفَ قولُ اللّه عز وجل: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ على قولِه سُبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ من باب عطف القصَّة على القصَّةِ؛ لكونهما مشتركَين في ذكر قِيلِ اللّه جل جلاله لبعض خَلْقِهِ وإن اختلَفَ جنسُ المخلوقِ، فالأوَّلُ: مَلَكٌ، والثَّاني:

(1) سعيد القحطانِّي، شرح أسماء الله الحسنى، ص: 110.

(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/38، والثَّعالبي، الجواهر الحسان: 1/221، 222، والسُّيوطي، تفسير الجلالين، ص: 9، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 49، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/198، 199، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 6.

بَشَرٌ، واشتركت الآيتان في تَعدادِ نِعَمِ إكرامِ اللّٰه تعالى لآدمَ عليه السلام[1]، وفائدةُ العَطْفِ تكمُنُ في بيانِ ما يترتَّبُ على آدمَ من التَّكاليف؛ فإنَّ إكرامَه ليس بمعزِلٍ عنِ التَّكليفِ، والنَّهيُ عن الأَكْلِ من الشَّجَرَةِ بدايةُ التَّكليفِ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِضَمِيرِ الجَمْعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْنَا﴾:

عَظَمَةُ مِنَّةِ الله تعالَى على آدَمَ عليه السلام بإسْكانِه وزَوْجِه الجنَّةَ

وفي التَّعبير بالنُّون في قوله سبحانه: ﴿وَقُلْنَا﴾ إيماءٌ إلى تشريفِ القول وتعظيمِه والاهتمام بِه[2]، وفِيه تَنْبيهٌ إلى عَظَمَةِ الأمرِ المذكورِ بَعْدَهُ، وأنَّه حقيقٌ بأَنْ تتوجَّهَ العنايةُ إِلَيْه.

نُكْتَةُ تَصْدِيرِ الكَلَامِ بِنِدَاءِ آدَمَ عليه السلام:

إلقاءُ المسؤوليَّةِ على الرَّجلِ، وجعلُ زَوْجِه تابِعَةً لَهُ

تَصْدِير الكلام بالنِّداء في قول اللّٰه جل جلاله: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ﴾ دالٌّ على الاهتمام بتلقِّي المأمور به، وفِيه تحريكُهُ لما يُخاطَبُ به؛ لكونه مِنَ الأمور التي يَنْبَغِي أن يتوجَّهَ إِلَيْهَا[3].

وتخصيصُ أصل الخطابِ بآدَمَ عليه السلام مُشعِرٌ بأصالتِهِ في تعاطِي المأمورَاتِ[4]، فهو مقصود بالخطاب أصلًا وزوجُهُ تَبَعٌ لَهُ.

فِي نداء آدم باسمه رَفعُ مَكَانته فِي المَلإِ الأَعْلَى:

نداءُ اللّٰه تعالى لآدم عليه السلام قبل تخويلِه سُكْنَى الجنَّة تَنْوِيهٌ بِذِكْرِ اسمِه في الملأ الأعلَى؛ إذ ذلك يَسْتَرْعِي أسماعَهم فيتطلَّعُونَ لِمَا سَيُخاطَبُ بِهِ[5].

غرضُ الأَمْرِ فِي ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ الامتنانُ:

لازمُ الأمرِ في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ﴾ يُراد به الامْتِنانُ عَلَيْه بالتَّمكين والتَّخويل، ولازمُ ذلك الإباحةُ؛ فإنَّ الامتنانَ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/428.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/102.

(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/234.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/90، والقُوجَوِيّ، حاشية زاده على البيضاويّ: 1/537.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/428.

لا يقع إلَّا بالمباح، ولا يُرادُ به أمرُ إيجاب؛ إذْ سعيُه بنفسه لسُكْنَى الجنَّة لا قدرةَ لَهُ عَلَيْه، فلا يدخُل في الإيجاب[1].

سِرُّ الأمرِ بالإفرادِ دون التَّثنيةِ:

بيانُ المقصودِ بالخِطَابِ أصالةً وتبعًا

خُوطِبَ آدمُ عليه السلام بقول اللّه تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ ثُمَّ عُطِفَ عَلَيْهِ زَوْجُهُ بقوله سبحانه: ﴿أَنتَ وَزَوۡجُكَ﴾، ولم يخاطبها معه بالتَّثنية: (اسْكُنَا)؛ لِلْإِيماء إلى أنَّهُ هو المقصودُ بالحكم، وأنَّ المعطوف - وهي زوجُهُ - تبعٌ لَهُ، فَفيهِ التَّنبيه أنَّه لولاهُ لَمَا كانَت مأمورةً بذلكَ، كما تُفرِّق العربُ بين قول القائلِ: افعل أنت وقومُكَ كذا، وبين: افعلوا كذا[2].

فَائِدَةُ الضَّمِيرِ المُنْفَصِلِ:

صحَّةُ العطفِ، وتكريمُ آدمَ بتخصيصِه بالضَّمير

جيءَ بالضَّميرِ المنفصِلِ ﴿أَنتَ﴾ في قوله جل جلاله: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ لسببٍ لفظيٍّ وآخر دلاليّ: أمَّا اللفظيُّ؛ فليصحَّ العطفُ على الضَّميرِ المستترِ المرفوع في ﴿ٱسۡكُنۡ﴾[3]، وفيه تقريرٌ لمدلولِ المعطوفِ؛ "لئلا يكون تابِعهُ المعطوف عليه أبرزَ مِنْهُ في الكلام"[4].

وأمَّا الدّلاليّ؛ فهو تكريمُ آدمَ عليه السلام وتخصيصُه بالضمير، واندرجتِ الزَّوجُ في الأمرِ -وإن كان الغائبُ لا يُؤمَرُ بلفظ الحاضرِ-؛ تغليبًا لِلْحَاضِرِ وهو آدمُ عليه السلام.

معنى اللَّامِ فِي كلمةِ ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾:

تعريفُ الجنَّةِ باللَّامِ لا يُرادُ به الاستغراقُ؛ إذْ سكونُ جميع الجِنَانِ محالٌ، فتكون اللَّامُ لِلْعَهْدِ الحضوريِّ، وهي الجنَّةُ التي عَرَفَهَا آدمُ عليه السلام[5].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/252، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/428.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/152، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/72.
(3) ابن عقيل، شرح ألفيَّة ابن مالك: 238-3/236.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/428.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/253.

نُكْتَةُ التَّثنيةِ بعد الإفرادِ:

الأمر في قوله جَلَّ وعلا: ﴿وَكُلَا﴾ يُراد به الامتنانُ، ووُجِّه الخطابُ في قوله سبحانه: ﴿وَكُلَا﴾ لآدمَ وحوَّاءَ معًا، بخلاف قوله قبلُ: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾؛ فإنَّه وجَّه الخطابَ أصالةً لآدمَ عليه السلام وجعلَ زوجَهُ تابعةً لَهُ فيه؛ وذلك لِتعميمِ التَّشريفِ والتَّرفيه، ولِلْمُبَالغةِ في إزالة الأعذار، والإيذانِ بتساويهِمَا في مباشرةِ المأمور به؛ "فإنَّ حوَّاءَ أُسوةٌ لَهُ عليه السلام في الأكلِ، بخلاف السَّكنِ؛ فإنَّها تابعة لَهُ فيهِ"[1].

استقلالُ حوَّاء عن زوجِها في الأكلِ، بخلافِ السُّكنى

فنُّ الِاسْتِخْدَامِ:

الضَّمير في ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ راجعٌ إلى الجنَّة على حذف مضافٍ، والتَّقدير: كُلَا مِن مطَاعِمِهَا؛ ففي الآية استخدامٌ[2]؛ فإنَّ الاسمَ الظَّاهرَ لِلجنَّةِ يُرادُ بها دارُ الثَّوابِ نفسُهَا، وعاد عَلَيْهِ ضميرٌ على معنَى المطاعِمِ التي فِيهَا، ونُكْتَةُ الاستخدام: الإيذانُ بإباحة الأكلِ لَهُمَا مِنَ الجنَّة على سبيل التَّوسعةِ[3]، فكلُّ ما في الجنَّةِ مُبَاحٌ لهما أَكْلُهُ.

إِبَاحَةُ الأَكْلِ مِنَ الجَنَّةِ لآدمَ وحوَّاء على سَبِيلِ الاتِّساعِ لا الحَصْرِ

ويقوِّيه وجهان:

أحدهما: قولُهُ بعدُ: ﴿رَغَدًا﴾، أي: أكلًا واسعًا هنيئًا.

والآخر: قولُهُ: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، ففيهِ عُمومُ الإباحةِ والإذنِ؛ إذْ إنَّ مشيئَتَهُمَا لا تنحَصِرُ[4].

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

وَرَدَ الفعل (كُلَا) مقرونًا بالواو ههنا، وورد مقرونًا بالفاء في سورة الأعراف في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ

دِقَّةُ التَّعْبِيرِ القُرْآنِيّ في استِخْدَامِ حرُوفِ المَعَانِي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/90.
(2) الاستخدام: أَنْ يُذكر لفظٌ بمعنًى، ثمَّ يُعادَ عليه ضميرٌ أو إشارةٌ بمعنًى آخَرَ، ينظر: أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص: 239.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/255.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/432.

﴿ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ [الأعراف: 19]؛ وذلك لأنَّ الأكلَ من موضع ما لا يكون إلَّا بعد مطلَقِ الدُّخول، سواءٌ أكان الدُّخول دخولَ سُكْنَى أم لا، وآية الأعراف وردت بعد قوله سبحانه لإبليسَ: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ [الأعراف: 18]، ثُمَّ جاءَ الأمرُ لآدمَ عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، فكان معناه: دخولَ سُكْنَى؛ وهو دخولُ إقامةٍ لا مطلق الدُّخول، فكان الأنسبَ مَعَهُ العَطْفُ بالفَاءِ؛ إذْ إنَّ الدُّخول متقدِّم على الأكل، ويتأتَّى في مطلقِ الدُّخولِ التَّعقيبُ، بخلاف آية البقرة؛ فإنَّه لم يتقدَّمها ما يدلُّ على دخولٍ سابقٍ، فلم يصلح فِيهِ العَطْفُ بالفاءِ؛ لاستدعاء ذلكَ زمنًا ممتدًّا[1].

بَلَاغَةُ الكِنَايَةِ:

النَّهيُ عن قربان الشَّجَرَةِ أشدُّ من النَّهي عن الأكل منها

نهَى الله سبحانه وتعالى آدمَ عليه السلام وزوجَهُ من قربان الشَّجرةِ، والمقصود: النَّهيُ عن الأكلِ مِنْهَا، فيكون النَّهْيُ عَنِ القربان من باب الكِنَايةِ لا من بابِ المجازِ المُرْسَلِ بعلاقة السَّبَبِيَّة؛ لصحَّة إرادة المعنى الأصليِّ وهو النَّهي عن ذاتِ القرْبَان، فإنَّ السَّببَ الدَّاعيَ إلى الشّرِّ مَنْهِيٌّ عَنْهُ[2].

ونكتةُ التَّعبير بالكناية: المبالغةُ في التَّحذير من ذلك؛ ولأنَّ قربانَها ينشأُ عَنْهُ داعيةٌ وميلٌ يُلهي القلبَ عمَّا هو مقتضَى الشَّرع والعقل[3].

فائِدَةُ الإِتْيَانِ بِاسْمِ الإِشَارَةِ ﴿هَـٰذِهِ﴾:

تصويرُ المشْهدِ للمخاطَبِ؛ ليعلَمَ تعيينَ الشَّجرة لآدَمَ حينَ أَكَلَ منها

الإتيانُ باسم الإشارةِ ﴿هَـٰذِهِ﴾ للدّلالة على حضورِ هذه الشَّجرةِ المشارِ إلَيْهَا؛ إذِ الأصلُ في اسم الإشارة أن يكونَ لحاضرٍ، ونُكْتَةُ الإتيان باسم الإشارَةِ هَهُنا: تمييزُ المشَارِ إلَيْهِ أكملَ تَمْيِيزٍ[4]، وفائِدَةُ

(1) الخطيب الإسكافيّ، درَّة التَّنزيل: 1/222، 225، والكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 70، والفخر الرَّازيّ، التَّفسير الكبير: 3/453.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/72، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/432.

(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/72، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/432.

(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/440.

ذلك: تصويرُ المشْهدِ للمخاطَبِ؛ لِيعلَم أنَّ آدَمَ عليه السلام قد رأى الشَّجرةَ عيانًا، ولم يلتبِس عليه الأمرُ حين الأكلِ منها.

اللَّامُ فِي ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾ للعهدِ الحضوريِّ:

التَّوْسِعَةُ علَى آدَمَ في الِانْتِفَاعِ بِثَمَرِ الجَنَّة

اللَّام في الشَّجرةِ لِلْعَهدِ، أي: شجرةٌ وحيدةٌ وَحْدَةً شخصيةً، ويحتمل أن تكُون اللَّامُ لِلْجِنْس، فتكون الوحدةُ نوعيةً، والمرادُ: شجرةٌ مِن نوعها.

واسْتَظْهَرَ الطِّيبيُّ الأوَّل؛ لأنَّه أظهرُ لإزاحة العُذْرِ وأبلغُ في الدّلالة على التَّوسعة في الِانْتِفَاعِ بثَمَر الجنَّة[1].

التَّعْبِيرُ بِ ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دُونَ (فَتَكُونَا ظَالِمَيْنِ) للمبالغةِ في التَّحذيرِ:

جاء النَّظم القرآنيُّ ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يَرِدْ (فَتَكُونَا ظَالِمَيْنِ)؛ للدّلالة على شِدَّةِ التَّحذيرِ من مخالفةِ أمرِ اللّٰه تعالَى؛ فإنَّ الاقترابَ من الشَّجرةِ عصيانًا لأمرِ اللّٰه تعالَى هو ظلمٌ للنَّفسِ، وهذا التَّعبيرُ أفادَ الإغراقَ في الظُّلْم، كما فرَّق أهلُ العلم بين قول القائل: زيدٌ مِنَ العُلَماء، وقوله: زيدٌ عالمٌ؛ فإنَّ الأوَّلَ أبلغُ؛ لاقتضائِهِ أنَّه غارقٌ في العلم أبًا عَنْ جدٍّ[2].

دلالة الفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾:

التَّعقيبُ بالنسبةِ للشَّيطانِ لا بالنسبة لهما

الفاء في قوله سبحانه: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ إمَّا أن تكون تفريعيَّةً مجرَّدَةً عن دلالة التَّعقيب، وإمَّا أن تكونَ دَالَّةً على التَّعقيب، ومعناه في هذا السِّياقِ ترقُّبُ الشَّيطانِ لهما، فبمجرَّد تمكُّنِه من الوسوسةِ أزلَّهما، فالتَّعقيبُ له لا لهما. أو يكون معناه: وإن وقع متراخِيًا بعد المُدَّةِ المقصودةِ مِنْ سكنى الجنَّة؛ فإنَّه كالمدَّةِ اليسيرةِ[3].

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/441، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/432.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/236.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/433.

نُكْتَةُ الاسْتِعَارَةِ:

والإِزْلَالُ في قوله سبحانه: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ يُرادُ به: حملُهُما على الزَّلَلِ؛ وهو هنا العصيانُ[1].

وأصلُ الزلَّلِ أن يكون في القدَم، وإطلاقُهُ على صدور الخطيئة مجازٌ بالِاسْتِعَارَةِ؛ فقدْ شُبِّهَتْ حركَةُ الرِّجَلَيْنِ على الأرض دون اختيارٍ لرخاوةٍ في الأرضِ بسبَبِ طينٍ أو نحوِ ذلك؛ بِصُدور الخَطيئةِ والغلطِ المُضِرِّ، بجامع وقوعِ الضَّرَرِ في كُلٍّ مِنْهُمَا، فحُذف المُشَبَّهُ بِهِ ورُمزَ له بشيءٍ مِن لوازمِه، على طريقة الِاسْتِعَارَةِ بالكِنَايةِ. وفائدتُها: إبرازُ الأمرِ المعنويِّ في قالبِ المحسوسِ؛ ليكون أظهرَ في الدّلالة وأشدَّ تنفيرًا من مُواقعةِ الخطَايَا، كما يتحاشا المَرْءُ زَلَلَ قَدَمَيْه.

التَّنْفِيرُ مِنْ مُواقعةِ الخطَايَا تشبيهًا لمن يقعُ فيها بمن لم تتمكَّن قدماه من الأرض

التَّكَامُلُ الدّلَالِيُّ بَيْنَ قِرَاءَةِ ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ وَقِرَاءَةِ ﴿فَأَزَالَهُمَا﴾:

قرأ العشرةُ عدَا حمزةَ ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، وأما حمزةُ فقرأ ﴿فَأَزَالَهُمَا﴾ بتخفيف الزَّاي وزيادةِ ألف بينها وبين اللَّام[2].

فأمَّا قراءة الجمهور ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾ فمعناها: حَمَلَهُما على الزَّلل وأوقعهما فِيه، و(عَنْ) لِلسببيَّة، والضَّمير يعود إلى الشَّجرةِ؛ إذ هي أقربُ مذكور، أي: حملهما الشَّيطانُ على الزَّلَّةِ بسببها[3].

وأمَّا قراءة حمزة ﴿فَأَزَالَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾؛ فَبِمَعْنَى: نحَّاهُما وأبعدهما، والضميرُ راجعٌ إلى الجنَّة.

التَّنبيهُ على خطرِ البدايات؛ فبدايةُ الزَّلَلِ أدَّت إلى الإزالةِ من الجنَّة

ويظهرُ التَّكاملُ الدّلاليُّ بين القراءتين في حَمْلِ قراءة الجمهورِ على البدايةِ؛ ذلك أنَّ أوّلَ ما وَقَعَ هو الحملُ على الزَّلَلِ والوقوعُ في الخطيئةِ،

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/433.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/211.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/262.

وحَمْلِ قراءةِ حمزة على النِّهاية؛ ذلك أنَّهما لـمَّا عَصَيَا أُزيلا عن الجنَّة، فكانتِ البدايةُ من الشَّجرَةِ، وكانت النِّهايةُ من الجنَّة.

دلالة اللَّامِ فِي ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

اللام في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ للعهدِ الكنائيِّ، وهو إبليس، وإنما كان عهدًا كنائيًّا لا صريحيًّا مع تقدُّمِ ذكرِه؛ لأنَّ تقدّمَ ذكره لم يكن باللفظ الذي هو مدخول اللامِ ههنا، بل بلفظٍ آخرَ.

نُكْتَةُ الإِبْهَامِ بِالِاسْمِ المَوْصُولِ:

تورِيثُ السَّامِعِ الحسرةَ على الجنَّةِ ليحرِصَ على الطَّاعةِ وسُلَّمِ الوصولِ

(مَا) في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ اسم موصولٌ بمعنى الذي، والمعنى: فأخرجهما من الذي كانَا فيهِ، والمرادُ بالموصولِ وصلتِهِ: تعظيمُ ما كانا فيهِ مِنَ النَّعيم[1]، وذلك أنَّ من أساليب البلاغة في الدّلالة على عِظَمِ الشيءِ وفخامَتِهِ: التَّعبيرَ عَنْهُ بلفظٍ فيه إبهامٌ؛ لتذهب النَّفسُ في تصوُّرِ عظمتِه وكماله كلَّ مَذْهَبٍ[2]، وفائدةُ ذلك توريثُ الحَسْرَةِ عند السَّامعِ فيتمنَّى أنْ لم تقعِ الزَّلَّةُ، فيقودُه ذلك إلى طريقِ الطَّاعةِ، وسُلَّمِ الوصولِ.

سِرُّ العَطْفِ بِـ (الوَاوِ) دُونَ (الفَاءِ):

مِنْ أَفَانِينِ البَلَاغَةِ قَرْنُ النَّظِيرِ بِنَظِيرِهِ

عُطِفَ قولُه سبحانه: ﴿وَقُلۡنَا﴾ بالواو دون الفاءِ؛ لأنَّ هذا القول ليس متفرِّعًا عَنِ الإخراج مِنْ نعيم الجنَّة، بل هو متقدِّمٌ عَلَيْهِ زمَنًا، وإنَّما ذُكِرَ الإخراج قبلَهُ؛ لاقتضاء السِّياقِ لَهُ؛ بسَرْدِ ما فعله الشَّيطانُ بآدمَ عليه السلام[3].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالجَمْعِ فِي ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾:

تحفيزُ الهِمَمِ للإيمانِ والعملِ على دخولِ الجنَّةِ، ودفعِ العجزِ واليأسِ

وُجِّه الأمرُ للجمعِ في قولِه: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ لأنَّ المرادَ هبوطُ آدم وحوَّاء وذُرِّيَّتِهما؛ فإنَّ خروجَهُما مِنَ الجنَّة يقتضي عدمَ وجودِ نسلٍ لَهُمَا

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/434.

(2) محمد علي جميل، صفوة التَّفاسير: 1/44.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/434.

فِيهَا، فكان إهباطُهما إهباطًا لَهُمَ، وهذا أَدْعى لوجودِ الحسْرَةِ المُلهبَةِ للعملِ للجنَّةِ، وأمتنُ في أملِ العَودَةِ لها، ففيه زرعٌ لبُذُورِ الأملِ لدى المخاطَبين، بما يدفعُ عنهم الشُّعورَ بالعجزِ واليأسِ من دُخولِ الجنَّة.

واستظهر ابنُ عَاشُور أنَّ الضَّمير وإن كان لِلْجَمْع؛ فإنَّه يُراد به التَّثنيةُ، وعُدِلَ عن التَّثنية إلى الجمع؛ لاستثقال توالي المثَنَّيات إظهارًا وإضمارًا، فيكون: "وكُلَا مِنْهَا رغدا حيث شئتُما ولا تقربا هذه الشَّجرة فتكونَا مِنَ الظَّالمين، فأزلَّهما الشَّيطان عَنْهَا فأخرجهما مِمَّا كان فِيهِ وقلنا اهْبِطا..."، والعَرَبُ تكرَهُ كَثْرَةَ توالي ذلك[1]، ومِنْهُ قولُ امْرِئِ القيس في معلَّقته[2]:

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ *** يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

توجيهُ فَصْلِ جُمْلَةِ ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ عَمَّا قَبْلَهَا:

تحذيرُ النَّاس مِن مآلِ المعاصي، وهو العداوةُ وعدمُ الأمانِ

جملةُ ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ يحتمل أن تكون حالًا، والتقدير: اهبطوا مُتَعَادِينَ[3]، ويحتمل أن تكون جملةً مستأنفَةً استئنافًا بيانيًّا؛ أي: واقعةً في جواب سؤال مقدَّرٍ[4]؛ وهو: ما يكون حالنا بعد هذا الإهباط؟

فجاء الجواب: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾، وفائدة ذلك: تعليمُ النَّاسِ مآلَ المعصيةِ، وأنَّ الطَّاعةَ تقودُ إلى السِّلمِ والأمانِ.

دلالة اللَّامِ فِي ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

اللَّامُ في كلمةِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ لِلْعَهْدِ العلميِّ؛ وهي الأرضُ التي استقرَّ عَلَيْهَا آدمُ عليه السلام واستقرَّت عَلَيْهَا ذرِّيتُهُ مِنْ بعدِهِ، وذلك بتذكيرِ المخاطَبين بالأرضِ التي ذَكَرَ اللّه تعالَى أنَّه سيجعلُ فيها خليفةً؛ لتطبيقِ شرعِه.

دلالة حَرْفِ العَطْفِ (الفَاءِ) فِي ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾:

تعليمُ النَّاسِ المُبَادَرَةَ إلى التَّوْبَةِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ دالَّةٌ على التَّعقيبِ كما هو الأصلُ فِيهَا، وفي ذلك دلالة على سُرعة إلهام اللّه تعالى لَهُ المبادرَةَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/435.
(2) عبد الرَّحمن المصطاوي، ديوان امرئ القيس، ص: 24.
(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/73.
(4) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/445.

بالتَّوبة[1]، ومبادرةُ آدمَ ﵇ لطلب العفوِ ولِلْعَمَلِ بِتلك الكلماتِ حالَ تلقِّيها مِن ربِّه تبارَكَ وتعالى.

توجيه العبادِ إلى إكْرَامِ الكَلِمَاتِ المُتَلَقَّاةِ عَنِ الله تعالى

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالتَّلَقِّي:

التَّعبير بالتلقِّي في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ﴾ دون (أَخَذَ) ونحوِهَا؛ لنُكْتَتَين[2]:

إحداهما: أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ مرتكِبَ المعصيةِ في نوعٍ مِنَ البُعْدِ؛ إذ إنَّ التلقِّيَ استقبالُ مَن جاءَ مِن بعيدٍ.

والأخرى: أنَّ التَّلَقِّيَ وإن كان يُطلق على استقبال مَن جاءَ مِن بعيدٍ؛ فإنَّ الذي يُستقبَلُ مِن بعيدٍ هو من يَعِزُّ شأنُهُ عندَ المستقبِلِ، ويكون بأنواعٍ مِنَ الإكرامِ؛ فيكون إطلاقُ التَّلقِّي لِلْكَلِمَاتِ مُشعرًا بإكرامِ آدمَ ﵇ إيَّاها، وبكونِ الكلماتِ مكرُمةً لهُ؛ إذْ كانت سببًا في عفو اللّه تعالى عَنْهُ.

التَّلَقِّي يَقْتَضِي مُشَارَكَةَ أَمْرَيْنِ؛ كُلٌّ مِنْهُمَا مُتَلَقٍّ وَمُتَلَقًّى

تَكَامُلُ الدّلالة بَيْنَ القِرَاءَتَيْنِ:

قَرأ جمهور القرَّاء: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ برفع (ءَادَمُ) على الفاعليَّةِ، ونصبِ (كَلِمَٰتٍ) على المفعوليَّةِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ بالعكسِ؛ فنصب (ءَادَمُ) على المفعولية، ورفع (كَلِمَٰتٍ) على الفاعليةِ[3].

فأما قراءة الجمهور؛ فلأنَّ العرب تقول: تلقّيتُ كذا من فلانٍ؛ أي: قَبِلْتُهُ، فيكون آدمُ ﵇ قابلًا، والكلماتُ مقبولةً.

وأما قراءة ابن كثيرٍ؛ فوجهها: أنَّ العرب تقول: تلقَّيتُ فلانًا وتلقَّاني، والمعنى عندهم واحدٌ؛ إذْ إنَّ من لقِيتَهُ فقد لَقِيَكَ[4].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/105.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/138.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/211.
(4) ابن زَنْجَلَة، حجَّة القراءات، ص: 94، 95، وابن خَالَوَيْه، الحُجَّة في القراءات السَّبع، ص: 75.

ووجه التَّكاملِ بين القراءَتَيْن؛ أنَّ آدمَ عليه السلام لـمَّا تلقَّى الكلماتِ تلقَّتْه؛ فمعنى تلقِّيه لها استقبَالُه لها، ورِضاه بها، ومعنى تلقِّيها له انطباقُها عليه بشرُوطِ القَبولِ، فقامَتِ القراءَتان مَقامَ المشَارَكةِ بين فاعِلَيْن.

دلالة التَّنْكِيرِ فِي قَوْلِه: ﴿كَلِمَٰتٖ﴾:

تعظيمُ الكَلِمَاتِ المُتلقَّاةِ عن الله تعالى

نُكِّرَت ﴿كَلِمَٰتٖ﴾ إشارةً إلى عَظَمَتِهَا؛ فهي كلماتُ عفوٍ ومغفرةٍ ورِضًا؛ بدليلِ استعمالِ فِعْلِ التَّلَقِّي معها؛ وهو فعلٌ دالٌّ على الإكرام. ويقوِّيه قَرْنُ قولِه سبحانه: ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ بالفاءِ، وهي سببيَّةٌ، ولو كانت تلك الكلماتُ كلماتِ توبيخٍ وزجْرٍ؛ لَمَا صحَّ التَّسَبُّبُ ههنا[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالإفرادِ دون التَّثنيةِ:

الاكــتِــفــاءُ بمتابَعةِ المرأةِ لزوجِها رعايةً لسترِها وعظيمِ حُرمتِها

ذُكرت توبةُ آدمَ عليه السلام وحده دون حوَّاءَ، مع أنَّ التَّوبةَ صادرةٌ عنْهُمَا معًا، كما هو الواردُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]؛ اكتفاءً بذِكْرِ متابعتِهَا لَهُ في سائرِ الأحوالِ، وهذا مِنْهَا.

ولأنَّ المرأةَ مستورةٌ ولها حُرمةٌ؛ فأرادَ اللّه تعالى لها السَّتْرَ فلم يذكرها في المعصية[2].

وثَمَّة نُكْتَةٌ أُخرى وهو أنَّ "الكلامَ جرى على الابتداء بتكريم آدمَ وجَعْلِه في الأرض خليفةً، فكان الاعتناءُ بذكر تَقَلُّبَاتِه هو الغرضَ المقصودَ"[3].

سِرُّ حَذْفِ فِعْلِ الرَّحْمَةِ:

التَّنبيهُ بالنَّتيجة على العِلَّةِ؛ فتَوْبَةُ الله على عِبَادِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ بِهِمْ

ذُكرت توبةُ اللّه سبحانه على آدمَ عليه السلام بالفعل (تَاب) في قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ دون ذِكْرِ رحمتِهِ به؛ اكتفاءً بذكرهَا في فاصلة الآيةِ، والتَّقدير: فتَلَقَّى آدمُ مِن ربِّه كلماتٍ فتاب عَلَيْهِ ورحِمَهُ؛ إنَّه هو التَّواب الرَّحيم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/438.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/325.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/438.

تعليلُ التَّوبَةِ بإلحَاقِ الخَاصِّ بالعامّ

بلاغةُ الفاصِلَةِ القرآنيَّةِ:

جاءَ التَّعبير في ختامِ الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهو إطنابٌ بالتَّذييلِ، وهو تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرى المثلِ؛ لأنَّه يُفيدُ ما أفادتْه الجملةُ قبلَهُ مَعَ ضَميمَةِ التَّعميم؛ إذْ قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾؛ فيه ذكرُ توبتِهِ سبحانه على آدمَ ﷺ، أمَّا قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ ففيه ذكرُ عموم توبتِهِ على مَن تابَ إِلَيْهِ، وفائدة التَّذْييلِ: تعليلُ توبةِ اللّه تعالى على آدَمَ ﷺ.

تعْلِيلُ الأَسْمَاءِ بالأَسْمَاءِ؛ فإنَّ قَبولَ التَّوبةِ بسببِ الرَّحمَةِ

فائِدَةُ قرْنِ اسمِ التَّوابِ بالرَّحيم:

قَرْنُ اسم اللّه التَّوَّاب باسمه الرَّحيم؛ لكون الرَّحيم جاريًا مجرى العلَّةِ للتَّوابِ؛ فإنَّ قَبُولَ اللّه سبحانه توبةَ عبادِهِ هو مِن رحمته بِهِمْ[1].

سِرُّ تَأْكِيدِ الجُمْلَةِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ المُؤَكِّدَاتِ:

أُكِّدَت الجملةُ - ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وهي جملة خبريَّةٌ - بأربعةِ مؤكِّدات:

أوَّلها: (إنَّ)، في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾.

ثانيها: القصر، وذلك بتعريف جُزأي الجملةِ.

ثالثها: ضَمير الفصل (هُوَ)؛ فإنَّه يقوِّي القصرَ في الجملةِ إذا وُجِدَ طريقٌ للقصرِ فيهَا -كما في هذه الآية-.

رابعُها: اسميَّة الجملة؛ فإنَّها آكدُ مِنَ الفعليَّةِ؛ لِمَا تُفيده مِنَ الثَّباتِ والدَّوامِ.

وفي تأكيدِهَا هذا التَّأكيدَ حثُّ العبادِ على التَّوبة عمَّا بدَرَ منهم من الزَّلَلِ والخطايَا؛ فإنَّ توبة اللّه تعالى ليست مختصَّةً بآدم ﷺ، بل تعمُّ جميعَ التَّائبينَ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/439.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السُّكْنَى وَالإِقَامَةُ:

السُّكنى أخصُّ مِنَ الإقامة مطلقًا؛ فالسُّكْنَى هي إقامةٌ مع مكثٍ طويلٍ؛ إذْ هِيَ الإقامة التي يَسْكُنُ بها المرءُ ويستقرُّ فِيهَا ويقيمُ فِيهَا شؤونَهُ، وهذا يقتضي زَمَنًا ممتدًّا، بخلاف الإقامةِ فتصدُقُ بأقلِّ الأزمِنَةِ[1].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/103، و3/18، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/202.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا أعلم اللّه تعالى آدمَ وزوجَهُ بأنّه يَبتليهم بالطاعة، وأنّه يُجازيهم بالجنّة عليها وبالنّار على تركها، وأنَّ هذا الابتلاءَ وقع عند الهُبوط على الأرض بالعداوةِ اللّازمةِ من إبليسَ لهما، كأنَّه قيل: ما وَجهُ الخلاصِ من آثار هذه العداوة؟ فجاء الجوابُ في هذه الآيةِ بأنَّه: اتِّباع هُدى اللّهِ سبحانَه وشرعِه في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱهْبِطُواْ﴾: الهاء والباء والطَّاءُ تدُلُّ اشتقاقاتُها على معنى الانحدار[2]، وقيَّده الرَّاغبُ بكونِه على سبيل القَهْرِ، ومنه: هبوطُ الحجَرِ، وإذا استُعمل الهُبوطُ في حقِّ الإنسان؛ فذلك على سبيل الاستخفاف[3].

والهبوطُ في قول اللّه تعالى ﴿ٱهْبِطُواْ﴾: هو النُّزولُ من علوٍ إلى سُفْلٍ، ومِن عزٍّ إلى ذُلٍّ[4].

2) ﴿خَوْفٌ﴾: مادَّةُ الخاء والواو والفاءِ تدلُّ تصاريفُها على الذُّعرِ والفَزَعِ[5]، والخوفُ مِن اللّه لا يُرَاد به ما يَخطُرُ بالبال مِنَ الرُّعب، كاستِشعار الخَوف من الأسد، بل إنَّما يُرَاد به الكَفُّ عَنِ المَعاصي واختيارُ الطّاعَات[6].

والخَوفُ ضدُّ الأَمنِ[7]، وحقيقتُهُ: أنَّهُ غَمٌّ يلحقُ العبدَ مِنْ توقُّعِهِ المكروهَ[8]، فهو خاصٌّ بالزَّمن المُستَقبَل[9]، ويُستعمَل في الأمور الدُّنيويَّة والأُخرَوِيَّة[10].

---

(1) الزجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/117، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 1/295.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هبط).
(3) الرّاغب، المفردات: (هبط).
(4) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (هبط).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خوف).
(6) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (خوف).
(8) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.
(9) السَّمين، الدُّر المَصون: 1/297، والشّنقيطيّ، العذبُ النَّمير: 1/284.
(10) الرّاغب، المفردات: (خوف).

3) ﴿يَحۡزَنُونَ﴾: جذرُ هذه الكلمةِ وهو الحاء والزَّاي والنُّون يدُلُّ على مَعنَى خُشُونةِ الشَّيءِ، والشِّدَّة فيه[1].

ومنه: الحَزَنُ؛ وهو الغِلَظُ مِنَ الأرضِ[2].

ومنه: الحُزْنُ؛ وهو ضدُّ الفَرح والسُّرور؛ لأنَّه شدَّةٌ تَعتَري قلبَ الإنسان[3]، وخُشُونةٌ في النَّفس لِما يحصُلُ فِيه مِنَ الغمِّ[4]، وحقيقةُ الحُزنِ: غَمٌّ مِن أمرٍ فائتٍ[5].

ولا يَحصل الحُزن بالاختيار، فنَفى اللّٰه تعالى عن أهل الجنَّة حقيقته؛ وهُو تعاطي ما يُورث الحُزنَ واكتسابه.

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

قال اللّٰه تعالى لآدمَ وحوَّاء: اهبطُوا جميعًا مِنَ الجنَّةِ إلى الأرض؛ وسَيَأْتِيكُم وذرِّيَّتَكُم هدايةٌ منِّي إلى الحقِّ على أيدي رُسلي؛ فمن تَبِعَهَا فلا خوفٌ عليهم فيما يَستَقبِلونَ في الآخرة، ولا هُم يَحزَنون على ما فاتَ مِنَ الدُّنيا [6].

۞ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ فَصلِ قول الله تعالى ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا﴾ عَمَّا قَبلَه:

تَشويقُ المُتَلَقِّي وتَثويرُ فِكرِهِ لمعرفة الجواب

فُصِل قولُه سبحانه: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لما بينَ الجُملتَين من شبهِ كمال الاتِّصال، وهو المعروف بـ (الاستِئنَافِ البيانيّ)؛ إذِ الجُملةُ واقعةٌ جوابًا عَنْ سؤال ناشئ عَن قولِهِ تعالى قبلُ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، والتَّقدير: ماذا وقعَ بعدَ قَبولِ توبَةِ آدمَ عليه السلام؟ فجاء الجوابُ: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا﴾[7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حزن).
(2) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (حزن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حزن).
(4) الرّاغب، المفردات: (حزن).
(5) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/321، والشّنقيطيّ، العذبُ النَّمير: 462/4.
(6) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/58، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/240، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 50، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/92.

ويَحتَمِلُ أن يكونَ لكمال الاتِّصال[1]؛ إذ وقَعَتْ هذه الجملةُ تأكيدًا للأَمر الأوَّل بالهبوط -على القول بأنَّ الهُبُوطَين واحدٌ-، ويَحتَمِلُ أن يكون لكمال الانقِطاع[2]؛ لتبايُنِ الغرضَين، فالأمرُ الأوَّلُ بالهُبوطِ أمرٌ تكوينِيٌّ، والآخر أمر تَكليفيٌّ.

سِرُّ مُخاطبَةِ الزَّوجَين بخطاب الجَمع:

الـجـمـع للتَّشريف ولبيان أصـلِ الـنَّـوع الإنسانيّ

خُصَّ آدم وحوَّاءُ بخطابِ الجَمعِ في قوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ تَشريفًا لهما، وخُوطبا بما يخاطَب بِهِ الجمع؛ لأنَّ الاثنين أقلُّ الجمع عندَ بعض أئمة العربيَّة، أو أنَّه خطاب لَهُما ولذريَّتهما؛ لأنَّهما لـمَّا كانا أصلَ هذا النَّوع الإنسانيّ جُعلا بمنزلته، ويدُلُّ على ذلك قوله تعالى ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾؛ فإنَّ هذه الجملةَ الواقعة حَالًا مبيِّنًا للهَيئَة الثَّابتة للمَأمورين بالهُبوط تُفيدُ ذلك[3].

نُكتَةُ تَكرارِ الأمر بالهُبوط:

العَفوُ عَنِ الذَّنبِ لا يُبْطِلُ العقوبَةَ التَّأديبيَّةَ

كُرِّر الأمرُ بالهبوطِ في هذه الآية من قَولِه ﷻ: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ مع قوله قبلُ: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾، وفي سبب هذا التَّكرار ثلاثةُ مسالكَ[4]:

أحدُها: أنَّ تكرار الأمر بالهبوطِ لاختلافِ حَقيقتِهما؛ فإنَّ الأوَّلَ أمرٌ بالهبوط مِنَ الجنَّة إلى السَّماء، والآخَرَ: أمرٌ بالهبوط مِنَ السَّماء إلى الأرضِ. وفي هذا نَظَرٌ؛ لعدم جريان ذكر السَّماء.

ثانيها: أنَّهُ مِن باب الإطناب بالتَّكرارِ؛ وفائدتُهُ: تحقيقُ كمالِ ارتباط النَّظْم؛ إذ لو جاء قولُه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ بعدَ قوله سبحانَه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ "لم يَرتَبِطْ كمال الارتباط، ولَتَوَهَّم السَّامع أنّه خطابٌ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/239.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/239.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/270، والشَّوكانّي، فتح القدير: 1/79.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/440.

للمُؤمِنين على عادَةِ القرآن في التَّفنُّنِ، فلِدَفعِ ذلك أُعِيدَ قولُه: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ﴾، فهو قولٌ واحِدٌ كُرِّر مرَّتين؛ لِرَبط الكلام"[1].

وبُنِيَ على كلٍّ مِنَ المَوضِعَين معنًى غيرُ الّذي بُنِيَ عليه الآخَرُ؛ فالأوَّلُ بُنِيَت عليه العَداوةُ في قوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾، والآخر بُني عليه إتيانُ هدى الله في قولِه سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾؛ لِتَحصُلَ فائدةٌ جديدةٌ في الكلام؛ لئلَّا يكونَ تَكرَارًا مُجرَّدًا، وهذا يُسمَّى في البلاغة: التَّرديد[2].

ثالثُها: أنَّه من باب الاحتِراس[3]، وذلك أنَّه قد ذُكر الأمرُ الأوَّلُ بالهُبوطِ، ثُمَّ ذُكِرَتْ توبةُ الله تعالى على آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد يُظَنُّ أنَّ التَّوبة أوجبتِ العَفْوَ عنه مِنَ الهُبوطِ مِنَ الجنَّةِ، فأُعيد الأمرُ بالهُبوطِ دَفْعًا لذلك التَّوهُّم.

تَوجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفظيِّ:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ في الألفاظِ القُرآنيَّة

جاء في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ [الأعراف: 24]، وفي سورة طه: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ [طه: 123] بذكر جملة: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ في السُّورتَين، ولم تَرِدْ هذه الجملةُ في هذه الآية: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾؛ وذلك اكتفاءً بورودِها قبلَ آيتَينِ في السِّياق، وهي قوله تعالى: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ [البقرة: 36]؛ فلو جاءت هذه الجملةُ في هذه الآية معَ الاتِّصال والتَّقارُب بين الآيتين؛ لكان تَكرارًا مِن غير فائدةٍ جديدةٍ، يُنَزَّهُ عنه كلامُ الله تعالى، بخلاف ما جاء في الأعرَافِ وطه[4].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/440.

(2) الماوردي، النُّكت والعيون: 1/262.

والتَّرديد: تَكرار اللَّفظ متعلِّقًا بغيرِ ما تعَلَّق به أوَّلًا، كقولهم: السَّخِيُّ قريبٌ من الله، قريبٌ مِنَ النَّاس، قريبٌ من الجنَّةِ، يُنظر: ابن الزَّمْلَكاني، التِّبيان في علم البيان، ص: 186.

(3) الاحتَرَاسُ: أن يُؤتى في كلامٍ يُوهم خلافَ المقصودِ بما يَدفَعُهُ.

يُنظر: الخطيب القَزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/208.

(4) ابن الزُّبير الغَرْناطيّ، ملاك التَّأويل: 1/30.

نِكَاتُ استِعمَالِ (إِنْ) الشَّرطِيَّةِ بدلًا مِنْ (إِذَا):

أثرُ اختيارِ الأَداةِ النَّحوِيَّةِ الأنسبِ في تَكثيرِ المَعاني

جِيءِ بأداة الشَّرطِ (إنْ) في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ وهي دالَّةٌ على الشَّكِّ، مع أنَّ إتيان الهُدى أمرٌ واقعٌ قطعًا، وفي دلالات حرف المعنى هذا مَسالِكُ، منها[1]:

أَوَّلًا: أنَّ الخطاب جاء على عادَةِ الملوكِ في التَّعبير عَنِ الأمور المُحَقَّقةِ الوقوعِ باللَّفظ المُحتَمِل.

ثانيًا: أنَّ الشَّكَّ راجعٌ إلى اتّباع الهدى، لا إلى إتيانِ هدى اللّهِ تعالى للنَّاس، واتِّباعُ النَّاسِ الهدى أمرٌ غيرُ مُحقَّق الوقوع.

ثالثًا: ظهورُ أدِلَّةِ وحدانيَّةِ اللّه تبارك وتعالى ظهورًا لا يتأَتَّى معه أدنى خفاء، بحيثُ لو قُدِّرَ احتمالُ عدم إرسال الرُّسُل؛ لاستدلَّ العبادُ على الوحدانيَّةِ بما يرونَهُ مِنْ مشاهدَ تُرشِدُ إليها.

رابعًا: لـمَّا أُبْهِمَ زَمَنُ الإتيانِ عُلِّقَ بأداة الشَّكِّ؛ فإنَّ أداة الشَّرطِ (إنْ) كما تُستعمل فيما يُشكُّ وقوعُهُ، تُستعمَلُ كذلك فيما أُبْهِمَ وَقتُ وُقوعِه.

سرُّ التَّعبِيرِ بـ ﴿مِّنِّي﴾ دُونَ (مِنَّا):

مَصدرُ الهُدى هو الوَحيُ المُنَزَّلُ

كان مُقتضى الظَّاهر أن يَرِد (فإمَّا يأتيَنَّكم منَّا هُدًى) ليوافقَ صدرَ الآية؛ فإنَّ مطلَعَهَا ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ﴾، فيكون هذا التفاتًا في العددِ مِنَ الجَمعِ إلى المفردِ؛ ونُكتَتُه: الدّلالة على أنَّ الهُدَى لا يكون إلَّا منه سبحانَه، "فناسبَ الضَّميرَ الخاصَّ كونُه لا هاديَ إلَّا هو تعالى، فأُعطي الخَاصُّ الّذي لا يُشارِكُهُ فيه غيرُه الضَّميرَ الخاصَّ الّذي لا يَحتَمِلُ غيرَه تعالى"[2].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/272، وابن عَرَفة، تفسير ابن عرفة: 1/106، والآلوسي، روح المعاني: 1/240.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/272.

دلالة تقديمِ الجارِّ والمَجرُورِ في ﴿مِّنِّي﴾:

الهِدايَةُ الكامِلةُ مِنَ اللهِ تعالى وَحدَه

تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِّنِّي﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدَى﴾؛ لإفادة القَصرِ؛ إذ الأصلُ قبل التَّقديم (فإمَّا يأتينَّكم هُدًى مِنِّي)، فالهُدى الكاملُ لا مصدرَ له، ولا يتحقَّق إلَّا مِنَ اللّه سُبحانَه، وفيه لُطفُ العنايةِ الإلهيَّة بالعبادِ، فإنَّ الهُدَى منه سبحانه وتعالى، فقبلَ معرفةِ إتيانِ الهُدى، علينا أن نعلمَ أنَّه آتٍ من اللّه تعالى.

سِرُّ تنكيرِ ﴿هُدَى﴾:

عَظَمةُ الهُدى وكَثرَةُ آثارِه الحَسَنَة

يدلُّ تنكيرُ ﴿هُدَى﴾ في قوله سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدَى﴾ على تعظيم هذا الهدى وكثرته[1]؛ فهو هُدًى عظيمٌ في نفسِه، عظيمٌ وكثيرٌ في آثارِه، وهذه الدّلالة أُخذتْ من السِّياق؛ فإنَّ الهدى آتٍ من اللّه تعالى، ويترتَّب عليه نفي الخَوْف والحزن.

وَضعُ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ في قوله ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾:

وُجوبُ اتِّباعِ الهدى وترسيخُهُ في الأذهان

مُقتضَى الظَّاهر أن يَرِدَ بعد المُظهرِ مُضمرٌ، فيكون (فإمَّا يأتِيَنَّكُم منِّي هُدًى فمَنْ تَبِعَهُ)، إلَّا أنَّه أُظهِرَ في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدَى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾، فيكون هذا مِن وَضعِ المُظهَرِ مَوقِعَ المُضمَرِ، ولهذا الأسلوب نُكَتٌ[2]:

إحداها: الإيماءُ إلى العلِّيَّة؛ بأَنْ يكون الهدى واجبَ الاتِّباعِ بالنَّظَر إلى ذاته.

اشتِمالُ القُرآنِ الكريمِ على جُمَلٍ يَتأَتَّى تَسييرُها مَسيرَ الأمثال

ثانيها: الاهتمام بالهدى؛ لِيَزدادَ رُسوخًا في أذهان المخاطَبين.

ثالثها: لو أُضمِرَ الهُدى الثَّاني بأَنْ وردَ بصيغة (فَمَنْ تَبِعَهُ)؛ لَمَا استقلَّ بالإفادةِ بل يفتقِرُ إلى ما قبلَهُ لتفسيرِه، فلمَّا أُظهِرَ كانت هذه

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/203.

(2) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/415، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/442.

الجملةُ مُستقلَّةً بنفسِها؛ ليتأتَّى تسييرُها مسيرَ المثَلِ أو النَّصيحةِ، فَتُلْحظ فتُحفظ، وتَتَذَكَّرها النُّفوس لِتُهَذَّب وتَرتَاضَ(1).

رابعها: "لأنَّه أراد بالثَّاني أعمَّ مِنَ الأوَّل، وهو ما أتى به الرُّسل واقتَضاه العقلُ، أي: فمن تَبِعَ ما أتاه مُراعيًا فيه ما يَشهد به العقلُ؛ فلا خوف عليهم فضلًا عَن أن يَحلَّ بهم مكرُوه، ولا هُم يفوت عنهم محبوبٌ فيحزنوا عليه"(2).

سِرُّ إضافة الهُدى ﴿هُدَايَ﴾:

شَرَفُ الهُدى وعَظَمَتُه يقودُ إلى الانقيادِ

إضافَةُ الهُدى إلى الضَّمير الرَّاجع إلى اللّٰه تعالى في قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ يُرادُ به تشريفُ المضافِ وتعظيمُهُ(3)، وأنَّه سبب الاستِقامة والبركةِ والتَّوفيق؛ ففيه مزيدُ حثٍّ وحضٍّ على الاتِّباع.

تَوجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ بين ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ و﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾:

الاجتهادُ في الاتِّباعِ يُناسبُ قوَّةَ اللَّعين في الوَسوَسةِ

وردَ في سورة طه في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ [طه: 123] الفعل ﴿اتَّبَعَ﴾ والّذي في سورة البقرة ﴿تَبِعَ﴾، والفرقُ بينَهُما: أنَّ (تَبِعَ) أصلٌ، و (اتَّبع) افتعالٌ من (تَبِعَ)؛ فهو فرعٌ. و (تبِعَ) يدُلُّ على مُطلَقِ الاتِّباعِ، مِن غيرِ تَعَمُّلٍ ولا تكلُّفٍ، بخلاف (اتَّبع) فإنَّه دالٌّ على تعمُّلٍ وتحميلٍ للنَّفس، وقُدِّم في أوَّلِ مَوضعٍ مِنَ القرآن الكريم -وهو الوارد في سورة البقرة- الفعلُ الأصلُ، وهو ما لا تَكلُّفَ فيه، وأُخِّرَ (اتَّبعَ) إلى سورة طه؛ لِمَا فيه مِنَ الزِّيادةِ على الأوَّلِ ولكونِه فرعًا.

ولأنَّ سورةَ البقرةِ لم يَرِدْ فيها ممَّا كان مِنْ إبليسَ إلَّا ما أخبَرَ به اللّٰه تعالى عنه مِن قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة: 36] دون بيانِ تفاصيلِ ذلك؛ فناسبه ﴿فَمَن تَبِعَ﴾، بخلاف الواردِ في سورة طه؛ فإنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/442.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/73.
(3) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/451، والخفاجيّ، عناية القاضي: 2/141.

اللّه تعالى ذَكَر كيفيَّة إغواءِ إبليس لآدمَ عليه السلام في قوله: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: 120]، وفي هذا إيماءٌ إلى ما بُسِطَ في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: 20-21]، فأفهَمَ هذا قوةَ كيدِ إبليس واستحكَام حيلَته، بحيثُ صار تَمييزُ الحقِّ مِنَ الباطل لا يَتَأَتَّى إلَّا بتعمُّلٍ وتكلُّفٍ؛ فناسبَهُ ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ﴾[1].

وأيضًا إنَّما جاء في طه ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ﴾ [طه: 123] موافقة لقوله فيها: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ [طه: 108] [2].

نُكتَةُ تقديمِ نَفيِ الخوفِ على نَفيِ الحُزْن:

الخوفُ أكثَرُ وجودًا وأشدُّ تأثيرًا مِنَ الحُزنِ

قُدِّمَ نفيُ الخوفِ على نَفيِ الحُزْنِ في قوله سبحانه: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ مع أنَّ سببَ الخَوفِ مُستقبَلٌ، وسببَ الحُزْنِ ماضٍ، فكان مُقتَضى التَّرتيبِ الزَّمني تقديمَ نفيِ الحُزْنِ على نفي الخوفِ، والنُّكتَةُ في هذا التَّقديم: مراعاةُ الأكثرِ وُجودًا؛ فإنَّ الخوفَ مِمَّا هو آتٍ أكثرُ مِنَ الحُزْنِ على ما هو فائتٌ[3]، وخوفُ النُّفوسِ ممَّا هو قادِمٌ أشدُّ من حزنِها على ما هو فائتٌ.

توجيهُ قراءةِ فَتحِ الفاءِ من ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾:

نفيُ جميعِ أنواعِ الخوفِ الظَّاهرِ أثرُه والباطنِ

قرأ يَعقُوبُ: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ بِفَتحِ الفَاء من غير تَنوين، وقرأ الباقُونَ بالرَّفعِ والتَّنوين[4]؛ وذلك أنَّ (لا) إذا بُنِيت مع النَّكرة على الفتح كان النَّفيُ بها عامًّا نحو: لا رجلَ في الدَّار، فهو نفيٌ لجميع أجناس الرِّجال في الدَّار، كأنَّه جوابُ سؤالٍ مُقدَّر: هل مِن رجل في الدّار؟

(1) ابن الزُّبير، ملاك التَّأويل: 31-1/30.
(2) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 1/265.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/240.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/211.

فتَكُون قراءةُ الفتح: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ آكدَ في نفي الخوف؛ لما فيها مِن عموم نَفي جنسِ الخوف، فأفادت نفيَ جميع أنواع الخوف عَن متَّبعي هُدى الرَّحمن[1]، وأنَّ المكلَّف الّذي أطاع اللّه تعالى لا يَلحَقُه خوف في القبر، وعند البعث، وعند حضُور الموقف، وعند تطايُر الكتب، وعند نصب الميزان، وعند الصِّراط[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالجُمل الاسميَّة في قوله ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

العاقِبَةُ الحُسنى الحَميدَةُ لِمُتَّبِعي هُدَى اللهِ تعالى

الجُملةُ في قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ اسميَّةٌ مفيدةٌ دوامَ تلك الحالِ فيهم، وهو دَوَامُ نفي الخوف لا نفي دوامِه.

وكذا الجملةُ في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإنَّها اسميَّةٌ مفيدةٌ استمرارَ تلك الحالِ فيهم أيضًا؛ والمرادُ دوامُ نَفيِ الحُزْنِ عنهم لا نفيُ دوامِهِ؛ لأَنَّ النَّفيَ -وإن كان داخِلًا على الفعلِ المُضارِع- يُفيد الدَّوامَ والاستمرارَ بحَسَبِ المقام[3].

سِرُّ تَعديَةِ الخَوفِ بـ (على) في قولِه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾:

يُخفِّفُ اللهُ تعالى عَنْ مُتَّبِعِ الهُدى أثَرَ الأَهوالِ العَظِيمَة

جاء التَّعبير في قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ دون (لَا خَوف لَهُم) أو (لا خوف عِندَهُم)؛ لما في (على) مِنَ الدّلالة على الاستِعلاءِ والإحاطَة، فيكُونُ المَنفِيُّ استعلاءَ الخَوفِ عليهم وتمكُّنَه منهم، وإحاطَتَهُ بِهِم، لا مُطلق الخوفِ، فلا يكون فيه نفيُ خوفِ المُطيعِينَ مِنْ أهوالِ القيامةِ، لكنَّها تكونُ مُخَفَّفَةً عَنهُم، ثُمَّ إذا صارُوا إلى رحمةِ اللّه سبحانَه؛ كان حالُهم كحالِ مَنْ لم يخَفْ[4].

---

(1) الشِّيرازيّ، الموضَح: 1/269-270.

(2) الجاوي، مَراح لبيد: 1/17.

(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/241.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/274.

فائِدَةُ مَجيءِ الخَبَرِ جُملَةً فِعلِيَّةً:

السَّعادة الأبديَّة للمُهتدين

مجيءُ خبر المبتدأ ﴿هُمۡ﴾ جملةً فعليَّةً يقتضي تَكرارَ الإسنادِ؛ تأكيدًا لِدوام نفيِ الحُزْنِ عن مُتَّبعي الهُدى؛ فقد أُسنِدَ الحُزْنُ إلى ضمير مُتَّبعي الهُدى (هُمْ) -وهو مِن إسناد الخَبَرِ إلى المبتدأ-، وأُسنِدَ الحزنُ إلى واوِ الجَماعةِ الرَّاجعة إليهم، -وهو مِن إسناد الفعل إلى فاعِلِه-، فلمَّا تكرَّر الإسنادُ في الموضِعَين تأكَّدَ المعنَى وقَوِيَ.

نُكتَةُ تَقدِيمِ الضَّمِيرِ ﴿هُمۡ﴾:

تقديمُ الضَّميرِ ﴿هُمۡ﴾ فيه إشارةٌ إلى القصر والاختصاص، ففيهِ قَصْرُ انتفاءِ الحُزْنِ عنهم، أمَّا غيرُهم فيحزنُونَ[1].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الهُبوطُ والنُّزول:

يُفَرَّق بين الهبوط والنُّزول بأَنَّ الهبوطَ نزُولٌ يعقُبه إِقامَة، يُقال: هبطنا مَكان كذا؛ أَي: نزلنا فيه للإقامة، ومنه قَوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا﴾ [البقرة: 61]، وقوله تعالى هنا في هذه الآية: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾، مَعناهُ: انزلوا الأَرض للإقامة فِيها، ولا يُقال: هَبَط الأَرضَ، إِلَّا إِذا استقَرَّ فيها، ويُقال: نزل القومُ في المكان؛ إذا لَبِثُوا فيه زمنًا ولم يستَقرّوا[2].

الإتيَانُ والمَجيء:

يُستَخدم (جاء) للأَمرِ الصَّعب و(أتَى) للأَمر السَّهل، قال الرَّاغب: «الإتيانُ: مجيءٌ بسهولة ومنه قِيلَ لِلسَّيل المارّ على وجهِه: أَتِيٌّ وأَتَاوِيّ»[3].

وقال: "والمجيءُ كالإتيَان لكنِ المجيءُ أعمُّ؛ لأنّ الإتيانَ مجيءٌ بسُهولة، والإتيانُ قد يُقال باعتبار القصدِ وإِنْ لم يكُن منه الحُصول، والمجيءُ يُقَال اعتبارًا بالحُصول"[4]..

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/241.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 296.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).

وأَوضَحُ آيةٍ تُفَرِّقُ في المعنى بين الفعلينِ قولُه تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: 27]؛ إذ إنَّ الحَمْل في جُملته سهل، لكنْ ما جاءت به مريمُ أمرٌ مُستَهجَن -بحسب الظَّاهرِ- ليس مِن طبيعة البشر، حيث أنجبت سيِّدنَا عيسى عليه السلام من غير أب، ولذلك قالوا: لقد جئتِ شيئًا عظيمًا، فعقولُهم عجَزت عن إدراكه والإيمان به.

فإتيان الهُدى مِن اللهِ تعالى سهلٌ، وفيه تكريمٌ لبَني آدم، إلَّا أنَّ التَّمسُّك والعمل به فيه صعُوبة على النُّفوس الّتي لَم تَأْلَفْهُ.

الخَوفُ والخَشيَةُ:

الفرق بينَهما مِن وجهين:

أحدهما: أَنَّ الخَشيةَ أخصُّ مِنَ الخَوفِ وأعلى مرتبة منه؛ إذ إنَّ الخشيةَ خَوفٌ مقرونٌ بمعرفةٍ وعلم، بخلاف الخوفِ فلا يُشترطُ فيه ذلك [1].

والآخر: أَنَّ الخشيةَ تكون من عِظَم المَخشيِّ وإن كان الخَاشِي قويًّا، بخلاف الخوف فَإِنَّهُ يكون مِنْ ضَعفِ الخائفِ وإن كان المَخُوفُ أمرًا يَسيرًا، ولذا تَرِدُ الخشيةُ غالبًا في حقِّ اللّه تعالى[2]، كما قال سبحانه: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: 21].

وذكرَ المَاوَرديُّ فرقًا آخرَ بينَهما؛ وهو أنَّ الخوفَ فيما ظَهَرَتْ أَسبابُهُ، والخشيةَ فيما لم تَظهَرْ أسبابُه[3].

الخَوفُ والحُزْنُ:

الفَرق بينَهما: أَنَّ مُتعلَّق الخوف مُستقبَلٌ، ومتعلَّقَ الحُزن ماضٍ؛ إذ إنَّ الخوف غمٌّ من أمرٍ مُستقبَل، والحُزْنَ: غمٌّ مِنْ أمرٍ قد فات ومضى[4].

وذكر الشِّهابُ الخَفَاجيُّ أنَّ الخوفَ أشدُّ مِنَ الحُزْنِ[5]، ووجهُ ذلك: أَنَّ سببَ الحُزْنِ وقعَ وانقضَى، وإنَّما يتجدَّدُ الغمُّ به عندَ تذكُّرِه، بخلاف الخَوفِ؛ فإنَّ سببَهُ مُستقبَلٌ، وقد تكونُ فيهِ نَوعُ جهالةٍ، وربَّما كان ذلك شَديدًا عَظيمًا.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (خشى)، وابن القيّم، مدارج السالكين: 1/508.
(2) الزّركشيّ، البرهان: 4/78، والسُّيوطي، معترك الأقران: 3/485.
(3) الماوَرديّ، النُّكت والعيون: 3/393.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/378، والشّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/284.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/172.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾ [البقرة: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا بشَّر اللّه تعالى المؤمنين الّذين يتّبعون هُدَاهُ، أعقبَهُ بإنذار الكُفَّار الّذين حادُوا عن اتِّباع الهُدى بالكُفر والتَّكذيب، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ على عادة القرآن الكريم في قَرْنِ الأشياءِ الـمُتقابلة[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: الآيات جمعُ آيةٍ، وجذرُها الهمزةُ والياء والحرفُ المعتَلُّ[2] يدُلُّ على بقاءِ الشَّيء في مكانه شاخصًا علامَةً لشيءٍ[3].

ومنه قولُهم: خرجَ القوم بآياتِهم، أي: جماعتِهم؛ فلم يَدَعُوا شيئًا ممَّا مِنْ شأنِهِ أن يكونَ شاخصًا إلَّا حملوهُ، وفيه معنى الكثرةِ والجسَامَةِ أيضًا.

والآية: كلُّ شيءٍ ظاهرٍ ملازمٍ لشيءٍ باطنٍ يُعرَفُ به حسّيًّا كان أو عقليًّا[4].

وآياتُ اللّهِ تعالى المذكورةُ في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ هي حُجَجه وأَدِلَّته على ربوبيَّته وألوهيَّته، وما جاءت به رسلُهُ مِنْ شواهدَ على صدقِ ذلك[5]، فهي علامَةٌ ودليلٌ على الرَّبِّ واستحقاقِهِ العبادَةَ، وتشخُّصُهَا في الآيات الكونيَّةِ واضح لكلِّ ذي بَصَر متأمِّل، وأمَّا في الآياتِ الشَّرعيَّةِ ففيها معنى الجسامَةِ المعنويَّةِ، فهي لِظُهورِها ووضوحِها كالشَّيءِ الـمُتَشَخِّصِ الّذي لا يَخفَى.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/300.
(2) في اشتقاق (الآية) خلافٌ. يُنظر: السَّمين الحلبي، عمدة الحفَّاظ: (أيي)، والآلوسّي، روح المعاني: 1/242.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أيي).
(4) الرّاغب، المفردات: (أيّ)، ومحمَّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/238.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 1/552.

2) ﴿أَصۡحَٰبُ﴾: أصحابُ جمعُ صاحب، مثلُ أشهادٍ جمعِ شاهدٍ[1]، أو أنَّ أصحابًا جمعُ صَحْبٍ، والصَّحبَ: جمعُ صاحبٍ[2].

والصَّاحبُ: المُلازِم؛ إنسانًا كان أو حيوانًا أو مكانًا أو زمانًا، ولا فرقَ بين أن تكون مُصاحبَتُه بالبَدَن -وهو الأكثر- أو بالعناية والهمَّة، ولا يُقال في العُرْفِ إلَّا لِمَن كَثُرت مُلازمَتُه، ويُقالُ لمالكِ الشَّيء: هو صاحِبُه، وكذا لِمن يَملِكُ التَّصرّفَ فيه[3].

ومادَّة (صَحِبَ) تدُلُّ تصاريفُها على ملازمةِ الشَّيءِ بقوَّةٍ، وقد تُطلقُ على مُطْلَقِ المقارنة، ومجرد الاقتران[4]

ومن هذا البابِ: سُمِّيت الزَّوجَةُ صاحبةً كما في قول اللّٰه تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ [المعارج: 11-12]؛ لملازمَتِها زَوجَها مدّةَ الحياة الدّنيا.

وأمَّا (أصحاب النَّار) في القرآن الكريم؛ فالمرادُ أهلُها المعذّبونَ فيها إلَّا في مَوضعٍ واحد؛ فيُرادُ به: خَزَنَتُهَا، وهو الواردُ في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾[5] [المدثر: 31].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

والّذين جَحَدُوا وكذَّبوا بحُجَجِ اللّٰه تعالى وأدلَّته على ربوبيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ وما جاءت به الرُّسُلُ مِنَ الشَّواهدِ على ذلك؛ سيَكون مآلُهم نارَ جهنَّم يُلازمونَها لزومًا دائمًا، فلا يخرجون منها أبدًا[6].

۞ الإيضَاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغيُّ:

وَجهُ العَطفِ في قوله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

يَحتمِلُ أن يكونَ قولُ اللّٰه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾ مِنْ تمام ما قيلَ لآدمَ عليه السلام،

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (صحب).

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (صحب).

(3) الرّاغب، المفردات: (صحب)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (صحب).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صحب).

(5) السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/158.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 1/552، وأبو المظفَّر السَّمعانّي، تفسير القرآن: 1/70، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 50، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.

استيعابُ أحوالِ بَـنـي آدَمَ في مَـوْقـفِـهـم من الهُدى

فيكون معطوفًا على (مَنْ) مِن قوله سبحانه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾، ويكون في الجملة أسلوبُ التَّقسيمِ[1]؛ وذلك لاستيعاب أقسام ذرِّيَّة آدمَ عليه السلام[2].

نُكتَةُ اختلافِ التَّقسيم والتَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

قُـبـحُ صَـنِـيـعِ الـعـادِلِ عَـنِ الـهُـدى واستحقاقُه النَّار بالكُفر

وَقَعَ التَّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، مع أَنَّ مُقتضى الظَّاهر: (ومن لم يتبَعْهُ) أي: الهُدَى؛ ليكون مقابلًا لقوله قبلُ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾، والنُّكتَةُ في ذلك أَمران:

أحدهما: تفظيعُ حالِ العدولِ عَنِ الهُدى، وإظهارُ كمالِ قُبحِ الضَّلالة[3].

والآخر: الإيمَاءُ إلى وَجهِ استحقاقِهِمُ النَّارَ والخلودَ فيها؛ وهو الكُفر والتَّكذيبُ[4]، ومجيءُ صلةِ الموصولِ فعلًا ماضيًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾ دالٌّ على تحقُّقِ وَصفِ الكُفرِ والتَّكذيب فِيهِم، وجمعُ الاسمِ الموصول فيه إيماءٌ إلى كثرة الكُفَّار والمكذِّبين[5].

نُكتَةُ إضافةِ (الآياتِ) إلى ضميرِ العَظَمَةِ العائِدِ إلى اللهِ سُبحانه:

كَـمـالُ قُـبـحِ التَّكذيبِ بآياتِ اللهِ تعالى

إضافة الآيات إلى الضَّمير الرّاجع إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يُراد به تعظيمُ المضافِ وهو الآياتُ؛ فإنَّ التَّكذيب لم يكن بآيةٍ بل بآيات، ولا سيَّما أنَّ الضَّميرَ جاءَ بأسلوبِ العظَمَةِ؛ لزيادةِ المهابةِ وإدخالِ الرَّوعةِ في نفوس الـمُتَلَقِّين.

وفي تعظيمِ الآياتِ على النَّحو الـمُتقدِّمِ إظهارٌ لكمال قبح التَّكذيب بها[6].

(1) التَّقسيمُ: هو استيفاءُ أقسامِ الشيَّء بالذِّكرِ، وله صورٌ أُخرى. يُنظر: عبد المتعالِ الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/608.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/444.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/93.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/444.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 1/242.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/93.

دلالة اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

بُعدُ مَنزلَةِ الكفَّارِ والمُكَذِّبينَ في الشَّرِّ

في الإشارة إلى الكافرين والمكذِّبين بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ تنبيهٌ على شَناعة ما اتَّصفوا به، وتلبَّسوا به، بحيثُ تَمَيَّزوا عمَّن عداهُم أكمَلَ تمييز.

ووَقعَ اسمُ الإشارةِ ههنا للبعيد؛ إِشعارًا إلى بُعدِ مكانتِهِم في السُّوء والشَّرِّ[1].

نُكتَةُ تَقديمِ الجارِّ والمَجرورِ ﴿فِيهَا﴾:

إِفادةُ التَّخصيصِ وحسنِ تناسق الفواصل

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ -فلم يَرِد (هُمْ خَالِدُونَ فِيها)-؛ وذلك لِنُكتتَين:

الأولى: إفادة التَّخصيص؛ فخلودُهم في النَّارِ لا غير، كلٌّ في مكانِه الَّذي خصَّصه اللّٰه تعالى له، وذلك أبلغُ في ذمِّهم وبيان سوءِ عاقبتِهم.

والأخرى: بيانُ حسنِ الفواصلِ وانسِجامها؛ لأنَّ الآيةَ قبلَها خُتِمت بقول اللّٰه تعالى: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، والآيةَ بعدَها خُتمت بقولِ اللّٰه سبحانه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾، فلو جاء نظمُ الآية (خالدون فيها)؛ لفات هذا التَّناسُبُ.

سَبَبُ فَصلِ ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ عَمَّا قَبلَها:

صُحبَةُ المُكَذِّبينَ للنَّارِ أبديَّةٌ

فُصِلَ قول اللّٰه تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ عن قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ لأنَّ بينَهما كمالَ الاتِّصالِ؛ فإنَّ الجملة الثانية -﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾- نُزِّلت منزلةَ البيانِ مِنَ الأولى[2]؛ إذ دُخولُ طائفةٍ ما النَّار بحيثُ يَصحَبُونَها، لا يَلزَمُ مِنهُ أن تكونَ صُحبَتُهُم لها أبديَّةً، فجاءت الثَّانيةُ مبيِّنةً مُدَّةَ المُصاحبة؛ ففي البيانِ فنُّ الاحتراس.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/94.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/446.

مِنْ بدائعِ الحذفِ: الحذفُ المُقابَلِيّ (الاحتباك):

أهلُ الجنَّة تكفيهم الإشارةُ، وأهل النَّار لا تَنفعُهم العبارةُ

في قول اللّه تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، وهو المسمَّى: الحذفَ المقابَلِيَّ أو الاحتباكَ[1]، وتقديرُ الكلام: فمَنْ تَبِعَ هدايَ فأولئك أصحابُ الجنَّةِ هم فيها خالدون، ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنون، والّذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا أولئكَ أصحابُ النَّار هم فيها خالدون، وعليهمُ الخَوفُ وهم يَحزَنون[2].

فحُذف مِنَ الأوَّل (فأولئكَ أصحابُ الجَنَّةِ هُم فِيهَا خَالِدُون)؛ لِدلالة الثَّاني عليه وهو قولُ اللّه تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾، وحُذِفَ مِنَ الثَّاني (وَعَلَيهِمُ الخَوفُ وهُم يحزنون)؛ لدلالة الأوَّل عليه وهو قولُ اللّهِ سبحانه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وهو من أَلطَفِ أنواعِ الحَذف.

ونكتتُه هنا: التَّنبيه على خلودِ أهلِ الجنَّةِ بالإشارةِ في قولِه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وبدلالة المقابلةِ، والتَّصريحُ بخلودِ أهلِ النَّار بالعبارةِ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾، وهذا من جمالِ العَدل في الإنذارِ، وبراعةِ التَّحفيزِ في التَّرغيبِ.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الآياتُ والبَيِّناتُ:

الفرق بينهما من وجهين:

أحدهما: في أصل الدّلالة اللغويَّةِ لكلٍّ منهما؛ فإنَّ مادَّةَ البيِّنَةِ تدُلُّ على بُعد الشَّيءِ وانكشافه[3]، والآية في الأصل: العلامَةُ[4].

---

(1) سمَّاه الزَّركشّي: الحذفَ المقابلّي، وسمَّاه السّيوطيّ: الاحتِباك؛ وهو أن يُحذَفَ مِنَ الأوائلِ ما جاء مقابِلُهُ في الأواخِر، ويُحذَفَ مِنَ الأواخرِ ما جاء مُقابلُهُ في الأوائلِ.

يُنظر: الزَّركشي، البرهان: 3/129، والسُّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/61.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/106.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).

(4) الخليل، العين: (أيا).

والآخر: أنَّ الآيةَ فيها توجُّهٌ وسير إلى المقصود، وهي الوسيلةُ للوصول إليه، ففيها جهة السَّوق والهداية إلى المطلوب بخلاف البيِّنَة[1]؛ فإنَّها كلُّ دليلٍ لا يتركُ في الحقِّ لَبْسًا، ومِنهُ قيل للشُّهود الشَّاهدين على الحقِّ: بيّنة؛ لأنَّهم يبيّنون ويوضّحون مَن له الحقُّ، ومَن عليه الحقُّ[2].

ففي الآياتِ معنًى زائدٌ عن البيِّنَات؛ فإنَّ البيِّنَاتِ أدلَّةٌ لكشف الحقِّ وإيضاحِه، أمَّا الآياتُ ففيها هذا المعنى، وزيادَةُ السَّوقِ والهدايةِ إليه.

وبناءً عليه؛ فالآياتُ أخصُّ من البيِّنَاتِ؛ ولذا جاء في التَّنزيلِ وصفُ الآيات بالبيِّنَاتِ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ﴾ [البقرة: 99]، ولم يَرد العكسُ؛ فلم توصف البيِّناتُ بأنَّها آياتٌ، ومن المقرَّر عند علماء العربيَّةِ أنَّ الموصوف أخصُّ من الصِّفة، كما تقول: زيدٌ الطَّويلُ؛ فـ (الطّويل) أعمُّ من (زيد) وحدَه؛ لأنَّ أفرادَ الطَّويلِ كَثيرَةٌ، وزيدٌ أخصُّ مِن (الطّويل)[3].

(1) حامد دژآباد وسيدة محبوبة كشفي، الفروق اللغوية المستخرجُ من كتاب (التحقيق في كلمات القرآن)، مؤسسة بوستان كتاب، ط: 1، 1441، ص: 44-43.

(2) محمّد الأمين الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 5/67.

(3) ابن يعيش، شرح المفصَّل: 3/350.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ٤١﴾ [البقرة: 40-41]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهما:

بَعد أن وَعَظَ الله تعالى المُشركِينَ، وتخلَّلَ ذلك ذكرُ قصَّةِ خلقِ آدَمَ عليه السلام وتوابع ذلك، انتقلَ الكلامُ إلى وعظ الكافرين من أهل الكتاب، وتَوَجَّهَ الخطابُ إلى بني إسرائيلَ لكونهم أشهرَ الأمم المتديِّنَةِ ذاتِ الكتاب الشَّهيرِ والشَّريعةِ الواسعة [1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿نِعۡمَتِيَ﴾: النُّون والعين والميم تدُلُّ اشتقاقاتُهَا على ترفُّهٍ وطِيب عَيشٍ وصلاحٍ[2]، والنِّعمَةُ بالكَسرِ: الحالَةُ الحَسَنَةُ، وبِناؤُها الّتي يَكونُ عليها الإنسانُ كالجِلسَةِ، وتُقالُ للجِنسِ الصَّادِقِ على القليلِ والكثيرِ[3].

ومنهُ النَّعمَةُ -بالفتح-: التَّنَعُّمُ؛ وهو ما يترفَّهُ به الإنسَان من مَأكلٍ أو مَشرب أو مَلبس-[4]، وبِناؤُها بِناءُ المَرَّةِ مِنَ الفعلِ كالضَّربَةِ، واختِيرَ تفسيرُ النِّعمَةِ بالشَّيءِ المُنعَمِ به؛ لأَنَّهُ أنسَبُ للتَّرك، وهي كثيرًا ما تكونُ بهذا المعنى [5].

ونِعَمُ الله تعالى على بني إسرائيل المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ هي: "اصطفاؤه مِنهُمُ الرُّسُلَ، وإنزالُه عليهِمُ الكتبَ، واستنقاذُه إيَّاهم ممَّا كانوا فيه مِنَ البلاء والضَّرَّاء مِن فرعون وقومِه، إلى التَّمكين لهم في الأرض، وتفجيرِ عيون الماء مِنَ الحجر، وإطعام المنّ والسَّلوى"[6].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/447.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نعم).
(3) الرّاغب، المفردات: (نعم)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (نعم).
(4) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (نعم).
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 13/122.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 1/555.

2) ﴿بِعَهۡدِيٓ﴾: أصلُ العهد: حِفظُ الشَّيء ومُراعاتُه حالًا بعدَ حال[1].

وهذه المراعاة حالًا بعد حالٍ هي التَّعاهُدُ، وهي الّتي عبَّر عنها الخليلُ بقوله: "الاحتفاظُ بالشَّيء وإحداثُ العَهْدِ به" [2].

ومِن هذا البابِ: العهدُ الّذي هو الوصِيَّةُ[3]؛ لكونها مِمَّا تُحفَظُ وتُراعَى حتَّى تَنفُذَ، وللعَهد معانٍ كثيرةٌ جدًّا، مِنها: الأمانُ، واليَمِين، والذِّمَّة، ورعاية الحقِّ، والمَنزِل[4]، وكلُّها راجعةٌ إلى الأصل المذكور.

والعهد المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ هو ما عَهِدَهُ إليهم مِنَ الإيمان به وبكتبه ورسُلِه وإقامةِ شَرعه، والعهدُ في قوله سبحانه: ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ هو الجزاءُ والثَّواب على ذلك[5].

3) ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾: فعلُ أمرٍ مِنَ الرَّهبةِ مُسند إلى واو الجماعةِ، ومادَّتُهُ الرَّاء والهاء والبَاء تدُلُّ أكثر تصاريفها على الخَوفِ[6]، ومِنه الرَّاهِبُ؛ وهو المتعبِّدُ في الصَّومعَةِ[7]؛ فإنَّ الّذي حَمَلَهُ على التَّعبُّد خَوفُهُ.

وَحَدَّ الرَّهبةَ الرَّاغِبُ بِقَولِه: "مَخَافَةٌ مع تَحرُّزٍ واضطِرابٍ" [8]، وقال ابن القيِّم في تعريفِها: "هي الإمعانُ في الهَرَبِ مِنَ المكروهِ"[9].

والرَّهبةُ من اللهِ تعالى المأمورُ بها في قوله سبحانه: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾، هي فِرَارُ قَلبِ العبدِ إلى الله تعالى ذُعرًا وفزعًا مع عَمَلِ ما يُرضيه.

4) ﴿مُصَدِّقٗا﴾: الصَّاد والدَّال والقاف تَدُلُّ تصاريفُها على قُوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا كان أو غيرَه، ومنه قولُهم: هذا شيءٌ صَدْقٌ، أي: صُلْبٌ، ومنه سُمِّيَ الصِّدقُ -نقيضُ الكذِبِ- بذلك؛ لقوَّتِهِ في نفسِه[10].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (عهد)، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (عهد).
(2) الخليل، العين: (عهد).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (عهد).
(4) القاسم بن سلَّام، غريب الحديث: (عهد)، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (عهد)، ونشوان الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: (عهد).
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 50.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رهب).
(7) ابن سِيده، المحكم: (رهب).
(8) الرّاغب، المفردات: (رهب).
(9) ابن القيّم، مدارج السالكين: 1/508.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صدق).

والصِّدْقُ: هو إخبارٌ عَنِ الـمُخبَر به على ما هو عليه في الواقع، ولا يكون محمودًا شَرْعًا إلَّا مع العلم بأنَّهُ كذلك[1].

والتَّصديقُ بزنةِ التَّفعيل، و (التَّفعيلُ) يأتي لإرادةِ النِّسبة، كما في التَّصديق؛ فإنَّهُ النِّسبةُ إلى الصِّدْقِ[2].

ومعنى قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ مُوافقًا له[3]؛ لأنّه إذا كان موافقًا له فإنَّهُ ينسِبُهُ إلى الصِّدْقِ.

5) ﴿ثَمَنًا﴾: الثَّاء والميمُ والنُّون تدُلُّ أكثَرُ تصاريفِهِ على مَعنَى عِوَضِ ما يُباعُ[4]، وثمَنُ كُلِّ شيءٍ: قِيمَتُه[5].

والثَّمنُ القليلُ في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الدُّنيا بحذافيرها[6]؛ وجُعِلَ الثَّمنُ مُشتَرًى كسائِرِ السِّلَع؛ لأنَّ الثَّمن والـمُثمَنَ كلاهُما مَبيعٌ[7].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

يا ذريَّةَ يعقوبَ! اذكُروا نعمي المتكاثرةَ عليكم، وأدُّوا عَهدي إليكُم أداءً وافيًا تامًّا؛ بأن تُؤمنوا بكتُبي ورُسُلي وتَعمَلوا بما شَرَعْتُ لكُم، فإنْ فعلتُم ذلك أتممتُ لكُم ما وعدتُكم مِنَ الجزاء والثَّوابِ بأن أَرضى عنكُم وأُدخِلَكم الجنَّةَ، ولْتَفِرَّ قلوبُكم إليَّ وحدي ذُعرًا وفزعًا مع العمل بما أرضَى به عليكُم، وآمِنوا بالقرآن الكريم الّذي أنزلتُهُ على النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ موافقًا لِمَا تعلمونَهُ مِن صحيحِ ما عندَكُم، ولا تكونوا أوَّلَ مَن يَكفُرُ به مِن أهلِ الكتاب، ولا تَستَبدِلوا بآياتِي شيئًا مِن حُطام الدُّنيا، واتَّقوني وحدي بفِعلِ ما أَمرتُ به واجتنابِ ما نهيتُ عَنه[8].

(1) أبو البقاء الكفويّ، الكُلّيَّات، ص: 556.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (كذب).
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 50.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثمن).
(5) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (ثمن).
(6) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/98.
(7) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين: (ثمن).
(8) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 1/83، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/242، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.

الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ النِّداءِ في ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

الحثُّ على امتثالِ الأوامِرِ الشَّرعيَّةِ وقبُولِها

النِّداءُ بـ (يا) التي هي في الأصلِ للبَعيدِ، والبُعدُ هنا معنويٌّ لبيانِ عظمَةِ المُنادي ﷻ[1]، ومقصودُ النِّداء في قولِه سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ حثُّ المُخاطبين على سماع ما يَرِدُ عليهم مِنَ الأوامرِ والنَّواهي وتحريكُ هِمَمِهِم لقبولِه.

سِرُّ النِّداءِ بـ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دُونَ (يا بَنِي يَعقُوبَ):

وَعظُ الأبناءِ بتذكيرِهم بشَرَفِ الآباءِ

وَقَعَ نداؤُهم بـ (بني إسرائيل) -وإسرَائيلُ هو يعقُوبُ عليه السلام-؛ تذكيرًا لهم بمقامِ يعقُوبَ وشرفِهِ، وأنَّه يَنبَغي لهم أن يَقتَدوا به في الشَّرَف[2].

وعُدِلَ عَن نِدائِهم بـ (بني يعقوب) إلى (بني إسرَائِيل)؛ لأنَّ معنى (إسرَائِيل) بالعبريَّةِ: صفوةُ اللّه أو عبدُ اللّهِ[3]، وهذا أَدعى لتَحَرِّيهم الطّاعةَ؛ فإنَّ قول القائل: يا ابنَ الصَّالحِ أطِع اللّه تعالى، أبلغُ في حثِّ المأمور مِن قوله: يا ابنَ فلانٍ أطعِ اللّه؛ "لأنَّ الطَّبائع تَميل إلى اقتفاء أَثَرِ الآباء -وإنْ لم يَكُن محمودًا- فكيفَ إذا كان؟!"[4].

غرضُ الأَمرِ بتَذَكُّرِ النِّعَمِ:

تَذَكُّرُ النِّعمِ طَريقٌ لتَحقيقِ وُجوبِ شُكرِها

الأَمرُ بالتَّذكُّرِ في قوله سبحانه: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ ليس المرادُ مجرَّدَ التَّذكُّرِ، وإنَّما المرادُ به مع ذلك: لازِمُهُ؛ وهو القيامُ بشُكرِها[5] بالذِّكرِ باللِّسانِ والذّكرِ بالجَنانِ[6]، فأمرَهم اللّه تعالى أن يَذكُروها

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/206.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 207-1/206.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/94.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/244، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 299-1/298.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/452.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/108.

لِيَدعوهم ذِكرُهم لها إلى طاعته والإيمان برسُله، والتَّحذير مِن عقوبتِه بما عاقب به من لم يُؤمن برَسُوله ولم يَنْقَد لدينه وطاعته، فكانت نعمتُه على آبائهم نعمةً منه عليهم تَستَدعي منهُم شكرًا، فكيف تجعلون مكان الشُّكر عليها كُفرَكم برسولي، وتكذيبَكم له، ومعاداتَكم إيَّاه؟[1]، فيكون كنايةً لا مجازًا مُرسلًا بعلاقة الملزوميَّة؛ لأنَّ التَّذكُّرَ مطلوبٌ مع الشُّكرِ، وهذا أنسبُ لحملِه على الكنايَة؛ لأنَّ المعنى الأصلِيَّ تَجُوزُ إرادَتُهُ، بخلاف ما لو حُمِلَ على المجاز.

وفي الأمر بتذُّكرِ النِّعَم إشعارٌ بأنَّهم قد نَسُوها بالكُلّيَّةِ، ولم يُجرُوها على أذهانِهم، لا أنَّهم قصَّروا في شُكرِها فحسب[2].

نُكتَةُ الإضافة في قولِه ﴿نِعۡمَتِيَ﴾:

إضافَةُ النِّعمة إلى الضَّمير الرَّاجع إلى اللهِ ﷻ: تعظيمًا لها وتشريفًا[3]، فإنَّ النِّعمَةَ تَعظُمُ بحسب المُنعِم بها، فالنِّعمة مِنَ العظِيم عظيمةٌ.

فائِدَةُ تَقييدِ النِّعمَةِ بالمُخاطَبينَ في قولِه ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

تهذيبُ نفوسِ المُخاطبين بتذكيرهم بالنِّعمِ يصرفُ الحَسدَ

قُيِّدَتِ النِّعمةُ بالمخاطَبينَ في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لأنَّه أَدعى لتحقيق المقصودِ مِنَ الأمر بالتَّذكُّر وهو الشُّكرُ؛ فإنَّ الإنسانَ مِن طَبعِهِ الغَيرةُ والحسَدُ، فإذا نظرَ إلى ما أنعم اللهُ تعالى على غيرِه؛ حملتْهُ الغَيرةُ والحسد على التَّسخُّط وكفر النِّعمة، وإذا نظَر إلى ما أنعم اللهُ ﷻ عليه؛ حمَلَهُ ذلك على الشُّكرِ والرِّضَا[4]، ولأنَّ تذكير الحَسُود بما عِندَهُ من النِّعَم إشغالٌ له بها، وصرفٌ له عَنِ الحسدِ النَّاشئ عَنِ الاشتِغالِ بما أَنعَمَ اللهُ تعالى على غيرِه.

وفي هذا تعريضٌ لليَهودِ بأنَّهم حاسدُون للعَربِ؛ إذ جَعَلَ اللهُ تعالى خَتْمَ النُّبُوَّةِ فيهم[5].

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/427.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/94.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/94.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/75.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/452.

نُكتَةُ الإِضافَةِ في قوله ﴿بِعَهۡدِيٓ﴾:

إضافةُ العَهدِ إلى الضَّمير العائد إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ يُرادُ بها: تعظيمُ المضافِ -وهو العهدُ- وتشريفُهُ، وذلك دالٌّ على تعظيمِ الأمر بالوفاءِ بِهِ، والتَّحذيرِ مِنْ نقضِه.

سِرُّ تَقدِيمِ المَفعُولِ ﴿وَإِيَّٰيَ﴾:

وُجُوبُ تَخصِيصِ اللهِ تعالى بالرَّهبَةِ الكامِلَة

(إيَّايَ) مِن قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ مفعولٌ بِهِ مقدَّمٌ لـ (ارْهَبُوا) مقدَّرًا لا لـ ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ المذكور؛ لأنَّه استوفَى مفعولَهُ وهو الياءُ المقدَّرة[1].

وتقديمُهُ لإفادةِ التَّخصيصِ؛ فالرَّهبَةُ الحقَّةُ لا تكونُ إلَّا مِنَ اللّه سبحانه.

وأُكِّدَ هذا التَّخصيص بثلاثة أوجهٍ[2]:

أحدها: تَكرارُ فِعلِ أمر الرَّهبة مرَّتين؛ أوَّلهما: ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾، والآخر: (ارْهَبُوا) المقدَّرُ النَّاصِبُ للضَّمير المنفصل.

ثانيها: تَكرار المفعول به مرَّتين أيضًا؛ أوَّلهما: (إيَّايَ)، والآخر: الياءُ المحذوفةُ من ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾؛ فإنَّ التَّقدير: فارهَبوني.

ثالثُها: الفاء الجَزائِيَّة في قوله: ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ دالَّةٌ على تضمُّن الكلام معنَى الشَّرط، والتَّقدير: إن كنتُم رَاهِبِينَ شيئًا فارهبُوني.

نُكتَةُ حَذفِ المَفعولِ مِن ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾:

جمالُ التَّناسُبِ الصَّوتِيِّ غرضٌ بيانيٌّ

مفعولُ ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ محذوف، والتَّقديرُ: فارهَبوني، ولحذفِهِ نُكتَتَان:

إحداهما: اكتفاءً بذِكرِه في ﴿وَإِيَّٰيَ﴾ مع العامل المحذوف.

والأخرى: تحسينُ الفواصلِ[3]؛ فإنَّ ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ أنسبُ للفَواصِل

(1) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/91.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/95.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 1/404.

الّتي قبلها وبعدها مِن إثباتِ الياء (فارهبونِي)، وهو تحسينٌ لفظيٌّ جميلٌ تابعٌ لجمالِ المعنى.

عَطفُ الخاصِّ على العامِّ في قولِهِ ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾:

عَظَمَةُ القرآنِ الكريمِ بتخصيصِهِ بالذِّكرِ

الأمر بالإيمان بالقرآنِ بعدَ قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ هو من باب الإطناب بِعَطفِ الخاصِّ على العامِّ[1]؛ لأنَّ الوفاءَ بالعهدِ: يدخُلُ فيه الإيمانُ بالكتبِ المُنَزَّلَةِ، ومنها القرآنُ، ونكتةُ هذا العطفِ: التَّنويهُ بشأنِ القرآن الكريم وعظَمَتِهِ بذكرِهِ مرَّتين؛ إحداهما: مُندَرِجًا تحت لفظٍ عامٍّ، والأخرى: تخصيصُه بأمرٍ مُفردًا.

سِرُّ العُدولِ عَنِ التَّعبير بالقُرآنِ إلى التَّعبيرِ بـ ﴿بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾:

بيانُ علَّةِ وُجُوبِ الإيمانِ بالقرآنِ، وهي ربانيَّتُه

المُراد بـ ﴿بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ القرآن الكريمُ، وعُدِلَ عَنِ التَّصريح باسمه إلى ذِكرِهِ بالموصول وصِلَتِه؛ لنُكتَتَينِ:

إحداهما: الإيماءُ إلى تَعليل الأمر بالإيمان به؛ لأنَّه مُنزَلٌ مِنَ اللهِ تعالى، والرُّسلُ قد أوصَوا بالإيمان بكُلِّ كتابٍ يَثبُتُ تنزيلُهُ مِنَ اللهِ سبحانه[2].

الأخرى: تعظيمُ شأنِهِ؛ إذ كان تنزيلًا مِنَ اللهِ تعالى، والعظيمُ لا يُنَزِّلُ إلَّا عظيمًا[3].

وَجهُ التَّغايُرِ بين الجَمعِ في ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ﴾ والإفرَادِ في ﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾:

بيانُ معنى الجَمْعِ بتقديرِ المحذوفِ من اللَّفظ

غُويِرَ بينَ الجمع في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ﴾ والإفرادِ في قوله سبحانه: ﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾، ومُقتضى الظَّاهر: ولا تكُونوا أوَّل الكافرينَ به؛ لأنّ ﴿كَافِرِۭ﴾ صفة لموصوف محذوفٍ، تقديره: أوَّل فريقٍ أو حزبٍ أو قبيلٍ كافرٍ بِهِ[4]، فهو مفرَدٌ في اللّفظِ، جمعٌ في المعنى[5].

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 2/455.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/458.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/246.
(4) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/436.
(5) الشَّوكانّي، فتح القدير: 1/88، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/149.

والأَوَّليَّةُ ههنا إضافيَّةٌ، والمرادُ: ولا تكونوا أوَّلَ فريقٍ كافرٍ به مِن أهل الكتاب؛ لأنَّ كُفَّار قُريش كَفَروا به قبلُ[1].

غرضُ النَّهي في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾:

النَّهيُ عَن أَوَّليَّة الكُفر كِنايَةٌ عَنِ طلبِ المُسارَعةِ إلى الإيمان

ليس المرادُ بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾ النَّهيَ عَن الكُفر مقيَّدًا بالأَوَّليَّةِ فحسبُ، بحيث يُؤذنُ لَهُم في الكُفرِ اقتداءً بغيرِهم! وإنَّما كُنِّيَ بهذا النَّهيِ عَنِ الأمرِ؛ لتَغليظ تحذيرهم وتأكيده من الكُفر، والتَّقدير: وكونوا أَوَّلَ المؤمنين بهِ، والمرادُ: الأمرُ بالـمُسارَعَة إلى الإيمان.

والنَّهي مُستعمَلٌ أيضًا في معنى التَّوبيخِ على تأخُّرهم في اتِّباع دعوة الإسلام[2].

ويَحتَمِلُ أن يكون ذكرُ الأوليَّةِ مِن باب التَّنبيه على ما يجبُ أن يكونوا عليه، وذلك أنَّ اليهودَ لـمَّا علمُوا بحلول زمنِ بعثة نَبِيٍّ، قالوا: إنَّا نكون أوَّلَ من يتَّبِعُهُ، كما قال تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: 89]، فلـمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ وكفَروا به، قيلَ لَهُم: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾[3].

تخصيصُ ذكر الأَوَّلِ دُون غيره.

قُبحُ البَـدايـاتِ يُـنـبـئ بـقُـبحِ النِّهاياتِ

اقتصرَتِ الآيةُ الكريمةُ على ذِكرِ أوَّلِ مَن سنَّ الكفرَ بالنَّبيِّ ﷺ وبدأ بِه مِن بني إسرائيل، والـمَعنى: ولا تكونوا أوَّلَ كافرٍ به، وآخِرَ كافرٍ بِهِ كذلك، فَحُذِفَ المعطوفُ؛ لدلالة قوَّة الكلامِ مِن جِهَة أنَّ أوَّلَ الكُفرِ وآخرَهُ سواءٌ، وخُصَّت الأوَّليَّةُ مِن باب الإيجازِ اكتفاءً[4]

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/134.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/460.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/247.
(4) الاكتفاءُ: أن يقتضَي المقامُ ذكرَ شيئين بينَهما تلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفى بأحدهما عن الآخَرِ، ويُخصُّ بالارتباطِ العطفِيِّ غالبًا. يُنظر: السُّيوطي، معترك الأقران: 1/320.

بذِكرِها؛ لِقُبحِهَا بالابتِداء[1]، وفيه تنبيهٌ على أنَّ البدايات القبيحةَ تُنبئُ بقُبحِ النِّهايات.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالمَجازِ في (الاشتِراءِ):

بَـيَـانُ حِـرصِ الـيَـهـودِ على الـثَّـمَـنِ القليلِ وزُهـدِهِـم في آيات الله تعالى

التَّعبير بالاشتِراء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ مجازٌ؛ وفي تخريجِهُ مسلَكان:

أحدهما: أن يكونَ مجازًا مُرسَلًا بعلاقة المَلزُوميَّةِ؛ بحيث أُطلِقَ المَلزُومُ وهو الاشترِاءُ، وأُريدَ لازِمُهُ، وفي تَعيينِ اللَّازمِ وجهانِ؛ إذ إنَّ من لازمِ الاشتراءِ الاستِبدالَ، والحرصَ على شيءٍ، والزُّهدَ في ضدِّه.

فعلى اللَّازمِ الأوَّلِ -وهو الاستِبدالُ-؛ يكون المعنى: النَّهي عَنِ استبدال الثَّمن القليل بآيات الله تعالى.

وعلى اللَّازم الآخر؛ يكون المعنى: النَّهي عَنِ الحِرص على الثَّمن القليل، والزُّهد في آيات الله تعالى.

والمَسلَكُ الآخَرُ: أن يكون ذلك مَجازًا بالاستِعارة؛ حيثُ استُعير الاشتراءُ للإعراض عمَّا في حيازَةِ المرءِ طالبًا تحصيلَ غيرِه، وهذا في الأصل: يكونُ في المعاني والأعيان.

ويَحتَمِلُ إجراءُ الاستعارة في كلمة (الآيات)؛ بأن شُبِّهتِ بالمال، بجامع وقوع المُعَاوَضَةِ في كُلٍّ، فحُذِف المشبَّهُ به ورُمِز لَهُ بشيءٍ مِن لوازمِه -وهو ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ﴾ - على سبيل الاستعارة المكنيَّة الأصليَّة.

وجَعْلُ الثَّمَنِ مُشترًى لا مُشترًى بِهِ إشارةٌ إلى كونه "كالثَّمَنِ في الاسترذال والامتهان، ففيهِ تقريعٌ وتجهيلٌ قَويٌّ؛ حيث إنَّهم قَلَبوا القضِيَّة وجعلُوا المقصودَ آلَةً والآلَةَ مَقصُودَةً"[2].

سِرُّ جمعِ الآياتِ وإضافَتِها:

جمعُ الآيات في قوله سبحانه: ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ، وازدادَ تعظيمُها وتشريفُها

(1) الزَّركشّي، البرهان: 3/121.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/247.

بالإضافة إلى الضَّمير العائدِ إلى اللّه تعالى؛ فإنَّ الإضافةَ ههنا مفيدَةٌ تشريفَ المُضاف[1].

دَناءَةُ اليهودِ في حِرصِهم على الثَّمَنِ الحقيرِ قَدْرًا ووَصفًا

نُكتَةُ إفرادِ الثَّمَنِ وتَنكيرِه:

أُفرِدَ الثَّمن في قوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ تحقيرًا له، وازدَادَ تحقيرًا بوجهين آخرَين:

أحدهما: تنكيرُهُ؛ فإنَّ التَّنكيرَ ههنا دالٌّ على حقارةِ المُنَكَّر.

والآخر: وصف الثَّمنِ بالقِلَّة، فيكون الثَّمَنُ حقيرًا في قَدْرِهِ ووَصفِه[2].

وُجوبُ تَخصيصِ اللهِ تعالى بالتَّقوى الحقَّة

فائدةُ تَقديمِ المَفعولِ ﴿وَإِيَّٰيَ﴾:

(إيَّايَ) من قول اللّه سبحانه: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ مفعولٌ بِهِ مقدَّمٌ لـ (اتَّقوا) محذوفًا، والتقدير: وإيَّايَ اتَّقوا فاتَّقون، لا مفعولًا لـ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ المُصرَّحِ بهِ؛ لأنَّ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ قد استوفَى مفعولَهُ، وهو الياءُ المحذوفة[3].

وتقديمُ المفعول به ﴿وَإِيَّٰيَ﴾ لإرادة القصرِ؛ فالّذي يُتَّقَى حقَّ التَّقوى هو اللّه ﷻ وحدَهُ دون ما سواه.

وتقَوَّى هذا القَصرُ بأوجهٍ ثلاثةٍ:

أحدها: تَكرَار الأمر بالتَّقوى مرَّتين؛ الأوَّلُ: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾، والآخر: فعلُ (اتَّقوا) المحذوفُ الّذي نصبَ المفعولَ المقدَّمَ (إيَّايَ).

ثانيها: تَكرار المفعولِ به مرَّتين كذلك؛ الأوَّلُ منهما: (إيَّايَ)، والآخَرُ: الياءُ المحذوفةُ مِن ﴿فَٱتَّقُونِ﴾؛ فإنَّ التَّقدير: فَاتَّقُوني.

ثالثُها: فاءُ الجزاءِ في قوله سبحانه: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾؛ فإنَّها مُفيدَةٌ تضمُّنَ الكلام معنَى الشَّرطِ، وتقدير الكلام: (إن كان هناك مَن

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/107.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/107.

(3) السمين، الدر المصون: 1/314، محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/91.

يُتَّقَى عذابُه، ومَن يَجِبُ أن تكونَ وقاية بينَكم وبينه، فاتَّقوني أنا وحدي)[1].

سَبَبُ حَذفِ المَفعولِ مِن ﴿فَٱتَّقُونِ﴾:

التَّـنَـاسُـبُ الـصَّـوتِيُّ راحـةٌ لـلأذنِ وجـمـالٌ للنَّفسِ

مفعولُ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ الياء المحذوفَةُ، وتقديرُهُ: فاتَّقوني، ولهذا الحذفِ نُكتَتانِ:

الأولى: الاكتفاءُ بِذِكرِه قبلُ في ﴿وَإِيَّٰيَ﴾ مع عامِلِه المحذوف.

والأخرى: حسنُ تَناسبِ فواصلِ الآي[2]؛ فإنَّ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ أنسبُ للفَواصِلِ الّتي قبلها وبعدها مِن إثبات الياء فيه (فاتَّقوني)، وهو مظهرٌ لفظيٌّ تحسينيٌّ تابعٌ للمعنى.

مُناسبةُ الفَواصِلِ القُرآنيَّةِ لآياتِها:

تَناسُبُ مَقاطِعِ الآيـــاتِ مَـعَ مَطالِعِها

خُتِمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾، وخُتِمَتِ الآيةُ الّتي قبلها بقوله سبحانه: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾؛ لمناسبة كلِّ خاتمةٍ للآيةِ الّتي وردَتْ فيها، ووجهُ ذلك: أنَّ الله ﷻ لمَّا رغَّب بني إسرائيل في الوفاء بالعَهدِ بقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ ونهاهم عن تركِ ذكرِ النِّعمةِ ناسبَه ختمُه بالتَّرهيبِ على طريقة القرآن الكريم في جَمعِ المتقابلات، ولأنَّه أخفُّ يجوزُ العَفْوُ عنه لكونِه معصيةً[3].

أمَّا الآية الّتي بعدها فإنَّه سُبحانه لمَّا أمرهم ونهاهُم بقوله: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾، وكانت حقيقةُ التَّقوى موافقةَ خطابِ الشَّرعِ في الأمر فِعلًا وفي النَّهيِ تركًا، ناسبَهُ خَتمُ الآية بالأمر بها[4].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/212.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 1/404.

(3) السمين، الدر المصون: 1/320.

(4) سعد عبد العظيم محمَّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 93.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النِّعْمة والنَّعْمة:

في الفرقِ بينَهما وَجهان:

الأول: -حكاه النَّضر بن شُمَيل- أنَّها بكسر النُّونِ: في المُلْكِ، وبفتحِها: في البدَنِ والدِّين.

والثاني: أنَّها بالكسرِ: مِن المِنَّةِ؛ وهو الإفضَالُ والعطيَّة، وبالفتح: من التَّنعيم؛ وهو سَعَةُ العيشِ والرَّاحة [1]

الرَّهْبَةُ وَالخوْفُ:

بين الرهبة والخوف عمومٌ وخصوص مُطلقٌ؛ فالرَّهبةُ أخصُّ مِنَ الخوف، وذلك أنَّ الرَّهبةَ خوفٌ مع أمرٍ زائدٍ، وهو التَّحَرُّزُ مِنَ المخوفِ، ومِن التَّحرز مِنهُ: الإمعانُ في الهربِ مِنَ المكروهِ، وإذا تعلَّق ذلك بالله تعالى كان الهرَبُ مِن الله تعالى إليه بالعَمَلِ بما يُرضيه.

وزاد أبو هِلالٍ فرقًا آخرَ؛ وهو أنَّ الرَّهبةَ طولُ الخوفِ واستمرارُهُ، ومِنهُ سُمِّي الرَّاهبُ بذلك؛ لأنَّه يُديمُ الخوفَ[2].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/138.

(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 261.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤٢ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [البقرة: 42-43]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهما:

لـمَّا أمرَ اللّه تعالى بني إسرائيل بالإيمان ونَهاهُمْ عَنِ المُسارعةِ إلى الكُفر- وكان مِنَ الطُّرُق الصَّادَّةِ عَنِ الحقِّ اختلاطُهُ بالباطِل أو خفاؤُهُ-؛ نَهاهُمُ اللّه تعالى عَنْ لَبْسِ الحقِّ بالباطل أو كِتمان أدلَّة النبوَّةِ، ثمَّ بيَّنَ لهم أعظمَ لوازِمِ الإيمانِ المأمورِ به؛ وهو الصَّلاة الّتي هي أعظَمُ العباداتِ البدنيَّةِ، والزَّكاةُ الّتي هي أَعظَمُ العِباداتِ الماليَّةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَلْبِسُوا۟﴾: تَدورُ تصارِيفُ مادَّة اللَّام والبَاءِ والسِّين على مَعنَى التَّغطيةِ بمُداخلةٍ ومخالطةٍ[2]، ومِنهُ لِبَاسُ الإنسانِ؛ لأنَّهُ يستُرُ ويُغطِّي، وهو مُخالطٌ للابِسِه[3].

ومِنهُ قولُهم: التَبَسَ عليه الأمرُ؛ إذا خالطَهُ اعتقادٌ ستَرَ عليه وَجهَ الصَّواب فيه.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ مِن هذا الباب، ومعناه: لا تخلطوا الحَقَّ بالباطلِ فيخفَى وجهُ الصَّواب[4].

2) ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: البَاءُ والطَّاءُ واللَّام تدُلُّ اشتقاقاتُهُ على ذهاب الشَّيءِ وقلَّةِ لُبْثِهِ[5]، ومنه قولُهم: بَطَلَ الشَّيءُ يَبطُلُ؛ إذا تَلِفَ[6]، وسمِّي السَّحرةُ بَطَلَةً [7] كما ورد في قول النَّبيِّ ﷺ عن سورة البقرة: «وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»[8]؛ لضياعِ سَعيِهم وذهابِهِ؛ لاشتغالهم بالباطلِ.

(1) الرَّازي، التّفسير الكبير: 3/485.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (لبس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لبس).
(4) أبو عبيد الهرويّ، الغريبين: (لبس).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بطل).
(6) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (بطل).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (بطل).
(8) رواه مسلم: (804).

وتقُولُ العربُ: ذهب دَمُهُ بُطْلًا؛ أي: هَدَرًا[1].

والباطلُ: ضدُّ الحقِّ[2]، وهو الشَّيءُ الزَّائلُ؛ أي: ما لا ثباتَ لَهُ عِندَ الفحصِ عنه؛ إذ هو ضدُّ الحقِّ، والحقُّ: هو الثَّابتُ[3].

3) ﴿تَكۡتُمُواْ﴾: الكَافُ والتَّاء والمِيم تدُلُّ تصريفاتُها على الإخفاءِ والسَّتر[4]، ومنه: الكِتمانُ؛ وهو ضدُّ الإعلان[5]، وتقولُ العربُ: كاتَمْتُهُ العداوةَ؛ أي: ساتَرْتُهُ إيَّاها[6].

وكِتمَانُ الحقِّ في قوله تعالى: ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ يُرادُ به إخفاءُ ما في التَّوراة، إمَّا بادِّعاءِ عَدَمِ وجودِهِ فيها، أو بِمَحوِ ما فيها، أو بكتابتِهِ على خِلافِ ما هو عليه[7].

4) ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾: الزَّاي والكاف والواو تدلُّ تصاريفُها على نَماءٍ في الشَّيء وزيادته مع جودَةِ نوعِه[8]، ومنه سُمِّيَت الزَّكاةُ الشَّرعيةُ زكاةً؛ لأنها تُثَمِّرُ المالَ وتُنَمِّيه[9].

والزَّكاةُ في قوله سبحانه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هي الزَّكاة الشَّرعيةُ، وحقيقتُها أنَّها حَقٌّ واجِبٌ في مالٍ مخصوصٍ لطائفةٍ مخصوصَةٍ في وقتٍ مخصُوصٍ[10].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

لا تَخلِطوا الحَقَّ الّذي أَنزَلْتُهُ على رُسُلي بما افترَيتُموهُ مِنَ الباطل، ولا تُخفُوا الحقَّ الّذي في كتبِكم المنزَّلة، كإخفاءِ صِفَةِ مُحَمَّد ﷺ، مع عِلمِكُم بأنَّهُ صِدقٌ وحقٌّ، وأدُّوا الصَّلاةَ مُظهِرينَ لها مُداوِمين عليها مُحافظين على أَركانِها وشُروطِها ومُكمِّلاتِها، وأَخرِجوا زكاةَ أموالكم وأوصِلُوها إلى مستحقِّيها، واخضعُوا مع الخاضِعِين مِن أُمَّةِ الإسلامِ، وانخرطوا في صفوف المتبتّلين الطّائعين، وصَلُّوا معهم في جَماعَتِهِم[11].

---

(1) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (بطل).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح: (بطل).
(3) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (بطل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كتم).
(5) الخليل، العين: (كتم).
(6) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (كتم).
(7) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/460.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زكى)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (زكو).
(9) ابن فارس، حلية الفقهاء، ص: 95.
(10) البَعْلِي، الرَّوض النَّدي، ص: 114.
(11) ابن جرير، جامع البيان: 1/566-575، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/61، وأبو بكر الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 1/49، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.

۞ الإيضَاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تَوجيهُ بلاغةِ وَصلِ الجُملةِ بسابِقَتِها:

التَّحذيرُ مِنَ إضلالِ الآخرين بَعدَ التَّحذير من ضَلالِ النَّفس

عَطفُ جملةِ ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ على ما تقدَّمها جميعًا مِنْ قولِهِ سبحانه: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إلى هذا المَوضِعِ؛ لم يُقصَد به عطفُ كلٍّ واحدةٍ منها على الّتي قَبلَها، وإنَّما العطف حاصلٌ على جميع ما تقدَّمَها، خصوصًا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ﴾؛ إذ إنَّه بدءُ الانتقالِ "مِنْ غَرَضِ التَّحذيرِ مِنَ الضَّلال إلى غرَضِ التَّحذير مِنَ الإضلال، بعدَ أَن وُسِّطَ بينَهما قولُه: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾"[1].

غَرَضُ النَّهي في قوله ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ﴾:

صيغةُ النَّهيِ الواردة في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، يُرادُ بها التَّوبيخُ والتَّأنيبُ والتَّقريعُ[2].

دلالة اللَّامِ في ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ و ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

إضلالُ عُلماءِ بَني إسرائيلَ لأتباعِهِم قَصدًا

اللام في ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، يُراد بها لامُ العهدِ العلميِّ؛ فإنَّهُ حقٌّ معلومٌ ممّا عَرَفُوهُ من الكتاب المُنزَلِ عليهم.

واللَّامُ في (بالباطلِ) كذلكَ للعهد العلميِّ؛ لأنَّهم على عِلمٍ بما افتَرَوهُ منه وأحدَثُوه؛ فإضلالُهم عن علمٍ ومعرفةٍ لا عن جهلٍ وغباوةٍ.

الإظهَارُ في مَوضِعِ الإضمارِ في قولِهِ ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾:

التأكيدُ على قُبحِ كَتمِ الحَقِّ

التَّصريحُ باسم الحقِّ في قوله تعالى: ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ بعد ذِكرِهُ قبلُ في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ إظهارٌ في مَوضع الإضمار؛ ونكتَةُ الإظهارِ زيادةُ تقبيحِ المنهيِّ عنه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/470.
(2) عبد الرّحمن حبنّكة، البلاغة العربيَّة: 1/236.

ويحتَمِلُ أنَّ إظهارَهُ لكونِ المرادِ بالحقِّ الثَّاني غيرَ المرادِ بالحقِّ الأوَّلِ؛ فيكون الأوَّلُ: عامّا، والثَّاني: مرادًا به صفةُ النَّبيِّ ﷺ في كُتُبِهم[1].

الجُملَةُ الحالِيَّةُ لبَيانِ الواقِعِ لا للاحتِراز:

مَن ضَلَّ عَن علمٍ أقبَحُ حالًا مِمَّن ضَلَّ عَن جهلٍ

جملةُ ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ حاليَّةٌ، وليس المرادُ بها تقيّيدَ النَّهي، بل لبيانِ الواقعِ أنَّهم يعلمونَ ذلك فيقبُحُ بهم كتمانُهُ، فإيرادُ هذه الجملةِ الحاليَّةِ لزيادة تقبيحِ حالِهِم؛ إذِ الجاهلُ قَد يُعذَرُ[2].

وهذه طريقةُ العربِ في كلامِهَا: أنَّ الفعلَ قد يُنهى عنه مقيَّدًا بقيدٍ أو موصوفًا بصفةٍ، وليس الغرضُ مِنْ ذلك النَّهي عَنِ الفعلِ في تلك الحالِ فقط، بَلِ النَّهيُ عَنِ الفعلِ مُطلقًا، ويكون ذلكَ القيدُ أو الصِّفةُ بقصدِ المبالغة في التَّحذيرِ والتَّنفيرِ[3].

نُكتَةُ تأْكيدِ الجملةِ الاسميَّةِ:

كُلَّما قَوِيَ عِلمُ المَرءِ ازدادَت التَّبِعَةُ عليه

أُكِّدَ عِلمُهُم بما نُهوا عن كتمانِهِ مِنْ وَجهَين:

أحدهما: باسميَّةِ الجملة ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، وهي تُفيدُ دوامَ عِلمِهِم، ولم يَردَعْهُم ذلكَ عَنْ جَحْدِ الحقِّ الّذي عَلِمُوه.

والآخرُ: تأكيدُ النِّسبةِ بتأخيرِ الخَبَرِ الفعليِّ؛ فإنَّ في ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ نسبةَ العِلمِ إلى ضَميرِ الجَمعِ -الواوِ- الرَّاجِعِ إلى بني إسرائيلَ، ونُسِبَ العِلمُ المستفادُ مِنْ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ إلى الضميرِ المنفصلِ (أَنتُم)، ففي هذه الجملة ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ تَكرارُ النِّسبة مرَّتينِ، وهو من ضُروبِ التَّوكيد.

وفي هذا التَّأكيدِ زيادَةُ تقبيحِ صَنِيعِهم في كَتمِ الحقِّ؛ فإنَّ العِلمَ كُلَّما قَوِيَ عند المَرءِ ازدَادت التَّبِعَةُ عليه.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/96.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/96.
(3) بسيوني فيّود، علم المعاني، ص: 376.

أَثَرُ تَعَدُّدِ دلالاتِ (الإقامَة):

وُجُوبُ الدَّوامِ على الصَّلاةِ بإظهارِها والحِفاظِ عليها

يحتَمِلُ اشتقاقُ الفعلِ (أَقِيمُوا) مِن قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أوجهًا ثلاثة، كلُّ واحدٍ منها يَصِحُّ أَن يكونَ مقصودًا، ولا تعارضَ بينَ هذه الأوجُهِ عند الحَملِ عليها؛ لذا لا مانعَ مِن جمع تلك المعاني كُلِّهَا، وهذه الأوجُهُ هي:

أوَّلًا: أن يكونَ مصدرُ الفعلِ الإقامةَ، بمعنَى الدَّوام[1]، يقال: أقامَ الصَّلاةَ إذا داومَ عليها، أمَّا أقامَ للصَّلاةِ؛ فالمرادُ: نادَى لها[2] بألفاظِ الإقامةِ المعروفَةِ.

ثانيًا: أن يكونَ اشتقاقُهُ مِنَ التَّقويم؛ أي: التَّعديلُ، مِن قولك: قوَّمتُ العودَ؛ إذا عدَّلتَه، ويكون معنى الأمرِ بإقامة الصَّلاةِ - على هذا المعنى - الإتيانَ بها على وجه المُحافظة على أَركانِها وشُرُوطِها ومُكَمِّلاتها[3].

ثالثًا: أن يكون (أقامَ الصَّلاةَ) بمعنَى: أظهَرَهَا، مِنْ قولهم: أُقيمَتِ السُّوقُ، إذا حُرِّك فيها ما يَليق بها من البيع والشِّراء[4].

وهذه المعاني كلُّها حقٌّ، فيصحُّ حَملُ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ على هذه المعاني الثَّلاثة؛ فيكون أمرُهُم بإقامة الصَّلاةِ أمرًا لهم بالدَّوام عليها، وإظهارِها، والإتيانِ بها مُحافِظين على أركانها وشُروطها ومُكمِّلاتها.

بَلاغةُ الاستِعارَةِ في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

تشبيهُ المعنويِّ بالحسيِّ لإيضاحِهِ حذرًا من الإخلالِ به

الفعل ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ مُشتقٌّ مِنَ التَّقويم، أي: التَّعديل، وهو مِنْ بابِ الاستعارةِ، وفي إجرائِهَا مَسلَكانِ اثنانِ:

(1) أبو عبيد الهرويّ، الغريبين: 5/1596.
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: 2/520.
(3) النَّبراويّ، حاشية على الأربعين النَّوويَّة، ص: 37.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/85، والقرطبيّ، المُفهم: 3/390.

أحدهُمَا: أَنْ يُقالَ: شُبِّهَتِ الصَّلاةُ بالعودِ بجامعِ التَّعديلِ في كُلٍّ منها، فحُذِفَ المُشَبَّهُ به، ورُمِزَ له بشَيءٍ مِنْ لوازِمِهِ وهو ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ على سبيلِ الاستعارَةِ المكنيَّةِ الأَصليَّة.

والآخرُ: أَنْ يُقالَ: شُبِّهَ تعديلُ الأَركانِ بتقويمِ الرَّجلِ العودَ، واستُعيرَتْ له: الإقامَة، ثُمَّ اشتُقَّ مِن (الإقامَةِ) بمعنى (التَّقويم) الفعلُ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾، فصُرِّحَ بالمُشبَّهِ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة.

ونُكتَةُ الاستعارة: أَنَّ تقويمَ الصَّلاة معنويٌّ، وتقويمَ العودِ حسِّيٌّ، والخَلَلُ الحسِّيُّ أَظهَرُ مِنَ الخَلَلِ المعنويِّ؛ لأَنَّه مُدرَكٌ لكلِّ راءٍ، فأيُّ فسادٍ في الحسِّيِّ يُتفَطَّنُ له فيُبادَرُ إلى إصلاحِهِ، وكذلك شأنُ الصَّلاةِ ينبغي النَّظرُ فيما قد يدخُلها مِنَ الخَلَلِ فيُتدارَكُ.

الأَصلُ حَملُ الأَلفاظِ الإسلاميَّةِ على حَقائِقِها الشَّرعيَّةِ

دلالة اللَّامِ في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

اللَّامُ الدَّاخلةُ على (الصَّلاةِ) في قوله ﷻ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عهديَّةٌ، والمرادُ بها الصَّلَوات الخمسُ[1]، ويُؤيِّدُه: أَنَّ هذا التَّرتيب (إقامة الصَّلاة) مستعمَلٌ في خطابِ الشَّرعِ لهذا المعنَى.

ومثلُها اللَّام في (الزَّكاة) من قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ فإنَّها للعهدِ، وهي الزَّكاة الشَّرعيَّةُ المعروفَةُ، وذلك أَنَّ هذا التَّركيبَ (إيتاء الزَّكاة) مُستعمَلٌ في خطابِ الشَّرعِ لهذا المعنى، كما ورد في قول النَّبيِّ ﷺ: «بُنِيَ الإسلامُ على خَمسٍ: شَهادَةِ أَن لا إِلَهَ إِلَّا اللّٰه وأَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللّٰهِ، وإقام الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاة»[2].

الجمعُ بين المعنى اللُّغويِّ والشَّرعيِّ وتنبيهُ اليهودِ على الصَّلاةِ المطلوبة

بلاغةُ المَجازِ في ﴿وَٱرۡكَعُواْ﴾:

اختُلِفَ في الرُّكوعِ الواردِ في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ على قولين:

(1) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/154.
(2) البخاريّ، حديث رقم: (8) ومسلم، حديث رقم: (16).

أحدهما: أنَّهُ الخضوعُ؛ وذلك أنَّ العربَ تستعمِلُ الركوعَ لهذا المعنى، ومنه قولُ عصام بنِ عبيد الزِّمَّاني[1]:

بيعَتْ بِوَكْسٍ قليلٍ فاستَقَلَّ بها *** مِنَ الهُزالِ أَبُوهَا بَعدَ ما رَكَعا

أي: بعد ما خضعَ[2].

وأصلُ الرُّكوعِ: الانحناءُ[3]، فاستعمالُه بمعنى الخُضوعِ مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقةِ الملزوميَّةِ؛ فإنَّ مِنْ لازم الانحناءِ الخضوعَ، وفي التَّعبيرِ عَنِ الخضُوع بالرُّكوع ذكرٌ للخُضوعِ مع دليلِهِ اللَّازِم له عادَةً.

والآخر: أنَّه الانحناءُ المعروفُ الَّذي هو أحدُ أركانِ الصَّلاةِ، ومِنَ المَعلوم أنَّه لا يُرادُ الأمر بخصوص الرُّكوعِ مفردًا؛ فإنَّه ليس في الإسلام قُربَةٌ إلى الله بالرُّكوع المجرَّدِ، وإنَّما ذلك مشروعٌ داخلَ الصَّلاةِ، فتبيَّنَ مِنْ هذا أنَّ الأمر بالرُّكوع أمرٌ بالصَّلاةِ، فيكون إطلاقُ الرّكوع على الصَّلاة من باب المجاز المُرسل بعلاقة الجزئيَّة، والنُّكتَةُ في ذلك: التَّنبيهُ على أهميَّةِ هذا الجزء؛ فلا تُتَصَوَّرُ الصَّلاةُ الشَّرعيةُ إلَّا بوجودِهِ.

وفي ذِكرِ الرُّكوعِ بعد ذكر الصَّلاة في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ زيادَةُ بيانٍ للمُرادِ بالصَّلاة المأمور بها، وأنَّها صلاةُ المُسلمين؛ إذ صلاةُ اليهُود لا ركوعَ فيها[4]؛ فهو يأمرُهم أن يُصلُّوا مع المُسلمين، وفي ذلك أمرٌ أن يخضع اليهود لشريعة محمَّدٍ ﷺ.

نُكتَةُ الأَمرِ بالرُّكوعِ بعدَ الأَمرِ بإيتاءِ الزَّكاةِ:

البُعدُ بالقلبِ عَمَّا يُدَاخِلُهُ مِن استعلاءٍ عند بَذلِ المال

ورَدَ بعد الأمرِ بالزَّكاةِ الأمرُ بالرُّكوعِ -إذا حملناه على الخُضوعِ-؛ لكون الزَّكاةِ مَظِنَّةً للترفُّعِ؛ لما فيها من بذلِ الغَنيِّ للفقيرِ، فجاء الأمرُ بالخضوعِ؛ لئلَّا يقَعَ في قلوبِهم شيءٌ مِنَ التَّرفُّعِ[5].

الرُّكوعُ علامةُ صلاةِ أهلِ الإسلامِ

دلالة اللَّامِ في ﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾

(1) الجاحظ، الحيوان: 4/398، أبو تمام، الوحشيات، ص: 86.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/575.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ركع).
(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/487.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 1/249.

للجِنسِ المرادِ به استغراقُ أفرادِه، ويَحتَمِلُ أن يُرادَ بها العهدُ؛ وهُمُ النَّبيُّ ﷺ وأصحابُهُ. واستَظهرَ الأوَّلَ الآلوسيّ[1]، والثَّاني مُندَرِجٌ فيه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللَّبْسُ والخَلْطُ:

بَينَ اللَّبس والخَلط عمومٌ وخصوصٌ مُطْلَقٌ، فاللَّبْسُ أخصُّ مِنَ الخَلْطِ مُطلقًا؛ وذلك أنَّ اللَّبْسَ مقصور على المعاني، كَلَبْسِ الحقِّ بالباطِلِ، وكقولِ القائِلِ: في كلام فلانٍ لَبْسٌ. بخلاف الخَلْطِ؛ فإنَّه يُستعمل في المعاني والأجسامِ، فتقول: خَلَطْتُ الأمورَ، وتقولُ: خَلَطتُ المَتَاعَينِ، ولا تقول: لَبَسْتُهُما [2].

الكِتمانُ والإخفاءُ:

بين الكتمان والإخفاء عمومٌ وخصوص مُطْلَقٌ؛ فالكِتمانُ أخَصُّ مُطلقًا مِنَ الإخفاءِ؛ وذلك أنَّ الكتمانَ خاصٌّ بسَترِ المعاني، فيُقال: كتَمَ السِّرَّ والخبَرَ، بخلاف الإخفاءِ فإنَّهُ أعمُّ؛ فيكون للمعاني وللمَحسُوساتِ[3].

الإقامَةُ والأَداءُ:

أصل مادَّةِ الأداءِ إيصالُ شيءٍ إلى شيءٍ[4]، ومنهُ أداء الأمانةِ: إيصالُهَا لصاحبِهَا. والإقامةُ تَتجاذبُها أصولٌ مختلفةٌ، ففيها معنى الدَّوام[5]؛ من قولهم: أقامَ على الشَّيءِ؛ إذا داومَ عليه، وفيها معنَى التَّعديل؛ من قولهم: قوَّمتُ العودَ؛ إذا عدَّلتَهُ، وفيها معنَى الإظهارِ، من قولِهِم: أُقِيمَتِ السُّوق[6].

فالإقَامَةُ أغزَرُ معاني من الأداءِ، ولذا أُوثِرَت بها الصَّلاةِ، فلم يَرِد في التَّنزيلِ الكريم قطُّ الأمرُ بأداءِ الصَّلاةِ، وإنَّما جاء الأمر بإقامتِهَا، والفرق بينهما: أنَّ أداء الصَّلاةِ صادِقٌ على مُطلَقِ الأداءِ الّذي تبرأُ به الذِّمَّةُ؛ لأنَّ ما دونَ ذلك ممَّا لا تبرأُ به ذمَّةُ العبدِ لا يكونُ إيصالًا؛ ولأنَّ ما لا يُعتَدُّ به في الشَّرعِ في حُكمِ المعدومِ في الوجودِ.

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/249.
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 462.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 448، وابن سِيدَه، المخصّص: 39/4.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أدي).
(5) أبو عبيد الهروي، الغريبين: 5/1596.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/85.

أمَّا إقامة الصَّلاةِ فتتضمَّنُ أداءَهَا، والدَّوامَ عليها، وإظهارَهَا، وتعدِيلَهَا بالإتيان بها على وجه الحفاظ على أركانها وشروطها ومكمِّلاتها.

الإيتاءُ والإعطاءُ:

الإيتاء والإعطاءُ بمعنًى واحدٍ في ظاهرِ صَنِيعِ كثيرٍ مِن أصحاب المعجماتِ[1].

وفرَّق آخرونَ بينهما بأنَّ في الإعطاءِ دليلًا على التَّمَلُّكِ بخلاف الإيتاء[2].

وأمَّا في الاستعمال القرآنيِّ للَّفظتين فبينهما فرقٌ من وَجهَينِ[3]:

أحدهما: لم يستعمل الإيتاءُ إلَّا للشَّيءِ الكَثير والعظيم الشَّأْنِ، كالقرآنِ الكريمِ، والمُلْكِ، والحِكمَةِ، والرَّحمة، ومثلُ ذلك: الزَّكاةُ؛ لعظيم نَفعِها.

بينَما يكونُ الإعطاء للشَّيءِ القليل، ولم يَرِد دالًّا على الشَّيء الكثير إلَّا مقيَّدًا بما يدُلُّ على الكثرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: 1]، وقوله: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء: 20]

والآخر: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العبدِ يكون عَنْ طِيبِ نفسٍ، بخلاف الإعطاءِ فهو أعَمُّ؛ فيكون عَن طِيب نفس كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل: 5]، وعَن كُرهٍ كما في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: 29].

(1) الخليل، العين: (أتى)، والجوهريّ، الصّحاح: (أتا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتي).

(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 87.

(3) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 29-27.

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾ [البقرة: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا أُمِرَ بنُو إسرائيلَ بفِعلِ شعائِرِ الإِسلامِ مِن إقامةِ الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة، وذُيِّلَ ذلك بأَمرِهِم بالرُّكوع مع الرَّاكعين؛ لبيانِ أنَّ صلاتَهُم الّتي يفعلونَهَا لا تُغنِي عنهم شيئًا؛ ناسبَ بعدَ ذلك أن يُبَيِّنَ لهم أنَّ ما يأمرُهم به دينُهم مِنَ البرِّ ليسوا هم فيه على الوَجهِ الّذي يَنبغي، فقال سبحانه: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بِٱلۡبِرِّ﴾: البِرُّ: الصِّدْقُ[2]، ومنه استعمالُهُ في ضدِّ العُقوقِ؛ يُقَالُ: بَرَّ والديه[3]، إذا صدَقَ في طاعتِهما وإيصالِ الخيرِ لهما، ومنه: بَرَّ في يمينه؛ إذا صَدَقَ فيها[4]، وبَرَّ حجُّهُ؛ إذا كان خالصًا لم يخالطْهُ إثمٌ[5].

وفي البِرِّ عباراتٌ كثيرةٌ، منها: الاتِّسَاعُ في الإِحسانِ والزّيادةُ فيه[6].

وأجمَعُ تعريفٍ للبرِّ أنَّه: اسمٌ جامعٌ لكلّ خيرٍ وطاعة[7].

2) ﴿وَتَنسَوۡنَ﴾: النُّونُ والسّين والياء تدُلُّ اشتقاقَاتُها على مَعنَيَين؛ أحدهما: إغفالُ الشَّيءِ، والآخر: تركُهُ[8]، والثَّاني لازمٌ للأَوّلِ؛ فإنَّ إغفالَ الشَّيءِ يلزَمُ منه تَرْكُهُ.

ومِن مَجِيءِ النِّسيانِ بمعنى: الغفلةِ والذُّهول عَنِ الشَّيءِ؛ قولُ اللّه تعالى: ﴿لَّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/474.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (برّ).
(3) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (برّ).
(4) الجوهريّ، الصِّحاح: (برر).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (برر).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (برّ).
(7) المُناويّ، التّيسير: 1/292، والتَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 122، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 845.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نسي).

﴿يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: 52]، ومِن مَجيئه بمعنى: التَّرك؛ قولُ اللّه تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: 67].

والنِّسيان في قوله تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ يُرادُ به التَّرك، والمعنى: أتأمرون النَّاس بالبِرِّ، وتترُكون أنفسَكم عَن أَمرِها بذلك[1].

3) ﴿تَتۡلُونَ﴾: التَّاء واللَّام والواو تدُلُّ اشتقاقَاتُهَا على مَعنى الاتِّباع[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: 2] أي: تَبِعَهَا[3]، وسُمِّيت القراءةُ تلاوَةً؛ لأنَّ القارئَ يَتبَعُ ما يقرأُ[4]، ويُقال: تلا القرآنَ؛ لأنَّه يُتبِعُ آيةً بعد آيةٍ[5].

وقولُه تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾، أي: تقرؤونَ التَّوراةَ[6].

4) ﴿تَعۡقِلُونَ﴾: العَينُ والقَاف واللَّام تدُلُّ أكثَرُ تصاريفِهَا على حُبۡسَةٍ في الشَّيءِ[7]، ومنه قولُهم: عَقَلَ الدَّواءُ بطنَه؛ إذا أمسَكَهُ[8]، والعِقالُ؛ وهو: حَبلٌ تُثۡنَى به يَدُ البَعير إلى رُكبَتَيهِ فيشدُّ به[9]، وسُمِّي العَقلُ عَقلًا؛ لأنَّه يحبِسُ صاحبَهُ ويمنَعُهُ عمَّا لا يليقُ[10]؛ وهو الإدراكُ والعِلمُ، وهو ضِدُّ الحُمۡق والجهل، وهو الغريزة المُدركة الّتي ميَّز اللّه تعالى بها الإنسانَ عَن سائر الحيوان، ويسقط بفُقدَانِها التَّكليف، والجمع: عقولٌ.

ويُطلق على العَقلِ إطلاقَاتٌ؛ مِنها: الفهمُ والتَّمييز، ومِنه قولُ اللّه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: أفلا تَفقَهونَ وتفهمون[11]، ويحتمِلُ أَن يُرادَ بالعقلِ ههنا: العمَلُ بمقتضى العِلمِ؛ لأنَّ توبيخهم ليس لكَونِهم لم يفهَموا، بل لكونِهم لم يَجۡرُوا على مُقتضى ذلك العِلمِ.

---

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 51.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تلو).
(3) النَّسفِيّ، مدارك التَّنزيل: 3/647.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (تلو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تلو).
(6) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 1/364.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عقل).
(8) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (عقل).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (عقل).
(10) الزَّبيديّ، تاج العروس: (عقل).
(11) ابن جرير، جامع البيان: 2/10.

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

أَتطلُبونَ مِنَ النَّاس فعلَ الخيرِ، ومنه الإيمانُ، وتُعرِضُون عَن أَنفُسِكُم وتَترُكونَها فلا تأمرونَها بالخير، وأعظَمُهُ: الدُّخول في الإسلام، والحالُ أنَّكم تقرؤون التَّوراةَ وفيها نعتُ النَّبيِّ محمَّد ﷺ، ووجوبُ اتِّباعِهِ والإيمانِ به؟! أليس لَكُم عقولٌ تَرْدَعُكم عَن قَبيحِ صَنيعِكم هذا؟![1].

الإيضَاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغَةُ الإطنابِ بالاعتِراضِ:

علامةُ الضَّالِّ أنَّـه يُمـارِسُ الوَعظَ وظيفةً لا سلوكًا

قولُ اللّه تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ﴾ إطنابٌ بالاعتراضِ بينَ قولِه سبحانَه قبلُ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقوله تعالى بعدُ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾، ولذا لم يُصَدَّرْ بالواو؛ ليُعلم أنَّه اعتراضٌ.

ونكتَةُ الاعتراضِ ههنا: ذِكرُ كمالِ خسارتِهم وبيانُ مَبلَغِ سوءِ مآلهم؛ "حتَّى صاروا يقومون بالوعظ والتَّعليم كما يقومُ الصَّانع بصناعَتِهِ والتَّاجر بتجارته، لا يقصدون إلَّا إيفاء وظائِفِهم الدِّينيَّةِ حقَّها؛ ليستحقُّوا بذلك ما يُعَوَّضون عليه من مَراتِبَ ورواتِبَ، فهم لا ينظرون إلى حال أنفسِهم تُجاهَ تلك الأوامر الّتي يأمرون بها النَّاسَ"[2].

دلالة الاستِفهامِ في قوله ﴿أَتَأۡمُرُونَ﴾:

إنْ هلَكَتِ النَّفسُ فلا عِبرةَ بهدايةِ مَنْ بعدَها

الاستفهامُ في قوله ﷻ: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ يُرادُ به الإنكارُ على صنيعِ اليهودِ؛ حيث أَمَرُوا النَّاسَ بالبِرِّ مع نسيان النَّفس، مع أنَّ النَّفسَ أَولَى أن يُبدَأَ بأمرِها ونَهيِها[3]، وفيه مع الإنكارِ: التَّقريرُ والتَّوبيخُ والتَّعجيب مِن حالِهم[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/77، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/155-156، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 51، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/474.
(3) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/157.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/462.

تَعيينُ المُخَاطَبِ بِ ﴿أَتَأۡمُرُونَ﴾ ومَعنَى اللَّامِ فِي ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

المقصودُ بالواوِ في ﴿أَتَأۡمُرُونَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ﴾ الّذينَ خُوطِبُوا قبلُ، وهُم جميعُ بني إسرائيلَ، وهذا أبلغُ في ذمِّهِم؛ حيث "إِنَّ كلَّ واحدٍ مِنهُم تَجِدُهُ يُصَرِّح بأوامرِ دينِهِم، ويُشِيعُهَا بين النَّاس، ولا يَمتَثِلُهَا هو في نفسه"[1].

اعتيادُ سلوكِ المُنكرِ عند الأحبارِ يجعلُهم على الضِّدِّ من وصفِ الأبرارِ

ويحتمِلُ أَنْ يُرادَ بهم قومٌ مَخصوصونَ منهم؛ وهم أحبارُهُم وعلماؤُهم، بقرينةِ ذكرِ الأمرِ بالبرِّ؛ إذ هم أخصُّ به.

وعلى الأَوَّلِ يكونُ المرادُ بالنَّاسِ مِن قولهِ تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ﴾ مشركي العربِ؛ وذلك أنَّ اليهودَ كانت تذكرُ للعربِ ما جاء في دينِهِم، والعرَبُ كانت تحفَلُ بسماعِ ذلك.

وعلى الثَّاني يكون المرادُ بالنَّاسِ العامَّةَ من اليهودِ؛ وذلك أنَّ أحبارَهُم كانوا يأمُرُونَ الأتباعَ والعامَّةَ بالبِرِّ ثُمَّ هم لا يمتثلُونَهُ[2].

وعلى كلا الاحتمالَينِ؛ فاللَّامُ في (النَّاس) للعَهد.

نُكتَةُ العُدولِ عَنِ (النُّفُوسِ) إلى (الأَنفُس):

الغافلُ الآمرُ غيرَه بالبرِّ قليلُ الشَّأنِ حقيرُ النَّفسِ

جُمِعَت كلمة ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ على (أَفْعُل) وهو من جموع القِلَّةِ دُونَ التَّعبير بـ (النُّفوسِ)؛ تحقيرًا لهذه الأنفسِ؛ إذ الآيةُ سِيقَتْ مساقَ الذَّمِّ لهؤلاءِ[3].

تَرَدُّدُ الجملةِ بَينَ الحَملِ على العَطفِ أوِ الحال:

التَّوبيخُ معقودٌ بالنُّفوسِ الغافلةِ والعقولِ النَّاسيةِ

جملة ﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ يَحتَمِلُ أن تكون معطوفةً على ﴿۞أَتَأۡمُرُونَ﴾، وتكون هي محَطَّ التَّوبيخ والتَّعجيب والتَّفظيع.

ويَحتَمِلُ أن تكون حالًا مِنَ الواو في ﴿۞أَتَأۡمُرُونَ﴾، فتكون الحالُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/474.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/474.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/107.

مقيِّدَةً للتَّوبيخ في أمر النَّاس بالبرِّ بحالِ نسيانِ الآمرِ نَفسَهُ[1]؛ إذ يُعلَمُ ضرورةً أنَّه لا يُوبَّخُ أحدٌ على مُطلَقِ أمرِهِ غيرَهُ بالبرِّ.

دلالة الجملةِ الحاليَةِ ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

ضيـاعُ التَّقوى مـن القـلـوبِ يُـذهـبُ الحياءَ من السُّلوكِ

جملةُ ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ حاليَّةٌ، جيءَ بها لِتَبكِيتِهم وتقريعِهِم وزيادةِ تقبيحِ حالِهِم[2]؛ وذلك لأنّ نسيانَهُم أنفسَهُم يكون أفظَعَ بوجودِ أمرَينِ من شأنِهما أن يَرُدَّا بني إسرائيل إلى الصَّواب؛ وهما:

الأوَّلُ: أَمرُهُمُ النَّاسَ بالبرِّ؛ فإنَّ الآمِرَ بهِ من شأنِهِ أن يتذكَّر حاجتَهُ إليه حالَ كونِهِ في غفلةٍ عن نفسِهِ.

والآخرُ: تلاوتُهُم التَّوراةَ وهي مُشتَمِلَةٌ على الأوامرِ والنَّواهي، وذلك من شأنِهِ أن يُذكِّرَهم بمخالفتِهِم لِما يتلونَهُ[3].

نُكتَةُ تأْكيدِ الجملةِ الاسميَّةِ:

قـوَّةُ التَّقريـعِ والتَّوبيخِ بسببِ استـحـكـامِ الـغـفـلـةِ مع استـحـضـارِ المعرفةِ

أُكِّدَ تلاوتُهُمُ الكتابَ بطريقَينِ:

الأوَّلُ: اسميَّةُ الجملة ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾، وهي دالَّةٌ على الاستمرارِ، وهذا أبلغُ في التَّشنيع عليهم؛ حيثُ إنَّهم مستمرُّونَ على قراءَةِ ما يُخالفونَهُ، فلم يَرْعَوُوا لقساوَةِ قلوبِهِم وخُبثِ طَوِيَّتِهِم.

والآخر: تأخيرُ المُسنَدِ الفعليِّ ﴿تَتۡلُونَ﴾ عَنِ المُسنَدِ إليه ﴿وَأَنتُمۡ﴾؛ وذلك يقتضِي أنَّ النِّسبةَ كُرِّرت مرَّتينِ؛ أُولَاهُما: إسناد الفعل إلى واوِ الجماعةِ، والأخرى: إسناد الفعل إلى الضَّمير المنفصل (أَنتُم)، وتَكرار النِّسبةِ من طُرُقِ توكيدِ الجُملِ الاسميَّة.

دلالة اللَّامِ في ﴿ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾:

سُلوك اليهود يُبايِن تعاليمَ التوراة

اللَّامُ في ﴿ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/476.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/97، والآلوسّي، روح المعاني: 1/249.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/476-477.

للعَهدِ العلميِّ؛ والكتاب يُرادُ به التَّورَاةُ؛ إذ هو الكتاب الّذي يتلوهُ اليهودُ على وجهٍ خاصٍّ.

ويَحتَمِلُ أن تَكُونَ اللَّامُ للعَهدِ الحضوريِّ، فيكون معنى قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ والحال أنَّكم تَتلُونَ هذا الكتابَ الحاضِرَ بينَ أيديكم وهو التَّوراةُ.

وهما وجهان متقاربَان، مآلاهُمَا الدِّلاليُّ واحدٌ.

غَرضُ الاستِفهامِ في قوله ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

الاستفهام في قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ يُرادُ به التَّوبيخ[1] زيادةً على توبيخِهم السَّابق.

نُكتَةُ حَذفِ المَفعولِ:

حُذف المعمولُ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، وفي ذلك ثلاثةُ مَسَالكَ[2]:

آمِرُ النَّاسِ بالبِرِّ مع نِسيانِ نَفسِهِ في حُكمِ مَسلوبِ العَقلِ

الأوَّل: أَنْ يُقدَّرَ للفعلِ مَفعولٌ خاصٌّ، والمعنى: أفلا تعقلون قَبيحَ صُنعِكُم لمُخالَفَةِ ما تَتلُونَهُ -فيما أمَرَكُم اللّهُ تعالى به - في التَّوراة.

الثَّاني: أَنْ لا يُقدَّر للفعِل مفعولٌ خاصٌّ؛ والمرادُ: العُمومُ، أي: أفلا تعقلُونَ شيئًا؟

الثَّالثُ: أَنْ لا يُقدَّرَ له مَفعُولٌ أَصلًا؛ تنزيلًا للفعلِ المُتَعَدِّي منزِلَةَ اللَّازم، كأَنَّ المفعولَ غيرُ مرادٍ، قال الزَّمخشريُّ: "أفلا تفطنون لقُبحِ ما أقدمتُم عليه حتَّى يَصُدَّكم استقباحُه عَنِ ارتكابه، وكأنَّكُم في ذلك مَسلوبُو العقولِ؛ لأنَّ العقولَ تأبَاه وتدفعه"[3]، وهذا أبلغُ في ذمِّهم.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البِرُّ والخَيرُ:

بينَ البرِّ والخير عمومٌ وخصُوص مُطلَقٌ؛ فالبرُّ أخصُّ مُطلقًا مِنَ الخيرِ، وذلك أنَّ البرَّ هو الخيرُ الواصلُ إلى أَحدٍ ما مع القَصدِ إلى ذلك، بخلافِ الخَيرِ فإنَّه أَعَمُّ، سَواءٌ وصل ذلكَ عَنْ قَصدٍ أو عن غَيرِ قصدٍ[4].

---

(1) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/158.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/133، والآلوسّي، روح المعاني: 1/250.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/133.

(4) أبو هِلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 95.

التِّلاوَةُ والقِراءَةُ:

بينَ التِّلاوة والقراءةِ عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ، فالتِّلاوةُ أعمُّ مِنَ القراءة من وجهٍ وأخصُّ منها مِن وجهٍ آخرَ؛ وذلك:

أنَّ التِّلاوَةَ تأتي بمعنى القراءةِ، وتأتي بمعنى الاتِّباع، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121] أي: يتَّبعونَهُ حقَّ اتِّباعه[1]، والقراءةُ لا تَرِدُ بالمعنَى الثَّاني، فكانت التِّلاوةُ أعمَّ مِن هذا الوجهِ.

وأمَّا وجهُ الخصوص في التِّلاوَةِ، فالتِّلاوةُ تختصُّ غالبًا بكُتُبِ اللّهِ تعالى المُنَزَّلَة، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كُلُّ قراءةٍ تلاوةً -على هذا الوجه-، ولا يُشكِلُ على هذا قول اللّه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: 102]؛ فإنَّه جَريٌ على ما زَعَمَتْهُ الشَّياطينُ من أنَّ الّذي يتلونَهُ هو من كُتُبِ اللّه تعالى[2].

وأمَّا جعلُ التِّلاوةِ أخصَّ مِنَ القراءةِ من جهةِ أنَّ التِّلاوةَ قراءةٌ واتِّباعٌ معًا[3]؛ فهذا غيرُ مُطَّردٍ، بدليل قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، فقد سِيقَتْ مساق الذَّمِّ، ولو تَلَوُا التَّوراةَ واتَّبعوا ما فيها؛ لأدَّاهم ذلك إلى اتِّبَاع دين الإسلام.

(1) الواحديّ، البسيط: 3/183.

(2) الرّاغب، المفردات: (تلو).

(3) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 158-160.

﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦ ﴾

[البقرة: 45-46]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهَما:

لَمَّا أَنكَرَ اللّهُ تعالى على بَني إسرائيلَ اتّباعَهُمُ الهَوى، وكانَ ذلك شَاقًّا عليهم -لِما فيه مِنْ فَواتِ مَحبُوبِهم من الرِّياسَةِ ونَحوِها-؛ أَرشَدَهُم إلى معالجة هذا الدَّاءِ بأعظم أخلاقِ النَّفسِ -وهو الصَّبرُ-، وأجلِّ أعمالِ الجوارحِ -وهي الصَّلاة-، فقال سُبحانَهُ عاطفًا على ما ذكرهُ قبلُ مِنَ الأوامر: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾: أصلُ الصّبر: الإمساكُ في ضِيق، يُقال: صَبَرْتُ الدَّابَّة: حبستها بلا عَلَف، ومنه قولُهم: صَبَرْتُ نَفسِي على كذا؛ أَي: حَبَستُها عليه[2]، بأَنْ حَمَلها على ملازمته.

والصَّبرُ: حَبْس النَّفس على ما يَقتَضِيه العقلُ والشَّرعُ أو عمّا يقتضيان حَبْسَها عنه، فالصَّبرُ لفظ عامٌّ، وربّما خُولِف بين أسمائِه بحسب اختِلافِ مَواقِعه، فَإِنْ كانَ حَبْسُ النَّفس لِمُصِيبَة سُمِّي صبرًا لا غير، وإن كان في محاربةٍ سُمِّي شجاعةً، وإن كان في نائبةٍ مُضْجِرَة سُمِّي رحابةَ صَدْرٍ، وإن كان في إمساكِ الكلامِ سُمِّي كِتمانًا، وقد سَمَّى اللّه تعالى كلَّ ذلك صبرًا في آيات كثيرة في كتابه العزيز[3].

2) ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾: الكاف والباء والرَّاءُ تدُلُّ اشتقاقاتها على خلافِ الصِّغرِ[4]؛ وهو نُمُوٌّ

(1) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 1/338، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/98، والآلوسّي، روح المعاني: 1/250.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صبر).
(3) الرّاغب، المفرداتُ: (صبر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كبر).

حَجم الشَّيء أو زيادتُه بالنِّسبةِ إلى حَجمِه أو حجم غَيرِه، ويُستعمَلُ كذلك في العِظَم المعنويِّ[1]، ومنه: الكبرياءُ، بمعنى: العَظمَة[2].

والكِبَرُ يَرِدُ بمعنَى الثِّقَلِ؛ لأنَّ الثِّقَلَ لازمٌ للعَظَمَةِ[3]، سواءٌ أكانتِ العَظَمةُ حسِّيَّةً أم معنويَّةً، ومنه قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: لثقيلة شاقَّة[4].

3) ﴿ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾: يدُلُّ الجذرُ اللُّغويُّ الخاء والشِّين والعَين على التَّطامُنِ والانخِفاض، يُقال: خشعَ؛ إذا تطامَنَ وطأْطَأَ رأسَهُ[5]، ومنه خُشوعُ الصَّوتِ: انخفاضُهُ، كما في قول اللّه تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ [طه: 108].

والخُشوع شَرعًا: قيامُ القَلبِ بينَ يَدَي اللّه تعالى بالخُضوع والذُّلِّ والافتقار إليه وبالجَوارح[6].

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ أي: إلَّا على الخاضِعين لطاعَتِه[7].

4) ﴿يَظُنُّونَ﴾: الظَّاء والنُّونان تدلُّ تصاريفها على توقُّع وجود شيءٍ مُهمٍّ؛ لأمارَةٍ أَو دليلٍ قويَّين[8]، فيكون ذلك شكًّا أَو يقينًا[9]، فمتَى قويت هذه العلامَةُ أدَّت إلى اليقين والعِلم، ومتى ضَعُفَت جدًّا لم يتجَاوزِ الظَّنُّ حدَّ التَّوهُّم[10].

فمِنَ الأوَّلِ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقّة: 20]، ومِنَ الثَّاني قولُه تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ [الجاثية: 32][11].

ومِن مجيءِ الظنِّ بمعنى اليقينِ قولُ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾؛ فإنَّ معناها: يتيقَّنُونَ ذلك[12].

وذكر الزَّركَشيُّ ضابطَينِ للتَّفريقِ بين مَعنيَيِ الظَّنِّ في القرآن الكريم[13]؛ وهُما:

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كبر).

(2) الخليل، العين: (كبر).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كبر).

(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/200.

(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خشع).

(6) ابن القيّم، مدارج السالكين: 1/516.

(7) ابن جرير، جامع البيان: 2/16.

(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظنن).

(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظن).

(10) الرّاغب، المفردات: (ظنّ).

(11) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 425.

(12) ابن جرير، جامع البيان: 20-2/17.

(13) الزَّركشّي، البرهان: 4/156.

الأوَّل: أنَّ الظَّنَّ إذا كان محمودًا مُثابًا عليه فهو اليَقِينُ، وإذا كان مذمومًا متوعَّدًا عليه فهو الشَّكُّ.

الآخَرُ: أنَّ كُلَّ ظنٍّ وردَت بعدَهُ (أَنْ) الخفيفةُ فهو للشَّكِّ.

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

واطلُبُوا العونَ في كلِّ أمورِكم بالصَّبرِ والصَّلاةِ، وإنَّ الصَّلاة لعَظِيمَةٌ وشاقَّةٌ إلَّا على الخاضِعِينَ لربِّهم ﷻ فهي سَهلَةٌ عليهم؛ لأنَّهم يتيقَّنُونَ البعثَ بعدَ الموتِ وملاقاةَ اللّٰه تعالى، وأنَّهم راجعونَ إليه سُبحانَهُ وحدَهُ للحِسابِ والجزَاءِ على الأَعمالِ، فيوجِبُ لهم ذلك فعلَ الصَّلاةَ مُنشَرِحَةً بها صدورُهُم[1].

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة اللّامِ في ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾:

اللَّامُ في (الصَّبرِ) مِن قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ للجِنسِ[2]، فيندرِجُ تحتَهُ أنواعُ الصَّبرِ الثّلاثةُ: الصَّبرُ على الطَّاعة حتَّى يؤدِّيها، والصَّبرُ عن المعصية حتَّى يجتَنِبَها، والصَّبرُ على القَدَرِ المُؤلِمِ فلا يتَسخَّطُهُ[3]، ويدخلُ في ذلك كلُّ عبادةٍ تُعين العابدَ على الاستعانةِ، ومنها الصَّومُ؛ "لِما فيه مِنْ كَسرِ الشَّهوة وتصفيةِ النَّفسِ المُوجِبَينِ للانقطاعِ إلى اللّٰه تعالى المُوجِبِ لإجابَةِ الدُّعاء"[4].

الـصَّـبرُ كـلمـةٌ جـامـعـةٌ وهـي أداةُ الاستعانةِ ومعوانُ الطّاعةِ

فنُّ مُراعاةِ النَّظِيرِ في الجَمعِ بَينَ الصَّبرِ والصَّلاةِ:

في الجمع بين الصَّبر والصَّلاة مراعاةُ النَّظيرِ[5]، فالتَّناسُبُ بينَهُ وبين الصَّلاةِ؛ أنَّ في الصَّلاةِ صَبرًا مِنْ جِهاتٍ مختلفةٍ[6].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/255، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 51، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/250.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 51.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/250.
(5) مراعاة النَّظير: أحَدُ المُحَسِّنات المعنوية؛ وهو: الجمعُ بين أمرَين أو أمورٍ متناسبةٍ لا على وَجهِ التَّضَادِّ. يُنظر: السَّكَّاكي، مفتاح العلوم، ص: 200.
(6) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/177.

نِكاتُ تَقديمِ الصَّبرِ على الصَّلاةِ:

اشتِمالُ الصَّلاةِ على أنواعٍ مِنَ الصَّبرِ

قُدِّمَ الصَّبرُ على الصَّلاةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ لِنِكاتٍ:

الأُولَى: أنَّ هذا التَّقديمَ من بابِ التَّرقِّي[1] بذِكرِ الشَّيءِ ثُمَّ تعقيبِه بما هو أعظَمُ، والصَّلاةُ أرفعُ منزلةً من الصَّبرِ؛ لجمعِهَا أنواعًا منه؛ فالصَّلاةُ "حَبسُ الحَواسِّ على العِبادَةِ، وحَبسُ الخواطِرِ والأفكارِ على الطَّاعَةِ"[2].

الثَّانية: أنَّ الصَّلاة لا يُمكِنُ حصولُهَا كاملةً إلَّا بالصَّبرِ[3]، فتقديمُهُ عليها مِنْ تقديم الشَّرطِ على المشروط.

التَّخلِيَةُ قبلَ التَّحلِيَةِ

الثَّالثة: أنَّ تقديمَهُ مِن بابِ التَّخلِيَةِ قَبلَ التَّحلية ودرءِ المفاسِدِ مُقَدَّم على جَلبِ المصالح؛ وذلك أنَّ في الصَّبرِ إزالَةَ ما لا يَنبَغي، وفي الصَّلاةِ حصولَ ما يَنبَغي[4].

افتِقارُ مُفارَقَةِ العَوائِدِ إلى الصَّبرِ

الرَّابعة: أنَّه تقدَّمَ ذكرُ جملةٍ مِنَ الأوامِرِ والنَّواهي العظيمةِ ممَّا يشقُّ فراقُها على مَنْ ألِفَها؛ فكان تقديمُ الأمر بالصَّبرِ أنسَبَ؛ لأنَّ امتثالَ خطابِ الشَّرعِ بمفارقَةِ الإلفِ يَفتَقِرُ إلى صَبرٍ[5].

سِرُّ حَذفِ مُتَعَلَّقِ الاستِعانَةِ:

الاستِعانَةُ بالصَّبرِ والصَّلاةِ في عُمومِ الأحوالِ

حُذِفَ مُتَعلَّقُ الاستِعانَةِ، فلم يُذكَرْ على أيِّ شيءٍ يُستَعانُ بالصَّبرِ والصَّلاة، والقَصدُ مِن ذلك: العمومُ والشُّمول؛ إذ إنَّ حذفَ المَعمُولِ مؤذِنٌ بالعموم، والمعنى: استَعينوا بهما على جَميعِ أمورِكُم؛ دينيَّةً كانت أو دنيويَّةً[6].

---

(1) التَّرقِّي: أن يُذكرَ المعنى ثُمَّ يُردَفَ بما هو أبلغُ منه.
يُنظر: السُّيوطيّ، شرح عقود الجُمَان، ص: 135.
(2) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 1/177.
(3) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/464، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 1/366.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/298، والآلوسيّ، روح المعاني: 1/250.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/298.
(6) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 51.

فائِدَةُ تَخصيصِ الصَّلاةِ بِعَودِ الضَّميرِ عليها:

تَعظِيمُ قَدْرِ الصَّلاة

الضَّميرُ (هَا) في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ يرجِعُ - في الأظهَر - إلى الصَّلاة[1]؛ إعمالًا لقاعِدَة عود الضَّمير على أقرب مذكورٍ ما لم يدُلَّ دليلٌ على خلافِه[2]، وتخصيصُ الصَّلاةِ بردِّ الضَّميرِ إليها إشارَةٌ إلى عظمَةِ شأنِها[3].

نُكتَةُ تأْكيدِ الجُملةِ بأنواعٍ مِنَ المُؤَكِّدَات:

رِفعَةُ شأْنِ الخاشِعِينَ

أُكِّدَت جملة ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ بمؤكِّداتٍ ثلاثةٍ:

أوّلها: (إنَّ) فإنَّها مِن جملة ما يُؤكِّدُ النِّسَبَ في الجُملِ الاسميَّةِ.

ثانيها: اللَّامُ المزَحْلَقَةُ الدَّاخلة على خَبَر "إنَّ".

ثالثها: اسميَّةُ الجملةِ، فالجملة الاسميَّة آكدُ مِنَ الفعليَّةِ؛ لِمَا تقتضِيه مِنَ الدّلالة على الاستِمرار.

وهذه الألوَانُ مِنَ المؤكِّدَاتُ تدُلُّ على شدَّةِ مشقَّةِ الصَّلاةِ على غير الخاشعِين، وفيها رفعٌ لشأنِ الخاشعِينَ؛ حيث إنَّ هذا الأمرَ العظيم الّذي يشقُّ على غيرِهم مشقَّةً عظيمةً يسهُلُ عليهم.

سِرُّ العُدولِ عَنِ التَّعبيرِ باليَقينِ إلى التَّعبيرِ بالظَّنِّ:

الظَّنُّ بلِقاءِ اللهِ تعالى يُمدَحُ به الإنسانُ، فكيفَ والأَمرُ يَقِينٌ؟!

الظَّنُّ هَهنا بمعنَى اليقينِ؛ والتَّعبيرُ عَنِ اليقينِ بالظَّنِّ له تخريجان:

الأوَّلُ: أن يكونَ على سبيل الحقيقةِ، باعتبار أنَّ الظنَّ يُستعمل في الظَّنِّ واليقِينِ على سَبيل الاشتِراك.

الآخرُ: أن يكُونَ مجازًا بالاستِعارَةِ[4]؛ ووَجهُهُ: أنَّ العِلمَ والظَّنَّ يشتركان في أنَّ كُلًّا منهما اعتقادٌ راجحٌ، ويفترقان في أنَّ العلمَ اعتقادٌ راجحٌ لا يَحتَمِلُ النَّقيضَ، والظنَّ اعتقادٌ راجحٌ يحتَمِلُ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/156.

(2) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/302.

(3) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/301.

(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/154.

النَّقيضَ، فلمَّا اشتبها مِنْ هذه الجِهَةِ أُطْلِقَ أحدُهما على الآخَرِ[1]، والنُّكتَةُ في ذلك ههنا: تهويلُ الأمرِ، والتَّنبيهُ على أنَّ العاقلَ يَكفيهِ في الحثِّ على ملازمة الطَّاعةِ ظنٌّ لقاءِ الربِّ ﷻ، فكيف والأمر يقينٌ لا يتطرَّقُ إليه شكٌّ[2].

سَبَبُ اختِيارِ خَبَرِ (أَنَّ) اسمًا:

ديمومةُ استحضارِ لِقاءِ اللهِ تعالى في خَواطرِ المؤمنِينَ

جُعِلَ خبَرُ (أَنَّ) في قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ اسمًا، فلم يقل: (يظنون ملاقاة اللّه)، وكذا في قوله بعدُ: ﴿وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾؛ للدّلالة على ثبوتِ اللِّقاءِ والرُّجوعِ وتأَكُّدِهِمَا[3]، واستمرارِهم على اعتقادِ ذلك؛ بحيث لا يغيبُ عَن خواطرِهم، وكان هذا دافعًا لهم للعمل الصَّالح.

نُكتَةُ اختِيارِ لَفظِ الرَّبِّ في قولِه ﴿مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾:

استحضارُ المؤمنين إحسانَ اللهِ تعالى لخَلقِهِ عامَّةً ولهم خاصَّةً

اختيار لفظ الرُّبوبيَّةِ مُضافًا إلى الضَّمير الرَّاجع إلى الخاشعين في قوله: ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾؛ للإشعارِ بفَيَضانِ إحسانِه إليهم[4]، فهو الّذي ربَّاهم وأنشأهُم وتعهَّدَهُم في الوجودِ[5]؛ وذلك لأنَّ لفظَ الرُّبوبيَّةِ مُتضمِّنٌ معنى الخلقِ والإنعام بالنِّعَمِ العظيمة، ومنه: إنعامٌ خاصٌّ بالمؤمنِينَ وهو تربيةُ اللّه تعالى لهم بالإيمانِ، وتوفيقُهم له، ودَفعُهُ عنهم الصَّوَارِفَ الحائلةَ بينهم وبينَ كَمالِه[6].

نُكتَةُ تَقديمِ الجارِّ والمَجرورِ في قوله ﴿وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾:

مَصيرُ الخلائقِ في ذِهنِ المؤمنِين للهِ وحدَه

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾ في قوله سبحانه ﴿وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾؛ لِفائِدَتَينِ[7]:

---

(1) الرَّازي، التّفسير الكبير: 3/491.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/343، وابن بَدرَان، جواهر الأفكار، ص: 197.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/98.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/98.

(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/221.

(6) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 39.

(7) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/53، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/221.

الأولى: إفادةُ القَصْرِ، وأنَّ هؤلاءَ الخاشعين يَعتقدونَ أنَّ الرُّجوعَ إلى اللّه تعالى وَحدَهُ دونَ أحدٍ سواهُ.

الأخرى: حسنُ التَّناسُبِ بين الفواصلِ؛ فإنَّ الآيةَ قبلها خُتِمَت بقوله سبحانه: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾، والآيةَ بعدها خُتمت بقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فلو جرى الكلامُ على الأصلِ بتأخير الجارِّ والمجرورِ (وأنَّهم راجعون إِلَيهِ)؛ لفاتَ هذا التَّناسُبُ.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخُشوعُ والخُضوعُ:

الفرقُ بينَ الخشوعِ والخضوعِ مِن ثلاثةِ أَوجُهٍ:

أحدها: أنَّ أثرَ الخشوعِ يظهَرُ في الصَّوتِ والبصرِ والبَدَن، -ومنه قولُ النَّبيِّ ﷺ: «خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي»[1]، وأثر الخُضوعِ يظهَرُ في البدَنِ فقط[2].

ثانيها: أنَّ الخشوعَ انقيادُ الباطنِ للحقِّ، والخُضُوعَ انقيادُ الظَّاهرِ لهُ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: 4] [3].

ثالثها: أنَّ الخشوعَ لا يكون إلَّا عَنِ انفعالٍ صادقٍ بجلالِ مَن يُخشَعُ له، بخلاف الخُضوعِ؛ فقد يكون تكلُّفًا، إمَّا نفاقًا أو خوفًا أو تقيَّةً أو نحوَ ذلك، ولذا تقولُ العَرَبُ: خشعَ قلبُهُ، ولا تَقولُ: خضعَ قلبُهُ، إلَّا مِن باب التَّجوُّز والتَّوسُّع في العِبارَة[4].

(1) رواه مسلم، حديث رقم: (771).
(2) الخليل، العين: (خشع).
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/452.
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 216، وبنت الشاطئ، الإعجاز البيانيّ، ص: 226.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ [البقرة: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أعَاد اللهُ تعالى تَذكيرَ بَني إسرائيلَ بنِعَمِهِ الكثيرَةِ المتتابِعَةِ عليهم؛ توطئةً لِما سَيُورِدُهُ مِن مِنَنَه عليهم في الآياتِ القادِمَة، وتَحذيرًا لهم مِن كُفرِهم عطايا اللهِ سبحانَه وهِبَاتِه، ومِن كَثرَة ما وَقَع منهم مِنْ نَقضِ العهود، ومِن سوءِ فِعالهم مع أنبيائِه عليهم السلام.

شَرحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿فَضَّلۡتُكُمۡ﴾: الفَاءُ والضَّادُ واللَّامُ تدُلُّ اشتقاقاتُها على الزِّيادة في الشَّيء[1]، واستعمالُ هذا الأصلِ: في الخيرِ[2]، فالفَضْلُ: الزِّيادةُ في الخير[3]، حِسِّيَّةً كانتِ الزِّيادةُ أو معنويَّةً[4].

والفعل (فضَّلَ) من قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ معناه: حَكَمْتُ لكم بالفَضلِ وصيَّرتُكُم كذلك[5].

2) ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: العَينُ واللَّام والميم تدلُّ تصارِيفُها على أثرٍ بالشَّيءِ يتميَّزُ به عن غيرِه، ومنه: العلامَةُ[6].

والعالَمونَ: جَمعُ (عَالَم)، وهم: أصنافُ الخلائِقِ[7]، سُمُّوا كذلك؛ لأَنَّ وجودَهُم علامةٌ على وجودِ خالقِهِم سُبحانَه.

والعالَمونَ في قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عامٌّ في الأشخاصِ، خاصٌّ في الأزمان، والمرادُ: عالَمو زمانِهِم[8].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فضل).
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/302.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 2/45.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (فضل).
(5) الجوهريّ، الصِّحاح: (فضل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (علم).
(7) العُلَيْمِيّ، فتح الرَّحمن في تفسير القرآن: 1/42.
(8) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/109.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يا ذريَّةَ يعقوبَ! اذكروا نعمِي المتكاثرةَ عليكم، ومِنْ جملتِها: أنِّي فضَّلتُ أسلافَكُم على عالَمي زمانِهِم بما أعطيتُهُم مِنَ المُلْكِ وكثرةِ الرُّسُلِ والكُتُب(1).

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكتَةُ الإطنابِ بتَكرارِ النِّداءِ المُتَقَدِّمِ ﴿يَٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

مِـنْ مَـقـاصِـدِ التَّكرَارِ في الكلامِ الاهتِمامُ وتَرابُطُ النَّظْمِ

كُرِّر خطابُ بني إسرائيلَ بأُسلوبِ النِّداءِ على ما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: 40]؛ لعَدَدٍ مِنَ الوجُوه:

أوَّلُها: قصدُ الاهتِمامِ بهذا الخطابِ وما يترتَّب عليه(2).

ثانيها: توكيدُ الحُجَّةِ عليهم.

ثالثها: تَحذيرُهم من تَرْكِ اتِّباعِ مُحَمَّدٍ صَلّى اللّٰه عليهِ وآله وسلَّم(3)،

رابعُها: ربطُ ما بعدَهُ مِنَ الوعيدِ الشَّديد به(4) في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48].

وتقدَّمَ الكلام على ما في قوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ من الأساليب البلاغيَّة.

نُكتَةُ عَطفِ الخاصِّ على العامِّ:

ذكـرُ الـنِّـعـمـةِ الـخـاصَّـةِ بعد الـعـامّـة مـؤثِّـرٌ فـيـمـن وعـى الـحـقَّ وعَـلِـمَ المطلوبَ

عَطْفُ قولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على قوله سبحانه: ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ هو مِنَ الإطنابِ بعطف الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ تفضيلَ اللّٰه ﷻ لهم على عالَمِي زمانِهِم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 24-2/23، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/104، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 1/482.
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 1/96.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/98.

مِنْ جُملة نِعَمِهِ عليهم، ونُكتَةُ العطفِ بيانُ كمالِ نِعمَةِ التَّفضِيلِ وشَرَفِها[1]، وتَقَوَّى هذا المعنى بتأكيد الجملة بـ (أَنَّ).

بلاغَةُ إيجازِ الحَذفِ في قوله ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾:

الإنعامُ على الآباءِ مِنَّةٌ في رِقابِ الأبناء

في قوله تعالى ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ حذفُ مضافٍ، والتقدير: فضَّلتُ آباءَكم؛ وهُمُ الّذين كانوا قَبلَ التَّغيير والتَّبديلِ[2]، ونُكتَةُ الحذفِ بيانُ أنَّ الإنعامَ على الآباءِ إنعامٌ عليهم، فَنسب نِعَمه على آبائهم وأسلافهم إلى أنَّها نِعَمٌ منه عليهم؛ إذ كانت مآثرُ الآباء مآثرَ للأَبناء، والنِّعمُ عندَ الآباء نعمًا عند الأبناء؛ لكونِ الأبناء مِنَ الآباء[3].

دلالة اللّامِ في ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

دلالة الألفاظِ النِّسبيَّةِ يُحدِّدُها السِّياقُ

اللَّامُ في ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للعَهدِ عندَ مَن جعل ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عامًّا في الأشخاص خاصًّا في الأزمانِ، فالمقصود: عَالَمُو زمانِهم[4].

ويَحتَمِلُ أن تكون اللَّامُ للاستِغراق، ويكون ذلك استغراقًا عُرْفِيًّا لا حقيقيًّا؛ إذِ المُرادُ - كما تقدَّم - عالَمُو زمانِهم[5]، وهذا الوجهُ يَؤُول إلى الّذي قبلَه.

ويَحتَمِلُ أن تكون اللَّامُ للجِنسِ عند مَن جَعَلَ المرادَ بـ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الجمَّ الغفيرَ مِنَ النَّاس[6]، وهو مجازٌ مُرسَلٌ من باب إطلاقِ الكُلِّ على الأَكثَر[7].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/98.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/252، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/302.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/629.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/109.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/483.
(6) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/135.
(7) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/469.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾ [البقرة: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكَّر اللّه تعالى بني إسرائيل بنِعَمِه عليهم وما خصَّهم به مِنَ الكرامةِ والتَّفضيل على عالَمِي زمانِهم، وكانتِ المخالفةُ مع عظيمِ الـمِنَّةِ أفحشَ وأقبَحَ، ولا سيَّما وأنَّهم توهَّموا مِنْ تفضيلِهم تَفضيلًا ذاتيًا، وأنَّ الإخلالَ بالعمل الصَّالحِ لا يَضُرُّهم؛ أعقبَهُ اللّه تعالى بتحذيرِهم فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَجۡزِي﴾: الجيم والزَّاي والياءُ تدُلُّ اشتقاقاتُها على قيامِ شيءٍ مَقَامَ غيرِهِ ومكافأتِه إيَّاهُ[2]، ومنهُ قولُهم: جَزَى عنِّي هذا الأمرَ، أَي: قَضاهُ[3]، ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا تَقضِي ولا تُغنِي.

2) ﴿شَفَٰعَةٞ﴾: أَصلُ الكلمة مِن الشَّفْعِ، وهو: ضَمُّ الشَّيءِ إلى غَيرِهِ[4]، وقَولُهُم: ناقةٌ شافِعٌ؛ وهي التِّي في بَطنِهَا ولدٌ ويَتبَعُهَا آخَرُ[5]، يُقال: شَفَعَ إلى فُلانٍ في أَمرٍ ما شَفاعَةً؛ إذا طَلَبَ إليه قَضاءَ حاجَةٍ للآخرين. وتُطلَقُ الشّفاعة على الإِعانَةِ والتّقوِيَة. والشَّفاعة: مُعاونَةُ طالِبِ الحاجَةِ لِجَلبِ مَنفَعَةٍ له، أو دَفْعِ مَضَرّةٍ عنهُ عندَ مَن يَملِكُ الحاجَةَ[6]، وهذا هو المعنى المرادُ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾.

3) ﴿عَدۡلٞ﴾: العين والدَّالُ واللَّامُ تدُلُّ أكثرُ اشتقاقاتِهَا على موازنةِ شَيءٍ في جانبٍ

(1) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 1/346، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/484.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جزي).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (جزى).
(4) الرّاغب، المفردات: (شفع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شفع)، والجوهريّ، الصِّحاح: (شفع).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقِيّ المؤصَّل: (شفع).

بشيءٍ في جانبٍ آخَرَ حتّى يَتَّزِنَا[1]، ومنه العَدْلُ في القضاءِ، وهو ضِدُّ الجَورِ[2]؛ لأَنَّ فيه اتِّزانًا في إعمالِ البَيِّنَاتِ، ومنه أيضًا: العِدْلُ بمعنَى المِثْلِ، والعَدْلُ: القيمَةُ[3].

ويَرِدُ العَدْلُ بمعنَى الفِدْيَةِ[4]، ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾؛ وسُمِّيت الفِديةُ عِدْلًا؛ لأنَّها تُوَازِنُ الـمُفتدَى في القِيمَةِ[5].

4) ﴿يُنصَرُونَ﴾: تَدُورُ مادَّةُ النُّونِ والصَّادِ والرَّاءِ حول معنَى إتيانِ خيرٍ وإيتائه بما فيه زيادةٌ مناسِبةٌ وقُوَّةٌ، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[6]، ومنه سُمِّيَ المطرُ نصرًا[7]، والنَّصرُ على العَدُوِّ: إعانَةُ الخصم عليه في حَرْبٍ أو غيرها؛ بقُوَّةِ النَّاصر وغَلَبَته[8].

وقولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بمعنًى؛ لا يُدفع عَنهُمُ الـمَكرُوهُ[9].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وخَافوا يومَ القيامةِ واجعَلُوا بينَكُم وبين عذابِهِ وقايةً؛ وذلك بامتِثالِ خطاب الشَّرع، فِعلًا للمأْمورِ وتركًا للمَحظورِ؛ ذلك أنَّ يوم القيامة لا يُغني فيه أحدٌ عَنْ أحدٍ شيئًا، ولا يَقبَلُ اللّه تعالى شفاعَةً في الكافرينَ مُطلقًا، ولا يُقبَلُ منهم فداءٌ ولو عَظُمَ، ولا يَملِكُ لهم أحدٌ نَصرًا وإنقاذًا من عَذاب اللّه تعالى[10].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

الأَمــرُ بـاتِّـقـاءِ أَهـــوالِ يَــومِ الـقِـيـامَـةِ حتَّى كأَنَّ اليومَ نَفسَهُ يُتَّقَى

قولُ اللهِ تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ بَينَ الإيجازِ بالحَذفِ والمَجازِ المُرسَلِ:

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ إمَّا أن يُحمل على الإيجازِ بالحذفِ، والتَّقديرُ: اتَّقوا عذابَ يومٍ وأهوالَهُ، والقرينَةُ: أنَّ ﴿يَوۡمٗا﴾

(1) جبل، المعجم الاشتقاقِيّ المؤصَّل: (عدل).
(2) الخليل، العين: (عدل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (عدل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (عدل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقِيّ المؤصَّل: (عدل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/79، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (نصر).
(7) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).
(8) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.
(9) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 51.
(10) أبو المُظفَّر السَّمعانِّي، تفسير القرآن: 1/76-75، والخازن، لباب التَّأويل: 1/43، ومُجير الدِّين العُلَيميّ، فتح الرحمن: 1/96، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.

إذَا أُعرِبَ مفعولًا به مِن غَيرِ تقديرِ محذوفٍ لَزِمَ أن يكونوا مأمورينَ باتِّقاء نفسِ اليوم! وليس مرادًا قطعًا.

ولا يصحُّ إعرابُهُ ظرفًا؛ لاقتضائِهِ الأمرَ بالتَّقوَى فيه، وهو ليس محلًّا لذلك[1].

ويجوزُ أَنْ لا يُقَدَّرَ محذوفٌ، ويكون الكلامُ مِن بابِ المَجازِ المُرسلِ؛ مِن إطلاق اسم الزَّمان على ما يقعُ فيه، فقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا﴾ يُراد به: اتَّقوه من جهةِ ما يقَعُ فيه مِنَ العَذابِ والأَهوالِ[2].

نُكتَةُ تَنكيرِ ﴿يَوۡمًا﴾:

القِيامَةُ لا يحُدُّ عـذابَـها وصـفٌ ولا هولَها رَصفٌ

نُكِّرت كلمةُ ﴿يَوۡمًا﴾ من قول الله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا﴾؛ لقصد التَّعظيمِ والتَّهويلِ، ووجهُ ذلكَ أنَّ في التَّنكيرِ إبهامًا يُوجِدُ رهبةً؛ إذ تذهبُ معه النَّفسُ مذاهبَ شتَّى في تصوُّرِ عذابِهِ وهَولِهِ، وتنتهي إلى أنَّه لا يَحُدُّ عذابَهُ وصفٌ، ولا هَولَهُ ذِكرٌ[3].

سِرُّ تَنكيرِ ﴿نَفۡس﴾ و﴿شَيۡـٔٗا﴾:

تَـقـنـيـطُ الـلـهُ تـعـالى لـلـكُفَّارِ بـنَـفـيِ الـجَـزاءِ والإغـنـاءِ عنهم مِنْ كُلِّ أحدٍ

تنكيرُ كلمتي ﴿نَفۡس﴾ و﴿شَيۡـٔٗا﴾ من قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ لإرادَةِ التَّعميم؛ لأنَّ كُلًّا منهما نكرةٌ في سياق النَّفيِ فيَعُمُّ، وفي هذا التَّعميم إقناطُ كُلِّيٌّ بنفي الجزاء والإغناء مِنَ الجهاتِ كُلِّهَا[4]، فلا يُغني أحدٌ عَن أحدٍ كائنًا مَن كان، فلا يُغني عَنِ الكفَّار ما كانوا يَعبدونَهُ مِن دُونِ اللّه تعالى، ولا غيرُهُم بأن يَحُولُوا بينَهُم وبينَ عذابِ اللّهِ تعالى[5].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/109.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/484.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/223.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/99.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/485.

بلاغةُ الاستِتباعِ:

هَوانُ ما تَوهَّمَهُمُ المُشركونَ شُفَعاءَ

في نَفيِ جزاءِ أحدٍ عَنْ أحدٍ، ونفيِ قبولِ الشَّفاعة وأخذِ العَدْلِ منه: تيئيسٌ لحصول أيِّ نفعٍ للكفَّار يوم القيامَةِ، وذلك يستَتْبِعُ[1] تحقيرَ مَنْ توهَّمَهُمُ المشركونَ شفعاءَ، وإبطالَ ما كانوا يَزعُمونَهُ مُغنيًا عنهم مِن عذاب اللّه تعالى وغضَبِهِ مِنَ القَرابينَ الّتي قرَّبوها[2].

تَوجِيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظيِّ:

اختِلافُ أحوالِ النَّاسِ في تفضيلِ المالِ أوِ الرِّياسَةِ

وَرَدَ ههنا قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾، وفي المَوضِعِ الثَّاني من هذه السُّورةِ قال اللّه سبحانه: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة: 123]، فَقُدِّمَتِ الشَّفاعةُ وأُخِّر العَدْلُ في الآيَةِ الأولى، وعُكِسَ ذلك في الآية الثَّانية، وتَوجيهُهُ أن يُقالَ:

إنَّ الأمر باختلاف أحوال النَّاس في الشفاعة والعَدْلِ - وهو الفِديةُ -، فمن غلب عليه حبُّ الرِّياسةِ قَدَّم الشفاعةَ على الفِدية، ومن غلب عليه حبُّ المال قدَّم الفِدية على الشفاعة[3]، والنَّاسُ في الدُّنيا يتفاوتون في هذا المقدارِ، ويتباينون في التَّقدير، فأتَتِ الآيتان لدفع ذلك كلِّه.

لا يَستَلزِمُ نَفيُ واحِدٍ مِنَ الشَّفاعَةِ أوِ الفِداءِ نَفيَ الآخَرِ

وأُسند القبولُ إلى الشّفاعةِ فقُدِّمَت على العَدْلِ -في الآية الأولى-؛ لأنّ القبولَ المُسندَ إليها منفيٌّ، ونفي الشَّفاعةِ لا يَستَلزِمُ نَفيَ أخذِ الفداءِ، فذِكرُ نفي أخذ الفداء بعدَهُ يُرادُ به الاحتراسُ[4].

وأمَّا الآية الثَّانيةُ فأسنِدَ القبولُ إلى الفداء وقُدِّمَ على

(1) الاستِتبَاعُ: أَنْ يُؤتَى بالكلامِ لغرضٍ ما، كَمَدحٍ أَو ذمٍّ، على وَجهٍ يَستَتبِعُ المدحَ أو الذَّمَّ بشيَءٍ آخَرَ، وهكذا سائِرُ الأغراضِ. يُنظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص: 443، وعبد الرَّحمن حبنَّكة، البلاغة العربيَّة: 2/429.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.

(3) ابن الزُّبير، ملاك التَّأويل، ص: 33.

(4) الاحتراسُ: أن يُؤتَى بكلامٍ في سياق مدح أو غيره، فيُظَنُّ عيبٌ من جهة مَنطُوقِهِ أو فحواه، فيُردَف بكلام آخر؛ لصِيَانَتِهِ عَنِ الخطأ. يُنظر: بدر الدين بن مالك، المِصباح في علم المعاني، ص: 97.

الشَّفاعة، ولـمّا كان نفي قبول الفداء لا يستلزِمُ نفي نفع الشّفاعة؛ ذُكرَ نفيُ نفعِهَا عَقِبَهُ للاحتراس أيضًا[1].

وبُدِئ في الآية الأولى بالشَّفاعةِ؛ لأنَّ ذلك أليقُ بعُلوِّ النَّفسِ، وذُكِرَ مع الشَّفاعةِ القبولُ ههُنَا، والنَّفعُ في الآية الثَّانيةِ؛ للتنبيه على انتفاءِ أصل الشَّيء، وانتفاءِ ما يترتَّبُ عليهِ[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾:

جملةُ: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ اسميَّةٌ، وهي مفيدةٌ الدَّوامَ والاستمرارَ؛ والمرادُ دوامُ نفي النُّصرَةِ عنهم لا نفي دَوَامِهِ؛ لأَنَّ النَّفيَ -وإن كان داخِلًا على الفعلِ المضارِعِ- مُفيدٌ الدَّوامَ والاستمرارَ بحَسَبِ المقام.

فائِدَةُ مَجِيءِ الخَبَرِ جُملَةً فِعليَّةً:

تأْكِيدُ الـمَعاني القُرآنيَّةِ ترسيخٌ لها في الأَذهانِ

مجيءُ خَبَرِ الـمُبتدأ ﴿هُمۡ﴾ جملةً فعليَّةً -﴿هُمۡ يُنصَرُونَ﴾- يَقتَضي تَكرارَ الإسنادِ؛ تأكيدًا لدوام نفيِ النَّصرِ عَنِ الكُفَّارِ؛ فقد أُسنِدَ النَّصرُ إلى الضَّمير (هُمۡ) -وهو مِن إسناد الخَبَرِ إلى المبتدأِ-، وأُسنِدَ النَّصرُ أيضًا إلى واوِ الجماعة، وهو من إسنادِ الفعلِ إلى فاعِلِه، فلمَّا تكرَّرَ الإسنادُ تأكَّدَ الـمَعنَى وقَوِيَ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/698.

(2) ابن الزُّبير، ملاك التَّأويل، ص: 33.

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا قدَّم اللّه تعالى ذكر مِنَّتِه على بَنِي إِسْرَائيل على وجه الإجمالِ في قوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، وحذَّرهم من مخالفةِ مُوجِبِ ذلك الإنعامِ بقولِه ﷻ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾؛ بيَّن بعد ذلك أقسامَ تلك النِّعَمِ على وجه التَّفصيل ليكون ذلك أبلغَ في تذكيرِهم وأعظمَ في الحجَّةِ عليْهِم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[1]، وبدأ بنعمة تنجيتهم لِتَرتُّبِ باقي النِّعَم عليها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾: النُّون والجيم والوَاو تدُور تصاريفُها على: الانفصالِ مِنَ الشَّيء، وخُلُوصِه مِن بين ما يُحيط به، أو يُجاوره[2].

ومِنْهُ: الإِنْجَاء والتَّنجية؛ بمعنى: التَّخْلِيصِ مِنَ الهَلَكَةِ[3]، كأنَّ الشَّيءَ ارتفعَ عمَّا حولَهُ، فلَمْ يُخلَصْ إِلَيْهِ بأذًى، وهذا المعنى: هو الواردُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾.

2) ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: السِّين والواوُ والـميم تدلُّ اشتقاقاتُها على: امتدادِ بقاءٍ أو مرورٍ وذهابٍ في حيِّز بِلَا حَدٍّ، ومِنْهُ قولُهم: سَامَتِ الماشيةُ؛ إذا رَعَتْ حَيْثُ شَاءَتْ، وسامَهُ الذُّلَّ: أَوْلَاهُ إيَّاهُ، وفيه معنى الدَّوامِ[4].

(1) الرَّازيّ، التّفسير الكبير: 3/504.
(2) الرّاغب، المفردات: (نجو)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (نجو).
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 77.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سوم).

والسَّوْمُ: أَن تُجَشِّمَ إِنسَانًا مَشَقَّةً أَو سُوءًا أَو ظُلْمًا[1]، وأكثرُ ما يُستعمل في العذاب والشَّرِّ[2].

3) ﴿سُوٓءَ﴾: السِّين والواو والهمزَة تدلُّ تصريفَاتُهَا على: القُبْح، ومِنْهُ سمِّيت النَّارُ: سُوأَى؛ لقُبْح مَنْظَرِهَا[3]، ومنه قيل لفَرْجِ الرَّجُلِ أَوِ المرأة: سَوْأَةٌ؛ لأَنَّ الفطرَةَ السَّوِيَّةَ تَسْتَقْبِحُ إِظْهَارَهَا[4].

وسُمِّيت السَّيِّئَةُ سَيِّئَةً؛ لأَنَّها عَمَلٌ قبيحٌ[5]، والسُّوءُ: كُلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الدُّنْيَوِيَّةِ والأُخْرَوِيَّةِ[6].

وسوءُ العذاب في قول اللّٰه تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، هُو: شديدُهُ وَأَقْبَحُهُ[7].

4) ﴿يُذَبِّحُونَ﴾: يدورُ جِذر هذه الكلمة -وهو الذَّال والباءُ والحاءُ- على معنى: الشَّقِّ، ومنه: الذُّبَّاح: وهي شُقُوق في أصول الأصابِع، والمَذابح: وهي سيول صغار تَشُقُّ الأرض شَقًّا[8]، والذَّبْحُ في الحيوان: قَطْعُ الحُلْقُوم من باطنٍ[9]، وهو المرادُ بقول اللّٰه تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾، إِلَّا أَنَّ فيه معنَى التَّكثِير؛ أَيْ: يُذَبِّحُون بَعْضَهُم إِثْرَ بعضٍ[10]، وقَدْ يُطلق الذَّبْحُ على الغَلَبَةِ وَالإهلاك[11].

5) ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾: الحاءُ والياءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ، تَدُلُّ تصاريفها على مَعْنَيَيْنِ: أحدهما: ضِدُّ الموت، وهو الحياةُ، والآخَر: ضِدُّ الوقاحةِ، وهُوَ الاسْتِحْيَاءُ[12].

والفعل: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾؛ من الأصل الأَوَّلِ -وهو ضدُّ الموتِ- يقال: استحياهُ؛ إذا تركه حيًّا، ومعنى (يَسْتَحْيُونَ): يَسْتَبْقُونَ[13]؛ فهم يُبْقُونَ الإناثَ؛ ليجعلوهُنَّ إماءً وخَدَمًا[14].

---

(1) الخليل، العين: (سوم)، وابن منظور، لسان العرب: (سوم).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (سوم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوء).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سوأ).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سوأ).
(6) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سوأ). إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/129.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذبح).
(9) الزَّبيدي، تاج العروس: (ذبح).
(10) الرّاغب، المفردات: (ذبح).
(11) أبو موسى المدينيّ، المجموع المغيث: (ذبح).
(12) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حيي).
(13) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (حيا).
(14) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين: (حيا).

6) ﴿بَلَآءٌ﴾: الباءُ واللَّام والياء تدور كثيرٌ مِن اشتقاقاتِها على: معنى الاختِبار[1].

ومِنْهُ: البَلَاءُ، ويُستعمل في الخَيْر والشَّرِّ -فهو مِنَ الأضداد-؛ فالبَلَاء: المِحنة والبَلِيَّة، والبلاء: المِنحةُ والنِّعمة أيضًا[2]، وسُمِّي ذلك بلاءً؛ لأنَّ الاختبار يقع بالخَير كما يقع بالشَّرِّ[3]، كما في قول الله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 168].

والبلاء في قول الله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يَتَنَازَعُهُ المَعْنَيَانِ - معنى الشرّ ومعنى الخير-، وذلك راجع إلى المراد باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُم﴾؛ وَعَلَيْهِ فالبلاء يحتَمِلُ أن يكون بمعنى: المِحنة والنِّقمة، أي: وفي سَوْمِكُم سوءَ العذاب وذَبْح أبنائكم واستحياء نسائكم محنةٌ ونِقمة، ويحتَمِلُ أن يكون بمعنَى: المِنْحَة والنِّعمة، أي: وفي إنجائِكُمْ من آل فرعون منحةٌ ونِعمة[4]، والثَّاني أَوفَقُ لسياقِ الامتنانِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تذكير بني إسرائيل بنعمة الله تعالى لإنجائهم من فرعون وقومه

واذكروا -يا بني إسرائيل- حين خلَّصنا آباءَكُم وأسلافَكُمْ من بطش فرعون وأتباعِه الذين كانوا يُذيقونَكم أشدَّ العذابِ وأَقْبَحَهُ، فقد كانوا يُكثرون مِن ذبح أبنائكم، ويَسْتَبْقُون نساءَكم ليجعلوهُنَّ إماءً وخدَمًا، وفي إنجائِكُمْ من ذلك نعمةٌ ومِنَّةٌ عظيمةٌ من ربِّكُمْ سبحانه وتعالى، تستحقُّ مِنكم أن تشكروهُ في جميع عصورِكُم وأجيالكم[5].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

العُدُولُ عَنِ التَّعْبِيرِ بِالمَصْدَرِ الصَّرِيحِ إِلَى التَّعْبِيرِ بِالجُمْلَةِ
عِظَمُ قَدْرِ نجَاة العَبْدِ بِمِقْدَارِ الهَوْلِ الذي كانَ فيه.

العطف في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم﴾ على قولِه قبلُ: ﴿نِعْمَتِىَ﴾ من قوله: ﴿يَـٰبَنِىٓ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بلو/ي).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بلي).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/49.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/48، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/63.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 49-2/36، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 1/90، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 52، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 8.

إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 47]، والتَّقدير: اذكروا حين إنجائكم، وعُدِلَ عَنِ الإتيان بالمصدر الصَّريح إلى (إذ) المقتضيَةِ لِلجملةِ؛ لما فيها مِنِ استحضارٍ للتَّكوينِ العجيب الذي تُفيدُهُ صيغةُ الفعلِ؛ إذ النَّفْسُ تتصوَّرُ مِنَ المصدرِ الصَّريح معنَى الحدثِ المجرَّدِ، بخلاف الجملةِ الفعليَّةِ؛ فإنَّ النَّفس تتصوَّرُ مِنْهَا الفعلَ وفاعلَهُ ومفعولَهُ ومتعلَّقاتِهِ دفعةً واحدةً، وفي ذلك صورة عجيبةٌ؛ إذْ فيها استحضارٌ لِلْأَهوال التي كانوا يعيشونَها بأسمائِهَا وأضرارِهَا، ويتَرتَّب على ذلك استحضارُ عظيمِ منَّة اللّه تعالى بالإنجاءِ؛ إذِ مقدارُ الإِنْجَاء بمقدار ما كانوا فيه مِنَ الأهوال[1].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِضَمِيرِ الجَمْعِ الدَّالِّ على التَّعظيم:

التَّـنْـجِـيَـةُ مِـنَ العَدُوّ مِن أعظَمِ النِّعم

العدولُ عنِ التَّعبير بضمير المتكلِّم الدَّالِّ على المفردِ في قول اللّه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 47] إلى التَّعبير بضمير المتكلِّمِ الدّالّ على التَّعظيم في قوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، فلم يقل: (وَإِنْجَائِي)؛ لأنَّ التَّنْجِيَةَ مِنَ العدُوِّ من أعظَم الـمِنَنِ عليهم، فكان المناسبُ أن تُنْسَبَ النِّعْمَةُ العُظْمَى للمعُظِّم نفسَهُ[2].

سِرُّ ذكرِ آلِ فرعون وعدَمُ الاكتفاءِ بفرعون:

الإشـارةُ إلى أنَّ التَّابعَ أشدُّ ظُلمًا من المتبوعِ

جعلَ اللّه تعالى النَّجاة من آل فرعونَ، ولَم يَجْعَلْهَا مِن فرعون نفسِه، مع أنَّه الآمرُ بتعذيب بني إسرائيل؛ تَعْليقًا لِلْفعل بمن هو من متعلَّقاته على طريقة الحقيقة العقليَّة، وتَنْبِيهًا على أنَّ هؤلاء الوَزَعَة والمكلَّفين ببني إسرائيل كانوا يتجاوزون الحدَّ المأمور به في الإِعْنَات على عادة الـمُنَفِّذين؛ فإنَّهم أقلُّ رحمةً وأضيقُ نفوسًا من وُلاةِ الأمور[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/489، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/224.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/311.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/490.

سِرُّ الوَصْفِ بِالمَصْدَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾:

تصويرُ شدَّةِ ظلمِ آلِ فرعَوْن

إضَافة العذَابِ إلى السُّوء في قول اللّه تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ مِن إضَافةِ الصِّفة إلى الموصوفِ، أي: يسومونَكُمُ العذابَ السُّوءَ، فَوَقَعَ الوَصْفُ بالمصدَرِ قَصْدًا لِلْمُبَالغةِ في وصف شدَّةِ العذابِ وفظاعَتِه، فكأنَّ ما عداه مِنَ العَذَابِ بالنِّسبة لَهُ لَيس بسُوءٍ[1].

بلاغةُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾:

فُصلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ عمَّا قبلُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّه لما ذُكر سوءُ العذابِ؛ قيل: ما الذي سامُوهم إيَّاهُ؟ فجاء الجوابُ: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾[2].

بَلاغةُ الفصْلِ والوَصْلِ فِي تَوْجِيهِ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

الإشارَةُ إلى مِنَّةٍ خاصَّةٍ كانت لموسى عليه السلام

وَرَدَ ذِكر التَّذبيح ههنا مفصولًا بغير واوٍ، قالَ اللّه تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾، وجاء موصولًا بالواو في قوله سبحانه: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ [إبراهيم: 6]؛ لأنَّ ما في سورة البقرة لم يُرَدْ به تعدادُ الـمِحَنِ عليهم، بخلاف ما في سُورة إبراهيمَ، فقد عدَّد عليهم الـمِحَنَ استجابةً لأمْرِ اللّه له بذلك في قوله: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ [إبراهيم: 5][3]، وذِكْرُ الواوِ أنسَبُ لتحقيق هذا الغرضِ؛ لأنَّه يقتضي أنَّ التَّذبيحَ جِنْسٌ آخَرُ مِنَ الـمِحَنِ غيرِ سُوءِ العذابِ، وأنَّ سَوْمَ سُوءِ العذاب كان بالتَّذبيح وبغيره؛ لأنَّ الامتنانَ جاءَ على لسانِ موسى عليه السلام، فهو يستشعرُ بذلك الامتنانِ شعورًا خاصًّا، خاصةً وأنَّه نجا مِنَ الذَّبحِ، بخلاف ما في سورة البقرة، فإنَّ التَّذبيحَ وَقَعَ تَفْسِيرًا لسُوءِ العَذَابِ.

---

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 2/158.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/79.

(3) الكرمانيّ، غرائب التَّفسير: 1/138، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 1/311.

بَرَاعَةُ اِخْتِيارِ المُفْرَدَةِ في آياتِ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

الإشـــارَةُ إلى الإعـــجـــازِ التَّاريخيِّ وإلى الضَّامِرِ في نفسِ موسى عليه السلام

جاء التَّعبير ههنا عَن صَنِيع آل فرعون بأبناء بني إسرائيل بالفِعل (ذبَّح) فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾، وفي سُورة الأعراف وقع التَّعْبِير عن ذلك بالفعل (قَتَّلَ)، فقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ [الأعراف: 141]؛ لأنَّ الذَّبحَ دالٌّ على القتلِ وصِفَتِه، بخلاف القَتْلِ فلا يُفْهَمُ منهُ إلَّا إعدامُ الحياةِ، فجاء التَّعبير في أول موضعٍ بما يُوفي المقصودَ مِنَ الإخبار بالقتل وصِفَتِهِ على وجه الإيجازِ؛ لكونه وقع بلفظٍ واحدٍ وهو ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، بخلاف ما لو ذُكِرَ القتلُ، وأُتْبِعَ ذلك بذِكْرِ الوصفِ، فإنَّه لا يكون إيجازًا، ثُمَّ في سورة الأعراف جاء التَّعبيرُ بالقتل؛ لحصول وصفه بما ذُكِرَ في سورة البقرة، وليتناسبَ ذلك مع قوله تعالى قبلُ: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾[1] [الأعراف: 127].

وأمرٌ آخرُ وهو إشارةٌ قرآنيَّةٌ إلى أنَّ العامَ الذي وُلِدَ فيه موسى عليه السلام هو العامُ الذي كان نوعُ القتلِ السَّائدِ فيه هو الذَّبحَ، فهناك استشعارٌ خاصٌّ لتلك المنَّةِ، ففي الآيةِ إشارةٌ إلى إعجازٍ غيبيٍّ تاريخيٍّ، يكشفُ عن حقيقةٍ ضامرةٍ في نفس موسى[2] عليه السلام.

سِرُّ تَقْدِيمِ ذَبْحِ الأَبْنَاءِ عَلَى اسْتِحْيَاءِ النِّسَاءِ:

ذَبْحُ الولدِ أشدُّ في العذابِ مِن مجرَّدِ إبقاءِ النِّساءِ للخدمةِ

قُدِّمَ ذبح الأبناء على استحياء النِّساء في قول اللّٰه تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾؛ لكون ذبح ولدِ الرَّجُلِ والمرأةِ أشدَّ في العذابِ مِن استحياء النِّساءِ، أي: إبقائهنَّ أحياءً للخدمةِ[3]، فيكون من باب التَّدلِّي[4].

(1) ابن الزُّبير الغرناطِيّ، مِلاك التَّأويل: 1/34، والزَّركشي، البرهان: 1/120.
(2) المثنى محمود، نظرية السياق القرآني، دار النفائس، ط2، ص: 259.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/314.
(4) التَّدلِّي: أن يُذكرَ المعنى، ثُمَّ يُرْدَفَ بما هو أدنى مِنْهُ، يُنظر: السُّيوطيّ، شرح عقود الجمان، ص: 135.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالنِّسَاءِ دُونَ البنَاتِ:

عُدُول التَّعبيرِ عن المُقَابلَةِ اللَّفظيَّةِ لأجلِ بَيانِ المَعْنَى.

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بـ: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ دون (وَيَسْتَحْيُون بناتِكُم) مع أنَّه أنسبُ في الظَّاهِرِ ليُقابلَ: ﴿أَبۡنَآءَكُمۡ﴾؛ لِنكتَتين[1]:

إحداهما: أنَّ البناتِ في حالِ صغرهنَّ لا مؤونة منهنَّ، ولا مشقَّة، وإنَّما تلحق المؤونة والمشقَّةُ آباءهُنَّ؛ إذا كبِرْنَ، وصرنَ نساءً.

الأخرى: فيهِ إشارةٌ إلى الوصف الذي مِن أجله أُبْقِينَ أحياءً، وهو أن يَصِرْنَ نساءً، ويتطلَّعن لطلب الرِّجال، فلا يجدْنَ، فيُحتَقَرْنَ، ويُذَلَّلْنَ؛ لبقائهنَّ من غير رجالٍ، فيصِرْنَ مفترشاتٍ لأعدائِهنَّ، ويلحقُ العارُ بِهِنَّ حينئذٍ.

فائدَةُ خطابِ بني إسرائيل فيما وقَعَ لأسلافِهم:

كمالُ الامْتِنَان على بني إسرائيل

علَّق الله تعالَى الإنْجَاء بالمخاطبين؛ لأنَّ إنجاء سَلَفِهم إنجاءٌ لهم، فإنَّه لو أبقى سلفَهُم هنالك؛ لَلَحِقَ المخاطبين سوءُ العذابِ وتذبيحُ الأبناء. أو هو على حذف مضاف، أي: نجَّينا آباءكم. أو هو تعبيرٌ عن الغائبِ بضمير الخطابِ: إمَّا لنُكتة استحضارِ حالهِ، وإمَّا لكون المخاطَبين مثالَهم وصُورَتَهم، فإنَّ ما يثبت مِنَ الفضائل لآباء القبيلةِ يثبتُ لأعقابهم، فالإتيان بضمير المخاطب على خلاف مقتضى الظاهر على حدِّ ما يقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: 11]، فالخطابُ ليس بالتفاتٍ؛ لأنَّ اعتبارَ أحوال القبائل يُعدُّ لِلْخَلَفِ ما ثبت مِنْهُ للسَّلف[2].

دلالة تَنْكِيرِ البَلَاءِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ﴾:

عَظَمَةُ المِنَّة الإلَهيَّة علَى العِبَادِ

تنكير (بلاء) من قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ يُرادُ به النَّوعيَّةُ المستلزِمَةُ القولَ بالتَّعظيمِ والتَّفخيم،

(1) السّيوطي، معترك الأقران: 3/310، وعبد الفتَّاح لاشين، صفاء الكلمة، ص: 187.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 494-1/493.

ويُقصدُ بالنَّوعيَّة: أنَّ في ذلك نوعًا مِنَ البَلاءِ، لا يعلم كُنْهَهُ إلَّا اللّه تعالى، وفي هذا مِنَ التَّعظيم ما لا يخفَى، فيكون وصفُ البلاءِ بالعَظَمَةِ بمنزلة التَّوكيد المعنويِّ لَهُ[1].

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ اسْمِ الرَّبِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

في اختيار اسم الرَّبِّ في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ مناسبَةٌ ظاهرةٌ مع سياقِ الامتنانِ؛ فإنَّ اسم الرَّبِّ المالك، والمتصرف، والمدبِّر، والمربّي لجميع مخلوقاته؛ مُشعرٌ بالإنعامِ والإحسانِ.

سِرُّ الفصْلِ بين الصِّفةِ والموصوفِ:

الإخبارُ عن البلاءِ مرَّتين، يزيدُ من الامتنانِ واستحضارِ الإنعامِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ على النَّعت ﴿عَظِيمٌ﴾، إذِ الأصلُ: (وفي ذلكم بلاءٌ عظيمٌ من ربِّكُمْ)؛ فهو من قبيلِ الفصْلِ بين الصِّفةِ والموصوفِ لسرٍّ، بيانيٍّ وهو: أن يعلمَ المخاطَبُ أنَّ البلاءَ من اللّه سبحانه، ولتقعَ الصِّفةُ موقعًا مستقلًّا في البيانِ، ولو وُصِلتْ لفاتتْ نُكتةُ الاستقلالِ، فكأنَّه أخبرَ عن البلاءِ مرَّتين، الأولى بأنَّه بلاءٌ من اللّه، والأخرى أنَّه عظيمٌ، وهذا من بديع الفصْلِ بين الصِّفةِ وموصوفِها، وفيه مزيدُ امتنانٍ، بالإضافةِ إلى تحسينِ الفاصلةِ القرآنيَّةِ، وإيقاعِ الصَّوتِ موقعًا مُؤَثِّرًا في السَّماعِ.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

نَجَّى وَأَنْجَى:

ذكر جماعةٌ من أهل العلم أنَّ التَّنجيةَ والإنجاءَ واحدٌ، وأنَّهُ: مطلقُ الإنقاذِ مِنَ المَكْرُوه[2]، وكُلُّ ما في القرآن مِن هذا التَّركيبِ فهو بمعنى: الخُلُوص مِن خَطَرٍ مُحْدِقٍ أو عذابٍ أو غَرَقٍ أو كَرْبٍ، ونحو ذلكَ[3].

وفَرَّق آخرونَ بينَهما: بأنَّهما يَشْتَرِكَان في التَّخليص مِن المَهْلَكَةِ، ثُمّ يختصُّ الإنجاء بأنَّه: الخلاص قبل الوقوعِ في المَهْلَكَة، وتختصُّ التَّنجيةُ بأنَّها: الخلاص بعد الوقوع فيها[4].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/255.

(2) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 1/134، وأبو المظفَّر السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/76، ومحمّد الأمين الشّنقيطي، أضواء البيان: 2/285.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (نجو).

(4) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللّغويَّة، ص: 77، والمذكورُ هُوَ من زيادات طبعة مؤسسة النَّشر الإسلاميِّ بِقُمّ على أصل كتاب أبي هلالٍ.

ويدلُّ على المعنى المذكور للإنجاء قولُ اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: 9]، فإنَّ الكلام ههنا عَنِ الأنبياء؛ لأنَّه قال قبلها: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: 7]، وقد أنجاهمُ اللّه تعالَى مِنَ العذاب قبل وقوعِهِ على أُمَمِهِمْ.

ويدلُّ على المعنى المذكور للتَّنجيةِ قولُ اللّه سبحانه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، فإنَّ تنجيةَ اللّه تعالى لبني إسرائيلَ كان بعد وقوع العذابِ عَلَيْهِم[1].

ويُشكِلُ على هذا الفرقِ ذِكْرُ اللّه سبحانه إنجاءَ بني إسرائيل بصيغة (أَنْجَى) بعد وقوع العذابِ عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: 141].

والجواب عَن هذا بأنَّ الصِّيغَتَيْنِ قد تتقارضَانِ: إمَّا بحسب اللُّغةِ، وإما مجازًا.

وثَمَّ تفريقٌ آخَرُ بين الفعلين في السِّياق القرآنيّ: وذلك أَنَّ الغالبَ استعمالُ (نجَّى) لِما فيه تلبُّثٌ وتمهُّلٌ في التَّنجية، بخلاف (أنجى)، فهو لِلْإِسْرَاع فيها، فالإنجاء -على هذا- أسرع مِنَ التَّنجية في التَّخلُّص من المَهْلَكَةِ، كما في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: 49-50]، فاستُعمِلَ ههنا كِلَا الفعلين، فـ (نَجَّى)؛ لِمَا كان فيه التَّخليصُ بعد شدَّةٍ وعذابٍ طالَ أمدُهُمَا، وهو تذبيحُ الأبناء واستحياءُ النِّساء، بخلاف (أنجى)، فهو مستعمَلٌ في التَّخليص من هَوْلِ البحرِ بفَرْقِهِ، وتلك الشدَّةُ لم تَطُلْ عليهم.

وقد يُستعمل في الحادثة الواحدةِ الفعلانِ: (أنجى) و(نجَّى)، في موضعين مختلفين، وذلك بحسب ما يَقْتَضِيه السِّياقُ، فقد يتطلَّبُ المقامُ ذكر الإسراعِ في النَّجاةِ، فيُستعمل الفعل (أَنْجَى)، وقد لا يتطلَّب ذلك، فيُستعمل الفعلُ (نَجَّى)، وذلك لأنَّ طولَ الزَّمن وقِصَرَهُ أمران نسبيَّانِ، فقد يستطيلُ أحدٌ أمرًا، وقد يستقصِرُهُ بحسب المقامِ[2].

(1) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 77.
(2) فاضل السّامرائّي، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنّي، ص: 71-66.

ذَبَحَ وَذبَّحَ:

صيغةُ (فعَّل) تَرِدُ لِمَعَانٍ، مِنْهَا: التَّكثيرُ[1]، ومن ذلك (ذبَّحَ): فإنَّه دالٌّ على تكثيرِ الذَّبْحِ، بخلاف (ذَبَحَ)، فإنَّه لا يستلزمُ التَّكثير، فيُستعمل لِلْقَلِيل والكثيرِ[2].

القَتْلُ وَالذَّبْحُ:

بينَ القَتْلِ والذَّبح عمومٌ وخصُوص مُطلَق: فكلُّ ذبحٍ قتْلٌ، وليس كلُّ قتْلٍ ذَبْحًا[3]، فقد يكون القَتْلُ بالضَّرْبِ أو الخَنْقِ أو الإغراقِ أو نحوِ ذلك، بخلاف الذَّبْحِ، فهو قَتْلٌ مخصوصٌ بشقّ حلق المذبوح.

(1) ابن السَّرّاج، الأصول في النَّحو: 3/116.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (ذبح).
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 104.

﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ [البقرة: 50]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا بيّنَ الله تعالى إنعامَه على بني إسرائيل في تنجِيَتهم مِن آل فرعون الذين كانوا يقتلون الرِّجالَ ويُبْقُونَ النِّساءَ؛ ذكر إنعامًا زائدًا على التّنجية، وهو إنعامُهُ عليهم بإهْلَاكِ عَدُوِّهم إهلاكًا مِن جنس ما كان يفعلُه ببني إسرائيلَ، فأهلكَ اللّه تعالى رجالَهم في البحر، وأبقَى نساءَهُمْ، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿فَرَقۡنَا﴾: الفاء والرَّاء والقافُ تدلُّ اشتقاقاتُها على: تمييزٍ بين شيئين[2]، ومنه سُمِّيَ القرآنُ الكريم فُرْقَانًا؛ لأنَّه يُمَيِّزُ بين الحقِّ والباطلِ[3]، وسُمِّيَ عُمَرُ رضي الله عنه: الفاروقَ؛ لذلكَ[4].

وفَرْقُ البَحْرِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾، بمعنى: شقَقْنَاهُ، وقَسَمناهُ، وَفَصَلْنَاهُ[5]، بحيثُ تميَّزَتْ أجزاؤُهُ عن بعضِهَا، وجُعِلَ بينهَا حاجزٌ من غيرِ جنسها، كما جاء مُبيَّنًا في قوله سبحانه: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء: 63][6].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

واذْكُرُوا -يَا بَنِي إسرائيلَ- مِن نِعَمِنَا عليكم أَنْ شقَقْنَا البحر، فَفَصَلْنَا بَيْنَ بعضِه

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/358.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).
(3) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (فرق).
(4) ابن سِيده، المخصَّص: 3/409.
(5) ابن سِيده، المحكم: (فرق)، والرّاغب، المفردات: (فرق).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (فرق).

وبعضٍ، وَصَيَّرْنَاهُ فِرْقَتَيْنِ؛ حتَّى صارت فيه طُرُقٌ لكم، تسيرونَ فيها، فخلَّصناكم مِن الهلَكَةِ، وأغرقْنا فرعونَ وأتباعَهُ، وأنتم تشاهدُونَ غرقَهُم وإطباقَ البحر عليهم(1).

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة البَاءِ فِي ﴿بِكُمُ﴾:

الباءُ في ﴿بِكُمُ﴾ تَحْتَمِلُ أَوْجهًا:

سَبَبِيَّةُ الباء الدَّالَّة على تَمْكِينهم مِن دخُول البحرِ

إحداها: أن تكون لِلاستعانَةِ والتَّشبيه بالآلةِ، فتكون من باب الاستعارة التَّبعيَّةِ، وإلى هذا الوجهِ أشار البيضاويُّ بقوله: "﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾: فَلَقْنَاهُ، وفصَلْنا بين بعضه وبعض، حتى حصلت فيه مسالكُ بِسُلُوكِكُمْ فيهِ"(2)، وذكر الشّهابُ أنَّ تخريجَ الباءِ على هذا الوجهِ تكلُّفٌ(3).

ثانيهَا: أن تكون سببيَّةً بمنزلةِ اللَّامِ، أي: فَرَقْنَا بسبب دخولكم فيه؛ لإنجائِكُمْ.

ثالثُهَا: أن تكون لِلْمُصَاحَبَةِ، أي: فرقنَا البحرَ مُلْتَبِسًا بِكُم(4).

والأَظْهَرُ هو الوجهُ الثَّاني: أنَّها للسَّببيَّةِ، والمعنى: فصلنا بعض أجزاء البحر عَن بعضه الآخرِ بسبب دخولكم فيه؛ لتتمكَّنوا مِنَ المرور سُلُوكًا بين أجزائِهِ(5).

دلالة اللَّامِ فِي ﴿ٱلْبَحْرَ﴾:

اللَّام في البحر: للعهد العلميِّ، وهو البحر الذي عهدوُهُ، المشرفُ على الأجزاء الشرقيّة من بلاد مصرَ، والمعروف بـ: بحر القُلْزُم، والمسمّى اليوم بالبحر الأحمر(6).

بَلَاغَةُ الفاءِ الفصيحةِ فِي تقديرِ الحَذْفِ:

بينَ قول الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ محذوفٌ،

(1) الزّمخشري، الكشَّاف: 1/138، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 1/80، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/259-260، ونخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 8.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/79.

(3) الخفاجي، عناية القاضي: 2/159.

(4) الخفاجي، عناية القاضي: 2/159.

(5) محمّد الأمين الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/75.

(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/494.

مِـنْ طـرَائِـقِ القُـرآن الكريـم طيُّ ما يُفْهَم مِنَ الكلامِ إيجازًا

دلَّ عليه المعنَى، والتَّقدير: وإذْ فرقنا بكم البحر فتقحَّمتوُه، وتبعكم فرعون وجنودُهُ في دخولِه، فأنجيناكم[1]، فطُوِيَت هذه الجُمَلُ في الذِّكْرِ، والقارئُ الفَطِنُ تلُوحُ له مَعَانيهَا عند قراءتِهِ للطَّرفين المذكُورِ لفظُهُمَا في الآيَةِ؛ إذِ البَيِّنُ مستحضَرٌ في الطّرفَين.

تَقْدِيرُ مُتَعَلَّقِ الإِنْجَاءِ المَحْذُوفِ:

حَذْفُ المُتَعَلَّق مُؤْذِنٌ بالعُمُوم

متعلَّقُ الإنجاءِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه قولُهُ سبحانه بعدُ: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾، فيكون التَّقديرُ: فأنجينَاكم من الغَرَقِ، أَوْ مِنْ إدراكِ فرعونَ لَكُمْ، أو ممَّا تَكرهونَهُ[2].

والأخِيرُ يشمَلُ ما قبلَهُ؛ لأنَّ كُلًّا مِنَ الغرقِ وإدراك فرعونَ لهم: مكروهٌ عِنْدَهُم، وهو الأوفَقُ لقاعدةِ حذف المتعلَّق، فإنَّها تقتضي أنَّ حذفَهُ مُشْعِرٌ بالعُمُوم، وتقديره بـ (ممَّا تكرهونَهُ): أَعَمُّ وأشملُ.

سِرُّ تَقْدِيمِ إِنْجَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى إِغْرَاقِ آلِ فِرْعَوْنَ:

التَّرقِّي في سَرْدِ النِّعَمِ

قُدِّمَ الإنجاءُ على إغراق آل فِرعون، مع أنَّ في الإغراقِ دفعَ الضَّرَرِ، وهو آكَدُ؛ لنكتَتَيْنِ:

الأولى: مراعاةُ التَّرتيبِ الوجودِيِّ، فإنَّ الإنجاءَ متقدِّمٌ على إغراق آل فرعون[3]، وذلك أنَّ بني إسرائيلَ لـمَّا تكامَلوا مِنَ البحر خروجًا -وهو الإنجاء- وتكامل آل فرعون منه دخولًا؛ أغرقهم اللّه تعالى.

الأخرى: أنَّ الـمنَّةَ بإغراق فِرعون وآله أكبر مِنَ المنَّةِ بالإنجاءِ[4]، فكان في تقديم الإنجاء تَرَقٍّ[5] في سَرْدِ النِّعَم.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/320.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/320، والآلوسّي، روح المعاني: 1/256.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/113.
(4) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 360-1/359.
(5) التَّرَقِّي: أن يُذكرَ المعنى ثُمَّ يُرْدَفَ بما هو أبلغُ مِنْهُ، يُنظر: السُّيوطيّ، شرح عقود الجمان، ص: 135.

نُكْتَةُ الِاكْتِفَاءِ بِذِكْرِ آلِ فِرْعَوْنَ دُونَهُ:

الـمَتْبُوع في الإجْرَام أَوْلَى باستحقاق الهلَاك مِنَ التَّابع فيه

ذُكِرَ إغراقُ آل فرعونَ في قوله تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾، والمقصودُ: فرعونُ وأتباعُه، وإنَّما اكتُفِيَ بذِكْرِ أتباعِه دُونَهُ؛ لثلاثِ نِكاتٍ:

الأولى: لِمَا استقرَّ مِنَ العلم بأنَّهُ كانَ أَوْلَى بالإغراقِ[1]؛ لأنَّهم إذا عُذّبوا بالإغراق؛ لِكَوْنِهم تابعِين في الإجرام، فرَئِيسُ المجرمين أولى بالعذاب والإغراق[2].

الثَّانية: أنَّ محلَّ المِنَّة هو إهلاكُ مَن كانوا مباشِرين لتَسْخِير بني إسرائيل وتعذيبِهم، والذين هُم قُوَّةُ فِرعون[3].

الثَّالثةُ: الإشارةُ إلى أتباعِ الفراعنةِ في كلِّ حين، أنَّهم ليسوا ناجينَ من الهلاكِ بالاتِّباعِ، فعلَيْهم أن يعلمُوا أنَّ المصيرَ واحدٌ، وأنَّ سنَّةَ اللّٰه لا تتبدَّل.

حذْفُ مَعْمُولِ النَّظَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾:

كَثْرَةُ نِعَمِ الله على عِبَاده وتَنَوُّعُها

حُذِف معمولُ النَّظر في قول اللّٰه سبحانه: ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾، وذُكِرتْ في تقديرِه أَوْجُهٌ، مِنْهَا: وأنتم تنظرونَ ذلكَ، أي: جميعَ ما مرَّ، أو غرقَهم، أو إطباقَ البحر عليهم، أو انفلاقَ البحرِ عَن طُرُقٍ يابسَةٍ يسهلُ عليكم سُلوكُها، أو جُثَثَهم التي قَذَف بها البحرُ إلى السَّاحل، أو ينظر بعضُكم بعضًا، وأنتُم سَائِرُون في البَحْرِ[4].

ولا تعارضَ بين هذه التَّقديراتِ، فقد رأَوا كُلَّ ذلك[5]، وكلُّ واحدٍ ممَّا ذُكِرَ مِن جملةِ ما أنعم اللّٰه تعالى به عليهم.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/79.

(2) القُونَوِيّ، حاشية على البيضاوي: 3/287.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/496.

(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/510، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 1/321، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/101، ومحمّد القوجَوِيّ، حاشية زادَه على تفسير البيضاوي: 2/47.

(5) الآلوسّي، روح المعاني: 1/257.

فَائِدَةُ مَجِيءِ الخَبَرِ جُمْلَةً فِعْلِيَّةً:

تَقْرِيرُ نِعَمِ اللهِ تعالى في أذهَانِ العِبَادِ

ورَدَ خبرُ المبتدأِ ﴿وَأَنتُمْ﴾ جملةً فعليَّةً، وذلك يَقْتَضِي تَكرارَ الإسنادِ، فَقَدْ أُسْنِدَ النَّظَرُ إلى ضَمير المُنَجَّيْنَ (أنتُم) -وهذا من إسناد الخَبَرِ إلى المبتدأ- وأُسْنِدَ النَّظرُ كذلك إلى وَاوِ الجَمَاعَةِ الرَّاجعة إِلَيْهِمْ، وهو من إسناد الفعل إلى فاعِله.

ونكتةُ تَكْرَارِ الإسنادِ تأكيدُ تحقُّقِ نَظَرِهم؛ تقريرًا لِنعمة اللّه تعالى في أذهانِهِمْ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

فَرَقَ وَفَرَّقَ:

نقل القرافيُّ عن بعض مشايخه: أنَّ العربَ تُفرِّق بين (فَرَقَ) مخفَّفًا و(فَرَّقَ) مشدَّدًا، بأنَّ المخفَّف خاصٌّ بالمعاني، والمشدَّدَ مختصٌّ بالأجسام، ومناسبَتُهُ: أنَّ (فرَّق) أكثر حروفًا، فيقتضي كثرةَ المعنَى أو زيادَتَهُ وقوَّتَه، ومِنَ المتقَرِّرِ أنَّ الأجسامَ كثيفةٌ، بخلاف المعاني، فإنَّها لطيفةٌ، فناسبَ التَّشديدُ الأجسامَ لكثافتِهَا، وناسبَ التَّخفيفُ المعانيَ لخِفَّتِهَا.

ثمَّ ذكر القرافيُّ ما ينقضُ اطِّرادَ هذا، فقد ورد استعمالُ (فَرَقَ) مخفَّفًا مع الأجسام، كما في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾[1].

والتَّحقيقُ: أنَّ (فَرَقَ) و(فرَّق) يشتركانِ في أصل المعنَى؛ وهو التَّمييزُ بين شيئين[2]، إلَّا أنّ (فرَّق) بالتَّشديد يدلُّ على شدَّة التَّفرقَة، كقوله تعالى حكاية عن تعلُّم الناس من المَلَكين ما يُحَدِثون به الكراهية بين الزوجين حتى يتفرَّقا: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾.

وأمَّا التَّخفيفُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾؛ فمَنظُورٌ فيه إلى عظِيم قدرة اللّه سبحانه، فكان ذلك الفرقُ الشَّديد خفيفًا[3].

(1) القرافِّي، الفروق: 1/4.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/494.

البَحْرُ وَاليَمُّ:

لفظُ البحرِ مُشعِرٌ بالسَّعَةِ والانبساطِ[1]، يقال: أبحرتِ الرَّوضةُ؛ إذا كَثُرَ ارتفاعُ الماءِ فيها، فأنبتتِ النَّباتَ[2]، ويقال لِلرَّجل الذي كثُرَ معروفُهُ: رجلٌ بحْرٌ[3].

ويختصُّ (البحرُ) غالبًا بالماءِ المِلْحِ، ولذا يقال: أَبْحَرَ الماءُ، أَيْ: صارَ مِلْحًا[4].

وأمَّا (اليَمُّ)؛ فيُطلق على ما كان ماؤه مِلْحًا، وعلى ما كان ماؤُهُ عَذْبًا، فاليمُّ: البحرُ، واليمُّ كذلك: النَّهرُ[5].

فالفرق بينَ البحْر واليمِّ في الاستعمالِ اللُّغويّ: هو ملاحظةُ معنى السَّعَة والانبسَاطِ في لفظ (البَحْرِ)[6]، ويُؤيِّدُ هذا: الاستعمالُ القرآنيُّ، فمِن ذلك قول الله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: 109]، فإنَّ معنى السَّعَة فيه ظاهِرٌ.

بخلافِ اليَمِّ، فليس فيه هذا المَلْحظُ، كما في قول الله تعالى: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: 39]، فإنَّ المرادَ باليمِّ ههنا: نهرُ النِّيل[7].

النَّظَرُ وَالبَصَرُ وَالرُّؤْيَةُ:

أوَّل ما تقع عليه العينُ مِنَ الصُّوَرِ: نَظَرٌ، ومعرفةُ الخُبْرِ الحسّيِّ للصُّورة: بَصَرٌ، والنُّفوذُ إلى حقيقتِها: رُؤيَةٌ[8].

فالنَّظَرُ: الإقبَالُ بالبَصَرِ نحوَ المرئيِّ[9]، ولو لم يكُن فيه اعتبارٌ، ولذا قال الله تعالى عمَّا اتّخذه المشركون آلهة من الأصنام والأوثان ممَّا لا أبصارَ لَهُمْ، ولا بصائرَ: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198]، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بحر).
(2) الأنباريّ، الزَّاهر: 2/111.
(3) كُراع النَّمل، المُنَجَّد في اللغة: (بحر).
(4) ابن قُتيبة، الجراثيم: 2/14.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (يمم).
(6) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 105-103.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 18/303، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/158.
(8) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 4/266.
(9) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 544.

تَنظُرُونَ﴾؛ فإنَّ اللّه تعالى قرَّرهم "على نظرهم إليهم، وفيه: إشعارٌ بفَقْدِ بَصَرِهم؛ لضعف بصائِرِهم، مِن حيثُ لَم يقل: (وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)، ولذلك عادوا بعدها إلى أمثال ما كانوا فيه مِنَ الشّكِّ والإباء على أنبيائهم بعدَ ذلك"[1].

وفي الاستعمال القرآنيِّ وردت مادَّة (بَصَرَ) للإدراك بحاسَّةِ البصرِ، والإدراكِ بالبصيرةِ، كما قال اللّه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 42]، وقال سبحانه: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198].

وأمَّا النَّظَرُ؛ فالغالب استعمالُهُ لتوجيهِ العَينِ نحوَ شيءٍ، وقد يُستعمَلُ فيما معه تأمُّلٌ، كما في قول اللّه ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: 17]، فإنَّ النَّظَرَ هُنَا يُرادُ به: نظرُ العينِ المفيدُ الاعتبارَ بدقائق المنظورِ[2].

وأمَّا الرُّؤيةُ؛ فتستعمَلُ للإدراك بحاسَّة البصر، وللإدراك بالفكرِ والعقل، إلَّا أنَّ للرُّؤية مزيَّةً على الإبصار؛ لكونِهَا دالَّةً على علم ثابتٍ لا يقبَلُ النَّقيضَ.

فالحاصِلُ أنَّ أقوَى الثلاثةِ من جهةِ الدّلالة: الرُّؤيةُ، ثُمَّ الإبصارُ، ثم النَّظَرُ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 4/260.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/304.

(3) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 133-136.

﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٥١ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٢﴾ [البقرة: 51-52]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهما:

لَمَّا ذكر اللّه إنعامَهُ على بني إسرائيل في فرْق البحرِ لإنجائهم من فرعون وآله، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾، وكان في فرق البحر إبقاءٌ لأبدانهِم أعقبَهُ بذكر نعمة إنزال الكتابِ على نبيِّهم؛ لأنَّ في إنزالِهِ إبقاءً لدِينِهِمْ، فقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾.

ولَمَّا كان الطَّبعُ السَّليمُ يقتضي إحسانَ العملِ مقابِلَ عظيم الإحسانِ إليهم؛ أنكرَ عليهم عَمَلَهُمْ بخلاف ما يقتضيه ذلك، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَٰعَدۡنَا﴾: الواو والعين والدّال تدلُّ تصاريفُهَا على: تَرْجيَةٍ بقولٍ[2]، ومنه: الوَعْدُ والوَعيدُ، إلَّا أَنَّ الوَعدَ يكون بالخير والشّرِّ، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة: 9]، وقال سبحانه: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الحج: 72]، بخلاف الوعيدِ، فإنَّه لا يكون إلَّا بالشّرِّ[3].

وَ(وَاعَد) -بزِنَةِ (فَاعَلَ)- يَقتضي مشاركةً، تقول: واعدتُ فلانًا؛ إذا وعدتَهُ ووعَدَكَ، وَوَعَدْتُ فلانًا؛ إذا كَانَ الوَعْدُ منْكَ خاصّةً[4]، وقد يُستعملُ (فَاعَلَ) على غير بابِهِ، مثل: سافَرَ، وعافاهُ اللّه، وتكونُ لمجرَّد التَّأكِيدِ[5].

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 361-1/360.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(3) الخليل، العين: (وعد)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وعد)، والواحديّ، التّفسير البسيط: 2/510.
(4) الأنباريّ، الزّاهر: 2/129، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وعد).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/497.

والمواعدَةُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، يحتمل أن تكون على غير بابِهَا؛ لكون الوَعْدِ صادرًا مِنَ اللّه تعالى وحده، كما تدلُّ عليه القراءةُ الأخرى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا﴾[1]، ويحتمل أن تكون على بابِهَا، والمعنى: أَنَّ الوعدَ مِنَ اللّه تعالى، ومِن مُوسَى التَّلقّي والاستجابةُ وإنجازُ ما وعدَ اللّه سبحانه[2].

2) ﴿ظَٰلِمُونَ﴾: الظَّاء واللّام والميم تدور اشتقاقاتُها على حَجْبِ ما ينبغي أو مَا يُسْتَحق، أي: مَنْعُه أو انتقاصُه[3].

وَمِنْهُ: الظَّلَامُ؛ لحجبِهِ الرُّؤْيَة، والأرضُ المظلومةُ: التي لم ينلْهَا المطرُ[4].

والظُّلم: وضعُ الشَّيْءِ في غير مَوْضِعه المُخْتَصّ به، إمَّا بنُقْصَانٍ أو بِزِيَادَةٍ، وإمَّا بعدولٍ عَن وَقْتِه أو مكَانِه[5].

والظُّلمُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ هو الشِّرْكُ، وسُمِّيَ الشِّرْكُ ظُلْمًا؛ لأنَّه وضْعُ العبادةِ وَصَرْفُها لغير مستحقِّها وهو الخالق جَلَّ وَعَلا[6]، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13].

3) ﴿عَفَوْنَا﴾: العَيْنُ والفاءُ والواوُ تدلُّ كثيرٌ من تصاريفِهَا على تركِ الشَّيْءِ[7]، ومنه: العَفْوُ، وهي الأرضُ التي لا أَثَرَ فيهَا[8]، كأنَّها تُرِكَتْ، وأُهْمِلَتْ.

والعَفْوُ عَنِ الذَّنب: تَرْكُ العقُوبَةِ عَلَيْهِ[9]، وحقيقة العَفْوِ شرعًا: التَّجاوزُ عَنِ العَبْدِ بغفران ذُنوبه، وَعدمُ مؤاخذتِه بِمَا اقترفه مِنْهَا[10].

4) ﴿تَشْكُرُونَ﴾: الشِّين والكاف والرَّاء تدور اشتقاقاتُهَا حول امتلاءِ جوفِ الشَّيءِ بِرَخْوٍ طيِّب وظُهورِه عليه، ولو كانَ رافِدُهُ قليلًا[11]، حسِّيًّا كان ذلك أو معنويًّا.

(1) قرأ بها أبو عَمْرٍو ويعقوبُ وأبو جعفر، يُنظر: ابن الجزريّ، النّشر: 2/212.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/230.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ظلم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظلم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلم).
(5) ابن سِيده، المحكم: (ظلم)، والرّاغب، المفردات: (ظلم).
(6) مُحَمَّد الأمين الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/82.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو).
(8) ابن سِيده، المخصَّص: (عفو).
(9) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (عفو).
(10) الشَّوكانّي، تحفة الذَّاكرين، ص: 459.
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (شكر).

فَمِنَ الحسيِّ قولهم: شاةٌ شَكِرَى؛ وهي ممتلئَةُ الضَّرع لَبَنًا[1]، ودابَّة شكور؛ وهي الَّتي يكفيها قليلُ العَلَف، فَتَسْمَنُ عليه، وَتَصْلُحُ[2].

ومِنَ المعنويِّ: الشُّكْر: وهو عِرفانُ الإِحْسَانِ ونَشْرُه[3]؛ "إِذْ هُو تعبيرٌ عَنِ امتلاء النَّفْس ورضاها بما قُدِّم لها مِن خير، ونُجوع هذا الخير فيها"[4].

وحقيقة الشُّكر شرعًا: ظُهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافًا، وعلى قلبه: شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه: طاعةً وانقيادًا[5].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

واذكروا -يا بَنِي إِسْرَائيل- نعمتَنَا عليكم حين واعدنَا موسى أربعين ليلةً لإنزال التّوراة، ثُمَّ في غيابِهِ لمناجاتِنَا عبدتُم العجلَ، وأنتم بهذا الصَّنيع ظالمونَ أشدَّ الظُّلْمِ، ثُمَّ تُبْتُمْ فتجاوزنَا عنكم؛ لتشكروا نعمةَ العفو، وتَسْتَمِرُّوا بعد ذلك على الطَّاعةِ[6].

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

جَرْيُ المُفَاعَلَةِ عَلَى بَابِهَا فِي المُشَارَكَةِ أَوْ عَلَى غَيْرِ بَابِهَا مَجَازًا:

كُلُّ اتِّعادٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ؛ فَهُوَ وَعْدٌ مِن كُلِّ واحِدٍ مِنْهُما

المواعدَةُ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾ تقتضي اشتراكًا من اثنينِ؛ لأنَّ الأصلَ في المفاعلة كذلك، فيحتَمِلُ أن تكونَ على بابِهَا، والمعنى حينئذٍ: وعدَ الله تعالى موسى ﷺ، ووعد موسى ربَّه سبحانه بالاستجابة، وهي بهذا غيرُ مخالفةٍ لقراءةِ مَن قرأ ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾[7]؛ ذلك أنَّ من أخبر عن أحدٍ ما بأنَّه وعدَ غيرَه اللّقاءَ بمكانٍ، فمِنَ المعلوم أنَّ الموعودَ واعدٌ صاحبَهُ مِن لقائه كذلك، فيكون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾ أنَّ الله سبحانه وعد موسى ﷺ الطّورَ، ووعده موسى ﷺ اللِّقاءَ، فكان الله تعالى لِمُوسَى واعدًا مُوَاعَدًا[8].

(1) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (شكر).
(2) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (شكر).
(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (شكر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (شكر).
(5) ابن القيِّم، مدارج السَّالكين: 2/234.
(6) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/80، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/100-101، ونخبة من العلماءِ، التّفسير الميسّر، ص: 8.
(7) قرأ بها أبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر، يُنظر: ابن الجزريّ، النّشر: 2/212.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 2/59.

ويحتمِلُ أن تكون على غير بابِهَا، والقصدُ مِن ذلك: التَّوكيدُ، "فتكون مجازًا في التَّحقيق؛ لأنَّ المفاعلة تقتضي تكرُّر الفعل مِن فاعلين، فإذا أُخرِجَت عن بابِها؛ بقي التّكرّر فقط من غير نَظَرٍ لِلْفَاعل، ثُمَّ أُريد مِن التَّكرّر لازمه، وهو المبالغة والتَّحقّق، فتكون بمنزلة التّوكيد اللّفظيّ"(1).

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ النَّظمِ في اختيار التَّفصيل والإجمال المُناسب للسِّياقِ

جاء قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ بذكر العددِ جملةً واحدةً، وجاء في موضعٍ آخرَ تفصيلٌ له، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: 142]، ووجه الفرقِ بينَهُمَا: أنَّ آية سورة البقرةِ سُبقت بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾، وقبلَهُ قولهُ سبحانه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، فكان السِّياقُ قائمًا على تعداد النِّعَمِ على بني إسرائيلَ؛ تمهيدًا لإنكارِ عنادِهِم وتعنُّتِهِم وكفرِهِم، ولمَّا كان الإجمالُ أنسبَ لتحقيق هذا الغرضِ؛ ناسب ذلك أن يُذكر العددُ جُملةً واحدةً، فقال ﷻ: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

بخلاف آية سورة الأعراف؛ فغالب السِّياق الذي وردت فيه ذِكْرُ أحداث قصَّة موسى عليه السلام عَطْفًا بالواو، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٣٩﴾ [الأعراف: 138-139]، وكان سياق السُّورة قائمًا على تفصيلِ لقاء موسى عليه السلام ربَّهُ سبحانه وتعالى، فناسب ذلك أن يُعطف بالواوِ ﴿وَوَٰعَدْنَا﴾، وأن يُفصَّلَ الميقاتُ؛ فقال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: 51] (2).

نُكتَةُ التَّعْبِيرِ بِاللَّيْلَةِ دُونَ اليَوْمِ:

عُبِّرَ عَنِ المعدُودِ بـ (ليلة) دون (يومًا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/497.

(2) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 101.

فلم يقُل: يومًا، مع أنَّ المرادَ باللَّيلةِ ههنا: ما يشملُ اللَّيل والنَّهار؛ لأنَّه هو معنى (اللَّيلة) في عُرْفِ العرَبِ عند الإطلاق[1]، فشهورُ العربِ وُضعَت على سَيْرِ القمَرِ، والهلالُ يهلُّ باللَّيلِ، فصارت الأيامُ تبعًا للَّيالي[2]، فذكرُ الليلةِ دون النَّهار لِنُكْتَتَيْنِ:

الإشعارُ بعبادةِ اللّيلِ وأنَّها شأنُ الصَّالحين

إحداها: الإشعارُ بعبادةِ اللّيلِ؛ فإنَّ النَّاس يغفلون عنها، فذكرُها للتَّذكيرِ بها، وأنَّها شأنُ الصَّالحين، والوعدُ كان لِلْمُنَاجاةِ وإنزال التَّوراةِ[3]، وذِكْرُ اللَّيالي أنسَبُ؛ لِما في ذِكْرِهَا مِنَ الإشارة إلى حضور القَلب وفراغه مِنَ الشَّواغل.

الأخرى: المبالغةُ في ذمِّ المُخالفين من بني إسرائيل؛ فكأنَّها تُخاطِبُهم بحالِهم التَّعبديّ في اللّيلِ، وحالِهم الفاسدِ في النَّهارِ، وشأنُ الفسادِ أن يستشري في الليلِ لا العكس.

دلالة (ثُمَّ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾:

عِظَمُ سَعةِ رَحمةِ اللهِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ قبلَ المعصيةِ

(ثُمَّ): حرفُ عطف دالٌّ علَى التَّرتيب مع التَّراخي[4]، وفي عطف هذه الجملةِ بِهِ: إشارةٌ إلى "ترتيبٍ في درجات عِظَم هذه الأحوال، وعطفُ ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أيضًا لتراخي مرتبة العفو العظيم عن عظيم جُرمهم، فَرُوعِيَ في هذا التَّراخي أنَّ ما تضمَّنَتْهُ هذه الجُمَلُ عظائمُ أمورٍ في الخير وضِدّه؛ تنبيهًا على عِظَمِ سَعة رحمة اللّه بهم قبلَ المعصية"[5].

نُكْتَةُ العَطْفِ بِـ(ثُمَّ) دُونَ (الوَاوِ):

المُخالَفَةُ بعدَ وُرُودِ البَيِّنات أعظَمُ جُرْمًا

وقع العطفُ بـ (ثُمَّ) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ دُون الواو؛ لأنَّ الآيةَ سيقَتْ لبيانِ ظُلْمِهم وطُغيانِهم، فكان

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 9/105.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 2/516، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/64، والشَّوكانّي، فتح القدير: 1/100.

(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 1/127.

(4) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/148.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/499.

العطف بـ (ثُمَّ) أبلغَ في التَّقريع والتَّوبيخ؛ لأنَّها تقتضي أنَّهم فعلوا ذلك بعد تمكُّنهم مِنَ النَّظَرِ في الآيات والبيِّنَاتِ، فوقَعَت مخالفتُهم بعد ذلك، وذلك أعظمُ جرمًا[1]، ففيه معنى الاستبعادِ والتَّعجُّبِ، فكأنَّه خاطبَهم: ثمَّ وقع منكم ما وقعَ، والظَّنُّ استبعادُ وقوعِ مثلِه ممَّن هو مثلكم!

نُكْتَةُ حَذْفِ المَفْعُولِ الثَّانِي لِـ ﴿ٱتَّخَذْتُمُ﴾:

اسْتِبْشَاعُ ذكرِ اتِّخاذِ إلَـهٍ غيرِ اللهِ تعالَى

الفعلُ (اتَّخذتُم) من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ يتعدَّى إلى مفعولَين اثنين؛ أوَّلُهما: ﴿ٱلْعِجْلَ﴾، والآخَرُ محذوفٌ، تقديرُهُ: اتَّخذتُم العجلَ إلهًا، وإنَّما حُذِفَ لظهورِهِ وعِلْمِهم به واستبشاعًا لذِكْرِهِ[2].

سِرُّ تَذْيِيلِ الآيَةِ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾:

الـظُّـلْـمُ مِـن طَبَائِعِ اليَهُودِ

الجُملة في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ يحتمِلُ أن تكون حاليَّةً، والوصفُ المستفادُ مِنهَا يكون وصفًا كاشفًا؛ لأنَّ عبادَةَ العجلِ لا تكون إلَّا ظُلْمًا[3].

ويَحتمل أن تَكُون تذييلًا، أي: وأنتم قومٌ عادَتُكُم الظُّلْمُ، ولذا اتَّخذتُم العجلَ إلهًا[4]، وهذا أبلَغُ في ذمِّهِمْ وتقريعِهِم، ويؤيِّدُهُ: الإتيانُ بجملةِ التَّذييل اسميَّةً؛ وهي دَالَّة على ثبات الظُّلم فِيهِم واستمرارِهم عَلَيْهِ، وأنَّه مِن دأبِهم وطبعِهم[5].

دلالة حَرْفِ العَطْفِ (ثُمَّ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾:

عَظِيمُ عَفْوِ اللهِ تعالى ولُطْفِه بعِبَادِه

عُطفَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ على ما قبله بـ (ثُمَّ)، وهي دالَّةٌ -في الأصل- على التَّرتيب مع التَّراخي،

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/204.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/499.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 2/205.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 2/439.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 2/205.

إلَّا أنَّ حملها هَهُنا على هذا المعنى يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ قولُه سُبْحَانَهُ بعدُ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ تَكرارًا؛ لأنَّ معناه مُسْتَفَادٌ من الدّلالة الأصليَّةِ لـ (ثُمَّ)، فتُحمَلُ (ثُمَّ) على التَّراخي الرُّتْبِيِّ؛ لبيانِ تَفَاوُت ما بينَ فِعْلِهِمُ القَبِيحِ ولُطْفِهِ تعَالَى في شأنهِمْ[1].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾:

جلالَةُ عَفْوِ اللهِ تعالَى مع عظمَةِ الجُرْم

الإشَارة في قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ راجعةٌ إلى الاتِّخاذِ المفهومِ مِنَ الفعل ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾، وفائدتُهَا: بيانُ العنايةِ بتمييزِهِ أكملَ تَمْيِيز، حتَّى كأنَّ ظُلْمَهم صار مُشاهدًا لهم، تَصِحُّ الإشارةُ إليه كسائرِ المُشاهدَاتِ.

وجاءتِ الإشارةُ بصيغةِ البَعيدِ مع قُرْبِ ذكر الاتِّخاذِ؛ لبيانِ عَظَمَةِ جُرْمِهِم وقبيحِ فعلِهم؛ ليُتوسَّلَ بذلك إلى جلالةِ قَدْرِ عَفْوِ اللّه تعالى عليهم؛ فإنَّ عظمةَ العفوِ عَنِ الذَّنْبِ تزدادُ بحسبِ عظمَةِ ذلك الذَّنْبِ[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ دونَ لامِ التَّعليل:

تَرْكُ شُكْرِ النِّعَمِ مِـنْ عـادَاتِ اليَهُود

عُدِلَ عن لامِ التَّعليلِ إلى التَّعبير بـ (لعلَّ) في قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ لفائدتَيْن:

إحداهما: الإيماءُ إلى أنَّ شُكْرَهُمْ مع عظيمِ مِنَّة اللّه تعالى عليهم أمرٌ ليس متحقَّقًا، بل يحتمِلُ تخلُّفُهُ[3].

الأخرى: حسنُ تناسُبِ الفواصلِ؛ إذْ لو جيءَ بلام التَّعليل لحُذفت نونُ الفعلِ للنَّاصِب (لِتَشْكُرُوا)، وذلك يُفوِّتُ تناسُبَ الفاصلةِ مع ما قبلهَا وبعدها، وهذه الفائدةُ تَبَعٌ للسَّابقةِ، إذ لا تُتصوَّرُ بدونِها.

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/259.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/259.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/501.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾:

العَبْدُ مُطَالَبٌ بتَجْدِيد الشُّكْرِ كُلَّما تَجدَّدت النِّعَم

وقعَ التَّعبير بالفعل المُضارعِ في قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ للدّلالة على استمرارِ الشُّكْرِ استمرارًا تجدُّدِيًّا[1]؛ وذلك لأنَّ حقيقة الشُّكْرِ: عرفانُ الإحسانِ ونشرُهُ، ولا يكون إلَّا في مقابلَةِ نِعْمَةٍ، فكُلَّما تجدَّدَتِ النِّعْمَةُ على العبد؛ كان مطالبًا بإحداثِ شُكْرٍ جديدٍ عليها.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَفْوُ وَالمَغْفِرَةُ:

الفَرْقُ بَيْنَ العَفْوِ والـمَغْفِرَةِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أولها: أنَّ أصلَ العَفْوِ: المَحْوُ وَترك الشَّيْءِ[2]، وأصلَ الغَفْرِ: السَّتْرُ[3].

ثانيها: أنَّ الغالبَ استعمال العفوِ في تَرْكِ الواجباتِ، واستعمالُ المغفرةِ في فِعْلِ المحرَّماتِ[4].

ثالثها: أنَّ أحدَهُمَا أبلغُ من الآخَرِ، وقد وقع خلافٌ في تعيينِ الأبلَغِ منهما على قولَيْنِ:

أحدهما: أنَّ العفوَ أبلغُ من المغفرة؛ لأنَّ المغفرة تُنْبِئُ عَنِ السَّتْرِ، بخلاف العفو فإنَّه مشعِرٌ بالـمَحْوِ، والمحوُ أبلغُ من السَّتْرِ[5].

ثانيهما: أنَّ المغفرةَ أبلغُ مِنَ العفوِ؛ لأنَّ المغفرةَ متضمِّنَةٌ وقايةَ المغفورِ له شرَّ ذنبِهِ وإقبالَ الغافِرِ عليهِ ورضَاهُ عنه، بخلاف العفوِ، فإنَّهُ متضمِّنٌ إسقاطَ صاحبِ الحقِّ حقَّهُ ومسامحتَهُ، فقد يَعْفُو، ولا يُقْبِلُ على من عفا عَنْهُ، ولا يرضَى عنه، وبهذا يكون العفوُ تركًا محضًا، والمغفرةُ إحسانًا وفضلًا وجودًا[6].

والأوَّلُ أشهَرُ، والاشتقاقُ اللُّغَوِيُّ يدلُّ عليه.

---

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/134.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو)، وابن الأثير، النِّهاية: (عفا).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).

(4) ابن عثيمين، شرح الواسطيَّة: 1/341.

(5) الصَّفُّوري، نزهة المجالس: 1/88.

(6) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 14/140.

﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ٥٣﴾

[البقرة: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكر اللّه سبحانه عملَ بني إسرائيل - بخلافِ ما يقتضيه عظيمُ إحسانه تعالى إليهم؛ فاتَّخذوا العجلَ معبودًا، وكان ذلك دليلًا على سُوء طِباعِهم واختلال مزاجِهم، وأنَّهم لا يحفظون عهدًا، ولا يستقيمُون على طريقٍ؛ ذكَّرهم اللّه تعالى ههنا بنِعمة إنزال الكتاب -وهو التَّوراة- على نبيِّهم موسى عليه السلام، والكتاب الـمُنزَّل مِن شَأنه تقويمُ أحوالهم وتحسينُ طِباعهم عندَ الرُّجوعِ إليه والاهتداءِ به[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ءَاتَيۡنَا﴾: الهمزةُ والتَّاء والحرف المعتلُّ تدلُّ اشتقاقاتها على: وصولٍ، أو تقدُّم وحضورٍ، إلَى محلٍّ بتَهْيِئَةٍ أو قُوَّةٍ تُزيل ما يعوقُ، ومنه قولُهم: آتى إلَيه الشّيءَ؛ أي: ساقَه ودَفعَهُ، فجعله يأتِي إليه، وآتى فلانًا شيئًا: أعطاه إيَّاه[2]، فالإيتاءُ: الإعطاءُ[3]، وهو المرادُ بقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

وكلُّ موضع ذُكر فيه في وصفِ الكِتَاب (ءَاتَيْنَا)؛ فهو أبلغ من كُلّ موضع ذُكر فيه (أوتوا)؛ لأنّ (أوتوا) قد يقال: إِذَا أُوتِيَ مَن لم يَكُن منهُ قَبُولٌ، و(آتيناهم) يُقال: فيمن كان منه قَبولٌ[4].

2) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: وهو على وَزْنِ فِعَالٍ مِنَ الكَتْبِ، وأَصْلُهُ: جمعُ شيءٍ إلى شيءٍ[5].

ويُطلق الكِتَابُ على الخطِّ والكتابةِ، كمَا قال اللّه تعالى عن عِيسَى عليه السلام: ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[6] [المائدة: 110].

---

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/369.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أتو/أتى).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (أتى).

(4) الرّاغب، المفردات: (أتى).

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتب).

(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/223، ونصر الهُورينيّ، المطالع النَّصْريَّة، ص: 41.

ويُطلق مرادًا به المكتوبُ، فيكون مِن إطلاقِ المصدَرِ مرادًا به اسمُ المفعول، كقَوْلِهم: فِراشٌ، بمعنى: مفروشٍ، وغِراس، بمعنى: مَغْرُوس، ولِباس، بمعنى: مَلْبُوس، ثم أُطْلِقَ على الصَّحيفة مَعَ ما كُتِبَ فِيهَا(1).

ويأتي (الكِتابُ) في القرآن الكريم على أحدَ عشَرَ وَجْهًا(2)، والمُرَادُ بِهِ في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾: التَّوراةُ(3).

3) ﴿وَٱلۡفُرۡقَانَ﴾: الفاء والرَّاء والقافُ تدلُّ اشتقاقاتُها على تمييزٍ بين شيئَين(4)، ومنه سُمِّيَ القرآنُ الكريم فُرْقَانًا؛ لأنَّه يُمَيِّزُ بين الحقِّ والباطلِ(5).

والفُرقَانُ أبلَغُ مِن الفَرقِ؛ لأنَّ الفرقانَ يُسْتَعْمَلُ في التَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطل، بخلافِ الفَرْقِ؛ فإنَّهُ يُسْتَعْمَلُ في ذلِكَ وفي غَيْرِه(6).

والمرادُ بالفرقانِ في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ﴾ التَّوراة، ويكون عطف الفرقان على الكتاب مع أَنَّ المرادَ منهما واحد؛ تنزيلًا لتغايُرِ الصِّفات منزلة تغاير الذَّوات، وذلك أنَّ التَّوراة موصوفةٌ بكونها كتابًا، وبكونها فرقانًا؛ أي: فارقة بين الحقِّ والباطلِ(7).

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكروا -يا بني إسرائيل- نعمتَنا عليكم حينَ أعطَيْنَا موسى التَّوراةَ الجامعةَ بين كونِها كتابًا مُنَزَلًا وفرقانًا يُفرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ؛ لتهتدُوا بها مِنَ الضَّلال(8).

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِ(نَا) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا﴾:

ضَمير (نَا) من قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ للعَظَمَةِ لا للجمعِ؛ إذِ المتكلِّمُ

---

(1) نصر الهُورِينِيّ، المطالع النَّصريّة، ص: 41.

(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظِر، ص: 527-526.

(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 109-1/108.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).

(5) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (فرق).

(6) الرّاغب، المفردات: (فرق).

(7) محمّد الأمين الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/37.

(8) الواحديّ، الوجيز، ص: 105، والنَّسفي، مدارك التَّنزيل: 1/89، ونخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 8.

عَظَمَةُ المُؤْتَى مِن عَظَمةِ المُؤْتِي

اللّهُ ﷻ وهو الواحد الأَحَدُ، والتَّعبير بـ (نَا) - الدالَّةِ على عظَمَةِ المُؤْتِي، وهُوَ اللّه تعالى[1] - دالٌّ بالالتزامِ على عظَمَةِ الكتابِ المُؤْتَى، فإنَّ ما يُؤتيهِ العظيمُ عَظِيمٌ.

دلالة اللَّامِ فِي ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

كَمالُ التَّوراةِ التي أنزلَها اللهُ تعالى عَلَى مُوسَى عليه السلام

اللَّام في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يُرادُ بها العهد العلميُّ، والمرادُ به: التَّوراةُ؛ إِذْ هُوَ الكتاب المعهودُ إنزالُهُ على موسى عليه السلام[2].

ويُضَافُ إلى دِلالتِهَا على العهدِ: دلالَتُهَا على الكَمالِ، أي: آتينَا موسى الكتابَ الكاملَ في نفسِه الجامعَ لَكُمْ على طريق الحقِّ[3].

دلالة (الوَاوِ) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾:

تَنْزِيلُ تغايُرِ الوَصْفَيْنِ منزلةَ تغايُرِ الذَّاتَيْنِ

الوَاوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ حرفُ عطفٍ، والأصلُ في العطف: المغايَرةُ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، وليس هنا كذلك؛ إِذِ المرادُ بالكتاب والفُرقَانِ وَاحِدٌ، وهُوَ التَّوراةُ[4]، فيكون من باب الكنايةِ التي يُطلب بها نفسُ الموصوفِ، وإنَّما جيءَ بالواوِ بينَ الوصفينِ؛ للإعلام باستقلال كلٍّ مِنْهُمَا[5]، فتغايُرُ الصِّفتين بمنزلةِ تغاير الذَّاتين[6].

فالكتابُ وصفٌ أُقيمَ مقامَ الذَّاتِ، والفرقانُ وصفٌ وظيفيٌّ، عومِلَ معاملةَ الذّاتِ لِعظيمِ أثرِه، وبالغِ الاحتياجِ إليه في بني إسرائيل.

مُنَاسَبَةُ الفواصِلِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ و﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

تَنَاسُبُ مقاطِعِ الآياتِ مَعَ مَضَامِينِهَا

خُتِمَت هذه الآية بقول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/369.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/232.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/369.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/71.
(5) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/486، والسّيوطي، نواهد الأبكار: 2/244.
(6) محمّد الأمين الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/37.

وخُتِمَت الآية التي قبلها بقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ لمناسبة كلِّ فاصلةٍ لآيتِهَا، ووجه ذلك:

أنَّ اللّه تعالى ذكر جُرمًا عظيمًا فعله بنو إسرائيل، وهو عبادَةُ العجلِ، ومع عِظَم جُرْمِهم وظُلْمِهم فإنَّ اللّه سبحانه تجاوزَ عنهم، وعفَا عنهم، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، وهذه مِنَّةٌ عظيمةٌ ونعمةٌ جَسيمَةٌ تستحقُّ شُكْرَهُ تعالَى عليها، فجاء ختم الآية: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

أمَّا الآية التي بعدَها؛ فذكر اللّه تعالى إنزاله التَّوراةَ على موسَى، ووصفَهَا بكونِهَا فُرْقَانًا يُفَرِّقُ بين الحقِّ والباطِلِ، ومن شأنِ مَن هذا وَصْفُهُ أن يهتدِيَ مُتَّبِعُهُ، فقال سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِيتَاءُ وَالإِعْطَاءُ:

الإيتَاءُ والإعطاءُ معناهُمَا واحدٌ عند كثيرٍ من أصحاب المُعْجَماتِ[2].

وفرَّق آخرونَ بينهما، والتَّفريقُ راجعٌ إلى ثلاثَةِ أوجهٍ[3]:

أحدها: أنَّ الإيتاءَ لا مُطَاوِعَ لفعلِهِ، فتقول: آتاني شيئًا، فأخذتُه، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ له مُطاوعًا، فتقول: عاطاني فَعَطَوْتُهُ، أي: غلبتُه[4]، ويترتَّب على هذا: أَنَّ الإيتاء أقوَى مِنَ الإعطاء؛ لأنَّ المتقرِّرَ أنَّ ما له مُطاوِعٌ مِنَ الأفعال أضعفُ في إثبات مفعولهِ مِمَّا لا مطاوِعَ له.

ثانيها: أنَّ الإيتاء يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يَنتقِلُ مِنْهُ بعد قضاء الأَرَبِ منْهُ، ومِنْ هذا البابِ عندَهُم قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: 1]؛ لأنَّ فيه انتقالًا مِنْهُ إلى ما هو أعظمُ مِنْهُ.

ثالثها: أنَّ في الإعطاءِ دليلًا على التَّمَلُّكِ بخلاف الإيتاء.

(1) أحمد المنيراوي، المناسبة بين الفواصل القرآنيّة وآياتها، ص: 77.
(2) الخليل، العين: (أتى)، والجوهريّ، الصّحاح: (أتى).
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 87، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(4) الجوهري، الصّحاح: (عطا).

وأمَّا في خصوصِ الاستعمال القُرآنيِّ لِلَفظَتَي (الإيتاء) و(الإعطاء)؛ فإنَّ بينَهُمَا فرقًا من جِهَتَيْنِ[1]:

إحداهما: أنَّ الإيتاءَ لم يُستعمل إلَّا لِلشَّيْءِ الكَثِير والعظيم الشَّأْنِ، كالقرآنِ الكريمِ، والتَّوراةِ، والمُلْكِ، والرَّحمة، بخلاف الإعطاءِ فإنَّهُ يُستعمَلُ لِلشَّيْءِ القليل، ولم يَرِد الإعطاءُ مرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلَّا بقيدٍ يدلُّ على الكثرَة.

الأخرى: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ يكون عَنْ طِيبِ نفسٍ، بخلاف الإعطَاءِ فَهُوَ مُطْلَقٌ.

(1) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 29-27.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤﴾ [البقرة: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ذكر اللّه تعالى جُرم بني إسرائيل باتِّخاذهم العجل إلهًا يتوجَّهون إليه بأنواع العبادات، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾، وذكر سبحانه أنَّه عفَا عنهم، فقال: ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ بيَّن ﷻ كيفيَّةَ وقوع ذلك العفو، فقال جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَٰقَوۡمِ﴾: القاف والواو والميمُ تدورُ تصاريفها على أمرين، أحدهما: جماعةُ ناسٍ، والآخَر: انتصابٌ أو عَزْمٌ[2].

وَالقَوْمُ عند جمعٍ من علماء العربيَّةِ: اسْمٌ يشمَلُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاء[3].

وخصَّهُ آخرونَ بالرِّجَالِ؛ إذْ لفظُ (القَوْم) في الأصل: مَصْدَرٌ وُصِفَ به، ثم غلب على الرِّجالِ دون النِّساء؛ لكونهم قوَّامِينَ عليهِنَّ بالأمور التي ليس لهنَّ أن يقُمْنَ بها[4]، ويُؤيِّدُ هذا أنَّ لفظَ (القوم) يُقابَلُ بلفظ (النِّساءِ)، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: 11]، وفي قول زُهيرٍ[5]:

---

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 1/408.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(3) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (قوم).
(4) ابن الأثير، النِّهاية: (قوم).
(5) ديوان زهير بن أبي سُلمى، تح: علي فاعور، ص: 17.

وَمَا أَدْرِي، وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي *** أَقَوْمٌ آلُ حِصْـنٍ أَمْ نِسَاءُ؟

وإذا ذُكِرَ القومُ على جهةِ الانفرادِ دخل النِّساءُ فيه، ليس بمقتضى الوضع، وإنَّما على سبيل التَّبَع، كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾؛ إِذْ قَوْمُ كلِّ نبيٍّ: رجالٌ ونساءٌ[1].

2) ﴿فَتُوبُوٓاْ﴾: التَّاء والواو والباء تدور اشتقاقاتُهَا على معنَى الرُّجوعِ، ومنه قولُهم: تابَ مِنْ ذنبه؛ إذا رَجع عَنْهُ[2]، وتاب إلى اللّهِ: رجَعَ إِلَيْهِ بالطَّاعَةِ بعدَ المَعْصِيَةِ، وتاب اللّه على العبد: رجع إِلَيْهِ بالمغفرة[3].

وحقيقةُ التَّوبةِ شرعًا: تَرْكُ الذَّنب مخافةَ اللّه تعالى، واستشعارُ قُبْحِهِ، والنَّدَمُ عَلَى ذلكَ، والعزيمةُ على ألَّا يعود إليه؛ إذَا قدَر عليه[4].

و(التَّوَّاب): اسمٌ من أسماء اللّه تعالى، معناه: أنَّهُ يوفِّقُ عبادَهُ لِلتَّوبةِ، ويقبلُهَا مِنْهُمْ[5].

3) ﴿بَارِئِكُمْ﴾: الباء والرَّاء والهمزة تدلُّ كثيرٌ من تصاريفِهَا على معنى: الخَلقِ[6]، ومنه قولهم: برأَ اللّهُ الخَلْقَ، أي: خَلَقَهم[7]، والبريئةُ: الخَلْقُ[8]، وهي فعيلَةٌ، بمعنَى: مفعولةٍ[9]، وتُبْدَلُ همزتُهَا ياءً، فتُدغم فيما قبلها: (بَرِيَّة)[10].

والبارِئُ: اسمٌ من أسماء اللّه تعالى، ومعناه: الخَالِقُ الخلقَ على تنَاسُبٍ وتعديلٍ، فَهُوَ بهذا أَخَصُّ مِن اسمه سبحانه الخالقِ[11].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

واذكروا - يا بنِي إسرائيل - نعمتَنا عليكم حينَ قال موسى لقومِهِ: إِنَّكم ظَلَمْتُم أنفسَكم؛ إذِ اتَّخذتُم العجلَ معبودًا، فتوبُوا إلى اللّه تعالى خالقِكُم بأن يقتُلَ بعضُكم بعضًا،

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (قوم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (توب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (توب).
(4) صالح السَّدلان، التَّوبة إلى الله، ص: 10.
(5) سعيد القحطانّي، شرح أسماء الله الحسنى، ص: 110.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برأ).
(7) ابن سيده، المخصّص: 5/226.
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (برأ).
(9) الفيّوميّ، المصباح المنير: (بري).
(10) الأنباريّ، الزَّاهر: 2/114.
(11) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/504.

فإنَّ هذا خيرٌ لكم عند خالِقِكم مِنَ التَّمادِي في كُفْرِكُم المُؤَدِّي بكم إلى الخلودِ في نار جهنَّمَ؛ إذْ إنَّ في التَّوبة على النَّحْوِ الذي أُمِرْتُمْ بهِ؛ طُهْرَةً مِنَ الشِّرك، ووُصْلَةً إلَى الحياةِ الأبديَّةِ والبهجة السَّرمديَّة، فلمَّا امتثلتُم ما أُمِرْتُمْ به مِن التَّوبة؛ منَّ اللّه تعالى عليكُمْ بقبُولِهَا، فَإنَّهُ سبحانَهُ هو التَّوَّابُ الذي يُوفِّقُ عبادَهُ للتَّوبةِ، ويقبلُهَا مِنْهُم، الرَّحِيمُ بهم[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ ﴿لِقَوۡمِهِۦ﴾:

استِمَالَةُ القائدِ قُلُوبَ مُتَّبِعِيه؛ لِيكونَ ذلك أَدْعَى لقَبُولِهِمُ الحقَّ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لِقَوۡمِهِۦ﴾؛ لأنَّ تقديمَهُ أوفقُ لتحقيق الحكمة مِن النِّداء، وهو الإقبالُ على المنادَى وتخصيصُ القول لَهُ، وليدُلَّ تكرارُ ذِكرِ القوم على شدَّة تحنُّنِه وتودُّدِهِ لهم، فيكون ذلك أدعَى لاستمالةِ قلوبهم إلى قبول الحقِّ، ولو أُخِّر الجارُّ والمجرور؛ لَما ساغَ هذا التَّكرار، ولفاتت هذه الفائدةُ؛ إذ تكون الجملة هكذا: (وإذ قال موسى: يا قوم إنَّكم ظلمتُم أنفسَكم)، فلم تبقَ فائدةٌ لذِكْرِ ﴿لِقَوۡمِهِۦ﴾ بعدُ[2].

دلالة النِّدَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

صِدْقُ نُصْحِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ

النِّداءُ في قولِ اللّه تعالى حكايةً لمُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ يُؤذِن بأنَّه منهم، وأنَّهم منه، وفيه إشارة إلى ما يربطه بِهم من مودَّة وتأييد ونُصرةٍ وإعزازٍ، وفيه إشعارٌ بالتَّحنُّن عليهم[3].

نُكْتَةُ حَذْفِ المَفْعُولِ الثَّانِي لِـ ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾:

شِدَّةُ استِبْشَاعِ اتِّخَاذِ العِجْلِ مَعْبُودًا!

المصدر (اتِّخاذِكُم) من قول اللّه سبحانه: ﴿إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ أُضيفَ إلى فاعلِه، ونصبَ ﴿لَعَجَّلَ﴾

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/106-107، البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 1/81، نخبة من العلماءِ، التَّفسير الميسّر، ص: 8.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/114.

(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/260، محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/233.

على أنَّه مفعولُهُ الأوّل، وأمَّا مفعولُهُ الثَّاني؛ فمحذوفٌ؛ "لأنَّهم لَو اتَّخَذُوه ، ولم يجعلوه إلهًا؛ لم يكن فِعْلُهم ظلمًا، فالمراد باتِّخاذكم العجلَ إلهًا"[1]، وحُذِفَ لدلالة مقدِّمة الآية عليه وعِلْمِهم به، واستبشاعًا لذِكْرِه[2]، حتَّى قال بعضُ أهل العلم: إنَّ في حذفِهِ تنبيهًا "على أنه لا ينبغي لعاقلٍ أن يتلفَّظَ بأنَّ عِجْلًا مُصْطَنَعًا من حُلِيٍّ أنَّه إلَهٌ"[3]، ولذا اطَّردَ حذف المفعول الثَّاني في مثل هذا التَّركيب في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 92]، وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَۚ﴾ [النساء: 153]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ [الأعراف: 54].

نُكتةُ اخْتِيَارِ اسْمِ اللهِ البَارِئِ:

في التَّعبير باسم الله (البارئ) في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ نِكَاتٌ:

إحداها: أنَّ ذلك تقريعٌ لهم بما بدر مِنهم، وإشارة إلى عظيم جُرمهم؛ إِذِ المعنى: تُوبوا إلى الذي خلقكم، وبرأَكُمْ، ثُمَّ عبدتُم غيرَهُ[4].

ثانيهَا: هو كإقامةِ الحُجَّة عليهم في أَنَّ العجل الذي عَبَدوه، لا يستحِقُّ أن يكون إلهًا؛ إِذِ الذي يستحِقُّ العبادةَ هو الخالق البارئُ[5].

بُلُوغُ عُبَّادِ العِجلِ غاياتِ الجَهْلِ ومُنتهى دركاتِ الغَوايةِ

ثالثها: أنَّ فيه الإيماءَ إلى أنَّهم بلغوا من أقصى غايات الجهل ومُنتهى دركَاتِ الغَواية؛ حيث تركوا عبادةَ البارئ، وعبدوا البقرَ الذي هو مثَلٌ في الغباءِ[6].

رابعها: أنَّ فيه تحريضًا على التَّوبة؛ لأنَّ التَّوبةَ رجوعٌ عَنِ المعصية إلى الطَّاعةِ، فهي ضَرْبٌ مِنْ ضروب الشُّكْر، وكَوْنُ الخَلْقِ على مثالٍ متناسبٍ يزيدُ في الحثِّ على شُكْرِ الخالقِ سُبۡحَانَهُ[7].

(1) الرَّازيّ، التّفسير الكبير: 3/515.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 1/499.
(3) محمّد الأمين الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/82.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/261، القِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/170.
(5) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/189.
(6) محمد علي جميل، صفوة التَّفاسير: 1/50.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/504.

نُكْتَةُ تَكْرَارِ اسْمِ اللهِ البَارِئِ:

كُرِّر اسم اللّه تعالى (البارئ) في قوله سبحانه: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾؛ لثلاث نِكاتٍ[1]:

الأُولى: أنَّ تكرارَهُ أَوْكَدُ وأعلَقُ بالذِّهن، وذلك مدعاةٌ لاستحضارِ لوازِم معناهُ.

الثَّانية: أنَّ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ جملة مستأنَفَةٌ، فكان الأنسبُ فيها الإظهارَ.

وُجُوبُ التَّسْلِيمِ للهِ تعالَى فِي جَمِيعِ أحكامِهِ

الثَّالثة: التَّنبيه على أنَّ الأمر بالتَّوبة بطريق القتلِ ناشئٌ عَن حِكمة بالغةٍ؛ إذ إنَّ البارئَ الذي قضى بإنشائكم، وكان في ذلك غايةُ الحكمةِ؛ هو الذي قضى بإعدامكم بهذا الوجهِ، وفي ذلك غاية الحكمة كذلك، فواجبٌ عليكم أن تُسلِّموا له في جميع أحكامه.

جُمْلَةُ ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ بَيْنَ الإِطْنَابِ بِالاعْتِرَاضِ والاستئنافِ البَيَانِيِّ:

الجملة في قولِ اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ تحتَمِلُ وجهين[2]:

الحَثُّ على التَّوبَةِ ولزومِها

أحدهما: أنَّها مِن باب الإطنابِ بالاعْتِرَاض، وفائدةُ الاعتراض ههنا: التَّحريضُ على التَّوبةِ والحثُّ على لزومِهَا.

الآخَرُ: أن تكون استئنافًا بيانيًّا؛ إذ لـمَّا قال اللّه سبحانه: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ أورَثَ ذلك سؤالًا في نفوس المخاطبِينَ: وما الحكمةُ في ذلك؟ فجاء الجواب: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾، فكانتِ الجملةُ تعليلًا لما قبلَهَا.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/338، الآلوسي، روح المعاني: 1/261، الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 1/411.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/261.

بَلَاغَةُ الِالتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾:

مِنْ صفات البَارِئِ قَبُولُ تَوْبَةِ التَّائِبِين

في قول اللّه تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ حذفٌ، وفي تقديرِهِ مسلَكان اثنانِ:

أحدهما: أنَّ تقديره: (فَعلتم ما أُمِرْتُم به، فَتَابَ عَلَيْكُم)، فيكون قوله سبحانه: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ معطوفًا على محذوفٍ باعتبارِ أنَّه خطابٌ من اللّه تعالى على طريقة الالتفاتِ؛ إذ مقتضى كونه خطابًا مِنَ اللّه سبحانه أن يُقال: (فتُبْنَا عليكم)، كما يدلُّ عليه سباقُ الآية ولحاقُها، كقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم﴾، وقوله: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾، وقوله: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم﴾، وقوله: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم﴾، وقوله: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾، فالعدول في قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ مِنَ التَّكلُّم إلى الغَيْبَةِ؛ وذلك "ليكون ذريعة إلى إسناد الفعلِ إلى ضمير (بارئِكم) المُسْتَتْبِعِ لِلْإيذان بعلِّيَّةِ عنوانِ البارئيَّة والخلق والإحياءِ لقبول التَّوبة؛ التي هي عبارةٌ عَنِ العفو عَنِ القتل"[1].

الآخَرُ: أنَّ تقديره: (إن فعلتُم ما أُمرتُم به مِن قتل أنفسكم؛ فقد تاب عَلَيْكُم)، فيكون مِن كلام موسى عليه السلام، وأومأ أبو السُّعود إلى وهن هذا الوجهِ[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِضَمِيرِ الخِطَابِ دُونَ ضَمِيرِ الغَيْبَةِ:

مِن أعظمِ النِّعمِ سُرعةُ القبولِ

في التَّعبير بضمير الخطاب في قول اللّه تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ دُون الغَيبة؛ إذ لم يرِدْ: (فتابَ عليهم) باعتبار أَنَّ الضَّمير راجعٌ إلى القوم؛ لأنَّ المرادَ تذكيرُ المخاطَبين بهذه النِّعمة العُظمى[3].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/102.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/102.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/102.

سِرُّ فَصْلِ جُمْلَةِ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عَمَّا قَبْلَهَا:

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عمَّا قبلُ؛ لكونِه استئنافًا بيانيًّا، فقد سيقَتِ الجملةُ مساقَ التَّعليلِ لِلْجُملةِ قبلها، وهي قوله ﷻ: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾[1].

عُمُومُ تَوْبَةِ اللّه تعالى عَلَى التَّائِبين

ويحتَمِلُ أن تكون الجملةُ تأكيدًا لما قبلَهَا، فيكون فصلُهَا مِن باب كمالِ الاتِّصالِ بين الجملتين، والجملةُ تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرَى المثلِ، والقصدُ منه: تأكيدُ توبةِ اللّه تعالى على عبادِهِ، وَشمولُ ذلك لمن تاب من عُبَّادِ العجلِ وغيرِهِمْ.

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ الجُمْلَةِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ المُؤَكِّدَاتِ:

أُكِّدَ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بمؤكِّداتٍ أربَعَةٍ:

أَوَّلها: (إِنَّ) في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ فإنَّها من جملة مؤكِّدَاتِ الجمَلِ الاسميَّةِ.

ثانيها: القَصر، وذلك بتعريف جُزأي الجملةِ.

ثالثها: ضَمير الفصل ﴿هُوَ﴾، فإنَّه مُفيدٌ القصرَ؛ إن انفردَ طريقًا لهُ، ويُؤَكِّدُهُ -كما ههنا- إِنْ وُجِدَ طريقٌ غيرُهُ للقصرِ.

رابِعُها: اسميَّة الجملة، فإنَّ التَّعبيرَ بها آكدُ مِنَ التَّعبير بالجملة الفعليَّة؛ لِمَا تُفيده مِنَ دلالة الثَّباتِ والدَّوَام.

تحريضُ العِبَادِ عَلَى التَّوبَةِ

وتأكيدُ الجملةِ بهذه المؤكِّدَات الأربعَة: تحريضُ العبادِ علَى التَّوبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ؛ إذْ إنَّ توبةَ اللّه تعالى ورحمتَهُ ليست خاصَّةً بِمَنْ تابَ مِن عُبَّادِ العِجْلِ، بل هي عامَّةٌ لجميع من تَابِ إليهِ سبحانَهُ.

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 1/435.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البَارِئُ وَالخَالِقُ:

البارئ والخالق في ظاهر كلام بعض أهل العلم مترادِفَانِ[1]، ولعلَّهم أرادُوا تقريبَ المعنَى بجعل أحدِهما تفسيرًا للآخَرِ.

والتَّحقيقُ أنَّ بينهمَا فرقًا: فإنَّ اللّٰه تعالى جمع بينَهما في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحشر: 24]، فدلَّ ذلك على المغايَرَةِ بينَهُما.

والفرق بينَهما العموم والخصوصُ: فالبارئُ أخصُّ من الخالق مُطْلقًا، وذلكَ أنَّ البارئَ هو الخَالِقُ الخلقَ على تنَاسُبٍ وتعديلٍ؛ ولِذَلكَ وقعَ اسمُ اللّٰهِ (البارئُ) تابعًا لاسمه (الخالق) في قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ﴾ [الحشر: 24]؛ جريًا على الأصل في تقديم الأعمِّ من الأوصاف على الأخصِّ[2].

---

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابُه: 5/152، الأنباريّ، الزَّاهر: 1/87، بطَّال الرَّكْبِيّ، النَّظم المُستعذَب: 2/196.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/504.

﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٥٦﴾ [البقرة: 55-56]

مُناسَبةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهما:

لـمَّا استُتِيبَ بنُو إسرائيل مِنْ عبادة العجل التي تقيَّدوا فيها بالمحسوسِ الذي هو مَثَلٌ في الغباءِ وانطماس البصيرة؛ طَلَبوا رؤية ربِّهم تعالى في الدُّنيا عِيانًا، ناسِينَ جميعَ ما أنعم اللَّه تعالى به عليهم، مُسرعين في الكفر الدّالِّ على استيلاءِ الحَيرة عليهم، مع أنَّ الفرقانَ -الهادِمَ كُلَّ شُبهةٍ، الماحيَ كُلَّ حيرةٍ- قائمٌ بين أَيْديهم؛ وذلك لفسادِ بواطِنهم، حيثُ جَمُدوا على الوهم والحسِّ، فذكَّرهم اللَّه تعالى بذلك مُسلِّيًا نبيَّهُ محمَّدًا ﷺ في إبائهمُ الإيمانَ به بما فعلوهُ مع نبيِّهم موسى عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾، وبيَّن عقابَهُ إيَّاهم على عظيم جُرأَتِهم في الباطِلِ، فقال: ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾، ثمَّ أعقبَهُ ببيان عظيم مِنَّتِهِ عليهم بإحيائِهم بعد موتِهم، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿جَهۡرَةٗ﴾: الجيم والهاء والرَّاء تدلُّ اشتقاقاتُهَا على إعلان الشَّيءِ وكشفِهِ وعُلُوِّه[2]، يقال: جهرَ الكلامَ وجهرَ به، فيكون لازمًا ومتعدّيًا، بمعنى: أعلَنَه، وأعلَنَ به[3]، ورجلٌ جَهِيرُ الصّوتِ، أَي: عاليه، والجهرُ: العلانيَةُ[4].

ويُطلقُ الجَهْرُ مرادًا به: ظهورُ الشَّيْءِ بإفرَاط حاسَّةِ البصَرِ أو السَّمْعِ[5].

و﴿جَهۡرَةٗ﴾ في قول اللَّه تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾، أي: علانيةً أو عيانًا[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/377.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهر).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (جهر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (جهر).
(5) الرّاغب، المفردات: (جهر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/80-81، الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/538.

2) ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: الصَّاد والعين والقاف تدور تصاريفُها على الصَّوْتِ الشَّديد[1]، ومِنْهُ: الصَّاعقة والصَّعْقة، وهي: الصَّيحَةُ يُغْشَى مِنْهَا على مَن يَسْمعُها، أَو يَمُوتُ[2]، وأصلُ الصَّاعقة: "كُلُّ أمر هائل رآه الإنسانُ أو عاينَه أو أصابَه حتَّى يصير مِن هَوْلِه وعظيمِ شأنِه إلى هلاكٍ وعطَب، وإلى ذهاب عقل وغُمُور فَهْم، أو فَقْد بعض آلاتِ الجسم، صوتًا كان ذلك أو نارًا أو زَلْزَلة أو رَجْفًا"[3].

وتُسْتَعْمَلُ في خُصُوص: صَوتِ الرَّعدِ الشَّديدِ الذي يُغشى على الإِنْسَانِ مِنْهُ[4]، وتُطلق على قِطْعَةِ النَّار النَّازلة مِنَ السَّماءِ[5]، ولا تُصِيبُ شَيْئًا إلَّا دكَّته وأَحْرَقَتْهُ[6].

والصَّاعقةُ في قول الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾، يحتَمِلُ أن تكون نارًا أو صوتًا عظِيمًا، وبكلا الاحتمالَيْنِ قالَ السَّلَفُ[7].

3) ﴿بَعَثْنَٰكُم﴾: الباء والعين والثَّاءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على إِثَارَةِ الشَّيء وتوجيهه، ويختلِفُ البَعْثُ بِحَسَبِ اختلاف ما عُلِّق بِهِ، كإثارةِ الحيِّ مِن مكانٍ يَلْزَمُهُ بقُوَّةٍ، فيَنْدَفِعُ ناهِضًا أو مُبْتَعِدًا، وكَبَعْثِ النَّائم والبَعِير[8].

يُقَالُ: انْبَعَثَ فُلانٌ لشَأْنِه؛ إذا ثارَ، ومَضَى ذاهِبًا لحاجَتِهِ[9]، ومنه قيل لنَشْرِ الميِّت وإِحيائِه: بعثٌ؛ لأَنَّ فيه إثارةً له عن مكانِه[10].

و﴿بَعَثْنَٰكُم﴾ في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾، بمعنى: أثرناهم، وحرَّكناهم وأوجدنا فيهم الإحساسَ[11].

4) ﴿مَوْتِكُمْ﴾: الميم والواو والتَّاء تدلُّ تصريفَاتُهَا على ذَهاب القوَّة في الشَّيءِ، ومنه:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صعق).
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (صعق).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/83.
(4) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين: (صعق).
(5) ابن جُزيّ، التَّسهيل: 1/73.
(6) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (صعق).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 83-2/82.
(8) الرَّاغب، المفردات: (بعث)، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (بعث).
(9) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بعث).
(10) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/543.
(11) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/237.

الموتُ، وهو ضدُّ الحياةِ[1]، ومنه قيل لسُكون الرِّياحِ: مَوْتٌ[2]، وقيل: ماتتِ النَّارُ؛ إذا خَمَدَت[3].

وقال النَّبيّ ﷺ عنِ الثُّوم والبصل: «مَنْ أَكَلَهُمَا فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا»، وَقَالَ: «إِنْ كُنْتُمْ لَا بُدَّ آكِلِيهِمَا؛ فَأَمِيتُوهُمَا طَبْخًا»[4]؛ إذ إنَّ حياة الشَّجرتين عبارةٌ عن قوَّة رائحتِهما عند طَرَاوَتِهما، بخلاف موتِهما، فإنَّه إزالةٌ لِتلْكَ الرَّائحةِ بالطَّبْخ[5].

والموتُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ هو موتٌ حقيقيٌّ، وليس غَشْيَةً أو نَوْمًا[6].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكروا -يا بني إِسْرَائِيل- حين قال آباؤكم لموسى عليه السلام متجرِّئين على عظيم مقامِه: لن نُصَدِّقَ أنَّ الكلام الَّذي تُبلِّغُنَا إيَّاهُ هو كلامُ الله تعالى، حتَّى نرَى الله سبحانه عِيانًا بأبصارِنَا، فأصابتكم نارٌ، أو سمعتُمْ صوتًا شديدًا؛ فمِتُّمْ بسبب ذلك، وبعضُكم ينظُرُ إلى بعضٍ، ثُمَّ أحييناكم بعد موتِكم بسبب الصَّاعقةِ، مِن أجل أن تَشْكُرُوا نعمةَ الله تعالى عَلَيْكُم[7].

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة نِدَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَبِيَّهُمْ بِـ ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾:

الإشعارُ بجفَاءِ بني إسرائيلَ لمُخَالَفَتِهم

نداءُ بني إسرائيلَ نبيَّهُم مُوسَى عليه السلام باسمِه المُجرَّد، كما يدعُو بعضُهم بعضًا، وتكرار هذا مِنهم في مواضعَ أخرى، ولم يخصُّوه بما يدلُّ على تعظيمٍ، كندائِهِ بوصف النَّبِيِّ أو الرَّسولِ؛ مُشْعِرٌ بجفائهم وغِلْظَتِهِم[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (موت).
(2) الصَّغانيّ، التَّكملة: (موت).
(3) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (موت).
(4) رواه أحمد، حديث رقم: (16247)، وأبو داود، حديث رقم: (3827)، والنَّسائي في الكبرى، حديث رقم: (6647)، وصحَّحه الألبانيُّ في تخريج المشكاة، حديث رقم: (736).
(5) الطِّيبيّ، الكاشف عن حقائق السُّنن: 3/953.
(6) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/192.
(7) النَّسفيّ، مدارك التَّأويل: 1/90، ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/507، نخبة من العلماءِ، التَّفسير الميسّر، ص: 8.
(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/378، محمّد سيّد طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 1/137.

تَضْمِينُ فِعْلِ ﴿نُّؤْمِنَ﴾ مَعْنَى الإِقْرَارِ أَوِ الإِذْعَانِ:

تَـكْـثِـيرُ دِلَالاتِ الفِعْلِ الوَاحِدِ بالتَّضْمِينِ

اللَّامُ في ﴿لَكَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾ مُفيدَةٌ تضمينَ الفعلِ ﴿نُّؤۡمِنَ﴾ معنى الإقرار، والمعنى: لن نُقِرَّ لك، فالمُقَرُّ له: موسى عليه السلام، والمُقَرُّ به محذوفٌ، وهو أنَّ اللّه سبحانه أعطاه التَّوراةَ، أو أنَّه تعالى كلَّمَهُ بالأمر والنَّهْي، فالنَّفْيُ في ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾: نفيٌ لأمر خاصٍّ، أو نفيٌ لكمال الإيمانِ؛ لأنَّ القائلين كانُوا مؤمنينَ، والقولُ بعدمِ إيمانِهم ليس مِن قول أئمة التَّفسير[1].

واستظهَرَ بعضُ أهل العلم تضمينَ ﴿نُّؤۡمِنَ﴾: معنى الإذعانِ، والمعنى: لن نُذْعِنَ لك؛ لأنَّ المتعدِّيَ باللَّامِ هو الإذعانُ، أمَّا الإقرار؛ فيُعدَّى بالباءِ[2].

فَائِدَةُ تَقْيِيدِ الرُّؤْيَةِ بِـ ﴿جَهۡرَةً﴾:

الاحـــتراسُ من مـزالـقِ الأوهـامِ لـلإشـارةِ إلى فسادِ الأفهامِ

تقييد الرُّؤية في قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ﴾ بـ: ﴿جَهۡرَةً﴾؛ دفعًا لاحتمالِ أنَّ مَطْلَبَهُم هو الرُّؤيَةُ المناميَّةُ أو الرُّؤيةُ العلميَّةُ القَلْبِيَّةُ؛ فالتَّقييد المذكور أَشْبَهُ بالاحتراسِ عنِ الوقوعِ في إحسانِ الظَّنِّ بهم وهمًا؛ بقصدِ الدِّفاعِ عنهم.

وفي ذلك القَيْدِ تنبيهٌ إلى غِلَظِ قلوبهم، وجفاءِ طباعِهم؛ حيث لا يعتقدُونَ إلَّا بالرُّؤيةِ الحِسِّيَّةِ[3]، وهو ما يدلُّ على فسادِ أفهامِهم.

بَلَاغَةُ الاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَهۡرَةً﴾:

تَـعَـنُّـتُ بَـنِـي إِسْـرَائِـيـلَ فِي مَطَالِبِهِمْ

الجَهْرُ: العلانيَةُ، وحقيقتُهُ -عندَ بعض أهل العلم- الجهرُ في الصَّوتِ، ثُمَّ استُعير للمعايَنَةِ على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّةِ، والجامع بين المعنى الأصليِّ والمجازيِّ: الظُّهور التَّامُّ، ونكتَةُ ذلك:

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/340.

(2) محيي الدّين زاده، حاشية على البيضاوي: 2/51.

(3) محمّد سيّد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/137.

بيانُ أنَّ المطلوبَ كمالُ الرُّؤيةِ بحيث لا يُرتابُ في الإدراكِ بالعَيْنِ كما لا يُشَكُّ في جَهْرِ الصَّوْتِ المُدْرَكِ بالسَّمْعِ.

واستظهرَ كونَهُ مجازًا القُونَوِيُّ، وذكر أنَّ هذا المَسْلَكَ ينصرُهُ الاستعمالُ العُرْفِيُّ والشَّرْعِيُّ[1].

دلالة الفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ﴾:

سُرْعَةُ حُلُولِ عِقَابِ اللهِ تعَالَى بالظَّالِمِين

الفَاءُ في قوله ﷻ: ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ على الأصلِ في دِلالَتِهَا على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ تأديبَ اللّٰه تعالى لهم وعقابَه فاجأهُم بعد وقت يسيرٍ من طَلَبِهم المُتَعَنِّتِ[2].

بَلَاغَةُ الاِسْتِعَارَةِ فِي التَّعْبِيرِ بِالأَخْذِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾:

شِدَّةُ بَأْسِ اللهِ تعَالَى بِالقَوْمِ المُجْرِمِينَ

أصل الأخذِ: القبضُ باليَدِ، فاستعمالُهُ في إصابة الصَّاعقةِ من قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، ونكتَةُ هذا التَّجَوُّز: بيانُ استيلاءِ الصَّاعقةِ عليهم وإحاطتِهَا بهم، بحيث لم يُفْلِتْ أحَدٌ من آثارِهَا[3].

دلالة اللَّامِ فِي ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾:

ثَرَاءُ المَعَانِي بِتَعَدُّدِ دِلَالَاتِ الحُرُوفِ

اللَّام في ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ يحتمل أن تكون لِلْعَهْدِ العلميِّ، أي: أَخَذَتْكُمُ الصَّاعقة التي عِلْمتُمُوهَا، وعاينتُم آثارَهَا.

ويَحتَمِلُ أن تكون لِلْكَمَالِ، والمعنى: فأخذتكم الصَّاعقةُ التِي بلغَت قُوَّتُهَا الغايةَ، وشدَّتُهَا النِّهايةَ.

والمعنيَانِ صحيحَانِ، وَلا تنافيَ بينهما، ولا ترجيحَ لأحدهما على الآخر، فيُحْمَلُ تعريفُ ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ عليهمَا معًا.

---

(1) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 3/306.

(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/137.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/342.

حَذْفُ مُتَعَلَّقِ النَّظَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾:

حُذِفَ مُتعلَّقُ النَّظر في قول اللّه سبحانه: ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾، والتَّقدير: وأنتُم تنظرون إلى ما حلَّ بكم مِنَ الصَّاعقةِ[1]، أو: وأنتم يَنْظُر بعضُكم إلى بعضٍ كَيْفَ يأخُذُهُ الموتُ، وكَيْفَ يَحْيَا[2].

ويجوز أن يكونَ كلُّ ذلك مرادًا؛ إذ لا تعارُضَ بين هذه المعاني، ويكون التَّقديرُ: وأنتم تنظُرون إلى ما حلَّ بكم، وينظرُ بعضُكم إلى بعضٍ كيف يموتُ، وتنظرون إلى الإحياءِ.

فَائِدَةُ مَجِيءِ الخَبَرِ جُمْلَةً فِعْلِيَّةً:

عَظَمَةُ نِعْمَةِ اللهِ تَعالَى علَى بَنِي إسْرَائِيلَ بِالإِحْيَاءِ

جاءَ خبرُ المبتدأِ ﴿وَأَنتُمۡ﴾ جملةً فعليَّةً، وهذا مفيدٌ تَكرارَ الإسنَادِ؛ إذْ أُسْنِدَ النَّظَرُ إلى ضَمِير الذين أصابتهُم الصَّاعقةُ (أنتُم) -وهُوَ مِن إسناد الخبَرِ إلَى المبتدأ- وأُسْنِدَ النَّظرُ أيضًا إلى وَاوِ الجمَاعَةِ العائدَةِ إلَيهِمْ، وهذَا من إسنَاد الفعْلِ إلى فاعلِه.

وفائِدَةُ تَكْرَارِ الإسْنَادِ ههنَا: تَأْكِيدُ تحقُّقِ نَظَرِهِم؛ تمهيدًا لبيانِ عظمَةِ نعمةِ اللّه تعالى عليهم بالإحياءِ.

دلالة (ثُمَّ) مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم﴾:

جَلِيلُ نِعْمَةِ اللهِ تعالَى بالحَيَاةِ والحَرَكَةِ بَعْدَ فَقْدِهِمَا

(ثُمَّ) من قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ على أصلها في إفادة التَّراخي، وفي ذلك: إشارةٌ إلى بُعْدِ ما بينَ حالَيْهِم: حالِهم وهم موتَى بما أَخَذَهُم مِنَ الصَّاعقة، وحالِهم في بَعْثِهم وشعورِهم بالحياةِ والحركَةِ بعد فَقْدِهم ذلك بسبَبِ سُوءِ صنيعِهم وجرأتِهم على نبيِّهم عَلَيۡهِ السَّلَامُ[3].

نُكْتَةُ تَقْيِيدِ البَعْثِ بِـ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾:

البَعْثُ يَكُونُ بَعْدَ مَوْتٍ أَوْ نَوْمٍ أَوْ إغْمَاءٍ

قُيِّدَ البَعْثُ بكونِه من بعد المَوْتِ مع أنَّ ذِكْرَ البعثِ يُشْعِرُ بالموتِ؛

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/342.
(2) القِنَّوجِيّ، فتح البيان: 1/172.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/237.

لبيانِ أنَّ البعثَ واقعٌ بعدَ موتٍ حقيقيٍّ، لا من نومٍ أو إغماءٍ، فكان أشبه بالاحتراس؛ إِذِ البعثُ لا يلزمُ أن يكون بعد الموتِ، فقد يقع على إيقاظ النَّائم، كما في قول اللّٰه تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ١١ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾ [الكهف: 11-12]، ويقع على الإفاقة بعد الإغماء، ويُطْلَقُ بإزاءِ الإرسالِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[1] [النحل: 36].

حَذْفُ مَعْمُولِ الشُّكْرِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾:

حَذْفُ المَعْمُولِ مُشْعِرٌ بِالعُمُومِ

حُذِفَ معمول الشُّكْرِ في قول اللّٰه سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، والتَّقدير: لعلَّكم تشكرون نعمةَ البعثِ بعد الموتِ[2]؛ فإنَّ الإعادةَ بعد الموتِ منَّةٌ عظيمةٌ، وهي كالـمُضطَرّة إلى عبادةِ اللّٰه تعالى[3].

ويحتَمِلُ أن يكون المعمولُ محذوفًا؛ لإفادة العموم، فإنَّ حذف المعمولِ مُؤْذِنٌ به، ويكون المعنى: لعلَّكم تشكرونَ اللّٰه تعالى على عموم نِعَمِه، ومنها: نعمة الإحياءِ، ومن شُكْرِ اللّٰه تعالى: العمَلُ بطاعتِه واجتنابُ معصيتِه.

ويحتملُ أن يكون الفعلُ عومِلَ معاملةَ اللَّازمِ، أي: لعلكم تقومون بالشُّكرِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾:

وُجُوبُ تَجْدِيدِ الشُّكْرِ عِنْدَ تجدُّدِ النِّعَمِ

في التَّعبير بالفعل المضارع ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ إيماءٌ إلى التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، وذلك أنَّ الشُّكْرَ مُتعَلَّقُهُ النِّعْمَةُ، وهي متجدِّدَةٌ، فينبغي أن يُحْدِثوا شُكْرًا كُلَّما أحدثَ اللّٰه تعالى لهم نِعْمَةً.

(1) محيي الدّين زاده، حاشية على البيضاوي: 2/54.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/142.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 2/494.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجَهْرُ وَالإِعْلَانُ:

بينَ الجَهْرِ والإعلان عمومٌ وخصوص وجهيٌّ، فيشتركان في وجهٍ، ويفترقُ كلٌّ واحدٍ منهما عن الآخر بوجهٍ؛ وذلك أنَّ الإعلانَ هو: ضدُّ الكِتْمَانِ، ومعناه: إظهارُ المعنَى للنَّفْسِ، من غير اقتضاءٍ لرفعِ الصَّوْتِ بهِ، وأمَّا الجهرُ؛ فيلزَمُ منه رفعُ الصَّوْتِ، ومنه قولهم: رجلٌ جهيرُ الصوتِ، أي: رفيعُهُ[1].

فإظهار المعنى للنَّفْس برفعِ صوتٍ يكون إعلانًا وجهرًا، وأمَّا إظهار المعنى للنَّفْسِ من غير رفعِ صوتٍ؛ فهو إعلانٌ، وليس جهرًا، وأمَّا الجَهْرُ؛ فينفرِدُ في رفعِ الصَّوْتِ مِنْ غَيْرِ بلوغِهِ مَنْ يسمَعُهُ.

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 287.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بينَ هذه الآيَةِ والتي قبلَها مناسبةٌ مِن وَجْهَيْن:

الأوّل: أنَّ اللّه تعالى لـمَّا ذكر ما دفع عَنْ بني إسرائيلَ مِنَ النِّقم؛ شرع يُذَكِّرهم بمَا أسبغ عَلَيهم مِنَ النِّعم[1]، وذِكْرُ الجائزةِ عَقِبَ ذِكْرِ الوَحْشَةِ مِن شأنِ الرَّحيم في تربيتِه عبادَهُ[2].

الثاني: أنَّ اللّه سبحانه لَمّا ذكر إنعامَه على بني إسرائيل ببَعْثِهِمْ مِنْ بعد موتِهم؛ ذكر إنعامًا آخرَ عليهم، وقَرَنَهُ بسابِقِهِ لاشتراكهما في التَّعَلُّق بمُطْلَقِ البَعْث، فبيَّن هَهُنا حالًا تُشبه أحوالَ أهل الجنَّة التي ينالُونَهَا بعد البعثِ، وذلك أنَّ ظلَّ الغمام والأرزاقَ الحاصلةَ بغير كُلْفةٍ مِن جملة ما يكونُ بعدَ البعث، فقال سبحانه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) (ظَلَّلْنَا): الظَّاء واللّامان تدلُّ اشتقاقاتها على سَتْرِ شيءٍ لشيءٍ[4]، ومِنْهُ الظُّلَّةُ: وهي ما سترَ من فوق، وتقول العربُ: أَظَلَّنا يومُنَا؛ إذا كان يومًا ذا سحابٍ؛ لأنَّ السَّحاب يسترُ الشَّمْسَ[5].

ويُطْلَقُ الظِّلُّ كِنايَةً عَنِ العِزَّة والمَنَعَةِ، وعَنِ الرَّفاهَةِ[6].

ومعنى ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾: جعلنا الغمامَ يُظِلُّكم[7]، أي: يستُرُكم من حرِّ الشَّمْسِ في التِّيه.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/266.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/509.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/385.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظل)، الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/545.
(6) الرّاغب، المفردات: (ظلل).
(7) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/91.

2) ﴿ٱلْغَمَامَ﴾: الغَيْنُ والـميمان تدُور تصـاريفُها على تغطيةٍ[1]، ومنه: الغَمَامَةُ؛ لكونها تغطِّي السَّماءَ أو ضوءَ الشَّمْس[2]، يُقال: غَمَّ الشيءَ؛ إذا غطاه[3]، ومنه قولُ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الهِلال: «فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ»[4]، أَيْ: غُطِّيَ، فلم يُرَ[5].

والغَمام في قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾: ضربٌ مِن السَّحَابِ أبيضُ رقيقٌ[6].

3) ﴿ٱلْمَنَّ﴾: الميم والنُّونان تدلُّ اشتقاقاتها على معنيين، أحدهما: القطعُ والاِنْقِطَاع، والآخر: اصطناعُ الخير[7].

ومِن الثَّاني: الـمَنُّ، وهو عند العرب: ما منَّ اللّهُ ﷻ به على خلقه، من غير تكلُّفٍ لزرْعِه وسَقْيه[8].

وقد اختُلِفَ في معنَى المنِّ الواردِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ على أقوالٍ[9]، قال ابنُ كَثِيرٍ -بعد أن حكَاها-: "والغَرَضُ أنَّ عبارات الـمُفسِّرين متقاربةٌ في شرح الـمَنِّ، فمنهُم مَن فسَّره بالطَّعام، ومنهم مَن فسَّره بالشَّراب، والظَّاهر -واللّه أعلَمُ- أنَّه كلُّ ما امتنَّ اللّه بِهِ عَلَيْهِم مِن طعامٍ وشرابٍ وغيرِ ذلك، مِمَّا ليسَ لهُم فيه عمَلٌ ولا كَدٌّ، فالـمَنُّ المشهُور: إن أُكِل وحدَه؛ كانَ طعامًا وحلاوةً، وإن مُزِج مع الماءِ؛ صار شرابًا طيِّبًا"[10].

4) ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: السّين واللَّام والحرف المعتلُّ تدلُّ على طِيبِ عَيْشٍ[11]، يُقال: هو في سَلْوَةٍ مِنَ العيش، أيْ: في رغدٍ مِنْهُ[12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غم).
(2) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (غمم)، والرّاغب، المفردات: (غم).
(3) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (غم).
(4) رواه البخاريّ، حديث رقم: (1900)، ومسلمٌ، حديث رقم: (1080).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (غمم).
(6) ابن سِيده، المحكم: (ظلّ)، محمّد الأمين الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/107.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منّ).
(8) الأنباريّ، الزَّاهر: 2/45.
(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/67.
(10) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/268.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلوى).
(12) الجوهريّ، الصّحاح: (سلا).

وذكر جماعة أنَّ السَّلْوَى في لغة العربِ: إِنَّما هو العَسَلُ[1].

السَّلْوَى المذكورُ في القرآن عند جمهور أهل التَّفسير أو عامَّتِهم: طائرُ السُّمَانَى أو طائرٌ شبيهٌ بِهِ[2].

5) ﴿طَيِّبَٰتِ﴾: الطَّاء والياءُ والباءُ تدور تصاريفُهَا على لُطْفِ وَقْعِ الشَّيء على الحِسّ وصُلوحه في باب ما يُراد مِنْهُ[3].

ومِنْهُ: الطِّيبُ، وهو الأَفْضَلُ مِن كُلِّ شَيْءٍ[4]، والطَّيِّبُ مِن الكلام: أَفْضَلُهُ[5]؛ وذلكَ لحُسْنِ وقْعِهِ وعاقبَتِه.

وطَيِّبَاتُ الرِّزْقِ في قول الله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ﴾ هِيَ المُسْتَلَذَّاتُ والمُشْتَهَيَاتُ مِنَ المَآكِلِ وَالمَشَارِبِ[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

ومِن نِعَمِنَا عليكُم -يا بني إسرائيل- إظلالُكُم بالغمام يقيكم حرَّ الشَّمسِ، وإنزالُنَا عليكم المَنَّ -وهو مادَّة حلوة لَزِجَة كالعسَلِ تسقط على الشَّجر تنشأ مِن طُلُوع الشَّمس، أو هو كلُّ ما امتنَّ الله تعالى به عليهم مِن طعَام أو شَرابٍ- وإِنْزالُنا عليكمُ السَّلْوَى -وهو طائرٌ لذيذ اللَّحم هو السُّمَانَى أو شَبِيهُهُ- وقلنا لكم: كُلُوا مِن طيِّبات ما رزقناكم، فكفرتُم بِالنِّعْمَةِ، ولم يَضُرَّنا كفرُكُم بها، وإنَّما ظلمتُمْ أنفسَكُمْ؛ لأَنَّ ضررَ كُفْرِكُمْ راجعٌ عَلَيْكُمْ[7].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ عَطْفِ جُمْلَةِ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾:

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ على ﴿بَعَثْنَٰكُم﴾ لا على ﴿قُلْتُمْ﴾؛ لكون الأوَّل أقربَ، وله

(1) القاسم بن سلَّام، الغريب المصنّف: 2/465، والأنباريّ، الزّاهر: 2/45.
(2) الخطَّابي، غريب الحديث: 3/236، ومحمّد الأمين الشِّنقيطي، العذب النَّمير: 1/108.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طيب).
(4) الزَّبيدي، تاج العروس: (طيب).
(5) الخليل، العين: (طيب).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/101، والمُطَرِّزيّ، المغرب في ترتيب المعرب: (طيب).
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273-1/266، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/82، ومحمّد سيّد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/135، ومحمّد الأمين الشِّنقيطي، العذب النَّمير: 1/108، ونخبة من العلماءِ، التّفسير الميسّر، ص: 8.

معه اشتراكٌ في المسنَد إليه، وهو (نـا) في كلٍّ منهما، مع تناسُبٍ في المُسنَدَيْن؛ إذْ كلٌّ منهما نِعْمَةٌ، وهما: تظليلُ الغمام والبعثُ بعد الموتِ.

ولم تُذكَرْ (إذْ) ههنا اكتفاءً بالدّلالة العقليَّة على كون كلٍّ مِنْهُمَا نعمةً مستقِلَّةً[1].

سِرُّ مَجِيءِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ ضَمِيرَ المُعَظِّمِ نَفْسَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَظَلَّلۡنَا﴾:

يَـعْـظُـمُ قَـدْرُ النِّعْمَةِ بِحَسَبِ المُنْعِمِ بِهَا

مجيءُ المسند إليه ضميرَ جَمْعٍ دَالٍّ على الواحدِ المُعَظِّم نفسَه مِن قول اللّه سبحانه: ﴿وَظَلَّلۡنَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾، يُرادُ به الإيماءُ إلى عَظَمَةِ هاتَيْن المِنَّتَيْن؛ إذِ المُنْعِمُ بِهِمَا هو العظيمُ المعَظِّمُ نفسَهُ، والنِّعْمَةُ تَعْظُمُ بحسب المُنْعِمِ بها.

طَيُّ فِعْلِ القَوْلِ فِي الكَلَامِ:

جَرَيَانُ التَّعْبِيرِ الـقُـرْآنِيِّ عَـلَى طَرِيقَةِ العَرَبِ فِي الإِضْمَارِ

طُوِيَ فعلُ القولِ في قول اللّه تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ من باب الإيجاز بالحذف، وإنَّما استُغْنِيَ عنه لظهورِ المعنَى مع حذفِه، والتَّقدير: وقيل: لهم كُلُوا من طيِّبات ما رزقناكُمْ، ونظيرُ هذا الحذفِ حذفُهُ من قول اللّه ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [آل عمران: 106]، أي: يُقال لهم: أكفرتُمْ[2].

دلالة الأَمْرِ فِي قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿كُلُواْ﴾:

عِـصْـيَـانُ الـمُـحْـسِـنِ الـمُكْرِمِ أعظَمُ خَطَرًا وجُرْمًا مِن عِصْيَانِ غَيْرِهِ

الأمرُ في قول اللّه تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ يُرادُ به الإذنُ والإباحَةُ[3]، أو الاستدامَةُ على الإباحَةِ[4]؛ إذِ الأكل من الطَّيِّباتِ كان مباحًا في الأصل.

ويَحْتَمِلُ أن يكون الأمرُ دالّاً على الإكرام؛ لكونِهِ واردًا بعد ذكر

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/264.
(2) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/54.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/265.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/347.

الامتنانِ عليهم بنِعَمٍ خاصَّةٍ عظيمةٍ، ويكون هذا أبلغَ في ذمِّهِمْ بعدَ ذِكرِ ظُلْمِهِمْ؛ إذْ لم يَجْرُوا في معاملةِ المُكْرِمِ بما ينبغِي أن يكونوا عليهِ من المبالغَةِ في الشُّكْرِ.

نُكْتَةُ إِيثَارِ جَمْعِ ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ عَلَى إِفْرَادِهَا:

كَثْرَةُ الطَّيِّبات التي مَنَّ الله تعالى بِهَا علَى عِبَادِهِ

وقع التَّعبير عَنِ الطَّيِّب بالجمع، فقال سبحانه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ دون (كُلُوا من طَيِّب ما رزقناكم)؛ للإشارة إلى كَثْرَةِ الطَّيِّباتِ.

ويُؤَيِّدُ هذه الدّلالة تقديمُ حرفِ الجرِّ (مِنْ) الدَّالّ على التَّبعيضِ[1]؛ لإفادَةِ تعذُّرِ استيعابِ الطَّيِّباتِ بالإفْنَاءِ بالأكلِ؛ لكثرَتِهَا كثرةً تتعذَّر عَنِ الإِفْنَاءِ به.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الضَّمَائِرِ بِمَا يَتَنَاسَبُ مَعَ السِّياقِ

جاء التَّعبيرُ بتظليل الغمام وإنزال المنِّ والسَّلْوَى ههنا بأسلوب الخطاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾، وجاء ذلك في سورة الأعراف بأسلوب الغَيْبَةِ، فقال سبحانه: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ [الأعراف: 160]؛ لأنَّ آية البقرة في سياقٍ قائم على خطاب بني إسرائيل، فكان الأنسبُ استمرارَ الخطاب، بخلاف آية الأعراف فإنَّ صدرَها قولُ اللّه تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾، فكان السِّياقُ سياقَ غَيْبَةٍ، وكان الأنسَبُ الحديثَ عنهم بأسلوب الغائبِ، إلَّا أنَّه التُفِتَ في الأعراف إلى الخطاب عند قوله سبحانه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾؛ لأنَّه لـمَّا كان الإنعامُ على الآباءِ إنعامًا على الأبناءِ، وكان أمرُ الحاضرِ آكدَ في الحجَّةِ والإبلاغ؛ ناسبَ ذلك العدولَ من الغيبةِ إلى الخطاب، فقال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/347.

(2) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 106.

نُكْتَةُ الإِيجَازِ بِالحَذْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾:

بُلُوغُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي جَحْدِ النِّعْمَةِ مَبْلَغًا عَظِيمًا

قول الله سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ معطوفٌ على محذوفٍ، والتَّقدير: فَعَصَوْا، ولم يقابلوا إنعامَنَا عليهم بالشُّكْرِ، أو فظلَمُوا بكفرانِ النِّعَمِ التي أنعمْنَا عَلَيْهِم بها، ونُكْتَةُ الحذفِ ههنا: الإيجازُ والاِخْتِصَارُ، والإيذانُ بأنَّهُ بلغَ في تحقُّقِ صدورِهِ مِنْهُم مبلَغًا ظاهرًا أغنَى عَنِ التَّصريح بِهِ[1].

سِرُّ الِالتِفَاتِ مِنَ الخِطَابِ إِلَى الغَيْبَةِ:

مقابلةُ فَظَائِعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بالإِعْرَاضِ

جاء التَّعبير في أوَّلِ الآيةِ بأسلوبِ الخطاب الموجَّهِ لبَنِي إسرائيلَ؛ وذلك في قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ﴾، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾، ﴿كُلُواْ﴾، ﴿رَزَقْنَٰكُمْۚ﴾، ثُمَّ عُدِلَ عنه إلى الغَيْبَةِ في قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وكان مقتضى الظاهر: (وما ظَلَمْتُمُونا، ولكن كنتُم أنفسكُم تظلمونَ)، وهذا العدولُ واقعٌ على وجهِ الالتفاتِ، ونُكْتَتُهُ: الإشعار بأنَّ فَظَائِعَهم وكُفْرَانَهم موجِبٌ لِلْإِعْرَاضِ عنهم، فلم يستحقُّوا الإكرامَ بتوجيه الخطابِ لهم[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ ﴿يَظْلِمُونَ﴾ وَذكرِ ﴿كَانُوٓاْ﴾:

انْطِبَاعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِطَابِعِ الظُّلْمِ وَاسْتِمْرَارُهُمْ عَلَيْهِ.

﴿كَانُوٓاْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ مفيدَةٌ استمرارَهم على ظُلْمِهم وَدوامَهم عليه، ويُؤَيِّدُهُ: الإتيان بالفعل ﴿يَظْلِمُونَ﴾ فعلًا مضارعًا، وهو دالٌّ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ بقرينَةِ الذَّمِّ الواقع عليهم، فأفاد مجموعُ الأمرين: أنَّهم مستمرُّون على ظلمهم، مداوِمُونَ عليه، متجدِّدٌ فيهم، حتَّى صارَ الظُّلْمُ طَبْعًا لهم[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/104، الآلوسّي، روح المعاني: 1/265.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقلِ السَّليم: 1/104.
(3) محمّد سيّد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/139.

سِرُّ جَمْعِ النَّفْسِ جَمْعَ قِلَّةٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾:

حَقَارَةُ النَّفْسِ الـمُتَوَغِّلَةِ فِي العِصْيَانِ

جُمِعَتِ النَّفْسُ جَمْعَ قِلَّةٍ -(أَنْفُس) على زِنَةِ (أفعُل)- في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾؛ تحقيرًا لهم وتقليلًا من شأنِهم؛ إذ ارتكبوا القبائح والجرائمَ، والنَّفْسُ إذا توغَّلَتْ في العصيانِ كانَتْ أقلَّ مِنْ كُلِّ قليلٍ[1].

دلالة تَقْدِيمِ المَعْمُولِ عَلَى عَامِلِهِ:

وَبَالُ ظُلْمِ الظَّالِمِ رَاجِعٌ عَلَيْهِ

قُدِّمَ المفعولُ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ على عاملِه ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾؛ لِنِكاتٍ ثلَاثٍ[2]:

إحداها: إفادَةُ القصرِ الذي أفادَهُ الجمع بين النَّفي والإثباتِ قبلُ، فالقصرُ في الآيَةِ مُؤكَّدٌ، والقصدُ من ذلك: بيانُ أنَّ ضررَ ظُلْمِهم لا يتخطَّاهُمْ، بل هو راجعٌ إليهِمْ.

ثانيها: الدّلالة على الاعتناء بالإخبار عمَّنْ حَلَّ به الفعلُ.

ثالثها: حُسنُ الفواصلِ؛ إذْ لو لم يُقدَّمْ؛ لفاتَ التَّناسُبُ اللَّفظيُّ بين الآيِ.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغَمَامُ وَالسَّحَابُ:

الغمام: هو سحابٌ أبيضُ رقيقٌ، والغالب استعمالُهُ فيما لا ماءَ فيهِ[3]؛ وإنَّما المقصودُ الأعظَمُ مِنْهُ هو السَّتْرُ، كما تدلُّ عليه مادةُ الغين والـميمَيْن؛ وهو التَّغطية[4].

وأمَّا السَّحابُ: فالغالبُ استعمالُهُ فيما فيه ماءٌ؛ وذلك أنَّ مادَّتَهُ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/265.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/82، أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/349، السَّمين، الدُّرُّ المصون: 3/361، أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/104.

(3) محمّد ياس خضر الدّوري، دقائق الفروق اللّغويّة في البيانِ القرآنّي، ص: 130.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غم).

-وهي السِّين والحاء والباء- تدلُّ على الجرِّ[1]، والسَّحابُ سُمِّيَ سحابًا؛ إمَّا لجرِّ الرِّيح له أو لجرِّه الماءَ[2]، ولذا وردَ في القرآن الكريم موصوفًا بما يدلُّ على ما فِيه مِنَ الماء، كقول اللّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: 12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحب).
(2) الرّاغب، المفردات: (سحب).

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٥٩﴾ [البقرة: 58-59]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهما:

لمَّا ذكر اللّه تعالى في الآية السَّابقةِ تظليلَهم بالغمام، وإكرامهم بالمَنِّ والسَّلوى، وهما مِنَ النِّعَم الدُّنيويَّةِ؛ أعقبَهُ بذكر مغفرة الذّنوب وزيادةِ أجر المحسنين، وهما مِنَ النِّعَم الدِّيْنِيَّة[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلۡقَرۡيَةَ﴾: القاف والرَّاء والياءُ، تدلُّ تصاريفُهَا على جمعٍ واجتماعٍ[2]، يقال: قرى الماءَ في الحوضِ، أي: جَمَعَهُ[3]، ويقال لِلْمدينةِ: قريةٌ؛ لاجتماع النَّاس فيها[4].

وللقرية إطلاقات ثلاثة[5]:

أوَّلها: على المكان الذي يجتمع فيه النّاسُ.

ثانيها: عَلَى النَّاسِ المجتمعين في مكان واحد.

ثالثها: على المكان الذي يجتمع فيه النَّاسُ وعلى النَّاسِ معًا.

فدلالة الثَّالث مُركَّبَةٌ مِنَ الأَوَّل والثَّاني.

وتُطْلَقُ القَرْيةُ عَلى البَلْدَةِ الصَّغيرَةِ، وعَلى المَدينَةِ الكَبيرَةِ ذاتِ الأسْوارِ والأبْوابِ كَما أُرِيدَ بِها هُنا بِدَليلِ قَوْلِه تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾.

(1) البقاعِيّ، نظم الدّرر: 401-1/390.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قري).
(3) القاضي عِياض، مشارق الأنوار: (قرى).
(4) النّحّاس، معاني القرآن: 3/57.
(5) الرّاغب، المفردات: (قرى).

والمرادُ بالقرية في الآية: (بيتُ المَقْدس).

2) ﴿سُجَّدَا﴾: السِّينُ والجيمُ والدَّالُ تدُور تصاريفُهَا عَلى الذُّلِّ والتّطامُنِ، أي: الِانْخِفَاضِ[1]، يُقال: سَجدتِ الدَّابَّةُ؛ إذا خَفَضَت رأسَها؛ لتُرْكَبَ[2]، ونَخْلَةٌ ساجدةٌ؛ إذا أَمالَها حِمْلُها[3].

والسُّجُودُ يُطْلَقُ بمعنى وضْعِ الجَبْهةِ على الأرضِ[4]، وبمعنى: الانحنَاءِ[5]، ومِنَ الانحناءِ تسميةُ الرُّكوعِ: سُجودًا[6]، وذلك لاشتراكهما في أصل الانحناء، وإن كان السَّاجدُ أشدَّ انحناءً من الرَّاكِعِ[7].

والسُّجَّدُ: جمعُ ساجدٍ، كالرُّكَّع: جمع راكعٍ، والمرادُ بالسُّجود في قول الله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ الخضوعُ، والمعنى: ادخلوا مُنْحَنِينَ خَاضِعِينَ[8].

3) ﴿حِطَّةٞ﴾: الحاءُ والطَّاءان تدور تصاريفُها على إِنْزَالِ شيءٍ من عُلُوٍّ[9]، ومِنْهُ حطُّ الأحمالِ عنِ الدَّوابِّ[10]؛ أي: وَضْعُهَا عن ظهورِهَا إلى الأرضِ، ومِنْهُ: حَطُّ الأوزَارِ[11]؛ بمعنَى: مغفرتِهَا؛ لأنَّ الوِزْرَ يُثْقِلُ العبدَ، فإذا غفرَ الله تعالى للعبدِ ذَنْبَهُ؛ فقد خَفَّفَ عَنْهُ ما كان يجدُهُ ثقيلًا، كالدَّوابِّ التي تُحَطُّ عَنْ ظهورِهَا الأحمالُ.

والحِطَّةُ في قول الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾ أَيْ: قُولُوا: حُطَّ عَنَّا ذُنوبَنا؛ أي: اغفرها[12].

4) ﴿نَّغۡفِرۡ﴾: الغين والفاء والرَّاء تدورُ أكثرُ اشتقاقاتِهَا على معنى: السَّتْرِ، ومنه:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).
(2) الأنباريّ، الزَّاهر: 1/47.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سجد).
(4) ابن سِيده، المخصَّص: 4/57.
(5) ابن القطَّاع، كتاب الأفعال: 2/125.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سجد).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 2/105.
(8) السُّيوطي والمحليّ، تفسير الجلالين، ص: 13، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 53.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حط)، والرّاغب، المفردات: (حط).
(10) الخليل، العين: (حط).
(11) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (حطط).
(12) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 50، وابن الأثير، النِّهاية: (حطط).

الغَفْرُ؛ وهو السَّتْر[1]، وقال الرَّاغب: "الغَفْرُ: إِلْبَاسُ ما يَصُونُه عَنِ الدَّنسِ"[2]، وهو راجعٌ إلى معنى السَّتْرِ.

وَالمغفرةُ شرعًا: سَتْرُ الذَّنب والتَّجاوزُ عَنْهُ[3].

5) ﴿خَطَٰيَٰكُمْۚ﴾: الخاء والطَّاءُ والهمزةُ تدلُّ اشتقاقاتُها على تخطِّي مَوقعِ الشَّيء أو تجاوزه باندفاع[4]، ومِنْهُ: الخَطَأُ، وهو العدولُ عَنِ الجهة، وهو ثلاثةُ أضربٍ[5]:

الأوَّل: أن يُريدَ أحدٌ غيرَ ما تَحْسُنُ إرَادتُه، فَيَفْعَلَه، وهذا يُؤاخَذُ به الإِنْسَانُ، وَيُقَالُ فيه: خَطِئَ يَخْطَأُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ۝٣٦ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: 36-37].

الثَّاني: أن يُريدَ ما يَحْسُنُ فِعْلُه، ولكنْ يقَعُ منهُ خلافَ ما يُريدُ، فيقال: أَخْطَأَ يُخْطِئُ، وهذا رُفِعَت المؤاخذةُ به عن أمَّةِ الإسلام، كما قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: 286]، وقد جاء في صحيح مُسْلم أنَّ الله تعالى قال: «قَدْ فَعَلْتُ»[6].

الثَّالث: أن يُريدَ ما لا يَحْسُنُ فِعْلُه، ولكنْ يقعُ مِنْهُ خِلَافُهُ على وجهٍ صوابٍ، فهذا مُخْطِئٌ في إرادته، فيؤاخذُ بِقَصْدِهِ، ولا يثاب على فعله.

والخطايا جمع خطيئة، والمراد بها في قول الله تعالى: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾: الذّنوب العظيمةُ التي يستحقُّ صاحبُها التَّنكيلَ[7].

6) ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: مادَّةُ الحاءِ والسِّين والنّونِ تدلُّ على ضدِّ القُبْحِ[8]، والمحاسنُ مِنَ الأعمال: ضدُّ المساوئ، ومِنْهُ سُمِّيتِ الجنَّةُ: الحُسْنَى؛ ضدُّ السُّوأى وهي النَّارُ[9].

والحَسَنُ: كُلُّ مُبْهِجٍ مرغُوبٍ فيه، وَالْحَسَنَةُ يُعَبَّر بهَا عَن كُلّ ما يَسُرُّ من نعمةٍ تَنالُ العبدَ في نفسِه أَو بدنِه ونحو ذلكَ- والسَّيِّئَةُ ضدُّهَا[10].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفر).

(2) الرّاغب، المفردات: (غفر).

(3) ابن عثيمين، القول المفيد: 1/85.

(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خطأ).

(5) الرّاغب، المفردات: (خطأ).

(6) رواه مسلم، حديث رقم: (126).

(7) محمّد الأمين الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/114.

(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).

(9) الخليل، العين: (حسن).

(10) الرّاغب، المفردات: (حسن).

والإِحْسَانُ: ضدُّ الإِسَاءَةِ[1]، وحدُّ الإحسانِ شرعًا ، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2].

وفي معنى (المحسنِين) المذكورين في قول اللّه تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أقوالٌ، أصحُّها: أنَّ (المحسنينَ): هُمُ الذين يعبدُونَ اللّه تعالى كأنَّهم يَرَوْنَهُ، فهمُ أشدُّ الناسِ مراقبةً للّهِ تعالى في أعمالهم[3].

7) ﴿رِجْزًا﴾: الرَّاء والجيمُ والزَّايُ تدور تصاريفُها على ارتعادٍ عندَ النُّهوض أو الحَمْلِ؛ بسببِ الثِّقل العظيم، ومِنْهُ: الرِّجْزُ؛ وهو العذاب المُثْقِلُ المعجِزُ[4]، يقال: ناقةٌ رَجْزَاءُ؛ وهي التِي يرعُدُ فخذُها أو عَجُزُها حين تقوم[5]، أو هي: التي تَقَارَبَ خَطْوُها واضطرَب؛ لضعفٍ فيها[6].

والرِّجز في قول اللّه تعالى: ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: العذابُ[7].

8) ﴿يَفْسُقُونَ﴾: الفَاءُ والسِّينُ والقَافُ تدورُ تصاريفُها على خُروجٍ عَن مُحِيطٍ، كالْكِمَامِ للثَّمَرَةِ، والجُحْرِ لِلْفَأْرَةِ[8]، يُقال: فَسَقَت الرُّطَبَةُ؛ إذا خرجت مِنْ قِشْرِها[9].

ويُطلَقُ الفِسْقُ في الشَّرعِ: على الخُرُوجِ عَنِ الطَّاعة[10]؛ فِعْلًا للمنهيِّ عنه أو تَرْكًا للمأمور به، وهو المراد في قوله سبحانه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكروا - يابني إسرائيلَ - من نِعَمِنا عليكم حين قلنا لَكُم: ادخلوا بيتَ المَقْدِس، فكلوا ممَّا فيه أكلًا هنيئًا واسعًا غير مضيَّقٍ عليكم فِيه، وكونوا في دخولِكُم له خاضعينَ للّه تعالى، واسألوا اللّه قائلين: ربَّنا حُطَّ عنَّا ذنوبنا، نستَجِبْ لكُم، فنتجاوزُ عنكم، ونسترُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حسن).
(2) رواه البخاري، حديث رقم: (50)، ومسلم، حديث رقم: (9).
(3) ابن تيميَّة، الإيمان، ص: 281، ومحمّد الأمين الشّنقيطيّ، العذب النَّمير: 115-1/114.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجز).
(5) أبو هلال العسكريّ، التَّلخيص في معرفة أسماء الأشياء، ص: 359.
(6) الرّاغب، المفردات: (رجز).
(7) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 50.
(8) المُناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 260.
(9) الأنباريّ، الزَّاهر: 1/120.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فسق).

ذنوبَكُم، وسنزيدُ الذين أحسنوا في أعمالهم خيرًا وثوابًا عاجِلَيْن وآجِلَيْن جزاءً على إحسانهم.

فبدَّلَ أهلُ الظُّلم مِنْهُم ما أُمروا به مِنَ القول والعمَل؛ فقالوا: (حِنْطَة) بدلًا من (حِطّة)، ودخلوا زاحفين على استاهِهِمْ، فعاقبهم اللّه تعالى بأن أنزل عَليهم مِنَ السّماءِ عذابًا شديدًا؛ بسبب خُرُوجِهم عن طاعة اللّه تعالى واستهزائهم بأمرِهِ سُبحانه[1].

الإيضَاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِضَمِيرِ الجَمْعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْنَا﴾:

أَوَامِرُ الله تعالى جليلةُ القَدْرِ، جديرَةٌ بالاعتناء

التَّعبيرُ بـ (نَا) الدَّالّةِ على العَظَمةِ في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ إشعارٌ بتعظيم القول وتشريفِهِ والاهتِمَام به، وفي هذا إيماءٌ إلى أهميَّة الأمر المذكورِ بعدُ، وأنَّه جديرٌ بتوجُّهِ العنايَةِ إِلَيْه.

دلالة اسْمِ الإِشَارَةِ ﴿هَٰذِهِ﴾:

الأَمْـرُ بدُخُـول القَرْيَة كان عندَ مُقَارَبَتِهم لَها

اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِ﴾ دالٌّ على القريب الحاضِرِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم أُمروا بدخولِهَا عند مقاربَتِهم لها ومعاينتِهم إيَّاهَا[2]؛ ففيه تصويرٌ لحالِ بني إِسرَائيل عندَ تلقِّي الخطابِ.

دلالة الأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُواْ﴾:

الأمر في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ يُراد به الإباحَةُ والِامْتِنَانُ، ويقوِّيه وجهان:

عِظَمُ مِنّة الله تعالى على بَنِي إِسْرَائِيلَ

الأوَّل: قوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، ففيهِ عُمومُ الإباحةِ والإذنِ؛ إذْ إنَّ مشيئَتَهُم غيرُ مُنْحَصِرَةٍ.

والآخَر: قوله تعالى: ﴿رَغَدًا﴾، ففيه الامتنانُ؛ إذ جَعَلَ أَكْلَهُم هنيئًا واسعًا غيرَ مُضَيَّقٍ عليهم فيهِ.

---

(1) أبو المظفَّر السَّمعانِّي، تفسير القرآن: 84-1/83، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 279-1/273، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 53، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 9.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/357.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ التَّعبير القرآنيّ في تقديمِ اللَّفظ الأنسَب لِسِيَاقِه

قُدِّمَ الظَّرْفُ ﴿حَيۡثُ﴾ - ههنا - على الرَّغَدِ، فقال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾، وفي قصَّةِ آدمَ عليه السلام المتقدِّمَة قُدِّمَ الرَّغَدُ على الظَّرْفِ، فقال سبحانه: ﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ [البقرة: 35]، وذلك أنَّ الرَّغدَ من صفاتِ الأكل أو الآكلِ، فتقديمُهُ في قصَّة آدمَ عليه السلام ظاهرةٌ؛ لأجل أن يكون قريبًا من عاملِهِ من غير فاصلٍ بينَهما، وأمَّا تأخيره ههنا؛ فلأجل التَّناسُبِ الصوتيِّ بين نِهَايَتَي الجُمْلَتَيْن؛ وهما: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾ و﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾[1].

دلالة اللَّامِ في ﴿ٱلۡبَابَ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلۡبَابَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾؛ لِلْعَهْدِ، أي: باب القريةِ التي أُمروا بدخولها؛ وهي بيتُ المقدِسِ[2].

ويحتَمِلُ أن تكون اللَّامُ عِوضًا عن مضافٍ إليه، والتَّقدير: وادخلوا بابَهَا، أي: بابَ القريةِ.

دلالة تَنْكِيرِ ﴿حِطَّةٞ﴾:

استِشْعَار عِظَمِ الكَرَمِ الإلهيّ

تَنْكِيرُ ﴿حِطَّةٞ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ[3]، أي: احطُطْ عنَّا خطايانَا حطًّا عظيمًا، وفي دلالة ذلك على التَّعظيم: إيماءٌ إلى عِظَم مغفرة اللَّه لذنوب عباده، وبيانٌ لجزيلِ الكرم الإلهيّ في التجاوز عن خطاياهم.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ(نَا) الدَّالَّةِ عَلَى العَظَمَةِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾:

اللهُ عز وجل لَا يَتعاظَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ

جاء التَّعبيرُ بـ (نَا) المفيدةِ العظمَةَ في قول اللَّه تعالى: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾؛ لِلْإِيماء إلَى أنَّه سُبحانَهُ لا يتعاظمُه ذنبٌ أن يغفرَهُ، ولو كان

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/357-358.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/132.
(3) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 1/394.

شِرْكًا كاتِّخاذ العجلِ إلهًا؛ إذا تابَ صاحبُهُ من ذلك[1]، وفيه إلماحٌ إلى تكرار العفو منه سبحانه، وأنه لا يمل من مغفرة ذنوب عباده مع كثرتها.

التَّكَامُلُ الدّلَاليُّ بَيْنَ القِرَاءَاتِ القُرْآنِيَّةِ

تَوْجِيهُ القِرَاءَاتِ: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾، ﴿يُغْفَرْ لَكُمْ﴾، ﴿تُغْفَرْ لَكُمْ﴾:

قُرئَ هذا الموضعُ من سورة البقرة ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ بالبناءِ للمفعولِ على خلافٍ في كيفيَّة ذلك، فقرأ نافعٌ وأبو جعفر ﴿يُغْفَرْ لَكُمْ﴾، وقرأ ابن عامر بالتَّاءِ ﴿تُغْفَرْ لَكُمْ﴾، ونكتةُ بناءِ الفعل لِلْمَفعول على الوجهينِ المذكورين: أنَّه "إشارةٌ إلى تحقير الذّنوب إذا أرادَ غُفْرَانها، بحيث إنَّه بأدنى أمرٍ وأدقِّ إشارة يَمْحُوها، وهي أقلُّ من أن يُبَاشِرَها بنفسه المُقَدَّسة، كلُّ ذلك استعطافٌ إلى التَّوبة"[2].

وهذان الوجهان - ﴿يُغْفَرْ لَكُمْ﴾ و﴿تُغْفَرْ لَكُمْ﴾ - مع وجهِ قراءة الفعل بالبناءِ لِلْفَاعل - ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾[3]- متوافقانِ؛ فإنَّ الذَّنْبَ قد يُعَظِّمُهُ الشَّرْعُ، وَيَعْظُمُ عند مرتكِبِه، ولكنَّ اللّه تعالى لا يَتَعَاظَمُهُ أن يغفرَ ذلك لمن تابَ إليهِ؛ فإنَّ سَتْرَها ومحوَهَا هيِّنٌ عليهِ سبحانَهُ.

عَظِيمُ إِحْسَانِ اللهِ تعالى بِغَفْرِ الذُّنُوبِ؛ وإن كَثُرَت

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ جَمْعِ الكَثْرَةِ ﴿خَطَايَاكُمْ﴾:

جاء التَّعبيرُ بجمع الكثرة ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾؛ لأنَّ السّياقَ -هَهُنَا- جاء لتَعداد النِّعَم؛ فحَسُنَتِ الإشارة إلى أنَّ الذُّنوبَ كثُرَ صدورُها مِنْهُم، حتَّى كأنَّهم جعلوا مقابلَ كلِّ نعمةٍ أنعم اللّه تعالى بها عليهم ذنبًا، وهذا إغراقٌ في العصيانِ، ومع هذا كُلِّهِ فإنَّ اللّه تعالى يغفرُهَا، وهو دالٌّ على عظيم إحسانِهِ سبحانَه عَلَيهِم[4].

(1) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 1/395.
(2) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 1/395.
(3) وهي قراءة جمهور القرّاء، ينظر ابن الجزري، النشر: 2/215.
(4) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 397-1/396.

حَذْفُ المَفْعُولِ الثَّانِي للفِعْلِ (نَزِيدُ):

حُسْنُ جَزَاءِ المُحْسِنِين في الدُّنيا والآخرة

حُذِفَ المفعولُ الثَّاني لِلْفِعْلِ (نَزِيدُ) من قول اللّه تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، للدّلالة على العموم؛ إذ إنَّ حذف المعمولِ مُؤْذِنٌ به، والتَّقدير: وسنزيدُ المحسنين مِن خَيْرَي الدُّنيا والآخرةِ[1].

دلالة اللَّامِ فِي ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

مُجازاةُ المُحسنين جَزيلَ الثَّوَابِ عَلَى يَسِيرِ العَمَلِ

اللَّام في ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ لِلْكَمَالِ، أي: هُمُ كَامِلُو الإحسانِ البالغُونَ فيهِ غايتَهُ.

ويحتمِلُ أن تكونَ موصولَةً، أي: الذين أَحْسَنُوا، فيصدقُ علَى مَنِ اتَّصفَ بمطلقِ صفةِ الإحسانِ؛ ولو لَمْ يبلُغْ هذا الوصفُ عِنْدَهُ الكمالَ، وهذا أليقُ بمقامِ الامتنانِ وأنسبُ لجودِ اللّه تعالى وكرَمِه بعبادِهِ؛ حيث يُجازيهم على العمل اليسير الثَّوابَ الجزيلَ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ المُخَالَفَةِ بِالتَّبْدِيلِ:

مُخَالَفَةُ المَأْمُورِ بِهِ مَعَ تَبْدِيلِهِ أَشْنَعُ مِنْ مُطْلَقِ المُخَالَفَةِ

سمَّى اللّه تعالى مخالفَةَ الظَّالمِينَ الأمرَ: تبديلًا، في قوله سبحانه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ المخالِفَ كأنَّهُ أنكرَ ما أُمِرَ به بالكُلِّيَّةِ، وتظاهَرَ ادِّعاءً أنَّه مأمورٌ بغَيْرِه[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بالاسمِ الموصولِ:

تَعْلِيقُ الذَّمِّ على الوصفِ الأعمِّ يستلزِمُ الذمَّ على الوصفِ الأخصِّ بطريق الأولَوِيَّةِ

جاء التَّعبير بالاسم الموصول مع صلتِهِ في قوله سبحانه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ دون (فبدَّل الظالمون)؛ لأنَّ تعليق الذَّمِّ على الوصف الأعمِّ يستلزِمُ الذمَّ على الوصف الأخصِّ بطريق الأولَوِيَّةِ والأَحْرَوِيَّةِ؛ وذلك أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يصدقُ بمطلق الظُّلم، بخلاف (الظَّالمين)؛ فإنَّه دالٌّ على ثبوتِ وصفِ الظُّلْم لهم وكمالِهِ فيهم، فيكون تعليق الذمِّ على الاسم الموصولِ تعليقًا للذمِّ على الوصف الأعمِّ[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/516.

(2) وهبة الزُّحيلّي، التَّفسير المُنير: 1/168.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/117.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المَاضِي فِي الصِّلَةِ:

تحقُّق وصف الظُّلم في بني إِسْرَائِيل

وقعت الصِّلَةُ فعلًا ماضيًا، فقال سبحانه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ دون الفعل المضارع (فبدَّلَ الذين يظلمون)؛ لأنَّ الفعل الماضي مُفيدٌ تحقُّقَ وصفِ الظُّلم فيهم.

دلالة تَنْكِيرِ ﴿قَوۡلًا﴾:

تنكيرُ ﴿قَوۡلًا﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾؛ لإفادة التَّحقيرِ، فهو قولٌ مرذولٌ؛ لكونِه قولًا مخالِفًا لما أمرَهم الله تعالى أن يقولُوهُ.

نُكْتَةُ إِظْهَارِ القَوْلِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَوۡلًا﴾:

دَفْعُ تَوَهُّمِ اقْتِصَارِ التَّبْدِيلِ عَلَى لَفْظِ (حِطَّة)

أُظْهِرَ القولُ في قوله سبحانه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا﴾، بدلًا من إضماره؛ بأن يَأْتِيَ النَّظْمُ: (فبدَّلوهُ)؛ لدفع توهُّم أنَّهم بدَّلوا لفظ (حِطَّة) خاصَّةً، وأنَّ ما عداه ممَّا قيلَ لهم قد امتَثَلُوهُ[1].

بَلَاغَةُ الاكْتِفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾:

مَنْ يُخَالِفِ المَأْمُورَ بِهِ مِنَ القَوْلِ؛ فَهُوَ لِمُخَالَفَةِ الفِعْلِ أَحْرَى

في قول الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ اكتفاءٌ بذِكْرِ تبديل القول عن تبديل الفعل، وإلَّا فإنَّهم بدَّلوا القول والفعل معًا، وتقديرُهُ: فبدَّل الَّذين ظلموا قولًا غير الَّذي قيل لهم بقولٍ غيره، وبدَّلوا فعلًا غير الَّذي قيل لهم بفعلٍ غيرِه[2].

وفي هذا الاكتفاءِ نكتتان:

إحداهما: الإيماء إلى أنَّ تبديل القولِ وحدَهُ موجِبٌ لهذا العذابِ الشَّديد؛ فكيف الظنُّ بعذابِ مَن بدَّل الفعلَ، وهو أعظَمُ؟[3]

والأخرى: الدّلالة علَى أنَّهم إذا بدَّلوا القولَ، وهو أسهَلُ؛ لعدم المشقَّةِ في امتثالِه؛ فتبديلُهم الفعلَ من بابِ أَوْلَى، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه لم يكن عِنْدَهُمْ قابليَّةٌ لِلامْتِثَالِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/516.
(2) محمّد الأمين الشِّنقيطي، العَذب النَّمير: 1/115.
(3) القُشَيريّ، لطائف الإشارات: 1/580، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/415.

دلالة التَّعْبِيرِ بِإِنْزَالِ العَذَابِ:

الجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ

عُبِّر عن وقوع العذاب عليهم بإنزاله في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تعظيمًا لشأنِه، وأنَّه مما لا قِبَلَ لهم بهِ، وللإشارة إلى أنَّ إيقاع العذاب عليهم ملائمٌ لجنس عصيانِهم؛ فإنَّهم أُمروا بشيئين: الدُّخولِ سُجَّدًا؛ أي: خاضعينَ، وسؤالِهم ربَّهم: حطَّ الخطايا عنهم، فعُوقبوا بإنزال العذابِ عليهم، وملاءمتُه لعصيانِهم من وجهين:

أوَّلهما: أنَّهم أُمروا بسؤالِ اللّه تعالى حطَّ الخطايا، وأصلُ الحطِّ: إِنْزَالُ شيءٍ من عُلُوٍّ[1]، فلمَّا لم يمتثِلُوا ذلك؛ استحقُّوا أن يُنْزَلَ عليهم العذابُ إنزالًا، فكانت عقوبتُهُم من جنسِ عصيانِهم: إنزالٌ بإنزالٍ.

مِنْ أَنْوَاعِ العُقُوبَةِ المُعَامَلَةُ بِنَقِيضِ القَصْدِ

والآخر: أنَّهم أمروا بالدخول خاضعين؛ فترفَّعوا واسْتَعْلَوْا، فأنزلَ اللّه تعالى عليهم العذَابَ؛ عقابًا لهم بنقيضِ قصدِهم؛ فإنَّ العادةَ جاريَةٌ بأنَّ النَّازلَ -إذا كان قويًّا شديدًا- على أحدٍ مَا، من فوقُ؛ دكَّه، فسوَّاهُ بالأرض، أو أَدْغَمَهُ فيها.

وفيه أيضًا أنَّ اللّه تعالى أمرهم بالخضوع طوعًا، فلم يفعلوا، فَأَخْضَعَهُم اللّه تعالى قهرًا.

ففي كلا الوجهين مناسَبَةٌ تخصُّهُ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِضَمِيرِ الْجَمْعِ:

عَظَمَةُ العذَابِ الصَّادرِ مِنَ الله العظِيمِ

في إسناد فعل الإنزال إلى (نَا) المفيدَةِ العظمَةَ[2] في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا﴾؛ إيماءٌ إلى عَظَمَةِ المُنْزِلِ؛ وهو اللّه ﷻ، وعَظَمَةِ المُنْزَلِ؛ وهو العذابُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حط)، والرّاغب، المفردات: (حط).
(2) محمّد الأمين الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 1/88.

ويُقوِّيه تنكيرُ كلمة ﴿رِجۡزٗا﴾ من قول الله سبحانه: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ فإنَّ تنكيرَهَا يُرادُ به التَّهويلُ والتَّفخيمُ[1].

سِرُّ الإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ:

الـظُّـلْـمُ مِـن مُوجِبَات حلُول العذَاب

في قول الله تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ إظهارٌ في محلِّ الإضمار؛ إذْ مُقتضى الظَّاهر: (فأنزلنا عليهم رِجْزًا)؛ لتقدُّم ذكر ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالاسم الظَّاهر في صدر الآيةِ عندَ قول الله سبحانه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، ولذلك ثلاثُ نِكاتٍ[2]:

إحداهما: تسجيلُ موجِبِ العذابِ عليهم؛ فالرِّجْزُ المُنَزَّلُ عليهم إنَّما هو بسببِ الظُّلْم.

ثانيهما: المبالغةُ في تقبيح أمرهم وتعظيمه.

ثالثها: لئلَّا يُتَوَهَّم أنَّ الرِّجْزَ عَمَّ جَمِيعَ بني إسرائيلَ.

فَائِدَةُ ذِكْرِ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

عذَابُ اللهِ تعالى لَيْسَ لَهُ دافِعٌ

لـمَّا ذكر الله تعالى الإنزالَ في قوله: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، وكان ذلك مُفْهِمًا جهةَ العُلُوِّ؛ حقَّقَهُ تعظيمًا وتفخيمًا[3]؛ فقال سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وَلِأَنَّ العذابَ نَوْعَانِ:

أحدهما: ما يُمكِنُ دفعُهُ، أَوْ يُظَنُّ إمكانُ دفعه؛ كَالْعَذَابِ الوَاقع على يدِ آدميٍّ.

الآخَر: ما لا يُمْكِنُ دفعُهُ؛ كالصَّاعقة والـمَوْت.

فذكر سبحانه أنَّ هذا العذابَ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: أنَّهُ منَ الجِنْسِ الذي لا يتأتَّى دَفْعُهُ؛ تفخيمًا لشأنِه[4].

(1) محمد علي جميل، صفوة التَّفاسير: 1/53.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/525، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/363، والآلوسي، روح المعاني: 1/267، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/516، ومحمّد الأمين الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/118.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/402.

(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/205.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ:

اعتيادُ الفِسْقِ حتَّى صارَ طَبْعًا

مجيءُ الفعل مضارعًا في فاصلةِ الآية ﴿يَفۡسُقُونَ﴾ مفيدٌ الاستمرارَ التَّجدُّدِيَّ، ويقوِّيه: ﴿كَانُواْ﴾؛ الدالَّةُ على تحقُّقِهم بالفِعل وثبوتِه لهم واستمرارِهم عليه.

فدلَّ مجموعُ ذلك على استمرارهم في فِسقهم، ودوامهم عَلَيه، وتجدُّدِهِ فِيهم، حتَّى صار الفسْقُ مِنْ جملةِ طبَاعِهم.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ بَيْنَ أَلْفَاظِ هَذِهِ القِصَّةِ فِي سُورَتَي البَقَرَةِ وَالأَعْرَافِ:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الـمُـفْـرَدَاتِ واشْتِقَاقَاتِها بِما يُنَاسِب سِيَاقَها

وردت قصة أمر بني إسرائيل بدخول القرية في موضعين من سور القرآن الكريم بألفاظ متقاربة: أما الموضع الأول؛ فهو الذي بين أيدينا من سورة البقرة حيث قال اللّه ﷻ: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٥٩﴾. وأما الموضع الثاني ففي سورة الأعراف حيث قال اللّه ﷻ: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾ [الأعراف: 161-162].

وعند التدقيق يظهر اختلاف بين ألفاظ القصة في السورتين، وذلك من أحدَ عشرَ وجهًا؛ هي[1]:

أوَّلًا: في سورة البقرة: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ﴾؛ فصُرِّحَ في آية البقرة بالقائلِ، وهو اللّه تعالى؛ بإسناد القولِ إلى ضمير العظمَةِ الرَّاجِعِ إليه سُبحانه: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا﴾؛ إزالةً

(1) البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 74-72، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 3/526-527، وفاضل السَّامرَّائي، التَّعبير القرآنيّ، ص: 380-365، وسعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 108.

للإبهامِ، ولأنَّه أليقُ بسياقِ تَعداد النِّعَم؛ إذ آية البقرة جاءت في سياقِ آياتٍ، عَدَّدَ الله تعالى فيها نِعَمَهُ نعمةً نعمةً، وصدَّرها بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 40]، إضافة إلى أن الآيات من أول السورة جاءت بالتصريح بالفاعل بضمير العظمة؛ نحو: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [البقرة: 34] و﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35] و﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ [البقرة: 38].

أمَّا آية الأعراف؛ فجاءت في سياق تعداد قبائحهم؛ فكان ذلك سببًا للإعراضِ عَنْهُم، فناسبَهُ بناءُ الفعل للمفعولِ؛ لأنَّهم لا يستحقُّون التَّشريفَ، وأورَدَ ﴿لَهُمۡ﴾ فيها؛ نكايةً في تبكِيتِهم.

ثانيًا: في سورة البقرة: ﴿ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾؛ أما آية البقرة؛ فجاء فيها الأمر بالدّخول مقرونًا مع الأمر بالأكل والتطمين برغد العيش، والأكل ورغد العيش إيماءٌ إلى تحقُّق المقصود من السُّكنى بالاستقرار وراحة البال. وأمَّا آية الأعراف؛ فجاء فيها الأمر بالسُّكنى مع الأكل دون الإشارة إلى الرغد؛ لأنَّه متحقَّق من السُّكنى، إذ السُّكنى تعدل الدُّخول والرّغد، فالتّعبير في الآيتين متساوي الأطراف، وأُدمج في الأعراف الدخول والرغد، وعبِّر عنه بالسكنى.

ثالثًا: في سورة البقرة: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ وردَ عقِبَ الأمر بالدّخولِ؛ وهو سَريع الِانْقضَاء، فيَتْبَعه الأكلُ، بخلاف ما في الأعراف؛ فإنَّه وارِدٌ عقِبَ الأمر بالسُّكْنَى، وهي الإقامَةُ؛ وذلك مُمْتَدٌّ زَمَنُهُ.

والإتيانُ بالفاء الدَّالَّةِ على التَّعقيبِ في سورة البقرةِ أَدْخَلُ في الإكرامِ، وهو مناسِبٌ لسياقِ الآياتِ فيها؛ إذْ هي واردةٌ في تَعدادِ النِّعَمِ، بخلاف ما في الأعرافِ؛ فالآيات في تَعداد قبائحِهِمْ.

رابعًا: في سورة البقرة: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾؛ فلم يُذكر فيها الرَّغَدُ؛ لأنَّ سياقَ سورةِ البقرة في تعدادِ النِّعَم، وذِكْرُ ﴿رَغَدٗا﴾ مناسبٌ له؛ لأنَّ كونَ الأكلِ واسعًا هنيئًا غيرَ مضيَّقٍ عليهم فيهِ من جملة المِنَنِ، بخلاف ما في الأعراف؛ فإنَّ المقام مقامُ تقريعٍ وتأنيبٍ، فلم يكن ذِكر الرَّغَدِ مناسبًا معه.

ولأنَّ آيةَ سورة البقرة مُصدَّرةٌ بقول اللّه تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا﴾، بلفظ التَّعظيم، فناسَبَ ذلك ذِكۡرَ الرَّغَدِ؛ لأنَّ عطاء العظيمِ عظيمٌ، بخلاف ما في الأعراف؛ فإنَّ الآيةَ مصدَّرة بقوله: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ﴾.

خامسًا: في سورة البقرة: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾؛ فالأوَّلُ -وهو الخطايا- جمعُ كثرةٍ، والثَّاني -وهو الخطِيئَات- جمع قلَّةٍ، ووجه المغايرة بينهما: أنَّ اللّه تعالى لمَّا أضاف القولَ إلى نفسِه العليَّةِ؛ فقال ﷻ: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا﴾؛ قرَنَهُ بما يدلُّ على جودِهِ وكرمِه، وهو مغفرة الذّنوب الكثيرةِ، بخلاف ما في الأعراف؛ فإنَّه لم يُضِفِ القولَ إلى نفسِه، وإنَّما قال: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ﴾، فلمَّا لم يُسمِّ الفاعِلَ؛ لم يَذۡكُرِ اللَّفظَ الدّالَّ على الكثرة.

ولأنَّ سياق آيات البقرةِ في تَعداد النِّعَمِ، ولا جرَمَ أنَّ مغفرة الذّنوب الكثيرة أدخَلُ في بيان الإنعام والامتنان.

سادسًا: في سورة البقرة: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾، فقُدِّمَ السّجود على القول في سورة البقرة؛ وذلك لثلاثة أوجهٍ:

أحدها: أنَّ السّجودَ أشرفُ من مطلَقِ القول؛ فكان تقديمُ الأشرفِ أنسبَ لمقام التَّكريمِ.

ثانيها: أنَّ تقديم السُّجودِ في البقرة أنسبُ لسياقِ آياتِهَا؛ لأنَّ القصَّةَ وردت بعدَ الأمر بإقامةِ الصَّلاة، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [البقرة: 43]، و﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 45].

ثالثها: أنَّ الواردَ في سورةِ البقرة الأمرُ بالدُّخولِ، فكان تقديم السُّجودِ أنسبَ؛ لكونِهِ مذكورًا لبيانِ كيفيّة الدّخولِ، بخلاف ما في الأعراف؛ فإنَّ المأمور به هو السُّكۡنَى لا مجرَّد الدُّخول.

سابعًا: في سورة البقرة: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: 161]، وزيادةُ الواو في البقرة دالٌّ على الاهتمامِ والتَّنۡويعِ، وهو مناسبٌ لسياقِ الامتنانِ، بعكسِ ما في الأعراف.

ثامنًا: في سورة البقرة: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا﴾ [الأعراف: 162] - بزيادة: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ - لأنَّ أوَّلَ قصَّةِ الأعراف مبنيَّةٌ على التَّخصيص بلفظ (مِنْ)، فإنَّ اللّٰه تعالى قال: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]، فلمَّا انتهتِ القصَّةُ قال اللّٰه تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا﴾ [الأعراف: 162] ، فذكر ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ في آخر القصَّة كما ذكرها في أوَّلِهَا؛ ليكون مقطَعُ الكلام موافقًا لمطلَعِه، بخلاف ما في سورة البقرة؛ فإنَّه لم يُذكر في الآيات قبل قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تخصيصٌ وتمييزٌ حتَّى يحسُنَ ذكره في آخر القصّة.

وثَمَّ وجهٌ آخرُ؛ وهو أنَّ ذِكْر ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ في سورة الأعراف تصريحٌ بأنَّ الظَّالمين كانوا من بني إسرائيلَ، بخلاف سورة البقرةِ؛ فلم يُصرِّحْ بكونهم مِنْهُم تكريمًا لَهُم؛ لأنَّ ذلك أنسبُ لسياقها.

تاسعًا: في سورة البقرة: ﴿فَأَنزَلۡنَا﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾ [الأعراف: 162]، وفي ذلك نُكْتَتَانِ:

الأُولَى: أنَّ الإرسالَ أشدُّ في العقوبةِ مِنَ الإنزال، ولمَّا كان سياقُ آية البقرةِ لتَعداد النِّعَم؛ ذُكِرَتِ العقوبةُ الأخَفُّ، بخلاف سياق آية الأعراف؛ فهو لتَعداد قبائحهم، فكان الأنسبُ ذكرَ العقوبةِ الأشدِّ.

ولأنَّ مشتقَّاتِ الإرسالِ كَثُرَتْ في سورة الأعراف، فجاء ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا﴾ [الأعراف: 162] موافقًا لما قبلَهُ، وليس الأمر كذلك في سورة البقرة.

عاشرًا: في سورة البقرة: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأعراف: 162]؛ والثَّاني أَعَمُّ من الأولِ، وذلك يقتضِي أنَّ العقوبةَ أعمُّ وأشمَلُ من الأوَّلِ؛ وهو الأنسبُ لمقام التَّقريع.

حَادِيَ عَشَر: في سورة البقرة: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: 162]، وفي ذلك نُكْتَتَانِ:

الأولى: أنَّ الظُّلْمَ أشدُّ مِن الفسقِ، فكان أنسبَ لذكر إرسال العذاب ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾.

الأخرى: أن آية البقرة ذكرت موجِبَ حلولِ العذاب من الظّلم: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾،

وأكَّدته بالإظهار في مقام الإضمار: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، فكان الختم بالفسق من باب ذكرِ بداياتِ الظُّلم، فالفسقُ بريدُ الظُّلم، فنبَّه في كلِّ سورةٍ ما يلائمُها.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

سُجَّدٌ وَسُجُودٌ[1]:

أنَّ جمعَ (ساجدٍ) على (سُجَّدٍ) مُشْعِرٌ بالحركةِ الظَّاهرةِ التي تُدركُها العينُ؛ لأنَّ هذا الجمع (فُعَّل) يدلُّ على الحركة الظَّاهرة، ويدلُّ أيضًا على تكثير القيام بالفعل، ودلالتُهُ على الحركة الظَّاهرةِ أبرزُ، بخلافِ (السُّجودِ)؛ فإنَّهُ يُطلَقُ على المصدر، ويُطلق جمعًا لـ (ساجدٍ)، ويدلُّ هذا الجمعُ على السُّجود الظَّاهر والباطنِ، ولذا قال ابنُ القيِّم: "السُّجودُ في الأَصْلِ مصدرٌ، كالخشوع والخضوع، وهو يتناول السُّجود الظاهر والباطن و(السُّجَّد) في جمع (ساجد) لم يتناول إلَّا المعنى الظَّاهر، وكذلك الرُّكَّع، ألا تراه يقول: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: 29]، وهذه رؤية العين، وهي لا تتعلَّق إلَّا بالظَّاهر"[2].

فالسُّجَّدُ دالٌّ على مجرَّد الحركةِ الظَّاهرةِ، وقد ورد لفظ (السُّجَّد) في القرآن الكريم في أحدَ عشرَ موضعًا، كلُّها تدلُّ على هذا المعنى، نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩﴾ [مريم: 58].

أمَّا (السّجود)؛ فقد ورد في ستَّةِ مواضعَ، منها موضعان، يُرادُ بهما جمع (ساجدٍ)، وهما قول اللّٰه تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: 125]، وقوله سبحانه: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: 26]، والمقصود: السُّجودُ الكاملُ الجامع بين الظَّاهر والباطنِ؛ لأنَّه هو المناسبُ لمعنَى التَّطهير.

---

(1) فاضل السَّامرائّي، معاني الأبنية، ص: 135-133.

(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/66.

﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾ [البقرة: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللّه تعالَى نِعْمَتَهُ عَلَى بني إسرائيل - بالإمكان مِنَ القَرْيَةِ بالنَّصر على أهلِها والتَّمَتُّعِ بمنَافِعِهَا، وما قابلُوا بِهِ ذلكَ من الكُفْرِ ومخالفةِ الأَمْرِ، وخَتَمَ ذلكَ بذِكْرِ إنزال العذاب عليهم، وتبيَّن من ذلكَ كُلِّه أنَّ قلوبهم بلغَتْ في القَسْوَةِ مبلغًا عظيمًا، وأنَّهُ لا يُرْتَجَى فِيهَا نفعٌ- أَتْبَعَهُ التَّذْكِيرَ بنِعَمِهِ عليهِم في البَرِيَّةِ؛ فذكَر انفجارَ الماءِ مِنَ الحَجَرِ عَلَى وجهٍ عمَّهُمْ نفعُهُ، ونجَّاهُم فِيهِ مِنَ المَوْتِ، فكان في ذلك دلالة لهم على قدرةِ اللّه سبحانَهُ بما يقُودُهُم للانقيادِ إليه وطاعتِهِ واتِّباعِهم رسولَهُ موسَى عليه السلام، فيكون بهذَا قد جمَعَ لهم بينَ النِّعمةِ الدِّينيَّة والنِّعمة الدُّنيويَّة[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱسۡتَسۡقَىٰ﴾: السِّين والقاف والحرف المعتلُّ تَدُور اشتقاقاتُها على إشرابِ الماءَ وما أشبَهَهُ[2]، وَالسَّقْيُ والسُّقْيَا: إعطاء الشراب[3]، والِاسْتِقاءُ: الأخذُ مِنَ النَّهر والبئر[4]. والِاسْتِسْقَاء: طلبُ السُّقْيا، فالسِّينُ والتَّاءُ للطَّلَبِ على ما هو الغالبُ فيها، وهو المرادُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾.

2) ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾: الفاءُ والجيمُ والرَّاءُ تدلُّ تصاريفُهَا على التَّفتُّحِ[5]، ومنه سُمِّيَ الفجرُ بذلك؛ لأنَّه تفتُّحُ الظُّلْمَةِ عنِ الضِّياءِ[6]، ومنه سُمِّيَ الكرمُ والعطاءُ فَجْرًا؛

(1) البقاعِيّ، نظم الدّرر: 1/403.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سقى).
(3) الرّاغب، المفردات: (سقى).
(4) الخليل، العين: (سقى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فجر).
(6) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين: (فجر).

لأنَّ المالَ في الأصلِ محبوسٌ في محلٍّ مُحْكَمٍ غَلْقُهُ، فإذا جَادَ صاحبُهُ به ؛ فَتَحَ المحلَّ؛ ليُخرِجَ مِنْهُ[1].

وانْفَجَرَ: مطاوعُ الفعلِ: فَجَرَ، يقال: فجَر اللّٰه تعالى العينَ، فانفجرَتْ[2].

والانفجار في قوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾، يُرادُ به: التفتُّحُ والانشِقَاق[3].

3) ﴿عَيْنًا﴾: العين والياءُ والنُّونُ تدلُّ اشتقاقاتُهَا على: دائرةٍ ينفُذُ منها لَطِيفٌ لامِعٌ دائمُ الجَرَيانِ عَن مُخْتَزَنٍ كثيرٍ، ومِنْهُ عينُ الماءِ، والعينُ الباصرَةُ؛ فإنَّها مستديرةٌ تمتدُّ مِنْهَا وإليْها أشعةُ قوَّة الرُّؤية، ومِنهُ قولُهم للشَّمس: عينٌ؛ لأنَّ قُرصَها دائرةٌ لامعةٌ تصدرُ منها أشعةٌ لطيفةٌ دائمةٌ[4].

والعينُ لها معانٍ كثيرةٌ جدًّا، أوصلها بعضُ أهل العربيَّة إلى أكثر من مئة معنًى[5]، وقد أورد الفيروزابادي لها نيِّفًا وخمسين معنًى مرتَّبةً على حروف المعجمِ[6].

والعين في قول اللّٰه تعالى: ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ يُراد بها: منبع المَاء الجَارِي.

4) ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾: الشِّين والرَّاء والباءُ تدل تصريفَاتُهَا على سَحْبِ الماءِ ونحوِهِ من المائعِ إلَى الجوفِ[7]، والشَّرابُ: اسمٌ لما يُشرَبُ، وكلُّ شيءٍ لا يُمضَغ؛ فإنه يُقال فيه: يُشْرَبُ[8].

والمشْرَبُ في قول اللّٰه تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ يحتمل وجهين[9]:

أحدهما: أن يكون مصدرًا، يُراد به اسمُ المفعول، أي: المشروب.

الآخر: أن يكون اسم مكانٍ، وهو أَظْهَرُ، وإن كان لا تعارُضَ بين هذين المَعْنَيَيْن.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فجر).
(2) أبو إبراهيم الفَارَابيّ، معجم ديوان العرب: 2/424.
(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/567.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عين).
(5) الزَّبيدي، تاج العروس: (عين).
(6) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 4/4-5.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شرب).
(8) الخليل، العين: (شرب).
(9) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/577، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/421، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 2/109.

5) ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾: العين والثَّاءُ والحرف المعتلُّ تدور اشتقاقاتُها على معنى الفسادِ[1]، يقال: عاثَ؛ إذا أَفْسَدَ[2].

والعِثِيُّ والعَيْثُ متقاربَان، إلا أنَّ العِثِيَّ -ومثله: العُثُوُّ[3]- أكثر ما يُقال في الفساد الذي يُدْرَك حُكْمًا، وَالعَيْثُ فيما يُدرك حِسًّا[4]، ومن الأوَّلِ قول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، ومعنى الآية: لا تسعوا في الأرض مُفْسِدين[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكروا - يابني إسرائيل - من نِعَمِنَا عليكم حينَ كنتم في التِّيه، فأصابكم العَطَشُ الشَّديدُ، فتضرَّعَ إلينا موسى عليه السلام، وسألنَا أن نسقيَكُم، فقلنا له: اضربْ بعصاك حَجرًا مِنَ الأحجارِ، فضربهُ، فتفجَّرت مِنَ هذا الحَجَر اثنتا عشرة عينًا بعدد قبائل بني إسرائيل، وبيَّنَّا لكلِّ قبيلةٍ موضعَ شُرْبِهم؛ لئلَّا يزاحمَ بعضُهم بعضًا فيتنازَعُوا، وقلنا لهم: كلوا مِنَ المَنِّ والسَّلْوَى، واشربوا من ماء العيونِ، ولا تسعَوْا في الأرض مفسدين بأن تُقابِلوا النِّعم بالعصيان؛ فتُسلَبوها[6].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِضَمِيرِ الجَمْعِ:

عَظَمَةُ القولِ الصَّادرِ مِنَ الله تعالى وشَرَفُه

جاء التَّعبير بالنُّونِ المفيدةِ العظمَةَ في قول الله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾[7]؛ لِلْإِيمَاء بعظَمَةِ القول وتشريفِه، ولبيان أهميَّة الأمر المذكورِ بعدَهُ، وما تضمَّنه من الخوارق التي لا تصدُرُ إلَّا عن عظيمٍ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عثى).
(2) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (عثي).
(3) فرَّق بعض أهل العلم بين العِثِيِّ والعُثُوِّ: بأن العِثِيَّ إفساد أهلِ المكر بالحيلَةِ، والعُثُوّ: إفسادُ أهل القوّة بالسَّطوةِ، يُنظر: البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/410.
(4) الرّاغب، المفردات: (عثى)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عيث).
(5) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/122.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/119-123، والنَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/92-93، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 9.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/404.

دلالة الفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقُلْنَا﴾:

كَرَامَةُ مُوسَى عليه السلام عِنْدَ رَبِّهِ سُبْحَانَه

الفاءُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا﴾، تفيدُ -كما هو الأصلُ فيها- التَّرتيب معَ التَّعقيبِ، وفي هذا: إشعارٌ بسُرعةِ استجابةِ اللّه سبحانه لطلب موسَى عليه السلام السُّقْيَا، وذلك دالٌّ على كرامَتِه عند ربِّه سبحانه وتعالى.

دلالة اللَّامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَجَرَ﴾:

إبْهَامُ الحَجَرِ أقوى في الحجَّة وأبلغُ في المُعْجِزَة

اللَّامُ في قول اللّه عز وجل: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ تَحْتَمِلُ وجهين[1]:

أحدهما: أن تكون اللَّامُ للعَهْدِ العلميِّ، فيكون حَجرًا معلومًا، والمعنى: اضرب بعصاك الحَجر المعيَّنَ.

الآخر: أن تكون لِلْعهدِ الذِّهْنِيِّ -وهو من أفرادِ لام الجنس عند البلاغيِّين[2]- وهي الدَّالَّةُ على أنَّ مدخولَها فردٌ غيرُ معيَّن، والمعنى: اضرِبْ حَجرًا مِنَ الأحجارِ.

والثَّاني أظهرُ في الإعجاز، وأبيَنُ في القدرةِ، وأقوى في الحجَّة على أنَّه رسولٌ مِن عند اللّه؛ لأنَّ الأحجار المتعيِّنَةَ تحتمِلُ اتِّصافها بخاصَّةٍ تفيد المذكورَ، بخلاف حملِ اللَّام على العهد الذِّهْنيِّ؛ فإنَّه مفيدٌ أنَّ تفجُّرَ العيونِ حاصلٌ بضربِ أيِّ فردٍ مِن أفراد الحجارة[3].

بلاغةُ الفاءِ الفصيحةِ فِي قَوْلِهِ عز وجل: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾:

سُرْعَةُ تَحَقُّقِ الانفجَارِ عَقِيبَ ضَرْبِ الحَجَر

قول اللّه تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾، معطوفٌ على مقدَّرٍ، والتَّقدير: فَضرَبهَا فانْفَجرتْ، ودلَّ على المحذوف أمران[4]:

الأوَّل: منزلةُ موسَى عليه السلام المقتضِيَةُ أن لا يُشكَّ في امتثالِه أمرَ ربِّه سبحانه بالضَّرْب.

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/144، والرّازي، مفاتيح الغيب: 3/528، والآلوسي، روح المعاني: 1/271، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/179.

(2) لام العهدِ الذِّهْنِيِّ عند البلاغيِّين من أفراد لام الجنس، وهي عند النُّحاة من أفرادِ لام العَهْدِ.

(3) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 3/326.

(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/529، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/519.

الآخرُ: أنَّه إذا لم يكن ثمَّةَ حذفٌ؛ لكان انفجار العيونِ من غير ضربٍ، وذلك يستلزِمُ أنَّ أمر الله تعالى بالضَّرب بالعصا عبثٌ، وهذا غيرُ لائقٍ.

ونُكْتَةُ الحذفِ: الإيماءُ إلى كَمالِ سُرعةِ تحقُّقِ الانفجارِ؛ حتَّى كأنَّه حصلَ عَقيبَ الأمرِ بالضَّرب[1]، ويُقوِّيه كون العاطِفِ الفاءَ؛ وهي مفيدَةٌ التَّعقِيبَ.

دِقَّةُ انْتِقاءِ الأَلْفَاظِ المُلَائِمَةِ لِسِيَاقَاتِهَا:

العينُ الجاريةُ تحملُ النُّضوبَ، بخلافِ الينبوعِ فمستمرٌّ دائمٌ

جاء التَّعبير عن مَخْرَجِ الماء بِالعَين في قوله سبحانه: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ دون (الينبوعِ)؛ لأنَّ اليَنْبُوعَ: العينُ التي لا يَنْضَبُ ماؤُها[2]، فماؤه مستمرُّ الخروج والجريانِ[3]، وهذا لا يُلائمُ حالَ معجزة موسى عليه السلام؛ كونها معجزة مخصوصة الوقت والمكان والإنسان، فهي لوقت معين في مكان معين لطائفة معينة.

نُكْتَةُ فَصْلِ جُمْلَةِ: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾:

أَثَرُ الاسْتِئْنَافِ البَيَانِيِّ فِي الكَشْفِ عن حقائقِ النُّفوسِ

فُصل قولُه سبحانه: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لكونه استئنافًا بيانيًّا؛ فإنَّ قول الله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ يبعَثُ في النَّفْسِ سؤالًا: هل كانت الأعينُ موزَّعةً بينهم توزيعًا معروفًا، أو كانت مُلْبِسَةً غير موزعة؟ فجاء الجواب: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾[4]، وهذا العلم مُتلقًّى من الوحي، وهم قد عَلِموه بوسَاطَةِ موسى عليه السلام، فالعبرةُ بمعرفتِهم لمشرَبِهم؛ وفي هذه الجملة إنباءٌ ضِمنيٌّ أنَّ القومَ بَيْنَهم تنازُعٌ كبيرٌ، ولذلكَ أعلمَ كلَّ أُناسٍ مَشْرَبَهم.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/106.

(2) المَراغي، تفسير المراغي: 15/93، ومحمّد سيّد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/428.

(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/4452.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/407.

فَائِدَةُ الإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾:

إِكْرَامُ اللهِ تعالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وامْتِنَانُه عَلَيهِم

إضافةُ المَشرَب إلى الضَّمير الرَّاجعِ إلى بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾؛ لِما سبقَ من تخصيص كلِّ مَشْرَبٍ بِسِبْطٍ من الأسباطِ، فصار بِهَذَا التَّخصيصِ كأنَّه مِلْكٌ لهم[1]، وهو مُشْعِرٌ بِمَزِيدِ الامتنَانِ والإكرام.

دلالة الأَمرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾:

إباحةُ الطَّيِّبات من مِنَنِ اللهِ تعالَى على العِباد

فعل الأمر ﴿كُلُواْ﴾ و﴿ٱشۡرَبُواْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ﴾ يُرادُ به الإباحَةُ والامتنانُ؛ فإنَّ السِّياقَ لـمَّا كان سياقَ امتنَانٍ، وكان الإيجادُ غيرَ مستلزم إباحة التَّنَاوُلِ؛ نصَّ عليه زيادَةً في مِنَّته عليهم، فأباحهُ ممتنًّا عليهم بذلكَ، فقال سبحانه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ﴾[2].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الأَكْلِ عَلَى الشُّرْبِ:

دِقَّةُ النَّظْمِ القُرآنِيِّ فِي تَقْدِيمِ الألفاظِ المُتَنَاظِرَةِ

قُدِّمَ الأمرُ بالأكل على الأمر بالشُّرْبِ في قول الله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ﴾؛ لنكتَتَين:

الأولى: أنَّ المِنَّةَ بالمأكولِ سبقَتِ المِنَّةَ بالمشروبِ في الذِّكْر؛ فإنَّ المأكولَ ذُكر في قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ [البقرة: 57]، والمشروبَ ذُكرَ في هذه الآيةِ، فقُدِّمَ المقدَّمُ، وهذا اقتضاءٌ سياقيٌّ.

الأُخرى: أنَّ الأكلَ بِهِ قوام الجسدِ، والاحتياجُ إلى الشُّربِ حاصِلٌ عَنهُ[3].

نُكْتَةُ وَضعِ الْمُظْهَرِ مَوْقِعَ الْمُضْمَرِ:

في قول الله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ﴾ إظهارٌ في موضع

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/272.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/408.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/272.

الإضمار؛ فإنَّ مقتضى الظَّاهر: كلوا واشربوا من رِزْقِنَا؛ لأنَّ قبله: ﴿فَقُلْنَا﴾، وفي ذلك نِكاتٌ، منها:

رُبُوبِيَّةُ اللهِ تعالى تَسْتَلْزِمُ أُلُوهِيَّتَه سُبْحَانَه

أولًا: إظهارُ جَلال هذه النِّعَم وعظمَتِهَا بإضافتها إلى صريح الاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّه﴾؛ فإنَّ ذلك أدخَلُ في بيان جلالتِهَا مِنْ إضافتها إلى الضَّمير الرَّاجِع إليه[1]؛ لما يدُلُّ عَلَيْهِ الاسْمُ الأحسَنُ ﴿ٱللَّه﴾ مِنَ الجلال والجمال والمهابة.

ثانيًا: نَقْلُهُم مِنَ الإقرار بما اقتضتْهُ ربوبيَّتُهُ سبحانَهُ إلى العمل بما تقتضيهِ ألوهيَّتُهُ؛ فإنَّ الرِّزْقَ من أفرادِ ربوبيَّتِهِ، واسمه (اللّه) دالٌّ على كونِهِ مألوهًا معبودًا، وإقرارهم بربوبيَّة الرَّازق يقتضي الإقرار بألوهيَّته.

دلالة اللَّامِ فِي ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

إفسادُ بَعْضِ الأرضِ يَؤُولُ إلى إفسادِها كُلِّها

اللَّامُ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لامُ الجنسِ المفيدَةُ عمومَ البقاعِ المندرجةِ في لفظها، وهذه الدّلالة تقتضي شناعَةَ من أفسدَ في أيِّ بقعةٍ من بقاعِ الأرضِ؛ لأنَّه من فعل ذلك؛ فقد أفسدَ في تلك البقعةِ بالفعلِ، وفي جميع البقاعِ الأخرى بالقُوَّة[2].

فَائِدَةُ تَقْيِيدِ الفِعْلِ بِالْحَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

النَّهْيُ عَنِ القَصْدِ إِلَى الإِفْسَادِ عَلَى وَجْهِ التَّمَادِي

قُيِّدَ الفعل (تَعْثَوْاْ) بالإفسادِ في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ مع أنَّ معنى الفسادِ مستفادٌ من العُثُوِّ؛ إذِ العُثُوُّ: أشدُّ الفسادِ[3]، والنُّكتَةُ في ذلك: بيانُ الْعُثُوِّ؛ وأنَّهُ القَصْدُ إلى الإفسادِ، فقوله: (مُفْسِدِينَ) أي: قاصدِينَ إلى الإفسَادِ على وجهِ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 273-1/272.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/410، الفعل والقوة من مصطلحات المناطقة، ويراد بالفعل: تحقق الوجود، وتمام العمل، ويراد بالقوة: جواز الوجود، وإمكانية الحدوث. ينظر: فريد جبر وآخرون، موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب، ص: 604، 651.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/123، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 213.

التَّمادِي فيه[1]، وليس المعنى النَّهْيَ عن التَّمادِي في الفسادِ مع تجويزِ أصلِه، بل هو كقول اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾[2] [آل عمران: 130].

ويَحتمِلُ أن يُحملَ العُثُوُّ على الاعتداء، والاعتداءُ لا يكون فسادًا بكلِّ حالٍ، بل منه ما ليس بفسادٍ؛ كمقابلةِ المعتدِي بفعله، مثل قول اللّه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: 194]، "فهذا الاعتداء ليس بإفساد، بل هو بالإضافة إلى ما قوبل به عدلٌ، فلولا كونه جزاءً؛ لكان إفسادًا، فبَيَّن تعالى أن العُثُوَّ المنهيَّ عنه هو المقصودُ به الإفسادُ، وهو مكروه على الإطلاق"[3].

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّــةُ اخْـتِـيَـارِ الـمُـفْرَدَاتِ بِمَا يُنَاسِبُ سِيَاقَهَا

وردت قصة استسقاء موسى عليه السلام لقومه في موضعين من سور القرآن الكريم بألفاظ متقاربة: أما الموضع الأول؛ فهو الذي بين أيدينا من سورة البقرة حيث قال اللّه جل جلاله: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾. وأما الموضع الثاني؛ ففي سورة الأعراف حيث قال اللّه جل جلاله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾ [الأعراف: 160].

وعند التدقيق يظهر اختلاف بين ألفاظ القصة في السورتين، وذلك من أربعةِ أوجُهٍ؛ هي[4]:

استجابةُ القائدِ لمطالب قومِه في الخيرِ من أعظمِ الخيرِ

أوَّلًا: في البقرة: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾، وفي الأعراف: ﴿إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾؛ فالأولى دالَّةٌ على أنَّ موسى عليه السلام هو الذي طلب السُّقْيَا لقومه، وفي الأعراف دالَّةٌ على أنَّ قوم مُوسى اسْتَسْقَوْا

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 3/530. محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/248.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 2/166.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/207.
(4) البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 74، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 3/529، وفاضل السَّامرّائي، التَّعبير القرآنيّ، ص: 379-387، وسعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 110-109.

موسى، ولا تعارُضَ بينهما: فإنَّ قومه طلبوا مِنْهُ أن يَسْتَسْقِيَ لهم، فاستسقى موسَى ربَّهُ سبحانَهُ، إلَّا أنَّ آية البقرةِ لـمَّا كانت في سياق الامتنانِ ؛ خُصَّتْ بذِكْرِ استسقاءِ موسى عليه السلام ربَّهُ تعالى؛ لأنَّ هذا أكمل وأبلغُ في النِّعْمَةِ والـمِنَّةِ، فهو استسقاءٌ لبني إسرائيل، وهذا هو وجه المنَّة.

ثانيًا: في البقرة: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، وفي الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾؛ ولما كان القول المباشِر من اللّه تعالى أكملَ وأشرفَ مِنَ الإيحاء؛ كان سياق آية البقرة الدَّالُّ على الامتنانِ أنسبَ إليه وأليقَ به.

الانبجاسُ أوَّلُ الاستسقاءِ، والانفجارُ آخرُه

ثالثًا: في البقرة: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾، وفي الأعراف: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾؛ وسرُّ المغايرةِ بينهما من أربعةِ أوجهٍ:

الأوَّل: أنَّ كلَّ موضعٍ مناسبٌ لسياقِه؛ لأنَّ الانفجار دالٌّ على خروجِ ماءٍ كثير، والانبجاس دالٌّ على خروج ماءٍ قليل، ولا تعارُضَ بينهما؛ لأنَّ الماء خرَجَ قليلًا، ثمَّ تتابع خروجُهُ، وكَثُرَ، أو أنَّ الماء خرجَ غزيرًا أوَّلَ الأمر، ثمَّ قَلَّ بسببِ عصيانِهم، إلَّا أنَّ كلَّ موضعٍ خُصَّ بما يناسبُهُ، فمقامُ سورة البقرة مقام تَعداد النِّعَمِ، فكان الأنسبُ ذكرَ خروجِ الماءِ الكثيرِ.

الثَّاني: أنَّ الـمُسْتَسْقِي في سورة البقرة هو موسى عليه السلام، بخلاف الأعراف؛ فإنَّ الـمُسْتَسْقِي هُم قومُ موسى عليه السلام؛ فلمَّا عَظُمَ قَدْرُ المستسقِي في سورة البقرةِ ؛ ناسبَ ذكرُ عِظَمِ الماءِ الخارِجِ، فعُبِّرَ عَنْهُ بالانفجارِ، بخلاف ذلك في سورة الأعراف، وكذلك استسقاءُ موسى عليه السلام كان بعد استسقائهم، فلمَّا استسقوا كانت بدايةُ الانبجاس، ولـمَّا استسقى كانت بدايةُ الانفجارِ؛ ليُعلم فضلُ موسى على قومِه.

الثَّالث: أنَّ ظاهر سورة البقرةِ مفيدٌ أنَّ اللّه تعالى قال لموسى: اضرب بعصاك الحَجرَ، ولم يُوحِ إليه وحيًا، فناسَب ذلك انفجارَ الماءِ الكثير الغزير.

الرَّابع: أنَّ اللّه تعالى ذكرَ في سورة البقرة أنَّه جمع لهم بين الأكل والشُّرب، فقال

سبحانه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ﴾، ولم يرد ذكرُ الشُّرْبِ في سورة الأعراف، فلمَّا نُصَّ في البقرة على المبالغةِ في الامتنانِ عليهم؛ كان الأنسبُ في المِنَّةِ ذكرَ خروج الماء الغزير.

رابعًا: في البقرة: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ﴾، ولم يُذكر هذا في الأعراف، بل ذُكر في الأعراف قولُه سبحانه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾؛ وهذا وردَ بعينِه في سورة البقرة: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ [البقرة: 57]، وزادت الآيةُ هنا الجمعَ بين الأكل والشُّرْبِ في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ﴾، وهذا ضربٌ من ضُروبِ التَّكريم، فهو أنسبُ لمقام تعداد النِّعَمِ الذي هو سياق آيات البقرة.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العُثُوُّ وَالإِفْسَادُ:

الفرق بين اللَّفظتَيْنِ هو العموم والخصوص المُطْلَقُ؛ فالعُثُوُّ أخصُّ مطلقًا من الإفسادِ؛ وذلك من وجهين اثنين:

الأوَّل: أَنَّ العُثُوَّ شدَّةُ الإفسادِ أو أشدُّ الإفسادِ[1].

الآخر: أنَّ العُثُوَّ إفسادٌ من قومٍ مخصوصينَ على وجهٍ مخصوصٍ؛ فإنَّ حقيقتَهُ: إفسادُ أهلِ القُوَّةِ بالسَّطوة.

فكان العُثُوُّ من هذين الوجهين أخصَّ من الإفساد.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/123، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 213.

﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [البقرة: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر الله تعالى إنعامَهُ على بني إِسْرَائِيل في المأكَل والمَشْرَبِ على وجهٍ يَصِلُهم فيه دُون مشقَّة أو تكلّفٍ؛ ذكرَ ما قَابَلُوا به تلكَ النِّعَمَ الجليلَةَ من عدم الشُّكْرِ وطلبِ التحوُّلِ عنها إلى ما هو أَدْنَى، ثمَّ ما ترتَّبَ على كفرانِهم النِّعَمَ من المجازاةِ والعقوبَةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿طَعَامٖ﴾: الطَّاءُ والعين والميم تدور تصاريفُها على ما يدخل مِن الفم إلى الجَوْفِ غذاءً لِلْبَدَن، ومِنْهُ: الطَّعام[2]، واختص في عُرْف الشرع بالبُرِّ[3]، ومن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه بقوله: "كُنَّا نُخْرِجُ زَكَاةَ الفِطْرِ صَاعًا من طَعَام، أَوْ صَاعًا مِن شَعِيرٍ، أَوْ صَاعًا من تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِن أقِطٍ، أَوْ صَاعًا من زَبِيبٍ"[4].

والطَّعامُ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾ بمعناهُ الأعَمِّ؛ لأنَّ مطعومَهُمْ لم يكُنْ بُرًّا، وإنَّما كان المنَّ والسَّلْوَى.

2) ﴿تُنۢبِتُ﴾: النّون والباء والتّاء تدور اشتقاقاتُها على نماءٍ في مَزْرُوعٍ[5]، ويُتَجَوَّزُ به

(1) البقاعِيّ، نظم الدّرر: 1/412، والآلوسّي، روح المعاني: 277-1/276.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طعم).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (طعم).
(4) رواه البخاري، حديث رقم: (1506).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبت).

في النَّشأَةِ والتَّربيةِ، فيقال: نبتَ فلانٌ في مَنْبَتِ صِدْقٍ، وفي أكرم المنَابِت[1]، ومنه قول اللّه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: 54]؛ فَشُبّه إنشاؤُها بإنباتِ النَّبات الغَضِّ على وجهِ الاستعارة[2].

والنَّبات في قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ هُوَ ما ينمُوفيهَا، سواءٌ أكان له ساقٌ وهو الشَّجَرُ، أم لا ساقَ لهُ، وهو المسمَّى: النَّجْمَ[3].

3) ﴿بَقْلِهَا﴾: البَاء والقافُ واللَّامُ تدور تصريفَاتُها على نباتٍ أو شيءٍ ينبتُ ضَعيفًا في ظاهرِ شيءٍ[4]، ومِنْهُ الباقِلُ؛ وهو ما يخرج في أعراض الشَّجرِ؛ إذا دَنَا الرَّبيعُ، يقال: أَبْقَلَتِ الأرضُ؛ إذا أنبتَتِ البَقْلَ[5]، والبَقْلُ في قول اللّه تعالى: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا﴾: هو ما ينبُتُ في الأرضِ ممَّا لا ساقَ له[6].

4) ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾: القِثَّاءُ جمعُ: قِثَّاءَةٍ[7]، وهو اسم جنس جمعيٍّ؛ لكونِهِ ممَّا يُفرَّق بينه وبين مفردِهِ بالتَّاءِ، والقِثَّاءُ: نباتٌ تُشبِهُ ثمارُهُ الخيارَ، إلَّا أنَّه أطوَلُ[8]، وقد يُطلق على الخيار[9].

5) ﴿وَفُومِهَا﴾: الفاءُ والوَاو والميمُ تدلُّ اشتقاقاتُهَا على صلاحيَّةِ شيءٍ لِلْأَكل، فيُملأُ الفمُ بهِ، كاللُّقمة مِنَ الخبزِ، وسمِّيتِ الحبوبُ فومًا؛ لصلاحيَّتِها لِلْأكلِ، ولما يَؤولُ إليه أمرُها من مِلءِ الفم بهَا[10].

ويُطلَقُ الفومُ على القِطْعَةِ؛ تشبيهًا لها باللُّقمة في مقدارِهَا، يقال: قُطِّعَتِ الشَّاةُ فُومًا فُومًا؛ أَي: قِطَعًا قِطَعًا[11].

---

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نبت).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 3/235.
(3) محمّد بن الطيّب الفاسي، تحرير الرِّواية، ص: 478.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بقل).
(5) الخليل بن أحمد، العين: (بقل).
(6) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (شجر).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (شجر).
(8) حسن عزّ الدّين الجَمَل، مخطوطة الجمَلِ: (قثأ).
(9) الخليل، العين: (قثأ)، ومحمّد الكَرمانّي، الكواكب الدّراري: 20/55.
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فوم).
(11) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فوم).

واختُلِفَ في معنَى الفوم في قول الله تعالى: ﴿وَفُومِهَا﴾ على أقوالٍ؛ هي: الحِنطةُ، والحبوبُ، والثُّومُ[1]، فأما الأَوَّلُ؛ فداخلٌ في الثَّاني؛ لأنَّ الحنطةَ من جملة الحبوبِ، وأما الثالث فلقرينة ذكر البصل بعده[2].

ونقل الزَّجَّاجُ إجماعَ أهل اللُّغةِ على أنَّ الفومَ: الحِنطةُ وَسَائِرُ الحُبوب التي تُخْتَبَزُ، وَضَعَّفَ القولَ: بأنَّ الفومَ الثُّومُ؛ وأبان أنَّه مخالفٌ لإجماعِ أهل العربيَّةِ، ولا يُساعِدُهُ معنى الآية، فقال: "وهذا ما لا يُعرف أنَّ الفومَ الثُّوم، وههنا ما يقطع هذا، فمحالٌ أن يَطْلُب القومُ طعامًا لا بُرَّ فيه، والبُرُّ أصل الغِذاءِ كلِّه"[3].

وأمَّا ما جاء من قراءة ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه: (وَثُومِهَا) بدلًا من ﴿وَفُومِهَا﴾، فهو من إبدالِ الحروفِ، كقولهم: وقعوا في عاثور شرٍّ وعافور شرٍّ، وكقولهم للأثافي: أثاثي، وللمغافير مغاثير، وما أشبه ذلك ممّا تقلب فيه الثّاء فاءً والفاء ثاءً؛ لتقارب مخرج الفاء من مخرج الثّاء[4].

6) ﴿أَدْنَىٰ﴾: الدَّال والنُّون والحرف المعتلُّ تدور تصريفَاتُه على معنى: قُرْبِ الوصُولِ إلى المقَرِّ المُراد أو المُعْتَاد نُزولًا[5]، ومن ذلك: الدَّنيّ؛ وهو القريبُ[6].

وَالأصل في الدُّنُوِّ أن يكون إلى سُفْلٍ، ومن هنا استُعْمل الدُّنُوّ في النُّزول المعنويِّ المفيدِ قِلَّةَ قيمةِ الشَّيءِ[7]، ومنه قيل للرجلِ الخسيس: دَنِيءٌ.

و﴿أَدْنَىٰ﴾ في قول الله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أي: أخس[8]، وهو خسيسٌ بالنِّسبةِ لما رُزِقُوه من المنِّ والسَّلْوَى.

7) ﴿مِصْرًا﴾: الميم والصّاد والرّاء لها معانٍ مختلفةٌ، منها: تحديدٌ في شيءٍ[9]، ومِنْهُ المِصر: وهو كلُّ بلدٍ مَمْصُورٍ، أي: محدودٍ[10].

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/71.
(2) الزحيلي، التفسير المنير: 1/173.
(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/143.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/130.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (دنو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دنى).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (دنو).
(8) أبو عُبيد الهروي، الغريبين: (دنا).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مصر).
(10) الرّاغب، المفردات: (مصر).

وفي ﴿مِصۡرٗا﴾ الواردِ في قول اللّه تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ قولان[1]:

أحدهما: أنَّه البلَدُ المعروفُ المخصوصُ.

والآخر: أنَّه أيُّ بلد من البلدان، لا على التعيين، والمعنى: اهبطُوا مصرًا مِنَ الأمصارِ.

والثَّاني أقوى؛ لكونِهِ منصرفًا، وجزَمَ بهذا التَّرجيحِ ابنُ كثير، والمعنى على ذلك: "أنَّ مُوسى عليه السلام يقول لهم: هذا الذي سألتُم ليس بأمرٍ عزيز، بل هو كثير في أيِّ بلدٍ دخلتموهُ؛ وجدتُمُوه، فليس يُساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسألَ اللّه فِيهِ"[2].

8) ﴿ضُرِبَتۡ﴾: الضَّاد والرَّاء والباءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على غِلَظٍ يُخَالِطُ الرِّخو، أو يُداخِلُه مداخلةً قويَّة، فيتَمَاسَك، أو يَشْتَدّ، وَمِنْهُ: ضَرْبُ الدَّرَاهمِ؛ فإنَّ ذلك يحصُلُ بتجميد الفِضَّة الذَّائبة في قالَب على هيئته[3].

وضَرْبُ الذِّلَّة في قول اللّه تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ بمعنى: أُحيطَت بِهم كَإحاطةِ القبَّةِ بِمن نُصِبَت عَلَيْهِ[4].

9) ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾: الذّال واللّامان تدلّ تصاريفُها على خضوعٍ واستكانةٍ ولِينٍ[5]، ومنه الذِّلَّةُ؛ وهي الصَّغَار والهَوان[6].

والذُّلُّ: ما كان عن قَهْرٍ، ومنهُ قول اللّه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: 24]، أي: كُن كالمقهورِ لَهُمَا[7].

والذُّلُّ إذا كان من جهةِ الإنسانِ نفسِه لنفسِهِ، فهُوَ محمودٌ[8]، ومنه قول اللّه تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 54]، قال الزَّجاج: "أي: جانِبُهُم لَيِّنٌ على المؤمنين، ليس أَنَّهم أذلَّاء مهَانون"[9].

---

(1) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/124.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/281-282.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضرب).
(4) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 579.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذلّ).
(6) محمّد الأمين الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 4/184.
(7) الرّاغب، المفردات: (ذلّ).
(8) الرّاغب، المفردات: (ذلّ).
(9) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابُه: 2/183.

10) ﴿وَٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾: السِّين والكاف والنُّون تدل تصاريفُها على نقيضِ الحركة والاضطراب[1]؛ فهي دالَّةٌ على الاستقرار[2]، ومنه: السُّكون؛ وهو ثبوتٌ بعد تحرُّكٍ[3]. وتقول العربُ لكُلِّ شَيْءٍ مَاتَ: قد سَكَنَ[4]؛ لذهاب حركتِهِ، وَالمَسْكَنَةُ: مَفْعَلة من السُّكون، ومنهُ سُمِّي المسكينُ بذلك؛ لقلَّةِ حركاته وفتور نشاطه[5].

والمَسْكَنَةُ في قول الله تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ الفقرُ، وفُسِّر بأنَّه فقرُ النَّفْسِ، ولو كان غنيًّا في الظَّاهر، أو أنَّ المسكنَةَ الضَّعفُ[6].

11) ﴿وَبَآءُو﴾: الباء والواو والهمزة تدلُّ تصريفَاتُهَا على معنى: الرُّجوعِ[7]، يقال: بَاء بإثمه؛ إذا رَجَعَ بِهِ[8].

ومعنى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: وانصرفوا، ورجعوا بغضب من الله.

12) ﴿بِغَضَبٖ﴾: الغين والضَّاد والباء تدور اشتقاقاتُها على معنى الشدَّةِ والقوّة، ومنْهُ سُمِّيت الصَّخرةُ الصُّلْبةُ بالغَضْبَةِ[9]، ومنْهُ الغضَبُ؛ فإنَّه دالٌّ على شدَّةِ الغاضبِ وقوَّتِه، والغضب هو السُّخْط؛ ضد الرِّضا[10].

وغضبُ اللهِ تعالى المذكورُ في قوله سبحانه: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ هو غضبٌ يليقُ بجلَالِ الله وعظَمَتِه، المتضمِّنُ سُخْطَه عليهم وعدمَ رضاه عنهم.

13) ﴿عَصَواْ﴾: العين والصَّاد والحرف المعتلّ تدلُّ تصاريفُهَا على معنيين متباينَينِ؛ أحدهما: التَّجمُّعُ، والآخر: الفُرقةُ.

فمن الأوَّلِ: العصا، سُمِّيت بذلك لاشتمالِ يدِ مُمْسِكِها عَلَيْهَا، ثُمَّ قِيس على ذلك، فأُطلقت على الجماعة مطلقًا، وعلى جماعة الإسلام[11].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكن).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سكن).
(3) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سكن).
(5) ابن الهائم، التِّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 78.
(6) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (سكن).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بوأ).
(8) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (بوأ).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غضب).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (غضب).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عصو/ى).

ومِن الثَّاني: قولهُم في الفَصِيلِ إذا لم يَتْبَعْ أُمَّهُ: عاصٍ[1]؛ فإنَّه إذا لم يَتْبَعْها؛ فقد فارقَهَا، ومنه العِصيانُ؛ لأنَّه مفارقةُ المأمورِ به.

وفي كلام الرَّاغبِ ما يقتضي إرجاعَ هذا الأصلِ إلى الأوَّلِ؛ فقد قال: "عَصَى عِصْيَانًا؛ إذا خرج عن الطاعة، وأصله: أن يَتَمَنَّعَ بِعَصَاهُ"[2].

والعصيانُ في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ هو مخالفة ما أُمروا به[3].

14) ﴿يَعْتَدُونَ﴾: العين والدَّال والحرف المعتلُّ تدور اشتقاقاتها على تجاوزٍ وتقدُّم لما ينبغي أن يُقتصَر عليه[4]، وهذا التَّجاوزُ: إن اعتُبِرَ بالقلبِ؛ قيلَ له: عداوَةٌ ومعاداةٌ، وإن اعتُبِر بالمشي؛ قيل له: عَدْوٌ، وإن كان إخلالًا بالعدلِ في المعاملة؛ قيلَ له: عُدوانٌ[5].

والاعتداء: تجاوزُ الحدِّ مطلقًا، ومعناه في قول الله تعالى: ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾: أي: "وتجاوَزُوا حَدِّي إلى ما نهيتُهم عَنْهُ"[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكُروا - يابني إسرائيل - حين أنزلنَا عليكُم طعامًا حُلوًا طيِّبًا -وهو المَنُّ- وطيرًا شهيًّا -وهو السَّلْوى- فمَلَلْتم، ولم تشكروا نعمةَ الله عليكم، بل طلبتُم الانتقالَ إلى غيرِها، فقلتم: يا موسى لن نَصْبِر على طعام، لا تنوُّعَ فيه، ولا يتغيَّر مع الأيَّام، فادع ربَّك؛ ليُخرج لنا مِن نبات الأرض بُقولًا وقثَّاءً وحبوبًا وعدسًا وبصلًا، فقال موسى عليه السلام منكرًا عليكُم: أتستبدلُون هذه الأطعمةَ، وهي أقلُّ قَدْرًا بما اختاره الله تعالى، وأنزله لكُم حُلْوًا شهيًّا؟ انزِلُوا إلى أيِّ مدينةٍ مِنَ المُدُن؛ تَجِدُوا ما طلبتُمُوه متكاثرًا. ولأجل تقديمِ اختيارهم على اختيار الله لهم؛ لزِمَتْهم صفةُ الهوانِ وفَقْرِ النُّفوس، ورجعوا بغضبٍ مِن الله تعالى وسُخْط ملازم لهم؛ لأنَّهم كانوا يكفرون بآيات الله تعالى، ويقتلون أنبياءهُ ظلمًا وعدوانًا جاحدين رسالتَهُم؛ بسببِ مخالفتِهم أمرَ الله عز وجل ومُجاوَزَتِهم حدودَهُ[7].

(1) ابن سِيده، المحكم: (عصي).
(2) الرّاغب، المفردات: (عصا).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/421.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدو).
(5) الرّاغب، المفردات: (عدا).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/142.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 142-2/124، والخازن، لباب التّأويل: 50-1/49، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 9.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ تَوْجِيهِ الخِطَابِ إِلَى الخَلَفِ مَعَ أَنَّ القَائِلَ أَسْلَافُهُمْ:

وُجِّهَ الخِطاب لليهودِ زمَنَ النَّبِيِّ ﷺ في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ مع أنَّ قائلَ ذلك هم أسلافُهُم؛ لكونِ المعاصرين للنّبي ﷺ ذرِّيَّتَهم وعلى دينِهم، وهم مُتَّبِعون لهم، فحُكمهم كحُكمهم.

رضا الأبناءِ عن مَعَاصِي الآباءِ مشاركةٌ قبيحةٌ ومتابعةٌ ذميمة

وقد ورد لهذا نظائرُ متعدِّدَةٌ؛ منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ و﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة: 48-49]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ﴾ [البقرة: 58]، في مواضعَ أخرَى؛ وفي كُلِّهَا خطابٌ للحاضِرين بحسب الظَّاهرِ؛ فما كان من تَعداد النِّعَم عليهم؛ فوجهه: أنَّ الإنعامَ على الآباء إنعامٌ على الأبناءِ، وما كان من ذكر مساويهم؛ فلأنَّ الذرِّيَّةَ راضيةٌ بهَا، فكأنَّهم مشاركُونَ للآباءِ فيها[1].

نُكْتَةُ النَّفْيِ بِـ﴿لَن﴾ بَدَلًا مِنْ (لَا):

الـكـشـفُ عن عنادِ الشَّخصيَّة اليهوديَّة وشِدَّةِ إعْنَاتِها

في تعبيرهم عن نفي صبرِهم بـ (لن) دون (لا) في قولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ إشعارٌ بشدّة ضجرهم، وبلوغ الكراهية لهذا الطعام منهم منتهاها[2]، وفيه: إيماءٌ إلى شدَّةِ إعناتِهم؛ حيثُ عبَّروا عن طلبِهم بالحرفِ المستعمل لتأكيد النَّفي في الزّمنِ المستقبل، "فكأنّهم قالوا: اعلم أنّه لم يبق لك أمل في بقائنا معك على هذه الحالة من التزام طعام واحد، فإن كانت لك منزلة عند الله كما تزعم؛ فادْعُهُ يُخْرِجْ لنا ما يمكن معه أن نبقى معك؛ إلى أن يتم الوعد الّذي وعدك ووعدتنا، وهم يعلمون أنهم كانوا في بَرِّيَّة غير مُنْبِتة، وربما لم يكن قولهم هذا عن سآمة ولا أَجَمٍ من وَحْدَةِ

(1) ابنُ جُزيّ، التَّسهيل: 1/83.
(2) محمّد سيّد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/148.

الطعام، ولكنه نَزَقٌ وَبَطَرٌ، وَطَلَبٌ للخلاص مما يخشون على أنفسهم، ويؤيد ذلك ما هو معروف في أخبارهم"[1].

عِلَّةُ التَّعْبِيرِ عَنِ المَنِّ وَالسَّلْوَى - وَهُمَا اثْنَانِ- بِـ ﴿طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾:

مِنْ عَظَمَةِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وَفْرَةُ المَعَانِي الصَّحِيحَةِ التِي يَحْتَمِلُهَا

في الإخبار عن المنِّ والسَّلْوَى- في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾- بأنَّهما طعامٌ واحدٌ؛ أَوْجُهٌ[2]:

أوَّلها: أنَّهم كانوا يأكلون المنَّ بالسَّلْوَى مخلوطًا؛ فكان بهذا الاعتبار طعامًا واحدًا، ككثيرٍ من الأطعمة تُتَّخذُ من أطعمةٍ مختلفةٍ، ويكون لها اسمٌ واحدٌ.

ثانيها: أنَّ طعامَهُمُ المنُّ، وشرابَهم السَّلوى؛ فكانوا يجمعون بينهما في مائدة واحدة، فيأكلونَهُ طعامًا واحدًا، وهو قريبٌ من الأوَّلِ، وليس عَيْنَهُ.

ثالثها: أنَّ غذاءهم لـمَّا كان ثابتًا في كلِّ يوم لا يتغيَّر؛ قيل عنه: طعامٌ واحدٌ، كما يُقال للمُداوم على الصَّلاة والصَّوم: هُو على أمرٍ واحدٍ؛ لملازمتِهِ لِذَلِكَ لا يتغَيَّر عَنْهُ، ولو كان الَّذي يُلازِمُهُ متعدِّدًا. وكقولهم: طعامُ مائدةِ الأمير واحدٌ، ولو كان أصنافًا شتّى، والمعنى: أنَّه لا يتبدَّلُ، ولا يتغيَّر باختلاف الأوقات.

فالمنّ والسّلوى طعامٌ واحدٌ بهذا الاعتبار؛ لكونِه لونًا واحدًا متكرِّرًا مستمرًّا لا يتغيَّر، فهو يُعْرَضُ بطريقةٍ واحدةٍ، والشَّيءُ المتكرِّرُ يُعدُّ شيئًا واحدًا، ولو تجدَّد، وتكرَّر.

رابعُها: أنَّهم جعلوه طعامًا واحدًا؛ لأنَّ المَنَّ وَالسَّلْوى من طعام أهل التَّلذُّذ والسَّرف، وكأَنَّ القومَ كانُوا فلَّاحينَ؛ فما رَغِبُوا إلا فيمَا أَلِفُوه.

خامسُها: أنَّهما عُدَّا طعامًا واحدًا؛ لكونِهمَا طعامَيْنِ سمَاوِيَّيْنِ؛ فكانا بهذا الاعتبار جنسًا واحدًا.

سَادِسها: لأنَّ العربَ تُعَبِّر عنِ الاثنَيْنِ بلَفْظِ الواحدِ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34]، "والعَرَبُ تَفْعَلُ

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/274.

(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/580، والثعلبي، الكشف والبيان: 3/336، وعبد القاهر الجرجاني، درج الدُّرر: 1/185، والآلوسي، روح المعاني: 1/274، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/181، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/248-249.

ذلك، إِذَا أَشْرَكُوا بين اثنين؛ قَصَرُوا، فخَبَّرُوا عن أحدهما اسْتِغْنَاءً بذلك وتخفيفًا؛ لِمَعْرِفَة السَّامع بأنَّ الآخَرَ قد شاركه، ودخل معه في ذلك الخبر"[1].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ (لَنَا):

شِــدَّةُ حِــرْصِ بـنـي إسـرائـيـل عَـلَى إِنْـفَـاذِ مَا يَشْتَهُونَ

تقديم الجارِّ والمجرورِ (لَنَا) من قول اللّه سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، يحتمل أن يكون دالًّا على الاختصاصِ؛ لأنَّ تقديم ما حقُّه التأخير يُفيدُ ذلك كثيرًا؛ لدفع توهُّمِ أنَّ موسى عليه السلام يُشاركهم في شيءٍ من تلك الكراهةِ.

ويحتمِلُ أنَّ تقديمَ الجارِّ والمجرور يُرادُ به الاهتمامُ؛ إظهارًا لشدَّةِ حرصِهِمْ على ما سألوه، والاحتمالان وارِدان، لاسيَّما أنَّهما مفهومانِ من كلامِ القومِ لا من معيَّنٍ.

سِرُّ اخْتِيَارِ اسْمِ اللهِ (الرَّبّ) دُونَ اسْمِهِ (اللهِ):

مِنْ دِلَالَاتِ اسْمِ الـلـهِ (الــرَّبِّ) إِحْسَانُهُ لِخَلْقِهِ وَإِنْعَامُهُ عَلَيْهِمْ

قالوا: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ دون (فادع لنا اللّه)؛ لما في (الرَّبِّ) من المعاني المناسبة لمطلوباتِهم؛ فإنَّهم طلبوا شيئًا من جنس الإحسانِ والإنعامِ، وهو ضربٌ من الطَّعام -بصرف النَّظر عن دونِيَّتِه لما في أيديهم- ولذا كان الأنسبُ التَّعبير باسم اللّه (الرّبِّ)، فإنَّه دالٌّ على تربيتِهِ لخلقِهِ بالنِّعَمِ وإحسانِهِ إليهم بِصُنُوفٍ من الإحسانِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ دُونَ (ادْعُ لَنَا رَبَّنَا):

عَــدَمُ خُـلُـوصِ الـعَـقِـيـدَةِ عِـنْـدَ بـنـي إسـرائـيـل وَعُـدُولُـهُـمْ عَـن الــصِّــدْقِ فِي النِّيَّاتِ

في التَّعبير عنهم بأنَّهم قالوا: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ دون أن يقولوا: (ادع لنا ربَّنَا) مع تَكرارِ هذه الصِّيغةِ مرَّاتٍ عديدةً: إيماءٌ إلى أنَّهم لم يرجعوا إلى اللّه تعالى بصدق النِّيَّةِ وخلوص العقيدةِ[2].

وكأنَّهم بتعبيرهم ذلك: لا يزالون في شكٍّ من أمر اللّه، وأنَّهم لا يَعُدُّونه ربًّا لهم بِقَدْرِ ما يعُدُّونَهُ ربًّا لموسى عليه السلام وحدَه، وفي هذا:

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/257.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 8/376.

جراءةٌ على مقام الرُّبوبيَّةِ، وجَحْدٌ لها، وهذا ليس أمرًا مستغربًا منهم؛ فقد سبق أن قالوا لموسى عليه السلام: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾[1].

وفيه أيضًا دلالة على جفاءٍ عظيمٍ مِنْهُمْ، حتَّى كأنَّهم متبرّئُونَ مِن ربوبيَّةِ اللّٰه تعالى لهم[2].

نُكْتَةُ العُدُولِ مِنَ التَّعْبِيرِ بـ: (أَنْ يُخْرِجَ لَنَا) إِلَى التَّعْبِيرِ بـ ﴿يُخۡرِجۡ﴾:

اليقينُ المعرفيُّ لا يُغني عن السُّلوكِ القويمِ

جُزِمَ الفعلُ (يُخۡرِجۡ) من قول اللّٰه تعالى: ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا﴾؛ لأنَّه على تقدير الجزاء، والمعنى: ادع لنا ربَّك؛ فإنَّك إِنْ تَدْعُهُ؛ يُخْرِجْ، أو أنَّ المعنى: ادعُ لنا ربَّك، وقل له: أَخْرِجْ؛ يُخْرِجْ[3]، والثَّاني له نظائرُ كثيرة في القرآن الكريم، مِنْهَا قول اللّٰه سبحانه: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ [إبراهيم: 31]، إذ التقدير: قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ أقيموا الصلاة يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ، وأنفقوا.... ينفقوا....، وقوله جل جلاله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: 53]، إذ التقدير: وَقُل لِّعِبَادِي: (قولوا ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ يقولوا)...

وجملة ﴿يُخۡرِجۡ لَنَا﴾ هي مضمونُ مطلوبِهم مِنْ موسى عليه السلام أن يدعُوَ به، وكان مقتضى الظَّاهر أن يقال: (أن يُخرجَ لنا)، فعدلَ عنه إلى فعلٍ مضارعٍ مجزوم في صورةِ جوابِ طلبِهم؛ للإشارة إلى وُثُوقِهم بدعاء نبيِّهم، وأنَّه إن دعا ربَّه سبحانه أجابَهُ، حتَّى كأنَّ إخراجَ ما تُنْبِتُ الأرضُ يحصُلُ بمجرَّدِ دعائِه ربَّهُ[4].

وفي هذا تَحْرِيضٌ لَهُ عَلَى الدُّعاءِ، حتَّى كأنَّهُ إِذَا لَم يفعل؛ فقد بَخِلَ عَلَيْهِم بما فيه منفَعَتُهم[5].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/152، ومحمّد المكّيّ النّاصريّ، التّيسير في أحاديث التّفسير: 1/49.
(2) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/211.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 2/581، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/211.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/522.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/522.

الاعتداد بالماديّات يُضعفُ التَّوكُّلَ على الله

المَجازُ العَقْلِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾:

إسنادُ الإنباتِ إلى الأرضِ في قوله تعالى: ﴿تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ إسنادٌ مجازيٌّ، من إقامة القابلِ مُقامَ الفاعل؛ إذ المُنْبِتُ حقيقةً هو اللّه ﷻ، لكنْ لمَّا جُعِلَت في الأرضِ قابليَّةُ الإنباتِ؛ نُسِبَ الإنباتُ إليها[1]، ونُكتة هذا الإسنادِ الإيماءُ إلى إغراقِهم في الاعتداد بالمادِّيَّاتِ.

تنويرُ الاسْتِئْنَافِ البَيَانِيِّ لذهن المُتَلَقِّي

نُكْتَةُ فَصْلِ جملة: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

فُصِل قول اللّه ﷻ: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ عمَّا قبلُ؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤال أورَثَتْهُ الجملةُ السَّابقةُ؛ وهي قول اللّه سبحانه: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، فكأنَّه قيل: إنَّ هذا الطلب منهم لعجيب، فبمَ أجابهم موسى عليه السلام؟ فجاء الجواب: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾[2].

وكون قائلِ ذلك هو موسَى نفسُه عليه السلام هو الأنسبُ بسياقِ النَّظْمِ، ويحتَمِلُ أن يكون القائلُ لهم ذلك اللّه تعالَى؛ لكون المقام مقامَ تَعْدَادِ النِّعَمِ[3].

طلبُ الأدنى مع تحقُّقِ الأعلى قلَّةُ توفيقٍ

دلالة الاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾:

الاستفهام في قول اللّه سبحانه: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ يُرادُ به الإنكارُ مع التَّوبيخ[4]؛ وذلك لرغبتِهم عَنِ الطَّعام الألذِّ، الواصلِ لهم مِن عند اللّه تعالى من دونِ واسطةِ أحدٍ، وهو في الحِلِّ بمنزلةٍ لا تتطرَّقُ إليه شُبْهَةٌ، ولا كُلفةَ ولا تعبَ في تحصيلِه[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/375، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/84، وأحمد الكورانّي، غاية الأماني: 1/455.
(2) البقاعِيّ، نظم الدّرر: 1/414.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/275.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/377، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/182.
(5) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/182.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْهُبُوطِ:

دَنَـاءَةُ الطلبِ تدلُّ على دناءَةِ النُّفُوسِ

يُستعمَلُ الهبوطُ لإرادة النُّزول من مكانٍ عالٍ إلى أسفلَ، ويُطلق مرادًا به الخروجُ من أرضٍ إلى أرضٍ مطلقًا، وهذا الإطلاقُ مجازٌ[1]، والظَّاهرُ أنَّ هذا المعنَى المجازيَّ هو المرادُ من قول اللّه تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾، ونُكْتَةُ التَّعبير بالهبوطِ ههنا: الإيماءُ إلى دناءَةِ ما طلبُوه مقارنةً بالذي هُم فيه.

دلالة الأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾:

مـن غـفـلَ عن نعمةِ الله، هبطَ في الغفلةِ

الأمر في قول اللّه سبحانه: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ يُرادُ به الإباحةُ المشوبَةُ بالتَّوبيخِ؛ أي: إن كان هذا همَّكم؛ فاهبِطوا، والتَّوبيخُ من أجلِ تذكُّرهم أيَّامَ ذلِّهم وتَعَبِهم، وتمنِّيهم العَوْدَةَ إلى تلكِ العيشَةِ، "كأنَّه يقول لهم: ارْجِعوا إلى ما كنتم فيه؛ إذْ لم تَقْدُروا قدرَ الفضائلِ النفسيَّةِ ونعمةِ الحريَّةِ والاستقلال"[2].

وذهب جماعةٌ إلى أنَّ الأمرَ يُرادُ به التَّعجيزُ؛ لأنَّهم كانُوا في التِّيه، فأمْرهم بهبوطِ مِصْرٍ مِنَ الأمصارِ أو بلادِ مصْرَ لا يُرَادُ به إلَّا التَّعجيزُ؛ إذِ المقام مقام إظهار عجزِهم عَن هذا الهبوطِ؛ لانسداد الطُّرق عَلَيْهِم؛ فإنَّهم لو عرَفوا طريقًا إلى شيءٍ من ذلك؛ لما بَقَوْا أربعين سنةً حائرين لا يهتدونَ إلى سبيلٍ مِنَ السُّبُلِ[3].

دلالة (مَا) فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾:

(مَا) في قول اللّه سبحانه: ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي، وقد حُذِفَ عائدُهُ، أي: فإنَّ لكم الذي سألتمُوهُ[4]، والإتيان بالاسم الموصول يُرادُ به: الإيماءُ إلى حقارةِ ما سألُوه بالنِّسبةِ إلى الذي رُزِقُوهُ مِن المنِّ والسَّلْوَى.

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 3/338.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/524-525.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/429، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/182.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/380.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾:

انْغِمَاسُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الذِّلَّةِ وَالمَسْكَنَةِ انغِمَاسًا كُلِّيًّا

في قول الله تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ استعارةٌ؛ إذ شُبِّهت الذلَّةُ والمَسْكَنَةُ في الإحاطة بهم واللُّزوم؛ بالقُبَّة المضروبةِ ليَلْزَمَهَا ساكنُهَا، فتكون محيطةً به، وهي استعارةٌ بالكناية؛ ونُكْتَتُها: الإشعارُ بأنَّهم بلغُوا في الذِّلَّة والمسكنَةِ مبلغًا عظيمًا، حتَّى كأنَّهم منغمسونَ فيهما انغماسًا كلّيًّا، وهما محيطَتانِ بهم من كلِّ جهَةٍ[1].

أو أنَّه قد شُبِّهَ لزومُ الذّلَّة والمسكنةِ ولصوقُهما بلصوقِ الطِّين بالحائطِ[2]، وهذا مُشْعِرٌ بدَرَكِ الذِّلَّةِ والمسكنةِ التي وصلُوا إليهما، وفيه ضربٌ مِنَ الإذلالِ لهم ما ليس في الوجه الأوَّلِ؛ إذِ الطِّين الذي يُرادُ لصوقُهُ بالحائطِ يُرْمَى بِهِ تُجَاهَهُ؛ ليشتدَّ تعلقُّه بِه، فكذلك هؤلاءِ قد ارتَمَوْا في الذّلّة والمسكنةِ ارتماءً، فلزِمُوهُمَا.

ويحتمل أن يكون ذلك من قولهم: ضُرِبَ عليه كذا؛ إذا أُلْزِمَهُ، كما يُضرَب المِسْمَارُ على الشَّيءِ، فيلزمُهُ[3].

والأوَّلُ أشْهَرُ في العربيَّةِ، ولا مانعَ من تضمينِ هذه المعاني جميعًا؛ لعدم التَّعارُضِ بينهَا، ولاشتراكِهَا في أصل المعنَى، وهو اللُّزومُ.

وتخريج الأسلوبِ الآنِفِ الذِّكْرِ على الاستعارةِ، لا ينافي -بالنَّظَرِ إلى لازم المعنى- كونَهُ كنايةً عن كونهم أذلَّاءَ صاغِرينَ[4]، كقول زيادٍ الأعجَم[5]:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالمُرُوءَةَ وَالنَّدَى *** فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الحَشْرَجِ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/534، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/380، وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 3/342، والبقاعي، نظم الدّرر: 1/417، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/527.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/527.

(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/589.

(4) أحمد الكورانّي، غاية الأماني: 459-1/458، والآلوسّي، روح المعاني: 1/276، ومحمد علي جميل، صفوة التَّفاسير: 1/55.

(5) شعر زياد الأعجم، تح: يوسف بكّار، ص: 49، والنُّوَيريّ، نهاية الأرَب: 7/60.

نُكْتَةُ بِنَاءِ الفِعْلِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾:

تعليمُ مُراعاةِ الأَدَبِ مَعَ اللهِ تَعَالَى فِي الأَلْفَاظِ

بِنَاءُ الفعل لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُه (وَضُرِبَتۡ) في قوله سبحانه: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾، فيه تعظيمٌ للّه تعالى ومراعاةٌ لِلْأدبِ معَهُ سُبحانه، ولأنَّ هذا الْبِنَاءَ مُشعرٌ بالعمُوم، فيشمَلُ إذلالَ اللّهِ تعالى لهم، وإذلالَ النَّاسِ لهم، وقد جرت عادة القرآن على نسبة الخير إلى اللّه ونسبة الشَّرِّ إلى غيره، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: 7]، حيث صرَّح بالخِطاب عند ذِكر النِّعمة فقال: أَنْعَمْتَ عليهم، ثم زَوَى لفظ الغضب عن اللّه تعالى أدبًا ولُطفًا؛ فلم يقل: غَضِبْتَ عليهم، ويُشيرُ إلى هذا قولُ النَّبيِّ ﷺ: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ كُلُّه فِي يَدَيْك، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْك»[1].

سِرُّ تَنْكِيرِ الغَضَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾:

عِظَمُ العَذَابِ مِنْ عِظَمِ الجُرْمِ

تنكيرُ الغضبِ في قول اللّه سبحانه: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ والتَّفخيمُ، فهم قد باؤُوا بغضبٍ عظيمٍ؛ لِعظَمِ جُرْمِهم وشناعَةِ صنيعِهم، وجرأتِهِمْ على الملك الأعْظَم.

وزَادَ الغضبَ دلالة على التَّعظيم وصفُهُ بـ ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾؛ فإنَّ الجارَّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ صفةٌ لـ (غَضَبٍ)، فأفاد مجموعُ ذلك: كونَهم باؤُوا بغضبٍ مؤكَّدٍ؛ فقد اجتمعتِ الفخامةُ الذَّاتيَّة المستفادة من تنكير الغضب، والفخامةُ الإضافيَّةُ المستفادةُ من إضافتها إلى الاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾[2].

---

(1) رواه مسلم، حديث رقم: (771).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/419، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/107، والآلوسّي، روح المعاني: 1/277.

سِرُّ تَرْتِيبِ العُقُوبَاتِ الحَالَّةِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ:

تَرْتِيبُ العُقُوبَاتِ موافقٌ لترتيب المعاصي

جاءت العقوباتُ الواقعة على بني إسرائيل مرتَّبَةً بنسقٍ فريدٍ، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾؛ فبُدئَ بضرب الذِّلَّة، ثم بِضرب المسكنةِ، ثم ذُكر غضب اللّه تعالى عليهم، وهو ترتيبٌ للعقوباتِ على وجهِ التَّرقِّي، أي: الشَّديد فالأشدّ.

فأوَّلها: الذِّلَّةُ؛ وهو هوانٌ تجيءُ أسبابهُ من الخارجِ؛ كأن يُغلبَ المرءُ على أمره؛ جرَّاء انتصارِ عَدُوٍّ عليه، فيصير ذليلًا لهذا العدُوِّ.

وثانيها: المسكنةُ؛ وهي هوان ناشئٌ من داخل النَّفسِ، جرَّاء بُعدها عن الحقِّ واستيلاءِ الباطلِ عليها، فالمسكنةُ بهذا الاعتبارِ أشدُّ.

وثالثُها: غضَب اللّهِ تعالى عليهم؛ وهذا أشدُّ عقوباتِهم[(1)].

وهذا التَّدرُّجُ في التَّرتِيبِ أوقعُ في النَّفْسِ وأرهَبُ للقَلْبِ.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفظِيِّ فِي تَقْدِيمِ المَسْكَنَةِ عَلَى الغَضَبِ وَالعَكْسِ:

بَـرَاعَـةُ النَّـظْـمِ الـقُـرآنِيِّ في الـتَّـقْـدِيـم والتَّأخير

وردَ في الآية التي بين أيدينا من سورة البقرة تقديمُ المسكنَةِ على الغضب؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، وورد في سورة آل عمرانَ تقديمُ الغضب على المسكنة؛ إذْ قال سبحانه: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾ [آل عمران: 112]، ووجهُ تَقْدِيمِ المَسْكَنَةِ عَلَى الْغَضَبِ وَالعَكْسِ: أنَّهم لَمَّا تقدَّم في سورة البقرة ذكرُ سؤالِهم عن ما فيه خسَّةٌ في المأكل، وما يستلزمُ ذلك مِنَ الذّلّ والصَّغار؛ إذ طلبوا الأدنى؛ لِيَعْتَاضُوا به عمَّا هو خيرٌ؛ ناسبَ ذلكَ أن تُذكر المسكنَةُ، ثُمَّ أعقبها بما باؤوا به مِن غضب اللّه تعالى، بخلاف الذي في سورة آل

(1) محمّد سيّد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/153.

عمران؛ فإنَّ قبلَهُ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: 111]، فكان الأنسبُ تقديمَ ما لا نُصرةَ لهم معه ولا فلاحَ؛ وهو ما باؤوا به مِن غضَبِ اللّٰه سبحانه، فكان كلُّ موضعٍ ملائمًا للسِّياقِ الواردِ فيه(1).

نُكْتَةُ فَصْلِ جملةِ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

فَائِدَةُ الاِسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إظهارِ العللِ المسؤولِ عنها

فُصِل قول اللّٰه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ عمَّا قبلُ؛ لكونه استئنافًا بيانيًّا، فالجملةُ ناشئةٌ عن سؤالٍ أورَثَهُ ما ذُكِرَ ممَّا شُنِّعَ عليهم بِهِ من لزوم الذِّلَّة والمسكنَةِ(2)، والتَّقدير: ما سبَبُ هذه العقوبةِ الفظيعَةِ؟ فجاء الجواب: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

دلالة اسْمِ الإِشَارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عِظَمُ العقُوبَةِ بحسَبِ فظَاعَةِ الذَّنْب

اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على البُعْد، وفيه إيماءٌ إلى عِظَمِ الأمرِ الذي حلَّ بهم وفظاعَتِهِ؛ مِنَ ضربِ الذِّلّة والمسكنةِ والبَوءِ بالغضبِ العظيم.

ويحتمِلُ أن تكون الإشارةُ إلى اهتمامِهم بأمر المعاش واعتنائهم بشهوات النُّفوس، وبناءً عَلَيْهِ؛ فالإشارةُ دالَّةٌ على البُعْدِ في الانحطاطِ؛ لخسَّةِ مطلوبَاتِهم(3).

نُكْتَةُ التَّعبير بالفعلِ المُضَارع ﴿يَكۡفُرُونَ﴾:

بُلُوغُ اليَهُود في العِنَاد مبلَغًا عَظِيمًا حتَّى صار مِن جُملة طِبَاعِهِم

التَّعبير بالفعل المضارع (يَكۡفُرُونَ) في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادة التَّجدّد والاستمرارِ، أي: أنَّهم مستمرّون في كفرهم بآيات اللّٰه تعالى ماضُونَ في ذلك، متجدِّدٌ هذا الكُفْرُ فيهم؛ كلَّما تَجدَّدت آياتُ اللّٰهِ سبحانَهُ، وهذا غايةٌ في العناد.

(1) ابن الزّبير الغَرناطيّ، ملاك التَّأويل: 1/40-41.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/529.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/419، والآلوسّي، روح المعاني: 1/277.

ويُؤيِّدُه: التَّعبير بـ ﴿كَانُواْ﴾، مُشْعِرَةً بأنَّه دِيدَنُهم في الماضي، وهم مستمرُّون فيه، حتَّى صار طبعًا لهم وجِبِلَّةً وخُلُقًا قائمًا بهم(1).

فَائِدَةُ الإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾:

الكُفْرُ بِمَا جاءَ عَنِ العَظِيمِ عَظِيمٌ

إضافةُ الآياتِ إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ يُرادُ به زيادةُ التَّشنيعِ عليهم؛ إذ الكفرُ بما جاء عَنِ العظيم الجليل بالغٌ في الشَّناعةِ غايَتَها(2).

ويزيدُ الأمرَ شناعةً جمعُ الآياتِ؛ فهم إن كَفَرُوا بآية واحدةٍ من آيات اللّٰه تعالى كان ذلك شنيعًا، فكيف، وقد كفروا بآياتٍ؟

سِرُّ تَقْيِيدِ قَتْلِ النَّبِيِّينَ بِكَوْنِهِ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾:

فائدةُ تقييد قتلهم النَّبيِّين بغير الحق في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مع أنَّ قتل النبيِّ لا ينقسم إلى قتلٍ بحقٍّ وقتل بغير حقٍّ، بل ما وقع من قتلهم، إنَّما هُوَ بغير حقٍّ قطعًا؛ لِما عُلِمَ بالاضطرارِ من أنَّ النبيِّين معصومونَ من أن يصدرَ منهم شيءٌ يستحقُّون القتلَ بسببِه، وإنَّما جيءَ بهذا القيد ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ لنِكَاتٍ(3):

أوَّلها: أنَّ ذلك على سبيل التَّأكيد، كالوارد في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، وكقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: 117].

قَبِيحُ جُرمِ اليهُودِ وشناعَةُ عُدوانِهِم علَى أَنْبِيَائِهِم

ثانيها: تعظيمُ جرُمهم وذنبِهم الذي أتوهُ وتقبيحُهُ، وزيادةٌ في تشنيعِ عدوانِهِم.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 1/420.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/277.

(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 535-3/534، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/432، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 383-1/382، والبقاعي، نظم الدّرر: 1/421، والقُونَوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 348-3/347، والآلوسّي، روح المعاني: 1/277، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 53، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/55.

ثالثها: أنَّ قتل الأنبياء، وإن كان لا يقع إلَّا بغير حقٍّ، إلَّا أنَّ هذا لا ينفي أن تَكُون ثَمّةَ شبهةٌ؛ كظَنِّ تَنَبُّئِهِمْ ، فوقع ذَمُّ هؤلاءِ على الإقدامِ علَى إراقة الدَّمِ مع علمهم بصدقِ نُبُوَّتِهِمْ، وذلك أنَّ الباطلَ قد يأتيه أحدٌ ما معتقدًا كونَهُ حقًّا؛ لشبهة وقعت في قلبه، وقد يأتيه عالمًا بكونِه باطِلًا، والثَّاني أقبَحُ، أي: أنَّهم قتَلُوا النبيِّين دون أن يكون قتلُهُم لَهُمْ حقًّا في اعتقادهم وظنِّهم، بل كانوا عالِمِين بشناعتِهِ وقُبحه، ومع ذلك فقد أقدمُوا عَلَيْه.

نُكْتَةُ عَطْفِ قَتْلِ النَّبِيِّينَ عَلَى الكُفْرِ بِآيَاتِ اللهِ:

الـتَّـرقِّـي في ذِكْـرِ العظَائِمِ الـمُـوجِـبَـةِ لِلْعَذَاب

عطفُ قتلِ النَبيِّين على الكفر بآياتِ اللّه تعالى في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ يحتملُ أن يكون من باب عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لكونِ قتل النَّبيِّ من جملةِ الكفرِ العَمَلِيِّ الذي يُضادُّ الإيمانَ[1]، ويكون نُكتةُ هذا العطفِ الإشعارَ بشناعَةِ قتلِ النبيِّينَ؛ لأنَّه أمرٌ زائدٌ على الكفر بآيات اللّه تعالى؛ لأنَّه لا يُقْدِمُ على قتلِ النَّبيِّ إلَّا كافرٌ بآيات اللّه سبحانه، وليس كلُّ من كفر بآيات اللّه ﷻ يقتلُ نبيًّا؛ فكان قتلُ النَّبيِّ بهَذَا الاعتبار أشنعَ وأقبَحَ.

ويحتَمِلُ أن يكون من عطفِ المتباينَيْن، كما مال إليه الفَخْرُ[2].

وعلى كلَا الوجهين فالعطفُ من بابِ التَّرقِّي؛ بذكر الجُرمِ، ثُمَّ الذي هو أعظَمُ، بالاعتبار الذي تقدَّمَ.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّـةُ الـبـيَـانِ القُرْآنِيِّ في انتِقَاءِ الألفَاظِ والأبنِيَةِ الـمُـنَـاسِـبَـةِ لِلسِّياق

وردَ ههنا قول اللّه تعالى: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾، وجاء في سورة آل عمران نظيرُها في المعنى مع اختلاف اللَّفْظِ وهو قول اللّه سبحانه: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ﴾ [آل عمران: 112]، والفرق بينهما مِنْ وَجْهَيْن:

(1) ابن القيّم، الصّلاة وأحكام تاركها، ص: 57.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/534.

أحدهما: أنَّ الجمعَ في سورة البقرةِ جمعُ مذكر سالم، وفي آل عمرانَ جمعُ تكسيرٍ.

الآخر: أنَّ الحقَّ في سورة البقرة وردَ معرَّفًا، وفي آل عمران جاء مُنَكَّرًا.

وتوجيه ذلك أن يُقالَ[1]:

أوَّلًا: المغايرة بين جمع (النَّبيِّ) جمعَ مذكر سالم وجمعِهِ جمعَ تكسيرٍ.

أنَّ آيةَ آلِ عمران المتقدِّمَ ذكرُها جاءت في سياقٍ أشدَّ ذمًّا وتشنيعًا مِنَ الواردِ في سورة البقرة، وقد دلَّ على ذلك أنَّ الله تعالى جَمَعَ لَهُم في سورة البقرة بينَ الذّلّة والمسكنة، فقال سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾، بخلاف ما في آل عمران؛ فقد جاء ذلك مكرَّرًا ومؤكّدًا، فقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ و ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾، وجاء أيضًا على وجه التَّعميم، فقال ﷻ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾، فلمَّا كان السِّياقُ في آل عمرانَ أشدَّ ذمًّا وتشنيعًا؛ كان الأنسب أن يُجمعَ النَّبيُّ جمعًا دالًّا على الكثرة، فجُمِعَ جمع تكسير ﴿ٱلْأَنْبِيَآءَ﴾، أي: يقتلون العدد الكثير من الأنبياء بغير حقٍّ، بخلاف ما في البقرة؛ فجاء جمعًا دالًّا على القلَّةِ بإيرادِهِ جمع مذكر سالم (ٱلنَّبِيِّنَ).

ثانيا: المغايرَةُ بين تعرِيف الحقِّ وتَنْكِيرِه، وفي ذلك ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدهما: أنَّ ما في سورة البقرة يُشير إلى الحقِّ الذي أذِنَ الله تعالى أن تُقتلَ النَّفْسُ به، وهو المرادُ بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: 151]، فكان الأَوْلَى ذِكره معرّفًا؛ لأنَّه مِنَ الله ﷻ، وما في آل عمرانَ يُرادُ به: بغيرِ حقٍّ في اعتقادِهم، فكان هذا أولَى بالتَّنكير.

الثاني: أنَّ المرادَ بالحقِّ في سورة البقرة ما تقدَّمَ في الوجه الأوَّلِ، وأمَّا الحقُّ المُنكَّر في سورة آل عمران؛ فالمراد به: تأكيدُ العموم ، فإنَّه نكرةٌ في سياق النَّفي، فتعمُّ، أي: لَم يَكُنْ ثَمَّ حقٌّ، لا الذي أذِنَ الله تعالى أن تُقتلَ النَّفسُ به -وهو: الكفرُ بعدَ الإيمانِ، والزِّنا بعد الإحصان، وقتلُ نفسٍ عمدًا عدوانًا- ولا غيرُهُ البتَّة.

الثالث: أنَّ مقام التَّشنيعِ والذَّمِّ في سورة آل عمرانَ أقوَى وأظهرُ مِنْهُ في سورة البقرةِ -وكلاهما ذمٌّ وتشنيعٌ-، فجِيءَ بالتَّنكير في مقام المبالغة في ذمِّهم وزيادةِ التَّشنيعِ عَلَيْهِم.

---

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/535، ومحمود الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 75-74.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ ﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾:

من قبَائِحِ اليهُودِ دوامُ سَعْيِهم في قَتْلِ الأنبِيَاءِ

جاء التَّعبير عَن قَتْلهم النَّبيِّين بصيغة المضارعِ في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾، وفي ذلك نُكْتَتَانِ[1]:

إحداهما: استحضارُ تلك الصُّورة الشَّنيعةِ الذَّميمة.

والأخرى: الدّلالة على تجدُّدِ القتل فيهم؛ كُلَّما جَدَّ فيهم نَبيٌّ، وهذا غايةٌ في القُبْحِ والفظاعَةِ، بل إنَّ فيه إيماءً إلى أنَّهم كانُوا يَسْعَوْنَ في قتل النَبيِّ محمَّدٍ ﷺ.

دلالة اسْمِ الإشَارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

شَناعَةُ الكُفْرِ بآياتِ اللهِ تعالَى وفَظَاعَةُ قَتْلِ النَّبِيِّ

اسمُ الإشارةِ (ذلك) من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ الدَّالُّ على البَعِيدِ، فيه إشارةٌ على الأمر العظيمِ الصَّادر مِنْهُمْ مِنَ الكُفْرِ والقتلِ[2].

نُكْتَةُ ذكرِ (كَانُوا) مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾:

العِصْيَانُ وَالِاعْتِدَاءِ طَبْعَانِ فِي الْيَهُودِ

ذكرُ (كَانُوا) في قول اللّٰه سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾؛ للتَّنبيه على دوامِ اعتدائِهم واستمرارِهم فيه.

وانضمَّ إلى دلالة (كَانُوا) على الدَّوام والاستمرار: الإتيانُ بـ ﴿يَعۡتَدُونَ﴾ بصيغة المضارعِ؛ فأفادَ مجموعُ ذلك: أنَّهم مداومون على الاعتداء، مستمرُّونَ فيه، وأنَّ ذلك أمرٌ متجَدِّدٌ فيهم، حتَّى صار طبعًا وجِبِلَّةً لهم[3].

حُسْنُ التَّرْتِيبِ:

دِقَّةُ البيَانِ القُرآنِي في تَرْتِيب المَعْطُوفَاتِ

ذَكَر اللّٰه سبحانه علَّةَ إنزالِ العقوبة بهم، فَعدَّدَ جرائمَهم قائلًا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾، وهذا في غاية الحسن في التَّرتيب،

---

(1) أحمد الكورانّي، غاية الأماني: 1/459-460.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/421.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/421.

فإنَّهُ بدأ بما فعلوه في حقِّه سبحانه، وهو جحدُهم لآيات اللّه ﷻ، ثُم ثنَّاه بما هو أعظَمُ؛ وهو قتلُ الأنبياء -لكون قاتل النَّبيِّ جاحدًا لآيات اللّهِ تعالى، فيكون جامعًا بين مُوجبَيْن من موجباتِ الكفر- ثُمَّ ذكر سببَ ذلك وهو صُدُورُ المعاصي عنهم، والاعتداء على الآخرين[1].

فَائِدَةُ ذِكْرِ الِاعْتِدَاءِ بَعْدَ الْعِصْيَانِ:

تَعْدَادُ الْمُخَالَفَاتِ أَدْخَلُ فِي التَّقْرِيعِ وَالتَّبْكِيتِ

ذِكْرُ الاعتداءِ بعدَ العصيان في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ تأكيدٌ بِتَكْرَار الشَّيء بغير لفظِهِ الأوَّلِ؛ بيانًا لعلَّةِ الجزاءِ المذكورِ قبلُ، وفيه: زيادَةُ التَّبكيتِ والتَّقريع، فهو كقول الرَّجُلِ لخادِمِهِ وقد صدرت منه مخالفاتٌ من قبلُ، ثمَّ عاقبَهُ سيِّدُهُ عند آخرها: هذا بما عصيتَني، وخالفتَ أمري، أو يقول: هذا بما تجرَّأتَ على مخالفتِي، واغتررْتَ بحِلْمِي، ونحو هذا؛ فيُعَدِّدُ عليه مخالفاتِهِ بألفاظٍ متغايرةٍ بيانًا لعلَّةِ العقابِ، وتبكيتًا له وتقريعًا[2]، وهو انتقالٌ من المعاصي العامَّة، إلى المعاصي التي فيها اعتداءٌ على حقوقِ النَّاسِ.

بَلَاغَةُ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ:

جَمْعُ الْيَهُودِ بَيْنَ الْجَرَائِمِ إِمْعَانٌ مِنْهُمْ فِي الْعِصْيَانِ

في قول اللّه سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ لفٌّ ونَشْرٌ مُرتَّبٌ، فإنَّ العصيانَ راجعٌ إلى كفرهم بآيات اللّه تعالى، والاعتداءَ عائدٌ إلى قَتْلِ النَّبيِّين؛ ووجهُ ذلك أنَّ الاعتداءَ ههنا يُرادُ به الإمعانُ في العِصيانِ، وهو مناسبٌ لقتل النَّبيِّين؛ لأنَّهُ أشنعُ وأقبحُ مِنَ الكُفر بآيات اللّهِ تعالى، من جِهَةِ أنَّ قاتِلَ النَّبيِّ لا يكونُ إلَّا كافرًا بآيات اللّهِ سبحانه، فيكون قد جمع بين جُرمَيْنِ إمعانًا في العصيانِ.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/535.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/535، وهْبَة الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 1/173.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

بَدَّلَ وَأَبْدَلَ:

ذهب جماعةٌ من أهل العلم إلى أنَّ التَّبديل والإبدالَ بمعنًى واحدٍ، ومثلُهما: الاستبدالُ؛ ومعنى الجميع: جعل شيءٍ مكان آخر[1].

وفرَّق آخرونَ بين التَّبديل والإبدال[2] بأنَّ التَّبديلَ: التَّغييرُ مِن غير إزالة العين، بخلاف الإبدال؛ فإنَّه تغييرٌ معَ إزالةِ العَين، وهو معنى قول أبي العبَّاس ثعلب: "التبديل: تغييرُ صورةٍ إلى صورة أخرى، والجوهرةِ بعَيْنِها، والإبدالُ: تنحيةُ الجوهرةِ، واستئنافُ جوهرةٍ أخرى"[3]، وهذا هو المشهورُ في الفَرْقِ بَيْنَهُما.

وفرَّق جماعةٌ من أهل العلم بينَهُما مِن وجهٍ آخر[4]؛ وهو أنَّ التَّبديلَ: التَّغييرُ، وإن لم يُؤتَ ببدَلِهِ، بخلاف الإبدال: هو التَّغييرُ مع الإتيان بِبَدَلِهِ، فالتَّبديلُ أَعمُّ -عَلَى هذَا- عمومًا مطلقًا.

الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ:

الذّلّة والذّلّ: الخضوع واللّين والانقياد، وأمَّا الصَّغارُ؛ فهو القِلّة والحقارة والهَوَان.

وهُمَا يشتركان في مطلق الخُضوع والهَوان، ويَفْتَرِقانِ مِن وجهين[5]:

أحدهما: أنَّ الصَّغارَ: هو الرِّضا بهذا الهوانِ والمنزلة الدَّنيَّة، أو هو الاِنْحِطاط إلى تلك الرُّتبة بعد عِزٍّ وشرفٍ، وأمَّا الذّلّة: فلا تستلزم الرضا، فتكون الذِّلَّةُ من هذه الحيثية أعَمَّ.

ثانيهما: أنَّ في الذّلّةِ معنى القَهْرِ بقُوَّة خارجيَّةٍ، بخلاف الصَّغارِ ؛ فلا يلزَمُ أن يكونَ فيه قهرٌ؛ إذ هو رضا المرءِ بالهوانِ، وقد يكون داعِيهِ دناءَةَ نفسِ المرءِ لا قُوَّةَ القهرِ، فيكون الصَّغارُ من هذه الحيثيَّةِ أَعَمَّ.

والحاصلُ: أنَّ الذّلَّةَ أعمُّ من وجهٍ، والصغَّارَ أعمُّ من وجهٍ آخرَ.

---

(1) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (بدل)، والدّرّ المصون: 1/380.

(2) الثَّعلبي، الكشف والبيان: 10/18، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 5/195، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/324، والسَّمين، الدّرّ المصون: 1/380.

(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 6/529.

(4) الخفاجي، عناية القاضي: 2/165.

(5) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 260-261.

الغَضَب وَالسُّخْط:

الفرقُ بينَهُما مِن وجهين[1]:

أحدهما: أنَّ الغضَبَ يكون مِن الصَّغير على الكبِير، ومِنَ الكبِير على الصَّغير، بخلاف السُّخْط؛ فلا يكون إلَّا مِنَ الكبير على الصَّغير.

الآخر: أنَّ الغضبَ هو اشتدادُ السُّخْطِ، فهو أخصُّ.

وبهذا يتبيَّنُ أَنَّ الغضبَ أعمُّ مِنَ السُّخْطِ من وجهٍ، وأخصُّ مِنْهُ مِنْ وجهٍ آخرَ.

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 130.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [البقرة: 62]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لما بيَّن اللّه تعالى حالَ من خالف أوامرَه، وارتكب زواجرَه، وتعدَّى في فعل ما لا إذنَ فيه، وانتَهك المَحارمَ، ووصف ما أحلَّ بهم منَ النَّكال، نبّه تعالى على أنَّ مَن أحسنَ منَ الأمم السالفة وأطاع، فإنّ له جزاءً الحُسنى، وكذلك الأمرُ إلى قيام السّاعة؛ كلُّ مَن اتّبع الرسولَ النّبيَّ الأمّيَّ فله السعادةُ الأبديةُ، ولا خوفٌ عليهم فيما يَستقبلونه، ولا هُم يحزنون على ما يتركونه ويُخلِّفونه[1].

مَنْ خالف أوامرَ الخالِق، فلا ييأسْ، فإنَّ مَنْ أحْسَنَ منهم وأطاع فله جزاءً الحُسنى

فمناسبةُ الآية لما قبلها أنَّه تعالى لمَّا قال: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 61] بيَّن أنَّ مَن آمن منهم، وعمِل صالحاً فإنَّ اللّه لا يُضيع أجرَه[2].

فلمّا أوعدَ أهلَ الكتاب في الآي المتقدّمةِ قرَن به ما يتضمّنُ الوعدَ لمَن صدَق في الإيمان باللّه واليومِ الآخِر، وسطَع على قلبه نورُ اليقين، وأرشد إلى أنهم الفائزون بخيرَيِ الدنيا والآخرة.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ءَامَنُواْ﴾: يدور معنى الجَذر اللُّغوي (أمن) حول وَثاقة الباطن، ومنه: "آمن بالشّيء: صدَّق" أي: قَبِلَ الكلام، ووَثِق به؛ فتمكَّن من قلبه[3].

2) ﴿هَادُواْ﴾: هم اليهودُ المُنتسِبون إلى دين موسى عليه السلام، من هادَ يَهُود وتَهَوَّد: تابَ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/182.
(2) ابن العثيمين، تفسير العثيمين: 1/221.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أمن).

ورجَع إلى الحقّ، فهو هائدٌ، والمعنى المِحوريّ: لِيْنٌ - أو رَخاوة وفُتور-[1]، ومنه الهَوَادة: وهو اللِّينُ وما يرجَى به الصلاحُ بين القوم.

ومعنى هادوا: تابوا، يقال منه: هَاد القوم يَهُودُون هَودًا وهَادَةً[2]، وَسُمُّوا بِهِ لِأَنَّهُمْ تَابُوا عَنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ.

ويرى أبو عَمْرِو بْنُ العَلَاءِ بأنهم سمُّوا يهوداً؛ لِأَنَّهُمْ يَتَهَوَّدُونَ، أَيْ: يَتَحَرَّكُونَ عِنْدَ قراءة التوراة[3].

3) ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: هم أمَّة عيسى عليه السلام واشتقاقُه منَ النَّصر والنُّصرة بمعنى العون[4]، ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾، جمع، وواحده (نصرانيٌّ)، وهو المستعمَل، وسُمُّوا بذلك؛ لتناصرهم بينهم، أو لنَصرهم عيسى عليه السلام أو لأنَّهم سكنوا مدينةَ ناصرة، وقد اختلفوا وتفرّقوا في زمن عيسى عليه السلام وزاد اختلافُهم بعدما رفعه اللّه إليه.

4) ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: جمع، واحده: صابئ، واخْتُلِف في المأخوذ منه هذا الاسمُ، على ثلاثة أقاويلَ:

أحدها: أنّه مأخوذ منَ الطُّلُوعِ والظُّهُورِ، من قولهم: صبأ نابُ البعير، إذا طلع، وهذا قولُ الخليل.

والثاني: أنَّ الصابِئَ: الخارجُ من شيءٍ إلى شيءٍ، فسُمِّي الصابئون بهذا الاسم؛ لخروجهم من اليهودية والنصرانية، وهذا قولُ عبد الرحمن بن زيدِ بن أسلم.

والثالث: أنه مأخوذ من قولهم: صَبَا يَصْبُو، إذا مالَ إلى الشّيءِ وأحبَّه، وهذا قولُ نافع؛ ولذلك لم يَهْمز هذا اللَّفظ في قراءته[5].

والمراد منهم في الآية: قومٌ باقون على فِطرتهم، ولا دينَ مقرَّرٌ لهم يتَّبعونه.

5) ﴿أَجْرُهُمْ﴾: الأَجرُ والأُجْرة: ما يعود من ثواب العمل دُنيويًّا أو أُخرويًّا.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هود).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/32.

(3) البغوي، معالم التنزيل: 1/124.

(4) الرّاغب، المفردات: (نصر).

(5) الماوردي، النكت والعيون: 1/131.

والأُجرة في الثّواب الدُّنيوي، والأَجر والأُجْرة يقال فيما كان عن عَقد، وما يجري مجرى العَقد، ولا يقال إلا في النَّفع دون الضّرّ[1]، والمراد هنا: لهم ثوابُ أعمالهم في الآخرة.

6) ﴿خَوۡفٌ﴾: الخوف: تَوَقُّع مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ[2]، ويكون في المستقبل. أي: "ولا خوفٌ عليهم فيما قدِموا عليه من أهوال القيامة"[3].

7) ﴿يَحۡزَنُونَ﴾: الحَزَن والحَزُونَة: خُشونة في الأرض، وخُشونة في النَّفس؛ لما يحصُل فيه منَ الغمّ[4]، ويكون في الماضي.

أي: "ولا هم يحزنون على ما خَلَّفوا وراءَهم منَ الدنيا وعيشِها، عند مُعاينتِهم ما أعدَّ اللّٰه لهم منَ الثَّواب والنَّعيم المُقيم عندَه"[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنَّ المؤمنين من هذه الأمَّة، والذين كانوا قبلَ بعثة النّبيِّ محمدٍ ﷺ، منَ اليهودِ والنَّصارى والصَّابئين، وهم قومٌ باقون على فِطرتهم، ولا دينَ مقرَّرٌ لهم يَتَّبعونه، إذا صدَّقوا باللّٰه تصديقًا صحيحًا خالصًا، وبيوم البعث والجزاء، وعملوا بشرعه، فثوابُهم ثابتٌ عند ربهم، ولا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرةِ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا، فمدارُ الفلاح هو الإيمانُ الصحيح الذي له سلطانٌ على النّفوس، والعملُ الصّالح الذي به تتمّ سعادتُها ويُكتَبُ لها به الفوزُ في الدّنيا والآخرة[6].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ الفَصْل في الآية الكريمة:

جاءت هذه الآيةُ الكريمةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ متوسِّطةً بين آيات ذكر بني إسرائيل بما أنعم اللّٰه عليهم، وبما قابلوا به تلك النِّعمَ منَ

---

(1) الرّاغب، المفردات: (أجر).

(2) الرّاغب، المفردات: (خوف).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/150.

(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حزن).

(5) ابن جرير، جامع البيان: 2/150.

(6) المراغي، تفسير المراغي: 1/133، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 10.

بيانُ طريقِ الخلاصِ للفاسِدِين، منهجٌ قرآنيٌّ، وهدايةٌ رحمانيَّةٌ

الكُفران، فجاءت مُعترضةً بينها؛ لأنَّ ما تقدَّم من حكاية سُوء مقابلتهم لنعم اللّٰه تعالى قد جَرَّتْ عليهم ضربَ الذّلّة والمَسكنة، ورجوعَهم بغضبٍ منَ اللّٰه تعالى عليهم، فبينهما شبهُ كمالِ اتّصال؛ وكأن سائلًا سأل: ما الخلاصُ من غضب اللّٰه، ومن هذه المَذَمَّات التي لَحِقَتِ اليهودَ ومَن على شاكلتهم؟

فأجابتِ الآيةُ الكريمة بالجواب الكافي، والدّواء الشافي؛ بأنَّ بابَ اللّٰهِ مفتوحٌ لهم، وأنَّ اللَّجأ إليه أمرٌ هَيِّنٌ عليهم، وذلك بأن يُؤمنوا، ويَعملوا الصالحاتِ[1].

إنصافُ القرآنِ للآخرِ قُدوةٌ تعليميَّةٌ

مقصودُ التَّأكيدِ المُصدَّر به الآية:

مجيء "إنَّ" هنا لمجرّد الاهتمام بالخبر وتحقيقِه؛ لدفع توهُّم أنَّ ما سبقَ منَ المَذَمَّات شاملٌ لجميع اليهود؛ فإنَّ كثيرًا منَ النّاس يَتوهّمُ أنَّ سلَفَ الأمم التي ضلَّت كانوا مثلَهم في الضَّلال[2].

سِرُّ اختيار الاسمِ الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾:

العدولُ عنِ التّعريفِ بالاسم الظَّاهرِ إلى الموصولِ في قولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾؛ بدلًا من: إنَّ المؤمنين واليهود، كما قال: ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ لِنكاتٍ:

أولًا: تسجيل إيمانهم.

صلةُ الموصولِ علّةٌ للحكمِ

ثانيًا: ليكونَ الاسمُ الموصول مُوحيًا بسبب الحُكم المُخبَر به عنهم، ومشيرًا إلى أنَّ مضمونَ الصِّلة علةٌ للجملة التي بُنيت عليها هذه الجملةُ، وهو قولُه: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

ثالثًا: الدّلالة على أنّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ فريقٌ آخر غيرُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/514.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/514.

المؤمنين الصّادقين - على رأيٍ - ولذلك كان قولُه: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ مُبَيِّنًا لحقيقتهم، فإنَّ الاسمَ الموصول قد يُراد به فريقٌ واحدٌ، فيكونُ كالمعهود باللّام، وقد يكون جنسًا.

رابعًا: ما في الصّلةِ منَ التَّعريض بمَن ظلَّ على كفرِه وضلالِه منَ اليهودِ والمنافقينَ، وللاهتمام بالصِّلة؛ لأنَّ الحديثَ عليْها يُدارُ.

بلاغةُ تعريف ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ بـ(ال) بدلًا منَ الاسمِ الموصول:

تبعيَّةُ النَّصارى والصّابئين في الذِّكرِ، ففرّق السّياقُ بين الأصلِ وتابعِه

المؤمنون واليهودُ هم الـمَعْنِيُّون بهذه الآيةِ الكريمة، وجاء ذكرُ النَّصارى والصّابئين تبعًا، ففرّق السّياقُ بين الفريقين، ولأنَّه لم يَرِدْ في القرآن الكريم (الذينَ نَصروا) للنَّصارى؛ لأنَّه صار وصفًا مقصورًا على أَتْباع عيسى عليه السلام، ولِئَلّا يلتبسَ اسمُ الموصول وصلتُه بالأنصارِ المذكورين به في أكثرَ من موضعٍ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ [الأنفال: 72، 74].

فائدةُ حذفِ المُتعلّق في ﴿ءَامَنُواْ﴾:

الإيمانُ صار لقبًا للإيمان بالله وحدَه، وهو المرادُ

لم يُذْكرْ متعلّق لـ ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ صار كاللَّقب للإيمان الخاصِّ الذي جاء به دينُ الإسلام وهو الإيمانُ باللّه وحدَه[1].

وقد يكون حذفُ الـمُتعلِّق لبيانِ ظاهر الفعل - كما قال بعضُ المفسرين- "آمنوا بألسنتهم ولم تُؤمنْ قلوبُهم"[2]؛ فلم تتعلَّق قلوبُهم بما آمنوا به، ولَمّا يَرْسَخِ الإيمانُ في قلوبِهم.

سرُّ ذكرِ النَّصارى والصّابئين في مقام الحديثِ عنِ اليهود:

تأنيسُ وَحْشة اليهود منَ القوارع في الآياتِ الماضية

مِنْ بديع البلاغةِ أن قَرَن مع اليهودِ ذكرَ بقيّةٍ منَ الأممِ؛ ليكونَ ذلك تأنيسًا لوَحْشة اليهودِ منَ القَوارع السّابقةِ في الآيات الماضية، وإنصافًا للصّالحين منهم، واعترافًا بفضلهم، وتبشيرًا لصالحي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/100.

(2) وقال القتبي: «قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هم قوم آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم، فكأنه قال: (إنّ المنافقين)»، السمرقندي، بحر العلوم: 1/59.

الأُمم منَ اليهود وغيرِهم الذين مَضَوا، مِثْلَ الذين كانوا قبْل عيسى وامتثلوا لأنبيائهم، ومِثْلَ الحَواريّين، والموجودين في زَمَنِ نُزُول الآية مثل عبدِ اللّهِ بنِ سَلّام وصُهَيب، فقد وَفّت الآيةُ حقَّ الفريقين منَ التَّرغيب والبِشارة، وراعت المُناسبتين للآيات المتقدِّمة مناسبةَ اقترانِ التَّرغيب بالتَّرهيب، ومناسبةَ ذكر الضِّدِّ بعد الكلام على ضِدِّه[1].

بلاغةُ التَّغايُر بين صيغَتَيْ جمعِ التَّكسير والمُذكَّر السّالم في ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾.

يتميَّزُ كُلٌّ من جمعِ التَّكْسيرِ وجمعِ المذكَّرِ السَّالم، بأمرين:

الأول: جمعُ الصفاتِ جمعَ مذكّرٍ سالمًا يُقَرِّبُه منَ الفعلية (الحدَث)، وجمعُ التَّكسير يقرِّبُه للاسْمية، فـ (النَّصارى) أشخاص، و(الصابئين) إشارةٌ إلى فعلهم (صبؤوا).

الآخر: جمعُ المذكّر السّالم يدلُّ على القلّة بالنَّظر إلى جمع التَّكسير.

اتِّفاقُ الواقعِ مع النَّظمِ في كونِ النَّصارى أكثَرَ منَ الصّابئين

وعليه فإنَّ جمعَ النَّصارى جمعَ تكسيرٍ هو الأنسبُ؛ لأنَّهم أكثرُ منَ الصَّابئين، ولأنَّ ما هم عليه مِن الدِّين- بعد بِعثة النَّبيّ محمدٍ ﷺ- منسوبٌ إلى أشخاص، لا إلى نُصرتهم نبيَّهم عيسى عليه السلام، فهدايتُهم بعد ضَلالهم أيسرُ على الدَّاعي.

في حين أنّ (الصّابئين) يُراعَى في دعوتهم فعلُهم (صبؤوا)، وهو الخروجُ ممّا كانوا عليه من دينٍ إلى آخرَ، فَهُم على قِلَّتِهم في حاجةٍ إلى مُراعاة أسبابِ خُروجهم ومَيْلِهم، وتبيانِ الحقِّ لهم، وما ذلك على اللّه بعزيز.

سِرُّ ذكر الإيمان في أوّلِ الآيةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وآخرِها: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾:

تقريرُ أنَّ الإيمانَ بالألسنةِ لا بالقلوبِ

فائدتُه: أنَّ المنافقين كانوا يُظهرون الإسلامَ ويَزعمون أنَّهم مؤمنون، ففي هذا التّكرار إخراجُهم من قَبيل المؤمنين، فيكون معنى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بألسنتهم لا بقلوبهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/531.

ثم قال: ﴿مَنۡ ءَامَنَ﴾ يعني: مَن ثَبَت على إِيمانِه ورجَع عن نفاقِه منهم.

وقيل: فيه فائدةٌ أخرى، وهي أنَّ الإيمانَ يَدخل تَحتَه أقسامٌ كثيرةٌ، وأشرفُها: الإيمانُ باللّه واليومِ الآخر، ففائدةُ التّكرار: التَّنبيهُ على أشرف أقسام الإيمان وهما هذان القسمان وفي قوله: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ حَذْفٌ، تقديره: (من آمن منهم باللّه واليوم الآخر)، وإنَّما حَسُنَ هذا الحذفُ لكونِه معلومًا عند السّامعين[1].

سرُّ حذفِ الإيمانِ بمحمدٍ ﷺ:

التَّـنبـيـهُ على وقـوعِ الخَلَلِ في أصلِ الإيمانِ

الاكتفاءُ نوعٌ مِنَ الإيجاز[2]، ولم يُذْكَر في الآية الإيمانُ بمحمدٍ ﷺ؛ لأنَّه لـمَّا ذُكر الإيمانُ بِاللَّهِ تعالى فَقَد دَخل فيه الإيمانُ بالنَّبيّ محمدٍ ﷺ؛ لأنَّه لا يكونُ مؤمنًا باللَّهِ تعالى مَا لَم يُؤمنْ بِجميع مَا أَنزَلَ اللّه تعالى على محمدٍ وعلى جميع الأنبياء عليهم الصّلاة والسلام، وهذا يناسب سياقَ الآية؛ حيث إنها كسفينة النَّجاة قبل فوات الأوان[3]، وعدمُ ذكرِ الإيمانِ برسولِ اللّه للتَّنبيه على عدم صحَّةِ إيمانِهم باللّه تعالى؛ فعليهم أن يُؤمنوا أوَّلًا باللّه تعالى الإيمان الصَّحيح؛ ليتضمَّن بعد ذلك الإيمانَ بالنَّبيِّ ﷺ؛ فكان الحذفُ دليلًا على وقوعِ الخلّلِ في أصلِ الإيمان.

مناسبةُ اختيار ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ دون بقيّة أسماء القيامةِ:

تحريكُ الأملِ في الـنُّـفـوس، فإنَّ التَّطلُّع إلى آخرِ الأمرِ يبعثُ على الإنابةِ

ليومِ القيامةِ أسماءٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم[4]، وكُلُّ اسم أو وصف جيءَ بِه لمناسبةٍ سياقيَّةٍ، وقد ورد اليومُ الآخرُ اسمًا ليوم

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/75.

(2) وهو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيُكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة بلاغية، عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 1/501.

(3) السمرقندي، بحر العلوم: 1/59.

(4) كيوم القيامة، واليوم الآخر، والواقعة، والساعة، ويوم البعث، ويوم الخروج، ويوم التلاق، ويوم الفصل، والطامة، والصاخة، وغير ذلك. القرطبي، التذكرة، ص: 203.

القيامة في القرآن الكريم ستًّا وعشرين مرةً، في إحدى عشرةَ سورة[1]، كلُّها مدنيةٌ، عدا سورةِ العَنكبوت؛ فقد وقع الخلافُ فيها، وهي من أواخرِ ما نزلَ في مكَّة.

وقد ورد تركيبُ ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ لمناسبة سياق الآية وسباقها؛ فقد جاءت فتحًا لباب الأمل، وفرصةً أخيرةً للتَّوبة والإنابة والفَيْءِ إلى بُستانِ الإيمان، تُؤَمِّنُهم عذابَه، وتُجَنِّبُهم غضبَه، وتُدنيهِم من رحمتِه، فالوصفُ باليوم الآخر أنسبُ للسِّياق، وأليقُ بالـمَقام، وأشدُّ تأثيرًا في نفوس الـمَدْعُوِّين.

فائدةُ عَطفِ قوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ على الإيمانِ:

الإيمانُ دعوى دليلُها العملُ الصَّالحُ

قُرِنَ الإيمانُ بالعمل الصَّالح؛ ليشيرَ إلى أنَّهما لا يفترقان، فالإيمانُ تصديقٌ، وقولٌ، وعملٌ[2]، ولأنَّه به يُصَدِّقُ ما ادَّعاه من الإيمان، باتِّباع شرعِ الرّسولِ الذي في زمانِه في الأعمال الظاهرةِ، ولم يُفَرِّقْ بينَ أحدٍ منَ الرُّسل، ولا أَخَلَّ بشيءٍ من اعتقادِ ما جاءت به الكتبُ منَ الصّلاح.

قال عليُّ بنُ أحمد الحَرَالِّيُّ: "وهو العملُ الـمُراعَى منَ الخلل، وأصلُه الإخلاصُ في النِّيّة وبلوغِ الوُسْع في المحاولة بحسب عِلم العامل وإحكامِه"، وقال: "والعملُ ما دُبِّر بالعلم". انتهى[3].

وفي قَرْنِ الإيمان بالعمل الصالح دليلٌ على أنّ العَملَ لا بدَّ مِنهُ، مع التَّصديق والإذعان[4]، وللإشارة إلى أنَّ الإيمان بلا عمل كزرعٍ بلا ثمرٍ[5].

تردُّدُ ﴿مَنۡ﴾ بين الشَّرط والموصول، وما يترتَّبُ عليهما من معنى:

اجتماعُ معنى العُمُومِ في الشَّرطِ والمَوْصُولِيَّةِ، واستقلالُ الشَّرطيَّةِ بالاستقبالِ

يجوز أن تكون "مَن" في قوله: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ شرطًا في موضع المبتدأ، ويكون ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ جوابَ الشَّرط، والشرطُ مع الجواب

---

(1) هي البقرة: 8، 62، 126، 177، 228، 232، 264، وآل عمران: 114، والنساء: 38، 39، 59، 136، 162، والمائدة: 69، والتوبة: 18، 19، 29، 44، 45، 99، والنور: 2، والعنكبوت: 36، والأحزاب: 21، والمجادلة: 22، والممتحنة: 6، والطلاق: 2.

(2) محمد علي جميل، صفوة التفاسير: 2/520.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 1/457.

(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 2/1028.

(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/2011.

خبرُ ﴿إِنَّ﴾، فيكونُ المعنى: إنَّ الذين آمنوا مَن يؤمنُ باللّهِ منهم فلَهُ أجرُه، وحُذِفَ الرَّابطُ بين الجملة وبين اسم "إنَّ"؛ لأنَّ "مَن" الشَّرطيةَ عامَّةٌ، فكان الرابطُ العمومَ الذي شمِل المبتدأَ، أعني: اسم إنَّ، ويكونُ معنى الكلام على الاستقبال؛ لوقوع الفعل الماضي في حيِّز الشَّرط، أي: من يؤمنُ منهم باللّه ويعملُ صالحًا، فله أجرُه، ويكونُ المقصودُ منه فتحَ بابِ الإنابةِ لهم، بعد أن قُرّعوا بالقَوارع السَّالفة.

ويجوز أن تكون "مَن" موصولةً، بدلًا من اسم "إنَّ" والفعلُ الماضي حينئذٍ باقٍ على المُضي؛ لأنَّه ليس ثمّةَ ما يُخَلِّصُه للاستقبال، ودخلتِ الفاءُ في ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ إمّا على أنَّها تَدخُل في الخَبَر، نحوَ قولِ الشاعر - وهو من شواهد كتاب سيبويه -[1]:

وقائلةٍ خَولانُ فَانكِحْ فتَاتَهُم *** ....

ونحوَ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج: 10] عند غيرِ سيبويه، وإمَّا على أنَّ الموصول عُومل معاملةَ الشَّرط؛ للإيذان بالتّعليل، فأُدخلت الفاءُ قرينةً على ذلك، ويكونُ المفادُ منَ الآية حينئذٍ استثناءَ صالحي بني إسرائيل مِنَ الحُكم، بضرب الذّلّة والمَسكنة والغضبِ من اللّه، ويكونُ ذكرُ بقيَّةِ صالحي الأمم معهم على هذا إشارةً إلى أنَّ هذه سُنَّةُ اللّهِ في مُعاملتِه خلقَه ومجازاتِه كلًّا على فعلِه[2].

بلاغةُ الحملِ على اللّفظ مرةً والمعنى أخرى:

رُوعي لفظُ «مَن» فأُفرد الشَّرطُ، ورُوعي معناه، فجُمع في الجواب؛ لإفادة أنّ الأمر هنا منَ العامِّ الواردِ على سببٍ خاصٍّ

جُمِع الضَّميرُ في قوله: ﴿أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ مراعاةً لِماصدق[3] (من)، وأُفرد شرطُها أو صلتُها: ﴿ءَامَنَ﴾ و﴿عَمِلَ﴾ في قوله: ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ مراعاةً للفظها، وممّا حسَّن ذلك، وجَعلَه في الموقع الأعلى مِنَ البلاغة أنَّ هذين الوجهين الجائزَيْن عربيةً في مَعاد الموصولات وأسماء الشروط قد جُمِع بينَهما على وجهٍ أنبأَ على قَصدِ العُموم في الموصول أو الشرط؛ فلذلك أتى

(1) من بحر الطويل، والقائل مجهول، وقال الطَّيبي: «قال شارحُ اللُّباب في قوله: وقائلة خولان فانكح فتاتهم: «إنّ (خولان) مبتدأ، (فانكح) خبره وقد دخل عليه الفاء، والتقدير: هؤلاء خولان فانكح، كما تقول: زيد فلتقم إليه، أي: هذا زيد، فدخول الفاء يدل على أنّ وجودَ هذه القبيلة علّةٌ لأن يتزوج منها ويتقرّبَ إليها لحسن نسائها وشرفها». الطيبي، فتوح الغيب: 5/352، ويُنظر: السيوطي، نواهد الأبكار: 3/260.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/521.

(3) (الماصدق) عِند المناطقة: الْأَفْرَاد الَّتِي يتَحَقَّق فِيهَا معنى الكُلِّيّ، مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط (باب الصاد): 1/511.

بالضَّمير الذي في صلتِه أو فعلِه مناسبًا للفظه لقَصْدِ العُموم، ثمَّ لمَّا جيء بالضَّمير مع الخبرِ أو الجوابِ جُمِعَ؛ ليكونَ عَودًا على بَدء، فيرتبطَ باسم "إنَّ" الذي جِيء بالموصول أو الشَّرط بدلًا منه أو خبرًا عنه؛ حتى يُعلَمَ أنَّ هذا الحكمَ العامَّ مرادٌ منه ذلك الخاصُّ أوَّلًا، كأنه قيل: إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إلخ كلُّ مَن آمَن باللَّهِ وعَمِلَ إلخ، فَلِأولَئك الَّذين آمَنُوا أجرُهم، فَعُلِمَ أنَّهم مِمَّا شَمِلَه العُمومُ على نحو ما يذكره المناطقةُ في طيِّ بعض المُقدِّمات للعلم به، فهو مِنَ العامِّ الواردِ على سببٍ خاصٍّ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالأجرِ عن الثَّوابِ:

تسميةُ الثَّوابِ أجــرًا لـعـدم تخلُّفه

المرادُ مِنَ الأجر: الثَّوابُ الذي وُعِدُوه على الإيمان والعملِ الصّالحِ؛ فإضافتُه إليهم واختصاصُه بهم بمجرّد الوعْد، لا بالاستيجاب - كما زعمه الزمخشريُّ، رعايةً للاعتزال -، وتسميتُه أجرًا لعدم التَّخَلُّف[2].

أُطْلِقَ الأجرُ على الثَّوابِ مَجازًا؛ لأنَّه في مقابلةِ العملِ الصَّالح، والمرادُ به نَعِيمُ الآخرة، وليس أجرًا دُنيويًّا بقرينة المَقام[3].

فائدةُ الظّرفيّة في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾:

الأجـرُ المحفوظ عند الله يورث الـطّـمـأنـيـنـة بـتـحـصـيـلـه، والـسَّـكـيـنـة بملاقاته

فائدةُ الظَّرفيةِ في قولِه: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الأجرَ لا يَضيعُ؛ لأنَّه عند لطيفٍ حفيظٍ، وهو متعلِّقٌ بما تَعَلَّقَ به (لهم)، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ حالًا من ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾[4].

وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عنديّةٌ مجازيّةٌ مُستعمَلَةٌ في تحقيق الوعد كما تُستعمل في تحقيق الإقرار في قولهم: لك عندي كذا. ووجهُ دلالة ﴿عِندَ﴾ أنَّها دالَّةٌ على المكان، فإذا أُطْلِقَتْ في غيرِ مَا مِن شأنه أن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/522.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/280.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/523.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/523.

يحِلَّ في مكانٍ كانت مستعمَلَةً في لازمِ المكانِ، وهو وجودُ مَا مِن شأنِه أن يكونَ في مكانٍ، على أنَّ إضافةَ ﴿عِندَ﴾ لاسم الرَّبِّ تعالى مِمَّا يزيدُ الأجرَ تَحَقُّقًا؛ لأنَّ المضافَ إليه أكرمُ الكُرَماء، فلا يَفُوتُ الأجرُ الكائنُ عنده[1] ولذلك قُرِنَ بـ﴿عِندَ﴾ الدّالَّةِ على العِناية والرِّضا[2].

سِرُّ اختيارِ اسمِ ﴿رَبَّ﴾ دونَ لفظِ الجلالة (ٱللَّه):

عنوانُ الرُّبوبيةِ يُشيرُ إلى فُيوضاتِ العَطاء، وكثرةِ النِّعم

"الرّبّ هو: المُتَوَلّي تربيةَ الشّيء، خَلْقاً من عَدَم وإمدادًا من عُدْم"[3].

"والذين يَدخلون في عَطاءِ الأُلُوهيَّة هم المؤمنون، أمَّا عطاءُ الرُّبُوبِيَّة فيَشْمَلُ الجميع"[4].

وهذا أنسبُ للمقام؛ إذْ إنَّه مَقامُ رحمةٍ، وعطاءٍ، ومعاملةٍ بالفضلِ لا بالعدلِ، وبالإحسانِ لا بالميزانِ، فمَهْما يَكُن مِن جرائمِ اليهود وغيرِهم، فإنَّ بابَ التَّوبةِ مفتوحٌ، لِمَنْ آمَنَ وعَمِل صالحًا.

ولمناسبة الحديثِ عنِ اليهود المُتعلِّقين بالنِّعم أكثرَ من تَعَلُّقِهم بالمُنْعِم ﷻ، حثًّا لهم، ومزيدَ ترغيب.

فائدةُ إضافة الرّبِّ إلى ضمير الغَيبة في قوله: ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

في إضافةِ الرَّبِّ إلى الضَّميرِ مزيدُ لُطفٍ بهم، وإيذانٌ بأنَّ أجرَهم مُتَيَقَّنُ الثُّبوت، مأمونٌ منَ الفوات[5].

نكتةُ اقترانِ الخوف بالحُزنِ:

انتفاءُ الخوفِ من المُستقبلِ والحزنِ على الماضي، تمامُ السَّعادةِ النَّفسيَّةِ

الفرقُ بين الخوفِ والحزنِ أنَّ الخوف على المتوقَّع، والحزنَ على الواقع والماضي، وفيه نظر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ﴾ [يوسف: 14]، ويمكن أن يُدفع بأنَّ المرادَ أنَّه يَحزُنُني قصدُ ذهابكم به[6]، فالحزنُ يقعُ بعد الذَّهابِ، فهو على الواقع والماضي.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/523.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/523.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/1985.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/63.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/108.
(6) بهاء الدين الهمذاني، الكشكول: 2/35.

و(الخوفُ) في لغةِ العربِ: هو الغَمُّ من أمرٍ مستقبِلٍ خاصةً.

و(الحزنُ) في لغةِ العربِ: هو الغمُّ من أمرٍ قد فاتَ وَمَضَى، تقولُ: "فلانٌ أُصِيبَ بالأمسِ، فهو اليومَ حزينٌ" وتقولُ: "فلانٌ خائفٌ" أي: يَغْتَمُّ مِنْ أمرٍ مستقبلٍ[1].

ومِمَّا سبق يَتَبَيَّنُ مناسبةُ نَفي الحُزن خاصةً، دون سواه مما يقاربُه في المعنى؛ لأنه يدلُّ على نَفي حصولِ خُشونة في النَّفس، بسبب الغمِّ على ما مضى، و يشملُ نفي أسبابه من باب أولى، ولا يحسُنُ لفظٌ سواه مجاوِرًا لنفي الخَوف إلا نفيُ الحُزن؛ لِتَحْصُلَ السعادةُ الأبديةُ، وهذا لا يكون إلَّا في الجنَّةِ، وفيه بيانُ أنَّ حالَ الإنسانِ في الدُّنيا لا يخلو منهما.

سرُّ ذكرِ الخوفِ بالاسمِ والحُزن بالفعل المضارع:

يدلُّ نفيُ المضارع ﴿يَحْزَنُونَ﴾ على دَيمومة النَّفي في المُستقبل

كما يدلُّ إثباتُ المضارع على الدَّيمومة في قولِهم: هو يُعطي ويَمنع، كذلك يجيء نفيُه، وجاء حرفُ النفي لا؛ لأنها أوسعُ في نفي المضارع من ﴿مَا﴾، وأدلُّ على انتفاء الحُزن في المستقبل، أي: هم ممَّن لا يقبل أن يَحزن[2]، ولـمَّا كان الحزنُ على الفائت، فكأنه انتفى حدوثُه في كلّ الأوقات، وجاء في الحزن بلفظ ﴿هُمْ﴾ لاستبطانه، وبالفعل؛ لأنه بادٍ من باطن تفكُّرهم في فائتهم، وجاء نفيُ الخوف منعزلًا عن فعلهم؛ لأنه من خوف بادٍ عليهم من غيرهم[3].

العُدولُ عن المُفرَد إلى الجُملة في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

قصْرُ نَفي الحُزن عن أهلِ الجنَّةِ، وإثبـاتـه لأهـل النَّارِ

عدلَ عن المُفرد بأنْ يقال: (ولا حزنَ) إلى الجملة؛ ليَتَأَتَّى بذلك بناءُ الـمُسند الفعلي على ضميرهم، فيدلُّ على أنَّ الحزن واقعٌ بغيرهم، وهم الذين كفروا، فإنَّ بناء الخَبر الفِعلي على الـمُسنَد

(1) الشنقيطي، العذب النمير: 1/284.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/299.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 1/299.

إليه المتقدِّم عليه يُفيد تخصيصَ المُسند إليه بذلك الخبر (قصر صفةٍ على موصوف).

كما أنَّه يُفيدُ - بمفهوم المُخالفَة - بأنَّ الذين كفروا يَحزنون؛ ليكونَ كالمقدِّمة للخبر عنهم بعد ذلك بأنَّهم أصحابُ النار، هم فيها خالدون.

توجيهُ القِرَاءَاتِ القُرآنِيَّةِ:

الخوفُ على القراءتين مَنفيٌّ عن أهلِ الجنَّةِ قليلُه و كثيرُه

قرأ الجمهورُ: ﴿فَلَا خَوۡفٌ﴾ بالرفع والتنوين، وقرأ يعقوبُ: ﴿فَلَا خَوۡفَ﴾ بالفتح من غير تنوين[1] على النَّصب بـ ﴿لا﴾ التي للتَّبرئة يعني النافيةَ للجنس، "وقد نفى الخوفَ نفيَ الجنس بـ﴿لَا﴾ النافيةِ له، وجيء باسمها مرفوعًا؛ لأنَّ الرَّفع يساوي البناءَ على الفتح في مثل هذا؛ لأنَّ الخوف منَ الأجناس المعنوية، التي لا يُتوهّمُ في نفيها أن يكون المرادُ نفيَ الفرد الواحد، ولو فُتح مثلُه لصحَّ، ومنه قول الرابعة من نساءِ حديثِ أمّ زَرْع: «زَوۡجِي كَلَيۡلِ تِهَامَةَ، لا حَرٌّ ولَا قُرٌّ، ولَا مَخَافَةَ ولَا سَآمَةَ»[2]، فقد روي بالرفع والفتح[3]، فالخوفُ على القراءتين منفيٌّ عن أهل الجنة قليلُه و كثيرُه.

سِرُّ تقديم نَفيِ الخوف على نفيِ الحُزن:

الخوفُ أشدُّ الأمرين، والحزنُ أقعدُ الحالين

لـمَّا كان الخوفُ أشدَّ؛ لأنه يزداد بمرّ الزّمان، واقترابِ المخوفِ منه، والحزنُ يخفُّ، مع توالي الأيَّام، قُدِّمَ الخوفُ فقال: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: من شيء آتٍ، فإنَّ الخوفَ اضطرابُ النفس من توقّع فعل ضارّ، ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: على شيء فائت؛ لأنهم يَنجَوْنَ منَ النّار، ويَدۡخُلُونَ الجنَّةَ[4]، والخوفُ وإن كان أشدَّ إلَّا أنَّ الحزنَ إذا لازمَ صاحِبَه أقعدَه عن العملِ، وأذهبَ عنه لذَّةَ الأملِ.

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/211.

(2) البخاري، حديث رقم: (5189)، ومسلم، حديث رقم: (2448).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/110.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 1/299.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

وجهُ الاقتصارِ في الآية، على ذكر هذه الأديان الثّلاثةِ مع الإسلام دون غيرها من نحو المَجوسيةِ والدَّهريين والزَّنادقة أنَّ هذا مقامُ دعوتهم للدُّخول في الإسلام، والمتابِ عن أديانهم، التي أُبطِلتْ؛ لأنهم أرجى لقَبول الإسلام منَ المَجوس والدَّهريين؛ لأنهم يُثبتون الإلهَ المتفرِّدَ بخلق العالَم، ويَتبعون الفضائلَ على تفاوتٍ بينهم في ذلك، ألا ترى أنَّه ذكر المجوسَ والمشركين معهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ [الحج: 17]؛ لأنَّ ذلك مقامُ تثبيتٍ للنّبيّ ﷺ والمسلمين[1]، فذكرَ المخاصمين له من معظمِ الأصنافِ، لأنَّ المقامَ مقامُ خصومةٍ ومفاصلةٍ؛ فإنَّ أصحابَ الأديانِ إمَّا أن يكونوا على طرفِ الدَّعوةِ لقبولِ الهدايةِ، كما هو في آية البقرةِ، وإمَّا على طرف العداوةِ والخصامِ، كما هو في آيةِ الحجِّ، فذكرت كلُّ آيةٍ الأصنافَ بحسبِ الاعتبارِ المفهومِ من السِّياق.

مقامُ أصحابِ الأديانِ من الإسلامِ ما بين هدايةٍ ومُخاصمةٍ

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيّ:

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وقال في سورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: 69]، وفى سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: 17].

سرُّ التَّقديم والتَّأخير بين الأصنافِ:

إنَّ المؤمنين أحقُّ بالتَّقديم، وهم أهلُ الخطاب والمُتكلَّمُ معهم فى الآي قبلُ، فهم من حيث أحوالُهم معظمُ من قُصد بالخطاب والتَّأنيس، ثم إنَّ أهلَ الكتابين يَلُون المؤمنين؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/520.

فإنَّهم ليسوا كافرين بكلِّ الرُّسل، ولا مُنكرين كلَّ الرُّسل، ولا منكرين لكلّ ما أُنزِلَ منَ الكُتب، فقد كانوا أقربَ شيءٍ لولا التَّبديلُ والتَّغييرُ والتَّحريفُ المُقدَّر وقوعُه عليهم، فإنَّهم قد قدَّم إليهم فنَكَثُوا ونَقَضُوا وكَفَرُوا بمن قدَّم إليهم من أمره، واليهود أقدمُ تعريفًا وأسبقُ زمانًا، فلمّا اجتمع الأصنافُ الثّلاثةُ في أنَّهم أهلُ الكتاب والمُقِرُّون بالبَداءة والعودةِ وإرسالِ الرُّسل على اختلاف حالاتِهم في ذلك وأزمانِهم، كان تقديمُهم على غيرهم أوضحَ شيءٍ على الوارد في سورة البقرة، إلا أنَّ ذكرَهم لم يقع بحرفٍ مُرَتَّبٍ بل وقع الاكتفاءُ بترتيب الذِّكر؛ لاستوائهم في الغايات منَ استواء العواقب، وإنَّ الفائزَ منَ الكلِّ إنما هو من كانت خاتمتُه في دار التَّكليف الموافاةَ على الإيمان والإسلام و ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13]، وإنَّ المُوافى في الكلِّ على الكفر في النّار، ثم عذابُهم بحسب جرائمهم جزاءً وفاقًا، فرُتِّبُوا ذكرًا بحسَبِ حالِهم الدُّنياوي، ولم يتقعّد التَّرتيُب بالحرف المرتَّب لحَظًا لحالِهم الأخراوي، فجرى ذكرُهم في سورة البقرة على هذا، وأُخِّرَ ذكرُ الصَّابئين لتأخُّرهم عن هؤلاء الأصنافِ في أنّهم ليسوا من أهل الكِتاب، أو ليسوا مثلَهم في ما وراء ما ذُكِر من أحوالِهم، فإيرادُ ذكرِهم على ما في سورة البقرة بيِّنٌ[1].

ثم قُدِّم ذكرُ الصَّابئين فى سورة المائدة وزيادةُ بيانٍ للغرض المذكور، من أنَّه لا ترتيبَ فى الغاية الأخراوية إلا بنظرٍ آخرَ، لا بحسب الدُّنياوى، والاشتراك فيما قبْلَ المُوافاة، بل المُستجيب المؤمن منَ الكلّ مُخَلَّصٌ والمكذب مُتَوَرِّطٌ، ثمّ مراتب الجزاء بحسب الأعمال، فأوضح تقديمُ ذكر الصَّابئين في سورة المائدة ما ذكرناه[2].

لقد جاءت هنا في مكانها ودون كسرٍ للإعراب، وهي قد جاءت مرةً قبل كلمة (النَّصارى)، وجاءت مرةً أخرى بعد كلمة (النَّصارى)، وهنا لا بدَّ أن نتعرّفَ على زمنية الصَّابئين، فقد كانوا قوماً متقدِّمين قبل مجيء النَّصرانية، فإنْ أردنا أن نعرفَ زمانَهم نجدُ القولَ الحقَّ يقدمُّهم على النَّصارى، وإنْ أردنا أن نعرف منزلتَهم فإنَّنا نقرؤها في موضع آخرَ منَ القرآن ونجدُهم يأتون بعد (النصارى)، إذن فعندما أرّخ الحقُّ لزمانهم

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/43.

(2) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/43.

جاء بهم متقدِّمين، وعندما أرّخ لكمِّهم وعددِهم ومقدارِهم يؤخّرُهم عنِ النَّصارى؛ لأنهم أقلُّ عددًا فهم لا يمثِّلون جمهرةً كثيرةً كالنَّصارى[1].

تخصيصُ آيةِ البقرة بقوله تعالى: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾:

خُصِّصَت آيةُ البقرةِ بقولِه: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ وقد تقدّم في المائدة ما يُعطيه ويُحرزه فاكتُفيَ به، ألا ترى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المائدة: 65]، " تفسيرٌ بيّنٌ للأجر الأخراوي المُجمَل في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ إلى آخر الآية، فقد حصلَ ما في سورة المائدة مفصَّلًا مبيَّنًا ما ورد في البقرة مُجملًا، فلو قيل في آية المائدة فلهم أجرُهم لكان تكرارًا ورجوعًا إلى الإجمال بعد التّفصيل، وذلك عكسُ ما ينبغي.

فقولُه: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: أنَّه غفرَ لهم ما فعلوا من سُوءٍ، وجزاهم على عملهم الصَّالح الذي لم يُحبِطوه، ويُذهِبوه بعمل السَّيّئات والآثام، هذا ما يتعلّق بالآيتين؛ آية سورة البقرة، وآية سورة المائدة، ونلاحظ أنَّ آية سورة المائدة لم يرد فيها قولُه: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، ولعلَّ ذلك راجعٌ إلى الاكتفاء بذكرها في سورة البقرة، وذلك له نظيرٌ في القرآن الكريم، كحمل المُطلق على المقيّد.

أما في آية سورة الحج فهي التي يأتي فيها الحكمُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [الحجّ: 17] كأنَّهم لن يؤمنوا، ولن يعملوا الصَّالحَ، فتكون هذه هي التَّصفية العقديةُ في الكون[2].

السِرُّ البلاغيُّ في رفع ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ في سورة المائدة:

قُدّم: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ على خبر إنَّ، وهو مبتدأ، أي: الصَّابئون كذلك؛ وذلك لأنَّ الصَّابئين أشدُّ هذه الفرق، ويُظنُّ أنَّهم لا يستوون مع غيرهم، فأُقحم للدّلالة على التَّساوي.

"وجاء بها الحقُّ مرّةً منصوبةً ومرّةً مرفوعةً، لنعرفَهم ونلتفتَ إليهم، وكسرُ الإعراب كان لمقتضى لَفْت الانتباه"[3].

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 6/3295.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 6/3295.

(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 6/3295.

سببُ ذكر المَجوس والذين أشركوا في سورة الحجّ:

ورد اسمُ الصّابئين في المائدة بالرَّفع؛ تنبيهًا على الغرَضِ المذكور، وتأكيدًا للّتسوية في الحُكم، وإذا اتَّفقوا في المُوافاة على الإيمان، فنبَّه التَّقديمُ على هذا كما تقدَّم وزاد القطعُ على الرَّفع تأكيدًا؛ لأنَّ قطعَ اللَّفظ عنِ الجَريان على ما قبله مُحرِّكٌ للفظ توجيهه..، وكأنَّه لما ذكر حُكمَ المذكورين سواهم، قيل: والصَّابئون كذلك، أي: لا فرقَ بين الكُلِّ في الحُكم الأخراوي، وهو على هذا التقدير أوضحُ شيءٍ فيما ذُكر، وأمَّا على طريقة الفرّاء ومن قال بقوله مِنْ حَمْلِه على الموضع ففيه التّقديمُ، وأنَّ التَّحريكَ القطعيَّ في اللّفظ وإن لم يكن مقطوعًا في المعنى، لا يكون إلا لإحراز معنى وليس إلا ما تقدَّم، وآيةُ سورة الحجّ إنما وردتْ مُعَرِّفةً بمن ورد في القيامة على ما كان من يهوديةٍ أو نصرانيةٍ أو غيرِ ذلك، والآي الأُخر فيمن ورد مؤمنًا، فافترق القَصدان واختلف مساقُ الآي بحسب ذلك[1].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأَجر والثّواب والجزاء:

الأَجْر في الأصل مصدرٌ، يقال: أَجَرَهُ اللّه يَأْجُرُه أَجْرًا، وقد يُعَبَّر به عن نفس الشَّيء المُجازَى به، والآية الكريمة تحتملُ المَعنيين[2]، والأُجرة في الثّواب الدُّنيوي[3].

والثَّواب: ما يرجعُ إلى الإنسان من جزاء أعماله، والثَّوابُ يقال في الخير والشّرّ، لكنَّ الأكثرَ المتعارفَ في الخير[4].

والجزاء: الغَناء والكفايةُ، وما فيه الكِفايةُ منَ المقابلة، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًا فشرٌ[5].

الثَّوَاب وَالأَجْر:

فَرّق أبو هلال العسكريُّ بينهما بقوله:

"إنَّ الأَجْرَ يكون قبْل الفِعْل المَأْجُور عليه، والشَّاهِدُ أَنَّك تَقول: مَا أعملُ حَتَّى أَخذَ أجري، ولا تَقول: لا أعملُ حَتَّى أَخذ ثوابي؛ لِأَنَّ الثَّوَابَ لَا يكونُ إِلَّا بعد العَمَل على مَا

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/43.

(2) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 1/187.

(3) الرّاغب، المفردات: (أجر).

(4) الرّاغب، المفردات: (ثوب).

(5) الرّاغب، المفردات: (جزأ).

ذكرنَا، هذا على أَنَّ الأجر لَا يُسْتَحق لَهُ إِلَّا بعد العَمَل كالثَّواب، إِلَّا أَنَّ الاِسْتِعْمَال يجْرِي بِمَا ذَكرْنَاهُ، وَأَيْضًا فإنَّ الثَّوَاب قد شُهر فِي الجَزَاء على الحَسَنَات، وَالأَجْر يُقَال فِي هذا الـمَعْنى، ويُقَال على معنى الأُجْرة التي هي من طرِيق الـمُثامنة بِأَدْنَى الأَثْمَان، وفيها معنى الـمُعَاوضَة بِالِانْتِفَاع"[1].

الخَوف والحذر:

أَنَّ الخَوْفَ توقُّعُ الضَّرَر الـمَشْكُوك في وُقُوعه، والحذر توقِّي الضَّرَر، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَـٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التغابن: 14]، وسواء كَانَ مظنونًا أَو متيقّنًا، والحذرُ يدْفع الضَّرَر، والخَوْف لَا يَدْفَعُهُ؛ ولهذا يُقَال: خُذ حذرك، ولَا يُقَال: خُذ خوفَك[2].

الخَوْف والخَشية:

أَنَّ الخَوْف يتَعَلَّقُ بالمكروه، وبتَرك الـمَكْرُوه، تَقول: خِفْتُ زيدًا، وتقول: خفت الـمَرَض، كما قال سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد: 21]، والخشية تتَعَلَّق بِمُنزل الـمَكْرُوه، ولا يُسمَّى الخَوْف من نفس الـمَكْرُوه خشيَة؛ ولهذا قالَ: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد: 21][3].

وأصلُ الخَشية: الخوفُ مع التَّعظيم؛ ولذلك خُصَّ بها العلماءُ[4].

والخَشية: أَشدُّ منَ الخَوْف؛ لِأَنَّهَا مأْخُوذَةٌ من قَوْلهم: شَجَرَةٌ خاشية: أَي يابسة، وهو فَوَات بِالكُلِّيَّة، والخَوْفُ: النَّقْصُ، من نَاقة خوفاء: أَي بها داءٌ وليس بفَوَات، ولذَلِك خُصَّت الخَشيةُ بِاللَّه فِي قَوْله: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾، والخَشيةُ تكون من عِظَم الـمَخْشِيّ وإِن كَانَ الخاشي قَوِيًّا، والخَوْفُ يكونُ من ضَعفِ الخَائِف وإِن كَانَ المخوف أمرًا يَسِيرًا[5].

الخَشية والشَّفقة:

والإشفاقُ عنايةٌ مختلَطة بخوف؛ لأنَّ الـمُشْفِقَ يُحِبُّ الـمُشفَقَ عليه، ويَخاف ما يَلحقُه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 49]، الخَشيةُ

---

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 237.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 240.
(3) الكفوي، الكليات: فصل الخاء، ص: 428.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/64.
(5) الكفوي، الكليات: فصل الخاء، ص: 428.

والإشفاقُ متقاربانِ في المعنى، والفرقُ بينهما: أنّ المنظور في الخَشية جانبُ المَخشيّ منه، وهو عظمتُه ومهابتُه، وفي الإشفاق جانبُ المخشي عليه، وهو الاعتناءُ بشأنه، وعدمُ الأمن مِنْ أن يُصيبَه مكروهٌ[1].

فالشَّفَقةُ ضربٌ منَ الرِّقَّة وضَعفِ القلب، ينَالُ الإِنْسَانَ، وَمن ثَمَّ يُقَال للأُم إِنَّهَا تُشفق على ولَدها، أَي: تَرِقُّ لَهُ، ولَيْسَت هي منَ الخَشية وَالخَوْف في شَيْء، والشّاهدُ قَوْلُه تعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ [المؤمنون: 57]، ولو كانت الخشيةُ هي الشَّفَقَةُ، لما حَسُن أَن يقول ذَلِك، كما لا يَحْسُنُ أن يقولَ: يَخْشونَ من خشيَةَ رَبّهم، ومن هذا الأَصْل قَوْلُهم: ثوبٌ شَفِقٌ إِذا كَانَ رَقِيقًا وشُبِّهت بِهِ البداة؛ لِأَنَّهَا حُمْرَةٌ لَيست بالمُحْكَمَة، فقولُك أشفقتُ من كذا معناه: ضعف قلبِي عن احْتِمَاله[2].

الخَوْف والرَّهبة:

أَنَّ الرَّهبة طولُ الخَوْف واستمرارُه، قال تعالى: ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ [الأعراف: 154]، ومن ثَمَّ قيل للرّاهب رَاهِبٌ؛ لِأَنَّهُ يُديم الخوفَ، وأصلُه من قَوْلهم: جَمَلٌ رهْب، إِذا كان طويل العِظَام مشبوحَ الخلق[3].

التَّخويف والإنذار:

أَنَّ الإِنْذَار تخوِيف مع إعلام موضِع المَخافة، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: 45]، من قَوْلك: نَذِرْتُ بالشَّيْء، إِذا عَلِمْتَه، فاستعْدَدْتَ لَهُ، فَإِذا خوَّفَ الإِنْسَانُ غيرَه، وأعلمَه حالَ ما يخوِّفه بِهِ، فقد أنذره، وإِن لم يُعلمهُ ذَلِك لم يُقَلْ: أنذره[4].

الخَوْف والهَلَع:

والهَلَع هو أَسْوَأ الجزع، وقيل: الهلوعُ على ما فسَّره اللّه تعالَى في قوْله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١﴾ [المعارج: 19-21]، ولَا يُسمَّى هلوعًا حتَّى تُجمَعَ فيه هذه الخِصَالُ[5].

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 5/469.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 240.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.
(4) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.
(5) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.

الخوف والفَزَع:

الفَزَعُ مفاجأةُ الخَوْف، عِنْد هجوم غَارةٍ، أَو صوت هَدَّة وما أشبه ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: 51]، وهو انزعاجُ القلب بتوقُّع مَكْرُوهٍ عَاجلٍ(1).

الخَوْف والوَجَل:

أَنَّ الخَوْف خلافُ الطُّمَأْنِينَة، وَجِل الرجل يوجَلُ وجلًا، وإذا قلت: وَلم يطمئن، ويُقَال: أَنا من هذا على وَجَلٍ، ومن ذَلِك على طُمأنينة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]، لَيْسَ الوجلُ منَ الخَوْف في شَيْء، وخاف مُتَعَدٍّ، ووجل غيرُ مُتَعَدٍّ، وصيغتاهما مُخْتَلِفَتَانِ أَيْضًا، وَذَلِكَ يدلُّ على فرق بَينهمَا فِي المَعْنى(2).

الاتِّقاء والخشية:

أَنَّ في الاتِّقاء معنى الاحتراس مِمَّا يُخَاف، وليس ذلك في الخشية، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: 131].

الخَوْف والبأس والبُؤس:

أَنَّ البَأْس يجْرِي على العدَّة منَ السِّلَاح وغَيرهَا، ونَحْوُه قَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: 25]، وَيُسْتَعْمل فِي مَوضِع الخَوْف مجَازًا فَيُقَال: لَا بَأْس علَيْك، ولا بَأْس في هذا الفِعْل، أَي: لا كَرَاهَة فيه(3).

مناسبةُ نفيِ الخَوف للسِّياق دون سواه مما يرادفُه:

وممّا سبق يَتبيّنُ أنَّ نفيَ الخَوف أبلغُ من نفي ما سواه منَ الألفاظ الأخرى المتقارِبة؛ وذلك لأنَّ الخوفَ يكون من أمرٍ في المُستقبل مظنونٌ به الضُّرُّ أو الشَّرُّ أو المكروهُ، ونفيُ هذا المعنى يستلزم نفيَ ما عداه.

الحُزن والكرب:

الفرق بين الحُزن والكرب أَنَّ الحُزنَ تكاثفُ الغَمِّ وغلظُه مأْخُوذَةٌ منَ الأَرْض الحَزَن، وهو الغَليظُ الصُّلْب، والكَرب تكاثفُ الغَمِّ مع ضِيق الصَّدْر، قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.

(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.

قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: 76]، ولهذا يُقَال لليوم الحَارِّ: يَوْمٌ كَربٌ أَي: كَرْبٌ مَن فيه، وقد كَربَ الرجلُ وهو مَكْروبٌ وقد كَربه إذا غمَّه وضَيّقَ صَدرَه[1].

الكُرْبَة: هي أَشدُّ منَ الحزن والغَمِّ، ويُقَال: هو الحزن الَّذي يُذيب القلبَ، أَي: يُحيِّره ويُخرجه عن أَعمال الأَعْضَاء، ورُبَّما أهلك النَّفسَ[2].

الغمّ والحَسْرَة والأسَف:

أَنَّ الحَسْرَة غمٌّ يَتَجَدَّد لفَوْت فَائِدَةٍ، قال تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [يس: 30]، فلَيْسَ كلُّ غمٍّ حسرةً، والأسفُ حسرةٌ معها غضبٌ أَو غيظٌ، ثمَّ كثُر ذلِك حَتَّى جَاءَ في معنى الغَضَب وحدَه[3].

الحُزن والبَثّ:

إنَّ قَوْلَنَا: الحُزن يُفِيد غِلَظَ الهَمِّ، وقَوْلُنا: البثُّ يُفِيد أَنه يَنبَثُّ وَلَا يَنكتمُ، من قَوْلك: أبثثْتُه ما عِنْدي، وبَثثْتُه إذا أعلمتُه إيَّاه، وأصلُ الكَلمَة كَثْرَةُ التَّفْريق، ومِنْه قَوْلُه تعالَى: ﴿كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: 4]، وقال تعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86]، فعطفَ البثَّ على الحُزن؛ لما بَينهما منَ الفرق في المَعْنى، وهو ما ذَكرْنَاهُ[4].

فالبَثُّ: أشدُّ الحُزن[5]، فكأَنَّه من شدَّتِه لا يستطيع المرءُ كتمانَه، فيَبُثُّه إلى من يُتوقّعُ منه السُّلوانُ والتَّسرية.

الحُزن والغضب:

الغضب: ثورانُ دم القلب إرادةَ الانتقام[6]، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ﴾ [الأعراف: 154]، وقد سُئِلَ ابْن عَبَّاس عَن الحُزن وَالغَضَب فَقَالَ: مَخرجُهما وَاحِدٌ وَاللَّفْظ مُخْتَلف، فَمن نَازع من يقوى عَلَيْهِ أظهر غيظًا وغضبًا، وَمن نَازع من لَا يقوى عَلَيْهِ أظهر حزنًا وجزعًا[7].

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 267.
(2) الكفوي، الكليات، فصل الكاف، ص: 772.
(3) الكفوي، الكليات، فصل الكاف، ص: 772.
(4) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 267.
(5) الكفوي، الكليات، فصل الألف والسين، ص: 114.
(6) الرّاغب، المفردات: (غضب).
(7) الكفوي، الكلّيّات، فصل الألف والسين، ص: 114.

الحُزن والأسَى:

والأسَى: حُزنٌ على الشَّيْء الَّذِي يفوت، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 93].

بلاغةُ الآية مع ما يُشابهُها:

تشابهُ ختام هذه الآيـة الكريمةِ مع ختامِ قصّةِ آدمَ عليه السلام

في ختام قصّةِ آدمَ عليه السلام ورد قولُه تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]، وورد الختامُ ذاتُه في نهاية الآية الكريمة إشارةً إلى أنَّ ما كان من أمر اليهود منَ العصيان والطُّغيان والجحود والنُّكران، ثم فتحِ بابِ التَّوبة والإنابة لمن آمن منهم، كُلُّ هذا كان أنموذجًا لأمّة أُنزل عليها وحي، فكان لهم موقفٌ من هذا الوحي؛ لتتعلمَ الأمَّةُ من هذا الأنموذج العبرَ والدّروسَ.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٦٣ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٤﴾ [البقرة: 63-64]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهما:

بعد أنْ أطمعَ اللّٰه تعالى بالآية السابقة بني إسرائيلَ في رحمته بعدما قرّعهم بالنُّذُر التي تكاد تُوقع اليأسَ في قلوبهم، عقَّب ذلك الإطماعَ بالتَّذكير ببعض الوقائع التي استحقُّوا فيها العقوبةَ، فحالت دون وقوعها الرّحمةُ، فقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ وهو العهدُ الذي أخذه عليهم(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾: الميثاقُ والـمُواثَقَةُ: المعاهدةُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة: 7]، وأَوْثَقَهُ في الوَثاقِ، أي شدَّهُ، وقال تعالى: ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمد: 4]، والوِثاقُ بكسر الواو لغةٌ فيه، والوثيق: الشَّيء الـمُحكم، والجمع وَثاق، وقد وثُقَ بالضمِّ وَثاقَةً، أي صار وَثيقًا، ويقال: أخذ بالوَثيقَةِ في أمره، أي بالثِّقَةِ، وتَوَثَّقَ في أمره مثله، ووَثَّقْتُ الشَّيءَ توثيقًا فهو مُوَثَّق، وناقةٌ مُوَثَّقَةُ الخَلْقِ، أي مُحْكَمَتُه، ووَثَّقْتُ فلانًا، إذا قلتُ إنَّه ثِقَةٌ واسْتَوْثَقْتُ منه، أي أخذت منه الوثيقةَ(2).

والميثَاقُ: العَهْدُ، مِفعالٌ مِنَ الوِثَاقِ، وهوفي الأَصْلِ حَبْلٌ أَوْقَيْدٌ يُشَدُّ بِهِ الأَسِيرُ والدَّابَّة(3).

والـمِيثاق: عقد مؤكَّد بيمين أو عهد، يقال: أوثقتُ كذا ووثقته ووثق به ثقة، ثم قيل: رجلٌ ثقةٌ، وقومٌ ثقةٌ، فاستعير لفظُها للموثوق به، والميثاقُ الذي أُخذ منهم ما ذكره اللّٰه تعالى في قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: 83]، وفي قوله:

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/281.
(2) الجوهري، الصِّحاح: (وثق).
(3) ابن الأثير، النهاية: (وثق).

﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾ [المائدة: 12]، وفي قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ﴾[1] [آل عمران: 81].

2) ﴿ٱلطُّورَ﴾: قال ابن عباس: الطُّور كلُّ جبل يُنبِتُ، وكلُّ جبل لا يُنبِتُ فليس بطور، قال القاضي ابنُ عَطِيَّة رحمه الله: وهذا كلّه على أنَّ اللّفظة عربيةٌ، وقال أبو العالية ومجاهد: هي سُريانيّةٌ اسمٌ لكلّ جبل[2]،، والطُّور بالسُّريانية طُورًا، أعربته العربُ فقالت: طور، وأجروا عليه الإعراب، وأدخلوا عليه الألف واللام فصار من كلامهم[3]، وقال بعضُهم: إنَّ الطّور اسمُ جنس للجبال في لغة الكنعانيّين، نُقل إلى العربية[4].

والطُّور: قيل: هو اسمٌ لجبل مخصوص، وقيل: هو اسمٌ لكلّ جبل يُنبتُ شيئًا[5].

والطُّور في الآية: هو الجبلُ المعروف الذي ناجى عليه الله موسى عليه السلام، وهو الذي رفعَه فوق بني إسرائيل؛ كما جاء في سورة الأعراف، فقال: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾[6] [الأعراف: 171].

3) ﴿بِقُوَّةٖ﴾: القُوَّةُ تستعمل تارة بمعنى القدرة، وتارة للتهيُّؤ الموجود في الشَّيء، نحو أن يقال: النَّوى بالقوَّة "نخلة"، أي متهيّأ ومترشّحًا أن يكون منه ذلك، وتستعمل القوَّة في البدن تارة، وهو الأظهر، وتارة في النفس، ولـمَّا كانت القوَّة للشدَّة الموجودة في الشَّيء سُمِّيت المفازة قوى - تصوُّرًا منها ذلك، ثم قيل: أقوى فلان، إذا صار في قوى، أي قفر، وتصور من حال الفقر، فاستعير الأقوى للافتقار استعارة قولهم أَتْرب وأَرْمل، لذلك، فقوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ أي: تعاطَوْا ما فيه بعلم ودراية، فالعلم هو الذي يُقَوِّي الإنسان، ويُبَلِّغه المقصود في أمور الدين، وقال الضحّاك: ﴿بِقُوَّةٖ﴾: أي بطاعة الله، وذلك لما روى " أقوى الناس من أطاع الله

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب الأصفهاني: 1/216.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/158.
(3) سَلَمة الصّحاري، الإبانة في اللغة العربية، ص: 104.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/542.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/542.
(6) المراغي، تفسير المراغي: 1/135.

واتَّقاه "، وقيل: بقوَّة، أي بعمل ما فيه، وذلك صحيح بنظر؛ فإنَّ تعاطي كلَّ جزء منَ العمل الصالح يقوِّي الإنسانَ على ما فوقه.

4) ﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾: الذِّكرُ ذِكران، ذِكْرٌ باللِّسان، وذِكْرٌ بالقلب، وأنه يُتَجَوَّز به في الحفظ والمُراعاة، فيقال: اذكر كذا، كما يقال في التَّرك: النِّسيان[1].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ذكر سبحانه في هاتين الآيتين بيانًا لطبيعة اليهود الغادرةِ، وفضحًا لهم كيف أنَّهم يرفضون رسالةَ رسولهم، مع ما أنعم اللّه به عليهم، نِعمًا ما أعظمَها، وما أَوْلاها بالتَّلقِّي بالشُّكر والولاء للمُنعم، ولكنْ أنَّى للعُمْي أن يُبصروا، وللصُّمِّ أن يسمعوا؟

وهذه جنايةٌ أخرى حدثتْ من أسلافكم -أيها المخاطَبون وقتَ التَّنزيل - ذاك أنّه بعد أن أخذ اللّه عليهم المواثيقَ المؤكَّدة منكم بالإيمان باللّه وإفراده بالعبادة، فقبلوها، وأَراهم منَ الآيات ما فيه مَقنعٌ لهم؛ فرفعَ الجبلَ فوقهم كالظُّلّة، حتى ظنُّوا أنه واقعٌ بهم، وطلب إليهم التّمسُّكَ بالتوراةِ، والعملَ بما فيها بالجِدِّ والنَّشاط كي يُعِدُّوا أنفسَهم لتقوى اللّه ورضوانه، ثمَّ كان منهم أنْ أعرضُوا عن ذلك، وانصرفوا عن طاعته، ولولا لُطفُ اللّه بهم لاستحقُّوا العقابَ في الدّنيا، وخسروا سعادةَ الآخرة، وهي خيرٌ ثوابًا، وخيرٌ أملًا، لكنْ وفَّقهم اللّه تعالى بعد ذلك فتابوا، ورحِمَهم، فقبل توبتَهم.

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سببُ الوصل بين الجملِ:

اشـتراكُ الآيـاتِ في تَعداد قبائحِ بنـي إسرائيـل، وذكـرِ أنـواعِها المختلفة

عُطفت جملةُ ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ على ما قبلها، وهي الآيةُ المُصَدَّرة بـ (إذ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: 61]؛ لاشتراكهما في تَعداد جرائمِهم، فعاد القولُ إلى بني إسرائيل بعد أن ذكر اليهودَ والنَّصارى والصَّابئين؛ لبيان أنه لا يصحُّ أن ييأسوا من رحمة اللّه تعالى بعد ما كان منهم في ماضِيهم، وما يكون منهم في حاضرهم إن آمنوا

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/216.

باللّه حقَّ إيمانه، وبالآخرة إيمانَ إذعان ورجاء إن أطاعوا، وخوفَ العقاب إن عصَوْا.

تفصيلُ النِّعم بعد إجمالِ ذِكرِها دليلُ غفلةِ المخاطَبِ

بلاغةُ التّكرار في (إذ) الظّرفية:

تعدّد ذكرُ نعمِ اللّه على بني إسرائيل؛ لتذكيرِهم بها وبأحوالِهم معها؛ لمناسبة تَعداد النِّعم التي أنعم اللّه بها عليهم تفصيلًا، بعد ما ذَكر اللّه ﷻ نِعمَه على بني إسرائيل إجمالًا؛ ليكونَ أبلغَ في ذكرها وأَدْعى لشُكرها، فكأنَّه قال: اذكروا نِعمتي، واذكروا إذْ نجيناكم، واذكروا إذ فرقنا بكم البحرَ، واذكروا إذ واعدنا موسى، وإذ آتينا موسى الكتابَ، إلى آخر ما عدَّده منَ النِّعم عليهم، وكلُّ هذه النِّعم تستدعي شكرَ المُنْعِم جلَّ وعلا، لا كفرانَه وعصيانَه(1).

اقترانُ كثرةِ الجرائمِ مع النِّسيانِ، دليلُ بلادةِ الشُّعورِ

بلاغةُ حذفِ العامل في الظّرف (إذ):

المشهورُ أنّ العاملَ في الظَّرف في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ فعلٌ مُقدَّرٌ، أي: اذكروا إذْ، وهو مشتقٌّ منَ الذُّكر بضمّ الذّال، وهو التّذكُّر بالعقل والنَّظر، وليس ذكرَ اللّسان، وقد حُذِفَ العاملُ للتَّنبيه على تَعداد جرائِمهم، وكثرةِ نسيانهم، فهو يأمرُهم بتذكّر ذلك، ويُشيرُ النَّظم إلى أنَّ أنهم لن يذكروا إلّا قليلًا؛ فاللّه لا يخفى عن علمه شيءٌ، فهو بكلّ شيءٍ عليم.

وحذفُ العامل في نحو هذا كثيرٌ في القرآن، وذكرُ العاملِ في (إذ) جائزٌ في اللّغة، وقد ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: 69]، وقوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: 74].

---

(1) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 1/349.

وقولِه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: 86].

وقولِه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنفال: 26].

ونلْحَظُ أنَّ ذكرَ العاملِ في الظَّرف يأتي في سياق دعوةِ الأنبياء أقوامَهم أن يتذكّروا آلاءَ اللّه عليهم، ومخاطبةِ اللّه المؤمنين، وحَذْفَ العاملِ في سياق الحديث عن بني إسرائيل، وسوابقِهم مع أنبيائهم، وجحودِهم الحقَّ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمادة (أخذ) المُضافةِ إلى ضميرِ العظَمة (نا):

قــوَّةُ الأخــذِ تقتضي الحفاظَ على المواثيقِ إلَّا عند المخاريقِ

تدلُّ مادَّة (أخذ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ على تحصيل الشّيء في الحَوزة بقوَّة، وعلى المأخوذ منه الميثاقُ تنفيذُ أوامر الآخذ من دون تعقيبٍ أو اتِّباعِ هوى، وفيه إشارةٌ إلى مِنَّة اللّه تعالى ونِعمتِه على بني إسرائيل[1]، فبلاغةُ المفردةِ يظهرُ في أنَّ الأخذَ كان بهذه القوَّةِ ومع ذلك فقد صدَرَ عنهم ما صَدَر!

وقد ورد هذا التَّركيبُ ﴿أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾[2] و﴿أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[3] في حقِّ بني إسرائيل خاصةً؛ لزيادة تعظيم الميثاق المأخوذِ عليهم، وأنّ الذي تولَّى ذلك هو اللّه ﷻ، ولمناسبة ما سبق من نحو قوله: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم﴾ [البقرة: 49]، ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [البقرة: 50]، ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ [البقرة: 56]، ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ﴾ [البقرة: 59].

سرُّ إفراد الميثاق دونَ جمْعه:

جاء التعبير في قوله تعالى: ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾ بالإفراد لوجهين: قال القفَّال: إنما قال ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾ ولم يقُل: (مواثيقكم) لأنه أراد ميثاقَ كلّ واحدٍ منكم كقوله: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [غافر: 67]، أي يخرج كلُّ واحدٍ منكم طفلًا[4].

---

(1) نصر سعيد، بلاغة الكلمة، ص: 237.

(2) كما في سورة البقرة: 63، 84، 93.

(3) كما في سورة البقرة: 83، وسورة المائدة: 70.

(4) محمد علي جميل، صفوة التفاسير: 1/57.

والثّاني: أنَّه كان شيئًا واحدًا أُخِذَ من كلٍّ واحدٍ منهم، كما أُخذ على غيره، فلا جَرَم كان كلُّه ميثاقًا واحدًا، ولو قيل: (مواثيقكم) لأشبه أن يكون هناك مواثيقُ أُخِذَتْ عليهم لا ميثاقٌ واحد[1].

دلالة إضافةِ الميثاق إلى ضميرِ المخاطَبين:

لأنَّه تعالى إنما أخذ ميثاقَهم لمصلحتِهم، فصار ذلك من إنعامِه عليهم[2]، وفيه زيادةُ تنبيهٍ إلى أنّ المخاطَبين به مُطالَبون بهذا الميثاق كأسلافِهم؛ و"لتحميلِ الخلَف تبعاتِ السَّلف؛ كيلا يقعُوا في مثلِها، ولِيستغفِروا لأسلافهم عنها"[3].

سرُّ ذكرِ ﴿ٱلطُّورِ﴾ هنا و﴿ٱلْجَبَلَ﴾ في الأعراف:

الجبلُ بِثِقَلِه يُناسبُ الحديثَ عن نَتْقِه، والطُّورُ يناسبُ الحديثَ عن رَفْعِه

يُلحَظُ أنَّ النَّتْقَ بمعنى الفصْل والقَلْع مقدَّمٌ في الفعل على الرَّفع، فناسبَ ذكرَ النَّتْق في سورة الأعراف المكيةِ، وذكرُ ﴿ٱلْجَبَلَ﴾ مع القلع أنسبُ؛ لبيان عظمةِ الفاعل، وعِظَم الفِعْلِ، كما ناسبَ ذكرَ الرَّفع في سورتّي البقرة والنساء المَدَنِيَّتَيْن[4]، وإيقاعُ الرَّفع على اسم ﴿ٱلطُّورِ﴾؛ لمناسبة الرَّفع في الهواء، "وطابق لفظُه الطّورَ أي: الفَناءَ و"طار يطُور لسرعة المشي، كما أنَّ طار يطير للسِّباحة في الهَواء"[5]، ولدلالتِه على الامتداد بإزائهم فوقَهم، فلا يَستطيعون منه فِكاكًا، ولذلك سُمّي جبلُ سَيناء بالطُّور؛ لدوران ماء البحر حولَه؛ إذ هو زاويةُ شبهِ جزيرةِ سَيناء المُمتدّةِ في البحر الأحمر، وكأنّ معنى الاسم: المَدُورُ حولَه[6]، قال أبو جعفر: وأمّا الطّور؛ فإنه الجبلُ في كلام العرب، ومنه قول العجّاج[7]:

دانَى جَنَاحَيْهِ مِنَ الطُّورِ فَمَرّْ *** تقضي البازي إذا البازي كسر

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/538.
(2) الرازي، التّفسير الكبير: 3/537.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/542.
(4) في الآيتين (63، 93) من سورة البقرة، والآية (154) من سورة النساء.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/216.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طور).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/157.

بلاغةُ الإيجازِ بالحَذْفِ في قولِه: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾:

اختلَف أهلُ العربيّة في تأويل قولِه تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾؛ فقال بعضُ نحْويِّي أهلِ البَصرة: هو ممّا استُغنيَ بدلالة الظَّاهر المذكور عما تُرك ذكرُه له، وذلك أنَّ معنى الكلام: ورفعنا فوقَكم الطّورَ، وقلنا لكم: خذوا ما آتيناكم بقوّة، وإلا قَذفناه عليكم[1]؛ ففيه إيجازٌ بالحذف، أي قلنا لهم: خذوا، أي: على إرادة القول[2].

إيثارُ ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ بدلًا من (اذْكُرُوه):

المطلوبُ ذكرُ ما في الميثاقِ التَّفصيليِّ لا ذكرُه العُنوانيُّ

يشير استعمالُ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ إلى عِظَم ما في هذا الميثاق، ومَزيدِ أهميّته، كما يدلُّ على الأمر بذكْره تفصيلًا، أمرًا أمرًا، ونهيًا نهيًا، في حين أنَّ الضميرَ الواقعَ معمولًا للذّكر في (اذكروه) لا يُفهم منه ذانِك الأمران: الأهمية والتفصيل.

أي: واذْكُروا ما فيه منَ الأحكام أوامرِها ونواهِيها، أو اعمَلُوا به لئلَّا تَنْسوه - فإنّ ذلك يُعدّكم للتقوى ويجعلُها مرجوّةً لكم، فإنَّ الجدَّ وقوّةَ العزم في إقامة الدِّين يُهذِّبُ النَّفس ويُزكِّيها، والتّهاوُنَ والإغماضَ فيه يُدسِّيها ويُغويها ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشمس: 9-10].

دلالة التّرجّي في قولِه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾:

(لعلَّ) في المشهور موضوعةٌ للتّرجّي، وهو الطّمعُ في حصول أمرٍ محبوبٍ مُمكنِ الوقوع والإشفاق، وهو تَوقُّعُ مَخوفٍ مُمكنٍ، والظاهرُ التَّقابلُ، فتكونُ مشتركةً، وذكرَ الرّضيُّ أنها للتَّرجّي، وهو ارتقابُ شيءٍ لا وُثوقَ بحصوله، فيدخلُ فيه الطّمعُ والإشفاقُ، والذي يميل إليه القلبُ ما ذكره بعضُ المحقّقين إنّها لإنشاء توقُّع أمرٍ متردّدٍ بين الوُقوع وعدمِه مع رُجحان الأوّل، إما محبوبٌ فيُسمّى رجاءً، أو مكروهٌ فيُسمّى إشفاقًا[3].

والرَّجاءُ الذي يقتضيه حرفُ (لعلّ) مستعمَلٌ في معنى تقريبِ سببِ التَّقوى بحضّهم على الأخذ بقُوّة، وتعهُّدِ التّذكّر لما فيه، فذلك التَّقريبُ والتّبيين شبيهٌ برجاء الرَّاجي.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/160.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/161.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/525.

ويجوز أن يكون (لعلّ) قرينةَ استعارةِ تمثيلِ شأنِ اللّه حين هيّأ لهم أسبابَ الهداية بحال الرَّاجي تقواهم، وعلى هذا محملُ موارد كلمةِ (لعلّ) في الكلام المُسنّدِ إلى اللّه تعالى[1].

توجيه المخصوصِ بالذّكرِ:

التَّقوى قُصارى أمرِ العابد، فيكونُ الكلامُ أبعثَ على العِبادةِ

خُصّتِ التّقوى بالذِّكرِ في هذا السِّياقِ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾؛ لأنّه إذا حصل لهم ذلك نجَوْا في الدّنيا والآخرة، ولأنَّ التَّقوى قُصارَى أمرِ العابد، فيكونُ الكلامُ أبعثَ على العِبادة، أي: ليُعدّ نفوسَكم لتقوى اللّه ﷻ: ذاك أنَّ المواظبةَ على العمل تطبعُ في النَّفس سجيّةَ المراقبة للّه، وبها تصيرُ تقيّةً نقيّةً من أدْران الرَّذائل راضيةً مرضيّةً عند ربّها ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: 132][2].

دلالة حرفِ العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم﴾:

أفادَ حرفُ العطفِ ثمَّ التَّرتيبَ والتَّراخي، وهو على بابه منَ التَّراخي الزَّمني، إشارةً إلى عبادتِهم العِجْلَ في مُدّة مناجاةِ موسى، وأنّ اللّه تاب عليهم بفضله، ولولا ذلك لكانوا منَ الخاسرين الهالكين في الدّنيا أو فيها وفي الآخرة[3].

دلالة البُعد في اسم الإشارة في قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ﴾:

عِظَمُ الميثاق المأخوذِ عليهم

المُشارُ إليه بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾: أخذُ الميثاق عليهم، وقَبولُ ما أُوتوه منَ الكتاب، وإن كان ثَمَّةَ بُعدٌ زمانيٌّ، ولكنَّه يَحمِلُ بعدًا آخر، يتعلّقُ بمنزلة الميثاق المأخوذِ عليهم.

أثرُ التَّفسير في الحقيقةِ والمجازِ والوقفِ والابتداء:

الفضلُ: التَّوفيقُ للتوبة، والرَّحمةُ قَبُولُها، أو الفضلُ والرَّحمةُ: بِعثةُ رسولِ اللّه ﷺ وإدراكُهم لمُدّته، فالخطاب على الأوّل جارٍ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/542.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 1/135.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/523.

سُنن الخِطابات السَّابقةِ مَجازًا باعتبار الإسلاف، وعلى الثاني جارٍ على الحقيقة[1].

نـجـاتُـهـم وإمهالُهم فضلٌ مِنَ الله وحده ورحمةٌ منه بهم

وذكر القفَّال في تفسيره وجهين؛ الأول: لولا ما تفضَّل الله به عليكم منْ إمهالكم وتأخيرِ العذاب عنكم لكُنْتم منَ الخاسرين، أي: منَ الهالكين الذين باعوا أنفُسَهم نارَ جهنّم، فدلّ هذا القولُ على أنَّهم إنّما خرجُوا عن هذا الخُسْران؛ لأنَّ الله تعالى تفضَّل عليهم بالإمهال حتى تابوا. الثاني: أن يكون الخبرُ قد انتهى عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ﴾، ثم قيل: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ رجوعًا بالكلام إلى أوّله، أي: لولا لطفُ الله بكم برفعِ الجَبل فوقَكم لدُمتم لردِّكم الكتابَ، ولكنَّه تفضّل عليكم ورحمَكم، فلَطَف بكم بذلك حتى تُبْتم[2].

سِرُّ العُدول عنِ الفعل (لخسرتم) إلى جملة: ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾:

الـمُبالـغةُ في خُسران ذواتِهم

دخولُ (كان) في جواب (لولا) يُفيدُ المبالغةَ في الخَبر، أي: المبالغةُ في الخُسران، كما أنّ وقوعَ الكَون بعد لام الجواب ﴿لَكُنتُم﴾ يدلُّ على أنّ الخُسران لو وقعَ لكان على ذواتِهم، فأهلكَهم، في حين أنّ قولنا: (لخسرتم) لا يُثبِتُ سوى نوعِ خُسران، ولو كان يَسيرًا، مع بقائهم أحياءً، فلمَّا أدخلَهم في زمرة الخاسرين، أثبت عليهم استحقاقَهم الخسارة الجديرة بهم، والتي لا تكون إلَّا لمن غرِق في بحر المعاصي والظلمات.

توجيه المُتشابه اللّفظيّ:

العنايةُ بخطابِ أسـلافِ بني إسرائيل دليلُ حـرصِ القرآنِ على العالمين

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٦٣﴾ [البقرة: 63]، وقال في الآية اللَّاحقة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/282.

(2) الرازي، التّفسير الكبير: 3/539.

ﱡءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩٣ﱠ [البقرة: 93].

فالخطابُ فى الآيتين لبني إسرائيلَ، ووجهُ تخصيص كلٍّ منَ الآيتين بما أُعقِبتْ به، أنَّ الآية الأولى تقدّم قبلَها قولُه تعالى: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ٥٣﴾ [البقرة: 53]، والكتابُ: التَّوراةُ وقد سمعوه وعنه قيل، وإليه أُشيرَ بقوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾، وقد زاد هذا إيضاحًا قولُه فى سورة الأعراف: ﴿۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧١﴾ [الأعراف: 171]، والاشارةُ بالقوّة إلى عظيم تَخويفِهم برفع الجَبل فوقَهم كالظُّلّة، فقولُه تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾ عقبَ ذكْرِ كتابهم أوضحُ شيء وأنسبُه، ولـمَّا تقدّم قبل الآية الثانية قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ [البقرة: 89]، وهذا الكتابُ هو الكتابُ العزيز، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بدليل قولهم – حيْدةً عن إيمانهم –: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾، قال تعالى: ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾، أى: يكفُرون بالقرآن، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، والإشارة للقرآن: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾، أى: منَ التوراة، فلمّا تقدَّم هنا ذكْرُ القرآن وخلَف يهودُ المعاصرون لرسول الله ﷺ مُعرِضون إلا القليل عنِ الإيمان وسماعِ القرآن فناسبَ إعراضُهم عن سماعه تخصيصَه هذا الـمَوضعَ منَ المقول لسلفهم بقوله للخلف: "واسمعوا " ليكون إخبارًا عن سَلَفهم، وتعريضًا لخلَفهم، فوضح التّناسبُ وأنَّ العكسَ لا يُناسبُ(1).

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الميثاق والعَهْد:

أنَّ الميثاقَ توكيدُ العَهْد من قولك: أوثقتُ الشيءَ إذا أحكمتَ شدَّه، وقال بعضُهم: العهدُ يكون حالًا منَ الـمُتعاهِدَيْن، والميثاقُ يكون من أحدِهما(2).

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/45.

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 525.

الرَّفع والنَّتْق:

الرَّفعُ: المرحلةُ التَّاليةُ للنَّتق، يقال تارةً في الأجسام الموضوعةِ إذا أَعْلَيتَها عن مقرِّها، وتارةً في البناء إذا طوَّلْته، وتارةً في الذِّكر إذا نوَّهْته، وتارةً في المَنزلة إذا شرّفْتها[1].

النَّتْق: الجذب، ونتقتُ الغَرْبَ منَ البئر، إذا اجتذبته بمرة جذبًا، ونتقتِ الملائكةُ جبلَ الطُّور، أي: اقْتَلعُوه من أصْله حتى أَطْلَعوه على عسكر بني إسرائيلَ[2].

كما يدلُّ على الزَّعْزعةِ والهَزِّ[3]، وهو أن يقلعَ الشَّيء فيرفَعه من مكانه ليرميَ به، هذا هو الأصل[4].

(1) المُناوي، التوقيف على مهمات التعاريف: (الرفع)، ص: 149.

(2) الخليل، العين: (نتق).

(3) ابن سِيده، المحكم: (نتق).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (نتق).

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٦٦﴾ [البقرة: 65- 66].

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهما:

قصّةُ أصحابِ السَّبْت أُنموذجٌ لنقض اليهودِ العَهدَ مع الله تعالى

لـمّا ذكَر أخذَ الميثاق عليهم فيما سبق، بيّن هنا أنَّ فريقًا منهم نقضُوا عهدَهم مع الله، فجاءت قصّةُ الـمُعتدِين في السَّبت مؤكِّدةً لذلك، إذْ كان حاصلُها أنَّهم لما ضيَّعوا أمرًا واحدًا من أوامره، واستخفُّوا به، وهو تحريمُ الصَّيد في السَّبت، عذَّبهم بعذابٍ لم يُعذِّبْ به أحدًا منَ العالمين، فقال: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾.

أصحابُ السَّبت غلَبَ عليهم الخُسران؛ ورضَوا به بدلًا منَ العَفوِ والغُفران

إنَّه سبحانه لـمَّا ذكّرهم بنعمة العَفْو الحافظِ لهم منَ الخُسران، قرَّعهم بحلافةٍ أُخرى لهم خذلَ بها فريقًا منهم؛ حتى غلبهمُ الخُسران، فما ضَرّوا إلاّ أنفسَهم، مُقْسمًا على أنّهم بها عالمون، ولها مستحضِرون، فقال تعالى عاطفًا على ما تقديره: لقد علمْتُم جميعَ ذلك من عهودنا، وما ذكرنا منَ الإيقاع بمن نقضَ من شديدِ وعيدنا، ومنَ التَّهديد على ذلك بضرب الذّلّة وما تَبعها من أنواع النَّكال[1].

وفي الآية الكريمة استمرارٌ للخطاب الـمُوجَّه لبني إسرائيل السَّامعين، في صدد ما كان من آبائهم من مواقفَ منحرفةٍ، بضمير الجمع المخاطَب توكيدًا لِلُّحْمَة الوَثيقةِ بين السَّامعين والآباء الغابرين بقصد الإنذار والتَّحذير من أن يُكرِّروا مواقفَ وانحرافاتِ أولئك الآباء[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 1/464.
(2) دروزة، التفسير الحديث: 6/175.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿عَلِمْتُمُ﴾: العلمُ ههنا بمعنى المعرفةِ، ويتعدَّى ذلك إلى مفعولٍ واحدٍ، وحقيقةُ ذلك أنَّ معارفنا ضربان: أحدُهما: حصولُ صُوَرِ الموجودات في النَّفس وذلك كالمَعرفة بذات الشَّيء، والثَّاني: الحُكمُ بوجود شيءٍ لشيءٍ هو مُوجدٌ له، أو الحُكمُ بنفي شيءٍ عن شيء هو مُنتفٍ عنه، فالأول: يقال له معرفةٌ وعلمٌ، ويتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾، وقولُه: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: 60]، والثاني: يقال له علمٌ، ولا يقال له معرفةٌ، ويتعدَّى إلى مفعولين لا يصحُّ الاقتصارُ فيه على أحدِهما من حيث إنَّ ذلك يقتضي إثباتَ حُكم أو نفيَ حُكم لمعلوم[1].

2) ﴿ٱعْتَدَوْا۟﴾: الاعتِداءُ مُجاوَزةُ الحدِّ، يقال: اعتدى فلانٌ وتعدَّى إذا ظلم، والاعتداءُ: مُجاوَزةُ الحقِّ على وجهٍ محظورٍ[2]، والاعتداءُ: مُجاوَزةُ الحقِّ، قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [البقرة: 231]، وقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ [النساء: 14]. ومعنى ﴿ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة: 65]، عصيانهم أمرَ اللهِ بأخْذهم الحيتانَ على جهة الاستحلال[3].

3) ﴿ٱلسَّبْتِ﴾: المرادُ به اليومُ المسمَّى بهذا الاسم، أصل السَّبْتِ: القطعُ، ومنه سَبَتَ السَّيرَ: قطعه، وسَبَتَ شَعرَهُ: حَلَقُه. وقوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ [النحل: 124] ، أي: تَرْك العمل فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: 9] ، أي: قطعًا لأعمالكم في الليل[4].

4) ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾: الْخَاءُ وَالسِّينُ وَالْهَمْزَةُ يَدُلُّ عَلَى الْإِبْعَادِ. يُقَالُ: خَسَأْتُ الْكَلْبَ. وَفِي الْقُرْآنِ: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: 108]، كَمَا يُقَالُ ابْعُدُوا.

والمعنى: أذلَّاء، مبعدين[5].

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/219.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/219.
(3) الرّاغب، المفردات: (عدى).
(4) الرّاغب، المفردات: (سبت).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (خسأ).

5) ﴿نَكَٰلٗا﴾: أي عبرةً تنكِل الـمُعتبِر بها، بحيث تمنعُه وتردعُه منَ ارتكاب الشّرّ.

يقال: نكّل به تنكيلاً، إذا صنع به صُنعًا، يردعُه ويجعلُ غيرَه يخافُ ويحذرُ، والاسم النّكال وهو ما نكلتَ به غيرَك، وأصلُه من النِّكل- بالكسر- وهو القَيدُ الشَّديد، وجمعُه أنكال[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولقد علمتم -يا معشرَ اليهود- ما حلَّ من البأس بأسلافكم من أهل القَرْية التي عصت أمرَ اللّه، فيما أخذه عليهم من تَعْظيم يوم السَّبْت، فاحتالوا لاصطيادِ السَّمَك فيه؛ بوضع الشِّباك وحفر البِرَك، ثم اصطادوا السَّمَك يوم الأحد؛ حيلةً إلى المحرَّم، فلمَّا فعلوا ذلك، غضِبَ اللّه عليهم فمسخهم اللّه قردةً منبوذين حقيرين ذليلين.

فجعلنا هذه القريةَ العاصيةَ عبرةً لمن بحضرتها من القُرى، يبلغهم خبرها وما حلَّ بها، وعبرةً لمن يعمل بعدها منَ الأُمم والقرون مثلَ تلك الذُّنوب، وجعلناها تذكرة للصالحين الذين نَهَوْهم عن تجاوزِ حدودَ اللّه من صالحي قومِهم، أو لكلِّ متَّقٍ سمِعَها؛ ليعلموا أنهم على الحق، فيثبتوا عليه[2].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تنوُّعُ معنى الواوِ في الآية الكريمة:

عطفُ القصَّةِ على القِصَّةِ من بديعِ العطْفِ الإجماليِّ في القرآنِ

الواوُ إمَّا أن تكون من قبيل عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ، وإمَّا أن تكون استئنافية، والأَوْلى حملُها على العطفِ؛ لما فيه من سردِ أحوال بني إسرائيل، وما ارتكبوه من الجرائم المتنوِّعةِ والمختلفةِ في أشكالِها وأنواعِها؛ فهي امْتدادٌ لجرائمِهم، وتَعدادٌ لمواقفِهم الـمُنحرفةِ.

بلاغةُ القسَمِ وأثرُه في كشفِ ما يجولُ في نفوسِ المُخاطبين

صُدِّرت الآيةُ الكريمةُ بلامِ القَسَم، وقد التّحقيقيةِ؛ لإفادة أنَّ مثلَ هذه القصّةِ يُمكنُ أن يُبهتوا في إنكارها؛ وذلك لما نال في عقبى أولئك الـمُعتدين من مسخِهم قردةً، فاحتيج في ذلك إلى توكيد،

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/160.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/176، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/54، نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 10.

وأنّهم علموا ذلك حقيقةً[1]، فأفاد التَّوكيدُ مباغتةَ القَوْم بشيءٍ يعلمونَه ويُخفونَه، وفي ذلك كشفٌ بديعٌ لِمَا يجولُ في النُّفوسِ.

سرُّ تركِ (إذ) إلى هذا التَّصدير المُؤكَّد: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ﴾:

لمحُ الاختلافِ التَّاريخيِّ في النَّظمِ القرآنيِّ من روائعِ البيان

خالفَ في قصِّ هاته القصَّةِ أسلوبَ حكايةِ ما تقدَّمها وما تلاها من ذكْر (إذ) المُؤذِنةِ بزمن القصَّة، والمُشعرةِ بتحقُّق وقوعِها، إلى قوله هنا: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ﴾ لمعنى بديعٍ، هو من وجوهِ إعجازِ القرآن، وذلك أنَّ هذه القصّةَ المُشارَ إليها بهذه الآية ليست منَ القِصص التي تضمّنتْها كتبُ التَّوراة، مثل القِصص الأخرى المَأتي في حكايتها بكلمة (إذ)؛ لأنّها متواترةٌ عندهم، بل هذه القصّةُ وقعت في زمن داودَ ﵇، فكانتْ غيرَ مسطورةٍ في الأسفار القديمةِ، وكانت معروفةً لعلمائِهم وأحبارهم، فأطلَعَ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ عليها، وتلك معجزةٌ غيبيّةٌ، وأوحى إليه في لفظها ما يُؤذنُ بأنَّ العلمَ بها أخفَى مّن العلم بالقِصصِ الأخرى؛ فأسند الأمرَ فيها لعلْمِهم؛ إذْ قال: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ﴾[2].

سرُّ التَّعبيرِ بمادَّة العِلمِ لا بمادَّةِ المعرفة في قولِه: ﴿عَلِمۡتُمُ﴾:

المعرفةُ تمييزٌ للشَّخص في ظاهر أمره، فتقول: عرَفتُ فلانًا، إذا لقيتَه ولَمْ تَخْبُر أحواله، وإذا قلت: علِمْتَه؛ فمعنى ذلك أنك علمتَ أحوالَ ظاهره وباطنِه، فتقول: علِمْتُ زيدًا إذا علمتَ أحوالَه ظهورَها، وخفاياها[3].

بلاغةُ إيقاعِ العِلْمِ على الأشخاصِ لا على العُقُوبَةِ:

الجريمةُ المذكورةُ هي كالمثالِ، والمقصودُ منهجُ الاعتداءِ

آثر النَّظمُ إيقاعَ العلمِ على المُعتدين لا الاعتداءِ، فقال: ﴿عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ﴾، وفي ذلك تنبيهٌ لطيفٌ للمخاطبين بأنَّ ما كان إيقاعِ العقوبةِ على السَّابقين؛ فإنَّه لاحقٌ بكم إن صنعتم صنيعَهم، فهو

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/396.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/543.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/261.

تلويحٌ بعصا التَّأديب، وبسوطِ العقوبةِ، ومن هنا تعلم أنَّ جعلَ الكلامِ على إيجازِ الحذفِ بعيدٌ، والـمُقدَّر بـ: ولقد علمتُم اعتداءَ من اعتدى منكم في السَّبت؛ لكي يكونَ المذكورُ منَ العقوبة جزاءً لذلك[1]، فإنَّ الاعتداءَ الصَّادرَ عن المعتدين له صورٌ كثيرةٌ، والمذكورُ أحدها، والمقصودُ تهديد المعتدين بكل صورِ الاعتداءِ، لا تهديد المعتدين بالصُّورةِ المذكورةِ فحسب.

دلالة الأمرِ في ﴿كُونُواْ﴾:

كمالُ العقوبةِ أن يُـؤمَـرَ الـمُـعـاقَـبُ بالقيامَ بها

فعلُ ﴿كُونُواْ﴾ أمرٌ تكوينيّ[2] يحصلُ به وجودُ الأشياء، فيكونُ الشَّيءُ الذي أراده اللّه تعالى، التَّكوين: ويُسمِّيها بعضُ البلاغيين (التَّسخير)[3]، وهو التَّذليلُ والإهانةُ، وذلك حيث يكونُ المأمورُ مسخَّرًا مُنقادًا لما أُمِر به، نحو قولِه تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، أي: صَاغرين مَطرودين، فما أُمروا به، وهو أن يكونوا قردةً، لم يكنْ في مقدورهم أن يفعلوه، ولكنَّهم وجدوا قدرةَ اللّه قد تسلَّطت عليهم فحوّلتْهُم من أَناسيّ إلى قردةٍ دونَ أن يكون لهم يدٌ فيما حلّ بهم، وذلك هو معنى التَّكوينِ والتَّسخير، وسواءً أكان المسخُ لذواتهم، أم لقلوبهم، فإنّ الأمرَ لا يخرجُ عن معنى التّكوينِ أو التّسخيرِ.

بَلاغةُ التَّعبير بالجَعْل في قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا﴾:

استمرارُ الجعل موعظةً باقيةً إلى يومِ الدِّين

يُطلقُ فعلُ الجَعْلِ ويُراد به التَّصييرُ والتَّحويلُ والتَّغييرُ، كما في قولنا: جعلتُ القطنَ ثوبًا، كما يُعَبَّر به عنِ الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ [الأنعام: 97]، والجَعْلُ هنا بالمعنى الأوّل، وهو المناسبُ لمسخِهم، أو لمسخ قلوبهم، والضّميرُ في قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا﴾ يعود على (المسخةِ) المفهومةِ منَ السياق، أو (العقوبةِ)، أو

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 2/540.
(2) ابن فارس، الصاحبي، ص: 185.
(3) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/85، وعبد العزيز عتيق، علم المعاني: 1/82.

(القردةِ)، أو القرية، وهو دالٌّ على القدرة، كما يدلّ على أثر تلك العقوبةِ، وأنَّ أثر جعلِها نكالًا لهم، وموعظةً للمتّقين سيكون فيهم وفي الأجيال مِن بعدهم.

مناسبةُ لفظِ (النَّكال) لسياق القصَّةِ:

النَّكال: "عقوبةٌ يُزجَر ويُردعُ بها غيرُهم عن ارتكاب مثلِ ما استحقُّوها به من ذنوب، ثم عُمّمت في العقوبة الشَّديدة"[1]، وهو مناسبٌ لتلكم العقوبة الشَّديدة الفَريدةِ التي وقعت بهم جزاءً وِفاقًا.

بلاغةُ النَّظم في قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾:

شُمولُ النَّكالِ للمكانِ والزَّمانِ بدون قَيْدٍ أبلغُ في العقوبةِ

كلٌّ من ظرفَي المكان مستعارٌ للزّمان، و(مَا) أقيمت مقامَ (مَن) إمّا تحقيرًا لهم في مَقام العظمة والكبرياء، أو لاعتبار الوصف، فإنَّ (مَا) يُعَبّر بها عنِ العقلاء تعظيمًا إذا أريد الوصف، كقولِ: "سبحان ما سخرَكُنَّ"[2].

لما قبلها وما بعدها منَ الأمم إذ ذُكرت حالُهم في زُبُرِ الأوّلين، واشتهرت قصّتُهم في الآخرين، أو لمعاصريهم ومن بعدهم، أو لما بحضرتها منَ القُرى وما تباعد عنها، أو لأهل تلك القرية وما حواليْها، أو لأجل ما تقدَّم عليها من ذنوبهم وما تأخَّر منها[3].

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: لمُعاصريهم ومَن خلْفَهم، وهو المَرويُّ عنِ ابنِ عباس رضي الله تعالى عنهما وغيره، ورُوي عنه أيضًا لِما بحضرتها منَ القرى، أي: أهلها وما تباعد عنها أو للآتين والماضين.. وصحّح كونَها نَكالًا للماضين أنها ذُكرت في زُبُر الأولين فاعتَبروا بها، وصحّت الفاء؛ لأنَّ جَعْل ذلك نَكالًا للفريقين إنَّما يتحقّق بعد القول والمَسخ، أو لأنَّ الفاء إنما تدلُّ على ترتُّب جَعْلِ العُقوبة نَكالًا على القول وتسبُّبه عنه، سواءً كان على نفسه أو على الإخبار به، فلا ينافي حصولَ الاعتبار قبْل وقوعِ هذه الواقعةِ بسبب سماعِ هذه القصَّةِ، وقيل: اللّامُ لامُ الأجل و﴿مَا﴾ على حقيقتها، والنَّكال بمعنى

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نكل).

(2) ابن حِجَّة الحموي، خزانة الأدب: 9/588، وفيه: «وقد تطلق على ذوي العلم، حكى أبو زيد: سبحان ما سخّركنّ لنا»، وينظر: الآلوسي، روح المعاني: 1/284.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/86.

العقوبة لا العِبرة، والمرادُ بما بَيْنَ يَدَيْها ما تقدَّم من سائر الذُّنوب قبل أخذ السَّمك، وبما خَلْفَها ما بعدَها[1].

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكر:

تنبيه القرآنِ على أنَّ التَّقوى مهمازُ كلِّ خيرٍ

وخَصَّ ﷻ تأثيرَ المَوعظة بالمتّقين، وإن كانت هي للعالَمين؛ لتفرُّدِهم بالتأثّر بها، والاهتداءِ بهديها، وهم الذين تنفعلُ نفوسُهم للخير؛ لأنهم ليسوا مَغرورين بعزَّة الشَّيطان، ولكنْ تمتلئُ قلوبُهم بتقوى اللّه تعالى، بأن يجعلوا بينهم وبين عذاب اللّه تعالى وقايةً، فمِن دأْبِهم الحذرُ منَ الشّرّ، وإذا ذُكِّروا ذَكَروا، واللّه هو الهادي إلى الرَّشاد[2]؛ فالموعظةُ هنا أنسبُ لاقترانها بمن هم أهلٌ لتليين القلوبِ وإصلاحِ ما فسد، وهم المُتّقون.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَوعظة والاعتبار:

الوعظُ: هو الإذكارُ بالخير بما يرقُّ له القلبُ[3]، ويدور معناه حول: كلامٍ أو عملٍ يُنَبِّه به الإنسانُ إلى عواقبِ ما يفعلُه، أو ما هو مُقْدِمٌ عليه، ليتوقَّفَ عنه[4].

أمَّا الِاعْتِبَارُ فمأْخُوذٌ منَ العُبور والمُجاوَزة من شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، ولِهذا سُمِّيت العِبْرَةُ عِبْرَةً، والمعبِّرُ معبِّرًا وَاللَّفْظُ عبارَةً، وَيُقَال: السَّعيدُ من اعْتبر بِغَيْرِهِ، والشَّقيُّ مِن اعْتبر بِهِ غَيرُه، ولِهذا قالَ المُفَسِّرُونَ: الِاعْتِبَار هو النّظرُ فِي حقائق الأَشْيَاء وجهاتِ دَلالتها؛ ليُعرف بِالنّظرِ فِيهَا شَيْءٌ آخر من جِنْسهَا.

وقيل: الِاعْتِبَارُ هو التّدبّرُ وقِيَاسُ ما غَابَ على ما ظهر[5].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/284.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/261.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/403.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وعظ).
(5) الكفوي، الكليات: 1/147.

﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ
أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧ قَالُواْ
ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ
وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا
رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ
لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩ ﴾ [البقرة: 67-69]

۞ مُنَاسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمّا ذكَر اللّه ﷻ فيما سبق بعضَ قَبائحِ بني إسرائيلَ، وجملةً من جرائمِهم، من نقْضِ المواثيق، واعتدائِهم في السَّبت، أردفَه بذكر نوعٍ آخرَ من مساوئِهم وقبائِحِهم، ألا وهو مخالفتُهم لأنبيائهم وتكذيبُهم لهم، وعدمُ مسارعتِهم لامتثال الأوامر التي يُوحيها اللّه إليهم، مع كثرة اللّجاج والعِنادِ للرُّسل - صلوات اللّه وسلامه عليهم - وجفائِهم في مخاطبة نبيّهم موسى عليه السلام[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَذۡبَحُواْ﴾: الذَّبحُ قطعُ الوَدْجَين والمارِن، وذَبَحَ الشاة وغيرَها: قَطَعَ حُلْقُومها من باطنٍ عند مَوضع الذَّبح. المعنى المِحوريُّ: شَقٌّ يَغُورُ دقيقًا في جِرْمٍ مُلتحم: كالشَّقِّ في الأرض بدقّته الموصوفة، وكالشُّقوق في أصول الأصابع، وكالذَّبح المعروفِ ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة: 71]، ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [القصص: 4][2].

2) ﴿بَقَرَةٞ﴾: البقرةُ واحدةُ البقر، والذّكَرُ ثورٌ، والأنثى بقرةٌ، البقر: جماعةُ البقرة، والبقيرُ والبقْرُ: شقُّ البطن، والتّبقُّر: التّفتُّح والتّوسُّع من بقرتُ البطنَ، ونُهي عن التّبقّر في المال[3].

(1) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 1/481.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذبح).
(3) الخليل، العين: (بقر).

المعنى المحوريُّ هو: انفتاحُ جوفِ الشّيء عما فيه باتساعٍ: كالدّارات، والرَّكايا، والبيتُ المبقورُ، وجوفُ النّاقة البقيرُ، وبَقَرة النّحاس، والبقير (الذي يُلبَس) مشقوقٌ في منتصفه فتحةٌ ينفذ منها الرأس، والبقيرُ (ذاك المولود) مبقور عنه.

أمَّا البَقَرةُ المعروفةُ فسُمِّيت كذلك لاتِّساع جوفِها بالنِّسبة إلى الجوازئ من الظِّباء، ويمكن أن تكون علّةُ تسمية الأهلية كذلك بَقْرَها الأرْضَ، أي حرثَها إياها، وقد وُصفتِ البقرةُ في القرآن الكريم بأنّها تثيرُ الأرضَ ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ [البقرة: 71]- ثم حُملتِ الوَحشية الجازئةُ على الأهلية اتِّساعًا لشَبَهها بها[1].

3) ﴿هُزُوًا﴾: الهُزؤُ السُّخرية واللَّعبُ، يقال: هزأ: الهُزْءُ والهُزُؤ: السُّخرِيةُ، هُزِئَ بِهِ وَمِنْهُ[2].

والمعنى في الآية: أتجعلنا موضعًا للسُّخرية.

4) ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: الجاهلُ الذي يقول أو يفعل ما لا ينبغي قولُه أو فعلُه، ويدور معناه حول خُلوِّ الباطن ممّا يُفيد أو يطلبُ، ويلزم ذلك الخفّةَ كالنّاقة المجهولة تُعَدُّ خاليةَ الباطن، أو جافّتَه؛ إذْ لم يُرَ لها لبنٌ قَطُّ، ومن هذا الجهل: ضدُّ العلم؛ لأنَّ الجاهل خاليَ الذِّهن منَ المعلومات، وكذلك الجهلُ: ضدّ الحِلْم، لما في الباطن من فراغٍ يتمثّلُ في السُّلوك بخفّةٍ، وطيشٍ، وسفهٍ، أو من جفافٍ يتمثَّلُ في السُّلوك بجفاء وغِلْظة[3].

ومعنى الجاهلين في الآية: السفهاء الذين يَرْوون عن اللّٰه الكذبَ والباطل.

5) ﴿لَّا فَارِضٌ﴾: الفارضُ: المُسِنُّ منَ البقر، وقيل: إنَّما سُمِّي فارضًا؛ لكونه فارضًا للأرض، أي: قاطعًا، أو فارضًا لما يُحمّلُ منَ الأعمال الشّاقة، وقيل: بل لأنَّ فريضةَ البقرة اثنان: تبيعٌ ومُسِنَّة، فالتّبيعُ يجوز في حالٍ دون حالٍ، والمُسِنَّة يَصِحُّ بَذْلُها في كلِّ حالٍ، فسُمِّيتِ المُسِنَّة فارضةً لذلك، فعلى هذا يكون الفارضُ اسمًا إسلاميًّا[4].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بقر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (هزأ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهل).
(4) الرّاغب، المفردات: (فرض).

6) ﴿وَلَا بِكۡرٞ﴾: البِكْرُ الصّغيرةُ التي لم تلدْ بعدُ[1].

7) ﴿عَوَانُۢ﴾: العَوانُ النَّصَفُ وسطٌ بين المُسِنّة والصَّغيرة.

8) ﴿فَاقِعٞ﴾: من الفُقوع، وهو النُّصُوع، أي خُلُوص اللَّون، يقال فَقَعَ فَقْعاً وفُقُوعًا: اشَتدَّت صفرته، وأصفرُ فاقعٌ: إذا كان صادقَ الصُّفْرة، كقولهم: أسودُ حالكٌ[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكروا -يا بني إسرائيل حين قتلْتُم قتيلًا وتدافعْتُم واختلفْتُم في قاتله- جناية أسلافكم، وكثرة تعنُّتهم وجِدالهم لموسى عليه الصلاة والسَّلام، حين قال لهم: إنَّ اللّه يأمركم أن تَذْبحوا بقرةً، فقالوا -مستكبرين-: أتجعلنا موضعًا للسُّخرية والاستخفاف؟ فردَّ عليهم موسى بقوله: أستجيرُ باللّه أن أكون من المستهزئين.

قالوا: ادع لنا ربَّك يوضح لنا صفة هذه البقرة، فأجابهم: إن اللّه يقول لكم: صفتها ألا تكون مسنَّة هَرِمة، ولا صغيرة فَتِيَّة، وإنما هي متوسطة بينهما، فسارِعوا إلى امتثال أمر ربكم، واتْركُوا التّشديدَ والتعنُّتَ، فعادوا إلى جدالهم قائلين: ادع لنا ربك يوضح لنا لونها. قال: إنه يقول: إنها بقرةٌ صفراءُ شديدةُ الصُّفْرة، تَسُرُّ مَن ينظر إليها من حُسنها[3].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ النَّظمِ في تقديمِ المُؤخَّر، وتأخيرِ المقدَّم زمانيًّا:

إيرادُ قصَّةِ البقرة ليس لذاتِها، بل لبيانِ مسلكِ التَّحايلِ على الشَّرعِ

أَمَرُ اللّه لبني إسرائيل بذبح البقرة كان بعد تنازُعهم في تحديد شخصِ شأن القاتل؟ فكانت البقرةُ أداةَ المعجزة؛ وذلك ليُعرف القاتلُ الحقيقيُّ إذا ضُرب القتيلُ ببعضها، فقولُ موسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ ناشِئٌ عن قتل النَّفس المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾ [البقرة: 72]، ولكنَّ قوله قُدِّم في القصَّةِ؛ لأنّ خطابَ موسى عليه السلام لهم قد نشأ عنه ضرْبٌ من مَذامِّهم

(1) الرّاغب، المفردات: (بكر).

(2) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (فقع).

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/54، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 10.

في تلقِّي التَّشريع وهو الاستخفافُ بالأمر حين ظنُّوه هزؤًا والإعناتُ في المسألة، فأريد من تقديم جزء القصّة تعدُّدُ تَقريعهم[1]، فالمقصودُ من إيرادِ القصَّة ليس الإعلام بأمرِ البقرةِ مع القتيلِ بقدر ما هو إخبارٌ بموقفِ بني إسرائيل من أوامر اللّه وتحايلهم عليها.

غرضُ استعاذةِ موسى أن يكون منَ الجاهلين:

استعاذ موسى باللّه أن يكون منَ الجاهلين؛ إذِ الهزءُ والسّخريةُ، من أفعال أهل الجهل، فكان قولُ موسى هذا تعريضًا لبني إسرائيل بالجهل وفسادِ العقل، وسوءِ الأخلاق.

بلاغةُ تركيبِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾:

أمـرُ الـلـه إذا صدرَ فلا بدَّ من امتثالِه

التّأكيدُ في قوله: إنَّ اللّه يأمركم حكايةً لما عبَّر به موسى منَ الاهتمام بهذا الخبر الذي لو وقعَ في العربيّة لوقع مؤكَّدًا بإنَّ[2]، وجيءَ بالاسمِ الأحسنِ لتوريثِ المهابةِ في صدور المأمورين، وبصيغةِ الفعلِ المضارِعِ لبيانِ أنَّ الأمرَ قد صدرَ الآن وما زالَ صادرًا حتَّى يتحقَّق المأمور به.

سِرُّ السُّؤال بـ(مَا) دون (أي):

مقامُ السُّؤال في قوله: ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ بـ﴿مَا﴾ دون (أي)؛ لأنَّ أيّا إنَّما يُسأل بها عن مميّز الشّيء عن أفرادٍ من نوعه التبستْ به، وعلامةُ ذلك ذكرُ المضاف إليه مع أيّ نحو: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ﴾ [مريم: 73]، وأيُّ البقرتين أعجبتك؟ وليس لنا هنا بقراتٌ معيَّناتٌ يراد تمييزُ إحداها.

بلاغةُ التّأكيدِ في قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾:

بـيـانُ وقـاحـة بني إسرائيل في الاستكثارِ من السُّؤالِ بما لا داعيَ له

أُكِّد مقولُ موسى ومقولُ اللّه تعالى بإنَّ؛ لمحاكاة ما اشتمل عليه كلامُ موسى منَ الاهتمام بحكايةِ قول اللّه تعالى فأكّده بإنَّ، وما

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/153.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/546.

اشتمل عليه مدلولُ كلام اللّه تعالى لموسى من تحقيق إرادته ذلك تنزيلًا لهم منزلةَ المُنكرين؛ لما بدا من تعنُّتهم وتنصُّلهم، ويجوز أن يكون التأكيدُ الذي في كلام موسى لتنزيلهم منزلةَ أن يكون اللّه قال لموسى ذلك جريًا على اتّهامهم السَّابقِ في قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ﴾ جوابًا عن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾[1]؛ فكأنَّه يقولُ: إنَّ الآمرَ هو اللّه تعالى وليس أنا، وإنَّ الآمر يقول جوابًا عن سؤالكم..، وفيه تأنيبٌ لهم، وإظهارُ وقاحتِهم وتعدِّيهم حقوقَهم ما لا مثيلَ له.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّة:

الهُزؤ والمَزْح:

الهُزؤ أخصُّ منَ المَزْح؛ لأنَّ في الهُزؤ مزحًا مع استخفافٍ واحتقارٍ للمَمْزوحِ معه، على أنَّ المَزحَ لا يليق في المجامع العامّةِ والخطابة، على أنَّه لا يليق بمقام الرّسول؛ ولذا تبرّأَ منه موسى، بأنّه نفى أن يكون منَ الجاهلين، كنايةً عن نفي المَزح بنفي ملزومه، وبالغ في التنزُّه بقوله أعوذ باللّه أي منه؛ لأنَّ العياذَ باللّه أبلغُ كلمات النّفي؛ فإنَّ المرءَ لا يَعوذُ باللّه إلا إذا أراد التّغلُّبَ على أمر عظيم لا يَغلبُه إلا اللّه تعالى[2].

كما أنَّ فيه -أيضًا- ردًّا لهم -عن طريق التَّعريض بهم- إلى جادَّة الأدبِ الواجبِ في جانبِ الخالق، حيث بيَّن لهم أنَّ ما ظنُّوه به لا يليقُ إلا بمن يجهلُ عظمةَ اللّه تعالى[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/546.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/548.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/164.

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠﴾ [البقرة: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

الآيـة تَتِمَّة لما سبق من لَجاجة بني إسرائيل مع نبيِّهم وكثرة سؤالهم عن صفات البقرة

لـمَّا أمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه أن يذبحوا بقرة؛ ليَعلموا القاتِل، وأجابهم: أنَّ اللّه يأمرهم أن يذبحوا بقرة دون أن يُحدّد لهم صفاتها، وشدّدوا على أنفسهم، ولم يُقدِّروا اللّه حقَّ قَدْرِه، ولم يُعَظِّموا رسولَهم، بيَّن هنا فرْطَ لجاجتهم، وشدّةَ سفاهتِهم، وسوءَ أدبهم؛ فلم يكتفوا بما ذُكر لهم من أوصاف، بل سألوا عن بقيَّة صفاتها في صورة السّؤال عن ماهيّتَها، في قوله تعالى ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، فأعادوا طلبهم سؤالا عن حقيقتها لتشابه البقر عليهم[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿قَالُواْ﴾: من القول، وهو الكلام على التّرتيب، أو اللّفظ الموضوع لمعنى[2]، و"القولُ مِنَ النّطقِ. يُقالُ: قالَ يقولُ قولًا. والمِقوَلُ: اللِّسانُ، ورجلٌ قُوَلَةٌ وقوَّالٌ: كثيرُ القولِ"[3]، ويُطلق القول على الكلام أيضًا[4]، وهناك استعمالات أخرى للقول كالاعتقاد، والدّلالة على شيء، والعناية الصّادقة بالشّيء، وكذلك الحدّ والإلهام، ومن أظهر استعمالات القول: "أن يكون للمركَّب من الحروف المُبرَز بالنّطق، مفردًا كان أو جملة"[5].

2) ﴿ٱدۡعُ﴾: جذره اللّغويّ (دعو)، والأصل في معناه "أن تُمِيلَ الشَّيءَ إليك بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منك. تقولُ: دَعَوتُ أَدْعُو دُعاءً. والدَّعوةُ إلى الطَّعام بالفتح، والدِّعوَةُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/469.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (قول).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قول).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قول).
(5) الرّاغب، المفردات: (قول).

في النَّسب بالكَسر"[1]، "وكلّ ما عُدِّيَ بـ (إلى)، أو بـ(اللّام) فهو من الدّعوة إلى دين أو عمل، وبعض ما هو بهذا المعنى مُعَدًّى بنفسه"[2].

والدّعاء هنا بمعنى السّؤال، يُقال: دَعَوتُه: إذا سألتَه، وإذا استغثتَه.

3) ﴿رَبَّكَ﴾: اسمٌ مُضعّفٌ ثُلاثيّ (ربّ)، والجذرُ اللّغويّ منهُ (ربب)، والرّبُّ "الملكُ والسّيّدُ والمصلحُ والصّاحبُ، وكلّها معانٍ متقاربةٌ، ولا يُقالُ مُطلقًا إلاّ للباري تعالى"[3]، وهو أيضًا "الرَّبُّ في الأصل التّربيةُ، وهو إنشاءُ الشّيءِ حالاً فحالاً إلى حدّ التّمامِ، يُقالُ: رَبَّهُ، ورَبَّاه ورَبَّبَهُ"[4].

والرّبُّ -بالفتح: المربّى (فَعْل بمعنى فاعِل- ويشمل الإصلاح والرعاية)، كما يطلق على المدبِّر، والقيِّم، والـمُنعِم من معنى الجمع في صورة حَوْزٍ مع الإصلاح. ووصفه ﷻ بالرَبِّ يشملُ كلّ هذه المعاني، فهو المنشئ بدءًا والمربِّي، والمنعِمُ، والمالِك، والجمهور الأعظم من هذا التّركيب في القرآن هو (ربّ)، كقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2][5].

4) ﴿يُبَيِّن﴾: الباءُ والياءُ والنّونُ، لهُ أصلٌ في لُغة العرب، بمعنى البُعد والانكشاف والظُّهور والتّوضيحُ، من بيّنَ يُبينُ تبييناً، وبانَ الشّيءُ وأَبانَ إذا اتَّضحَ وانكشفَ. وفُلانٌ أَبَينُ من فُلانٍ؛ أَي: أَوضحُ كلامًا منهُ[6].

و"معنى يُبَيِّن لنا: يُعلِمُنا ما هي، لأَنَّ التَّبيينَ يَلزَمُهُ الإعلامُ..."[7].

5) ﴿ٱلۡبَقَرَ﴾: جذره اللّغويّ (بقر)، وهو اسم جنس جمعيّ، وهو: ما يفرق بينه وبين واحدِه بالتّاء، فيقال: (بقَر وبقرة)، وله أصلان في المعنى، ورُبَّما جَمَعَ ناسٌ بَينَهُما، وزعمُوا أَنَّه أَصلٌ واحدٌ، وذلك البَقرُ. والأصلُ الثَّاني منه: التَّوَسُّعُ في الشَّيءِ، وفَتحُ الشَّيءِ[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دعو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (دعو).
(3) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (ربّ).
(4) الرّاغب، المفردات: (رب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (ربب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/405.
(8) ابن فارس، مقايس اللّغة: (بقر).

"البَقَرُ واحدَتُه بَقَرَة... واشتُقّ من لفظه لفظٌ لفعله، فقيل: بقر الأرض، أي: شقّ"[1] وسمّي البقر بهذا الاسم؛ لأنّه يبقر الأرض، ويشقّها للحراثة[2]، أو لاتّساع جوفها بالنّسبة إلى الجوازئ من الظّباء[3].

6) ﴿تَشَٰبَهَ﴾: من الجذر اللّغويّ (شبه)، والأصل اللّغويّ له "يدُلُّ على تشابُه الشّيء، وتشاكُلِه لونًا ووَصفًا. يقال: شِبْه وشَبَه وشبيه. والشّبه من الجواهر الّذي يشبه الذّهب. والـمُشبِّهات من الأمور: الـمُشْكِلات. واشتبه الأمرانِ، إذا أشكَلَا"[4]، أمّا المعنى العام للشّبه فهو "في المماثلة من جهة الكَيفيّة كاللّون والطّعم، وكالعدالة والظّلم... والـمُتَشابِهُ من القرآن ما أَشكلَ تفسيرهُ لـمُشابهته بغيره، إمّا من حيث اللّفظُ، أو من حيث المعنى"[5].

ومعنى تشابه في الآية: "جِنسُ البقر تشابه، أي: التَبَسَ واشتَبَهَ أمرُهُ علينا؛ فلا نهتدي إليه"[6].

7) ﴿شَآءَ﴾: جذره اللّغويّ (شيأ)، وأصله من الشّيء، "والمشيئة: الإرادة، وقد شئتُ الشّيء أشاؤُه"[7]. "والتّركيب رغم غزارة مفرداته الّتي في القرآن ليس فيه ما يخرج عن الفعل (شاءَ) ماضيه ومضارعه بمعنى (أراد)"[8].

والفعل هنا يدُلُّ على "مشيئة اللّه إلى كلّ ما يذكر من مستقبل الأمر"[9] مِصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: 23- 24]؛ فإنّ المسلم يجب أن يربط قابل أموره بمشيئته تعالى.

8) ﴿ٱللَّهُ﴾: اسم الجلالةِ، عَلَمٌ على المعبودِ بحقّ، وهو مُشتقّ على الصّحيحِ وليس

(1) الرّاغب، المفردات: (بقر).
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/289.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بقر)، والجوازئ من الظّباء: الّتي جَزَأت، أي: استغنت بالرَّطْب من المرعَى عن الماء.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شبه).
(5) الرّاغب، المفردات: (شبه).
(6) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/108.
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (شيأ).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شيأ).
(9) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/227.

جامدًا؛ فإنّ أسماء اللّه تعالى أعلامٌ وأوصافٌ باتّفاق أهل السّنّةِ والجماعةِ[1]، ولازمُ ذلك أنّها مُشتقّة[2]، إذِ الجامدُ لا وصفَ لهُ، وقيلَ: إنّ "أصلَهُ الإلاهُ؛ فحُذفتِ الهمزةُ، وأُدغمتِ اللّامُ في اللّامِ، فصارَ اللّه"[3] لكثرةِ دورانِه على الألسنة[4]، وأُدغمتِ اللّامُ في مثلِها، وفخّمَت تعظيمًا للّهِ تعالى[5] والتّرقيقُ بعدَ الكسر؛ لأجل التّخفيف لا لسلب التّعظيم.

ومهما قِيلَ في حقّه، فهو قطرةٌ من بحرٍ، أو ثانيةٌ من دهرٍ؛ لأنّ عظمتَه لا حُدُودَ لكمالِها، ومعنى اسم (اللّه) علمًا - كما قال ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما - ذو الألوهية والعبودية على خلقِه أجمعين[6].

9) ﴿لَمُهۡتَدُونَ﴾: من الجذر اللّغويّ (هدي)، ومعناه يقوم على أصلين؛ أحدهما "التّقدُّم للإرشاد، والآخر بَعثة لَطَفٍ"[7]، وهما متقاربان في المعنى؛ لذلك فقد ذكر الرّاغب في معنى الهدى أنّ "الهدايَةَ دلالة بلُطف"[8].

والمذكور في الآية (هدى اللّه) هو بمعناه الاصطلاحي، وهو هدايَة اللّه تعالى للإنسان، وقد جعله الرّاغب على أربعة أوجهٍ: "الهدايَة الّتي عمّ بجنسِها كلّ مُكلَّف، و الهدايَة الّتي جعل للنّاس بدعائه إيّاهم على ألسنة الأنبياء، والتّوفيق الّذي يختصّ به من اهتدى، والهدايَة في الآخرة إلى الجنّة"[9].

ومعنى مهتدون في الآية، أي: "إلى البقرة المراد ذبحها، أو إلى ما خفي علينا من أمر القاتل"[10].

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/285.
(2) ابن القيّم، الكافية الشافية، ص: 216.
(3) الاستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب: 2/981.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (أله).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (لاه).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 1/123.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(8) الرّاغب، المفردات: (هدى).
(9) الرّاغب، المفردات: (هدى).
(10) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/98.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

جاءتِ الآية الكريمة على طريقة المحاورات المحكيّة، وقد بدأ بنو إسرائيل كلامهم - في الطلب إلى موسى عليه السلام - بعد القول بالفعل (ادعُ) الّذي يَحتمل الدّعاء، وهو الطّلب مع الخضوع، ويَحْتَمِلُ أنَّهم أرادوا مُطلَقَ السُّؤال، ويَحْتَمِلُ أنّهم أرادوا النّداء جهرة ظنّاً منهم أنّ اللّه بعيدٌ مكانُه[1]، وهذا نوع من أنواع تعنتهم المألوفة، فقد كانوا يسلكون هذه المسالك في غالب ما أمرهم اللّه به، ولو تركوا العنت والأسئلة المتكلَّفة لأجزأهم ذبح بقرة من عَرَض البقر، ولكنهم شدَّدوا فشدَّد اللّه عليهم.

وكان طلبهم لبيان صفة البقرة الّتي أُمروا بذبحها، وعلّلوا سؤالهم باختلاط البقر عليهم؛ فإنّه متشابه، ولا يمكنهم تمييز المراد منه بحسب زعمهم، فإن تبيّن لهم ما أمروا بفعله طلبوا "منه الهداية بعد أن تاهوا وضاعوا بسبب عنادهم وجدلهم"[2]، وسؤالاتهم لا معنى لها لو أطاعوا اللّه في مبتدأ أمرهم، وكلامهم هذا "تكرير للسّؤال عن حالها، وصفتها واستكشاف زائد؛ ليزدادوا بياناً لوصفها"[3].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

قلبُ الجافي يتخيَّرُ الألفاظَ التي تُناسِبُ مقامَه، وتُبرهِنُ على حالِه

بلاغة فعل ﴿ٱدۡعُ﴾ وبيانُ غرضِه:

الفعل (ادعُ) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ مِنَ الدّعاء وهو مقول القول، وهو في حقيقته سؤال، فقد سألوا "موسى أن يسأل ربّه لهم ما كان اللّه قد كفاهم بقوله لهم: اذبحوا بقرة"[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/405.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/395.

(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/98.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ: حدَّثنا أَحمدُ بن يحيى الأَوديُّ الصُّوفيُّ، حدَّثنا أبو سعيدٍ أحمدُ بن داوُدَ الحدَّاد، حدَّثنا سُرور بن المغيرة الواسطي بن أخيّ منصورِ بنِ زاذان، عن عبَّاد بنِ منصور، عنِ الحَسَنِ، عَن أَبِي رافِعٍ، عَن أَبِي هُريرة: قال: قال رسول اللَّه ﷺ «لولا أنَّ بني إسرائيلَ قالوا: وإِنَّا إنْ شاء اللَّهُ لَمُهتدون لما أُعطوا أبدًا، ولو أنَّهُمُ اعتَرَضوا بَقَرَةً مِنَ البقر فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكن شَدَّدوا، فشدَّدَ اللَّهُ عليهم»، وهذا حديثٌ غريبٌ مِن هذا الوَجهِ، وأحسَنُ أحوالِهِ أن يكونَ مِن كلامِ أبي هريرةَ كما تقدَّمَ مثلُهُ عن السُّدِّيِّ. يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 2/205.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/189.

والتّعبير بالفعل (ادع) مجاز مُرسَل، غرضه استعطاف موسى، ومعناه: "سلْ لأجلنا رَبَّكَ الّذي عوّدك ما عوّدك، يُظهر لَنا ما حالها وصفتها"[1].

فالأمر للاستعطاف، والتّعبير بالدّعاء عن السّؤال؛ لأنّه يُناسب جَفوةَ بني إسرائيل وقسوةَ قلوبهم واستكبارهم؛ حيث إنَّ في المسألة خضوعًا وتذلّلًا واستكانةً، كما أنَّ "السّؤال يكون من الأدنى في الرُّتبَة"[2]؛ فعدلوا عن السّؤال إلى الدّعاء؛ لما للدّعاء من اتِّساع في المعنى.

بلاغةُ تقديمِ المُتعلّقِ ﴿لَنَا﴾ على المفعول:

طلبُ الاختصاص يدلُّ على الاعتزاز بالذّاتِ

قُدِّم الجارُّ والمجرور (لنا) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ﴾ على المفعول به (ربَّك)؛ وسرّ التّقديم هو طلبُ الاختصاص؛ فكأنّهم أرادوا أن تكون دعوة موسى ربّه مُختصّة بهم لا بغيرهم؛ لأنّهم هم المعنيون بالأمر لا سواهم، ويُعزِّزُ ذلك أنّ اللّام في (لنا) دالّة على الاختصاص، كقولهم: (الجلّ للفرسِ)[3].

فائدةُ اختيار لفظ الرّبّ، وسرُّ إضافته إلى ضمير موسى عليه السلام:

تقديمُ الدّليلِ على قبولِ الاستجابةِ دليلُ معرفةٍ محضة

أُوثر لفظ الرّبّ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ﴾؛ لأنّه "النّاظرُ في مصالحهِ ومربّيهِ ومدبّرِ أحوالهِ؛ ليكونَ ذلكَ أطمعَ لهُ، فلذلكَ أتى بصفةِ الرّبّ"[4]، ولأنّ الرّبّ هو المصلح والمسيّر لأحوال العباد، فهي من قبيل تقديم الدّليل على تحقُّق الاستجابةِ، وأضافوا لفظَ الرُّبوبيَّة إلى الضّمير العائد على موسى عليه السلام "لـمَا علموا له عند اللَّه مِنَ الخصوصيَّةِ والمَنزِلَةِ الرَّفيعةِ"[5]، وهذا يدلُّ على معرفتِهم بأسباب الاستجابةِ؛ لكنَّها معرفةٌ غير نافعةٍ إن لم تقترن بالتَّزكية!

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/286.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 37.
(3) السّامرائّي، معاني النّحو: 3/64.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/564.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/406.

المجازُ في سؤالِهم: ﴿مَا هِيَ﴾ وسرُّ تَكرارِها:

طـلـبُ الـصِّـفـةِ لعلمِهم بماهيّة المُنفق

ذُكِرَ سؤالُ (ما هي) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ﴾، وهو سؤالٌ في الأصل لطلبِ الماهيّة، إلَّا أنّه لا يمكن حمله على طلب الماهيّة حقيقة، فيُحملُ على الطَّلب المجازيّ؛ "فتَعَيَّنَ أن يكونَ المُرادُ منهُ طَلَبَ الصِّفَة الَّتي بها تتميَّزُ تلك البقرةُ عن غيرِها... لمَّا عَلِمْنا أنَّهم كانوا عالِمِين بأنّ الّذي أُمِروا بإنفاقِه ما هو"[1]، وآية ذلك أنّ العرب "يسألون بـ(ما) عنِ الصِّفاتِ الَّتي تميِّزُ الشَّيءَ في الجملة كالّذي ذكرَه في الجواب"[2].

وقد أعادوا السّؤال مرّة أخرى بـ(ما هي) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾؛ لأنَّ هذا سؤال لطلب إيضاح زيادة على ما تقدّم، ككونها عاملة أو سائمة، وإظهار؛ لأنّه لم يحصل لهم تمام البيان، ثم ذكروا السّبب في إعادة السّؤال[3]، ولا ريب أنّ التَكرار يُحقّق تناسبًا وترابطًا بين الآية السّابقة والآية التّاليّة.

اللفتةُ البلاغيّةُ في تأخير المُتعلّق ﴿عَلَيۡنَا﴾:

تأخيرُ المُتعلّقِ يفيدُ نفيَ تهمةِ الـتّـقـصـيرِ، وتعميم التّشابه

أخّر المُتعلّق (علينا) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ ولم يقدَّم؛ لغرض بلاغيّ، هو نفي التّهمة عنهم، وتعميم التّشابه؛ لأنّه لو قدّمه فقال: (إنّ البقرَ علينا تشابهَ) للزم أن يكون التّشابه عليهم حصرًا؛ فيكون تهمة لهم في عدم إنجاز ما هو مطلوب منهم؛ لأنّ التّقديم يفيد القصر، أمّا في تأخيره فقوله لا يحتمل القصر، فيكون معنى: (تشابهَ علينا)، أي: وعلى غيرنا، فتعميم التّشابه ينفي عنهم تهمة التّفريط والتّقصير فيما أمروا به، فهم يجعلون التَّشابه سببًا في التباسِ الأمرِ عليهم، بقطع النَّظرِ عن الاعتبارات الأخرى.

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/246.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/289.
(3) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 1/143.

بلاغة الفصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾:

بيانُ سببِ كثرةِ السُّؤالِ دليلٌ على معرفتِهم بتحايلِهم وسوءِ امتثالِهم

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ يُرادُ منه التّعليلُ والاعتذار؛ فهو بيانٌ لعلّة سؤالهم المكرر قبلها؛ "لأنّهم عَلِموا أنّ إعادَتَهُمُ السُّؤالَ تُوقِعُ في نَفسِ موسى تساؤلًا عَن سببِ هذا التَّكرير في السُّؤال، وقولُهُم: إنَّ البقرَ تشابهَ علينا اعتذارٌ عن إعادةِ السُّؤال"[1]، وجاء اعتذارُهم الضّمنيّ هنا؛ لأنّ تَكرار السّؤال ثلاث مرّاتٍ فيه وقعٌ ممزوجٌ بالسّآمة والإملالِ في نفس السّامع، وهو هنا موسى ﵇، وهو يدلُّ على معرفة القومِ بتحايلِهم على الأمرِ، وسوءِ امتثالِهم للمطلوبِ منهم.

فائدةُ التّوكيدِ تعليلُ السُّؤالِ

صُدِّر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ بحرف التّوكيد (إنّ)، ومجيئه للاهتمام "ثمّ يُتَوَسَّلُ بالاهتمام إلى إفادة معنى التَّفريع والتَّعليل؛ فتفيدُ (إنَّ) مفاد فاءِ التَّفريعِ والتَّسَبُّب"[2]؛ فهم يذكرون علَّة تَكرارِ سؤالِهم، وهو التَّشابه.

غرضُ التّوكيد في قولِه: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾:

جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ مُؤكّدات عدّة؛ الأوّل تصديرها بـ(إنّ) المؤكّدة الدّاخلة على الاسم، والثّاني: اللّام الدّاخلة على الخبر[3]، فضلًا عن مجيء "خبر (إنَّ) اسمًا؛ لأنّه أدَلُّ على الثُّبوت، وعلى أنّ الهدايةَ حاصلةٌ لهم"[4].

فائدةُ توسيطِ فعل المشيئة بين اسمِ إنَّ وخبرِها:

وعدٌ بالانقيادِ، واعترافٌ ضمنيٌّ بالنَّدمِ

ذكر في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ فعل المشيئة، وهو دالٌّ على الوعدِ بالانقيادِ وإشعارٌ بالنَّدم، بين اسم إنَّ وخبرِها ﴿لَمُهۡتَدُونَ﴾، "وتقديرُ الكلام: وإنَّا لَمُهتدونَ إنْ شاءَ اللَّه، فَقُدِّمَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/554.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/554.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/189.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/411.

على ذِكرِ الاهتداء اهتمامًا به"[1]، وهو دالّ على صدق دعواهم، "ولو كان تَعليقًا مَحضًا لمَا احتِيجَ إلى تأكيدٍ، ولكنَّه على قول القائل: أنا صانِعٌ كذا إنْ شاء اللّٰه، وهو مُتلبِّسٌ بالصُّنعِ"[2] فكأنّهم قالوا: لقد اهتدينا إلى ما أمرتنا به، بل نحن مُتلبّسون به فعلاً، ويؤيّد هذا الاهتمام أنّه مُكتنفٍ بين توكيدَين؛ هما (إنّ) في الاسم، واللّام ﴿لَمُهۡتَدُونَ﴾ في الخبر، فضلاً عن موافقة رؤوس الآيات.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدّعاء والسّؤال:

في قوله: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ بمعنى: سلْه، وأصل الدُّعَاء طلب الفِعل، والدُّعاء يكون برفعِ الصَّوت وخفضه، يُقال: دَعوته من بعيد، ودعوت اللّٰه في نَفسِي.

ويظهر الفرق بينهما في أنَّ السّؤال هو استدعاء معرفَة أو ما يُؤدِّي إلى المعرفة، والسُّؤال يكون طلب الخَبَر، وطلب الأمر والنَّهي، وهو أن يسأل السَّائل غَيره أَن يأمُرهُ بالشّيء أو ينهاه عنه، والسّؤال يكون من الأدنى في الرُّتبَة[3].

فاستعمال ﴿ٱدۡعُ﴾ بدلًا من (سلْ) أنسب للسّياق؛ حيث اتِّساقُه مع طلبهم من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بيان صفة البقرة المأمورين بذبحها، مع الإشارة إلى استنكافهم، وعدم تصديقهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلو قالوا: سل لنا ربَّك، لظهر جهلهم، وخضوعهم.

البيان والهدى:

في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ آثر البيان القرآنيّ لفظ (يبيّن) هنا، في حين استعمل لفظ (يهدي) في مواضع أُخَر، كقوله: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص: 22]؛ لأنَّ البيانَ في الحقيقةِ إظهارُ المَعنى للنَّفس كائنًا ما كان، فهو من قبيل القَول. والهدى بَيَان طريق الرّشد؛ ليُسلك دون طَريق الغيّ إذا أطلق، فإذا قُيِّد استُعمل في غيره فقيل: هدى إلى النّار وغيرها، فقوله: ﴿يُبَيِّن لَّنَا﴾ يناسب مقام الاسترشاد المُتعلّق بسؤالهم؛ لأنّهم في حاجة إلى إجابة قوليّة واضحة[4].

(1) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/188.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/411.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 37.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 172.

التَّبيين والتَّعريف:

قوله تعالى في الآية ﴿يُبَيِّن﴾ مُشتقّ من البين الدّالّ على المسافة بين أمرين.

ولم يعبّر بالفعل (يعرّف) من التّعريف على الرّغم من أنّ "التّبيين كالتّعريف، إلاّ أنّ التّبيين يقتضي إظهار الفضل بين الشّيء وغيره، والتّعريف قد يكون إظهار الشّيء في نفسه من دون اعتبار بغيره"[1]، وثمّة فرق آخر وهو أنّ "لفظَ المعرفة يُفيد تَمييز المَعلوم من غيره"[2].

فالتّعريف بيان الماهيّة والذّات، وهو غير مراد في الآية، فهم لم يُريدوا تَبيينَ ماهيَّةِ البقرةِ، ولكنَّهم أرادوا الوَصفَ؛ فحسُن التّعبير بالفعل (يبيّن)، ولم يحسن بالفعل (يعرّف).

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/224.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 80.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآية فيها الجواب الشافي لسؤالاتهم المُتعنّتة؛ فإنّهم "لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها، ولكنّهم شدّدوا فشدّد عليهم"[1]، فالتّناسب بين الآيتين كالعلاقة بين السّؤال والجواب، سألوا فأجابهم: بأنّ من صفتها كيت وكيت، فأذعنوا لمَا أُمروا، وذبحوها على طولِ كرهٍ ومماطلةٍ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ذَلُولٌ﴾: صيغة مبالغة زنة فَعُول، والجذر اللّغويّ (ذلل)، و"الذُّلُّ مصدر الذَّلُول، أي: المُنْقاد من الدّوابِّ، ذَلَّ يَذِلُّ، ودابَّةٌ ذَلُولٌ: بَيِّنَة الذُّلِّ"[2]، وأصل معناه دلالته "على الخُضوع، والاستكانةِ، واللِّينِ، فالذُّلُّ: ضِدُّ العِزِّ"[3]، و"الذُّلُّ: ما كان عن قهرٍ، يُقال: ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا، والذِّلُّ ما كان بعد تصعُّب، وهي ذَلُولٌ، أي: ليست بصعبة"[4].

ومعنى الذّلول هنا: "أنّها بقرة لم تذلّل بالعمل في الحراثة والسّقي"[5].

2) ﴿تُثِيرُ﴾: من الجذر اللّغويّ (ثير) "يُقال: ثَار ثائرُه، وفار فائرُه، إذا غَضِبَ... ويُقال: ثارت نَفسُه، إذا جَشَأت، أي: ارتَفَعت وجاشَت، أي فارَت... وأثار التُّراب إثارةً، إذا بَحثَه بقَوائِمه"[6].

وأحد أصليهِ في المعنى انبعاثُ الشّيءِ من "قولهم: ثارَ الشَّيءُ يَثورُ ثَورًا وثُؤُورًا وثوَرانًا.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/154.
(2) الخليل، العين: (ذل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذل).
(4) الرّاغب، المفردات: (ذل).
(5) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 1/144.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ثور، ثير).

وثارَتِ الحَصبَةُ تَثُورُ.وثاوَرَ فُلانٌ فُلانًا، إذا واثَبَه، كأَنَّ كُلَّ واحدٍ منهما ثارَ إلى صاحِبِهِ. وثَوَّرَ فُلانٌ على فُلانٍ شرًّا، إذا أظهَرَهُ"[1]، و"ثارَ الغبارُ والسّحابُ ونحوُهما: انتشر ساطعًا، وقد أَثَرتُهُ، يقال: أَثَرتُ الأرض، كقوله تعالى: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا﴾ [الرّوم: 9]، وثَارَتِ الحَصبة ثَوراً تشبيهًا بانتشار الغبار"[2].

ومعنى (تُثِيرُ) في الآية: بتقليب الأرض، فيخرج ما بباطنها إلى ظاهرها، والمقصود حرث الأرض بالمحراث[3].

3) ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: من الجذر اللّغويّ (أرض)، وأحد أصوله أنه كلّ "شيءٍ يَسفُلُ ويُقابِلُ السَّماء، يُقالُ لأعلى الفَرَسِ سماءٌ، ولقوائِمِهِ أَرضٌ... والأرضُ: الَّتي نحنُ عليها، وتُجمَعُ أَرَضِينَ - بفتح الرّاء وسكونها -، ولم تَجِئ في كتاب اللَّهِ مَجمُوعَةً"[4].

و"الأرض: الجِرمُ المقابلُ للسّماء، ويُعبّرُ بها عن أسفل الشّيء، كما يُعبَّرُ بالسّماء عن أعلاه"[5]، والأرض المقصودة هنا: الأرض المعروفة الّتي يعيش عليها البشرُ، ومن ذلك قولهم في الإثارة: "قلبَ الأرضَ للزّراعةِ، يُقال: أثرتُ الشّيء واستثرتُه، إذا هيّجتَهُ"[6].

4) ﴿وَلَا تَسۡقِي﴾: من الجذر اللّغويّ (سقي)، والأصل في معناه "إشرَابُ الشَّيءِ الماءَ وما أَشبَهَهُ. تقولُ: سَقَيتُهُ بيدي أَسقِيهِ سَقيًا، وأَسقَيتُهُ، إذا جَعَلتَ له سِقيًا. والسُّقيُ: المَصدَرُ، وكَم سِقيُ أرضِكَ، أي: حَظُّها مِنَ الشُّربِ"[7].

و"السَّقيُ والسُّقيَا: أن يُعطِيه ما يشرَبُ، والإسقاءُ: أن يجعلَ لهُ ذلك حتّى يتناولَه كيف شاء، فالإسقاءُ أبلغُ من السّقي؛ لأنّ الإسقاءَ هو أن تجعلَ له ما يُسقَى منه ويشرَب"[8].

ويدور معناه حول "تحصيل الماء ونحوه من المائع في الجوف بإنفاذه إليه: كما في شُرب الماء، وسَقّي الثّوب. والسّقاء أداة لذلك، والسّاقيّة تسقى الزّرع"[9].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثور).
(2) الرّاغب، المفردات: (ثور).
(3) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (ثور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أرض).
(5) الرّاغب، المفردات: (أرض).
(6) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/156.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سقي).
(8) الرّاغب، المفردات: (سقى).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سقى).

ومعنى ﴿وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ﴾ في الآية: "لا يُستقى عليها الماء لسقي الزّرع"[1].

5) ﴿ٱلْحَرْثَ﴾: الجذر اللّغويّ له (حرث)، وهو"حرث الزَّرع، حرَث يحرُث حرثًا وحراثةً، وحرثَ الرّجلُ لدنياه أَو آخرته؛ إذا عمل لها"[2]، والمعنى المحوريُّ فيه: شقُّ السّطح الملتئم، وإثارتُه بإخراج بعض ما استوى به ظاهرُه كُتَلًا، كالأرض وأماكن الحوافر فيها[3].

"ومن هذا البابِ حَرثُ الزَّرعِ. والمَرأَةُ حَرثُ الزَّوجِ؛ فهذا تشبيهٌ، وذلك أَنَّه مُزدَرَع ولده"[4]، وهو أيضًا "إلقاءُ البَذرِ في الأرض، وتهيُّؤُها للزّرع، ويُسمّى المحروثُ حَرثًا"[5]. ومعنى الحرث في الآية: ما تمّت حراثته وزراعته[6].

6) ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: جذرهُ اللّغويّ (سلم)، و"معظمُ بابِهِ منَ الصِّحَّةِ والعافيةِ...فالسّلامةُ أَن يسلمَ الإنسانُ منَ العاهةِ والأذَى"[7]، "والسَّلم: الصّلحُ... والسِّلمُ: المُسالمُ. تقول: أنا سِلمٌ لمن سالمني، والسَّلامُ: السّلامَةُ. والسّلامُ: البراءة من العيوب"[8].

و"السِّلمُ والسَّلَامَةُ: التّعرّي منَ الآفات الظّاهرة والباطنة، قال اللّه تعالى: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشّعراء: 89]، أي: مُتَعرٍّ من الدَّغَل، فهذا في الباطن، وقال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾، فهذا في الظّاهر"[9].

ومعنى (مسلّمة) في الآية: "أي: هي سالمةٌ من كل عيبٍ، وقيل: من آثار العمل التي تعملها البقر كالحرث والنَّضح"[10].

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/77.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حرث).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حرث).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرث).
(5) الرّاغب، المفردات: (حرث).
(6) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 1/164.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (سلم).
(9) الرّاغب، المفردات: (سلم).
(10) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (سلم).

7) ﴿لَّا شِيَةَ﴾: اسم مشتق من الوشي، و"الشِّيةُ: بَياضٌ في لون السَّوادِ، أو سوادٌ في لون البياض"[1]، وأحد أصليه "يدُلُّ على تَحسينِ شَيءٍ وتَزيينِه... وَشَيتُ الثَّوبَ أَشِيهِ وَشيًا. ويقولون للَّذي يَكذِبُ وَيَنِمُّ ويُزَخرِفُ كلامَهُ: قَد وَشَى، وهو واشٍ"[2].

ومنه "وَشَيتُ الشّيء وَشياً: جعلتُ فيه أثرًا يُخالِف معظمَ لونه، واستُعمل الوَشيُ في الكلام تشبيهًا بالـمَنسُوج، والشِّيَةُ فِعَلَةٌ من الوَشيِ، قال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾"[3].

والمعنى في الآية: "أي: ليس فيها لَونٌ آخَرُ غير الصُّفرَةِ الفاقِعَة"[4].

8) ﴿جِئۡتَ﴾: جاء من الجذر اللّغويّ (جيء)، والمعنى المحوريُّ فيه "انحدار إلى حيّز، أو تجوّف سُفليّ مُهَيّأ جامع: كالماء في الهبطة- ومن هذا المعنى المجيء: الإتيان إذ هو حضور الجائي من حيث كان إلى مكان (حيّز)؛ للقاء أو لأمر"[5].

والمعنى في الآية: "كما تقولُ جاءَ بالأمرِ على وَجهِه"[6].

9) ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾: من الجذر اللّغويّ (حقق)، والأصل في معناه دلالته"على إحكام الشَّيء وصحَّته. فالحقُّ: نقيضُ الباطل، ثمَّ يرجعُ كُلُّ فرع إليه بجودة الاستخراج، وحُسن التّلفيق، ويُقال حَقَّ الشَّيءُ: وَجَبَ"[7].

و"أصل الحَقّ: الـمُطابقة والـمُوافقة، كمطابقة رِجلِ الباب في حقّه لدورانه على استقامةٍ"[8] و"الحقّ في الأصل: الثّبوت، والشّيء الثّابت، يُقال: حقّ الأمر يحقّ حقًا، فهو حقّ: أي: ثبت واستقرّ"[9].

ومعنى ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ في الآية أنّهم: "أرادوا بالحق الأمر الثابت الذي لا احتمال فيه"[10].

10) ﴿فَذَبَحُوهَا﴾: من الجذر اللّغويّ(ذبح)، والأصل في معناه "يدُلُّ على الشَّقِّ.

(1) الخليل، العين: (وشي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وشي).
(3) الرّاغب، المفردات: (وشى).
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/289.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (جيأ).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/555.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(8) الرّاغب، المفردات: (حق).
(9) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (حقق).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/555.

فالذَّبحُ: مَصدَرُ ذَبَحتُ الشَّاةَ ذَبحًا. والذِّبحُ: المَذبوحُ. والذُّبَّاحُ: شُقوقٌ في أصول الأصابع. والمَذابِحُ: سيولٌ صِغارٌ تَشُقُّ الأرضَ شَقًّا"[1]، و"أصل الذَّبح: شقّ حَلقِ الحيوانات"[2]، وهو المعنى المقصود في الآية.

11) ﴿وَمَا كَادُواْ﴾: فعلٌ من أفعال المقاربة، الجذر اللّغويّ منه (كود)، و"كادَ يفعل كذا، يَكادُ كَوْداً ومَكادَةً، أي: قارَبَ ولم يفعل... وكادَ وُضِعَت لمقاربة الشّيء، فُعِلَ أو لم يُفعَل، فمجرَّدُهُ يُنبئ عن نفي الفعلِ، ومقرونُهُ بالجحد ينبئ عن وقوعِ الفعلِ"[3] والأصل في معناه "كلمةٌ تدُلُّ على التِماسِ شَيءٍ ببعضِ العَناءِ. يقولون: كادَ يَكودُ... فأمَّا قَولُهُم في المُقارَبة: كادَ، فمَعناها قاربَ"[4]، وإذا اقترنت (كاد) بالنّفي كالآية مَوضِع الشّاهد "فإنّها تفيد وقوعَ الفعل بعد صعوبة أو محاولات، وهذا أيضًا من المُقاربة"[5]. والمعنى في الآية دالٌّ على: " استثقال لاستقصائهم واستبطاء لهم، وأنّهم لتطويلهم المفرط، وكثرة استكشافهم، ما كادوا يذبحونها"[6].

12) ﴿يَفۡعَلُونَ﴾: من الجذر اللّغويّ (فعل)، والأصل في معناه "يدُلُّ على إحداثِ شَيءٍ مِن عملٍ وغيره، من ذلك: فَعَلتُ كذا أَفعَلُه فَعْلًا. وكانت مِن فُلانٍ فَعْلَةٌ حَسَنَةٌ أو قَبيحَةٌ"[7].

و"الفِعلُ: التّأثير من جهةِ مُؤثِّرٍ، وهو عامٌّ لِما كان بإجادةٍ أو غيرِ إجادةٍ، ولِما كان بعلمٍ، أو غيرِ علمٍ، وقصدٍ أو غيرِ قصدٍ، ولِما كان من الإنسان والحيوان والجمادات"[8]، والفعل هو القدرة على إحداثِ الشّيء[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذبح).
(2) الرّاغب، المفردات: (ذبح).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (كود).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كود).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كود).
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/283-284.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فعل).
(8) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(9) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (فعل).

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الآية جواب عن آخر أسئلتهم الّتي شدّدوا فيها على أنفسهم من حيث لا يدرون؛ فشدّد اللّه عليهم؛ فأخبرهم عن صفة تلكم البقرة، وأنّها لم يذلّلها العمل، ولم تبتذل في الكسب من إثارة للأرض، وسقي الزَّرع، فكانت من البقر الوحشيِّ، ثمّ زاد عليهم أن تكون سالمة من العيوب، وختمها بأن لا يخالط صفرتها أيّ لون آخر من بياض ونحوه.

ولـمّا استوفى اللّه لبني إسرائيل جميعَ الـمُمَيِّزاتِ والـمُشَخِّصاتِ لهذه البقرة، ولم يَرَوا سبيلًا إلى سؤالٍ آخَرَ، فما قاربوا أَن يَذبَحوها إِلَّا بعدَ أنِ انتَهَت أسئِلَتُهم، فاضطروا إلى ذبحها بعد طول المراوغة، وانقَطَعَ ما كان مِن تَنَطُّعِهم وتَعَنُّتِهم[1].

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سرُّ اختيارِ ذبحِ البقرِ دون سائرِ الحيوان:

جاءَ الأمر بذبح بقرةٍ في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ من بين سائرِ الحيوان؛ "لأَنَّها مِن جنسِ ما عبدُوهُ مِنَ العِجلِ؛ لِيُهَوِّنَ عندَهم ما كان يَرَونَهُ مِن تَعظيمِه، ولِيَعلَمَ بإجابَتِهم ما كان في نُفوسِهم مِن عبادتِه"[2].

بلاغة الوصف بـ﴿ذَلُولٌ﴾:

التّعبيرُ بالمبالغة فيه تشديدٌ عليهم، جزاءً لتشدُّدِهم على أنفسهم

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ جوابٌ عن سؤالهم الثّالث في صفة البقرة الّتي أُمروا بذبحها، فذكر لهم الحقّ تبارك وتعالى أولى صفاتها بقوله: (لا ذلولٌ)، وهو نفي أن تكون على هذه الصّفة، و"ذَلُولٌ صفة لبقرة بمعنى: بقرةٌ غيرُ ذلولٍ، يعني: لم تذلّل"[3] للحراثةِ، وزِنةُ (ذَلُول) (فَعُول)، وهي صيغة مبالغة منفيَّة، ولهذا النّفي غرضٌ، وهو إفادةُ النَّفي من كلِّ وجهٍ، فنفي الكثير يحتِّم نفيَ القليل، ولا عكس، فجاء بالمبالغة ليدخل فيه ما دونه، وفي نفي ذلك عن البقرة تشديد عليهم لـمّا شدّدوا على أنفسهم، والتّشديد قرين المبالغة.

---

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/289.

(2) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/372.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 283-1/282.

سرّ تعدُّد الصّفات المَنفيّة في ختام الوصف:

تَكرارُ النّفي مع صفاتِ البقرة فيه تصعيبٌ عليهم، جزاءً على أعمالهم

يشتملُ قوله تعالى: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ﴾ على صفات متعدّدة للبقرة المأمور بذبحها من لدن ﴿ذَلُولٌ﴾ وقد ذُكِرت سابقًا، وهنا تثير الأرض، أي: تقلّبها لأجل زراعتها[1]، ثمّ ذكر الفعل ﴿تَسْقِى﴾ مَنفيًا، ثمّ قوله ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾، أي: لا عيبَ فيها، ثمّ نفى عنها ﴿شِيَةَ﴾، "والشِّيَةُ أصلُها وَشِيَةٌ... والمُرادُ أنّ هذه البقرةَ خالصةُ الصُّفرة ليس في جسمها لَمَعَةٌ من لونٍ آخَرَ"[2]، فهذه الصّفات جميعًا داخلة تحت حيّز النّفي إمّا لفظًا، وإمَّا معنًى، والمُتأمّل في ذلك "يرى الصّعوبة والتّشدّد في اختيار أوصافها... كأنّ الحقّ تبارك وتعالى يريد أن يجازيهم على أعمالهم"[3]؛ فالنّفي أصعب من الإيجاب في اختبار الصّفات، وقد جاء النّفي في الصّفة الأخيرة على الغاية من التّشديد، فأراد منهم ألّا يكون أيُّ لونٍ مخالطٍ لصفرتها وإن كان صغيرًا، بدلالة لا النّافيّة للجنس الّتي تنفي القليل فضلًا عن الكثير.

بلاغةُ اختيارِ صفةِ ﴿ذَلُولٌ﴾ وتقديمها على الصّفتين الأُخريين:

تقديمُ الأصلِ على الفرع، فمن ذلَّ هان في بقيَّة الصِّفات

يشتمل قوله تعالى: ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ على أوصاف متعدّدة للبقرة الّتي أُمِروا بذبحها، وقد تقدّم وصفٌ على آخر في سياق النّفي، فتصدّر وصف ﴿ذَلُولٌ﴾ ثمّ ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾، وبعده ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾، ثمّ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾، وختمها بـ﴿لَّا شِيَةَ﴾، وفي هذا التّقديم والتّأخير سبب، هو أنّه قدّم ما قدّم من باب تقديم الأصل على الفرع، فلا ذلول "أي: غيرُ مُذلَّلةٍ بالعمل في الحراثةِ، ولا في السَّقي"[4]؛ فكونها لا ذلول يجعلها لا تثير الأرض،

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/108.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/116.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/396.
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/289.

ولا تسقي الحرث فكأنّ الذّلولَ أصلٌ، وإثارة الحرث، وسقي الزّرع فرعان متّصلان بالأوّل، وفيها لمحةٌ إشاريَّةٌ وهي أنَّ من ذلَّ هان، والمقصودُ التَّلويحُ للمأمورين بذبح البقرةِ أن لا تكونَ أكرمَ منهم.

التّعبيرُ بإثارة الحرثِ وسقي الزّرع بالفعليّة وغيرهما بالاسميّة:

الحركةُ والتّجدّدُ هما الصّفة الغالبةَ على هذه الأفعال

ذُكِر في قوله تعالى: ﴿تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ فعلان، هما وصفان من أوصاف بقرة بني إسرائيل، وقد ذُكِر هذان الوصفان بالصّيغة الفعليّة الدّالّة على الحدوث والتّجدّد وعدم الاستقرار؛ فإثارةُ الأرض، وسقيُ الحرث من الألفاظ المُقترنة بالحدوث والتّجدّد، "وإثارةُ الأرضِ حَرثُها وقَلبُ داخلِ تُرابِها ظاهرًا وظاهره باطنًا، أُطلِقَ على الحَرثِ فِعلُ الإثارة تَشبيهًا لانقلاب أجزاءِ الأرضِ بثورةِ الشَّيءِ مِن مكانِه إلى مكانٍ آخَرَ"[1]، ويشبهه في تجدّده السّقي؛ فنجد أنّ أكثرَ الآيات جاءَت بالفعليّة، وهناك آيات قليلة جداً جاءَت بالاسميّة؛ ذلك أنّ السّقيَ والسّقاية أمرٌ فعليٌّ يتجدّد وينقطع، وفيه حركة وعدم ثبات، أي: أنّ الصّفة الغالبة عليه هي الحركة والتّجدّد، وآية ذلك أنّ أغلب الألفاظ المُشتقّة من (سقي) في القرآن الكريم واردة بالصّيغة الفعليّة، أمّا الصّفتان الأخريّان؛ وهما سلامتها من العيوب ﴿مُسَلَّمَةٞ﴾، ووجود لون آخر مع صفرتها ﴿لَّا شِيَةَ﴾، فلا يتخيّل فيهما الحدوث؛ لأنّهما أمران مُتعلّقان بالخِلقة.

دلالة اسمِ المفعولِ ﴿مُسَلَّمَةٞ﴾:

دلالة (مسلّمة) على أصلِ الخِلقةِ

في قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ وردت هذه الصّفة (مسلّمة)، وهي بمعنى الخلوّ من العيوب، "فهي اسمُ مَفعولٍ مِن (سُلِّمَت) المَبنيّ للمَفعول، وكثيرًا ما تُذكَرُ الصِّفاتُ الَّتي تُعرَضُ في أَصلِ الخِلقَةِ بصيغة البناء للمَفعول في الفِعل والوَصف؛ إذ لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/555.

يخطر على بَال المُتكلِّم تَعيِينُ فاعِلِ ذلك"[1]، وهكذا تأتي الأوصاف الدّالّة على الخِلقة غالبًا على هذه الصّيغة.

معنى (الحقّ) في قوله: ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٔـٰنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾:

المُرادُ بالحقِّ البيانُ لا الذي يُقابل الباطلَ

المقصودُ بالحقِّ في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٔـٰنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾ البيان، أي: الآن بيّنت لنا، فبعد أن بيّن لهم صفات البقرة أجابوا وأذعنوا، وقالوا: الآن جئتَ بالحقّ، أي: "بيّنت لنا غاية البيان، وجئتَ بالحقِّ الّذي طلبناه، لا أنّه كان يجيء قبل ذلك بغير حقّ"[2] فلو كان مقصدهم معنى الحقّ في كلام العرب لأدخلهم ذلك في زمرة الكافرين، فالمُرادُ "الآنَ ظَهَرَت حقيقةُ ما أُمِرنا به؛ حتّى تميَّزَت مِن غيرِها فلا يكون كُفرًا"[3].

بلاغة الإيجازُ بالحذفِ في قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾:

تـركُ ذكـر التّفاصيل مقصودُه توجيه الاهتمام بمقصود القصَّة

في قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ إيجازٌ بالحذف؛ لأنّهم بعد أن علموا من أوصافها ما علموا، طلبوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف، وبحثوا عنها، ثمّ اهتدوا إليها بنعوتها، فلمّا وصلوا إليها ذبحوها[4]؛ لأنّ معرفة أوصافها مقدِّمة للبحث عنها، والعثور عليها، ثمّ ذبحها، فالفاء فصيحةٌ على رأي من لا يشترط أن تكون الجملةُ المحذوفةُ شرطًا.

بلاغة التّعريض في قولِه: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾:

تنزيلهُم منزلةَ مَن لم يفعل؛ لأنّهم ذبحوها كارهين مُماطلين

فعلُ كادَ في قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ يُفيد المقاربة، والمعنى: "وما قارَبوا ذبحَها قبل ذلك، أي: وقع الذَّبحُ بعدَ أن نَفى مُقارَبَته، فالمعنى: أنّهم تَعَسَّروا في ذبحها، ثمَّ ذَبَحوها بعد ذلك"[5]، ولـمّا كان أمرهم كذلك ففي التّعبير بـ(كاد) تعريض بهم؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/555.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/165.
(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/130.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/87.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/416.

لأنّهم "ذَبَحُوها في حالٍ تَقرُب مِن حالِ مَن لا يَفعَلُ، والمعنى: أَنَّهُم ذَبحوها مُكرَهِينَ، أَو كالمُكرهِين لمَا أَظهَروا مِنَ المُماطَلَة"(1)، فنفي مقاربة فعلهم حصل قبل الذّبح؛ لكثرة مماطلتهم، وتَكرار سؤالاتهم، أي: ما كادوا يفعلون ذلك في مضي زمانهم.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّة:

المجيء والإتيان:

في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ ورد المجيء، ولم يرد الإتيان، مع أنّهما متقاربان؛ ولذلك وردا في سياق واحد، في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الحِجر: 63-64].

المجيء انحدار إلى حيّز، وهو أعمّ؛ لأنّ الإتيان مجيء بسهولة

غير أنّ الأنسبَ للسّياق هنا هو المجيء؛ حيث إنَّه يدُلُّ على "انحدار إلى حيّز- أو تجوُّف- سفليّ مُهيَّأ جامع"(2)، ومجيئُه بصفات البقرة واضحة جليّةً وضَعَهم في هيئَةِ المُضطر إلى تنفيذ أمر اللّه تعالى؛ كأنَّه دفعهم إليه دفعًا، كمن ينحدر إلى حيِّز.

وجاء يجيء ومَجيئًا، والمَجيء كالإتيان، لكنِ المجيءُ أَعمُّ؛ لأنّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولة. ويُقال: جاء في الأعيان والمعاني، ولما يكون مجيئُه بذاته وبأمره، والإتيان قد يُقال باعتبار القَصد وإن لم يكن منه الحُصول، والمجيء يُقال اعتبارًا بالحُصول(3).

الحقّ والصّدق:

الحقُّ هنا، أي: في أمر البقر، فعرفتنا أيها الواجب علينا ذبحها منها، و﴿جِئْتَ بِالحَقِّ﴾ الَّذي طَلَبْنَاهُ، لا أنَّ موسى عليه السلام كانَ يَجيءُ قَبْلَ ذَلِكَ بِغَيْرِ حَقٍّ(4)، وبَينَ الحقّ والصّدق وشائجُ وعلائقُ، إلاّ "أَنّ الحقَّ أَعمُّ؛ لأَنَّه وقوعُ الشَّيء في موقعه الَّذي هو أولى به. والصّدقُ: الإخبار عن الشَّيء على ما هو به، والحقُّ يكون إخبارًا وغير إخبار"(5)؛ لذا لا يحسُنُ في هذا المَوضع إلّا كلمةُ الحقّ؛ فهي المُناسِبةُ لفظًا ومعنًى؛ لما للحقّ من سعةٍ وعُمُوم، قُبالة التّقييد المُنبِئ عن الصّدق.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/557.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (جيأ).

(3) الرّاغب، المفردات: (جاء).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/217، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/165.

(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 48.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [البقرة: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تقعُ هذه الآية من سابقاتها موضع السّبب من النّتيجة، وإن قدّم النّتيجة لشرفها؛ فـ"هذه الآية مُؤَخَّرة في التّلاوة، مُقدَّمة في المعنى؛ لأنّ السّبب في الأمر بذبح البقرة قتل النّفس، فتقدير الكلام: وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها، فسألتم موسى فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ﴾ [البقرة: 67]"[1].

وقد "ابتدأ بأشرف القصدين من معنى التّشريع الّذي هو القائم على أفعال الاعتداء وأقوال الخصومة"[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿قَتَلْتُمْ﴾: من الجذر اللّغويّ (قتل)، و"القتلُ معروف، يُقال: قَتَله إذا أَمَاتَهُ بضربٍ أو حجر أو سمّ أو علّة، والمنيّة قاتلة"[3].

والأصل في معنى القتل "يدُلُّ على إذلالٍ وإماتَةٍ. يُقالُ: قَتَلَهُ قَتلًا. والقِتلَةُ: الحالُ يُقتَلُ عليها. يُقالُ: قَتَلَهُ قِتلَةَ سُوءٍ. والقَتْلَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ"[4]، وقد لا يكون بهذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: 30]، ومعناه "لعنهم الله أنّى يُصرفون، وليس هذا من القتالِ الَّذي هو بمعنى المقاتلة والمحاربة بين اثنين"[5].

والوارد في الآية (لا تقتلوا) على المعنى الأوّل المعروف، وهو بمعنى "أَزال رُوحه عن جسده"[6]

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/78.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/475.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قتل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قتل).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قتل).
(6) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/238.

وقتلُ النّفس في الآية إزهاقُ روحِ رجلٍ من بني اسرائيل[1].

2) ﴿نَفۡسٗا﴾: من الجذر اللّغويّ (نفس)، وهو "يدُلُّ على خروج النَّسيم كيف كان، من ريحٍ أو غيرها... والنّفسُ: الدَّمُ، وهو صحيحٌ، وذلكَ أنَّه إذا فُقِدَ الدَّمُ من بَدن الإنسان فَقَدَ نفسَهُ"[2].

وهو شيءٌ "لطيفٌ يسري في فُتُوقِ أثناء الشّيءِ فيصلحُه ويتيحُ لهُ التّصرفَ. كالنّفَسِ في أثناءِ بدنِ الحيِّ فهو علامةُ حياتِه الّتي تتيحُ لهُ التّصرفَ"[3].

ومعنى ذلك أنّ النّفسَ يعبّرُ بها عن الإنسان، وهو تعبيرٌ مجازيٌّ وفقًا لـمَا سبق، وهو كذلك في هذه الآية؛ فالأنفسُ هم المخاطَبونَ بهذه الآية، وقد يكون معناها الرُّوحُ[4]، والنّفس في الآية بمعنى الشّخص[5]؛ فهم قد قتلوه حقيقة.

3) ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ﴾: أصله (تَدارَأْتُم): (تفاعَلْتم)، وجذره اللّغويّ (درأ)، وقُلبت التّاءُ دالاً فصار (ادْدَارَأْتم)، ثمّ أُدغمت فصار (ادَّارأتم)[6]، والأصل في معناه يأتي من الدَّفع، كقولهم "درأتُ الشّيءَ: دفعتُه"[7]، ومن معانيه أيضًا "الميل إلى أحد الجانبين... وفلان ذو تَدَرُّؤٍ، أي: قويّ على دفع أعدائه، ودَارَأْتُهُ: دافعتُه"[8].

ومعنى (فادّارأتم) في الآية، أي: تدافعتم، وهو تدافع معنويّ؛ فكلّ واحد يريد أن يدفع الجريمة عن نفسه ويبرئها[9].

4) ﴿مُخۡرِجٞ﴾: والجذر اللّغويّ له (خرج)، ومنه الخروجُ، وهو"نقيض الدُّخول... والخُروجُ: السّحاب أوّل ما يبدأ، والخَرْجُ والخَراجُ: ما يُخرَجُ من المال في السّنة بقَدْرٍ مَعلوم"[10].

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/130.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نفس).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (نفس).
(5) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 2/182.
(6) السّمين، الدّرّ المَصون: 1/434.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درى).
(8) الرّاغب، المفردات: (درأ).
(9) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/398.
(10) الخليل، العين: (خرج).

والأصل في معناه على ضربين؛ الأوّل: وهو المقصود أن ينفذ عن الشّيء، ومنه الخَراجُ، أي: "الإِتاوةُ؛ لأنَّه مالٌ يُخرِجُه المُعطِي...والخُروجُ: خُروجُ السَّحابة؛ يُقالُ: ما أَحسَنَ خُروجَها"[1]، فالمعنى الظّهور والبروز والنّفاذ عن الشّيء؛ لذلك يُقال هذا لكلّ من برز من مكان قراره أو وضعه، إن كان ذلك المَقَرُّ بيتًا أو مَوطنًا أو لباسًا، أو غير ذلك، ولو كان حالة نفسيّة[2].

ومعنى ﴿مُخۡرِجٞ﴾: مُظهِرٌ الأمرَ الّذي تخفونه، وهو أمر القتل[3].

5) ﴿تَكۡتُمُونَ﴾: من الكتم والكتمان، وهو يناقض الظّهور والإعلان[4]، والأصل في معناه دلالته على الاستتار والإخفاء، ككتمان الحديث[5].

"وحقيقة الكتم ستر الشّيء وتغطيته"[6]، وهذه المعاني مُتقاربة، وهي المقصودة في الآية الكريمة، وما جاء في القرآن الكريم من اشتقاق هذه اللّفظة معناه: حبس القول الموجود في الفؤاد، كالشّهادة أو العقيدة أو نحوها[7].

و﴿تَكۡتُمُونَ﴾ في الآية بمعنى: تخفون وتُغيِّبون[8].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكروا - يابني إسرائيل - حين قتلتم واحدًا منكم في ذلك الوقت الّذي ارتكبتم جُرمكم في إزهاق رُوح إنسان بريء.

ونسب اللّه القتل إليهم جميعًا إشارة إلى وُقوعِ قَتلٍ فيهم دون إنكار، وهي طريقةُ القُرآن في إسناد أفعال البعض إلى الجميع؛ جَريًا على طريقة العرب في قَولِهِم: قَتَلَت بَنو فُلانٍ فُلانًا[9]، فلمّا علموا ذنبهم تدافعوا واختلفوا، كلٌّ يدفع التّهمة عن نفسه، ويلقيها على غيره، حتى تنازعتم، ولكنّ اللّه تعالى بعلمه سَيُظْهِرُ ما تخفونه من أمر الجريمة،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).
(2) الرّاغب، المفردات: (خرج).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/284.
(4) الخليل، العين: (كتم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتم).
(6) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (كتم).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كتم).
(8) الشّوكانّي، فتح القدير: (كتم).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/560.

وإرادتكم "الإيقاع بقوم بُرآء تَتَّهِمونَهُم بالقتل؛ لإِخفاء القاتل؛ لأنَّه لا يَخفى عليه مَكرُكُم"[1].

۞ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة قوله ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ﴾، ودلالة صيغةِ الافتعالِ فيه:

تصويرُ حرصِ بني إسرائيل على تبرئة النّفس واتّهام الآخَر

في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾ تعبير فريد من نوعه لم يَرِد في القرآن الكريم إلَّا في هذا المَوضِع، وفعلُ "تَدَارَأْتُم: تَفاعُلٌ مِنَ الدَّرء، وهو الدَّفعُ؛ لأنّ كُلَّ فريقٍ يَدفعُ الجِناية عَن نَفسِه، فلمَّا أُريدَ إِدغامُ التَّاء في الدَّال على قاعدة تاءِ الافتِعالِ مَعَ الدَّالِ والذَّالِ جُلِبَتْ هَمزَةُ الْوَصلِ لِتَيسِيرِ التَّسْكِينِ لِلْإِدْغَام"[2].

و"التّدارؤ هنا إمّا مجاز عن الاختلاف والاختصام، أو كناية عنه، إذ المتخاصمان يدفع كلٌّ منهما الآخر، أو مستعمل في حقيقته، أعني التّدافع بأن طرَح قتلَها كلٌّ عن نفسه إلى صاحبه، فكلٌّ منهما من حيث إنَّه مطروح عليه يدفع الآخر من حيث إنّه طارح، وقيل: إنّ طرح القتل في نفسه نفس دفع الصّاحب، وكلٌّ من الطّارِحَيْن دافع، فتطارحهما تدافع، وقيل: إنَّ كلًّا منهما يدفع الآخر عن البراءة إلى التّهمة، فإذا قال أحدهما: أنا بريء وأنت متّهم، يقول الآخر: بل أنت المتّهم وأنا البريء، ولا يخفى أنّ ما ذكر على ما فيه بالمجاز أليق، ولهذا عدّ ذلك أبو حيّان من المجاز"[3]؛ فأفاد هذا الفعلُ تصويرَ التّدافع والتّخاصم إلى منتهاه؛ بحيث يتداخل البريء والمتّهم؛ فلا يستبين الحقّ، ولا يظهر الجاني.

بلاغة التَّعبير بالاسم ﴿مُخۡرِجٞ﴾ لا الفعل:

إخراجُ الله لما يكتمُه النَّاس ثابتٌ، فإن تجدَّد الكتمُ تجدَّد الإخراج

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ جملة اسميّة محكيّة، وجاء الخبر (مُخرج) اسمًا، لا فعلًا فلم يقل: (والله أَخْرَجَ)، وسرُّ التّعبيرِ بالصّيغةِ الاسميّة؛ لدلالتها على الثّبوت والاستقرار[4]، وقد

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/290.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/560.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/293.

(4) الرّضّي، شرح الرّضّي على الكافية: 1/316.

أخرج الحقّ تبارك وتعالى ما كان أصحاب البقرة يخفونه من أمر القاتل، وهذا الخطاب ليس مُوجَّهًا لبني إسرائيل، بل هو خطاب عامّ مَبنيّ "على تَنزيل المُخاطَبين مَنزلةَ أَسلافِهم لِحَملِ تَبِعَتِهم عليهم بناء على ما تقَرَّرَ مِن أنَّ خُلُقَ السَّلَفِ يَسري إلى الخَلَف"[1]، ويتوافر على رسالة هي أنّه تعالى "عالمٌ بجميع المعلومات، وإلَّا لـمَا قَدَرَ على إظهارِ ما كَتَموهُ"[2]، ويعلم ما يكتمه المرء؛ بدلالة الاسم الدّالّ على الثّبوت، أي: أنّه تعالى يعلم دائمًا ما تكتمونه، وأنّ الأمر ليس مُتعلِّقًا بقصة قتيل بني إسرائيل.

سرُّ تقديم ذبح البقرة على قتل النَّفس:

من باب تقدّم النّعمةِ على الذّنب

في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾، تقديمٌ وتأخير، فالآية بتمامها مُؤخَّرة في اللّفظ والتّلاوة، مُقدَّمة في الوقوع، "فالآيتان في قوّة أن لو قيل: وإذ قتلتم نفساً فادّرأتم فيها، فأمرتم بذبح البقرة، فأوضّح لكم ذلك حكم القتيل"[3].

ولأنّ ذبح البقرة كان سببًا في معرفة القتيل من خلال قوله تعالى: ﴿ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، وسبب ذلك أنّهم كانوا مختلفين في القاتل قبل الذّبح، فلمّا أنزل الحقّ تبارك وتعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ [البقرة: 67] "علم المخاطَبون أنَ البقرة لم تُذبَح إلاّ للدّلالة على قاتل خفيت عينه عليهم، فلمّا استقرّ علم هذا في نفوسهم أتبعه بقوله: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا﴾ على جهة التّوكيد، لا أنّه عرّفهم الاختلاف في القاتل بعد أن دلّهم على ذبح البقرة"[4].

ففائدة تقديم الذّبح في الذّكر أنّ آياتِ البقرة سِيقت لبيان النّعم كما تقدّم، فناسب تقدّم ذكر النّعمة على ذكر الذّنب[5]، و"ليتوجّه العتاب إليهم مرّتين على ترك المسارعة لامتثال أمر نبيّهم، وعلى قتل النّفس، ولو قدّمها لكانت قصّة واحدة بتوبيخ واحد"[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/561.
(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/133.
(3) ابن الزبير، مِلاك التّأويل: 2/363.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/56.
(5) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 102.
(6) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/106.

﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣﴾ [البقرة: 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا بيّن في الآية السّابقة سببَ أمرهم بذبح بقرة، وهو إرادة تعريفهم بالقاتل، ذكر هنا أمرًا صريحًا بضربها تنفيذًا للمقصود من ذبحها، وأشار ضمنيًّا إلى أنّ إحياء هذا القتيل هو أنموذج تعريفيّ توضيحيّ لهم وللنّاس كافّة بأنّ اللّٰه تعالى يُحيي الموتى في يوم البعث.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱضۡرِبُوهُ﴾: من الجذر اللّغويّ منه (ضرب)، وله أصل واحد "ثمَّ يُستعارُ ويُحمَلُ عليه. مِن ذلك ضَرَبتُ ضَربًا، إذا أَوقَعتَ بغَيرِكَ ضَربًا"[1]، "ومنه هذا المعنى المشهور للضّرب، أعني: صدم البدن بعصا أو يد"[2].

و"الضَّربُ: إيقاعُ شيءٍ على شيء، ولتصوُّر اختلاف الضّرب خُولِف بين تفاسيرها، كضربِ الشّيءِ باليد، والعصا، والسّيف ونحوها، قال: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ﴾"[3]، وهو أيضًا "إيقاع جسم على جسم قصدًا للتّأليم والإيلام.

ومعنى الضّربٍ في الآية: الضَّرب المباشر للقتيل.

2) ﴿بِبَعۡضِهَاۚ﴾: جذره اللّغويّ (بعض)، والأصل في معناه " تَجزِئَةٌ للشَّيءِ. وكُلُّ طائفةٍ منه بَعضٌ. قال الخليلُ: بَعضُ كُلِّ شَيءٍ طائفةٌ منه"[4].

"وكلّ ما في القرآن من التّركيب (بعض) بمعنى: جزء من شيء، أو فريق من جماعة"[5].

والمعنى في الآية: "أيُّ شَيءٍ كانَ مِن أعضاءِ هذه البَقَرَةِ، فالمعجزةُ حاصِلَةٌ به، وخَرقُ العادةِ به كائنٌ"[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضرب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ضرب).
(3) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات، والسّمين، عُمدة الحفّاظ: (ضرب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعض).
(5) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (بعض).
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/302.

3) ﴿يُحۡيِ﴾: جذره اللّغويّ (حيي)، والأصل في معناه أنّه ضدّ الموت في أحد معنييه[1]، وهو أيضًا " قوّة سارية تتمثّل في الحِسّ والنّموّ، وهو حركة واتّصال وامتداد مع الطّراءة، وجسمُ الميّت يتصلّب"[2].

ويستعمل هذا اللّفظ "للقوّة النّامية الموجودة في النّبات والحيوان، ومنه قيل: نبات حَيٌّ، قال ﷻ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [الحديد: 17]»[3].

"والحياة: ضدّ الموت، فكما يستعمل حقيقةً ومجازًا نحو: مات الإنسان، وماتتِ الأرض، كذلك الحياة، نحو: أحيا الله فلانًا، وأحيا الأرض بعد موتها"[4].

والمعنى في الآية: "اعتبروا بإحيائي هذا القتيل بعد مماته"[5].

4) ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: من الجذر اللّغويّ (موت)، والأصل في معناه "يدُلُّ على ذَهابِ القُوَّةِ مِنَ الشَّيءِ. منه الـمَوتُ: خِلافُ الحَياةِ"[6].

ومن أنواع الموت بحسب أنواع الحياة ما هو بإزاء القوَّة النّامية الموجودة في الإنسان والحيوانات والنّبات، نحو قوله تعالى: ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الرّوم: 50][7].

"ولم يأت في القرآن من التّركيب إلّا موتُ الأحياء من النّاس ومن البلاد والأرضين. وهي واضحة في سياقاتها"[8].

ومعنى إحياء الموتى في الآية: "بأن يبعثهم من قبورهم يوم القيامة، ليحاسبهم على أعمالهم"[9].

5) ﴿وَيُرِيكُمۡ﴾: من (أرى)، المزيدُ بالهمزة، وجذرهُ اللّغويّ (رأي)، والأصلُ في معناهُ من "نظَرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرةٍ. فالرَّأْيُ: ما يراهُ الإنسانُ في الأمرِ، وجَمعُهُ الآرَاءُ"[10]، ورؤيةُ الإنسانِ للمرئيّ هو الإدراكُ له، ويكونُ بطرقٍ عدّة كالحاسّةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (حيي).
(3) الرّاغب، المفردات: (حيي).
(4) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (حيي).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 2/232.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(7) الرّاغب، المفردات: (موت).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (موت).
(9) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: (موت).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأي).

والوهمِ والتّخيُّلِ والعقل[1]، والفعل (رأى) له معانٍ كثيرة، كالبصر بالعين، والعلم، والظّنّ، ورأى الحُلْميّة (المنامية)، وغير ذلك[2].

ومعنى ﴿وَيُرِيكُمْ﴾ في الآية: "الرؤيةُ هنا بصريَّةٌ، فالهمزةُ للتّعديّةِ أَكسَبَتِ الفعلَ مفعولاً ثانيًا، هو ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾، والمعنى: يَجْعلكم مُبصِرينَ آياتِه"[3].

6) ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: أصلُها (أأْية)، فأبدلت الثانية الساكنة من جنس حركة الهمزة الأولى، فصارت (آية)، ثمّ صارتَا مدّةً، وذكرَ "أنّها مُشتقّةٌ منَ التّأيِّي الّذي هو التّثبّتُ والإقامةُ على الشّيءِ"[4]، والآيةُ تأتي بمعنى العلامةِ والشّخصِ والجماعة[5]، وكونُها مؤلفةً منَ الكلماتِ والجملِ؛ سمّيَت آيةُ القرآنِ بهذا الاسم؛ لأنّها "طائفةٌ منَ القرآنِ، يتّصلُ بعضُها ببعضٍ إلى انقطاعِها، طويلةً كانَت أو قصيرةً"[6].

"ولكلِّ جملةٍ منَ القرآنِ دالّة على حكم آيةٍ... وقد يُقالُ لكلِّ كلام منهُ مُنفَصلٍ بفاصلٍ لفظيٍ: آيةٌ، وعلى هذا اعتبارُ آياتِ السّورِ الّتي تُعَدُّ بها السّورةُ"[7].

ومعنى آياته: دلائله وبراهينه الّتي تدُلُّ على قدرته الكاملة، ورحمته الوافرة[8].

7) ﴿تَعۡقِلُونَ﴾: جذره اللّغويّ من (عقل)، الفعل منه عقلَ يعقِلُ، و"العَقل: نقيض الجَهل. عَقَل يَعقِل عَقلاً فهو عاقل. والمَعقُولُ: ما تَعقِلُه في فؤادك. ويُقال: هو ما يُفهَمُ من العَقل، وهو والعقلُ واحد، كما تقول: عَدِمتَ مَعقُولاً، أي: ما يُفهَمُ منك من ذهنٍ أو عَقل"[9].

والأصل دلالته "على حُبسةٍ في الشّيء أو ما يُقاربُ الحُبسَةَ. من ذلكَ العَقلِ، وهو الحابِسُ عن ذميم القَول والفِعل"[10].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (رأى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رأى).
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 1/436.
(4) الرّاغب، المفردات: (أي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أيى).
(6) الكفويّ، الكليّات، ص: 41.
(7) الرّاغب، المفردات: (أيّ).
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/192.
(9) الخليل، العين: (عقل).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقل).

وفيه كثير من المعاني الأخرى، لكنّها تدور في فلك الحبس والمنع، فالعقل يحبس الإنسان، ويمنعه من ارتكاب المحظورات، والعَقل يُطلق على القوّة المُستعدّة لموافقة العلم وتقبّله[1].

ومعنى ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ في الآية: "لتكونوا برؤية تلك الآيات على رجاء من أن يحصل لكم عقل، فيرشدكم إلى اعتقاد البعث وغيره، ممّا تخبر به الرّسل عن اللّه تعالى"[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بعد أن اهتدى النَّفرُ من بني إسرائيل إلى البقرة الّتي أُمروا بذبحها، فذبحوها، أمَرَهم الحقّ تبارك وتعالى بأن يضربوا القتيل ببعضها، فإن اللّه سيبعثه حيًّا، ويخبر عن قاتله، فضربوه ببعضها فأحياه اللّه وأخبر بقاتله؛ فتبيّن لهم سرّ ذبحها، "وهذا الأسلوب أدعى لتشويق السّامع، وأبعث له على البحث عن معرفة السّبب في ذبح البقرة ، والمفاجأة بحكاية ما كان من الجدل بين موسى وقومه، فإنّ الحكمة في أمر اللّه أمَّة بأن تذبح بقرة قد تخفى؛ فيحرص السّامع على طلبها"[3]، فلمّا أجابوا ما أمرهم اللّه، ورأوا ما حصل؛ فكان إحياؤه وكلامه من الآيات البيّنات الّتي أراها اللّه لكم يا بني إسرائيل، لعلّكم تُعملون عقولكم فيما شاهدتموه من معجزاتِه الدالَّةِ على كمال قدرته تعالى، وأنَّه يُحيي اللّه الموتى يوم القيامة، فتمتنعوا عن معاصيه.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة الإيجازِ بالحذفِ في جملة ﴿ٱضۡرِبُوهُ﴾:

أثر الفاءِ في وفرة المعاني المقدَّرة

معنى قوله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: قلنا اضربوا القتيل، "وفي الكلام حذفٌ تَقديرُهُ فضَرَبوها فَحَيِيَت"[4]؛ إذ غير جائز أن يحصل الإحياء من دون ضرب، أو لئلا يصبح فعلُ الأمر (اضربْ) لغواً لا فائدة فيه، وهو مُمتنع.

(1) الرّاغب، المفردات: (عقل).
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 1/156.
(3) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 1/142.
(4) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/78.

فائدةُ الأمرِ بضربِ الميت ببعض البقرة:

توكيدُ الحجّةِ وتبعيدُ الحيلةِ وتبرئةُ موسى ممّا اتُّهم به سليمان عليهما السلام

إن قيل: ما فائدة إحياء الميّت بضربه ببعضها، في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، واللّه قادر على إحيائه مباشرة؟ والجواب عن ذلك لتكون "الحُجَّةُ أَوكَدَ، وعنِ الحيلَةِ أبعَدَ، فقد كان يجوزُ لِمُلحِدٍ أن يُوهِمَ أنَّ موسى عليه السلام إنَّما أحياهُ بضربٍ مِنَ السِّحرِ والحيلةِ، فإنَّهُ إذا حيي عندما يُضرَبُ بقطعةٍ مِنَ البقرةِ المَذبوحَةِ انتَفَتِ الشُّبهَةُ في أنَّه لم يَحيَ بشَيءٍ انتقلَ إليه مِنَ الجسم"[1].

بلاغةُ التَّشبيهِ وتنوُّعُ دلالتِه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

إثباتُ البعثِ، وبيانُ أثرِ القصاصِ في المحافظة على إحياءِ النُّفوس

أي: إنّ مثل ذلك الإحياء الّذي جعله اللّه للقتيل في قصَّة البقرة سيكون كذلك للموتى يوم البعث، وفيه "مخاطبةٌ من اللّه عبادَه المؤمنين، واحتجاجٌ منه على المشركين المكذّبين بالبعث، وأمرهم بالاعتبار بما كان منه جلّ ثناؤه من إحياء قتيل بني إسرائيل بعد مماته في الدّنيا، فقال لهم تعالى ذكره: أيُّها المكذِّبون بالبعث بعد الممات، اعتبروا بإحيائي هذا القتيل بعد مماته، فإنّي كما أحيَيّته في الدّنيا، فكذلك أحيي الموتى بعد مماتهم، فأبعثهم يوم البعث"[2].

فالتَّشبيه في التَّحقُّق، وإن كانت كيفيَّة المشبَّه أقوى وأعظمَ؛ لأنَّها حياةٌ عن عدم بخلاف هاتِه، فالمقصد من التّشبيه بيانُ إمكانِ المشبَّه كقول المتنبّي[3]:

فإن تَفُقِ الأنامَ وأنتَ منهُم *** فإنَّ المِسكَ بَعضُ دم الغَزالِ

وهذا استطراد تخلص به إلى قرع أسماعهم بإثبات البعث الحقيقيّ يوم القيامة[4].

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/134.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/232.
(3) المتنبّي، ديوان المتنبي، ص: 146.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/543، 544.

و قد يكون معنى إحياء الموتى - على هذا - حفظ الدّماء الّتي كانت عُرضةً لأن تُسفَك، بسبب الخلاف في قتل تلك النّفس، أي: يحييها بمثل هذه الأحكام، وهذا الإحياء على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ [المائدة: 32] وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقر: 179]، فالإحياءُ هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين[1]، والمعنيان قويّان في الآيةِ، وظهورُ أحدهما لا يدفعِ الآخر.

تلوين الخطاب في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

اجتماعُ دلالة الإشارةِ والعبارةِ من بديعِ النظمِ الجميلِ

يحتمل أن يكون هذا خطابًا للّذين حضروا إحياءَ القتيل، ففيه مجاز بالحذف[2]، أي: وقلنا لهم: كذلك يحيي اللّه الموتى يوم القيامة. وقدّره الماورديّ خطابًا من موسى عليه الصّلاة والسّلام، ويحتمل أن يكون لمنكري البعث في زمن رسول اللّه ﷺ؛ فيكون من تلوين الخطاب، والمعنى: كما أُحْيِيَ قتيلُ بني إسرائيل في الدّنيا، كذلك يحيي اللّه الموتى يوم القيامة[3].

والمعنى الأوّل هو الظّاهر والمتبادر، وعليه يكون الخطاب مجازًا بالحذفِ، والمعنى الآخر وإن لم يتّسق مع معاني السِّياقِ، إلّا أنَّ له حضورًا في إشارةِ الكلامِ، والإشارةُ تبلغ في بعض الأحايين مبلغَ العبارةِ، وعليه فالخطاب يتّجه صوبَ الفريقين، عبارةً وإشارةً، وهذا من بليغ الكمال الجميل، وبديع اللفظِ السليم.

دلالة جمع الآيات في قوله: ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

تـعـدُّدُ الآيــاتِ الناشئةِ عن آيةِ إحياءِ الموتى

عبّر في قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ عنِ المَرئيّ بجمع المؤنث السّالم؛ لـمَا تشتمله هذه القصّة من الآيات الدّالّة على عظمة اللّه

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/290.
(2) له أنواع عدّة؛ منها الالتفات، ومنها العدول عن الخطاب الخاصّ إلى العامّ، ومنها صرف الخطاب عن مخاطَب إلى مخاطَب آخر (وهو المقصود هنا)، وغير ذلك، يُنظر: ابن كمال باشا، تلوين الخطاب، ص: 311.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/420.

تعالى، "ويجوز أن يُرادَ بها هذا الإحياء، والتّعبير عنه بالجمع؛ لاشتماله على أمور بديعة، من ترتّب الحياة على الضّرب بعضو ميّت، وإخبارِ الميّت بقاتله، وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادات"[1].

التّعبيرُ بالجملة الفعليّة في خبر (لعلّ):

يفيدُ الحرف (لعلّ) في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ الرّجاء، وقد دخل على الضّمير العائد على مَن شملتهم قصّة البقرة من ذبح وإحياء ببعضها، ثمّ جاء الخبر فعلاً، والفعل عادة يدُلُّ على التّجدّد والاستمرار؛ لأنّ "المُراد لعلَّكم تَعمَلون على قضيَّة عُقولِكم، وأَنَّ مَن قَدرَ على إحياءِ نَفسٍ واحدةٍ قَدرَ على إحياءِ الأَنفسِ كُلِّها لعدمِ الاختصاصِ، حتّى لا يُنكِروا البَعثَ"[2]، أي: أن يُعمِلَ الإنسان عقله في تجدّد واستمرار.

في الكونِ آياتٌ بيّناتٌ على المرء أن يُعمِلَ عقلَه فيها تجدّدًا واستمرارًا

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/294.

(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/135.

﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾ [البقرة: 74]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآية تتمّةٌ لخطاب بني إسرائيل حيث ختم الآية السّابقة بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، ثمّ ابتدأ هذه بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم﴾، والعطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ في هذا المقام يُفيدُ التّرتيبَ الرُّتبيّ الّذي تتهيّأ له ﴿ثُمَّ﴾ إذا عَطَفتَ الجُملَ، كأنّه قيل: ومع ذلك كُلِّه لم تلن قُلوبُكم، ولم تنفعكم الآيات، ثمّ قَسَت قلوبُكم، وكان مِنَ البعيد قَسوَتُها[1].

أي: مع كلّ ما مضى من شأنهم في قصّة البقرة الّتي أُمروا بذبحها؛ لتكون آية على إحياء الموتى، وإظهار القاتل، يبست قلوبكم وتحجّرت، ولم تتأثر "مع وجود ما يَقتضي خلافَ هذه القَسوَةِ، مِن إحياءِ القَتيلِ وتَكَلُّمِهِ وتَعيينِهِ لِقاتِله"[2]، بل الحجارة أنفع منكم في أنّها مظنّة تفجّر الأنهار، وخروج الماء، وهبوطها من خشية الله.

۞ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿قَسَتۡ﴾: من الجذر اللّغويّ (قسو)، ومنه "القَسْوة: الصّلابة في كلّ شيء، وقَسَا يَقسُو فهو قاسٍ. وليلة قاسِيةٌ: شديدة الظُّلمة. والمُقاساةُ: مُعالجة الأمر ومُكابَدته"[3].

والأصل في معناه: الدّلالة على الصّلابة والقوّة والشّدّة، كالأحجار القاسية، وقد يشبّه بها القلوب القاسية؛ لما فيها من الغلظة[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/562.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/118.
(3) الخليل، العين: (قسو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسي).

و"القَسوَةُ: غِلَظُ القلبِ، وأصله من: حَجَرٍ قاسٍ، والـمُقاساةُ: مُعالجةُ ذلك، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم﴾"[1]، ومعناه: اشتدَّت وصلُبت.

2) ﴿قُلُوبُكُم﴾: من الجذر اللّغويّ (قلب)، وله أصلان صحيحان: "أحدهما يدُلُّ على خالص شيءٍ وشريفه، والآخر على ردّ شيءٍ من جهة إلى جهة"[2].

والمعنى المحوريّ لهذا الجذر "باطنُ الشّيء ولُبُّه: كالقلوبِ المذكورةِ، وقَلبُ الأرض إخراجٌ لباطنها، ومن ذلك القَلبُ: المضغةُ المعروفةُ؛ لأنّها أهمّ ما في الباطن وأقواه"[3]، وهو الـمُرادُ في الآية.

وأطلق على القلب قلبًا "لكثرة تقلّبه، ويُعبَّر بالقلب عن المعاني الّتي تختصّ به من الرّوح والعلم والشّجاعة"[4].

3) ﴿كَٱلۡحِجَارَةِ﴾: الجذر اللّغويّ له (حجر)، والأصل في معناه: الـمَنْعُ والإحاطَةُ على الشَّيء. فالحَجْرُ حَجْرُ الإنسان، والحَجَرُ الصَّخرة، وأحسبُ أنَّ البابَ كُلَّه مَحمولٌ عليه، ومأْخوذٌ منه؛ لِشدَّته وصلابتِهِ[5]، أي: أنّ المنعَ يشبه الحَجَر؛ لشدّته وصلابته ومنعته[6].

وهو أيضًا "الجَوهر الصُّلبُ المعروف، وجمعُه: أحجارٌ وحِجَارَة ... وقيل: أراد بالحجارة الّذين هم في صلابتهم عن قَبُول الحقّ كالحجارة، كمن وصفهم بقوله: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾"[7].

4) ﴿يَتَفَجَّرُ﴾: من الجذر اللّغويّ (فجر)، والأصل في معناه "التَّفتُّحُ في الشَّيءِ. مِن ذلك الفَجرُ: انفِجارُ الظُّلمَة عَنِ الصُّبح. ومنه: انفَجَرَ الماءُ انفجارًا: تَفَتَّحَ. والفُجرَةُ: مَوضِعُ تَفَتُّح الماء"[8].

(1) الرّاغب، المفردات: (قسو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قلب).
(4) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (قلب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حجر).
(6) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (حجر).
(7) الرّاغب، المفردات: (حجر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فجر).

و"الفَجرُ: شقّ الشّيء شقّاً واسعًا، كَفَجَرَ الإنسانُ السِّكْرَ (سِكْر النَّهر: ما يسدُّ به)، يُقال: فَجَرتُه فانفجرَ، وفَجَّرتُه فتَفَجَّرَ"[1]. والوارد في القرآن الكريم من المادّة على نوعين؛ إمّا انفجار مادّي كالعيون والأنهار ونحوها، وإمّا انفجار معنويّ، وهو الفجور لما فيه من شقّ حدود الشّريعة[2].

ومعنى الفعل ﴿يَتَفَجَّرُ﴾ في الآية، أي: يتفتّح بصورة واسعة وكثيرة[3]؛ لأنّ التفجّر فيه معنى المبالغة والكثرة.

5) ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: جذره اللّغويّ (ن هـ ر)، "ونَهرتُ النّهرَ: حفرتُهُ. ونَهَرَ الماءُ، إذا جَرى في الأرض، وجعل لنفسه نَهرًا"[4].

والأصل في معناه دلالته على الفتح والتّفتّح والشّقّ، وتسمية النّهر المعروف؛ لأنّه يَنْهَر الأرض، أي: يجري فيها، ويشقُّها[5].

ومعنى النّهر: هو "مَجرى الماءِ الفائِض، وجمعُه: أَنهَارٌ...والنّهر: السّعةُ، تشبيهًا بنهر الماء، ومنه: أَنْهَرتُ الدَّمَ، أي: أسلته إسالةً، وأَنهَرَ الماءُ: جرى، ونَهْرٌ نَهِرٌ: كثير الماء"[6].

6) ﴿يَشَّقَّقُ﴾: فعل مضارع، أصله يتشقّق، الجذر اللّغويّ منه (شقق)، و"شققتُ الشَّيء أشقّه شقّاً، وكلّ قِطعَة منه شَقّة، يجمع ذَلِك الثَّوب والخشبة وما أشبههما"[7]، والأصل في معناه: دلالته على الانصداع، وهو قرين التّشقّق والتّشظّي[8].

و"الشَّقُّ: الخَرمُ الواقعُ في الشّيء، يُقال: شَقَقتُهُ بِنصفين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا﴾ [عبس: 26]"[9]. والشّقّ هو الخرم الكبير الواسع.

ومعنى تشقّق الحجارة في الآية: هو التّصدّع[10].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (فجر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فجر).
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/88.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (نهر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهر).
(6) الرّاغب، المفردات: (نهر).
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (شقق).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شق).
(9) الرّاغب، المفردات: (شق).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 2/239.

7) ﴿فَيَخۡرُجُ﴾: الجذر اللّغويّ له (خرج)، ومنه " الخُرُوجُ : نقيض الدُّخول... والخُروجُ: السّحاب أوّل ما يبدأ. والخَرْجُ والخَراجُ: ما يُخرَجُ من المال في السّنة بقَدَرٍ معلوم"[1].

والأصل في معناه على ضربين؛ الأوّل وهو المقصود أن ينفذ عن الشّيء، ومنه الخَرَاجُ، أي: الإتاوَةُ؛ لأنَّه مالٌ يُخرِجُه المُعطِي...والخُروجُ: خُروجُ السَّحابَة؛ يُقالُ: ما أحسَنَ خُروجَها[2]، فالمعنى الظّهور والبروز، والنّفاذ عن الشّيء؛ لذلك يُقال لكلّ من برز من مكان قراره أو وضعه، إن كان ذلك المقرّ بيتًا أو مَوطِنًا أو لباسًا أو غير ذلك، ولو كان حالة نفسيّة[3].

ومعنى ﴿فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ﴾ في الآية، أي: "فيكونُ عَينًا لا نَهرًا جاريًا، أي: أنَّ الحِجارَةَ قد تَندَى بالماءِ الكثيرِ، وبالماءِ القليلِ"[4].

8) ﴿ٱلۡمَآءُۚ﴾: اسم جنس يُطلق على القليل والكثير، جذره اللّغويّ (موه)، و"المُوهَةُ: لونُ الماءِ، يقال: ما أَحسَنَ مُوهَةَ وَجْهه. وتصغير الماء: مُوَيْه. والجميعُ: المياه، والنِّسبَةُ إلى الماء: ماهِيٌّ، وماهتِ السَّفينةُ تَمُوهُ وتَماهُ، إذا دَخَلَ فيها الماءُ"[5]، ولا يبعد الأصل عند ابن فارس عن هذا المعنى؛ فإنّ "مَوَّهتُ الشَّيءَ، كأَنَّك سَقَيتَهُ الماءَ. ومَوَّهتُ الشَّيءَ: طَلَيتُهُ بفضَّةٍ أَو ذهبٍ، كأَنَّهُم يَجعَلون ذلك بمَنزِلَة ما يُسقَاهُ. وقالوا: ما أَحسَنَ مُوهَةَ وَجهِهِ، أي: تَرَقرُقَ ماءِ الشَّبابِ فيه"[6].

ومعنى ﴿ٱلۡمَآءُۚ﴾ في الآية هو الماء القليل الّذي يكون عينًا؛لأنّ الحجارة تتفاوت فيها الرّطوبة، فقد تكون ندية بالماء القليل، وهو المعنيّ هنا[7].

9) ﴿يَهۡبِطُ﴾: الجذر اللّغويّ منه (هـ ب ط)، و"هَبَط الإنسَان يَهبِط: إذا انحدر في هَبوط من صَعود، قَال: والهَبطَة: ما تَطامَن من الأرض... وهو نَقيض ارتفعوا"[8].

(1) الخليل، العين: (خرج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).
(3) الرّاغب، المفردات: (خرج).
(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/139.
(5) الخليل، العين: (موه).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موه).
(7) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/139.
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: (هبط).

أمّا الأصلُ في معناه فإنّ الهبوطَ "كلمةٌ تدُلُّ على انحدارٍ، وهَبَط هُبوطًا. والهَبُوطُ: الحُدُورُ. وهَبَطتُ أَنَا وَهَبَطتُ غَيرِي"[1]، فيما زاد الرّاغب على معنى الهبوط أنّه انحدار على سبيل القهر[2].

ومعنى الآية: أنَّ اللّه تَعالى يَخْلُقُ لِلْحِجارَةِ قَدْرًا ما مِنَ الإدْراكِ تَقَعُ بِهِ الخَشْيَةُ والحَرَكَةُ[3].

10) ﴿خَشۡيَةِ﴾: مصدر للفعل (خشى يخشى)، والجذر اللّغويّ منه (خشي)، وهو "يدُلُّ على خَوفٍ وذُعرٍ، ثمَّ يُحمَلُ عليهِ المَجازُ. فالخَشيَةُ الخَوفُ. ورَجُلٌ خَشيَانٌ. وخاشاني فُلانٌ فَخَشَيتُهُ، أي: كُنتُ أشدّ خَشيَةً منه"[4].

وفيه بعض الاختلاف عند الرّاغب؛ لأنّ "الخَشيَة خوفٌ يشُوبُه تعظيمٌ، وأكثر ما يكون ذلك عن عِلمٍ بما يُخشى منه؛ ولذلك خُصّ العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]»[5].

ومعنى خشية الحجارة من اللّه تعالى، أي: أنّها صاغرة للّه، وأنّها تهبط من شدّة خضوعها، وتذلّلها لربّها[6].

11) ﴿بِغَـٰفِلٍ﴾: الجذر اللّغويّ له (غفل)، ومعناه: من "لَا فطنةَ لَهُ... وغفّلتُ الشيءَ تغفيلاً، إذا كتمتَهُ وسترتَه، وأغفلتُ الشيءَ، إذا أُنسيتَه"[7].

والأصل في معنى الكلمة "تَرك الشَّيءِ سَهوًا، وربَّما كان عَن عَمْدٍ. من ذلك: غَفَلتُ عَنِ الشَّيءِ غَفلَةً وغُفولًا، وذلك إذا تَرَكتَهُ ساهِيًا. وأغفَلتُهُ، إذا تَرَكتَهُ على ذُكرٍ مِنكَ له"[8].

ومنه الغفلة، وهي السّهو الّذي يصيب الإنسان إذا لم يتحفّظ ويكن مُتيقّظًا[9] "وكلّ ما في القرآن من التّركيب هو من الغفلة بمعنى عدم التّنبّه، وما إليه"[10]، وكلّ هذه المعاني

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هبط).
(2) الرّاغب، المفردات: (هبط).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/167.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشي).
(5) الرّاغب، المفردات: (خشي).
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/102.
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (غفل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفل).
(9) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غفل).

متفرقة ومجتمعة لا تكون في حقّه تعالى؛ لذلك جاء التّعبير القرآنيّ مَنفيًا مُؤكَّدًا بالباء بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، والمعنى: "إشارة إلى غفلتهم عن نزول العذاب بهم، أي: لا تتوهموا أنّ إمهال اللّه لكم بالعقوبة غفلة منه عنكم ، بل هو يعلم منه بتأخير ذلك إلى يوم القيامة"[1].

12) ﴿تَعۡمَلُونَ﴾: الجذر اللّغويّ منه (عمل)، والأصل في معناه الفعل عامّة[2]، و"العَمَلُ كلُّ فعلٍ يكون من الحيوان بقصد"[3].

و"تركيب (عمل) يعبّر عن الجهد المادّي وتأثير الأشياء بعضها في بعض، ويعبَّر به عمّا لَهُ إمداد، ووراءه فكر. وقد جاء منه في القرآن الكريم نحو 350 مفردة بالمكررات"[4]

ومعنى ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ في الآية: هي الأعمال الخبيثة، والأفعال المنكرة الرّديئة الّتي يتّصفون بها؛ فهو عالم بها مُحصيها عليهم[5].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

وصف اللّه تعالى - بني إسرائيل - بأنّه قد طرأ عليهم بعد رؤية تلك الآيات والمعجزات الخارقة ما أزال أثرها من قلوبهم، وذهب بِعِبرتها من عقولهم، لقسوة القلوب المنافية للخشوع؛ لأنّهم استمروا في المخالفات، وانتهاك الحرمات؛ فتصلّبت قلوبهم وغَلُظت، فلم يَنْفُذ إليها خير، ولم تَلِنْ أمام الآيات الباهرة، بل باتت لا تنقص عن الحجارة قسوة، وبعضها زاد على الحجارة قسوة وغلظة، ثمّ عذرَ اللّه الحجارة، وعابَ على تلك القلوب؛ لأن من الحجارة ما يتسع وينفرج حتى تنصبَّ منه المياه صبًّا، فتصير أنهارًا جاريةً، ومن الحجارة ما يتصدع فينشق، فتخرج منه العيون والينابيع، ومن الحجارة ما يسقط من أعالي الجبال مِن خشية اللّه تعالى وتعظيمه، وبنو إسرائيل لا يخشون اللّه، ولا ترقّ قلوبهم[6]، ثمّ ختم الآية بوعيد وتهديد لهم، وأنّهم على أفعالهم الذّميمة فإنّه مراقبهم،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/389.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمل).
(3) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (عمل).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 2/243.
(6) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 1/116، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 11.

وليس غافلاً عنهم، وعن أعمالهم؛ فإنَّ الله ﷻ إذا كان عالمًا بما يعملونه مطلعًا عليه غير غافل عنه، كان لمجازاتهم بالمرصاد.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم﴾:

قسوةُ القلبِ وجفافُه نتيجةُ أفعالِ التَّحايل على الشَّرعِ

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم﴾ تعبيرٌ فريد لم يرد مثله إلاّ في هذا الـمَوضِع من القرآن الكريم، وهو تعبير يتوافر على استعارة مكنيّة تبعيّة؛ فإن "يَبِسَت وجَفَّت، وجَفافُ القَلبِ: خُروجُ الرَّحمة واللِّينُ عنه"(1)، وهو ليس على الحقيقة؛ لأنّ القلوب دم ولحم، ونسبتها للقساوة والصّلابة تشبيهًا لحالها في عدم التّأثّر والاعتبار بالحجارة القاسية، "والقسوةُ عبارةٌ عن الغِلَظ والجفاء والصَّلابة كما في الحَجَر، استُعيرت لنُبوِّ قلوبهم عن التّأثّر بالعِظات والقوارعِ الّتي تميعُ منها الجبالُ، وتلينُ بها الصّخور"(2).

بلاغةُ قولِه تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾:

إفـادةُ المسارعةِ في حـصـولِ قسوةِ القلوبِ

حرف الجرِّ (من) في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ توقيت لقساوة القلوب، واستعمل لإفادةِ ابتداءِ الغايةِ؛ وأتى به لتقريبِ البعديَّةِ، والتّبكير في حصول القساوة؛ للاهتمام به، وبيان خطورته، وثمّة فرق بين قوله: (مِنْ بَعْدِ ذلك)، و(بَعْدَ ذلك)، في أنّ الثّاني يحتمل وقتًا متمادًّا قد يطول، أمّا الأوّل فيكون غِبَّ ذلك الحدث مباشرة، وهو إحياء القتيل، فـ(مِن) دلّت على المسارعة في قساوةِ القلوب، وأنّها لم تحتج وقتًا طويلاً لذلك، وفيه دليل على عظم مرتكبهم، وعلى هذا يكون حرفُ التَّراخي مفيدًا للرُّتبةِ لا لتراخي الزَّمانِ، أي: ثم قست القلوب بعد التَّحايل على الشَّرع، والامتثال بطولِ مماطلةٍ، لكنَّها لم تُماطل في القسوةِ بل كان ذلك سِراعًا.

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/110.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/193.

وأفاد قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ "زيادة تَعجيبٍ مِن طُرُقِ القَساوة للقلب بعد تَكَرُّر جميع الآيات السَّابقة المُشار إلى مَجموعِها بذلك"[1] أي: مع كلّ ما مضى من الآيات قست قلوبكم.

مقصدُ التّشبيهِ في قولِه: ﴿كَٱلۡحِجَارَةِ﴾:

تشبيهُ قلوبِهم بالحجارةِ تشنيعٌ عليهم وتقريعٌ على أحوالِهم

الضّمير (هي) في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ﴾ عائدٌ على القلوب، وأكثر معاني قسوة القلب تدور حول الغلظة والصّلابة والشّدّة والخلوّ من الرّحمة واللّين[2]، ومعنى قسوة القلوب في الآية: صلابتها بتشبيهها بالأجسام الصّلبة كالحجارة، فالقسوة في القلوب مجازيّة للمبالغة[3].

وقد شبّه هذه القلوب بالحجارة في تشبيه مُجمَل مُرسَل بوجود أداة الشّبه (الكاف)، وحذف وجه الشّبه وهو القساوة والصّلابة، وفي ذلك تشنيع عليهم وتقريع؛ فإنّ مظنّة القلوب اللّين والرّأفة والخشوع والخضوع، لا القسوة والغلظة، ومعنى تشبيه القلوب بالحجارة تشبيه تلك القلوب بالحجارة بجامع الصّلابة والغلظة والقساوة؛ فإنّ في إطلاق قساوة القلوب انصراف الذّهن إلى الحجارة القاسية[4].

فائدةُ الإتيانِ بحرفِ العطفِ (أو) في قولِه: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾:

تردُّدُ قساوةِ قُلوبِ بَنِي إسْرَائيلَ بين قَسْاوَةِ الحِجارةِ وما هو أَشَدُّ

في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾، لمّا شبّههم بالحجارة ابتداء "بما هو أَشهَرُ، ثمَّ عَقَّبَ التَّشبيهَ بالتَّرقِّي إلى التَّفضيل في وَجهِ الشَّبهِ"[5]، وفيه تقبيحٌ لهم أراد زيادة هذا التّقبيح والتّقريع فأضربَ عن صلابة الحجارة إلى وصف أبلغ منه؛ فقال:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/562.
(2) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (قسو).
(3) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/292.
(4) البدويّ، من بلاغة القرآن: 152.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/563.

(أو أشدّ قسوة) "فقلوبهم كالحجارة، بل أشدّ، أو إن شَبَّهتم قلوبهم بالحجارة أصبتم، وبما هو أشدّ أصبتم"[1]؛ فقلوبهم كالحجارة، بل أشدّ قسوة منها، وفي ذلك زيادة تبكيت وتقريع لمرتكباتهم وأفعالهم السّيئة.

بلاغة التّعبير بأفعل التّفضيل في قوله ﴿أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾:

شُبِّهتِ القلوبُ في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾ "بالحجارة بجامع القساوة في كُلٍّ منهما، لكنّ قساوة قلوبهم قساوة معنويّة تجاه الحقّ والخير والفضيلة، أمّا الحجارة فقساوتُها مادّيّة"[2]، فهو تشبيه لا يُراد منه المساواة، بل تفضيل الحجارة في قساوتها على القلوب؛ لأنّ قساوةَ الأولى طبيعيةٌ، وقساوة الأخرى ناتجةٌ عن سُوءِ الأعمال.

طُرقُّ القساوةِ على القلوبِ دليلُ قبحِها، وقساوة الحجارةِ دليلُ جمالِها

والتَّعبيرُ بأشدّ قسوة في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾، دون أقسى؛ "لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة، ووجه آخر؛ وهو أن لا يقصد معنى الأقسى، ولكن قصد وصف القسوة بالشّدّة، كأنّه قيل: اشتدّت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشدّ قسوة"[3]، فلفظة (أشدّ) مُتضمنة معنى المبالغة، ودلالته على ذلك بالجوهر والهيئة، أمّا أقسى فدلالته بالهيئة فقط[4].

فبانَ لنا ممّا سبق أنّ تشبيه القلوب بالحجارة ليستِ الغاية منه المساواة في القساوة، وإنْ كان الجنس مُختلفًا، بل إنّ الحجارة في هذا التّشبيه أفضل من القلوب؛ لأنّ ذلك يرجع "إلى معنى عدم قَبول التَّحوُّل كما تقدَّم؛ فهذه القلوبُ قَساوتُها عند التَّمحيصِ أشدُّ من قساوةِ الحجارةِ؛ لأنَّ الحجارةَ قد يعتريها التَّحوُّلُ عن صلابتها وشِدَّتِها بالتَّفرُّق والتَّشقُّق، وهذه القلوبُ لم تَجِدِ فيها مُحاولةٌ"[5].

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/193.
(2) البدويّ، البلاغة العربية: 2/128.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/286.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/296.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/564.

بلاغة تعدّد التّعقيب بعد ذكر التّشبيه:

قساوةُ الحجارةِ نافعةٌ، وقساوةُ القلوبِ مُضرَّةٌ ومفسدةٌ

بعد تشبيه القلوب القاسية بالحجارة، والإضراب عن درجة قسوتها، وإثبات أنّ قلوبهم أشدّ قسوة، ذكر أنواعَ الحجارةِ بقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ الذي فيه "معذرة للحجارة، وتفضيل لها على قلوبهم في معنى قلّة القسوة.

معذرةٌ لِقسوةِ الحجارةِ، وتبكيتٌ للقلوبِ القاسيةِ

وقال قتادة: عذر اللّه تعالى الحجارة، ولم يعذر شقيّ بني آدم"[(1)]، فالحجارة على قسوتها فيها شيء نافع، والقلوب ليست كذلك، وقد "فضَّلَ الحجارةَ على قلوبِهم بأنْ بيَّنَ أنَّ الحجارةَ قد يَحصُلُ منها ثلاثةُ أنواعٍ مِنَ المنافعِ، ولا يوجدُ في قلوب هؤلاء شيءٌ مِنَ المنافع"[(2)]، وهذه المنافع هي تفجُّرُ الأنهار، وخروجُ الماء من الحجارة، وهذه منافع مادّيّة، وهبوطها من خشية اللّه، وهذه منافع معنويّة مقابل القلوب التي لا نفع فيها.

التّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في الأفعالِ المشبّهِ بها:

الدّلالة على أنّ هذه الأحداثَ مُتجدّدةٌ مستمرةٌ وهي من آيات الله الباهرة

ذُكِر في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ﴾ الأفعالُ المُتعلِّقة بالحجارة بصيغة أفعال مضارعة: (يتفجّر) و(يشّقّق)، على زِنةِ (يتَفَعّل)، ماضيه (تفعّل) فـ"(تفعّلَ) الّذي للعمل المتكرر في مهلة مطاوع (فَعّلَ) الّذي للتّكثير"[(3)]؛ فهذه الأفعال تدُلُّ على أحداث متجددّة مستمرة، فالتّفجّر "التّفتّح بالسّعة والكثرة... ويَشَّقَّقُ: يتشقّق.. والمعنى: إنّ من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفّق منها الماء الكثير الغزير"[(4)]، وهي من الآيات الكونيّة المعجزة في تعبيرها القرآنيّ.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/167.

(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/139.

(3) الرّضي، شرح الشّافية: 1/105.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/565.

بلاغة إسناد التّفجُّر للأنهار لا لماء الأنهار:

المبالغة في كثرة الماء المُتفجّر، وشدة تدفُّقه

"النّهر: أصله الشقّ الواسع الّذي يجري فيه الماء، من: نهرتُ الشّيء، أي: شقّقته شقًّا واسعًا، ثمّ تجوّز به عن الماء الجاري فيه للمجاورة"[1]، والمُرادُ من الأنهار في الآية "الماء الكثير الّذي يجري في الأنهار، والكلام إمّا على حذف المضاف، أو ذكر المحلّ وإرادة الحال، أو الإسناد مجازي"[2]، فهو ليس على الحقيقة؛ لأنّه إسناد الجريان إلى المكان، وهو من باب إطلاق اسم المحلّ على الحالّ، والغرض منه المبالغة في وصف جريان الماء وشدّة تدفُّقه.

نكتةُ توالي التّوكيداتِ في الآية:

دفعُ توهّمِ مَن لا يتيقّنُ وقوعِ المذكوراتِ

جاء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ مشحونًا بأنواع من التّوكيدات، منها التّوكيد "بإنَّ للاهتمام بالخبر، وهذا الاهتمامُ يُؤذِنُ بالتّعليل، ووجودُ حرفِ العَطفِ قبلَها لا يُناكِدُ ذلك"[3]، فضلاً عن وجود اللّام الدّاخلة على ما[4]، وتَكرار هذا التّوكيد مع كلّ جملة من هذه الجمل الثّلاث، فهذه التّوكيدات الغرض منها رفع توهّم من ليس له يقين بحصول هذه الأشياء، كتفجّر الأنهار، وخروج الماء، وهبوط الحجارة.

سرُّ ترتيبِ أنواعِ الحجارةِ بعضها على بعض:

رتبها بحسب منفعةِ كلّ منها ماديّةً كانت أم معنويّةً

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚوَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾، جملٌ ثلاث تتحدّث عن أنواع حجارة لها فوائد، "وقد ترقّى النَّظْمُ الكريمُ في بيان التّفضيل، كأنّه بيّن أوّلًا تفضيل قلوبهم في القساوة

(1) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (نهر).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/296.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/287.
(4) الأخفش، معاني القرآن: 1/116.

على الحجارة الّتي تتأثّر تأثّرًا يترتّب عليه منفعة عظيمة من تفجّر الأنهار، ثمّ على الحجارة الّتي تتأثّر تأثّرًا ضعيفًا يترتّب عليه منفعة قليلة من خروج الماء، ثمّ على الحجارة التي تتأثّر من غير منفعة"[1].

فكأنّ الحقّ تبارك وتعالى يقول: إنّ قلوب هؤلاء قاسية كالحجارة، مع أنّ هذه فيها من المنفعة العظيمة ما ليس موجودًا في تلك القلوب.

الآيـةُ الأعـظـمُ مقدَّمةٌ في الذِّكرِ

وقدّم الحقّ تعالى في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ﴾ الحجارة التي تتفجّر منها الأنهار على الحجارة التي تتشقّق فيخرج منها الماء، ولا شكّ أنّ الأولى أكبر وأعظم من الثّانية؛ فبدأ بها، إذِ العطاء الرّبانيّ مع الأنهار أكبر من الأخرى؛ لأنّه "عندما تتفجّر منها الأنهار فالماء هو الّذي يأتي إلينا، ونحن في أماكننا.. وفرق بين عطاء تذهب إليه، وعطاء يأتي إليك"[2].

تأخّرُها من بابِ حسنِ التّخلّص

وذكر في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ من أمر هؤلاء صفتين للحجارة تفضُل بهما بني الإنسان؛ وهما تفجّر الأنهار، وتشقّقها ليخرج الماء، ثمّ ثلّث بأنّ منها ما يهبط من خشية الله، فكان من حسن التّخلص[3]، وبديعه في التّعبير "عَنِ التَّسخُّرِ لأمرِ التَّكوين بالخَشية؛ لِيَتِمَّ ظهورُ تَفضيل الحجارَةِ على قلوبِهِم في أحوالِها التي نهايَتُها الامتثالُ للأمرِ التّكليفيّ، مع تَعاصي قلوبِهِم عَنِ الامتثالِ للأمرِ التَّكليفيِّ"[4]؛ لينتقل إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، فحسن خروجه إلى هذا المعنى بعد المعنيين السّابقين.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/296.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/403.

(3) حسن التّخلص يُقصد منه «إيجاد الرّبط بالمناسبة على وجه لا يُقال فيه: إنّ هنا كلامين منفصلين مستقلّين أتى بأحدهما وهو الثّاني بغتة، والاقتضاب فيه القصد إلى الإتيان بكلام بعد آخر على وجه يُقال فيه: إنّ الأوّل منفصل عن الثّاني ولا ربط بينهما» الدّسوقيّ، حاشية الدّسوقيّ على مختصر المعاني: 4/296.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/565.

إسنادُ الخشيةِ إلى الحجارةِ مجازٌ عقليّ:

تلميحٌ إلى أفضليّةِ الحجارةِ على بعضِ البشرِ

إذا كان الهبوط أمرًا مشتركًا بين بني الإنسان وغيره كالحجارة، فإنّ الخشيةَ أمرٌ مُختصّ ببني آدم من المُتّقين، إلا أنّ التّعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ خَلَعَهُ على الجمادات من الحجارة، وهو "مجاز عن انقيادها لأمر اللّه تعالى، وأنّها تمتنع على ما يريد فيها، وقلوب هؤلاء لا تنقاد، ولا تفعل ما أمرت به"[1].

وضعُ الظّاهرِ مَوضعِ المُضمَر:

تفخيمٌ للشّأنِ وتخويفٌ للنّاسِ من سوءِ أفعالِهم

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ جملة مُشتمِلة على اسمه تعالى (اللّه)، جاءت بعد جملة ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ وهي الأخرى مُشتمِلة على اسمه تعالى (اللّه)، فذِكرُ الاسم في الجملة الثّانية يدُلُّ على "أنّ اللّه تعالى بالمرصاد لهؤلاء القاسيةِ قلوبُهم، وحافِظٌ لأعمالِهم مُحصٍ لها؛ فهو يُجازيهم بها في الدُّنيا والآخرة... وفي هذا وَعيدٌ لهم، وتَخويفٌ كبيرٌ لِيَنزَجروا"[2]، وهو من باب وضع الظّاهر مَوضِع المُضمَر؛ تفخيمًا للشّأن، وتخويفًا لهم من سوءِ أعمالهم.

سِرُّ التّعبيرِ بالاسميّةِ والفعليّةِ في قولِه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾:

نفي الغفلةِ يُراد منه التّهديد على أعمالِهم حاضرًا ومستقبلاً

جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ جملة مَنفيّة بالاسميّة مبتدأً وخبرًا مع الباء الدّالّة على التّوكيد؛ للدّلالة على نفي الغفلة عنه تعالى على الدّوام؛ لدلالة الاسم على الثّبات والدّوام، وأنّهم مراقَبون على أعمالهم حاضرًا ومُستقبلاً بدلالة وصف حالتهم العمليّة بالفعليّة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ الدّالّ على الحاضر والمستقبل؛ وفي هذا التّعبيرِ تهديدٌ وترهيبٌ، فإذا كانتِ الأعمالُ القبيحةُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/287.
(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/558.

مُتجدِّدةً فيهم، فعقوبةُ الله ثابتةٌ لمرتكبيها، إذِ التَّعبير: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ يُراد منه التَّهديدُ والوعيد.

توجيه القراءات القرآنيّة في قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾:

الجمعُ بين الوعيد للمستقبل، والتقريع على الماضي

قرأ ابن كَثير: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بالياء[1]، وفي ذلك التفات من الخطاب إلى الغَيْبَة، فسياق الآية: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، "يقتضي الخطاب، فيُقال: تعملون، ولكن التفت إلى الغيبة إعراضًا عن خطاب هؤلاء الّذين قست قلوبهم، وتحقيرًا لشأنهم، وإشعارًا بأنّهم في حالة من البعد عن أهليّة خطاب الله تعالى لهم"[2]، فقراءةُ الجمهور جاءت على ما يقتضيه الظَّاهر، وفيه تهديد ووعيد مباشر، وقراءة ابن كثير جاءت التفاتًا، تحقيرًا لشأنهم، فاجتمعت القراءتان في وعيدهم وتحقيرهم، جزاءً على أعمالِهم الصَّادرة عنهم، والتي ستصدر في المستقبل، وفيها من القوّة الدّلاليّة ما لا يخفى.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القسوة والغلظة:

وُصفت القلوب هنا بالقسوة؛ بإسناد الفعل (قست) إليها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، ولم تُوصف بالغلظة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: 159]، مع تقارب معنييهما؛ لأنّ القسوة في كلّ شيء تعني: صلابة الأثناء مع حدّة أو جفاف كالصّخر والحجر، والأرضُ القاسيةُ صُلبَةٌ جَافّة لا تتفلّق بالنّبات، في حين أنّ الغلظة تعني عِظَمَ الجِرم وتجسُّمَه مع صلابة، ويلزمه الشّدّة والقوّة، والحدّة كغَلَظ الأرض، والثّوب الغليظ، والسّنبل الّذي فيه الحَبّ. ومنه: "استغلظ النّبات والشّجر: صار غليظًا " ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: 29][3].

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 161.
(2) محمّد سالم محيسن، القراءات وأثرها في علوم العربية: 2/109.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (غلظ)، (قسو).

فالقَسوَة تُستعَمل في ما لا يقبل العلاج، ولهذا يُوصَف بها القلب وإن لم يكن صُلبًا[1].

والقلب القاسي لا ينتفع بالمواعظ، ولا يعتبر بالآيات؛ لشدّة صلابته وحدَّته؛ بحيث لا يخرق شَغافه حبّ، ولا يتسلّل إليه ذكر، ولا تخالطه رحمة.

والغِلَظ يدُلُّ على عظم الجِرم وحدّته، كما يشير إلى الجفوة، وعدم احتواء المخالط، وهذا المناسب لنفي غلظة قلبه ﷺ، وإثبات رقّته ورحمته، بمفهوم المخالفة، وبنصوص أخرى كثيرة.

ولذلك آثر الأسلوب القرآنيّ لفظ القسوة هنا في مقام عدم الاعتبار، ورفض العظة، واجتناب الحقّ والخير، وهو ما يتناسب وقلوب بني إسرائيل.

الخشية والخوف:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ آثر السّياق هنا الخشية دون الخوف مع أنّهما متقاربان في المعنى؛ ذلك "أنّ الخَوف يتعَلّق بالمكروه، ويترك الـمَكروه، تقول: خفت زيدًا، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: 50]... والخشية تتعَلّق بمنزل الـمَكروه، ولا يُسمّى الخَوف من نفس الـمَكروه خشيَة؛ ولهذا قال ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرّعد: 21] "[2].

فالخوف مقرون بمعرفة، وتعظيم للمخوف منه، والخشية أخص من الخوف الذي هو بمعنى هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره. وإن لم يكن المخوف منه معظماً. فهي خوف مبني على العلم بعظمة من يخشاه، وكمال سلطانه. قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28]، وجاء في قوله ﷺ : «عينان لا تمسهما النار؛ عين بكت من خشية اللّه، وعين باتت تحرس في سبيل اللّه»[3].

فلفظ الخشية هنا أنسب؛ لأنّها تدُلُّ على معرفة الخاشي، كما تدُلُّ على عظمة المخشيّ منه ﷻ.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 109.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 241.

(3) رواه الترمذي، حديث رقم: (1639)، وينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 73-1/71، وابن القيم، مدراج السالكين: 1/549، وابن عثيمين، مجموع الفتاوى: 6/56، وابن عثيمين، القول المفيد: 171-2/170.

الفعل والعمل:

العمل أخصّ من الفعل؛ لأنّ الفعل قد يُنسب إلى الحيوانات الّتي يقع منها فعل بغير قصد، وقد يُنسب إلى الجمادات، والعَمَلُ قلّما ينسب إلى ذلك.

والعملُ أعمُّ لأنّه من أعمال الجوارح والقلب، ويدخل فيه الأقوال؛ لأنّها عمل اللّسان، وهو من جملة الجوارح، وقد وقع في التّقابل الفرق بين الأقوال والأفعال، فيقولون: سديد الأقوال والأفعال(1).

والعمل لـمّا كان مع امتداد زمان نحو ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ [سبأ: 13] وكذا ما في [الأنبياء: 82] وأنّ العمل لا يُقال إلَّا في ما كان عن فكر ورويّة، ولهذا قُرِن بالعلم(2).

وأضيف أنّ الملحظ الأخير عن الفكر والرّويّة كأنّه مُتمّم أو لازم لملحظ امتداد زمن العمل، كما أضيف أن ممّا يؤيّد ملحظ الامتداد هذا أنّنا نسأل الشّخص عن حرفته فنقول له: ما عملك؟ والعرب تقول: "رجل عَمُول: إذا كان كسوبًا. وفلان خبيث العِمْلة -بالكسر- أي الكسب (السّعي الّذي يحصّل منه رزقه)(3).

فلفظ (العمل) هنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أنسب؛ لأنّه أعمّ، ولأنّه يشير إلى أعمال القلوب والجوارح.

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عُمدة الحفّاظ: (عمل).

(2) الكفوي، الكليات، ص: 616.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عمل).

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حديث الحقّ تبارك وتعالى في الآية السّابقة عن قلوب هؤلاء الّتي غدت كالحجارة أو أشدّ قسوة؛ لملابستها المعاصي، وكثرة التّجرؤ على الله؛ "تسبب عن ذلك بُعْدَهم عن الإيمان، فالتفت إلى المؤمنين يؤيسهم من فلاحهم؛ تسلية للنّبيّ ﷺ عمّا كان يشتدّ حرصه عليه من طلب إيمانهم في مَعرِض التّنكيت عليهم، والتّبكيت لهم منكرا للطّمع في إيمانهم بعد ما قرّر أنّه تكرّر من كفرانهم، فقال: أفتطمعون"[1]، أفبعد ذلك يطمع طامع في أن يؤمن هؤلاء القوم، وقد ورثوا من أسلافهم تاريخًا مُلوّثًا؟.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾: الجذر اللّغويّ له (طمع)، والأصل في معناه " يدُلُّ على رجاءٍ في القَلبِ قويٍّ للشَّيءِ، يُقالُ: طَمِعَ في الشَّيءِ طَمَعًا وطَماعَةً وطَماعِيَةً"[2]، وهو النّزوع إلى الشّيء؛ لأجل شهوة في النّفس[3].

"وأكثرُ ما يُستَعمَلُ فيما يَقرُبُ حصولُهُ، وقد يُستَعمَلُ بمعنى الأمل، ومِن كلامِهِم: طَمِعَ في غيرِ مَطمَعٍ، إذا أمَّلَ ما يَبعُدُ حصولُهُ؛ لأنَّه قد يقعُ كلُّ واحدٍ مَوقِعَ الآخَرِ"[4]، ومعنى الفعل في الآية: أفترجون يا معشر المؤمنين.

2) ﴿يُؤْمِنُوا۟﴾: جذره اللّغويّ (أمن)، وهي تدُلُّ على سكون القلب وتصديقه[5]، وأصلُ الأمن طمأنينة النّفس وزوال الخوف، وفعله أمن، أمّا آمن فله وجهان[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 485-1/484.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طمع).
(3) الرّاغب، المفردات: (طمع).
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (طمع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمن).
(6) الرّاغب، المفردات: (أمن).

أحدهما: أن يكون مُتعدّيًا، تقول: آمنتُه، إذا جعلت له الأمن والأمان، ومنه في وجه[1] اسم اللّه المؤمن. والآخر أن يكون لازماً، ومعنى (آمن) على هذا: صار ذا أمن، والمصدر الإيمان، وهو التّصديق باتّفاق أهل اللّغة[2].

والإيمان في الشّرع يُطلق إطلاقين[3]: إطلاقًا عامًّا تندرج فيه جميع أمور الدّين العلميّة والعمليّة؛ فهو بهذا الاعتبار قول وعمل واعتقاد، وإطلاقًا خاصًا، والمُرادُ به التّصديق والإقرار بأصول الإيمان السّتة المشهورة.

والفعل (يؤمنوا) في الآية على "معنى: (يُقِرُّوا)، وكأنَّ فيه تَلميحًا إلى أنَّ إِيمانَهُم بصدقِ الرَّسولِ حاصِلٌ، ولكنَّهُم يُكابِرونَ ويَجحَدونَ"[4].

3) ﴿فَرِيقٌ﴾: جذره اللّغويّ من (فرق)، وهو من الفصل والتّفريق، "وكلّ شَيئَين فصلت بَينهما فقد فرَقتهما فَرْقاً، وكلّ ناحية منهما فرْق وفَريق"[5]، والأصل في معناه "يدُلُّ على تمييزٍ وتَزييلٍ بين شَيئَين. مِن ذلك الفَرْقُ... ومِنَ الباب: الفَرِيقَةُ، وهو القَطيعُ مِنَ الغَنَم، كأنّها قِطعَةٌ فارَقَت مُعظَمَ الغَنَم"[6].

والفَرق: الانفصال عن الشّيء، والفريق جماعة تتفرّق وتنفصل عن غيرها[7] ومعنى الفريق في الآية: "جمع، كالطّائفة، لا واحد له من لفظه، وهو فعيل من التّفرّق، سمّي به الجُمَّاع (أَخْلاطُ الناس من قبائلَ شتَّى)، كما سمّيت الجماعة بالحزب، من التّحزّب"[8].

4) ﴿يَسْمَعُونَ﴾: الجذرُ اللّغويّ لهُ (سمع)، وأصلُ معناه "إيناسُ الشَّيءِ بالأُذُنِ، مِنَ النَّاس، وكلِّ ذي أُذُن. تَقولُ: سَمِعتُ الشَّيءَ سَمعًا. والسّمعُ: الذِّكرُ الجَميلُ"[9].

ومعنَى السّمع "قوّةٌ في الأُذن، بهِ يُدرِكُ الأصواتَ وفعلُه يُقالُ له السَّمعُ أيضًا، وقد سمِعَ

(1) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 32-31.
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة: (أمن).
(3) عبد الرّحمن البراك، شرح العقيدة الطحاويّة، ص: 293.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/567.
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رفق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).
(7) الرّاغب، المفردات: (فرق).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 2/244.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).

سمعًا"[1]. وكلُّ "ما في القرآنِ من التركيبِ... من سماعِ الأذنِ - إلاّ في وصفِ المولى ﷻ؛ فهو عِلمُ ما يُقالُ بكيفيّةٍ يعلمها ﷻ"[2].

ومعنى ﴿يَسْمَعُونَ﴾ في الآية: سماعهم الوحي بوساطة الرّسول ﷺ في زمن موسى عليه السلام، أو بوساطة النّقل لمن جاء فيما بعد[3].

5) ﴿كَلَٰمَ﴾: اسم مصدر، والفعل منه (كلّمَ)، وجذره اللّغويّ من (كلم)، وأحد أصلي الكاف واللّام والميم "يدُلُّ على نطق مُفهِم... تقول: كلّمته أُكلّمه تكليمًا؛ وهو كَليمِي إذا كلّمك أو كلّمته. ثمّ يتّسعون فيسمُّون اللّفظة الواحدة المُفهمة كلمة، والقصّة كلمة، والقصيدة بطولها كلمة"[4].

والكلامُ "يقع على الألفاظ المنظومة وعلى المعاني الّتي تحتها مجموعةً، وعند النّحويين يقع على الجزء منه، اسمًا كان أو فعلاً أو أداة، وعند كثير من المُتكلّمين لا يقع إلّا على الجملة المركّبة المفيدة"[5].

ومعنى كلام اللّه المُراد في الآية: ما أوحاه اللّه تعالى لموسى[6] عليه السلام.

6) ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾: من الجذر اللّغويّ (حرف)، "وتحَرَّفَ فلانٌ عن فلان وانحرَف، واحرَورَفَ واحد، أي: مالَ"[7]، فالتّحريف من الميل، ومنه الانحراف.

وله أصل في المعنى دالّ على "الانحِرَافِ عَنِ الشَّيءِ، يُقالُ: انحرفَ عنه يَنحَرِفُ انحِرافًا. وحَرَّفتُهُ أنا عنه، أي: عَدَلتُ به عنه، ولذلك يُقالُ مُحَارَفٌ، وذلك إذا حُورِفَ كَسبُهُ، فميل به عنه، وذلك كتحريف الكلام ، وهو عَدلُه عن جهته"[8].

والتّحريف مصدر، فعله (حرّف) فعل مُضعّف، وهو التّغيير والتّبديل والخروج عن

(1) الرّاغب، المفردات: (سمع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سمع).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/568.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كلم).
(5) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(6) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/295.
(7) الخليل، العين: (حرف).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرف).

الطّريق[1]، والتّحريف من الإمالة، ومنه تحريف الكلام[2]، وهو الوارد في الآية، والمعنى: "تحريفهم له تبديل لفظ بلفظ آخر يغيّر معناه، وقيل: بل هو تحريف المعنى دون اللّفظ"[3].

7) ﴿يَعۡلَمُونَ﴾: أصل حروفه (علم)، وله "أصل صحيح واحد، يدُلُّ على أثر بالشّيء يتميّز به عن غيره. من ذلك العلامة"[4]، ومن معانيه أنّه "ضدّ الجَهل، رجل عَالم من قوم عُلَماء وعالمين، وأعلام القَوم ساداتهم، ومَعالم الدّين: دلائله"[5]. والعلم بمعناه الاصطلاحيّ "إدراك الشّيء بحقيقته؛ وذلك ضربان: أحدهما: إدراك ذات الشّيء، والثّاني: الحُكم على الشّيء بوجود شيء هو مَوجود له، أو نفي شيء هو مَنفِيّ عنه"[6].

والعلم يدُلُّ أيضًا على "اليقينُ، يُقالُ: عَلِمَ يَعلَمُ إذا تَيَقَّنَ. وجاء بمعنى المعرِفَةِ أيضًا كما جاءَت بمعناهُ ضُمِّنَ كلُّ واحدٍ معنى الآخرِ؛ لاشتِراكِهِما في كونِ كُلِّ واحِدٍ مَسبوقًا بالجَهلِ"[7].

ومعنى ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ في الآية: أنّهم موقنون ببطلانهم وكذبهم في ما يقومون به من تحريف[8].

❁ المَعۡنَى الإِجۡمَالِيُّ:

خطابٌ للرّسول ﷺ وللمؤمنين معه صدَّره الحقّ تبارك وتعالى بهمز الاستفهام المتضمِّن للإنكار: أنسيتم أفعالَ بني إسرائيل، فطمعت نفوسكم أن يصدِّق اليهودُ بدينكم؟ فهو أسلوب يفيد زوال الطّمع في إيمانهم؛ لمكابرة هؤلاء اليهود الّذين بين أظهركم، وهم متماثلون في الأخلاق الذّميمة، لا يأتي من أخلافهم إلاّ مثل ما أتى من أسلافهم، وقد كان طائفة فيمن سلف منهم، يسمعونَ كلامَ اللّهِ، وهو ما يتلونه من التّوراة ثمَّ يُحَرِّفونه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/568.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حرف).
(3) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (حرف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (علم).
(6) الرّاغب، المفردات: (علم).
(7) الفيوميّ، المصباح المنير: (علم).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 2/249.

- من بعد ما فهموه بعقولهم - عن قصد، وسوء طويّة، بِصَرْفِه إلى غير معناه الصحيح، أو بتحريف ألفاظه؛ لأنّهم كانوا عالمين به[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

غرضُ تصديرِ الآيةِ بالهمزة:

تيئيسُ المؤمنين مـن إيمـانِ هـؤلاءِ المتَّصفين بالمذكورِ

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ تركيبٌ قرآنيّ فريدٌ لم يأتِ على هذه الشّاكلة إلّا في هذا المَوضِع من القرآن الكريم، وهو اقتران الفاء مع الهمزة مع الفعل (تطمعون)، وقد تأخّرتِ الهمزة، وحقُّها التّقدّمُ؛ لأنّها رابطة للجملة السّابقة، وهي "لتفريعِ الاستفهام الإنكاريِّ أوِ التَّعجيبيِّ على جملة (ثُمَّ قَسَت)"[2]، لكن لخصوصية الهمزة في الصّدارة تأخّرتِ الفاء، والهمزة هنا "استفهامٌ فيه معنى الإنكارِ، كأنَّه أيأسَهُم مِن إيمان هذه الفِرقَةِ مِنَ اليهود، أي: إنْ كفروا فلهم سابقةٌ في ذلك"[3]؛ فالهمزة دالّة على تيئيس المؤمنين من إيمان اليهود، وقطع لطمعهم المُتجدّد الّذي يمثّل جانبًا من صفاتهم الحميدة في حبّ الخير للآخرين.

إيثارُ التّعبيرِ بالمصدر المؤوّل ﴿أَن يُؤۡمِنُواْ﴾ على الصّريحِ (إيمانهم):

تنبيهُ المؤمنين عـلى منهـجِ اليهودِ الثَّابتِ؛ فلا يغفلوا عن حقيقتِهم

الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ للاستفهام الإنكاري، والسُّؤال موجَّهٌ للمؤمنين عن طمعهم بإيمان أهل الكتاب، وقد عبّر عنه بالمصدر المؤول ﴿أَن يُؤۡمِنُواْ﴾، ولم يعبّر بالمصدر الصّريح (إيمانهم)؛ لأنّ المصدر المؤول ذو دلالة تجدّديّة حاضرًا ومستقبلًا؛ لدلالته على الحدوث مع لح الزّمن؛ ولحرصِ المؤمنين "الشّديد على إيمانهم؛ جعلهم يطمعون في ذلك"[4]، وبما جُبلوا على

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 1/166، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 11.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/566.

(3) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 211-2/210.

(4) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (طمع).

حبّ الخير لغيرهم؛ يطمعون دائمًا في إيمان أولئك، ولا ينفكّون عن دعوتهم لاتّباع سبيل الهدى والإيمان.

إيحاءُ حذفِ حرف الجرِّ مع فعل الطّمع:

حُذفَ حرفُ الجرِّ في قوله تعالى: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ والتَّقدير: "في أن يُؤمنوا"[1]، وفي حذف حرف الجرّ إيحاءٌ بأنّ الطّامعين في إيمان أولئك النّفر من اليهود مُتعجِّلون في حصول الإيمان؛ لأنّ الحذف قرين السّرعة والاختصار.

تعديةُ الفعل ﴿يُؤۡمِنُواْ﴾ باللّام:

تضمينُ الإيمانِ معنى الإذعانِ والتّسليمِ

تعدَّى فعل (يؤمنوا) في قوله تعالى: ﴿۞أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ باللّام، "واللَّام في قوله ﴿لَكُمۡ﴾ لِتضمِينِ يُؤمنوا معنى يُقِرُّوا، وكأنّ فيه تَلميحًا إلى أنّ إيمانَهُم بصِدقِ الرَّسول حاصلٌ، ولكنَّهُم يكابرون، ويَجحَدون"[2]، ولتضمينِ الفعلِ معنى الإذعانِ والإقرارِ والتّسليمِ، وهو مجرَّدُ طمعٍ، ومع ذلك فهم لا يؤمنون.

سرُّ دخولِ (مِنۡ) في قولِه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾:

المسارعةُ في التَّحريفِ، تكشِفُ شديدَ قبحهم

قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾، توقيتٌ مُستعجل لتحريف كلام اللّٰه، وقوله: (مِنۡ) حرف جرّ، يفيد ابتداء الغاية، والإتيان بها لتقريبِ البعيدِ، والإسراع في تبديل كلام اللّٰه وتحريفه، وثمّة فرق بين قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ و(بَعۡدَ ما عقلوه)، في أنّ الثّاني يحتمل وقتًا ممتدًّا قد يطول، أمّا الأوّل فيكون بعد الحدث مباشرة، وهو تحريف الكلام، وهو دليل على تعاظم ذنبهم فيما ارتكبوه؛ فلم يعطوا لأنفسهم مُهلةً، بل باشروا بتحريفه على وجه السّرعة.

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/79.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/567.

دلالة الجملةِ الحاليّةِ على الذّمّ والتّقبيح:

ارتكابُ المعصيةِ مَعَ العلمِ بها يستحقّ الذّمّ الشّديد

قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ جملة خبريّة حاليّة، خرجت إلى معنى الكمال في قبح العمل والصّنيع؛ لأنّهم حرّفوا التّوراة عن قصد وعلم، "وفي قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ قولان: أحدهما: وهم يعلمون أنّهم حرّفوه، والثاني: وهم يعلمون عقاب تحريفه"[1].

ومَن كان هذا حاله في ارتكاب المعصية والذّنب، وتعمد التّحريف مع علمه، فإنّه يستحقّ الذّمّ، والتّوبيخ، والتّقريع، كمن يصنع قبيحًا، فيُقال له: تفعل ذلك، وأنت تعلم!!

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/80.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٧٦﴾ [البقرة: 76]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا بيّن ﷻ بأنّ بني إسرائيل المقصودين بالحديث لا مطمع في إيمانهم لغِلَظ طباعهم وقسوة قلوبهم، عطف مبيّنا بأنّهم ذوو طباع وصفات مُتقلِّبَة ووجوه متعدّدة حيثُ إنّهم إذا لقوا الذين آمنوا بادروا يُخبرونهم بأنّهم مؤمنون مثلهم، وإذا انفردوا بأشياعهم وأتباعهم قال بعضهم لبعض: لا تُحدّثوهم بما فتح اللّه به عليكم فينافسوكم في ملككم، ويُحاجّوكم به عند ربّكم.

فالحديث تتمّة لذكر نعوتهم السّيّئة وصفاتهم المتقلّبة التي يبغون من ورائها الإضرار بالمؤمنين والفتّ في عضدهم وكسر شوكتهم.

والجملة الأولى من هذه الآية (إذا لَقُوا) معطوفة على جملة ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ من الآية السّابقة "على أنّها حالٌ مثلها من أحوالِ اليهودِ، وقد قُصِدَ منها تَقييدُ النَّهي، أو التَّعجيبُ مِنَ الطَّمع في إيمانِهم؛ فهو معطوفٌ على الحال بتأويل: وقد كان فريقٌ منهم آخَرُ إذا لَقُوا"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿لَقُواْ﴾: جذره اللّغويّ (لقي)، وأحد أصوله يدلُّ على التقاء اثنين وتوافيهما[2]، "وكلُّ شيءٍ استقبلَ شيئًا أو صادفَه فقد لقِيه، من الأشياء كلّها، واللِّقيّان: كلُّ شيئَينِ يَلقى أحدُهما الآخر"[3].

والمعنى المحوري فيه: تحصيلٌ بالمقابلة مواجهةً أو تماسًّا أي بقوة، كالشيء المطروح

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/569.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لقي).

على الأرض يُعثر عليه أو به، وعُلوق المرأة وجودٌ للجنين - قوى؛ لأن بذرته تَعْلَق بالرَحِم. ومنه: لقيتُ فلانًا، وكلُّ شيء استقبل شيئًا أو صادفه فقد لَقِيَه[1].

ويكون اللقاءُ حسّيًّا بالبصر، ويكون بالبصيرة كقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: 223]، فعبّر عن يوم القيامة بملاقاة اللّه تبارك وتعالى[2].

ولا يخرج الفعل (لقوا) في الآية عن المعاني الّتي وردت عند المعجميّين، وهو مقابلة هؤلاء اليهودِ للمؤمنين الصّادقين[3].

2) ﴿خَلَا﴾: الجذر اللّغويّ منه (خلو)، "خَلا يَخلو خَلاءً فهو خالٍ، والخَلاءُ من الأرضِ: قرارٌ خالٍ لا شيءَ فيه. والرّجل يخلو خَلْوةً. واستَخلَيتُ المَلِك فأخْلاني، أي: خَلا معي، وأَخلَى لي مجلسَه"[4]، والأصل في معناه "يدُلُّ على تَعَرِّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ. يُقالُ: هو خِلْوٌ مِن كذا، إذا كان عِروًا منه. وَخَلَتِ الدَّارُ وغيرُها تَخلو. والخَلِيُّ: الخالي مِنَ الغَمِّ"[5] ويُطلق هذا الفعل إذا التقى إنسان بغيره في خلوة[6]، كناية عن الانفراد من دون إظهار ذلك.

والمعنى الوارد في الآية "أي: انفردوا معهم، وإنّما عدّي بـ(إلى)؛ لأنّه ضمّن معنى (انتهى)، كأنّه قيل: انتهوا إليهم في خلاءٍ"[7]، وخلا بعضهم إلى بعض: اجتمع النّفر الّذي لم ينافق إلى من نافق فعاتبوهم على ما تحدّثوا به ممّا يقيم الحجّة عليهم[8].

3) ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾: الجذر اللّغويّ منه (حدث)، وهو بمعنى الكلام والخبر، قليلاً كان أو كثيرًا[9]، والأصل في معناه "كونُ الشّيء لم يكن. يُقالُ: حدثَ أمرٌ بعد أن لم

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (لقى).
(2) الرّاغب، المفردات: (لقى).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/289.
(4) الخليل، العين: (خلو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو).
(6) الرّاغب، المفردات: (خلا).
(7) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (خلو).
(8) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 1/150.
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (حدث).

يكنْ... والحديثُ مِن هذا؛ لأنّه كلامٌ يحدُثُ منه الشَّيءُ بعد الشَّيء"[1]، والحديث هو الكلام الّذي يصل إلى المرء عن طريق السّمع أو الوَحي، يقظةً أو منامًا[2].

والمعنى في الآية: "أنّهم جرى بَينَهم حديثٌ في ما يَنزِلُ مِنَ القُرآنِ فاضِحًا لأحوال أسلافِهِم، ومَثالِبِ سِيرَتِهم مع أنبِيائِهِم وشَريعَتِهِم"[3].

4) ﴿فَتَحَ﴾: الجذر اللّغويّ منه (فتح)، وله معانٍ عدّة، منها كونه نقيض الإغلاق، وفتح دار الحرب، والفتح على القارئ، والنُّصرة، والحكم، وغيرها[4] والمعنى المُراد هنا هذا الأخير، وهو الحكم، وكذلك يحتمل العلم والإعلام، والأصل في معنى الفتح "يدُلُّ على خلاف الإغلاق. يُقالُ: فَتَحتُ البابَ وغيرَهُ فَتحًا. ثمَّ يُحمَلُ على هذا سائرُ ما في هذا البناء. فالفَتحُ والفِتَاحَةُ: الحُكمُ. واللّهُ تعالى الفاتِحُ، أي: الحاكم"[5].

والمعنى الآخر له "فتح المُستغلَق من العلوم، نحو قولك: فلانٌ فَتَحَ من العلم بابًا مُغلَقًا... وفتح عليه كذا: إذا أعلَمه ووقّفَه عليه"[6].

ومعنى ﴿بِمَا فَتَحَ﴾ في الآية: بما حكم اللّه به عليكم، وقضاه فيكم[7].

5) ﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾: الجذر اللّغويّ منه (حجج)، ومنه الحُجَّة وهي"وَجهُ الظَّفَر عند الخُصومة. والفعل حاجَجتُه فَحَجَجتُه. واحتَجَجتُ عليه بكذا. وجمع الحُجَّة: حُجَجٌ. والحِجاج المصدر"[8]. ويدور معناه حول تجوُّف كهفيّ صُلب أو مَتين (يحمي ضعيفًا في داخله) كحِجاج العين (يحمي مُقلَة العين بكلّ ما حولها)، ومنه "حَجَّ البيت: قصده (زاره) (دخل حَوزَته وحَرَمه). ولعلَّ الأصل كان دخول البيت (الكعبة). الحُجّة -بالضّمّ: البرهان "وهي من المعنى المحوريّ كأنّها ظرف قويّ صُلب للرّأي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حدث).
(2) الرّاغب، المفردات: (حدث).
(3) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 1/569.
(4) الخليل، العين: (فتح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتح).
(6) الرّاغب، المفردات: (فتح).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 2/150، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/570.
(8) الخليل، العين: (حج).

يحفظه ويَدعمه. و"المحاجّة: المجادلة "من هذا كلٌّ يأتي بحُجّته، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258][1].

"وممكنٌ أن يكونَ الحُجَّةُ مُشتقَّةً مِن هذا؛ لأنّها تُقصَدُ، أو بها يُقصَدُ الحقُّ المَطلوبُ"[2]، "والحُجَّة: الدّلالة المبيِّنة للمحجَّة، أي: المَقصد المستقيم الّذي يقتضي صحّة أحد النّقيضَين"[3].

والمحاجة: مفاعلة ومشاركة؛ لأنّ كلّ واحد من الخصمَين يريد ردّ صاحبه والانتصار عليه في حجّته[4].

ومعنى ﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾ في الآية: ليقيموا عليكم الحجّة، ولتكون الحجّة في الآخرة للمؤمنين[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر اللّه تعالى في الآية الكريمة عن صورتَين متغايرتَين من اليهود؛ الأولى في أنّ منافقيهم إذا لقوا المؤمنين من أصحاب الرّسول ﷺ قالوا بألسنتهم: آمنا، وإنّكم على الحقّ، وإنّ محمّدًا ﷺ هو الرّسول الّذي بُشِّرنا به فيما نُقل لنا.

الصّورة الثّانية: فإنّهم إذا خَلا بَعضُهُم ممّن لم ينافق إلى بعضهم الآخر المُتّصف بالنّفاق عتبوا عليهم وقالوا لهم في إنكار: أتخبرونهم بما حكم اللّه به عليكم، وقضاه فيكم، وبما بيّن لكم في التّوراة من صفة الرّسول محمّد ﷺ، ونعتِه، ونُبوَّتِه؛ لتكون لهم الحجة عليكم عند ربكم يوم القيامة، أفلا تعقلون ما فيه الضرر عليكم من هذا التحدث الواقع منكم لهم[6].

وترشد الآية إلى حقيقة ما انطوت عليه نفوس اليهود؛ إذ توارثوا النِّفاق والخِداع والتلاعب بالدين.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حجج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حج).
(3) الرّاغب، المفردات: (حج).
(4) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (حجّ).
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 1/170.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/150، والشّوكانّي، فتح القدير: 1/122، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 11.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائدةُ التَّقابلِ بين الجملتين المُصدَّرتين بـ(إذا) الظَّرفيّة:

بيانُ ذبذبةِ اليهودِ وتلوّنِهم، وفي ذلك دلالة على ضعفِهم سلوكًا وعلمًا

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ جملتان في وصف اليهود، دلَّتِ الأولى على حالهم عند لقاء المؤمنين، وقولهم: (آمنَّا) بحسب زعمهم، ودلَّت الأخرى على حالهم عند انفرادهم، وتوبيخ بعضهم بعضًا بسبب تحدُّثهم عن صفة النّبيّ محمّد ﷺ المذكورة في التّوراة، وهما في مجموعهما تدلّان على ذبذبة اليهود، وتلوّنهم، وعدم ثباتهم، و"مثلُ هذه الذَّبذَبَةِ تكونُ مِنَ الأمم في طور الضَّعف، ولا سيَّما ضَعفُ الإرادةِ والعِلم، ولو كان لأولئك القوم إرادةٌ قويَّةٌ لَثَبَتوا ظاهرًا على ما يَعتقِدونه باطلًا، ولم يُصانِعوا مُخالفيهم من أهل المِلَّة الأولى، أوِ المِلَّة الآخرة"[1].

غرضُ الهَمْزَةِ في قولِه: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾:

توبيخُ اليهودِ بعضِهم لبعضٍ بسببِ كشفِهم الحقائق

الهمزة في الفعل (أتحدّثونهم) في قوله تعالى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ همزةُ "استفهام للإنكار أو التَّقرير أو التَّوبيخ، بقرينة أنّ المَقامَ دلَّ على أنّهم جرى بينَهم حديثٌ فيما يَنزِلُ مِنَ القُرآنِ فاضحًا لأحوالِ أسلافِهم، ومَثالِبِ سِيرَتِهم مع أنبِيائِهِم وشَرِيعَتِهم"[2].

ففي الاستفهام توبيخٌ من بعض اليهود لبعضهم الآخر؛ لأنّ هؤلاء "ظنُّوا أنّ ذلك خَلَصَ للنَّبيّ ﷺ من بَعضِ الَّذين أظهَروا الإيمانَ مِن أتباعِهم، وأنّ نِفاقَهم كان قد بَلَغَ بهم إلى أن أخبَروا المُسلِمينَ ببعضِ قَصَصِ قَومِهِم سَترًا لِكُفرِهِمُ الباطِنِ؛ فوَبَّخوهم على ذلك تَوبيخَ إنكارٍ"[3] أي: من بعضهم لبعضهم الآخر، وهو توبيخ المبطل للمحقّ.

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/297.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/569.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/570.

بلاغة المجاز في قوله تعالى: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

نظرةُ الاستعلاءِ عند اليهودِ بأنّهم مفتوحٌ عليهم وغيرهم محصورون

ابتدأ قوله تعالى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بفعل الحديث، ثمّ ذكر فعلًا آخر يبدو بعيدًا عن سياق الجملة، وهو فعل الفتح، و"المُرادُ بالفَتح هنا: الإنعامُ بالشَّريعة والأحكام، والبِشارةُ بالنَّبيِّ ﷺ، شبّه الّذي يُعطَى الشَّريعةَ بالمَحصور يُفتَحُ عليه فيَخرُجُ مِنَ الضِّيق"[1]، ويؤيّد ذلك أنّ الحديث هو إخبار الشّخص عن نفسه من غير إسناد إلى غيره[2]، فكأنّ الحديثَ محصورٌ في الشّخص نفسه، فيفتح اللّه عليه فيظهره.

دلالة العنديّة في قوله تعالى: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ﴾:

العنديّة مجازيّة، أي عند ربّكم في الآخرة أو في حكمه وقضائه

قوله تعالى: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ﴾ أي: في الآخرة، وقيل: المعنى عند ذكر ربّكم[3]، ولفظ المحاجة يوحي بأنّهم "جعلوا محاجّتهم به، وقولهم: هو في كتابكم هكذا محاجّة عند اللّه"[4]، هذا ظاهر الكلام إلاّ أنّ قوله: (عند اللّه) ليس على الحقيقة اللّغويّة، بل هو من باب المجاز، أي: في حكمه وشرعه، فقد يُقال: "وهذا عند الشّافعيِّ حلالٌ، وعند أبي حنيفةَ حرامٌ، أي: في حُكمِهما، وقولُهُ: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ﴾، أي: لِتَصيروا مَحجوجِينَ بتلك الدَّلائِلِ في حُكم اللّه"[5]، فليستِ العنديّة هنا على الحقيقة.

بلاغة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

نفيُ العقلِ المُقترِنِ بالهمزة توبيخٌ لكلِّ من يصدرُ عنه مثل فعلهم

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ جملة من الهمزة والفاء العاطفة و(لا) النّافية الّتي دخلت على الفعل (تعقلون)، والغرضُ من هذا الاستفهام التّوبيخ، وهو "مِن بقيَّة مَقولِهِم لقَومِهم، ولا يَصِحُّ جَعلُهُ

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/296.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 41.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/168، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/3.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/288.
(5) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/147.

خِطابًا مِنَ اللّهِ للمُسلمِين تَذيِيلًا لقوله: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾؛ لأنّ المُسلمِينَ - وفيهم الرَّسول ﷺ - ليسُوا جديرينَ بمثل هذا التَّوبيخ، وحَسۡبُهم ما تضمَّنَه الاستِفهامُ مِنَ الاستِغراب أوِ النَّهي"[1].

۞ الفُرُوقُ المُعۡجَمِيَّةُ:

الحديث والخبر:

ثمّة فرق بين الحديث والخبر في الآية الكريمة؛ ذلك بأنّ الحديث "في الأصل هو ما تخبر به عَن نفسك من غير أن تسنده إلى غَيرك، وسمّي حَدِيثًا؛ لأنّه لا تقدّم له، وإنّما هو شَيء حدث لك فَحدّثتَ به"[2]، وقد اقترن الحديث في الآية بالفتح، فالعلاقة واضحة بين الحديث المُختصّ بالنّفس حسب، ومعنى الفتح في الآية في محصور يخرج من الضّيق، وحديث يخرج من النّفس، وليس ذلك في الخبر الّذي يمثّل "القول الَّذي يَصحّ وصفه بالصّدق والكذب، ويكون الإخبار به عن نَفسك، وعن غيرك"[3].

فقوله: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ أنسب للسّياق؛ للدّلالة على ما كان يضمره هؤلاء اليهودُ من كتمان الحقّ، وقد شاء اللّه إظهاره.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/572.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 41.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 40.

﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧﴾ [البقرة: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

توبيخُ المنافقين من اليهودِ بعلمِ اللهِ تعالى بهم هو الأَنسبُ في إقامةِ الحُجَّةِ عليهم

لـمَّا ذكرَ اللّه تعالى في الآياتِ السَّابقةِ عِلْمَ اليهودِ بمضامين التَّوراةِ، وذَكَرَ نفاقَ اليهودِ معَ المؤمنينَ، ناسَبَ ذلكَ توبيخُهُمْ بأَنَّ علمَ اللّهِ شاملٌ للسِّرّ والعلَن، فَكَيْفَ يَسوغُ لَهُم النِّفَاقُ أَو الكِتمانُ، والحالُ أَنَّ اللّه يعلمُ جميعَ ما يُسِرُّونَ وما يُعلنونَ، فحالُ نِفاقِهم لا يُجامِعُ بحالِ علمهم بِأَنَّ اللّه يعلمُ جميعَ ما يُسِرُّونَه وما يُعلنونَه(1).

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَعۡلَمُونَ﴾: العِلْمُ مَعْرِفَةُ الشَّيءِ عَلى حَقيقتِه، وَعِلمُ النَّاسِ مُقَيَّدٌ بمعرفة ذلك الشّيءِ، ومَنازِلُ العُلوم مُتفاوتَةٌ بتفاوتِ أَربابِها، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: 76]، وأَمَّا عِلمُ اللّهِ فَهو مُطلَقٌ، والعَالِمُ - الّذي هو وصفٌ للّه تعالى - هو الّذي لا يَخفَى عليهِ شَيءٌ؛ وذلك لا يَصِحُّ إِلَّا في وصْفِهِ تَعَالى(2). وضَميرُ الجَمَاعةِ في ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ في الآيَة عائِدٌ إلى الـمُوَبَّخينَ، وَيحتملُ عودُه إلى الـمُوَبَّخينَ والـمُنافقينَ معًا.

2) ﴿يُسِرُّونَ﴾: السِّرُّ هو إخفاءُ الشّيءِ أَو كِتمان مَا في النَّفْس، وَالجَمْعُ أَسرارٌ، وَيُستعملُ في الأَعيان والـمَعاني، وَأَسْرَرْتُ إلى فلان حديثًا: أَفضيتُ إِلَيْهِ في خُفْيَةٍ، والسِّرُّ كلُّ ما نتكلّمُ بِهِ في خَفاءٍ، وهو ضدُّ العَلانيَة(3).

3) ﴿يُعۡلِنُونَ﴾: العَلَنُ: أَعْلَنَ يدلُّ على إظهارِ الشَّيءِ وإشاعته بين النَّاسِ، وأَكثرُ مَا يُقالُ ذلك في المعاني دونَ الأَعيان، ويقالُ: عَلَنَ الأَمرُ وأَعلنَه، العلانيةُ ظهورُ الأَمْر(4).

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/443.

(2) ابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المفردات: (علم).

(3) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (سرر).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (علن).

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

إقامةُ الحجَّة على المخاطبين من جنس حجَّتِهم

تمثِّل الآية بيانًا قرآنيًّا ناصعًا في إقامة الحجّةِ على اليهود؛ وذلك بالبدءِ بالاستفهام التّوبيخيِّ لهم؛ لحملِهم على الإقرارِ بعلمِ اللّه تعالى، وشمولِ علمِهِ بسرائرِهم وعَلانيتِهم، بما دلَّ عليه السّباقُ والسّياقُ، فكيف يُحرِّفون الكتابَ ويكتمونَ صفاتِ النَّبيِّ مُحمَّد ﷺ المكتوبةَ عندهم في التَّوراةِ وينافقونَ! فَوَبَّخَهُم اللّه تعالى على عملِهِم الذي يَدُلُّ على جَهلِهِم بِصفاتِ اللّه، أَو يكونُ الـمَعْنَى على التّعَجُّبِ من جُرأَتِهم وصَنِيعِهِم، وَهُم يَعلمونَ أَنَّ اللّه يَعلَمُ سرَّهم وَعَلانيَتَهم.

۞ الإيضَاحُ اللُّغَويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

معاني همزةِ الاستفهامِ سياقيًّا:

تنوَّعَتْ أقوالُ الـمُفسِّرينَ والبيانيينَ في تَجليةِ معنى الهمزة على ثلاثةِ أقوالٍ، وهي على النّحوِ الآتي:

تَنوّعُ معاني همزةِ الاستفهامِ دليلٌ على ثراءِ الـمَعنَى ودِقّةِ البَيان

أولًا: التَّوبيخُ والتَّقريعُ: ومعناه توبيخُ اللّهِ للمنافقينَ من اليهودِ، على صنيعِهِم في كتمانِ الحقِّ، وتواصيهم بذلك الكتمانِ، خوفًا من إقامةِ المؤمنينَ الحجَّةَ عليهم، وَهُمْ بذلك يَقعونَ في الطامَّةِ الكبرى في إنكارِ أمرٍ معلومٍ مِنْ دينِهم بالضَّرورةِ، وهذا مذهبُ جمهورِ الـمُفسِّرينَ[1]، قال الرازي: "وَالأَقْرَبُ أَنَّ اليَهُودَ الـمُخَاطَبِينَ بِذَلِكَ كانوا عَالِمِينَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكادُ يُقَالُ عَلَى طَرِيقِ الزَّجْرِ: أَوَلَا يَعْلَمُ كَيْتَ وَكَيْتَ إِلَّا وَهُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ الشَّيْءِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءُ زَاجِرًا لَهُ عَنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ"[2].

ثانيًا: التقريرُ: ومعناهُ حَملُ المخاطَبينَ على الإقرارِ بِمَضمُونِ الآيةِ، والمعنى تقريرُ إنكارِ علمِ اليَهودِ بأَنَّ اللّه يعلمُ ما يُسِرُّونَ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/4، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/443، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/118.

(2) الرازي، التّفسير الكبير: 3/147.

ومايُعلنونَ؛ أي إنهُمْ مَا عَلِمُوا بذَلِكَ، فَرَغَّبَهُمْ بِهَذَا القَوْلِ في أَنْ يَتَفَكَّرُوا فَيَعْرِفُوا أَنَّ لَهُمْ رَبًّا يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَعلانِيَتَهُم، وَأَنَّهُمْ لَا يَأْمَنُونَ حُلُولَ العِقَابِ بِسَبَبِ نِفَاقِهِمْ، وهَذَا الكَلَامُ زَجْرٌ لَهُمْ عَنِ النِّفَاقِ، وَعَنْ وَصِيَّةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِكِتْمَان دَلَائِلِ نُبُوَّةِ مُحمَّد ﷺ[1]، ويمكنُ أَنْ يكونَ التَّقريرُ على طريقةٍ أُخرى، بأَنْ يُقال: لـمّا كانوا يعلَمون أَنَّ اللّه يعلمُ جميعَ ما يُسِرُّونَ وما يُعلنونَ، ومع هذا فقد كانوا يُظهرونَ الإيمانَ، ويُبطنونَ الكُفرَ، ويَكتمونَ ما ثبتَ في التَّوراةِ قبلَ تحريفِها من نعوتِ رسولِ اللّهِ مُحمَّدٍ ﷺ، فكانَّهم لا يَعلمونَ؛ لأَنَّهم لم يَعملوا بمُقتضى علمِهم، فالعلمُ بالشَّيءِ إنْ لم يُثمرْ فهو في مقام الجهلِ به.

ثالثًا: التَّحضيضُ: وإليهِ ذهبَ ابنُ عاشور واستظهرهُ بمعونةِ استعمالِ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ الدَّالِّ على تجدّدِ الأَمرِ واستمرارِه، والمعنى: هَلّا كانَ وُجُودُ أَسْرَارِ دِينِهِمْ في القرآنِ ممّا ذكره اللّه من تحريفِهم الكتابَ وغيرَه مُوجبًا لِعِلْمِهِمْ أَنَّ اللَّه يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ، والـمُرَادُ لَازِمُ ذَلِكَ؛ أَيْ هم يَعْلَمُونَ أَنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ من عندِ اللَّهِ، فَهَلَّا كان ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى صدق الرَّسُول[2].

اجـتـمـاعُ قيـمةِ الـحـضِّ على الهدايةِ وتوبيخِ الـمُـخـاطـبـين ببلاغةٍ عاليةٍ

ومَنْ يُدقِّقِ النَّظرَ يَجدْ أَنَّ جميعَ هذهِ المعاني مقبولةٌ، ويَسعُها النَّصُّ القرآني، فمعنى التَّقريرِ والتَّحضيضِ حاضرٌ؛ حيث إنَّ الآيةَ تُقَرِّرُ المخاطَبينَ وتحضُّهم على معرفةِ مُقتضى علمِ اللّهِ تعالى بما يُسِرُّونَه وما يُعلنونَه، وكذلك تُوبِّخُهم على تَجاهلِهم وتحايلِهم على هذا الأمرِ العظيم، الذي لا يصحُّ أنْ يجهلَه كِتابيٌّ، ومقصودُ الجمعِ بين هذهِ المعاني توبيخُ مَنْ أَصرَّ وكابَرَ وتقريعُهُ، وحَضٌّ لِمَن في قلبِه بقايا خيرٍ وتقريرٌ له، فاجتمعتْ في الآيةِ قيمتانِ عظيمتان، وهما: الحضُّ على الهدايةِ والرجوعُ إلى الحقِّ، وتوبيخُ المكابرين، وهذا من الاتِّزانِ البلاغيِّ في تقريرِ القيمِ الذي لا مَزيدَ عليه.

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/147.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/572.

الرَّبْطُ بالوَاوِ علَى مَعْنَى تجدُّد الحَال:

في قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: جَاءَت جملةُ: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ فعليةً معطوفةً -على تقدير الحَال- على سابقتِها الفعليّة كذلك لإفادةِ معنًى جديدٍ، هو أَنَّهُ كُلَّما تجدّد نفاقُهم فَعِلْمُ اللّهِ مُحيطٌ بهم، فوبّخهم اللّه على فعلهم مع علمِهم أَنَّه يعلمُ مَا يُسِرُّونَ ومَا يُعلنونَ، فَدَلّتِ الأَفعالُ المُضارِعةُ في الآيةِ على الحالِ المُتجدِّدةِ في المُستقبلِ المتدّ[1]، والغَرضُ هو توبيخُهُم والإنكارُ المُتجدّد عليهم لِكُلّ فعلٍ قبيحٍ يَفعلونَهُ.

لا يَـنْـفَـعُ المُنافقينَ إلَّا الرُّجوعُ إلى الإيمان، فَعلمُ اللـهِ مُحيطٌ بهم وبِأَفعالِهم مَهما كتمُوا حقائِقَ الإيمان أَو أَبطنُوا الكفرَ

بلاغةُ إيلاءِ حَرْفِ الاستفهامِ حرفَ العطف:

الكلامُ في مثلِ قولِه تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ له طريقتانِ في التَّقديرِ:

قـدْ يختلفُ التَّوجيهُ والمعنى واحدٌ لِيَدُلَّ على تقريرِ المعنى وتأْكيدِهِ

الطريقةُ الأولى: مذهبُ جمهورِ النُّحاةِ والمفسِّرينَ، هو أَنَّ أَصْلَ الكَلَامِ كان بتَقْدِيمِ حَرْفِ العَطْفِ على الهَمْزَةِ[2]، وتقديرُ الكلامِ: (ويفعلونَ هذهِ الأفعالَ القبيحةَ، أَلَا يعلمونَ أنّ اللّه يعلمُ مايُسِرُّونَ ومايُعلِنونَ).

الطريقةُ الثَّانيةُ: عطفُ الجملة المذكورةِ على أخرى محذوفةٍ بعدَ همزةِ الاستفهام، وهذه طريقةُ الزَّمخشريِّ وأبي السّعودِ في تقديرِ الكلامِ[3]، ونكتتُه: تنبيهُ المخاطَبِ إلى عجيبِ أمرِهم، ويُقدَّرُ المحذوفُ منْ سياقِ الكلامِ ، والتَّقديرُ: (أيَجهلون ولا يَعلمون أَنَّ اللّه يعلمُ ما يُسِرُّونَ ومايُعلنونَ).

وإنَّما قُدّم الاسْتِفْهَامُ في مثلِ هذه التَّراكيبِ؛ لأنّه يأتي في مقام إقامةِ الحجَّةِ والاستدلال، سواء أَكانت الهمزةُ للإنكارِ والتوبيخِ

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/196.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/443، والسمين، الدر المصون: 1/444.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/443، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/118.

المقتضي الزجرَ عن الفعلِ، أمْ كانت للتَّقريرِ، أمْ كانت للتَّحضيضِ، ولا يحقِّقُ هذه المعانيَ البلاغيَّةَ إلّا الاسْتِفْهامُ المجازيُّ الذي يكونُ بالهمزةِ فحسب، فناسبَ تقديمُ همزةِ الاسْتِفْهامِ على حرفِ العطف (الواو) المفيدة للحاليَّة.

فائدةُ إيثارِ صيغةِ الأفعالِ المُضارعةِ في الآية:

كُلَّما تجدّد إسرارُهم أو إعلانُهم، فعلمُ اللهِ مُحيطٌ بِهم وبِمَا يَفعلون

آثرت الآيةُ صيغةَ الفعلِ المضارعِ على الماضي؛ فلمْ يقلْ: (أمَا علموا)، فورَدَ الفعلُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ بصيغة المضارِعِ لإفادَة تَجدّدِ الحدوثِ، على معنى: إنّهم يَعلمون أنَّ كلَّ فعل يفعلونَه سِرًّا أو عَلَنًا فإنَّ اللّه يعلمُه، وإنَّ الأمرَ ماثلٌ أَمامَهم في كلِّ وقت.

اليَهودُ في حالةٍ مُتجدّدةٍ مِنْ كتمانِ الحَقائق وإعلانها

ورد التّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ دونَ الماضي فلم يقلْ: ما أَسَرُّوا وما أعلَنوا؛ بل قال: ﴿يُسِرُّونَ﴾ و﴿يُعۡلِنُونَ﴾ بصيغة الفعل المضارع التي تدلّ على تجدّد الحدوث واستمراريته، وفي صيغةِ الفعلِ المضارع إشارةٌ إلى ما يقعُ في المستقبلِ؛ فاليهودُ في حالةٍ مستمِرَّةٍ لا يتوقَّفونَ عنْ إسرارِ الحقائقِ وكتمانِها، وإعلانِ الأباطيلِ والكذبِ تحقيقًا لما يَزعمون أنّه يحفظُ بقاءَهم.

سرُّ تكرارِ ﴿مَا﴾ في الآيةِ:

تعيينُ نَوعَين مُتناقِضَيْن من الكَلامِ الصّادرِ عن ذاتٍ واحدةٍ

كُرِّرت ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ للبيانِ والتَّفصيلِ، فإنَّ المقامَ مقامُ تفصيلٍ وإيضاحٍ في أَنَّ اللّه يعلمُ كلَّ شيءٍ يُسِرُّونَه وكلَّ شيءٍ يُعلنونَه، وفي التَّكرارِ نُكتةٌ بلاغيةٌ أُخرى، وهي أَنَّ ما يُسِرُّونَه مناقضٌ لما يُعلنونَه، فوبّخهم على الكلامِ الّذي يُسَرُّ، والكلام الّذي يُخالِفُهُ ويناقِضُهُ حينما يُعلن، فكرّرت ﴿مَا﴾ لإظهارِ نفاقِهم، فلمّا اختلفَ المتعلّقُ، استوجبَ تكرارُ ﴿مَا﴾، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [المجادلة: 7]؛ لأَنَّ السِّياقَ يدلُّ على اختلافِ المتعلّقِ فكرَّرَ ﴿مَا﴾، ولو كانَ الذي يُسِرُّونَه هو عينَ الّذي يُعلنونَه لَقالَ: (أَنَّ اللّه يَعلَمُ ما يُسِرُّونَ

ويُعلنونَ)؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج: 71] لأَنَّ متعلّقَ علم اللّهِ شيءٌ واحدٌ، باعتبارِ أَنَّ كلَّ ما في السماوات والأرض معلومٌ للّه سبحانَه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ بصيغةِ الإشارةِ إلى المفرد.

فائدةُ حذفِ المفعولِ:

بيانُ إحاطةِ علمِ اللهِ بجميعِ الخفيَّاتِ والمُعلنات

حُذِفَ مفعولُ الفعلين ﴿يُسِرُّونَ﴾ و ﴿يُعْلِنُونَ﴾ لإفادة العموم؛ فعلمُ اللّه لا يقتصِرُ على مُعيّن ممّا يُسِرُّونَ ومما يُعلنونَ، بل يتناول كلّ ما يُسرُّونَ وما يُعلِنونَ، فدلَّ حذفُ الضَّميرِ العائدِ على الاسم الموصولِ على عموم ﴿مَا﴾ في الآية كما تقدّم، وهو مناسبٌ لسياقِ الآية الدَّالِّ على إحاطة علم اللّهِ بما يُسِرُّونَ وما يُعلنونَ، فقد توصّلَ بتقليلِ اللَّفظِ إلى تكثيرِ المَعنَى.

بلاغةُ تقديمِ الإسرارِ على الإعلانِ:

ما مِنْ عَلَنٍ إلَّا ويسبِقُهُ إسرارٌ في القَلبِ

بعضُ كلماتِ القرآنِ تقترنُ مع صاحبتِها ولِفْقِها وتُلازِمُها ولا تنفصلُ عنها في غالبِ الاستعمالِ، وقد قُدِّم ﴿يُسِرُّونَ﴾ على ﴿يُعْلِنُونَ﴾ في الآية لنُكَتٍ بلاغيةٍ منها[1]:

أولًا: مرتَبةُ السّرِّ مقدَّمةٌ على مرتبةِ العَلَنِ؛ إذ ما مِنْ عَلَنٍ إلَّا ويَسبِقُهُ إِضمارٌ في القلب يتعلّق به الإسرار غالبًا.

ثانيًا: إذا كان اللّه يعلمُ ما يُسِرُّونَ، فبطريقِ الأولى يعلمُ ما يُعلنونَ؛ فقدَّم علمَ الأخفى ليدلَّ على علم الأظهر.

ثالثًا: الإيذانُ بافتضاحِ اليَهودِ ووُقوعِ ما يَحْذَرونَه من أوَّلِ الأمرِ.

رابعًا: المبالغةُ في بيان شُمولِ علمِهِ المحيطِ لجميعِ المعلوماتِ، كأَنَّ علمَه بما يُسِرُّونَه أقدمُ منه بما يُعلنونَه مع كونِهما في الحقيقةِ على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 119-1/118.

السويةِ؛ فإنَّ علمَه تعالَى بمعلوماته ليسَ بطريقِ حصولِ صُورِها، بل وجودُ كلِّ شيءٍ في نفسِه يعلمُهُ اللّه تعالى.

بديعُ الطِّباقِ في الآيةِ:

أفاد الطِّباقُ في ﴿يُسِرُّونَ﴾ و﴿يُعۡلِنُونَ﴾ استواءَ الأمرين في علمِه ﷻ، كما أنَّه أفادَ توكيدَ المعنى وتقريرَه.

العطفُ بقصدِ التَّأكيدِ:

اجتماعُ دلالةِ المطابقةِ والالتزامِ في الكلمةِ القرآنيَّةِ

دَلَّتْ كلمةُ ﴿يُسِرُّونَ﴾ على معنى الإسرارِ بدلالة المطابقةِ، ودلالتُها على الإعلانِ بطريقِ الالتزام؛ فإنَّ اللّه إذا كان يعلمُ ما يُسِرُّونَ، فمِنْ بابِ أَوْلَى أَنْ يعلمَ ما يُعلنونَ، فلمَّا ذكرَ ﴿يُعۡلِنُونَ﴾ دلَّ على علمِه بما يُعلنونَ مطابقةً، فكأنَّه كرَّرَه مَرتَين؛ ولهذا قال ابن عرفة: "عطْف ﴿يُعۡلِنُونَ﴾ على ﴿يُسِرُّونَ﴾ تأكيدٌ ليدلَّ اللَّفظ عليه بالمطابقةِ واللّزومِ"[1].

تَوْجِيهُ المُتشَابِهِ اللَّفظيِّ:

تقديمُ الإسْرَارِ عِنْدَ بَيانِ العِلْمِ، وتقديمُ الإعلانِ عند بَيَانِ المُحَاسَبَةِ

قُدِّمَ ذكرُ الإسرارِ على الإعلانِ، وقد جاءَ في آيةٍ أخرى تقديمُ الإظهارِ على الإخفاءِ؛ فقال تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: 284]؛ ذلك أَنَّ المقامَ في الآيةِ الأخرى هو في بيانِ محاسبةِ اللّه لنا على أعمالِنا، والأصلُ أنَّ المُحاسبةَ تكونُ في الأمورِ الباديةِ دونَ الخافيةِ[2]، فلمّا اختلف السِّياقُ قُدّم في كلِّ آيةٍ ما يُناسِبُها.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

استعمَلَ القرآنُ في هذه الآية ﴿يُسِرُّونَ﴾، ولم يستعمل (يُخفون) أو (يَكتمون)، كما أنَّه استعمل ﴿يُعۡلِنُونَ﴾، ولم يستعمل (يُبدونَ)؛ لِخَصُوصيَّة الكَلِمَةِ في سياقِ الآيةِ، ويمكن معرفةُ هذا ببيان الفروقِ المُعْجَميَّة بين الكلماتِ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/344.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/301.

الإسرارُ والخِفيةُ:

الفَرْقُ بين الإسرارِ والخُفيةِ من ثلاثةِ وجوه:

إنَّ ما هو أخفى مِن السِّرِّ يُسَمَّى خُفْيَةً وخَفَاءً، قال تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: 25]؛ فالخبءُ هو المخبوءُ والمَخفيُّ الّذي لا يعلمُهُ إلا اللّه، ولهذا قالَ تعالى في نهايةِ الآية: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، ولم يقلْ: (يعلم ما تُسِرُّونَ وماتُعْلِنُونَ). وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: 5]؛ لأَنَّ الخفاءَ أَدقُّ مِنَ السِّرِّ، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7]؛ أي يعلمُ ما هو أَخفَى من السِّرّ.

الخُفية أخفَى من السِّرّ، واللّه يعلم السرّ وأخفى، ومن الخَفِيِّ ما هو مَخبوءٌ ولا يعلمه أَحدٌ إلّا الله

إنَّ السِّرَّ ما يصحُّ أَنْ يَقعَ فيه إسرارٌ إلى الغَير، وأمَّا الخُفيةُ فهو ما خَطَرَ بالبالِ ممَّا لا يقعُ منه إسرارٌ ولايُتفوَّهُ بِهِ[1]، فالإسرارُ قدْ يكونُ في النَّفْسِ : ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ [يوسف: 78]، وقد يكونُ إلى الغير ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [التحريم: 3]، وأمَّا الخُفيةُ فلا تكونُ إلى الغيرِ، بل تكونُ في النَّفسِ أو في الصَّدرِ، ولهذا جاءَ في الآية: ﴿مَايُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ لِأَنَّ اللّه أخبرَ عنهم في الآيةِ السَّابقة بأنَّهم: ﴿إِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾، فقد كان بعضُهم يُسِرُّ إلى بعضِهم حديثًا.

الإسرارُ قد يكونُ في النَّفس، فلا يعلمُه أَحدٌ، وقد يكونُ إلى الغَير، وأما الخِفْيَةُ فلا تكونُ إلى الغيرِ

إنَّ الخفاءَ أَخفى مِنَ السِّرِّ كما تقدَّم ويكونُ لِمقصدٍ أو غاية، وأمَّا الإسرارُ فهو يدلُّ على مُطلَقِ ما يكونُ في النَّفس ممَّا لم يُعلَنْ به، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: 1]؛ فلمّا كان لهم غايةٌ ومقصدٌ في الإسرارِ سمَّاه خفاءً، وممَّا يؤيّدُ هذا أَنَّ إبراهيمَ عليه السلام لـمَّا أَسكنَ ذريَّته بوادٍ غيرِ

إخفاء الأمر يدلُّ على أَنَّ لصاحبِه مقصدًا وغايةً في النَّفس، وأَمَّا الإسرارُ فيدلُّ على ما في النَّفس ولا يقتضي أَنْ يكونَ لغاية

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/5.

ذي زَرْعٍ، كانت نِيَّتُه وغايتُه أَنْ يُقيموا الصَّلاةَ فيه ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: 37]، فلمَّا كان له غايةٌ في عملِه قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ [إبراهيم: 38].

الفرقُ بينَ السِّرِّ والخَفَاءِ قد يكونُ باعتبارِ زمنِ الحالِ والاستقبالِ، أو أنَّ الخفيَةَ أخفَى من السّرِّ

وقد يكونُ الفرقُ بينهما في الوضعِ الزَّمنيّ بينَ الحالِ والاستقبالِ؛ فالسِّرُّ ما يكونُ في النَّفْسِ متحصَّلا ممَّا لمْ يُعلَنْ بهِ، والخَفاءُ ما سيكونُ في النَّفسِ ممَّا سيستأنفُ في المُستقبل[1]. وقد يكونُ الفرقُ بين الإسرارِ والخِفيةِ هو أَنَّ الخِفيةَ هي: "مَا يَتَكَلَّمُ اللِّسَانِ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَنَحْوِهِ مِنَ الأَصْوَاتِ الَّتِي هِيَ أَخْفَى مِنْ كَلَامِ السِّرّ"[2].

الإعلانُ والإبداء:

الفرقُ بينَ ﴿يُعۡلِنُونَ﴾ و(يُبدونَ): هو أَنَّ الإبداءَ ما كان فيه تكلُّفٌ في إِظهار ماخَفِيَ، أَو ما يظهرُ ظهورًا بيّنا بعدَ خَفاءٍ، فيكونُ البَدْوُ في مقابل الخِفْيَةِ أولى، ولهذا أكثرُ ما وردت كلمةُ (يُبْدونَ) ومشتقَّاتُها في القرآنِ الكريمِ في مُقابلِ (الخِفْيَةِ) ومشتقَّاتها، وما وردَ من الخَفاءِ في مقابل العلنِ قد تقدَّم سببُه، وأمَّا الإعلانُ فيطلَقُ على ما هو ظاهرٌ ممَّا يكون مقابلًا للإسرار؛ ولهذا ورد (يُعۡلِنُون) مقابلًا لـ(يُسِرُّونَ)، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [يس: 76].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/37.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/191.

﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾ [البقرة: 78]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا أخبرتِ الآياتُ السَّابقةُ عن واقعِ الـمُنافقين من اليَهودِ، الّذين يُحرِّفون كلامَ التَّوراةِ من بعد عَقلِه وفهمِه، كان من الـمُناسبِ جدًّا - وممّا يقتضيه العدلُ والإنصافُ - الإخبارُ عمَّن هم أمّيّون مُقلّدون ولا علمَ لهم إلّا الأمانيّ؛ لأنَّهم مجرّدُ أتباعِ الـمُحرِّفين، فاستوَى الطرفانِ: طرفُ العالمِ الـمُحرِّف، وطرفُ الأميّ الجاهلِ في الموقف من القرآنِ الكريم، وعليه فلا مَطمعَ في إيمانِ أحدٍ منهم، لا العالمُ الـمُحرِّفُ، ولا الأمِّيُّ الجاهلُ؛ فكان العطفُ على قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 75]، من قبيل عطفِ حالِ أُمِّيِّي اليهودِ وموقفِهم من الإسلام، على حالِ الفريقِ المحرِّفِ، فهم وإن اختلفُوا في مقامِهم العلميِّ، لكنَّهُم لا يختلفون في مَوقِفهم الدينيِّ.

قال البقاعي رحمه اللّٰه تعالى: "لَمّا ذَكَرَ سُبۡحانَهُ هَذا الفَرِيقَ الَّذِي هو مِن أعۡلاهم كُفۡرًا وأعۡتاهم أمۡرًا، عَطَفَ عَلَيۡهِ قِسۡمًا أعۡتى مِنهُ وأفَظَّ؛ لِأنَّ العالِمَ يُرۡجى لَفۡتُهُ عَنۡ رَأۡيِهِ أوۡ تَخۡجِيلُهُ بِالحِجاجِ بِخِلافِ الـمُقَلِّدِ العاتِي الكَثِيفِ الجافِي فَقالَ ﴿ومِنهم أُمِّيُّونَ﴾"(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أُمِّيُّونَ﴾: جَمۡعُ أُمّيّ، وأصله (أمم)، وهو الّذي لا يكتبُ ولا يقرأُ مِنۡ كِتاب(2)، وفي وجه تسمية الأُمّيِّ ثلاثةُ أقوالٍ:

أولًا: لأنّه باقٍ على أصلِ ولادةِ أمّهِ لم يتعلّم الكتابةَ والقراءةَ.

ثانيًا: كونه منسوبًا إلى أمّهِ الّتي ولدته؛ ولأنَّه ليس من شغل النّساءِ عندهم القراءة ولا الكتابة(3).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 1/490.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (أمم).

(3) السمين، عمدة الحفاظ: (أمم)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/5.

ثالثًا: أَنْ يكون مَنْسُوبًا إِلَى الْأُمَّةِ بِمَعْنَى عَامَّةِ النَّاسِ فيكون مرادفًا لِلْعَامِّيِّ، وهو ما استَظهَرَه ابنُ عاشور[1].

وذهب البقاعيُّ[2] إلى أنَّ الأُمِّيّين هم عامّةُ اليَهودِ، الّذين يتّبِعُون علماءَهم، ولا يعلمونَ من التَّوراةِ إلَّا ما قيل لهم من الأمانيِّ، وهُم نوعان:

الأوّل: منْ لا يُحسِنُ القراءةَ والكتابةَ مُطلقًا.

والثّاني: من يُحسِنُ القراءةَ والكتابةَ، ولكنَّه بليدُ الطَّبعِ، غَليظُ الفهمِ، يقرأُ ولا يَفهَمُ المَعَاني.

2) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: المقصودُ بالكِتَابِ في سِياقِ الآية التَّوراةُ، وهو اسمٌ للمكتوب[3]، وهناك تأويلٌ ضعيفٌ بأن يكونَ المقصودُ بالكتابِ الكتابَةَ؛ ووجهُ ضَعفِه: أنَّه يؤولُ إلى التَّكرارِ؛ فيكونُ المعنى: ومنهم أمّيون - أي: لا يعلمونَ الكتابةَ، كما أنَّه "يأباه سِباقُ النَّظمِ وسياقه"[4]، واستبعدَه ابنُ عاشور لقرينةِ الاستثناءِ بـ﴿أَمَانِيَّ﴾ العائدِ إلى التّوراة[5].

3) ﴿أَمَانِيَّ﴾: أصله (مَنَى)، يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيرِ شَيْءٍ وَنَفَاذِ الْقَضَاءِ بِهِ. مِنْهُ قَوْلُهُمْ: مَنَى لَهُ الْمَانِي، أَيْ قَدَّرَ الْمُقَدِّرُ، وَالْمَنِيَّةُ: الْمَوْتُ لِأَنَّهَا مُقَدَّرَةٌ عَلَى كُلٍّ. وأمنيةُ الإنسانِ: أَمَلٌ يُقَدِّرُهُ؛ لأَنَّ المُتمنّي يقدّرُ في نفسه ويحزرُ ما يتمنّاه، والأُمنيّةُ الصّورةُ الحاصلةُ في النّفس مِنْ تَمنّي الشّيءِ؛ لأَنّ القَائِلَ إِذا قَالَ مَا لَا يَعلمه فَكأَنَّهُ يتمنّاه،، والأَمانيُّ على وزن (أفاعيل) جمعُ أُمْنِيَّة، وهي في الآيَةِ بمعنى الاعْتقاداتِ الّتي وضَعَها الأَحْبَارُ تَضليلًا للأَتْباعِ والمقلِّدين بغير حقٍّ[6].

4) ﴿يَظُنُّونَ﴾: يدورُ معنَى الظّنّ على توقُّع قلبيٍّ لوجودِ شيءٍ مهمٍّ في أمرٍ غيرِ ظاهرٍ لأمارَةٍ قويّةٍ على ذلك؛ فالظّنُّ اسمٌ لما يحصلُ من أمارَةٍ، ومتى قَوِيَت أدّت إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/573.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 1/491.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/444.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/119.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/574.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (مني).

العلمِ، ومتى ضَعُفَت لم تجاوز حدَّ الوهم، والظّنُّ في الآيةِ بمعنى تجويزِ الطَّرَفِ الرَّاجحِ على وَفْقِ اعتقادِهم، لكنَّه في الأمرِ نفسِهِ ليس كذلك، فهؤلاء ليس لهم من الاتِّصاف بالعلم شَيءٌ[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ذكرت هذهِ الآيةُ الفريقَ الآخرَ الّذي لا مطمعَ في إيمانِهِ من اليَهودِ، وهو فريقُ الأمّيّين الّذين لم يُطالعوا التَّوراةَ؛ ليَعلمُوا حقائقَ الإيمان، ويطّلعُوا على أوصافِ الرَّسولِ مُحمَّدٍ - ﷺ - فهم لا يعلمونَ التَّوراةَ الْبَتَّةَ، لكنْ يتمنّون على اللّهِ ما لا ينالون ممّا سَمِعُوه من الأحبارِ ممّا لاعِلْم لهم بصحَّتِه، فليس لهم إلّا تقليدُ علمائِهم فيما أخبَرُوهم بِهِ مِن أَنَّ اللَّهَ يعفُو عنهم ويرحمُهم ولا يؤاخذُهم بخَطاياهُم، وأَنَّ آباءَهم الأنبياءَ يَشفعُون لهم، وما تُمنّيهم أَحبارُهم مِنْ أَنَّ النَّارَ لا تَمَسُّهم إلّا أَيَّامًا معدودةً، وما هذه الأَمانيُّ إلا ظُنونٌ فاسدةٌ[2].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائدةُ تقديمِ المُسندِ:

تشويقُ المُخاطبِ لاستكمالِ صِفات فريقٍ آخرَ من المَذكورين

أفادَ تقديمُ الخبرِ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ التَّشويقَ[3]؛ فإنَّ المتلقِّي يتشوّقُ إلى سماعِ صفاتٍ جديدةٍ للمذكُورين سابقًا، والتَّشويقُ لم يبدأْ من تقديمِ الخبرِ فحَسب، بل بدأَ من قولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٌ مِّنۡهُمۡ﴾، فعُلِمَ حينئذٍ بوجودِ فريقٍ آخرَ؛ إذ ذِكْرُ فريقٍ مؤذِنٌ بوجودِ غيرِه، فلمَّا بدأَ النَّظمُ بحرفِ العطفِ والجارِّ والمجرورِ ترقَّبَ المخاطَبُ تلقِّي صفاتِ الفَريقِ الآخرِ.

سرُّ استعمالِ لفظِ الأميّ دون الجاهلِ في هذه الآيةِ:

الأمّيُّ هو الجاهلُ في التَّوراة، وقد يكونُ عالمًا في سائرِ العلومِ

لاستعمالِ لفظِ الأميّ في هذا السّياقِ ملحظٌ دقيقٌ قد لا يتنبَّهُ له كثيرٌ ممَّن يمرُّ على هذه الآيةِ، فالمقصودُ بالأميِّ هُنَا هو الّذي لا يقرأ ولا يكتبُ في التَّوراةِ على وجهِ الخُصوصِ؛ أي: هو أميٌّ في التَّوراةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظنن).

(2) الزمخشري، تفسير الكشاف: 1/157، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/169.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/573.

لا في غيرِها، وقد بُيِّن هذا الوصف بقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: هذه صفتُهم الثابتةُ في علم التَّوراةِ، ولا تعني الأميَّةُ هنا أميَّةَ القراءةِ والكتابةِ مطلقًا؛ فإنَّ هذا ينازعُهُ الواقعُ والتّاريخُ، فهم أميّون في التَّوراةِ لا في غيرها، فاليهودُ قسمان: العلماءُ في التَّوراةِ، والأميّونَ فيها، والأميّون لا أثرَ لهم إلّا الـمُتابعَةُ والتَّسليمُ مهما قيل لهُم، ومن هنا اكتسبُوا الذّمَّ، فهم ارتَضَوا أميَّتهم واستمرُّوا عليها.

اقترانُ ﴿لَا﴾ النّافيةِ مع الفعلِ المضارع:

الأمــيّــةُ قــرارٌ ثـابتٌ، لا ظَـرفٌ طارِئ

أفادَ اقترانُ (لا) النّافيةِ مع الفعلِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ الدَّيمومَةَ؛ أي: الأميّون لا يعلَمُون التَّوراةَ على الدّوام، ولا يُتوقَّع منهم سِوَى ذلك؛ لأنَّهم ارتَضَوا الأميَّةَ في التَّوراةِ، فالأميَّةُ قَرارٌ ثابتٌ، لا ظرفٌ طارئٌ!.

نوعُ التَّعريفِ في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

اختلفَ المفسِّرونَ على أقوالٍ في معنى التَّعريفِ في لفظ الكِتابِ، على النَّحو الآتي[1]:

الكِتابُ في الآيةِ يُقصَد به التَّوراةُ

أولًا: العهدُ الذهنيُّ، وهو المفهومُ مِنْ سياقِ الآياتِ؛ إذِ التَّحريفُ هو لكلامِ اللهِ تعالى النَّازل على قلبِ موسى -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وهو التَّوراةُ، ويكون مَعنَى إلَّا أمانيّ؛ أي: لا يعلَمُون شيئًا من التَّوراةِ إلَّا ما يسمَعونَه من الفَريقِ المحرِّف.

ثانيًا: الغَلَبَةُ: وهذا القولُ يلتقي مع القَولِ الأوَّلِ؛ حيثُ يكونُ المقصودُ بالكِتابِ التَّوراةَ؛ إذ هو من الأعلامِ الـمُلازمةِ للتَّوراةِ، وهذا وإنْ كان من حيثُ المعنى صَحيحًا، إلَّا أنَّه من حيثُ الصّنعةُ ضعيفٌ.

ثالثًا: الجنسُ، إرادةً للمصدرِ؛ أي: الكِتابةُ، وهو ضَعيفٌ لخلوِّ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/157، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/444، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/119، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/574.

المقامِ من الدّلالة عليهِ، ويكونُ الـمَعنَى على هذا القولِ، لا يعلمُون الكتابةَ إلّا تمنّيها، فهو بيانٌ لنفي علمِ الكتابةِ عنهم.

بلاغةُ أسلوبِ تأكيدِ الذّمِّ بما يُشْبِهُ المَدحَ:

ذَمُّ الأمّيّون مرتين؛ بنفي العلمِ عنهم، وبكسرِ المُتوقَّعِ في الخِطابِ

في قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أسلوبٌ بلاغيٌّ لطيف يُسمَّى تأكيدَ الذَّمِّ بما يشبهُ المدحَ[1]، على طريقةِ الاستدراكِ للمبالغَةِ في الذمّ؛ فإنَّ الاستثناءَ يُوحِي أنّ المتكلّمَ سيَستَثني شيئًا يُثبتُ لهُم بهِ العلمَ بعدَ أنْ نفاه عنهُم، فلما جاءَ التَّخصيصُ بـ(إلَّا) ظُنَّ أنّ لهم علمًا، وإنْ كان قليلًا، ولكنَّه لـمَّا قال: ﴿أَمَانِيَّ﴾ - وهي ليست بعلم بلْ هي اعتقاداتٌ يظنُّها صاحبُها حقًّا، وهي ليست بحقٍّ - انقلبَ الأمرُ من الـمَدحِ إلى الذَّمِّ، ولـمَّا كان ما قبلَ (إلّا) ذمًّا لتضمُّنه نفيَ صفةِ المدحِ؛ أي: نفيَ العلم، وكان ما بعدَ (إلَّا) تكرَّرَ الذَّمُّ، وهو أشدُّ تأثيرًا في المخاطَب من الذَّمِّ نفسِه؛ لأنَّه كسرٌ لِأُفق توقُّعِ الـمُخاطَبِ المقتضِي الخيبةَ والخذلانَ.

بلاغةُ القَصْرِ في ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾:

تـقـريـرُ جـهـلِ الأُمـيِّـين وافـتِراءاتِـهِـم وتأكيدُها

في التَّركيب ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ استثناءٌ مُنقطعٌ كما قال ابنُ الأنباري[2]، وفيه قصرُ الموصوفِ على الصِّفة؛ فالأميّونَ ليس لهم علمٌ إلّا الأمانيّ لا يتجاوزُونها إلى غيرِها ممَّا هو علمٌ صَحيحٌ، وهو الّذي وَرَدَ في التَّوراةِ قبل التَّحريفِ، أو ما جاءَ في القرآنِ، وفي هذا الأسلوبِ من الذَّمِّ لهم ما لا يَخفَى؛ لقصرِ ما اعتقدُوه على الاختلاقِ والكَذِبِ، وفيه حثٌّ على أنْ يستَفيقُوا من غَفلتِهم، ويؤمنُوا بما أَنزلَ اللهُ على رسولِ اللهِ مُحمَّد ﷺ، فتَضَمَّنَ هذا الاستثناءُ نَوعَين من الذَّمِّ: تأكيدَ الذَّمِّ بما يُشبهُ المدحَ، ونفيَ علمِهم إلَّا من الأَمانيّ الّتي هي اختلاقٌ وافتراءٌ، فجمَعُوا بين الجَهلِ والافتراءِ، ثمَّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/346.

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 1/162.

إنَّ مجيءَ هذا المَعنَى على طريقةِ القَصْرِ أكَّدَ الذَّمَّ؛ لأَنَّ القَصْرَ يُفيدُ تأكيدَ المَعنَى وتقريرَه.

سرُّ استعمالِ الاستثناءِ المُنقطعِ:

إثباتُ الجهلِ المركَّبِ للأميّين، وبيانُ أنَّ الجهلَ وحدَهُ خيرٌ من العلمِ الفاسدِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ أداةِ (إلَّا) التي جاءت لمعنى الاستدراك؛ فكان استثناءً منقطعًا؛ وذلك أنَّ المخاطَبين سيظنُّون أنَّ أولئك الأميّين لا يعلَمُون شيئًا من التَّوراةِ على الإطلاقِ، فجاءَ الاستثناءُ المنقطعُ؛ ليوقفَ هذا الظنَّ، ويُعلِمَ صاحبَه أنَّهم يعلمُون، لكنَّ علمَهم لا يعدُو أنْ يكونَ أمانيّ؛ فهم على الحقيقةِ يعلمُون الأمانيّ التي عَدَمُها خيرٌ من وجودِها، وهذا أبلغُ من نفيِ العلمِ على الإطلاقِ؛ لأنَّه يبيِّن حالَهم من انتفاءِ العلمِ أوّلًا، ثمّ إثباتِ العلمِ بالأمانيّ ثانيًا، فأفادَ الاستثناءُ المنقطعُ بيانًا لواقعِ الأميّين في جهلهم المركَّب.

موقعُ الجملةِ الحاليّةِ من الاستثناءِ المركَّبِ:

العِلمُ الباطلُ أصلُ الظنِّ الباطلِ

جاءت الجملةُ الحاليّةُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ لتأكيدِ ما دلَّ عليه الاستثناءُ من علمِ الأميّين للأمانيّ، فهُمْ مُتلبِّسون بالظّنِّ الباطلِ المُتجدّد[1]، كما أنّ أمانيَّهم باطلةٌ، فعقولُهم ليست خاليةً من أيّ اعتقادٍ؛ لأنّهم كانوا مُتمَسّكين بحبالِ الأمانيّ، وما هي إلّا ظنونٌ باطلة يَظُنّونَها، ليس لها أيُّ نسبةٍ إلى العلمِ.

صيغةُ المضارعِ تفيدُ التجدّدَ:

ظنونُ اليهودِ المعبِّرةُ عن كذبِهم مُستمرَّةٌ ومتجدّدةٌ

أتى النَّظمُ بالخبرِ فعلًا مضارعًا، ولم يأتِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لإفادةِ حدوثِ الظّنِّ وتجدّده شيئًا فشيئًا، فليسُوا ثابتين على ظنٍّ واحدٍ، بل ظنونُهم تتجدّدُ، ممَّا يدلُّ على اضطرابِ عقائدِهم واختلافِ أهوائِهم، وأنَّهم يستمرُّونَ في أكاذيبَ يبتدعونَها، وظنون يختلقونَها أو يختلقُها لهم أحبارُهم[2]، وأفادَ مجيءُ الخبرِ جملةً

(1) الفخر الرازي، التّفسير الكبير: 3/564.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/445.

فعليَّةً فائدةً أخرى هي تقويَةُ الحكم؛ فإنَّ المسندَ إليه ﴿هُمْ﴾ قدْ تكرّرَ بذكرِ الضَّميرِ في ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ لأنّه يعودُ على ﴿هُمْ﴾، فآذَنَ باكتساءِ الحكم (يظنّ) قوّةً وتقريرًا، والمرادُ تحقيقُ الأمرِ عندَ المخاطَبِ أنّ الاتّصافَ بالظّنِّ ملازمٌ لهم، وأنّ هذا دأبُهم، وأنّه قد تمكَّنَ من أنفسِهم، وقد أشارَ علماءُ البلاغةِ إلى هذا الوجهِ البلاغيّ في مثلِ هذهِ الأساليبِ[1].

دلالة حذفِ مفعولَي (ظنَّ):

يحتملُ حذفُ مفعولي (ظنّ) أنْ يكونَ للاقتصارِ أو للعلمِ بهما

فيكون الحذفُ للاقتصار، وذلك بمعاملة الفعلِ المتعدّي معاملةَ اللّازم[2]، وهذا الوجهُ أولى لمناسبتِه لِقوله ﴿أُمِّيُّونَ﴾؛ فالأمّيّ لا عِلمَ له، وقُصارى أمرِه هو الظّنّ الّذي صارَ كأنَّهُ وصفٌ لازمٌ له، باعتبار أنَّ الفعلَ قُصِدَ به اللّزومُ، مثل: (فلانٌ يأمرُ وينهى ويُعطي ويَمنعُ)، فأكثرُ ما يكونُ عليه من الاعتقادِ هو الظَّنُّ الّذي لا يُغني من الحقِّ شيئًا، حتى صارَ الظَّنُّ خبرًا عنهم.

أو يكون من بابِ الحَذفِ للعلمِ بالمحذوفِ من السّياقِ إيجازًا؛ أي يظنّون أنّهم يعلَمُون الكتابَ.

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 129، والسكاكي، مفتاح العلوم: 223-221.
(2) السمين، الدر المصون: 1/449.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾ [البقرة: 79]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

دلَّت (الفاءُ) على أنّ ما بعدها مُسبَّبٌ عمَّا قبلها مترتِّبٌ عليه؛ لمَّا بَيَّن حالَ الّذين يُحرِّفون كلامَ اللّه عن عمدٍ، وإضلالهم الأمّيّين الذين لا يعلَمُون الكتابَ المُتمسّكين بحبالِ الأَمانيّ واتّباعِ الظّنِّ، رُتِّبَ عَلَيْهِ إنشاءُ استِفظَاعِ حالِهِم، وَأُعِيدَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ مَا أُجملَ في الكَلامِ المَعْطُوفِ عَلَيْهِ إِعَادَةَ تَفْصِيلٍ(1).

ولا شيءَ يترتَّبُ على قبيحِ تحريفِ كلامِ اللّه مثلُ دعاءِ اللّه تعالى عليهم بالوَيلِ، فاستحقّوا الهلاكَ بأنواعِه، واستأهلوا سوءَ الحالِ بضروبه، وكلُّ هذا مُترتِّبٌ على شناعةِ فعلِهم.

قال جمال الدّين القاسميّ في بيان وجه المناسبة: "ولَمّا بَيَّنَ حالَ هَؤُلاءِ في تَمَسُّكِهِمْ بِحِبالِ الأمانيِّ واتِّباعِ الظَّنِّ، عَقَّبَ بِبيانِ حالِ الَّذِينَ أَوْقَعُوهم في تِلْكَ الوَرْطَةِ، وهُمُ الدُّعاةُ إلى الضَّلالِ بِالزُّورِ والكَذِبِ عَلى اللَّهِ، وأكْلِ أمْوالِ النّاسِ بِالباطِلِ، فَقِيلَ عَلى وجْهِ الدُّعاءِ عَلَيْهِمْ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾(2).

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿فَوَيْلٌ﴾: المعنى المحوري لـ(وَيْل) يدورُ على إعلانٍ بإيقاعِ عاقبةٍ مهلكةٍ لعملٍ أو تَصَرُّفٍ: وعيدًا أو نُدبةً واستغاثةً أو تحذيرًا أو ما إلى ذلك.

والويلُ يأتي بمعنى الحُزْنِ والهلاكِ والمشقَّةِ من العذاب، فيقصدُ بالكلمةِ في الوعيد حلولُ الشرِّ، وكلُّ مَن وَقع في هَلَكة يستحقّها دَعا بالوَيْل، ويُقصدُ به في النُّدبةِ وغيرِها الحُزنُ، وقد يَرِدُ بمعنى التعجّب(3)، و(ويلٌ) في الآيةِ بمعنى الدُّعاءِ بالهلاكِ(4).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/575.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 1/338.
(3) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ويل).
(4) السجستاني، غريب القرآن، ص: 478.

2) ﴿لِيَشْتَرُواْ﴾: أصله (شَرَى)، ويَدُلُّ عَلَى تَعَارُضٍ مِنَ الِاثْنَيْنِ فِي أَمْرَيْنِ أَخذًا وَإِعطَاءً مُماثَلَةً، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى الـمُماثَلَةِ قَولُهُمْ: هَذَا شَرْوَى هَذَا، أَيْ مِثْلُهُ؛ ولأَنَّ الأصلَ يدلّ على المماثلة اسْتُعمِلَ اللفظُ في البيعِ والشِّراء معًا، والغالبُ أنْ يكونَ الشّراءُ بمعنى إعطاءِ الثَّمنِ وأخذِ المُثَّمنِ، والبيعُ بمعنى إعطاءِ المُثَمَّن وأخذِ الثّمَنِ، والغالبُ كذلك استعمالُ اشترَى بمعنى الشِّراءِ، و شَرَوا بمعنى البيع [1].

3) ﴿ثَمَنًا﴾: يدلُّ على ما يُسْتَحَقُّ به الشَّيءُ؛ أي هو عِوَضُ ما يُباعُ، وصارَ الثَّمَنُ اسمًا لِمَا يأخذُه البائعُ في مقابلةِ البيعِ، عَينًا كانَ أو سِلعَةً، وكلُّ ما يَحصلُ عِوَضًا عن شيءٍ فهو ثَمَنُهُ[2].

4) ﴿يَكۡسِبُونَ﴾: أصلُ الكلمةِ يَدُلُّ عَلَى ابْتِغَاءٍ وَطَلَبٍ وَإِصَابَةٍ، ومنه الكَسْبُ: طَلَبُ الرِّزْقِ، وقد يُستعملُ فيما يظنُّ الإنسانُ أنّه يجلِبُ منفعَةً، ثمّ استجلَبَ به مضرّةً، ويستعملُ في فعل الصالحاتِ والسيّئاتِ، والكَسْبُ يقالُ فيما أخذَهُ لنفسِهِ ولغيره، والاكْتِسَابُ لا يقالُ إلّا فيما استفاده لنفسِهِ[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بَيّنَتِ الآيةُ أَنَّ الهلاكَ واقعٌ لامحالةَ لأحبارِ السُّوءِ من اليَهودِ الذينَ يكتبونَ الكتابَ بأيديهم، ثمَّ يقولونَ: هذا مِنْ عندِ اللّهِ، وهو مخالِفٌ لِمَا أنزلَ اللّهُ على نبيِّهِ موسى - عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- ليأخذُوا في مقابلِ هذا عَرَضَ الدُّنيا، فلهُم عقوبةٌ مُهلِكَةٌ؛ بسببِ تحريفِهم الكتابَ بأيديهم، ولهُم عقوبةٌ مهلِكةٌ أشنعُ وأشدُّ؛ بسببِ نسبةِ ما يكتبونَه إلى اللّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، ولَهم الويلُ على ما يأخذونَه في المقابلِ من المالِ الحَرام، كالرَّشوةِ وغيرِها، فما أغباهُم وما أشقاهُم؛ إذِ اشتَرَوا النَّفعَ الحَقيرَ العاجلَ الزائلَ بالأجرِ العظيمِ الآجلِ الدَّائِم[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شرى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثمن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (كسب).
(4) نخبة من العلماء، التفسير الميسّر، ص: 12.

الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

ترتُّبُ عقابِ اللهِ لليهودِ على أفعالِهم القبيحةِ وافترائِهم على اللهِ

دلالة (الفاءِ) على السّبَبِيَّةِ:

أفادت الفاءُ أنَّ ما قبلَها سَببٌ لِمَا بعدَها؛ أي تَرَتَّبَ استحقاقُ اليهودِ الهلاكَ بسببِ أفعالِهم القبيحةِ الشَّنيعةِ من تحريفِ التَّوراةِ ونسبتِها إلى اللّهِ تعالى، استفظاعًا لحالِهم[1].

بيان هلاكِ اليَهودِ بسببِ تحريفِهم كتابَ اللهِ ونسبتِه إلى الله

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ المَوصولِ دون الاسمِ الظَّاهِر:

قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾، ولَم يقل: فويلٌ لليَهود، أو فويلٌ لأهلِ الكتابِ؛ لبيانِ وجهِ الحكمِ عليهم بالويلِ والهلاك، فلو قال: الويلُ لليهودِ، لَمَا علمنا سببَ هذا الوعيد، فلَمَّا جاءتْ جملةُ الصِّلة ﴿يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾، عَلِمْنا أَنَّ سببَ الحكمِ عليهم بالويلِ هو أَنّهم كانوا يكتبونَ الكتابَ بأيديهم، ثمَّ يدّعونَ نسبتَه إلى اللّهِ ﷻ؛ فيكون تأكيدًا وتقريرًا لِمَا أفادته الفاءُ السَّببيَّةُ مِن تَرَتُّبِ الحكمِ على تحريفِ كلامِ اللّهِ، ونسبتِه إليه.

دلالة صيغةِ الفعلِ المضارعِ ﴿يَكۡتُبُونَ﴾:

أفادت صيغةُ المضارِعِ تجدّدَ الحُدوثِ واستِمراريَّتَهُ، فيفيدُ تجدّدَ الحكمِ عليهم بالويلِ، بتجدّدِ تحريفِهم أو بتجدّدِ نسبة المحرَّفِ إلى اللّهِ تعالى واستمراريّتِه.

تحريفُ كتابِ اللهِ عظيمُ الخَطَرِ وقلَّما يُنسَى

(ألْ) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ للعَهدِ العلميِّ:

(ألْ) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ للعهدِ العلميِّ (العهد الذّهنيّ)، للإشارةِ إلى الكتابِ المحرَّف[2]؛ لأنّ تعليقَ الوَيلِ على كتابةِ الكتابِ يقتَضي أَنْ يكونَ الكتابُ مُحرَّفًا، ولعلَّ الزَّمخشريَّ قصدَ العهدَ العلميَّ أكثرَ ممَّا قصدَ حذفَ الصِّفة حينَ قدَّر "الكتاب المحرَّف"[3]، فعدمُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/575.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/120.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/157.

التَّقديرِ أولى من التَّقدير؛ فالقولُ بأَنَّ (ألْ) للعهدِ الذِّهنيِّ أولى وأوفَقُ بالسّياقِ، والإشارةُ إلى العهدِ الذّهنيِّ له وجهٌ بلاغيٌّ[1]، إمَّا لأنّ تحريفَ الكتابِ عظيمُ الخَطَرِ، فكأنّه قلَّما يُنسى، وإمَّا لكثرةِ جَرَيانِ تحريفِ اليَهودِ للتَّوراةِ في القرآنِ، ولا سيَّما أنّه قد ذكرَ في السِّياقِ أنّهم كانوا يَسمعونَ كلامَ اللّهِ ثُمَّ يحرِّفونَه، فكأنّه لا يَغيب عن المُخاطَب.

بلاغةُ الإطنابِ في الآيةِ:

تأكيدُ نسبةِ الفعلِ إلى فاعلِه ودَفْعِ المجازِ

جاءت كلمةُ ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ على طريقِ الإطنابِ؛ لأنَّ الكتابةَ تكونُ باليَدِ، وأفادَ ذكرُ ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيدًا وتقريرًا؛ لبيانِ هولِ التَّحريفِ وفظاعتِهِ وإثباتِ جرأتِهم بمباشرتِهم الأمرَ بأنفسِهم، ولرفعِ تَوَهُّمِ مجازِ أنْ يكونُوا قد أَمرُوا غيرَهم به، فذِكرُ ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيدٌ وهو من محازِّ التَّأكيدِ، كما تقولُ لِمَنْ يُنكِرُ معرفةَ ما كتبَهُ: يا هذا كتبتَه بيمينِكَ هذه[2]، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ [الأنعام: 38]؛ فدلّ ذكرُ أيديهم على قبيحِ جُرمِهم؛ إذِ المتولّي للفعلِ أشدُّ مواقعةً ممَّن لم يتولَّه، وإنْ كان رَأيًا لهُ، وفَرْقٌ بين مَنْ كتَب وبين مَنْ أَمَر[3].

فائدةُ العطْفِ بين جملِ صِلةِ المَوصولِ:

استحقاقُ اليهودِ الوَيلَ للتَّحريفِ والافتراءِ

جاءت العقوبةُ بالويلِ على مجموعِ المعطوفِ عليه والمعطوفِ ﴿لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ فالعقوبةُ على التَّحريفِ، وعلى نسبةِ التَّحريفِ إلى اللّهِ تعالى؛ أي: "على الأمرين كَمَنْ يكتبُ عقودًا يضربُ فيها على الخطوطِ والشَّهاداتِ ويُخَلِّيها عندَه، فإنَّه قد ارتكبَ مَحظورًا، فإنْ أظهرَها

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 215.
(2) الزمخشري، الكشاف: 158-1/157.
(3) الرازي، التّفسير الكبير: 3/565، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/170.

ونسبَها إلى تلك الشُّهودِ وطالبَ بها فهو قد فعلَ محظورًا آخرَ"[1]، ففصلَ بينهما بحرفِ العطفِ، لِيكونَ الويلُ مُتَعَلِّقًا بكلٍّ واحدٍ منهما، فكيفَ بِمَنْ يفعلُ الأمرينِ معًا؟!

دلالة ﴿ثُمَّ﴾ على التَّرتيبِ في المنزلةِ:

تفيدُ (ثمَّ) في الآيةِ التَّرتيبَ والتَّراخيَ في الرُّتبةِ والمنزلةِ وليس التَّرتيبَ في الزَّمنِ؛ فجاءت (ثمَّ) لبيانِ بُعدِ ما بينَ منزلةِ الكَتْبِ والقولِ[2]، على اعتبارِ أنّ منزلةَ نسبةِ المحرَّفِ إلى اللهِ أشنعُ من منزلةِ كتابةِ المحرَّفِ، قال ابن عاشور: "(ثمَّ) لِلتَّرتِيبِ الرُّتبيِّ؛ لِأَنَّ هَذَا القَولَ أُدْخِلَ في اسْتِحْقَاقِهِمُ الوَيلَ مِنْ كِتَابَةِ الكِتَابِ بِأَيْدِيهِمْ؛ إِذْ هُوَ المَقصُودُ، وَلَيْسَ هَذا القَولُ مُتَرَاخِيًا عَنْ كِتَابَتِهِمْ مَا كَتَبُوهُ في الزَّمَان بَلْ هُمَا مُتَقَارِنَان"[3].

بلاغةُ وَضعِ اسمِ الإشارةِ موضعَ الضَّميرِ:

مجيءُ اسمِ الإشارةِ لإقامةِ الحجَّةِ على ما كانُوا يَقترفونَهُ

وُضِعَ اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ موضعَ الضَّميرِ (هو)؛ لكمالِ العنايةِ بتمييزِهِ وتعيينِه[4]؛ أي: هذا كتابُ اللهِ، وليس غيرَهُ؛ للإشارةِ إلى ما كَتَبُوه بأيدِيهم، واستعمالُ اسمِ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ للإشارةِ إلى المَحسوسِ، الذي يُمَيِّزُ المقصودَ أكملَ تمييزٍ؛ كي لا يدخلَ الشَّكُّ في نفوسِ أتباعِهم، فكأنّهم كانوا يُمَسِكونَ الكتابَ المحرَّفَ بأيديهم، وهم يُخاطِبونَ النَّاسَ لإقناعِهم بهذا الافتراءِ الشَّنيعِ.

دلالة اللَّامِ في ﴿لِيَشۡتَرُواْ﴾:

تحتملُ اللَّامُ أنْ تكونَ تعليلًا لقولهم ﴿هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وإليه ذهبَ أبو حيّان وغيرُه[5]، وتحتملُ أنْ تكونَ تعليلًا للقولِ والكتابةِ كلًّا على حدَةٍ؛ ولاسيَّما أنّ الكتابةَ والقولَ كانا مُقترنينِ كما تقدّمَ عن ابنِ عاشورٍ، فيكونُ التَّعليلُ للأمرينِ معًا، وهذا المعنَى أعمُّ من الأوّلِ، فهم يكتُبُون الكتابَ المحرَّفَ لِيشتَرُوا به ثمنًا قليلًا، وينسبونَه إلى اللهِ لِيَشتَرُوا به ثمنًا قليلًا، فهذا التوجيهُ هو الظَّاهرُ والأنسبُ بالسِّياقِ؛ لبيان شدّةِ حرصِهم على عَرَضِ الحياةِ الدُّنيا.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/350.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/349، والآلوسي، روح المعاني: 1/303.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/576.

(4) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 197.

(5) أبو حيان، البحر المحيط: 1/447، والآلوسي، روح المعاني: 1/303.

معنى الباء ودلالة تقديمه في قولِهِ تعالى: ﴿لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾:

قُدّمَ الجارُّ والمجرورُ (به) على المفعولِ بهِ في قولِه تعالى: ﴿لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾؛ لإفادةِ الاهتمامِ به؛ لبيانِ عِظَمِ جُرمِ التَّحريفِ ونسبتِه إلى اللهِ وقباحةِ هذا الفعلِ، وأفادَ حرفُ الجَرِّ (الباء) الـمُقابَلَةَ[1]؛ لأنّ الكلامَ في سياقِ أخذِ ثمنِ الكتابِ الـمُحرَّفِ المنسوبِ إلى اللهِ تعالى؛ أي: لِيشتَرُوا في مُقابلِ ما قدّموه ثمنًا قليلًا.

دلالة الفاءِ في قوله ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم﴾:

لكلّ فعل جزاؤُه الخاصُّ بِهِ

جاءت (الفاءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ لِتفصيلِ ما أُجمِلَ في قولِه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ ثبوتَ الويلِ ليسَ لمجموعِ فعلِهم، بل لِكلِّ فعلٍ ويلٌ له خاصٌّ به، إمعانًا في هلاكِهم.

بلاغةُ تكرارِ ﴿وَيۡلٞ﴾ في الآيةِ:

الجزاءُ بالشرِّ على الوَسيلةِ وعلى المَقصِدِ

وردت كلمةُ ﴿وَيۡلٞ﴾ نكرةً؛ لِتفيدَ أَنَّ الويلَ في قولِه تعالى ﴿وَوَيۡلٞ لَّهُم﴾ غيرُ الّذي قبلَه، فلِكُلِّ فعلٍ زجرٌ وعقوبةٌ خاصَّةٌ به؛ ولِيفيدَ التَّنصيصَ على العلَّةِ كذلك[2]، فقال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾، فبيّنَ هنا أَنّهم استَحَقُّوا الويلَ لِأَجْلِ مَا وَضَعُوهُ وما حرّفُوه، ثمّ قال: ﴿وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾، فبيّن أَنّهم استحَقُوا الويلَ لِأَجْلِ مَا اكْتَسَبُوهُ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ، فَهُوَ جَزاءٌ بِالشَّرِّ عَلَى الوَسِيلَةِ وهي ما كتَبُوه، وَعَلَى الـمَقْصِدِ وهو ما اكتَسَبُوه من الثَّمنِ القَليلِ[3].

سِرُّ مخالفةِ الصِّيغةِ الزَّمنيةِ في الفعلينِ ﴿كَتَبَتۡ﴾ و﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

تجدُّدُ الكَسْبِ المحرَّمِ بثباتِ التَّحريفِ

جاءَ الفعلُ (كَتَبَ) بصيغةِ الماضي؛ لِيدلَّ على أَنَّ فعلَ التَّحريفِ انتهَى، وقدِ استَحَقُّوا الوَيلَ عليه، وأَمَّا الفعلُ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ فجاءَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/120.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/303.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/577.

مضارعًا؛ لِأنَّه قصدَ بهِ استمرارَ الاكتِسابِ حالًا فحالًا[1]، فهُمْ قد سَنُّوا هذهِ السُّنّةَ السَّيئةَ فَعلَيهم وِزرُها وَوِزرُ مَنْ عَمِلَ بها إلى يومِ القيامة[2].

دلالة حَرْفِ الجرِّ (مِنْ):

اجتماعُ معنى السَّببيَّةِ والابتداءِ

أفادَ حرفُ الجرِّ (مِنْ) هنا تكثيرَ المعنى؛ ففي قولِه تعالى: ﴿مِّمَّا كَتَبَتۡ﴾ و﴿مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ دلّ حرف الجرِّ (مِنْ) على التَّعليلِ مَضمومًا إليه دلالة الابتداءِ الّتي هي الأصلُ في معنى (مِنْ)، والمعنى: الويلُ لَهم منذُ أَنْ بدَؤُوا كتابةَ الكتابِ المُحرَّفِ، وبسببِ كتابتِهم، وكذلك القولُ في ﴿مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾، والمعنى: الويلُ لَهم منذُ أَنْ أخذوا أوَّلَ ثَمَنٍ على فعلِهم، وبسببِ استمرارِهم على كَسبِهمُ الثَّمَنَ القليلَ.

تردُّدُ (ما) بين الموصوليَّةِ والمصدريّةِ:

الويلُ للفعلِ الحرامِ وللثَّمنِ الحرامِ

إذا كانت (ما) اسمًا موصولًا فيكونُ العائدُ محذوفًا، والتَّقديرُ: (ممَّا كَتَبَتْهُ أيديهم وممَّا يَكْسِبونَه)؛ بمعنى: الويلُ لَهم بِسببِ كتابَتِهم بأيديهم الكتابَ المحرَّفَ، والويلُ لهم بِسببِ الثَّمنِ الذي يأخذونَهُ، فيكونُ الزَّجرُ أدخلَ في تعاطي المحرَّفِ وهو الكتابُ، وإذا كانتْ (ما) مصدريةً، فتكونُ بتقديرِ (مِنْ كتابتِهم ومِنْ تكسُّبِهم) بمعنى: الويلُ لهم بِسببِ فعلِهم الكتابةَ، والويلُ لهم بِسببِ تكسُّبِهم وأَخذِ الثَّمنِ مُقابلَ عملِهم، وهذا الوجهُ أدخلُ في الزَّجْرِ عن التَّحريفِ وهو فِعلُهُ[3]، كما أنَّ هذا الوجهَ يتضمَّنُ دعاءً بالهلاكِ على الثَّمنِ الحرامِ الذي أَخذوه، فهوَ أوسعُ معنًى.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 247.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/241.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/303.

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةًۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠﴾ [البقرة: 80]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكرَ اللّه أفعالَ اليهودِ القبيحةَ؛ مِنْ تحريفِهم كتابَ اللّهِ ونسبتِه إلى اللّهِ تعالى، وظنّهم أنَّهم كَسبُوا ما حَصلوا عليه مِنَ الثَّمنِ القليلِ، عطفَ عليه ما بيَّنَ بِسببِه جُرأتَهم على هذهِ الأفعالِ، وعدم اكتراثِهم بِما يَرتكبونَه مِنَ القبائحِ [1]، فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾، والآيةُ في الوقت نفسه إخبارٌ عن نوعٍ آخرَ مِنْ جناياتِهم، وهو ادّعاؤُهم أنَّ النّارَ لا تَمسُّهم إلَّا أيّامًا مَعدودةً، فاجتمعَ عليهم قُبحُ الفعلِ بتحريفِ كتابِ اللّهِ ونسبتِهِ إلى اللّهِ، وقُبحُ القولِ وكَذِبُهُ، بادّعائِهم أنّهم لا تَمسُّهم النَّارُ في الآخرةِ إلّا أيَّامًا معدودةً قليلةً[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَالُواْ﴾: القولُ هنا يدلُّ على الاعتِقاد؛ لأَنّ الأصلَ في القولِ أن يكونَ صِدقًا وعلى وفقِ الاعتِقادِ[3].

القائل: هم بنو إسرائيل.

2) ﴿تَمَسَّنَا﴾: المسُّ يُقالُ في كلِّ ما يَغشاه الإنسانُ فيما يكونُ معه إدراكٌ بحاسّةِ اللّمسِ، ويقالُ في كلِّ ما يَنالُ الإنسانَ من أذًى، وأوّلُ درجاتِ الأذى يقالُ له مَسٌّ، وهو أقلّ تمَكُّنًا من الإصَابَة، وَهُوَ أقلُّ درجاتِها، ومنه قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: 48]؛ أي: أوّلَ ما يَنالُكُمْ منها[4].

3) ﴿أَيَّامًا﴾: اليومُ يُعبَّرُ بِهِ عن وقتِ طلوعِ الشَّمسِ إلى غروبِها، وقد يعبَّرُ بِهِ عن مدّةٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 1/494.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/579.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/579.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والكفوي، الكليات: (مسس).

من الزَّمانِ؛ أيَّ مدّةٍ كانت، وأيَّامٌ على وزنِ أَفْعال، وهو جمعُ قلَّةٍ يتناولُ من الثَّلاثةِ إلى العَشرةِ، واليوم في الآيةِ يُقصَدُ به مدّةُ اليوم المعروفِ[1].

4) ﴿مَّعۡدُودَةٗ﴾: أصلُ الكلمةِ من (عدّ)، وهو ضَمُّ الأعدادِ بعضِها إلى بعضٍ، وهو الإحصاءُ، و﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ بمعنى محصورةٍ في أيّام قليلة؛ لأَنَّ كلمةَ أيام لا تُضافُ إلَّا إلى العشرَة فَمَا دونهَا لَا إِلَى مَا فَوْقهَا. وَقَوله تَعَالَى: ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ قدّروها بسبعَةِ أَيَّام[2]، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ [يُوسُف: 20]، وقد شاعَ في العُرفِ والعوائدِ أَنَّ كلمةَ المعدودِ تدلُّ على القلَّةِ أو ما يحصرُها العددُ، وذهب بعضُ المفسّرينَ إلى أنَّ الأيامَ هنا محدودةٌ بسَبعَةِ أيّامٍ أَوْ أَرْبَعِين يومًا، لمناسباتٍ معيّنةٍ[3].

5) ﴿عَهۡدٗا﴾: يدلُّ في الأصلِ على الاحْتِفَاظ بِالشَّيْءِ، وَإِحْدَاث العَهْدِ بِهِ ومراعاته حالًا بعدَ حالٍ، وسُمِّيَ الـمَوثِقُ الّذي يلزمُ مراعاتُه عَهْدًا، وعَهِدَ فلانٌ إلى فلانٍ يَعْهَدُ؛ أي: ألقى إليه العهدَ وأوصاهُ بحفظِه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: 115]، والعهدُ لا يكونُ إلّا مؤكَّدًا[4]، والتعهُّدُ: الاحتفاظُ بالشَّيءِ وتجديدُ العهدِ به.

والعهدُ في الآيةِ يحتملُ أَنْ يكونَ بمعنَى الوَعدِ المؤكَّدِ والميثاقِ المحفوظِ على ما تدَّعونه، ويحتملُ أَنْ يكونَ المقصودُ هو الإيمانَ والعملَ الصالحَ[5]، والأوَّل أولى لمناسَبَتِهِ للسّياقِ.

6) ﴿يُخۡلِفَ﴾: مادة (خَلَفَ) تأتي لمعانٍ منها التغيّرُ وخلافُ القدّام، ومن التغيُّر إخلافُ الموعِدِ، يقال: وَعَدَني فأخلَفَني؛ أي: خالَفَ في الميعادِ، ومنه قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ [التوبة: 77]، والخُلفُ يكونُ في الـمُسْتَقبَلِ كالكَذِبِ في الماضي، أو هو أَنْ تَعِدَ عِدَةً ولا تُنْجِزَها[6].

(1) الرّاغب، المفردات: (يوم).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، والكفوي، الكليات: (عدد).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/448.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (عهد).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/171.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات ألفاظ القرآن، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (خلف).

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وقال بَنُو إسرائيلَ مُعتقدين جازِمينَ بقولهم: لنْ تصيبَنا النَّارُ في الآخرة إلّا أيامًا قليلةً مَقْضيَّة؛ فإذا انقضَت انقطعَ عنهم العذابُ، فأمرَ اللهُ رسولَه أنْ يقولَ لهم - مبطِلًا دعواهم - : أَعِندَكُم عهدٌ مِنَ اللهِ بهذا، فإنَّ اللهَ لا يُخلِفُ عهدَهُ؟ فإذا كانُوا لم يتّخذُوا عندَ اللهِ عَهدًا، لا بِوعدٍ مؤكّدٍ بينَهم وبينَ اللهِ تعالى، ولا بعملٍ صالحٍ يوجِبُ ذلك، فما قولُهم إلَّا كَذِبٌ وافتراء[1].

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

التعبير بالإفراد في الأيام:

إيجاز القول يناسبه الإفراد

جاء وصفُ ﴿أَيَّامًا﴾ مفردًا في آية البقرة، وجمعًا في آية آل عمران، في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٢٤﴾ [آل عمران: 23-24]، والفرقُ بينهما: أنَّه لـمَّا كانت آيةُ آلِ عمرانَ فيها بَسطٌ لحالِهم على سوءِ مرتكبِهم، ولم يقعْ في سورةِ البقرةِ تَعرُّضٌ لشيءٍ مِنْ ذلكَ، بَلْ أَوجزَ القولَ ولـمْ يذكرْ سَبَبَهُ فناسبَ الإفرادُ الإيجازَ، وناسبَ الجمعُ الإسهابَ[2]، كما أَنَّ سياقَ آيةِ آلِ عمرانَ أشدُّ زجرًا لليَهودِ لشناعةِ أفعالِهم المذكورةِ في سياقِ آيةِ آلِ عمرانَ، ففيها ذكرُ كفرِهم بآياتِ اللهِ وقتلِهم النَّبيّينَ، والذين يأمرونَ بالقسطِ من النَّاس، وتولِّيهم عنْ حكم رسولِ اللهِ مُحمَّدٍ ﷺ، فناسبَ أَنْ يقولَ ﴿مَّعۡدُودَٰتٍۖ﴾.

سببُ إيثارِ كلمة ﴿أَتَّخَذۡتُمۡ﴾:

ذَكَرَ ﴿أَتَّخَذۡتُمۡ﴾ ولم يقلْ: أَعَاهَدْتُمْ اللهَ أَوْ أعَاهَدَكُمُ اللهُ، لِمَا في دلالة الاتِّخَاذِ مِنْ تَوْكِيدِ العَهْدِ[3].

---

(1) الشوكاني، فتح القدير: 1/123، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 12.

(2) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/47.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/580.

معنى الاستِفْهامِ في قولِه: ﴿أَتَّخَذۡتُمۡ﴾ و﴿أَمۡ تَقُولُونَ﴾:

تنوّعُ المَعاني لتوسُّعِ التَّوجيهِ البَلاغيّ

لمعنى همزةِ الاستِفهامِ في قولِه تعالى: ﴿أَتَّخَذۡتُمۡ﴾ ثلاثةُ توجيهاتٍ:

أولًا: يحتملُ الاستِفهامُ أَنْ يكونَ إنكاريًا توبيخيًا، وتقديرُ الكلامِ: أتّخذتُم عندَ اللّهِ عهدًا أم أتقولُون على اللّهِ ما لا تعلمون؟ أي: قُلتُم ما قلتُموه وأنتُم تعلَمون خلافَه، فانتَفى الأمران، وعُلِم أَنَّ الكائنَ غيرُ ما ادَّعوه[1].

ثانيًا: يحتملُ أَنْ يكونَ الاستِفهامُ في المَوضِعين تقريريًا، ويكونُ الدّليلُ استدلاليًا، والمعنى: إنَّ هذا القولَ لا يصدرُ إلَّا عن أحدِ أمرين: إمّا اتّخاذُ عهدٍ من اللّه، وإمَّا افتراءٌ وتقوّلٌ عليه، وَأَخْرَجَ ذَلِكَ مُخْرَجَ المُتَرَدِّدِ في تَعْيِينِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيرِ؛ فإذا كانَ اتّخاذُ العهدِ لم يحصُل، فأنتم تفتَرُون على اللّه، فاستلزَمَ هذا الدّليلُ العقليُّ إلجاءَهم إلى الاعترافِ بأصدقِ الأمرين، وهو أنّهم يقولُون على اللّه ما لا يعلمون، وَنَظِيرُهُ: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: 24]، وَقَدْ عُلِمَ أَيُّهُمَا عَلَى هُدًى وَأَيُّهُمَا هُوَ فِي ضَلَالٍ[2]، فيكون من الأسلوبِ المنصِفِ الّذي يُؤتى بِه لتشكيكِ السّامعِ، فيرجعُ إلى نفسِه ويخضعُ للحقِّ[3]، وقد جيءَ بِه هنا ليرجِعُوا إلى أنْفسهم، فيتيقَّنُوا أَنْ لا عهدَ لهم عندَ اللّه، وأنَّهم يفْتَرونَ على اللّه الكذبَ.

ثالثًا: يحتملُ أَنْ يكون الأول إنكاريًا والثّاني تقريريًا، والمعنى: يُنكِرُ عليهم اتِّخاذَ عهدٍ عندَ اللّهِ، ويُقرُّهم توبيخًا على أنّهم يقولون على اللّهِ ما لا يَعلَمُون، حين قالوا: لن تمسَّنا النَّار إلّا أيَّامًا معدودةً قليلةً منقضيةً[4].

دلالة (الفاء) بين السَّببيّةِ والفصيحَةِ في قوله ﴿فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ﴾:

أفادت الفاءُ السَّببيَّةَ، بترتُّبِ ما بعدَها على ما قبلَها؛ أي: يترتّبُ على اتّخاذِ العهدِ عندَ اللّهِ أَنْ لا يُخلِفَ اللّهُ عهدَه[5]، وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الفاءَ هي الفصيحةُ التي

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/567-668، والبقاعي، نظم الدرر: 1/496.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/449، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/580.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 246، والدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: 1/621.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/158.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 2/551.

تُفصِحُ عن شرطٍ مقدَّر، والتقدير: (إنِ اتَّخَذْتُم عندَ اللّهِ عهدًا فَلَنْ يخلفَ اللّٰهُ عهدَه)، وعلى هذا تكون الجملةُ استئنافيَّةً اعتراضيَّةً[1].

منْ بلاغةِ التّقديمِ والتَّأخيرِ في الظَّرفِ والجارِّ والمجرور:

عهدُ اللهِ له خصوصيَّةُ التّعظيم

أصلُ الكلامِ (أتّخذتُم عهدًا عندَ اللّهِ)، فقدَّمَ الظَّرفَ (عندَ اللّه) على المفعولِ (عهدًا)؛ لإفادةِ العنايةِ والاهتمام بالظَّرفِ، للتَّذكيرِ بأَنَّ العهدَ عندَ اللّهِ، وليسَ عندَ غيرِهِ لتعظيمِ العهدِ وإجلالِه، فيزدادُ الإنكارُ والتَّوبيخُ عليهم، كما قدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على المفعولِ في قولِه ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، والأصلُ (تقولُون ما لا تعلَمُون على اللّهِ)؛ فقدّم لإفادة تعظيمِ التقوّلِ على اللّهِ بما لايعلَمُونَ.

بلاغةُ العُدولِ عن الضَّميرِ إلى الاسمِ الظَّاهِرِ:

بيانُ أثرِ اسمِ اللهِ تعالى في القلوبِ، وقبحِ من لم يرتدِع عند سماعِه

عُدِلَ عن الضَّميرِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ في قولِه: ﴿فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ﴾؛ فلم يقلْ: (فلن يخلفَه اللّه)، فأعادَ الاسمَ الظَّاهرَ (عهدَه) إشعارًا بأهميَّتِه، أو أَعادَهُ؛ لأَنَّ المرادَ به جميعُ عهودِه؛ لِعمومِهِ بسببِ الإضافةِ فيدخلُ فيه العهدُ المعهودُ دخولًا أوليًّا.

وفي قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، فلم يقلْ: (أم تقُولُون عليهِ ما لا تَعلَمون)، فذكر الاسمَ الظَّاهرَ الجليلَ؛ لنُكتَتين: إحداهما: للإشعار بعلَّةِ الحُكم؛ فإنَّ عدمَ الإخلافِ من قضيَّةِ الألوهية، والأخرى: لِتذكيرِ المخاطَبين باللّه وللتَّأثير فيهم، بتكرارِ اسم الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ فإنّ تكرارَ اسم الملكِ العظيم لَهُ هَيبةٌ وإجلالٌ، لعلّهم بتكرّر سماعِه يتذكَّرون فيتأثَّرون فيُقلِعُون عن أفعالِهم القبيحة، فيتوبونَ إلى اللّهِ ويستغفرونَه.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/121، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/580.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المسّ والإصابة:

قد يُقال: لِمَ قالَ في هذهِ الآيةِ ﴿تَمَسَّنَا﴾ ولم يقلْ (تصيبنا)؟ والجواب: للمناسبةِ بينَ قلَّةِ الإصابةِ في النَّارِ وضعفِها مع قلَّةِ الأيَّام وعددِها، فعبَّر بالمسِّ؛ لأنَّه أوَّلُ درجاتِ الأذى وأقلُّ تمكُّنًا من الإصابَةِ، كنايةً عن خفَّةِ العذابِ وقلَّةِ زمانِه؛ وَفْقَ اعتقادِ اليهود، فكذَّبَهم اللهُ فيما قالُوا، وحكمَ عليهم بالبقاءِ في النَّارِ خالدينَ فيها، وليسَ أيَّامًا قليلةً.

﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾

[البقرة: 81 - 82]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهما:

لـمّا ادّعى اليهودُ أنَّ النَّارَ لا تمسُّهم إلَّا أيَّامًا معدودةً، عُلِمَ أنَّ الواقعَ غيرُ ما ادَّعوه، فصرَّحَ بِهِ بحرفِ الجوابِ في قولِه: ﴿بَلَىٰٓ﴾، والمعنى: بَلَى بَلۡ أَنۡتُمۡ تَمَسُّكُمُ النَّارُ، وتَخلدُونَ فيها على خِلافِ ما تزعمون، وعلَّلَ ذلك بوصفٍ هم بِهِ مُتَلبِّسونَ مِنۡ كسبِ السَّيِّئَةِ وإحاطةِ الخَطيئةِ، ثُمَّ ذكرَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لِتَعۡقِيبِ الوَعيد بالوعدِ، والنِّذارةِ بِالبِشَارَةِ عَلَى عَادَةِ القُرۡآنِ[1].

شَرۡحُ المُفۡرَدَاتِ:

1) ﴿كَسَبَ﴾: الكسبُ يَدُلُّ عَلَى ابۡتِغاءٍ وَطَلَبٍ وَإِصَابَةٍ، وقد يستعملُ فيما يَظنّ الإنسانُ أنّه يجلبُ منفعةً، ثمَّ استُجۡلِبَ به مَضَرّةٌ، ويُستعملُ في فِعۡلِ الصَّالحاتِ والسَّيئاتِ، والكَسۡبُ يُقالُ فيما أَخذَهُ لِنفسِهِ ولِغيرِه[2].

والمعنى هنا: ارتكب.

2) ﴿سَيِّئَةً﴾: أصلُ الكلمةِ (سَاءَ) الشَّيءُ: إذا قَبُح، وسيّئةٌ على وزنِ فَيۡعِلَة، وهي تأۡنيثُ السَّيِّئ، وتدورُ الكلمةُ على معنى عَيبٍ أو نَقصٍ (قُبحٍ أو فَسادٍ أو مَرَضٍ) يخالطُ ظاهرَ الشَّيءِ أو باطنَهُ، وتقالُ السّيّئةُ لِمَا يوجبُ الإثمَ صغيرةً كانتۡ أو كبيرةً، ولِمَا يستقبحُه الطَّبعُ[3]، وهي في الآيةِ بمعنى الشّركِ؛ لأَنَّه يتكلّمُ عن أفعالِ اليهودِ، وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ السَّيِّئَةَ هنا بمعنى الكبيرةِ، والخَطيئَةَ بمعنَى الكفرِ[4].

---

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/584، والبقاعي، نظم الدرر: 1/496.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (كسب).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سوء).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/281، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/171.

3) ﴿وَأَحَٰطَتۡ﴾: الإحاطةُ من الحَوْطِ، ويدورُ على معنى الشَّيْءِ يُطِيفُ بِالشَّيْءِ في استدارةٍ تامّةٍ، فالإحاطةُ الإحداقُ بالشّيء، والإحاطةُ بالشَّيء استُعمِلَت كنايةً عن العلمِ بالشَّيءِ من جميعِ جوانبِه، وعن حفظِه، وعن التَّمكُّنِ منه والقدرةِ عليه وإهلاكِه، وتُستعملُ الإحاطةُ في الأجسامِ، ومنه الحائطُ وهو الجدارُ الذي يحوطُ بالمكانِ، كما تستعملُ في المعاني[1]، ومنها قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ [النساء: 126]، ومعنى أحاطَتْ به خَطيئتُهُ: أَخذتْهُ خطيئتُهُ من جميعِ نواحيه، إمّا لشِركِه، وإمَّا لإصرارِه على الكبيرةِ[2].

4) ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾: أصلُ الكلمةِ (خَطَأَ)، والمعنى المحوريُّ للكلمة يدورُ على تخطّي مَوقعِ الشَّيءِ أو تجاوزِهِ باندفاعٍ، ومنه الخَطَأ ضدُّ الصَّوابِ؛ إذ هو تَخَطٍّ للوضعِ المقصودِ، والخطأُ: الذنبُ؛ لأنّه يتركُ وجهَ الخيرِ، والجمعُ الخَطيئاتُ والخَطايا، ويقالُ: أخطأَ، إذا سلكَ سبيلَ خطأٍ عامدًا أو غيرَ عامدٍ، والخاطِئُ هو القاصدُ للذّنبِ[3].

5) ﴿أَصۡحَٰبُ﴾: جمعُ صاحِب، والصُّحبةُ تدلُّ عَلَى مُقَارَنَةِ شَيْءٍ وَمُقَارَبَتِهِ، وكُلُّ شَيْءٍ لَاءمَ شَيْئًا فَقَدِ اسْتَصْحَبَهُ؛ فالأصلُ في الصُّحبةِ هو الملازمةُ، وإذا كانت بين شَخصَين فتقتَضِي الملاءَمةَ كذلك، وذهبَ بعضُ اللُّغويين إلى اشتراطِ كَثْرةِ الملازمةِ للاتِّصافِ بالصُّحبَةِ، بينما ذهبَ آخرُون إلى أنَّ الصُّحبةَ تدلّ على الاجتماعِ، طالَ الزَّمنُ أو قَصُرَ[4]، والمرادُ بأصحاب النار: الذين يلازمون نارَ جهنَّم ملازمةً دائمةً لا تنقطع.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيّنتِ الآيةُ أنَّه ليسَ الأمرُ كما ذكرتُم - أيُّها اليهود - من أنَّ النارَ لا تَمسُّكُم إلّا أيّامًا مَعدودةً، بل كلُّ مَنْ كسبَ سيّئةً وعملَ بمثلِ عملِكُم وكفرَ باللّٰه، وانغمسَ في المعاصي - وأَنتم منهم -، وأحاطَتْ به خطيئتُه فصارتْ خَطاياهُ كالحائطِ الذي يحيطُ به مِنْ كلِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حوط).
(2) البغوي، معالم التنزيل: 1/138.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (خطأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (صحب).

جانبٍ، ثمَّ ماتَ على هذه الذُّنوبِ ولمْ يتبْ منها، فجزاؤُهُ جهنّمُ خالدًا فيها، وفي المقابلِ فإنَّ كلّ مَنْ آمن باللّهِ وعَمِلَ صالحًا جزاؤُهُ الجنّةُ خالدًا فيها، فهذا هو مقتَضَى العَدلِ.

۞ الإيضَاحُ اللُّغوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ التَّصديرِ بـ﴿بَلَىٰ﴾:

(بَلَى) تنفي الماضِي الذي قبلَها، وتُثبتُ المُستقبَلَ لِمَا بعدَها

استَحَقّت هذه الكلمةُ المَزيّةَ بموقعِها في النّظم؛ إذ تناسقتْ دلالتُها في نَسجِ ربطِ ما قبلَها بما بعدَها، فجاءتْ ردًّا على ما قالَهُ اليَهودُ ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾، كما أنَّها مهَّدت لِمَا بعدها ببيان علّةِ الرّدِّ، وذِكْر الحكمِ العامِّ الّذي يشملُ اليهودَ وغيرَهم ممَّن كسبَ سيّئةً وأحاطتْ به خطيئتُه بأنَّهم أصحابُ النّارِ، ثمَّ إنَّها مهَّدت لاقترانِ الوَعدِ بالوعيدِ، فذُكِرَ المقابلُ، وهم الّذين آمَنُوا وعَمِلوا الصّالحاتِ، الّذين هُم أصحابُ الجنَّةِ بأنَّهم فيها خالِدُون.

بلاغةُ استعمالِ صيغةِ العُموم ﴿مَن﴾:

استدلالُ القرآنِ يقومُ على الإقناعِ بالتّعليلِ المناسبِ للحُكمِ

تحتملُ ﴿مَن﴾ أَنْ تكونَ اسمًا موصولًا، وأَنْ تكونَ اسمَ شرط، وكلا الاحتمالَين يُفيدان العُمومَ، وكونُها موصولةً أولى لمقابلتها بما بعدَها ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وجاءت صيغةُ التّعميم للتّهويلِ وبيانِ حالِهم بالبُرهانِ والدّليل، كما أشعر التَّعميمُ بالتَّعليلِ بسببِ صلةِ الموصولِ في قوله: ﴿كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾[1]، كما أَنَّ هذا التّعميمَ مهّدَ لتعميمِ المقابلِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

بلاغةُ الإخبارِ عن ﴿مَن﴾ بالجمعِ:

كُلُّ فردٍ له جزاؤُه، والحكمُ بالنّكالِ على الكُلِّ للتَّفظيعِ والتَّهويلِ

﴿مَن﴾ لفظُها مفردٌ ومعناها جَمعٌ؛ لأنّها تفيدُ العمومَ، فحُمِلَ على اللَّفظِ في عودِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ و﴿بِهِۦ﴾

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/122.

و﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾، ثمّ أعادَ على المعنى في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، فاسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، والضّمير ﴿هُمۡ﴾، وضمير الجمع في ﴿خَٰلِدُونَ﴾ تعود على ﴿مَن﴾، فعاد الضّميرُ أولًا على المفردِ؛ للإشارةِ إلى أَنَّ كلّ نفسٍ تَحملُ ما عليها فـ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: 38]، ثمّ حُمِلَ على المعنى، وهو الجمعُ بعد ذلك للإشارةِ إلى اجتماعِ أهلِ النّارِ؛ فيكونُ أكثرَ وبالًا عليهم، وللدّلالة على قدرته ﷻ، وإلى هذا المعنى أشارَ البقاعيُّ في قوله: "ولمّا كان إفرادُ الضّميرِ أنصَّ على جزاءِ كلّ فردٍ، والحكمُ بالنّكالِ على الكلِّ أنكأَ وأروعَ وأقبحَ وأفظعَ وأدلَّ على القدرةِ، أفردَ ثمّ جَمَعَ"[1].

بلاغةُ أسلوبِ التّهكُّمِ في استعمالِ الفِعلِ ﴿كَسَبَ﴾:

تحريكُ المخاطَبِ للإقلاعِ عن ذنبِهِ بوصفِ ذنبِهِ

أصلُ الكَسبِ يكونُ في الرّبحِ وجلبِ المنافعِ، فاستعمالُه في السّيئةِ من بابِ التّهكُّمِ[2]؛ لأنّه يُتوهّم في السَّيِّئةِ الكسبُ؛ فقد يكونُ فيها ربحٌ عاجلٌ أو منفعةٌ زائلةٌ، ولكنّها تبقَى سيّئةً، فلا ينبغي فعلُ السّيئةِ، وإنْ تلبَّستْ بالمنفعَةِ الزّائلَةِ[3]، وأسلوبُ التّهكم يُقصدُ به التّأثيرُ في المخاطَبِ ليرجعَ إلى نفسِه ويتركَ الخَطَأَ، فإنَّ السَّيِّئةَ ليستْ بكسبٍ يُحرَصُ عليه.

بلاغةُ الاستِعارةِ التّمثيليّةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾:

كلمةُ ﴿وَأَحَٰطَتۡ﴾ مستعارةٌ من الحَوْطِ، ومنه الحائطُ الذي يُحيطُ بالشّيءِ فلا يكونُ له نَفاذٌ؛ فالفعل ﴿وَأَحَٰطَتۡ﴾ يفيدُ تصويرَ حركةِ إحاطَةِ الخَطيئةِ حتّى تكونَ سورًا لا منفذَ له، فصارت كالحائطِ الّذي يحيطُ من جميعِ الجوانبِ، "فَالعَرَبُ يَقُولونَ: أَحَاطَ العَدُوُّ بِالقَبِيلَةِ إِذَا تَمَكَّنَ مِنْهَا وَغَلَبَهَا، لأنّ الإحَاطَةَ بِهَا تَدُلُّ عَلَى الإحْداقِ بِهَا وَتَطوِيقِهَا. وَلَمَّا كان ذَلِكَ هَزِيمَةً وَامْتِلَاكًا لَهَا صَارَ تَرْتِيبُ أُحِيطَ بِهِمْ اسْتِعَارَةً تَمْثِيلِيَّةً لِلهَلَاكِ، فالإحَاطَةُ مُسْتَعَارَةٌ لِعَدَمِ الخُلُوِّ عَنِ الشَّيْءِ؛ لأنّ مَا يُحِيطُ بِالمَرْءِ لَا يَتْرُكُ لَهُ مَنْفَذًا لِلإقبَالِ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ"[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 1/497.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/90.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/306.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/581، و11/137.

بلاغةُ ذكرِ السّيّئةِ قبل الخَطيئَةِ:

الخطيئةُ نتيجةُ اجتماعِ السَّيِّئات وتراكُمِها

قد يقال: لِمَ لَمْ يقل: مَنْ كسَبَ خَطيئةً وأحاطَتْ به سَيِّئَتُه، وقال: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾؟ والجواب: أَنَّ فعلَ السّيئةِ والمُداومةَ عليها يَجرُّ إلى الوقوعِ في الخطأ، ومُعاودته والانهماكِ فيه حتّى يستوليَ عليه؛ فكأَنَّ الخطأَ يُحيطُ به من كلِّ جانبٍ، فعاقبةُ السّيئةِ الوقوعُ في الخطأِ ما لم يَتُبْ صاحبُها، ثم يزدادُ الخطأُ حتّى يصيرَ خطيئةً مُلازمةً؛ ويُعزِّزُ ذلك أنَّ (خَطيئة) على وزن فَعيلة الدالِّ على الأوصافِ الملازمة.

دلالة الإضافَةِ في ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾:

مـن تـلـبَّـسَ بـالـخـطـيـئـةِ واستَـسـهَـلَـهـا وعاودَها لازمتْهُ وما تزالُ تُحيطُ به حتى تُهْلِكَهُ

الخطيئةُ هُنا يُقصَدُ بها جِنسُ الخطيئةِ، والمعنى: أحاطَتْ به جميعُ أنواعِ خَطاياهُ المُلازِمَةِ له، كما أفادت الإضافةُ ملازمةَ الخطيئةِ لصاحبِها، وكأنّها صارت من خواصِّه التي لا تنفكُّ عنه؛ لأنَّ الإضافةَ على معنى اللَّامِ التي تُفيدُ الاختصاصَ، فلمَّا لازمَها ولازمتْه أُضيفت الخطيئةُ إليه؛ ولِهذا لَمْ تقعْ كلمةُ (سيِّئَة) مضافةً؛ لِأنّها لَمْ ترسَخْ إلَّا بعد إحاطةِ الخطيئةِ، وقراءةُ نافع: ﴿خَطِيٓـَٔاتُهُۥ﴾ بالجمع[1] تؤكِّدُ العمومَ، أي: أحاطتْ بِهِ جميعُ أنواعِ خطيئاتِهِ، واستحسَنُوا قراءةَ الجمعِ؛ لأنّ الإحاطة لا تكونُ بشيءٍ واحدٍ غالبًا[2].

دلالة الفاءِ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

أفادتِ الفاءُ ترتُّبَ الجزاءِ على العملِ، للدّلالة على أنّ اليهودَ لم يَسْتَحِقُّوا النّارَ إلّا بفعلِهم؛ فالمقامُ ليس مقامَ إخبارٍ، بل هو مقامُ استدلالٍ وإقامةِ الحجّةِ على اليهود؛ فاقتضَى إيرادُ الفاءِ الدّالةِ على التّرتُّبِ وبيانِ السَّببِ إذا وقعت بين الجملِ.

---

(1) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 162.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/306.

دلالة اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الّذي هو للبَعيدِ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾: تقدّمَ أَنَّ إيرادَ اسم الإشارةِ جمعًا مراعاةٌ للجمعيّةِ في معنى (مَنْ)، وجاء إيرادُ اسم الإشارة؛ لِينبّهَ إلى استحضارِ المشارِ إليه بِمَا ذكرَ من أوصافِهِ؛ لِيدلَّ على استحقاقِهم صحبةَ النّارِ وملازَمَتهم لها وخلودهم فيها بما اتّصفُوا به؛ فيدلّ على عِلّيَّةِ المَأْخذِ، من أنّ الحكمَ على المذكورين بالنّار بما استحقُّوه بالمشارِ إليه[1]؛ أي: استحقّوه بكَسبِ السيّئةِ وإحاطةِ الخَطيئةِ بهم، كما دلّ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الّذي هو للبَعيدِ على بُعدِ مَنزِلَتِهم في السّيئاتِ والخَطايا.

بلاغةُ الاحتراسِ بذكرِ الخلودِ بعد الصُّحبةِ:

صُحبةُ النّارِ دليلُ المُلازَمَةِ، والخُلودُ دليلُ الدّوامِ

لـمَّا أخبرَ اللّه عمّنْ كسبَ سَيِّئَةً وأحاطتْ به خطيئتُه بأنّهم أصحابُ النّارِ دلَّ على أنّهم مُلازِمُون لها؛ لأنّ صاحبَ الشّيء يلازمُهُ، وإنّما عبّرَ بالمُصاحبَةِ دونَ الاجتِماعِ؛ لأنَّ المصاحبةَ تقتضي طولَ لُبثٍ، فكلُّ اصْطِحَابٍ اجتماعٌ، وليس كلُّ اجتماعِ اصطِحابًا[2]، ولا يُشترطُ في الصُّحبةِ الخلود، فقد يعقبُها الفِراقُ، وأمّا الخلودُ فهو دائمٌ، "فزيادَةُ لفظِ الخلودِ دليلٌ على أنَّ الصّحبةَ تطلقُ على مطلقِ الاجتماعِ وإن لم يكنْ معَهُ دوامٌ"[3]، فيكون ذكرُ الصُّحبةِ عذابًا معنويًّا، والخلودُ عذابًا حِسيًّا، وذكرُ الخلود بعد الصُّحبة احتراسٌ عن توهُّمِ انقطاعِ العذابِ.

نوعُ القَصرِ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

قلبُ اعتقادِ أهلِ الباطِلِ دفعٌ للمِراءِ وتحقيقٌ للحقِّ

ورد المُسندُ إليه والمُسندُ مَعرِفَتين، فأفادَ تعريفُهما القصرَ الإضافيَّ لا الحَقيقيّ[4]، فالمعنى: إنَّكم أَنتم أصحابُ النّارِ وليس

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/12.

(2) الرّاغب، المفردات: (صحب).

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/357.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/581.

غيرَكُم ، فأفادَ القَصرُ قلبَ اعتقادِ اليَهودِ إذْ أخطَؤُوا فتوهَّمُوا أنّ النّارَ لن تمسَّهم إلَّا أيّامًا مَعدُودةً قليلةً، وأنّ الخلودَ في النّارِ ليسَ لَهُم، فمفهومُ قَصرِ القلبِ مأخوذٌ من السِّباقِ.

بلاغةُ تقديمِ الجَارِّ والمَجرورِ في قوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

خلودُ أهلِ الجنّة تمامُ السّعادةِ، وخلودُ أهلِ النَّارِ تمامُ الشَّقاءِ

تقدّمَ ﴿فِيهَا﴾ وهو حالٌ في الـمَوضِعَين عندَ ذكر خلودِ أهل النّار وخلودِ أهلِ الجنّة، فأفادَ التّقديمُ تخصيصَ المكانِ؛ لبيانِ هَولِه لأصحابِ النّارِ، وجَمالِه وطِيبتِه لأصحابِ الجنّة، فيكونُ المعنى: هُم خالدُون فيها وليسَ في غيرِها، فلا ينتقلُ أصحابُ النّارِ عن النّارِ، ولاينتقلُ أصحابُ الجنّةِ عن الجنّة، وهذا من التَّمامِ للفريقين، أمَّا أهل الجنةِ فتمامُ سعادتِهم، وأمَّا أهل النَّار فتمامُ شقائهم.

بلاغةُ الوَصلِ بين الجملِ:

تمامُ مَدْحِ المُؤمنين بذكرِ جزائهم بعد بيانِ جزاءِ الكافرين

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بما قبلَه استكمالًا للمقابلةِ بين الفريقين؛ فقد "جَرَتِ السُّنَّةُ الإلهيَّةُ على شفْعِ الوَعدِ بالوَعيدِ مُراعاةً لما تقتَضيه الحِكمةُ في إرشادِ العبادِ من التّرغيبِ تارةً، والتَّرهيبِ أخرَى، والتّبشيرِ مَرةً، والإنذارِ أخرى"[1]، وتَرِدُ المقابلةُ للتّأثيرِ في المخاطَبِ، فيقارنَ بين الحقِّ والباطلِ، فيقتَنِعَ بالحقِّ ويَعملَ بعملِ أصحابِ الجنّة، وينتَهِي عن عملِ أصحابِ النّارِ، ولدفْعِ اعتقادِ اليهودِ الباطلِ في أنَّهم أصحابُ الجنَّة، فكان الوَصْلُ لبيانِ الفريقِ المرضيِّ، بعد ذكرِ الفريقِ المغضوبِ عليه، وهذا في غايةِ الحمْدِ للمؤمنين، وغايةِ الذَّمّ لليهود.

دلالة اقترانِ العَملِ الصّالحِ بالإيمانِ:

في القرآنِ أكثرُ من خمسين آيةً وردَ فيها الإيمانُ مقترنًا بالعملِ الصَّالحِ؛ تنبيهًا على أنّه لا بدَّ من أنْ يَقتَرِنَ بالاعتقادِ الأعمالُ

(1) إرشاد العقل السليم: 1/122.

الصّالحةُ، والعطفُ يقتضي المغايرةَ كما تقدّمَ غيرَ مَرَّةٍ، فدلّ على أنّ الإيمانَ يكون بالقلبِ، والعملَ الصّالحَ يصدّقُهُ.

بلاغةُ نظمِ اسمِ الإشارَةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾:

جمالُ الإشارةِ بحسنِ العبارةِ في مدحِ أهلِ الجنَّةِ

أفادَ اسمُ الإشارةِ بُعْدَ منزلةِ أهلِ الإيمانِ وعلوّ مَرتَبتِهم وشَرَفَ مكانتِهم العاليّةِ، فاختلَفَت دلالة اسم الإشارةِ هنا عمَّا سَبَقَ؛ لأنّ السّياقَ هو المرشِدُ إلى هذهِ الدّلالة، وخلا اسمُ الإشارةِ من الفاءِ العاطفةِ، زيادةً في الإكرامِ والمَدْحِ، فإنَّهم هم المُستحقّون أن يوصفوا بأنَّهم أصحابُ الجنَّةِ، فالجملةُ مستقلّةٌ بهذا البيانِ، بقطعِ النَّظرِ عن أيِّ اعتبارٍ كان، وفيه من جمالِ الإشارة بحسنِ العبارةِ بالاقترانِ بما جاءَ في وصْفِ اليهودِ ما لا مزيدَ عليه في الحُسنِ والجمالِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكسب والاكتساب:

الفرقُ بين (كَسَبَ) و(اكتَسَبَ): تقدَّم أنّ الكَسبَ يكونُ من غيرِ جُهدٍ، وأمَّا اكتَسَبَ فهو على وزن افتَعَلَ الـمُنبِئ عن الاجتهادِ والطَّلبِ؛ أي اجتهدَ في تحصيلِ الإصابةِ بأنْ زاولَ أسبابَها[1]، فقال في الآية: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ﴾ ولم يقل: (بَلَى من اكتَسَبَ)؛ للدّلالة على أنّ فعلَ اليهودِ السّيئاتِ من دونِ جهدٍ يبذلونَه، لأُلْفتِهم لَها، واستِسهالِهم فعلَها، حتّى صارَ دَيدنُهم فعلَ السّيئةِ.

السّيّئةُ والخَطيئَة:

ذهبَ أكثرُ المفسّرين إلى أنَّ السّيئةَ هي الكفرُ، والخطيئةَ هي الذّنوبُ التي ليست بكفرٍ، وذهبَ آخرونَ إلى أنَّ السّيئةَ هي الذّنوبُ الّتي ليست بكفرٍ والخطيئةَ هي الكفرُ، وهناك قولٌ ثالثٌ يذهبُ إلى أنَّ السّيئةَ والخَطيئةَ شيءٌ واحدٌ وأنَّ الخَطيئةَ وصفٌ للسّيئَةِ[2]، والقولُ بأنّهما شيءٌ واحدٌ ليسَ بصَحيحٍ؛ لِأنَّ العطفَ يقتضي المغايرةَ، فلا شكّ في أنّ واحدًا من اللَّفظين يدلّ على الكفرِ والآخرَ على الذّنوبِ، ولو قلنا: السّيئةُ هي الكفرُ- كما ذهبَ إليه

(1) الرضي الأستراباذي، شرح الرضي على الشافية: 1/110.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/281- 282، أبو حيان، البحر المحيط: 1/450، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/122.

جمهورُ السّلفِ - فهذا لا يدلّ على الاطّرادِ في معناها في كلِّ آيةٍ تردُ فيها؛ فإنّ سياقَ الآيةِ هنا هو الّذي خصَّصَ السّيئةَ بمعنَى الكفرِ والخطيئةَ بمعنَى الذّنبِ الذي ليس بكفرٍ.

ومنْ أجملِ ما قيلَ في الفَرقِ بين السّيئةِ والخطيئةِ أنَّ الفرقَ بينهما من حيثُ الدّلالة المعجميّةُ واضحٌ، وأمّا الدّلالة على الكفرِ فهو في تركيبِ ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾؛ فالتّركيبُ دلّ على الكفرِ، وليس خصوصُ كلمةِ خطيئةٍ؛ لأنّ إحاطَة الخَطِيئَاتِ هِيَ حالَةُ الكفْرِ؛ لِأَنّهَا تَجْرِيءٌ عَلَى جَمِيعِ الخَطايَا[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/1، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/581.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ٨٣﴾ [البقرة: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا ذكرَ اللّهُ في الآيةِ السابقةِ أنّ من كَسَبَ سَيِّئَةً وأَحاطَت بهِ خطيئتُه هم أصحابُ النَّارِ، شرعَ في ذكرِ الأدلَّة على ذلك بذكرِ تَوَلّي بني إسرائيلَ عن أخذِ العَهدِ وإعراضِهم عنه، كما أنّ هذهِ الآيةَ وردت بصيغةِ خطابِ بني إسرائيلَ ليجمعَ الأسلافَ والأخلافَ؛ لتكونَ مدخلًا إلى خطابِ المعاصرين لزمنِ نزولِ القرآنِ الكريم، فالـمَقصُودُ الأَوَّلُ من الخطاب إثبَاتُ سُوءِ صَنِيعِ الـمَوجُودِينَ في زَمَنِ القرآن، وبيان أَنَّهم مُخاطَبون بما خُوطِبَ به أسلافُهُم ومُكَلَّفُون بما كُلّفُوا به، فهذا الميثاقُ لا يُنسَخُ بتغيّرِ الزّمانِ والـمَكان[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مِيثَٰقَ﴾: على وزن (مِفْعَال) منْ وَثَقَ، والوَاوُ وَالثَّاءُ وَالقَافُ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى عَقْدٍ وَإِحْكَام. وَوَثَّقْتُ الشَّيْءَ: أَحْكَمْتُهُ، ووثِقْتُ به أَثِقُ ثِقَةً: سكنتُ إليه واعتمدتُ عليه، وأَوْثَقْتُهُ: شدَدْته.. والـميثاقُ: العهدُ أو العقدُ المؤكَّدُ بيَمين وعَهدٍ، وَهُو في الأَصل حَبلٌ أَوْ قَيدٌ يُشدُّ بِهِ الأَسيرُ وَالدَّابَّةُ، وَالـجَمْعُ مَواثِيقُ عَلَى الأَصلِ بوزنِ مَفاعِيل[2].

2) ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾: الأَبُ يقالُ له وَالِدٌ، والأمُّ وَالِدَةٌ، وقيل للأبِ والأمِّ الوالدانِ تغليبًا مثلُ الأبَوين؛ لأنّ المذكّرَ والمؤنّثَ إذا اقترَنا غلبَ المذكّرُ لخفّتِه وقوّتِه[3].

3) ﴿إِحْسَانًا﴾: أصلُ الكَلِمَةِ (حَسَن)، والـحُسْنُ اسمُ جنسٍ لكلِّ أنواعِ الخير، ويقابله السَّيِّىءُ، ومنه الحَسَنَةُ والسّيئةُ، والإحسانُ يُطلقُ على الإنعامِ على الغَير وعلى

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/582.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة ، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وثق).

(3) الرّاغب، المفردات: (ولد).

الفعلِ الحَسَنِ، فيقالُ: أحسَنَ في عملِه، والإحسانُ فوقَ العدلِ وأفضلُ منه؛ لأنّ المُحسنَ يُعطي أكثرَ ممّا عليهِ، وهو فضلٌ، والعادلُ يُعطي ما عليه، وهو واجبٌ، والإحسانُ بالوالِدَين: القيامُ بكلِّ ما يطلقُ عليه حسنٌ معهُما، ومنه البرُّ بهما والعطفُ عليهما والنّزُولُ عِنْدَ أَمرهِمَا فيما لَا يُخَالِفُ أَمْرَ اللّٰهِ تَعالَى[1]، والدُّعاءُ لهما بعدَ مماتِهما.

4) ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: على وزنِ فُعْلَى، والقَريبُ والقَريبة ذُو القَرابةِ، والجَمعُ مِن النّساءِ قَرائِبُ، ومِن الرِّجَالِ أَقارِبُ، والقَرابَةُ والقُربَى: الدُّنُوُّ في النَّسب[2].

5) ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: جمعُ يَتيم، ويدور معنَى اليُتْم على انفرادِ الشَّيءِ عن مُجانِسِه مُستقلًّا بذاتِه، ومنه اليُتم، بمعنى: انقطاعِ الصَّبيِّ عن أبيه قبلَ بلوغِه لانفرادِه بذاته، وكلُّ منفردٍ يَتِيمٌ، يقال: دُرَّةٌ يَتيمَةٌ، تنبيهًا على أنه انقطعَت مادّتها الّتي خرجَت منها، وقيل: بَيْتٌ يَتِيمٌ؛ تشبيهًا بالدّرّة اليَتيمَة[3].

6) ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾: جمعُ المِسكِين، مِنْ (سَكَن)، ويَدُلُّ عَلَى استقرارٍ في جوفِ حيِّزٍ أو باطنٍ: كالقُوتِ في الجوفِ، وكهُمُودِ ما يُذْبح بالسِّكينِ في مكانِه، ومنه السَكَن للبيتِ والمنزلِ؛ لِأَنَّ الساكنَ يستقرُّ في جوفِه؛ فالسّكْنُ خِلَافُ الاضطِرَابِ وَالحَرَكَة، والمسكينُ القارُّ الصّابرُ على ما هو فيه، وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ المسكينَ سُمِّيَ مسكينًا؛ لأنّ الحاجةَ أسكَنَتهُ[4].

7) ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾: على وزن (تَفَعَّلْتُم)، وأصله من الوَلْي بمعنى القُرْبِ، والوليُّ والمُوالي يستعارُ ذلك للقربِ من حيثُ المكانُ، ومن حيثُ النِّسبةُ، ومن حيثُ الدِّينُ، وتَوَلَّى بحسبِ المُتعلِّق يأتي بمعنيين: أحدهُما: الإقبالُ المُقتضي القربَ؛ وذلك إذا عُدّي بنفسِه، أو بـ(إلى) كقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة: 144]، الثّاني: بمعنَى الإعراض إذا عُدّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا؛ فإذا قيل: (تولّى عن فلانٍ) فالمعنى انصرفَ عنه، وقد يكونُ بإدبارٍ، وقد يكونُ بغير إدبارٍ، ومنه قولُه

(1) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (حسن)، والبغوي، معالم التنزيل: 1/139.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قرب).
(3) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (يتم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سكن).

تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [آل عمران: 63]، والتَّوَلِّي قد يكونُ بالجِسمِ، وقد يكونُ بتركِ الإصغاءِ والائتِمَارِ[1].

8) ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾: أصلُ الكلمةِ مِنَ العَرْضِ الَّذي يُخَالِفُ الطُّولَ. وإذا عُدِّيَ الفعلُ بـ(عن) أفاد التَّولي عن الشّيء، ومنه أَعْرَضْتُ عَنْ فُلَان، وأَعْرَضْتُ عَنْ هَذَا الأَمْرِ، وَأَعْرَضَ بِوَجْهِه، إذا ولَّى مبديًا عَرْضَهُ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النساء: 63]، وربّما حَذَفَ (عنه) استغناءً عنه نحو: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [النور: 48][2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

ذَكَّرَ اللّه تعالى في الآيتين الكريمتين بَني إسرائيلَ - الحاضِرينَ في زمَنِ نُزولِ القرآنِ الكريم - بِمَا أَخَذَهُ على أسلافِهم من العهدِ، ممَّا لا يَخلُو منه شرعٌ؛ لاشتمالِ الميثاقِ على المصالحِ العامّةِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فذَكَرَ ميثاقًا اشتملَ على التّوحيدِ ومكارمِ الأخلاقِ والعبادةِ، فبيّنَ لهم أهمَّ ما أُمروا به في هذا الميثاقِ بأنْ لا يَعبدوا إلّا اللّه، وأنْ يُحسِنُوا إلى الوالِدَين إحسانًا، وأنْ يُحسِنُوا إلى الأقرباءِ وإلى الضّعفاءِ في المجتمعِ من اليتامَى الّذين لا أَبَ لهُم، وهم صغارٌ لم يبلُغُوا بعدُ، ومنَ المساكينِ الّذين أسكنَتهُم الحاجةُ أو المرضُ وهم الذين لا يملكون ما يَكْفيهم ويسدُّ حاجَتهم، وأمرَهم بمعاملةِ النّاسِ جميعًا - وفي كلِّ أحوالِهم - بالقولِ الحَسَنِ، ودعاهُم إلى العباداتِ من الصلاة وإيتاء الزَّكاة، الّتي تتآلفُ مع التَّوحيدِ ومكارمِ الأخلاقِ، ثم أَعَرَضْتم ونقضتم العهد على عادتِكم السَّابقةِ وطريقتِكم المألوفةِ -إلا قليلًا منكم ثبت عليه مِمّنْ أقامَ اليهوديّةَ على وجهها قبلَ النَّسخِ، ومَنْ دخلَ في الإسلامِ منكم- وأنتم مستمرّون في إعراضكم.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ تصديرِ الكلامِ بـ ﴿إِذۡ﴾:

﴿إِذۡ﴾ ظرفُ زمانٍ أفادَ الشُّروعَ في بيانِ حالةٍ أخرى من أحوالِ بني إسرائيلَ، ممّا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ولي).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (عرض).

خالَفُوا به عهدَ اللّهِ. وعادةُ القرآنِ إيرادُ ﴿إِذۡ﴾ في بدايةِ قضيَّةٍ ذاتِ شأنٍ؛ بأنْ تكونَ ميثاقًا مؤكدًا، أو بيانَ نعمةٍ عظيمةٍ، أو حدَث عظيم؛ فهي تفيدُ التّنبيهَ على أمرٍ عظيم وقعَ في زمنٍ ماضٍ، بحيثُ يستحقُّ ما بعدها مزيدًا من اليَقَظَةِ والتَّنبُّه، وقد أفادَ ﴿إِذۡ﴾ بيانَ عِظَمِ الميثاقِ الذي أخذه اللّه من بني إسرائيل، وَلِذَا فَقَدْ بَيَّنَتْ عِظَمَ الجريمةِ التي وقعُوا فيها بمخالفةِ ما جاءَ في الميثاقِ.

الإشعارُ بشأنِ حَدَثٍ عظيم يحتاجُ مزيدَ تنبُّهٍ واعتبارٍ

دلالة إفرادِ الميثاقِ دون جمْعِه:

جاءَ التَّعبيرُ بإفرادِ ﴿مِيثَٰقَ﴾ دون جمعِه - معَ أَنَّ العهودَ التي أُخِذَتْ عليهم مُتَنَوِّعةٌ وليست شيئًا واحدًا -؛ لمعاملةِ تلك العهودِ معاملةَ الميثاقِ الواحدِ، فقد أُخِذَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَمَا أُخِذَ من غَيرِه، وتنوّعُها بحسب ظروفِ الزَّمانِ والمكانِ والإمكان، فَلَا جَرَمَ كان كُلُّهُ مِيثَاقًا وَاحِدًا، وَلَوْ قِيلَ: (مَوَاثِيقَكُمْ) لَأَشْبَهَ أن يَكُونَ هُنَاكَ مَوَاثِيقُ أُخِذَتْ عَلَيْهِمْ لَا مِيثَاقٌ وَاحِدٌ[1]، وفيه أنَّ الإخلالَ بأحدِ المذكوراتِ إخلالٌ بالبقيَّةِ، فإنَّ المذكورات لا تتجزَّأُ، ولا يسقطُ أحدُها فيقومُ الآخرُ، وهذا من بديعِ التَّعبيرِ المُنبئِ عن العَدْلِ.

الإخلالُ بأحدِ المذكوراتِ إخلالٌ بالجميعِ

بلاغةُ الفصلِ بينَ الجُملِ:

جملةُ ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ جاءت مفصولةً؛ لأنّ هذه الجملةَ بيانٌ للميثاقِ، وما بعدها جملٌ معطوفةٌ على الجملةِ المفسّرة؛ فتكونُ الجملُ المتتابعةُ في الآيةِ إلى قوله ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ مفسّرةً ومبيّنةً للميثاق[2]، وتحتملُ أنْ تكونَ بدلًا من الميثاقِ؛ لتكونَ بدلَ بعضٍ من كلٍّ[3].

الميثاقُ كلمةٌ تُبيِّنُها كلمةُ التَّوحيد

---

(1) الفخر الرازي، التّفسير الكبير: 3/538.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/582.

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/159، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/457.

بلاغةُ مجيءِ الإنشاءِ بصُورةِ الخبرِ:

طلبُ المُسَارَعَةِ في الامتثالِ؛ كأنَّ المطلوبَ تحصيلُ حاصِلٍ

جملة ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ خبريةٌ بمعنى الإنشاءِ؛ لإفادةِ النَّهي، فتفيدُ طلبَ إفرادِ العبادةِ للّه تعالى، فالمعنى قُلنا أو قائلين لهم لا تعبُدُوا إلّا اللّه، وهو من المجاز؛ لِورودِ النّهي بصيغةِ الخَبرِ، فصار الخَبَرُ مُستَعمَلًا في غَيْرِ مَعْنَاهُ لِعَلَاقَةِ مُشابَهَةِ النّهي المَوثُوق بامْتِثَالِه بالشَّيءِ الحَاصِلِ حَتَّى إنهُ يُخْبرُ عَنْهُ، وهو أبلغ من صريح الأمر والنّهي، لأنّه طُلب فيه المسارعةُ إلى الامتثالِ والانتهاءِ عن طريقِ الخبرِ[1]، أي: كأنَّه يجب أن يكونَ باعتبارِه تحصيلَ حاصِلِ.

بلاغةُ الالتفاتِ في الآيةِ:

وقعَ التفاتٌ في الآيةِ من الضَّميرِ إلى الاسم الظّاهرِ في قوله تعالى ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ فإنَّ مقتضى ظاهرِ خطابِ المتكلِّم ونظم الكلامِ أَنْ يقول: (لَاتَعْبُدُونَ إِلَّا إِيَّاي)، وفي العدولِ عن الضَّميرِ إلى الاسمِ الظّاهرِ وجهان بلاغيَّان:

أحدُهما: تفخيمُ عبادةِ اللّهِ، وتذكيرٌ باسْمِه الأحسنِ الجامعِ لصفاتِ الكمالِ والجلالِ.

الآخر: التّناسبُ الحاصلُ في مَجيءِ ما بعدَه من الأسماءِ، فكلّها أسماءٌ ظاهرةٌ، فَنَاسَبَ مُجَاوَرَةُ الظَّاهِرِ الظَّاهِرَ[2].

بلاغةُ القراءاتِ القرآنيّة:

لكلّ قراءةٍ وجهٌ بلاغيٌّ بديعٌ

اختلف القرَّاءُ في قراءةِ: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ فهي بتاءِ الخطاب في قراءةِ نافعٍ وابنِ عامرٍ وأبي عمرو وعاصِم، وبياءِ الغَيْبةِ في قراءةِ ابنِ كثيرٍ وَحَمْزَةَ وَالكسَائِيِّ[3].

ففي قراءة ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ التفاتٌ بلاغيّ عنِ السَّابقِ، وبلاغتُه:

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/159.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/457.

(3) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 163.

الإقبالُ عليهم بِالخطَابِ، لِيَكُونَ أَدْعَى لِلقَبُولِ، وَأَقْرَبَ لِلامْتِثَالِ؛ إِذْ فِيهِ الإِقبَالُ مِنَ اللّٰهِ عَلَى المُخَاطَبِ بِالخِطَابِ[1]، وكفى به ترغيبًا في الامتثالِ.

وفي قراءة ﴿يَعْبُدُونَ﴾ التفاتٌ بلاغيّ عنِ اللَّاحِق من الغيبةِ إلى الخطابِ، ففي قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ وبلاغتُه: المبالغةُ في الزَّجرِ والتّعنيفِ والتّوبيخِ، كأَنَّ بني إسرائيل مواجِهون الخِطابَ، فخاطبَهم موبِّخًا لهم، هذا إذا حملنَا قولَه تعالى: ﴿مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ على تخصيصِه بالأسلافِ، أمَّا إذا تناولَ الأسلافَ والمُعاصرين فلا التفاتَ في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾، بل هو خطابُ البعضِ من المجموعِ.

دلالة اقترانِ الإحسانِ بالوالِدَين بتوحيدِ اللهِ:

تأكيدُ تَعظيمِ حقِّ الوالِدَين

يظهرُ تعظيمُ حقِّ الوالِدينِ بذكرِهما بعد ذكرِ حقِّ اللّٰه في إفرادِه بالعبادةِ؛ فالخلقُ والنَّشْأةُ الأولى مِنْ عندِ اللّٰهِ سبحانَه، والنَّشأةُ الثّانيةُ وهي التّربية؛ فهي من جهةِ الوالِدَين؛ وَلِهَذَا قَرَنَ تَعَالَى شكرَه بشُكرِهما؛ فَقَالَ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾[2].

دلالة مجيءِ المصدرِ النّائب عن فعلِ الأمرِ:

الإحسانُ بالوالِدَين ثابتٌ لهما لا يُنزَعُ ولا يُخلَعُ

في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أمرٌ بالإحسانِ إليهما؛ ليكونَ مناسبًا للطّلبِ في قولِه: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ كما تقدّم، وإنّما كان ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أمرًا؛ لأنّ ﴿إِحْسَانًا﴾ مَصْدَرٌ مَوضُوعٌ موضعَ فِعْلِ الأَمْرِ، فتكونُ الجملةُ طلبيةً، والتّقدير: أحسِنُوا إلى الوالِدين إحسانًا، ففيه توكيدٌ وتقريرٌ للإحسانِ إليهما؛ لدلالة المَصدَرِ على التَّأكيدِ، كما أنّ الأمرَ بالإحسانِ تعلّقَ بوَصْفِ الوالديّةِ، فالإحسانُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/451.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/13.

واجبٌ ما دامتْ صِفَةُ الوالديَّة، وهي صفة ثابتةٌ لا تُنتَزَعُ في حياةٍ ولا في موتٍ.

صُحبةُ الوالِدَيْن أمـرٌ ربَّانيٌّ وهذا من تمام الإحسانِ

دلالة الباءِ في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾:

أفادتِ الباءُ معنى الملابسةِ، كما هو أصل معناها؛ لِيكونَ الأمرُ بالإحسان حالَ كونه متلبِّسًا بالوالدين لا ينفكُّ عنهما، ففيه معنى الصُّحبةِ والمجاورةِ وعدمِ الانقطاعِ عنهما بحالٍ.

بلاغةُ التّقديمِ والتّأخيرِ:

حقُّ القرابَةِ تابعٌ لحقِّ الوالِدَين

قُدِّمَ ﴿بِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ على المصدر النّائبِ عن فعلِ الأمر اعْتِنَاءً بِمُتَعَلَّقِ الحَرفِ، وهُمَا الْوَالِدَان، وَاهتِمامًا بِأَمْرِهِمَا[1]، فأفادَ قَصْرُ الإحسانِ المطلق عليهما، فأصلُ الكلام: وإحسانًا بالوالِدَين، فلمّا قدّم الجارَّ والمجرورَ ظهرت النُّكتةُ البلاغيَّة، وقُدِّمَ ذكرُهما على ذي القُربَى؛ لأنَّ حقَّ القَرابةِ تابعٌ لِحَقِّ الوالِدَيْن، والإحسانُ إليهم إنَّما هو بواسطةِ الوَالِدَيْن[2].

نكتةُ إفرادِ ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾:

أفردَ النَّظمُ ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فلم يقل: (الأقرباءُ)، بل ورد على صيغةِ اسم الجنسِ، وأضافَ إليه ﴿وَذِى﴾ بمعنى صاحِبٍ، لِأنّهُ أَرَادَ بِالقُربى الجِنْسَ، ولِأنّ إِضَافَتَهُ إِلَى المَصْدَرِ يَنْدَرِجُ فِيهِ كُلُّ ذِي قَرَابَةٍ[3]، كما أنّه نبّه إلى أنَّ وجهَ مناسبةِ الإحسانِ إنّما هو لِمعنى القَرابة.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

قَرَأَ ابن كثيرٍ وَأَبُو عَمْرو وَنَافِعٌ وَعَاصِمٌ وَابنُ عَامر: ﴿حُسْنًا﴾، وقرأ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ: ﴿حَسَنًا﴾[4]، فأمّا قراءةُ: ﴿حُسْنًا﴾ على المصدريّة فللمبالغةِ فيه؛ فإنّ الإخبارَ بالمصدرِ أو الوصفِ به يفيدُ المبالغةَ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/459.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 2/34.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/459.
(4) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 163.

كقولهم: زيدٌ عدلٌ، وزيدٌ رجلٌ عدلٌ، على معنى أنّه حَسَنٌ في نفسِه، وأمَّا على قراءة: ﴿حُسْنًا﴾ بالوصفيّة، فيكون التّقديرُ: قولوا قولًا حَسَنًا، فقامتِ الصّفةُ مقامَ الموصوفِ للمبالغةِ، فكلتا القراءتين أفادتِ المبالغةَ، وهذا من بديعِ التَّعبيرِ المختلفِ الألفاظِ المتَّفقِ الدّلالاتِ.

دلالة (ألْ) في ﴿لِلنَّاسِ﴾:

شيوعُ الكلامِ الحسنِ إرشادٌ قرآنيٌّ شاملٌ لكلِّ النّاسِ

(ألْ) في ﴿لِلنَّاسِ﴾ جنسيةٌ، فتفيدُ معنى الاستِغراقِ، وهذه المعاني البلاغيّةُ تَحُضُّ عَلَى مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، فيَنْبغِي للمسلم المتخلّقِ بخُلُقِ القرآنِ أنْ يكونَ قولُه حَسَنًا، ففيهِ من معاني الخيرِ دقّها وجلّها، مَعَ المسلم وغيرِه، ومع المُطيعِ والعاصِي؛ فإنَّ أثرَ الكلمةِ الطَّيِّبةِ عظيمٌ في النَّفسِ، ويُعزِّزُه تقديمُ الجَارِّ والمَجرُورِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ على المَفعُولِ به ﴿حُسْنًا﴾؛ فكلمةُ ﴿لِلنَّاسِ﴾ لم تخصَّ أهلَ دينٍ أو فئةً أو قومًا معيّنين.

دلالة حرفِ التَّرَاخِي ﴿ثُمَّ﴾:

استبعادُ صُدورِ التَّولِّي بعد أخذِ الميثاقِ!

أفادَت ﴿ثُمَّ﴾ التّرتيبَ والمهلةَ، فكأنّه قد أمهَلَهُم على تنفيذِ المطلوبِ، وبَقِيَ الأمرُ مدّةً من الزّمن، فلمّا أقيمتْ عليهم الحجّةُ، حُكِمَ عليهم بالتّولّي والإعراضِ، وذهبَ الشّهابُ إلى أنَّ ﴿ثُمَّ﴾ للاستبعَادِ[1]، أي: استبعادُ أن يصدُرَ عنهم هذا التَّولي بعد هذا الميثاقِ؛ ففيه تشنيعٌ عليهم، والمعنيانِ متآيلانِ.

فائدةُ مَجيءِ الجملةِ الحاليَّةِ اسميَّةً:

الإعراضُ دَيْدَنُ بني إسرائيل ودأبُهم

جاءت الجملةُ الحاليَّةُ اسميّةً مُصَدّرةً بـ﴿وَأَنتُم﴾؛ لتفيدَ التوكيدَ، كما أنَّ مجيءَ الخبرِ وصفًا مشتقًا يدلّ على ثبوتِ الوصفِ للمبتَدأ، فبالغَ في التّأكيدِ، وكأنّه قال: (وأنتُم عادتُكُم الثّابتةُ الإعراضُ عن الحقّ)[2]، والحالُ هنا مؤسِّسَةٌ لامؤكِّدةٌ؛ أي: حَكَمَ عليهم بالتّولّي وهم في حالِ الإعراضِ.

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 2/312.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/464.

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ المتعلّق:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾؛ حُذِفَ (عنْ) ومتعلّقُها معَ الفعل ﴿تَوَلَّيۡتُم﴾ ومع الوصف ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾؛ وذلك لأمرين:

ظهورُ معنى التَّركيبِ دون النَّصِّ عليه من براعةِ السِّياقِ

أحدهما: الإيجازُ بدلًا من التّطويلِ الذي لا حاجةَ له؛ لِأَنَّ السّياقَ يدلّ على أنَّ المحذوفَ هو: تولّي بني إسرائيلَ عَنْ جَمِيعِ مَا أُخِذَ عليهم؛ أي أَشْرَكتمْ بِاللَّه وَعَبَدتُم الْأَصنَامَ وَعقَقْتُم الوالدَيْنِ وَأَسأْتُمْ لِذَوي القُرْبى وَاليَتَامى وَالمَسَاكِين، وَقُلْتمْ لِلنَّاسِ أَفْحَشَ القَوْلِ وَتَرَكتُم الصَّلَاة وَمَنَعْتُم الزَّكاةَ، وأنتم معرضُون عن هذه الأوامرِ[1].

الآخر: أفادَ حذفُ المتعلَّقِ وَصْفَهم بالتّولّي والإعراضِ مطلقًا؛ فكأَنَّ التّولّي عن الأوامرِ حَدَثٌ متجدِّدٌ لَهم، فكلّما أمِرُوا بفعلٍ تولَّوا عنه، والإعراضُ وصفٌ ثابتٌ لهم من غيرِ تقييدٍ بنوعِ الإعراضِ.

تأكيدُ جملةِ التّذييلِ لما قبلَها:

قولُه تعالى: ﴿وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ جملةٌ تذييليّةٌ[2]، جاءَتْ لتقريرِ الكلامِ وتَتْميمِه، فأفادتْ تقريرَ مضمونِ ما قبلَها، وهو ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ﴾.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإعراضُ والتّولّي:

الفرقُ بين التّولّي عن الشّيءِ والإعراضِ عنه:

الإعــراضُ أكــثرُ سُوءًا من التّولّي

المُعرِضُ وَالمُتوَلِّي يَشْتَرِكان في تركِ السّلوكِ السّليم، إلَّا أنَّ المعرِضَ أَسْوَأ حَالًا؛ لِأنّ المُتوَلِّي هو الّذي يُطمعُ في رجوعِه؛ لأَنَّ تَوَلّيَهُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/584.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/123.

قد يكون لِحاجةٍ تدعُو إلى الانصرافِ مع ثبوتِ العَقدِ، والمعرِضُ لا يُطمعُ في رجوعِهِ بوجهٍ؛ لِأَنَّ معنَى الإعراضِ هو الانصرافُ عن الشَّيءِ بالقلبِ[1]، ولَمَّا كانَ الإعراضُ أسوأَ قُدّمَ التَّولّي عليه، للترقّي في الذّمِّ، وَغَايَةُ الذَّم الجمعُ بَينهمَا.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/358، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/248، والكفوي، الكليات، ص: 2.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤﴾ [البقرة: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكَّرَ اللّهُ بني إسرائيلَ في الآيةِ السَّابقةِ بِمَا أُمِروا به مِنْ إفرادِ اللّهِ بالعبادةِ والإحسانِ إلى الوالِدَينِ وذوي القُربى واليتامى والمساكينِ، وأنَّهم تَوَلَّوْا وهم مُعرِضُونَ، ناسَبَ أنْ يُذَكِّرَهم بإقرارِهم بحُرمَةِ سَفْكِ الدِّماءِ، وإِخْرَاجِ الأَنْفُسِ من ديَارِهَا؛ فلمَّا "كان أكبرَ الكبائرِ بعدَ الشِّركِ القتلُ، تَلاهُ بالتَّذكيرِ بِمَا أُخِذَ عليهم فيهِ من العَهدِ، وقَرَنَ به الإخراجَ من الدّيارِ، لأنَّ المال عديل الرّوح، والمنزِلَ أعظمُ المال، وهو للجَسَدِ كالجسدِ للرُّوحِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَسۡفِكُونَ﴾: السِّين والفاء والكاف تدلُّ على إراقةِ المائعِ المحتَبسِ في البدنِ بحِدَّةٍ أو قُوَّةٍ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: 30] أي يَصُبُّها بقوّةٍ، بقتلِ أصحابِها، ومنه: رَجلٌ سَفَّاكٌ للدِّماءِ، بمعنى: كثير القتل، وَيقال: سَفَكَ دمعَه؛ إذا سَالَ بقوّة كأنَّه صَبَّهُ، وسفَّاكٌ بالْكَلَامِ: كثير الكلام ينثُرُه نَثْرًا، وأغلبُ ما يستعملُ السَّفكُ مع الدِّماءِ المُسالة بغيرِ حقٍّ[2].

2) ﴿دِمَآءَكُمۡ﴾: الدِّماءُ: جَمْعُ دَمٍ؛ وهو السّائل الأحمر الذي يجري في عروق الإنسان والحيوان. ولفظ دَمٍ؛ على حَرفَينِ، ولامُهُ محذوفةٌ وفيها قولان: بالياءِ - وهو قولُ الأَكثرِ -؛ فالأَصلُ: دَمَيٌ، وتثنيته: دَمَيَان، أو بالواو؛ فالأصلُ دَمَوٌ وتثنيته: (دَمَوَان)، بدليلِ دَمَوِيّ في النَّسَبِ[3].

3) ﴿دِيَٰرِكُمۡ﴾: جَمْعُ دارٍ وهي المنزِلُ، وأصلُ الكلمةِ (دور)، ويدورُ معنى الجذر على إِحْدَاقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِنْ حَوَالَيْهِ، وسُمِّيت دارًا؛ لِدَوَرانِ أهلِها بها أو لِدَوَرانِها

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 2/8، ويُنظر: تفسير المراغي: 1/160.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، والحميريّ، شمس العلوم: (سفك).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، السمين، عمدة الحفاظ: (دم).

هي على أَهلِها وإِحاطتِها بِهِم، وَلا تُسمَّى دارًا إِلَّا إذا سُكِن فيها، وتُسمَّى الدّارُ دارًا بِحسَبِ ساكنيها وما يتَّصفون به فيها، فيُقال: دارُ الدُّنيا، ودارُ الآخرةِ، ودارُ السلام، ودارُ المتَّقين، ودارُ البَوارِ، ودارُ الفاسقين[1].

4) ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾: أَقْرَرَ -الرُّباعيّ-: أَصلُه الفعل الثلاثيّ (قَرَّ)، ويدورُ مَعنى الكلمةِ على ثَباتِ الشَّيءِ وتمكُّنِه، فيُقالُ: قَرَّ في مَكانِه يَقِرُّ قَرارًا، إذا ثبت ثبوتًا جامدًا، وأَصلُه مِنَ القُرِّ، وهو البَرْدُ، الَّذي يقتضي السّكونَ، وضدّه الحَرّ الَّذي يقتضي الحركةَ، والإِقْرَارُ: الإذعان للحقّ والاعتراف به، فهو مِن إِقْرارِ الأمرِ في النّفسِ تسليمًا وعدمَ مُنازَعَةٍ، ويظهر فيه معنى الثبات[2].

5) ﴿تَشْهَدُونَ﴾: من الفعل (شَهِدَ)، ويدورُ هذا الأَصلُ على معنى: الحُضُورِ وَالعِلْمِ وَالإِعْلَامِ؛ وأصلُ شَهِدَ: حَضَرَ، ثم صُرّفت الكلمةُ في أداءِ ما تقرَّرَ علمُه في النَّفسِ بأيِّ وجهٍ تَقَرَّر من حُضورٍ أو غيره، والشَّهَادَةُ: الحضورُ مع المشاهدةِ، إمّا بالبصرِ أَو بالبَصيرةِ، كما تُطلقُ الشَّهَادَةُ على: القولِ الصَّادرِ عن علمٍ حاصِلٍ بمشاهدةِ بَصيرةٍ أَو بَصَرٍ[3].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

توجِّه الآية الكريمة خطابًا لبني إسرائيل مفاده: أن اذكروا حين أَخَذَ اللّٰه عليكم عهدًا مؤكدًا في التوراة: يحرِّم سفكَ بعضكم دمَ بعض، وإخراجَ بعضكم بعضًا من دياركم، ثُمَّ اعترفتم بما أخذناه عليكم مِن عَهْدٍ بذلك، وأنتم تشهدون على صحَّته، فالحجة قائمة عليكم.

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائدةُ الابتداءِ بـ(إِذْ):

الإيذانُ بالشُّروع في قضيَّةٍ ذات شأنٍ، تتطلَّبُ انتباهًا ويقظةً

أفادَ ابتداءُ الآيةِ بِظَرْفِ الزَّمانِ (إِذْ)، إيذانًا بالشُّروعِ في الكلامِ على قَضيَّةٍ ذاتِ شَأْنٍ، بِأَنْ تكونَ ميثاقًا مُؤَكَّدًا، أَوْ بَيانَ نِعمةٍ عظيمةٍ، أَوْ ارتكابَ ذنْبٍ عظيمٍ؛ لِأَنَّ التَّقديرَ: واذْكُرْ وَقْتَ، أَوْ:

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، السمين، عمدة الحفاظ: (دور).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قرر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شهد).

واذْكُرْ حينَ؛ فيكونُ الكلامُ موجَّهًا إلى مخاطَبٍ معيَّنٍ، أَو مخاطَبين مُعيَّنين؛ لِلتَّذكيرِ بأَمرٍ مُهمٍّ قدْ حَصَل، مِمّا يَسْتَدعي انتِباهَ المخاطَبِ لما سيُقالُ.

فائِدَةُ إضافَةِ (ميثاق) إلى الضَّميرِ:

تَخصيصُ الخِطابِ بالمُخاطَبين بِقَصْدِ الإِلْزامِ

الخِطابُ في قولِه: ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ موجَّهٌ إلى اليهودِ الّذين كانوا في زَمَنِ نُزولِ القرآنِ؛ وعليهِ فالخِطابُ على التَّخصيصِ ولا مجازَ فيه، ومعنى التَّخصيصِ أَنَّ الميثاقَ خاصٌّ بهم؛ لِأَنَّ الإِضافةَ على معنى لامِ الاختصاصِ، فإذا كانَ الميثاقُ مختَصًّا بهم فعليهم الالتزامُ به، قال ابنُ عاشورٍ: "إِضَافَةُ (مِيثَاق) إِلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِينَ مُرَاعًى فِيهَا أَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا مُتَدَيِّنِينَ بِشَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ، فقَدِ الْتَزَمُوا بِجَمِيعِ مَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ"[1].

إيثارُ أُسْلُوبِ الخِطابِ عَلى غَيْرِهِ:

التَّأثيرُ في نفسِ المخاطَبِ؛ لِتَقَعَ الاستجابَةُ مَوْقِعًا راسِخًا

في استعمالِ أُسلوبِ المُخاطبةِ وجهٌ بَلاغيٌّ تَأثيريٌّ في نفسِ المُخاطَبِ، فإِنَّ الخطابَ إِقبالٌ مِنَ المخاطِبِ إلى المخاطَبِ، والإِقبالُ يحتملُ أَنْ يكونَ تَرغيبًا وأَنْ يكونَ تَرهيبًا، ففيه تحضيضٌ ورضًا إذا كان المقامُ مقامَ مَدْحٍ، وفيه تَوْبيخٌ وتقريعٌ إذا كان المقامُ مقامَ ذَمٍّ، ولِكلِّ مَقامٍ مَقالٌ؛ فلَمَّا وردَ أُسلوبُ المُخاطبةِ وهم قدْ تولَّوا عن الميثاقِ وأَعرضُوا عنه، كانَ الخِطابُ أَشدَّ توبيخًا وتقريعًا، والمخاطَبَةُ تقتضي منهم أَنْ يتذكَّروا نِعَمَ اللهِ عليهم وأَنْ يُقَدِّروا المُنْعِم.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في ﴿تَسْفِكُونَ﴾:

اشْتِمالُ التَّركيبِ عَلى دلالةِ العُمومِ، ودلالةِ الإِشارَةِ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ القتلِ بقولِه: ﴿تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾، على طريقِ الكنايةِ، والتعبيرُ بأُسلوبِ الكنايةِ أشدُّ قوَّةً في النَّهيِ عنِ القتلِ[2]، إذِ الفعلُ (يَسْفِك) يَدُلُّ على صَبِّ الدَّمِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/586.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/82.

صَبًّا، وهو أمرٌ تَشْمَئِزُّ منهُ النُّفوسُ، ويدخُلُ في سَفكِ الدِّماء عمومُ الجراحاتِ، فيشمَلُ هذا التَّعبيرُ: القتلَ، والجرحَ؛ والمرادُ منه ما كان باطِلًا، ويُشيرُ هذا التَّعبيرُ إلى القتلِ والجرْحِ الناشئَ عن فتنة؛ لأنَّ الفتنةَ يكْثُرُ فيها سَفْكُ الدِّماءِ قتلًا وجرحًا، ولو قالَ: (ولا تقتُلون أَنْفُسَكُمْ)؛ لـمَا أفادَ ما تقدَّم.

بَلاغَةُ المَجازِ في الخِطابِ:

التَّأْثيرُ في نُفوسِ الـمُخَاطَبينَ؛ لـلارْتِـداعِ والامْتِثالِ

جاءَ تشْبيهُ "الْغَيْرِ بِالنَّفْسِ لِشِدَّةِ اتِّصَالِ الْغَيْرِ بِالنَّفْسِ في الْأَصْلِ أَوِ الدِّينِ؛ فَإِذَا قَتَلَ الْمُتَّصِلَ بِهِ نَسَبًا أَوْ دِينًا، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ نَفْسَهُ، وَمَبْنَاهُ عَلَى الْمَجَازِ في الضَّمِيرِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ في قَوْلِهِ: ﴿دِمَآءَكُمْ﴾ وَ﴿أَنفُسَكُمْ﴾"[1]، وجعَلَه الطِّيبيُّ من بابِ المَجازِ لِأَدنى مُلابسة[2]، وأدنى مُلابسةٍ في هذا الموضع تَتَمثَّلُ في علاقةِ النَّسَبِ والدِّين بينهما؛ فأقامَ المخاطَبينَ مَقامَ غيرهم ممَّنْ هُمْ في مَوطنِهم لِوجود عَلاقةِ مناسبةِ النَّسَبِ والدِّينِ، ونظيرُ هذا الأُسلوبِ قولُه: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: 11]، وقولُه: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: 12] وَقَوْلُه: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 54]، وقولُه: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: 61].

تَوْجيهُ المَجازِ المُرْسَلِ لِتَكْثيرِ المَعْنى:

قَـتْـلُ الآخَـريـن مُـوصِـلٌ إلى قَـتْـلِ الـنَّـفـس، وإخْراجُهُمْ مُؤَدٍّ إلى إخرَاجِها

وتحتملُ الآيةُ أنْ تُحمَلَ على المَجازِ المُرسَلِ بإطلاقِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ، على مَعْنَى: إذا قَتَلَ غيرَهُ فَكَأَنَّما قَتَلَ نَفْسَهُ؛ لِأَنَّه يُقتَصُّ منْه[3]، ومعنى الآيةِ على هذا التَّوجيه البلاغيِّ: لا تقتلُوا غيرَكم، فإنَّ مَنْ يفعلْ هذا فَقد قَتَلَ نَفْسَه؛ لِأنَّهُ تسبَّبَ بالقَصاصِ منه، وَلَا تُخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ بِالْجِنَايَةِ عَلَى الْغَيْرِ فَتُنْفَوْا مِنْ دِيارِكُمْ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/586، ويُنظر: الزمخشري، الكشاف: 1/160.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 2/559.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/160.
(4) الرازي: التّفسير الكبير: 3/591، والطيبي: فتوح الغيب: 2/559، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/586.

فائِدَةُ إضافَةِ الدِّمَاءِ إلى الضَّميرِ:

المصلحة الجامعة والمفسدة الجامعة هي المعتبرة في الأحكام الكليَّة

وَجْهُ إِضافَةِ الدِّماءِ إِلَى ضَمِيرِ السَّافِكِينَ، أَنَّ هَذِهِ الْأَحْكَامَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالجماعَةِ يَكُونُ مَدْلُولُ الضَّمَائِرِ فِيهَا مَجْمُوعَ النَّاسِ، فَإِذَا تَعَلَّقَتْ أَحْكَامٌ بِتِلْكَ الضَّمَائِرِ مِنْ إِسْنَادٍ أَوْ مَفْعُولِيَّةٍ أَوْ إِضَافَةٍ أُرْجِعَ كُلٌّ إِلَى مَا يُنَاسِبُهُ عَلَى طَرِيقَةِ التَّوْزِيعِ، وَنُكْتَتُهُ: الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْمُغَايَرَةَ في حُقُوقِ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ مُغَايَرَةٌ صُورِيَّةٌ، وَأَنَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْمَصْلَحَةُ الْجَامِعَةُ أَوِ الْمَفْسَدَةُ الجَامِعَةُ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البَقَرَة: 188](1).

بَلاغَةُ إطْلاقِ الخَبَرِ وإِرَادَةِ الإِنْشَاءِ:

تنزيل النَّهي منزلة الخبر الصَّادق؛ لبيان شناعة مخالفة المواثيق

أُريدَ بالخَبَرِ الإِنْشَاءُ في قولِه تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾، أي: النَّهيُ عنْ سَفكِ الدِّماءِ، والإخراجِ من الدِّيارِ، والتقديرُ: لا تَسْفِكُوا دماءَكُم ولا تُخرجوا أنفسَكُم؛ فهو من المَجَازِ؛ إذِ استُعمِلَ الْخَبَرُ في غَيْرِ معناهُ؛ لِعلاقةِ مُشابهَةِ النَّهيِ الموثوقِ بامْتثالِه بالشَّيْءِ المُتحقِّقِ الحُصُولِ، حتَّى إنَّهُ يُخْبَرُ عنهُ، وهو أَبلَغُ مِنْ صَريحِ النَّهي، فنكتَةُ العُدُولِ إلى أُسلوبِ الخَبرِ المُسارعةُ إلى الامتثالِ والانْتهاءِ، بتَنْزيلِ النَّهي مَنْزِلَةَ الخَبرِ الذي لا يُكذَّب، فتولِّي المُخاطَبين تكذيبٌ لمواثيقِهم، وشهادتِهِمْ عليها.

بَلاغَةُ الفَصْلِ بَيْنَ الجُمَلِ:

تفسير المُجمَل وتبيين المُبهَم

وقعتْ جملةُ: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ مفسِّرةً ومُبيِّنةً لِلميثاقِ، والجملةُ التي بعدَها معطوفةٌ عليها؛ فلها حُكمُهَا، والمعنى: من بعض الميثاقِ، كما يُفسِّرُه سياقُ الآياتِ، ويجوزُ في إعرابِها: البدلُ - بدلُ بعضٍ من كُلٍّ - وعطْفُ البيانِ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/585.

بَراعَةُ التَّعْبيرِ بالمُفرَدَةِ:

تَصْويرُ بَشاعَةِ القَتْلِ، وما يَلْحَقُهُ مِنْ جِراحاتٍ وإعاقاتٍ

عبّرتِ الآيةُ بمفردَةِ السَّفْكِ دون القتلِ المُصرَّح به في الآيةِ التَّالية: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، وذلك أنَّ سَفْكَ الدَّم فيه بَيانٌ لبشاعَةِ القتلِ أبلغُ مِن لفظِ القتلِ، إذ يُصوِّرُ إراقَةَ الدَّم وصبَّه صَبًّا، ويُساعِد على ذلك التَّعبيرُ بصيغةِ المضارِعِ الدَّال على تجدُّدِ الفعلِ في حركةٍ مستمرَّةٍ، ويُشيرُ إلى الآلَةِ الحادَّةِ التي يُرَاقُ بها الدَّمُ، ويدلُّ على المبالغةِ في القَتْلِ، وعلى تحقُّقِ القتْلِ وما يُصاحِبُه من جرَاحاتٍ وإلحاقِ عاهاتٍ بالآخرين.

بَلاغَةُ التَّقْديمِ والتَّأْخيرِ:

بَيانُ الأَشَدِّ فَظاعَةً، المُنزَّل مَنْزِلَةَ المُقَدِّمَةِ مِن النَّتيجَةِ

قُدِّمت جملةُ ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ على ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ﴾؛ لفظاعةِ سفكِ الدِّماءِ، ولأنَّه مُقدِّمةٌ من مقدِّماتِ الإخراجِ؛ فقُدِّم الأشدُّ والأفظعُ لأهمِّيَّةِ اجتنابِه، وقُرِنَ الإخراجُ بالسَّفكِ؛ للإيذانِ بأنّ الإخراجَ من الدِّيارِ بمنزلةِ القَتْلِ[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ المُضَارِعِ:

تَصْويرُ قُبْحِ مَضْمونِ الأفْعالِ، وإشارَةٌ إلى تَجَدُّدِها

جَاءَ الفعلان ﴿تَسْفِكُونَ﴾ و﴿تُخْرِجُونَ﴾ بصِيغَةِ المُضارِعِ، تصويرًا لقُبحِ مضمونِ الفِعلَيْن، وإشارةً إلى تجدُّدِهما، وأنّهما مستمرَّان لم ينقطعا، وفي ذلك بيانٌ بأنَّ ما يقومون به من مخالفةِ المواثيقِ هو منهجُهُم، ودَيْدَنُهم في التَّعامُلِ مع أنفسِهم، فكيف بتعاملِهم مع غيرِهم؟!

فائِدَةُ حَرْفِ التَّراخي:

تَوبيخُ المُخَاطَبين على ما أَقْدَمُوا عَلَيْهِ مِن نَكْثِ المواثيقِ

معنى حرفِ التَّراخي في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: التَّرتيبُ الرُّتبيُّ، أي: "أَخَذَ عَلَيْكُمُ العَهْدَ وَأَقْرَرْتُمُوهُ، أَيْ: عَمِلْتُمْ بِهِ وَشَهِدْتُمْ عَلَيْهِ"[2]، وفائدتُه: تَوبيخُهم لِمَا أَقْدَمُوا عليه بعدَ الإقْرَارِ والشَّهادة.

(1) البروسوي، روح البيان: 1/174.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/586.

وذهب الزمخشريُّ وغيرُهُ[1] إلى أنَّ (ثمَّ) هنا للاسْتِبعادِ من اسْتِعمالِ حرفِ العطفِ في المجازِ، أي استبعادِ وقوعِ ذلك ممَّن أقرَّ وشَهِدَ!، وهو قريبٌ من مَعنى التّرتيب الرُّتبيّ، ولكنّه على معنى اسْتِبْعاد رُتْبَة فِعْلِهم مع ما أقرُّوا به من الميثاق، يعني: يَبْعُد مِنَ العاقل ارتكابُ هذا المَحْذور، مِنَ القتْل والتّشريدِ بَعد حُصولِ ما يُنافيهِ مِن أخْذِ الميثاقِ على ألّا يفعَلوا ذَلك[2].

فائِدَةُ الجُمْلَةِ الحاليَّة:

بَيانُ مَوْقِعِ الشَّهادَةِ مِنَ الإِقْرارِ؛ إقامَةً للحجَّةِ على المخاطَبين، وإلقامَهُم الحَجَرَ

جملةُ: ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ حاليَّةٌ، وجيءَ بها بعد جُملةِ الإقرَارِ؛ للانتقالِ من المقْصَدِ إلى أداته، إذِ الإقرارُ وحْدَهُ غَيْرُ كافٍ؛ فالإقرارُ لا يثبُتُ إلّا بالشَّهادَةِ، "أَيْ: لَا تُنْكِرُونَ إِقْرَارَكُمْ بِذَلِكَ إِذْ قَدْ تَقَلَّدْتُمُوهُ وَالْتَزَمْتُمُ التَّدَيُّنَ بِهِ"[3].

بَلاغَةُ التَّغايُرِ بَيْنَ صِيَغِ الأَفْعالِ في سِياقٍ واحدٍ:

شَهادَةُ المُخاطَبين هِيَ أَداةُ إقْرارِ ميثاقِ الأَسْلافِ

جاءَ فعْلُ الإقرارِ بصيغةِ الماضي، وفعلُ الشَّهادَةِ بصيغةِ المُضارِعِ؛ لفتًا إلى أنَّ الإقرارَ وقعَ من أسلافِهم، وثبتَ فيهم، وأنَّ الشَّهادَةَ مستَمِرَّةٌ فيهم، فهم يَشْهدُون على إقرارِ أسلافهم وشهادتِهم، وعليه فشَهادَتُهُم هِيَ الإقْرارُ بمَضْمونِ الميثاقِ الصَّادرِ عن أسلافِهم، وبه يُنسَبُ إليهم.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القَتْل والسَّفْك:

القتلُ هو الإماتةُ أو إزالةُ الرُّوح عنِ الجَسَدِ بِفعلِ المُتَوَلِّي لذلك، والقتلُ ضُروبٌ مُخْتَلِفَةٌ[4]، وأمّا سفكُ الدَّم فلا يُطلقُ إلّا على نوعٍ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/160، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/466، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/124.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 2/541.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/586.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 104.

مُعَيَّنٍ من القَتْلِ، وهو أَنْ يكونَ فيهِ إراقةُ الدَّم حتَّى يموتَ صاحبُه، ويدلُّ على المبالغة في القتلِ حتّى يَصُبَّ الدَّمَ صبًّا، كما يدلّ على تعدِّي القاتلِ وظُلم المَقْتولِ. فسفْكُ الدَّم أقبحُ أنْواعِ القَتْل وأفظَعُهُ، فكانَ التعبيرُ بالسَّفك أَنسَبَ لِنَظْمِ الآيةِ وسياقِها.

الإقرار والشَّهادَة:

الإقرارُ هو التكلُّمُ بالحقِّ، وإثباتُه على النَّفسِ، مع تَوْطينِ النَّفسِ على الانقيادِ والإذعانِ[1]، والشَّهادةُ لا تكونُ إلا عَن حُضُورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلَام، فالشَّهادَةُ أَعْلى تَوْثيقًا من الإقرارِ، فقَدْ يُنكِر المُقرّ ويَنْكَلُ عن إقرارِهِ، ولهذا قال اللّه تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: 18]، فليس بعدَ الشَّهادةِ عِلْمٌ وإعلامٌ. وذكر الرَّاغبُ الفرقَ بينَ الإقرارِ والشَّهادةِ فقال: "الشَّهادةُ إقرارٌ مَعَ العلم وثَباتِ اليقين، والإقرارُ قد ينفكُّ مِن ذلِكَ، ولهذا كَذَّب اللّه تعالى الكفَّارَ في قولِهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ ولو قالوا: نُقِرُّ إنَّك لَرسولُ اللهِ لم يُكَذَّبُوا"[2]. فلمَّا تغايرَ مَعْنى الكَلِمَتين، وكانت الشَّهادةُ أثبتَ؛ قَرَنَ بينَ الإقرارِ والشَّهادَةِ، وجعلَ الشَّهادةَ حالًا لإقرارِهِمْ، فلا يمكنُ إنكارُ إقرارِهم ولا جَحدُهُ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 65.

(2) تفسير الرّاغب: 1/249.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكرتِ الآيةُ السَّابقةُ توكيدَ الميثاقِ على المُخاطَبينَ، وإقرارَهُمْ وشَهادَتَهُم على ألّا يَسْفِكُوا دِماءَ بَعْضِهم بَعْضًا، ولا يُخرِجُوا فريقًا منهُم مِنْ دِيارِهِمْ، بَيَّنَتْ هذه الآيةُ حالَهم في عَدَمِ تَحَمُّلِهمُ الميثاقَ؛ بنقْضِهِمُ العهدَ كما كان يفعلُ مَنْ كان قبلَهم؛ فاستحقّوا التَّوبيخَ على ذلك، فمَوْقِعُ هذه الآيةِ من السَّابِقةِ بيانُ حالِ اليَهودِ من الميثاقِ الذي تعهَّدُوا بالتزامِه، وشَهِدُوا على ذلك، فالمناسبةُ هي الانتقالُ من بيانِ الدَّعوى الكاذِبَةِ، إلى الواقِعِ الصَّادقِ، وهو القتلُ والإخراجُ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾: أَصلُهُ: تتظاهرون، حُذِفت إحدى تاءيْهِ تخفيفًا، وهو من الفعل (ظهر) الَّذي يدور عَلَى معْنَيَيْنِ؛ هُما: القُوَّةُ وَالبُروزُ، يقال: ظَهرَ الشَّيْءُ يَظْهرُ ظُهورًا فَهُوَ ظَاهِرٌ؛ إِذَا انْكَشَفَ وَبرزَ، وَالْأَصلُ فِيهِ كُلِّهِ: ظَهرُ الإِنْسانِ، وجَمْعُه: أَظْهُرٌ وظُهورٌ، وَالظَّهِيرُ: المُعِينُ، كَأَنَّهُ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى ظَهْرِكَ. وتَظاهرَ القومُ: تَعاوَنوا، وظاهَرَه: عاوَنَهُ، والظَّهيرُ: العَوْنُ، يُقال للواحد وللجَميع، فيقال: هو ظَهيرٌ، وهم ظَهيرٌ، ومعنى: ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ أي: تَتَعاونونَ عليهم[1].

2) ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾: تدورُ معاني كلمةِ (أثم) على: البُطْءِ وَالتَّأَخُّرِ، يُقَالُ: نَاقَةٌ آثِمَةٌ، أَيْ:

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سِيده، المحكم، والرّاغب، المفردات: (ظهر).

مُتَأَخِّرَةٌ. وَالإِثْمُ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ ذَا الإِثْمِ بَطِيءٌ عَنِ الْخَيْرِ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ. ولهذا قال الرَّاغب في الإثم: "اسمٌ للأفعالِ المُبَطِّئَةِ عن الثَّواب، وجَمعُه: آثامٌ"[1]. والإِثْمُ: الذَّنْبُ؛ لأنَّه يُبطِّئُ عن الخير، ويطلقُ الإثم في مقابلِ البِرِّ، فهُوَ كل فِعْلٍ يستَحِقُّ فاعلُهُ الذَّمَّ واللَّومَ[2].

3) ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾: أصلُهُ من الفعل (عَدَوَ)، ويَدورُ مَعْنى الكلمةِ علَى تَجَاوُزٍ في الشَّيْءِ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ، يقال: عَدَا يَعْدُو عَدْوًا وعُدوانًا، والاعْتِدَاءُ مُشْتَقٌّ مِنَ العُدْوَانِ، وَالعُدْوَانُ: تَجاوزُ الحدِّ في الظُّلْم، وهو المقصودُ في الآيةِ[3].

4) ﴿أُسَٰرَىٰ﴾: جمع؛ أصلُه من الفعل (أَسَرَ)؛ وهو الشَّدُّ والإمْساكُ، والإِسارُ: الحَبْلُ الذي يُشدّ به، ويُطلق على الحَبْس، ومن ذلك الأَسِير؛ لأنَّه يُشدّ بالإسار، ويجمعُ أَسِيرٌ على: أَسارى -بفتح الهمزة-، وأُسارى -بضمها-؛ وهو الأصل، وأَسْرَى[4]. ومن اشتقاقات (أَسَرَ) بمعنى الشدة: أُسرةُ الرجل، وهم أَهلُ بيته ورهطُه الأَدْنَوْن الَّذين يَشْتَدّ بهم، وكلُّ محبوس في سِجْنٍ أو في موضعٍ مِثْلِه فهُو أَسِيرٌ[5].

5) ﴿تُفَٰدُوهُمۡ﴾: أَصْلُهُ من الفعل (فَدَى): يَفْدِي فِدَاءً، والفِداءُ: أَنْ يُجْعَلَ شَيْءٌ مَكانَ شَيْءٍ حِفْظًا له، أو هو حِفْظُ الإنسانِ مِنَ المكروه بما يَبذُلُه عَنْه، ويقال: فَدَيْتُهُ أَفْدِيهِ، كَأَنَّكَ تَحْمِيهِ بِنَفْسِكَ أَوْ بِشَيْءٍ يُعَوِّضُ عَنْهُ، والـمُفَادَاةُ: أن يُرَدَّ أَسْرُ العِدَى ويُسترجعَ مِنْهم مَن في أيديهم[6].

6) ﴿مُحَرَّمٌ﴾: على وزْنِ (مُفَعَّل) مِنْ (حَرَّمَ) الـمُضَعَّفِ العين، ويَدُلّ على الـمَنْعِ وَالتَّشْدِيد. ومنه الحَرَامُ: ضِدُّ الحَلَالِ[7]، وهو المراد في الآية، ومنه الحَرَمُ - حَرَمُ مكَّة والمدينة- سُمِّيَ بذلك لتَحريمِ اللّه تعالى فيه كثيرًا ممّا ليس بِمُحَرَّم في غيره من الـمَواضِعِ، ومِثْلُهُ الشَّهْرُ الحرام، والحِرمة بالكسرِ هيَ الـمَنْعُ مِنَ الشيءِ

(1) الرّاغب، المفردات: (أثم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أثم).
(3) ابن سيده، المحكم: (عدو).
(4) الزجّاج، معاني القرآن: 1/166.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، ابن منظور، لسان العرب: (أسر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فدى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (حرم).

لِدَنايَتِهِ، والحُرمة بالضَّمّ: المنعُ مِنَ الشيْءِ لِعُلُوِّه[1]، فيخْتَلفُ المَعْنى دُنُوًّا ورِفْعَةً باخْتِلاف الحَرَكَةِ كَسْرَةً وضَمَّةً.

7) ﴿جَزَآءُ﴾: أَصلُه من الفعل (جَزَيَ)، قُلِبَت الياء ألِفًا لتَحَرُّكِها وانفتاح ما قبلها، فصار (جَزَى)، وتَدورُ الكلمة على مَعْنى قِيَام الشَّيْءِ مَقَامَ غَيْرِهِ وَمُكَافَأَته إيَّاهُ، والجَزَاء: ما فيه الكِفايَةُ مِنَ المُقَابَلَة، واسْتُعمل الجزاءُ في القرآنِ في مُقابِلِ الخيرِ والشَّرِّ، كَما في قولِه تعالى: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: 88]، وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: 40]، ويُقال في الاستِعمالِ: جَزَيْتُهُ بكذا وجَازَيْتُهُ، ولم يَرِد في القرآن إلّا جَزَى، ولَم يستعملْ جَازَى، وذاك أَنَّ المُجازاة: هِيَ المُكافَأَةُ، وهي: مُقابَلَةُ نِعمَة بنِعْمَةٍ هيَ كُفْؤُها. ونِعْمَةُ اللّه تَتَعالى عن ذلِكَ، فلا كُفْءَ لِنِعَمِ اللّه، ولِهذا لا يُسْتَعْمل لَفْظ المكافأة في الدُّعاءِ معَ اللّه ﷻ. فلا يَصِحُّ أَنْ نقولَ: كافأكَ اللّه، بل نَقولُ: جَزاكَ اللّه خيرًا، ويُسْتَعمل لفظُ المُكافأةِ بينَ النَّاس[2].

8) ﴿خِزۡيٌ﴾: أصله من الفعل (خَزِيَ)، ويَدلّ على: الإبعادِ، وخَزِيَ الرجلُ خِزْيًا فَهُوَ خَزْيَانُ، إذا وَقعَ في بليّةٍ وشَرٍّ، فَذَلَّ بذلك وَهَان واسْتَحيَا مِنْ قُبْح فِعْلِهِ فتَبَاعَدَ وَنَأَى، ومنه قَوْلُهُمْ: أَخْزَاهُ اللَّهُ، أَيْ أَبْعَدَهُ وَمَقَتَهُ[3]، والخِزْيُ في الآيةِ بمعنى: الهَوانِ والذِّلَّةِ[4].

9) ﴿يُرَدُّونَ﴾: أصله من الفعل (ردّ)، وَيَدلُّ على: صَرْفِ الشَّيءِ ورَجْعِه، يُقال: رَدَدْتُ الشَّيْءَ أَرُدُّهُ رَدًّا، تقول: رَدَدْتُ عَلَيْهِ الوَدِيعَةَ؛ إذا أرجَعْتَها إليه، وَسُمِّيَ المُرْتَدُّ مُرتَدًّا؛ لِأَنَّهُ رَدَّ نَفْسَهُ إِلَى كُفْرِهِ[5]. و معنى: ﴿يُرَدُّونَ﴾ في الآية: يُرْجَعُونَ.

10) ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: أصله من الفعل: (غَفَلَ) يغفل غَفْلَةً وَغُفُولًا، وَيَدلُّ على: تَرْكِ الشَّيْءِ سَهْوًا من قلّة التّحفّظ والتّيقّظ، تقول: غَفَلْتُ عَنِ الشَّيْءِ؛ إِذَا تَرَكْتَهُ سَاهِيًا. وَأَغْفَلْتُهُ، إِذَا تَرَكْتَهُ عَلَى ذُكْرٍ مِنْكَ لَهُ، وهَمْزَةُ (أَغْفَلته) لِسَلْبِ السَّهْوِ؛ فيَقتضي

(1) تراث أبي الحسن الحرالي: 1/237.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن سيده، المحكم: (جزي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (خزي).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 61.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (ردد).

ضِدَّهُ وهُوَ الذُّكْرُ. والتَّغافُلُ، والتَّغَفُّلُ: تَعَمُّدُ الغَفْلَةِ، والغَفْلَةُ صِفَةُ نَقْصٍ للإِنْسانِ؛ لأنها تَدُلّ على ضَعْفِه، واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عنْ صِفاتِ النَّقْص، فلَه صِفاتُ الكَمال[1]، فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تخاطب الآيةُ اليَهودَ في زَمنِ نُزولِ القُرآنِ، مُبَيِّنَةً حالَهُم معَ الميثاقِ الّذي أَخَذوهُ على أَنْفُسِهم، فهُمْ على حالَةِ أَسلافِهم مِنْ نَقْضِ الميثاقِ؛ فيقتُلُ بعضُهم بعضًا، ويُخْرِجُ بَعضُهم بَعْضًا مِنْ ديارِهِمْ؛ حيث اتخذت كلُّ قبيلةٍ مِنَ اليهودِ حليفًا لها من مشركي العربِ يتظاهرون بهم على إِخوانِهم من غير قبيلتهم، إِثمًا وعُدوانًا وظُلمًا، وكانوا إذا دار بينهم قتال وانتهى السّجال عن أسرى، واتّفقوا على فدائهم، جاء اليهودُ يدفعون فديَةَ الأَسْرى من أَبناءِ جِنسِهم وإِنْ كانوا مِنْ أَعدائِهم، ثُمَّ يَعتَذِرونَ عَن هذا بأَنَّ الكتابَ أَمَرَهم بفداءِ أَسْراهُمْ، فإِذا كانَ مُحرَّمًا عليهم أَن يَتركوهم أسرى، فإِنَّه مِنَ المحرَّم عليهم قبلَ ذلك أَن يَتعاونوا معَ المشركينَ ويُخرجوهم من ديارِهم، فوبَّخَهُمُ اللّه تعالى على إِيمانِهم ببعضِ ما هو موجودٌ في التَّوراةِ من وجوبِ فداءِ أَسْراهُم وكُفْرِهم ببعضٍ آخَرَ ممَّا نهاهم عنه من قَتْلِ بَعْضِهم بعضًا، وإخراجِهم من دِيارِهم، فاستَحلُّوا دمَاءَ بعضِهم بَعضًا وأَخرَجوا بعضَهم من ديارهم، وهم معَ هذا قد كفروا بغيرِ هذا مِنَ الكتاب. فجزاؤُهُم على فِعْلِهِمُ القبيحِ هو الخِزيُ والذّلُّ والهَوَانُ في الحياةِ الدُّنيا، ويومَ القيامةِ مصيرُهم ومرجعُهم إِلى أَشَدِّ العذاب، ولا يتوهّمون أَنَّ اللّه غافلٌ عمَّا يعملون بل هو سبحانَه بالمرصاد لكلِّ كافرٍ وعاصٍ وإِنَّما يُؤَخِّرُهم ليوم العذاب[2].

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة حَرْفِ التَّراخي:

ابتدَأَتِ الآيةُ بحرْفِ التَّراخي الرُّتْبِيّ[3]، أي: أَخَذَ عليكمُ الميثاقَ، وأقرَرْتم بِهِ، وأنتم تَفْعَلونَ هذهِ الأَفْعالَ، تَقْتُلونَ أنفُسَكُم، وتُخرِجونَ فريقًا منكُم مِن دِيارِهم، تَتَعاونَونَ مع

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (غفل).

(2) المراغي، تفسير المراغي: 1/162، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/279.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/586.

بَيانُ حالِ اليَهودِ وبُعْدِهِمْ عَنِ الميثَاقِ المَأْخُوذِ عَلَيْهِم

غيرِكم إثمًا وعدوانًا، وفي (ثُمَّ) معنى الاستِبْعاد[1]، نحوُ قولِك لصاحِبِك: وجَدْتَ مثلَ تلك الفُرصَةِ ثمّ لم تَنْتَهِزْها! يَعْني: يَبْعُدُ من العاقِلِ ارتكابُ هذا المَحْذورِ مِنَ القَتْلِ والتَّشريدِ بعدَ حُصولِ ما يُنافيهِ مِنْ أخذِ الميثاقِ على ألّا يَفعلوا ذلك[2].

بَلاغَةُ أُسْلُوبِ ﴿أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

إيجازُ العِبارَةِ بِتَنْبيهِ المُخَاطَبِ والتَّعجُّبِ مِنْ حالِهِ

اقْتَرَنَ الضَّميرُ باسْمِ الإشارَةِ (هؤلاءِ)؛ لبيانِ أنَّ المخاطَبين هُمْ هؤُلاءِ الذينَ نَقَضُوا الميثاقَ، لا يَخْتَلِفون عَنْهُمْ بحالٍ، كَما يُقال: أنتَ ذلك المُجْرِم، "فعَدَّهُم باعتِبارِ مَا أُسْنِد إليهم حُضُورًا، وباعْتِبارِ مَا سَيُحْكَى عَنْهُم غَيْبًا"[3]، وهذا من بليغِ الخِطابِ الذي يُؤتى به لبيانِ الحالةِ التي عليها المخاطَبُ بأوجزِ عبارةٍ، وقد أفادَ هذا الأُسْلوبُ تنبيهَ المخاطَبِ على حالِه التي يستقبِحُها من غيرِه، بتَنزيلِه مَنْزِلةَ غيرِه؛ لذلك جاءَ فعلُ القَتْلِ حالًا بعدَ اسمِ الإشارَةِ لبيانِ حالِهم التي غَفَلُوا عنْها[4]، والتَّعجُّبِ من حالِ المخاطَبِ، فهذا "اسْتِعْمَالٌ عَرَبيٌّ يَخْتَصُّ غَالِبًا بِمَقَامِ التَّعَجُّبِ مِنْ حَالِ الْمُخَاطَبِ"[5]، وورَدَ هذا الأُسْلُوبُ في قولِه تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: 66]. وقولِه تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ [النساء: 109]. وقوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: 38].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/160، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/466، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/124.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 2/541، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/295.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/92.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/621.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/586.

بديعُ اسْتعمَالِ صِيغَةِ المُضَارِع:

تَصْوِيرُ الحَالِ القَبِيحَةِ، والاِسْتِمْرَارِ عَلَيْها

مِن بَديعِ اسْتِعْمالِ الصِّيَغِ مَجيءُ الأفعالِ جَميعِها في هَذه الآيَةِ بِصيغَةِ المُضَارِعِ: ﴿تَقۡتُلُونَ﴾، ﴿تُخۡرِجُونَ﴾، ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾، ﴿يَأۡتُوكُمۡ﴾، ﴿تُفَٰدُوهُمۡ﴾، ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ﴾، ﴿تَكۡفُرُونَ﴾، ﴿يَفۡعَلُ﴾، ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، وذلك لِتَصويرِ حالِهِمُ القَبيحَةِ، وبَيانِ اسْتِمرارِهِمْ عَليها، فهُم لا يَنْفكُّونَ عن اقترافِها.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ القُرْآنِيِّ بقَتْلِ النَّفْسِ:

تَشْنيعُ الْحالِ وتَقْبيحُ الفاعِلِ بِبَيانِ القَتْلِ الجَماعِيِّ

عبَّرتِ الآيةُ عن قتْلِ الآخرينَ بقتلِ النَّفْسِ، وسِرُّ ذلك يكمُنُ في تَنزيلِ المُشارِكِ في الدِّين منزلةَ الذَّات؛ فإنَّ من يقتُلُ غَيْرَه من أبناءِ دينِه فهُوَ يقتُلُ نفسَه؛ لإيجابِ إيقاعِ القِصاصِ في حَقِّهِ، ولأنَّ أبناءَ الدِّين الواحِدِ يَقَعُ بعضُهُم من بعضٍ موقعَ الجَسَدِ الواحد؛ ففيه تشنيعُ هَذه الحالِ، وتَقْبيحُ فاعِلِها، وبيانُ ما يترتَّبُ عليها من القَتْلِ الجَماعِيّ.

سِرُّ الاِنْتِقالِ في التَّعْبيرِ مِنَ السَّفْكِ إلى القَتْلِ:

الاِنْتِقالُ مِنْ عُمومِ سَفْكِ الدِّماءِ إلى خُصوصِ القَتْلِ تَنْبيهٌ عَلى أَقْبَحِ صُوَرِ السَّفكِ

اختلف التَّعبيرُ بين الآيتين في السَّفكِ والقتلِ؛ فجاءَ في الأُولى: ﴿لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾، وسِرُّ ذلك الانتقالُ من العُموم إلى الخُصوص؛ فإنَّ سَفْكَ الدِّماء يعُمُّ القتلَ والجَرْحَ وقطعَ الأَعْضاء، أمَّا القتلُ فيَخْتَصُّ بزَهْقِ الرُّوح، وفائدتُه: التَّنبيهُ على أشدِّ ما في سَفْكِ الدِّماء مِنَ المَحْظورِ.

بَراعَةُ الاخْتِلافِ في التَّعْبيرِ بَيْنَ الإِجْمالِ والتَّفْصيلِ:

تَنْزيلُ الجَماعَةِ مَنْزِلَةَ النَّفْس الواحِدَة، وإِشارَةُ القُرْآنِ إلى غَيْبِ المُسْتَقْبَلِ

اختلفَ التَّعبيرُ القرآنيُّ في الإخراجِ؛ ففي الآيَةِ الأولى جاءَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾، بينما في الثَّانية قال: ﴿وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ﴾، فاختلَفَ التَّعبيرُ في وقوعِ الفعلِ في الأولى على الأَنْفُسِ، بِخِلافِ الثَّانيةِ فعلى الآخَرينَ! وسِرُّ ذلكَ يَكْمُنُ في كَوْنِ الأولى جاءَتْ مُجمَلةً، بخلافِ الثَّانيَةِ فوقَعَ فيها التَّفصيلُ: ﴿تَظَٰهَرُونَ

﴿عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ﴾، وحكم التَّفصيلِ يَختلفُ عن حُكْمِ الإجمالِ، فعُلِم من التَّعبيرَيْن أنَّ الإخراجَ هو إخْراجُ الإنسانِ لنَفْسِه، ونَفْسُه هذه هِيَ نَفْسُ الجَماعَةِ الواحِدَة، فهُوَ تعبيرٌ عنِ التَّمزُّقِ والتَّشرذم بين أبْناءِ الدِّين الواحِدِ، فمَنْ أخْرَجَ غيرَه من أبناءِ دِينِه فقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ للتَّمزُّقِ، وهو ما حصَلَ وتَحَقَّقَ؛ فهي إشارةٌ قرآنيَّةٌ لغيْبِ الـمُسْتَقْبلِ، وأنَّ ما أوقَعوهُ فيما بَيْنَهم، سَيقَعُ عليْهِم مِن غَيْرِهِم.

دلالة الصِّيغَةِ الصَّرْفِيَّة:

التَّوْبيخُ وتَقْبيحُ أَفْعالِ الاِعْتِداءِ عَلى الأُخُوَّةِ الدِّينيَّةِ، ممّا يَسْتَدْعِي النَّدامَةَ وَالحَسْرَةَ

دَلَّتْ صيغَةُ: ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ على الـمُشارَكَة[1]، وفي هذه الصِّيغَة مَعْنى الكُلْفةِ في طلبِ اليَهودِ الـمُظاهَرَةَ والـمُسانَدَةَ[2] على إخْوانِهِمْ من العَرَبِ الـمُشرِكين؛ فلَمْ يكنْ تَظاهُرُهُمْ على إخوانِهم سهلًا ميْسورًا، بل فيه كُلْفةٌ وجَهْدٌ، ومع هذا فقد أَخْرَجوهم مِن ديارِهم وهم آثِمون مُعْتَدون، وفيه من التَّوبيخ ما يستدعي أشدَّ النَّدامة والحَسْرَةِ، وهو تلويحٌ بالتَّأديب؛ فإنَّ مَنْ يُناصِرُ أعداءَه ضدَّ إخوانه فمصيرُه ما تمنَّاه لإخوانه من أبناءِ دِينِه.

نُكْتَةُ اسْتِعْمالِ حَرْفِ الاِسْتِعْلاءِ:

الكَشْفُ عَن بَواطِنِ القُلوبِ الحاقِدَةِ، وحَقائِقِ الأَفْعالِ

تعدَّى فعلُ المظاهَرَةِ بحرفِ الاستِعْلاءِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، زيادةً في تَصْويرِ كِبْرِ الـمُظاهِرين وطُغيانِهم؛ فهم يَتَظاهرُون على إخوانِهم طلبًا للتَّمَكُّنِ مِنْهم، والتَّحكُّمِ فيهم، وإبقائِهم أقلَّ حالًا، وأهشَّ مَنْزِلةً، وفي ذلك بَيانٌ للُؤْمِهم، وسُوءِ طَوِيَّتِهم، وشَراسَةِ أخلاقِهم، وضَعفِ اعتِقادِهم؛ فالـمُظاهَرَةُ لم تكنْ لأخذِ حَقٍّ مَسْلُوبٍ، ولا لإيقاعِ قِصاصٍ مَطْلوبٍ.

(1) الرضي الأستراباذي، شرح الشافية: 1/100.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/11.

دلالة المُقابَلَةِ بَيْنَ الأَفْعالِ:

الكَشْفُ عَنْ عِلَّةِ الفِداءِ وأنَّهُ أَداةٌ لا غايَةٌ

قابَلَتِ الآيةُ بين فِعْلَيْنِ مِنْ أفْعالِ اليَهودِ، وهُما الإخْراجُ والإتْيانُ؛ في قولِه تعالى: ﴿تُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُمۡ﴾، وفي قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ﴾، فالّذين أَخْرَجُوا هم الذين فادَوْا، "وحَسُنَ لفظ الإتيانِ من حيثُ هو في مقابلةِ الإخراج؛ فيَظْهَرُ التَّضادُّ المُقَبِّحُ لفِعْلِهم في الإخراج"[1]، أي: كَيفَ يَكونُ مِنكمُ الفداءُ لِمَن أخرجتُموهُمْ مِن ديارِهِمْ! وهذا دليلٌ واضحٌ بيِّنٌ في كَوْنِ الفداءِ أداةً للتَّحكُّم في حالِ من فُدِيَ، لا أنَّه كان حبًّا ورغبةً في الإعانةِ والإنقاذِ.

تَوْجيهُ القِراءاتِ:

التَّناقُضُ الظَّاهِرُ يَكْشِفُ عَنِ الطُّغْيانِ الباطِنِ

قرأَ نافعٌ وعاصِمٌ والكِسَائِيُّ: ﴿تُفَٰدُوهُمۡ﴾، وهُو جَوابُ الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ﴾، وتُفادُونَ على وزن تُفاعِلُون، مِنْ فَاعَلَ الذي يدلُّ على المُشارَكة بين اثنين، على معنى: "يَفْدي هَؤُلَاءِ أُسارَاهم من هَؤُلَاءِ، وَهَؤُلَاء أُسارَاهم من هَؤُلَاءِ"[2]، أو الآسرُ يُعطي الإطلاقَ، فتَحْصُل المفاداةُ بين الطَّرفين. وذهبَ ابنُ عاشور إلى أنَّ صيغةَ (فاعل) في قولِه: ﴿تُفَٰدُوهُمۡ﴾ مُسْتَعملةٌ للمبالغةِ أيْ تَحْرِصُونَ على فدائِهم[3].

وقرأ الباقون: ﴿تَفۡدُوهُمۡ﴾، وهو فِعلٌ لا يدُلُّ على المُشَارَكة، والمعنى يَفْدِي أَحدُهم الأَسيرَ بإعطاءِ المالِ أو غيره[4]، والقراءتان دلَّتا على حِرْصِ اليهودِ على فِداءِ أَسْراهُمْ، سَواءٌ أكان ذلك بالمشاركةِ مع الطَّرفِ الآخرِ بالمُبادَلة، أو بدفْعِ الفِديةِ دُونَ مشاركةٍ، وحرصُهم هذا مع فعْلِ الإخراجِ يَدلُّ على تناقُضِهم الظَّاهرِ، الكاشفِ عن طغيانِهم الباطنِ.

---

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 1/175.

(2) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 105.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/590.

(4) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 2/252.

فائِدَةُ ذِكْرِ ضَميرِ الشَّأْن:

التَّنْبيهُ عَلى التَّناقُضِ الإيمانيِّ، والاخْتِلافِ العَقَدِيّ

جاءَ ضميرُ الشَّأنِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على تناقُضِهم في فِعْلَين مُتَقابلَين، فِعل الإخراج، وفِعل الفداءِ، ويُؤَكِّدُه قولُه تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ﴾؛ فلا مَصيرَ إلى هذا الفِعْلِ إلَّا من الإيمانِ ببعضِ الكتابِ والكفرِ ببعضِه الآخَرِ.

تَوْجيهُ المَخْصوصِ بالذِّكْر:

إظْهارُ أصْعَبِ الأفْعالِ المَذْكورَةِ في سِياقٍ واحِدٍ

خَصَّتِ الآية بِالذِّكرِ تَحريمَ الإخراجِ، وإنْ كانَتْ أفعالُ القتلِ والمظاهَرَةِ كلُّها حَرامًا؛ لِما فيها مِنْ مَعَرَّة الجَلاءِ والنَّفْيِ الذي لا ينقطعُ شرُّهُ إلا بالـمَوْتِ والقَتْلِ، وإنْ كان أعظمَ منه، إلّا أنَّ فيه قطعًا للشرِّ؛ فالإخراجُ من الدِّيارِ أصعبُ الأفعالِ بهذا الاعتبارِ[1]، ولدفعِ توهُّمِ أنَّ المحرَّم هو المفاداةُ.

دلالة هَمْزَةِ الاِسْتِفْهامِ:

الإنْكارُ والتَّوْبيخُ بِسَبَبِ العُدُولِ عَنِ الحَقِّ، والتَّعَجُّبُ مِنْ جَمْعِهِمْ بَيْنَ مُتَناقِضَيْن

أفادتْ هَمزةُ الاستفهامِ في قولِه تعالَى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، الإنْكارَ والتَّوبيخَ والتَّعجُّبَ، والإنكارُ داخِلٌ على مَجْموعِ الجُمْلَتَيْن؛ فوقعَ الإنكارُ عليهم بسبَبِ إيمانِهم ببعضِ التَّوراةِ، وكفْرِهِمْ ببَعضِها الآخَرِ الذي لا يُوافِقُ هواهُمْ، ومِنْ هُنا يَتَبَيَّنُ مَدْحُ المؤمنين: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران: 119]، فالاسْتِنكارُ هو بِسَبَبِ عُدولِ اليَهودِ عنِ الحقِّ، واتِّباعِهِمُ الباطِلَ، "وَإِنَّمَا وَقع ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ فِي حَيِّزِ الإِنْكَارِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ عَجِيبٌ، وَهُوَ مُؤْذِنٌ بِأَنَّهُمْ كَادُوا أَنْ يَجْحَدُوا تَحْرِيمَ إِخْرَاجِهِمْ، أَوْ لَعَلَّهُمْ جَحَدُوا ذَلِكَ"[2].

(1) السمين، الدر المصون: 1/488.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/591.

بَلاغَةُ الإيجازِ:

عَطْفُ المَذْكورِ عَلى مُقَدَّرٍ مَفْهومٍ مِن السِّياقِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، عطفتْ فعلَ ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾ على مقدَّرٍ محذوفٍ وهو: "أتفعَلون ما ذُكرَ فتؤمنون"[1]، وفيه إيجازٌ بَديعٌ؛ إذ جَمَعَ جَميعَ الأفعالِ القَبيحَةِ بَين همزةِ الإنكارِ والفاءِ المفيدةِ للتَّعقيب، بتقديرٍ مفهوم من السِّيَاقِ، إيذانًا بأنَّ هذا الإيمان مُسْتَنكَرٌ أَمْرُهُ وهُو على هذِه الحالِ، ولَك أن تَجْعل الفاءَ مَعْطوفةً على ما قَبْلَ هَمْزَةِ الاستِفهام، أي عَلى فِعْل: ﴿تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾، وما بَعْدَه مِنَ المَعْطوفاتِ[2]، والنَّهجُ الأَوَّلُ هُوَ الأقْرَبُ لرُوحِ الفَصاحَةِ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ:

تَشويهُ المُشَبَّهِ؛ بِتَشْبيهِهِ بِأَخْطَرِ الأَوْصافِ، مُبالَغَةً في الرَّدْعِ

شُبِّه امتثالُ اليهودِ بأمْرِ فداءِ الأَسْرى بالإيمانِ، وإقْدامُهُم على القَتْلِ والإخْراجِ بالكُفرِ، فحُذِفَ المُشَبَّهُ وصُرِّح بالمُشَبَّه به على طَريقَةِ الاسْتِعارَةِ التَّصريحِيَّةِ؛ "لِتَشْويهِ الْمُشَبَّه وَلِلإِنْذَارِ بِأَنَّ تَعَمُّدَ الْمُخَالَفَةِ لِلْكِتَابِ قَدْ تُفْضِي بِصَاحِبِهَا إِلَى الْكُفْرِ بِهِ"[3].

بَلاغَةُ أسْلوبِ القَصْرِ:

مَجيءُ أُسْلوبِ القَصْرِ أبْلَغُ لِمُقْتَضى الحالِ ومُناسَبَةِ المَقامِ

في قولِه تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِ﴾، لَو لَمْ يَأْتِ الكَلامُ على أسْلوبِ القَصْرِ لفاتَ المعنى المقصودُ، والقَصْرُ هنا إضافيٌّ، أيْ لا يَتَجاوَزُ جَزاءُ مَنْ يفعلُ ذلك منكم الخزيَ في الحياةِ الدُّنيا إلى العِزِّ الذي قَصدوهُ مِنْ أفْعالِهم، فلَيْسَ لَهم جَزاءٌ في الحياةِ الدُّنيا إلا الخزيُ والهوانُ، كما لا يتجاوزُ جزاؤُهُم يومَ القيامةِ أشَدَّ العذابِ إلى العذابِ اليسيرِ، بما كانوا يَفْترونَه مِنْ أنَّهم لَنْ تمسَّهم النَّارُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/313.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/591.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/591.

إلَّا أَيَّامًا معدودةً، وقال أبو العبَّاسِ البسيلي: "أتى بالحَصْرِ، وإنْ كان عدمُه في مثلِ هذا التركيبِ أبلغَ دَفعًا لِمَا يُتوهَّم مِنْ أنَّ إيمانَهم بالبعضِ يوجِبُ تخفيفَ العذابِ عنهم"[1]، فكان الإتيان بالقَصْر أبلغ لِمُقتَضى الحال ومُناسَبَةِ المقام.

سِرُّ التَّعْبيرِ بإشارَةِ البَعيدِ المُفْرَدِ:

بَيانُ بُعْدِهِمْ عَنِ الحَقِّ، والدّلالة عَلى أنَّ أفْعالَهُمْ لَها مَنْزِلَةُ الفِعْلِ الواحِدِ

أشارتِ الآيةُ باسم الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى مجموعِ المتقدِّم؛ من الإيمانِ ببعضِ الكتابِ، والكفرِ ببعضه الآخر[2]، وأُوثِرَ البَعيدُ دون القريبِ فلم يُقل: (هذا)؛ لِبُعْدِ إيمانِهم عن الحقِّ، وسَفالَةِ أمرِهِمْ فيُسْتَحقَرُ قُرْبُهم، وجاء مُفْرَدًا؛ للدّلالة على أنَّهما بمَجموعِهما شَيْءٌ واحدٌ؛ فالإنكارُ على مجموعِ الأمرين لأنّ من يؤمن ببَعْض الكِتاب لا يُسَمّى مُؤْمِنًا حتى يُؤمِنَ بالكِتاب كُلِّه.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ القُرْآنيّ:

مُعاقَبَةُ المُجْرِمِ بِضِدِّ مَقصَدِه مِنْ أوْفَقِ دَرَجاتِ العَدْلِ

إيقاعُ العُقوبَةِ على المُجْرم بضدِّ ما أرادَه هِيَ مِنْ أرْدَعِ العُقوباتِ، وأزْجرِ التَّأديبات، فقولُه تعالى: ﴿خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ هو عَلى ضِدِّ ما أرادوهُ؛ فهُم أرادوا العِزَّةَ على أبناءِ مِلَّتِهم، فعاقَبَهمُ اللّه تعالى بالخِزي في الحياةِ الدُّنْيا[3].

دلالة التَّنْوينِ في كَلِمَةِ ﴿خِزۡيٞ﴾:

التَّنوينُ في كلمةِ: ﴿خِزۡيٞ﴾ أفادَ تفخيمَ الخِزْيِ الذي يصيبهم في الحياةِ الدُّنيا، وتهويلَه عليهم[4]، فهو خِزيٌ لا يُقوى عليه، ومِنْ شَأنِه إلحاقُ الأذى العَظيم بمَن أصابَه.

بَلاغَةُ تقديمِ الظَّرفِ:

تَهْويلُ المَقامِ، وتَعْظيمُ المَوْقِفِ، وتَفْظيعُ الحالِ

مِنْ حقِّ الظَّرف أنْ يتأخَّر عَن عامِلِه، ولكنْ تَقدَّمَ الظَّرفُ ﴿يَوۡمَ

(1) البسيلي، التقييد الكبير: 1/268.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/314.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 2/12.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 1/346.

﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على الفعل ومتعلَّقِه ﴿يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لأنَّ المَقام لتَهْويلِ الخَطْبِ وتفْظيعِ الحالِ مِنْ أوّلِ الأمْر[1]، ويُؤكّد هذا مُقابلَةُ وصْفِ الحياةِ الدُّنيا بيومِ القيامةِ، لا بالحياةِ الآخِرَة؛ للإشارة إلى قيامِ الأمور العَظيمَةِ، ومنها رَدُّ الكافِرينَ إلى أشدِّ العَذابِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بمفردةِ الرَّدّ:

بـيــانُ أشــدِّ الــعــذابِ في الدُّنـيـا، بأشدِّ الــعَــذابِ في الآخِرَة

آثرَ النَّظْمُ الكريمُ مفردَةَ الرَّدِّ؛ لبَيان أنَّ أشدَّ العذابِ يومَ القِيامَةِ هُوَ مَوْضِعُهم ومَوْطِنُهم، وهو خليقٌ بهم بسببِ أفعالِهِمُ القبيحة، وكُفْرِهِم بالكِتابِ؛ فليس شَأنُهم إلَّا الرّجوع إلى مَوْطِنِهم ومُنْتَهى أمرِهِم، وهو مَوْضِعُ أشدّ العذاب، وفيه إشارَةٌ تَهْويليَّةٌ إلى أنَّهم سَيُرَدُّون إلى أشَدِّ العَذابِ الذي لاقَوْه في الدُّنيا؛ فإنَّ أشدَّ العذابِ في الآخرةِ لهم، كما أنَّ أشدَّ العذابِ في الدُّنيا هُوَ لَهم كذلكَ، "كأنَّهم كانوا في الدُّنيا في أشَدِّ العذابِ أيضًا؛ فرُدُّوا إليه"[2]. والجُمْلَةُ فيها تَعْريضٌ بعُمومِ العُقوبةِ لمن يكونُ على هذا الكفرِ، وأنَّها لا تختصُّ بالمخاطَبين من قَبْلُ[3]؛ فهي تقعُ على كلِّ من شابَهَهُم بأفعالِه وتَحايُلاتِه، طَلَبًا للعِزَّةِ على حِسابِ إخْوانِهِ، والتَّنَعُّم على حِسابِ دِينِهِ.

بَلاغَةُ الإفْرادِ والجَمْعِ:

تَـكْـرارُ وُقـوعِ الأفْـعــالِ في الدُّنيا، ووُقوعُ الرَّدِّ مَرَّةً واحِدَةً في الآخِرَة

ورَدَ الفِعْلُ (يَفعلُ) مفرَدًا غَيرَ مُتّصلٍ بِضَميرِ الجَماعَةِ بالنَّظَرِ إلى لَفْظِ الاسْمِ المَوصولِ (مَنْ)، ووَرَدَ الفِعْلُ ﴿يُرَدُّونَ﴾ مع ضَميرِ الجَمعِ الواوِ العائدِ إلى مَعْنى (مَنْ)، وأُوثِرَت صيغَةُ الجَمعِ في صيغة ﴿يُرَدُّونَ﴾ نَظَرًا إلى أنَّ الردَّ سَيكونُ للجميعِ مرَّةً واحِدةً، بخِلاف الفِعْلِ في الدُّنيا؛ فيَكونُ في أزمانٍ متَبَاينةٍ، فتَحَقَّقَ التَّناسُبُ[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/126.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/472.

(3) مجمع البحوث في الأزهر، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 1/132.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/126.

تَوْجيهُ القِراءاتِ:

تَكامُلُ القِراءَتَيْنِ في وَعْظِ المُخاطَبين، تَنْويعًا بِحَسَبِ تَنَوُّعِ النُّفوسِ

قَرَأ نافِعٌ وابنُ كَثِير، وفي رِواية أبي بكرٍ عن عاصم، بالياءِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾، وقَرَأ الباقون بالتّاءِ، على الخِطابِ[1].

فعلى قراءةِ الياءِ، يكون الكلامُ مَرْدودًا إلى قوله تَعالى: ﴿يُرَدُّونَ﴾، فالكلامُ عَلى أصْلِه، وفائِدَتُه: بيانُ بُعدِهم عن مواضعِ الشَّرفِ، وعلى قراءة التَّاءِ، يكونُ هناك الْتفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخطابِ، "ولمَّا كانت المواجهةُ بالتهديد أدلَّ على الغضب التفت إليهم"[2]، وفائدتُه توبيخُ اليهود بمُباغَتَتِهم في الخِطاب، فيَقَعُ شديدًا عليهم، وفيه تَنبيهٌ لمن كان غافلًا فلم يَرْعَو عن أعمالِه، والقراءتان ملتَقِيَتان في بيانِ المَعنى؛ إحداهُما حَقَّقتْ مَعْنى المُباغَتةِ بقصدِ التَّنبيه، والأُخرى حَقَّقَتْ معنى الإبعادِ عن شرفِ الخطابِ، فمَن لم تَعِظْه الأولى، اتَّعظَ بالأخرى.

بَلاغَةُ حَذْفِ المُتَعَلَّق:

إفادَةُ العُمومِ؛ بِغَرَضِ دَفْعِ تَوَهّمِ أنَّ الحِسابَ مُنْحَصِرٌ في الأَعْمالِ المَذْكورَةِ

حُذِف المفعول به العائِدُ إلى الاسم المَوصولِ (ما) في قولِه تعالى: ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لإفادة العُموم، وعلى افْتِراض ذِكْرِه أوْهَمَ ذلك تَخَصُّصَ الفِعْلِ بأعْمالِهم؛ ونكتةُ ذلك: بَيانُ أنَّ اللهَ مُراقِبُهم في جميعِ أعمالِهم، صغائِرِها وكبائِرِها؛ فيُدفع تَوَهُّمُ أنَّ الحسابَ على الكِبائرِ فحَسْبُ.

سِرُّ نَفْيِ الغَفْلَةِ لا إثْباتِ العِلْمِ:

تَوْبيخُ اليَهودِ عَلى شَديدِ جَهْلِهِمْ بِصِفاتِ اللهِ، وبِشارَةٌ لِمَنْ كانَ عَلى خِلافِهِمْ

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ قولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ولم يَقُل: (واللّه عَليم بما تَعْمَلون)، أوْ غَيْرَه ممّا يَجْري في هذا المعنى، وجوابُ ذلِكَ: أنَّ القومَ باسْتِمْرارِهِم في غَيِّهِم وفَسادِهِم، نُزِّلُوا منزلةَ الشّاكّ في عِلم اللّه بِهِم وبأفعالِهِم؛ فكأنَّهُم

(1) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 161-162.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/13.

توهَّموا أنَّ اللّه غافِلٌ عَنْهُم، كما أنَّ النَّفْي يَقْتضي أنَّ هناك من كان تَوَهّمَ إثباتَ الغفلةِ له سبحانه؛ فكان تماديهم في أفعالِهِمُ الفظيعَةِ يُوحي بتوهُّمِهم - والعياذ باللّه - أنَّ اللّه غافلٌ عمَّا يعملون، فاقتضى السِّيَاقُ نَفْيَ الغفلة عن اللّه تعالى، توبيخًا لهم على غفلتهم عن حَقيقةِ علم اللّه تعالى؛ فهُوَ "تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَزَجْرٌ عَظِيمٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَبِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى الطَّاعَةِ؛ لِأَنَّ الْغَفْلَةَ إِذَا كَانَتْ مُمْتَنِعَةً عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ مَعَ أَنَّهُ أَقْدَرُ الْقَادِرِينَ، وَصَلَتِ الْحُقُوقُ لَا مَحَالَةَ إِلَى مُسْتَحِقِّيهَا"[1].

(1) الفخر الرازي، التّفسير الكبير: 3/594.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾ [البقرة: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا بيّن اللّهُ أوصافَ بَني إسْرائيلَ وأَفعالَهم القبيحةَ في تَعاملِ بَعضِهم مع بعضٍ، ناسبَ ذلك أَنْ ينتقلَ من بيانِ الأفعالِ التي هيَ نتائجُ الأَسْبابِ، إلى التَّنبيهِ بالأَسْبابِ نفسِها، وهيَ اشْتِراءُ الحياةِ الدُّنيا، وتَقْديمُها على الآخِرَةِ؛ ليزولَ العَجَبُ، ويتَحقَّقَ الأمرُ على وجهِهِ الحَقيقيّ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾: أصلهُ (شَرَوَ)، قُلِبَت الواوُ ألفًا لتَحرُّكِها وانفتاحِ ما قَبْلَها، ويَدُلُّ الشِّراءُ عَلَى تَعَارُضٍ مِنَ الاثْنَيْنِ في أَمْرَيْنِ؛ أَخْذًا وإِعْطَاءً مُمَاثَلَةً، وشَرَيْتُ الشَّيْءَ وَاشْتَرَيْتُهُ: إِذَا أَخَذْتَهُ مِنْ صَاحِبِهِ بِثَمَنِهِ. والشِّرَاءُ والبيع يَتَلازَمان؛ فَالمُشْتَري دافعُ الثَّمن، وآخذُ المُثْمَن، والبائِعُ دافِعُ المُثْمَن، وآخِذُ الثَّمَن، ولَفْظُ البَيْعِ والشِّراءِ يُسْتَعمل كلُّ واحدٍ منهما في مَوضِعِ الآخَرِ. وشَرَيْتُ: بمعنى بِعْتُ -أكثَرُ-، واشْتَرَيْتُ بمعنى: ابتَعْتُ -أكثَرُ-؛ فيكونُ شَرَيْتُ مِنَ الأضدادِ، والسِّياقُ يُحَدِّدُ أَحَدَ المَعْنَيَيْنِ[1].

2) ﴿يُخَفَّفُ﴾: أصل الكَلِمَة (خَفَفَ)، ويَدورُ المَعْنَى على: قِلَّةِ كثافةِ الشَّيءِ في نفْسِهِ، أو قِلَّةِ كثافَتِهِ وتَركُّزِهِ على حامِلِهِ، والخفّةُ تُخَالِفُ الثِّقَلَ وَالرَّزَانَةَ، وتخفيفُ العذابِ يقابِلُ ثِقَلَهُ[2].

3) ﴿يُنصَرُونَ﴾: أصل الكَلِمَة (نصر) ويَدورُ المَعْنَى عَلَى: إِتْيَانِ خَيْرٍ وَإِيتَائِهِ. يقال: نَصَرَ اللَّهُ المُسْلِمينَ؛ بمعنى: آتَاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ. والنصر: العَوْنُ؛ قال تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾ [الصف: 13]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر: 1]، وَالانْتِصارُ والاسْتِنْصَارُ: طَلَبُ النَّصرِ أي العَوْنِ، والتَّناصُر: التَّعاون عَلَى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (شرى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خفف).

النَّصْر. وتَناصَرُوا: نَصَر بعضُهم بَعْضًا، والنَّصِير فَعِيلٌ بِمَعْنَى فاعِلٍ أو مَفْعُولٍ، لأَن كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ المتَناصِرَيْن ناصِرٌ ومَنْصُورٌ[1].

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

أخبَرَ اللهُ عنِ السَّبَبِ الذي دَفَعَ أولئِكَ اليَهودَ إلى أنْ يَنْقُضوا الميثاقَ ويَفْعَلوا الأَفْعالَ القَبيحَةَ، وهو اشْتِراءُ الحياةِ الدُّنيا مِن مالٍ وجاهٍ ورَغْبَةٍ في المَغانمِ الزَّائِلَةِ في مقابلِ الآخرَةِ التي فيها نَعيمُ الجنَّة ودَوامُها. والذين يؤثرون الحياة الدُّنيا على الآخِرَةِ لا يُخَفَّفُ عَنْهُم العَذابُ يَوْمَ القيامَةِ، فلا يَقِلُّ ولا يَنقطِعُ، وَلَيْسَ لَهُمْ نَاصِرٌ يُنْقِذُهُمْ بقُوّتِهِ أو بِشَفاعته مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ العَذَابِ الدَّائِم[2].

وفي الآية حثٌّ على تَجَنُّبِ المعاصي وتَرْكِ المَنْهيّاتِ، وفيها "تَنْبيهٌ على أنَّ الجَمْعَ بَيْنَ تَحْصيلِ لَذَّاتِ الدُّنيا إذا كانت على وَفْقِ الهَوى لا الشَّرعِ، وبَيْنَ لَذَّات الآخِرَةِ مُمْتَنِعٌ يَسْتَتبِعُ وجودُ إحداهما عَدمَ الأُخْرى"[3].

بَراعَةُ الاستِهْلالِ بِاسْمِ الإشارَةِ:

الإيجازُ وتَمْييزُ الـمُشارِ إليهِ أَكْمَلَ تَمْييز

دلّ اسمُ الإشارةِ على جَميعِ أوصافِ اليَهودِ المَذكورَةِ في الآياتِ السَّابِقَةِ؛ فبَدَلًا من إعادَةِ أوصافِهِمْ، أَوْجَزَ النَّظْمُ ذلكَ باسْمِ الإشارَةِ، كما أنَّهُ مَيَّزَ الذّاتَ مَعَ الأوصافِ أكمَلَ تَمْييزٍ؛ لِأَنَّ الأَصْلَ في استِعمالِ اسْمِ الإشارَةِ أنّه يُمَيِّزُ الذّاتَ أَكملَ تَمْييزٍ، فاسْتُعْمِل لِيُشارَ بِهِ إِلَى الَّذِينَ جَمَعُوا الْأَوْصَافَ السَّابِقَةَ الذَّميمَةَ[4].

بَلاغَةُ الفَصْلِ:

تَعْيينُ العِلَّةِ لِلأَعْمالِ، وتَفْسيرُ ما تَقَدَّمَ وبَيانُهُ

فُصِلَتِ الجُمْلَةُ عمَّا قَبْلَها؛ إمَّا لِكَمالِ الاتِّصالِ، وإمَّا لِشِبْهِ كَمالِ الاتِّصالِ، فإذا حَمَلْناها على كَمالِ الاتِّصالِ تكونُ بيانًا وتَفْسيرًا للآيَةِ السَّابِقَةِ، أي فَعَلَ اليهودُ ما فَعَلوا اشتِراءً للحَياةِ الدُّنيا، وإذا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (نصر).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/212.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/328.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/473.

حَمَلْناها على شِبْهِ كَمال الاتِّصالِ، فهي على تَقْديرِ سؤالٍ صادرٍ عن سائِلٍ: لماذا فعلوا هذه الأفعال القبيحة؟ وما السَّبَبُ الذي ألجَأَهُم لَها؟ وما مَصيرُهُم يومَ القِيامَةِ؟ فجاء قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، جوابًا عن السُّؤالِ؛ بتَعيينِ سَبَبِ الأعْمالِ الّتي قاموا بها، وهو حُبُّهم للدُّنْيا، ورَغْبَتُهم فيها وإيثارُها على الآخِرَةِ(1).

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التَّصْريحِيّةِ التَّبَعِيّةِ:

التَّصْريحُ بِلَفْظِ المُشَبَّهِ بِه؛ لِبَيانِ الرَّغْبَةِ لَدى المُسْتَبْدِلِ الدُّنْيا بالآخِرَةِ

اسْتُعيرَ الاشْتراءُ للاخْتيار والإيثارِ، بجامِعِ الفائِدَةِ للشِّراءِ وللاخْتيارِ، ثم اشْتُقَّ من الاشتراءِ الفِعلُ ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾ بِمَعنى آثَرُوا واختارُوا؛ لتَكونَ الاسْتِعارةُ تَبَعِيّةً، والقَرينَةُ هيَ (الحياةُ الدّنيا والآخِرَة)، لأنَّهما ليستا محلَّ الشِّراء، إذْ لم يقعْ شراءٌ حقيقيٌّ بين الدُّنيا والآخرة، واخْتيرَت كَلِمة المشبَّه به (اشْتَرَوا) ولم يُقَلْ: (اسْتَبْدَلوا أو آثَرُوا أو اختارُوا)؛ لِأَنَّ الشِّرَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ فِيمَا يُحِبُّهُ مُشْتَرِيهِ، فهم كانوا يَفْعَلون أفْعالَهُمُ القَبيحَةَ حُبًّا لَها ورَغْبَةً فيها، فكَأَنَّهم كانوا يَدْفَعون نَعيمَ الآخِرَةِ الدّائِمَ ثَمَنًا لرَغَباتِهِمْ وجاهِهِم في الحياة الدّنْيا؛ فاسْتُعْمِلَت كلمة (اشْتَروا) مَجازًا لُغَوِيًّا؛ لِأَنَّ الشِّرَاءَ وَالتِّجَارَةَ رَاجِعَانِ إِلَى الِاسْتِبْدَالِ، وَالْعَرَبُ تَسْتَعْمِلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ مَنِ اسْتَبْدَلَ شَيْئًا بِشَيْءٍ(2).

دلالة حَرْفِ الباءِ:

التَّفْريطُ في الآخِرَةِ بَعْدَ القُدْرَةِ عَلى تَحْصيلِها، بَيْعٌ مَغْبونٌ

أفادتِ الباءُ مَعْنى المُقابَلَة، وتُسمّى باءَ العِوَضِ، وإذا أُدْخِلت الباءُ في المَبيعِ أو المُشْتَرَى فتُوضَعُ الباء في الثَّمَن، كما في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ [يوسف: 20]؛ لأنَّ الدّراهم ثَمَنٌ أبدًا، والباءُ إنَّما تَدْخُل في الأَثْمانِ(3)، وهُمْ قد جعَلوا الآخِرَة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/14، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/310.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/210.

(3) الفراء، معاني القرآن: 1/30.

ثمنًا مُقابِلَ ما حَصلوا عليهِ في الحَياةِ الدُّنيا مِنَ الـمَلَذَّات والعَرَضِ الفاني، ودلَّتِ المُقابَلةُ على أنَّهم كانوا قادِرينَ على تَحْصيلِ نَعيمِ الآخِرَةِ؛ لأنَّ دَفْع الثَّمَن الـمُعبَّرِ عَنْهُ بـ(الآخرة) يَقْتَضي أنْ يَكون حاصِلًا وقتَ الشِّراء.

دِقَّةُ التَّعْبيرِ بِمُفْرَدَةِ التَّخْفيف:

صِحَّةُ اجْتِماعِ عِدَّةِ مَعانٍ تُقابِلُ التَّخْفيف؛ لمَزيدِ التَّهويلِ والتَّرْهيبِ

للتَّخفيفِ اعتِباراتٌ مُخْتَلِفةٌ؛ فالخِفَّةُ تكون بإزاءِ القُوَّةِ (الشدَّة)، والدَّوام، وما تَسْتَثْقِلُه النَّفْسُ ولا تَتَحَمَّلُه، ويُمْكِنُ اجْتِماعُ هذهِ المَعاني في قوله: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ﴾[1]؛ لأنَّ النَّفي يَسْتَوْعِبُ أكْثَرَ مِن مَعْنًى مِن مَعاني الإيجاب؛ فكانَ اخْتِيارُ هَذِهِ الكَلِمَةِ دَالًّا على المُرادِ في هذا النَّظمِ. ويُفهَمُ مِنْ نَفْيِ التَّخْفيفِ أنَّ العذابَ ثَقيلٌ عَليهِمْ، بالدَّوام وعدم الانقطاعِ، كما جاءَ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: 49]، ويكونُ بِقُوَّةِ العَذابِ وشِدَّتِه، ويَكونُ بما يَثْقُلُ على النَّفسِ فلا تَتَحَمَّلُه، وهذه الـمَعاني صَحيحَةٌ مُرادَةٌ في العَذاب الـمُعَدِّ لهُمْ يَوْمَ القِيامةِ.

بَلاغَةُ الوَصْلِ بَيْنَ الجُمَلِ:

دَفْعُ أوْهامِ الأَفْهامِ في وُجودِ ناصِرٍ يَوْمَ القِيامَةِ

عُطفتْ جملةُ: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بجملة: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ لأنَّ نَفْيَ تَخْفيفِ العَذابِ لا يَسْتَلْزِمُ ألَّا يَكون لهم ناصِرٌ فيما قَدْ يَتَصَوَّرُهُ ذِهْنُ الـمُخاطَبِ؛ فنَفَى اللّه تَعالى الأمْرَيْنِ لِكَيْ يَقْطَعَ عنْهُم كلَّ سَبيلٍ في الطَّمَعِ؛ فتَنْصَرِفَ هِمَمُهُمْ إلى العملِ الذي سيُنَجِّيهم بتوفيقِ اللّه تعالى.

أثَرُ صورَةِ الإسْنادِ في تَقْوِيَةِ الحُكْمِ:

تَأْكيدُ الخِطابِ للشَّاكِّ أو لتَنْزيلِهِ مَنْزِلَةَ الشَّاكِّ

جاءَ المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: (هم)، والمسند جملةً فعليَّةً (ينصرون)؛ لتَقْريرِ نَفْيِ النَّصيرِ وتَحْقيقِه

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/594.

وتَقْويَتِهِ[1]؛ فإنَّ هذا التركيبَ أقْوى حُكْمًا ومَعْنًى مِنْ أنْ يَقولَ: (فلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذاب ولا يُنْصَرون)؛ لأنَّ المُسْنَدَ إليهِ تَكَرَّرَ بالضّميرِ (هم)، وبالضَّميرِ المُتَّصِلِ بالفِعْلِ (واو الجماعة)، وتَكْرارُهُ مُؤْذِنٌ بتَكْرارِ المُسْنَدِ، ولا يَكون ذلِكَ إلّا إذا كان المُخاطَبُ شاكًّا في مَضمونِ الخِطاب، أو مُنَزّلًا منزلةَ الشَّاكِّ، وقُدِّم المسندُ إليه؛ "لِرعايَةِ الفاصِلَة والتّقَوّي، لا للحَصْرِ، إذ لَيْسَ المَقامُ مقامَهُ، ولذا لم يُقَل: (فلا عَنْهم يُخَفَّف العذابُ)"[2].

فائِدَةُ التّعْبيرِ بِصيغَةِ المَبْنِيِّ للمَفْعولِ:

تَعْظيمُ المَوْقِفِ وتَهْويلُ المَشْهَدِ

جاء فِعْلا التَّخْفيفِ والنَّصْرِ مَبْنِيَّيْن للمَفعولِ، وذلِك لِقَصْدِ إبهام الأمْرِ وتعظيم الموقف؛ فإنَّ عدمَ التَّصريح بالفاعلِ مِنْ شَأْنِه تَهْويلُ المَشْهَدِ، وتَفْخيمُ الحَدَثِ، لاسِيَّما أنَّ الأمرَ مُرْتَهِنٌ بالعَذابِ.

(1) السّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 217.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/315.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة: 87]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعدَ بَيانِ جِناياتِ بَني إِسْرائيلَ، وما اقْتَرفُوهُ مِنْ مَعاصٍ وكَبائرَ في حَقِّ أنفُسِهِم، شَرعَتِ الآياتُ في بَيان الحُجج التي قامَتْ عَليْهِم[1]، وأنَّ ما قاموا بِهِ مِنْ تلكَ الفَظاعاتِ إنّما كان بعد البيانِ الكاشِفِ المُتتابِعِ، ابْتِداءً من لَدُنْ مُوسى إلى عيسى وما بَينَهما مِنَ الرُّسُل عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فلم يُؤمِنوا ولم يَمْتَثِلوا للرُّسُل بسببِ تكبُّرِهم وطغيانِهم[2].

ثم إنَّ هذه الآيةَ مهَّدَتْ لِلْإِنْحَاءِ عَلَى بَني إسرائيلَ في مُقَابَلَتِهِمْ لدَعوةِ الرّسولِ محمد ﷺ الآتي ذِكْرُهَا في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾ [البقرة: 88]، لأنَّها أنْحَت عليهم بسوءِ مُقابَلَتِهِم لِرُسُلِ اللّهِ بعدَ موسى عليه السلام مثل مقابلتهم السّيّئة لعيسى ابنِ مَريمَ عليه السلام، فلم يبقَ إلّا الكلامُ على فِعالِهم مع رسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: على وزنِ فِعالٍ مِنَ الكَتْبِ، وأصْلُهُ: ضمُّ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ[4].

ويُطلق الكتابُ على الخطِّ والكتابةِ، كما قال اللّه تعالى عن عِيسَى عليه السلام: ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[5] [المائدة: 110].

ويُطلق مُرادًا به المكتوبُ، فيكون مِن إطلاقِ المصدَرِ مُرادًا به اسمُ المفعول، كقَوْلِهم:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/126.
(2) تفسير الرّاغب: 1/255.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/592.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/223، ونصر الهُورينيّ، المطالع النَّصْريَّة، ص: 41.

فِراشٌ يعنى: مفروش، وغِراس بمعنى: مَغْروس، ولِباس بمعنى: مَلْبوس، ثم أُطْلِق على الصَّحيفة مَعَ ما كُتِبَ فِيها[1].

ويأتي (الكِتابُ) في القرآن الكريم على أحدَ عشَرَ وَجْهًا[2]، ويقصد به هنا التّوراةُ[3].

2) ﴿وَقَفَّيْنَا﴾: أصله من (قَفو) أو (قَفي)، فالْقَافُ وَالْفَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ تدور معانيها على: إِتْبَاعِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، يُقالُ: قَفَا يَقْفُو قَفْوًا، وَقَفَّيْتُ فُلَانًا بِفُلَانٍ، إِذَا أَتْبَعْتَهُ إِيَّاهُ، تَقَفَّيْتُ فُلَانًا بِعَصًا فضَرَبْتُه، واسْتَقْفَيْتُه -كَذَلِك-: إذا جِئْتَه مِنْ خَلْف، وسُمِّيَتْ قافِيَةُ الشِّعْر قافِيَةً؛ لِأَنَّهَا تَقْفُو سَائِرَ الكَلَامِ، أَيْ: تَتْلُوهُ وَتَتْبَعُهُ، وقافِيَةُ الرّأسِ: مُؤَخِّرَتُهُ، و﴿قَفَّيْنَا﴾: بِمَعْنَى: أَتْبَعْنَا، يُقال: هذا يَقْفو هَذا؛ أَيْ: يَتْبَعُهُ[4]. وقَفَّيْنا تُفيدُ التَّكْثيرَ في الإرسال؛ لأنَّه على وزن فَعّل.

3) ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: من الأصلِ (بَيَن)، وبَانَ الشَّيْءُ وَأَبَانَ إِذَا اتَّضَحَ وَانْكَشَفَ. وَفُلَانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلَانٍ؛ أَيْ أَوْضَحُ كَلَامًا مِنْهُ، وتَأتي البيِّنَةُ بِمَعْنَى: الأمْرِ الواضِح، وبِمَعْنَى: الحُجّة؛ لأنَّ بها يَنْكَشِفُ الحقُّ ويتّضِحُ، والبَيِّنَةُ: الدّلالة الواضِحَةُ؛ عَقْليَّةً كانَتْ أو حِسِّيّةً[5]، فالبيّنة لا يُنازِع فيها مُنازِعٌ لِوُضوحِها، وجَمْعُ البيِّنة: بيِّناتٌ. والمُرادُ بالبيِّنات -هُنا-: مُعْجِزاتُ سَيّدنا عيسى عليه السلام كلُّها ومَعَها الإنجيلُ، "لِأَنَّ الْمُعْجِزَاتِ تُبَيِّنُ صِحَّةَ نُبُوَّتِه، كَمَا أَنَّ الإِنْجِيلَ يُبَيِّنُ كَيْفِيَّةَ شَرِيعَتِه"[6].

4) ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾: أصل الكلمة (أَيَدَ)، ويَدورُ مَعناه عَلَى: القُوَّةِ وَالحِفْظ. يُقَالُ: أَيَّدَهُ اللَّه، أَيْ: قَوَّاهُ اللَّه، وكأنّ مَعنَى اليَدِ مُضَمَّنٌ في (أَيد)، فيُقالُ: أَيّدَ فُلانٌ فُلانًا، أي: أَخَذَ مَعَهُ بيَدِه في الشَّيءِ الذي يُقَوّيه فيه، و(أيّد) بوزْنِ (فَعَّلَ) تَدلُّ على القُوّة الشَّديدَة[7]، فزِيادَةُ اللفْظ تَدلُّ على زِيادَةِ المَعْنى غالِبًا، فيَكونُ أيّدَهُ أبْلَغَ مِنْ قَوّاهُ، ومعنى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾: وَقَوَّيْنَاهُ.

(1) نصر الهُورِينِيّ، المطالع النصريّة، ص: 41.
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظِر، ص: 527-526.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/478.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قفو)، وينظر: الهروي، الغريبين: 5/1571.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ: (بين).
(6) الرازي، التّفسير الكبير: 3/595.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (أيد)، وينظر: تراث أبي الحسن الحرالي: 1/238.

5) ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: هذا التركيبُ الإضافيُّ من إضَافةِ المَوصُوفِ إلى الصِّفَةِ لِلمُبالغَةِ في الاخْتِصَاص[1]، وأَصْلُه الرُّوحُ القُدُسُ، والقُدُس مَصدرٌ على معنى اسم المَفعولِ، أي الرُّوحُ المُقَدَّسَةُ، ومعنى القُدُسِ: الطَّهَارةُ الدّائمةُ الَّتي لا يَلْحقُها نَجَسٌ ظَاهِرٌ ولا رِجْسٌ باطنٌ، فـ(روحُ القُدُسِ) بمعنى: الرُّوحِ المُطَهَّرةِ، ويُطلقُ هذا التركيبُ وَصْفًا لِجبريلَ عليه السلام، كما جاءَ عن عبدِ اللّهِ بن مسعودٍ رضي الله عنه وغيره، وعليه جُمْهورُ المُفَسِّرينَ والمُحَدِّثين[2].

6) ﴿تَهْوَىٰٓ﴾: أصله من (هوي)، ويَدُلُّ عَلَى معنَيَين؛ الأول: الخُلُوّ، والثاني: السُّقُوط، فمن الخُلُوّ: الهَوَاءُ، وهو الفراغ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، سُمِّيَ هواءً لِخُلُوِّه، ومن السُّقوطِ: هَوَى الشَّيْءُ يَهْوِي: إذا سَقَطَ، والهَوى: المَيْلُ، ومنهُ مَيْلُ النَّفْسِ إلى الشَّهْوَةِ، وجَمْعُه أَهْواءٌ، ومنه: أَهْلُ الأَهْواءِ، وسُمِّيَ هَوى النَّفْسِ بذلِكَ؛ لِأنّه يَهْوي بِصاحِبِه في الدُّنْيا إلى كُلِّ داهِيَةٍ، وفي الآخرة إلى الهَاوِيَةِ[3]. ومعنى: ﴿تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾: توافق أنفسكم وتميل.

7) ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾: من الاستكبار، على وزْنِ اسْتِفْعَالٍ، وأَصْلُ الكَلمةِ من (كَبَرَ)، ويَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الصِّغَرِ، والكَبيرُ والصَّغيرُ من الأَسماءِ المُتَضايِفَةِ، فالشَّيءُ قد يكون صَغيرًا في جَنْبِ شَيْءٍ، وكبيرًا في جَنبِ غَيْرِه، ويُسْتَعمل في الأَجْسامِ فيُقالُ: بَيتٌ كَبيرٌ، وفي الأعدادِ مِثْل: عَددٌ كَبير، وفي المَنْزِلةِ كَقَوْلِهِمْ: كَبيرُ القَوْمِ، والاسْتِكبارُ: الامْتِنَاع عَن قَبولِ الحَقِّ مُعانَدةً وتكَبُّرًا، بأَنْ يَتَشَبَّعَ بِمَا لَمْ يُعْطَ؛ فيُظْهِرَ من نَفْسِهِ ما لَيْسَ لَه، أو يَرى نَفسَه أكبرَ مِنْ غَيرِه بما أَنْعَمَ اللّه عليهِ من مالٍ أو جاهٍ، فيستعلي عليهم[4]. وجميعُ ما وَرَدَ في القرآنِ الكَريمِ من الاستكبارِ مَذْمومٌ. ومعنى ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾: تَعَالَيْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَتَعَظَّمْتُمْ.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/316.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/320، وابن حجر، فتح الباري: 8/384.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والزمخشري، أساس البلاغة: (هوي).

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (كبر).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولقد أعطينا موسى التوراة، وأتبعناه برسل من بني إسرائيل على أثره، وأعطينا عيسى ابن مريم الآيات الواضحة المبيِّنَة لصدقه، كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وقوَّيْناه بالمَلَكِ جبريل ﷺ، أفكلّما جاءكم - يا بني إسرائيل - رسول بوحي من عند اللّه بما لا يوافق أهواءكم استكبرتم على الحقِّ، وتعالَيْتُم على رسل اللّه، ففريقًا كذَّبْتُم إنْ لم تَتَمكَّنوا من قَتْلِه مِثْلَ عيسى ورَسولِ اللّه محمَّدٍ صلوات اللّه وسلامُه عليهما، وفريقًا تقتلون إنْ تَهَيَّأَ لَكم قَتْلُه مثل زكريا ويَحيى صلواتُ اللّه وسلامُه عليهما[1].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

أَثَرُ التَّأكيدِ في بَيانِ المَعاني:

تَنْزيلُ المُخاطَبِ مَنْزِلَةَ المُنْكِرِ؛ زَجْرًا لضعْفِ إيمانِه، وتَقْبيحًا لأَعْمالِه

أفادت اللامُ الواقعةُ في جوابِ القَسَمِ المحذوفِ التَّأكيدَ، ومثلُها حَرفُ التَّحقيق (قد)؛ فاجتمعَ تأكيدانِ لمَضمونِ الجُمَلِ المتَعاطِفة في الآيةِ؛ فنُزِّلَ المخاطَبون من بني إسرائيل منزلةَ المُنكِرينَ؛ لِمَا يَصْدُرُ عنهم من أفعالٍ تُنافي الإيمانَ بالتَّوراة، وبالرُّسُلِ، فكان مُقتَضى التَّأكيدِ بيانَ حالِهمُ القَبيحَةِ في المُخالَفة بعدَ العلم، لاسِيَّما بعد إنكارِ الآيةِ السَّابقةِ وتشنيعِها عليهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ﴾، وما جاءَ في هذه الآية من تكذيبِ الرُّسُلِ وقتلِهم؛ فإنَّ مثل هذا لا يصدُرُ إلا عن قلبٍ منكرٍ جاحِدٍ!

فائِدَةُ ذِكرِ الظَّرْفِ:

دَفْعُ تَوَهُّمِ حُصولِ التَّقْفِيَةِ في زَمَنِ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام

حُذِفَ مفعولُ (قَفَّيْنَا) للعلم به، للإيجازِ في الكلام، ولاقترانِ الضَّميرِ بالظَّرفِ، وهُوَ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، ولو ذُكِر لَكانَ النَّظْمُ: قَفَّيناه مِنْ بَعدِهِ بالرُّسُل، ففيه تَكْرارٌ مُخِلٌّ، فَضلًا عن الثِّقَلِ الصَّوتي، وذُكِر الظَّرفُ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، ولم يأتِ النَّظمُ: (قفَّيناه بالرُّسُلِ)؛ لِما

[1] الرازي، التّفسير الكبير: 3/595، ومجموعة من العلماء، المختصر في التفسير، ص: 13.

فيه من مَلْحَظِ البَعْديّة التَّامّة؛ فقد يَتوَهّمُ مُتوَهِّمٌ أنَّ التَّقْفية كانت في زمانِ مُوسَى عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وهو غيرُ مُرادٍ؛ إذِ التَّقفيَةُ ما كانتْ إلَّا بَعْدَه.

دلالة حَرْفِ ابْتِداءِ الغايَةِ:

استِمْرارُ إرْسالِ الرُّسُلِ دون أدْنى انْقِطاعٍ

أفادَ حرفُ الجرِّ (مِنْ) ابتداءَ الغايَةِ الزَّمانِيَّةِ، أيْ: ابْتُدِئَ إرسالُ الرُّسُلِ في إثْرِ موسى من غير مُهْلَةٍ ولا انقطاع، فلم يَبْقَ بنو إسرائيلَ مِن دُونِ رَسولٍ مُؤَكِّدٍ لِشَريعَةِ موسى عليه السلام؛ لِيَدُلَّ ذلك على اسْتِمرارِ نِعْمةِ اللّه فيهم، ومع ذلك فقدْ قابَلوها بِالكُفْرِ والأفعال القَبيحَةِ، ولو قال: (وقفَّينا بَعْدَهُ بالرُّسُل) مِنْ غَيْرِ (مِنْ) لما أفاد سِوى أنَّ اللّه أرسلَ الرُّسُلَ بَعدَ موسى مِنْ غَيْرِ بيانٍ لِوُجودِ مُهْلَةٍ أو لا.

دلالة (أل) التَّعْريفِ في الرُّسُل:

التَّعريفُ هنا للجنسِ لا للعَهْد؛ لأنَّهُ لا يُقصَدُ بها رُسُلٌ مَعْهودونَ عندَ المخاطَب؛ لأنَّهم بمَجْموعِهم غيرُ مَعلومينَ عددًا وعَيْنًا، وهذا "شَأْنُ لَفْظِ الْجِنْسِ الْمُعَرَّفِ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَهْدٌ أَنْ يَدُلَّ عَلَى الاسْتِغْرَاقِ، فلَمَّا كَانَ الِاسْتِغْرَاقُ هُنَا مُتَعَذِّرًا دَلَّ عَلَى التَّكْثِيرِ مَجَازًا لِمُشَابِهَةِ الْكَثِيرِ بِجَمِيعِ أَفْرَادِ الْجِنْسِ، كَقَوْلِكَ: لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ فِي الْبَلَدِ لَمْ يَشْهَدِ الْهِلَالَ، إِذَا شَهِدَهُ جَمَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ. وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى الِاسْتِغْرَاقِ الْعُرْفِيِّ"[1]؛ فيكونُ المَقصودُ اسْتِغراقَ أفْرادِ الرُّسُلِ في ذلك الزَّمانِ.

دلالة إضافَةِ رُوحٍ لِلْقُدُسِ:

المُبالَغَةُ في بيانِ قُدْسِيَّةِ جِبْريلَ عليه السلام

إضافَةُ رُوحٍ لِلْقُدُسِ مِنْ قَبيلِ إضافَةِ المَوصوفِ إلى صِفَتِه، أيْ: الرُّوحُ الْمُقَدَّسَةُ، وفائِدَتُهُ: تَحْقيقُ المُبالَغَةِ مِنْ وَجْهَينِ؛ أَحَدُهُما: وُقوعُ الصِّفَةِ بِصيغَةِ المَصْدَرِ؛ لِتَدُلَّ على المُبالَغَةِ في الوَصْفِ، فإذا قيل: (رَجُلٌ عَدْلٌ)، فكَأنَّه وُصِفَ بِجَميعِ جِنْسِ العَدْلِ مُبالَغَةً[2]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/593.

(2) ابن جنّي، الخصائص: 2/204.

والثّاني: لِزيادَةِ المُبالَغَةِ في المَعْنى؛ فيكونُ المَوْصوفُ مُخْتَصًّا بالصِّفَةِ بِسَبَبِ الإضافَةِ؛ لِأنَّها على مَعْنى اللّام[1]، فوُصِفَ جِبْريلُ بِذَلِكَ تَشْريفًا لَهُ وَبَيانًا لِعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعالَى.

تَسْمِيَةُ جِبْريلَ بِرُوحِ القُدُسِ عَلى المَجازِ:

تَنْزيلُ جِبْريلَ في إحْياءِ القُلوبِ، مَنْزِلَةَ الرُّوحِ في إحْياءِ الأبْدانِ

سُمِّيَ جِبْريلُ بِرُوحِ القُدُسِ تَشْبيهًا لَه بالرُّوحِ الّتي هِيَ سَبَبُ حَياةِ الإنسانِ؛ فكَذَلِكَ جِبْريلُ ﵇ سَبَبٌ لِحَيَاةِ القُلُوبِ بِالعُلُومِ[2]؛ فشُبِّه جِبْريلُ بروحِ الإنسانِ، بِجامِعِ سَبَبِيّةِ الحَياةِ، ثُمّ حُذِفَ المشبَّهُ وصُرِّحَ بِالمُشبَّه به على سَبيلِ الاسْتِعارَةِ التَّصْريحيَّة.

بَلاغَةُ الاسْتِفْهامِ:

بَيانُ الإسْتِفْهامِ لِدلالةِ الإنْكارِ والتَّوْبيخِ والتَّعْجيبِ للتَّقْريرِ بِقَصْدِ الارْتِداعِ عَنِ المَعاصي

أفادَ الاسْتِفهامُ في قولِه تَعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾، الإنكارَ والتَّوْبيخَ والتَّعْجيبَ[3]، فالآيَةُ تُنْكِرُ عَلى بَني إسْرائيلَ اتِّباعَهُمْ لِهَوى أَنْفُسِهِمْ، واسْتِكبارَهُم عَنِ الحقِّ؛ فجَمَعَ الاستفهامُ بَيْنَ مَعاني الإنْكارِ والتَّوبيخِ والتَّعجُّبِ من شأنِ بَني إسرائيلَ في تعامُلِهم مَعَ رُسُلِهِمْ، ومَقْصودُ ذَلكَ حَمْلُهم عَلى الإقرارِ لِيَرْتَدِعوا عمَّا هُم فيه من الغِوايَةِ والكِبْرِ[4].

إيلاءُ حَرْفِ الاسْتِفْهامِ حَرْفَ العَطْفِ:

تَعدُّدُ أوجُهِ الرَّبْطِ بَيْنَ الفاءِ والجُمَلِ المَعْطوفِ عَلَيْها

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾، إمَّا أن تكونَ عَطَفَتِ الجُمْلَةَ المَذْكورَةَ على أخْرى مَحْذوفَةٍ بَعْدَ هَمْزَةِ الاسْتِفهامِ، تَقْديرُها: أعَصَيْتُموهُمْ فكُلّما جاءَكُمْ رَسولٌ مِنْهم بما لا تَهوى أَنْفُسُكُم[5]، وهَذا مَذْهَبُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/316.
(2) الرازي، التّفسير الكبير: 3/596.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/256، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/482، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/331.
(4) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 1/176.
(5) أبو السعود: إرشاد العقل السليم: 1/127.

الزَّمَخْشريّ[1]، ونُكْتَتُه: تَحريكُ ذِهْنِ المُخاطَب في اسْتِنباطِ المَعاني. وإمَّا أن تكون على التّقديم والتّأخير، والأَصْلُ (فَأَكُلَّمَا)، وَقُدِّمَ حرفُ الاستفهام؛ لأنَّ له الصَّدارَةَ في الكَلام[2]، وهذا مَذهبُ سيبَوَيْه، ونُكْتَتُه: تَوبيخُهُم على تَعْقيبِهم ذلك بهذا، وللتَّعْجيب مِنْ شَأْنِهم[3]، ولإثارَةِ المُخاطَبِ وتَهْيئَتِه لاسْتِماعِ ما يردُ في الكلامِ؛ لأنّه مصدَّرٌ بالإنكارِ على فِعْلٍ متكرِّرٍ واقِعٍ منَ المخاطَب.

نُكْتَةُ ذِكْرِ ﴿أَفَكُلَّمَا﴾:

تَـكْـرارُ وُقـوعِ الفِعْلِ بِصَيْرورَتِهِ مَنْهَجًا وسَجِيَّةً

أفادَتْ (كُلَّمَا) التَّكرارَ، والمَعْنى: إنَّ فِعْلَهم كَان يَتَكرَّرُ مِنْهُمْ مِنْ غيرِ انْقطاعٍ بِتكرُّرِ مَجيءِ الرُّسل إليْهم، فالاسْتِكْبارُ وما يَنْشَأُ عنه مِنَ القَتْل والتَّكذيبِ هوَ مَنْهجٌ مُتَكرِّرٌ لا يَحيدونَ عَنْهُ، و"سَجِيَّةٌ لَهُمْ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِعَارِضٍ عَرَضَ فِي بَعْضِ الرُّسُلِ وَفِي بَعْضِ الْأَزْمِنَةِ"[4].

بَلاغَةُ حَذْفِ العائِدِ:

بَيانُ اسْتِحْكامِ الـهَـوى في الـنُّـفـوسِ، ولـلـكَـراهَـةِ اللَّفْظِيَّةِ

حُذِفَ العائِدُ في قَوْلِه: ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾، فلمْ يَقُلْ: (بما لا تَهْواه أنفُسُكم)؛ لأمْرَيْنِ اثْنَين، أحدُهما مَعْنَوِيٌّ، والآخَرُ لَفْظيٌّ، فأمَّا المَعْنَويّ؛ فلِيُفيدَ إثباتَ الهَوى لأَنْفُسِهم على الإطلاق، فكَأَنَّ الهَوى اسْتَحْكَم في أَنْفُسِهم فصارَ ثابتًا فيها لا يَتَجاوَزُها، إمْعانًا في ذمِّهم، ولِبَيانِ أَنّ مَنْشَأَ اسْتِكبارِهِمْ هَوى أَنْفُسِهم، ولا يُتَوَهَّم أنَّهم يَسْتَكْبِرون؛ لأنَّهم يستحقون الاستكبار، وأمَّا اللفْظِيّ "فلِطول الاسْم، أَيْ: بِمَا لَا تَهْوَاهُ"[5]، وطولُ الصِّلَةِ في مقامِ الإيجازِ مَذْمومٌ، واجْتماعُ أكثرَ مِنْ تَعْليلٍ لُغَوِيٍّ هُوَ في مقامِ المَدحِ والقَبول.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/162.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/443.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/127.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/598.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/24.

سِرُّ العُدولِ عَنِ الضَّميرِ إلى الِاسْمِ الظاهِر:

التَّنْبيهُ عَلى سَبَبِ الِاسْتِكْبارِ لِلحَذَرِ مِنَ الوُقوعِ فيه

مُقْتَضى ظاهِرِ سياقِ الخِطابِ في قولِه تَعالى: ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾، التَّعْبيرُ بِضَميرِ المخاطَبَةِ؛ فكان التقديرُ: (تَهْوَوْنَ)، لكنَّه عَدَلَ عَنْ ضَميرِ المُخاطَبةِ إلى الاسمِ الظَّاهِرِ؛ للإشارَةِ إلى عِلّيَّةِ المَأخَذِ، والسَّبَبِ الذي جَعَلَهُم يَفْعَلون ما يَفْعَلون، فأَنْفُسُهم هِيَ الّتي سوَّلَتْ لهمُ التَّكْذيبَ والقَتْلَ، وقادَتْهم إلى هذهِ الأفعالِ القبيحَةِ[1]، كما قالَ تعالى: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: 30].

عِلَّةُ الاخْتِلافِ بَيْنَ المُتَقابِلين:

تَصْويرُ قَباحَةِ القَتْلِ كَأنَّهُ واقِعٌ مُشاهَد، وبَيانُ إصْرارِهِمْ عَلَيْهِ

غايَرَ النَّظْمُ بينَ فِعْلِ التَّكذيبِ إذْ جاءَ ماضِيًا، وفِعْلِ القَتْلِ إذْ جاءَ مضارِعًا في قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقًا تَقۡتُلُونَ﴾، فجاءَ فعلُ القَتْلِ بصيغَةِ المُضارِعِ؛ لاستِحْضارِ الحالِ الماضِيَةِ، وَتَصْويرِ الحالِ حَتَّى كَأَنَّهُ مُلْتَبِسٌ بها[2]، ولبيانِ إصْرارِهِمْ وعَدَمِ نَدَمِهم؛ فهُمْ مُسْتَمِرُّونَ على ذلك، "فذَكَرَ القتْلَ بلفظِ الاسْتِقبالِ تَنْبيهًا إلى أنَّهم يُزاوِلونَ قَتْلَه، قَدَروا عليْهِ أمْ لم يَقدِروا"[3]، ولِتَناسُبِ رُؤوسِ الآيِ، ففي تَجانُسِ الفواصِلِ تَأثيرٌ نَفْسِيٌّ عَجيبٌ في قلوبِ السَّامعينَ.

مَعْنى الفاءِ في ﴿فَفَرِيقًا﴾:

تَنَوُّعُ مَعاني الفاءِ بِناءً عَلى تَعَدُّدِ أَوْجُهِ التَّفْسير

حَمَلَ حَرْفُ الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقًا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقًا تَقۡتُلُونَ﴾ أَحَدَ مَعْنَيَيْنِ، السَّبَبِيَّة، أو التَّفْصيلِ، ومَعْنى السَّبَبِيَّةِ له وَجْهانِ:

الأَوَّلُ: الاسْتِكْبارُ، بِتَرْتيبِ التَّكذيبِ والقَتْلِ عَلى اسْتِكْبارِهِمْ؛ "فَنَشَأَ عَنِ الاسْتِكْبارِ مُبادَرَةُ فَريقٍ مِنَ الرُّسُلِ بالتَّكْذيبِ فَقَطْ، حَيْثُ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى قَتْلِهِ، وفَريقٍ بِالْقَتْلِ إِذَا قَدَرُوا عَلَى قَتْلِه، وَتَهَيَّأَ لَهُمْ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/482.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/162، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/483.

(3) تفسير الرّاغب: 1/256.

ذَلِكَ، وَيُضَمَّنُ أَنَّ مَنْ قَتَلُوهُ فَقَدْ كَذَّبُوهُ، وَاسْتَغْنَى عَنِ التَّصْرِيحِ بِتَكْذِيبِهِ، لِلْعِلْمِ بِذَلِكَ، فَذَكَرَ أَقْبَحَ أَفْعَالِهِمْ مَعَهُ، وَهُوَ قَتْلُهُ"[1].

الثَّاني: مَجيءُ الرُّسُل، لأنَّه قالَ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ﴾؛ فتَعَلَّق الحُكْمُ -وهُو التَّكذيبُ والقَتلُ- بِوَصْفِ الرِّسالَةِ عِنْدَهُمْ؛ "كَأنَّ وَصْفَ الرِّسالَةِ عِنْدَهُم هُو الذي اقتَضى عِندَهم أحَدَ هذينِ، حَتَّى خُصَّ الـمَنْعوتُ بِهِ دونَ سائِرِ النَّاسِ بِأَحَدِ الأَمْرَين، وهذا نِهايةُ الجَهالةِ، حيثُ اسْتَقْبَلوا أشْرَفَ الأصنافِ لأكْرَمِ الأوصافِ بِغايَةِ الاستِخْفافِ"[2].

وأمَّا التَّفْصيلُ[3]؛ فإمّا أنْ يَكون تَفْصيلًا لِمُجْمَلِ قولِه تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ﴾، فتَكونَ الفاءُ عاطِفةً على جُملة ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾، ويَكونَ قولُهُ ﴿أَفَكُلَّمَا﴾ مَعَ مَا بَعْدَهُ فَصْلًا بَيْنَهُمَا عَلَى سَبيلِ الإِنْكَارِ، فقد جاءَتْهُم الرُّسُلُ تَتْرا وجاءَهُمْ عيسى ابنُ مَرْيَمَ بالبيِّناتِ، ففصّلَ في ما فعلَه بنو إسرائيل بالرُّسُلِ، وإما أنْ تكونَ تَفْصيلًا لـمُجْمَلِ قولِه تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾، كما أشارَ إليهِ ابْنُ عاشور[4]، فتَكونُ الفاءُ تفصيلًا للاسْتِكْبارِ، فكانَ اسْتِكبارُهُم على نَوْعَيْنِ؛ التَّكذيبِ والقَتْلِ[5].

والـمَعْنَيان كلاهُما مُحْتَمَلٌ، وتَوَسُّعُ المَعاني مِنْ لَطائفِ مَداخِلِ البَلاغةِ، ولاسِيَّما مع هذه الأَلْفاظِ الـمُتَخَيَّرَةِ والـمَعاني الـمُنْتَخَبَةِ، وتَعَلُّقِ اللَّفظِ بِمُناسِبِه.

بَلاغَةُ تَقْديمِ المَفْعولِ بِهِ:

الاهْتِمامُ وتَشْويقُ السَّامِعِ إلى مَعْرِفَةِ مَضْمونِ الكَلامِ

قُدِّمَ الـمَفْعولُ به في قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾؛ لِلاهتِمام ولِتَشْويقِ السّامِعِ إلى مَعْرِفةِ ما فَعلَ بَنو إسْرائيلَ بالرُّسُلِ، ولِمُراعاةِ رُؤوسِ الآيِ، ولا يُفيدُ تقديمُ الـمَفعول هنا القَصْرَ، لأنَّه في مَقامِ التَّفْصيلِ[6]، وزادَ ابنُ عاشور فائِدَةً أسلوبيَّةً أخرى، وهِيَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/483.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/331.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1: 256، والشوكاني، فتح القدير: 1/130، وخان، فتح البيان: 1/219.
(4) التحرير والتنوير: 1/598.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 1/318.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/483، البروسوي، روح البيان: 1/177.

تَفصيلُ المُجمَلِ، فإنَّ كَلِمَةَ فَريقٍ إذا وَردتْ على جِهَةِ تَفْصيلِ مُجْمَلٍ تكونُ في مُقدّم الكَلام غالِبًا، "وَهَذَا اسْتِعْمَالٌ عَرَبِيٌّ كَثِيرٌ فِي لَفْظِ (فَرِيقٍ) وَمَا فِي مَعْنَاهُ، نَحْو (طَائِفَةٍ) إِذَا وَقَعَ مَعْمُولًا لِفِعْلٍ فِي مَقَامِ التَّقْسِيم"[1].

سِرُّ تَقْديمِ التَّكذيبِ عَلى القَتْل:

مُراعاةُ التَّدرُّجِ في ذِكْرِ القُبْحِ والشَّر

بَدَأَ بِالتَّكْذِيبِ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَا يَفْعَلُونَهُ مِنَ الشَّرِّ، وَلِأَنَّهُ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ: الْمُكَذَّبِ وَالْمَقْتُولِ[2]؛ فالمَقْتولُ مُكذَّبٌ كذلك، ولَولا أنّه مُكذَّبٌ لَما قَتلوهُ، كما أنّه جَرى على طَريقَةِ التَّدَرُّجِ في فِعْلِ القَبيحِ؛ فبَدأ بالأَسْفَلِ فالأَشَدِّ قبحًا وجُرمًا.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الِاسْتِكْبار والتَّكَبُّر:

اختلافُ المَبْنَى يدلُّ على اخْتِلافِ المَعْنى غالِبًا، فالمُسْتَكْبِرُ يَعْتَقِدُ أنَّ نَفْسَهُ كَبيرَةٌ تَكلُّفًا واسْتِشْعارًا في النَّفْس، ولا يَبْلُغُ حَقيقتَه، وهُوَ في الوقتِ نَفْسِه يَطلبُ الكِبْرَ، وهُو ليسَ لهُ حَقٌّ بِهِ؛ ولِهذا لَمْ يَرِدِ الاسْتِكبارُ في جَميعِ القُرْآنِ إلَّا على الذَّمِّ؛ نحو: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ [نوح: 7]، وأمَّا المُتَكَبِّرُ فقد وردَ وصفًا للّه تعالى؛ نحو: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: 23]؛ فهو مَحْمُودٌ، وورَدَ وَصْفًا للكافرينَ الرَّاغبينَ عن الحقِّ تعنُّتًا وتَكبُّرًا؛ نحو: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٢٧﴾ [غافر: 27]؛ فهو مذمومٌ[3].

(لا تَهْوَى) و(تَكْرَهُ):

عبّر بـ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ ولم يَقل (بما تكرَهُه أنفُسُكُم)؛ لِيُفيدَ أنَّهم مَهْما يأتِهم أمرٌ من رُسُلِهم لا تهواهُ أنفسُهُم، سواءٌ أكانوا يكرَهونَهُ أم لا، فإنَّهم يَستكْبِرون ولا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/598.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/483.

(3) الطحاوي، شرح مشكل الآثار: 14/189، أبو حيّان، البحر المحيط: 1/482.

يُذْعِنون. فقد يَكونُ الأمرُ ممَّا لا يكرَهونَه، ولكنْ يَمْنَعُهُم من فِعْلِه جاهُهُم أو عرَضٌ من الدُّنيا. قال ابنُ عَرَفةَ: "هذا نَهيٌ عليهم، ومبالَغَةٌ في ذَمِّهم؛ لأنَّ ما لا تَهواهُ النّفس أعَمُّ ممّا تَكْرَهُه النّفسُ، والمَعنى: أنَّهم مَهما أتاهُم رَسولٌ من عندِ اللّهِ تعالى بأمرٍ لا يحبُّونَه سواءٌ كانوا يكرهونَهُ أو لا، فإنّهُمْ يَسْتَكبِرون ويَكفُرون بِهِ"(1).

كما أنّ كلمةَ (تَكْرَهُ) فيها من الثِّقَلِ الصّوتِيّ هنا ما لا يَخْفى، وهي وإنْ وَرَدَت في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 216]، فلا يَدلّ ذلك عَلى فَصاحَتِها أينَما وَرَدَتْ، فإنَّ فصاحَةَ الكَلِمَةِ لَيْسَتْ وَصْفًا ذاتِيًّا لها، بل العِبْرَةُ بِمَوضِعِها في نَظْمِ الكَلام؛ فقد تَكونُ الكَلِمةُ فَصيحَةً في مَوْضعٍ، وليستَ كذلك في موضِعٍ آخَرَ. فلِكُلّ كلِمَةٍ مَقامٌ مع صاحبتِها ولِفْقِها من الكلماتِ.

(1) تفسير ابن عرفة: 1/365.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [البقرة: 88]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكَرَ اللهُ أفعالَ بَني إسرائيلَ القَبيحَةَ، ناسَبَ أنْ يَنْتَقِلَ إلى ذكرِ بعضِ قبائِحِ أقوالِهِم؛ فبعدَ أنْ عَرفوا أنَّ القرآنَ وَحْيٌ منَ اللهِ، لَجَأوا إلى طَريقَتِهِم في التَّكْذيبِ؛ فكذَّبوا رَسولَ اللهِ مُحَمَّدًا ﷺ، وافترَوا عليه اسْتِكْبارًا وعِنادًا وجُحودًا، فتَكونُ هذهِ الآيةُ تمثيلًا لِمَا ذكَرَتْه الآيةُ السَّابِقَة مِنْ تَكذيبِ رُسُلِ اللهِ، ومنْهُم رسولُ اللهِ محمّد ﷺ، فنُزِّلت هذه الآيةُ مِنَ السَّابقةِ مَنْزِلةَ المثالِ من القاعدةِ، وبمُحاوَلَتِهم قَتْلَه يَكونُ ذلك مِثالًا آخرَ على شَديدِ عَداوتِهِمْ، وقَبيحِ إصْرارِهِمْ.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿غُلۡفُۢ﴾: أصلُ المادَّة: (غلَفَ)، ويَدورُ مَعْناها عَلَى: غِشَاوَةٍ، وَغِشْيَانِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، أو سَتْرِ الشّيْءِ بالشَّيْءِ الّذي يُجْعَل فيه، يُقَالُ: غِلافُ الكِتاب، وقَلْبٌ أَغْلَفُ: كَأَنَّمَا أُغْشِيَ غِلَافًا فَهُوَ لَا يَعِي شَيْئًا، و(غُلْف): جَمْعُ أغْلَفَ، مثلَ حُمْرٍ وأَحْمَرَ، ويَصِحُّ أن تكونَ كَلِمَةُ غُلْفٍ، بِمَعنى الأَقْلَف، وهُو الغُلامُ الّذي لم يَخْتَتِنْ، أي: بِمَعْنى الغِطاءِ، على مَعْنى: قُلوبُنا مُغطَّاة فلا نَفْهَمُ مِنْ كَلامِكَ شَيْئًا[1]، والـمَعْنى في الآيةِ: فلا نَفْقَهُ شَيْئًا مِمّا تَقولُه، لِأَنّ كَلامَكَ لا يَدْخُل قُلوبَنا أصْلًا، فالغُلْفُ يطلق على الوِعَاءِ الحَافِظِ لِلشَّيْءِ وَالسَّاتِرِ لَهُ مِنْ وُصُولِ مَا يُكْرَهُ لَهُ[2].

2) ﴿لَّعَنَهُمُ﴾: اللَّعْن يَدُلُّ عَلَى إِبْعَادٍ وَطَرْد على سبيل السُّخْط والذّمّ، واللَّعْنَةُ: الاِسْمُ، وَالْجَمْعُ: لِعانٌ ولَعَناتٌ، يقال: لَعَنَ اللّٰه الشَّيْطَانَ؛ أي: أَبْعَدَهُ عَنِ الخَيْرِ وَالجَنَّة، واللَّعينُ: صِفَةٌ غَالِبَةٌ تطلق على الشَّيْطَانِ، لأَنه طُرِدَ مِنَ السَّمَاءِ، أو لأَنَّهُ أُبْعِدَ مِنْ رَحْمَةِ اللّٰه، ولَعَنْتُ الكَلبَ والذِّئبَ: طَرَدْتُهما، وتَلاعَنَ القَوْمُ وتَلَعّنوا والْتَعَنوا: بِمَعْنى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (غلف).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/599.

لَعَنَ بَعْضُهُم بعضًا، والتّلاعُنُ يَكونُ بَين اثْنَين فصاعِدًا، ومِنَ المَجاز: "أَبَيتَ اللّعْنَ"، وهيَ تَحِيّةُ المُلوكِ في الجاهِليَّةِ، أيْ: لا فَعَلْتَ ما تَسْتَوْجِبُ بِه اللّعْنَ، واللّعْنُ مِنَ اللّهِ تَعالى؛ في الدُّنيا: انْقطاعٌ مِنْ رَحْمَة اللّهِ وتَوْفيقِه، وفي الآخرة: عُقوبَةٌ، واللّعْنُ مِنَ الإنسان: سَبٌّ ودُعاءٌ عَلى غَيْرِه بالطّرْد، واللّعّانُ: كَثيرُ اللّعْنِ، واللُّعْنَةُ: الّذي يَقَعُ عَليه اللّعْنُ كثيرًا، ومِنهُ قولُهم: لَا تَكُ لُعْنَةً عَلَى أَهل بَيْتِكَ؛ أَيْ لَا يُسَبَّنَّ أَهلُ بَيْتِكَ بِسَبَبِكَ، واللُّعَنَةُ: الذي يَلْعَن كَثيرًا[1].

3) ﴿قَلِيلًا﴾: أصلُ الكلمةِ: (قلل)، يقال: قَلَّ الشَّيْءُ يَقِلُّ قِلَّةً فَهُوَ قَلِيلٌ، والقِلَّة تدلّ على: نزارة الشيء، وَيُقَالُ: اسْتَقَلَّ القَوْمُ، إِذَا مَضَوْا لِمَسِيرِهِمْ، وَذَلِكَ مِنَ الإِقْلَالِ أَيْضًا، كَأَنَّهُمُ اسْتَخَفُّوا السَّيْرَ وَاسْتَقَلُّوهُ، والقِلّةُ تُقابلُ الكَثْرَةَ، وتُسْتَعْمَلُ القِلّةُ والكَثْرَةُ في الأَعْدادِ وفي المَعاني كَذلكَ، فيُقالُ: إيمانُه قَليلٌ، وإيمانُه كَثيرٌ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُبيِّن الآيةُ ما قالَهُ اليَهودُ مِنْ أقوالِ التَّحايُل على قَبولِ الحقِّ والإذْعانِ لَه، وما أبانوا عنه من حججٍ واهيةٍ ومزاعمَ داحضةٍ؛ ليَتَهرَّبوا مِنَ الإيمانِ والاسْتِسْلام، فادَّعوا إحاطة قلوبهم بغلافٍ يَمْنَعُها مِنَ السَّماعِ والفَهم، والقلوبُ مُسْتَعْمَلَةٌ في مَعْنَى الأَذْهَانِ، عَلَى طَرِيقَةِ كَلَامِ العَرَبِ في إِطْلَاقِ القَلْبِ عَلَى العَقْلِ[3]، وهُمْ في حَقيقَةِ حالِهِمْ مَلْعونونَ؛ فقليلًا ما يُؤمِنونَ، والآيَةُ تشرحُ حقيقةَ حالِهم الظّاهِرةَ والباطِنَةَ؛ للحَذَرِ من مَسْلَكِهِم، والبُعدِ عَنْ مَنْهَجِهِم.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَيانُ اسْتِمْرارِ اليَهودِ عَلى مَنْهَجِ آبائِهِمْ في تَكْذيبِ الأَنْبِياءِ والرِّسالاتِ

بَلاغَةُ الوَصْلِ في الآيةِ:

الآيةُ معطوفةٌ على ما قبلها، استمرارًا لعَرضِ أفعالِ اليهودِ القبيحة، وقولِهمُ الكَذِبَ مع الرُّسُل، فلم يكنْ كَذِبُهم مُقْتصِرًا على رُسُلِ بني إسرائيلَ، بل كَذَبوا على رسول اللّه محمَّدٍ ﷺ، وكَذَّبوه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، ابن منظور، لسان العرب: (لعن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، الرّاغب، المفردات: (قلل).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/599.

كذلك، فبَيّنتْ هذه الآيةُ قولَهم، فناسَبَ أنْ يكونَ العطفُ بالواوِ لِمُناسَبةِ المعنى واللَّفظِ، إذْ جاءَ العطفُ بجملةٍ فعليَّةٍ على جملةٍ فعليَّةٍ.

نُكْتَةُ الاِلْتِفاتِ مِنَ الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ:

الإعْـراضُ عَـنِ الـمُـسيءِ، وإبْـعادُهُ عَـنْ مَكارِمِ الخِطابِ

التَفتَ السّيَاقُ من الخِطابِ إلى الغَيْبَة، ونُكْتَةُ الانتِقال أنَّ مَنْ أعْرَضَ عن الحقِّ وفعلَ الأفعالَ القبيحةَ والفَظيعة، يَسْتَحقُّ الإبعادَ، وإنْ كانَ حاضرًا لا يُلتفتُ إليه بالخطاب، بل يُعرَضُ عَنه، فيُشارُ إلى هذا الإبْعادِ والإعْراض بخطابِ الغَيْبةِ، "وَقَدْ حَسَّنَ الاِلْتِفَاتَ أَنَّهُ مُؤْذِنٌ بِانْتِقَالِ الْكَلَامِ إِلَى سُوءِ مُقَابَلَتِهِمْ لِلدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَهُوَ غَرَضٌ جَدِيدٌ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا تَحَدَّثَ عَنْهُمْ بِمَا هُوَ من شُؤونِهم مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ، وَجَّهَ الْخِطَابَ إِلَيْهِمْ، وَلَمَّا أُرِيدَ الْحَدِيثُ عَنْهُمْ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، صَارَ الْخِطَابُ جَارِيًا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وأُجْرِيَ عَلَى الْيَهُودِ ضَمِيرُ الْغَيْبَةِ"[1].

تَرَدُّدُ الكَلِمَةِ بَيْنَ الاِسْتِعارَةِ والتَّشْبيهِ البَليغِ:

الاِمْـتِـنـاعُ عَـنِ السَّـماعِ بِأبْلَغِ عِبارَةٍ، ذَهابًا في الضَّلالَةِ، وتَمَكُّنًا مِنَ الغَضَبِ

في قولِه تعالى: ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفٌۢ﴾ اسْتِعارةٌ على ظاهِرِ كلامِ الزَّمخشريِّ، إذْ رأى أنَّ (غُلْف) في الآيَةِ مُسْتَعارٌ مِنَ الأغْلَف الّذي لم يُخْتَنْ[2]، والاستِعارَةُ هُنا مِثْلُ قولِه تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: 223]، فـ(حَرْثٌ) مَجازٌ بِالاستِعارَة، وأصلُه تشبيهُ النِّساءِ بالمَحارِث، تَشْبيهًا لما يُلْقى في أرْحامِهِنَّ - من النُّطَف التي منها النَّسلُ - بالبذور[3].

أو أنْ يَكونَ تشبيهًا بليغًا حُذِفَتْ أداتُه ووَجْهُ الشَّبَه، لزِيادَةِ التَّقْريب في مُشابَهَةِ قُلوبِهم للغُلْف، ووجهُ الشَّبه المَحذوفُ هو كَوْنُ كلٍّ مِنْهما مَحْفوظًا في غِطاءٍ يَمْنَعُ من دُخولِ أيِّ شيءٍ إليه ممَّا يضُرُّهُ ويُؤذيه، قالوا ذلِك على سَبيلِ التَّهَكُّم؛ لأنَّهم كانوا يَعْتَقدونَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/599.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/163، البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/93.

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/266.

أنَّهم أعْقلُ خَلْقِ اللهِ وأهْداهُمْ[1]، وقَصَدوا بِكلامِهِمْ أنَّهم لَيسوا بِحاجةٍ إلى سَماعِ كلامِ رسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ، فهُمْ في غِنًى عنه بما عندَهم من التَّوْراة.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِكَلِمَةِ ﴿غُلْفٌ﴾:

استَعْمَلتِ الآيةُ مُفْرَدَةَ الغُلْفِ؛ لأنَّها تَتَضمّنُ مَعْنَيَيْنِ؛ أَحَدُهما ظاهِرٌ والآخَرُ إشارِيّ:

الجَمْعُ بَيْنَ المَعْنى الظّاهِرِ والإشاريّ بِبَديعِ الاِسْتِعْمال

المَعْنى الظّاهِرُ، وهُو أنَّ القلوبَ مَحْفوظَةٌ مِنْ أنْ يَصِلَ إليها كلامُك فلا نَفْهَمُ ولا نَعي ما تقولُ. والمَعْنى الإشارِيُّ: أنّ كلام النّبي ﷺ ضُرٌّ وأذًى؛ لأنّ الغُلفَ هو الوعاءُ الّذي يَحْفَظ ما بِداخله مِنَ الأذى والضُّرّ، وإذا كان ما يَسْمعونَه مِنَ القُرْآن ضُرًّا وأذًى؛ فهذا يَعْني تَكْذيبَ أنْ يكونَ القُرآنُ كلامَ اللّه، وأنْ يكونَ رسولُ اللّهِ محمَّدٌ ﷺ نبيّا ورسولًا، وأنّ ما يقوله رسولُ اللّه ﷺ ليس إلّا ضَلَالاتٍ، ولو كان حَقًّا لوَعَتْه قلوبُهُم، وجَمْعُ هذه المفردة لِهذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ، يُناسِبُ طَبيعَةَ كَلامِ اليهودِ مِنْ رَمْيِ الآخَرينَ بِألْفاظٍ إشارِيَّةٍ، فناسَبَ الكلامُ الكلامَ.

اخْتِيارُ الأَلْفاظِ المُناسِبَةِ للمَعاني:

لَفْظُ اللَّعْنِ مُناسِبٌ لِعَظيمِ جُرْمِ اليَهودِ في حَقِّ الرُّسُلِ جَميعًا

جاء التعبيرُ باللَّعْنِ للدّلالة على أنَّهُمُ ارْتَكَبوا أشَدَّ الذُّنوبِ، فما قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ إلّا اسْتِكبارًا مِنْهم أنْ يَتْبَعوا رَسولَ اللّه ﷺ، وهذا الاسْتِكبارُ هُوَ امْتِدادٌ لِمَا ذَكَر في الآية السابقة مِن اسْتِكبارِهم على رُسُلِ الله؛ لأنَّ اللَّعْنَ لا يَكونُ إلّا عَلى أشَدِّ القَبائِحِ، وَهَذَا هُوَ الْجَزَاءُ عَلَى الذَّنْبِ بِأَعْظَمَ مِنْهُ[2]، وأفادَتِ الباءُ السَّبَبِيّةَ[3]، فلَعَنَهم اللّه بِسبَبِ كُفْرِهم وإصْرارِهِمْ عَليْه، فجاءَتِ العُقوبَةُ جَزاءً لِعَمَلِهم.

(1) السمين، عمدة الحفاظ: 3/169.
(2) تراث أبي الحسن الحرالي: 1/239، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/25.
(3) البروسوي، روح البيان: 1/17.

دلالة حَرْفِ الإِضْرابِ الإِبْطالِيِّ:

وردَتْ أداةُ (بَل) لإبْطالِ قولِ اليهودِ: (قُلوبُنا غُلْفٌ)[1]، والّذي دَلَّ على هذا الإبطالِ ذمُّ قولِهم ولعْنُهم عَليه، وإنّما يُذَمُّ الكاذبُ المبْطِل، فدلَّ الإضرابُ على ثَلاثَةِ معانٍ:

الأوّل: الإضرابُ عن القَولِ الأولِ وإبطالُه، بمَعْنى أنّها أبْطلَتْ مَعْنى قَوْلِهم: (قُلوبُنا غُلْفٌ)، فقُلوبُهُم لَيْسَتْ بِغُلْفٍ؛ لأنَّها خُلِقَتْ مَفْطورَةً على قَبولِ الحَقّ، مُدْرِكةً للصّوابِ.

الثّاني: تَكذيبُ ما قَبْلَها وصِدقُ ما بَعْدَها، فقد كَذّبَهُم اللّه في قَوْلِهم، ودَلَّ على أنَّ لَعْنَهم ثابتٌ صادِقٌ، أيْ لَيْس الأمرُ كما قالوا، بل قُلوبُهم مُسْتَعِدَّةٌ لِقَبول الحَقِّ، وسَبَبُ خذْلانِهم ورَفضِهمُ الحقَّ هُوَ كُفْرُهُم.

الثّالث: الانتِقال إلى ذِكرِ عُقوبَتِهمْ وبَيانُ سَبَبِها، فبَدلًا مِنْ أنْ يَقولَ: بَل قُلوبُهم ليْسَتْ بِغُلْفٍ، انْتقلَ إلى ذِكرِ لَعْنِهم، وأنَّه بِسَبَبِ كُفْرِهِم وتَماديهِم فيه؛ لِأَنّ مَفْهومَ الإبطالِ يقْتَضي إِثْبَاتَ نَقيضِهِ، فأَوْجَزَ في الكَلامِ[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالفاءِ دُونَ الواوِ:

تَفْريعُ عَدَمِ الإيمانِ عَنِ اللَّعْنِ، وأنَّ الكُفْرَ سَبَبُ كُلِّ مُصيبَةٍ

جاء التَّعْبيرُ بالفاءِ العاطِفةِ في قولِه تعالى: ﴿فَقَلِيلًا﴾، دونَ التَّعبيرِ بالواوِ؛ ليتَرتَّبَ على لَعْنِهم وطَرْدِهم مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ عَدَمُ الإيمانِ، فالفاءُ تَفْريعٌ على اللَّعْنِ، أي: بِسَبَبِ اللَّعنِ اسْتَحقُّوا ألَّا يُؤمِنوا إلّا قليلًا.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغُلْف والأَكِنَّة:

قال اللّه هنا على لِسانِ بَني إسْرائيلَ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، وفي آيةٍ أخرى قال: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصّلت: 5]، والفرق بينهما: أنّ الغلاف هو الغِطاءُ الذي يمنعُ الخُلوصَ إلى الشَّيْءِ ويَحْفَظُه منَ الأذى، والكِنُّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/484.

(2) مجمع البحوث الأزهري، التفسير الوسيط: 1/137.

هو ما يُحْفَظ فيه الشَّيْءُ، فمَدْلولُ الأكِنَّةِ ظَرْفٌ يَقَعُ فيه مَظْروفٌ، ولهذا وَرَدَتِ الكَلِمَةُ في سِياقِ الظَّرْفِيَّةِ، فاسْتُعْمِلَت مَعَها (في) الظرفيَّةِ ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ [فصّلت: 5]، فناسَبَ عِندَ سِياقِ منع دُخولِ الكَلامِ إلى القَلبِ الـمُقتضي أنْ لا يُفْهَم ولا يُفْقَه أنْ يُسْتعمل (غُلْف)، عَلى مَعنى مَنْعِ الخُلوصِ إلَيْه، وعِندَ سِياقِ الظَّرْفِيّةِ أنْ تُسْتَعملَ الأكِنَّةُ؛ ولِهذا وَرَدَ في سِيَاق الأكِنّة: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصّلت: 5].

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة: 89]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعْدَ أنْ بَيَّنتِ الآياتُ السَّابقةُ كُفرَ اليَهودِ بسَببِ مَوقفِهم مِنْ رُسلِ اللهِ حيثُ كذّبوا فريقًا منهم وقتلوا فريقا، شرَعتِ هذه الآيةُ في بَيانِ مَوقفِهم من القرآنِ الكَريم ورَسولِ اللهِ ﷺ، وهُوَ الكُفرُ بَعدَ المَعرفةِ اليَقينيَّة؛ وبذلكَ اسْتَحقُّوا اللَّعنةَ التي ذُكرَتْ في الآيةِ السَّابقةِ، وللسَّببِ نَفسِه، والآيةُ وَرَدَتْ لِقَصْدِ الزِّيادَةِ في الإنْحَاءِ عَلَيْهِمْ بالتَّوْبِيخ - فقَدْ وَرَدَ تَوبيخُهُم في الآياتِ السَّابقةِ كذلكَ - بَعدَ ظُهورِ الأَدِلّة على صِدْقِ الدَّعوةِ المُحَمَّديةِ الإلهيّةِ؛ إذْ إنَّهم كفَروا بِالكِتابِ الذي عَرَفُوا أنَّهُ مِنْ عِندِ اللهِ، وأنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُم[1].

المَعْنَى الإجْمَاليّ:

بَيَّنتِ الآيةُ نِعَمَ اللهِ على اليَهودِ، وما قَابَلوا به تلك النِّعَم مِنَ الأَفعالِ القبيحةِ؛ فأَخبرَتْ عن مَجيءِ القرآنِ، وذكرَتْ وصفَيْنِ: أَحدَهُما: أَنَّهُ مِنْ عندِ اللهِ، وما يَكونُ مِنْ عندِ اللهِ جَديرٌ بأَنْ يتَقَبَّلوهُ بقَبولٍ حَسَنٍ، وأَنْ يأخُذوهُ بمَأخَذِ الطَّاعةِ لأَوامِره ونَواهِيه، والوَصفَ الثّاني: أَنَّه مُصَدِّقٌ لِمَا مَعهُم؛ فهو مُصَدِّقٌ غيرُ مُخالفٍ لِمَا جاءَ في التَّوراة الّتي مَعَهُم في التَّوحيدِ وأُصولِ الدِّينِ، ومُصَدّقٌ لِمَا جاءَ مِنْ وَصفِ النَّبيِّ ﷺ؛ فَلمَّا جَاءَهم القُرآنُ الّذي هُوَ مُصَدِّقٌ للتَّوراةِ عانَدوا، مَعَ أَنَّهُم كانوا يَعْرفونَ نُعوتَ رسولِ اللهِ ﷺ، عالمين بمَجيئِه؛ إذْ إنَّهم كَانوا يَسْتنصرونَ بِهِ على العَربِ المُشرِكين؛ ويقولون: قَرُبَ مبعث نبيٍّ آخرِ الزمان، وسنتَّبعه ونقاتلكم معه، فلمَّا جاءَهم رَسولُ الإسلامِ ﷺ بما عَرَفُوا، كَفَروا بِالقرآنِ وبالرَّسولِ؛ فاسْتَحَقُّوا اللَّعنةَ بسببِ كُفرِهم[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/601.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/93.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مُصَدِّقٌ﴾: يَدورُ مَعْنى الصِّدْقِ عَلَى: قُوَّةٍ في الشَّيْءِ في القَوْلِ وَغيره. مِنْ ذَلِكَ؛ الصِّدْقُ: ضِدُّ الْكَذِبِ، سُمِّيَ صِدْقًا؛ لِقُوَّتِهِ في نَفْسِهِ؛ وَلِأَنَّ الكَذِبَ باطِلٌ لَا قُوَّةَ لَهُ، فَيقالُ: هُوَ صَادِقٌ، وَصَدُوقٌ مُبَالَغَةٌ، وصَدَّق يَدُلُّ على كثرةِ الصِّدقِ، ومُصَدِّقٌ للشَّيءِ بِمَعْنى: مُحَقِّق له، وَإذا قيلَ: صَدَّقْتُه بِالتَّثْقِيلِ؛ فالمعنى: نَسَبْتُهُ إِلَى الصِّدْقِ، وَصَدَّقْتُهُ؛ قُلْتُ لَهُ: صَدَقْتَ[1].

2) ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾: أَصْلُه (فَتَحَ)، وهُوَ نَقيضُ الإغْلاقِ، يقال: فَتَحْتُ البَابَ وَغَيْرَهُ فَتْحًا. ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَى هَذَا سَائِرُ مَا في هَذَا البِنَاءِ، والفتحُ نوعانِ: أَحَدُهما: مُدرَكٌ بالبَصَرِ؛ كفَتْحِ الباب والقُفْل والمَتَاع، والثّاني: مُدْرَكٌ بالبَصيرَةِ؛ كفَتحِ الهَمِّ، وهُو إزالَةُ الغَمِّ، وفَتحُ ما اسْتُغْلِقَ مِن العِلم، ومِنْه الفُتُوحاتُ الرَّبّانيَّةُ، ومايَفتَحُهُ اللّه على عِبادِهِ من العُلومِ، وفَاتِحَةُ كُلِّ شيءٍ: مَبْدؤُه الّذي يُفتحُ به ما بَعدَهُ، وَبِهِ سُمِّيَتْ فاتحةُ الكِتابِ، ويأتِي الفتْحُ بمعْنَى: الحُكمِ والقضاءِ، وبِمعْنَى النَّصرِ، ومنه اسْتَفْتَحْتُ: اسْتَنْصَرْتُ، ويُحتملُ أَنْ يكونَ إنْ طَلبتُمُ النَّصرَ أَو طَلبتُمُ الفَصْلَ في الأَمرِ والحُكْمِ[2]. وكلمةُ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ في الآية بِمَعْنى: يَسْتَنْصِرونَ؛ أي يَسْتَنْصِرونَ اللّه بِبِعثَةِ مُحَمّدٍ - عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ -، أو بِمَعْنَى: يَسْتعلِمُونَ خَبَرَه مِنَ النَّاسِ مرَّةً، ويَستَنبِطُونَهُ من الكُتُبِ مرّةً، والأَوَّلُ أَكثرُ ظُهورًا عندَ المُفَسِّرينَ[3].

3) ﴿فَلَعْنَةُ﴾: أَصْلُهَا مِنْ (لَعَنَ) الدَّالُّ عَلَى: إِبْعَادٍ وطَردٍ على سبيل السُّخطِ و الذَّمِّ، واللَّعْنُ من اللّهِ تعالى في الدُّنْيا انقطاعٌ مِنْ رحمةِ اللّهِ وتَوفِيقِه، وفي الآخِرةِ عُقوبةٌ، واللَّعْنُ مِنَ الإنسانِ سَبٌّ ودُعاءٌ على غَيرِهِ بالطَّرْدِ، واللّعّانُ كَثيرُ اللَّعنِ، واللُّعَنَةُ: الّذي يَقَعُ عليهِ اللَّعْنُ كَثيرًا[4]، وتَقَدّمَ مَعنَى اللَّعنِ في بَيانِ مَعاني مُفرداتِ الآيةِ الثامِنَةِ والثّمانين.

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (صدق).

(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/33.

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 622، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/601.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (لعن).

الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغيُّ:

دلالة حَرفِ الواوِ:

عطفُ الدَّليلِ الفعليِّ على الدَّليلِ القوليّ

جاءَتِ الآيةُ على طَريقَةِ الوَصْلِ بواوِ العَطْفِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ المُقْتضيَةِ التَّشْريكَ في المَعْنى مَعَ ما قَبْلَها؛ لإِفادةِ تَوالي نِعَمِ اللّهِ الكُبرى على بني إسْرائيلَ واسْتِمرارِهم في مُقابَلةِ هذهِ النِّعَمِ بِقَبائِحِ الأَفْعَالِ والأَقْوالِ، فَعَطَفَ بالواوِ للتَّشْريكِ في الجَمْعِ بَينَ مَعْنى هَذهِ الآيةِ وما سَبَقَها.

فَائِدةُ استعمالِ ﴿وَلَمَّا﴾:

بيانُ سُرْعةِ المُكذِّبين إلى تَكذيبِ القُرآنِ مِنْ غيرِ رَوِيَّةٍ

(لَمَّا) ظَرفٌ بمعنَى حِينَ وتُفيدُ الشَّرطَ[1]، وتأتي في سِياقِ الزَّمَانِ الماضي، وهي مَعَ إفادَتِها الحِينَ تُلمِحُ إلى التَّعليلِ في بناءِ الجَزاءِ على الشَّرطِ؛ فيكونُ "التَّكْذيبُ حَاصِلًا بِنَفْسِ مَجيءِ الكِتَابِ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ فِيهِ وَلَا رَوِيَّةٍ، بَلْ بَادَرُوا إِلَى تَكْذِيبِهِ"[2]؛ أي: بمُجرَّدِ مجيءِ الكِتابِ مِنْ عِنْدِ اللّهِ، مُصدِّقًا لِمَا مَعَهُم حَصَلَ التَّكذيبُ.

العُدولُ عَن مُقتَضَى الظَّاهِرِ بِحَذفِ جَوابِ الشَّرْطِ:

استِحضارُ سَعَةِ المَعَاني المُقدَّرةِ مِمَّا يَقْتضِيه سِياقُ الكَلَامِ

جَاءَ جَوابُ الشَّرطِ مَحْذوفًا في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾، وحَذفُه أبلغُ من ذكرِه لِسَعَةِ المَعاني المُعبِّرةِ عَنهُ مِمّا هُو مَعروفٌ مِنْ أفعالِ اليهودِ، من مثلِ التَّكذيبِ والإهانةِ والجُحودِ والاستكبارِ والإعراضِ والتَّولّي وغيرِها، فلَوْ قِيلَ في الجَوابِ: (كَذَّبُوا، أو جحدُوا، أو كفرُوا) لَصَحَّ الجوابُ، ومثلُه بَقيَّةُ المعاني، ويَرِدُ هذا الأسلوبُ في مثلِ مقامِ التَّهويلِ أو التعظيمِ؛ "وإنَّما صَارَ الحذفُ في مثلِ هذا أبلغَ مِنَ الذِّكرِ؛ لأَنَّ النَّفسَ تذهبُ فيه كُلَّ مَذهبٍ، ولَو ذُكِرَ الجوابُ؛ لَقُصِرَ على الوجْهِ الذي تَضَمّنَه البيانُ"[3]؛ لهذا قالَ الزَّمخشري: "وجوابُ لَمَّا مَحذوفٌ وهو نحو:

---

(1) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/369.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/487.

(3) الرمّاني، النكت في إعجاز القرآن، ص: 77.

كَذَّبُوا به، واسْتهانوا بِمجيئِه"[1]؛ فليس جوابُ (لمّا) الثانيةِ دليلًا على المَحذوفِ، الّذي قدَّرَه بعضُهم: (كَفَرُوا)[2] فحسب، بلْ هو أَوسعُ من ذلك[3].

بلاغة المجاز العقلي:

إظهارُ عَظَمةِ الكِتابِ، وبيانُ طُغيانِ المُقابلِ وكِبْرِه

إسنادُ المَجيءِ إلى الكِتابِ في قولِه تعالَى: ﴿جَآءَهُمۡ كِتَٰبٌ﴾ مجازٌ عقلي[4]؛ لاستِحالَةِ صدورِ المجيءِ عنِ الكتاب؛ إذِ الّذي جاءَ به هُو رَسولُ اللّهِ ﷺ، وفي هذا الأسلوبِ البَلاغيّ أربعُ لَطائفَ تَعبيريَّةٍ:

الأُولَى: إظهارُ عَظَمةِ الكِتابِ وأَهمّيَّتِه.

الثَّانية: إبرازُ نِعَمِ اللّهِ عليهِم؛ فقدْ جاءَهُم الكِتابُ، ولَمْ يُطلبْ مِنْهم الذَّهابُ إليه.

الثَّالثة: بيانُ استِكبارِهم وتعنّتِهم؛ فَهُم لَمْ يَطلُبوه، ولا بَحَثُوا عنه، بلْ جاءَهُمْ وهُمْ في دِيارِهم.

الرَّابعة: الإشارَةُ إلى أنَّ الكِتابَ نزَلَ على رَسولِ اللّه ﷺ، ولم يَنْزِلْ عليهم، ثمَّ جاءَهُم الرّسولُ بهذا الكِتابِ لِيُؤمِنُوا بِهِ.

فائِدةُ التَّعديةِ بالفعلِ لا بالحَرفِ:

دَفعُ تَوهّمِ خُصوصِ مَجيءِ الكِتابِ إلى اليَهودِ

يتعدَّى فِعلُ المجيءِ بنَفسِه وبالحَرف، وفي هذا السِّياقِ تَعدَّى الفِعلُ بنَفسِهِ؛ فلم يُقلْ: جاءَ الكِتابُ إليهِم؛ لدَفعِ توهّمِ خُصوصِ المَجيءِ إليهِم، فلو قالَ: إليهِم؛ لَظُنَّ أنَّ الكِتابَ جاءَ إليهِم على وَجهِ الخُصوصِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمَجيءِ دونَ الإتيانِ:

تقويةُ حُكمِ المَجازِ العَقليِّ في الإسْنادِ، وتَصويرُ الكِتابِ عِيانًا

عَبَّرتِ الآيةُ بفعلِ المَجيءِ لا بِفعلِ الإتيانِ؛ فلَمْ يُقَل: "ولمَّا أَتاهُم كِتابٌ"؛ ذلك أنَّ المَجيءَ فيهِ قَصْدٌ مَعَ اعْتِبارِ تَحقّقِ حُصُولِ مَجيءِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/164.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/487.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/487.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/468.

الكِتابِ إِليهم، والإتيانُ قدْ لا يَكونُ فيهِ ذلكَ الحُصولُ[1]، وَلِملاحظةِ المَعْنى الحِسّيِّ في الكِتابِ؛ فَإِنَّ المَجيءَ يَغلُبُ في المَادِّيَّاتِ المَحْسوساتِ؛ فَهُو الكِتابُ المَرئيُّ المُشاهَدُ، وهُوَ مَا يُقوِّي حُكمَ المَجازِ العَقْليِّ.

فائِدةُ التَّنوين في كلمةِ ﴿كِتَٰبٌ﴾:

الـدّلالـة على تَعظيمِ الكِتابِ أَصالةً وإِضافَةً

أَفادَ التَّنوينُ في كلمةِ ﴿كِتَٰبٌ﴾ تعظيمَ الكتابِ وتَفخيمَه[2] وعلوّ شأنه، فَكَأَنَّه قال: جاءَهُم كِتابٌ عَظيمٌ شأنُه، ثُمَّ بَيَّن سَبَبَ عَظَمته حينَ وَصَفَه بأَمرين: الأوّل: أنَّه ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وهذِه عَظَمةٌ ذاتيَّةٌ، الثَّاني: أنَّه ﴿مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾، وهذِه عَظَمةٌ إِضافيَّةٌ، تقْتَضي مَزيدَ تَعظيمٍ مِنْ جِهَةِ اليَهودِ لهذا الكِتابِ، وإِنْ كان حالُهُم على خِلافِ ذلك.

فائِدةُ حَرفِ الابتِداءِ ﴿مِّنۡ﴾:

الإلـزامُ بقبولِه واتِّـبـاعِ ما فيه؛ لربَّانيَّتِهِ ومَصدريَّتِه

نبَّهَ حَرفُ الابتداءِ على أنَّ هذا الكِتابَ جاءِ ابتداءً ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الّذي يدَّعون عِبادتَه واتِّباعَ أوامِره؛ فَليسَ للرَّسولِ إِلَّا إيصالُه وبَيانُه للنَّاسِ، وهوَ مَوصوفٌ بأَنَّه مِنْ عِنْدِ اللّهِ[3]، وفائِدَةُ ذلك الإشعارُ بأنَّه "جَديرٌ أَنْ يُقْبَلَ، وَيُتَّبَعَ مَا فِيه، وَيُعْمَلَ بِمَضْمُونِه؛ إِذْ هُوَ وَارِدٌ مِنْ عِنْدِ خَالِقِهِمْ وَإِلَهِهِمُ الَّذِي هُوَ نَاظِرٌ فِي مَصَالِحِهِمْ"[4].

نُكْتَةُ تَوالي الصِّفاتِ:

إثبـاتُ تصديقِ الـكـتـابِ للتَّوراةِ وعدَمِ معارَضتِها

جاءَ قولُه تعالَى: ﴿مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ صفةً[5] ثانيةً لكتابٍ؛ وذلك لإثباتِ أمرٍ زائدٍ عمَّا جاء في الصِّفةِ الأولى، وهو أنَّ الكِتابَ لَمْ يجئْ معارِضًا أو مكذِّبًا، بل جاءَ مُصدِّقًا لِمَا مَعَهُم من التَّوراةِ، وهذا دَليلٌ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 221.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 1/349.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/164، والبروسوي، روح البيان: 1/176، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 2/273.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 1/468.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/164، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/468.

آخرُ على صِدقِهِ لَدَى المخاطَبين، وهو يُؤَيِّدُ أنّه منْ عِندِ اللهِ تعالى لديهِم كذلك، وبه يُلزَمون الحجَّةَ بهذا الدَّليلِ.

نُكْتةُ مَجِيءِ اسمِ الفاعِلِ بِصيغةِ مُصَدِّق:

الـدّلالــة على كَـثرةِ التَّصديقِ والمَوافقةِ لِبناءِ قِيَمِ التَّواصُلِ

مَجيءُ الصِّفةِ ﴿مُصَدِّقٞ﴾ على صيغةِ اسمِ الفاعِلِ؛ لإفادةِ كَثرةِ ما فيهِ مِنْ تَصديقِ التَّوراةِ ومُوافَقَتِها؛ لِأَنَّ ﴿مُصَدِّقٞ﴾ مُشْتَقٌّ مِنَ الفِعلِ "صَدَّقَ" على وزنِ فَعَّلَ الدَّالِّ على الكَثرةِ، ولَمَّا تَعَلَّقَ اسمُ الفاعلِ ﴿مُصَدِّقٞ﴾ بـ﴿لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ دلَّ على أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بكَثرةِ التَّصديقِ والـمُوافقةِ لِمَا مَعَهُم، وهوَ يُعزِّز بناءَ قِيَمِ التَّواصلِ التي يَحرِصُ عليها الإسلامُ، لا قِيمِ الانقِطاعِ والتَّخاصُمِ الّتي يمارِسُها الـمُكذِّبون.

تقديمُ الصِّفةِ الأولى على الثَّانيةِ:

تـقـديـمُ الأصـلِ عـلـى الـفَـرعِ، والـقـاعِـدَةِ على أركانِها

قُدِّمتِ الصِّفَةُ الأُولى ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ على الصِّفةِ الثّانية ﴿مُصَدِّقٞ﴾؛ لِأَنَّ "الوصْفَ بكَينونَتِهِ مِنْ عنْدِ اللهِ آكَدُ، وأنَّ وصفَهُ بالتَّصديقِ ناشِئٌ عنْ كَونِهِ مِنْ عِندِ اللهِ"[1]، فالوصفُ الثّاني ﴿مُصَدِّقٞ﴾ مُتَرَتِّبٌ على كونِهِ مِنْ عنْدِ اللهِ، كمَا يُفيدُ أَنَّ كُلَّ ما كانَ مِنْ عندِ اللهِ فهوَ حَقٌّ؛ لِأَنَّ الـمُصدِّقَ لا يكونُ كذلك إلَّا إذا كانَ هُوَ بِنفسِهِ صِدْقًا وحَقًّا.

سرُّ تَعْدِيَةِ اسْمِ الفَاعِلِ باللَّامِ:

مِـنْ خَـصائِـصِ الـقـرآنِ أنّـهُ مُـصَدِّقٌ للكُتُبِ السَّابِقَةِ

تعدَّى اسمُ الفاعِلِ باللَّامِ لا بنفسِه، فلم يقُل: مصَدِّقٌ مَا مَعَهم، فأَفادَتِ اللَّامُ تقويةَ تَعلُّقِ ﴿مُصَدِّقٞ﴾ بـ﴿لِّمَا مَعَهُمۡ﴾؛ لأَنَّ الذي مَعَهُمْ هوَ مِنْ عندِ اللهِ، والقرآنُ الّذي نَزَلَ على النَّبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ هو مِنْ عندِ اللهِ كذلكَ، فَناسَبَ استعمالُ لامِ الاختصاصِ في الكلامِ، تقويةً لِمعنى اختِصاصِ التَّصديقِ بالقرآنِ لِمَا مَعَهُمْ مِنَ التَّوراةِ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/468، وينظر: ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 2/273.

قيامُ الخطابِ القرآنيِّ على قِيمِ الهدايةِ والحوارِ؛ إلزامًا لِلخَصْمِ، وتثبيتًا لِلحُجَّةِ

سِرُّ التَّعبيرِ بالمَعِيَّةِ دُونَ العِنْديَّةِ:

عبَّرتِ الآيةُ القرآنيَّةُ بالمَعيَّةِ دونَ العِنديَّةِ في قولِه تعالَى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ ولم يُقلْ: (لِمَا عِندهُم)؛ وهذه سُنَّةُ القرآنِ في الإخبارِ عن التَّوراةِ في أيدي اليهودِ، كَما في قولِه تعالَى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: 41]، وقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ [آل عمران: 81]، وقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء: 47]، والمَعيَّةُ تدلُّ على مُصاحبتِهم للتَّوراةِ، والواقِعُ يدُلُّ على أنَّ التَّوراةَ عندَهُم لا مَعَهُم؛ فالتَّوراةُ كانَت بأيدِيهم وكانوا يَدرُسونَها فيما بينَهم، ولَمْ يلتَزِمُوا العملَ إلّا بِمَا يُوافِقُ أَهواءَهم؛ فلا يُطلق على ذلك مَعيَّة، بل عِنديَّة؛ فيُسأل عن سرِّ ذلك؟ والجوابُ: أنَّ الخطابَ القرآنيَّ قامَ على قِيَمِ الهِدايةِ والحوارِ، لا على الخُصومةِ والشِّجارِ، إلَّا إنْ صَدرَ عنِ الخَصمِ خلافُ ذلك، فالرَّدُّ خلافُ ذلك، واليهودُ يدَّعونَ العملَ بالتَّوراةِ ومُصاحَبتَهُم لَها؛ فكانَ المُناسِبُ خِطابَهم بِمَا يدَّعونَهُ استمالةً لقلوبهم وإلزامًا لَهم؛ فإذا كان ادِّعاءُ ذلك صَحيحًا فهم مُلزَمون بالإيمانِ بهذا الكِتابِ المُصَدِّقِ لكتابِهِم الّذي يصْحَبونَه، وإلّا كَذَبوا في زَعْمِهم وادِّعائهم.

بيانُ التَّناقُضِ بينَ انتظارِ الرَّسولِ، والتَّكذيبِ به عندَ مَجيئِهِ

فائدةُ جُملةِ الحالِ:

قولُه تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ، وفائدتُها: "اسْتِحْضَارُ حَالَتِهِمُ العَجِيبَةِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِالكِتَابِ وَالرَّسُولِ في حَالِ تَرَقُّبِهِمْ لِمَجِيئِهِ وَانْتِظَارِ النَّصْرِ بِهِ، وَهَذَا مُنْتَهَى الخِذْلَانِ وَالبُهْتَانِ"[1].

العنايةُ بالحالةِ الزَّمانيَّةِ؛ لزيادةِ التَّعجُّبِ من حالِ المُكذِّبين

بلاغةُ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المُسْنَدِ:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِن قَبۡلُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، على المُسْنَدِ ومُتعلَّقه ﴿يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ إذ الأصلُ في ترتيبِ الكلامِ: "وَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/602.

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ"؛ لِيدلَّ على أَهميّةِ الحالَةِ الزَّمنيَّةِ والعِنايَةِ بها، فمَعرِفتُهم بالنَّبيِّ الأُميِّ كانت قبلَ مجيءِ القرآنِ إليهم، وكانت صِفاتُه ونُعوتُه - ﷺ - مكتوبةً عندهم في التَّوراةِ والإنجيلِ، وليدلَّ كذلكَ على الزيادةِ في التَّعجُّبِ من الحالِ التي كانوا عليها، ثمّ صاروا إليها.

نُكتةُ تَعْديةِ فعلِ الاستفتاحِ بِحرفِ الاسْتعلاءِ:

بيانُ تكبُّرِ اليَهودِ علـى الـعَـربِ، وشَديدِ كفرِهم وعِنادِهم

تعدَّى الفعلُ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ بحرفِ الاستعلاءِ لفائدتين: إحداهما ظاهرةٌ، والأخرى إشاريَّةٌ؛ أمَّا الظَّاهرةُ فهي أنَّ اليهودَ يَعتقدونَ أنَّهُم أَفضلُ مِنَ العربِ المُشركينَ؛ فقدْ كانُوا أَهْلَ كِتابٍ وَمَعرِفةٍ باللّهِ وشرائعِه؛ ولهذا كانَ الاستفتاحُ بعُلُوٍّ واستظهارٍ على العربِ، كمَا أَنَّ النَّصرَ الّذي يَدلُّ عليه الفَتحُ يدلُّ على عُلُوِّ المُنتصِرِ واستظهارِهِ على المَهزومِ، وأَمَّا الإشاريَّةُ فهي بيانُ شديدِ كُفرِهم وعِنادِهم؛ فقد استَغْنَوا عن النَّصرِ والتَّمكينِ الّذي يَعلمونَه من هذا النَّبيِّ، إلى الكفرِ والهَزيمةِ الّتي يَعرفونَها ممَّنْ يُعادِيه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالكفرِ دونَ الشِّركِ:

بـيـانُ الاعـتـبـارِ الّــذي يـنطـلِـقُ منهُ الـيَـهـودُ في مُعاداةِ الآخَرِ

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ الكُفرِ في صِلةِ الموصولِ في قولِه تعالَى: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دونَ أَشْرَكوا؛ ذلك أَنَّ اليهودَ لم يكونُوا مُلْتَفِتين إلى خَطرِ الشِّركِ باللهِ تعالَى - معْ زَعْمِهم التَّوحيدَ -، بلْ كانَ غايةُ حالِهم هو معاداةَ مَنْ يُخالِفُهم في دينِهم بوصفِهم أصحابَ ديانَةٍ كتابيَّة، فالاعتبارُ عندَهم هو مخالفَةُ الآخَرِ لذاتِهم الدِّينيَّةِ، لا مخالفةُ الآخرِ للحَقِّ؛ فلِذلكَ آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ لفظِ الكفرِ، بخلافِ الشِّرك؛ للتَّنبيه على منهجِهم، والحَذَرِ مِنْ زَيفِهم.

بلاغةُ كَسْرِ المُتوقَّعِ:

المَجيءُ بعَكسِ المَطلوبِ إيغالٌ في الكُفرِ، وقبحٌ في السُّلوك

أَفَادَت (لـمَّا) الثَّانيةُ أَنَّ مَعرفتَهم بالقرآنِ والرَّسولِ كانَتْ سَبَبًا لِكُفرِهم، علَى عَكْسِ المَرْجُوِّ وهوَ أَنْ تَكونَ المَعرفةُ سَبَبًا إلى الإيمانِ؛ لِيدلَّ على قُبحِ أَفْعالِهم وفَظاعةِ تَصَرُّفاتِهم مَعَ رُسُلِ اللّهِ،

وتختلفُ النُّكتةُ هنا عن النُّكتةِ الأولى في إسنادِ المجيء ففي الأولى لـ(كتاب)، وهنا لـ(ما عَرَفوا)؛ فمجيءُ (الكتابِ) هو علَّةُ الكفرِ والتَّكذيبِ، ومجيءُ (ما عَرَفوا) هو المُفاجِئُ في الكُفْرِ، فهما نُكتَتان مُستقلَّتان مُتواصِلَتان، واستقلالُ النُّكتَتَيْن هو الذي يَجعلُ وظيفةَ (لمَّا) الثَّانيةَ بيانيَّةً مُختلِفةً عن وظيفةِ الأُولى، وإلَّا لوَقَعَ التِّكرارُ الّذي لا يَليقُ بنظمِ القُرآنِ الكريم.

نكتةُ العُدولِ عن مُقتَضَى الظَّاهِرِ:

الـدّلالـة على الـعُـمـومِ؛ ليشملَ الكِتابَ والرَّسولَ

عَدَلَ النَّظمُ عَنْ: "فَلَمَّا جَاءَهُمُ الكِتَابُ"؛ أي: المذكورُ في أوَّلِ الآية؛ فتكون اللامُ للعهدِ الذِّكريّ، إلى إيرادِ لفظٍ يُفيدُ العُمومَ، وهو الاسمُ المَوْصُول؛ فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾؛ لِيَكُونَ اللَّفْظُ أَشْمَلَ؛ فَيَشْمَلَ الكِتَابَ وَالرَّسُولَ الَّذِي جَاءَ بِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجِيءُ كِتَابٌ إِلَّا مَعَ رَسُولٍ، وَوَقَعَ التَّعْبِيرُ بِـ(مَا) الْمَوْصُولَةِ دُونَ (مَنْ) لِأَجْلِ هَذَا الشُّمُولِ؛ لأنَّ (ما) تشملُ العاقِلَ وغيرَه إذا اجتمعا[1].

بلاغةُ الإيجازِ بالحَذفِ:

تَقليلُ اللَّفظِ لِتكثيرِ المَعنَى وتَعميمِهِ

حُذِف العائدُ في قوله تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾، فَلَمْ يَقُل: "فَلَمَّا جَاءَهُمْ ماعرَفُوه"؛ لِيُفيدَ عُمومَ المتعلّق[2]، فصار المعنى: فلمّا جاءَهُم كُلُّ ما عَرَفوه من الكِتابِ والشَّريعةِ وأَوصافِ سيِّدِنا محمّد ﷺ؛ فحُذِفَ ليَشملَ اللَّفظُ هذه المعاني كلَّها.

سرُّ التَّعبيرِ بلَفظِ الكُفرِ دونَ التَّكذيبِ:

الـتَّـوبـيـخ والـتَّـحـقـيرُ بإلحاقِ اليَهودِ بِـمَـن كـانـوا يـحـتَـقـرُونَـهُـم لِكُفرِهم

عبَّرَت الآيةُ بلفظِ الكفرِ في قولِه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾، دونَ التَّكذيبِ أو الافتراءِ عليه؛ لاشتمالِ لفظِ الكفرِ على هذِهِ المعاني، ولِلَمْزِهم بإلحاقِهم بالّذين كفرُوا المُستَفتَح عَلَيْهِم في قولِه تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ فاليهودُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/601.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/487.

كَفَرُوا كَمَا كفَرَ غيرُهم من الـمُشركينَ، فهُمْ في ذلك سَواءٌ، بلْ هُمْ أَشَدُّ كُفْرًا لِمعرفتِهم وجَهلِ العَربِ، وليسَ العارفُ كالجاهلِ! وفيهِ مِنَ التَّبكيتِ والتَّوبيخِ والتَّحقيرِ ما لا مَزيدَ عليهِ.

دلالة حَرْفِ الفَاءِ:

تَرتيبُ النَّتيجةِ على السَّببِ، ومُقابلةُ الاستهانةِ بالاستهانةِ

لَمَّا كَانَ الكِتَابُ جَائِيًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، فَكَذَّبُوهُ وَسَتَرُوا مَا سَبَقَ لَهُمْ عِرْفَانُهُ، فَكَانَ ذَلِكَ اسْتِهَانَةً بِالْمُرْسِلِ وَالْمُرْسَلِ بِهِ، قَابَلَهُمُ اللَّهُ بِالِاسْتِهَانَةِ وَالطَّرْدِ[1]؛ فكانت لعنةُ اللّهِ مُترتّبةً على اسْتِهانَتِهم بِمَا أَنْزَلَ اللّه وبالرَّسولِ، فقال اللّه تعالى: ﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

التَّغايُرُ في وَصفِ الفاعِلِ:

تَنزيلُ الجُملةِ الأولى منزلةَ التَّوطِئةِ للثَّانيةِ، تدرُّجًا في بيانِ الحقائقِ

غايَرَتِ الآيةُ بين فاعِلِ المجيءِ في قولِه تعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٌ﴾، وقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾، فذَكَرتِ الجُملةُ الأولى الكتابَ، والثَّانيةُ الاسمَ الموصولَ الـمُتضمِّنَ معرفتَهم بالرَّسول والرِّسالةِ وعلاماتِهما؛ ذلك لتنزيلِ الجملةِ الأولى منزلةَ التَّمهيدِ والتَّوطِئةِ للجملةِ الثَّانيةِ، فلمَّا جاءَهم الكِتابُ، جاءَهم الـمَعروفُ لَدَيهم من كتابِهم، فوقعتِ الثَّانيةُ مباغتةً ومفاجئةً للمتلقِّي، فكانت الأولى مصرِّحةً بمجيءِ الكتابِ، متضمِّنةً مجيءَ الرَّسولِ، والثَّانيةُ مصرِّحةً بهما معًا، وهذا من بديعِ التَّدرُّجِ في بيانِ الحقائقِ بما يتَّفقُ مع واقعِ الـمُتحدَّثِ عنهُم.

فائدةُ وَضْعِ الظَّاهِرِ موضعَ المُضمَرِ:

سببُ اللَّعنةِ، الاعتبارُ العَقَدِيُّ لا الاعتبارُ الشَّخصيُّ

وُضِعَ الظَّاهرُ موضعَ الـمُضْمَرِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، إذِ الظَّاهرُ: فلعنةُ اللّه عليهم، لكنَّه آثرَ ذلك لبيانِ أنَّ سببَ اللعنةِ هو كفرُهم، أي: باعتبارِهم العقديِّ، لا باعتبارِهم الشخصيِّ، ولمراعاةِ الفواصلِ بعد ذلك.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/487.

دلالة (ألْ) في لفظِ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بَينَ العَهديةِ والجِنسيَّةِ:

تحتملُ اللامُ في كلمةِ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الجِنسَ، أي: جِنسَ الكافرين؛ فيكونُ ذلكَ مِنْ قَبيلِ ذِكرِ الجِنسِ، فتفيدُ عمومَ الكافرينَ، ويُلحَقُ المتحدَّثُ عنهم بهم[1]، ويُحتمَلُ أَنْ تكونَ للعَهدِ، أَخذًا مِمَّا وَرَدَ في السِّياقِ: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾[2]، والوَجهانِ مُتآيلانِ لا متدافعانِ.

فائدةُ حرفِ الاستعلاءِ:

أفادَ حرفُ الجَرِّ (على) استعلاءَ اللَّعنةِ وتمَكُّنَها من الكَافِرين، فلَمْ يَكْتَفِ النَّظمُ باللَّعْنَةِ حَتَّى جَعَلَهَا مُسْتَعْلِيَةً عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُ شَيْءٌ جَاءَهُمْ مِنْ أَعْلَاهُمْ، فَجَلَّلَهُمْ بِهَا[3]؛ ليدلَّ على تمكُّنِ اللَّعنةِ منهم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/165، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/603.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/165، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/488.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/488.

﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠﴾ [البقرة: 90].

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ختمَ اللّٰهُ الآيةَ السَّابقةَ بلعنةِ اللّٰهِ على الكافرينَ التي تُفيدُ نهايةَ الذَّمِّ لَهُم، وَصلَ بِهِ قولَه تعالى ﴿بِئۡسَمَا﴾، فأَتَى بالكلمَةِ الجَامعةِ للمذامّ كلِّها، مُبيِّنًا عِلَّةَ كفرِهم، وسَبَبَ ما استَحَقُّوه بهذا الذّمِّ، وهوَ شِراؤُهُم أَنفسَهم بالكفرِ، بَغيًا وَحَسَدًا أَنْ يُنَزِّلَ اللّٰه من فضلِه على رَسولٍ لَيسَ مِنْ قَومِهم، وأَنْ يَرَوا كِتابًا مُصَدِّقًا لِكتابهم[1]، وقدْ تكونُ المناسبةُ استئنافًا لذمِّهِم وتَسفيهًا لِعقولِهم؛ إِذْ كَفروا بِالقرآنِ وَبِرسولِ اللّٰهِ محمَّدٍ ﷺ، بغيًا وحسدًا أنْ يُنَزِّلَ اللّٰهُ مِنْ فَضلِهِ على رَسولٍ اصطفاهُ من العَرَبِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بِئۡسَمَا﴾: أَصْلُ الكلمةِ مِنَ: البُؤْس، ويدورُ على معنى: الشِّدَّة، والكلمةُ مَنْقُولةٌ مِنْ: بَئِسَ فُلَانٌ؛ إِذا أَصابَ بُؤْسًا، فتكونُ بمعنى: شِدَّة الحرب وشِدَّة العذاب، والبُؤْسُ: شِدَّةُ العَيشِ، ولا بأسَ عليكَ؛ بمعنى: لا شِدَّةَ عليك، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى قِيلَ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ؛ أَي: لَا خَوْفَ، و(بِئْسَ) كلمةٌ تُستعملُ في جميعِ المَذامّ مُسْتوفيةً لَها، وتتَّصلُ بها (ما)، فإذا قلتَ: بِئْسَما كانَ يفعلُ زيدٌ، فَكأنَّك قُلتَ: استحقَّ زيدٌ الذَّمَّ الّذي يكونُ في سائرِ جنسِه[3].

2) ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾: يَدُلُّ الشِّراءُ عَلَى تَعَارُضٍ مِنَ الاثْنَيْنِ فِي أَمْرَيْنِ أَخْذًا وَإِعْطَاءً، ولفظُ البيعِ والشِّراءِ يُستعملُ كلُّ واحدٍ منهما في مَوضعِ الآخَرِ، وذهبَ أكثرُ المُفسِّرينَ إلى أَنَّ (اشْتَرَوا) في الآيةِ بمعنى: بَاعُوا، وذهبَ بعضُهم إلى أَنَّهُ على أَصلِه بمعنى الشِّراء[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 2/43.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/603.

(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/133.

(4) الرازي، التّفسير الكبير: 3/601، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/489.

3) ﴿بَغْيًا﴾: البَغْيُ يدور على معنيين؛ أَحَدهما: طَلَبُ الشَّيْءِ، وَالثَّاني: جِنْسٌ مِنَ الفَسَادِ. فَمِنَ الأَوَّلِ بَغَيْتُ الشَّيْءَ أَبْغِيهِ: إِذَا طَلَبْتَهُ، وما ينبغي كذا؛ أي: ليس بصوابٍ طَلَبُهُ. ومن الثاني قَوْلُهُمْ: بَغَى الجُرْحُ: إِذَا تَرَامَى إِلَى فَسَادٍ، وَالبَغْيُ: الظُّلْمُ، ويكونُ مذمومًا إذا تجاوزَ الحَقَّ إلى الباطلِ -بِمعنى المُعاملةِ بغيرِ حَقٍّ-، وَهُوَ المَقصودُ في الآيةِ، أو تَجاوزه إلى الشّبهِ؛ فالبغي في أكثرِ المَواضعِ مذموم[1]، وذهب أكثرُ المفسّرينَ إلى أنَّ ﴿بَغْيًا﴾ في الآيةِ بمعنى: (حسدًا)[2]، والحَسَدُ طَلبُ ما ليسَ للحاسدِ، فيكونُ مِنَ البغيِ بمعنى الطَّلَبِ، أَو هو نوعٌ من الظُّلْمِ للمَحسودِ، فيكونُ مِنَ البغيِ بِمعنى: الظُّلْم.

4) ﴿فَبَآءُو﴾: أصله (بَوَأ)، قُلِبَت الواوُ ألفًا لِتحرُّكِها وانفتاحِ ماقبلَها، فيُقالُ: باءَ يَبُوءُ بَوْءاً، ويدلُّ أصلُ باءَ على معنيين؛ أَحَدهمَا: الرُّجُوعُ إِلَى الشَّيْءِ، ومنه: باءَ إلى الشَّيءِ: رجعَ إليه، ومنه: بَوّأْتُه مَنزلًا، بمعنى: أَنزلتُه، والمَعنَى الثاني لِـ(باءَ) يدلُّ على تَساوِي الشَّيْئَيْنِ وتَكافئهما، فيقالُ: فلانٌ بَواءٌ لِفلانٍ؛ إذا سَاواه، و(باؤوا) في الآيةِ بمعنى: رَجَعُوا بِغَضَبِ اللّهِ، أو بمعنى: حَلُّوا مُبَوَّءًا مُكافِئًا لَهم ومعهم غَضَبُ اللّهِ؛ أي: عقوبتُه[3]، وكلمةُ (باؤوا) أَكثرُ ما تُقالُ في الاستعمالِ الشَّائعِ في الشَّرِّ[4].

5) ﴿بِغَضَبٍ﴾: الغين والضَّاد والباء تدور اشتقاقاتُها على معنى الشدَّةِ والقوّة، ومِنْهُ سُمِّيت الصَّخرةُ الصّلبةُ بالغَضْبَةِ[5]، ومِنْهُ الغضَبُ؛ فإنَّه دالٌّ على شدّةِ الغاضبِ وقوَّتِه، والغضب هو السخط؛ ضد الرضا[6].

وغضبُ اللّهِ تعالى المذكورُ في قوله سبحانه: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ هو غضبٌ يليقُ بجلَالِ اللّه وعظَمَتِه، المتضمن سخطه عليهم وعدم رضاه عنهم.

6) ﴿مُّهِينٌ﴾: أَصلُهُ: (هَانَ) يَهونُ هَوْنًا، ويدورُ على مَعنَيَين مُتضادّين بِحسَبِ سياقِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (بغي).
(2) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/173، وابن جرير، جامع البيان: 2/342.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بَوَأ).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/28.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غضب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (غضب).

المَدحِ أو الذَّمِّ: فيكونُ مَدحًا بمعنى: السَّكينَةِ وَالوَقارِ، ويكونَ ذَمًّا بمعنى: هَوَانِ الشَّيْءِ الحَقيرِ الهيِّنِ الَّذِي لَا كَرامةَ لَهُ، ومنه: أهنتُ فُلانًا وتهاوَنتُ بِهِ واستهنتُ بِهِ، "والعربُ إذا أرادتْ بـ(الهُون) معنى الهَوانِ ضَمَّت(الهاءَ)، وإذا أرادتْ به الرِّفقَ والدَّعَةَ وخِفَّةَ المَؤونةِ فَتَحت(الهاءَ)، فقالوا: هو قليلُ هَوْنِ المَؤونَةِ"[1]، وكلمةُ (مَهين) لمْ تُستعملْ في الكلامِ إلَّا في الذَّمِّ بمعنى الإهانةِ، ويوصفُ بها مَنْ نُزِعَتْ منهُ الكرامةُ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ذَمَّ اللّه تعالى اليهودَ بكلمةٍ تَجمعُ كُلَّ أَنواعِ الذَّمِّ وَمُوجباته، فَبِئْسَ الشَّيءُ الذي باعَ به اليهودُ أنفسَهم لِيختارُوا الكفرَ على الإيمانِ، وكفرُهم ليس عنْ جهلٍ باللّهِ وبرسلِه وبرسولِه، بلْ هو عن ظُلْم وَحَسَدٍ أَنْ يُنَزِّلَ اللّه الوحيَ مِنْ فضلِه على مَنْ يختارُه ويَصطفيه مِنْ عبادِه الذين هُمْ أَهلٌ لِحَملِ أَعباءِ الرسالةِ؛ فاليَهودُ كَفَرُوا حَسَدًا عَلَى خُرُوجِ النُّبُوَّةِ مِنْهُمْ إِلى العَرَبِ، واختيارُ الرَّسولِ هو بمشيئةِ اللّهِ؛ فهو الذي يَعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَهُ، وليسَ الأمرُ برغباتِهم وتَمنِّياتِهم، فخابَ هؤلاءِ القومُ، ورجَعُوا مستحقّين غَضبًا منَ اللّهِ على غَضَبٍ؛ لِتكثُّرِ أَفعالِهم القبيحةِ: مِنْ نَقْضِ الميثاقِ، وتحريفِهم كلامَ اللّهِ، واتِّخاذِهمُ العِجلَ، وقولِهم: لنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلَّا أَيَّامًا مَعدودةً، وغيرِها مِنَ الأَفعالِ والأقوالِ الشَّنيعةِ. أو يكونُ المعنى: استحَقُّوا غَضَبَينِ: غضبَ الكُفرِ بالنَّبيِّ ﷺ عندَ بعثتِه، فوقَ الغَضَبِ الذي استحقُّوه مِنْ قَبْلُ بِإِعْنَاتِ موسى عليه السلام والكُفرِ بهِ، أَو بِكُفرهم بعيسى بنِ مريمَ -عليه السلام-، وللجاحدين نبوَّة محمد ﷺ عذابٌ يذلُّهم ويخزيهم يوم القيامة[3].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ استعمالِ (بِئسَ) مع (ما):

لمْ يَرِدْ في القُرآنِ استعمالُ (مَا) بعدَ الفعلِ (بِئْسَ) إلَّا في سِياقِ ذَمِّ بني إسرائيل[4]؛

(1) القرطبي، جامع البيان: 11/541.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات: (هان).

(3) المراغي، تفسير المراغي: 1/167.

(4) كما في الآية 93، والآية 102، من سورة البقرة، والآية 187، من سورة آل عمران، والآية 62، و63، و79، و80، من سورة المائدة، والآية 150، من سورة الأعراف.

خصوصيّة استعمال تَركيب (بِئْسَمَا) في سياقِ الحَديثِ عن بَني إسرائيل

فتركيبُ (بِئْسَ ما) يَجمعُ بينَ طَرفَي الإجمالِ والتَّفصيل، وفيه تقريرُ الذَّمِّ بأعَمّ كلماتِ العموم (ما)، فيستَوعبُ كلَّ خَصْلَةٍ من خِصال الذَّمِّ الّتي تدلّ عليه بِئْسَ؛ فيكونُ المذمومُ مَذكورًا طَيًّا في العموم، ثمَّ يُذكرُ مرَّةً أخرى بِذكرِ المَخصوصِ بالذَّمِّ؛ فَكأنَّه ذَمَّهم مَرتين: إحداهُما بدخولِهم في عموم (بِئْسَمَا)، والثَّانيةُ بذكرِ مَخصوصِ الذَّمِّ في قولِه تعالى: ﴿أَن يَكۡفُرُواْ﴾؛ فبالغ في ذمِّهم غايةَ الذّمّ، وفي هذا التّركيبِ مِنْ براعةِ الكلامِ وسِحرِ البلاغةِ الأمرُ العَجيبُ؛ إذ أطنبَ من جِهةٍ، وأَوجزَ من جِهَةٍ، فتقديرُ الكلام: (بِئْسَمَا اشْتَرَوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ هُوَ أَنْ يَكْفُرَوا)، فحَذَفَ المبتدأَ (هو) إيجازًا وفَصّلَ في المخصوصِ بالذَّمِّ؛ إذْ ذَكَرَهُ إجمالًا ثمَّ تفصيلًا، فاجتمعَ الإطنابُ والإيجازُ في تركيبٍ واحدٍ، فَسُبْحانَ مَنْ جَعَلَ العَربيَّةَ لِسَانَ القرآنِ الكريمِ وَمَنَاطَ إعْجازِه.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه تعالى ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾:

بَيانُ قُبحِ مَنْ بَاعَ نفسَه، وَرَضِيَ لَهَا الخَسَارَةَ عن عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ

وُضِعَت الأنفسُ موضِعَ الإيمانِ؛ فالأنفسُ هي الـمُثْمَنُ والكفرُ هو الثَّمن؛ وَذلك بحملِ ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾ على معنى باعوا[1]؛ فشبّه الإيمانَ بالنَّفسِ بجامعِ وُجُوبِ الحِرْصِ عليه، كما أنَّ الإنسانَ حَريصٌ على نفسِه بفطرتِه وغريزتِه، ثمَّ حَذَفَ الـمُشبَّه وذكرَ المشبَّه به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة، وَجعلَ استبدالَ الإيمانِ بالكفرِ بمنزلةِ البَيعِ والشِّراءِ؛ ليكونَ مَجازًا مُرسَلًا، بذكرِ معنى البيعِ بلفظِ الاشتراءِ، وَإرادةِ الاستبدالِ الذي هو اللّازمُ الأوَّلُ للبيعِ والشِّراءِ؛ فباعُوا أَنفسَهم بِالكفرِ؛ أي: إِنَّهم استبْدَلُوا الكفرَ بالإيمانِ؛ فَبَذَلوا أَنفسَهم، وزهِدُوا فيها مِنْ أجلِ تَحصيلِ الكفرِ بالكتابِ الـمُنَزَّلِ مِنْ عندِ اللّٰهِ وَهوَ القرآنُ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/340، والزمخشري، الكشاف: 1/165، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/178، والآلوسي، روح المعاني: 1/321.

ويُحتملُ أنّه أرادَ مِنَ البيعِ لازمَه الثَّاني، وهو الزُّهدُ في المُباعِ والحرصُ على المُشترى؛ فكأنَّهم زَهِدُوا في أنفسِهم وحَرصُوا على الكفر، والعقلُ والفِطرةُ يَمنعَانِ مِثلَ هذا الاستبدالِ لِحرصِ الإنسانِ على نفسِه وحبِّه لَهَا، فَكيفَ يَبيعُهَا؟! ووضَع الأنفسَ موضِعَ الإيمانِ لِيُؤذِنَ بأنَّ الإيمانَ بِمنزلةِ الأَنفسِ مَعَزّةً وحِرصًا عليه؛ فكأنَّهم باعُوا الإيمانَ الذي هو بِمَنزِلةِ الأَنفسِ لِتحصيلِ الثَّمنِ البَخْسِ وهو الكفرُ بالقرآن، ومَنْ باعَ إيمانَه فقدْ باعَ نفسَه، ومَنْ باعَ نفسَه فَقَدَها، وذهب الطّيبيُّ إلى أنَّ سببَ وضعِ الأَنفسِ مَوضِعَ الإيمانِ هو الإيذانُ بـ"أنَّ الأنفسَ إنَّما خُلِقَتْ للعلمِ والعَمَلِ به المُعَبَّر عنه بالإيمانِ، فلَمَّا بدَّلوا الإيمانَ بالكفرِ فَكأَنَّهم بَدَّلُوا الأَنفسَ به"[1]، وتتجلّى بلاغةُ هذهِ الاستعارةِ وجمالُها في كونِها لم تكنْ مألوفةً في الكلامِ العربيِّ البليغِ؛ فهي مِنْ غرائِبِ الاستعاراتِ وفرائِدِها.

مجيءُ صيغةِ الفعلِ ﴿يَكۡفُرُواْ﴾ على خِلافِ مُقتضَى الظَّاهِرِ:

التَّـنـبـيـه على إضـمـارِ الـكـفـرِ في النَّفسِ وأنَّه عـمـلٌ مُـسـتـقِـرٌّ فيها

الأصلُ في الفِعلِ ﴿يَكۡفُرُواْ﴾ أَنْ يكونَ مُوافِقًا في صِيغتِه للفعلِ ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾؛ لأنَّه صفةُ المبيَّن (ما)، والصِّفةُ قَيدٌ للمَوصوفِ، فوردَ على خلافِ الظَّاهرِ؛ "للدّلالة عَلَى أَنَّهُمْ صَرَّحُوا بِالكُفْرِ بِالقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ نُزُولِ الآيَةِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ اشْتِرَاءَ أَنْفُسِهِمْ بِالكُفْرِ عَمَلٌ اسْتَقَرَّ وَمَضَى، ثُمَّ لَمَّا أُرِيدَ بَيَانُ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ نُبِّهَ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا يَكْفُرُونَ، وَيُعْلَمُ أَنَّهُمْ كَفَرُوا فِيمَا مَضَى أَيْضًا إِذْ كَانَ الْمُبَيَّنُ بِأَنْ يَكْفُرُوا مُعَبَّرًا عَنْهُ بالماضي بقوله: بِئْسَمَا اشْتَرَوْا"[2]. كَمَا دلّتْ (أَنْ) المَصدريَّةُ الدَّالّةُ على المستقبلِ على أَنّهم كانوا مُصرّينَ على الكُفرِ، مُضْمِرينَ لَهُ قبلَ نزولِ القرآنِ إذا لَمْ يَكنْ اختيارُ الرَّسولِ على وفقِ أَهوائِهِمْ.

سِرُّ ذكرِ الكفرِ بالمُنْزَلِ لا الكفرِ بالقُرآنِ:

الإيــذانُ بقُبحِ كُــفــرِهِــم، والإشـــارةُ إلى كفرِهم بالتَّوراةِ

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقلْ: بالقرآنِ؛ للإيذانِ بقُبحِ كفرِهم وجُرأتِهم على اللّهِ؛ فَهُم يَكفرونَ بِمَا

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 2/576.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/605.

أَنزلَ اللّه، ولِلإشارةِ إلى عُلُوّ شَأنِ القرآنِ وتقريرِ أَنَّهم يَعلمونَ أَنَّه مِن عندِ اللّه؛ لِأَنَّ صِلَةَ الموصولِ مَعلومةٌ للمُخاطَب، فيكونُ التَّعبيرُ مُمَهِّدًا لِأَنْ يكونَ كفرُهم حَسَدًا على أَنْ يُنَزِّلَ اللّه الوَحيَ على رَسوله المُصطفى مُحَمّدٍ ﷺ؛ فلا يكونُ كُفرُهم جَهْلًا بِمَا أَنزَلَ اللّه؛ وللإشارةِ إلى أَنَّ كفرَهم هُو بكلِّ ما أَنزلَ اللّه ومنهُ التَّوراةُ؛ فإنَّ مَنْ يَكفرْ بِكتابٍ مُنزَلٍ، يكفرْ بِمَا سِواهُ؛ إذِ العبرةُ في المُنَزِّلِ سُبْحانَهُ، لا بِالنَّازلِ فَحَسبُ.

تنوُّعُ معاني الإعرابِ:

اختلفَ المُفسِّرون في إعرابِ كلمةِ ﴿بَغۡيًا﴾ على ثلاثةِ أَعاريبَ: الأوَّل: مفعولٌ لأجلِه، وهو مُستوفٍ لشروطِ النَّصبِ، الثَّاني: مفعولٌ مُطلقٌ، بجعلِه منصوبًا على المصدرِ بتقديرِ: بَغَوا بغيًا، الثَّالث: حالٌ بتقديرِ: أنْ يكفروا بَاغِين، والأوجهُ الثَّلاثةُ مُعتَبَرَةٌ، ولَها وجهٌ مِنَ القَبولِ؛ أمَّا الأوَّلُ: فمعناه أنَّ كفرَهم ما كانَ لِشَيءٍ بقدْرِ ما كان للبَغْيِ، وأمَّا الثَّاني: فمعناه أنَّهم في كفرِهم بغَوْا بغيًا، وأمَّا الثَّالث: فمعناه أنَّهم كفروا حالَ كونِهم باغين، وهذا مِنْ بَديعِ استجماعِ معاني النَّحو في توجيهِ الأعاريبِ القرآنيَّةِ.

ائـتـلافُ مَـعـاني النَّحوِ في دلالة الـسِّـيـاقِ من بَـديـعِ الـنَّـظـمِ القرآنيِّ

سِرُّ التَّعبير بالبَغي دون الحَسَدِ:

ظاهرُ السِّياقِ أنَّ اليهودَ حَسَدُوا العَربَ أَنْ جَعَلَ اللّه النُّبوَّةَ فيهم، لكنَّ السِّياقَ لم يُصرِّحْ بالحَسد، بلْ أَتى بمفردةِ البغيِ؛ ذلك أَنَّ البَغيَ هُو تَجاوزُ الحَدِّ في الأمرِ كلِّه[1]، فدلَّ البغيُ على الحَسَدِ تَضمُّنًا، فجمعتْ هذهِ المفردةُ مَعنى التَّجاوز، وجمعَ السِّياقُ معنى الحَسَد، فاجْتَمَعَا في كونِ هذا البغيِ ناشئًا عن الحَسَدِ مِنْ كَوامنِ أَنفسِهم، فيكونُ قدْ وَصفَهم بالوَصفِ الأعمِّ وَهو البغيُ، دونَ الأَخَصِّ وَهو الحَسَدُ، زِيادةً في ذَمّهم.

الـجـمـعُ بين دلالـة المـفـردَةِ ودلالة السِّياقِ، زيـادةٌ في البيانِ والإيضاحِ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 136.

نُكتةُ إيثارِ صيغةِ التَّفعيل:

تَـجـدُّدُ الـبغيِ بتجدُّدِ النُّزولِ

آثرَ النَّظمُ صيغةَ التفعيلِ؛ للإيذان بتجدُّدِ بَغْيِهم حسَب تجدُّدِ الإنزالِ وتكثُّره حَسَب تكثره[1]؛ فكلّما نزلت آياتٌ مِنَ القرآنِ على رَسولِ اللّهِ مُحَمّدٍ ﷺ تَجدّدَ بَغيُهم وتَكثَّرَ.

مَعنَى الإضافةِ في قولِه ﴿عِبَادِهِۦ﴾:

تَشريفُ العبادِ بإضافتِهم إلى ضَمـيرِ لـفـظِ الجَلالةِ

التَّصريحُ بأنَّ الرُّسُلَ الذين يُنَزِّلُ اللّهُ عليهم الكتبَ هُمْ مِنْ خَواصِّ عِبادِه؛ فالإضافةُ تفيدُ الاختصاصَ الذي يقتضي تَشريفَ الرُّسلِ؛ بإضافتِهم إلى اللّهِ تعالى، فَهو سَبحانَه الذي يُدافعُ عنْهمْ وَهو وَليُّهم في الدُّنيا والآخرة.

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾:

للفاءِ احتمالانِ مِنَ المعاني، هما:

الأوَّل: التَّرتيبُ والتَّعقيبُ، وهو على أَصلِ معناها عندَ مجيئِها عاطفةً بينَ الجُملِ؛ فدلَّ على أنَّهم مُستحقُّونَ لِتوالي الغَضَب، ودلَّ الحكمُ عليهِمْ وهو قولُه: ﴿بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ﴾ على أنَّه مُترتّبٌ على ما وُصِفُوا بهِ مِنْ بيعِهم أَنفُسَهم بالكفرِ حَسَدًا على أنْ يُنَزِّلَ اللّه جبريلَ بالقرآنِ على رسولِه مُحَمَّدٍ ﷺ، قال الطِّيبيُّ: "دلَّ على كونِهم أَحِقَّاءَ به تَرَتُّبُ الحُكمِ على الوصفِ بالفاءِ"[2].

الثَّاني: أَنْ تكونَ فَصيحةً؛ بمعنى أنّها أفصحتْ عنْ جَوابِ شرطٍ محذوفٍ، تقديرُه: إذا عرفتَ بَغيَهم الشّنيعَ، وحسَدَهم الفَظيعَ، وأردتَ مَعْرِفةَ جَزائِهم؛ فقد باؤُوا بِغَضَبٍ على غَضَبٍ[3].

بيانُ المُفردةِ للمعاني المُتنوِّعَةِ:

تـكـامُـلُ معاني الـمـفـردةِ سياقًا ودلالـــــةً، في تـحـقُّقِ الخَيْبةِ واقعًا واستقرارًا

تدُلُّ مفرَدَةُ (البَوْءِ) على خَيْبَةِ اليهودِ في اختيارِهم الكفرَ؛ وذلك إذا حملنَا البَوْءَ على معنى الرُّجوعِ؛ فيكونُ المَعنَى: فرجَعُوا بغضبٍ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/129.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 2/578.

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 2/97.

على غَضَبٍ بعدَ أنْ ظَنُّوا الفوزَ والفلاحَ ببَيعِهم؛ ليدلَّ على خيبتِهم في عملِهم.

وإذا حَملْنا البَوءَ على مَعنَى المُكافِئ؛ فالمراد: فَحَلّوا مَنزِلًا مُكافئًا لهم، ولكنّه مُلْتَبِسٌ بحالِ غضبِ اللّهِ؛ أي: المَنْزِلُ الذي يَتَبَوَّؤونَ معهُ غضَبَ اللّهِ! فكيفَ غيرُه مِنَ المَنازل؟! فيكونُ استعارةً تَهَكُّميَّةً (1) على حدّ ما ذكر في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21]، والاستعارةُ التَّهكميَّةُ تتضمّنُ احتِجاجًا للتّأثير في المتلقِّي؛ ليقارِنَ بين الصّواب والخطأ؛ فيرجعَ إلى نَفسِهِ ويُذعِنَ إلى الحقِّ؛ فيفعلَ الصَّوابَ ويتركَ الخَطأَ.

والمعنيانِ مقبولانِ سِياقًا ودلالة؛ فالخَيْبَةُ واقعةٌ، وهُم باؤُوا بمكانِ غَضَبٍ، سواءً على الحقيقةِ أو على التَّهكمِ؛ فخابَتْ أَعمالُهم على خِلافِ مُرادِهم؛ فاستقرُّوا فيه.

فائدةُ التَّنكيرِ في كَلِمَةِ الغَضَبِ:

تعظيمُ الغضَبِ والتَّشديدُ على من وَقَعَ عليهِ

الدّلالة على تَعظيمِه، وأنَّ الغَضَبَ الثّاني غيرُ الأول(2)؛ فلا يكونُ غَضَبُهُ على مَنْ كَفَرَ بسَببِ أمرٍ واحدٍ؛ كغَضَبِه على مَنْ تنوّعَ كفرُه وتكثّرَ؛ لِيدلَّ على تَشْديدِ الحَالِ عَلَيْهِمْ(3)، أو هما شيءٌ واحدٌ، ذُكرا للتَّشديد، كما يُقال: ضَلالٌ على ضَلالٍ، أو خَيْبَةٌ على خَيْبَةٍ، وهكذا مِمَّا قُصِدَ بهِ التَّكثُّرُ والمُضاعَفَةُ والاجتماعُ؛ لأجلِ أَفعالٍ مُتَواليةٍ صَدَرَتْ عنهم؛ فتعدَّدَ الجزاءُ وتوالى بتَعَدُّدِ أَعمالِهم القبيحةِ وتَواليها.

دلالة حرفِ الاستعلاءِ في قولِهِ ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾:

شِـدَّةُ الغَضَبِ واجـتـمـاعُـه، وعدمُ الفُتورِ بين الغَضَبَينِ

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ حَرفَ الاستعلاءِ دونَ ظرفِ البعديَّة، فقال: ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾، ولم يقلْ: بعدَ غَضَبٍ، إِشعارًا بشدَّتِه؛ فإنَّه

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 159.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/369.

(3) الرازي، التّفسير الكبير: 3/602، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/491.

مُجْتَمِعٌ مُتَراكِمٌ بعضُه على بَعضٍ[1]، كما في قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ [النور: 35]، ولو قال: بَعْدَ غَضَبٍ؛ لفُهِمَ التَّراخي بين الغَضَبَيْن، وطُروُّ الفُتور.

بلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

إفـادةُ وقـوعِ الـعَـذابِ على كُـلِّ مـن كَـفَـرَ، والإشعارُ بعلَّةِ التَّعذيبِ

جَاءَ النَّظمُ بلفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مُظْهَرًا في مَوْضِعِ المضمَرِ؛ فلمْ يقُلْ: ولهمْ عذابٌ مهينٌ، وذلك لأمرين: أحدُهما: إفادَةُ العُموم في الكافرين؛ بسببِ دُخول (ال) المفيدةِ للعُموم؛ أي: إنَّ العذابَ المُهينَ سَيَكونُ لكلِّ مَنِ اتَّصفَ بالكُفْرِ، وهذا "مبالغةٌ في إسنادِ العذابِ على كلِّ منِ اتَّصفَ بالكفرِ بالإطلاق"[2]، ثانيهما: الإشْعَارُ بعِلَّةِ كَوْنِ العَذَابِ المُهِينِ لَهُمْ[3]؛ فَهُمْ في العذابِ المُهين بسببِ كفرِهم، وذلكَ على جعلِ اللَّامِ في الكافرينَ للجِنسِ، ومَنْ حَمَلَها على العهدِ[4]؛ فيكونُ المرادُ بالكافرينَ اليَهودَ أنفسَهم؛ فيأتي الإشعارُ بعِليّةِ المَأخذِ أخصَّ وأوضحَ مبالغةً في النِّكاية بهم.

بلاغَةُ المَجازِ العَقليِّ في الإسنادِ الوَصفي ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

إبـرازُ الـعلاقةِ بـين الـصِّـفـةِ والـمَـوصـوفِ المـقـتـضـيـةِ المـلابـسـةَ أو السَّببيَّةَ

جاءت كلمةُ ﴿مُّهِينٌ﴾ وصفًا مقيّدًا للعَذاب، على أنَّه مجازٌ عقليٌّ، والعَذَابُ في الحَقِيقَةِ "لَا يَكُونُ مُهِينًا؛ لِأَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ أَهَانَ غَيْرَهُ، وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَتَأَتَّى إِلَّا فِيمَا يَعْقِلُ، فَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ المُهِينُ لِلْمُعَذَّبِينَ بِالعَذَابِ الْكَثِيرِ"[5]؛ فجاء وصفُ العذابِ بالمُهينِ ليدلَّ على ملابسةِ العَذابِ للإهانة وأنّها غيرُ مُنْفَكّة عنه، والعَلاقةُ في هذا المَجازِ هيَ المُجَاورةُ؛ لأَنَّ الإهانةَ تحصُلُ مع العذابِ[6]، أو السّببيةُ[7]؛ لأنَّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/370.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/370.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/491.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 1/491، وابن عجيبة، البحر المديد: 1/133.

(5) الفخر الرازي، التّفسير الكبير: 3/602.

(6) الفخر الرازي، التّفسير الكبير: 3/602.

(7) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/333، والهرري، حدائق الروح والريحان: 2/109.

عذابَ الكافرينَ سَببٌ للإهانةِ وهي متَرَتِّبةٌ عليهِ؛ لاقتضائه خلودَهُم في النَّارِ لا ينتقلونَ من هَوانِ العذابِ إلى عزٍّ وكرامةٍ أَبَدًا، والصِّفةُ مقيِّدةٌ لا مُوضّحةٌ؛ لِأَنّ العذابَ قد يكونُ غيرَ مُهينٍ لصاحبِه، وهو ما كانَ تَطهيرًا وتمْحيصًا لِصاحبِه مِثل أَهلِ الكبائرِ[1].

مناسبةُ الصِّفةِ للموصوفِ في قولِه: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

جـزاءُ الأفعالِ القَبيحةِ على ضدِّ مقصدِها

لـمّا كانَ حَسَدُ اليهودِ نابعًا من حُبّهم للرّياسةِ وادِّعاءِ الفَضلِ على النَّاسِ، واستكبارًا على عبادِ اللّه المُرسَلين وعلى الحَقّ طلبًا للعزِّ والكرامةِ، كان جزاؤُهم بالعذابِ المتَّصفِ بالـمُهينِ هو الأنسَبَ؛ فقُوبِلُوا بالعَذابِ الـمُذِلِّ الـمُخزي الّذي فيهِ احتقارُهم؛ على ضِدِّ ما طَلبُوا، وهو ما يَتناسبُ كذلكَ معَ الخَيبةِ الّتي حصَّلُوها مِنْ غضبِ اللّه الـمُذِلِّ الـمُخزي.

بلاغةُ التَّقديم والتَّأخير: في قولِه: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

مَنْ يطلُبْ بكفرِه الكَرامةَ يُخَصَّ بالذّلِ والمَهانةِ

اقتضى تقديمُ الـمُسندِ على الـمُسندِ إليه الموصوفِ في قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ اختصاصَ العذابِ الـمُهينِ بالكافرين[2]، الّذين اتَّصفوا بما ذُكِرَ في السِّياقِ؛ فكلُّ من كفرَ طلبًا للجَاهِ والعِزِّ؛ فسَينالُ مهانةً من فوقِها ذُلٌّ وصَغارٌ.

بَراعَةُ التَّمثيلِ في الآية:

احتوَتِ الآيةُ على تمثيلٍ وتصويرٍ لحالِ اليهودِ، بِحَالِ مَنْ حَاوَلَ أن يشتغلَ بالتِّجَارَةِ لِيَرْبَحَ فكانت تجارتُه بِئْسَتِ التِّجارةُ؛ إِذْ أَصَابَهُ خُسْرَانٌ وذُلٌّ وهَوَانٌ، وَهُوَ تَمْثِيلٌ يَقْبَلُ بَعْضُ أَجْزَائِه أَنْ يَكُونَ اسْتِعَارَةً، وَذَلِكَ مِنْ مَحَاسِنِ التَّمْثِيلِيَّة[3].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/347.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 2/328.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/605.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٩١﴾ [البقرة: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عَودٌ إلى بيانِ قبائحِ أقوالِ اليهودِ وأَفعالِهم، وما يَتَعذَّرُون به من كُفرِهم بما أَنزلَ اللّهُ وبرسولِه الأمينِ محمّدٍ ﷺ، وتوبيخِهم على أفعالِهم، ولَمَّا أقامَ ﷻ الحُجَّةَ على استحقاقِهم الخُلودَ والعَذابَ المُهين في النَّار بكفرِهم بكتابِ اللّهِ، أَقامَ حُجَّةً أخرى عليهم أبينَ منها وأظهرَ؛ وذلك بكُفرِهم بكتابِهم نفسِه؛ إذْ لَمّا كفروا بالقرآنِ الّذي هو مُصدّقٌ للتَّوراةِ، كفروا بالتَّوراةِ نفسِها؛ لأنَّ المُكَذِّبَ بالمُصَدِّقِ لِشَيءٍ مُكَذِّبٌ بذلك الشَّيءِ[1].

وبعبارة العلاّمة ابن عاشور، هذا الكلامُ "من عَطْفِ حكاياتِ أحْوالِهِمْ في مَعاذِيرِهِمْ عَنِ الإعْراضِ عَنِ الدَّعْوَةِ الإسْلاميَّة، فَإذا دُعُوا قالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ، وإذا سَمِعُوا الكِتابَ أعْرَضُوا عَنْهُ بَعْدَ أنْ كانُوا مُنْتَظِرِيهِ حَسَدًا أنْ نَزَلَ عَلى رَجُلٍ مِن غَيْرِهِمْ، وإذا وُعِظُوا وأُنْذِرُوا ودُعُوا إلى الإيمانِ بالقُرْآنِ وبِأنَّهُ أنْزَلَهُ اللّه أنْ يَنْظُرُوا في دَلائِلِ كَوْنِهِ مُنَزَّلًا من عِنْدِ اللّه أعْرَضُوا وقالُوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أيْ: بِما أنْزَلَهُ اللّه عَلى رَسُولِنا مُوسى، وهَذا هو مَجْمَعُ ضَلالاتِهِمْ ومَنبَعُ عِنادِهِمْ؛ فَلِذَلِكَ تَصَدّى القُرْآنُ لِتَطْوِيلِ المُحاجَّةِ فِيهِ بِما هُنا وما بَعْدَهُ تَمْهِيدًا لِقَوْلِهِ الآتِي ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [البقرة: 106] الآياتِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مُصَدِّقٌ﴾: أَصلُه (صَدَقَ)، ويَدورُ المعنى عَلَى: قُوَّةٍ في الشَّيْءِ في القَوْلِ وَغيره، ومِنْ ذَلِكَ: الصِّدْقُ: ضِدُّ الكَذِبِ، سُمِّيَ صِدْقًا؛ لِقُوَّتِه في نَفْسِه؛ وَلِأَنَّ الكَذِبَ باطلٌ لَا قُوَّةَ لَهُ، فَيقالُ: هُوَ صَادِقٌ، وَصَدُوقٌ مُبَالَغَةٌ، وصَدَّق يدلُّ على: كَثرةِ الصِّدقِ، واسمُ الفاعِلِ: مُصَدِّقٌ، يقال: مُصَدِّقٌ للشَّيءِ؛ بمَعنَى: مُحَقِّق له[3].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/48.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/606.

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (صدق).

2) ﴿وَرَآءَهُۥ﴾: هو في الأصلِ مَصدَرُ (وَارَى) بمعنى سَتَرَ، ويقتضي أنْ يكونَ المَستورُ مَخفيًّا، ويستعملُ بمَعنَى: خَلْفَ، وهو الغالبُ في الاستِعمالِ، وبمَعنَى: قُدَّام، فيكون من الأضدادِ، وقيل: الوَراءُ يأتي بمَعنًى آخَرَ كما في قولِه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ [المؤمنون: 7]؛ أَي: سِوى ذَلك، فيكون (وَرَاء) له أكثرُ من المَعنَيَين المُتَضادَّين (خلف وقدّام)، فيكون اللَّفظُ مُتَواطئًا[1]، والظَّاهرُ أنَّ وراءَ بمَعنَى: خَلْفَ المُقتضي السِّترَ والخَفاءَ، وكلُّ ماجاءَ بخِلافِ الخَلْفِ فهُو على مَعنَى السَّترِ والخَفاءِ. و معنى: ﴿بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ في الآيَةِ: بمَا عَدَاهُ وتَجَاوَزَهُ؛ أَيْ: ويكفرونَ بِغَيْرِه، ويقصدُ به القرآن[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تخبر الآية عن تناقضِ اليَهودِ في أفعالِهم، وتُقيم الدَّليلَ على إبطالِ ما يَدَّعُونَهُ من إيمانهم بالتَّوراةِ؛ فإنَّهم إذا قال لهم بعض المسلمين: صدِّقوا بما أَنزل الله من القرآن، قالوا: نحن نصدِّق بما أنزل الله على أنبيائنا، ويجحدون ما أنزل الله بعد ذلك، وهو الحق مصدِّقًا لما معهم. فلو كانوا يؤمنون بكتبهم حقًّا لآمنوا بالقرآن الذي صدَّقها. قل - أيها النبي - جوابًا لهم: لِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين حقًّا بما جاؤوكم به من الحق؟!

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَلَاغَةُ عَطْفِ القِصَّةِ على القِصَّةِ:

بيانُ أحوالِ اليَهودِ في الإعراضِ عن الحَقِّ، والتَّعذُّرِ عن قبولِه

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 89]، المَعْطُوف عَلَى قَوْلِه: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: 88]، وَهَذَا كُلُّه مِنْ عَطْفِ حِكَايَاتِ أَحْوَالِهِمْ في مَعَاذِيرِهِمْ عَنِ الإِعْرَاضِ عَنِ الدَّعْوَةِ الإِسلَامِيَّةِ؛ فَإِذَا دُعُوا قَالُوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، وَإِذَا سَمِعُوا الكِتَابَ أَعْرَضُوا عَنْهُ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُنْتَظِرِيه، وَإِذَا وُعِظُوا وَأُنْذِرُوا وَدُعُوا إِلَى الإِيمَانِ بِالقُرْآنِ أَعْرَضُوا وَقَالُوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أَيْ: بِمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (ورى).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/607.

رَسُولِنَا مُوسَى، وَهَذَا هُوَ مَجْمَعُ ضَلَالَاتِهِمْ وَمَنْبَعُ عِنَادِهِمْ؛ فَلِذَلِكَ تَصَدَّى الْقُرْآنُ لِتَطْوِيلِ الْمُحَاجَّةِ فِيهِ بِمَا هُنَا وَمَا بَعْدَهُ تَمْهِيدًا لِقَوْلِهِ الْآتِي: ﴿۞مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [البقرة: 106][1].

نكتةُ استِعمالِ ﴿إِذَا﴾ دُونَ غيرِها:

بيانُ حالِ المُؤمِنين في حِرصِهم على دَعوةِ الآخرِ للحَقِّ

جاءتْ حكايةُ قصَّةِ دَعوةِ اليهودِ بـ(إِذَا) للإشارةِ إلى القَطعِ بوقوعِ دَعوةِ المُؤمنينَ لبني إسرائيلَ، وأنَّ العَلاقةَ قائمةٌ بين المُؤمِنين واليَهودِ على التَّواصلِ الدَّعَويِّ، ابتداءً من جهةِ المُؤمنين، حِرصًا على إيمانِ اليَهودِ، وانتِهاءً بإعراضِ اليَهودِ عن ذلكَ، وإتيانِهم بالتَّعذُّراتِ الواهيةِ.

فائدةُ بناءِ الفِعلِ للمَفعُولِ:

بيانُ حَالِ اليَهودِ ممَّن يَدعُوهم، وأنَّها حالٌ ثابتةٌ لا تَتَغيَّر

جاءَ فِعلُ القولِ مَبنيًّا للمفعولِ ﴿قِيلَ﴾ دون النَّصِّ على الفاعلِ وأنَّهم المُؤمنون؛ لتحقُّقِ معرفةِ ذلك الأمرِ لدى المخاطَبِ، ولبيانِ حقيقةِ موقفِ اليَهودِ ممَّن يَدعُوهم إلى الإيمانِ بقطعِ النَّظرِ عن مكانتِه، سواءٌ أكانَ نبيًّا أم صَحابيًّا أم أَعرابيًّا، فموقفُهم واحدٌ، وهو الرَّفضُ، فهُم يَرفُضونَ لأجلِ الرَّفضِ والإعراضِ، ففيه بيانُ أحوالِهم القَبيحةِ، ونُفُوسِهم المَريضةِ.

معنى حرفِ اللَّامِ في قولِه ﴿لَهُمْ﴾:

تبليغُ القولِ ووُصولُه للمَقُولِ له

أفادتِ اللامُ معنى التبليغ، وهي التي تأتي مع قولٍ أو ما في معناه، مثل: قلتُ له، وبينتُ له[2]، بمعنى وُصولِ القَولِ لَهم، وتبليغِهم به، وفيه تأكيدُ وصولِ القَولِ، مع نَكهةِ الاختصاص.

سِرُّ التَّعبيرِ عن القرآنِ بـ﴿مَا﴾ المَوْصُولَةِ:

المَطلوبُ هو الإيمانُ بالمُنزَلِ من عندِ الله بقَطعِ النَّظرِ عن صفتِه

يتخيَّرُ النَّظمُ أسلوبَه لإفادةِ مَعنًى مَخصوص، فجاء بحرفِ (مَا)؛ لإفادةِ العُمومِ - وهو وإن أُريدَ به خصوصُ القرآنِ إلَّا أنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/606.

(2) الشاطبي، المقاصد الشافية: 3/613.

العُمومَ مرادٌ -؛ ذلك أَنَّ الآيةَ أفادَتْ أمرين: الأوَّل: طلبُ الإيمانِ بالقرآنِ، الثَّاني: إقامةُ الدَّليلِ عليه بأنَّه منزَلٌ من عندِ اللّه تعالى؛ فكما أنَّ اليهودَ يدَّعون الإيمانَ بالتَّوراةِ لأنَّها نازلةٌ من عندِ اللّه؛ فَعَلَيْهِم الإيمانُ بالقرآنِ لأنَّه نازِلٌ من عند اللّهِ كذلك، فدلالة العُموم ظاهرةٌ في أنَّ المطلوبَ هو الإيمانُ بما أنزلَه اللّه، بقطعِ النَّظرِ عن كونِه توراةً أو قرآنًا؛ فجمَعَ هذا الأسلوبُ الدَّعوَى ودليلَها، بعبارةٍ وجيزةٍ دالَّةٍ على المقْصُود.

نكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ الفِعلِ ﴿أَنزَلَ﴾:

بيانُ أنَّ الإيمانَ هو بالمنزَلِ ابتداءً، وهو الذي تقومُ به الحُجَّةُ

لم يُقيَّدِ الفعلُ ﴿أَنزَلَ﴾ ببيانٍ على مَنْ أُنْزِل، معَ أَنَّهُ جزءٌ مُتَمِّمٌ لوصفِ القرآنِ المَقصودِ بالدَّعوةِ؛ لمعرفتِه، ولدلالة اللِّحاقِ عليه، ولتأكيدِ أنَّ الإيمانَ هو بالمُنزَلِ ابتداءً؛ فالّذي تَلزَمُ بِهِ الحُجَّةُ كونُ القرآنِ مُنَزَّلًا مِنْ عندِ اللّهِ، فالقَيدُ المَحذوفُ لا مَدخلَ له في إلزامِ الحُجَّة.

نُكْتَةُ مَجيءِ الفِعلِ ﴿نُؤْمِنُ﴾ بصيغةِ المُضَارِع:

التَّواري خلفَ الإيمانِ بالتَّوراةِ، تَعِلَّةٌ للامتناعِ عنِ الإيمانِ بالقُرآنِ

جاءَ قولُه تعالى على لِسانِ اليَهودِ: ﴿نُؤْمِنُ﴾ بصيغةِ المُضارِع؛ لبيانِ استمرارِ إيمانِهم المخصَّص بما أُنزِلَ عليهم وهو التَّوراةُ، وأَرادوا كذلك "الاعْتِذَارَ وَتَعِلَّةَ أَنْفُسِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا قِيلَ لَهُمْ: آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ، عَلِمُوا أَنَّهُمْ إِنِ امْتَنَعُوا امْتِنَاعًا مُجَرَّدًا عُدَّتْ عَلَيْهِمْ شَنَاعَةُ الامْتِنَاعِ مِنَ الإِيمَانِ بِمَا يُدَّعَى أَنَّهُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ؛ فَقَالُوا فِي مَعْذِرَتِهِمْ وَلِإِرْضَاءِ أَنْفُسِهِمْ نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا؛ أَيْ أَنَّ فَضِيلَةَ الانْتِسَابِ لِلإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمْ؛ أَيْ: فَنَحْنُ نَكْتَفِي بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَزَادُوا إِذْ تَمَسَّكُوا بِذَلِكَ وَلَمْ يَرْفُضُوهُ"[1].

العُدُولُ عنِ الفِعلِ المَبنيِّ للفَاعلِ إلى المَبنيِّ للمفعول:

مبلغُ تعظيمِ اليَهودِ لأنفسِهم، وعدمُ العنايةِ بالأدبِ مع اللهِ تعالى

عدلَ النَّظمُ عن ذكرِ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، ولم يوافِقْ ما قبلَهُ مِنْ قولِه تعالى: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ غرضَ اليهود

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/607.

تعظيمُ أنفسِهم، وتَعظيمُ التَّوراةِ، فكأنَّ إيمانَهم بالتَّوراةِ حصلَ بِسَبَبِ خَصوصيَّة إنزالِها عليهم، ولِهذا أَتبعَهُ بجملةِ الحالِ: ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾، معَ أنَّ الذي يُناسِبُ مقامَ ادِّعاءِ الإيمانِ بالتَّوراةِ، هو ذكرُ الفاعلِ ففيهِ تشريفٌ عظيمٌ، لكنَّهم عَدَلوا عن ذلك لسوءِ أدبِهم وعدمِ اكتراثِهم إلَّا بأنفسِهم، وهذا من قبيحِ أقوالِهم، وهذا لا يُنافي العِلمَ بالفاعلِ؛ إذ لَا يُنَزِّلُ الكُتُبَ الإلَهِيَّةَ إلَّا اللَّه[1]؛ فإنَّ من شروطِ حذفِ الفاعلِ وإقامةِ المفعولِ مكانَه أَمْنَ اللَّبْسِ.

دلالة صيغة الفعل المضارع ﴿وَيَكۡفُرُونَ﴾:

الإعجازُ الغيبيُّ في الإخبارِ عنِ المُدَاوَمَةِ على الكُفرِ زمنًا تِلْوَ الآخَرِ

كفرُ اليهودِ غيرُ مقيّدٍ بزمنٍ دون آخرَ، فهمْ يستمرُّونَ على الكفرِ بِمَا وراءَ ادِّعاءِ الإيمانِ بالتَّوراةِ حالًا فحالًا؛ فجاء الفعلُ مضارعًا إشعارًا بالمداومة، ومُحَاكَاةً لِقَوْلِهِمْ: نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا، وتصريحًا بما كَنَّوا عنه ولَوَّحُوا به بقولهم: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾[2].

بلاغةُ حَذفِ المُسندِ إليه في قولِه: ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾:

توجيه النَّظرِ إلى المُسندِ؛ فإنَّه مَحَطُّ الفائدةِ؛ لإظهارِ التَّعجُّبِ مِن تناقضِ اليهودِ

حُذِفَ المُسندُ إليه في الجملة الحاليّة: ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾؛ لاستحضاره والعلم به بدلالة السِّياق، والتقدير: "وهم يكفرون"، ولتوجيه النَّظرِ إلى كفرِهم؛ فإنَّه شيءٌ عجيبٌ غريبٌ أَنْ يجتمعَ نقيضانِ؛ إذ قالوا نؤمنُ بالتَّوراةِ في حالِ أنَّهم يكفرونَ بما هو مُصدِّق للتَّوراة!، فجاء قولُهم مُناقضًا حالَهم[3]؛ فآلَ الأمرُ إلى الاستدلالِ بإقامةِ الحجَّةِ عليهم؛ "لأنَّهم إذا كَفَرُوا بما يُوافقُ التَّوراةَ فقدْ كَفروا بها"[4].

أَثَرُ مَعنَى المُفردةِ ﴿وَرَآءَهُۥ﴾ في اسْتِجْلاءِ البَلاغةِ:

اجتماعُ الأقوالِ وتكاملُها في ذَمِّ من لا يُؤمنُ بالقرآنِ

يختلفُ بيانُ النُّكتةِ البيانيَّةِ بحسبِ تحديدِ معنى كلمةِ (وراءَ) في قولِه تعالَى: ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾؛ فإذا قلنا: إنَّ كلمةَ (وراءَ)

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/492، والسمين، الدر المصون: 1/514.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/607.
(3) السمين، عمدة الحفاظ: 1/513.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/165.

بمعنى الخَلْفِ؛ فتكونُ إمَّا كنايةً عن رفضِهم الإيمانَ بالقرآنِ؛ إذ جعلوه وراءَ ظهورِهم، وإمَّا استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً إذ شبَّهوا القرآنَ الّذي لم يؤمنُوا به بالشَّيءِ الذي يكونُ وراءَهم فلا يُرى، وإذا قلنا: إنَّ كلمةَ (وراءَ) بمعنى قدَّام؛ فيكون مدحًا للقرآنِ، إذ هو المُهيمنُ على الكُتُبِ المنزَّلةِ وإمامُها، ومن حَيثُ هو مدحٌ للقرآنِ هو ذمٌّ لهم إذْ كفروا به، ومثلُه لا يُكفرُ به، وعلى القَولين؛ فإنَّهما يتَكامَلانِ في ذمِّ اليهودِ لعَدمِ إيمانِهم بالقرآنِ.

معنى اللَّامِ في كلمةِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

اجتماعُ معاني الكمال والتَّمامِ في القرآنِ الكريم

إمَّا أنْ نحملَ اللَّامَ في كلمةِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ على معنى كمالِ الصِّفةِ؛ أي: استغراقِ مَعنَى الوصفِ على سَبيلِ المَدحِ[1]، فالمَعنَى وصفُ القرآنِ بكمالِ الحَقِّ؛ لِأَنَّه ثابتٌ ولا زَوالَ له، فانتهَت غايةُ الحقِّ إليه، وما ثَبَتَ لغيرِه وَقتًا فهو حَقٌّ، لكنَّه ليس الحقَّ الموصوفَ به القرآنُ.

وإمَّا أَنْ نحملَها على مَعنَى الجنسِ؛ فيكونُ المرادُ وصفَ القرآنِ واشتهارَه بالحَقِّيَّةِ المعروفِ بها المُسَلَّم لَهُ الاتصافُ بها، وعلى معنى الجنسِ؛ فإمَّا أَنْ تُفيدَ الحَصْرَ على مَعنَى أنَّ القرآنَ حقٌّ معَ كونِه مُصَدِّقًا، أو أَنْ لا تُفيد الحَصْرَ؛ لِأَنَّ التَّوراةَ حقٌّ كذلكَ ومثلَها الإنجيلُ، وتكونُ فائدةُ تعريفِ المسندِ هنا زيادةَ التَّوبيخِ والتَّجهيلِ لبني إسرائيلَ بمَعنَى: وأنَّه خاصّةً هو الحقُّ الذي يقارِنُ تَصديقَ كتابِهم[2]، وكِلا المَعنَيَين الاستِغراقِ والجنسِ مُتَحَقِّقٌ ثابتٌ للقرآنِ.

تحديدُ نوعِ الحالِ في قولِه: ﴿مُصَدِّقٗا﴾:

التقاءُ مَعنَى التَّأكيدِ والتَّأسيسِ في بيانِ جُملةِ الحالِ

اختلفَ المفسِّرونَ في تَعيينِ نوعِ الحالِ في كلمةِ: ﴿مُصَدِّقٗا﴾؛ فمن قال بأنَّ مَعنَى الحقِّ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ هو تصديقُ الكتبِ السَّابقةِ؛ إذ لا يكونُ حقًّا إلَّا إذا صَدَّقَ الكتبَ السَّابقةَ[3]، فالمصدرُ

(1) ابن مالك، شرح الكافية الشافية: 1/323، والمرادي، الجنى الداني، ص: 149.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 2/329، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/608.
(3) الزجاج، معاني القرآن: 1/174.

واحدٌ، ويُقصَدُ بالحالِ المؤكِّدة تقريرُ المعنى وتأكيدُه، وفيها فائدةٌ وهي أنَّها تأتي لازمةً لِمَا سَبقَها، فضلًا عن أنّ فائدةَ التأكيد بيانُ أهميَّةِ المؤكَّد وعِظَم شأنِه.

ومن قال بأنَّ الحقَّ لا علاقةَ له بكونِه مصدِّقًا أو غيرَ مُصدِّق، بل الحقُّ في نفسِه حَقٌّ سواءٌ أكان مصدِّقًا لغيره أم لا، قال بأنَّ الحالَ مُؤسِّسةٌ[1]؛ "لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ مُشْعِرٌ بِوَصْفٍ زَائِدٍ عَلَى مَضْمُونِ ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إِذْ قَدْ يَكُونُ الْكِتَابُ حَقًّا وَلَا يُصَدِّقُ كِتَابًا آخَرَ وَلَا يُكَذِّبُهُ"[2].

ولا تعارضَ بين القولين؛ إذ مفهومُ التَّأسيسِ يلتقي بما يُفيدُه التَّأكيدُ، لكنْ لا باعتبارِه شرطًا كما هو الأمرُ في التَّأكيد.

فائِدَةُ الفَصْل في المُحاجَّةِ:

مُباغَتَةُ القومِ بإلقامِ لَهَواتِ حَناجِرِهم الحجرَ الصَّلدَ، جزاءً لأعمالِهم الباطلةِ

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ عمَّا قبلَها؛ لِأَنَّها "اعْتِرَاضٌ[3] فِي أَثْنَاءِ ذِكْرِ أَحْوَالِهِمْ قَصَدَ بِهِ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ فِي مَعْذِرَتِهِمْ هَذِهِ؛ لِإِظْهَارِ أَن مُعاداةَ الْأَنْبِيَاء دَأْبٌ لَهُمْ، وَأَنَّ قَوْلَهُمْ: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ كَذِبٌ؛ إِذْ لَوْ كَانَ حَقًّا لَمَا قَتَلَ أسلافُهم الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَدَعَوْهُمْ إِلَى تَأْيِيدِ التَّوْرَاة، وَالْأَمْرِ بِالعَمَلِ بِهَا، وَلَكِنَّهُمْ يُعْرِضُونَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، وَهَذَا إِلْزَامٌ لِلحَاضِرِينَ بِمَا فَعَلَهُ أَسْلَافُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُمْ عَلَى حَقٍّ فيما فَعَلُوا من قتل الْأَنْبِيَاء"[4]، وفائدةُ الفصلِ: مُباغتةُ القومِ بإلقامِ لهواتِ حناجرِهم الحجرَ الصَّلدَ؛ فإنَّهم في غمرةِ باطلِهم ساهُون عمَّا يُحيطُ بهم من أفعالِ الباطلِ الّتي تُجلِّلُهم من كلِّ اتِّجاه؛ فكان هذا الفصلُ مُباغتًا غيرَ متوقَّعٍ.

بلاغةُ تقديمِ جوابِ الشَّرطِ:

بيانُ بَشاعةِ الأفعالِ بذكرِ أقبَحِها على الإطلاقِ

قُدِّمَ جوابُ الشَّرطِ ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ على شرطِه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ على رأي الكُوفيين[5]؛ لبيانِ بَشاعةِ أفعالِهم بذكرِ

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/171، والسهيلي، نتائج الفكر: 1/305.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/608.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/94.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/608.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 1/325.

أَقْبَحِها على الإطلاق - وهو قتلُ الأنبياء - ولتقويةِ مَعنَى المُباغتةِ الّذي أرادتْه الجُملةُ في إلقامِهم الحُجَّة، وعلى رأي جُمهورِ النُّحاةِ أنْ لا تقديمَ في الكلامِ[1]؛ فيكون الكلامُ على أصلِه، وهو ما يُمحِّضُ مَعنَى المُباغتةِ وإنكارِ ما قامَ بِهِ أولئَك بأنبيائِهِم.

بَديعُ الاحْتِباكِ:

إيجازُ الألفاظِ، دليلٌ على اكتنازِها بالمَعاني

تضمَّن قولُه تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فنَّ الاحْتِباكِ البديعي[2]؛ إذْ حَذَف من الجملةِ الأولى ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ ما ذَكَرَه في الثانية ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وحَذَفَ من الثَّانية ما ذَكَرَه في الأولى[3]، فيكونُ تقديرُ الكلامِ: إنْ كُنتم مؤمنينَ؛ فَلِمَ تقتلونَ أَنبياءَ اللّهِ مِنْ قَبْلُ، فَلِمَ تقتلونَ أنبياءَ اللّهِ مِنْ قَبْلُ إنْ كُنتُم مُؤمنينَ، وَهو وإنْ كانَ مُتكلَّفًا في التَّقديرِ، إلَّا أنَّه مُستساغٌ في الظَّاهِرِ.

معنى الاستفهامِ في قولِه تعالَى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾:

بيانُ شديدِ الإنكارِ، تبكيتًا وتقريعًا وتشنيعًا

أَفادَ الاستفهامُ في قولِه تعالَى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الإنكارَ البليغَ، تبكيتًا لفعلِهم وتَقريعًا لهم وتَشنيعًا[4]، وحُذِفتْ أَلفُ (مَا) فَرْقًا بين الاستفهاميَّةِ والخَبَريَّةِ[5].

بيانُ مَعنَى التَّهكم بتَقديرِ المَحذوفِ:

نزعُ صفةِ الإيمانِ عن المُخاطَبين، بحَملِ الكلامِ على الاتِّساعِ المُستَساغ

يُشْعِرُ الشَّرطُ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالتَّهكُّم والاستِهزاءِ، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ بَدَا مِنْهُ مَا لَا يُنَاسِبُهُ: فَعَلْتَ كَذَا وَأَنْتَ عَاقِلٌ، أَيْ بِزَعْمِكَ[6]؛ فيكونُ معنى الشَّرطِ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بزعمِكم أَنَّكُم مُؤمنونَ؛ وعليه

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 1/179، والسمين، الدر المصون: 1/517.

(2) وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان؛ فيحذف من كل واحد منهما مُقَابِلُهُ لدلالة الآخر عليه، يُنظر: الزركشي، البرهان: 3/129، والجرجاني، التعريفات، ص: 12.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/325.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 1/324.

(5) البغوي، تفسير البغوي: 1/143، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/130.

(6) أبو حيان، البحر المحيط: 1/493.

فَلَمْ يُثبِتِ الإيمانَ لَهُم، بل نفاهُ عَنْهم، لِمُقتضى التَّشكيكِ الحاصلِ بـ﴿إن﴾؛ أي: فليسَ إيمانُكم إيمانًا إذًا كان يَدْعُو إلى قَتلِ الأنبياءِ[1]، فخرجت أداةُ الشَّرطِ ﴿إن﴾ عنْ أصلِ وضْعِها الّذي هو الشَّكُّ إلى معنى النَّفي على المجازِ، وهذا على جعْلِ جُملةِ الشَّرطِ على أصلِها في النَّظمِ، لا على أصلِها في الظَّاهِرِ؛ أي: دونَ تَقديمٍ أو تأخيرٍ.

الإضافَةُ للاختِصاصِ المُقتَضي التَّشريفَ:

والإضافَةُ تَحملُ مَعنَى التَّخصيصِ الّذي يَقتَضِي تَشريفَ الأنبياءِ وقُربَهم من اللّه[2]، فأفادَ هذا الأسلوبُ الشّرطيُّ التّكرارَ وتقديمَ ما ظاهِرُه التأخيرُ، وكلا الأسلوبَين يُفيدان الاهتِمامَ والعِنايَةَ وتَقريرَ مَعنَى الإنكارِ على فِعلِهم، ولا بدّ من الإشارَةِ إلى أنَّ بعضَ النُّحاةِ والمُفسّرين ذَهَبُوا إلى أنْ لا تَقديمَ ولا تأخيرَ في الجَوابِ والشّرطِ، بل هو على حالِه؛ إذ قدّم الجوابَ على الشَّرط[3]، فيكونُ في الكلامِ تَقديمٌ وتأخيرٌ من غيرِ تَكرارٍ.

معنى الإضَافةِ في قوله ﴿أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾:

تشريفُ الأنبياءِ بكونِهم مُرسَلين من اللهِ تَعَالى، وأنَّ أعمالَهم خالصةٌ لَهُ

حملتْ الإضافةُ معنى أنَّهم أنبياءُ مُرسَلون من اللهِ تعالَى، أو أنبياءُ للّه تعالَى في دَعوتِهم وأعمالِهم، أو كلاهما وهو الصَّحيحُ، "وفي إضافة أَنْبياءَ إلى الاسم الكَريم تَشريفٌ عَظيمٌ، وإيذانٌ بأنّه كان يَنبَغي لمن جاءَ من عندِ اللهِ تعالى أنْ يُعظَّم ويُنصَر، لا أنْ يُقتَل"[4].

سِرُّ اقترانِ الحالِ والاستِقبالِ بقَيدِ الماضي:

الرِّضا بفعلِ الأسلافِ يُؤدّي إلى العَزمِ على مُشابَهتِهم

للسَّائلِ أنْ يسألَ عن سرِّ ذكرِ صيغةِ المُضارعِ ﴿تَقۡتُلُونَ﴾ المفيدةِ للحالِ والاستقبالِ، مع اقترانِها بقيدِ ﴿مِن قَبۡلُ﴾، وكونِ الخطابِ لليَهودِ المُعاصِرين لنزولِ القرآنِ؟!. والجوابُ: أنَّه أتى بالمضارعِ

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/175.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/493.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/179، والسمين، الدر المصون: 1/517.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 1/325.

لاستحْضَارِ بَشاعةِ صُورَةِ قَتْلِ الأنبياءِ، كأنَّه وَقَعَ وقتَ نزولِ الآيةِ، تأكيدًا لغَضَبِ اللّهِ تعالَى على هذا الفعلِ، وأنَّه سُبحانه مُعاقِبٌ مَن اقترَفَه ورَضِيَ به؛ ليدخُلَ المُعاصِرون المتابِعون لمنهجِ أسلافِهم، فوقعَ قيدُ ﴿مِن قَبْلُ﴾ احتراسًا أن يظنَّ ظانٌّ أنَّ القتلَ كان منهُم مباشرةً، وتأكيدًا لرضا الأتباعِ عمَّا اقترَفه الأسلافُ؛ فذِكرُ ﴿مِن قَبْلُ﴾ بَعد خِطابِ المُعاصِرين بيانٌ لِرِضَاهم بِما حَصَلَ منْ قَبْلُ على أيدي أَسْلافِهم الّذين خُوطِبوا به، فنُزِّل المعاصِرُون منزلةَ الأسلافِ بالخطابِ، وبقيد ﴿مِن قَبْلُ﴾، كأنَّهم كانوا من قَبْلُ؛ فَصَنَعوا صَنيعَهم، وهذا من تمامِ التَّأكيدِ بل المبالغة فيه، فهذا شأنُهم الّذي يُداوِمُون عليه. ولمّا كانوا راضين بفعلِ آبائهم صَراحةً، عازِمين عليهِ مع سيِّدِ الخلقِ إشارةً؛ أُسْنِدَ القتلُ إليهم[1].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/179، والرازي، التّفسير الكبير: 3/603، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/94.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٩٢﴾ [البقرة: 92]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ ذكرِ قتلِ أنبياءِ اللّهِ مِنْ قِبَلِ اليهودِ، ناسبَ أَنْ يذكُرَ جَريمةً أخرى من جرائمِهم، وهي اتِّخاذُ العِجلِ بعدَ مَجيءِ موسى - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ - بالبيِّناتِ، بقصدِ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، وتعليمِ النَّاسِ أنَّهم أدْعياءُ الباطلِ، لا تَنطلي أقوالُهم وادِّعاءاتُهم إلَّا على غافلٍ أو مُتغافلٍ، وتَوبيخِهم على مَوقفِهم بعد رِضاهُم على نَهْجِ آبائهم واستِمرارِهم عليهِ، وعَطَفَ قصَّةَ اتِّخاذِ العِجلِ، على قصَّةِ قتلِ أنبياءِ اللّهِ، تدرُّجًا بذكرِ الأقدمِ فالأقدمِ، من قبيلِ التَّرقّي من الأقربِ إلى الأبعدِ؛ لبيانِ أنَّهم أجيالٌ يأخُذُ بعضُهم عن بعضٍ، فكما أخذَ القتلةُ منهجَهم عن متَّخذي العجلِ إلهًا، فالمُعاصِرون كذلك أخَذُوا المَنهجَ كابرًا عن كابرٍ.

قال الفخر الرّازي في بيان وجه مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها: "لَمّا حَكى طَريقَةَ اليَهُودِ في زَمانِ مُحَمَّدٍ ﷺ ووَصَفَهم بِالعِنادِ والتَّكْذِيبِ ومَثَّلَهم بِسَلَفِهِمْ في قَتْلِهِمُ الأنْبِياءَ الَّذِي يُناسِبُ التَّكْذِيبَ لَهم بَلْ يَزِيدُ عَلَيْه، أعادَ ذِكْرَ مُوسى عليه السلام وما جاءَ بِهِ مِنَ البَيِّناتِ وأنَّهم مَعَ وُضُوحِ ذَلِكَ أجازُوا أنْ يَتَّخِذُوا العِجْلَ إلَهًا، وهو مَعَ ذَلِكَ صابِرٌ ثابِتٌ عَلى الدُّعاءِ إلى رَبِّهِ والتَّمَسُّكِ بِدِينِهِ وشَرْعِهِ، فَكَذَلِكَ القَوْلُ في حالِي مَعَكم وإنْ بالَغْتُمْ في التَّكْذِيبِ والإنْكارِ"(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: جمعُ بيّنةٍ، وأَصلُ الكلمةِ (بَانَ)، يُقالُ: بَانَ الشَّيْءُ بَيَانًا وَأَبَانَ؛ إِذَا اتَّضَحَ وَانْكَشَفَ، فَهُوَ بَيِّنٌ، والبَيِّنَة: الدّلالة الواضحةُ عقليَّةً كانَتْ أَو مَحسوسَةً، وهِيَ مِنْ إبانَةِ أَحَدِ الشَّيئينِ عن الآخَرِ فَيزولُ الالتباسُ بِها(2).

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/201.

(2) السمين، عمدة الحفاظ: (بَيَنَ)، وينظر: الواحدي، الوسيط: 1/180.

2) ﴿ٱتَّخَذۡتُمُ﴾: أصلُ الكَلمةِ (أَخذَ)، ويَدورُ المَعنَى على: حَوْزِ الشَّيءِ وتَحْصيلِه، وهو خِلَافُ العَطَاءِ، واتَّخَذَ بوزنِ افْتَعَلَ، أَصْلُهُ أْتَخذَ، والاتِّخاذُ: افْتِعَالٌ مِنَ الأَخْذِ، إلّا أَنَّه أُبدلَتِ الهمزةُ تاءً ثُمَّ أدْغمَتْ مَعَ تاءِ الافتعالِ، والاتِّخاذ: إذا كانَ بمعنَى الكَسْبِ تعدَّى لواحدٍ، وإنْ كان بمعنى التَّصيير تعدَّى لاثنين، وهوفي الآية متعدٍّ لمفعولين، إذ التّقدير: اتَّخذتم العجلَ إلهًا، وعليه فمعنى: ﴿ٱتَّخَذۡتُمُ﴾: جَعلتم وصَيَّرتم[1].

3) ﴿ٱلۡعِجۡلَ﴾: مَعْرُوفٌ، وَهُوَ وَلَدُ البَقَرَةِ الصَّغيرُ الذَّكَرُ، والمرادُ في الآيةِ الَّذي صَنَعَهُ لَهُمُ السَّامريُّ مِن حُليّهم، وجَعَلُوهُ إلَهًا وعَبَدوه، وسُمِّيَ ولدُ البقرةِ عِجلًا؛ لِتَصَوّرِ عَجَلَتِه الَّتي تُعْدَمُ منه إذا صارَ ثَورًا[2].

4) ﴿ظَٰلِمُونَ﴾: الظَّاءُ وَاللَّامُ وَالمِيمُ كلمة تَدورُ على مَعنَيَين؛ أَحَدهمَا: خِلَافُ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ، ومنه: الظُّلْمَةُ، وَالجَمْعُ: ظُلُمَاتٌ، وَالآخَر: وَضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ تَعَدِّيًا، إمّا بنُقصانٍ أو بزيادةٍ، وإمّا بعدولٍ عن وقتِهِ أو مكانِه، ويقالُ فيما يَكثُرُ وفيما يَقِلّ مِنَ التّجاوزِ، ولِهذا يُستعملُ في الذّنبِ الكبيرِ، فيقالُ للكافرِ: ظالمٌ، وأَعظمُ الظُّلم الشِّركُ باللّهِ تعالى، ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان/ 13]، كما يُستعملُ الظُّلمُ في الذَّنْبِ الصّغيرِ؛ فيقالُ لصاحبِه ظالمٌ[3]، ومعنى ﴿ظَٰلِمُونَ﴾ في الآية: متجاوزون حدود اللّه، صارفون العبادة لغير اللّه.

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

وَلَقَد جاءَكُمْ مُوسى بِالدَّلَالَاتِ الوَاضِحَةِ وَالمُعْجِزَاتِ البَاهِرَةِ؛ كالطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع، وغير ذلك مما ذكره اللّه في القرآن العظيم؛ فلم تَعمَلُوا بها مع وُضوحِها، بل اتَّخَذْتُم العِجلَ إلَهًا لكُم تعبدونه بعد ذهاب موسى لميقات ربّه، وأنتم في حالِ عبادتِكم العِجلَ ظالِمُون؛ إذْ وَضعتُمُ العبادةَ في غَيرِ موضعِها، وأيُّ ظُلم أَعظمُ مِنَ الإشراكِ باللّهِ؟، أَو المعنى: وأَنتم قومٌ عادتُكُم الظُّلمُ، فصارَ سَجيَّةً لكم، فَمَنْ آمنَ بِمَا أُنْزِلَ عليه كيفَ يَتَّخِذُ العِجلَ إلهًا، وقدْ بلغتْهُ الدَّعوةُ وقامتِ الحُجَّةُ عليه؟! فهذهِ الآيةُ ردٌّ

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أَخَذَ).

(2) السمين، عمدة الحفاظ: 3/33.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ظلم).

عليهم في قولِهم إنَّهم لا يُؤمنونَ إلّا بما أُنزل إليهم، وتكذيبٌ لَهم في دَعواهُم، وتسليةٌ للرسول ﷺ وتثبيتٌ له[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ الوَصْل:

تعليمُ المُحاجَّة بالإخبارِ عن غَيبِ الماضي، وهذا من دَلائلِ صِدقِ الرَّسولِ والرِّسالةِ

جاءَتْ هذهِ الآيةُ على طَريقةِ الوَصلِ مَعطوفَةً عَلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 91]، والتّقديرُ: "قل: فلِمَ تقتُلُون أنبياءَ اللّهِ... ولقدْ جاءَكُم مُوسَى بالبيّناتِ"؛ أي: قلْ هذا، وهذا على سَبيلِ المُجادَلَةِ وإقامةِ الحُجّةِ عليهم[2]، وهي من طرائِقِ تَعليم الرَّسولِ ﷺ المُحاجَّةَ بالغَيبِ الّذي لا يقبلُ المخاصَمة.

سرُّ التَّأكيدِ لما ظاهِرُهُ لا يَحتاجُ إلى تَأكيدٍ:

مُقتَضَى اتِّخاذِ العِجلِ إنكارُ البيِّناتِ الواضِحاتِ

المُخاطَبون من اليَهودِ مُقرُّون بمجيءِ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بالبيِّنات، وإنْ كان عندَهم شيءٌ من المُشاغبةِ فهو في اتِّخاذِ العجْلِ، فيُسألُ عن سرِّ تأكيدِ الآيةِ بتأكيدَينِ للأمرَينِ معًا، دون الاكتفاءِ بتأكيدِ اتِّخاذِ العجلِ؛ "فَهَلَّا قيل: ولقد اتَّخذتُم العِجلَ مِنْ بعدِ ما جَاءَكُم مُوسَى بالبيِّناتِ؟ فالجواب: إنَّه ظَهرتْ عليهِ مَخايلُ الإنكارِ لمجيئِهِ لَهُم بالبيّناتِ بسببِ اتّخاذِهم العِجْلَ؛ فلذلك عَطَفَهُ عليه (بَيانًا لسَببِه) المُوجِب للقسَم"[3]؛ أي: إنَّهم لمَّا اتَّخذُوا العجلَ؛ فكأنَّهم أَنكرُوا مجيءَ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بالبيِّناتِ! فكان التَّأكيدُ مُناسبًا لمُقتَضى حالِهم، وبه يتخرَّجُ لنا ذمٌّ جديدٌ لهم، بإنكارِهم للبيِّناتِ التي أَتى بها مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

معنى الباءِ في قولِهِ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

أفادت الباءُ في قولِه ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ المُلابسَةَ على مَعنى المَعيَّةِ؛

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/108، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/94، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/336.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/325.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/372.

أي: لقدْ جاءَ مُوسَى والبيّناتُ مُتَلَبِّسَةٌ بِهِ، فجاءتِ (الباءُ) لِتُفيدَ تَلَبُّسَ مُوسَى عليه السلام بالبيّنات لِشِدّةِ مَعِيَّتِه لها، وأنَّه بمجرَّدِ مَجيئِه بها ظَهرَتِ الدَّلائلُ على وحدانيَّةِ اللّهِ.

نُكتةُ استعمالِ(ثُمَّ) دونَ (الواوِ) في قولِه تعالى ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ﴾:

نُشوءُ مَعنَى الاستِبعادِ والتَّعجُّبِ عن التَّراخي الزَّمنيِّ

استُعمِل حرفُ التَّراخي (ثُمَّ) ولم تُستعمل (الواو)، فلم يقل: "واتّخذتُم العِجلَ"؛ لنكتٍ معنوية، وهي:

الأولى: أنَّهم لمْ يتَّخذوا العجلَ مباشرةً بعد مجيءِ الآياتِ البيِّناتِ، وإنَّما بعدَ مهلةٍ مكَّنَتْهُم من تدبُّرِ الآياتِ البيّنَاتِ الوَاضحاتِ، والنَّظَرِ فيها، ومعَ ذلكَ فقد اتَّخذُوا العجلَ، وفيهِ من شديدِ التَّقريعِ والتَّوبيخِ ما لو عَطفَ بالواو[1].

الثَّانية: أنّ اتخاذَهم العجلَ إلهًا في غايةِ الاستبعادِ[2]؛ فلا يُعقلُ بعدَ مجيءِ البيِّناتِ الواضِحاتِ، وفَهمِها على وجهِها، أنْ يُتَّخذَ العِجْلَ!.

الثَّالثة: التَّعجُّبُ ممَّن هذه حالُه؛ إذْ مرورُ تلك المدَّةِ يَقتضي الثَّباتَ على الحقِّ والتَّوحيد، لا الكُفرَ والشِّركَ؛ وذلكَ لتَرتُّبِه على أوضَحِ بيانٍ على وحدانيَّةِ اللّهِ؛ فكأنَّه قال: كيفَ تَتَّخذونَ عِجْلًا إلهًا بعدَ مجيءِ الآياتِ البيّناتِ الدّالَّةِ على صدقِ مُوسَى عليه السلام وَوَحْدَانيَّةِ اللّهِ؟!

سرُّ التَّعبيرِ بالاتِّخاذِ:

اتِّخاذُ العِجلِ لم يبلُغ مَبلغَ العِبادةِ التَّامةِ، فكان هو الأصدَقَ في وصفِ فِعلِهم

قال اللّه تعالى: ﴿ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾، ولم يَقُل: (عَبَدتم العِجْلَ)، على أنَّ الظَّاهر هو العِبادةُ، وهذا في القرآنِ كلِّه، فيُسألُ عن سرِّ ذلك؟ والجوابُ عنه: أنَّ الاتِّخاذَ فيه مَعنَى حوزِ الشَّيءِ وتَحصيلِهِ بعدَ الطَّلبِ، "مثِل الدَّار يتَّخذُها مَسكنًا"[3]؛ فالمتَّخذُ مُريدٌ للشّيءِ راغبٌ فيه مستمرٌّ عليه، كأنَّه حَصَلَ على مُبتغاه؛ ولهذا كانَ حالُ

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/261، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/180، والبقاعي، نظم الدرر: 2/50.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/50.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 138.

بني إسرائيلَ بعدَ اتِّخاذِهم العِجلَ أَنَّهم أُشْرِبوا في قلوبِهم العِجلَ، وأمّا العِبادةُ فهي تمامُ الخُضوعِ والانقيادِ، وهم لـمْ ينقادُوا للعجلِ في جميعِ أُمورِهم، بل فيما يُوافق أهواءَهم، كما أنَّ اقترانَ فعل (عبدتم) بالعجل فيه شَناعةٌ قبيحةٌ، فكان استعمالُ ﴿ٱتَّخَذۡتُمُ﴾ هو الأنسَبَ لسِياقِ الكلامِ ونَظمِه.

من ناحية الفعل ﴿ٱتَّخَذۡتُمُ﴾ فيه تكلّفٌ واجتهادٌ للقيام بالفعل، وهذا يوحي بأنّهم بعبادتهم العجل مُخالفون للفطرة السّليمة.

بلاغَةُ الإيجازِ بحَذفِ المَفعولِ:

استجماعُ خفيَّاتِ النُّفوسِ من أسبابِ اتِّخاذِ العجلِ، وتقديرِها بحُسنِ التَّدبُّرِ

يأخُذُ فعلُ ﴿ٱتَّخَذۡتُمُ﴾ مفعولَيْن، ذكرتِ الآيةُ الأوَّلَ، وحذفتِ الثَّاني، وتقديره: إلـهًا[1]، وقد حُذِفَ لعلم المخاطَبِ به[2]؛ فالسِّياقُ يدُلُّ على المحذوفِ، فكيفَ إذا اجتمعَ للحَذفِ نِكاتٌ أخرى، منها: صونُ ذكرِه لئلا يصرَّحَ بوصفِ العجلِ بالألوهيَّةِ الدَّال على قبحِ الوصفِ وشَناعتِه، فحذفُه أَنسَبُ بالمقامِ[3]، ولإفادةِ عمومِ اتِّخاذِ العجلِ؛ أي: إنَّكم اتَّخذتُمُ العِجلَ معبودًا وسندًا تلجَؤون إليه، وحَبيبًا قَد أُشرِبَتْ قلوبُكُم حُبَّه، فيصِحُّ تقديرُ مفعولٍ ثانٍ يَتَضَمَّنُ صِفاتٍ من أَجلِها اتُّخذَ العجلُ، وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى توجيهٍ آخرَ، وهو أنَّ الفعلَ نَصَبَ مفعولًا واحدًا[4]، وما ذكرناه أولى وأنسبُ بالسِّياقِ.

فائِدَةُ قيدِ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾:

الإشعارُ بالغَدرِ والخيانةِ الصَّادِرةِ عن بني إسرائيلَ

يُشعِرُ قيدُ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ بالغَدْرِ والخيانةِ؛ فإنَّ اتِّخاذَ العِجلِ لم يكن إلَّا من بَعدِ مَجيئِه بالبيِّنات وذَهابِه عنهُم؛ فهُم انتظروا ذَهابَه ليتَّخذوا العِجلَ، ولـمَّا كان مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- رسولًا وقائدًا، كان اتِّخاذُ ما يُخالفُه عينَ الغَدرِ والخيانةِ، ويُبيِّنُ الجُبنَ والنَّذالةَ فيما أتَوْا به من الاتِّخاذ.

(1) الزجاج، معاني القرآن: 1/135، 2/397.
(2) الهروي، الغريبين: 1/52.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/372.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 1/323.

معنى (الواوِ) في قولِه: ﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾:

معنى الاستِئنافِ والحالِ يلتقيانِ في تعليلِ الأفعالِ

حرفُ (الواوِ) في قولِه تعالى ﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾: إمَّا أنْ يُحملَ على الحالِ أو الاستئنافِ، أمَّا حملُهُ على الحالِ فمعناه: وقوعُ الظُّلم فيهم، مِنْ مبدأِ الاتّخاذِ إلى مُنتَهاه، فلا عُذرَ و"لا شُبهةَ لكم في اتّخاذِهِ، بل ذلك مَحضُ ظُلمٍ مِنكُم وتَعنّتٌ"[1]، وأمَّا حملُهُ على الاستئنافِ فمعناه: إخبارٌ مِنَ اللّهِ أنَّكم قومٌ عادتُكُم وسجيّتُكم الظُّلم[2]، وتكون الجملةُ اعتراضيةً لتَتميمِ المَعنَى وتذييلِهِ، وهذانِ المعنيانِ صَحيحانِ بقطعِ النَّظرِ عن التَّوصيفِ النَّحوي لهمَا؛ فإنَّهم اتَّصفُوا بالظُّلمِ حالَ اتِّخاذِهم العجلَ؛ لأنَّهم قومٌ ظالمون في الأصلِ، ففيهِ معنى التَّعليلِ.

نكتَةُ التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّةِ:

الدّلالةُ على ثُبوتِ الوَصفِ كُمونًا وحركةً

جاءت الجملة اسميَّة ﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾؛ لتدُلَّ على ثُبوتِ وصفِ الظُّلمِ لهم ودَوامِهِ فيهم، سواءٌ قلنا: إنَّ الجُملةَ حاليَّةٌ، أم قلنا: إنَّها استئنافيَّة؛ فإنَّ ثباتَ الظُّلمِ فيهم هو في سَجيَّتهم وعادتِهم، فهو ظلمٌ ثابتٌ كامِنٌ، وهو كذلك ثابتٌ وقتَ القيامِ بالاتِّخاذِ؛ فنَاسَبَ أنْ يكونَ الوصفُ بالجملةِ الاسميَّةِ؛ لأنَّها أبلغُ وآكَدُ من الجملةِ الفعليَّةِ، ولكلٍّ سياقُه ومناسبتُه في الكلامِ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/288.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/324، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/94.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩٣﴾ [البقرة: 93]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

سِيقَتْ هذه الآيةُ لبيانِ تَوالي عِنادِ بني إسرائيلَ وحِيَلِهم، وأنّهم مع الهَوَى لا يُفارقونه في مُحاجّةٍ جَديدَةٍ وغَرَضٍ جديدٍ؛ فقد أخذَ اللّه تعالى ميثاقَهم وخوَّفَهم بجَبَلِ الطُّورِ، وأمرَهم بأنْ يأخذُوا ما في التَّوراةِ بقُوّةٍ وجِدٍّ، فكان ردُّهُم وجوابُهم أن قالوا: سَمِعنا وعَصَينا؛ فقد جاءتِ الآيةُ ردّا على الّذين لم يُؤمِنُوا بالنَّبيِّ مُحمّدٍ ﷺ في زَمَنِ نزولِ القُرآنِ حيث أقامَ دليلًا آخَرَ على إبطالِ دَعوى إيمانِهم بالتَّوراةِ التي أنزِلَتْ إليهم، ودَعوى أنّ اللّه لا يُطالِبُهُم بالإيمانِ بغيرها.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾: أصل الكلمة (وَثِقَ)، وهي كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى عَقْدٍ وَإِحْكَام. ومنه: وَثَّقْتُ الشَّيْءَ: أَحْكَمْتُهُ، وعقدٌ وثيقٌ أي: مُحكَم، والوِثاقُ: ما يُشدُّ به الحَبلُ وغيرُه، ثمّ استعملَ المِيثاقُ بمَعنَى: العَهْدِ المُحْكَمِ، أو العقد المؤكّد بيمينٍ وعَهدٍ، وهو المراد في الآية[1].

2) ﴿ٱلطُّورَ﴾: اسمُ جبلٍ مَخصوصٍ، وقيل: اسمٌ لكلّ جبلٍ، ثمّ تَخصَّصَ بدليلِ تَخَصّصِهِ بالإضافةِ في قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: 2]، وقوله ﴿تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ [المؤمنون: 20]. وعلى هذا القولِ تكونُ (ال) في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ للعهد العلمي[2].

3) ﴿بِقُوَّةٖ﴾: القُوَّةُ: نقيضُ الضَّعفِ، وتُستعملُ في معنى القدرةِ، فتكونُ في البدنِ نحو

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والمعجم الوسيط: (وثق).
(2) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (طور).

قولِه: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: 15]، وفي القلبِ نحو ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم: 12]؛ أي: بقوّةِ قلبٍ، وفي القدرةِ الإلهيَّةِ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: 21]، والقوّةُ في الآية بمَعنَى: بِجِدٍّ وبعَزم على أداءِ ما افترضَه اللّه عليكم[1].

4) ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾: أصلُهُ (سَمِعَ)، وهو قوّةٌ في الأذنِ بها تُدركُ الأصواتُ، وَسَمِعَ يَكُونُ بِقَصْدٍ وَبِدُونِه، واسْتَمَعَ لِمَا كَانَ بِقَصْدٍ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بالإصْغَاءِ، وَسَمِعْتُ كَلَامَهُ؛ أَيْ: فَهِمْتُ مَعْنَى لَفْظِه، فَإِنْ لَمْ تَفْهَمْهُ لِبُعْدٍ أَوْ لَغَطٍ فَهُوَ سَمَاعُ صَوْتٍ لَا سَمَاعُ كَلَامٍ، ولا يدلُّ السَّمعُ على الطّاعةِ إلّا في مَقامِ طلبِ الامتِثالِ، كقولنا: اسمَعْ كلامي، فالسَّمعُ هنا بمَعنَى طَلَبِ الامتِثالِ والطّاعة[2].

5) ﴿وَأُشۡرِبُواْ﴾: أصله شَرِبَ يَشْرَبُ شَرْباً وشُرْباً، والشُّرْبُ: تناولُ كلّ مائعٍ، ماءً كان أو غيره، والإشْرابُ: مُخَالَطَةُ المَائِعِ الجَامِدَ، وَتُوُسِّعَ فِيهِ حَتَّى صَارَ في مخالطَةِ لونٍ بلَونٍ، يقال: لَوْنٌ أُشْرِبَ بلَونٍ؛ أي: خُلِطَ. كأَنَّ أحد اللَّوْنَين سُقِيَ اللَّونَ الآخَرَ؛ يُقَالُ: بياضٌ مُشْرَبٌ حُمْرَةً مُخَفَّفًا. وإذا شُدّد كَانَ لِلتَّكْثِيرِ وَالمُبَالَغَة، وأُشْرِبَ فُلَانٌ حُبَّ شيءٍ؛ أي: خالَطَ قَلْبَه. وأُشْرِبَ قلبُه مَحَبَّةَ هَذَا؛ أي: حَلَّ مَحَلَّ الشَّرابِ؛ كأَنَّ الشَّيءَ المَحبوبَ شَرابٌ يَسْري في قَلبِ المُحبِّ ويُخالِطُه؛ كما يسري الشّرابُ العَذبُ البارِدُ في اللَّهاة[3].

6) ﴿بِئۡسَمَا﴾: أَصلُ الكلمةِ من البُؤْس وهو الشِّدّةُ، مَنْقُولٌ مَنْ بَئِسَ فُلَانٌ إذا أَصاب بؤْسًا، فتكون بمعنى: شِدَّةِ الحربِ وشِدَّةِ العذابِ، والبؤسُ شِدَّةُ العَيشِ، ولا بأسَ عليكَ بمعنى لا شِدَّةَ عليكَ، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى قِيلَ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ؛ أَي لَا خَوْفَ، وبِئْسَ: كلمةٌ تُستعملُ في جميعِ المَذامّ ومُسْتوفيةٌ لَها[4].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

يذكرُ اللّه في هذهِ الآيةِ تَوالي نِعَمِ اللّهِ على اليَهودِ وإمهالَهُ لَهُم، والخطابُ لليَهودِ في زَمَنِ نزولِ القرآنِ، وذَكَرَ أفعالَ أَسلافِهم ونَسَبها إليهم لأَنَّهم رَاضونَ بها، سائرونَ

(1) الفراء، معاني القرآن: 1/43، والزجاج، معاني القرآن: 1/148، والرّاغب، المفردات، والسمين، الدر المصون: (قوي).
(2) الرّاغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير، والمعجم الوسيط: (سمع).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شرب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بؤس).

على طريقِهم في الكُفرِ والعِنادِ والتّكذيبِ، وَإِذْ أَخَذْنا ميثاقَكُمْ بالعَمَلِ على ما في التَّوراةِ، وأعلينا فوق رؤوسكم الطورَ وجعلناه كالمِظَلَّةِ ترهيبًا لكم حتَّى قَبِلتُم وأَعطيتُم الميثاقَ، خُذوا ما آتَيْناكُمْ مِن الكتابِ بِقُوَّةٍ بجدٍّ وعَزيمةٍ والتَزِمُوا ما فيهِ واسمعوه سَماعَ طاعةٍ، لكنَّهم قالوا سَمِعْنا قولَك وعَصَيْنا أَوامرَك، فَخالفُوا في سَماعِهم وعَصَوا، مُبالغةً في التَّعَنُّتِ والعِصيانِ، فقدْ خالطَ قلبَهم حُبُّ عبادةِ العجلِ الذي اتَّخذوه إلهًا بِسببِ كفرِهم، إذْ كانوا يُؤمنونَ ببعضِ الكتابِ ويكفرونَ ببعضٍ، فَكذَّبَهم اللهُ فيما ادّعوه بأنَّهم يُؤمنونَ بما أُنْزِلَ إليهم، فأمَرَ رسولَه مُحمَّدًا ﷺ، أو مَنْ يُجادلُهُم أَنْ يَقولَ لَهم على طريقةِ عُمومِ الذَّمِّ: بِئْسَ الشَّيءُ الذي يَأْمُرُكم بِهِ إيمانُكُم -الذي تَزعمونَهُ مِنْ أَنَّكُم تُؤمنونَ بما أُنزِلَ إليكُم- تَكذيبُ الأنبياءِ وقتلُهم واتِّخاذُكم العجلَ إلهًا لَكُم إنْ كنتُم مُؤمنينَ؛ فَنَفَى إيمانَهم بالتَّوراةِ؛ لِأَنَّ دعوى إيمانِهم باطِلَةٌ، فَأَفعالُهم تُناقضُ ما في التَّوراةِ.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغَةُ الوَصلِ:

بيانُ تواصلِ الحِجاجِ في إقامةِ الأدلَّةِ على مَوقِفِ بني إسرائيلَ مِنْ نِعَمِ اللهِ عليهم

جاءت هذه الآيةُ على طَريقةِ الوَصلِ؛ وذلك لِإظهارِ مناسبةِ ما قبلَها مِنَ الآياتِ مِنْ تذكيرِ اليَهودِ في زمنِ رسولِ اللهِ ﷺ بما حَصلَ مَعَ أَسلافِهِم، فتكونُ معطوفةً على ما تقدَّمَها مِنَ الآياتِ الّتي ذكرتْ قبائِحَ أَفعالِ اليَهودِ وأقوالِهم، معَ طريقةٍ جديدةٍ في إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، فتكونُ معطوفةً في الأَصلِ على قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: 40]؛ أي: اذْكُروا نِعمتي واذْكُروا إِذْ أَخَذْنا ميثاقَكم ورفعْنا فوقَكم الطُّورَ، لكنْ هذه الآيةُ سِيقَتْ مَساقًا جَديدًا في الاحْتجاجِ والاسْتدلالِ على بُطلانِ دَعوَى إيمانِ أَسلافِهِم؛ لِيعلموا أَنَّ ما يَدَّعونَه مِنْ إيمانِهم بما أُنزِلَ عليهم باطلٌ كذلكَ.

أَغراضُ التَّكرارِ في القرآنِ:

تكرارُ الأغراضِ ليس تكرارًا للآياتِ نظمًا ومعنًى محضًا

هذه الآيةُ ليستْ تكرارًا لقولِه تعالَى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 63]، وإنَّما هي تكرارٌ لأغراض سبقَ التَّنبيهُ عليها، وتكرارُ هذه الآيةِ عن الأولى لِمَا نِيطَ بِهِ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى مَا في الآيَةِ السَّابِقَة مَعْنًى في قَوْلِه: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾، ولِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ طَرِيقَتَهُمْ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ طَرِيقَةُ أَسْلَافِهِمْ مَعَ مُوسَى، وَهَذَا إلْزَامٌ لَهُمْ بِعَمَلِ أَسْلَافِهِمْ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الفَرْعَ يَتْبَعُ أَصْلَهُ، وَالوَلَدَ نُسْخَةٌ مِن أَبِيهِ، وَهُوَ احْتِجَاجٌ خِطَابِيٌّ[1].

فائدةُ إيرادِ (إذ) مبدأَ الكلامِ:

التَّنبيهُ على أمرٍ غابرٍ للاتِّعاظِ منه في أمرٍ حاضِر

يغلبُ إيرادُ (إذ) عندَ الكلامِ على أَمرٍ له شَأنٌ، كأنْ يكونَ ميثاقًا مؤكَّدًا، أو بيانَ نعمةٍ عظيمةٍ، أو ارتكابَ ذَنبٍ عظيمٍ؛ فيفيدُ إيرادُها التَّنبيهَ على أَمرٍ عظيمٍ وقعَ في زمنٍ ماضٍ، يَستحقُّ أنْ يكونَ ما بعدَها مَثَلًا للذِّكرى والتَّدبُّرِ والعِظَة، وقدِ اجْتمعَ في هذهِ الآيةِ التَّذكيرُ بالميثاقِ، ورفعِ الطُّورِ، وموقفِ اليَهودِ من أَمرِهم بالاتِّباعِ، والتَّنبيهِ على سَببِ العِصيانِ، وهو إشرابُهم حُبَّ العِجلِ في قلوبِهم بسببِ كُفرِهم ابتداءً.

بلاغةُ الإفرادِ فيما ظاهرُه الجَمعُ:

إلحاقُ الفُروعِ بأصلٍ واحدٍ، لتوقُّفِ اعتبارِها على اعتبارِه

جاء التَّعبيرُ عنِ الميثاقِ بالمُفرَدِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾، ولم يقل: (مواثيقكم)، مع أنَّ المَذكُورَ هو مَواثيقُ لا ميثاقٌ واحدٌ؟! وتعليلُ ذلكَ أنَّ العهودَ التي أُخِذت عليهم مَردُّها إلى ميثاقٍ غليظٍ واحدٍ، وهو ميثاقُ العقيدةِ والتَّوحيد، فَمَنْ أَخلَّ به فقدْ أَخلَّ بالجَميعِ؛ فكانَ التَّنبيهُ عليه بالإفرادِ لبيانِ أنَّه المقصودُ أصالةً وغيرُه بالتَّبَعِ، فألحقَ الفُروعَ بأصلٍ واحدٍ لتأخذَ حكمَه؛ ولذلكَ كان التَّنبيهُ على علَّة الكفرِ في غالبِ الكلامِ، من مثلِ قولِه تعالى: ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾، هو المقصودَ في الكلامِ المُنبَّه عليه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/609.

بلاغةُ تقديمِ الظَّرفِ:

التَّخويفُ والتَّرهيبُ للحَثِّ على الامتِثالِ

قُدِّم ظرفُ المكانِ ﴿فَوۡقَكُمُ﴾ على ﴿ٱلطُّورَ﴾ لِبيانِ الاهتمامِ والعنايةِ بِكونِ الجَبلِ فوقَهم؛ فهذا أَدعى للتَّخويفِ والتَّرهيبِ؛ لِحثِّهم على الامتثالِ والطَّاعةِ، وهُمُ المعروفونَ بالتَّولّي والإعراضِ، وما يُعطيهِ تقديمُ الظَّرفِ من استحضارِ صورةِ الجبلِ وهو فوقَهُم.

جمالُ الإيجازِ بالحذفِ:

الحثُّ على المبادَرَةِ بالمُباغَتَةِ

أَوجز النَّظمُ الكلامَ بحذفِ القول، والتقديرُ: (قلْنا لَهم خُذُوا ما آتيناكُم بِقوّة)؛ فحذَفَ ليَستَمِرَّ سياقُ الكلامِ بصيغةِ الخطابِ المُفيدِ طلبَ المبادرةِ إلى الامتثالِ؛ لِمَا في مُخاطبةِ اللّهِ لهم مِنَ الرَّهبةِ المقرونةِ بوجُوبِ استحيائِهم مِنَ اللّهِ تعالى، وأَنْ لا يُعرِضُوا عن الامتثالِ، ولِمَا في ذلكَ من تحقُّقِ عُنْصرِ المفاجأةِ في الخِطابِ، وبيانِ أَنَّهُ المقصودُ بالدَّرَجةِ الأولى للمُخاطَبين.

إيجازُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾:

الأمرُ بالامتثالِ بكلمةٍ تَجمعُ بين طَلَبِ الإصغاءِ والفَهمِ، وطَلَبِ الامتثالِ والطَّاعةِ

التَّعبيرُ بـ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾: إمَّا أَنْ يكونَ كِنايةً عن الامتثالِ، وتَحْصيلًا للمأمورِ، وهوَ أَوقعُ بَيانًا مِنَ الإفصاحِ بِذِكرِه؛ فَيتحقَّقُ الملزومُ وهو طلبُ الإصغاءِ، ولازمُهُ وهو طلبُ الامتثالِ بكلمةٍ واحدة، أو هو مَجازٌ مُرسَلٌ بإطلاقِ السَّببِ وإرادةِ الـمُسَبّبِ؛ فذَكَرَ فعلَ الطَّلبِ (اسْمَعُوا) وأَرادَ ما يَتَرَتَّبُ على الإصغاءِ مِنَ الامتثالِ والطَّاعةِ، والقرينةُ الطَّلبُ من الأَعلى إلى الأَدنى، ومآلُه تَحقُّقُ الـمَلزوم واللازم بكلمةٍ واحدةٍ كذلكَ، والقومُ قد أُمروا بالطَّاعة، فغالَطُوا في ذلك، وحَملُوا الأَمرَ بِالسَّماعِ على ظاهرِهِ الذي لا يفهمُهُ على ظاهرِه إلَّا أَصحابُ السَّماجةِ، فقالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾[1].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/373.

تردُّدُ المعنى بين التَّأكيدِ والتَّأسيسِ:

تأكيدُ العامِّ بأخصِّ ما فيه يُشابِه معنى التَّأسيسِ

يحتملُ قولُه تعالَى: ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ أَنْ يكونَ تأكيدًا لقولِه: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾، بأنْ يكونَ الأَخذُ بقوَّةٍ شاملًا لطلبِ الامتثالِ والطَّاعةِ، وقولُه: ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ أكَّدَ ذلك، وتكونُ نكتةُ التَّأكيدِ هي الإشعارَ بأنَّهم مَظِنَّةُ إِهْمَالِ الميثاقِ وَالإِخْلَالِ ببنودِه؛ ولهذا كانَ الميثاقُ عَهدًا مُوثّقًا لأنّهم في طبعِهم لا يَمتثلونَ بغير مؤكِّداتٍ لِمَا يُطلَب مِنْهم.

ويحتمِلُ أن يكونَ قولُه: ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ تأسيسًا لإيرادِ معنًى جديدٍ؛ بحملِ قولِه: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ على معنى: تلقَّوا تعاليمَ التَّوراة بجِدٍ وعَزمٍ واهتمامٍ، فيكونُ معنى قولِه: ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾: أَصْغُوا إلى هذهِ التَّعاليم وتدبّروها وامْتَثِلُوها، "والظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ لَا يَشْمَلُ الِامْتِثَالَ؛ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ دَالًّا عَلَى مَعْنًى جَدِيدٍ وَلَيْسَ تَأْكِيدًا"[1].

وقاعدةُ "التَّأسيسِ أولى من التَّأكيدِ" أصلٌ في فهمِ الكلامِ القرآنيِّ، إلَّا أنَّها غيرُ مطَّردةٍ؛ فالتَّأكيدُ هنا أظهرُ، إذ مقصودُه تأكيدُ ما اعتادَ بنو إسرائيلَ على نِسيانِه؛ فهم بحاجةٍ إلى مُؤكِّداتٍ من الكلامِ كي يَمتَثِلوا، فأكَّدَ لهم بأكثرِ شَيْءٍ يَنفَلِتون منه وهو الامتثالُ، فهو من قَبيلِ تأكيد العامِّ بأخصِّ ما فيه؛ فيُشابِه معنى التَّأسيسِ، ونكتتُه عند ابنِ عاشور: "الإِشْعَار بِأَنَّهُمْ مَظِنَّةُ الإِهْمَالِ والإِخْلَالِ حَتَّى أَكَّدَ عَلَيْهِمْ ذَلِك قَبْلَ تَبَيُّنِ عَدَمِ امْتِثَالِهِمْ فِيمَا يَأْتِي"[2].

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ:

جاءَ الأمرُ بالسَّماعِ في هذه الآية: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ﴾، بينما أمرَهم بذكرِ ما فيه في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 63]، والفرقُ بينهما أنَّ الآيةَ المتقدِّمةَ جاءَتْ في مساقِ التَّذكيرِ بإنعامِ اللّهِ على بني إسرائيلَ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/610.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/610.

وبيانِ آلاءِ اللّهِ عليهم؛ لهذا قالَ في فاصِلَتِها: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، وقالَ في الآيةِ التي بعدَها: ﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، فذَكَرَ فضلَهُ تعالى عليهم ورحمتَهُ، فكان المناسبَ أنْ يذكِّرَهُم بحفظِ ما في الكتابِ وتعاهدِه وأَنْ لا ينسَوه، بَيْنما هذه الآية فيها بيانُ أقوالِهم القبيحةِ، وأفعالِهم الشَّنيعةِ التي استحقّوا بها الكفرَ، وإقامةُ الحُجَّةِ على كفرِهم في أَقوالِهم وأَفعالِهم، فناسبَ أَنْ يقولَ: ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾؛ ليَصِلَ إلى عنادِهم بقولِهم: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾.

نكتةُ الالتفاتِ من الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ:

نسبةُ القولِ إلى قائلِه، دون تجوُّزٍ في الكلامِ

وقعَ التفاتٌ في الخِطابِ في قولِه: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾، ولم يقل: (قُلْتُم سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)، ونكتتُه: نِسبةُ القولِ إلى أَصحابِه على الحَقيقةِ دونَ تَجوُّزٍ في الكلامِ؛ فإنَّ هذا الكلامَ صَدَرَ عن المتقدِّمينَ، فنُسِبَ إليهم، واستمالةُ المُخاطَبين بإبعادِهم عن مثل هذا القولِ؛ تنشيطًا لقلُوبِهم، وتَحريكًا لِمَشاعرِهم.

براعةُ الاستعارَةِ القرآنيَّةِ:

بيانُ شدَّةِ تغلغلِ حُبِّ عِبادةِ العِجلِ في القلوبِ وأثرِه الخرافيِّ في الضَّلالِ

في قولِه تعالى: ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ استعارةٌ بديعةٌ؛ فالعِجلُ لا يُشرَب، لكنَّ الآيَةَ شبَّهت شدَّةَ تَغَلْغُلِ حُبِّ العجلِ في قلوبِهم بالشَّيْءِ الذي يُشرَب، فشبَّهَت تداخُلَ حُبِّهِمْ عبادةَ العجلِ في قلوبِهم بإشرابِ الصَّبْغِ الثَّوبَ في شِدَّةِ الامتزاجِ، ثمَّ حذفَ المُشبَّهَ بِهِ واستعارَ ما يدلُّ على الامتزاجِ في المشبَّه بِه، وهو كلمةُ ﴿وَأُشۡرِبُواْ﴾؛ للدّلالة على أَنَّهُ حَلَّ مَحَلَّ الشَّرَابِ وَمَازَجَهُ، و"من عادةِ العربِ أَنَهم إذا أَرادوا العِبارةَ عنْ مُخامرةِ حُبٍّ أَو بُغضٍ في القلبِ أَنْ يستعيرُوا لَها اسمَ الشَّرابِ"[1]، وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ حُبِّ العِجْلِ

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/262.

بِالشُّرْبِ دُونَ الأَكْلِ، لِأَنَّ شُرْبَ المَاءِ يَتَغَلْغَلُ في الأَعْضَاءِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى بَاطِنِهَا، وَأَمَّا الطَّعَامُ فلا يَتغلغلُ فِيهَا كَتَغَلْغُلِ الماءِ، وهو يَرمي بحظٍّ وافرٍ لفهمِ شخصيَّةِ بني إِسْرائيل، وأثر ذلك في ثقافتِهم، وتعامِلِهم مع الآخرين.

بلاغةُ حذفِ المضافِ:

بيانُ استحكامِ حُبِّ عبادةِ العِجلِ على قُلُوبِهِم

أُسنِدَ فعلُ ﴿وَأُشۡرِبُواْ﴾ إلى العِجلِ فصارَ: وأُشْرِبُوا في قلوبِهم حُبَّ عِبادةِ العجلِ؛ فَحَذفَ "حُبَّ عبادةِ"، وأقامَ العجلَ مقامَ المضافِ، مُبالغةً في بيانِ استحكامِ العِجلِ في قلوبِهم؛ كَأَنَّهم أُشْرِبُوه بذاتِه، "ويَجِبُ أَنْ يُعلَمَ أَنَّهُ لو قيلَ: حُبَّ العِجلِ، لم يكنْ له منَ المبالغةِ ما لَهُ بحذفِهِ؛ لِأَنَّ فيه تنبيهًا أَنَّ لِفَرطِ شَغفِهِم به ثَبَتَت صورةُ العجلِ في قلوبِهم راسخةً، وإِنْ زالَتْ ذاتُه الجِسْميَّة."[1]، وإنَّما كانَ التقديرُ (بِحُبِّ عبادةِ) لقرينةِ (في قلوبِهم)؛ لِأَنَّ الإشرابَ لا يَختصُّ بالقلبِ؛ فلمّا ذكرَ ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ دلّ على أنّ المَحذوفَ هُوَ "حُبُّ عبادةِ".

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المَبنيّ للمفعولِ:

بيانُ أثرِ الخُرافةِ في الاستيلاءِ على العُقولِ وإذهابِ مائها

جاء النَّظمُ بصيغةِ المبني للمفعولِ؛ لبيانِ أنَّهم فَقَدُوا عقولَهم بعبادتِهم العجلَ؛ لمنافاتِها العَقْلَ؛ فكأنَّ غيرَهم أَشْرَبَهُم عبادتَه بإرغامٍ وقهرٍ وإجبارٍ، فأفادتْ صيغةُ المبنيِّ للمفعولِ الإشعارَ بأنَّ حُبَّهُمُ العِجْلَ صارَ كأنَّه لَا اخْتِيَارَ لَهُمْ فِيهِ؛ كَأَنَّ غَيْرَهُمْ أَشْرَبَهُمْ إِيَّاهُ؛ كَقَوْلِهِمْ: أُولِعَ بِكَذَا وَشُغِفَ[2].

نكتةُ ذكرِ مكانِ الإشرابِ:

بيانُ رُسوخِ حُبِّ العجلِ، وأثرِه في الإغراقِ في الضَّلالةِ والغَضبِ

أَسْنَدَ النَّظمُ الإِشْرَابَ إِلَى ضَمِيرِ ذَوَاتِهِمْ ثُمَّ ذكر مكانَه بِقَوْلِهِ: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ مُبَالَغَةً، ولم يقلْ: (وأُشْرِبَتْ قلوبُهُمُ العجلَ)، بل أسندَ الضَّميرَ إلى الذَّواتِ مبالغةً في حصولِ إشرابِ الحُبِّ في الذَّاتِ

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/263.

(2) النّيسابوري، غرائب القرآن: 1/336، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/611.

كلِّها، ثمَّ بيّنَ مكانَه المعروفَ وهو القلبُ، فقَوْلُهُ: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ بَيَانٌ لمكانِ الإشرابِ[1]، ونكتتُه: بيانُ أنَّ حبَّ العجلِ متمكِّنٌ في القلوبِ، راسخٌ في الأفئدةِ، فبقدرِ رُسوخِه يجبُ أنْ يعملَ بنو إسرائيلَ على التَّخلُّصِ منه، وفيه تنبيهٌ للمسلمينَ بأنَّ دعوةَ اليهودِ ليستْ كدعوةِ غيرِهم.

مَعنَى (البَاءِ) في قولِهِ ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾:

التَّنبيهُ على سببِ الوقوعِ في الضَّلالةِ؛ للحَذَرِ والانتِباهِ

الظاهرُ أنّ (الباءَ) سببيَّةٌ والمَعنَى: تَعَلّقوا بالعجلِ وأَحَبُّوه واستحسَنُوا فعلَهُم بسببِ اعتقادِهم أُلوهيَّتَه، وأَنَّهُ ينفعُهُم ويضرُّهُم، فلمّا استحكمَ اعتقادُهم بأُلوهيَّةِ العجلِ تعلَّقوا به حُبًّا وشَغَفًا، فكانَ اعتقادُهُم أُلوهيَّةَ العِجلِ أَصْلًا في حُبِّهم وتعلُّقِهم بعبادةِ العجلِ، وتحتملُ أَنْ تكونَ (الباءَ) بمعنى "مع"؛ فيكونُ المرادُ فَعَلوا ما فَعَلُوا من عبادة العجل مع كُفرِهم؛ أي: كان أمرُهم كُفرًا على كفر[2]، وحملُها على السَّببيَّة هو الأوفقُ بالسِّياقِ، وهو ما يقتضيه الظَّاهرُ، وهو ما يلتَئِمُ معَ دقَّةِ القرآنِ في اختيارِ الحرفِ الأنسبِ في نظمِهِ؛ إذِ القولُ بالتَّناوبِ قولٌ نائبٌ لا أَصيلٌ.

بلاغةُ الفصْلِ:

البيانُ والتَّقريرُ للمعاني المتآخيةِ، والدّلالاتِ المُتراخِيةِ

جاء قولُه تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مفصولًا؛ لوقوعِه موقعَ البيانِ والإيضاحِ والتَّقريرِ لقولِه تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3]، فهو تعليمٌ وإرشادٌ لِمَا يجبُ أَنْ يُقالَ للمراوغين، مِمَّنْ يرفعونَ لواءَ الشَّريعةِ واتِّباعِ الأنبياء، وهم عنها غافلونَ، وفيه تنبيهٌ على شدَّةِ التصاقِ الآياتِ بعضِها ببعضٍ، وأنَّ بعضَها آخذٌ بعُرى بعضٍ.

(1) الرّازي، التّفسير الكبير: 3/604.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/495، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/373، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/611.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/612.

التَّهكُّمُ مقصودٌ بالتَّبعِ لا بالأصالةِ، وهو مأخوذٌ من ادّعاء المُخاطَبين للرَّدِّ عليهم

أثرُ السِّياقِ في بيانِ مَعنَى التَّهكُّمِ:

أفادَت إضافةُ الإيمانِ للمُخاطَبِين في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ﴾ معنى التَّهكُّم، فإيمانُهم ليس إيمانًا مقبولًا بدليل: ﴿بِئۡسَمَا﴾، و﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، لكنَّه أتى به لا على قصْدِ التَّهكُّم ابتداءً، بل على قصْدِ الرَّدِّ عليهم فيما يَزعُمُون، فيكون التَّهكُّمُ تابعًا للرَّدِّ، وهذا من بديعِ استعمالِ غَرَضِ التَّهكُّم في الخِطابِ؛ فالتَّهكُّمُ أمرٌ يُفهم من السِّياق.

أوصافُ الإنسانِ هي الدَّاعيةُ إلى الخَيرِ أو الشَّرِّ

بلاغة المَجازِ:

أُسنِد الأمرُ إلى الإيمانِ في قولِه: ﴿يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ﴾، والإيمانُ لا يأمرُ ولا يَنهَى، فإسنادُه إليه إسنادٌ مجازيٌّ لا حقيقيٌّ، وبلاغةُ الإسنادِ المجازيِّ في هذا السِّياقِ ظاهرةٌ في كونِ الإيمانِ هو المُحرِّكَ للأفعالِ على الحقيقةِ، وأنَّ جميعَ ما يصدُرُ عن الإنسانِ هو بسببِ إيمانِه؛ فأقامَ وصفَ الإيمانِ مقامَ الآمرِ؛ لتغلُّبِ إيمانِهم الباطل على عقولِهم.

﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [البقرة: 94-96]

مُنَاسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لـمَّا تتابَعَت الأدلَّةُ في الآياتِ السَّابقةِ على أنّهُ لا حظَّ لليهودِ في الآخرةِ غيرُ النَّارِ، وذلكَ نقيضُ دعواهُمْ أَنَّهمْ آمَنوا بِمَا أُنْزِلَ إِليهِمْ وأَنَّ النَّارَ لا تَمسُّهُمْ إلّا أيّامًا مَعدودةً، وأَنَّ الجنَّةَ لَهُم خالصَةً مِنْ دونِ النَّاسِ، خَتَمَ هذهِ الأدلّةَ بإقامةِ الحُجَّةِ البالغةِ الواضحةِ، فخاطبهم مهدّدا مُقرّعا: إنْ كنتم صَادقينَ في إيمانِكُم فَتَمَنَّوا الموتَ، وجاءَ الحُكمُ الإلهي بِأنَّهم لنْ يتَمَنَّوه أَبدًا لِعلمِهِم بِمَا قدَّمت أَيديهم مِنَ الأَقوالِ السَّيّئةِ، والأَفعالِ القبيحةِ، والظُّلم الذي صارَ وَصْفًا راسخًا فيهم، ولِتبلغَ الحُجَّةُ مَبلغَها أَثبتَ لَهُم ما هوَ فوقَ ذلكَ مِنْ شدَّةِ حِرصِهم على الضِّدِّ، وهو كونُهم أَحرصَ النَّاسِ على حياةٍ، وأَحرصَ مِن الذين أشركوا[1]؛ لِتدلَّ هذهِ الحُجَّةُ البالغةُ الـمُجتَمِعَةُ على ظُهورِ كَذِبِهم فيما يَدَّعونَه، ولِيزدادَ الذين آمنُوا إيمانًا.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾: مُركَّبٌ وصْفيٌّ مُؤلَّفٌ مِن موصوفٍ (الدار) وصفتِهِ (الآخرة)، والدَّارُ: مُؤنَّثةٌ؛ أَصلُها دَوَرٌ، بمعنى: إحاطةِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِنْ حَوَاليه، وسُمِّيَ الـمَنزلُ دارًا؛ لإحاطتِها بأَهلِها، أَو لِدورانِ أهلِها بها، وتُطلَقُ الدَّارُ ويُرادُ بها: القبيلةُ والبلدُ والدُّنيا كلُّها، وإِذا أُضيفتْ فيكونُ معناها بِحسبِ ما تُضاف إليه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/61.

فيُقال: دارُ السَّلام ودارُ البَوارِ ودارُ الفاسقين، ودارُ الدُّنيا ودارُ الآخرةِ؛ إشارةً إلى مَقَرَّي النَّشأةِ الأُولى والآخرةِ، وإنَّما وُصِفَت الدَّارُ بالآخرةِ بالنَّظَرِ إلى أَنَّها آخِرةٌ لأُولى كانت قبلَها، وكلُّ الآياتِ التي وردَ فيها تركيبُ ﴿ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ بالوَصفِ أَو بالإضافةِ في القرآنِ الكريمِ جاءتْ في سِياقِ المَدحِ، وَأَنّهُ مَنزلٌ مَرغوبٌ فيه، والمرادُ هو الجَنَّةُ.

2) ﴿خَالِصَةٗ﴾: الخاء واللّام والصّاد أصلٌ يدلُّ على تَنْقِيَةِ الشَّيْءِ وَتَهْذِيبِهِ بعد شَوْبٍ، وخَلَصَ الشَّيءُ: إذا صَفَا وزَالَ عنه شَوْبُه، ومنه الإخلاصُ: وهو صَفاءُ التَّوحيد بالتّبرّي عنْ كُلِّ ما دُونَ اللّهِ تَعالى، وخَلَّصْته من كذا تَخْليصًا؛ أي: نجّيته فتَخَلَّصَ، فيكونُ ﴿خَالِصَةٗ﴾ بمعنى: صافيَة.

ويُقال: هذا الشَّيء خالصةٌ لكَ؛ أَي: خَالِصٌ لَكَ خاصَّةً لا يُشاركك فيه أَحدٌ، ومنه اسْتَخْلَصَهُ لنَفْسِه؛ أَي: استخَصَّه، فيكونُ معنى خالصةً: خاصَّةً، وهو قريبٌ مِنْ معنى الصَّفاءِ.

وقَدْ أُوِّلَتْ خَالِصَة في الآيةِ على معنى: الصَّفاءِ، ومعنى: الخاصَّة؛ أَي: إنْ كانت الدَّارُ الآخِرةُ عندَ اللّهِ لكم صافيةً مِنْ دُونِ النَّاسِ، أَو لَكُم خاصَّةً مِنْ دُونِ النَّاسِ[1].

3) ﴿دُونِ﴾: ظَرْفٌ غَيْرُ مُتَصَرِّفٍ لِلمَكانِ الأَقْرَبِ مِنْ مَكانٍ آخَر، ففيه معنى التَّجاوز، ثمَّ استعير لتفاوتٍ في المَراتِب المعنويَّةِ في الأَوصافِ والأَحوالِ؛ تَشْبِيهًا لهَا بالمراتبِ المحسوسَةِ، فَقيل: زيدٌ دُونَ عَمْرٍو في الشّرف، ثمَّ اتُّسِعَ في هَذا المُسْتَعَار فَاسْتُعْمِلَ في كلِّ تجَاوُزِ حدٍّ، وتخطِّي حُكم إِلَى حُكم، وَإِنْ لم يكن هُناكَ تفَاوتٌ وانحطاطٌ، وَيُسْتَعْمَلُ للاختصاص وقطعِ الشَّركَة، تَقول: هَذا لي دُونَك أَو من دُونِك؛ أَي: لَا حقَّ لَك فِيهِ وَلَا نصيبَ، وبمعنى: سِوَى، ويَأْتِي بِمَعْنَى: الانتقاص في المنزلة أَو المَكَان أَو المِقْدَار[2]، وكلّ هذه المعاني ترجع إلى معنى التَّجَاوز.

4) ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾: الميم والنّون والحرف المعتلّ (الياء) أَصلٌ يَدُلُّ عَلَى تَقْدِير شَيْءٍ وَنَفَاذِ القَضَاءِ بِهِ، ومِنْهُ قَوْلُهُمْ: مَنَى لَهُ المَاني؛ أَيْ: قَدَّرَ المُقَدِّرُ، وسُمّيَ الموتُ مَنِيّةً؛ لأَنَّهُ أجلٌ مقدَّر لكلّ حيٍّ، وتمنّيتُ الشَّيْءَ قدّرتُه، وأحببتُ أَنْ يَصير إليّ، فالتمنّي تقدير

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/365، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خلص).

(2) الكفوي، الكليات، تح: عدنان درويش: 1/451.

شيءٍ في النَّفسِ وتصويرُه فيها معَ محبَّةِ حصولٍ لذلكَ الشَّيء، وأَكثرُ ما يكونُ عنْ ظَنٍّ وتَخمينٍ؛ ولهذا كان الكَذِبُ لهُ أملكَ، وكانَ غالبُ التَّمنّي كَذِبًا وتصوُّرَ مَا لا حقيقةَ له؛ ولذلكَ وقعَ في المستحيلاتِ عكسَ التَّرجي، فلا يقعُ إلَّا في المُمْكنِ، يقال: ليتَ شَبابي يعودُ؛ لاستحالةِ رجوعِ الشَّبابِ، وأمّا قولُه تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ فَلَا يكونُ إلَّا قولًا، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ أحدُهم: ليتَهُ مَاتَ، فالتَّحدي وَقعَ بالتَّمنّي لفظًا، بكلمةِ (ليت)، أَو بلفظِ التَّمنّي نفسِه، ومَعنى (تمنَّوا المَوْتَ): اسألوا الموتَ واطْلُبوه بِلسانِكُم(1).

5) ﴿ٱلْمَوْتَ﴾: المِيمُ وَالْوَاوُ وَالتَّاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ذَهَابِ الْقُوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ، ومنه الموت: ضدّ الحياة؛ فموت الحي -بخروج روحه- ذهابٌ لقُوَّته، والمَوْتُ خَلْقٌ مِنْ خَلق اللّه تَعَالَى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾(2).

6) ﴿صَٰدِقِينَ﴾: جمع صادق، وأَصلُه صَدَقَ، ويَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وَغَيْرَهُ، ومِنْ ذَلِكَ الصِّدقُ ضِدُّ الكَذِبِ، سُمِّيَ صِدْقًا؛ لِقُوَّتِهِ في نَفْسِهِ، وَلِأَنَّ الكَذِبَ لَا قُوَّةَ لَهُ، إذ هُوَ بَاطِلٌ. والصَّادق مَن يقوم به وصفُ الصِّدق.

7) ﴿أَبَدًا﴾: الأبدُ هو الزَّمان المتدّ الّذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزَّمانُ، ويُعبَّرُ بالأبد عن الزَّمنِ الطَّويلِ الّذي ليس بمحدودٍ، قَالَ الرُّمَّانيُّ: فَإِذَا قُلْت: لَا أُكَلِّمُهُ أَبَدًا؛ فَالْأَبَدُ مِنْ لَدُنْ تَكلَّمْتَ إلَى آخِرِ عُمْرِك(3).

8) ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: مُرَكَّبٌ لُغَوِيٌّ من الفعلِ والفاعلِ، والقِدَم يدلّ على سبقِ الشَّيء، وَتَقَدَّمْتُ الْقَوْمَ سَبَقْتُهُمْ، ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ هو من التَّقْدِمَة، وهي وضعُ الشَّيءِ قُدَّامًا، أي: جهة الأَمام، وبعد التَّركيبِ صار بمعنى: ما أَسْلَفَتْه أَيديهم وصار أَمامًا لهم.

9) ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾: جَمْعُ ظَالم، والظُّلْمُ هو وَضعُ الشَّيءِ في غيرِ مَوضعِهِ المُختَصِّ به؛ إمّا بِنُقصانٍ أَو بزيادةٍ، وإمّا بعُدولٍ عن وقتِهِ أَو مكانِه، وَيقالُ فيما يَكثُر وفيما يَقِلُّ مِنَ التَّجاوزِ؛ ولِهذا يُستعملُ في الذَّنبِ الكبيرِ، فيُقالُ للكافِرِ: ظالمٌ، وأَعظمُ الظُّلمِ

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: 1/123.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والفيومي، المصباح المنير: (مَوَتَ).
(3) ابن قتيبة، غريب الحديث: 2/309، والرّاغب، المفردات: 1/59، والفيومي، المصباح المنير: 1/1.

الشِّركُ باللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: 13]، كما يُستعملُ الظُّلمُ في الذَّنبِ الصَّغيرِ، فيقالُ لصاحبِه: ظالمٌ(1).

10) ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ﴾: أصله من وَجَدَ الشيء: بمعنى أصابَه على صِفَةٍ، نحو: وجدتُ زيدًا كريمًا، ومصدرُه وِجْدان(2).

11) ﴿أَحۡرَصَ﴾: الحاء والرّاء والصّاد تدلُّ على مَعْنَيَيْنِ؛ هما: الجَشَع، و: الإفراط في الرَّغبةِ، يُقالُ: حَرَصَ يَحرِصُ حِرْصًا فهو حَريصٌ، وحَرِيصٌ عَلَيْك مَعْنَاهُ حَرِيصٌ على نفعِكَ، ويُقالُ: حَرَصَ على كذا يَحْرِصُ عليه إذا فَرَطَ في محَبَّتِه وإمساكِه، وقال تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾ [النحل: 37]؛ أي: إنْ تُبالِغْ في طلبِك لذلكَ؛ تنبيهًا على وُفورِ شَفَقَتِهِ ﷺ، وقولُه تعالى: ﴿أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ﴾ بمعنى الإفراطِ في الرَّغبَةِ في الحياةِ والشَّرَه فيها(3).

12) ﴿أَشۡرَكُواْ﴾: الشِّينُ وَالرَّاءُ وَالْكَافُ أَصْلَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى مُقَارَنَةٍ وَخِلَافِ انْفِرَادٍ، ويَدُلُّ الْآخَرُ عَلَى امْتِدَادٍ وَاسْتِقَامَةٍ، والفعل ﴿أَشۡرَكُواْ﴾ من الأصل الأول، فالشِّرْك أَنْ يُوجدَ شَيءٌ لاثنينِ فَصاعِدًا، والشِّرْكَةُ: مُخالطة الشَّريكين، يقالُ: اشْتَرَكْنَا بِمَعْنَى تَشارَكْنا، وَجمعُ الشَّرِيكِ: شُرَكاءُ، وشِرْكُ الإنسانِ في الدّين ضربان؛ أحدُهما: الشِّرْكُ العظيم، وهو: إثباتُ شريكٍ للّه تعالى، يقال: أَشْرَكَ فلانٌ باللّه، وذلك أعظمُ كفرٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: 48]، وقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 116]، والثاني: الشِّرْكُ الصّغير، وهذا يُصيب المؤمنين ولا يخرجهم من دائرة الإسلام، وهو مراعاةُ غيرِ اللّهِ معَه في بعضِ الأمورِ، وهو الرّياءُ الـمُشارُ إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف: 106](4).

13) ﴿يَوَدُّ﴾: الفعل ودَّ يَوَدُّ يدلُّ عَلَى مَحَبَّةٍ، فيقال: ودِدْتُه بمعنى أَحْبَبْتُهُ، فالودُّ محبَّة الشَّيءِ، وتمنّي حصولِه، فيكمنُ فيه معنى التَّمني، فيقالُ: وَدِدْتُ أَنَّ ذَاكَ كَانَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجد)، والرضي، شرح الكافية: 4/150.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حرص).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب الأصبهاني، المفردات: (شرك).

كذا؛ إِذَا تَمَنَّيْتَهُ، والفعلُ أَوَدُّ يُستعملُ في المحبَّة وفي التَّمنّي، ومصدرُ الفعلِ وَدَّ إذا كان بمعنى المحبَّة هو الوُدُّ، وإذا كان بمعنى التَّمَنِّي فمصدره الوَدَادَةُ، ومن المودَّةِ التي تقتضي المحبَّةَ قولُه تعالى: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 33]، ومن المودَّةِ التي تقتضي معنى التمنّي قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ﴾ [البقرة: 96]، وقوله: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ﴾ [القلم: 9]، وإذا جاءت الكلمةُ بمعنى التَّمنّي فهي مُشْرَبَةٌ معنى المَحبَّة والرَّغبَة(1).

14) ﴿يُعَمَّرُ﴾: أَصلُه عَمَرَ يَعمُر، والاسمُ العُمُر، والعُمُرُ والعَمْرُ واحد؛ لكنْ خُصَّ القَسَمُ بِالعَمْرِ بفتح العين دون العُمُر، كقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ [الحجر: 72]، والعُمُر اسمٌ لِمُدَّةِ عمارةِ البَدَنِ بالحياةِ، وعمَّرَه اللّه تعْميرًا؛ أي: طوَّلَ اللّه عُمُرَهُ فهو مُعَمَّرٌ، وعَمَّر الرجلُ عُمُرًا: عَاشَ زَمَانًا طَويلًا أَكثرَ مِنْ أقرانه، وَعَمَّرَ المَالُ صَارَ كثيرًا وافرًا، وعمّرَ المنزلُ بأَهْلِه إذا كَانَ مسكونًا بهم فَهُوَ عَامر(2).

15) ﴿سَنَةٍ﴾: تدلُّ على الزَّمانِ، وهو الحَولُ اثنا عَشَرَ شَهرًا، وغَلَبَتِ السَّنَةُ في الحَولِ المُجْدِبِ الذي فيه ضِيقٌ ومَشَقّةٌ، ويقالُ: أَصابتِ النَّاسَ سَنَةٌ؛ أَي: جَدْبٌ، وغلَبَ العامُ في الحَولِ المُخْصِب(3).

16) ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾: فِعلُه زَحْزَحَ، وأَصلُه زاحَ أو زحَّ؛ يُقال: زَحَّ الشَّيءَ وزَحْزَحَه: دفعَه ونحّاه عن موضعِه، وباعدَه منه وأزالَه، وزَحْزَحْتُهُ فتَزَحْزَحَ وانْزَاحَ؛ أي: تَبَاعَدَ، وقال ابنُ عرفة: بِهِ يُسمَّى المُزاحُ؛ لأَنَّه أُزيحَ عن الحَقِّ(4)، وتفيد الزَّحزحَةُ الانتقالَ من مكانٍ إلى مكانٍ على وجهِ التَّباعدِ عنه قليلًا بِبُطءٍ وثِقَلٍ.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أَمرَ اللّه تعالى رسولَهُ ﷺ أَنْ يَتحدَّى اليهودَ في ادِّعائِهم أَنَّ الدَّارَ الآخرة بِنعيمِها خالصةٌ لَهُم من دونِ النَّاسِ، ويقول لهم: إن كنتم صادقين في دعواكم هذه فتمنوا الموت واطلبوه، لتنالوا هذه المنزلة بسرعة، وتستريحوا من أعباء الحياة الدنيا وهمومها،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (ودد).
(2) السمين، عمدة الحفاظ، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (عمر).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 171، والسمين، عمدة الحفاظ: (سنه).
(4) الهروي، الغريبين، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زحح).

وأَخبرَتِ الآيةُ أَنَّ طَلبَ التَّمنّي لنْ يقعَ منهم أبدًا؛ لعلمِهم بأَنَّهم إنْ فعلوا ذلك فالوعيدُ بهم نازِلٌ، والموتُ بهم حالٌّ؛ ولِمعرفتِهم بصدقِ محمَّدٍ ﷺ، وأنَّه رسولُ اللهِ ﷺ، وأَنَّه لمْ يُخبرْهُم خبرًا إلَّا كانَ حقًّا كمَا أَخبَر، فهمْ يَحذرونَ تَمَنّيَ الموتِ؛ خوفًا مِنْ أنْ يَحِلَّ بهمْ عِقابُ اللّهِ بِما كسبتْ أيديهمْ مِنَ الذُّنوبِ، فَهمْ ظالمونَ لِكذبِهم وشَناعةِ أَعمالِهم، واللّه عليمٌ بِمَا يفعلونَه مِنَ الظُّلم، وسَيُجازيهم على ظلمِهم، ولتَجِدَنّ - أيها النبي - اليهودَ أشدَّ الناس حرصًا على الحياة أيًّا كانت هذه الحياة من الذلَّة والمهانة، بل هم أحرص من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب، يتمنى اليهودي أن يعيش ألف سنة، وليس بمُبْعِدِه عن عذاب اللّه طولُ عمره مهما بلغ، واللّه مطَّلع على أعمالهم بصير بها، لا يخفى عليه منها شيء، وسيجازيهم عليها بما يستحقونه من العذاب [1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ الفَصْل بين الجُمل:

اتِّفاقُ الجملتين في المعنى الكليِّ، وتبايُنُهما في المعنى الجُزئيِّ

جاءَ الفصْلُ بين الجملةِ المُصدَّرِ بها في هذه الآيةِ والجملةِ المختومِ بها في الآيةِ السَّابقةِ؛ لقيامِ كلِّ آيةٍ بمعنًى مستقلٍّ في ذاته، مبيِّنٍ غرضًا واحِدًا من مجموعِ الجملتين، فالجملةُ الأُولى: ﴿قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ﴾ جاءَتْ لبيانِ حالِ زَعمِهم الإيمان، وأثر ذلك في أفعالِهم وأحوالِهم، وجملةُ: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ جاءَتْ لإقامةِ الدَّليلِ على كذِبهم في دعوى الإيمانِ، فالجملتان اتَّفقتا على كذبِ اليهودِ، ولإظهار العلاقة بين الجملتين هناك مسلكان؛ أحدهما قائمٌ على كمال الاتِّصالِ، والآخرُ على كمال الانقطاع.

كَمَالُ الانقطاع: جاءَتِ الجملةُ الأولى بأُسلوب الذَّمِّ المفيدِ للإخبارِ، والثَّانية بأُسلوبِ الطَّلبِ القائم على التَّحدِّي، فتكون الجملتان قائمتين على معنَيَيْن منفصلين في الذَّاتِ، متَّصلين في

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/367، والزجاج، معاني القرآن: 1/178.

المآلِ؛ إذ مآلُ ذمِّهم وتحدِّيهم إثباتُ كَذِبهم، وهذه بلاغةُ الفصْل في قطع الأولى عنِ الثَّانيةِ؛ إذِ المآلُ واحدٌ.

كمالُ الاتِّصال: وفيه وجهان:

الأوَّل: تنزيلُ الثَّانيةِ من الأولى منزلةَ الدَّليل من الدَّعوى؛ فالثَّانيةُ مبيِّنةٌ الأولى؛ لشديد الارتباطِ بينهما، فتكون الجملتان مُؤدِّيتين جملةَ المعنى المُرادِ إيصالُه، وهو كذبُ اليهودِ في زعمِهم بالدَّعوى والدَّليل.

الثَّاني: أن تكون الثَّانيةُ بدلًا من الأولى على نيّةِ استئنافِ القَصْدِ إلى مضمونها، ومجموعُ البدلِ معَ المُبدلِ منه أوفى بتمامِ المرادِ وإيرادِه، وليظهرَ بمجموعِ القَصدينِ - البدلِ والمبدلِ منهُ - مزيدُ اعتناءٍ بشأنِ ظهورِ الحُجَّةِ عليهم(1).

بلاغةُ أُسلوبِ الشَّرطِ:

التَّهكُّمُ بزعمِ اليهودِ، وتوبيخُهم بما وقَعَ منهم من الجَزمِ بعكسِ الواقعِ المتيقَّن

استُعمِلَت إنْ في هذا السِّياقِ، وهي تُستعملُ فيما هو مشكوكٌ في وقوعِه، فعلامَ استُعمِلَتْ هذه الأداةُ في هذا السِّياقِ، مع علم الله تعالى القطعيِّ بأنَّ الدَّار الآخرةَ ليستْ لهم مطلقًا على ما هم عليه، وهم يعلمون ذلك كذلك؟

والجوابُ: هو تنزيلُ المُخَاطَبِ منزلةَ الشَّاكِّ فيما يدَّعيه بشكلٍ قطعيٍّ؛ تهكُّمًا بزعمِه، وتوبيخًا على دعواه، وكشفًا لحقيقةِ كذِبهم بأسلوبِ الحوارِ الكاشِفِ عن حقيقةِ حالِهم.

نكتةُ تقديمِ ما حَقُّهُ التَّأخيرُ:

الاعتدادُ بالباطلِ والتَّعصبُ له، بغمطِ الآخرين حقوقَهم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ (لكم) على اسمِ كان، وأَصلُ الكلامِ: كانتِ الدارُ الآخرةُ لكم؛ للتَّخصيصِ على زَعْمِهم، بيانًا لتعريضِهم بغيرِهم، وهو ما بيَّنَه اللِّحاقُ ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ الذي أفادَ توكيدَ معنى الاختصاصِ(2)، والمعنى: إنْ كانت الدارُ الآخرة لكم

(1) التفتازاني، شرح مفتاح العلوم: 1/198، وبهاء الدين السبكي، عروس الأفراح: 1/327.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/614.

على الخصوصِ دون غيرِكم ممَّن جاءَ بعد موسى منْ غيرِ بني إسرائيلَ، وهو ما يُبيِّنُ تطرُّفَهم وتعصبَهم لباطِلِهم، مع معرفتِهم الحقَّ على وجهِه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالدَّارِ الآخرةِ:

بلوغُ أعلى درجاتِ النَّعيمِ، وخلوصُها من مشاركةِ الآخرين

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ ذكرِ الدَّار الآخرة دون الجنَّةِ، وهي المُصرَّحُ بها في قولِه: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: 111] في تضاعيفِ الآيات.

والجوابُ: إنَّ هذا اللَّفظَ يدلُّ على الجنَّةِ الخالصةِ من دخولِ أحدٍ سواهم؛ أي: الدَّارُ الآخرةُ التي لا دارَ بعدَها، وذلك على فرضِ وجود ديارٍ قبلَها يدخلُها غيرُهم؛ فإنَّ الدَّارَ الآخرةَ لن تكون لأحدٍ سواهم، فهذا التَّركيبُ يدلُّ على المَنزلِ الأخيرِ الممدوحِ في القرآنِ والذي فيه الاستقرارُ والرَّاحةُ، ويدلُّ على الانتهاءِ والغايةِ التي تَظهرُ فيها منزلتُهم وشرفُهم؛ أي: فيما كانوا يدّعونَه.

فائدةُ تنوُّعِ قيودِ الإسنادِ:

بيانُ قسوةِ القلبِ والكبرِ والغُرورِ والغلوِّ في حبِّ النّفس

جاءَت مقيّداتُ الإسنادِ متنوِّعةً لبيانِ غلوِّ اليهودِ في حبِّ أنفسِهم وتكبّرِهم على غيرِهم:

أوَّلًا: التقييدُ بالظَّرف﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ، والمرادُ من العِنديَّةِ المنزلةُ، فهم كانوا يَظنُّونَ أَنفسَهم على منزلة عظيمة ومرتبة رفيعة، وأنّ لهم عند الله شأنًا عظيمًا، "وَالعِنْدِيَّةُ عِنْدِيَّةُ تَشْرِيفٍ وادِّخَارٍ؛ أَيْ: مُدَّخَرَةٌ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ"(1).

ثانيًا: التَّقييدُ بالحالِ (خالِصَةً)؛ أي: صافيةً لكم مِنْ أيِّ كَدَرٍ، وخاصَّةً بكم دون غيرِكم؛ كمَا زَعَموا في قولِهم: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/614.

ثالثًا: التَّقييدُ بتأكيدِ تخصيصها لهم بقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾؛ لبيانِ اعتقادِهم في فضلِهم، وعلوِّهم على النَّاس، وكأنَّ اجتماعَ النَّاسِ معهم في الجنَّةِ كَدَرٌ لَهُم، فلا تكون صافيةً لهم بهم.

فهذه القيود الثلاثةُ أبانَتِ اعتقادَهم ونظرَتهم إلى النَّاس في الآخرةِ، فما بالُك بنظرتِهم إليهم في الدُّنيا، وهو ما يُثبتُ قسوةَ قلوبِهم وتكبُّرَهم وغرورَهم وسوءَ اعتقادِهم.

دلالة (أل) بينَ العُمومِ والعَهْديَّةِ

لمعنى التَّعريف في لفظِ النَّاسِ احتمالان، وهما:

الأوَّل: الجِنسُ؛ فيُفيدُ العمومَ، وهو الظَّاهر؛ لأنَّه لم يوجدْ ههنا معهودٌ[1]، ولتكونَ على نسقِ ما كانوا يدَّعونهُ من خَصوصيَّةِ التَّشريفِ والتَّعظيمِ على غيرِهم.

الثَّاني: العهدُ، ويرادُ بالنَّاسِ المسلمون؛ لِأَنَّ الخِطابَ معهم؛ فيكونُ اللفظُ عامًّا يُراد به الخاصُّ بقرينةِ السِّياق، والنُّكتةُ فيه اعتبارُ المسلمين هم النَّاس؛ لقيامِهم بمقتضى كونِهم ناسًا، وهو إيمانُهم بالقرآنِ وبنبوَّةِ محمّدٍ ﷺ، وغيرُهم ليس كذلك؛ لأنَّهم لم يتفكّروا فيؤمنوا.

والصَّحيحُ أنَّ المراد بالتَّعريفِ الجنسُ، على إرادةِ عموم النَّاسِ، وهو ما تُفيدُه بقيَّةُ النُّصوص، لاسيَّما في قولِهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: 113]، فبُغضُ اليهودِ لجميعِ النّاسِ، لكنَّه الأظهر في جانب المسلمين؛ لأنَّهم هم أصحابُ الحقِّ والهدى، وهم من سلبَ اليهود ما كانوا يُفاخرون به، فيدخل المسلمون في النَّاسِ دُخولًا أوَّليًّا.

بلاغة الأمرِ في قوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾:

تظهرُ بلاغة الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾ على احتمالين اثنين:

الأوَّل: أن نجعلَ المجازَ في الصِّيغةِ.

الثَّاني: أن نجعلَ المجازَ في اللَّفظِ.

حملُ المجازِ على الصِّيغةِ:

وَجَّهتِ الآيةُ النَّبيَّ ﷺ أنْ يَطْلُبَ من اليهودِ تَمنّيَ الموتِ لإثباتِ صدقِهم في دعوى الإيمانِ، وغرضُ الأمرِ التَّحدّي والتَّعجيز؛ فمن المُحالِ أنْ يَتَمَنَّوُا الموتَ، فأَمَرَهُم به لإثباتِ عجْزِهم

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/608.

إظـهـارُ حقـائـقِ نفوسِ الخَصْمِ بالأدلّةِ القاطعةِ مُمْكنةِ الحصولِ

عن ذلك؛ بسببِ معرفةِ سُرعةِ تحقُّقِ ذلك؛ لقولِه ﷺ: «لو أنَّ اليهود تمنَّوا الموت لماتُوا ورأَوْا مقاعدَهم في النار»(1)، ومعرفةِ مآلِهم في الآخرةِ، فإنَّ الموتَ لأهلِ الجنَّةِ المُصْطَفَيْنَ لها خلاصٌ من الدَّارِ الفانيَةِ؛ فيتوجَّهُ الأمرُ بتمنّي الموتِ إلى مطلوبٍ ممكنِ الحصولِ(2)، بعد امتناع حمله على الحقيقة، والممكنُ حصولُه هنا هو بيانُ عجزِهم عنْ فعلِ المَطلوبِ؛ ليكونَ أوثقَ في بيانِ الحُجَّةِ والتَّحدي، فالغرضُ من الأمرِ التَّعجيزُ بقصْدِ بيانِ كفرِهم وحقيقةِ حالِهم.

حملُ المجازِ على اللَّفظِ:

التَّعبيرُ بالتَّمنِّي وإرادةُ الـدُّعـاءِ والسُّؤالِ

حُمِلَ الأمرُ على حقيقتِه، وحُمِلَ التَّمني على معنى السُّؤالِ والدُّعاء؛ فمعنى تمنَّوُا الموتَ: سلوه، وادْعُوا به على المبطلِ الكاذبِ المفتري؛ فيكون من جنسِ آيةِ المباهلة(3)؛ فالمجازُ في معنى اللَّفظةِ لا في صيغةِ الأمرِ، وهذا الوجه والذي قبلَه في حملِ الأمرِ على التَّعجيزِ في المآلِ واحدٌ؛ إذْ منتهى التَّمنِّي من قِبَلِهم هو الموتُ، سواءٌ أكان المجازُ في صيغةِ الأمرِ أم في معنى اللفظِ الذي اشتُقَّ منه الأمر.

بلاغةُ الشَّرطِ في: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

التَّتميمُ في إلزامِ الخصمِ الحُجَّةَ لما بدَأَته الآيةُ

استُعمِلَت إنْ في قولِه تعالَى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ كما استُعمِلَت في: ﴿إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ وهي تُستعملُ فيما هو مشكوكٌ في وقوعِه، فعلامَ استُعمِلَتْ هذه الأداةُ في هذا السِّياقِ، مع علمِ اللّٰه تعالى بأنَّهم كاذبون، وهم يعلمون ذلك كذلك؟

(1) أحمد، مسند أحمد: 3/24.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، تح: زرزور، ص: 305.

(3) آية المباهلة هي قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٢﴾ [آل عمران: 61- 62]، وفيها دعا القرآن نصارى نجران إلى المباهلة، وهي بمعنى الابتهال والضراعة إلى الله بإخلاص بأن يأتي النصارى بأبنائهم ونسائهم ويأتي الرسول بأبنائه ونسائه ثم يجتمع الجميع في مكان واحد يبتهلون إلى الله ويضرعون إليه بإخلاص وقوة أن ينزل لعنته وغضبه على من كان كاذبًا من الفريقين، ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان: 2/400.

والجوابُ: إنَّ استعمالَ إنْ هو لغرضِ إثارةِ نفوسِهم وتحريكِ مشاعرِهم، وفضحِهم أمامَ أنفسِهم وأمامَ العَالمين؛ فإنَّ عدَمَ الاستجابةِ للتّمني يُثبِتُ كَذِبَهم، ففيه تهكُّمٌ وتقبيحٌ لصَمْتِهم وعدم استجابتِهم للأمرِ، فكان لا بدَّ من ذكرِ شرطٍ آخرَ يُحرِّكُهم تُجاهَ تحقيقِ التَّمني؛ وجودًا وعدمًا، فكانت بلاغةُ الشَّرطِ دعامةً أساسيَّةً لتتميم الكلامِ، ففي الآيةِ فنُّ التَّتميمِ في إلزامِ الخصْمِ الحُجَّة.

بلاغةُ حذفِ المفعول:

تأكيدُ التَّهكُّمِ بشأنِ الكاذبين، وبيانُ أنَّ هذا دَيْدَنُهم في الحياةِ كلِّها

حُذِفَ مفعولُ ﴿صَٰدِقِينَ﴾ فلم يُقيَّد بكذبٍ خاصٍّ؛ لتأكيدِ التَّهكُّمِ المذكورِ في الآيةِ، فهم غير صادِقين في عموم أقوالِهم وأعمالِهم وادّعاءاتهم، ولو كانوا يمتلكون الصِّدقَ في شأنٍ من شؤونِ حياتِهم لصَدَقوا في إيمانِهم برسالة محمَّدٍ ﷺ.

بلاغةُ الوَصْلِ في قولِه: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ﴾:

تقويةُ المعاني المجازيَّةِ في الجملِ الخبريَّةِ

لـمّا كان هذا الكلامُ خبرًا من اللّه تعالى، وليس تتمَّةً للأمرِ بمخاطبةِ اليهود في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ﴾، ناسبَ أنْ يكونَ بالواوِ الاعتراضيَّةِ[1]؛ لِيُعلَمَ أنَّ جملةَ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ﴾ ليست تتميمًا لما سبقَ؛ بل هي تقريرٌ لِحكمٍ إلهيٍّ قاطعٍ بأنَّهم لن يتمنّوا الموتَ أبدًا؛ دفعًا لتوهُّمِ أنّهم قد يتمنَّون الموتَ عِنادًا أو جَهْلًا، والجملةُ خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، فلا التفاتَ فيها، وفيها ترشيحٌ لمعنى التَّحدِّي والتَّعجيزِ الواردِ في غرضِ صيغةِ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾، فإنَّهم عاجزون عن مُجرَّدِ التَّمنِّي، وهذه الجملةُ الخبريَّةُ هي التي عيَّنَتِ المقصودَ بالأمر بالتَّمني.

الإعجازُ الغيبيُّ في كلمةِ ﴿أَبَدَۢا﴾:

الإخبارُ باستحالةِ تمنّي الموتِ ولو بالكلمةِ الكاذبةِ

وقعَ الإخبارُ بنفي تمنّي اليهودِ للموتِ مقيَّدًا بكلمةِ ﴿أَبَدَۢا﴾؛ إذِ النَّفيُ قد يرِد عليه الاستثناءُ أو التَّخصيصُ، بخلافِ ورودِ (أبدًا)؛

(1) التفتازاني، المطول، ص: 500.

فهي نصٌّ في استحالةِ وقوعِ ذلك منهم؛ أي: في طول عُمرهم إلى موتهم[1]، لذلك فهي "معجزةٌ للنَّبيِّ ﷺ، أعجَزَ بها اليهودَ، ودعاهم إلى تمنِّي الموت، وأخبَرَ أنَّهم لا يتمنَّونَه أبدًا، وهذا عَلَمٌ من أَعْلام نُبوَّته ﷺ؛ إذْ لا يُمكنُ الاطِّلاع على بواطِنِهم إلا بإخبارِ عالم الغيب، ولن يُنطقَ اللّه ألسنتهم بتمنّيه أبدًا"[2].

بلاغةُ المجازِ مع الإيجازِ في قولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾:

إسنادُ الفعلِ إلى الجزءِ مع إرادة عموم الأفعالِ باعتبارِ ظهورِ أثرِ الكُلِّ في الجُزْءِ

يُقالُ هذا التركيبُ ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ لِمَنْ يَفعلُ جنايةً أو يرتكبُ جَريرةً، ثُمَّ استعمل كالمثل: على نحوِ ما تَتَمَثَّلُ به العربُ في كلامِها: هذا بِمَا جَنَتْ يَداك، وبِمَا كَسَبَتْ يَداك، وبِمَا قَدَّمَتْ يَداك، فتضيفُ ذلك إلى اليد، ولعلَّ الجِنايةَ التي جَناها فاستحقَّ عليها العقوبةَ كانت باللّسانِ أَو بالفرجِ أو بغيرِ ذلك من أَعضاءِ جَسدِه سوى اليَدِ، وإنَّما قيلَ ذلك بإضافتِه إلى اليدِ؛ لِأَنَّ أَكثرَ جناياتِ النَّاس بأَيديهم، فجَرى الكلامُ باستعمالِ إضافةِ الجناياتِ التي يَجْنيها النَّاسُ إلى أَيديهِمْ.

وإسناد التَّقديم إلى اليدِ على طريقةِ المجازِ المُرسَل[3]، بذكرِ الجزءِ الخاصّ الذي يكونُ به أَكثرُ الاكتسابِ بالأفعالِ وإرادةِ كلِّ ما يقعُ بِهِ الاكتسابُ من قولٍ أو فعلٍ أو اعتقادٍ؛ لأنَّ الأفعالَ هي الظَّاهرُ من آثارِهم، والأقوالُ والاعتقاداتُ منتهى حالِها إلى الأفعالِ، وتضمَّن الكلامُ إيجازًا بحذفِ الضَّميرِ في (قدَّمت)، العائدِ إلى الاسمِ الموصولِ (ما)؛ ليفيدَ أنّ الذي تُقَدِّمُه أيديهم من السّيّئاتِ والخَطايا صارَ سجيَّةً لهم، ويحتمل أنْ يكونَ الحذفُ لإفادةِ العموم، والمعنى: بسبب كلِّ ما قدَّمَتْه أيديهم؛ فانظرْ كيف عبّر القرآنُ عن كثيرِ المعاني بقليلِ اللّفظِ مع استيفاءِ المعنى وتمامِه.

بلاغةُ الفاصِلةِ القرآنيَّة:

لمّا ذكر اللّه كذبَ اليهود فيما يدّعونَه من الإيمانِ، وأقامَ الحُجَّةَ عليهم، ناسبَ أنْ يَختِمَ الكلامَ ببيانِ علمِه بما قَدَّمتْه أَيديهم من الظُّلم في أقوالِهم وأفعالِهم فقال تعالى:

---

(1) الزجاج، معاني القرآن: 1/177.

(2) ابن القيم، التفسير القيم، ص: 140.

(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/339.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فناسبَت جملةُ التَّذييل سياقَ الآيةِ، والواوُ استئنافيَّةٌ، كما استعملت الجملةُ الخبريَّةُ في التَّهديد[1]، وذلك بمجازاتِهم على ظلمِهم؛ فهو عليمٌ بمجازاتِهم على ظُلمِهم يوم القيامة[2]، كما أنَّ جملةَ التَّذييلِ تُعدُّ كالمَثَلِ في الكلام، كما تقدَّمَ غيرَ مرَّةٍ؛ لعموم معناها واتِّساعِه.

تَنَوُّعُ المَقاصِدِ البَلاغيَّةِ في جُملةِ التَّذييل دليلٌ على ثرائها المعنويّ واتِّساقِها الدّلاليّ

سرُّ التَّعبيرِ بجملةِ: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ﴾:

الفِعْلُ وَجَدَ مِنَ الْوِجْدَانِ الْقَلْبِيِّ الْمُتَعَدِّي إِلَى مَفْعُولَيْنِ[3]، وهو مختصٌّ بما يقعُ بعدَ التّجربة[4]؛ أي: إذا تتبَّعْتَ أمورَهم، وخبرتَ أحوالَهم الظَّاهرةَ والباطنةَ، سَتَجِدُهُم على صفةٍ لازمةٍ لهم، وستكونُ هذه الصِّفةُ علامةً لهم يُعرَفون بها، وهي كونُهم أشدَّ الطَّائفتين حِرصًا على حَياةٍ؛ فهي دعوةٌ قرآنيَّةٌ إلى معرفةِ النَّاس والإحاطةِ بأحوالِهم وصفاتِهم؛ كيلا يقعَ المسلمُ ضحيَّةَ الانخداعِ بما يُقال من أكاذيب في الأسمار.

دعوةُ القرآنِ إلى خُبْرِ النَّاس ومعرفةِ أحوالِهم عن قُرْبٍ، وعدمِ الاكتفاءِ بظاهرِ الحالِ

بديعُ المُناسبةِ والانتقالِ:

لـمّا بيَّنتِ الآيةُ السَّابقةُ حالَ اليهودِ في عدمِ تمنّي الموتِ، ناسبَ بيانَ حالِهم في حرصهم على الحياةِ، وهذا من تتميم المعنى وتكميله، فهو انتقالٌ من جزءِ الغرضِ إلى مُتمِّمه؛ إذْ عدمُ تمنّي الموتِ لا يلزمُ منه أن يكونوا أحرصَ النَّاسِ على حياةٍ، وهذا في غايةِ تقبيحِ حالِهم، بأن يجعلَهم أحرصَ النّاسِ على الإطلاقِ.

تتميمُ المعنى وتكميلُه بغرضِ تقبيحِ الحال

نُكتةُ اقترانِ اسْمِ التَّفضيل بحرفِ الاستعلاءِ:

وردَ اسمُ التّفضيل ﴿أَحۡرَصَ﴾ للدّلالة على استغراقِ حرصِهم لِمَا أُضيفَ له، فجاءَ مُضافًا إلى النَّاس، والمعنى: لتجِدنَّهم أحرصَ كلِّ

استعلاءُ اليهودِ على أعلى مراتبِ الحِرصِ بين النَّاسِ

(1) الواحدي، الوسيط: 1/177.
(2) الزجاج، معاني القرآن: 1/177.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/617.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/132.

النَّاس على حياةٍ، وَالمُرَادُ مِنَ النَّاسِ في الظَّاهِرِ جَمِيعُ النَّاسِ؛ أَيْ: جَمِيعُ البَشَرِ فَهُمْ أَحْرَصُهُمْ عَلَى الْحَيَاةِ؛ فَإِنَّ الْحِرْصَ على الْحَيَاة غَرِيْزَةٌ في النَّاسِ إِلَّا أَنَّ النَّاسَ فِيهِ مُتَفَاوِتُونَ قُوَّةً وَكَيْفِيَّةً وَأَسْبَابًا[1]؛ فهم أحرَصُ النَّاسِ جميعًا، فعلى فَرْضِ أنَّ للنَّاسِ منازلَ معهودةً فهم في أعلاها، وهذا سرُّ ذكر حرفِ الاستعلاء؛ فلم يقُل: في الحياةِ؛ أي: هم مُستعلونَ في حِرصِهم، دونَ حياءٍ أو خجلٍ.

بلاغةُ عطفِ المشركين على النَّاسِ:

المبالغةُ في ذمِّ اليهودِ، والتَّرقي في ذمِّهم، وعطفُ الخاصِّ على العام

عطفتِ الآيةُ قولَه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ﴾ على (النَّاسِ)، وجاءَ بـ (مِنْ) التفضيليَّة، ولم يقلْ: (أحرصَ النَّاسِ والمشركينَ على حياةٍ)؛ ولمّا كانوا مختلفين عن المشركين في الوصف، فهم أهل كتابٍ، فالأصلُ فيهم الإيمانُ بالغيبِ وعدمُ الحرصِ على الحياةِ؛ فأفادَ اسمُ التّفضيل:

1- المبالغةَ في ذمِّ اليهودِ في حِرْصِهم على الحياةِ.

2- التَّرقيَ في ذمّهم بمجيءِ المعطوف ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ﴾ بعد النَّاسِ.

3- عَطْفَ الخاصِّ على العامِّ لنكتةٍ في الخاصِّ، وهو بيانُ شدّةِ حرصِهم مقارنةً بأشدِّ النَّاس حرصًا على الحياةِ، وهم المشركون، فهو حرصٌ من ورائه حرص.

نكتةُ التَّنكيرِ في مفردةِ ﴿حَيَوٰةٖ﴾:

التَّنويعُ بقصدِ جمعِ التَّقليل والتَّعظيم

نُكِّرَتِ الحياة في الآيةِ قَصْدًا لِلتَّنْوِيعِ؛ أَيْ: كَيْفَمَا كَانَتْ تِلْكَ الْحَيَاةُ[2]؛ لأنّ المرادَ أيُّ حياة كانت عزيزةً أو ذليلةً، فالمطلوبُ أنْ يكون لهم حياة متطاولة[3]؛ فتضمَّن التَّنكيرُ معنى التقليل؛ فهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/617.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/617.

(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/178، والزمخشري، الكشاف: 1/168، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/377.

أحرصُ النَّاس على أيِّ حياة، ولو كانت حقيرةً، فهي خيرٌ من الموت لما يتوقّعون من سخط الله يوم القيامة، كما تضمَّن التنكير معنى التعظيم، من وجهٍ آخرَ؛ لأنّهم كانوا أحرصَ النَّاس على الحياة المتطاولة، وهذا من بديع لطائفِ بلاغةِ القرآن، بأنْ يجتمعَ معنى التَّقليل ومعنى التَّعظيم في كلمةٍ واحدةٍ.

فائدة التعبير بـ ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾:

الكشفُ عن مكنوناتِ ما تحويه النُّفوسُ من التَّمسُّكِ الشّديدِ بالحياةِ

أفاد التّعبير بصيغة المضارع (يودّ) تجدّد حدوث هذا الودّ، وبدلًا من أن يقول: يتمنّى أحدهم لو يعمّر ألف سنة ليكون مقابلًا لنفي تمنّيهم الموت كما يبدو ظاهرًا، قال: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ﴾؛ ليدلَّ (يودّ) على حبّ كلّ واحدٍ منهم وشغفه بأن يُعمّر في الحياة الدّنيا، ولأَنَّ التّعمير ألف سنة بالنّسبةِ لطبيعة تفكير اليهوديِّ ليس مستحيلًا، فهو أمرٌ مستقرٌّ بوجدانه؛ استعمل مع التَّعمير الفعل (يودّ)، ولمّا كان تمنّيهم الموتَ غيرَ ممكن استعمل معه فعل التّمنّي، ولكي يفيدَ أَنّهم لنْ يصلوا إلى التّعمير ألف سنة اقترن (يودّ أحدهم) بـ(لو)، فتولّد معنى التّمنّي مجازًا[1]، لِمَا تفيده (لو) من تقدير غير الواقع واقعًا، فأفاد هذا التّركيب حبّهم الشّديد المشوب بالتّمنّي لما لا مطمع لهم في وقوعه في المستقبل.

سرّ التّعبير بقوله: ﴿أَحَدُهُمْ﴾:

دلالة الاستغراقِ الحقيقيِّ لكلِّ فردٍ دون استثناء

ليس المرادُ بـ﴿أَحَدُهُمْ﴾ قولَ واحدٍ مُعيَّنٍ منهم، بل هو عامّ على البدليّة؛ أي: يستغرقُ كلَّ أحدٍ منهم واحدًا واحدًا منهم على البدل[2]، فهو تمثيلٌ لصورةِ كلِّ واحد منهم بمفردِه؛ أي: ليس هذا الحالُ خاصًّا بواحدٍ دون الآخر، بل هو أمرٌ عامٌّ يستغرقُ الجميعَ دون استثناء.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 304، والشهاب الخفاجي، كفاية القاضي: 2/209.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/504.

دلالة الفعلِ المُضارِعِ ﴿يُعَمَّرُ﴾:

دلَّتْ صيغةُ الفعلِ المضارِعِ على أنَّ ودادَ التَّعميرِ متجدِّدٌ بتجدُّدِ الحياةِ، فهم يودُّون باستمرارٍ أن يُعمَّروا باستمرارٍ، فهم لا يطلبون عُمرًا واحدًا؛ بل يطلبون العمرَ تلو العمرِ إلى انقضاءِ الحياةِ كلِّها.

دلالة ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ على التَّكثيرِ:

كنايةٌ عن الحياةِ كلِّها وليست كنايةً عن خصوصِ العددِ

لم يُقصَدْ بـ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ خصوصُ العددِ بعينِه؛ بل جرى ذكرُ هذا العددِ على معنى التَّكثير، وهو أسلوبٌ معروفٌ في الكلامِ العربيِّ، والمعنى: يودّون البقاءَ أطولَ مدّةٍ مُمْكنةٍ في الدُّنيا خوفًا من الموتِ أو ممّا بعده، فيكون (ألفَ سنةٍ) كنايةً عن الزَّمان الطّويلِ بينَ أبناء جنسه[1].

مناسبة كلمة ﴿سَنَةٍ﴾ للسِّياق:

بيانُ اختيارِ الزَّمنِ الذَّليلِ على الموتِ خوفًا ممَّا بعدَه من الشَّقاءِ

اختارَ النَّظمُ الكريم كلمةَ سنة دون كلمة عام أو حِجّة؛ لأنَّ السَّنة تُستعمل غالبًا للحولِ الذي فيه جدْبٌ وضيقُ عيشٍ وكدٌّ وتعبٌ، بخلافِ العام فهو يُستعملُ غالبًا للحول المخصِب الذي فيه خير؛ فناسبَ السِّياقَ ذكرُ كلمةِ سنة؛ فإنّه لما كان المرادُ ذمَّهم بسببِ حرصِهم الشَّديد على بقائهم في الدُّنيا على أيِّ حالةٍ ذليلةٍ أو عزيزةٍ، ناسبَ ذكرُ السَّنةِ لبيانِ أنَّهم يودُّون الحياةَ ولو كانت متناهيةً في الذُّلِّ على أسوأ الأحوال من ضيق العيش والقحط والتعب فهي - كما يَظُنُّونَ- خيرٌ لهم ممَّا بعد الموت لتحقُّقِ شقائهم[2].

دلالة الباءِ على استغراقِ النَّفْي:

أفادت الباءُ تأكيدَ النَّفيِ واستغراقَهُ لِأَيِّ نوعٍ من الزَّحزحَةِ من العَذابِ[3]، ففيه وعيدٌ شديدٌ وتهديدٌ رادعٌ.

---

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/609، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/504.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/63.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/325.

مُناسَبَةُ تَكرارِ الصَّوتِ لِدلالة المَعْنى المُعْجَمِيِّ:

ثِقَلُ الصَّوتِ يدلُّ على ثِقَلِ الحَرَكَةِ

تكرار الصّوتين في (زحزح) يدلّ على حركة التَّباعدِ ببُطْءٍ وتثاقُلٍ وجُهدٍ، والتَّكرارُ الصَّوتيُّ الموجودُ في الكلمةِ يوحي بمعنى الثِّقَلِ وبطءِ الحركةِ، فتنسجمُ الدّلالة المعجميَّةُ معَ الإيحاءِ الصَّوتيِّ؛ لِتمثِّلَ هذهِ المفردةُ بإيقاعِها الصَّوتيِّ حركةً مكرَّرَةً فيها ثِقَلٌ وتباطؤٌ وجهدٌ، وكأنّ أحدَهم يودُّ ببقائِه في الدُّنيا أنْ يتزحزحَ، ولو قليلًا من مكان العذابِ، فجاء الردّ الإلهي الحاسم بالنَّفي المؤكّد بـ(الباء) في أنَّ تعميره في الدّنيا لا يؤثِّر في إزالة العذابِ أقلَّ تأثير، وإذا انتفى الأقلُّ انتفى الأكثرُ، ولو قال اللّه تعالى: (وما هو بِمُبْعِدِهِ) أو (وما هو بِمُنْجيهِ) لم يدلَّ على قِلَّةِ التّأثيرِ كدلالة هذا القولِ[1].

بديعُ التَّصدير:

مُناسبةُ ختمِ الآيةِ لِصَدرِها

من بديع اختتام الكلامِ أن يناسِبَ آخرُه أوّلَه في المعنى[2]، ولـمّا جاءت الآيةُ مُصدّرة بقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ﴾ على معنى لَتُلْفِيَنَّهُمْ بعدَ خِبرةٍ بأحوالِهم، ومعرفةٍ بدقائق أمورهم؛ دلّ هذا على نفي علم أحدٍ من النّاس بما يخفونَه من أعمالِهم وأحوالِهم، فناسبَ مجيءَ قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾؛ فتشابهَ طرفا الآيةِ صدرُها مع فاصلتِها، وفائدةُ النُّكتة البلاغيَّة بيانُ أنّ ما خَفِيَ على رسولِ اللّه ﷺ وعلى المؤمنين من أعمالهم فاللّه بصيرٌ به، وسيجازيهم على فعلِهم.

تضمينُ الخبرِ معنى التَّهديد:

تضمَّنَتِ الجملة الخبريَّة: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ معنى التَّهديدِ والوعيدِ، فهي تحملُ معنى مجازاتهم بالتّعذيب لما فعلوه، كما تقول لمن يعصي: قد رأيتُ ما فعلتَ؛ فيكون تهديدًا له بالعقاب وتوبيخًا لمعصيته[3]، ولـمّا كانت جملةُ التّذييل تتضمّن عمومَ المعنى؛

---

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/610.

(2) الخطيب القزويني، الإيضاح، ص: 507.

(3) الشهاب، عناية القاضي: 2/339، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/619.

لتضَمُّنِها ألفاظَ العمومِ ومعانيه، مثل (ما) الموصولة في الآية، فالتَّهديدُ والتّخويفُ لا يخصُّهم؛ بل يعُمُّ كلَّ مَنْ يَجترحُ السّيّئات، لكنَّهم يدخلون دخولًا أوّليًّا بسياقِ الكلامِ وسباقِه.

توجيه المتشابه اللَّفظيّ:

لكلِّ سياقٍ نظمُهُ، ولكلِّ كلامٍ اعتبارُه المُناسِبُ لَهُ

جاء نظمُ هذه الآية بقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ﴾، بخلافِ نظم آيةِ الجمعة بقوله: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ﴾، مع اتِّحادِ الخَبرِ مِنْ جِهتين:

المُناسبة في قوّة الدّعوى: ففي هذهِ السّورةِ ادّعَوا دَعوى بَالِغَةً قاطِعةً هي نهايةُ مطلبِ المؤمن، وغايةُ سَعيه، فقد عُلّقت صحَّةُ الشَّرطِ، وهو كونُ الدَّارِ الآخرةِ لَهم عند اللّه سالمةً خاصةً، بتمنِّي الموتِ، فوجبَ أنْ يكونَ بطلانُ تمنّي الموتِ المقتضي بطلانَ كونِ الدَّارِ الآخرةِ لهم أقوى ما يستعملُ في بابِه، فَبَالغ في الرَّد عَلَيۡهِم بـ(لن) التي تفيد تأكيد النَّفي، وهي أبلغُ أَلۡفَاظ النَّفۡي، وفي سورةِ الجمعة ادَّعوا أَنَّهم أَوۡلِيَاءُ اللّه، وليس هو المطلبَ الذي لا مطلوبَ وراءَه، فهي دعوةٌ قَاصِرَةٌ؛ لأَنَّهم وإنْ كانوا أولياءَ اللّهِ حسبَ زعمِهم سيطلبونَ بعدَ ذلك الدّارَ الآخرةَ، فاقتصر على (لَا) التي هي لنفي الحال والاستقبال من غير تأكيد. (1)

المُناسبةِ في الزَّمنِ: لـمَّا كان الواردُ في سورة البقرة جوابًا لشرطٍ فيما يستقبل، وهو قوله: ﴿إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ﴾، فالدّارُ الآخرة حُكمٌ أخرويٌّ يكون في المستقبل؛ جاء جوابُه بـ(لنْ) التي تخصُّ الاستقبال، فإنّ (لنْ يفعلَ) نفيُ (سيفعلُ)، ولـمَّا كان الشَّرطُ في سُورة الجمعةِ يتعلَّق بالحياةِ الدّنيا، وهي حكم دنيويٌّ، ووصفٌ حاليٌّ لا استقبالَ فيه، وهو قوله: ﴿إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ﴾، فزعمُهم أنَّهم أولياءُ اللّه هو في الدُّنيا، فناسبَه الجوابُ بـ(لا)، التي تدخلُ على الحال[2].

(1) الإسكافي، درة التنزيل، ص: 267، وابن جماعة، كشف المعاني: 1/103.

(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 1/47، والكرماني، البرهان في متشابه القرآن: 1/91.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

سَنة وعام:

للعلماء في الفرق بين سنة وعام قولان:

الأول: أنّهما بمعنى واحد، ولا فرق بينهما.

الثاني: أن استعمال القرآن للفظ السّنة يكون في الشقاء والجدب والشّدّة، بينما العام يكون في الرّخاء والخصب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ [الأعراف: 130]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: 49][1].

---

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 171، والسمين، عمدة الحفاظ: (سنه).

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧﴾ [البقرة: 97]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ بيانِ كذبِ بني إسرائيل بالدَّليلِ البيِّن، وإقامةِ الحجَّةِ عليهم بأنَّهم أخسُّ النَّاس شأنًا؛ لحرصِهم على أخسِّ حياةٍ، ناسبَ ذكرُ عداوتِهم لجبريل ﷺ؛ ليقعَ التَّهديدُ الضّمنيُّ لهم بسببِ معاداتِهم له، فكيف لأخسّ النَّاسِ أن يُعادي أشرفَ الملائكةِ شأنًا ومكانةً؟ فهي عداوةٌ في حقيقتِها للّه ربِّ العالمين، فجاءَتْ هذه الآية دليلًا آخر لِلرَّدِّ عَلَى قَوْلِهِمْ: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: 91]؛ لِأَنَّهُمْ أَظْهَرُوا بِهِ عُذْرًا عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَهُوَ عُذرٌ كاذِبٌ سَتَرُوا به السَّببَ في الوَاقِعِ، وهُو الْحَسَدُ عَلى نُزُولِ الْقُرْآنِ عَلى رَجُلٍ مِنْ غَيْرِهِمْ، فأبطلَ في هذه الآية عُذرَهم، وأثبتَ الصَّارفَ الحقيقيَّ عن إعراضِهم وهو الحَسَدُ؛ ولهذا عادَوْا جبريلَ ﷺ الذي أنزل الكتاب على موسى ﷺ، والذي نزَّل القرآن على قلب نبيّنا ﷺ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿عَدُوًّا﴾: الْعَيْن والدَّال والحرف المعتلّ تدلّ اشتقاقاتها على تَجَاوُزٍ في الشَّيْءِ وَتَقَدُّمٍ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ، يُقال: عَدَا الفَرَسُ: إذا جَرَى ووثب؛ لأنه يتخطى المسافات والفجوات ويتجاوزها، ومنه التعدّي لأنّه تجاوز ما ينبغي أن يقتصر عليه، وسُمِّيَ العدوُّ عدوًّا لمجاوزته ما حُدَّ له وهو ضدّ الصّديق، والعَدَاوة: المباعدة والخصومة ففيها معنى التّجاوز، والأصل فيها تباعُدُ القلوب والنّيّات، والعَادِي: الَّذِي يَعْدُو عَلَى النَّاسِ ظُلْمًا، وَالعُدْوَانُ: الظُّلْمُ الصُّرَاحُ، وَالِاعْتِدَاءُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعُدْوَانِ، والعدوُّ يستوي لفظه للمذكّر والمؤنّث والواحد والجميع، والعدوّ في الآية بمعنى المُبغِض؛ لِأَنَّ الْمُبْغِضَ يَثِبُ عَلَى الْمَبْغُوضِ لِيَنْتَقِمَ مِنْهُ[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/620.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والهروي، الغريبين، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عَدَوَ)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/620.

2) ﴿لِّـجِبْرِيلَ﴾: اسمُ مَلَكٍ من الملائِكةِ، وهو رُوحُ القُدُسِ وأَمينُ الوحي بينَ اللّهِ ورسلِه، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَ بِالْقُرْآنِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَجبريل اسْمٌ أَعْجَمِيٌّ مَمْنُوعُ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالْعُجْمَةِ، مركّب من جبْر وإيل[1].

3) ﴿مُصَدِّقًا﴾: الصِّدْقُ ضِدُّ الكَذِبِ، وصَدَّق يدلّ على كثرة الصِّدقِ، واسمُ الفاعلِ مُصَدِّق، يقال: مُصَدِّق للشّيء بمعنى محَقِّق له. ومعنى ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مُوافِقًا لما قبلَه من كُتُبِ الأَنبياءِ.

4) ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أَي لِمَا جاءَ قبلَه وتَقدَّمَه، والأَصلُ في هذا التّركيبِ أَنْ يكونَ بمعنى أمامَ، ضِدُّ خَلْفَ، فيقالُ: بينَ يديْهِ وخَلفِه، ثمّ استُعمِلَ مجازًا لِمَا تقدَّم وسبقَ؛ لأَنّ السَّابقَ أمام.

5) ﴿بِإِذْنِ﴾: يُعبّر بالإِذْن عن العِلْم، يقال: قَدْ أَذِنْتُ بِهَذَا الْأَمْرِ؛ أَيْ: عَلِمْتُ، وآذَنَنِي فُلَانٌ أَعْلَمَنِي، والإِذْنُ في الشّيءِ الإعلام بإجازته والرُّخصة فيه؛ لكنْ بيْن العلم والإذْنِ فرقٌ، فإنّ الإذْنَ أخصُّ، ولا يكادُ يستعملُ إلّا فيما فيه مشيئةٌ به، وإذا أُسنِدَ الإذْنُ إلى اللّهِ فقد يراد أمرهُ وإرادتُه أو تيسيرُه، وهي معانٍ مجازيَّة[2].

6) ﴿وَهُدًى﴾: الهَاءُ وَالدَّالُ وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ، تدلُّ في أحد أصليها على الدّلالة بلُطْفٍ، يُقال: هداه؛ إذا دلّه على الطَّريقِ الحقِّ، فالهدى نقيضُ الضَّلالِ، والقرآن هدىً؛ أي: رُشدٌ وبيانٌ؛ لأنّه يرشِدُ النَّاسَ إلى الحقّ، وإلى الحالة التي هي أقوم، وإنَّما سَمَّى اللّه جلَّ ثناؤُه القرآنَ هدًى؛ لاهتداءِ المؤمنِ به [3].

7) ﴿وَبُشْرَىٰ﴾: البَاءُ وَالشِّينُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ تدلُّ على معنى ظُهُورِ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وَجَمَالٍ، فَالبَشَرةُ ظَاهِرُ جِلْدِ الإنسانِ، وَسُمِّيَ البَشَرُ بَشَرًا لِظُهُورِهِمْ، وَالبَشِيرُ الحَسَنُ الْوَجْهِ، وَالبِشَارةُ الخبر السارّ، والأصل في البشارةِ أنْ تكونَ بالخَيْرِ وبما يَسُرُّ، وَالنِّذَارةُ بغَيْرِهِ، وبُشرى في الاستعمال القرآني للبِشارة بالخير[4].

(1) الجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (جبر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (أذن)، والشهاب، عناية القاضي: 2/342.

(3) الهروي، الغريبين، والسمين، عمدة الحفاظ: (هدى)، وابن جرير، جامع البيان: 2/393.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأصبهاني المديني، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر).

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

يأمرُ اللّه ﷻ نبيَّه ﷺ أن يُخاطِبَ اليهودَ من بني إسرائيل الذين زعموا أنَّ جبريل عَدُوُّهم، بأنَّه مَن كان مِن النّاس لجبريل عدوًّا فإنّي له وليٌّ وخليل، فإنْ عاداه أحد فعداوته باطلة؛ لأنه إنّما نزَّل القرآن على قلب محمدٍ ﷺ بإذن اللّه وأمره، ولا سبيلَ إلى مخالفة أمرِ اللّه، وجاء جبريلُ بالقرآن مصدِّقًا لِما سبقه من كتب اللّه، وهاديًا إلى الحق، ومبشرًا للمصدِّقين به بكل خير في الدنيا والآخرة، فجبريل عليه السلام من حيث إنّه مأمورٌ وجب أن يكون محبوبًا، ومن حيث إنّه أتى بالهداية والبشارة يلزم أن يكون مشكورًا؛ لإنزاله ما ينفعهم، فعداوةُ مَن هذا سبيلُه هي عداوةٌ للّه ﷻ [1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نكتةُ اختلافِ النَّظمِ:

بيانُ شُمولِ غضبِ الله لكلِّ مَن عادَى رسولًا مِن رسلِه

اختلفَ نظمُ الآيةِ عن الآيةِ المثيلةِ السَّابقة: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾، فلم يقل: (إن كنتم أعداء لجبريل)، وهم قد صرّحوا بمعاداتهم لجبريل[2] عليه السلام؛ ذلك أنَّ مقامَ معاداةِ جبريلَ عليه السلام يختلفُ عن مقامِ إقامةِ الدَّليلِ على كذبِ اليهودِ؛ فحسُن أن يأتيَ بالغَيبَةِ، وبصيغة العموم (مَن)، وهو شَرْطٌ عَامٌّ مُرَادٌ بِهِ خَاصٌّ وَهُمُ الْيَهُودُ، فقَصدَ الإتْيَانَ بالشُّمُولِ باستعمال لفظ العموم؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ لَا يَعْبَأُ بِهِمْ وَلَا بِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يُعَادِي جِبْرِيلَ إِنْ كَانَ لَهُ مُعَادٍ آخَرُ[3]، ولأَنَّ معاداة جبريل عليه السلام كفر في كلِّ الشّرائع، ولا يختصّ ذمُّه بشريعة معيّنة، فالقضيّة من أصولِ الدِّينِ التي لا تختلفُ بينَ شرائعِ الأنبياءِ والرُّسُلِ.

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

حذفُ جوابِ الشَّرطِ وذكرُ علَّته للجَمْعِ بينَ التَّخويفِ والوَعيدِ

لـمّا كانتْ عداوةُ جبريلَ أمْرًا مَهولًا وعظيمًا عند اللّه حذفَ الجوابَ؛ لِيذهبَ السَّامعُ كلَّ مَذهَبٍ ممكنٍ، فلا يَتصَوَّرُ مَطلوبًا ولا

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/387، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/342.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/387.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/621.

مَكروهًا إلَّا ويُجَوِّزُ أنْ يكونَ الجزاءُ والوعيدُ أعظمَ منهُ؛ تَخويفًا له مِنْ أنْ يفعلَ هذا الفعلَ، بِخلافِ ما لو ذُكر فقيل: فاللّه عدوٌّ له، أو فَلا وجهَ لِعداوتِه، أو نحوُ ذلك، وإلّا لكانَ الجزاءُ مخصوصًا وفاتَ المقصودُ من هولِ شدّة التَّخويف لشدّة أمرِ عداوَةِ جبريلَ عليه السلام عندَ اللّهِ، ولا يَخفى حسنُ العدولِ إلى ذكرِ عِلّةِ جوابِ الشَّرطِ، ولو لم يكنْ فيه شيءٌ سِوى أنّهُ احتَجّ على بُطلانِ عداوتِهم من وجهٍ، وذَكرَ موجباتِ محبّةِ جبريلَ وتقريرَ تنزيلِ القرآنِ وبيانَ أوصافِهِ من وجهٍ آخرَ، فجمعَ بينَ الوجهينِ بكلامٍ واحدٍ؛ لكفَى، فسببُ عداوتِهم جبريلَ هو أنَّه نزَّل عليك القرآنَ مصدِّقًا لكتابِهم وموافقًا له، فَهُم كارهون للقرآن [1].

دلالة حرفِ الفاءِ:

ترتيبُ ما بعدَ الفاء على ما قبلَها لبيان الأولويَّة التي يجب أن يكون عليها العقلاءُ

أفادت الفاءُ أنّ ما بعدها من الكلام، وهو كونُ جبريلَ نزّل القرآنَ على قلبِ رسولِ اللّهِ ﷺ، سببٌ لامتناعِ عداوةِ جبريلَ عليه السلام، وأَفاد الربطُ بالفاء أنَّ الأَولى بمَنْ يكون مُرسلًا من اللّه تعالى ويُنزِّلُ عليك القرآن أنْ يكونَ محبوبًا لا مَكروهًا.

تنزيل المنكِر منزلتَه فاقتضى الكلامُ تأكيدًا:

لـمّا كان اليهودُ منكرين للقرآن ولرسالة رسولِ اللّه ﷺ أتى بـ(إنّ) المؤكّدةِ؛ لتقريرِ هذا التّنزيل، ثم تقويتِه بمجيء الخبر جملةً فعليةً [2]، فتضمّن الكلامُ تأكيدين: (إنّ) و(تقوية الحكم)؛ لكون المسندِ جملةً فعليةً، وأفاد تقريرَ أنّ جبريلَ نزّله على قلبكَ يا محمّدُ، وأنَّ جبريلَ هو الذي نزّله لا غيرُه.

توجيه المتشابِه اللّفظيّ:

مراعاةُ اختيار الصِّيَغ ملحوظٌ بِهِ مراعاةُ معنى السِّياقِ

اختلف التَّعبير في صيغة النُّزولِ بين ما جاء في هذه الآية: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، وبين قولِه في سورة الشّعراء: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/170، والبهاء السبكي، عروس الأفراح: 1/593، والشهاب، عناية القاضي: 2/342.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 217.

﴿١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشّعراء: 193-194]؛ ذلك أنَّ لَفْظَة (نَزَّل) تَدُلُّ عَلَى التَّفريق وتقويةِ الفعلِ بسببِ التَّضعيف من حيث الكمّيّةُ أو الكيفيةُ، والقرآنُ عظيمُ الشَّأن بكثرة تنزيلِه من عندِ اللّه العليِّ الكبير، بخلافِ لَفْظَةِ (أَنْزَلَ) فهي تَدُلُّ عَلَى الجَمْع[1]، فناسب كلّ لفظةٍ موضعَها؛ لأنَّ آيةَ سورةِ البقرة في مقام تثبيتِ قلبِ رسولِ اللّه ﷺ أمامَ أكاذيبِ اليهود وادّعاءاتِهم الباطلةِ، وكذلك في مقام ذكرِ أوصافِ القرآن، فأشار إلى تفريقه وتكثُّرِ نزولِه ليكون أكثر تثبيتًا وتقريرًا في قلب رسول اللّه ﷺ وللدّلالة عَلَى تعظيم شَأْنِ نُزُولِ القُرْآنِ، والمقامُ في سورةِ الشُّعراءِ للنّذارةِ، فقصَدَ جميعَ القرآن؛ لأنَّ النِّذارة بجميعِه أبلغُ.

عُلُوُّ شَأنِ القرآنِ وكَمالُ شُهرتِهِ يجعلان إبهامَه أوضحَ مِن تعيينه

نكتةُ إبهامِ الضمير:

أُبهم الضَّميرُ في قوله: ﴿نَزَّلَهُۥ﴾، والمقصودُ به القرآنُ كما هو ظاهر[2]، ولم يتقدّمْ للقرآنِ ذكرٌ في قريبِ الكلام، فيكون كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: 83]؛ إِذْ لـمَّا كانَ القرآنُ عظيمَ الشَّأنِ فإضْمارُهُ يُغني عن ذكرِه بالاسمِ الظَّاهر، فـ"أَضمرَ من غيرِ ذكرٍ إيذانًا بفخامةِ شأنِه واستغنائِه عن الذِّكرِ لكمالِ شُهرتِه، لا سيَّما عندَ ذكرِ شيءٍ من صفاتِه"[3]، والقرينةُ الدّالّة عليه هي قولُه: ﴿نَزَّلَهُۥ﴾؛ فمِن صفاتِ القرآنِ الكريم أنَّه مُنزَّلٌ من عند اللّه، وكونُ النَّازلِ به هو جبريلُ عليه السلام.

فخامةُ التَّعبيرِ عن الرِّسالةِ والرَّسولِ والوساطةِ بالإضمارِ، وإظهارُ لفظِ الجلالةِ

براعةُ تَوالِي الضَّمائرِ:

وردتْ ثلاثةُ ضَمائرَ متواليةً تَكمنُ فيها مفاهيمُ الإيمانِ، وعُلِّقَ مجيئُها بإذن اللّه؛ فإنَّ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ متعلّقٌ بالفعل ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ مع مقيِّداته من الفاعل والمفعول والجارِّ والمجرور ، فيكون ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

(1) الفخر الرازي، التّفسير الكبير: 24/429، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/147.
(2) ابن جرير، جامع البيان، تح: شاكر: 2/387.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/134، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/1/343.

قيدًا يستغرق الإسنادَ كلّه، وعُبِّر عن لفظِ الجلالةِ بالاسم الظَّاهر؛ لتوريث المَهابةِ، فإنَّ إظهارَ لفظِ الجلالةِ بعد التَّعبيرِ عن الرِّسالةِ والرَّسولِ والوساطةِ بالإضمار؛ له من الرَّوعةِ والمهابةِ في نفسِ المتلقّي ما يُسندُ الأمرَ لصاحبِ الأمرِ على الحقيقة.

ترتيبُ الضَّمائر:

ترتيبُ الضّمائِر في اللّفظ مراعًى فيه ترتيبُها في الوجودِ

المقصودُ بالضَّميرِ الأوَّلِ في قولِه: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ جبريلُ الواسِطةُ الذي جاء بإذنِ اللّهِ وبأمرِه، والمقصودُ بالثَّاني ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ القرآنُ المنزَّلُ، والمقصودُ بالثَّالث ﴿قَلْبِكَ﴾: رسولُ اللّهِ مُحمّدٌ ﷺ، وخُصَّ الضَّميرُ العائدُ إلى رسولِ اللّهِ بضميرِ المُخاطَبَةِ تكريمًا له وتَشريفًا، معَ ما سيأتي من لطيفِ البلاغةِ في بيانِ سببِ إضافةِ القلبِ إلى كافِ الخِطاب، والنِّكاتُ البلاغيَّةُ لا تتقاطَعُ.

دلالة التَّعبيرِ بحرف الاستعلاء:

اســتــعــلاءُ القرآن تشريفٌ لأصــحــابِــه وتكريمٌ لهم

عبّر بـ﴿عَلَىٰ﴾ للإشارةِ إلى استعلاءِ القرآن على القلوب واستيعابه لها؛ لما تتضمّنُه (على) مِن معنى الفَوقيَّةِ والتمكّن، كما يدلّ على أنّ اللّه قد شرّف رسوله وأعلى ذكرَه. وتمكّنُ القرآنِ في قلبِ المؤمنِ تشريفٌ له وتكريمٌ لقلبِه، وللإشارة إلى وجوب الاعتناء به، ولو قال: (إلى قلبك)، لأفاد الانتهاءَ وبلوغَ الغاية من غير استيعابٍ وإحاطة؛ لأنّ (إلى) لا تختصُّ بجهة دونَ جهة، والإحاطةُ بالاستعلاء تُحقِّق معنى انتهاءِ الغاية، ولذلك كان أكثر المواضع التي ذُكر فيها إنزالُ القرآنِ على النبيّ ﷺ عُدّي بـ(على)، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وأكثر ما ذُكر إنزالُه بمعنى تبليغه للنَّاس جاء مُعدًّى بـ(إلى)[1]، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: 2].

(1) الإسكافي، درّة التنزيل، ص: 1107.

إضَافةُ القَلبِ إِلَى كافِ الخِطَابِ لا ياء المُتكلِّم:

بلاغة الالتفاتِ للتَّنبيهِ إلى عِظَمِ شأنِ المخاطَبِ

أُضيفَ القلبُ إلى كافِ الخطابِ بدلًا من يَاءِ الْمُتَكَلِّم كما يقتضيه ظاهرُ الكلام، بأنْ يقولَ: (نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِي)؛ ليكون واردًا عَلَى طَرِيقِ الالْتِفَاتِ عَنِ التَّكَلُّمِ إِلَى الْخِطَابِ[1]؛ للتَّنبيهِ إلى عِظَم شأنِ المخاطَبِ، وعِظَمِ موضع التّنزيل، وهو قلبُ رسولِ اللّهِ ﷺ، وجَعل تنزيلَه على القلبِ زيادةً في تقريرِ التّنزيل ببيانِ محلِّ الوحي[2].

مناسبةُ التَّرتيب اللفظيّ للأحوال:

مقدّماتُ التَّأييدِ فمضمونُ الهدايةِ فالنَّتيجةُ

لـمّا كانت مَدْلُولَاتُ الأحوال من الضّمير ﴿نَزَّلَهُۥ﴾، وهي ﴿مُصَدِّقًا﴾ ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾، تَرَتَّبَتْ تَرْتِيبًا وُجُودِيًّا؛ ناسب ترتيبُ هذه الأحوالِ على هَذا التَّرْتِيبِ اللَّفْظِيِّ، فَالْأَوَّلُ: كَوْنُهُ مُصَدِّقًا لِلْكُتُبِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْكُتُبَ كُلَّهَا مِنْ يَنْبُوعٍ وَاحِدٍ، وَالثَّانِي: أَنَّ الْهِدَايَةَ حَصَلَتْ بِهِ بَعْدَ نُزُولِهِ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ مِنَ التَّصْدِيقِ، وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ بُشْرى لِمَنْ حَصَلَتْ لَهُ بِهِ الْهِدَايَةُ[3]، ولم يقيّد البُشرى بزمان معيّن، فلم يقل وبُشرى للمؤمنين في الدنيا أو في الآخرة؛ ليدلَّ الإطلاق على عُموم البُشرى زمانًا ومكانًا.

توجيه المتشابه اللَّفظي:

أثرُ السِّياقِ في بيانِ العمومِ والخُصوصِ

لم يُخصِّص الحالَ في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ بل أتى به عامّا، وقد خصّصه في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: 91]؛ لاختلاف سياقِ الآيتين، فهذه الآيةُ جاءَت لتفخيم شأنِ القرآنِ وتعظيمه، وبيانِ الموقفِ ممَّن يُعادي جبريلَ عليه السلام الذي نزلَ بجميع الكتبِ؛ فاقتضى إطلاقَ الوصفِ، فالقرآنُ مصدّقٌ لكلِّ الكتب السَّابقة، وأمَّا قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ فسياقُها في مخاطبةِ اليهودِ، وإلزامِهم الحجَّةَ؛ فاقتضى ذِكر أنَّه مصدّقٌ لِمَا معهم من التَّوراةِ.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 1/325.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/134.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/514.

توجيه المخصوصِ بالذِّكر:

خُصَّ هذان الوصفانِ ﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ﴾ بالذِّكر؛ لإشعارِ اليهود وغيرِهم بأَنَّ مَنْ أراد السَّير على أقوم طريق وأوضحِه وأرشدِه، ويكونُ له فيه بُشرى فعليه بالقرآن، وإذا كنتم أيّها اليهود تخافون العذابَ فعليكم بالقرآن فهو هُدى وبُشرى للمؤمنين؛ وهذان وصفان جامعان، فالهُدى طريقُ الحقِّ الموصِلُ، والبُشرى نتيجة طريقِ الإيمانِ، فاجتمع في الوصفين الطَّريق وثمرتُه، وهذا غايةُ ما يرجوه العبدُ.

اجتمعَ في الوصفين الطَّريقُ وثمرتُه، وهذا غايةُ ما يرجوه العبدُ

سرُّ العدولِ في الصِّيَغ:

ممَّا يقتضيه الظَّاهرُ أنْ يأتيَ الحالانِ بصيغةِ اسم الفاعل (هاديًا مبشّرًا) مثلَ ﴿مُصَدِّقٗا﴾؛ لكنَّه عدَلَ عن هذا إلى المصدر مبالغةً في تعظيمِ القرآن وتفخيم شأنِه، ليُناسِبَ تفخيمَه بمجيءِ الضَّمير من غير عودٍ على مذكورٍ في قوله: (نزّلَه)؛ فإنَّه لمَّا حَصَلَ بِهِ عميمُ الهُدَى وَالبُشْرَى للمؤمنين جُعِلَ نَفْسَ الهُدَى وَالبُشْرَى[1].

المبالغةُ في وصفِ القرآنِ بالهداية والبُشرى

نكتةُ تقديمِ الهدى على البشرى:

لمّا كان الهُدى يُرشِد إلى الطّريق، ولمّا كان القرآنُ فيه بيانُ ما وقعَ التّكليفُ به من أعمالِ القلوبِ وأفعالِ الجوارحِ، ولمّا كان المؤمنون هم المنتفعين بهَدْيِ القرآنِ وطريقِه؛ فهو من هذا الوجه هُدًى للمؤمنين، ثمَّ جاء بيانُ أنَّ الآتي بتلك الأعمال كيف يكون ثوابُه، فهو من هذا الوجه بُشرى، والهُدى مُقدَّم على البُشرى في الوجودِ فقُدِّمَ في الذكر أيضًا[2].

الهُدى هو المقدَّمُ لأنَّه الطَّريقُ الموصِلُ، والبُشرى نتيجتُه

توجيه المخصوصِ بالذِّكر:

أفادت لامُ الجرِّ تخصيصَ الهدايةِ والبُشرى بالمؤمنين؛ لكونِهم هم المنتفعينَ به، وإلّا فالقرآنُ في نفسِه هادٍ لكلِّ النَّاسِ كما قال

لَحْظُ وجهِ الانتفاعِ بالقرآنِ، وحثُّ غيرِ المُهتدين إلى الانتفاعِ به

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/514.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/343.

تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؛ فهدايةُ القرآنِ وبِشارتُه عامَّةٌ في جميعِ النَّاسِ، لكنْ لـمَّا كان المؤمنون هم المنتفعين به ذُكروا، ولم يُذكر غيرُهم من قبيلِ الحثِّ والتَّحريضِ؛ فإنَّ من شأنِ القلوبِ التي تطلب المعالي أن تبحثَ عمَّا يجعلُها في مصافِّ المصطفَين.

فائدةُ تَعدادِ أوصافِ القرآن:

كثرةُ أوصافِ القرآنِ تقتضي عظمتَه ومكانتَه

أثنتِ الآيةُ على القرآنِ الكريم بذكرِ أوصافِه البالغةِ، فوصَفه بأنّه مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِإِذنِ اللّه، وَبِأَنَّهُ مُنَزَّلٌ عَلَى قَلْبِ الرَّسُولِ المخصوص بالتّشريف والتّكريم، وَأَنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا سَبَقَهُ مِنَ الْكُتُبِ، وَأَنَّهُ هَادٍ أَبْلَغَ هُدًى، وَأَنَّهُ بُشْرَى[1]، كما تضمّن الكلامُ وصفَ القرآن بعِظَمِ الشَّأنِ، كما سيأتي منْ دلالة صيغةِ التَّضعيفِ في ﴿نَزَّلَهُۥ﴾.

توجيه المخصوصِ بالذِّكر:

الإيمانُ حكمٌ قرآنيٌّ يُنتَسَبُ إليه بشرطِ القرآنِ لا بادِّعاءِ الكاذبين

خصَّتِ الآيةُ الهدايةَ والبشرى بالمؤمنين، ومَن لم يكن مهتديًا لم يكن مؤمنًا، وبه تُنزعُ صفةُ الإيمانِ عن كلِّ مَن لا يُؤمنُ باللّه ورسولِه والقرآنِ؛ فاليهودُ وكلُّ من على شاكلتِهم ممَّن يزعم الإيمانَ ليسوا بمؤمنين؛ فلمّا لم ينتفعوا بالقرآن ولم يُسَرّوا به دلّ على بُطلان إيمانِهم وكذبهم في دعواهم، فخُصّ الهُدى والبُشرى بالمؤمنين، وتعليقُ الحُكم على الوصف يدلّ على عِلِّيَّة المأخَذ، فالمؤمنُ هو الذي ينتفع بالقرآن ويهتدي به فيكونُ مبشّرًا له بالـمَسرّات، فاختِير كلمةُ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ للردّ على ما ادّعَوه من انتسابِهم للإيمانِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/623.

المحتويات

